سنوات الجحيم

أوراق مراسل صحفي بالعراق

- أبو خالد الرجل الذي تسلم جثة صدام حسين
- أبو درع القائد المرعب في جيش المهدي
- قصص أرض النار .. دولة العراق الإسلامية
- أول زيارة إلى معسكر منظمة مجاهدي خلق

محمود الشناوي



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : سنوات الجحيم..

أوراق مراسل صحفي بالعراق

المؤلف : محمود الشناوي

رقم الإيداع بدار الكتب :٢٠١١/٢٧٨٦

الطبعة الأولى ٢٠١٠



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الجزء الأول

حافة المذبحة

إهــداء

إلى زوجتي الحبيبة..

جبهة داخلية لمحارب .. لا يمكن

أن يعود إليها إلا منتصراً .

المؤلف

جازف

فإن سُدت جميع طرائق الدنيا أمامك فاقتحمها

لا تقف

كى لا تموت

وأنت واقف

محمد إبراهيم أبو سنه

مقدمة

من لحظات الموت العادية .. من الحصار .. والأسئلة التي ما زالت بانتظار الإجابة .. من الدهشة الدائمة .. وصراع الدول والطوائف .. وحتى الوشايات النذلة .. عدت .. لا لكي أقيم الدنيا ولا أقعدها احتفاء بأنني خرجت من المذبحة على قدمي .. لكن لأنقل أصوات الصراخ من داخل العراق التي لا يسمعها أحد .. أصوات كرهت الطائفية .. ولعنت المسلحين وشوارعهم .. ولعنت كذلك تجّار البشر .. أصوات تمنت لو عادت القبضة الحديدية ، وحلت مكان القبضة الناعمة المليئة بالفحيح .. أصوات عَدّت الأيام والشهور والسنوات لكي يصل صراخهم إليك عزيزي القارئ .. ولكي تشاركني في طرح ذلك السؤال المخيف :

هل ذهبت عاصمة الرشيد أثراً بعد عين .. أم أنها ستعود بعد أن تغرق أقدام المغول الجدد في نهري دجلة والفرات ؟

المؤلف

سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الأول

الطريق
إلى المذبحة



١ - الدخول

لاشيء يغرى على العمل فى بلد مثل العراق لأى شخص ما عدا الباحث عن الحقيقة والمسحور بحب المخاطر من الصحفيين خاصة اذا كانت هناك فرص للعمل فى أكثر من ٣٠ دولة تضم مكاتب وكالة أنباء الشرق الاوسط فى أربع من قارات الدنيا ولأننى لم أكمل مهمتى الأولى بالعراق قهرا لظروف وملابسات شائكة سيأتى ذكرها فى كتاب منفصل الا أن تلك المهمة غير المكتملة خلقت بينى وبين العراق بكل محافظاته علاقة حب مشتعلة للبلاد والعباد وما يغلف ذلك من أحداث ووقائع عصية على الفهم والاقتناع بحدوثها .. فالعراق بلد مؤهل بمكوناته وتاريخه وحاضره لأن يحمل صفات حملتها بلاد أخرى واصبحت لصيقة باسمها فهو بلد المتناقضات، والغرائب، والعجائب والجن والملائكة وبلد العقل والجنون وبلد العزلة، والشتات وبلد الحب، والنار رغم صفاته التى صارت لصيقة لاسمه مثل بلاد الرافدين وما بين النهرين وأرض السواد .. ولأننى مولع بكل ذلك رحبت كثيرا بترشيحى لمهمة مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط بالعراق بعد سلسلة ترشيحات لزملاء أفاضل انتهت بالاعتذار عن المهمة المميتة فى بلد لا يملك المتابع لأخباره الا الابتعاد والائتمام بالسكون انتظارا لفرصة سفر أخرى وكنت أكثر المتابعين عن قرب لأخبار البلد المنكوب من خلال أصدقائى الذين حطوا برحالهم فى القاهرة كبلد الملاذ الآمن مثل ملايين غيرهم فروا تحت وطأة موجة العنف الطائفى التى أحرقت الأخضر واليابس وازدادت اشتعالا بعد حادث تفجير القبة الذهبية لأحد أكثر المراقد الشيعية تقديسا فى مدينة سامراء ذات الغالبية السنية فى ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ .

لم يبدو أمر قبولى للمهمة الخطرة غريبا على كل من يعرفنى، ومضت الأمور بين ترحيب وترهيب ومخاوف وقلق انتهت بحجز تذكرة الطائرة التى أقلتنى إلى العاصمة الأردنية عمان توطئة لإكمال الطيران إلى عاصمة الرشيد المشتعلة وكان ذلك يوم الخامس عشر من يوليو عام ٢٠٠٦ .. وعندما كنت أنهى إجراءات الترانزيت فى صالة مطار الملكة علياء طلب منى شاب أردنى ضمن طاقم العمل التوقيع على إقرار كرّس مخاوفى المؤجلة من القادم الذى يمكن أن يكون أسوأ مما توقعت وينص هذا الإقرار وهو بمثابة تعهد على أننى أتحمل نفقة العودة من بغداد إلى عمان اذا رفضت السلطات هناك دخولى إلى الأراضى العراقية وهو ما أثار

دهشتى وسألت الشاب الأردنى المهذب عن سبب هذا الإقرار الملزم وهــل يمكــن أن ترفض السلطات العراقية دخولى مع أننى أحمل تأشيرة دخول رسمية وموفد مــن مؤسسة صحفية عريقة وشبه رسمية ورد الشاب المهذب بكل ثقة « أســتاذ .. فــى العراق الآن كل شيء جائز» وأبلغنى أن معلوماته هى أن الدخول إلى العراق فــى مثل هذه الأيام محظور وربما ممنوع وأنه يتطلب موافقات أمنية من وزارة الداخلية وليس مجرد تأشيرة دخول من السفارة العراقية بالقاهرة .. وقعت صاغرا مندهشا على الإقرار وأنهيت إجراءاتى وتوجهت إلى فندق عالية الذى كان مقررا أن أبيت به الليلة لمواصلة السفر إلى بغداد صباح اليوم التالى.

وفى الطريق إلى الفندق الذى لا يستغرق عدة دقائق تداعت أمــام عينــى كــل عناوين الصحف التى تابعتها وترددت كل القصص التى قصها أصدقائى العراقيون على مسامعى قبل أيام من مغادرة القاهرة؛ لترسم صورة قاتمة للوضع فى عاصــمة الرشيد التى كنت على موعد للعيش فيها لمهمة استمرت أربعة أعوام كان الهاجس الأول فيها هو معرفة الحقيقة مع الاستمرار فى البقاء على قيد الحياة .

عندما دخلت إلى بهو الفندق هائما فيما كنت أفكر فيه، تتقافز أمام عينــى صــور مرعبة لواقع أكثر رعبا وجدت صديقى وزميلى مراسل الوكالــة فــى الأردن فاتحــا ذراعيه بأشواق حارة للقاء صديق ذاهب إلى ساحة موت محقق ومذبحة تطحن رحاهــا كل من عاش بالعراق خلال تلك الفترة إما رعبا أو قتلا وهو ما جعل حبل الأفكــار السوداء يرتخى قليلا فى مواجهة لحظات مودة صادقة من صحفى مصرى شهم تجشم عناء الوصول إلى فندق عالية بجوار المطار حرصا منه على أن يكون بمثابــة الــذكرى الطيبة الأخيرة التى احتفظت بها قبل الدخول إلى المذبحة .

وبعد لقاء ودى استعدنا فيه ذكريات عزيزة على قلبينا حاول خلاله صــديقى الطيب أن يبتعد بى عن التفكير فى سهمتى المميتة ولو لبعض الوقت .. غــادرنى أيمن داعيا لى بالتوفيق مع التأكيد على التواصل كلما أمكن للاطمئنان وذهبت إلى غرفتى بالفندق الراقى لأقضى ليلة أعتقد أنها كانت الأطــول فــى حيــاتى السابقة على تكليفى بالسفر إلى العراق اتصلت خلالها بزوجتى الحبيبة أكثر من ١٠ مرات لتهدئة مخاوفها وتخفيف لوعة الفراق الذى يمكن ألا ينتهى أبدا .

زاد من مخاوفى وقلقى تلك الحشود التى ملأت غرف وردهات فندق عالية من اللبنانيين الذين فروا من ساحة مواجهات دامية بعد أن بدأت القوات الإســرائيلية حربها ضد حزب الله فيما عرف بحرب تموز .. كان المئات مــن اللبنــانيين قــد

اصطحبوا عائلاتهم إلى العاصمة الأردنية عمان كمحطة ترانزيت للسفر إلى جهات أخرى .. كانت ملامح من رأيتهم تنطق بالقلق والرعب والإحساس بالمهانة والحزن وهو ما انعكس على شعورى بالقلق من رحلتى الخطرة لمهمة أشد خطورة من الحرب المباشرة التى يمكنك أن تعرف فيها من يضرب ومن الذى يتلقى الضربات وهو خلاف العراق الذى كنت أتهيأ للعيش به فلا أحد يعرف « من يضرب من» أو « متى تأتيك الضربة » أو« من سيوجهها لك » .. كان كل شيء يثير القلق ويرسم أجواء من عدم اليقين .. إلا أن المهمة المقدسة التى تنتظرنى جعلتنى أقضى الليلة لأتهيأ لها مع قليل من الطقوس التى اعتدت عليها وقت الشدة المصحوبة بالقلق .. حمام منعش .. الاستماع إلى الموسيقى .. صوت فيروز .. نجاة الصغيرة.. قراءة قليل من الشعر .. ثم أنهى تلك الطقوس بالاستماع إلى صوت الشيخ عبد الباسط الذى أحتفظ بالعديد من شرائط الكاسيت بصوته ومنها تسجيلات نادرة أهداها لى ابنه صديقى العقيد طارق عبد الباسط .. وبعدها أخلد إلى نوم لا يطول أكثر من ساعتين يمنحنى القوة للاستمرار .

عند النداء الأخير على رحلتى صعدت إلى الطائرة الأردنية المتجهة إلى بغداد فى صباح اليوم التالى ١٦ يوليو ٢٠٠٦ تتنازعنى الأفكار المغلفة بالمخاوف والرغبة العارمة للدخول إلى قلب المذبحة التى كانت مظاهرها قد اكتملت وانعكست آثارها على الأرض .. كنت المصرى الوحيد بالطائرة يرافقنى على متنها عراقيان وعشرات من الجنود الأمريكيين المتجهين لمهمة أخرى قد تنتهى بالموت أيضا فى العراق .. وعندما وقعت عينى على ملامح هؤلاء الجنود ذوى البنية القوية الذين يحملون شارة الجيش الأمريكى والكثير من الهويات، والكثير من الوشم على الذراعين أدركت أننى اقتربت كثيرا من المذبحة التى كان الدخول إليها مليئا بالإثارة والمواقف الغريبة التى بدأت مع دخول الطائرة إلى المجال الجوى لمطار بغداد والتى كان يتطلب هبوطها إلى أرض المطار الطيران بشكل دائرى ضمن ممر جوى آمن تحدده سلطات المطار تحسبا لهجمات محتملة مرورا بدخولى صالة المطار لإنهاء إجراءات الوصول .

٢ - شدتسوى هنا

وقفت ضمن طابور أمام شباك الإجراءات المخصص لغير العراقيين حاملا جواز سفرى وبدا الأمر غريبا بالنسبة لضباط المطار؛ حيث كان كل الواقفين فى

الطابور هم من القوات الأمريكية وهو ما جعل أحد الضباط يشير إلى متسائلا « الأخ مصرى؟؟!!! » أجبته: نعم بكل فخر عندها بدت عليه علامات الدهشة وبادرنى بسؤال جعل المخاوف تتسابق لتحيط بى « كيف وصلت إلى هنا ولماذا أتيت إلى بغداد ؟؟ » وعلى الفور قدمت نفسى: أنا محمود الشناوى مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد .. ازداد تعجبه وارتسمت على وجهه ملامح غريبة من الدهشة وطلب منى التوجه معه إلى مكتب أحد المسؤولين بالمطار لتوضيح الأمر .. دخلنا إلى غرفة صغيرة فى صالة الوصول بمطار بغداد يجلس داخلها عراقى حاد الملامح يزيد حدتها شارب عريض أسود وشعر كثيف يغطى الرأس الضخم كرر نفس الأسئلة مندهشا بلهجة عراقية « شلون وصلت ؟ وشدتسوى هنا؟ » كررت الإجابة مع بعض الدهشة التى غلبها الخوف .. قال لى الرجل بعد تفحص جواز سفرى وتأشيرة الدخول .. حبيبى غير مسموح لك بالدخول لأنه كان المفترض أن تحصل على موافقة من دائرة الإقامة أو وزارة الداخلية .. عندها تذكرت ما قاله لى الشاب الأردنى الذى حصل على توقيعى على الإقرار «التعهد» فى مطار الملكة علياء فاستجمعت كل قوتى وخاطبت المسئول « يا فندم .. ممكن تصير مشكلة كبيرة إذا تم منعى من الدخول » .. تجهم وجه الرجل ورفع حاجبيه الثقيلين وقال لى بصوت مرتفع « شتكول» أى ماذا تقول؟؟ .. فتداركت الموقف سريعا وقلت له: سوف تصير مشكلة لى أنا وليس لكم ويمكن أن تؤثر فى مستقبلى لأن أحدا لن يفهم أنكم منعتم دخولى وإنما سوف يقال: إننى عدت قبل أن أبدأ مهمتى خوفا من الأوضاع .. عندها استراح وجه الرجل قليلا وغلفت قسمات وجهه الحادة ملامح طيبة عراقية تخفى شعورا بالشفقة والرغبة فى مساعدتى .

قال لى الرجل بلهجة عراقية تكسوها الطيبة « ابنى .. تدرى وين رايح » أجبته مسرعا نعم «مقر مكتب الوكالة فى شارع السعدون .. محلة ١٠٢ .... » وقبل أن أكمل كلامى قاطعنى الرجل وقال أنا لا أسأل عن تفاصيل العنوان وإنما أسأل « تدرى إلى أين أنت ذاهب .. تعرف ماذا يجرى خارج حدود المطار» أدركت أن الرجل يشير بكلامه إلى المذبحة التى كنت قد وصلت إلى أول أبوابها .. استجمعت ما تبقى من شجاعة وقلت له أنا فى مهمة صحفية وهى مقدسة مثل القتال على الجبهة وإن شاء الله ربنا يوفقنى ويحفظنى.

استقبل الرجل الذى لمست فيه أول ملامح العراقيين الطيبين كلامى راسما على وجهه ملامح غريبة التفسير تتنوع بين القلق على شاب ذاهب بقدميه إلى

المذبحة وخوف من السماح لى بالدخول دون سند رسمى إلا أن رغبته التى بدت واضحة فى مساعدتى تغلبت وجاء قراره بالسماح لى بالدخول بعد أن تسلم أحد الخطابات الرسمية التى يحملها المراسل إلى عدة جهات فى الدولة التى كلف بمهمته الصحفية فيها وهو خطاب إلى من يهمه الأمر يطلب تسهيل مهمتى الصحفية .. ربت الرجل على كتفى بمشاعر أبوية وقال: «الله يوفقك ولكننى فعلا مشفق عليك » مع تعليمات بالحذر ودعوات إلى الله بأن يحفظنى من كل سوء .. ثم نادى على أحد مرؤوسيه ويدعى أبو محمد وطلب منه أن يصطحبنى فى سيارته الخاصة التى يستخدمها كسيارة تاكسى لتحسين الدخل حيث يقوم بتوصيل بعض الركاب القادمين عبر المطار إلى مناطق سكناهم .. ونبه عليه بأن يتصل به تليفونيا عند الوصول بالسلامة وقال هذا الولد: أمانة بعنقك ثم صافحنى مودعا وانا فى حال من القلق والخوف من مجهول بدات أولى ملامحه القاتمة تظهر شيئا فشيئا .

٣ - شيعى وسيد وشروكى

طلب منى أبو محمد ان أستقل السيارة دون أن أتكلم عند اى موقف ولا اخرج جواز سفرى من جيبى وشعرت أن الرجل يحمل فوق كتفيه حملا ثقيلا باصطحابى يزيده ضيقا قيظ يوليو غير المحتمل فى بغداد خاصة بعد أن خرجنا من صالات المطار شبه المكيفة .. بينما أنا فى عالم آخر من الأفكار والضيق والقلق ومشاعر متشابكة لا يمكن تفسيرها لم تمنعنى من ملاحظة التغييرات التى طرأت على مطار بغداد / صدام سابقا / والتى جعلت المطار يبدو مختلفا بشكل كامل عن المطار الذى شاهدته منذ ثلاثة أعوام تقريبا على كافة المستويات الخدمية والعملية .. وهاهم الأمريكان ينتشرون بملابسهم العسكرية والمدنية مدعومين باليات من الهامفى والهمر وغيرها من الآليات العسكرية التى تفرش أرض المطار بينما تحلق المروحيات العسكرية على مسافات قريبة ليبدو المشهد عجيبا على من زار عاصمة الرشيد قبل سقوط نظام صدام حسين حيث بدا المطار كثكنة عسكرية أمريكية يخدم فيها بعض العمال والموظفين العراقيين .

مررنا عبر عدة نقاط تفتيش تحميها مصدات حديدية وكتل أسمنتية مما جعل الصورة تبدو لأى شيء آخر غير صورة المطار المرسومة فى ذهن من يرتاد المطارات واستمر نفس المشهد الغريب حتى خروجنا إلى ساحة عباس بن فرناس

وهى آخر حدود المطار .. عندها بدأ التوتر يظهر على الرجل الذى يقود السيارة ولم تفارقه الدعوات بالستر والوصول بالسلامة وأن يكفينا الله شر الطريق والسيطرات الوهمية[1] التى لم أدرك معناها فى البداية حتى وصلنا إلى مفترق طرق يتوجه إحداها إلى وسط المدينة بينما يتوجه الآخر صوب العامرية غربى العاصمة بغداد كما تشير اللافتات التى تعلو حافة الجسر وتعبر عن صورة بغداد فى عصرها الجديد الذى يبدو أنه يحدد معالم جديدة للمناطق وصفات جديدة تكرس لمفاهيم جديدة فى زمن الفتنة الذى دشن سنوات المذبحة .

توقف أبو محمد عند مفترق الطرق الذى بدا أن أحدها وهو الذى يفترض أن نسلكه مغلق من قبل القوات الأمريكية بينما غيرت عدة سيارات كانت قادمة من المطار وجهتها وسلكت الطريق المفتوح واندهشت لتوقف السيارة التى تقلنا وسألت أبو محمد لماذا لا يسير مع باقى السيارات فى الطريق الآخر فطلب منى الصمت والهدوء .. وبعد لحظات اقترب منا عناصر دورية من الشرطة العراقية كانوا متوقفين عند مفترق الطريق وطلبوا من أبو محمد التحرك لأن التوقف فى هذا المكان ممنوع إلا أن الرجل أصر على التوقف وطلب منهم مساعدته فى المرور بالطريق الأساسى المتوجه إلى وسط المدينة فأبلغوه أن الأمريكان أغلقوه وربما يستغرق الأمر عدة ساعات إلا أنه أصر على الوقوف وسط شد وجذب مع عناصر الشرطة جعل أبو محمد يخرج من السيارة موجها كلامه إلى الشرطة بصوت مرتفع يابا ما يصير أعبر إلى ها الطريق لأنى شيعى وسيد وشروكى[2] ومعى صحفى ومصرى » فتغيرت فورا لهجة رجال الشرطة وطمأنوه بأنهم سوف يسمحون بتوقفه حتى يسمح الأمريكان بفتح الطريق المتوجه إلى وسط المدينة وسط دهشة شديدة من جانبى لما يجرى وما سمعته من كلمات جديدة على أذنى لا أفهم معناها وقوة تأثيرها التى جعلت من رجال الشرطة يسمحون لنا بما هو ممنوع ويتحملون مسئولية ذلك أمام الأمريكان إلا أن الأمر كان بالنسبة لى ضمن سلسلة الأمور الغريبة التى بدأت منذ وصولى مطار الملكة علياء .

(١) نقاط التفتيش الوهيمة التي يديرها رجال الميليشيات وفرق الموت ويرتدون زي القوات الأمنية الرسمية .

(٢) سيد : وتعني أنه ينتمي لإحدى عائلات الشيعة من آل بيت النبي ﷺ ، وشروكي : تعني أنه من أهالي الجنوب الشرقي للعراق وهو لفظ لضيعة بشيعة الجنوب النازحين إلى بغداد .

طلبت من أبو محمد الطيب أن يفسر لي ما سمعت وما يجرى ولماذا ننتظر ساعات حتى يفتح الأمريكيون الطريق مادام هناك طريق بديل أو عدة طرق أخرى للوصول إلى مقصدنا وسط بغداد .. فرد الرجل محتملا أسئلتى التى يراها سخيفة قائلا « إذا قدر لنا الله الوصول بالسلامة سوف أفسر لك لكن أطمئن إن شاء الله يصير خير وما يصير خاطرك إلا طيب» .

بعد حوالي ساعتين أشار أحد رجال الشرطة لنا بالمرور بعد أن ذهب الرتل الامريكى إلى غير بعيد مطالبا أبو محمد بالانتباه وعدم الاقتراب كثيرا حتى يرحلوا تماما إلى طريق اخر مذكرا اياه بأنهم لا يتورعون عن فتح جحيم اسلحتهم على كل من اقترب لمسافة تقل عن مائة متر دون تفسير او تحذير والنتيجة طبعا معروفة ومحتومة .. ابتسم أبو محمد للرجل شاكرا ومودعا داعيا الله أن يكفينا شر السيطرات الوهمية [1] .

بدأ أبو محمد يقص على مسامعى حكايات غريبة فى محاولة لتفسير امتناعه عن السير فى طريق «العامرية وحى الجهاد » ويشرح الكلمات الثلاث التى كان وقعها على أذنى غريبا « شيعى وسيد وشروكى» وأنا فى حالة من الدهشة التى يلفها الرعب وهى حالة جعلتنى أقف على عتبة الذاكرة وأتأمل فى أعماق الوجدان .. وبين زحام مكنوناته أبحث عن كلمات يمكن أن تصلح لترجمة الأفكار ورسم الأحاسيس .. فأنا أريد أن اعرف الحقيقة كما هى ولكن يبدو أن هذا كان فوق طاقتى .. كانت الحقيقة تبدو مزرية يموت المرء حزنا لمجرد تخيل أن ما يحكيه أبو محمد يحدث فى الواقع فعلا .. فيما القلق يكاد يقتلنى .. قبل أن أستنشق رائحة البارود وأرى لون الدماء فى واقع مجهول كان ينتظرنى .

عجز عقلى عن استيعاب الكثير مما يقوله أبو محمد الا أننى أدركت حقيقة واحدة سوداء وهى أن الناس فى أرض السواد وبلد النخيل باتوا صنفين فقط إما قاتل أو مقتول .. قفزت إلى ذاكرتى الصور التى كانت تبثها الفضائيات فى نشرات الأخبار .. صور الأشلاء ملقاة على شوارع المدن والقرى التى تصبغها أنهار الدماء تليها صور لعجائز لاطمات للصدور والوجوه .. ومشاهد أخرى لجثث تتوافد على المستشفيات بينما الآباء والأمهات يودعون أكبادهم والأشقاء الأشداء يبكون متوعدين بالثأر من عدو مجهول ربما لم يكن هو القاتل إنما ينتمى دون ذنب إليه .

(١) كانت نقاط التفتيش الوهمية تمارس عمليات الاختطاف والقتل على الهوية الطائفية (سنى أو شيعي).

قال أبو محمد قاطعا شرودى أن الخطورة تتجسد عندما يفلت الزمام ويصبح الانتقام ظاهرة بينما تتقلص إلى أدنى مدى مشاعر الوطنية والإنسانية .. فيقف الواحد منا متفرجا على بلده وهو يضطرب تنهشه العصابات والمارقون غير مكترث للدماء التى تسال والدمار الذى يحرق كل شيء .. بات كل منا يتفرج على ابن مدينته وهو يتعرض لاعتداء فى وضح النهار يسوغ موقفه الجبان بعبارة مقتضبة « يمعود إنى شعليه » يعنى بالمصرى « وأنا مالى» وبات السؤال التقليدى « تريدنى أموت ؟» .. تعبنا من كل ما يجرى لم نعد قادرين على البكاء أو النحيب .. تقطعت أوصالنا مثلما تقطعت أوصال بلدنا وباتت شوارعنا محرمة علينا ومناطقنا مقسمة « هذا سنى وهذا شيعى» ونظر إلى متسائلا فى تنهيدة حرقت ما تبقى من مسافة « فهمت أستاذ يعنى إيه أنا شيعى وانت مصرى وما يصير نمر من الطريق المفتوح » .

عرفت فيما بعد أن مثل هذه المناطق مقسمة إلى مناطق نفوذ لميليشيات شيعية وأخرى سنية تحمل الكثير من الأسماء التى تثقل القلب حين سماعها وتبث الرعب فى النفوس إذا سار شخص فى الطريق الخطأ ليلتقى بعناصر الميليشيا الخطأ فى وقت خطأ لم يكن يجب أن يمر فيه .. وفى كل الأحوال فإن الضحية لا يمنح نفسه فرصة للإجابة أو التأمل ليصل إلى قناعة مفادها أن الدور حين يصل إليه لن يجد من ينقذه من منطلق « وأنا مالى» وسيكتشف أنه مات منذ أول يوم اختار فيه الهروب من المسئولية وأطلق سؤاله البذىء « تريدنى أموت ؟؟ » .

سألنى أبو محمد « عرفت استاذ ليه كنا ما نريدك تدخل بلدنا ؟؟ »عرفت ليه سألك سيدى « تدرى وين رايح؟؟ » .. أستاذ يبدو انك قررت فى الوقت الخطأ أنت تأتى إلى المكان الخطأ .. تنهد أبو محمد بينما كانت ملامح وجهى قد بدأت تتغير مستوحية مكنونات نفسى بعد كل ما سمعت وقال: تدرى أستاذ من هو أسوأ من الجلاد ؟؟ أجبته وأنا اشعر بدنو المذبحة نعم « الضحية اذا استعار أخلاق الجلاد » ابتسم ابو محمد وقال: « كانت حكوماتنا السابقة تقتل القتيل وتمشى فى جنازته أما القتلة الجدد فصاروا يقتلون القتيل ويقتلون من يمشى فى جنازته».

كانت السيارة تسرع الخطى شيئا فشيئا وأنا أشاهد فى دهشة عجيبة شوارع بغداد العريقة .. هل هذه بغداد الجميلة ملهمة الشعراء التى حلمت ذات يوم بالعيش فيها ؟؟ هل ضاعت بغداد مع ما ضاع من صور جميلة ؟؟ هل هذه بغداد التى غنت لها

فيروز كلمات وألحان الأخوين رحباني « بغداد والشعراء والصور » ؟؟ .

٤ - مدينة أشباح عز الظهر

عندما دلفنا إلى شارع «الكرادة داخل» وسط بغداد وبدا الشارع التجاري العريق خاويا الا من بعض المارة ورجال الأمن وعدد أصابع اليد من المحلات التي تفتح أبوابها رغم أن النهار كان قد انتصف منذ حوالى ساعة فقط ورغم أن المشهد فاجأني قليلا إلا أنني كنت قد بدأت أعتاد الأمور الغريبة .. قال لى أبو محمد : إن بغداد باتت شبه مهجورة وتتحول إلى مدينة أشباح قبل حلول العصر بسبب عصابات القتل القذر التي لا تترك فرصة لأي حياة طبيعية .. انظر هذا قناص وتلك دورية تعمل نهارا براتب مجز ضمن قواتنا الأمنية الجديدة أما عندما يحل الليل فالله أعلم ماذا يفعل جنودها وأغلب الظن أنهم يتحولون لقتلة مأجورين ضمن فرق الموت .. وتنهد قائلا لقد تغيرنا جميعا نحن نقاتل نهارا خائفين من أجل الخبز لأطفالنا ونرحل في الليل إذا أخطأنا الرصاص إلى مدن مهجورة نرتجف حين نسمع نشرة الأخبار .. نرتجف حين يرن الهاتف .. نرتجف حين يدق أحد باب بيتنا وإذا مر الليل علينا ومازلنا على قيد الحياة لم تفاجئنا قذيفة هاون طائشة أو قصف أمريكي لمجرد الاشتباه نصحو لنواصل السير ونعيش الحياة بنفس الطريقة .. خائفون نهارا .. مرتجفون ليلا نسأل الله أن ينتهي هذا الكابوس .

عندما وصلنا إلى ميدان كهرمانة[(١)] كان يقف تمثالها الشهير وحيدا بين زلعه الأربعين بعد أن انقطعت المياه عن نافورته الجميلة التي كانت تزين قلب بغداد.. بعدها وصلنا إلى ساحة الفردوس الشهيرة التي سقط منها تمثال صدام حسين في ٩ أبريل عام ٢٠٠٣ وبدا لى نصب غاية في القذارة يبدو كمسخ بلا ملامح أو تعبير عن أي شيء[(٢)] وبدأت ملامح شارع السعدون تظهر شيئا فشيئا تحيط جانبيه الكتل الأسمنتية التي تشبه جدران السجن وأحيط فندقاه الشهيران « فلسطين ميرديان وعشتار شيراتون» بالمئات منها بينما أغلقت كل الشوارع المحيطة بهما في مشهد غابت عنه الحياة وبدا الفندقان الشهيران اللذان كانا يعجان بالحياة كمعتقل كبير محاطًا بالأسوار والأسلاك الشائكة والآليات العسكرية ورجال

(١) أحد أشهر ميادين بغداد تتوسطه كهرمانة زوجة علي بابا وحولها ٤٠ زلعة ويقع وسط العاصمة .

(٢) تمت إزالة النصب لاحقًا .

شركات الأمن الخاص وبعض عناصر من الشرطة والجيش فيما خلا الشارع تماما من المارة إلا من عدد بسيط لسيارات تسرع الخطا للعودة إلى بيوت أصحابها قبل أن يحل عصر اليوم وتصبح الشوارع مصائداً للموت المجانى.

ودعنى أبو محمد الطيب داعيا لي بكل ما استحضرته ذاكرته من دعاء كما يودع أخا عزيزا أو ابنا يعرف أنه ربما لن يلتقيه مرة أخرى ثم قاد سيارته مسرعا قبل أن يحين موعد نهاية النهار الذى حدده مرسوم مكتوب بدماء ضحايا القتل الأعمى فى فورة العنف الطائفى بأن ينتهى بعد الظهر ليبدأ نهار آخر لأنماط أخرى من كائنات زمن المذبحة .

عندما بدأت أولى خطواتى على أرض عاصمة الرشيد فى نهار ١٦ أغسطس القائظ ورغم كل ما مررت به من مشاهد وما عرفته من أمور غريبة عن أوضاع العراق الجديد إلا أن مشهد الطريق المؤدى إلى مكتبى خلف فندق مريديان فلسطين فاجأنى بشكل كبير .. كتل كونكريتية تقطع الطريق إلى شارع أبو نواس الموازى لنهر دجلة يقف خلفها شباب وفتيات بزى مدنى يحملون الأسلحة الرشاشة تقف خلفهم عربة عسكرية من نوع همر يعلوها موقع لجندى خلف سلاح آلى مستعد لإطلاق الرصاص لمجرد الشك دون انتظار النتيجة .. وعبر بوابة ضيقة مررت إلى الطريق المغلق بعد خضوع لعملية تفتيش دقيقة لحقيبتى اليتيمة وملابسى وتدقيق وفحص مركز لأوراقى وجواز سفرى تبعتها أسئلة متوالية عن سبب وجودى بالمكان وإلى أين وجهتى مع علامات دهشة واضحة على وجه الشباب عندما أبلغتهم أن مكتبى يقع بجوار فندق شقق الربيع السياحية وبادر أحدهم بالقول أن الفندق مغلق وليس به أحد وأن البناية التى تقع بجواره شبه مهجورة وليس بها سوى مكتب وحيد لا يحضر من به إلا أياما معدودة طوال الشهر إلا أنهم تركونى أعبر منتظرين عودتى إليهم مرة أخرى بعد أن أكتشف الأمر بنفسى .

هالنى مشهد الشارع الصغير الذى كان يعج بالحركة رابطا بين شارعى أبو نواس والسعدون يرتاد النزلاء فنادقه الثلاثة « شقق الربيع والأندلس والفنار» فيما يرتاد الضيوف والعملاء مكاتبه العامرة بالشركات ومحال الأنتيكات والتحف والسجاد الراقية .. شقق الربيع السياحية التى يمتلكها الرجل ذو الشخصية القوية النافذة عباس النبهان ويديرها أولاده اللذين تربطنى بهم صداقة قوية أسامة وحيدر وزيد وعمار ولا توجد بها شقة فارغة لنزيل جديد ويعتبرها مالكها درة ثروته .. رأيتها موصدة أبوابها ولا حياة فيها .. عمارة الكبيسى التى يقع بها

مكتب الوكالة وكانت تضم مكاتب المركز التجارى المصرى والشركة المصرية لتجارة الأدوية ومكاتب لشركات كبرى ومحامين .. وجدتها مهجورة يعلو التراب جدرانها بعد أن كانت أفضل بناية فى المنطقة الراقية نظرا لنفوذ مالكها شوقى الكبيسى .. بينما بدا الشارع خلف المريديان خاويا مهجورا يثير الرعب فيما اختفى مقهى البغدادى الشهير على ضفاف نهر دجلة الذى كان يعد درة شارع أبو نواس .

صعدت درج سلم عمارة الكبيسى متثاقلا تتملكنى الهواجس وتحيط بى الظنون من المجهول الذى ينتظرنى حتى وصلت إلى الطابق الثالث الذى تفوح منه رائحة العفن المنسوجة من غبار الذكريات ووحشة الراحلين اللذين هجروا عشاقهم ..دلفت إلى المقر الجديد للوكالة الذى انتقل إليه المدير السابق على عجل قبل أن ينتقل إلى مصر الأمن والأمان قبل أن تدركه المذبحة التى كانت بوادرها تلوح فى الأفق ويجهز الواقفون على حافتها أسلحتهم لبدء أبشع مرحلة مر بها العراق والعراقيون على مدى تاريخهم المصبوغ بالدم والقهر والكوارث .

٥ - وين أروح

عندما وطأت قدماى أرضية المكتب المتربة فاجأتنى رائحة روث الطيور التى اتخذت من بعض أجزائه مقار لها وملاذات آمنة بعد أن أصبحت أرض سمائها غير آمنة ..هرعت دون جدوى لإشعال مصابيح المكتب فلم ترد الكهرباء التى عرفت فيما بعد أنها انضمت إلى المستحيلات الثلاث / الغول والعنقاء والخل والوفى/ فى العراق الجديد .. هرعت إلى حيث «من المفترض» أن توجد صنابير المياه لترطيب وجهى المشتعل بفعل ما رأيت ونزق اصابع الظهيرة التى نشبت مخالبها فى كل أنحاء جسدى مع جو شديد القيظ لا أدرى من أى جحيم جاء فاكتشفت أن حال الماء لا يختلف عن حال الكهرباء وبدا أثاث المكتب المتهالك مبعثرا دون ترتيب حيث تم وضعه فى غير أماكنه على عجل ودون ترتيب يذكر مما يدلل على الحالة النفسية للمشرف على عملية الانتقال إلى المقر الجديد الذى يلائم الأوضاع الجديدة حيث كان مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فيما مضى والذى يشغل الطابق الأول من نفس البناية بامتداد أربعة شقق من أفخم مكاتب المؤسسات الصحفية العاملة بالعراق قبل أن تدمره آثار هجوم انتحارى بشاحنة تحمل حوالى ثلاثة أطنان من المتفجرات استهدفت الفندقين الشهيرين المقابلين له / فلسطين

مريديان وعشتار شيراتون/ إلا أن الانتحارى لم يتمكن إلى النفاذ للداخل وإلا كان الفندقان قد باتا أثرا بعد عين .. أما المقر الجديد فلم يعد يشغل سوى شقة واحدة متواضعة بالطابق الثالث كانت قبل الغزو الأمريكى مقرا لأحد المحامين المشهورين ينتمى لعائلة صدام حسين إلا أنه هجرها فارا بعد انهيار النظام تاركًا إياها مقرا وملاذا آمنا للجرذان تختبىء فى الشقوق نهارا والطيور البرية لتضع بيضها وتزيد أعدادها عندما يحل الظلام .

على وقع المشهد المحبط والساعات الكارثية التى مرت بى منذ الصباح ألقيت بجسدى المتعب على مقعد بائس يغطيه التراب تحتدم مشاعرى وتفور أحاسيسى لتغزونى حيرة وتمزقنى أفكار سوداء توقظ بركانا خامدا فى أعماقى تكوى حممه ضلوعى المنكسرة لترتد نيران غضبى المشحونة بالخوف أحاول إطفاءها بمياه التأسى .. إلا أننى آتداعى لتهبط عزيمتى إلى ما تحت الصفر .. أحاول التماسك واللجوء إلى الصبر ربما يمنحنى بريقا من الأمل .. إلا أن أسطورة الصبر تعجز بكل طلاسمها وتعاويذها عن مد يد العون لى لاستمر وسط معاناتى من دوامات المشاعر المتناقضة لينهمر شلال ذكريات كادت أن تقودنى إلى الجنون .. « أين أصدقائى اللذين ينتظرون قدومى إلى العراق كما أبلغنى من سلمنى مفاتيح المكتب بعد أن وصل إلى القاهرة منتشيا ؟؟ » .. أين الإمكانيات المتوافرة فى المقر الجديد الذى لا كهرباء فيه ولا ماء ؟؟ » .. « أين ذهب الناس الذين كانوا يشغلون الشارع بفنادقه ومقرات شركاته ؟؟ » .. « أين أذهب ولمن ألجأ ؟؟ » فلا أصدقاء ولا شركاء ولا طريق للعودة بعد أن اقترب الوقت من الساعة الثانية ظهرا وهو وقت لا يجرؤ كائن من كان على التحرك فيه فى تلك الأيام العصيبة التى كانت فيها الشوارع مرتعا لفرق الموت وعصابات القتل والاختطاف .. شعرت بسقوط مروع على صخرة واقع أشد ألمًا من أسوأ الكوابيس فتناثرت أحلامى فى المجد الصحفى ورد الاعتبار والانتصار إلى قطرات ضائعة بعد أن اصطدمت بأرض الواقع والحقيقة المريرة التى أخفاها عنى من قادنى إلى هنا حتى يعود هو سالما إلى مرافىء الأمن .

استجمعت ما تبقى من قوة وعدت ركضا إلى عناصر الشركة الأمنية الذين كانوا متأكدين من عودتى إليهم مرة أخرى لاجئا أو مستفسرا أو طالبا للمساعدة فهم رغم عملهم فى الشركات الأمنية الخاصة سيئة السمعة إلا أنهم فى النهاية عراقيون طيبون ولهذا رثوا لحالى وحاولوا التخفيف من وطأة الموقف الفاجع .. واقترح أحدهم أن أبيت ليلتى فى فندق الأندلس الذى يقع فى نهاية

الشارع لأنه الفندق الوحيد الذى ما زال فاتحا أبوابه رغم أن شقتين فقط من شققه الثلاثين تضم نزلاء .. تحركت ركضا صوب الفندق الذى كان يقف على بابه حارسان مدججان بالسلاح على غير العادة وإنما تماشيا مع الظروف الجديدة.

استقبلنى الحراس الطيبون وقدموا لى الماء البارد ونصحونى بالتوجه أولا إلى الطابق السادس حيث مقر وكالة « إخلاص التركية، وهو ما جعلنى استعيد بعضا من لياقتى وصعدت درج الفندق قفزا رغم ما أعانيه من إرهاق شديد ليستقبلنى عراقى طيب من أهل كركوك يعمل بوكالة إخلاص اسمه رياض ويهدىء من روعى بعد أن احتضنته كأننى وجدت منقذا بعد وديان وبحور القلق والخوف واليأس التى خضتها على مدى ساعتين وحيدا فى المكتب المهجور .. إلا أننى لم أتمكن من استعادة حماستى القديمة بسبب الحيرة التى كانت تمنعنى من التفكير الصائب وهو ما جعلنى لا أستبق الأمور أو اتبنى سيناريوهات مسبقة لما سيأتى لاحقا، وقررت هذه المرة الاستماع بدقة لشاب يعمل فى نفس المجال الصحفى وهو ما يدعو للارتياح لأنه يشاركنى جزءا كبيرا من التفكير الذى يتيح رسم صورة شبه واضحة وأكثر صدقا لمشهد العراق الجديد من أبو محمد أو غيره .

بدأ الشاب العراقى الطيب يقص على مسامعى كيف صارت الأمور بعد سقوط بغداد فى يد القوات الأمريكية وما ضربها من متغيرات صادمة على كافة الصعد سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا، وفى الوقت الذى لم يتسن للعراقيين بعد أن يستوعبوا صدمة سقوط عاصمة الرشيد بنظامها الهش الذى ملأ الدنيا ضجيجا عن أسلحته الفتاكة وقوته التى لا تستطيع قوى العالم مجتمعة هزيمتها حتى عاجلتهم فاجعة لئيمة لتكمل على ما تبقى من روح فى جسد مثخن بالطعنات من الأصدقاء قبل الأعداء إلا أنه لم يتلقى الفاجعة هذه المرة رابط الجأش كما اعتاد على مدى تاريخه حيث لم يتبق فيه موضع لتلقى الطعنات .. تلك الفاجعة اللئيمة المخلوطة بسموم المؤامرات التى جعلت فرق الموت والميليشيات وعصابات الغدر المسلحة تجثم على صدر البلاد وتنكل بالعباد وصار فقد الأحبة وغير الأحبة ضريبة يدفعها الجميع قسرا دون تفسير أو سبب معقول للقتل الأعمى الذى غالبا ما يسبقه عمليات تعذيب انتقامية للضحايا حتى بات الموت المفاجىء فى تفجير أو إطلاق نار أمنية يسوغها الرعب من التنكيل والتمثيل بالجثث بعد نزع كل ما يشير إليها لتلقى جثة مجهولة الهوية فى

أحد مقالب القمامة أو ما يعرفه العراقيون بـ « السدة» لتنهشها الكلاب الضالة أو يذيبها حريق أو تلتقطها ايادى الرحمة لتلقى بها فى مزيلة الطب العدلى « المشرحة» سيئة الصيت ليتم دفنها فى قبور جماعية ويحمل صاحبها رقما وتاريخا ربما يدلان على هويته واسمه الذى عاش به قبل أن تلتقطه فرق الموت ويصبح جثة مجهولة الهوية .

صارت تلك الميليشيات وفرق الموت واجهة لكل من يخون ويقتل وينهب ويتاجر بالدين ويخرب ويدمر ويزرع الموت والرعب باسم الوطن والديمقراطية والدين والطائفة والقومية ضمن مشاريع مشبوهة لا يدرى أحد من أى جحيم جاءت وإلى أين سوف تمضى فالجميع يتهم الجميع بالتآمر على العراق ويسوغ الحجج والمبررات لهذا الاتهام ويأتى بالشهود لحشد ضغط اجتماعى فى اتجاه تحقيق الانتصار المزيف على عدو كان أخا وصديقا وجارا لصيقا لم يسأل أحد من قبل عن طائفته إذا كان سنيا أو شيعيا وعن قوميته إذا كان عربيا أو كرديا لأن فى العراق متسع للجميع « عربا سنة وشيعة .. أكرادا سنة وشيعة .. تركمان سنة وشيعة ومن ذاق معهم مرارة الأيام وشرب من دجلة والفرات .. صابئة وأيزيديين وكلدواشوريين وشبك وما جمع الله فى تلك البلاد من العباد على مختلف مسمياتهم.

قال لى الشاب العراقى الطيب : « إن أيامنا ذبلت .. ماتت .. نعيش حياة من العدم القاحل المنعزل .. نتقلب فيه على حجر الأيام القاسى شديد الصلادة .. نجوب الأرض يوميا مثل أسراب النمل .. بعضنا كفنته الحياة فانطوى على بأسه فى أقبية مظلمة خانقة يمضى سنوات شاحبة .. وآخرون ينطوون على بصيص ضوء يأتى من المجهول والعدم ربما تنبثق الحياة ذات يوم من العدم وهو شعور يجعل من الحياة أمرا ممكنا رغم كل ما يجرى حولنا من كوارث وما نتعرض له من فواجع » .

كانت ابتسامة يأس ترتسم على شفتيه طوال الوقت الذى تحدث فيه .. وكنت أعرف أن نوبات البوح يمكننى من خلالها بقليل من التيقن والانتباه أن أستشف الحقيقة كاملة لأنه سيكون صادقا إلى اقصى درجة .. فهمت أن العراق بدأ يقسم إلى مناطق للسنة وأخرى للشيعة يستعصى على أى منهما المرور عبر منطقة غير المرسومة له دون أن يناله نصيب من الرعب أو القتل وهو ما جعل العراقيين يحملون أكثر من هوية فهذه باسم عمر مثلا والثانية باسم عمار وهذه باسم عائشة والثانية باسم فاطمة أو زهراء مع تحمل كافة المخاطر إذا اكتشف

أحد عناصر نقاط التفتيش الوهمية التى تنتشر فى الأحياء والمناطق وجود هويتين لشخص واحد وهنا لا مصير إلا القتل دون معرفة حقيقة العابر إذا كان سنيا أو شيعيا .. بينما تبقى مناطق تمثل معضلة كبرى وهى أن قسما منها يقبل عمر فى أول الطريق ويقبل بعمار فى وسط الطريق ..

كما أن هناك نماذج بشرية لا مناص من قتلها فى كثير من المناطق سنية كانت أو شيعية وغالبا هم موظفوا الدولة والعاملون مع القوات الأمريكية وعناصر الشرطة والجيش وفى أحيان كثيرة الصحفيون لاعتبار أن هذه النماذج تمثل عملاء للمحتل وحكومته المتعاونة معه من العراقيين من وجهة نظر القاتل ومجموعته .. وهكذا كانت الجثث تتوافد على المستشفيات فى كل لحظة وكأن البلاد صارت جبهة حرب جديدة بلا معالم واضحة للعدو فالكل عدو للكل والجميع يقف على بوابة الجحيم أما قاتل أو مقتول أو منتظر للدور أن يأتيه فى دوامة الموت العبثى التى ينتظر من فيها على حافة الأمل من يمزق الأقنعة ويكشف الزيف ويعرى الألاعيب التى يقصد منها الخداع والتضليل التى يؤديها عصابات من الأفاقين بهدف شل إرادة العراق بعد أن اتفقوا على شيء واحد رغم أنهم أضداد فرقاء اتفقوا فقط على القتل ووضع من تمكن من النجاة على شفا حفرة من الموت ..

معادلة غريبة تجرى بالعراق لا أحد يعرف كيفية حلها إلا من وضع رموزها وابتكر عقدتها فملايين العراقيين ممن قصم القتل والإرهاب والعنف والموت ظهورهم بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد وانهيار نظام صدام حسين فى ٩ أبريل ٢٠٠٣ هم ضحايا الحكومة والمعارضة والاحتلال على حد سواء ..

فالحكومة تدعم الإرهاب والمعارضة تدعم الإرهاب والاحتلال يدعم الإرهاب « كل بطريقته التى سوف نرويها عندما ندخل المذبحة » والدليل على هذا الدعم المفضوح هو أن الإرهاب والإذلال والعنف والقسوة والتدمير للبلاد والعباد والانتهاكات المشينة لحق الحياة تجرى تحت سمع وبصر الجميع وبمباركتهم .. فقوات الأمن تقتل وتعذب وتنتهك وتبارك الحكومة ذلك كونها تؤدى الواجب فى القضاء على المجرمين الذين هم من وجهة نظر المعارضة مقاومون شرفاء مع أنهم يمارسون الاختطاف والقتل على الهوية ويفجرون البيوت والأسواق الآمنة سواء استهدفوا قوات أمريكية أو عراقية أو لم يكن هناك ما يستهدفونه سوى المدنيين الأبرياء وهم من تعتبرهم القوات الأمريكية إرهابيين يمارسون العنف ويشعلون فتيل الحرب ضدهم وتقتل من تستطيع قتله بضربات جوية قاسية قد تطيح بيوتا آمنة لأبرياء ناموا

مطمئنين لأن تنقذهم براءة أطفالهم وسكينة نسائهم وشرف رجالهم من صواريخ الطائرات وقذائف المدفعية الأمريكية التى طالما قتلت أبرياء لمجرد الاشتباه فى اختفاء من تقول أنه إرهابى فى بناية أو بستان باعتبار أن من يسقط هو ضحية حرب شعواء بين الخير والشر[1] .

قال لي رياض بنبرة ألم وتنهد: « هكذا يعيش العراقيون الذين ابتلوا بدفع أثمان باهظة في صراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وفي كل محنة يتساءلون ما الإثم الذي ارتكبوه، هل حقا هي لعنة كما يقول البعض عندما ييأسوا من التوصل إلى تفسير منطقي للأحداث؟ لاشيء منطقي فيما يحدث، إننا نفرط بالحياة ونحتفي بالموت، الموت الذي يحاصرنا من كل جانب، وخطاباته منتشرة في كل الأزقة والأحياء، وطريقنا ممتلئ بخطاباته التي علقت على الجدران الخاوية لبعض القرى التي نمر بها، لكن أكثر تلك الخطابات حرقة في القلب تلك التي تشير إلى أن الموت جاء اثر حادث غادر، هذا النوع من خطابات الموت هي الأكثر انتشارا في الشارع العراقي منذ الربع الأول من العام ٢٠٠٦ ، لكن الموت في بلادنا كالمطر، يسقط بشكل متساو على جميع العراقيين، لا يفرق بين هذه الطائفة أو تلك، الموت أكثر رفعة من السياسيين والمسلحين، فقد أعلن مبكراً شعاره البعيد عن الطائفية، فمتى ندرك أن خسائر جميع الأطراف التي تمتهن الموت متساوية، وان لا رابح في معركة الطائفية المقيتة »[2] .

٦ - ليل الوحشة والبوم الأبيض

عندما بدأ المساء يسرى فوق البيوت والشوارع ليمنحها لونا حالك السواد .. لاذت بغداد بصمت موحش لم يقطعه إلا أصوات طلقات رصاص وسقوط بعض قذائف الهاون وهى أمور اعتادها العراقيون خلال الفترة التى اشتعلت فيها نيران العنف الطائفى .. ينتظرون أن يشهدوا نتاجها صباح كل يوم فى جثث ملقاة على قارعة الطريق أو خلف السدة أو بيوت مهدمة من قصف أعمى .. وأنا بين الصمت الموحش وأصوات الرصاص والتفجيرات غارق فى تفكير عميق بعد أن تعب

(١) أكدت الوثائق التي نشرها موقع ويكيلبس ويبلغ عددها ٤٠ ألف وثيقة أن كافة الأطراف بالعراق شاركت في القتل والتعذيب .

(٢) كانت جدران بغداد عبارة عن حوائط لتعليق القماش الأسود المخصص للإعلان عن موت شخص أو مجموعة أشخاص .

محدثى الطيب واستكان لسبات عميق غير عابىء بما ألقاه فى نفسى من مشاعر وما رسم فى مخيلتى من صور جعلتنى أستذكر قول برنارد شو « استطاعت الإنسانية أن تحقق العظمة والجمال والحقيقة والمعرفة والفضيلة والحب الأزلى على الورق .. فقط » ..

فكل هذا الموت .. وكل تلك الدماء والقتل والعذاب والتدمير والجنون والرعب والعنف والإرهاب والدناءة والتدليس والمتاجرة بالدين والقيم والتاريخ وقضم المحرمات وكل ما يرتكب فى تلك الساعة الصامتة من جرائم يؤكد قول برنارد شو أن كل القيم والفضائل باقية على الورق وربما احترق هذا الورق أيضا ..

فكيف استمر فى تلك الأجواء وهل يمكن أن أواصل مهمتى المقدسة فى كشف الحقيقة وهل سيصدق أحد ما سوف أقصه عليه من حكايات سمعتها ومواقف مررت بها إذا ما طلبت العودة إلى مصر أم أن المسألة سوف تختصر فى اتهام بالهوان والخوف وعدم الرغبة فى العمل وعندها سوف أخرج من دائرة الاهتمام وأصبح مثل العراق فى نهايات عهد صدام حسين دولة خارج الحسابات وأكون صحفيا خارج التاريخ .. تذكرت حكمة صينية تقول « من امتطى نمرا .. حار كيف ينزل عن ظهره »، وها أنا قد امتطيت طريق الصعاب والمشقة والخطر دون أى عون أو سند أو مقومات حياة فلا كهرباء ولا ماء ولا أصدقاء ولا أمن ولا ظهير لى عند المحن ولا مكفن لى عند الموت اللهم إلا « العراقيون الطيبون » .. تذكرت قول جلال الدين الرومى « فى أشد الأحقاد ثمة نكهة حب .. وفى أسلم المبادئ ثمة نكهة حرب .. وفى أقدس المشاعر وأطهرها ثمة نكهة مجون وشهوة » .

مستلقيا على فراش الشوك قضيت أول ليلة فى بغداد واقفا على عتبة الذاكرة .. متأملا فى أعماق الوجدان تتقافز أمام عينى آلاف الذكريات والمشاهد والصور للحرب والحب والفرسان والخونة والإيمان والمجون والرحمة والظلم وسيف الجلاد وقفازات الرحمة .. أيام العذابات والنجاحات .. النصر والهزيمة .. مداعبات أصدقاء الطفولة وأحقاد المنافسين .. صورة أمى وزوجتى وطفلتى .. شقاوة ابنى ومرحه وغضبه ومرضه المستعصى على الحل إلا برحمة من الله [1] .. حكايات

(١) كان إياد ابني مصابًا بمرض النشاط الزائد وليس له قدرة على الكلام والتركيز واستمر علاجه حوالي أربعة أعوام خاض خلالها مئات الاختبارات للذكاء وجلسات التخاطب وتعديل السلوك حتى أتم الله شفاءه .

القتل من عراقيين ليسوا عراقيين ومواقف الرحمة من عراقيين طيبين ..

المروج الشاسعة الأرجاء الخالية من رائحة البشر تنتزع الأمان .. فالسماء موحشة والطرق غريبة ومفزعة مديدة الاتساع بلا أى شيء يوحى بالحياة .. لكن شيئا غريبا وسط هذه الصور والمشاهد والذكريات ظل هاجسى الأكبر أن سماء بغداد ليس بها نجوم وليلها ليس فيه حياة لطيور تغرد ونخيلها وأشجارها لا تسكنها العصافير وانما غربان تنعق وبوم أبيض يصفر محاولا خداع من يستعصى عليه النوم بأنه بلبل وليس بومة بيضاء .. مشهد يكاد يقتل من يحاول تفسيره قبل أن يقتله الجلاد .

بعد تفكير طويل والنظر إلى لا شيء أتفحص سقف الغرفة الذى انطفأت الشمعة المضيئة فيه إيذانا بنفاد بنزين المولد .. أغلقت باب الشك والخوف والقلق بعد أن أدركت أنه لا فائدة من كل ذلك وأنه يجب التعامل مع الأمور بقدر ما تتيح الظروف والملابسات مع الثقة فى رحمة الله واجترار دعوات زوجة مكلومة بفراق الزوج والحبيب ربما يعيننى كل ذلك على خوض غمار المذبحة .



الفصل الثاني

وقائع
أيام المذبحة



١ - البداية

عندما أيقنت أننى داخل المذبحة ولا فكاك منها تذكرت دعوة وليام ولاس التى أبدعها الفنان ميل جيبسون فى فيلم «القلب الشجاع» عندما أدرك أن الموت قدره لا محالة وأن موته ليس نهاية بل بداية الطريق فقال: «اللهم امنحنى القوة لأموت ببسالة» .. كنت أقاتل مثل شاعر محارب سلاحه القلم والأمل إلا أن ما يجرى جعل أسلحة أخرى تنضم إلى منظومة الشاعر المحارب أهمها الرغبة فى كشف الحقيقة التى لا يعلم أجزاء من تفاصيلها إلا منهم داخل المذبحة سواء قاتلين أو مقتولين .

بدأت أولى خطواتى للعيش داخل المذبحة بتوفير الإمكانيات الملائمة للعيش فى هذا المبنى المهجور وهذا المكتب الموحش الذى سوف يصبح مقرا للعمل والإقامة فى نفس الوقت وهو ما يعنى حتمية إيجاد اى نوع من الألفة بينى وبين المكان بكل سكانه من قوارض وحشرات ومخاوف وقلق وهواجس يؤججها آلاف الصور والخيالات التى رسخت فى ذاكرتى منذ كان الشاب العراقى الطيب يقص على مسامعى ما يدور بالعراق فى أول يوم مضى من مهمتى العصيبة .. يغلف كل ذلك رائحة بقايا الطيور العفنة التى تملأ أرض المكتب يزيد من أثرها المقرف الرياح التى تستقر فى هذا القفر فى نهارات صيف يوليو التى تلامس درجة الحرارة فيها سقف الـ٥٠ درجة لتزيد جحيم المكان جحيما يستعصى على الاحتمال يجعل نفسى تنزع إلى استنشاق عبق يوم واحد فى قاهرة المعز.

تمتد حدود المكان إلى مسافات مديدة لترسم فى مخيلتى شتى الرؤى .. فليس لدى فى هذا المكان الموحش سوى استحضار آلاف الصور والخيالات المنقوشة فى مخيلتى عن بيتى الهادىء وأسرتى الرائعة التى غادرتها منذ يومين فقط أشعر بهما عامين .. صور لأحضان مفتوحة تنتظر عودتى منتصراً .. صور لأصدقاء يتابعون أخبار الموت المجانى ينتظرون خبرا يؤكد أو ينفى مقتلى وأنا أردد عليهم قول جابرييل جارسيا ماركيز «نحن لا نموت عندما نريد .. بل نموت عندما نستطيع» .. صور لمشهد موت مفاجىء قد أكون بطله .. صور لعتمة أشد حضورا من الضوء فى كل مكان من المدينة المنكوبة .. صور لعويل أمهات ترتجف بشهوة البقاء بعد أن فقدت عزيزا تثير فى نفسى الضيق والتبرم .

قررت أن أنهى ذلك الشريط من الصور التى تولد المخاوف ورفعت بصرى إلى

السماء مستنجدا من تلك الوحشة .. تذكرت قول الشاعر الفلسطينى الأشهر محمود درويش « حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون .. ذهب الذين تحبهم ذهبوا .. إما أن تكون أو لا تكون » .. وقررت أن أكون داخل المذبحة بكل تفاصيلها مهما كلفنى ذلك من ألم ومشاق وأن أصنع نجاحا من تلك الكارثة التى وجدت نفسى فى أتونها - مطالباً ليس فقط بالحياة داخلها وإنما تحقيق انتصار- أعود به من مهمتى التى أعتبرها مثل أى صحفى حقيقى مهمة مقدسة .. والحقيقة أننى لم أجد مشقة كبيرة ولا غرابة فى ذلك فمن يعرفني جيدا يعلم أننى اعتدت على ذلك النمط من الحياة الشاقة بالغة القسوة مما جعل عندى الرخاء والقحط سيان بعد أن عقدت صداقات حميمة مع كل صور وأنماط العيش فالناس هم الناس فى كل أصقاع الأرض وآمالهم وآلامهم وطموحاتهم تكاد تكون واحدة ..

قليل من الظروف القاسية بلا أى مقومات للحياة وسط أشد المخاطر ربما يزيد الأمر سوءا إلا أنه فى النهاية ليس مستحيلا أن تعقد صداقة مع نمط الحياة الجديد بكل تفاصيله .. فقط هى الإرادة والأمل كفيلان بتحويل هذا القفر المليء بالفواجع إلى مكان يعج بالحياة .. يحتضن الأمل .. فالحياة ممكنة فى أى ظروف .. باقية ..لا يحدها قيد .. ولا يغلبها فناء.. أما أنت أيتها الغربة الكئيبة فسوف أقهرك بالصبر والصمود والأمل حتى تزدهر الحياة وسط مذبحة تزداد اشتعالا .. وكلما ازداد اشتعالها كلما ازدادت الأسئلة التى تؤرقنى وارتفع صوتها تطلب إجابات تبدو على الأقل مقنعة لعدد ولو بسيط من الناس وهو ما جعل مهمتى يوما بعد آخر تأخذ أبعادا جديدة تتطلب طرق أبواب جديدة وسلوك طرق جديدة ربما يكون الموت مختبئا فى أحد جوانبها .. كان على أن أكتشف الكثير من أسباب القبح التى باتت تغلف المشهد العراقى دون أن أنسى أن هناك دائما ضوء فى نهاية النفق وأن ما يجرى ربما يكون مرحلة العبور إلى هذا الضوء مهما استغرق ذلك من وقت ومهما كلف من خسائر فى النفس والمال .. ألم يقل أعز من قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

تذكرت فى تلك الأثناء صفة أطلقها الخبير الإعلامي ياسر عبد العزيز عندما كنا نسير يداً بيد في بداية طريق صاحبة الجلالة بعد تخرجنا من كلية الإعلام جامعة القاهرة حيث شاركنى فى كل تفاصيل حياتى والملابسات المستحيلة التى رافقتنى عندما بدأت خطواتى الأولى فى عالم الصحافة فى قاهرة

المعز .. كان يصفنى دائما «بصاحب الإرادة الحديدية» وهى الصفة الموازية لصفة ظلت لصيقة باسمى يرددها أصدقائى من العراقيين سواء الصحفيين أو غيرهم وكذلك رئيس وكالة أنباء الشرق الأوسط الأستاذ عبد الله حسن وهى « الفدائى» لأن كل الطرق المؤدية من وإلى مهمتى هى طرق مزروعة بالموت فما بالك أشد تلك الطرق خطرا وهو طريق البحث عن الحقيقة الذى قال عنه الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تستوحشوا طريق الحكمة لقلة سالكيه » .

٢ - كيف أجد إجابات

لعل المثير فى الأمر هو أن العراق الذى رزقه الله بكل الثروات والخيرات وكان من أوائل الحضارات أبى أيضا إلا أن يكون ثريا فى حجم الكوارث والأزمات وهو ما ارتد ثراء فى أسئلة تريد إجابات تزداد وتمتمد كلما امتد زمن المذبحة .. قائمة طويلة من الأسئلة تتردد لا أستطيع أن أحصيها ولا أعتقد أن مهمتى سوف تمتد للإجابة عليها مهما طالت لهذا قررت حصرها فى أضيق نطاق ورتبتها وفق أولوية تغيرت مع تغير ظروف المهمة الصحفية التى امتدت أربعة أعوام .. بدأت أتساءل عن عدد طموحات الفقراء والمضطهدين التي أجهضت في العراق فارتدت إليهم خيبات باعتبارهم الفريق الذى يتلقى دائما الطعنات من الفرق المتنافسة لتكرر أسطورة جلجامش نفسها من جديد فى أرض سومر عندما تحالف مع عدوه أنكيدو الذى خلقته الالهة أورور استجابة للآلهة عشتار الجميلة ليخلص الشعب من ظلم جلجامش وجبروته ومع ذلك رحب الشعب الطيب بهذا التحالف أملا فى أن يصلح أنكيدو عدوه جلجامش المتجبر الذى أذاقهم الويلات ..ما أعداد الأحزاب ومصادر تمويلها ،وعرابو تلك الأحزاب والتنظيمات من الساسة الذين لم يكن لديهم ارث نضالي سابق ،وعن الساسة الذين غيروا خط مسارهم ١٨٠درجة من عضو فما فوق في حزب البعث[١] . إلى مسميات أخرى في أحزاب موجودة على الساحة ليمارسوا ما كانوا يمارسونه من استغلال واستبداد وفساد ولكن تحت عناوين أخرى بعضها يمتلك الكثير من القدسية.

وماذا عن مشاريع الأحزاب ،والكتل التي لم تنفذ، والتي طرحت لتضليل الناخب

(١) حزب البعث الاشتراكي الذي كان يتزعمه الرئيس الراحل صدام حسين وحكم العراق أكثر من ٣٠ سنة .

من اجل الوصول إلى السلطة.. وما حجم أملاك الساسة قبل استلام السلطة، وأملاكهم الحالية في الداخل والخارج ،المسجلة بأسماء ذويهم أو أقاربهم أو من يدينون لهم بالولاء مثلما فعل صدام حسين وجوقته قبل ذلك وضاعت المليارات دون أن تستفيد منها البلاد أو العباد .

وما مصير وعود أطلقها ساسة لم تنفذ ،ومصير لجان التحقيق المشكلة في قضايا مهمة ولم تخرج بنتيجة كان يجب أن تفسر ما لا يفسر .. وما مصير من جرى اختطافه من رموز وشخصيات من الوزن الثقيل أمثال السفير المصرى الفقيد إيهاب الشريف وأعضاء اللجنة الأوليمبية الذين تجاوز عددهم العشرين بما فيهم أحمد الحجية السامرائى رئيس اللجنة ومراجعى وموظفى دائرة البعثات الذين تجاوز عددهم الـ ١٥٠ شخصا ثم من نفذ عمليات اختطاف الجنود الأمريكيين والحراس البريطانيين ناهيك عن المواطنين العاديين الذين لا يحملون صفات أو ينتمون لجهات نافذة ومنهم عراقيون ومصريون وعرب .

وما عدد الساسة ولصوص المال العام والخاص وأموال الدولة والحواسم/ مصطلح وجد طريقه إلى ألسنة العراقيين بعد احتلال العراق ويطلق على كل شيء غير قانونى نسبة إلى عمليات النهب والسرقة التى تلت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى معكرة أطلق عليها صدام حسين معركة الحسم عام ٢٠٠٣ / الذين سرقوا وهربوا والذين مازالوا يسرقون، وأعداد منظمات المجتمع المدني التي شكلت ،والعدد الفعلي الذي يقدم خدمات للمواطنين وأين يذهب ما يجمعوه من أموال تتجاوز ملايين الدولارات دون أى تواجد حقيقى اللهم إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد.

وما هو العدد الحقيقي للتفجيرات، التي حدثت في العراق بواسطة السيارات المفخخة ،والعبوات، والانفجارات الأخرى، الغامضة وحجمها وقوتها وعدد الشهداء والمفقودين، وعدد من فقدوا بيوتهم، وسياراتهم، وممتلكاتهم، ولماذا لم يستم تعويضهم، وما هى أعداد الإرهابيين المقبوض عليهم بجرائم إرهابية، وأعداد المحكومين بالإعدام ،من نفذ الحكم بهم، و من أطلق سراحهم، أو هربوا من السجون .. كيف هرب ياسر سبعاوي من سجن الموصل ،وكيف تمكن المحكومون بالإعدام من الهرب من سجن تكريت و كيف تمكنت فرق الموت التى تحمل مسميات مختلفة وجنسيات مختلفة ومذاهب مختلفة من الدخول إلى العراق بهذه الأعداد ومن أين تأتى مليارات الدولارات التى تمول نشاطها هل من الشرق أم الغرب .. وكيف يسمح لقادة فرق الموت والميليشيات بالخروج من سجونهم دون

محاكمة رغم ثبوت الكثير من تهم القتل والاختطاف الموجهة إليهم .. وما حجم الصفقات التى تتيح إطلاق سراح من هم مثل قائد عصائب أهل الحق قيس الخزعلى بعد أن ثبت بلا شك قيامهم باختطاف البريطانيين الخمسة من أحد مبانى وزارة المالية وسط بغداد وقتل أربعة منهم .. وكيف استطاع زعيم التيار الصدرى أن يفرض قضية إطلاق سراح أتباعه حتى المحكومين بالإعدام كشرط لتمرير تشكيل الحكومة العراقية التى طال انتظارها بعد انتخابات رائعة جرت فى مارس عام ٢٠١٠ .. وكيف تتحكم كتل سياسية شبه فاشلة فى الانتخابات فى مصير قوى حققت أغلبية ساحقة فى المقاعد البرلمانية .. كيف تجرى المعادلات وترتسم ملامحها رغم تناقض أرقام معطياتها عن نتائجها الحتمية .

كيف تتفشى ظاهرة التردي الأمني، وتحدث الخروقات الأمنية بين آونة وأخرى وأسبابها الحقيقة غير تلك التي يقولها المتحدثون بأسماء القيادات والوزارات الأمنية وكيف تصل سيارات محملة بأطنان من المتفجرات إلى مناطق لا ينفذ منها بشر إلا بسلطان .. وكيف تؤشر أجهزة كشف المتفجرات إلى من يضع عطرا أو يحمل أغراضاً منزلية مثل صابون التواليت ولا تؤشر عند مرور أسلحة ومتفجرات فيفعل من يحملها ما يفعل من قتل وتخريب بدم بارد[(١)] .

وما هى أعداد تلك الخروقات الأمنية المسجلة،وغير المسجلة وأعداد الإرهابيين والمتسللين، و الحجم الحقيقي لتدخل دول الاحتلال ودول الجوار و دول الإقليم في الشأن العراقي .

كنت دائما أتساءل: لماذا تظل المبانى الموسومة بالرصاص وآثار التفجيرات شاخصة لتروى حكايات المرارة والألم التى غلفت المشهد العراقى فى زمن المذبحة .. ولماذا تبقى ملامح الخراب فى مناطق تقع بقلب عاصمة الرشيد فى أحياء الفضل والكفاح والصدرية وغيرها من المناطق التى رسمت طلقات الرصاص والمدافع على حوائطها خرائط الموت والعذابات لسكانها الطيبين الفقراء الذين وجدوا أنفسهم فى أتون حرب فرضت عليهم لتحرق يابسهم المحترق أصلا بفعل سنوات الحرب والحصار وتزيد آلامهم التى لا يحتملها بشر .

وماذا عن ملف الاغتيالات المنظمة التي طالت كل كفاءات العراق وزهرتها من

(١) نشرت الصحف البريطانية تقارير موثقة حول عدم صلاحية تلك الأجهزة المنتشرة في شوارع بغداد وكيف تمت الصفقة بين مسؤولين عراقيين وأصحاب الشركة البريطانية من خلال رشاوي وفساد .

العلماء، والأطباء،والفنانين والصحفيين والرياضيين وأساتذة الجامعة ،والطيارين ومن هى الجهة التي خططت ونفذت تلك العمليات القذرة بشكل منظم .. ومن المسؤول عن موجة القتل المبرمجة التي طالت مكونات عاشت وشكلت جزءا من الفسيفساء العراقية التى كانت أحد عناصر القوة الناعمة مثل المسيحيين، والصابئة المندائيين، والايزيديين، والشبك .

لماذا لم تعلن الحكومة عن الجهة التي ينتمي إليها القتلة بعد أن ألقي القبض على بعضهم كما صرح بذلك الناطقون الرسميون .

وماذا عن الحروب الطائفية،ومن أشعلها، ومن ساهم في أذكاء نيرانها المشتعلة لتستمر حوالي عامين وتكاد تودى بالبلاد إلى حرب أهلية شاملة ومن غذاها لتحصد أرواح مئات الآلاف من الأبرياء وما مصير الجثث مجهولة الهوية التى كان الكثير منها غذاءاً للكلاب الضالة بينما رقد ما تبقى منها فى مقابر جماعية دون أن يمتلك ذووها حق دفنها وأخذ العزاء واكتفوا بمجالس عزاء وهمية أو لم يفعلوا ذلك .

وماذا عن القضية الشائكة العصية على الحل والتى استمرت حتى إنهاء مهمتى فى عام ٢٠١٠ أى بعد مرور ٧ سنوات على سقوط نظام صدام حسين (قضية الكهرباء) كم من المليارات خصصت لتطوير قطاع الكهرباء؟ كم صرف منها، وكم سرق ،وكم سيمضي من الوقت لينعم العراق صاحب ثالث اكبر احتياطي نفطي بالكهرباء ؟! وما هو حجم بيزنس المولدات المنزلية ومولدات الأحياء وكميات السولار والبنزين التى تلزم لتشغيل أكثر من ٧ ملايين مولد منتشرة بالعراق سنويا وكيف يتم استيراد المشتقات النفطية ويتم بيعها من خلال لصوص يعرفهم العراقيون باسم « البحارة» وكيف لا يجد العراقى الذى تعوم بلاده على بحور من النفط / الكيروسين/ الذى يدير به المدفأة النفطية / الصوبة[١] / فى مساءات شتاء العراق الموحشة ونهاراته قارسة البرودة .

وما هى أعداد العوانس، والمطلقات، والأرامل، والأيتام والمشردين و كبار السن والمعاقين من ضحايا التفجيرات وأعمال العنف،و أعداد المهجَرين والمهاجرين والنازحين قسرا أو قهرا سرا أو علنا والى من آلت ممتلكاتهم وبيوتهم .

(١) الصوبة : هي مدفأة تعمل بالكيروسين يستخدمها العراقيون في الشتاء القارس بسبب عدم وجود كهرباء لتشغيل المدفأة الكهربائية .

وما أعداد الذين ماتوا بسبب عدم توفر الدواء أو ثمنه الذى يستعصى على غالبية العراقيين توفيره فى ظل أزمة بطالة خانقة، أو بسبب الأدوية المغشوشة التى أثرى منها معدومو الضمير والأخلاق ، والذين ماتوا بسبب العواصف الترابية التى تقذف بها أرض السواد بعد أن أصيبت بالجفاف واحترقت أشجارها وتراجع عدد نخيلها إلى الربع تقريبا بعد أن كانت أحد رموز عراق الخير .

وما هى نسبة التلوث البيئي فى الهواء والتربة ،وتصحر وملوحة الاراضي ، وتدهور الوضع الزراعي، والجفاف ،وتدني نسبة المياه في نهري دجلة والفرات، وجفاق نهرالكارون ونهر الوند الواقعين فى محافظة البصرة جنوبى البلاد والذين قطعت الجارة الشرقية المياه وحولت مجراها إلى الداخل فجف الزرع والضرع وماتت الكائنات الحية التى كانت تعتبره مكانها الطبيعى للعيش والتكاثر ، وعن أعداد أشجار النخيل ، والأشجار المثمرة المتبقية من موجات الموت الجماعي ومعرفة أعداد الأشجار الميتة .سأحاول معرفة مساحة الأراضي العراقية المصادرة، أو المعتدى عليها من دول الجواروعن سرقة آبار النفط العراقية ،كميات النفط العراقية المسروقة!

وما عدد الذين ماتوا بسبب انتشار الأوبئة، والأمراض المزمنة ،والمستعصية والذين أدمنوا الحشيش ،والمخدرات، وحبوب الكبسلة وهى أمور لم يعرفها العراق على مدى تاريخه الحديث قبل دخول القوات الأمريكية واستباحة أرضه من جيران استغلوا الوقت المناسب للانتقام أو العبث أو القتال بالوكالة وتصفية الحسابات على أرضه بعد أن فقد أهله السيطرة عليها .

وما هى واردات العراق المالية من مبيعات النفط الذى اعتبره البعض ملكا لهم ونصيبهم الذى صادره صدام حسين طوال عهده الذى استمر ٣٥ عاما وكونوا مليارات الدولارات حتى إن شريط فيديو تم تناقله عبر أجهزة المحمول أظهر أحد الذين لم يعرفوا فى حياتهم شكل الدولار وهو قابع فوق بنيان من الورق الأخضر استطاع جمعه من التجارة غير المشروعة فى النفط إلا أنه لم يتمكن من تصريفه الذى يحتاج إلى الاستقلال بجزء من العراق المستباح وإعلان دولة تكون تلك الأكداس من الدولارات ميزانية لها لمدة عامين[١] .

وما حجم الدخل القومى العراقى من الموارد الأخرى غير النفط وحجم وطرق

(١) أثناء إحدى الحملات العسكرية جنوب العراق تم اكتشاف بناء كامل مليء بالدولارات يعود لأحد مهربي النفط وتم تصويره بالموبايل وتناقله العراقيون عبر البلوتوث .

الإنفاق، والأرقام الحقيقية للأموال التي تدفعها وزارة المالية كرواتب، و ميزانيات، ونثريات يقال إنها تقدر بالمليارات للرئاسات الثلاث /الجمهورية و الوزراء والنواب ؟

وما حجم التبادل التجاري الذى يسير فى اتجاه واحد بالطبع لمصلحة دول الجوار حتى أن الخيار والطماطم والآيس كريم / الموطا/ والمناديل الورقية مرورا باللحوم والدواجن والمعلبات ومنتجات الألبان والملابس والمشتقات النفطية .....الخ يحمل كل منها إسم الدولة التى جاء منها .. وما هو حجم الأموال المحولة للخارج، والأموال التى تم إنفاقها فعليا على المشاريع العمرانية ، والدوائر الأمنية التى أعيد تشكيلها من جديد بأسلوب الدمج ،وإعادة البني التحتية التى تكفى ميزانيات العراق الانفجارية لجعلها تفوق البنى التحتية لأرقى بلاد الدنيا وكما يقول العراقيون الطيبون : إن شوارعنا التى يكسوها التراب وتمزق الحفر أوصالها يجب أن تكون مكسوة بالحرير وما حجم أزمة السكن فى بلد تستطيل به الأرض آلاف الكيلومترات تنتظر من يقيم عليها مساكن للمشردين والفقراء الذين يبيتون فى العراء وأين شبكات المياه والمجارى التى يخصص لها ملايين الدولارات سنويا .

وما أعداد الدوائر والمستشفيات والمدارس، التى تم بناؤها منذ عام ٢٠٠٣ وما بنى منها هل صمد أم انهار كما انهارت أشياء كثيرة .

وإلى متى تستمر أزمة البطالة الخانقة ، وما هو أعداد العراقيين المعينين بعد دفع رشاوى، أو الذين عينوا عن طريق كتب تأيد وتزكية من أحزاب ،وعن المعينين بالواسطة،والمعينين بالصدفة وهو ما جعل مجلس النواب يقر ميزانية عام ٢٠١٠ مع توصية بمنع الوظائف والتى كان يقدر عددها بحوالى ١١٥ ألف وظيفة خوفا من استغلالها فى الدعاية الانتخابية التى كان ينظر إليها العراقيون والعالم على أنها ستعيد رسم خارطة النفوذ وتصلح ما أفسدته المرحلة الانتقالية التى استطالت لتستطيل آلام البلاد والعباد .

وما هو الحجم الحقيقى للمظاهر التى ترافق غالبا انتشار البطالة المطعمة بالفساد .. فما هى الأعداد الحقيقية أو حتى التقريبية لحالات الطلاق والهجر، وما حجم ظاهرة الشذوذ الجنسى وما يطلق عليه العراقيون « الجراوي أو الطنطات المثليين » ، وما سبب ازدياد أعدادهم في شوارع بغداد وفى مناطق يفترض أنها تخضع لتشدد دينى مثل مدينة الصدر .. وما عدد من تم تصفيته من هذه النماذج .

وماذا عن القاموس الأحمق الذى دخل حياة العراقيين تزامنا مع سقوط بغداد بما يحمله من المصطلحات اللغوية وأهمها «الحواسم ، والصكاكه ، والعلاسة ، والحدايق، وسواق المخدات، والفايخين » .. من أين أتت هذه المصطلحات ،وما هي الجهة التي أشاعت ثقافة (العلس والصك) في العراق وهى ثقافة الخيانة والتدليس وبيع اقرب المقربين حتى يتم قتله أو يلقى مصيره قبل الحصول على فدية مالية .

وماذا عن حجم الخراب، الأخلاقى وما خلفه من شهداء،الموت العبثى من عاهات أخلاقية مستديمة، وأمراض مستعصية نفسية واجتماعية تفوق ما حل بالعراق من كارثة أمنية وسياسية .. فما هو عدد المرتشين والمفسدين، واللصوص، والمجرمين، والقتلة، والعملاء الذين نفذوا أجندات خارجية ضد بلدهم دون أى وازع من ضمير ولماذا لا تكتمل محاولات الإصلاح التى بدأها البعض كأفراد عاديين أو مسؤولين حتى يعالجوا الأمراض ،والوهن، واليأس الذى أصاب المجتمع والذى رأيته اشد خطورة من العنف والفتنة الطائفية والذى تجلى عندما كنت أقوم بتغطية أثار انفجار مروع نفذه انتحارى بشاحنة تحمل طنا من المتفجرات شديدة الانفجار عندما اقترب منى طفلان كان وجهيهما يحملان بقايا من لمسة البراءة .. اقتربا يحملان فروة راس وكف يد لا ندرى أين بقايا جسديهما وبصوت مرتفع ينتظر صاحبه أن ننعم عليه ببعض المال « صور عمو صور » دون اكتراث بما يثيره المشهد من قشعريرة أصابتنى أنا وزميلى العراقى الذى كان يعمل لحساب وكالة أجنبية .

من الذي قام بسرقة البنوك العراقية ؟ ومن الذي قام بحرق ملفات وزارة الصحة خاصة ما يرتبط بالعقود الخارجية ؟ ومن قام بحرق دوائر التحويل الخارجي في البنك المركزي العراقي؟ ماذا حدث في وزارة التجارة ولماذا هرب الوزير عبد الكريم السودانى بعد أن تمكن شرفاء من إعادة طائرتة إلى مدرج مطار بغداد وتقديمه للمحاكمة بتهم عديدة تتعلق بالفساد فى وزارته ؟ ما سر عقود الطائرات القديمة التي أصرت الحكومة على شرائها ؟ ما سر إلغاء الخطوط الجوية العراقية ، بعد ما قال وزير النقل الذى أجبر على إجازة مفتوحة عامر عبد الجبار مباشرة على التلفزيون الرسمى : إن السر يكمن في تأسيس شركات أهلية للطيران بدل تلك المؤسسة الرسمية العريقة؟! لماذا تبقى الحياة البلدية والمعيشية في العراق بلا خدمات ، وبلا ماء صالح للشرب ، وبلا مجاري .. ؟؟

وخلال رحلتى للبحث عن إجابات عن تلك الأسئلة ولأننى أؤمن بأن هناك

دائما ضوء فى نهاية النفق وأن مهمة الصحفى والإعلامى كشف الحقيقة بكافة أوجهها وليس وجهها السيىء فقط كانت تظهر أسئلة جديدة كل يوم عن حالات انتصار تثير الانبهار وتدعو للأمل وسط كل هذا الركام من اليأس والصور المظلمة .

كنت أتساءل عن عدد من تحققت أحلامهم فى تلك الفترة الانتقالية من تاريخ العراق بين نظام صدام الذى كان يراه ملايين العراقيين كابوسا وعائقا أمام فرص الحياة خاصة عندما شاهدت على شاشة إحدى الفضائيات التابعة لجهة سياسية نافذة فى العراق الجديدة مذيعا شابا لم تخطئه عينى رغم التطور المبهر الذى بدا على مظهره كان يعمل حارسا لأحد البنايات إبان مهمتى الأولى بالعراق التى انتهت قبل دخول القوات الأمريكية إلى بغداد وسقوط نظام صدام حسين .. فكم من الشباب تمكن من تحقيق حلمه وتغيير مصيره فى العهد الجديد ..

وكم من الموهوبين اللذين كان انتماؤهم الطائفى أو العشائرى يقف عائقا فى طريق مستقبلهم تمكنوا من رسم مستقبل جديد لهم رغم دوامات العنف وبحور الدماء .. وكم من العراقيين الشرفاء اللذين تمكنوا من تكوين ثروات عبر طرق لا يشوبها فساد أو انتماءات لفرق الموت مثل ضياء الذى كان يعمل حمالا / شيال/ فى سوق الجملة الرئيسى بالعراق / الشورجة / وأسند إليه أحد أصحاب المحال العملاقة مهمة إدارة تجارته المشروعة فى الأقمشة عندما تعرض لتهديدات ومحاولات اختطاف وأتاحت له ظروف بغداد وتقلبات الأحوال أن يصبح من أصحاب الثروات والسيارات فى بغداد وخارجها بعد أن كانوا يطلقون عليه لقب « أبو اللوبيا» لأنها كانت قوت أولاده الوحيد فى أيام القحط التى استحالت أيام عز فى أيام المذبحة .. وكم من منتسبى الشرطة الشرفاء تمكن من ادخار جزء من راتبه المجزى وحصيلة عمله الإضافى فى مهن راجت بسبب معضلة الكهرباء والماء وهى إصلاح المولدات والتجارة فيها وامتلك سيارة كان يحلم طوال سنوات عمره الأربعين أن يمتلكها أحد أبناء عشيرته وليس هو بنفسه حتى يقول أن هناك من أبناء عشيرتنا من يمتلك سيارة حديثة .. وكم من العراقيين الطامحين إلى العلم تمكن من خوض غماره والوصول إلى مقعد لدراسة الماجستير أو الدكتوراه رغم عمليات القتل المنظم والتدمير المنهج للكفاءات وحملة الشهادات العليا مثل أبو شهاب الذى أتاحت له وظيفته الحكومية راتبا كبيرا يكفى للمعيشة والدراسة

.. وكم من العراقيين تمكن من اللحاق بركب مهن ووظائف كانت قصرا على ذوى الولاءات والانتماءات .

وكم من العراقيين اللذين ينتمون إلى الطائفة السنية تمكن من الحصول على فرص غالية فى زمن الفرص الضائعة بالنسبة لطائفتهم بعد أن حرموا من تلك الفرص والمزايا فى عهد صدام حسين الذى كان يشار إليه كحاكم سنى أهان الشيعة وعانوا خلال فترة حكمه من الإقصاء والتهميش بينما الحقائق على الأرض تشير إلى أنه ضرب الشيعة والسنة والأكراد واكتوى جميع العراقيين من نظامه الديكتاتورى ولهذا تمكن عبد الرحمن الذى ينتمى لعائلة سنية عريقة فى محافظة صلاح الدين / مسقط راس صدام حسين/بعد أن آتاح له العهد الجديد فرصة تاريخية عندما تولى منصب مدير مكتب وزير الدفاع سعدون الدليمى وتمكن من إعادة مئات الضباط من مختلف الرتب إلى العمل والحياة مرة أخرى بعد أن تم إقصاؤهم فى زمن الحاكم السنى .. وكم من ذوى الخبرات الأمنية تمكنوا من العمل فى ظل النظام الجديد وتبوأوا مناصب عليا ومراكز حساسة فى وزارات وأجهزة أمنية رغم كل المخاطر التى أحاطت بهم من قبل متطرفين محسوبين على مذهب أو قومية أخرى رأوا فيهم صورة جديدة من نظام قالوا : إنه أذاقهم العذاب رغم أن خطايا نظام صدام حسين لم تتوقف عندهم وإنما اكتوى بنيرانها الجميع .. وكم ضابط سنى تمكن من النجاة بفضل أخ له شيعى أنقذه من عمليات التصفيات الجسدية المنظمة التى تولت أمرها الميليشيات الشيعية والقاعدة السنية على حد سواء فى قائمة تمتد لمئات الصفحات كتبتها دماء أبرياء بدعوى انتماءاتهم المذهبية والقاتل واحد .

مئات الأسئلة تفتح الإجابة عليها التى كانت أكثر سرعة وسهولة خاصة عندما أصبحت الحركة المحفوفة بالمخاطر متاحة فى بغداد وعدد من المحافظات أبواب الأمل التى توصل إلى الضوء البعيد فى نهاية النفق .

لم أنسى خلال رحلتى في البحث عن إجابات لكل تلك الأسئلة شعرا لأمل دنقل أضعه دائما ضمن منظومتى التى تحكم عملى وحياتى يقول ..

ربما ننفق كل العمر كى ننقب فى الجدار ثغرة

حتى يمر النور للأجيال مرة

ربما ..لو لم يكن هذا الجدار

ما عرفنا قيمة الضوء الطليق

٣ - عراقيون طيبون

ساعدنى كثيرا فى الاستمرار والتغلب على البداية المستحيلة وجود عراقيين طيبين بجوارى أولهم كان « أبو حيدر » أقدم موظف فى مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط .. يتغير الجميع وهو مستمر .. شيعى عربى طيب من سكان مدينة الصدر التى كانت عنوانا بالغ الوضوح لكل ما يجرى فى العراق .. جوع .. قهر .. فقر ..عنف طائفى أعمى .. ميليشيات.. قتل.. اختطاف.. قذائف هاون.. كاتيوشا .. تفجيرات .. كل ما يصيبك بالجنون من حكايات حقيقية أو مزيفة لحفلات إعدام جماعى لشباب من أهل السنة .. عمليات منظمة للاختطاف .. مخابىء للتعذيب والقتل بدم بارد .. مقر الجيش الذى سوف يستقبل الإمام المهدى[1] عند عودته من الغيبة ويحارب به أهل الكفر والظلم وهو جيش المهدى الذي كان يثير مجرد ذكر اسمه الكثير من الرعب .. قادة فرق الموت والمجموعات الخاصة .. إلا أن أبو حيدر ومثله كثيرون يدل وجودهم على أن الكثير من الصور غير صحيحة أو على الأقل مشوشة فقد كان الرجل يتمتع بطيبة تغلبها مسحة قهر واضحة من زمن سمح لأراذل البشر أن يتملكوا ويحكموا بينما لم يسمح لهذا الرجل الطيب المخلص الذى بكى حينما سقطت بغداد فى مستنقع السرقة والنهب المنظم عقب دخول القوات الأمريكية عام ٢٠٠٣. بمجرد امتلاك منزل يأوى أولاده وأحفاده اللذين أنجبتهم ابنته الكبرى من زوج وجدوا جثته ذات يوم ملقاة على أحدى الطرقات دون ذنب سوى أنه وجد فى راتب الشرطة المجزى معينا على قسوة الحياة فى العراق الجديد .. كان أبو حيدر نموذجا لمئات الآلاف من العراقيين القرويين الذين نزحوا إلى بغداد من أهوار العمارة المحاذية لإيران وهى مركز محافظة ميسان التى تبعد حوالى ٣٦٠ كم جنوب شرق العاصمة إلى بغداد بحثا عن الرزق الصعب ولم تنصفه بحور النفط التى يعوم عليها العراق سواء فى زمن الثوار من أمثال عبد الكريم قاسم أو زمن الطغاة أمثال صدام حسين أو العراق الجديد الذى كرس طبقية من نوع آخر أتاحت للفاسدين والقتلة وقادة فرق الموت

(١) الإمام الثاني عشر لدى الشيعة الجعفرية أو المهدي المنتظر الذي سوف يظهر ليملأ الدنيا خيرًا بعد أن ملئت شرًا وفقًا لعقيدتهم .

أن يبنوا قصورا بينما لم تمنح المخلصين المنكوبين فرصة أن يبنوا لهم لا بيوتا ولا قبورا؛ لأن موتهم دائما يأتى بشكل مفاجىء لا يسمح باكتشاف صاحب الجثة فى كثير من الأحيان ناهيك عن الجثث التى لا تبقى لها التفجيرات الدموية أى اثر لتزيد من مأساة الفقراء وتمنعهم مجرد زيارة قبور عزيز فقدوه ولم يعثروا على بقايا جسده.

إلا أن كل هذه الكوارث لم تمنع أبو حيدر ومن يشاركه طبقته المطحونة من السعى وراء الرزق يجتاز كل يوم طرقا مزروعة بالموت .. وينهى يومه الغابر نائما فى بيت ربما لن يتمكن أن يبيت فيه ليلته القادمة إذا ما أراد صاحبه أن يخليه .. إلا أن صموده لا يختل أبدا وعزيمته لا تلين .. فمثل هؤلاء الطيبين يعيشون بنوع غريب من الأمل .. أمل البقاء على قيد الحياة حتى لو انعدمت كل مقومات الحياة .

قرأ أبو حيدر على مسامعى سيلا من النصائح قبل أن نبدأ العمل ونزيل خرائب المكان وأصر على أن أنصت وأفهم لما يقول قبل أى شيء لأنه يجب أن أتمسك بتلك النصائح فى المهمة الجديدة وأن أعتبرها دستورا حتى أستمر على قيد الحياة إلى أن يشاء الله .. أخبرنى أن بغداد هذه المرة غير التى غادرتها منذ ثلاثة أعوام عندما كنت فى مهمتى الأولى[1] .. وأن المصريين والعرب بشكل عام غير مرحب بهم حاليا فى عاصمة الرشيد وأنه يجب الا أبتعد عن المكتب كثيرا ولا أخرج إلا بصحبته وألا أجاهر بلهجتى المصرية الفاضحة أو مهنتى الكارثة لأنهما سببان مباشران للقتل إذا اجتمعا فى ذلك الوقت .. أن أظهر بملابس عادية لا تكلف فيها وألا أظهر أموالا أحملها وألا أكون منفتحا فى علاقات حتى مع زملاء المهنة وألا أعطى عنوانى لأى شخص أو رقم هاتفى وألا اتبع أى شخص إلى أى مكان يزعم أن به نشاطا يصلح للتغطية الصحفية مالم يكن موضع ثقة وروى لى موقفا لزميلى مدير المكتب السابق عندما اصطحبه أحد الأشخاص لإجراء مقابلة كادت أن تكون نهايته لولا تدخل شاب عراقى طيب اسمه نمير حداد وهو نجل زميلنا الفاضل صبحى حداد مراسل (البى بى سى) فى بغداد قبل انهيار نظام صدام واضطر للنزوح إلى خارج العراق تبعه ابنه نمير بعد ثلاث محاولات للتصفية ومئات التهديدات رغم تنقله من سكن إلى آخر

(١) كان الكاتب مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط بالعراق أواخر عام ٢٠٠٢، وأوائل عام ٢٠٠٣.

حيث أكد لي نمير القصة التى رواها أبو حيدر قبل فراره إلى دمشق ثم الاستقرار فى عمان بحثا عن ملاذ آمن .

بعد أن أكمل أبو حيدر سرد نصائحه الغالية والثمينة نظر باتجاهى وكأنه ينتظر منى ردا أو أن أقول شيئا إلا أننى كنت مشدوها بما يجرى من هذا الرجل الطيب وإصراره على توفير الحماية لي رغم أنها ليست مسئوليته بينما لا يوجد مقعد نجلس عليه وينتظرنا الكثير من العمل لتجهيز المكتب .. قطع أبو حيدر لحظات شرودى لنبدأ حملة نظافة قاسية استمرت أربعة ساعات شاركنا فى جزء منها عراقى آخر أكثر طيبة عرفت أن يقيم بشكل متقطع فى شقة متواضعة كانت مقرا للحارس فوق سطح البناية حيث يدير جزءا من أعمال صاحب البناية الذى فر إلى عمان بحثا عن الأمن مثل ملايين العراقيين .. وعند حلول الظهر استأذن أبو حيدر حتى يتمكن من العودة إلى مدينة الصدر فى وقت مناسب لأن قانون الغاب الذى بات يحكم العراق أصدر مرسوما بأن ينتهى النهار عند منتصفه ليبدأ نهار آخر يملكه آخرون غير العراقيين الطيبين يعيثون فيه فسادا وقتلا وتخريبا .

أخذ أحمد الطيب دوره فى تقديم العون .. كان شابا مثقفا تخرج من كلية التجارة ووصل إلى درجة نائب مدير دائرة الكهرباء فى منطقة الحبانية التابعة لمحافظة الأنبار التى صارت معقلا لتنظيم القاعدة مارس انطلاقا منها أبشع الجرائم ضد الإنسانية باسم حماية السنة اللذين كانوا أول ضحاياه .. كما مارس جيش المهدى ومن عمل باسمه مع باقى الميليشيات الشيعية جرائم يندى لها الجبين بدعوى حماية الشيعة الذين كانوا ايضا أول الضحايا ضمن قواعد جديدة للعبة الموت والحياة جعلت العراقيين يتسلقون كل يوم مقبرة جديدة اما للدفن أو لتقديم العزاء .

أكمل الشاب الطيب ما بدأه أبو حيدر من نصائح للبقاء على قيد الحياة زادها بنقل بعض من خبراته لتوفير الكهرباء والماء وشرح نوعيات الأدوات والأجهزة التى ينفرد العراقيون باستخدامها استثناء من باقى دول العالم حيث بات العراق يعيش ضمن حدود اوائل القرن الماضى ..

وكان الدرس الأول هو كيف يمكن أن توفر التيار الكهربائى لمدة لا تقل عن ٢٢ ساعة يوميا لأن الكهرباء التى توفرها دوائر الكهرباء فى العراق الجديد لا تزيد بأى حال من الأحوال عن ساعتين يوميا ويتطلب تشغيل المولدات المنزلية اما

السولار أو البنزين وهما مادتان شحيحتان فى واحد من أغنى بلاد العالم بالنفط وأفهمنى الشاب الطيب كيف يمكن تبادل الكهرباء مع من توافر من الجيران بطريقة التبادل البدائية من خلال جهاز تحويل أوتوماتيكى اخترعه العراقيون ويسمى / الجندوفر/ له أربعة مخارج ومداخل للتيار تتيح كهرباء المولد المنزلى والمولد الخارجى ومولد الجيران والكهرباء الحكومية / الوطنية/ ويعمل عبر شبكة من الأسلاك الكهربائية التى تتشابك مع أسلاك الجيران لتشكل مشهدا لا يوجد فى أى بلد بالعالم ولا يمكن إلا لخبير أن يفك طلاسم حركتها أو بداياتها ونهاياتها لأنه أمر شديد التعقيد .. ولأول مرة أعرف ما تعنيه الكهرباء لأننا فى مصر وباقى الدول نتعامل معها على أنها مجرد ذر يضىء المصابيح ويشغل الأجهزة بكل أنواعها دون حساب لما تستهلكه من أمبيرات محددة .. أما فى العراق فان استهلاك الكهرباء يكون بحساب دقيق حيث يجب أن تكتسب الخبرة الكافية لمعرفة عدد الأمبيرات التى تشغل ما تستخدمه من اجهزة وهو أمر يلزمه الممارسة لاكتساب الخبرة لتفادى انقطاع التيار الكهربائى الصناعى الذى يتم توفيرة عبر الشبكة العنكبوتية من الأسلاك الممتدة من المولدات الخاصة ومولدات الجيران.

أما توفير المياه للاستخدام فكان يتطلب قطع التيار الكهربائى عن كافة أجهزة المنزل وإعادة توصيلها إلى موتور المياه المتصل بخزانات تقع فى سرداب مهجور أسفل البناية يشبه القبو حتى يمكن أن تصعد المياه المختزنة عبر ايام إلى الخزانات التى تعلو سطح البناية وتمر عبر صنابير صدئة لتستخدم فى أعمال النظافة أو تلطيف الأجواء شديدة الحرارة إلا أنها لا تصلح بالطبع للشرب وأحيانا لغسل اليدين أو الاستحمام وهو ما يتطلب توفير مياه للشرب أكثر نقاء أما بغلى تلك المياه وتنقيتها أو شراء مياه نقية جاهزة للشرب معبأة فى زجاجات بلاستيكية كبيرة باعتبارها مياه معدنية إلا أن الخبير يدرك من رائحتها وطعمها أنها من صنع غرف بئر السلم أو أقبية الخزانات أسفل العمارات التى كانت تستخدم فى بعض المناطق كسراديب لإخفاء المختطفين حتى تسلم الفدية لإطلاقهم أو قتلهم إذا تعرفوا على الخاطفين .

دخلت فى فترة شرود باديا على قسمات وجهى ابتسامة ساخرة إزالتها ضحكة عالية الصوت يمتزج فيها الألم مع الدهشة مع الفرح الشديد لاكتشاف عالم جديد من الأشياء .. غريب بقدر غرابة عمليات القتل العبثى .. ينبىء بأسلوب جديد لحياة جديدة مثيرة تشبه كثيرا حياة الطفل الذى يبدأ فى اكتشاف العالم

عندما يبدأ فى التعامل مع الدنيا لأول مرة .

سألنى الشاب الطيب: لماذا كل هذا الضحك الهيستيرى الممزوج بالمرارة وكان الجواب حاضرا .. إذا كان توفير الكهرباء والماء فقط يتطلب كل هذه الخبرات وهذه الحسابات فكيف يمكن مواصلة الحياة بشكل طبيعى تتوافر فيه مقومات عادية لا نحسب لوجودها حسابا ونحن لا نتوقف عن الشكوى من قسوة الحياة فى مصرنا الحبيبة .. وكيف يمكن توفير الانترنت وأجهزة الاتصال وغير ذلك من بديهيات العمل الصحفى وكيف يمكن أن أدخل ميدان المنافسة المهنية مع وكالات الأنباء الأخرى ناهيك عن الفضائيات وجبروتها الإعلامى ..

عشرات الأسئلة بدأت تقفز على لسانى توحى بأن اليأس بدأ يتسرب من جديد فالمشكلة فى العراق - ليست فقط كما يتصور من يتابع أخباره عن بعد - تكمن فى المخاطر الواضحة للجميع وأعمال العنف الأعمى وإنما المشكلة التى يجب التعامل معها صباح مساء هى كيفية توفير المقومات البديهية للحياة مثل الكهرباء والماء وهو ما يعنى أيضا الأجهزة الموجودة حتى فى بيوت البسطاء من أهلنا والتى لم تعد رفاهية بل جزء من تفاصيل الحياة اليومية بما فيها الانترنت .

والمشكلة الأكثر ألما هى درجة حرارة بغداد التى لا تطاق فى شهرى يوليو وأغسطس مع هذا التقنين المعضل لاستهلاك ما يتوافر من الكهرباء عبر معادلة تشبه اللوغاريتمات .. إلا أن العراقى الطيب بادرنى بالحل الذى يكمن فى جهاز تصنعه إيران وتقذف بمئات الآلاف من القطع إلى العراق سنويا ضمن ما تقذف من بضائع رائجة بفعل الأزمة التى لن تنتهى قريبا وهو « مبردة المياه » التى تعمل على قدر ضئيل من التيار الكهربائى حيث يندفع الماء المتسرب من خرطوم رفيع إلى حوائط من الليف أو القش على جوانب تحيط اسطوانة معدنية تدور من الجهات الأربعة فينطلق الهواء مشبعا ببرودة المياه التى تتساقط على الليف أو القش مما يشيع أجواء من الرطوبة المحببة تقلل درجة الحرارة كما تقلل متانة العظام داخل جسم الإنسان بفعل الروماتيزم الذى تسببه على المدى الطويل .

حاول الشاب العراقى الطيب أن يهدىء من روعى حتى لا انحدر سريعا إلى مزالق التشاؤم وألا تنتحب نفسى فاتداعى وتضيع روحى وسط دوامات الحزن الثقيل المغلفة بأهوال الغربة فتلفنى الكآبة ولا أستطيع أن أواصل .. حاول أن يقنعنى بأن التعامل مع هذه المشكلات سوف يصبح عادة بالنسبة لى كما اعتاد عليها العراقيون اللذين أجبرتهم الظروف على التنازل عن كثير من طقوس

حياتهم اليومية وأن يرتضوا بأن تكون عدد ساعات النهار أقل من أى مكان آخر فى العالم وأن تكون ساعات النوم غير متواصلة يقطعها أصوات يعرف من يسمعها ما تخلفه وهى نتيجة حتمية فى معظم الأحيان أقلها ضجيجا صوت طلقات الرصاص .. قال لى بصراحة: إذا كنت سوف تستمر بالعراق فلابد أن تتعامل مع كل قواعد وتفاصيل الحياة بالعراق وأن تعتاد على احتمال أى نوع من المنغصات والمشاكل التى أراها لأول وهلة كبيرة مستعصية على الاحتمال .. عندها تذكرت قول اينشتاين « يستطيع أى أحمق جعل الأشياء تبدو أكبر وأكثر تعقيدا .. لكنك تحتاج إلى عبقرى شجاع لجعلها عكس ذلك » .

المشكلة الأساسية التى واجهتنى هى ارتفاع ضغط الدم الذى أعانى منه والذى بدأت اشعر بأعراضه المزعجة وقبل أن ينتصف النهار ذهبت إلى مستشفى « السعدون» التى تبعد حوالى ٢٠٠ متر عن مقر المكتب وراجعت أحد الأطباء الشباب وهو مسيحى يدعى إدمون تولدت بينى وبينه صداقة قوية فيما بعد وشكوت له من ارتفاع ضغط الدم وأنه يزداد عند حلول الليل بسبب التوتر .. فاجأنى الدكتور إدموند بنصيحة غريبة ولكنها معبرة حيث قال لى: « أستاذ حاول الا يرتفع ضغطك أو يصيبك أى ألم أو مرض بعد الثالثة عصرا !!»، وعندما رأى ملامح الدهشة ترتسم على قسمات وجهى بادرنى قائلا: « بعد هذا الوقت لن يمكنك الحضور إلى هنا ولن تجد من ينقذك أو يخفف ألمك حتى صباح اليوم التالى» ، وعرفت ماذا يقصد الدكتور إدموند فكما أصدر حكام المذبحة الجدد فرمانا بأن ينتهى النهار كحد اقصى عند الساعة الثانية ظهرا لم يعملوا حسابا لمريض أو حتى امرأة تريد أن تضع مولودها بعد ذلك الوقت وهو ما خلق أساليب أخرى وأناس آخرين يقومون بمهنة الطبيب والقابلة « الداية» من أهل المنطقة ذاتها أو الشارع نفسه فى أغلب الأحيان حتى لا يضطر المريض أن يذهب إلى مكان بعيد توجد به مستشفى أو طبيب حيث أن عيادات الأطباء الخاصة فى ذلك الوقت كانت تعمل على خلاف باقى مناطق الدنيا من الساعة الثامنة صباحا حتى الثانية عشر ظهرا .

٤ - النوم على الطريقة العراقية

كان الليل قد بدأ يرخى سدوله على بغداد بينما كنا نجلس فوق سطح البناية الذى يتسرب إليه الريح الساخن مخترقا أغصان الأشجار العملاقة ويهز

بضع نخلات تصطف أمام البناية بعنف وتهور جامح .. كان الظلام ينسكب فوق شوارع بغداد المظلمة التى لا تظهر منها إلا حزم ضوء شاحب على مرمى البصر تليها أضواء باهرة قادمة من الضفة الأخرى لنهر دجلة حيث المنطقة الخضراء التى لا يعرف سكانها المقيمون فيها منذ سقوط نظام صدام حسين كل تلك التفاصيل التى عرفتها بعد يومين فقط فى عاصمة الرشيد التى يغلفها سكون عميق رغم صخب الريح والشجر وصوت المروحيات الأمريكية التى تهدر فوق رؤوسنا قادمة أو عائدة إلى مقر الحكام الجدد والقيادة الأمريكية على الضفة الأخرى من نهر دجلة .

أدركت أننا سننام ليلتنا على سطح البناية وهى وسيلة يعرفها العراقيون فقط يتخلصون بها من الحر الذى تختزنه جدران بيوتهم طوال أيام الصيف الحارق .. والحقيقة أننى اكتشفت طقسا آخر أكثر روعة وإثارة استمر ضمن طقوس ليالى الصيف التى قضيتها فى بغداد لفترة طويلة حتى بعد أن جهزت مقر عملى وإقامتى بكل ما يلزم من إمكانيات متواضعة إلى أن جاءت ليلة رعب أضافتها إحدى المروحيات الأمريكية إلى حياة الرعب التى استسغت العيش فيها مع مرور الوقت ..

ففى تلك الليلة المظلمة من شهر أغسطس بعد مرور حوالى ٤٠ يوما على وصولى إلى بغداد وبينما كنا مستغرقين فى نوم عميق نلف أجسادنا بملاءات الأسرة لتفادى لدغات الباعوض الشرس - أنا وأحمد وأحد أشقائه استقر على الإقامة معه - على سطح البناية اقتربت مروحية أمريكية وسلطت أضواءها علينا ربما لاستيضاح طبيعة تلك الكومة من القطع المتلاصقة التى لا تبدو لها ملامح توحى بأنها بشر وانما تثير الشك فى أنها « كدس من الأسلحة» مغطاة لإخفائها وزمجرت الرياح الناتجة عن دوران المروحية فوقنا بصوت يشبه العويل وهو ما جعلنا نصحو من نومنا واقفين رافعين أيادينا مستسلمين فزعا وطلبا للأمان ونطقنا ثلاثتنا الشهادة .. ففى مثل هذه الأحوال يكون مجرد الشك مبررا لصب نيران القذائف على المبنى وربما تدميره بالكامل[(1)] .. إلا أن من بالمروحية اكتفوا بحالة الهلع التى أصابتنا لسبب لا نعلمه حتى الآن وهو ما جعلنا نبقى على قيد الحياة إلا أننى قررت بعد ذلك عدم الاستمتاع ببرودة هواء السطح مثل بسطاء العراقيين الذين فضلوا الاستكانة للنوم شبه المستحيل فى درجات حرارة لا تحتمل على أن

(١) من ضمن الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس : أن الطائرات الأمريكية دمرت الكثير من الأبنية والعمارات بمجرد الاشتباه في وجود أسلحة أو قناص فيها .

يفقدوا حياتهم عبثا نتيجة قصف حركه الشك أو قذيفة طائشة أخطأت هدفها وهى أمور باتت معتادة فى تلك الأعوام المحترقة من تاريخ العراق التى خلفت مئات الآلاف من القتلى والجرحى .

٥ - رفاق سلاح القلم الطيبون

فى مدينة كبغداد تبدو الحياة طريقا مفروشا بالمخاطر والألم والهم الإنسانى لا معين سوى الإيمان المطلق بالقضاء والقدر أو النسيان والسير فى الطريق حتى تأتى لحظة النهاية .. وفى كلتا الحالتين تبدو لمسة أو همسة أو كلمة من رفيق أو صديق أو حتى شخصا لا تعرفه بمثابة طوق النجاة فى كثير من الأحيان .. بينما تبدو مهنة الصحافة فى مدينة كبغداد طريقا محاطا بأسلاك الضغط العالي العارية ويسير الصحفى بينها بحذر شديد حتى لا يلمس أحداها ويصبح كرة تتقاذفها المقادير وتفعل بها الصدمات الكهربائية فعلتها وهو أمر تحيطه المخاطر ويغلفه الوجع ويكون الرفيق أو الصديق بمثابة المنقذ وقت الخطر والدليل لإكمال السير بدون السقوط فى دائرة الخطر التى لا يمكن الفكاك منها وقت المذبحة .. فلا مجال للخطأ .. ولا رحمة لمن يسوقه القدر إلى مناطق نفوذ فرق الموت .. ولا فرصة للنجاة إذا استجاب الصحفى لفضوله المعتاد دون أن يوقفه صوت العقل أو ينقذه أحد الرفاق الطيبين ممن يتقاسمون معه خطر العمل فى وديان الموت بعد أن اختاروا مهنة المتاعب التى بات العمل فيها أقرب الطرق إلى الموت فى زمن المذبحة .

على شفا حفرة من الموت .. يعمل الصحفيون بالعراق .. فكل شارع حقل ألغام .. ومن تخطئه المفخخات .. تترصده رصاصات المسلحين بكافة أسمائهم وألوانهم وعناوينهم .. فالمسلحون فى العراق يعملون تحت رايات شتى وأهداف شتى أكثرها سهولة وأعلاها ضجيجا « الصحفيون » .. هدف وحيد يتفق عليه الاضداد المختلفون فى كل شيىء .

وعلى الرغم من أننى خصصت فصلا كاملا من الكتاب عن الصحافة والصحفيين بالعراق الا أن ثلاثة من الرفاق استحقوا أن يكونوا ضيوفا فى وقائع أيام المذبحة التى لا تخلو من مفارقات الوجع والاستذكار معاً، .. ذلك الوجع الذي حملته معى، بهدوء، أبان رحلتى المثيرة بين عراق الاغتراب ومصر التى كنت أشتاق إلى أهلها وشوارعها وأزقتها دائما .. ذلك الاستذكار الذي يأتي

مرعبا ، كأنه الوحشة، ويظل الاشتياق أنيناً، وحنيناً لرانيا وإياد وجانا[(١)] وهم همى الأول، في الموت أو السجن أو الوجع الإنساني .

شعلان وعلى وعامر .. عندما كان رنين هاتفى يحمل أيا من أرقام هذه الأسماء كانت الطمأنينة تسرى إلى نفسى وتريح جسدى المثقل بفعل السهر شبه الدائم .. حالت وقائع أيام المذبحة القاسية دون اللقاء بهم إلا بعد مرور ما يقرب من عام على وصولى إلى بغداد إلا أن التواصل بيننا استمر عبر الهاتف الذى أضحى بديلا عن أشياء ضرورية فى حياة العراقيين فهو وسيلة التسلية والإضاءة والتواصل البديل عن الاتصال المباشر بالزيارات والمجاملات والمشاركة فى المناسبات رغم أن مقرهم لا يبعد عن مقر وكالة أنباء الشرق الأوسط مسيرة ١٥ دقيقة بالسيارة إلا أننا نسكن جانبى بغداد اللدودين فانا فى الرصافة وهو الجانب الشرقى من بغداد التى يقسمها نهر دجلة إلى الرصافة والكرخ وهذا الجانب يقع تحت سيطرة ميليشيات قوات بدر وجيش المهدى بينما يقيمون هم فى حى المنصور فى الجانب الغربى / الكرخ/ حيث سيطرة تنظيم القاعدة والجيش الإسلامى وكان الانتقال بين الجانبين اللذين يشكلان عاصمة الرشيد أمرا تحيط به كافة المخاطر والإشكاليات خاصة إذا صار فى الأمور ما يسيء واستمر التواجد بالشارع إلى ما بعد الواحدة ظهرا .

أذكر أننى قضيت معظم عامى الأول دون أن أنعم بالنوم الطبيعى مثل باقى خلق الله بسبب القلق المغلف برائحة البارود وأجواء القتل والموت المجانى حتى اتيحت لى فرصة مرافقة الأستاذ شعلان فى سيارته إلى المنصور حيث مقر وكالة الأنباء الصينية / شينخوا/ وكان أحد أيام شهر رمضان الذى شعرت به لأول مرة عندما تناولت طعام الافطار مع الرفاق الطيبين / شعلان وعلى وعامر/ .. وبعد أن انتهينا من الطعام والحوارات الشيقة عن هموم البلاد والعباد والمهنة المقدسة ذهبت فى نوم عميق وأنا جالس فى مكانى قبل أن أكمل إجابة سؤال طرحوه على مسامعى.. ويحكى لى الرفاق كيف كانت حالة الهدوء النفسى الذى اعترانى حتى أننى لم اشعر بما حولى حتى ظهر اليوم التالى .. فهذه هى الترجمة العملية للشعور بالأمان فى بلد مثل بغداد التى يزحف القتلة فى طرقاتها يزرعون الخوف والموت فى ظرف استثنائى .. وهذه هى الترجمة الحقيقية لكلمة العراقى الطيب

(١) زوجتي وابني وابنتي .

الذى تشعر وأنت فى حضرته أنك فى عاصمة الرشيد التى كانت وينتظر العراقيون عودتها إلى قواعدها الآمنة ثانيا .

٦ - مواكب الموت المجانى

كلما كانت الأيام تسرع الخطا نحو نهاية العام ٢٠٠٦ كانت فرص الموت تتضاعف بينما تتراجع فرص الحياة إلى درجة العدم .. بات الموت مزروعا على الطرقات .. يزحف باتجاه العابرين لا ينتظر أن يأتون إليه .. بينما كانت قذائف الهاون العمياء وصواريخ الكاتيوشا الموتورة تنطلق من كل اتجاه حاملة أصوات الموت تزعق فوق رؤوسنا صوب المنطقة الخضراء مساء وصباحا ليتذوق سكان الحصن المنيع طعم الرعب الذى اعتاده المقيمون خارج أسوارها وبات جزءاً من طقوس حياتهم لا يستطيعون الفكاك منه إلا بالموت ذبحا أو بطلقة أسفل الرأس.

كانت زخات الرصاص التى لا تتوقف ليلا أو نهارا تنذر بسقوط قتيل أو مجموعة قتلى ساقهم حظهم العاثر للسقوط فى براثن إحدى السيطرات / نقاط التفتيش / الوهمية التى تمارس عمليات الإعدام المنظم وما بات يعرف بالقتل على الهوية .

كنت دائما أتساءل عندما يأتينى خبر اختطاف أو إعدام شخص أعرفه أو لا أعرفه أو مجموعة من الأشخاص « لماذا يخاف الناس فى لحظات ثم يرتد خوفهم فى لحظات أخرى ؟؟ ولماذا يتركون الخوف ليصنع بهم ما يصنع من قتل وخراب ويلون أيامهم بلون الدماء التى لا تترك لهم عزيزاً .. أخاً .. أباً .. ابناً ؟؟ ويصبح الموت كأسا يدور بين الجميع يرتشف كلٌ منهم نصيبه المقدر منه .

حكاوى يغلفها الرعب رسمتها أحداث ومشاهد يرويها أصحابها أو من عاصروها كما كانت أمى الحبيبة رحمها الله تقص علينا حواديت «أمنا الغولة» بما تحتويه من وقائع لا تصدق ولا يمكن تخيلها إلا فى حكايات الرعب التى يحاول الآباء من خلالها تكريس قيم بعينها عبر أجواء الرعب التى تحيط حكاياتهم ومصير من لا ينفذ أو يعتقد فى تلك القيم .. إلا أن حكاوى وقائع أيام المذبحة كانت للأسف حقيقية دارت أحداثها وفصولها فى شوارع ومناطق مازالت تحمل بعض علاماتها حتى بعد انكسار الموجة الطائفية وعودة النازحين أو بعضهم إلى مناطق شهدوا فيها أعمال الاختطاف والقتل والموت العبثى الذى كان بمثابة كأس دائر على رؤوس الجميع بلا أى تمييز أو توقف كأنه موجة جنون أصابت أحياء بغداد وما عداها من مدن العراق الحزين .

مكان واحد كانت تجتمع عنده كل الخطوط وتتقاطع كل المشاعر الحقد والقهر والرعب والحزن والخوف والأمل واليأس والرجاء .. مكان واحد تلتقى عنده خطوط القاتل ونذالته والقتيل وبراءته وأهل الاثنين المصدومين بما يفعل ابنهم القاتل ليسقط ابنا لآخرين ضحية عن قصد أو غير قصد .. والخاسر واحد وهو العراق الذى تتخلع أوصاله وانفرط عقد أبنائه سواء قاتلين أو مقتولين .. حكايات يرويها شهود المذبحة ربما يغيب عنها المنطق وتنطق أحداثها باللامعقول .. مئات الجثث تحمل نفس العلامات .. آثار تعذيب .. طلقات نارية فى الصدر والبطن .. بدون أوراق تثبت ماهية القتيل .. لفظ تم الاتفاق عليه « جثة مجهولة الهوية» .. ويصبح الأمل ليس العثور على المفقود حيا وإنما جثة فقدت جزءا كبيرا من ملامحها بفعل التعذيب والتحلل .. كيف يتخيل بشر أن يهنىء إنسان شخصا يعرفه لأنه تمكن من العثور على جثة فقيد له وتمكن من دفنه .. أصبح إكرام الميت « دفنه» أمنية فى زمن المذبحة وأصبح الطب العدلى « مشرحة بغداد» أبرز مناطق القبح وأكثرها إثارة للقرف والرعب فى آن واحد .. فيها يمكنك بوضوح رؤية كيف تتحكم ميليشيات القتل وفرق الموت فى الضحايا حتى بعد سلب أرواحهم .. إلى من يتم تسليمهم .. أين سيدفنون .. كيف ومتى يخرجون إلى مستقرهم الأخير .

٧ - الطب العدلى« المشرحة»

اسم ظلت ترتعد له أبدان العراقيين طوال زمن المذبحة ، كان وجهة المكلومين من أهالى الضحايا المغدورين الذين يتطلب العثور على جثثهم الكثير من الجهد والمعاناة ورؤية المشاهد المرعبة التى رسمتها أساليب التعذيب البشعة .. فهذا قدر كبير للطعام به آثار جثث تم طبخها .. وهذه جثة تنتظر قدوم رأسها إذا أفلح من قدر له أن يعثر عليها .. وهذه أقدام لجسد نهشته كلاب الطرق فى أحد مقالب القمامة .. وهذه أياد لا يعرف أحد أين تم إلقاء جثتها .. رائحة الموت تفوح .. رائحة العفن تزكم الأنوف .. فلا مكان لمزيد من الجثث حتى يتسلمها ذووها .. لا يتوقف الأمر على فئة عمرية معينة أو جنس بشرى دون آخر أو طائفة دون أخرى فالموت لا يفرق والجميع تحت الطلب إذا جاء القدر .. ولا تبقى غير كلمة يتفوه بها فى حسرة من يبحث عن مفقود أو عزيز غائب عندما تداهمه تلك المشاهد « الله ما يقبل» .. الجميع يتساءل من القاتل ؟؟ ولماذا القتل ؟؟ وإلى أين يمتد ؟؟ .

يقع هذا المكان داخل مدينة الطب التى أرادها مؤسسوها قبلة طبية للعــراقيين والعرب عند تأسيسها نهاية الستينيات من القرن الماضى ولحقها ما لحق بــالعراق من تدهور وساءت امكانياتها كما ساءت أمور العراق بفعل الحروب والحصار حتى انتهى عهد صدام حسين .. إلا أنها أصبحت رمزا من رموز زمــن المذبحــة حيــث كانت تتوافد عليها يوميا من ١٠٠ إلى ١٥٠ جثة مجهولة الهويــة تخلــص منهــا قاتلوها فى الشوارع أو متالب القمامة بعد نزع كل أوراق ثبوتية لتصــبح جثــة مجهولة الهوية .. كانت تسيطر على تلك المنطقة المحرمة إحدى فــرق المــوت المنظمة المحمية بغطاء رسمى حيث كان الحصول على جثة أحد الضحايا يتطلب تنسيقا على أعلى المستويات ليتمكن أهله من الدخول إلى ذلك المكان الذى يواجه « دجلة الخير» فى منطقة باب المعظم وسط العاصمة بغــداد .. ويــروى أهــالى الضحايا خاصة من الطائفة السنية كيف كــانوا يــدفعون مئــات الــدولارات لأشخاص حافظوا على عراقيتهم بعيداً عن الانتماء الطائفى حتى يتمكنوا مــن الدخول إلى الطب العدلى للبحث عن ذويهم والخروج بأمان .. وإلا فأن الدخول إلى ذلك المكان سيكون بغير خروج ويتحول الداخل إليه إلى مفقود جديــد .. أمــا إذا تمكن من الخروج مع الضحية التى يبحث عنها فإن إحدى فرق الموت ســوف تتبــع موكب الجنازة لتقتص من الضحية مرة أخرى وتقتل من تستطيع من أهله الــذين رفضوا قانون / المشرحة .

٨ - ٣ شباب وامرأة حامل

فى منطقة الدورة التى تضم خليطا من السنة والشيعة والمسيحيين عاشوا جنبا إلى جنب لعدة عقود رسمت فرق الموت من ميليشيات، ومجموعات مسلحة مرتبطة بتنظيم القاعدة شكلا جديدا للحياة فى زمن المذبحة .. صارت منطقــة الــدورة والمنطقــة المواجهة لها « أبو دشير » جنوبى العاصمة بغداد منطقة تماس بين من يدعى الــدفاع عن الشيعة ومن يزعم الدفاع عن السنة وصار لكلا الجــانبين ســاحات للعمــل .. اختطاف وقتل .. تفجيرات وعمليات قصف بالهاون والكاتيوشا .. تهجــير قســرى وابتزاز ومصادرة البيوت بما فيها .. والهدف واحد هو العراقيين .. فى شــارع واحــد كان يقيم صديقان يعملان فى أحدى المؤسسات الصحفية الكبرى .. شــريكان فــى الدراسة واللعب والعمل والتهديدات .. رحلا فى وقت واحد عن الشارع الــذى شــهد طفولتهما فلا فرق هنا بين سنى وشيعى .. عربى أو كردى .. الهدف واحــد هــو الشعب العراقى .

يروى لي صديقى الشيعى كيف أجبرته الظروف على أن يترك البيت الذى عاش فيه مع أهله لمدة تتجاوز الثلاثين عاما بعد اختطاف شقيقه الأصغر وقتله ليتم العثور عليه جثة مجهولة الهوية فى الطب العدلي .

كان هذا فى ١٦ / ١١ /٢٠٠٦عندما كان مصطفى حمد الركابى الطالب فى العلوم السياسية المرحلة الثانية ذاهبا إلى الجامعة كعادته كل يوم عندما اعترضته نقطة تفتيش وهمية تعود إلى مجموعة مسلحة تابعة لتنظيم القاعدة وقامت المجموعة الإرهابية كما جرت العادة بانزال بعض الركاب بعد أن اطلعت على هويتهم وتأكدت أنهم من الشيعة وضمنهم مصطفى واثنين من الشباب وامراة حامل فى شهرها الخامس واقتادوهم إلى احد الدور العائدة لعائلة شيعية مهجرة فى منطقة الإسكان ليبدا طريق النهاية ورحلة التعذيب التى يتوسل صاحبها من جلاديه أن ينهوها بطلقة أو عدة طلقات فى الرأس والصدر .

يقول صديقى هشام الركابى : إن تلك المجموعة إرتكبت أبشع جرائم التعذيب لمدة يومين حتى استمرت آثارها واضحة على أجساد الضحايا بمن فيهم المرأة الحامل التى جرى اغتصابها عدة مرات قبل أن تصاب بنزيف حاد أدى إلى موتها قبل إطلاق الرصاص عليها من قبل الإرهابيين وبعدها قامت بقتل الأشخاص الآخرين وألقت بجثثهم على قارعة الطريق فى نفس المنطقة بعد إحراق أوراقهم التى تثبت شخصياتهم.

وبعد البحث المضنى عثرت عائلة مصطفى على جثته فى الطب العدلي بباب المعظم وسط بغداد ويروى هشام الذى كان ضمن الفريق العائلى الذى عثر على الجثة أن شقيقه تعرض للتعذيب الفظيع قبل إطلاق رصاصتى الرحمة على رأسه ورغم مرور يومين على موته وتفسخ الجثة إلا أن آثار التعذيب ظلت شاخصة .

ويشرح هشام كيف كان الطب العدلي آنذاك يغص بالجثث التى تفترش أرضه لعدم وجود أماكن بالثلاجات المخصصة لحفظ الجثث التى كانت معظمها مجهولة الهوية وتم قتلها على أيدى المجاميع الإرهابية والميليشيات المسلحة حيث كان يقصد هذا المكان كل من يفقد عزيزا له من ابن وأخ وأب فى بغداد وكانت تواجه العائلات صعوبة فى الوصول إلى ذلك المكان بسبب أحداث العنف الطائفى وتقسيم بغداد إلى ما يشبه الكانتونات التى حاولت فرق الموت إقامتها على أسس طائفية ومذهبية .

ويقول هشام أن أحد أهم المصاعب الأخرى التى كانت تواجه أهل ذوى الجثث هو استهدافهم من قبل القناصة الموزعين على البنايات القديمة وغير المأهولة فى المنطقة المحيطة بالطب العدلي بهدف خلق الرعب بين الأهالي والعائلات المنكوبة .

٩ - الحمد لله .. دفناه

بينما كنت أتهيأ ليوم أشد قسوة من أيام شتاء العام ٢٠٠٦ وبعد أن ملأت مدفأتى النفطية بالكيروسين حتى تشيع فى أجواء المكتب قارسة البرودة بعضا من الدفء وكثيرا من التلوث بدخانها الأسود الناتج عن احتراق شعلتها فاجأنى صديق قديم من أبناء محافظة الأنبار السنية التى تقع غربى العراق بزيارة نادرة نظرا لخطورة الوصول إلى بغداد لمن هم مثله .. استقبلته مبتسما وسألته عن عدد من أصدقائنا المشتركين وعائلاتهم وخاصة عن فراس ابن صديق لنا يدعى مجيد الذى كان فتى رائعا لا يعيبه إلى تسرعه ورغبته العارمة فى الاستمتاع بكل مباهج الحياة مرة واحدة رغم صغر سنه عندما غادرت العراق عام ٢٠٠٣ والذى لم يكن يتجاوز ١٦ عاما وكأنه يعلم أنه لن يستمر طويلا على قيد الحياة .. قال لى جميل: الحمد لله اطمأن مجيد عليه .. توقعت أن يكون قد تزوج أو نال فرصة عمل جيدة تتيح له حياة مستقرة هانئة .. وقلت له: مبروك زواج أم عمل .. قال لا الحمد لله دفناه أخيرا منذ يومين !!!! .

ارتسمت على وجهى ملامح قال ضياء أنه يراها لأول مرة ولا يستطيع تفسيرها .. ربما من غرابة الكلمات أو هول الموقف وصدمة موت فراس .. وما العلاقة بين كلمة مبروك والدفن وما معنى أخيرا .. هل كانت رحلة دفنة طويلة إلى هذا الحد ؟!!! .. تساؤلات حسمها جميل سريعا عندما قال لى وجدناه أخيرا فى الطب العدلى وتمكنا من دفنه فى بلده وأقمنا « فاتحة » أى مجلس عزاء له وظل يكرر: الحمد لله الحمد لله .

كان فراس مجيد من سكان الرمادى عاصمة محافظة الأنبار السنية أكبر محافظات العراق و أحد المعاقل الرئيسية لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين لا يزيد عمره على ١٩ عاما حضر إلى بغداد لبيع سيارته رغم تحذيرات أبيه بخطورة الأوضاع فى تلك الفترة من زمن المذبحة .. إلا أنه كان كعادته عنيدا لا يستمع لنصائح لكنه هذه المرة دفع الثمن غاليا وبدلا من أن يحصل على مكسب جيد من بيع السيارة فى بغداد اصطادته إحدى فرق الموت وقامت بواجب الضيافة على طريقتها .. وبعد وجبة تعذيب جرى خلالها ممارسة كل أنواع الانتهاك لآدمية البشر كانت طلقة أسفل الرأس كفيلة بإنهاء المعاناة لشاب لم يرى من حياته شيئا سوى القهر والرعب والخوف حاول جاهدا أن ينال قسطا من مرح رغم غضب المحيطين وانتهت رحلة عذابه ليستقر جثمانه مجهولا الهوية فى إحدى مناطق الأعظمية شمالى بغداد التى تضم مسجد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وكانت منطقة تماس لعمل تنظيم القاعدة وجيش المهدى والقوات الأمنية العراقية بسبب

وقوعها على الضفة المواجهة لمنطقة الكاظمية التى تضم مرقد الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية .. تفسخت الجثة حتى سمحت الظروف برفعها من الشارع بعد مرور ثلاثة أيام .

بعد رحلة بحث مضنية استمرت أربعة أيام شملت الأهل والأقارب والمستشفيات ومراكز الشرطة التى كان مسموحا لأهل السنة بالتردد عليها تجنبا لطريق اللاعودة .. كانت المرحلة الأخيرة الأشد بؤسا فى البحث عن مفقودين هى الذهاب إلى مشرحة بغداد/ الطب العدلى/ ولأن أهل فراس لا يستطيعون الوصول إلى هناك حيث تنتظرهم نوعية اخرى من فرق الموت التى تمارس التطهير العرقى تحت غطاء رسمى أو شبه رسمى استنجدوا بأقارب لهم فى ناحية الدجيل الشهيرة التى أعدم صدام حسين بتهمة تصفية ١٤٩ من أهلها حاولوا اغتياله فى ثمانينيات القرن الماضى، وهى ذات غالبية شيعية إلا أن التزاوج وعلاقات النسب بين السنة والشيعة كانت عادية وسائدة قبل زمن المذبحة .. وكان هؤلاء الأقارب لهم صلات ببعض النافذين من حكام العهد الجديد الذين يستطيعون وحدهم تأمين طريق للوصول إلى الطب العدلى حيث الجثث مجهولة الهوية .. وتم الحصول على التأمين اللازم للبحث فى منطقة نفوذ فرق الموت بالطب العدلى .. وبعد رحلة بحث مضنية وسط ركام الجثث البشرية مجهولة الهوية تمكن عم فراس من التعرف على الجثة التى كانت متفسخة تماما حيث كانت توجد علامة فى ظهر الضحية عبارة عن وشم أو إصابة قديمة قادت عمه إلى التعرف عليه بعد أن فقدت الجثة كل ما يدل على صاحبها .

وعن طريق ممرضة موجودة فى الطب العدلى رق قلبها لحال الأسرة الملكومة تمكنوا من إتمام الإجراءات وسط جو مشحون نظرا لعدم تواجد الشخص الذى منحهم الأذن والأمان حيث ينتمى إلى فرق الموت .. وجرت اتصالات واسعة من جانب أقارب الضحية حتى لا يلقوا المصير المحتوم بعد أن أصبحوا داخل فك فرقة الموت المسئولة عن المكان .. وتمكنوا من الخروج بصعوبة .

وفى الطرق إلى خارج الطب العَدلى لاحظ عم الضحية سيارتين تتابعان الموكب الجنائزى للاقتصاص من الضحية مرة أخرى بقتل أهله الذين أرادوا فقط دفن ميتهم .. وجرت اتصالات أخرى لتأمين الطريق .. وكل تلك الاتصالات والتأمين كانت تعنى دفع المزيد من الأموال لحكام زمن المذبحة .. وبعد لحظات عصيبة تمكن المنكوبون بقتل ابنهم من دفنه والاطمئنان عليه فى مثواه الأخير بعد أن بات دفن الضحايا أمنية فى زمن المذبحة وصارت المقابر الجماعية ملاذا آمنا

لآلاف الجثث مجهولة الهوية التى كان المسئولون عن الطب العدلى يضطرون إلى دفنها بعد مرور ثلاثة اشهر على تواجدها لديهم دون أن يتسلمها أحد حتى يفسحوا مكانا للمزيد من الجثث التى كان يتم جلبها يوميا من الشوارع أو مقالب القمامة .

١٠ - شهيد الفتنة

لم تكن سيوف الجلادين فى زمن المذبحة تفرق بين سنى وشيعى فإذا كان مصطفى الركابى تم قتله بدعوى أنه شيعى بينما لقى فراس مصيره المحتوم لأنه سنى إلا أن مقتل احمد هادى ناجى أبو زيد بعد اختطافه لم يكن له سبب واضح فهو من أم سنية من بيت خطاب من حديثة التابعة لمحافظة الأنبار السنية وأب من بيت المياحى الربيعى الذين يقطنون الكوت مركز محافظة واسط الجنوبية ذات الغالبية الشيعية .. أما أحمد نفسه شيعى متزوج من فتاة تعود إلى عشائر الدليم السنية من البونمر وهو معروف بأحمد النعيمى وهو فى عرف العشائر لا يؤشر إلى أنه سنى أو شيعى .

كان أحمد هادى مصورا بوكالة الاسوشيتيد برس وهو أخ لثلاثة مصورين يعملون لنفس الوكالة «فارس ومحمد وعلى» يقيمون فى منطقة البياع / الشرطة الخامسة/ غرب بغداد وكانت تشهد ذروة العنف الطائفى ذهب فارس ووالدته للنجف كعادة الشيعة لزيارة مرقد الإمام على مع تنبيه على باقى الاخوة بعدم الخروج بسبب إعدام صدام حسين ومخاوف من تهديدات جرى نشرها على نطاق واسع بإعدام ألف شيعى إلا أن أحمد استجاب لنداء العمل وتناسى المخاوف وخرج من بيته أول أيام عيد الأضحى عام ٢٠٠٧ بسبب حصول محمد وفارس على إجازة العيد وحل مع شقيقه على يمارسون دوامهم العادى لتغطية الأحداث وذهب لتصوير تظاهره فى منطقة السيدية احتجاجا على إعدام صدام حسين .

حان موعد آذان العصر ولم يعد أحمد إلى أولاده وزوجته الحامل فى توأم أنجبتهم بعد رحيله بعشرة أيام فقط .. وكالعادة فى مثل هذه الأمور استمرت الاتصالات على جهازه المحمول دون مجيب وبدأت رحلة البحث عن المفقود كالعادة بالاتصال بالأقارب ومراكز الشرطة والمستشفيات بالإضافة إلى لصق صوره على الحوائط الأسمنتية ولا مجيب .. وفى يوم الخميس ٥ / ١ جاء اتصال هاتفى للعائلة يطلب منهم زيارة أحمد لأنه معتقل فى ساحة النسور وانتظرت العائلة انتهاء حظر التجوال حيث كان يتم فرض حظر التجوال خلال هذه الفترة منذ مساء الخميس

من كل أسبوع وحتى ظهر اليوم التالي بعد انتهاء صلاة الجمعة بسبب الأوضاع الأمنية واستهداف المساجد والحسينيات .. وقبل انتهاء حظر التجوال بساعة جاء اتصال من ضابط بالشرطة يخبر أهل أحمد بأن المفقود تم العثور عليه مقتولا برصاصة أسفل الرأس أكملت مهمة ثلاث رصاصات أخرى فى القدمين واليد بعد وجبة تعذيب انتهت بربط كافة أوراقه الرسمية بقضيبه فى منطقة الدورة وتم نقله إلى الطب العدلي .

ويروى لي شقيقه محمد / أبو سارة / أنه شاهد آثار التعذيب العنيف وعلامات السحل على الأرض التى خطت ظهره بعلامات طولية من الكدمات الحمراء تحولت إلى اللون الأزرق بفعل مرور الوقت حيث تبين أنه قتل فى اليوم الأول لاختطافه .

ذهب أحمد دون تحية وداع لأهله سوى صورة التقطها بهاتفه المحمول صباح يوم اختطافه ربما كان يشعر أنها الصورة الأخيرة التى يلتقطها كمصور وستبقى ذكرى له كانسان .. ذهب دون أن يلقى نظرة على توأميه / زيد ورند/ اللذين كانا يستعدان لاستقبال الحياة يتقافزان فى بطن الزوجة المكلومة استعجالا للخروج إلى حياة لم يدركا أنها ستكون حياة بلا أب يداعبهما ويكفكف دموعهما .. رحل بينما كان يستعد لاستقبال زرعة عمره بشراء الحفاظات والملابس والألعاب كفرحة أى شاب تزوج منذ تسعة أشهر فقط بثمرة زواجه من حبيبة انتظرها طويلا حتى نال حياة رومانسية معها .. بينما تنتظره /صهباء/ منذ أول أيام العيد الذى لم يقضيه معها ولن يقضيه أبدا .

الغريب أن مجلس العزاء للشاب الذى رحل دون أن يفرح سوى مرة بزواج لم يستمر إلا تسعة اشهر تحول إلى ساحة قتال بين عناصر من جيش المهدى وقوات أمريكية حتى توسل أهل الشهيد للأمريكيين الذين لم يكن لديهم علم بأنه يعمل لحساب الأسوشيتدبرس حيث توهموا خطأ أنه من عناصر جيش المهدى لان المنطقة ذات غالبية شيعية وتواجه حى المواصلات / الكرطان/ ويعتبر الأمريكيون جيش المهدى وميليشياته من الأعداء .

ويروى أبو سارة أن ضرورة الخروج من الموقف اضطرتهم لكشف سر الشاب وإخوانه الأربعة الذين أخفوه عن المنطقة أنهم يعملون فى مجال الإعلام ولحساب وكالة أمريكية لان هذا وحده كفيل بقتلهم جميعا من الشيعة أنفسهم وليس من السنة باعتبارهم جواسيس وعملاء كما كان يوصف كل إعلامى فى ذلك الوقت وهو ما تطلب أن تترك العائلة منطقة سكناها بعد أن انتشر الأمر وانكشفت طبيعة عمل أعضائها وهو يوجب قتلهم من جيش المهدى .

بدأت رحلة النزوح التى طالت ملايين العراقيين ولكن هذه المرة ليس بسبب الطائفة وإنما بسبب العمل «الجريمة».. كما تحول من تبقى من شباب العائلة إلى مهن أخرى منها مهنة تصليح المولدات الكهربائية وتأجير التيار الكهربائى الذى لا يزور البيوت إلا قليلا بينما يزورها الحزن والموت المفاجئ كثيرا .

ويروى أبو سارة أن هذا الشاب الذى قتله جاهل أو مجرم ورغم الأحداث المروعة التى كانت تشهدها المنطقة أرسل السنة من سكان حى المواصلات المواجه لحى / الشرطة الخامسة / وفدا للاستئذان للمشاركة فى تشيعه مع الشيعة باعتباره قاسما مشتركا وصار وقتها نوع من الصلح بين الطائفتين حزنا على الشاب الطيب / الوردة / كما يطلقون عليه إلا أن هذا الصلح لم يصمد طويلا لأن هناك من لا يريد أن يصمد الهدوء والسلام حتى تستمر المذبحة وتأكل المزيد من الطيبين .

١١ - جيش المهدى

في يوليو عام ٢٠٠٣ أعلن الزعيم الشيعى الشاب مقتدى الصدر الذى ينتمى إلى عائلة الصدر العريقة من خلال خطبته في مسجد الكوفة عن تشكيل جيش المهدي ، وهو في الحقيقة ليس جيشا إنما ينطبق عليه مفهوم الميليشيا أكثر مما هو جيش وقد أفتى مقتدى الصدر بأنه لا يعتبر ميليشيا بل جيشاً عقائدياً .

وتعود فكرة إنشاء جيش المهدي إلى عقيدة إن المهدي المنتظر وهو الإمام الثانى عشر لدى الشيعة الجعفرية (محمد بن الحسن العسكري) ابن الخمس سنوات الذي اختفى في سرداب في مدينة سامراء بمحافظة صلاح الدين التى تبعد حوالى ١٢٠ كيلومترا شمالي بغداد سيعود بعد أن يعم الأرض الفساد والظلم وأنه يأتي ليغير الواقع ويملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جوراً وظلماً يسانده في ذلك أتباع ومحبو آل بيت رسول الله ﷺ وأن كل من من لم يؤمن بذلك أو يساند المهدي المنتظر في دعوته هذه فهو من أعداء الرسول وآل الرسول .

ونظرا لأن هذا الجيش الذى يقول مؤسسه: أنه جيش عقائدى يفتقد إلى البنية التنظيمية المؤسسية انطلاقا من إسم « جيش» فإن تنظيماته كانت عبارة عن ، مجاميع عشوائية ، نواتها الفرد ، وكل خمسين فرد يشكلون فصيلاً ، وكل ستة فصائل تشكل سرية عددها ٣٠٠ مقاتل ، وكل سبعة سرايا تكون فوجا، وأغلب أفراد التنظيم هم عاطلون عن العمل ومن محدودي التعليم وتتراوح أعمارهم بين العشرين إلى الخمسة وثلاثين سنة .. كما أن معظم عناصر جيش المهدي من

محدودي الثقافة وثبت أن كثيرا منهم يتعاطون المخدرات وهو ما ظهر جليا في كثير من خطب قائدهم مقتدى الصدر حيث كان يدعوهم إلى الالتزام وطالما ما ينعتهم في خطاباته بالـ (جهلة) و (العناصر غير المنضبطة)، كما يعرف في الأوساط العراقية أن أكثرهم ممن يمارس الرذيلة وليس لديه إي التزام ديني أو أخلاقي

وعلى الصعيد العسكرى كان كثير من قيادات جيش المهدى تتلقى التدريب في إيران وفي لبنان والعراق بإشراف مباشر من الحرس الثوري الإيراني الذى قام فيما بعد بتشكيل المجاميع التي تجيد استخدام السلاح على اعتبار أن أكثر الشباب العراقي متدرب على استخدام السلاح بحكم الحروب المتعاقبة وقيام صدام حسين بفرض التدريب المسلح على اغلب الشباب العراقي .

يعمل جيش المهدي بنظام السرايا التي لا تتجاوز غالباً السرية الواحدة الخمسين مقاتلاً من عامة الشيعة الذين ينضمون إليه عن طريق هيئات تشكلت في الحسينيات والجوامع التابعة للتيار الصدري، وهم يعملون كمتطوعين بلا مخصصات مالية ثابتة معتمدين فقط على نظام العطايا وما يوزع عليهم من الخُمُس « مقدار الزكاة لدى الشيعة» إضافة إلى تقديمهم في فرص العمل لدى الدولة وخاصة في أجهزة الأمن من الشرطة وقوات الأمن كجزء من الاتفاقات المعقودة بين التيار الصدري وبين حكومة الائتلاف الشيعي التى تولت حكم العراق منذ عام ٢٠٠٥ .

وتشكلت في بادئ الأمر سرايا محدودة منها سرية الامام محمد الصدر في مدينة الصدر، وسرية الشيخ مصطفى الصدر في بغداد الجديدة، وسرية الشيخ مؤمل الصدر في منطقة الشعب وحي أور، وسرية الشيخ علي الكعبي وسرية الشيخ حسين السويعدي وكلها في بغداد، وهي في معظمها أسماء لمن يعتبرهم التيار الصدري شهداءه إبان حكم نظام صدام حسين، ويكون عدد أفراد السرية غالباً متعلقاً بقوة الزعيم الشيعي الذي يقودها وحجم المساحة الجغرافية أو السكانية التي يتولاها، وقد تتعدد السرايا في المنطقة الواحدة كما هو الأمر في مدينة الصدر في بغداد، و سرعان ما تزايدت هذه السرايا خاصة بعد أحداث تفجيرات الإماميين العسكريين في سامراء ٢٢ فبراير ٢٠٠٦.

أما تدريب قيادات وبعض تلك العناصر كان يتم في إيران وجنوب لبنان بالتعاون مع حزب الله وفي داخل العراق ومن الشخصيات البارزة في حزب الله التي أشرفت على جيش المهدي سواء في التأسيس والتدريب ، القائد العسكرى الكبير بالحزب الذى اغتيل فى دمشق عماد مغنية وقد أشرف على تدريب قيادات في جيش المهدي سواء في

إيران أو بالنجف فقد كان مغنية يدخل باسم مستعار للعراق ويعمل بكل أريحية وقام بتهيئة أماكن لقادة جيش المهدي في إيران في حال ملاحقتهم من قبل القوات الأمريكية في العراق وهذا ما حصل فعلا بعد أن تكررت ملاحقة القوات الأمريكية للكثير من عناصر جيش المهدي لتورطهم في الكثير من أعمال العنف الطائفي .

ويستند جيش المهدي في معلوماته الاستخباراتية على ما يزوده به أعضاؤه الملتحقون لصفوف منتسبي وزارتي الدفاع والداخلية والوزارات الأخرى في الدولة ، وعلى ما تقوم به الجهات الاستخباراتية الإيرانية بتزويدهم بما يحتاجون إليه من معلومات استخباراتية ، كما قاموا بتشكيل مؤسسة استخباراتية (مصغرة) تحت عنوان (الإشراف العسكري) وهي تأخذ على عاتقها متابعة وإحصاء أبناء العراق وبالتحديد بغداد ممن هم من المذهب السني والعمل على تصفيته أو تهجيره من بغداد لكي يكون المكون الغالب في بغداد هو المكون الشيعي خاصة في الجانب الشرقي من العاصمة (الرصافة) .

ومن أبرز أعمال جيش المهدى كانت بعد احتلال العراق بأيام حين دخل المرجع الشيعى السيد مجيد الخوئي إلى النجف حيث كان مهاجراً إلى لندن لأنه كان معارضا لحكم صدام حسين ، ولما عاد للنجف بعد أيام من احتلال العراق لم يرق للتيار الصدري رجوعه (مقتدى الصدر) لأنه كان يطمح أن تكون المرجعية له بعد المرجع الأعلى بالعراق آية الله علي السيستاني ولذا قام أتباع الصدر بتصفية الخوئي وأصدرت القوات الأمريكية في أغسطس عام ٢٠٠٤ مذكرة تقضي باعتقال مقتدى الصدر واتهامه بقتل الخوئي ، وهو ما أحدث صداما بين جيش المهدي والقوات الأمريكية ودخل مقتدى وجيشه فى مواجهة مع القوات الأمريكية في النجف أشيع حينها أنها بسبب رغبة مقتدى السيطرة على مبالغ النذور التي ترمى من قبل الزائرين في المراقد الشيعية وهي تعد بالملايين وانتهى الأمر بلجوء مقتدى الصدر إلى إيران وإيقاف العمليات بين أتباع جيش المهدي والقوات الأمريكية التى طالت مرقد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

أما البروز الآخر لجيش المهدي فكان فى أعقاب تفجير قبتي الأماميين العسكريين فى ٢٢ فبراير ٢٠٠٦م، ولكن هذه المرة ليست كبروزه في ٢٠٠٤ في معركته مع القوات الأمريكية حينما اكتسب تأييداً جماهيرياً كبيراً، بل ظهر هذه المرة كأبرز ميليشيا طائفية تحارب أهل السنة وتعتدي عليهم في مناطق نفوذها وقد مكنهم من ذلك سيطرتهم بالتناغم مع قوات بدر وهى الجناح العسكرى للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الذى يتزعمه آل الحكيم على وزارتي

الدفاع والداخلية مما ساهم بشكل كبير في قيام جيش المهدي وفيلق بدر بتصفية كبيرة لأهل السنة بالعراق وقتل أئمة مساجد السنة بعد حرقها وتهجير الكثير من العائلات السنية من بغداد وغيرها من المحافظات إلى آماكن أخرى سواء داخل العراق أو خارجه.

ويروى زميل صحفى ينتمى للمذهب الشيعى أنه بعد دقائق معدودة من الإعلان عن تفجير القبة الذهبية لمرقد الإماميين العسكريين فرضت ميليشيا جيش المهدى سيطرتها على شوارع العاصمة بغداد ونصبت نقاط تفتيش خاصة بها وهى فى كامل عدتها وعتادها وفرضت سلطتها فى غياب تام لسلطة الدولة لتبدأ دوامة القتل على الهوية فى أبشع صورها وبشكل أسرع مما كان يتخيله الجميع .

أما مصادر تسليحهم فتتنوع بين مخلفات الجيش العراقي السابق والدولة العراقية التى انهارت وتركت مخازن أسلحتها نهبا للعصابات وما حصلوا عليه من أسلحة بعد انضمام كثير من أعضاء جيش المهدي إلى صفوف الحرس الوطني وتشكيلات وزارتي الدفاع والداخلية بالاضافة إلى الدعم الإيراني المسلح لان جيش المهدي وعد بمقاتلة القوات الأمريكية إذا ما قامت أمريكا بضرب إيران كما جاء على لسان (مقتدى الصدر) وشمل هذا التطور مد إيران جيش المهدي بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً، وقد تسلم (جيش المهدي) فعلياً شحنات من الأسلحة المتطورة والعادية شملت القاذفات والبنادق صغيرة الحجم «غدارات» صناعة إيرانية، وهي نسخة مطورة من البندقية الألمانية (أم بي فايف) وهذه البندقية صغيرة الحجم بحيث يسهل إخفاءها تحت الملابس؛ ويستخدم لها عتاد مسدس عيار ٩ملم،وكذلك تم تزويدهم بالرشاشات الثقيلة والصواريخ المضادة للطائرات، واتخذ الجيش من حسينياته مقرات لها [١] .

وكان التيار الصدرى قد دخل إلى العملية السياسية في الانتخابات النيابية عام ٢٠٠٥ مع المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق رغم الاختلاف القوي معهم وهى القائمة التى حملت الرقم / ٥٥٥ / وأشيع أنها تحظى بدعم المرجعية الشيعية فى النجف وهو ما جعلها تكتسح أغلبية مقاعد البرلمان وتشكل الكتلة السوبر التى حكمت البلاد فيما بعد، وكان الائتلاف يضم حزب الدعوة أيضا وهو تربطه بالتيار الصدري علاقة تاريخية تعتمد على تنحية فكر الصدر الثاني وهو الخصم اللدود للتيار

(1) أثبتت الوثائق التر نشرها موقع ركيليكس حول العراق تورط إيران في تسليح الميلشيات الشيعية وفرقة الموت .

الشيعي ألصفوي والعودة إلى الصدر الأول مؤسس التيار الصدري وحزب الدعوة معـاً، حتى أصبح الصدريون الدعامة الرئيسة لرئيس الوزراء السابق (إبراهيم الجعفـري) وهو ما تكرر بعد انتخابات ٢٠٠٩ حيث أظهر استفتاء التيار الصدرى تفوقـا كـبيرا للجعفرى على حساب نورى المالكى وغيره من الأسماء المطروحة بمـا فيهـا جعفـر الصدر ابن الصدر الأول عم مقتدى الصدر وبعد مجيء نوري المالكي انسحب التيـار الصدري وحزب الدعوة جناح الجعفري من الإئـتلاف وبقـوا في البرلمـان العراقـي بتسميات أخرى بعد معارك ضارية قادتها القوات العراقية مدعومة بالقوات الأمريكية فى سلسلة حملات عسكرية كان أعنفها « صولة الفرسان »فى محافظة البصرة والتى امتدت إلى كربلاء وبغداد وغيرها من المحافظات وهو ما أسهم فى تجميـد جـيش المهدى بقرار من مقتدى الصدر وتحويله إلى مؤسسة ثقافية أطلق عليها اسم المهدون بعد أن أدى دوره فى تصفية أعداد كبيرة من أبناء المذهب السني وأصبح هو البارز في التصفية الطائفية لأهل السنة في العراق رغم النفى المعلن من قادته وعلـى رأسـهم مقتدى الصدر وأنهم يعملون لصالح الشعب العراقى سنة وشيعة عربا وأكرادا بينما كان المجلس الإسلامي الأعلى يعمل خفية ، لذا وجب التخلص من هذه الورقة .

كانت لعملية صولة الفرسان في محافظات الجنوب والوسط وبغداد لتصـفية جيش المهدي وإلقاء القبض على عناصره وفرار الكثير من قياداته إلى إيران ولبنان أكبر الأثر فى تقليص نفوذ جيش المهدى إلا أن هذه القيادات والعناصر الباقيـة تحاول لملمة صفوفها للعودة من جديد ، والدخول إلى العراق متى سنحت لها الفرصة ، أما ما بقى من عناصرها في داخل العراق فحاليا لا تعلن عن نفسـها كمـا في السابق كونها من جيش المهدي أملا في العودة مرة أخـرى للسـاحة العراقيـة ، وخوفا من الفتك بهم من قبل القوات الأمريكية بعد أن احترقـت أوراقهـم، وتم التركيز على خوض الانتخابات تحت مسمى أحرار العراق في محاولة لاسـتعادة مكانتهم في الساحة العراقية بعد أن تم تحجيم نشاط جيش المهدي في العراق من قبل الحكومة وقوات الاحتلال الأمريكي ، وقد نجح تيار الأحـرار المتحـالف مـع المجلس الأعلى رغم العداء التاريخى وتيار الإصلاح بقيادة الجعفرى فى تحقيـق نتائج مبهرة حيث حصل على ٣٩ مقعدا فى الانتخابات النيابية التى جرت فـى ٧ مارس ٢٠١٠ من إجمالي مقاعد الائتلاف الشيعى البالغة ٧٠ مقعدا [(١)] .

(١) الغريب أم مقتدي الصدر المقيم في إيران كان أول الراعين لائتلاف دولة القانون زعامة نوري المالكي ليشكل الحكومة التي استمر الصراع على تولي رئاستها منذ ٧ مارس ٢٠١٠ إلا أنه أعلن تعرضه لضغوط قاسية ليعلن هذا التأييد .

ويعود سبب النزاع التاريخي داخل البيت الشيعي وهو ما يحجم نفوذ مقتدى الصدر حتى الان بالعراق إلى الصراع بين الحوزتين (الفارسية) و (العربية) أو ما يسمى بالحوزتين (الصامتة) و (الناطقة) فبينهما من الخصومة الشيء الكثير من تاريخ مليء بالدماء والثارات ، والاختلاف على الحقوق الشيعية (الخُمس) ومردودات السياحة الدينية والدخول المتأتية من الأضرحة والمزارات.

الحوزة العربية (ممثلة بالصدر) والحوزة الفارسية ممثلة بالسيد السيستاني ومن يقف وراءه ويؤيده من حزب الدعوة والائتلاف العراقي بقيادة آل الحكيم ، وتنظر المرجعية الأخيرة إلى (مقتدى الصدر) باعتباره مازال طالبا لم يصل إلى مرتبة المجتهد، ويعرف في الحوزة بأنه طالب بحث خارجي ، لذا لا يحق لمقتدى الصدر أن يعطي الفتوى أو أن يكون مرجعية ،وهو سبب ذهابه إلى إيران لكي يحصل على المرجعية ويعود بها بعد ذلك إلى العراق

ولعل من المفيد ذكره هنا هو أن الزعيم الشاب الذي ملأ الدنيا ضجيجا وأصبحت إشارة من يده كفيلة بإحراق مدن ومناطق بأكملها بالعراق لم يكن معروفا أبدا قبل الاحتلال إلا أنه أصبح النجم اللامع واللاعب الكبير في المحفل السياسي العراقي وسطع نجمه هذه الأيام بعد أن أفل فترة بسبب تفوق تيار أحرار العراق الذي يدعمه في الانتخابات الأخيرة .

مقتدى شاب في نهاية الثلاثينات من العمر اغتيل أبوه وإخوته على يد أعوان إيران لكونه طالب سابقا بضرورة تعريب المرجعية العراقية في أوائل العام ١٩٩٩ إلا أن أصابع الاتهام التي توجهها الحكومة الحالية تشير إلى مخابرات صدام حسين إلا أن ما جرى بعد اغتيال والده وشقيقيه يؤكد عكس ذلك حيث حظي مقتدى برعاية بالغة من الحكومة العراقية له ولوالدته وخصص له راتب ضخم ومنح امتيازات خاصة ويقال إنه كان الابن المدلل للرئيس الراحل صدام حسين.

أمه من عائلة لبنانية وكانت تذهب إلى أهلها في لبنان وتعود على نفقة الحكومة العراقية وبرعايتها.. عرف عن مقتدى قبل الاحتلال حبه لألعاب الأتاري وللعبة البليارد المعروفة ومن شدة ولعه بهذه اللعبة كان يصطحب معه عصاه الخاصة أينما يذهب ويحتفظ بها داخل سيارته الماليبو رصاصية اللون، حيث كان يفضل هذا النوع من السيارات.!

كان مقتدى شخصية مغمورة غير معروفة في الوسط العراقي ولكنه ورث عن ابيه زعامته للتيار الصدري

وتشير تقارير صحفية إلى أن تشكيل ميليشيا جيش المهدى من أتباع التيار

الصدري الفقراء والمعوزين ماديا كان بترتيب من أحمد الجلبى علـى أن يكـون قائدها مقتدى وارث التيار الصدري .. حيث كان لقاء مقتدى بالجلبي في مبنـى نادي الصيد بحى المنصور الراقى غربى بغداد وحضر حينها مقتدى مرتديا ملابس طبيعية عبارة عن بنطلون جينز وقميص أبيض وجاكيت أسود كان قد تركهـا في سيارته الخاصة وبرفقته مساعدوه وكانوا باديء الأمر بمثابة أصدقائه وعلى رأسهم قيس الخزعلي الذب قاد تنظيم عصائب أهل الحق عنما انشق على مقتدي الصـدر وجيش المهدي .. كان جميع الحاضرين بمن فيهم مقتدى يلبسون الملابس العاديـة (بنطلون وقميص) حيث لم يعرف عنه ارتداءه للملابس الحوزوية الا أنه ومـن معـه أطلقوا لحاهم فيما بعد لكي يظهروا بصيغة إسلاميين معممين ليكونوا مقبولين نوعا من قبل أتباعهم وخصوصا أنهم يتزعمون تيارا إسلاميا..!

وفي أحد الرسائل غير المعلنة من قبل المرجع الخالصي إلى مقتدى الصدر يحثه على تحجيم دور جيش المهدي لدوره المشين والمخزي فيما يمر به العراق وشعبه من كوارث جراء الجرائم التى يرتكبها جيش المهدى كتب له يقول:

إنك تتحمل وزرا كبيرا وإثما عظيما أمام الله فبماذا ترد عليه يـوم العـرض حين يسألك الخالق عز وجل عن دورك في قتل الأبريـاء.! فلقـد عملـت أنـت شخصيا على تحويل المقاومة الشيعية وجعلها عصابات تقتل وتنحر السنة لا لذنب اقترفوه سوى لتنفيذ ارادات المحتلين ولصراع عقائدي مذهبي عفا عليـه الـزمن وأيقظه المحتل.

وساهمت إيران التى لها عداء عقائدي مع العرب ولالتحافها بعبـاءة المـذهب وانظوائها تحت المظاهر الاسلامية فى إقناع البسطاء من الشيعة بعداء أهل السنة خاصة بعد الخطأ الاستراتيجى لزعيم تنظيم القاعدة فى بـلاد الرافـدين أبـي مصعب الزرقاوى الذى أفتى بوجوب قتل الشيعى الرافضى وسيطرت على جـيش المهدي ودعمته بالمال والسلاح ، ووجهته لاشعال حرب أهلية بحجة أن العرب السنة يناصبون العداء لأتباع ال البيت واقحمتهم بفتاوى تجيز ذلك وتدعو لـه بقـوة منها وعلى سبيل المثال لا الحصر ماصدر عن القيادي في جـيش المهـدى حـازم الأعرجي الأخ غير شقيق للبرلماني عن التيار الصدري بهاء الأعرجي .

١٢ - حاشى المهدى من هيك جيش

كلمة يتندر بها الشيعة أنفسهم بعد أن أفلت الزمام وأصبح هذا الجيش وصمة عار فى جبين العراق والشيعة تحديدا بسـبب طبيعـة الجـرائم التـى ارتكبهـا

والمحرمات التى تجاوز عليها حتى بات كل من ينتمى إلى هذا التنظيم المهترىء والذى تبرأ قائده منه أكثر من مرة مصدر سطوة وقوة حتى إن أى شخص يريد أن ينهى أمرا يدعى انتماءه أو معرفته بأحد عناصر هذا الجيش لدرجة التدخل فى عمليات الفصل «الأحكام العشائرية» التى تعتبر ميراثا راسخا من القوانين يخضع لها الجميع لما لها من قوة وسطوة تاريخية .. بات التلويح بهذا الاسم « جيش المهدى» وسيلة لكل من يريد الحصول على اتاوة أو يبتز شخصا على أى مستوى .. بات عناصر هذا الجيش أو من يدعون الانتماء له قوة تتجاوز سلطات الحكومة والدولة وأى سلطة أخرى .. ساهم فى ذلك السكوت المريب للحكومة العراقية لفترات طويلة على ممارسات عناصر هذا التنظيم أو من يدعى الانتماء له فى كافة المحافظات خاصة مناطق الوسط والجنوب .ز فاذا قامت السلطات المحلية أو قوات الامن باعتقال أحدهم أو بعض منهم سارع أقرانهم بفك اسرهم وإطلاق سراحهم عنوة على مرأى ومسمع من الجميع .. وإذا تطور الأمر إلى اشتباكات مسلحة تكون الغلبة طبعا لجيش المهدى .. وغالبا ما ينتهى الأمر بفرض شروط وتقديم الاعتذار من السلطات المحلية .

إلا أن ما يجب ذكره هنا هو أن بعض عناصر جيش المهدى الذين كانوا يؤمنون بدوره المجتمعى ويمارسون سلطات وصلاحيات الانتماء إلى التنظيم فى خدمة الناس تمكنوا من فرض النظام فى بعض المناطق وأخذ الحق للضعفاء من أقوياء جاروا عليهم .

روى لى أحد سكان مدينة الصدر أن جيش المهدى اصبح مسئولا عن توزيع الغاز على المدينة وهى سلعة كانت شحيحة ومرتفعة الثمن فى زمن المذبحة وكانت طالبة دكتوراه سنية تريد الحصول على حصة أسرتها من الغاز وهى قنينتين إلا أن شحة المعروض والزحام الهائل على منفذ التوزيع الذى يتولاه عناصر من جيش المهدى أدى إلى نفاذ الكمية ولم تتمكن من الحصول على حصتها .. شعرت الفتاة بالقهر وبكت مستغيثة « هلى لأنى سنية ولا أقوى على أخذ حقى كونى امرأة يضيع هذا الحق فما كان من المسئول عن مركز التوزيع إلا أن يمنحها ثلاث قنينات من الغاز بدلا من اثنتين مع تقديم الترضية اللازمة لها والاعتذار وقال إن القنينة الثالثة هى هدية بلا مقابل .

١٣ - فصل السنى

فى شهر ديسمبر ٢٠٠٧ يروى « أبو سجاد » من سكان مدينة الصدر أن معركة عشائرية نشبت بين قبيلة تميم والبودراج بسبب قتل صديق يعمل بالشرطة ينتمى

لتميم صديقه المنتمى للبودراج فى أثناء نقاش عادى على أحد المقاهى وثار اصدقاء كانوا متواجدين فى المكان على القاتل بينهم شخص سنى من سكان مدينة الصدر وما كان من القاتل المتهور الا ان عاجل بأربعة رصاصات فى قدميه ووجه إليه سباً قاسيا لأنه سنى ويتدخل بين الشيعة وبعد أن غادرت اسرة القاتل المحلة كما جرت العادة انتظارا لفصل عشائرى / يجلس فيه أهل القاتل والقتيل لأخذ الدية/ حاول اهل المصاب السنى الحصول على فصل من اهل القاتل جاءهم الرد عنيفا محملا بقدر من الشتائم والتهديد الصريح .« مو كافى انتم سنة وتريدون فصل» .. وكان أهل المصاب قد أنفقوا آلاف الدولارات لعلاج ابنهم الذى تسببت احدى الطلقات فى عجز دائم باحدى قدميه ولما فاض الكيل وفشلوا فى إقناع أهل القاتل بالحصول على تعويض مناسب أو المبلغ الذى اقترضوه وأنفقوه على علاج ابنهم لجأوا إلى مكتب الصدر الذى يضم قسما للعشائر يقوم بدور الوسيط فى النزاعات العشائرية « الفصل» .

ويقول أبو سجاد : إن من بمكتب الصدر انتفضوا لنصرة هذا المظلوم رغم أنه سنى وكانوا فى منتهى الحزم والشدة مع خصمه الشيعى بل واختصموه مالم يعطى الحق لصاحبه وذهبوا لأبعد من ذلك طلبوا من أهل القاتل أن يدفعوا الدية مضاعفة مع تقديم الاعتذار الكافى للشاب السنى المصاب .

وتؤشر تلك القصة البسيطة إلى أن هناك نقاط ضوء رسمها عراقيون طيبون بعيدا عن الانتماءات المذهبية وسط هذا الفيض من الظلام الذى كان يغلف زمن المذبحة .

١٤ - المجموعات الخاصة

يقول « تي.اي لورانس» أو لورانس العرب الأسطوري الذي قاتل مع الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية قبل نحو مائة عام : ان محاربة التمرد «عملية صعبة وبطيئة مثل تناول الحساء بالسكين»

ويبدو أن هذا التعبير ينطبق تماما على عناصر جيش المهدى الذين بات أمرهم محيرا بالنسبة للأمريكيين وغيرهم من المتعاملين مع الشأن العراقى بما فيهم المراقبون والمحللون السياسيون والعسكريون .. وقادت تلك الحيرة القوات الأمريكية إلى ابتكار مصطلح « المجموعات الخاصة» التى تعتبرها هدفا دائما لهجماتها وتعنى عناصر المليشيات الشيعية التى يقول الأمريكيون انها مدعومة من إيران وخارجة عن مسار التيار الصدري، وجناحه المسلح « جيش المهدى» .

وتشير التقارير الامنية إلى ان هذه المجموعات لا تعمل فقط في مدينة الصدر معقل التيار الصدري، بل انتشرت في مدن وأحياء أخرى شيعية ببغداد مثل بغداد الجديدة وحي العامل والشعلة والبياع والشعب وحي سومر ومنطقة (كسرة وعطش) والحسينية وأبو دشير ، كما انتشرت في مناطق متفرقة من العراق وهذه المجموعات تعمل بموجب قواعد متحركة غير ثابتة وتركز على مهمات زرع القنابل على الطرق خاصة تلك الخارقة للدروع التي تنتجها ايران وتكبد الأمريكيون بسببها الكثير من الخسائر الفادحة وتنفيذ الهجمات المباشرة ، فضلاً على عمليات التهجير القسري لأهل السنة ، ومطاردتهم واختطافهم .

ومن المرجح أن يكون الأمريكيون قد ابتكروا هذا التعبير لمحاولة الفصل بين عموم قواعد جيش المهدي ، والنشطاء الفاعلين فيه ، الذين يتولون المهمات الإرهابية القتالية والجرائم الطائفية ، وهي خطوة أريد بها عدم استفزاز مقتدى الصدر وقيادات جيش المهدي ، وفي تبرير العمليات التي تقوم بها القوات الامريكية بين الحين والآخر ، لمطاردة الناشطين في جيش المهدي .

وقد بدأ الترويج لهذا المصطلح منذ صيف ٢٠٠٧ بعد ان اقتربت القوات الأمريكية من انهاء خطر تنظيم القاعدة خاصة حول بغداد بعد التحالف مع رجال العشائر السنية فيما عرف بمجالس الصحوة [(١)] .

ورغم وجود مستوى عال من التعاون الأمريكي الإيراني منذ غزو العراق واحتلاله عام ٢٠٠٣ ، إلا أن التقاطعات بين الطرفين ظلت موجودة ، وهو ما حدا بمسئولين أمريكيين، إلى الإعلان عدة مرات أن مسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة الإيرانية يقدمون الدعم والسيطرة لبعض الجماعات المسلحة.

ومنذ تشكيل حكومة المالكي عام ٢٠٠٦ والتي تعهدت بمطاردة المليشيات فأن قوات فيلق القدس الايراني زاد نشاطاته في استهداف القوات الحكومية ، بعد مرحلة من التعاون بين الطرفين ، ظهرت في مشاركة مليشيا جيش المهدي في عمليات عسكرية حكومية ضد الأحياء السنية في بغداد ، مثلما جرى في الأعظمية وشارع حيفا ومنطقة الفضل ووسط العاصمة .

وجاءت بداية عمل تلك المجموعات كما يقول الأمريكيون عام ٢٠٠٦ واستمرت حتى ٢٠٠٨ ، وتصنف في بعض الأحيان على أنها خلايا سرية «تدعي الخدمة ضمن

(١) الصحوة هي قوات مسلحة بأسلحة خفيفة ومتوسطة قواها الرئيس رجال العشائر الذين قاتلوا القاعدة بدعم أمريكي .

مليشيا جيش المهدي» .

وتشير التسريبات الأمريكية إلى إن قائد تلك المجموعات وزعيمها هو قيس الخزعلي، الذي انشق عن التيار الصدري وكون ما بات يعرف بـ « عصائب أهل الحق » ويعمل تحت إمرة القائد الأعلى لفيلق القدس وهو المتهم الرئيسى بعملية اختطاف البريطانيين الخمسة من مقر وزارة المالية شرق بغداد عام ٢٠٠٧ وقتل أربعة منهم بالإضافة إلى اختطاف جنود أمريكيين من مقر محافظة كربلاء التى تبعد حوالى ١٠٨ كيلومترات جنوب بغداد وقتلهم فى الطريق المؤدى إلى العاصمة بعد استشعار خطر الملاحقة من قبل القوات الأمريكية ، ويقول الأمريكيون إن « تلك المجموعات هي من الناحية التنظيمة تعمل على شاكلة حزب الله اللبنانى » .

ووفقا لتصريحات القادة الأمريكيين فان العلاقة غير واضحة بين المجموعات الخاصة ، وجيش المهدي حيث صرح الجنرال لويد أوستن الرجل الثاني في تسلسل القيادة الأمريكية بالعراق والذى خلف الجنرال ريموند أوديرنو فى ٢٤ مايو ٢٠١٠ كقائد للقوات الأمريكية بالعراق ، « إن هناك تداخلاً بين المجموعات، وان الصلة بين المجموعتين غير متبلورة إلى حد كبير وأن هناك فصلاً بين النشاطات الاجتماعية لجيش المهدي مثل توزيع المشتقات النفطية ، والعمل في حراسة الأحياء ، ونشاطات المجموعات الخاصة الاكثر فعالية ».

إلا أن قادة أمريكيين آخرين يقولون:إن تلك المجاميع هي بالأصل عناصر في جيش المهدي وانشقت عنه أو هي مجاميع متمردة على قيادة زعيم التيار الصدرى وقائد جيش المهدى مقتدى الصدر، وتعمل بأوامر إيرانية مباشرة .

أما القيادات الصدرية فإنها ترفض أي نوع من الربط بين جيش المهدي وتلك المجموعات التي يتحدث عنها الامريكيون ويقول القادة الصدريون أن ذلك االربط هو مجرد ادعاءات القصد منها « افشال التيار الصدري في الانتخابات المحلية التى جرت فى يناير ٢٠٠٩ ، وتصفية القواعد الشعبية لجيش المهدي إلا أن التيار الصدرى حقق نتائج جيدة فى تلك الانتخابات المحلية والانتخابات النيابية التى جرت فى مارس ٢٠١٠».

ولتفسير هذا التناقض، يمكن القول بأن الامريكيين في محاولتهم لتفادي استفزاز القيادات الصدرية بشكل مباشر بسبب تهيئة التيار لدور سياسي قادم مختلف بعد نجاحاته الكبيرة فى الانتخابات وامتداد نفوذه الشعبى ، ولتخليص مقتدى الصدر من الحرج بسبب مطاردة إتباعه ، في حين أنه إما هارب أو مختف ، فإنهم ابتكروا هذا التوصيف (المجموعات الخاصة) ليمكنهم من انجاز عملية عزل قواعد جيش المهدي ، عن قياداته ، مستثمرين إعلانات سابقة لمقتدى الصدر بأنه

يعمل على تطهير جيش المهدي من العناصر الفاسدة والمتمردة ودعم دوره الثقافى والاجتماعى والسياسى .. ولهذا عمل الأمريكيون بحرية وتتوالى بياناتهم العسكرية لتزف أخبار اعتقال عناصر من المجموعات الخاصة المدعومة من إيران خاصة بعد اعلان مقتدى الصدر عن تجميد جيش المهدى إلى أجل غير مسمى بعد أن ارتكبت سرايا الجيش اعمال عنف تتوزع بين عمليات الاغتيال والاختطاف ، واعمال اخرى تتناول الجانب الخدمي تتمكن فيه من جمع المعلومات وتقديمها لتلك السرايا ، التي هي في حقيقتها (فرق موت) لم تظهر عام ٢٠٠٦ كما يقول الامريكيون بل وجدت مع تأسيس جيش المهدى وتصاعدت عملياتها مع فورة العنف الطائفى منذ عام ٢٠٠٥ .

١٥ - الرحيل المر

لاتبتعد الذاكرة العراقية كثيرا في استذكار أول عملية تهجير منظمة لليهود تمت طوال عقد الاربعينات وبداية العقد الخامس من القرن الماضي والجميع يؤكد أن الهجرة تمت من المنظمات الصهيونية التي كانت تريد بشرا يسكنون ارض اسرائيل.

ثم تلتها هجرة الكلدان العراقيين الذين عانوا من التمييز العرقي عام ١٩٥٩ وما بعدها و الذين انتقل الآلاف منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبالتحديد إلى ولاية ميتشجان التي يشكلون فيها قوة أقلية لا بأس بها .

أما أشهر هجرة تمت في العراق وفي الداخل فهي هجرة الفقراء من فلاحي الجنوب إلى مدينة بغداد التي كانت تستقطب الأيدي العاملة في مشاريع الإعمار الهائلة التي كان مجلس الإعمار قد بدأها بقوةفتحولت العديد من المناطق في بغداد إلى مستوطنات للمهجرين الذين فروا من ظلم الاقطاع في الجنوب فضلا عن الفقر والحرمان أملا فى حياة جديدة بعد أن بدأت الحكومة الملكية بمشاريع عملاقة كربط المناطق بشبكات الكهرباء والماء وتعبيد الطرق وبناء المؤسسات التعليمية التي تحتاج إلى أيد عاملة غير ماهرة فضلا عن انتشار بناء الدوائر الحكومية والمستشفيات والمؤسسات الصحية وبعض العمارات في قلب بغداد والتي استقطبت الآلاف من العمال استوعبتهم المرحلة اللاحقة فعملوا في التنظيف والحراسة وأعمال أخرى .

وتعد مدينة الصدر شرقى العاصمة التى باتت المعقل الرئيسى للتيار الصدرى وجناحه العسكرى « جيش المهدى من أكثر المناطق استقبالا للمهاجرين بعد أن بناها الرئيس الراحل عبد الكريم قاسم وأطلق عليها فى البداية مدينة الثورة ثم

تحولت إلى مدينة صدام واستقرت فى النهاية على اسم جديد يناسب الزمن الجديد وهو « مدينة الصدر المنورة ».

كما حدثت هجرة أخرى طوال أكثر من عشر سنوات هى الهجرة الضخمة لسكان الاهوار بعد إن قام صدام بتجفيفها وتقطعت السبل بمئات الآلاف من صيادي الطيور البرية والأسماك ومربي الأبقار والجاموس الذين اعتادوا على هذه الحياة لآلاف السنين ، مما اضطر الشباب منهم إلى العمل في القصور الرئاسية بتكريت وبغداد والبصرة والحلة وبعض المناطق الأخرى ولا توجد بيانات دقيقة عن عدد المهجرين قسريا بهذ الاسلوب

وتاتي الهجرة المليونية للكرد إلى الاراضي التركية في عام ١٩٩١ بعد فشل ما يعرف بـ«انتفاضة اذار» ضد نظام صدام حسين بعد حرب الخليج الثانية بايام قلائل .

وفي الداخل قام صدام حسين بتصميم هجرة قسرية بهدف إعادة التوزيع السكاني اوتغيير التركيبةالديمجرافية خصوصا في الشريط الحدودي مع إيران وفي محافظة كركوك حيث قام بتهجير آلاف من الأكراد ووطّنهم في أماكن مختلفة مثل الرمادي والديوانية والعمارة وغيرها من المناطق الجنوبية والغربية ثم جاءت الأزمة التي سبقت نشوب الحرب العراقية الإيرانية عندما اتهم صدام الكرد الفيلية في العراق وهم «الأكراد ذوى المذهب الشيعى» بالتآمر مع الحكومة الايرانية فقام بالاستيلاء على أموالهم وعقاراتهم وتم اعتماد قانون التبعية الايرانية لهم و نفيهم على ضوئه إلى ما وراء الحدود بين العراق وإيران إلا أنهم عادوا بعد انهيار نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ بعد أن كونوا عائلات وتزاوجوا مع الإيرانيين وصار عدد كبير منهم أعضاء بالبرلمان ودوائر الدولة بعد أن شكلوا أحزابهم السياسية التى تطالب بحقوقهم [(١)] .

ولعل من أكبر الهجرات تلك التي تمت في عهد النظام السابق خصوصا بعد هزيمة جيشه في حرب الخليج الأولى والحظر الدولي على العراق الذي ادى إلى خروج الملايين من العراقيين إلى خارج العراق بحثا عن عمل ولقمة عيش وقد تجمع غالبية العراقيين في الأردن وقسم منهم حصل على فيزا او لجوء إنساني أو حتى سياسي طوال عقد التسعينات .

غير أن أخطر هجرة تعرض لها العراق هي تلك التي اعقبت تفجير مرقد

(١) الطريف في الأمر أن السفير الإيراني الحالي بالعراق حسن دانائي فر هو أحد ! لعراقين الذين طردهم صدام حسين إلى إيران .

الإماميين العسكريين / الإمام على الهادي والحسن العسكري وهما الإمام العاشر والحادي عشر لدى الشيعة/ فى بلدة سامراء السنية بمحافظة صلاح الدين وهى الحادثة التي فجرت عنفا طائفيا غير مسبوق في تاريخ العراق جعل الحياة في احياء بغداد وبعض المحافظات جحيما لا يطاق مما اضطر الملايين من العراقيين إلى ترك العراق إلى عدة دول و جعل العراقيين يتندرون بالقول «ان تحت كل نجمة تجد ثمة عراقي» .. فيما واكب تلك الهجرة الخارجية هجرة داخلية إلى مناطق أكثر أمنا اعتمادا على الانتماء الطائفى .

في تقرير له ذكر مكتب مساعدة العراق التابع للأمم المتحدة المعروف باسم « يونامي» ان هناك اكثر من مليونين وثلاثمائة الف لاجيء أو مقيم عراقي في خارج العراق وان المكتب يعمل مع الحكومة العراقية لدعم عودة العائلات إلى العراق وهو ما أكده الممثل الشخصي للامين العام للأمم المتحدة ستيفان دي مستورا الذي رأي أن هناك بوادر مشجعة وهو ما سيجعل الأمم المتحدة تستجيب إلى طلبات وزارة الهجرة والمهجرين في دعم نشاطاتها بهذا الاتجاه.

إلا أن عودة العائلات المهجرة إلى مساكنها بعد تطبيق خطة امن بغداد واستقرارالأوضاع نسبيا واجه الكثير من الصعوبات والمشاكل

لكن المواطن يجد نفسه ازاء هذه االحقائق حسيرا كسيرا وهو لأن الكثير من المهجرين تم نسف بيوتهم وحرق أثاثهم وصودرت مصالحهم وهو أمر لا يمكن احصاؤه بدقة.. كما أن الكثير من العائلات تعرضت للقتل والتنكيل عند عودتها إلى بيوتها مرة أخرى رغم وجود حالات إيجابية جرى التعامل معها بشفافية وأعيدت لها بيوتها لكنها فقدت المحتويات .

ربما يمنع الحياء البعض من متابعة تفاصيل التهجير بسبب العوز والحالة الاقتصادية السيئة فى وقت تجد الحكومة العراقية نفسها في زاوية ضيقة بسبب حجم التحديات التي تواجهها وضآلة مواردها وضيق افق خبرتها في التعامل مع الأزمات وخصوصا أزمة مثل أزمة المهجرين .

يقول أبو حيدر إنه رفع شكوى إلى المسؤولين لكنه شعر بأن مصيبته أقل وطاة من مصيبة مهجر آخر قتل أولاده أمام عينيه وأنه حاول أن يصمد معولا على أنه عاش في الحي لسنوات طويلة وانه معروف بالاستقامة ولابد أن أحدا من أبناء الحي سيتردد كثيرا قبل أن يفكر أن يؤذيه بكلمة فكيف بغيرها ، إلا أن الأمور خرجت عن كل منطق مع قدوم الغرباء إلى المنطقة الذين جندوا من الصبية والجهلاء ليفتكوا بالأبرياء ويروعونهم شر ترويع .

تبدو قصة هذ المهجر أقل القصص إثارة بالنسبة للمواجع التي تهز ضمير الإنسانية .

يقول عمر أبو شيماء وهو تركماني إنه هاجر من العراق وفي داخله خوف عميق الا يعود ثانية إلى بيته في أطراف الأعظمية .. الجحيم بعينه كان يراه يوميا وهو يتوجه إلى مكان عمله في باب المعظم .. كان يلاحظ نظرت الاشفاق من أصدقائه في السوق الذي هو فيه إلى أن خبّره أحد أصدقائه من الباعة بأنه مرصود وان اسمه مشكلة وان عليه أن لا يأتي إلى المكان .. كان عليه أن يفكر بطريقة أخرى للحياة والعيش .. فكر بعمل آخر لكن دون جدوى. أخيرا غادر العراق إلى سوريا وهناك حيث البطالة تضيق على السوريين حاول إيجاد فرصة له معهم ..الترحيب السوري بالعراقيين بدأ بالفتور التدريجي نظرا للمصاعب والمشاكل التي حدثت وارتفاع أسعار المواد الغذائية والفنادق والشقق وإيجارات السكن الأخرى .

ويقول سنان: إن القلق الكبير من نفاد المبالغ دون الحصول على عمل يشكل واحدة من المشاكل التي رسمت أفقا أسود أمام العائلات التي خافت على أبنائها من العودة إلى العراق تحسبا من القتل الطائفي الذي انتشر بشكل كبير بعد تفجير المرقدين المقدسين لدى الشيعة فى فبراير عام ٢٠٠٦ .

إحصائيات الهلال الأحمر العراقي تبعث على التفاؤل بسبب الأرقام المشجعة عن عدد العائدين إلى الوطن وخصوصا إلى العاصمة بغداد بعد ان تحسنت الأوضاع الأمنية في أنحاء كثيرة من بغداد خصوصا في المناطق الساخنة ، وهذه الإجراءات تم مدها بمنحة مجلس الوزراء البالغة مليون دينار لكل عائلة تعود إلى مسكنها السابق وادى هذا إلى التعويض الجزئي الذي شجع عددا لا بأس به من العائلات إلى العودة إلى أماكنها السابقة إلا أن توفير الأمان في المناطق التي عادت إليها العائلات مرهون بالدور الذي تقوم به الأجهزة الأمنية من جيش وشرطة من فرض لهيبة الدولة وسلطتها مما يعطي الإحساس بالأمان لدى العائلات الأخرى التي تتوجس خوفا خصوصا بعد مقتل عدد من العائلات في أثناء عودتها إلى مناطق سكناها القديمة .

ساهمت عدة إجراءات اتخذتها الحكومة فضلا عن تحسن الوضع الأمني في عودة الكثير من العائلات عبر الطرق البرية مع سوريا والأردن ولبنان فضلا عن عودة آخرين عبر الجو مستفيدين من رفع رسوم التحميل عنهم فضلا عن تجهيز قوافل من السيارات الحديثة لنقل المواطنين من سوريا والأردن إلى العراق ومجانا

بالإضافة إلى تخصيص رحلات طيران مجانية لعودة المهاجرين خاصة من مصر .

يتحايل الفقراء من المهجرين على الوضع المزري الذي يعيشونه ببناء دور بسيطة يسكنون فيها ريثما يتحسن الوضع الأمني والمعاشي بعد أن فقدوا كل شيء إلا أن بعض الجهات تحرمهم من هذا الحق البسيط .

تروى أم زينب التى قتلت القاعدة زوجها عام ٢٠٠٦ أنها تقيم فى فناء خلفى لأحد المساجد بمنطقة أبو دشير المواجه لحى الدورة جنوبى بغداد بعد أن دبرت أمر المكان بمساعدة أهل الخير وتقيم حاليا فى غرفة واحدة بمرافقها البائسة مع أولادها الستة الذين يبحثون عن فرصة عمل تتيح لهم النذر اليسير من متطلبات الحياة القاسية .

وما زاد الطين بلة أن بعض المحافظات التي تعد ملاذا لمئات العائلات رفضت قبول مهجرين جدد بحجة عدم القدرة على تحمل الأعباء الأمنية والمادية لهؤلاء المهجرين الذين هربوا من القتل في محافظات أخرى .. مثل هذا الرفض أو الموقف خلق شعورا عارما بالاستفزاز والإحباط في نفس الوقت الأمر الذي قاد إلى مشاكل اجتماعية ونفسية أدت إلى قيام مظاهرات كبيرة بعضها حقق نتائج مرضية مثل المخيم الاعتصامي الذي أقيم في مدينة كربلاء لأهالي مدينة ديالى الذين تعرضوا إلى إبادة جماعية على يد القاعدة .

تؤكد إحصائية رسمية عراقية وجود اكثر من ثلاثة ملايين عراقي خارج العراق بينهم مهاجرون ومهجرون وغيرهم .. ففي السويد وصل عدد العراقيين إلى مائة الف وفي الدنمارك حوالي ٢٥الفا وفي ألمانيا هناك ٤٥ ألفا وفي استراليا ٦٥ وفي الولايات المتحدة هناك ثمانون ألف عرقي أما في بريطانيا فهناك ٤٥ ألفا و٢٥ ألفا في فرنسا و١٢٠ ألفا في إيران وفي مصر هناك أكثر من مائة ألف عراقي وحوالي مليوني عراقي في الدول المجاورة منهم حوالي مليون ونصف في سوريا وحدها .

١٦ - حكاية الجهاد

لم يكن حي الجهاد غير اسم لأحد أحياء بغداد العديدة المنتشرة على بقعة كبيرة تضم العاصمة العراقية ،إلا أن اسم إحدى مناطقه الصغيرة وتدعى (حي الفرات) اكتسب شهرة أكبر بعد المعارك العنيفة التي شهدها عند وصول الجيش الأمريكي إلى مطار بغداد المجاور له.

لكن الجهاد بين ليلة وضحاها غدا رمزا للرعب الطائفي الذي أحاله من منطقة هادئة نسبيا إلى واحد من رموز العنف الطائفي والقتل والخوف.

حي الجهاد منطقة واسعة نسبيا يضم أحياء صغيرة حديثة ،كان يضم فيما

سبق كلية الأمن القومي التابعة للمخابرات العراقية ، لذلك فإن اغلب الأراضي في أحيائه وزعت على الموظفين الحكوميين وحملت أسماء الجهة التي ينتمي إليها هؤلاء مثل الخارجية ، الأطباء ،الديوان(ديوان الرئاسة) المخابرات ،نواب الضباط (رتبة عسكرية) وغيرها ، فيما كان حي الفرات يضم مجمعا لمنتسبي الحرس الخاص ،الذي يشكل وحدة الصفوة للحرس الجمهوري أيام حكم صدام حسين.

ورغم انتشار العنف الطائفي عام ٢٠٠٥ إلا أن حي الجهاد لم يشهد أحداثا مثيرة ، بل بقي الجميع فيه وكأنهم في واحة خارج بغداد لا يتأثرون بما يحدث ، رغم أن الأحياء الصغيرة التابعة صنفت طائفيا ، فحي الأطباء والفرات والمخابرات اعتبرت أحياء سنية ، فيما اعتبرت الأحياء المتبقية أحياء شيعية ،ورغم ذلك لم يحدث ما شأنه أن يوتر الأمور بين السكان حتى ذات جمعة حصل ما كان يخشاه الجميع.

وتبدأ حكاية الفتنة بعد صلاة الجمعة فى أحد أيام المذبحة حيث انفجرت شاحنة صغيرة مستهدفة المصلين في جامع (صديق شنشل) وهو جامع في منطقة الأطباء الذي تسكنه غالبية من الطبقة المترفة ، لكن القدر حال دون حدوث إصابات كثيرة نتيجة الانفجار الذي تم توقيته مع موعد خروج المصلين من الجامع ، ذلك لأن إمام الجامع طلب من المصلين التأخر عن الخروج لأداء صلاة الغائب على روح الشخص الذي كان يتولى رعاية الجامع وقد توفي خارج العراق.

أعقب ذلك في اليوم الثاني ــ أي يوم السبت ــ انفجار سيارة قرب حسينية الزهراء الواقعة في المنطقة المقابلة لجامع شنشل والتي يتخذها انصار التيار الصدري مقرا لهم ،مما أدى إلى سقوط ٤٠ قتيلا وجريحا على الأقل وهدم منزلين على سكانهما .

في اليوم الثالث أعلن عن تصعيد المحرقة ، يقول لي أحد الأصدقاء الصحفيين من سكنة المنطقة ، بينما أنا في مقر الجريدة تلقيت اتصالا من المنزل ، كان أهلي خائفين مذعورين طلبوا مني أن أجد مكانا أبيت فيه ولا أعود إلى حي الجهاد أبدا.. لقد بدأوا يقتلون الناس في الشوارع بجنون.

تقول الرواية : إن مجموعة من المسلحين اقتحموا حي الجهاد وبدأوا بنصب سيطرة / نقطة تفتيش/ على إحدى الطرق الرئيسة المؤدية إلى المنطقة ،يوقفون السيارة ويدققون في هويات راكبيها،ومن ثم يقومون بالإعدام على الهوية ، كل من يحمل لقبا لعشيرة من المنطقة الغربية أي كل من يعتقدون أنه من أهل السنة ، وهكذا خلال أقل من ساعة قتل ٥٢ شخصا في مكان واحد.

يخبرني الصحفي أن زوجته كانت في إحدى السيارات وقبل أن يصلوا لسيطرة

القتل توقف سائق السيارة وطلب منهم الترجل والذهاب سيرا على الإقدام ، كانوا يقتلون الناس بدم بارد..تقول : تنقلنا بين المنازل والخوف يسيطر علينا ولم أكد أصدق أني قد وصلت المنزل سالمة.

الغريب أن الحكومة التزمت الصمت ، بل راح بعض القادة الأمنيين والمسئولين يكذبون ،ويبررون ، وبقيت الجهاد مستباحة ٢٤ ساعة ؛ليدخلها الجيش صباح اليوم التالي بعد أن قتلت عائلات كاملة في منازلها ، والأغرب أن الجيش بسط سيطرته ولكن دون أن يلقي القبض على أحد من الجناة ، ومنذ ذلك اليوم صار مشهد القتل مألوفا في حي الجهاد الذي أصبح رمزا للخوف حتى بات سائقو سيارات الأجرة يتخوفون من الذهاب إليه في جهر النهار ..ورغم أن الهدوء عاد بعد سنتين ، واستقرت الأمور ألا أن البعض من أهالي بغداد لا زال يشعر بالخوف من اسم حي الجهاد الذي تحول إلى صورة مصغرة عن الحياة في بغداد ،أو قُل العراق إذ أصبحت الجماعات المسلحة والقاعدة وتنظيمات أخرى تسيطر على المناطق السنية فيه حتى بات الوصول إلى حي الأطباء آو الفرات أو المخابرات دخولا إلى المنطقة المحرمة ، فيما سيطرت المليشيات الشيعية على المناطق الأخرى وراحت تفرض أوامرها وسياستها بعيدا عن السلطة التي غابت نهائيا رغم وجود رمزي لسيطرات/ نقاط تفتيش/ هنا وهناك لا تستطيع شيئا حيال ما يجري إذ تسيطر عليها المليشيات بالكامل.

وبدأت حملات تهجير متبادلة ومنظمة راح ضحيتها الفقراء من الناس الذين لا يملكون في دنياهم إلا بيتا استطاعوا بنائه بعد سنوات من الكد والجهد غير أنهم خسروه في دقائق معدودة على أساس عمليات التطهير الطائفى للمناطق فلا يسمح لسنى بالسكن فى منطقة شيعية والعكس وهو ما أدى إلى تنقية إجبارية لمعظم مناطق العاصمة بغداد فى سنوات المذبحة وأصبحت تلك المناطق عبارة عن كانتونات تحكمها المجموعات المسلحة سواء المنتمى منها لتنظيمات سنية أو ميليشيات تابعة للقوى الشيعية .

وكان يتم الفصل بشكل قطعى وهمجى يطال أسرة بكاملها حيث كان العراقيون يتزاوجون دون النظر إلى طائفة بعينها فصار لزاما فى تلك المرحلة أن يتم الفصل بين الزوجين على أساس طائفى وانهارت عائلات بأكملها باعتبار أن الزوج مثلا ينتمي إلى الطائفة السنية والزوجة تنتمى إلى الطائفة الشيعية أو العكس .. بل صار الأمر وصولا إلى قتل العم أو الخال إذا كان ينتمى لطائفة مغايرة فيما يشبه الفصل العنصرى الذي زرع بذور الكراهية المقيتة وانقلبت الأمور إلى حد القطيعة بين الأهل بعد العداء الذي وصل إلى المطالبة بالثأر بسبب القتل أو الاستيلاء على الأملاك .

ولم يكن حى الجهاد استثناء فى زمن المذبحة وإن كانت الصور الطائفية قد تجسدت فيه بشكل أكثر وضوحا وفجاجة وإنما اندرج تحت طائلة القتل بعناوين الطائفة والمذهب غالبية أحياء العاصمة بغداد وعدد كبير من المحافظات التى كانت تمثل فسيفساء عراقية تتميز بثراء انقلب ليصبح جحيما .. وكما يقول العراقيون: إن ثرواتهم غير المحدودة كانت وبالا عليهم بدلا من أن تكون سببا فى سعادتهم وتمتعهم بنعيمها .

١٧ - مصيدة منتصر

يروى منتصر أبو زيد الذى كان يعمل فى مؤسسة الصحافة والعراق الحر/ إف أى إم بى أو / فى خريف ٢٠٠٦ كان يقود سيارته الخاصة فى شارع العمل الشعبى قرب مدرسة عدنان خير الله وفى التقاطع حدث هجوم استهدف آلية أمريكية بقاذفة آر بى جى وصارت حالة من الرعب فى وقت لم يكن يعلم جغرافية المكان جيدا وتتميز تلك المنطقة بدروبها وأزقتها المتشعبة وهرع نحو شارع فرعى تحسبا لهجمة أمريكية ردا على الهجوم .. وكان هذا مع موعد صلاة العصر واقترب من الجامع ليميز إذا كان حسينية شيعية أم مسجد سنى وزاد الأمر حيرة هو اسم الجامع « جامع الإمام على رضي الله عنه» علما أن الشيعة لا يقولون : رضى الله عنه وإنما يقولون : عليه السلام ودخل إلى الجامع طلبا للاطمئنان والسكينة وعملا بنصيحة والدته باللجوء إلى الجامع عند الشعور بالضيق .

فجأة ظهر مجموعة من الرجال الملثمين وغير الملثمين الذين يحملون لحا ثقيلة كان بينها لحية حمراء وهو أمر غير معروف بالعراق وكانوا يحملون مصابا بطلق نارى فى بطنه .. وبسرعة أخفى هوية المنطقة الخضراء التى تمنح للصحفيين / سيبيك/ وأخفى هوية المؤسسة الصحفية وأظهر أوراق السيارة التى كانت تعود لرجل سنى من أهل الغزالية .. سأله أحدهم عن إسمه فقال: منتصر أحمد حسن بكر رغم أن إسمه « منتصر جواد كاظم» وهو إسم يدل على هوية شيعية وقال لهم : أنه من أقارب دار بكر فرحب أحدهم به بصوت عال وقال أهلا بأهل عانة وهى بلدة سنية تتبع محافظة الأنبار .. عندها تأكد منتصر أنهم من المتشددين السنة فغير لهجته فورا من اللهجة البغدادية إلى لهجة المنطقة الغربية وقال « هلا بابن عمى» وهو التحية لديهم فقال: حياك الله .. وأجاب منتصر « بالمحيى » .

طلبوا منه أن يصطحب المصاب فى سيارته وصعد معه بالسيارة أحد المسلحين الذى يحمل سلاحا أمريكيا وقاذفة باعتباره سنيا .. وعندما تحرك سأله المسلح

هل تصلى ؟ .. قال : نعم .. قال له : وما هى تلك الطجعة » وهى علامة الصلاة التي تظهر بوضوح فى جبهة الشيعة نظرا لاستعمالهم قطعة الحجر التى تسمى تربة للصلاة عليها » .. طلب المصاب أن يخبئوه فى أحد الدور التابعة لهم . واستجاب منتصر لأن المنطقة يحاصرها الأمريكان .. وعند محاولتهم مساعدة المصاب حتى ينزل من السيارة نطقت شفتا منتصر بكلمة سريعة بها لهجة أهل الجنوب .. فجأة رفع المسلح سلاحه فى وجهه وقال له: أنت رافضى [1] .. فأقسم له أنه سنى .. أنقذه صياح المصاب من الألم طلبا للراحة ومحاولة إخراج الرصاصة .. وتركه المسلح يمضى بسيارته .. وعند خروجه من المكان التقاه أحد الملثمين الذين كانوا بالمسجد وقال له : أين وصلتم قال له: « وصلته للمقصود » والكارثة أن تلك الكلمة كان يستعملها منتسبو الجهات الأمنية للدلالة على الأماكن المقصودة لديهم مسبقا ويعنى الهدف المطلوب وهو ما جعل الملثم يستشيط غضبا وذعرا من منتصر ظنا منه أنه عنصر أمنى ووجه سلاحه اليه .. واسرع منتصر بالقول : « والله لأقول لأبو بكر عليك» وهو أسلوب تحذيرى يقوله أهل المناطق الغربية السنية .. توجه منتصر مسرعا إلى طريق الخروج حيث كانت قوات أمنية تحاصر المكان مع القوات الأمريكية فأطلقوا زخات رصاص تحذيرية ليتوقف وعندما توقف هجموا عليه وهشموا زجاج سيارته دون أن يتبينوا من هو فلا مجال فى مثل هذه الظروف للتحقق ومجرد الشك يتطلب القتل فورا .. تحدث معه جندى أمريكى بلهجة عصبية وهو يطرحه أرضا مع سيل من الشتائم باللغة الإنجليزية وتساؤل عصبى « ماذا تفعل هنا؟.. سحبه الجندى إلى جانب الطريق سحلا بعد ربط يديه..وطلب منه هوياته وطلب مترجما عبر جهاز اللاسلكى مبلغا من بالجانب الآخر أنه اعتقل أحد الإرهابيين المسئولين عن الهجوم .. عندها قال منتصر : « لا تحتاج إلى مترجم فأنا اتحدث اللغة الإنجليزية أنا مواطن أمريكي .. قالها للخلاص بعد أن اشتدت ثورة الجندي الأمريكي الذى سأله هل تمتلك هوية أمريكية .. قال له منتصر : إن كل ما يثبت هويتى مخبأ بأحد مقاعد السيارة .. وعندما بحثوا بالسيارة لم يجدوا إلا الأوراق التى جهزها ليريها للمسلحين وهى تثبت أنه سنى من أهل الغزالية .. زدات الأزمة وتلقى ضربات من الجندى الأمريكي يشاركه جندى عراقى حاقد ومترجم استاء من إجادته للغة الانجليزيه

(1) يطلق السنة لقب الرافضة على الشيعة . ويطلق الشيعة لقب النواصب على السنة باعتبارهم نياصبون أهل البيت القرار وفقًا لمعتقدات شيعية خاطئة

.. أنقذته ضابطة أمريكية تواجدت مع المجموعة تدعى « سنو ويمن »تعاطفت معه بد أن سالت الدماء من وجهه ورأسه وطلبت منه أن يقص حكايته وما الظروف التى جعلته يتواجد فى مكان الهجوم على الرتل الأمريكى .. أبلغها منتصر بمكان الهويات الرسمية التى تشمل هوية «الدخول للمنطقة الخضراء » .. وأبلغها أنه اضطر للكذب بأنه مواطن أمريكي حتى ينقذ نفسه فقط وليخفف الضغط والضرب وثورة الجندي الأمريكي المرعوب الغاضب .. سلمه الأمريكان للقوات العراقية الذين صادروا هاتفه المحمول وكروت الشحن التي بحوزته وما لديه من نقود واستفسروا عن الدماء التي بالسيارة فأبلغهم بالقصة ومكان تواجد المسلحين حيث عرضوا عليه شاشة داخل السيارة العسكرية « هامفى» التى ترسم خريطة كاملة للمنطقة وبها بعض الإشارات لأسماء بيوت عراقيين .. وبعد أن تأكدوا أنه شيعى ولا علاقة له بالمسلحين الذين كانوا ينتمون للقاعدة أوصلوه إلى منطقة الشعلة ومنها تمكن من الوصول إلى منطقة سكنه فى الكاظمية .. عندها أقسم منتصر أن هذه المنطقة لن يصلها مادام على قيد الحياة بعد أن رأى الموت بعينيه على أيدى المسلحين والأمريكيين والعراقيين .

١٨ - فتنة الحرية

يبدو أن تلك المنطقة لم تأخذ من إسمها أى نوع من الحريات سوى حرية القتل وإشاعة الفتنة بعد أن غدت إحدى رموز الدم فى زمن المذبحة .. منطقة الحرية وتنقسم إلى الحرية الأولى والثانية والثالثة والدولعي وتقع شمال غرب العاصمة بغداد تحدها منطقة الكاظمية الشيعية / نسبة إلى الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية / وجنوبا الشعلة أحد مراكز نفوذ جيش المهدى الجناح العسكرى للتيار الصدرى .. وكانت الدولعى ولا زالت معقلا للميليشيات الشيعية وخاصة جيش المهدى ويحظى فيها بنفوذ واسع ربما يفوق نفوذه فى مدينة الصدر معقله الرئيسي نفسها .

ويحكى أبو عبد الله من سكنة الدولعى «محلة ٤٣٤ »التى كانت مواجهة للمعقل الرئيسى لجيش المهدى الذى استحل منطقة يقع فيها أحد مقرات الإدارة الرئيسية للحرس الجمهورى أيام صدام حسين حيث أقام قواعده التى ساعدت على بدء الفتنة مبكرا منذ نهاية العام ٢٠٠٥ وبداية العام ٢٠٠٦ .

وكانت بعض عناصر من المقاومة السنية المسلحة / كانت توجد فعلا فصائل متاومة هدفها ضرب قوات الاحتلال الأمريكى فقط باعتباره محتل يجب جهاده

قبل أن يتم تشويه صورة المقاومة لاحقا باعتبارها أعمالا إرهابية / وكان هؤلاء ينتمون إلى عشائر الدليم والجبور وزوبع ويمارسون نشاطهم في ضرب القوات المحتلة على الطريق السريع الرابط بين تلك المنطقة ومنطقة «جكوك» .. وكان قائد جيش المهدى فى تلك المنطقة ويدعى «أبو نوفل» قد سلم أسماء عناصر المقاومة بالكامل للواء البركان التابع للحرس الوطنى الحكومى فى وقت كانت تلك القوات الحكومية عبارة عن ميليشيات تعمل بغطاء رسمى وهو ما أدى إلى اعتقال ٢٣ شخصا من الدليم و٣ أشخاص من الجبور وتم تعذيبهم وذبحهم ثم تذويب أجسادهم فى حامض «التيذاب» وكان هذا الأمر سببا مباشرا فى تصاعد المقاومة ضد الامريكيين توازيا مع تهديد الشيعة فى منطقة الدولعى بالقتل باعتبارهم مسئولين عن هذا الأمر وفقا لما استقرت عليه قيادات المقاومة فى ذلك الوقت .

وكانت أول عملية كرد اعتبار ضد قائد جيش المهدى «ابو نوفل» باعتباره المسئول الاول عن دم الشهداء هو قتله فى منزله خلال عملية نوعية أسفرت أيضا عن مقتل زوجته وأحد حراسه واعتقال اثنين اخرين من الحراس .. وبعدها انتفض جيش المهدى ليرد على قتل قائده وقام بالانتشار فى الدولعى وهدد أهل السنة بالقتل والذبح .

وكان أول ضحية فتى سنى يدعى فراس الجميلى وتم سحله فى الشارع وقطع رأسه وتعليقها على باب منزل «أبو نوفل» لمدة يومين ايذانا ببدء عمليات الانتقام التى قالوا : إنها لن تنتهى إلا بقتل ١٠٠ سنى .. وتوالت دوامة القتل فى المنطقة لتطال الجميع فى حلقة من مسلسل الصراع الذي أخذ الصبغة الطائفية التى التقت مع أجندات القوى التي أرادت للعراق أن يصبح نموذجا فريدا فى العنف الطائفى يكون المواطن العادى هو الضحية وليس من يحمل السلاح فى عمليات قتل بالوكالة دون النظر إلى ذنب أو جريرة ارتكبها الضحية .. وأصبح القتل منهجا يوميا وواجبا مفروضا على قاتل لا يعرف لماذا يقتل ومقتول لا يعرف ما سبب ذبحه وكان يسقط يوميا ما بين ٣ إلى أربعة من الشيعة يقابلهم نفس العدد الجانب من الآخر فى دوامة قتل عبثى لم تقف الجهات التي كان يفترض بها أن تقف لتمنعها وإنما تم تغذية تلك الرغبة المتوحشة فى القتل والقتل والمضاد .. حتى إن «لواء البركان» المسئوول عن حفظ الأمن فى تلك المنطقة تدخل بشكل اشعل فتيل الأزمة ورفع من درجة الاحتقان عندما قامت عناصره بقتل سبعة من عائلة سرهيد المنتمية إلى عشيرة البطة بالتواطؤ مع جيش المهدى الذى كان مدعوما

بشكل رسمى غير معلن من الحكومة التى كان يقودهـا رئـيس الـوزراء الأسـبق الدكتور إبراهيم الجعفرى والتي تشير إليها الكثير من أصابع الاتهام بالمسئولية عن عمليات القتل الطائفى التى هزت المجتمع العراقى وضربت ثوابته فى مقتل وأرسـت أساسا قام عليه زمن المذبحة .

وبعد ارتفاع وتيرة العنف واحتراق الأخضر واليابس وسريان قانون فرق الموت بدأت عمليات النزوح الجماعى خاصة بعد تنفيذ عمليات القتل مع صلاة الفجر لاهل السنة وبدأت المساجد تخلو من مصليها وانتقل اهل السنة إلى حى العدل ومنطقة الغزاليـة بعد أن اشتدت عمليات التصفية الجسدية المصحوبة بتعذيب وصارت شـبه منظمـة ووصلت إلى أوجها بعد تفجير المرقدين الشيعيين / مرقد الإمام على الهادى والحسن العسكرى وهما الإمامين ١٠ و١١ لدى الشيعة الجعفرية/ فى بلدة سامراء السنية يوم ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ وكانت القشة التى قسمت ظهر البعير وأخرجت ما تبقـى مـن عفاريت كانت حبيسة القمقم حتى خلت الشوارع تماما من النـاس وقـت الظهـر وأصبح الخروج يعنى الرغبة فى الانتحار مهما كانت الأسباب .

وانحصر أهل السنة فى منطقة جامع الدباش بالحرية الثالثة اعتبارا من ٢٠٠٧ بعد أن قامت القوات الأمريكية بمساندة من الحرس الوطنى الحكـومى بجمـع العـائلات السنية وابلاغهم بانه لا يمكن حمايتهم وأن الأمر يتطلب النزوح من تلك المنطقـة إلى ملاذ آمن وجرى تهجير ما يقارب من ٣٠٠ عائلة هى من تبقى من أهل السنة بالمنطقة .

ومن حكايات القتل شديدة الألم كما يروى أبو عبد الله هى حكاية قتل خـادم جامع دعاة الاسلام أبو عمر فى منطقة الدولعى وهو مشهدانى / سادة أهل السنة/ وكان يعمل فى سوق خضار الشعلة / العلوة/ وترصد له عناصر جـيش المهـدى مدعومين بلواء البركان التابع للحرس الوطنى الذين اعتقلوه بتهمـة الإرهـاب وهى التهمة الشائعة فى ذلك الوقت وما تلاه وتم تسليمه إلى جيش المهـدى فـى منطقة الشعلة رغم أن عمره ٧٠ عاما وقاموا بحرقه بحامض «التيذاب» بالكامل فى سوق الخضار حيث يعمل وحرق لحيته ووجهه بالنار ولم يتبق منه غير الجمجمـة فى مشهد همجى أمام الناس الذين كانوا قد اعتادوا على رؤية تلك المشاهد دون القدرة على طلب الرحمة لمن جاء قدره المحتوم ليموت بتلك الطريقة البربرية .

وتحت وطأة عمليات القتل الوحشي التي استمرت بلا رادع من دين أو ضمير أو قوة مسئوولة عن توفير الأمن للبلاد والعباد يروى أبو عبد الله/ كان أبوه ضابطا بالجيش العراقي السابق وكان من المصلين فى جامع دعاة الإسلام / أنه تم وضع ورقة مكتوب عليها / إلى أتباع أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية الزنديق إلى اتباع هند بنت عتبـه إلى

أتباع خدم صدام حسين .. ننذركم ثلاثة أيام للرحيل و إلا سوف يتم قطع رؤوسكم بالكامل وحرق داركم / مع توقيع جيش الإمام .. كتيبة الزهراء .. ومعها ٣ طلقات من مدفع بى كى سى .. وهو السيناريو الذى كان يتكرر كثيرا وجرت مبادلة بين عائلة أبي عبد الله وعائلة أخرى شيعية تسكن منطقة حى الجامعة تم إرغامها على الرحيل أيضا من قبل القاعدة فى مشهد مشابه تماما لما يجرى فى أحياء الشيعة .. قتل .. تعذيب.. اختطاف .. تهجير .. هكذا كانت تسير الأمور وفق أجندة وضع خطوطها ونفذها متهمون وساعدهم فى فرضها متهمون آخرون .. والضحية واحدة .. العراقيون .

ويروى أبو عبد الله أنه فى شهر نوفمبر عام ٢٠٠٨ بعد أن ساد هدوء نسبي فرضته خطط أمنية ورغبة من خطط ونفذ وساعد على أن تهدأ الأمور عادت عائلته إلى محل سكنها القديم استجابة لدعوات حكومة المالكي التي أكدت أن خططها لفرض القانون بسطت الأمن وأعادت الأمور إلى نصابها .. الا أنه وبعد مرور شهر تم كتابة شعار على الدار بالخط العريض الأحمر / إلى الوهابية السفلة .. ارحلوا .. ارحلوا.. ارحلوا / وتم إخبار الحرس الوطنى وكانت الأمور قد تبدلت قليلا وبدأ الوعى الشعبى مع ما تدعو إليه الحكومة من مقاومة للعنف ينجحان فى وضع بذور الاستقرار النسبى لإنهاء أيام الفتن ولملمة عوامل المذبحة وتم طمأنة العائلة والتأكيد على استمرارها فى البيت .

إلا أنه وبعد مرور أسبوع وفى تمام الساعة التاسعة ليلا فى أول أيام شهر ديسمبر حضرت سيارة اوبل حمراء اللون أمام باب الدار خرج منها اثنان من الملثمين وحاولوا دخول البيت لكن الباب الحديدى كان عائقا أمامهم ، ومن خلف الباب اطلقوا زخات من الرصاص على البيت فى وقت كانت تجلس الأم وابنها وابنتها وأصيب الابن فى قدمه ، وعندما سمع رب الأسرة اطلاق الرصاص أخرج رشاشه وناوشهم من فوق سطح المنزل لمدة نصف ساعة حتى لاذ المسلحون بالفرار بعد تدخل الحرس الوطنى متأخرا بصحبة القوات الأمريكية.

ومع إصرار الأمريكان والعراقيين على استمرار الأسرة فى مسكنها إلا أنها آثرت الرحيل عن بيتها مرة أخرى تحت ضغط القلق والرغبة فى العيش بسلام وتم بيع البيت بثمن بخس وشراء منزل آخر فى منطقة سنية وهى الغزالية وهو ما يفسر شيوع تقسيم المناطق على أسس طائفية حتى بعد الاستقرار النسبى الذي استمر لفترة طويلة منذ نهاية العام ٢٠٠٨ ولم يعكر صفوه سوى رغبة بعض الجهات فى استمرار عوامل التوتر التي حد منها وعى العراقيين ورغبتهم فى إنهاء أيام المذبحة

التي لا تنهيها النوايا الحسنة فقط .

ويقول أبو عبد الله : إن سبب استمرار الطائفية فى منطقة الحرية هو استمرار سيطرة جيش المهدى على المنطقة رغم تجميده ووجود بعض الدعم غير المعلن له من جهات نافذة تتيح له حرية الحركة والعمل عند اللزوم وهو نفس ما تعانيه مناطق أخرى تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهى أمر التجميد الذي لاح فى الأفق بعد سلسلة تنجيرات طالت حسينيات شيعية فى مناطق الصدر والحرية ضمن موجة العنف التي ترافقت مع التوتر السياسي الذي أعقب الانتخابات النيابية فى مارس ٢٠١٠ .

١٩ - شوارع الموت

ربما كانت منطقة الوشاش المواجهة لحى الإسكان غربي العاصمة بغداد نموذجا فى استغلال عنوان جيش المهدى العريض الذى يقول قادته أنه عنوان شريف لجيش عقائدى له أهداف نبيلة بعيدة تماما عن العنف الطائفي وأعمال الإجرام التى تتنوع بين الابتزاز والسرقة والاختطاف والقتل والاغتصاب وهتك الأعراض وفرض الاتاوات وهى اتهامات لاصقت اسم جيش المهدى وأصبحت قرينة له طوال أيام المذبحة حتى إن المواطنين شعروا بارتياح شديد وانتفضوا عندما تم تجميد « جيش المهدى» وإعلان قائده مقتدى الصدر البراءة من كل مرتكبي الجرائم باسم جيش المهدى باعتبارهم خارجين عن ناموسه وقيمه التي استنها لهذا الجيش العقائدى منذ تأسيسه بعد دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى ٩ ابريل عام ٢٠٠٣ .

كان مسئوول كتيبة الموت أو جيش المهدى فى منطقة الوشاش يدعى احمد ناجى أو حمدى ناجى الملقب «أبو فاطمة» كانت حياته نموذجا للعقوق والفساد الأخلاقي والديني والعائلى وكما كانت جرائمه محل حكايات وحوارات أهل المنطقة التى اشاع فيها الرعب كان مقتله محل تفسيرات متعددة هل قتلته جرائمه النكراء أو قتله شذوذه الجنسي أو قتلته ثقته الزائدة فى قدرات لم تكن حقيقية ، أو مستندة إلى قوة وإنما مستندة إلى ضعف الناس بفعل الخوف الذي يرتد إلى جبن ورغبة فى عدم ملامسة الشبهات واجتناب الشر وإيثار السلامة .. وتقول الروايات المتعددة إنه تم قتله بسبب الثار من قبل إحدى العشائر القوية .. فيما تذكر رواية أخرى أن جيش عمر قتله فى إطار التصفيات بين الجماعات المسلحة .. فيما تقول رواية ثالثة : إن شاذا مثله قتله بعد أن استثاره جنسيا .. إلا أن الرواية الأكيدة هي رواية الفرحة العارمة التي سادت المنطقة بعد سريان نبأ

مقتله وتفكك عصابته الإجرامية .

وضمن ما يروى عن شذوذ هذا المجرم ورغبته فى القتل لمجرد القتل هى عملية اختطاف وتصفية شاب بسيط يدعى كريم عبد محمود ويعمل موظفا فى بلدية المنصور /زبال/ وكان شريدا طريدا لا أهل له حيث كان أبوه متزوجا من سيدة أخرى غير أمه وإرضاء لتلك الزوجة التى لا تريده ينام فى الشارع ويعيش على الصدقات أى أنه شخص يعيش على هامش الحياة لا علاقة له بسياسة أو اقتصاد أو مال أو جاه ورغم أنه سنى إلا أنه لا ينتمى لأى طائفة لأنه لا ينتمى بالأساس إلى عائلة .. ورغم هذه الحالة المزرية لشخص لا يضر ولا ينفع خطفه جيش المهدى بأمر من « أبي فاطمة» وبعد وجبة من التعذيب والتشفى التى تؤشر إلى مدى شذوذ قاتليه اطلقوا عليه ٣ رصاصات فى الرأس والصدر ثم ألقو جثته على ناحية شطيط قرب البيجية وبعد ثلاثة أيام تسلمه والده قتيلا بعد أن تركه شريدا .

وبين مسلسل القتل العبثى كانت حلقات غير مرتبطة تنتهى دائما بالقتل .. إلا أن القتل هذه المرة كان جماعيا حيث قامت تلك العصابة بقتل شاب يدعى طارق الخالدى مع أشقائه الأربعة لا لشيىء الا لأنه تطوع فى سلك الشرطة العراقية وهو كان سببا وجيها للقتل من وجهة نظر أبو فاطمة بالإضافة إلى أنه ينتمى للطائفة السنية.

ويروى سعد السامرائى وهو عسكرى سابق كان ينتسب إلى القوة الجوية إبان حكم صدام حسين ويعمل حاليا حارسا فى منطقة الوشاش مثل الكثيرين من ضباط وعناصر وطيارى الجيش السابق الذين ارتضوا بالإعمال البسيطة وتنازلوا عن حقهم فى الحياة الكريمة فى محاولة لطمس هويتهم حفاظا على أرواحهم .. يقول سعد : إن ٤ من جيش المهدى اقتحموا أحد المقاهى واعتقلوا سنيا يدعى هيثم وبعد أربعة ساعات وجدت جثته على قارعة الطريق.

فى شارع شطيط القريب على حى الإسكان ذي الأغلبية السنية تواجه الوشاش الشيعية وهو الشارع الذى كان يعرف بشارع الموت حيث تنتهى فيه الحركة عند الساعة الثانية عشر ظهرا لتبدأ حياة فرق الموت ونقاط التفتيش الوهمية التى تمارس القتل على الهوية الطائفية بعد ممارسة أبشع عمليات التعذيب قبل قتل الضحية .

ويقول سعد :إنه بعد سقوط نظام صدام حسين وتسريح الجيش العراقى عمل فى تلك المقهى التى كان يتم اصطياد أهل السنة منها لقتلهم ورغم أنه يسكن مع عائلته

فى الوشاش منذ ٣٥ عاما إلا أنه تلقى تهديدا لترك العمل بالمقهى ولولا تدخل صاحبة المقهى وهى شيعية من أهل العمارة عاصمة محافظة الناصرية جنوبى العراق لكان قد لقى حتفه مثل غيره من السنة إلا أنه يعتبر أن دوره فى القتل لم يكن قد حل .

ويروى سعد عن شقاء سكان منطقة الوشاش الذين كانوا منكوبين فى كل أمورهم وكانوا بين فكى كماشة إما أن يتم قتلهم من قبل عناصر جيش المهدى أو يدفعون إتاوات وإما يتعرضون للموت عندما تحدث مداهمات أمريكية أو عراقية ويرد عناصر جيش المهدى من فوق منازلهم حيث تتلقى بيوت المنطقة القذائف الأمريكية المدمرة

ويروى أحد الشيعة الناجى من موت محقق أنه في يوم الأربعاء المصادف٤/١٠ من عام ٢٠٠٦ كان مع أصدقائه متوجهين إلى سوق الوشاش الشعبي للتسوق عند العصر وقبل أذان المغرب بسيارتهم تمّ إيقافهم من قبل سيارة «بيك اب» بدون أرقام وفيها ستة أشخاص مسلحين وطلبوا الهويات وعند إبراز الهويات إليهم قاموا باعتقال من في السيارة بتهمة أنهم إرهابيون..

وعند سؤالنا لهم من انتم كان جوابهم الضرب بأعقاب المسدسات ثم قيدوا الشباب الثلاثة وأخذوهم إلى بيت سكني في الوشاش في فرع مقابل المستوصف الطبي واخذوا الموبايلات الخاصة بنا وبدأوا بتفتيشها والبحث في محتوياتها وعند دخولنا إلى البيت وجدناه عبارة عن معتقل وفيه حركة كثيفة لرجال مدججين بالسلاح ويرتدون الملابس السوداء..

وفور دخولنا إلى البيت (المعتقل) أدخلونا إلى غرفة مظلمة ودخل علينا شخص يرتدي العمامة وقال أنا مسؤل جيش المهدي في الوشاش بالمناسبة كانوا الجميع مفطرين في هذا الشهر الكريم..!

وكان ينفخ دخان سيجارته علينا وبعد التحقيق معنا.. بينا له أننا نحن شيعة ونعمل في بغداد واننا من مدينة الحلة.. أخذ الموبايلات التي تعود لنا وقام بالاتصال بالهواتف اللي موجودة فيها ويسأل الذين يتصل فيهم فلان سني ولا شيعي وبعد أن تأكد من هوياتنا قاموا بإطلاق سراحنا في منطقة الإسكان بعد ان سرقوا الأموال التي نحملها والموبايلات ومسجل السيارة والإطار الاحتياطي..

وعندما فكوا رباط أعيننا وجدناهم تركونا عند سيطرة / نقطة تفتيش/ الإسكان المجاورة لمستشفى الطفل وكان منتسبوا السيطرة ينظرون إلينا وإلى أصحاب الملابس السوداء دونما تدخل..!

وبعد أن تركونا عبروا السيطرة ولم يسألهم احد ما انتم ولماذا سيارتكم بدون

أرقام ولماذا أنتم مسلحين وكأنهم متفقين معهم.. وعند ركوبنا سيارتنا للعودة جاء أحد منتسبي السيطرة وهو يضحك ويقول لقد انكتب لكم عمر جديد لماذا تركوكم أنهم لايتركون احد بعد اعتقاله ثم تركنا وهو يضحك ....

ويروى لى صلاح وهو رجل أعمال شاب / سنى/ كان يمتلك منزلا كبيرا فى إحدى شوارع الوشاش الراقية وبه حارس شيعى رفض أن يغادر المنطقة بعد أن تحولت إلى منطقة نفوذ لفرق الموت أملا فى صلاح الأحوال وعودة الأمور إلى نصابها الطبيعى .. وكان قد استورد أجهزة فحص طبى اليكترونية لافتتاح مستشفى فى بغداد ثمنها يفوق أربعة ملايين دولار إلا أن الاضطرار الأمنى جعله يؤجل المشروع ليحتفظ بالأجهزة فى منزله .. ورغم أنه كان ملتزما بدفع الإتاوات لعصابة « أبو فاطمة» مقابل الحماية إلا أن أحداث الفتنة الطائفية قلبت نمط العلاقة بينه وبين تلك العصابة حيث أصبح هو وماله حلالا لها باعتباره سنيا وبعد مفاوضات طلبوا منه الرحيل وترك كل ما له ثمن بالمنزل وعندما اعترض هددوه بالقتل بل وأعدوا لذلك يوما للتنفيذ الفجائى إلا أن الحارس الشيعى النبيل ساعده على الهروب تحت جنح الليل عندما راقب تحركات تلك العصابة التى أبلغته بأن هذا السنى يجب قتله والتخلص منه .

وكان الرد شديد القسوة على ما اعتبرته تلك العصابة خيانة مضاعفة من جانب الحارس الشيعى الذى أنقذ سنيا من القتل علاوة على مخالفة أوامر قادة المنطقة الجدد .. ويروى صلاح تفاصيل تلك الليلة التى نجا فيها من الموت بأعجوبة وخرج من منزله بلا أى شيء سوى حياة مهددة بينما كان نصيب الحارس الطيب الموت حرقا بعد تعليق جثته على أحدى أشجار حديقة المنزل .

وبعد أشهر من أجواء الرعب والقتل التى أشاعها حمودى ناجى قائد جيش المهدى فى منطقة الوشاش المنكوبة كغيرها من مناطق بغداد التى خضعت لفرق الموت وعصابات الجريمة التى استمدت قوتها من غياب سلطة حقيقية للدولة العراقية وشيوع سلطان الخوف لدى الأبرياء من العراقيين الذين كانوا يسعون فقط لتأمين حياة متواضعة جرت وقائع قتل هذا المجرم الذى تعددت الروايات حول طبيعة مقتله أو الجهة التى تقف وراء تصفيته نظرا لانتشار أعدائه فى كل مكان والجميع يطلب الثأر لمختلف الأسباب إلا أن الرواية الأكثر شيوعا وتقترب من المصداقية أكدها لى أحد شيوخ المنطقة .. وتقول الرواية أن مختار عشيرة العكيدات السنية أراد الانتقام لمقتل ابنه جمال فى سوق مفتن الرئيسى للوشاش على أيدى « أبو فاطمة» حيث لم يتقبل العزاء وطلب الثار وكان ذلك فى نهاية

عام ٢٠٠٦ رغم تدخل وجهاء من عشيرة السواعد الشيعية للصلح إلا أن نداء الدم كان أقوى وتم قتل « أبو فاطمة» بطريقة لا تختلف كثيرا عن الطريقة التى يصطاد بها ضحاياه حيث جاء دوره فى تذوق كاس الموت القاسى .

وكما جرت العادة فى مثل هذه المواقف شن عناصر جيش المهدى عمليات انتقامية عشوائية وقاموا بقتل عدد من عشيرة العكيدات وغيرها بدعوى الثأر لقائدهم وشهدت المنطقة أعمال عنف مروعة انتهت باشتباكات عنيفة بين جيش المهدى وعناصر الحرس الوطنى ومالت الكفة إلى جهة الهدوء وتم اختيار رشيد العلى الذى هدأت الأمور فى عهد توليه قيادة جيش المهدى بالمنطقة بعد أن تناقص عدد السنة بشكل كبير سواء بالقتل أو التهجير بالإضافة إلى صدور قرار تجميد جيش المهدى كما استغلت القوات العراقية مدعومة أمريكيا اجتماعات لجيش المهدى فى احد مقاهى منطقة شطيط / المقهى الرياضى/ للاتفاق على تنفيذ عدة عمليات خارج حدود الوشاش وهى القتل والاختطاف بعد أن علمت القوات الأمريكية بتلك العملية وتمت مداهمة المقهى واعتقال عدد منهم وهرب الآخرون .. وعادت الأمور تدريجيا إلى طبيعتها مع وجود نار تحت الرماد بسبب مطالب الثأر العشائرى .

٢٠ - دُعبله

كما كان « أبو فاطمة» نموذجا للشذوذ الأخلاقى والنفسى ومؤشرا واضحا على كيفية عمل فرق الموت والميليشيات التى لا علاقة لها بمبدأ أو دين أو طائفة كان «على دعبله» وهو من عشائر اللهيب السنية نموذجا آخر على هوية من ينتمون لتلك العصابات التى تعمل تحت عناوين يشار إليها بالبنان وتتمتع بغطاء سياسى محلى وإقليمى وربما دولى .

و« دعبله» أطلق عليه هذا اللقب نظرا لقصر قامته الملحوظ وعدم وجود سند عائلى له فهو أحد التافهين الباحثين عن موقع ونفوذ حتى ولو بسلطان الخوف والقتل فهو من عائلة بسيطة جدا وانتمى لجيش المهدى ليمثل نموذجا لهؤلاء البشر الذين احتموا بانتماءاتهم لعصابات القتل القذر طمعا فى حماية ومال ونفوذ وكانت توكل إليه عمليات القتل الأعمى لطائفته السنية وينفذها بشكل أشد عنفا من عناصر جيش المهدى من الشيعة حتى يثبت الولاء الأعمى لتلك العصابات دون وازع من دين أو ضمير وصار هذا «الدعبله» أو « بليه» بلهجتنا المصرية مثار رعب وقلق لأهل منطقة الوشاش استنادا إلى سلطان القهر والخوف الذى فرضته عصابات زمن المذبحة حتى اختفى ولا يعلم أحد هل قتل أم هرب أم

تم اعتقاله مثل كثيرين غيره طالتهم عدالة السماء .

٢١ - محرقة

ضمن وقائع أيام المذبحة يروى لي صديقى الصحفى عامر حميد ما جرى له في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٢٠٠٦ .

«كنت شبه مجبر على التوجه إلى منزلي في ناحية الضلوعية/٩٠ كم شمال بغداد/ ، وذلك لكي التقي أطفالي وأفراد عائلتي بعد أن مكثت لأكثر من شهر في بغداد حيث مقر عملي، وسبق هذا القرار ليل طويل من التفكير والقلق بسبب الظروف الأمنية السيئة التي تحكم طريق السفر والذي يمكن أن يكون طريق اللا عودة، حيث تنتشر المليشيات والمجاميع المسلحة بمختلف مسمياتها عليه، في ظل غياب شبه كامل للأجهزة الأمنية وارتفاع كبير في حمى العنف الطائفي».

«وبعد ساعات طويلة من التفكير قررت الذهاب إلى منزلي رغم كل المخاطر، ومع إشراقة شمس اليوم التالي توجهت إلى محطة نقل الركاب الرئيسية « العلاوي »، لا ستقل من هناك أي باص يتوجه إلى تكريت أو سامراء لأنه لم تكن في ذلك الوقت سيارات تتوجه إلى الضلوعية مباشرة من بغداد، دخلت الكراج[1] وبدأت البحث عن الباص إلى أن وجدت رجلا في متوسط العمر يقف إلى جانب باص صغير، فسألته إذا كانت هناك أي سيارة تتوجه إلى سامراء أو تكريت، فاجابني بصوت منخفض هذه السيارة التي تسال عنها، نحن متوجهون إلى تكريت، فصعدت إلى الباص وكانت الساعة حوالي الثامنة صباحا، وبعد قليل انطلقت بنا الباص في شوارع شبه خالية من البشر وتكاد تشم رائحة الموت في كل مكان منها ».

وبعد سلسلة من التوقفات بسبب دوريات القوات الأمريكية التي تقطع الطريق في لحظة لأغراضها الخاصة، وصلنا إلى منطقة الدجيل التي تبعد عن الضلوعية قرابة/ ٢٠ كم/، وهنا سالني السائق، إلى أين تصل بالتحديد، فأجبته إلى الضلوعية، فكان وقع اجابتي عليه كالصاعقة، فالتفت إليّ وقال هل أنت مجنون، أجبته كلا ولكني لم أرى اطفالي وعائلتي منذ اكثر من شهر، فرد علي قائلا وربما لن تراهم إلى الأبد، وأوقف السيارة، وهو يردد على بعد اقل من/ ١٠ كم/ من هنا حيث مدينة بلد « ذات الغالبية الشيعية» ، تقف مليشيات شيعية مسلحة على الطريق تختطف وتقتل كل من تجده من أهالي الضلوعية « ذات الغالبية السنية،

(١) الكراج : تعني محطة نقل الركاب .

، وربما انك لم تسمع عن حادث مقتل ١٤ من أهالي بلد قبل أيام قليلة في منطقتكم، فأجبته بل اعلم ذلك علم اليقين ولكن لم يعد لي من الصبر ما يمكني من البقاء بعيدا عن عائلتي، فقال لي أنا اقترح عليك أن تعود إدراجك إلى بغداد، فأنا شخصيا لن اشترك بجريمة قتلك، لأنهم إذا وجودك في سيارتي سيقتلونك بدون شك،.

حاولت إقناعه بكل الطرق ولكن من دون جدوى، وأمام إصراره على عودتي قلت له حسنا هناك طريق قريب من هنا يوصل إلى الضلوعية انزلني واذهب أنت راشدا في طريقك، فوافق على المقترح وتحرك الباص لمسافة قصيرة حيث انزلني على الطريق الذي طلبته، وفور نزولي من السيارة حاولت الابتعاد عن الطريق العام لمسافة تؤمن عدم رؤيتي من قبل سالكي الطريق وان كانوا قلة لا تكاد تذكر.

وبعد مرور نحو نصف ساعة على وقوفي على جانب الطريق الفرعي المؤدي إلى قاعدة البكر الجوية حيث تنتشر مناطق «البوحشمة ويثرب» ذات الغالبية السنية، مرت أول سيارة وكان سائقها رجل كبير في السن سألني إلى أين تصل، ولكن الإجابة كانت محرجة بالنسبة لي لأني لا اعرف عن الرجل أي شيء والمنطقة بكاملها تعيش أعتى أيام الحرب الطائفية، فبادرته بالسؤال وإلى أين تصل أنت يا حاج، قال أن منزلي قريب من هنا ولم يبقى وقت طويل على موعد الإفطار، فتفضل معي، شكرته على دعوته وبقيت متوقفا لتمر نصف ساعة أخرى وتأتي سيارة يستقلها شابان أحدهما ملثم والآخر بدون لثام، نظرا إلي ومرا وبعد أن وصلا إلى مسافة ليست بالبعيدة عادا إدراجهما نحوي، فكان السؤال، إلى أين تصل؟ هل نستطيع مساعدتك، ومن طريقة كلامهم عرفت أنهم من أهالي يثرب، فقلت لهم، كل ما أريده هو الوصول إلى منطقة يثرب إذا كنتما تصلان إلى هناك، وهنا بدأت الأسئلة تتقاطر علي، لماذا تريد الذهاب إلى هناك، ومن تعرف في يثرب، انت ليس من أهالي يثرب فلماذا تريد أن تذهب إليها، وبعد طول انتظار قررا اصطحابي معهما، صعدت إلى السيارة، وما أن انطلقت حتى بادرني احدهم بالقول ربما تريد الذهاب إلى القاعدة الجوية، وأنت خائف منا ولا تثق بنا ولكن إذا كنت تريد الذهاب إلى هناك سنوصلك، وطبعا قاعدة البكر الجوية كانت في ذلك الوقت ومازالت أهم القواعد التي يستخدمها الجيش الأمريكي، أجبتهم بكل تأكيد أن ما أريده هو الوصول إلى يثرب، وعاد السؤال ماذا لديك في يثرب، فأجبتهم بصراحة أريد أن أصل من خلالها إلى منزلي في ناحية الضلوعية، وهل أنت من أهالي الضلوعية، أجبتهم، نعم، هل لديك ما يثبت ذلك، هوية الأحوال المدنية

مثلا، أخرجتها من جيبي وقدمتها لهما واطلعا عليها، فقال لي أحدهما: ربما تكون الهوية مزورة، لكي نتأكد سنسألك عن عدد من الأشخاص إذا عرفتهم فأنت من أهالي الضلوعية، وذكروا عدداً من الأسماء فأجبتهم عنها، قال أحدهما: حسنا الآن تأكدنا من صدق كلامك ولكن مازالت هناك مسألة نريد أن نعرفها، قلت تفضل، فسألني هل تعمل في الجيش أو الشرطة أو الدوائر المرتبطة بالحكومة، فأجبته كلا، فسألني لماذا أنت في بغداد في هذه الظروف الحرجة وماذا تعمل هناك، أجبته بان منزلي في بغداد، وأني كنت اعمل في وزارة الإعلام في النظام السابق وبعد حلها من قبل الأمريكان بقيت بلا عمل، ولكن علي البقاء في منزلي حتى لا يستولي عليه أفراد الميليشيات، فأجابني حسنا تفعل، فالمرء يقتل عن ماله وأرضه وعرضه.

وواصل حديثه معي قائلا، نحن بصراحة نعمل مع «الجيش الإسلامي» وسنوصلك إن شاء الله إلى منزلك، ولكن أنت تعرف الظروف الصعبة التي تعيشها المنطقة، سنسلك طريقا جانبيا تنتشر فيه الجماعات المسلحة ومن بينها القاعدة، وهم طبعا لا يتقبلون أبدا العمل في الأجهزة الحكومية فإذا كان لديك ارتباط بأي منها أخبرنا لكي نعرف كيف نحميك، وكررت عليهم الإجابة بأني لا اعمل في أي منها، ودخلنا الطريق الذي كان بجانب ساقية زراعية يغطيها القصب والبردي، فقلت في نفسي: ربما تكون هذه بداية النهاية، وأنهما ما زلا يشكان بأمري وربما ستنتهي الأمور بقتلي، والأفكار تتقاذفني، وأنا أجلس بينهما، ولم يعد يفصلنا عن موعد الإفطار إلا نحو ساعة، سألني أحدهما، هل تريد ماء أو طعام، لأنك تبدو متعبا، أجبته، كلا، أنا صائم والحمد لله، قال لي حسنا، أترى ذلك الحاجز الذي يقف فيه الرجال المسلحون، أجبته نعم، قال لي: أنهم جماعة تنظيم القاعدة، ولكن لا عليك نحن سنتدبر الأمر وما عليك إلا أن تبقى صامتا، وصلنا الحاجز وتبادلوا السلام والتحية مع الأشخاص الموجودين فيه، فكان السؤال الأول، من هذا الشخص الذي معكم، ولماذا يلبس هذه الملابس وهل تثقون به، أجابهم الشخص الذي يقود السيارة: نعم، نحن نعرفه، فسمحوا لنا بالمرور، واستمر بنا الحال هكذا في كل حاجز نصل إليه، إلى أن وصلنا الطريق الرئيسي الذي يربط قاعدة البكر الجوية بمنطقة يثرب والذي كان تحت سيطرة المسلحين بشكل كامل، وهنا اخبروني بأنهم سيكلفون شخصاً آخر بإيصالي إلى الجسر الذي يوصلني إلى الضلوعية، بسبب انشغالهم، رجوتهم وحاولت جاهدا أن أقنعهم بإيصالي ولكن دون فائدة، وطلبوا من أحد المسلحين أن يأخذني إلى حيث أريد، وكان شابا كث

اللحية ويحمل بندقية من نوع (بي كي سي) ويتشح بالعتاد، ويتطاير الشرر من عينيه، ولكن ما باليد حيلة، نزلت من سيارتهم وصعدت مع المسلح الآخر الذي طلب أن يرافقه أحدهم وكان لايقل عنه من ناحية التسليح أو الشكل.

جلست في المقعد الخلفي في سيارة البطة [1] التي عرفت عند العراقيين بأن من يصعد فيها نادرا ما يعود إلى أهله، وساورتني الشكوك في نواياهم، إلا أن ما طمأنني هو أن أحد الشخصين اللذين جئت معهما طلب من المسلحين أن يوصلاني إلى جسر الضلوعية ويعودان على الفور، دون أن يسألاني عن شيء، وما هي إلا دقائق حتى بدأ الجسر يتراءى لي تنعكس عليه أشعة شمس الغروب التي كانت تودع أطول يوم في حياتي، نزلت على طرف الجسر الذي أغلقته القوات الأمريكية بالكتل الكونكريتية الأسمنتية حتى لا تمر عليه السيارات وأنا لا أصدق أني ما زلت حيا توقفت لأغترف الماء وأغسل وجهي، فإذا بثلاث جثث لشباب في مقتبل العمر تتقاذفها الأمواج على حافة الجسر، كدت أن أنهار، ولكن لم أعرف من أين جاءتني كل تلك القدرة على تحمل الموقف وتجاوزه لأواصل طريقي سيرا على الأقدام إلى أن عبرت إلى الضفة الأخرى .

رفع أذان المغرب في مسجد قريب، فشاهدني أحد أصدقائي كان يتوجه بسيارته إلى المسجد، فلم يصدق أني وصلت سالما، فطلبت منه أن يوصلني إلى منزلي، وما أن وصلت ودخلت إلى باحة الدار وشاهدني الأطفال حتى ضج المنزل واختلطت كلمات التهنئة بالوصول مع دموع الفرح، وأكثر ما شدني في هذا المنظر هو وقوف أمي صامتة لا تقوى على الحراك أو الكلام، وكأنها لا تصدق أني أقف أمامها، بسبب ما تسمعه عن الأوضاع الأمنية في بغداد، وهنا انتهت رحلة الوصول إلى المنزل لتبدأ بعد خمسة أيام رحلة العودة إلى بغداد التي لم تقل خطورة عن سابقتها، وأبرز ما فيها أن توجهت إلى مدينة تكريت التي تبعد حوالي/ ٨٠ كم/ إلى الشمال من الضلوعية وهي نفس المسافة التي كنت سأقطعها لو أني أستطيع التوجه مباشرة إلى بغداد، وصلت تكريت حوالي الساعة التاسعة صباحا، وجدت باص صغير تجلس فيه ثلاث نساء وجلست في المقعد المجاور للسائق بانتظار أن يكتمل عدد الركاب وفي هذه الأثناء وصل ثلاثة شبان تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٠ عاما، بدت عليهم علامات القلق حاولوا الحصول على سيارة تاكسي توصلهم إلى

---

(1) هي إحدى موديلات سيارات تويوتا تتميز بحقيبة واسعة وعريضة كانت تستخدمها فرق الموت وخاصة تنظيم القاعدة وجيش المهدي لسرعتها وسعة حقيبتها التي تتسع لشخصين مخطوفين.

بغداد، ولكن دون جدوى، فقرروا أخيرا الصعود معنا في الباص لينطلق بنا إلى بغداد، بعد أن وعدنا السائق بان يوصلنا إلى محطة العلاوي وسط بغداد ، وما أن وصلنا إلى منطقة الطارمية(٢٥ كم) شمال بغداد، حتى تبدلت أحوال السائق، واخبرنا بأنه لن يتمكن من إيصالنا إلى العلاوي، وسيجد لنا سيارة أخرى توصلنا إلى هناك، على أساس انه تلقى مكالمة من احد أصدقائه يطلب منه عدم الدخول إلى بغداد، لأنه مطلوب من قبل المليشيات المسلحة وسيقتل حال وصوله، تعاطفنا معه وقبلنا بمقترحه مرغمين لا راغبين، أوصلنا إلى منطقة التاجي وتوقف أمام مطعم (خيرات الرحمن) وهو مطعم مشهور في هذه المنطقة وطلب منا البقاء في السيارة وعدم التحدث إلى احد من الناس الموجودين في المكان إلى أن يعود إلينا، وما أن ابتعد عن الباص حتى وصلت سيارتان من نوع (بطة) سيئة الصيت،/ وهي سيارات ميكروباص لنقل الركاب وهي موديل عريض من تلك السيارات وتبدو مربعة الشكل لهذا يطلق عليها العراقيون كلمة بطه/ وترجل منها عدد من المسلحين يتقدمهم شاب ملتحي في مقتبل العمر، وما أن وصلوا الباص حتى اخرجوا مسدسات من جيوبهم، فتحوا الباب وطلبوا من الشبان الثلاثة النزول، ولم يتأخروا في تنفيذ الأمر، وبعد أن نزلوا أجلسوهم قرب السيارة، وبدأوا يطرحون عليهم الأسئلة، مثل من أين انتم وأين تعملون، في الجيش أم في الشرطة، ارتبك الشبان الثلاثة ولم يجيبوا على أي من الأسئلة، وهنا أمر الشيخ أو الأمير مسلحيه بأن يأخذوهم في احد السيارات، ثم استدار إليّ وسألني وأنت ما حكايتك أراك تجلس في مكانك دون كلمة أو حراك، فأجبته، وما عساي أقول، فلم يسألني أحد عن شئ بعد، فقال لي حسناً، أنا أسألك الآن، من أين أنت وإلى أين تريد، أجبته أنا من الضلوعية، وأريد الذهاب إلى بغداد، فكان السؤال التالي وماذا تفعل في بغداد، أجبته منزلي هناك وأنا أذهب أليه، فرد علي قائلا لا تبدو إجابتك مقنعة، هل تعمل في وزارة الداخلية أو الدفاع اجبني بصدق ولا تكذب لأني سأعرف الحقيقة وعندها لن أرحمك، فأجبته لم أخبرك إلا الحقيقة والأمر متروك لك، وبالنسبة لي فأن العمر واحد والرب واحد ولن يحدث لي إلا ما يريده الله وأنا راض به، وما أن انتهيت من كلامي، حتى قال لي ستكون لك فرصة أخيرة، سأتصل بأحد أفرادنا في الضلوعية فإن أكد كلامك خرجت سالمًا وإن ثبت العكس، فلن يعرف أحد لك خبر، واتصل بهاتفه بالشخص الذي أراده للسؤال عني، وعلى ما يبدوا أنه أجابه بالإيجاب وعندها أخبرني بأنه سيتركني أنا والنساء الثلاثة لنواصل طريقنا إلى بغداد، وطلب منا النزول من السيارة التي كنا فيها والصعود إلى سيارة أخرى توصلنا إلى محطة العلاوي.

أما حال النساء اللاتي كن معي في هذه اللحظات العصيبة لا أجد من الكلمات ما يمكن أن يصف حالتهن، فالخوف والهلع سيطر عليهن بشكل كامل وما عدن يدركن ما يقلنه من كلام ولا يستطعن التحكم حتى في أيديهن وأرجلهن من هول ما رأينه، من خطف لثلاثة من الشبان في أعمار أبنائهن أو إخوانهن تحت تهديد السلاح ونهايتهم الحتمية معروفة مسبقا وهى الذبح أو القتل بالرصاص بعد وجبة من التعذيب ثم إلقاء الجثة على قارعة الطريق أو فى أحد مقالب القمامة .

وأخيراً وصلنا إلى منطقة العلاوي دون ينبس أي منا بكلمة واحدة.

وبعد أكثر من ٤٠ يوما رجعت إلى منزلي مرة أخرى للقاء عائلتي وأصدقائي، دون أن أخبرهم عما جرى معي من أمور خلال رحلة الذهاب إلى بغداد، إلا أن احدهم بادرني بالسؤال كيف كانت رحلتك فأجبته، إنها كانت جيدة والحمد لله، وواصل حديثه قائلا، احمد ربك اللي ما لزموك(اعتقلوك) جماعة «أبو رحمة» وهو أردني الجنسية يقال انه من أقارب أبو مصعب الزرقاوي كان ينشط مع جماعته على الطريق بين بغداد وتكريت وتحديداً في منطقة «الركة» قرب سامراء، التي تبعد حوالى ١٢٠ كم شمال بغداد فى الطريق إلى تكريت مسقط رأس صدام حسين وعرف بإجرامه وقتله للأبرياء دون تمييز.

وأضاف أن أبو رحمة قتل قبل أيام ما بين ٣٠ إلى ٤٠ شخصا معظمهم من طلبة جامعة تكريت، وقام بذبحهم بواسطة المنشار الكهربائي، مشيرا إلى إن من بين الضحايا عدد من طلبة كلية القانون بحجة انهم يدرسون « القانون الوضعي» ولا يدرسون الشريعة، بالإضافة إلى موظفين مدنيين و أفراد من الشرطة، مشددا على أن غالبية الضحايا من السنة.

ويروى أهالى مناطق شمال بغداد عن هذا المجرم « أبو رحمة» الذى يتبعون اسمه دائما بكلمة « الله لا يرحمه» حكايات لا يمكن أن يتصورها عقل حول أساليبه الاجرامية فى القتل العشوائى والتعذيب والاختطاف فهو كما يقولون يجد دائما سببا للقتل سواء كان الضحية سنيا أم شيعيا رجلا أم امراة وأيًا كان عمر الضحية شابا أم عجوزاً .. وسوف يأتى ذكر هذا الأمر تفصيلا فى الجزء الثانى من الكتاب « بساتين الحب والنار» .

٢٢ - خميس العبيدى

رغم شيوع جرائم الاختطاف والقتل وعمليات التعذيب المروعة التى تظهر

آثارها على جثث الضحايا الا أن اختطاف وقتل المحامي (خميس العبيدي)، وهو أحد محامي الدفاع عن الرئيس الراحل صدام حسين،تؤشر إلى إحدى السيناريوهات الغريبة التى كانت تجرى فيها الأمور أيام المذبحة وكيف أن عمليات الاختطاف والقتل تتم بلا أى توجيه أو دافع سوى التطوع والرغبة فى إظهار الولاء لجهة أو ميليشيا أو حزب أو طائفة وتقديم القربان اللازم على ذلك وهو الدم ورأس الضحية أو الضحايا فبعد وصولي إلى بغداد بحوالي أسبوع تم اختطاف وقتل العبيدى والذي اعتقل من منزله يوم ٢١ يونيو /حزيران ٢٠٠٦ على أيدى ميليشيات جيش المهدي في مدينة الصدر / الثورة أو صدام سابقا / ، حيث وجدت جثته في اليوم التالي في حي أور وقد تعرضت لتعذيب شديد.

وربما لإشاعة جو من الألم والخوف الذي أصبح سلطانا يتحكم فى كل شيىء تم ترويج فيلم عبر الهاتف المحمول والأقراص المدمجة التى باتت بديلا عن كل وسائل الاعلام والتكنولوجيا وأصبح الهاتف المحمول تحديدا فى ظل انعدام الكهرباء ومن ثم المتعة الإلكترونية جهازاً « كله منافع» يغنى عن التلفاز والفيديو والراديو أيضا بل والكهرباء حيث تم انتاج نوعيات خاصة من أجهزة المحمول بها مصباح ضوئى صغير يمكنه العمل لمدة ساعتين تقريبا يكون بديلا عن المصباح الكهربائى فى قضاء الأمور البسيطة بالمنزل أو الشارع القريب .. وقام بالتقاط الفيلم عناصر من الخاطفين أنفسهم، ويظهر الشريط المحامي (خميس العبيدي) صبيحة اليوم الذي قتل فيه، في المنزل الذي احتجز فيه في مدينة «الصدر المنورة» وقد تمكنت إحدى الجهات المدافعة عن حقوق الإنسان تحديد الأفراد المسئولين عن احتجازه والذين تظهر صورهم في الشريط وهم:

١. حيدر (ابن أبو درع وهو بعبع السنة أو زرقاوى الشيعة كما كانوا يسمونه وله قصة معى سارويها فى مكان منفصل) – قتل في مواجهات مع القوات الامريكية .

٢. شيخ سجاد - – يعتقد أنه قتل أيضا.

٣. عماد .

كما يظهر من الشريط أن المحامي خميس قد تم تعذيبه خلال الليل لذا كان يطلب من خاطفيه أن يبقى ليرتاح، لكنهم أصروا على تقييده واقتياده إلى مكان آخر، حيث يظن أنه تعرض إلى تعذيب أشد قبل إطلاق النار عليه. ويثبت هذا الشريط مرة أخرى تواطؤ وزارة الداخلية العراقية مع ميليشيات أبو درع وهو واحد من أكثر قادة جيش المهدى قسوة وشهرة في مدينة الصدر ، وضلوع أبو درع في

اختطاف المواطنين وقتلهم.

ويمكنك سماع أحد الخاطفين في الشريط وهو كان يكلم من موبايله شخصاً يدعى (ملازم حازم)، يبدو أنه كان يعلمه باقتياد المحامي خارج المنزل الذي كان معتقلا فيه.

وكانت زوجة العبيدي قد قالت أن نحو عشرين رجلا مسلحا يرتدون لباسا مدنيا حضروا إلى منزلهم يوم ٢١ يونيو ٢٠٠٦ عند الساعة السابعة صباحا على متن سيارات حديثة ومظللة وقالوا أنهم من أمن وزارة الداخلية واقتادوا زوجها وسيارته إلى جهة مجهولة.

والعبيدي والذي يبلغ من العمر (٤٩) عاما، هو ثالث محام من فريق الدفاع عن صدام حسين ورفاقه يتم اغتياله، وقد أكد مصدر في وزارة الداخلية العراقية أنه تم العثور علي جثة العبيدي في ساحة صباح الخياط في حي أور القريب من مدينة الصدر (شرق بغداد) الساعة العاشرة صباحا بالتوقيت المحلي ليوم ٢٢ يونيو /حزيران، وأضاف إن العبيدي كان قد خطف من منزله في منطقة الدورة (جنوب بغداد).

وكان العبيدي عضو هيئة الدفاع عن صدام قد اتهم الادعاء العام في آخر جلسة له قبل مقتله بالانتقائية في اختيار الوثائق وإخفاء باقي الأوراق الخاصة بالدعوى، كما أخبر المحكمة أنه سيأتي في الجلسة القادمة للمحاكمة بخمسة عشر شاهدا ربما كانت شهادتهم ستحرج المحكمة وتكشف بعض الخفايا.

ولعل الجدير ذكره هنا هو ما أخبرنى به الموظف الشيعى الطيب حسن نجم عبد الله « أبو حيدر» وهو أن عملية اختطاف وقتل العبيدى بعد تعذيبه جرت دون تنسيق أو أوامر من قيادات جيش المهدى وإنما بدافع التطوع و« الغيرة» على الشيعة باعتبار أنهم أشد تضررا من نظام صدام حسين واعتبار أن من يدافع عن صدام مذنب ومدان يستحق القتل حتى بدون أوامر أو تخطيط من القيادات إلا أن تلك القيادات وخاصة أبو درع كانت تزكى تلك السلوكيات والدليل على ذلك أن أحد الأشخاص عرض دفع مليار دينار/ حوالى ٨٠٠ ألف دولار/ لإنقاذ خميس العبيدى من القتل ولكن عندما عرض بعض من شارك فى خطف العبيدى الأمر على «أبو درع» أحد القادة الرئيسيين لجيش المهدى فى بغداد كان قراره هو التصفية .

وهكذا كانت تدار أمور القتل ، والاختطاف ، والتعذيب ، والتنكيل أي لمجرد التطوع ، وتكوين رؤية عن ذنب لشخص ربما ليس له أى ذنب مثل خميس العبيدى الذى كان يمارس مهامه كمحامى ، وغيره بضعة آلاف من العراقيين الابرياء

الذين تم اختطافهم وتعذيبهم وقتلهم والتنكيل بجثثهم أو حرقهم أحيـــاء دون أى جريرة أو ذنب مباشر سوى تصادف وجودهم فى زمان ومكان جرت فيه المذبحة .

وتشير الدلائل وحكايات من عاصروا أيام المذبحة أنه في مثل هـــذه المنـــازل في مدينة الصدر ، وعلى أيدي هؤلاء المجرمين، وبالتواطؤ الفاضح مع وزارة الداخلية أو غيرها من الجهات الرسمية أو غير الرسمية ذات النفوذ ، كان يـــتم احتجـــاز وتعذيب وقتل العشرات من العراقيين الأبرياء على هوياتهم الطائفية .

٢٣ - بعير أبو درع

عندما أخبرنى « أبو حيدر» [1] بتلك المعلومات وأنه عرفها أثنـــاء حـــوار دار فـــى مجلس عزاء أقامه القيادى المرعب فى جيش المهدى «أبو درع» فى قطاع ٧٤ من مدينـــة الصدر شرقى بغداد المقسمة إدارياً إلى ٧٩ قطاعا /القطاع يضم نحو الف بيت مساحة كل بيت ١٢٠ مترا مربعا /حيث يقيم عدد من قادته قتلوا فى محاولة لفك الحصار عن المنطقة عندما هاجمتها القوات الأمريكية لاعتقال أبـــو درع وأســـفرت عمليـــات القصف عن إصابة ابنه إصابة بالغة قطعت يده على أثرها وهم لامى حسين وشقيقه إحسان وقائد آخر يدعى يونس حاصرتنى فكرة مجنونة بحضور مجلس العزاء الـــذي يستمر غالبا ٣ أيام حتى أرى هذا المرعب الذى يثير اسمـــه حالـــة مـــن الخـــوف لا يضاهيها ذكر زعيم تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى نفسه .

أبو درع وكنيته الحقيقية « أبو حيدر» هو بائع سمك فى أحد أشهر الأسواق بمدينة الصدر « سوق مريدى» واسمه الحقيقى إسماعيل حافظ حيدر ومسئول عن سرية جيش المهدى فى قطاعات ٧٣ و٧٤ و٧٥ فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى الجناح العسكرى للتيار الصدرى ، وينتمى إلى عائلة « آل جبينه» من عشيرة « آل الأيزج» وكان يطلق على مقره في مدينة الصدر أسم « الشعبة الخامسة لجيش المهدي » .

استجاب أبو حيدر لفكرتى الجنونية متعهداً بحمايتى وفدائى بروحه وشاركت في آخر يوم من مجلس العزاء دون علم أحد وبشـــكل جنـــونى حركـــه فضـــول الصحفى الذى كاد أن يقودنى إلى الموت عدة مرات خلال أيام المذبحة لأنني أردت أن أرى ذلك الأسطورة التى يطلق عليها «زرقاوى الشيعة» والذى ينسب إليه المئات من أعمال القتل والاختطاف ضد أبناء الطائفة السنية سواء نفذها أو أشرف على

(1) هو موظف بمكتب وكالة أخبار الشرق الأوسط في بغداد منذ ثمانيات القرن الماضي ورد ذكره في موضع آخر من الكتاب تفصيلاً .

تنفيذها أو لم يفعل ذلك .

تحركنا من منطقة « كسرة وعطش » باتجاه قطاع ٧٥ بمدينة الصدر الذى يقطن فيه أهل إسماعيل حافظ « أبو درع » .. شوارع فقيرة وبيوت متواضعة تنبىء العابرين بأن هناك مشاريع لقتلة ومجرمين بدافع الفقر والجهل .. وهذا القطاع يوجد به سوق كبير من الناحية الشرقية يطلق عليه سوق العورة / وهى امرأة فقدت إحدى عينيها تبيع السمك واخذ السوق اسمها/ تتفاوت روايات سكانه ومرتاديه حول ما يقوم به أبو درع .. هناك من يقول أنه يفرض إتاوات على الجميع .. هناك من يقول أنه يفرض قانونه الخاص ولا يقبل باستغلال أصحاب المحلات أو الباعة الجائلين للناس ويفرض « التسعيرة» .

كان مجلس العزاء قد أقيم فى أحد الشوارع الضيقة فى مكان مقابل لقطاع « ٧٤» وأدار « أبو درع « المجلس ثلاثة أيام رغم أنه أحد أوائل المطلوبين للقوات الأمريكية والعراقية فى ذلك الوقت وكان يقوم على خدمة المعزين والترحيب بهم بنفسه .. أشار لى أبو حيدر إليه وقال هذا هو أبو درع .. رجل قصير القامة ممتلىء قليلا ويعانى من قصر فى احد قدميه بسبب إصابة قديمة يجعله يسير بشكل غير طبيعى ولكن غير ملحوظ بدرجة كبيرة .. تبرز فى وجهه الأسمر لحية قصيرة .. تنطق ملامحه بأنه شخص عادى جداً بسيط مثل باقى أهالي مدينة الصدر .

يقول من عايشه أن له مواقف طيبة مع كثير من الناس ولكنه شديد التطرف فى جهة الطائفة حيث قاد العديد من العمليات ضد السنة إبان زمن المذبحة ..حيث روى لى شاب يعمل فى مجال الإعلام من سكان مدينة الصدر وكان مقربا من مكتب الصدر كيف كان أبو درع يقوم باصطياد الشبان السنة من الشوارع أو من مناطقهم تحت أى حجة أو ذريعة عقب كل تفجير تشهده مدينة الصدر ليقتل منهم أضعاف عدد الضحايا الذين سببهم الانفجار .

كنت قد وصلت فى اليوم الثالث لمجلس العزاء وهو اليوم الذى يقدم فيه العراقيون العشاء للمعزين وعلمت أن « أبو درع» نحر بعيره الخاص التى كانت منطلقة مثل «ناقة صالح» كما يقول أهالى المنطقة تضرب هنا وتؤذى هناك ولا يستطيع أحد أن يتحرش بها لأنها ملك أبو درع . .ومع تناول العشاء التقليدى فى مجلس العزاء بدت سعادة المعزين المكبوتة بنحر هذا البعير المثير للمشاكل مثل صاحبه إلا أن إظهار تلك السعادة كان من المستحيلات إلا بعد أن انفض العزاء وذهبنا إلى بيت أبو حيدر فى قطاع « ٣٤» ليروى لى قصة البعير الطائش المثيرة

للضحك مع قصص أخرى مثيرة للرعب والبكاء عن « أبو درع» وغيره من قيادات وعناصر جيش المهدى من الصف الأول وغيرهم من قيادات الصف الثانى والثالث ومن يقتل ويخطف ويسرق ويبتز مدعياً انتماءه لجيش المهدى رغم عدم وجود أي صلة حقيقية باعتباره عنوانا لا يجرؤ كائنا من كان على الاقتراب منه .

بينما كنت أستعد لمغادرة العراق والعودة إلى مصر بعد انتهاء مهمتى الصحفية تواترت الأنباء عبر صحيفة الشرق الأوسط التى تصدر فى لندن عن عودة أبو درع مرة أخرى واستقراره فى مدينة الصدر بعد هروبه عام ٢٠٠٨ عندما اشتدت عصا حكومة نورى المالكى على عناصر جيش المهدى وتنفيذها عدة حملات عسكرية أكملت على ما تبقى من نفوذهم فى مختلف مناطق العراق حيث هرب القادة الكبار مثل أبو درع بينما تم اعتقال عدد لا بأس به من قيادات الصف الثانى والثالث .. حيث أكدت تلك الأنباء أن عودة « أبو درع» أو « زرقاوى الشيعة » كما يطلق عليه تتزامن مع توتر سياسى أعاق تشكيل الحكومة لمدة تجاوزت الخمسة اشهر بسبب رفض الائتلاف الوطنى وعماده الأساسي التيار الصدرى تجديد ولاية رئيس الحكومة المتشبث بالسلطة نورى المالكى بسبب ما يعتبره الصدريون حربا شعواء شنها المالكى ضدهم أدت إلى اهتزاز هيبتهم فى الشارع العراقى وضياع نفوذهم غير المحدود وبعد فشل ضغوط مارسها التيار الصدرى لإطلاق سراح عدد كبير من معتقليه بينهم محكومون بالإعدام بسبب الجرائم التى إرتكبوها[(١)] .

وأشارت التقارير الصحفية إلى أن « أبو درع » وغيره من قادة الصف الأول تلقوا تدريبات عالية المستوى فى إيران تمهيدا لتنفيذ دور واسع خلال مرحلة ما بعد الانسحاب الأمريكي الذى استمر تدريجيا منذ منتصف عام ٢٠٠٩ ليكتمل وفقا للاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن نهاية العام ٢٠١١ .

٢٤ - عصا الزهراء

روى لى « أبو حيدر» الكثير من الحكايات عما يدور فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى ومناطق أخرى فى ذروة زمن المذبحة وكيف يستغل من يعتبرون انفسهم عناصر جيش المهدى العقائدى الحسينيات « المساجد الشيعية» فى إخفاء

---

(1) الغريب أن التيار الصدري الذي يقيم زعيمه مقتدى الصدر في إيران كان القوة الأساسية الراعية لتولي نوري المالكي رئاسة الحكومة فيا بعد وهو ما يؤشر لوجود صفقة كبيرة بين الطرفين ساهمت في تحول العداء إلى ولاء .

المختطفين وتعذيبهم قبل قتلهم وإلقائهم فى الشوارع أو مقالب القمامة أو ما يعرف باسم السدة التى رأيت أن مجيئى إلى تلك المنطقة المشتعلة شديدة الخطورة مناسبة جيدة لزيارتها لأن رجوعى إلى مدينة الصدر مرة أخرى ربما لن يتكرر باعتباره لحظة جنون صحفى لا تأتى كثيرا .

روى لى أبو حيدر عن طريقة ليست الأشد عنفا فى التعذيب إلا أن لها رمزيتها مع رمزية اسم جيش المهدى وهى ما يطلق عليها « عصا الزهراء » وهى قضيب حديد يستخدم بقسوة كوجبة أولى من التعذيب لانتزاع الاعترافات من الضحايا ومعرفة انتمائهم الطائفى حيث يتم به ضرب الضحايا لتكسير عظامهم خاصة الساقين والذراعين .. يبدأ التحقيق باستعمال الهاتف المحمول والأرقام والأسماء التي فيه، يسألون الضحية عن كل اسم وهل هو سني أم شيعي وفي أي منطقة يسكن، وإذا تبينت الهوية السنية يشتد التعذيب والضرب بعصا الزهراء .. بعد ذلك يتم تقييد اليدين إلى الخلف ثم رفع الجسد بربطه بعروة مثبتة في السقف،مع استمرار الضرب بالكبلات، والعصى السميكة وتبقى اليدان معلقتان في السقف خلف الظهر،حتى تنخلع الأكتاف .. تتعدد أساليب التعذيب من الكى بالنار والمثقاب الكهربائى « الدريل» وغير ذلك حتى الموت إما من التعذيب أو بطلقة أسفل الرأس .. يتم بعد ذلك جمع الجثث المشوهة بعد نزع كافة أوراقها الشخصية وإلقائها فى السدة .

٢٥ - السدة

اسم كان يتردد كثيراً بين أبناء مدينة الصدر كلما استقيظوا صباحا على أخبار الجثث معصوبة العينين والتى تبدو عليها آثار التعذيب حيث يتم إلقاؤها على السدة أو في خرائب «كسرة وعطش» وحتى مجاري الرستمية .

تكونت « السدة » نتيجة عمل مشروع قناة الجيش التى تقع شرق بغداد محاذية لمدينة الصدر من الناحية الشمالية الشرقية وذلك فى عهد الرئيس الراحل عبد الكريم قاسم/ الذى أسس مدينة الصدر لجمع شتات الفقراء من ابناء العراق وأهواره ليسهموا فى عمليات توسيع وإعمار العاصمة/ وذلك لتلطيف الجو وعمل منتزه وحدائق للعائلات إلا أن ركام الحفر تحول إلى جبل من النفايات طوله حوالى ١٠ كيلومترات يرتفع حوالى ستة أمتار بعرض أكثر من ثلاثة أمتار حتى أنه بات يحجب الرؤية عن بيوت مدينة الصدر وصارت المستقر الأخير للجثث مجهولة الهوية .. تبدأ السدة من منطقة الفحامة شمال بغداد حتى نهر ديالى

شرق العاصمة وكانت نموذجا لسد ترابى يمنع فورة نهر دجلة وقت الحاجة .

تنتشر أكداس القمامة والنفايات والخرائب فى تلك المنطقة المنسية من بغداد .. بينما تجد الكلاب السائبة والقوارض ضالتها فى بقايا تسد جوعها وهو ما يفسر وجود جثث غير مكتملة الأعضاء فى تلك المنطقة حيث تنهشها الكلاب الضالة أو القوارض أو تحترق أجزاء منها إذا أراد أحد أن يخفف من أكوام القمامة بحرقها .

اصطحبنى « أبو حيدر» إلى « السدة» رغم كل مخاطر الطريق حتى أرى بنفسي كيف تتحول جثث الضحايا إلى جزء من مقالب القمامة فى زمن المذبحة الذى لوث عرابوه مناطقه ورموزه وأحالوها إلى أماكن تثير القرف والاشمئزاز والرعب لمجرد ذكر اسمها رغم أنها كانت مناطق ورموز عادية تنبض بالحياة قبل أن يحولها حكام زمن المذبحة إلى رموز للقهر تشهد على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

٢٦ - انسبينا سباية الحسين

هذه العبارة « اللزمة» يمكن أن تقود صاحبها إلى المذبحة لتنتهى حياته بطلق نارى أسفل الرأس بعد وجبة تعذيب من النوع الثقيل .. هذه العبارة يقولها الشيعة عندما يتعرضون لما يسوء ويعكر الصفو لينتهى بخسارة كبيرة وهى تنسب إلى ما جرى للإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الكرام فى عام ٦١ هجرية عندما خرج ليقود ثورة ضد الظلم والقهر وضياع الحقوق وجرى له ما جرى فى واقعة الطف التى جرت وقائعها فى كربلاء أيام الخليفة الأموى يزيد بن معاوية .. ويطلق الشيعة على من يناصبهم العداء من أهل السنة والجماعة لقب أتباع يزيد أو النواصب .. بينما يقولون انسبينا سباية الحسين عندما يتعرضون لظلم هذه الأيام .

يروى عادل « أبو مختار » وهو شيعى طيب من سكان مدينة الصدر عندما كان عائداً من العاصمة الأردنية عمان فى صيف عام ٢٠٠٦ برفقة زميلين أحدهما شيعى مثله والآخر سنى .. وعند الدخول إلى مركز محافظة الأنبار التى تقع غرب العراق وكانت معقل تنظيم «القاعدة فى بلاد الرافدين» كان النهار يقترب من نهايته وبدأت الشمس تستعد للمغيب وهذا الوقت وفقا لفرق الموت يعنى بداية سريان سلطتهم الكاملة على البلاد والعباد .. كان سائق السيارة التى تقلهم من إحدى القرى القريبة من الفلوجة وأبلغهم أنه لن يستطيع مواصلة السير إلى بغداد نظرا لخطورة الطريق وطلب منهم أن يكونوا ضيوفا عند أهله حتى الصباح

إيثارا للسلامة.. رفض الأصدقاء الثلاثة نظراً لارتباطاتهم العائلية والعملية فى بغداد التى تملى عليهم العودة السريعة .. استأذنهم بالانصراف إلى أهله تاركا اياهم على الطريق السريع ربما يعثرون على من يغامر بالذهاب إلى بغداد فى هذا الوقت وتلك الظروف .

لم يمض وقت طويل حتى مرت سيارة خاصة تعود لمهندس من أهالى الفلوجة عرض على الأصدقاء الثلاثة اصطحابهم إلى حدود بغداد عند منطقة أبو غريب التى تبعد حوالى ٢٠ كيلوامتراً غربى بغداد باعتبار أن تلك المنطقة تخضع لنفوذ تنظيم القاعدة الذى يكن لأهالى الفلوجة المجاهدين احتراما شديدا لأن تلك المدينة التي خاضت حربين ضد القوات الأمريكية وفرت ملاذات آمنة لعناصر القاعدة والمقاتلين العرب الذين جاءوا إلى العراق للحرب ضد الأمريكان المحتلين باعتبار ذلك جهادا ضد الكفار قبل أن تتبدل الأمور وينقلب المضيفون على الضيوف ودولتهم الإسلامية التى أشاعت الرعب والقتل .

دار حديث طويل بين صاحب السيارة والركاب حول الأوضاع والأحوال وما يدور من أحداث وبالطبع فإن السؤال الأول كان عن الأسماء ومناطق السكن وأسماء العشائر التى يتبعها العابرون .. راوغ « أبو مختار» فى الحديث حتى لا تظهر طبيعة انتمائه للمذهب الشيعى الا أن صديقه الآخر الشيعى أفصح عن نسبه .. وتداركا للأمر قال كلمة الشيعة المعروفة « انسبينا سباية الحسين » .. إلا أن صاحب السيارة السنى الطيب طمأنه وطلب منهم عدم الحديث عند الاقتراب من أي نقطة تفتيش تابعة للمجموعات المسلحة باعتباره من أهل الفلوجة الذين يحترمهم الجميع خاصة تنظيم القاعدة باعتبارهم مجاهدين .

ودار الحوار بين ركاب السيارة ليؤكد الجميع للجميع أنهم إخوة وشركاء فى وطن واحد لا يفرق على أساس المذهب أو القومية وأن ما يجرى ما هو إلا مؤامرة كاملة الأركان لتدمير البلاد والعباد .

يقول « أبو مختار» أن صاحب السيارة أصر على إكمال مسيرته إلى بغداد رغم مخاطر الطريق واتفق مع ضيوفه بالسيارة على تبادل الأدوار إذا فاجأتهم نقطة تفتيش تعود للميليشيات الشيعية .. فيصمت هو ويتحدث الصديقان الشيعيان حتى وصلت السيارة إلى منطقة العلاوى التى تقع خلف وزارة الخارجية وهى منطقة تتوسط بغداد وذهب كل من ركاب السيارة إلى طريقه بعد تبادل أرقام الهواتف ووعود بمواصلة العلاقة وأن يزور ابن الفلوجة المجاهدة ابن مدينة الصدر عندما تهدأ الأمور .

٢٧ - أنا وطريق الموت

عندما كان « أبو مختار يروى قصته وتفاصيل طريق الموت فى الأنبار تذكرت موقفا كاد أن يقودنى إلى السير فى هذا الطريق عندما تم تكليفى بمهمتى فى العراق منتصف العام ٢٠٠٦ .. حيث أصرت إدارة الوكالة على أن أسافر إلى العاصمة الأردنية عمان جوا وأكمل طريقى إلى بغداد براً نظراً لارتفاع تكلفة السفر على الخطوط الأردنية [(١)] .. ولم تكن إدارة الوكالة فى هذا الوقت تدرى أنها سوف تبعث بى كهدية لعناصر تنظيم القاعدة والعصابات الإجرامية المنظمة التى تمارس الخطف والقتل تحت مسميات وعناوين شتى والذين يسيطرون على هذا الطريق المؤدى من الحدود الأردنية العراقية إلى العاصمة بغداد عبر محافظة الأنبار كبرى المحافظات العراقية من حيث المساحة والتى كانت الملاذ الآمن الأول لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين بعد آن اتخذها التنظيم منطلقا لعملياته سواء ضد القوات الأمريكية أو ضد العراقيين أنفسهم وخاصة المرتبطين بأجهزة الدولة ودوائرها الرسمية وقواتها الأمنية من جيش وشرطة وبعد ذلك وجهوا أسلحتهم وأحقادهم إلى أئمة المساجد وشيوخ العشائر الذين رفضوا طريقتهم فى التعامل مع المجتمع العراقى العشائرى الذى تحكمه قيم نبيلة كانت دستورا لاستقبالهم ومنحهم الملاذ الآمنة باعتبارهم مجاهدين وليسوا قتلة خارجين عن القانون يمارسون جرائم منظمة استنادا إلى مبدأ تكفير المجتمع .. كما أننى كنت غير مدرك لمخاطر هذا الطريق الذي استحق لقب « طريق الموت» بامتياز وكان اعتراضي على السفر براً نظراً لطول المسافة التي تحتاج من ١٠ إلى ١٢ ساعة فى أيام يوليو الحارقة .. كما أن السفر براً عبر هذا الطريق سوف يجدد ذكريات ومواقف مرت بى أيام مهمتى الأولى بالعراق والتي سوف أفرد لها كتابا خاصا يفضح خيبة الإعلام المصرى فى هذه الفترة وكيف ضحت وكالة أنباء الشرق الأوسط بتواجدها ممثلا فى مراسلها هناك لتوفر حفنة دولارات رأت أنها ثمنا باهظا لتغطية الحرب التاريخية التى سقطت فيها بغداد فى قبضة القوات الأمريكية عام ٢٠٠٣ .

لجأت إلى رئيس الوكالة الأستاذ عبد الله حسن طالبا استثنائي من شرط ارتفاع تكاليف السفر حتى أتمكن من بدء مهمتى فى بغداد بشكل أكثر راحة بسفرى عبر

---

(١) كان السفر إلى بغداد جوًا يتم عبر الأردن لعدم وجود خط جوي مباشر بين القاهرة وبغداد في تلك الفترة .

الجو وليس بالسيارة برا .. والحقيقة أن الرجل تفهم الموقف واستجاب لطلبى ووقع قراراً باستثنائي من بند التكاليف العالية لا تمكن من السفر جواً إلى العراق عبر الأردن وكان بهذا القرار ينقذ رقبتى دون أن يدرى من ذبح مؤكد اذا ما ساقتنى الأقدار إلى براثن إحدى نقاط التفتيش التابعة لتنظيم القاعدة أو أحد الكمائن التى كانت تنصبها عصابات السطو المسلح على هذا الطريق المهجور الذى يمتد مئات الكيلومترات بدون أي حماية وتسير فيه السيارات والحافلات تحت رحمة فرق الموت والعصابات .

٢٨ - العبور إلى الموت

كان التوقيف « الحبس» فى معظم الأحوال أول الطريق إلى الموت فى أيام المذبحة عبر سلسلة من الأحداث تبدأ بالتعرف على هوية الشخص محل التوقيف سواء فى نقطة التفتيش الرسمية التابعة للدولة أو الوهمية التابعة للميلشيات وفرق الموت .. وبعد التعرف على هوية الضحية تتواصل الخطوات لزجه فى أحد سجون أقسام الشرطة حتى يتم النظر فى أمره أو بيعه لإحدى الجهات أو العصابات ما لم ينقذه القدر وتتدخل الجهة التى يتبعها سواء أهله أو مكان عمله أو أى شخص يقدم له المساعدة .. وكان أكثر المستهدفين فى تلك الأثناء هم أهل السنة والغرباء خاصة العرب وفئات بعينها على رأسها الصحفيون طبعاً .. ولأننى صحفى ومصري فقد كنت أعلم أن بداية طريق الموت هو أن يتم توقيفى فى إحدى نقاط التفتيش لأتحول إلى سلعة يتم بيعها لإحدى الجهات حتى تجرى المساومة على دفع مبالغ مالية تصل إلى عشرات الآلاف من الدولارات أو يتم تحويلى إلى جثة مجهولة الهوية بعد وجبات التعذيب المدعومة بتهم جاهزة كونى أعمل فى الصحافة وعربى الجنسية .

ولأننى كنت أدرك ذلك جيداً من خلال العراقيين الطيبين الذين كنت لهم أخا وابنا تجب رعايته وحمايته وقت اللزوم فقد كنت أتحاشى العبور خاصة أيام ذروة المذبحة فى مناطق يمكن الوقوع خلالها فى براثن إحدى نقاط التفتيش سواء الرسمية أو الوهمية .. وان تطلب الأمر فلابد من مرافق أو أكثر للتصرف وقت اللزوم مع قائمة طويلة من أرقام الهواتف التى يمكن اللجوء إليها إذا ما جرى المحظور .

إلا أن ما كنت أخشاه حدث ذات يوم فى منطقة تقع فى قلب العاصمة بغداد نهاية العام ٢٠٠٦ حيث كانت الأجواء مشحونة لدرجة أن الموت يزحف فى الطرقات باحثا عن زبائن .. حيث اضطرتنى ظروف المرض إلى الذهاب لمستشفى

الراهبات الواقع فى منطقة الكرادة وسط بغداد عصر أحد أيام الجمعة التى لم أجد فيها من يصحبنى إلى المستشفى بعد ارتفاع الضغط الذى أعانى منه منذ سنوات وخوفى من حدوث مكروه .. اوقفتنى إحدى نقاط التفتيش الرسمية وطلبت أوراقي الشخصية التى كانت فى حد ذاتها اتهاما حيث أننى مخالف لشروط الإقامة بسبب عدم وجود موافقات لمنح الإقامة للعرب باستثناء فريق الدفاع عن صدام حسين والدبلوماسيين وموظفى المنظمات الدولية ومنظمات المجتمع المدنى رغم أننى أعمل فى جهة رسمية وجئت إلى بغداد موفدا من وكالة الأنباء الرسمية المصرية إلا أن تعليمات منح الاقامة كانت فى هذا الوقت تنص على عدم منحها الا بموافقة شخصية من وزير الداخلية وبطلب شخصى حالت الظروف دون الحصول عليها عدة أشهر كون الدخول إلى مقر وزارة الداخلية فى حد ذاته كان أحد طرق الموت للغرباء ونصحنى الأصدقاء بعدم الإقدام عليه تحت أى ظرف أو تحت أي مسمى .

وبعد جدل عقيم مع مسئول نقطة التفتيش أصر على توقيفى تمهيدا لإرسالى إلى السجن ثم ترحيلى إلى مديرية الاقامة لتقول كلمتها بعد عدة ايام وفقا لما أبلغني رغم أنه أكد لى أنه يصدقنى وأننى لا ذنب لى فى عدم الحصول على إقامة رسمية لكنه القانون «الذى لا مكان له فى أى بقعة بالعراق » إلا أنه سيطبقه معى كمخالف للتعليمات وربما أكون خطرا على الأمن .. وقال لى « اعرف أنت صادق .. لكن الإقامة مو خوش أوادم [1] .. هم لا يعطون الإقامة .. لكن شسوى لابد أطبق القانون وأدبك بالتوقيف » [2] .. شعرت أنها النهاية وارتعدت فرائضى وعجزت عن التفكير للحظات بعد أن جف الدم فى عروقى عندما تصورت مصيرى المحتوم ما لم ينقذنى منقذ .

وبعد لحظات فارقة بين النجاة والعبور إلى طريق الموت تذكرت سلسلة النصائح التى كان يرددها على مسامعى الأصدقاء وأخرجت قائمة الهواتف التى يمكن الاتصال بها وقت الخطر وبعد عدة محاولات للوصول إلى منقذ بسبب سوء شبكة الاتصالات الهاتفية تمكنت من الاتصال بشخص يدعى « سيد على » وهو شيعى طيب من سكان مدينة الصدر يعمل أخوه ضمن تنظيمات جيش المهدى إلا أنه كان يحب مصر والمصريين مثل كثيرين ممن فرضت عليهم قوانين المذبحة أن يقتلوا ويمارسوا

(1) وتعني ناس غير جيدين أو محترمين .

(2) أضعك بالسجن .

أبشع الجرائم حتى مع من يحبون من البشر .. وطلبت من سيد على أن ينقذنى مما أنا فيه قبل أن يتم ترحيلى إلى أحد السجون تمهيداً لعرضي على مديرية الإقامة وهو طريق محفوف بالمخاطر ربما ينتهى بالموت أو فى أفضل الأحوال المساومة على دفع فدية أو الاثنين معا كما كانت تجرى الأمور حيث يتم قتل الضحية بعد الحصول على الفدية .

طمأننى « سيد على» وطلب منى أن أبلغ الضابط المسئول عن نقطة التفتيش أن «سيد ......» سوف يأتى لاصطحابي وإنهاء الموقف .. وبالفعل استجاب الضابط عندما سمع الاسم وتغيرت طريقة التعامل معى بينما أنا بين اليأس من النجاة والرجاء الذى توجهت به إلى الله لينقذنى من هذه الأزمة حتى جاء «السيد» واصطحبنى بعد أن جف الدم فى عروقى وتقاطعت أنفاس الحياة مع اختناقات الموت وجفت شفتاى حتى أصبحت شبه عاجز عن الكلام ونصحني الرجل بمعالجة الأمر لأنه من الممكن أن تجرى الأمور بعد ذلك على غير ما جرت هذه المرة .. ونبهنى أن دخولى إلى أى سجن سواء لقسم الشرطة أو السجون العامة أو حتى سجن الإقامة معناه النهاية فى معظم الأحوال .. وكانت الرسالة واضحة تماما بالنسبة لى .. إما تقنين وجودى بالعراق مع عدم التحرك إلا بمرافق أو مرافقين أو الرحيل والعودة إلى مصر سالما .

ودلنى الرجل على طريق معتاد للحصول على موافقة وزير الداخلية وهو دفع مبلغ من المال لأشخاص معروفين يقدمون مثل هذه الخدمات وتأكدت من الأمر بعدما اتصلت بزميلى مراسل جريدة الأهرام فى العراق الذى أبلغنى أنه يعرف مثل هذا الطريق وسوف يقوم باللازم بعد دفع المبلغ المطلوب وهو بضع مئات من الدولارات .. حيث سبق وحصل على الإقامة بنفس الطريقة فى وقت سابق وهو فى طور التحضير لتجديدها من خلال دفع مبلغ مطلوب للحصول على موافقة وزير الداخلية .

بعد أن عدت إلى مقر عملى وإقامتي المهجور فى شارع خلف المريديان الواصل بين شارعى السعدون وأبو نواس سارعت بالاتصال بالأستاذ عبد الله حسن رئيس الوكالة وأبلغته بما جرى .. وللتاريخ فان الرجل أبدى قلقا شديدا وطلب منى العودة حفاظا على حياتى إلا أننى كنت قد بدأت الطريق إلى داخل المذبحة التى كانت بمثابة كنز لى كصحفى لا يمكن تركه بسهولة وتحت أى تهديد أو ضغوط لأن ما يحدث أعتقد أنه لن يتكرر أبداً فى تاريخ العراق .. وشكرت رئيس الوكالة ووعدته بأننى سوف أعود إلى مصر وأنهى مهمتى فى العراق ما لم أتمكن من توفيق أوضاعى .. فوافق وعرض توفير أى مبلغ يضمن ذلك ..وبعد حوالى شهرين من المساومات

والمفاوضات تمكنت أنا وزميلى مراسل الأهرام من الحصول على إقامة رسمية بعد دفع المبالغ المطلوبة كرشاوى عرفت أنها صارت عرفا وتقليدا لإنهاء أى أمر بالعراق فى زمن المذبحة (وثيقة) [١].

ورغم نجاتى من براثن الاعتقال أو التوقيف إلا أن شعورى بالقلق والخوف لم يفارقنى بعد أن اقتربت كثيرا من بداية طريق الموت خاصة بعد أن علمت الكثير من التفاصيل عن وقائع ما يجرى بالسجون والمعتقلات العراقية فيما بعد من أهالى ضحايا تحولوا إلى جثث مجهولة الهوية أو لقوا مصرعهم بعد وجبات التعذيب أو استمروا كمعتقلين دون توجيه اتهامات محددة لعدة سنوات أو من ناجين ساعدتهم الظروف على الخروج من طريق الموت الذى يبدأ بالاعتقال بعد أن دخلوه [٢].

٢٩ - تبيعه ؟؟

فى رائعة المخرج عاطف سالم، وتأليف على الزرقانى، « صراع فى النيل» يسأل أحد الممثلين المنتمين إلى عصابة السرقة فى المولد زميله عندما شاهد النجم عمر الشريف « محسب» منتفخ الصدر بفعل محفظة نقوده الممتلئة بالبنكنوت ثمن « الصندل» ويقول له « تبيعه ؟؟ » وهى تعنى شراء الضحية واعتباره حصة يفوز بها اللص حتى يستولى على ما معه من نقود .. كان هذا السيناريو يجرى بحذافيره فى بعض شوارع أيام المذبحة أو داخل السجون والمعتقلات .. حيث يطلب لص الأرواح من مرافق الضحية أن يبيعه له ومن ثم يبيعه هو الآخر لمن يدفع الثمن ويفوز بالضحية ليقتلها أو يساوم عليها مقابل فدية .

يروى لى زميلى فى مهنة المتاعب « عدنان» الذى كان يعمل مصوراً لحساب وكالة الإخلاص التركية « فرع بغداد» أنه تم اعتقاله مع صحفى تركى عندما كان يقوم بتصوير مشاهد فيديو لما بعد التفجير فى ساحة الطيران وسط بغداد وكان تفجيرا انتحاريا مروعا أدى إلى مقتل أكثر من ٢٠٠ شخص .. وكانت

(1) صورة للإقرار والتعهد الذي وقعته مع مراسل الأهرام لدفع المال والحصول على الإقامة بعد توقيع وزير الداخلية .

(2) أكدت الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس عمليات تعذيب المعتقلين ثم جانب الأمريكان والعراقيين على حد سواء .

الوكالة ترسل صحفيا أو اثنين من الأتراك ليتابعوا سير الأمور مع فريق العمل العراقى الذى كان يقوده « الحاج أحمد» .. وتم توقيف الاثنين فى سجن ملحق بقسم شرطة لم يجد عدنان من الكلمات ما يصف به حالته المزرية اللا إنسانية .

وفى أول ليلة قضاها عدنان يكفكف دموع الصحفى التركى الذى لم يعتاد تلك الحياة الخشنة المصحوبة بتحرشات من كل نوع يتناوبها زملاء عنبر الاحتجاز .. حتى اقترب منه أحدهم وسأله نفس السؤال « تبيعه ؟؟ » « هذا التركى خوش صفقة» أى أنه صفقة جيدة رابحة وسوف تربح معنا وتضمن سلامتك أيضا .

ويقول عدنان « داهمنى السؤال وشعرت بالغثيان مما يحدث .. نعم كنت اسمع عن مثل هذه الأمور ولكن أن تكون بطلا لأحد سيناريوهات بيع الضحايا فهذا أمر غير معقول ولا يمكن احتماله .. المهم أننى تظاهرت بالرضا وطلبت منهم الوقت لأرتب الأمر وأرسلت رسالة بهذا المعنى إلى الحاج أحمد لينقذ ما يمكن انقاذه »

واستقبل الحاج أحمد الرسالة ومنذ الصباح الباكر تحرك مستخدما كل ما أوتى من قوة ونفوذ وعلاقات وأموال وأوراق ضغط واستعطاف لكل الجهات المعنية حتى لا تتم صفقة البيع سواء وافق عدنان أو رفض .. وبعد محاولات استمرت عدة ساعات كان عدنان يحاول خلالها مجاراة عراب الصفقة التى يعلم نهايتها نجح الحاج أحمد فى نقل عدنان والصحفى التركى إلى عنبر آخر واستصدار قرار بتحويلهم إلى قاضى تحقيق حتى يكونوا فى مأمن باعتبارهم حصلوا على أرقام ومواعيد تمنع سلخهم وإخفاء آثارهم داخل سجن القسم .. وبعد عدة وساطات كان السفير التركى فى العراق طرفا فى إحداها تم إطلاق سراح عدنان والصحفى التركى الذى جرى إخراجه من العراق بعد ذلك بأيام وهو غير مصدق لما يجرى داخل السجن رغم أنهم لم يبلغوه بالصفقة التى كان يمكن أن تقوده إلى طريق الموت .

فيما خرج عدنان ليواصل الركض داخل دوامة الحياة كأى عراقى اعتاد على تلك المواقف التى يحاول التعايش معها والخروج منها بأقل الخسائر قدر الإمكان حتى يحين القدر المحتوم ليأخذ دوره فى مواكب الموت التى كانت أحد علامات زمن المذبحة التى استقرت حتى انتهاء مهمتى بالعراق وانخفاض وتيرة العنف لفترات متقطعة .

٣٠ - كشف المستور

نشرت منظمة تعرف باسم « المعلومات والرصد الذراع الاستخباري للمقاومة العراقية» تقريراً حول ما أثارته صحيفة أمريكية عن فضيحة إنشاء سجن سري في بغداد

يعتقل فيه نحو ٤٥٠ مواطنا عراقيا وتمارس فيه أبشع جرائم التعذيب حيث أكدت المنظمة أن هذا السجن يعد واحداً من أصل نحو ٥٣ سجناً معظمهم سجوناً سرية..

وقالت المنظمة فى تقريرها :

«إن تلك السجون هي معتقل الجادرية السري الكائن في ملجأ الجادرية الذى تم الكشف عنه عام ٢٠٠٦ من جانب القوات الأمريكية ووجه الاتهام في إنشائه إلى إبراهيم الجعفري رئيس الوزراء السبق ورجل حزب الدعوة القوى ووزير داخليته بيان جبر صولاغ الذى تولى وزارة المالية فى حكومة نورى المالكى منتصف عام ٢٠٠٦ باسم باقر جبر الزبيدى ومقر الفوج الثاني للحرس الجمهوري قرب ساحة النور وسجن النساء في الكاظمية وبناية مركز التدريب الأمني في صدر القناة وسقيفة من سقائف المواد الاحتياطية للسيارات في كسرة وعطش، وأربعة ادوار في قطاع ٣٩ مفتوحة علي بعضها مقر أبو درع إسماعيل حافظ ودارين في قطاع ٤١ مقر المخابرات الإيرانية وطابقين من بناية وزارة الداخلية يعمل فيها ٧٠ ضابط تحقيق إيراني ودارين في حي أور قرب ساحة صباح الخياط»..

إضافة إلى مهاجع المنتسبين في بناية الاستخبارات العسكرية في الكاظمية قرب محطة الوقود بناية مستشارية الأمن القومي وسقيفة في بناية مخازن المواد الغذائية في العطيفية وثلاثة غرف في بناية حسينية الصادق في حي أور وغرفة كبيرة في بناية مركز شرطة القناة ودارين في الكمالية قرب دار حمدية صالح سابقا في الكمالية ودارين في الكرادة قرب مستشفي الإمام وعدة دور قديمة في محلة التل في الكاظمية وغرفتين في مركز شرطة تل محمد وقاعة في معمل الشخاط وسقيفة كبيرة في معمل الشركة العامة لصناعة السجائر في الأورفلي ومقر جريدة العدالة قرب ساحة القضاء ومسجد براثا الذى يديره عضو مجلس النواب السابق والقيادى فى المجلس الاعلى الاسلامى الشيخ جلال الصغير ودار سرية لحزب الله العراقي بزعامة كريم ماهود في قطاع ٣٩ ..وعدة مقرات سرية في الوحدات العسكرية للتحقق والاستجواب وللحصول علي اعترافات كاذبة..

هذا يضاف إليه مقرات عدة لأجهزة الشرطة..

ومقرات الأحزاب الطائفية .

ومقرات الحزبيين الكرديين.

ومقر الحزب الشيوعي العراقي «الفرع الموالي للاحتلال» .

وثلاثة دور في أبو دشير قرب النهر .

ودار في حي الفرات «أبو كرار» .

ودار في حل العامل «أبو حيدر» .

ومقر استخبارات الداخلية .

وغرفة في الجمعية التعاونية في حي القاهرة .

وردهة في مستشفي الصدر العام في مدينة الصدر .

ومقرات مغاوير وزارة الداخلية .

وغرفة في بناية مطار بغداد .

وغرفة في مركز شرطة الدورة .

وبيت في حي طارق خلف السدة.

وغرفة في نادي المنصور .

ومخزن كبير وسط بستان الجلبي مقابل معمل الطحين.

ودار في المنصور مقابل البيت الصيني .

ومقر المجلس الأعلى في الجادرية .

وداربن كبيرين مقابل مقر عبد العزيز الحكيم .

ومقر حزب الدعوة في مطار المثني.

ومقر أركان الحسناوي وباقر البهادلي من المجموعات الخاصة في الحبيبية .

وعدة معتقلات سرية خاصة بالنساء.

ومقر استخبارات الشرطة .

ودار أخ موفق الربيعي في الطوبجي حي السلام قرب البريد والسوق .

وداربن في الشعب قرب محطة الوقود مجاورة للحسينية .

ومقر كبير في الحسينية الثالثة .

ومقر كبير في الشعلة .

وداران منها محل لتأجير القدور وأدوات الطبخ في الرحمانية الجديدة .

وبناية وزارة الصحة .

وكشفت المنظمة عن أهم أسماء الضباط الذين يقومون بعمليات تعذيب بشعة ضد المعتقلين ومنهم:

المقدم « دمج »/ وهى كلمة تطلق على الضباط الذين كانوا قادة فى الميليشيات وتم منحهم رتبا عسكرية كبيرة باعتبارهم مناضلين ضد النظام السابق دون أن يدرسوا فى أى كلية عسكرية / «صادق» مدير سجن مطار المثني من عناصر حزب

الدعوة وهو من منتسبي مديرية الاستخبارات العسكرية وتم تعينه من قبل مكتب «نوري المالكي» وهو يقوم باستخدام وسائل تعذيب بشعة منها استخدام شواية الهامبورجر حيث يجبر المعتقل الجلوس عاريا عليها فتشوي مؤخرته ويلتصق لحم جسمه بالشواية.

ويأتي اللواء الركن حاتم المكصوصي الذي شغل منصب معاون مدير جهاز مكافحة الإرهاب المرتبط بمكتب نوري المالكي ثم تم تعينه رئيسا للجنة دمج المليشيات ومنحهم رتبا عسكرية ثم شغل منصب مدير الاستخبارات العسكرية ومقرها في المنطقة الخضراء وقد أنيطت له مهمة إقصاء الضباط السابقين في الجيش العراقي الوطني وإحلال ضباط «الدمج» محلهم حيث أقصى أكثر من ٥٠ ضابط.

ويقوم بتعذيب المعتقلين في السجون السرية منها سجن الحارثية السري وسجن في معسكر الشرف خلف مديرية حقوق الإنسان داخل المنطقة الخضراء والسجون السرية في مقرات الألوية ومنها لواء ٥٤ الذي يقوده العقيد علي فاضل العبيدي وسجون لواء ٢٤ الذي يقوده آمر لواء المثنى رحيم رسن البيضاني وأيضا اللواء الركن غسان قائد الفرقه الحادية عشر الذي يرتبط بالفريق فاروق الأعرجي مدير مكتب نوري المالكي ويشرف على مجموعة من ضباط الدمج التابعين لحزب الدعوة ويصدر توجيهاته بتصفية المعتقلين في السجون السرية ورمي جثثهم في المناطق النائية من العاصمة بغداد ويتم نقل الجثث ليلا بواسطة سيارات تابعه للواء ٥٦ المسمي « لواء بغداد » ومقره داخل المنطقة الخضراء ..

ثم النقيب حيدر وهو ضابط استخبارات فوج الأول لواء ٥٤ الفرقة السادسة ويقوم بعمليات اعتقال عشوائية في منطقة المنصور والحارثية وبدون مذكرات قبض وبعد أن يجري تعذيب المعتقلين في سجن مطار المثني يجري اتصالات مع عوائلهم لغرض دفع مبالغ مالية ومن يمتنع عن الدفع نتيجة لعدم قدرة العائلات على تأمين المبالغ الكبيرة التي يطلبها المجرم يتم تصفية المعتقل ورمي جثته في الشارع والمجرم المذكور من عناصر حزب الدعوة ومن مجموعة العقيد فاضل العبيدي.

ونشرت المنظمة ما قالت أنه توثيق تاريخي لنماذج من الجرائم التي ارتكبت ضد العراقيين وبدون رتوش وإضافات كما وردت من مصادرها الدولية والمحلية والتي تم إعلانها في الصحافة العالمية والفضائيات وبيانات صادرة عن لجنة العفو الدولية ولجنة حقوق الإنسان الدولية ومنظمة الشفافية الدولية والصليب الأحمر الدولي والصحافة العالمية ولجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ولجان حقوق الإنسان المتعددة في العراق وجمعيات المجتمع المدني ومنظمة الشفافية العراقية ونقابة

المحامين العراقيين وشخصيات وطنية وفيها :

تقرير لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ٢٠٠٩/٥/٨ لجان التحقيقات تقوم بتعذيب المعتقلين وتجبرهم علي الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها وان أوضاعا إنسانية وصحية سيئة وخروقات تتم في سجون النساء وسجون وزارة الداخلية والعدل والدفاع وممارسة شتي أنواع التعذيب والاغتصاب بشكل واسع. «من فمك أدينك» ..

التايمز اللندنية ٢٠٠٩/٤/٢٤ تكشف عن وجود جرائم وانتهاكات لحقوق الإنسان واغتصاب المعتقلين في سجون وزارة الداخلية وإساءة وتعذيب ورشوة لإطلاق سراح الأبرياء.

لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب ٢٠٠٩/١١/٥م عمليات اغتصاب واسعة وتعذيب في سجن النساء التابع لوزارة العدل ويتم الاغتصاب أمام أولادهن المعتقلين لإجبارهن علي الاعتراف وأخرى أصيبت بالعمي خلال التحقيق وتم اغتصابها عدة مرات.

لجنة العفو الدولية – قوات الأمن العراقية تختطف المواطنين الأبرياء وتطلب منهم بعد فترة الفدية لإطلاق سراحهم، وعمليات التعذيب والاغتصاب مستمرة وقطع أصابع بعض المعتقلين وأظافرهم خلال التحقيق وآثار الانتهاكات ظاهرة علي أجسام المعتقلين المطلق سراحهم.

جمعيات حقوق الإنسان الدولية – معتقلون مفقودون داخل بلدهم العراق وهم لم يرتكبوا مخالفة ولم نجد لهم أثر في سجون وزارة الداخلية ولم تسجل أسماؤهم في السجلات لقد تم تغيبهم عائلاتهم تبحث عنهم من سنوات وهذا دليل علي عمليات القتل الجماعي ودفنهم في مقابر جماعية، إن المعتقلين أموات خلف القضبان «الداخل مفقود والخارج مولود».

الجارديان البريطانية – المعلومات المتوفرة من عدة مصادر ومقابلات لمعتقلين سابقين أنه يجري في المعتقلات العراقية انتهاك كبير لحقوق الإنسان من تعذيب بالجلد والماء الحار والبارد والتعليق بالمراوح السقفية وقطع الأصابع وقلع الأظافر وكي بالسجائر والصعقات الكهربائية واغتصاب بالجملة ويتناوب عدة أشخاص علي المعتقل أمام المحققين وتشويه وتعذيب وتغييب لا أحد يعرف عن مصير المعتقل وعمليات إعدام ليلية ودفن الجثث بالشفلات / اللودر.

التايمز البريطانية –في المعتقلات السرية لوزارة الداخلية وللأحزاب الحاكمة يجري قتل مبرمج عن طريق التعذيب علي جهة القلب إلى أن يموت المعتقل بعد فترة وهو اغتيال سياسي مبرمج للأبرياء لمجرد الاختلاف معهم مذهبيا وسياسيا

ولم يكونوا مع الاحتلال.

صحف أمريكية – السجون العراقية السرية لاتخضع لإشراف لجنة الصليب الأحمر الدولي ولا لجمعيات حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية والانتهاكات ضد حقوق الإنسان بإشراف أعلى المستويات السياسية وكبار الضباط.

جمعية الصليب الأحمر الدولي – لم يسمح لنا لزيارة أغلب السجون العراقية ولم نجد أسماء كثيرة من المعتقلين في السجلات وتغيب الكثير في السجون تجري كثير من حالات التعذيب والاغتصاب والانتهاكات لحقوق الإنسان مستمرة.

منظمة الشفافية العراقية – اللواء قاسم عطا الناطق الرسمى باسم قيادة عمليات بغداد يسوق لاعترافات كاذبة علي أساس أنها اعترافات المعتقلين في كيل الاتهامات لحزب البعث والمقاومة الوطنية العراقية ولم يستطيع إثبات دليل واحد مع العلم أنه كان «رائد» في الجيش الوطني وأصبح فورا برتبة «لواء» وأخوه عضو في المجاميع الخاصة الإيرانية.

تقرير لجنة العفو الدولية – الانتهاكات لحقوق الإنسان مستمرة في سجون ومعتقلات وزارة الداخلية فالتعذيب بأنواعه والاغتصاب وازدحام المعتقلات وطلب الرشوة والفدية من المعتقلين الأبرياء والمحجوزين بدون تهمة أو تحقيق.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – التعذيب والاغتصاب مستمر في المعتقلات والاختطاف مستمر كذلك من أجل الحصول علي الفدية.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – تسقيط المعتقل العراقي بالاغتصاب هو بأمر من دولة جارة بسبب حرب الثمان سنوات وانتصار العراق عليهم.

لجنة حقوق الإنسان العراقية – في سجن التسفيرات تم اغتصاب أكثر من ١٥٠ معتقل تناوب علي اغتصابهم ٤٥ شرطي وتم تشكيل لجنة تحقيق بالأمر والنتيجة تم غلق التحقيق مع الشرطة بأوامر من الأحزاب الطائفية....

لجنة حقوق الإنسان – تطالب التحقيق في مسالة انتحار موقوف نتيجة عدم تحمله التعذيب وتهديده بالاغتصاب.

النائب عن التيار الصدرى أحمد المسعودي من الكتلة الصدرية – في سجن الحلة اغتصب المحققون معتقلين وقد اعترفا له بذلك «تصريح للفضائيات»...

النائب أحمد المسعودي – تعرضت زوجة معتقل للاغتصاب في سجن الرمادي لإجباره علي الاعتراف.

النائب أحمد المسعودي – معتقل في الديوانية ونتيجة التعذيب تم قطع أصابع

يده اليمني في التحقيق.

النائب أحمد المسعودي – أثر المعلومات الخطيرة والمرعبة وامتهان كرامة الإنسان المعتقل باغتصابه وقابلت علي أثرها رئيس مجلس القضاء الأعلى وأخبرته بالانتهاكات لحقوق الإنسان في المعتقلات وممارسة التعذيب البشع وخاصة الاغتصاب الجنسي وقد وعدني بإجراء التحقيق الفوري ولكنه لم يحرك ساكنا ولم يتخذ أي إجراء «فمن أمن العقاب ساء الأدب».

محمد رضا المياحي – معتقل في استخبارات البصرة من جيش المهدي موقوف ومنعوه من النوم ثلاثة أيام لعدم وجود مكان له لازدحام القاعة وفيها أكثر من ١٥٠٠ معتقل دفع فلوس وخرج من المعتقل بدون تحقيق.

سجن ميناء البصرة – صدر أمر قضائي منذ سنتين لإطلاق سراح بعض المعتقلين لعدم توجيه تهمه لهم ولم يتم تنفيذ الأمر بإطلاق سراحهم ولا يزالون متحفظين عليهم.

معتقل من القادسية – ٤ شرطة تناوبوا علي اغتصابه وهو يصيح ولم ينجده أحد وتحت سمع وبصر المحققين وأُطلق سراحه بعد أسبوع من اعتقاله.

لجنة حقوق الإنسان – سجن النساء في الكاظمية يتحول إلى مبغى عام ويجري اغتصاب المسجونات من قبل كبار ضباط الداخلية ويجري اعتقال بعض الساقطات لتشويه سمعة بقية المعتقلات.

مركز شرطة الحامضية في الأنبار – اعتقالات عشوائية دون الرجوع إلى أي جهة قضائية وتجري إعدامات بدون حكم قضائي.

المثني – ظهرت كتابات علي جدران البيوت معادية للاحتلال وإيران علي أثرها جرت حملة اعتقالات عشوائية لعشرات الشباب عسى أن يكونوا من بينهم من كتب الشعارات وتم تعذيبهم بالكهرباء والخراطيم والماء الحار والبارد والكي بأعقاب السجائر والتعليق بالمراوح السقفية والتهديد بالاغتصاب.

نضال شبيب – توجد عدة سجون سرية للنساء يجري فيها أنواع الاغتصاب.

كركوك – الأسايش والبشمركة[1] يمارسون ضد المعتقلين الاهانات

---

(1) الأسايش : هي قوات الأمن الكردية، والبيشمركة : هي قوات حرس إقليم كرستان ورغم تبعية التشكيلين لإقليم كردستان إلا أن عناصرهما تتواجد في المناطق التي يعتبرها الأكراد جزءًا من إقليمهم وما تسمى «المتنازع عليها» .

والتعذيب والتجويع والحرمان من النوم وازدحام المهاجع والاغتصاب الجماعي.

في القادسية مخبر سري لكثرة التقارير التي كتبها وسببت اعتقال العشرات تم منحه رتبة «راند» وأصبح هو الذي يعذب المعتقلين الذين سبب في اعتقالهم نتيجة تقاريره وللحفاظ علي رتبته.

في كربلاء معتقل عمره ١٦سنة اعتقل لمجرد أنه واقف عند باب داره وشاهد كيف يسحلون المعتقلين ليصعدوهم إلي السيارات وأصيب بالهستيريا لمشاهدته تعذيب الآخرين بشكل رهيب.

الكتلة الصدرية – يجري تعذيب المعتقلين في كربلاء داخل مهاجعهم واغتصابهم وتم تصوير ذلك وهم يعانون من تكسير العظام وأمراض مختلفة.

أما الأمريكان – في اعتقالهم للنساء وإطلاق سراحهن بعد يومين في بعض الأحيان ليثار الشك حولهن بأنهم قد اغتصبوهن ولذلك يتم قتلهن بدون التأكد من قبل الأهالي غسلا للعار ولمجرد الشك.

القادسية – في سجونها تعذيب لا يطاق من أجل الحصول علي اعترافات كاذبة وإعدامات بالجملة والاعتقالات تتم بناء علي تقارير المخبرين السريين.

أطباء بلا حدود – لم يسمح لنا بزيارة السجون السرية التي ينتشر فيها الجرب والسل والصرع والسرطان وتلف خلايا الدماغ نتيجة التعذيب.

الاتجاه الأخر – أبشع أنواع التعذيب في سجون الموصل وإجبار أحد شيوخ المساجد للاعتراف أنه يمارس اللواط في المحراب وعمره ٧٥ سنة بعد تهديده باغتصاب بناته أمامه وعرض اعترافاته علي شاشات العراقية وأطلق سراحه بعد تسقيطه وأخري اعترفت أنها ساقطة وأهل الموصل يعرفون نزاهتها وعفتها وأطلق سراحها بعد عرض اعترافها.

زيارة نائبي رئيس الجمهورية[1] – عرضت الزيارات علي شاشات الفضائيات وشاهدا ازدحام أقفاص المعتقلين وكأنهم حيوانات وانتشار الأمراض خاصة السل والجرب وبعضهم معوقين وقد بين المعتقلون أنواع التعذيب التي تعرضوا لها وأغلبهم لم يجري تحقيق معهم منذ سنتين وهاجم المالكي الزيارة واعتبرها مدخلاً بشؤون الدولة. «إنها زيارة خطابات استعراضية ودعاية انتخابية».

مصادر مختلفة – يجري ليلا وخلال ساعات منع التجول وفي كل المتعقلات

(1) السني : طارق الهاشمي ، والشيعي : عادل عبد المهدي .

السرية إعدام العشرات وترمي جثثهم أما علي النفايات وتقرير الشرطة صباح اليوم التالي العثور علي جثث لمجهولي الهوية أو يتم الدفن في مقابر جماعية في حفر مهيأة مسبقا.

انتشار مرض الاكتئاب بين الأطفال الذين تم إطلاق سراحهم من المعتقلات نتيجة مشاهدتهم لعمليات التعذيب والاغتصاب.

مقرر مجلس حقوق الإنسان للأمم المتحدة في جنيف – العراق أكثر بلد يجري فيه اضطهاد الصحفيين واعتقالهم وتعذيبهم لمنعهم من متابعة الأحداث التي تجري.

جمعيات حقوق الإنسان العراقية – في السجون والمعتقلات والمواقع السرية لوزارة الداخلية وللميليشيات والأحزاب جرت فيها تصفية الآلاف من العراقيين خلال السنوات الماضية قسم منهم خلال التعذيب والقسم الأخر من الذين أطلق سراحهم قضائيا وبدلاً من ذهابهم إلي أهاليهم كانوا يعدمون بإطلاقة علي الرأس ويرمون علي النفايات أو في أحواض المياه الثقيلة أو يرمون في الطب العدلي.

حقوقيون عراقيون – أساليب التعذيب في سجون وزارة الداخلية العلنية والسرية بطرق مستحدثة منها التثقيب بالدريل الكهربائي/ الشنيور/ ثم التقطيع بالمنشار الكهربائي وتقطيع أوصال المعتقل وتوزيعها في عدة مناطق ثم الحقن بالمواد الكيماوية إلي إن يموت الضحية وحرق المعتقل حيا ويترك ليموت ثم الصعقات الكهربائية بالتيار الكهربائي العالي ويتفحم المعتقل وكذلك قلع العيون وصب الحامض«الأسيد» في المحاجر.

جهات صحية – انتشار حالات الصرع والجنون وفقدان الذاكرة واختلال التوازن بين بعض المعتقلين الذين أطلق سراحهم.

جهات صحية – كثير من المعتقلين المرضي لم يتم عرضهم علي الأطباء أو إرسالهم للمستشفيات للعلاج ولذلك تحولت إلي أمراض مزمنة وأمراض سرطانية وتوفي الكثير بعد إطلاق سراحهم.

منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان «هيومن رايتس ووتش» نشرت يوم، الثلاثاء، ٢٧ / ٤ / ٢٠١٠ تقريرا أكدت فيه أن المحتجزين في مركز احتجاز سرّي في بغداد، وأحدهم بريطاني الجنسية، تعرضوا إلى «فظائع» تعذيب منهجية وعمليات اغتصاب، وأجبروا على التوقيع على اعترافات كاذبة، مطالبة السلطات العراقية بضرورة التحقق بشكل مستفيض بالأمر ومقاضاة جميع المسؤولين الحكوميين والأمنيين الضالعين في هذه القضية.

وقالت المنظمة في تقريرها ، إنها قابلت «٤٢ سجيناً بمركز احتجاز الرصافة في ٢٦ إبريل ٢٠١٠، وكانوا من بين ٣٠٠ محتجز نُقلوا من مركز احتجاز سري في مطار مثنى القديم غرب بغداد» وكشفت أن «السجناء أكدوا أنهم تعرضوا لعمليات تعذيب منهجية كتعليقهم من أرجلهم وتعرضهم للركل والضرب بالسياط والأيدي، والصعق بالكهرباء والاغتصاب، وإجبارهم على ممارسة الشذوذ».

وأضافت المنظمة في تقريرها أن «جميع المحتجزين الذين تمت مقابلتهم وصفوا نفس أساليب التعذيب المستخدمة من قبل المحققين العراقيين، إذ قام السجانون بتعليق السجناء المقيدين بالأصفاد بأعين معصوبة من أرجلهم باستخدام قضيبين من الحديد، أحدهما يوضع وراء باطن الساق، والآخر على الذقن. وكانوا جميعاً مصابين بندب وكدمات حديثة مروعة في سيقانهم».

ولفت التقرير على لسان عدد من المعتقلين إلى أن «التعذيب كان كثيفاً أثناء الأسبوع الأول في المثنى، حيث قام المحققون بركلهم وضربهم بالسياط والأيدي، كما وضع المحققون حقائب بلاستيكية على رأس المحتجزين وأغلقوا عنهم منافذ الهواء، وعندما يفقد المحتجز وعيه جراء ما يتعرض له، يقومون بإفاقته عبر صدمة كهربية»، بحسب التقرير.

وأشار التقرير إلى أن المعتقلين ذكروا أن «مسؤولي الأمن أثناء الاستجواب، سخروا منهم، ووصفوهم بأنهم «إرهابيون» و«بعثيون»، ولوقف التعذيب، على حد قول المحتجزين، كانوا يضطرون إما للإدلاء باعترافات كاذبة أو يوقعون أو يبصمون على اعترافات جاهزة دون أن يطالعوها».

وأظهر التقرير أن المحتجزين «حتى بعد الاعتراف، على حد قول الكثيرين من المعتقلين، كانت تستمر ممارسات التعذيب بحقهم».

كما لفتت منظمة «هيومن رايتس ووتش» في تقريرها إلى «وجود أساليب تعذيب أخرى تعرض لها السجناء، كقيام بعض المحققين ومسؤولي الأمن باغتصابهم بمقشات خشبية ومسدسات، على حد قول المحتجزين».

ونقل التقرير عن السجناء قولهم «إن المحققين اغتصبوا المحتجزين الأحدث سناً، الذين تم نقلهم بعد ذلك إلى مواقع احتجاز مختلفة»، كما ذكر أن «بعض الشبان قالوا إنهم أُجبروا على ممارسة الجنس مع المحققين والحراس، فضلا عن إرغام بعض المحتجزين على الاعتداء جنسياً على أحدهم الآخر».

وبين تقرير المنظمة الدولية أن «مسؤولي الأمن قاموا بجلد المحتجزين بأسلاك كهربية غليظة، ونزعوا عنهم أظافر اليدين والقدمين، وحرقوهم بالأحماض

والسجائر، وكسروا أسنانهم، أما إذا استمر المحتجز في رفض الاعتراف، فأنهم يهددونه باغتصاب زوجته وأمه وشقيقاته وبناته»، ونقل عن السجناء تأكيدهم أن «جلسات الاستجواب كانت تستغرق عادة ما بين ثلاث إلى أربع ساعات، ولكل ثلاثة أو أربعة أيام».

وأوضحت المنظمة أن «السجناء الـ ٤٢ الذين تمت مقابلتهم قالوا إن الجيش العراقي احتجزهم بين أيلول « سبتمبر » وكانون الأول « ديسمبر » ٢٠٠٩ بعد مداهمات واعتقالات في الموصل وحولها، وهي معقل للجماعات العربية السنية المسلحة، ومنها القاعدة في بلاد الرافدين»، مضيفة أنهم «نقلوا بعدها ضمن ٣٠٠ سجين آخرين إلى سجن الرصافة، الذي يتكون من مجموعة من ١٩ زنزانة كبيرة على هيئة أقفاص حديدية، على مدار الأسابيع القليلة الماضية، بعد أن انكشف وجود السجن السري في مطار المثنى القديم.

وأورد التقرير بعضا من شهادات المعتقلين وتاريخ اعتقالهم وطرق التعذيب التي مورست ضدهم، ومن بينهم محتجز بريطاني الجنسية وكان برتبة لواء في الجيش العراقي السابق، ويتحرك على كرسي متحرك، وتم اعتقاله في ٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٩، بعد أن عاد إلى الموصل من لندن للبحث عن ابنه الذي كان محتجزاً، حيث رفض سجانوه منحه دواء السكري وارتفاع ضغط الدم، وروى على حد قوله لـ«هيومن رايتس ووتش» ما حدث معه قائلا «تعرضت للضرب المبرح، لاسيما على رأسي وكسروا أحد أسناني أثناء الضرب، وعذبني عشرة أشخاص، أربعة من لجنة التحقيق وستة جنود، واغتصبوني بعصا، ثم أُجبرت على توقيع اعتراف لم يدعني أحد منهم أقرأه».

واعتبر تقرير المنظمة أن «روايات الرجال كانت تتمتع بالمصداقية ومتسقة فيما بينها، فضلا عن أن نسبة كبيرة من الثلاثمائة رجل محتجز كشفت عن ندبات وكدمات وإصابات جديدة، جراء التعذيب المنهجي والمتكرر الذي تعرضوا له على أيدي المحققين في المثنى الذين كانوا يتهمونهم بالمساعدة على الإرهاب والتحريض عليه»، وفق قولهم.

ونقل التقرير عن نائب المدير التنفيذي لقسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المنظمة، جو ستورك، قوله إن «الفظائع التي اطلعنا عليها توحي بأن التعذيب كان هو المنهج السائد في المثنى، وعلى الحكومة أن تقاضي جميع المسؤولين عن هذه الوحشية المنهجة»، بحسب التقرير.

وطالب ستورك في التقرير السلطات العراقية بـ«تُشكيل هيئة تحقيق مستقلة ونزيهة للتحقيق في أحداث سجن المثنى، وأن تحدد المسؤولين عنها وتقاضيهم، ومن

بينهم أي شخص مسؤول في السلطة أخفق في منع وقوع التعذيب، مع ضمان أن المحاكم لن تأخذ بأي اعترافات يتم استخلاصها عبر التعذيب».

وأكدت المنظمة أن عدة مصادر مطلعة أبلغتها بأن «مركز الاحتجاز السري المذكور يخضع لإشراف المكتب العسكري لرئيس الوزراء نوري المالكي».

وكان سجن المثنى يضم أكثر من ٤٣٠ سجيناً قبل نقلهم إلى مراكز احتجاز أخرى في وقت مبكر من هذا الشهر، وعلى مدار شهور، لم يكن أحد يعرف بأماكنهم، ولم يكن متاحاً لهم الاتصال بأسرهم أو محاميهم، كما لم تصدر بحقهم وثائق رسمية أو حتى أرقام احتجاز أو أرقام قضايا، فيما كان قاضي تحقيق ينظر في القضايا من حجرة قريبة من إحدى حجرات التعذيب في مركز الاحتجاز، بحسب أقوال المعتقلين.

وكانت صحيفة لوس أنجلس تايمز، وبعد أن كشفت لأول مرة عن الانتهاكات في سجن المثنى في ١٩ أبريل/نيسان، بادرت الحكومة العراقية للقول بأنها ستحقق في مزاعم التعذيب، وأعلنت قيامها بالقبض على ثلاثة ضباط بالجيش على صلة بهذه الإساءات، فيما أصدر رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي قرارا بإلغاء السجن، ومحاسبة كل المسؤولين عن هذه الأعمال قضائيا».

وعلق رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي بأنه لم يكن على علم بالانتهاكات التي تمارس في السجن السري في مطار المثنى القديم، غرب العاصمة العراقية بغداد، الذي تديره قوات تابعة لقادته الأمنيين مباشرة، مبرراً أن نقل السجناء إلى بغداد بأنه جاء «بسبب مخاوف متعلقة بالفساد الذي تشهده مدينة الموصل»، مؤكداً أنه «ستتم محاسبة كل من تثبت إدانته بالقيام بأعمال التعذيب ضد السجناء».

ولكن منتقدي المالكي تساءلوا كيف يمكن له أن لا يعرف ما كان يجري في السجن والإفصاح عن ذلك بغض النظر عما إذا كان مسؤولاً أم لا.

ويشير التقرير الذى نشرته منظمة « المعلومات والرصد الذراع الاستخباري للمقاومة العراقية» إلى أنه في زمن حكومة السيد «إبراهيم الجعفري» بدأت مرحلة تأسيس السجون الملونة والخاصة وكذلك السجون السرية وتم تغيير تسمية الغاية من السجون والتي هي الإصلاح والتهذيب وتحويلها الي سجون الحقد الطائفي !! فتم تأسيس السجون الملونة في ما يسمي بقوات حفظ النظام فتوجد هناك القاعات الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء . وكانت هذه المعتقلات يشرف عليها شخصيا قائد فرق الموت اللواء الركن «مهدي صبيح الغراوي» ويتم

تعذيب المعتقلين علي يد الإيراني العقيد الركن ثائر « أبي تراب » وهو كان برتبة نائب ضابط في إيران !! وكان هناك سجن أخر تم تأسيسه داخل ما يسمي بلواء الذئب التابع إلى وزارة الداخلية ومن ثم تم استلام اللواء من قبل السفاح الأصفر وكما كان يلقب حينها العميد «سلام أكرم شهوان» وكانوا معه مشرفين علي تعذيب المعتقلين كل من العقيد علي والمقدم فلاح والرائد علي أبو فهد والنقيب محمد قمصلة والنقيب شاكر .

بالإضافة إلى هذه المعتقلات كانت هناك معتقلات أخرى كمعتقل لواء البركان والذي بأمرة اللواء الركن باسم الغراوي ولواء الكرار الذي بأمرة اللواء الركن « دمج » حامد الطويل ولواء الأسد الذي بأمرة العقيد أمن بشار عبدالله وغيرها من ألوية الداخلية وقد اعتقل محمود المشهداني الذى تولى رئاسة البرلمان عام ٢٠٠٦ في إحدى هذه المعتقلات وقد شاهد بأم عينيه التعذيب والإهانات وغيرها من الأساليب القذرة الأخرى..!!

بعدها تم الكشف عن سجن سري وهو سجن الجادرية والمعروف بالانتهاكات التي ظهرت من خلال شاشات التلفاز والتي كان يشرف عليها الإيراني أحمد المهندس .

بالإضافة إلى ما تم ذكره فهناك معتقلات مراكز الشرطة أيضا وكذلك معتقلات الأحزاب كافة والمرتبطة بالدولة كمعتقل الحزب الكردستاني في منطقة العلاوي ومعتقل جامع براثا ومعتقلات المجلس الأعلى قرب مطار المثني وساحة وهران في منطقة الثورة ومعتقل كراج عجلات الوفود التابع إلى وزارة النقل وغيرها من معتقلات أخرى ومعتقل حزب الله تنظيم العراق في منطقة الحاكمية بالإضافة إلى المعتقلات الموجودة داخل الحسينيات والجوامع.

وقد يتساءل الجميع أين معتقلات وزارة الدفاع؟ في حينها لم تكن وزارة الدفاع قد تلطخت بما يسمي التسييس الطائفي حيث كانت وزارة الدفاع رغم بعض الانتهاكات والتي قد تكون ليست بالكبيرة ولكن لم تكن بقدر ما كانت تقوم به ميليشيات وزارة الداخلية ..

أما في زمن نوري المالكي .. فقد قام بتحويل وزارة الدفاع إلى الوزارة المسيسة طائفيا وإخراج مجموعة من الضباط السنة بعد أن قام بتعميم كتاب إلى جميع الوحدات التابعة إلي وزارة الدفاع والذي كان عنوانه « التوازن الطائفي » تم من خلاله معرفة عدد الضباط السنة الموجودين داخل وزارة الدفاع .. وبعد ذلك قام بإصدار أمر ديواني تحت الرقم ١٣٤ لعام ٢٠٠٩ بدمج أفراد حزب الدعوة والمجلس الأعلى والذين كان عددهم ١٦٠٠ شخص ومنحهم رتب عسكرية مابين ملازم إلى عقيد وتوزيعهم علي

جميع وحدات الجيش وحصرا في قسم الاستخبارات . وكذلك قام بتأسيس لـواء خاص يسمي بلواء بغداد والذي أشرف علي تأسيسه كل مـن الـدكتورة باسمـة الساعدي واللواء عدنان المكصوصي وبأشراف مباشر وشخصي من قبل الفريـق الأول فاروق الأعرجي مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة والذي كان بأمرة العميـد الركن عماد ... أبو شوارب . وكانت مهام هذا اللواء هـي الاعتقـال العشـوائي وكذلك ترهيب وتخويف التجار والمتعاقدين مع الوزارات العراقية

وبعد تأسيس هذا اللواء تم تأسيس معتقل خاص بهذا اللواء تم وضعه داخـل مقر الفرقة السادسة وكان المعتقل بأشراف مباشر من قبـل مـدير اسـتخبارات مكتب القائد العام اللواء حسن كوكز وبأمر من الفريق الأول فاروق الأعرجـي ..ولا يتم مراجعة هذا المعتقل من قبل أي شخص وحتى امر (قائد) موقع مطـار المثني نفسه

ومن السجون السرية الأخرى هو سجن أمن واستخبارات وزارة الدفاع بإشـراف اللواء جمال الفيلي هو داخل المنطقة الخضراء وغير معلن لأي جهـة ولا حتـى قوات الاحتلال وهذا المعتقل تحت الأرض وكل المعتقلين بداخله من هـم مـدد اعتقالهم لا تقل عن السنة !!

٣١ - قصاصة الورق القاتلة

لا يكتمل الحديث عن فظائع المعتقلات بالعراق دون الحديث عن بيت القصـيد المرعب وهو ما يعرف ب « المخبر السرى » حيث كانـت قصاصـة ورق أو اتصـال هاتفي من مخبر سري تفقد المواطن البريء حياته أو حريته

ويطالب معتقلون عراقيون أفرج عنهم بمحاكمة مخبرين سريين أخذ بأقوالهم وتقاريرهم فزج بهم خلف القضبان بناء عليها .. وتدلل الاستعانة بالمخبر السري على هذا النطاق الواسع إلى وجود خلل أمني كبير فى زمن المذبحة .

حقيقة الأمر أنه لا توجد إحصائية رسمية أو شبه رسمية عن أعداد من يزاولون هذه المهنة القذرة والمريبة فى آن واحد إلا أن تأثيرهم على المجتمع العراقـي فـي زمن المذبحة يعادل أو يزيد على تأثير عصابات القتل وفرق الموت التى عاثت فـي البلاد فسادا تحت غطاء غامض من الشرعية المزيفة .. وكما أن فرق الموت لا دين لها ولا طائفة كذلك فإن المخبر السرى مجهول الهوية ومجهـول الانتمـاء .. ويكفى أن نعلم أن أكبر عملية عسكرية خاضتها القوات الأمريكية بعد الإعـلان رسميا عن انتهاء العمليات العسكرية الخاصة بغزو العراق عام ٢٠٠٣ وهى عملية «

شبه الجزيرة» التى تم تنفيذها لاعتقال عدد من رموز النظام السابق وجرى خلالها اعتقال المئات من الأبرياء بعد مقتل عدد كبير من المواطنين تمت بسبب معلومة من مخبر سرى عن وجود وزير الدفاع سلطان هاشم أحمد ومدير مكتب صدام راكان والمطلوب الأهم على حسن المجيد فى منطقة الضلوعية / ٩٠ كم شمال بغداد / .. كما أن عمليات قصف وقتل واعتقالات جرت فى مختلف مناطق العراق من جانب القوات الأمريكية والعراقية على حد سواء تمت بناء على معلومة سربها « المخبر السرى » الذى لا يتورع أبدا عن التسبب فى مقتل وإصابة وتشريد واعتقال العشرات لأتفه الأسباب وطمعًا فى مكافأة ممن يعتبرهم أولياءه .

وكما أن المخبر السرى بلا أخلاق فانه يكون غالبا بلا مهنة ويعيش على ما يجنيه من تقاريره الوهمية ضد الأبرياء أو عمليات الابتزاز التى يمارسها ضدهم حتى لا يجتنبوا شره متساءلين عن هذه السلطة الوهمية التى يتمتع بها صاحب المهنة القذرة التى تجعل سلطان الخوف الذى يجيد استخدامه أقوى من سلطان السلطة نفسها .

وكما يستغل المخبر السرى سلطان الخوف لدى المواطنين الأبرياء لابتزازهم فانه يستمد قوته الخارقة من استغلال سلطان الخوف لدى الحكام أنفسهم سواء كانوا أمريكيين أو عراقيين حيث تكفى قصاصة ورقية قذرة من مخبر سرى للقيام بعملية عسكرية يذهب ضحيتها أبرياء سواء موتا أو اعتقالاً دون أن يكلف الحاكم نفسه مشقة التأكد من صحة المعلومة .. فلا مجال للشك فى زمن المذبحة.. وإذا سقط ضحايا فإنهم وقود المعركة التى فرضت عليهم .. فالقوات الأمريكية عملت منذ البداية على مبدأ راح ضحيته العشرات وربما المئات وهو أن الخطأ ولو كان نتيجته قتل برىء لا يشكل خطراً حقيقياً أفضل من الانتظار الذى يمكن أن يحمل خطراً حقيقيا .. ومن هنا استمد المخبر السرى قوته وسطوته التى يكون ضحيتها القاتل والقتيل فى وقت واحد .

٣٢ - وشاية العشيقة

تثير قصة أحمد « أبو شهاب» الضحك إلى درجة البكاء حيث نال مصيراً محفوفا بالمخاطر كاد أن يودى به إلى الموت داخل أحد المعتقلات التى كانت تضم المئات من العرب السنة بعد وشاية من عاشقة غاضبة بعد أن هجرها وفقدت سخاءه وهداياه .. وكانت النتيجة عملية عسكرية واسعة مدعومة بإسناد جوى لاعتقاله بتهمة الانتماء إلى إحدى الجماعات المسلحة وقت ذروة العنف الطائفى

نهاية العام ٢٠٠٦ وبداية ٢٠٠٧ وقد دعم انتماؤه إلى الطائفة السنية تقرير المخبر السرى باعتباره إرهابياً حيث كان يقيم فى منطقة ذات أغلبية شيعية وتخضع لنفوذ جيش المهدى لأنه متزوج من شيعية من أهل الناصرية . (مركز محافظة ذي قار وتبعد حوالي ٣٧٥كم جنوب بغداد) .

ويروى أحد كيف فرضت القوات الأمنية طوقا واسعا على الشارع الذى يقع فيه محل « الجزارة» الذى يمتلكه مع تحليق للطيران الأمريكى واقتادته عناصر أمنية مكبلا بالحديد معصوب العينين مع وجبة دسمة من الضرب والشتائم باعتباره إرهابياً وسط دهشة الجيران سواء من أصحاب المحال أو السكان الذين يعرفونه جيدا باعتباره رجل بعيد كل البعد عن السياسة وغيرها من الأمور الثقيلة على نفسه فهو يقضى يومه بين محل الجزارة والبيت وتتبع الجميلات حتى يفوز بصداقة إحداهن لبعض الوقت وهى الهواية التى كادت أن تكلفه حياته .

كان صوت أحمد وهو يروى قصته يحمل مشاعر متناقضة فهو يضحك أحيانا بشكل هستيرى ثم يعلو الحزن وجهه عندما يتحدث عما لاقاه من أهوال يعتبرها قصاصا سماويا عادلا لهواية العشق التى لا يتورع عنها أبداً .. قال لى: أن رجال الأمن ساقوه إلى المعتقل كما يسوق هو الشاه ليذبحها وربما يعامل الشاة بشكل أقل حدة من الطريقة التى عاملوه بها قبل أن يزجوه فى عنبر الاعتقال الذى تحكى حوائطه بالقهر والموت وتعلوها اثار الدماء المخلوطة بعرق الضحايا بعد وجبات التعذيب « التمام» .

يقول « أبو شهاب» أنه يتم جمع الضحايا من كل حدب وصوب وغالبهم لا يعرفون التهم التى جاءوا بسببها إلى عنابر الاعتقال التى يجرى تقسيمها وفقا لاسم العشيرة التى ينتمى إليها الضحية .. فهذا عنبر « الجبور» وهذا عنبر « المشاهدة» وهذا عنبر « الجنابات» وهى أسماء لعشائر سنية .. ويتم زج الضحية إلى داخل العنبر دون مراعاة لمساحته وإذا كان يحتمل المزيد من النزلاء أم لا ويتم توزيع أسوأ أنواع الخبز كطعام مع زجاجة مياه صغيرة لكل ثلاثة معتقلين فى اليوم .. بينما تجرى عمليات الاستجواب المصحوبة دائما بتعذيب أمام أعين المعتقلين ولا يتوقف التعذيب حتى الحصول على اعتراف مكتوب .. وغالبا ما يجرى كتابة الاعتراف ليقوم المعتقل بتلاوته أمام كاميرا أعدت خصيصا لغرض عرض تلك الاعترافات وقت الحاجة على شاشة التلفاز .

ويقول « أبو شهاب» أن أى معتقل يتمنى الخلاص بأى طريقة من فرط التعذيب وهو ما يفسر هذا الكم من الاعترافات المنظمة التى كنا نشاهدها بشكل

يومى على شاشة القناة الرسمية العراقية وان كنا نعتقد أن جزءا منها حقيقى وأن بعض من يتم عرض اعترافاتهم هم بالفعل مجرمون حقيقيون وليسوا على شاكلة « أبو شهاب» ضحية المخبر السرى .

أما كيف انتهت مأساة « أبو شهاب» على خير دون أن تتطور إلى حد الاعتقال المفتوح أو الموت من التعذيب أو القتل المباشر .. يقول أن زوجته الشيعية الطيبة كانت السبب المباشر فى إنهاء الأزمة بأسرع وقت وبأقل خسائر حيث تنتمى لعائلة تضم عددا من القيادات الأمنية وتمكنت من خلال علاقات ذويها فى الوصول إلى المكان المحدد لاعتقاله وهو أمر لا يتم بسهولة بسبب عدم وجود بيانات واضحة أو غياب سجلات المعتقلين فى أحيان كثيرة .. وبعد حوالى شهرين تم إطلاق سراح « أبو شهاب» وانتهت مأساته دون أن تنتهى من ذاكرته المشاهد المروعة التى اختزنها رغم مرور حوالى ثلاثة أعوام ويؤكد أنها لا يمكن أن تذهب إلى زوايا النسيان .. كما أن جريمة المخبر السرى سوف تظل ماثلة أمامه لتؤرخ أياما قاسية عاشها فى زمن المذبحة .

٣٣ - دم البرىء.. Sorrry Madam

رغم أن وقائع تلك القصة لا تشمل المرحلة الزمنية التى حاولت تغطيتها فى هذا الكتاب والتى امتدت خلالها مهمتى الصحفية منذ منتصف يوليو عام ٢٠٠٦ إلا أننى تحمست لمعرفة تفاصيلها المرعبة والفاجعة فى نفس الوقت لارتباطها بشكل مباشر بقضايا المخبر السرى والجرائم التى تسبب فيها عناصر هذا النظام المريب الذى أقره حكام العراق الجدد من الأمريكيين والعراقيين على حد سواء .

جرت وقائع تلك القصة ليلة الجمعة والسبت يوم ١٧ – ١٨ أكتوبر عام ٢٠٠٤ فى تمام الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل عندما داهمت قوات أمريكية منزل العقيد الركن «عامر محمود فرحان العبيدى» الذى كان قد استقال من الجيش العراقى قبل حوالى خمسة أشهر من بدء الغزو الأمريكى .. حيث قامت القوة الأمريكية المهاجمة بكسر أقفال المنزل مترافقة مع عملية إنزال جوى فوق سطح المنزل وعند خروج العبيدى من غرفة نومه على وقع الأصوات التى أيقظت أهله فتح الجنود الأمريكيون نيران أسلحتهم عليه بشكل كثيف وأردوه قتيلا وأصابوا نجله الطفل واعتقلوه ثم واصلوا المهمة المريبة لينهالوا بالضرب على الزوجة حتى نزف الدم من جسمها ونزفت الدموع من عينها هلعا على مشهد الزوج الذى سقط مضرجا بدمائه بعد أن ثقب الرصاص جسده .

روت لى الزوجة التى لم تجف دموعها حتى الآن وتدعى سندس حميد اللامى

وهى الشيعية التى تزوجت من سنى وأقامت فى منطقة سنية أيام الخير عندما كان الحديث عن الطائفة سنية كانت أو شيعية أمراً غير مقبول كيف انتهك الأمريكيون رافعوا راية الحرية والعدل ستر بيتهم البسيط ومنعوها من وضع غطاء على رأسها وهى العراقية المحافظة وكيف هرع الجنود « المحررون» ليسطوا على خزائن المنزل ويأخذوا كل ما تطال أياديهم الملوثة بدماء الزوج الذى رحل دون أن يعرف بأى ذنب قتل / حلى ذهبية .. أموال عراقية .. دولارات أمريكية .. عطور .. ملابس حتى حصالات الأطفال الخمسة حيث كانوا يحتفظون ببعض نقودهم الصغيرة.

صرخت الزوجة الملكومة وحاولت أن ترتمى فى أحضان زوجها القتيل لآخر مرة ربما تحتفظ ببعض الدفىء الذى يعوضها عن فقدانه بعد أن يغيب إلى الأبد وهى الزوجة الشابة التى لم يلامس عمرها بعد نهاية العشرينات إلا أن أحد عناصر القوة المهاجمة ضربها بإخمص البندقية وداسها بحذائه الغليظ وحال بينها وبين الضحية المضرجة بدمائها رغم أن المسافة بين الزوجين لم تكن تزيد على المترين وذلك إمعانا فى تعذيب من بقى على قيد الحياة من هذه الأسرة المنكوبة الذى استحال هدوء أيامها إلى عاصفة هوجاء اقتلعت رب الأسرة من أحضان الزوجة الشابة والأبناء الخمسة .

تقول سندس أنه بعد حوالى ساعتين من الأهوال التى بدأت بقتل الزوج البرىء جاء مترجم أدار الحوار بين أسرة الشهيد وقائد المجموعة المهاجمة حيث أكدت لهم أن زوجها لا علاقة له الآن بنظام صدام حسين وأنه ذهب بنفسه إلى مقر القوات الأمريكية المتواجد بالمنطقة وحصل على كتاب «شهادة» تثبت عدم مشاركته فى عمليات المقاومة وأحضرت صورة تلك الشهادة التى قرأها قائد المجموعة الأمريكية وتأكد من صحتها ولهذا ترك الجثة ولم يأخذها عند انسحاب القوة وقال لها بأعصاب باردة ، يبدو أن المعلومات التى قمنا على أساها بتنفيذ العملية كانت خاطئة ونعتذر عن قتل الضحية !! « Sorry Madam»

فسرت لى الزوجة المكلومة الأمر « لقد كانت وشاية من شخص ساقط يقوم بدور المخبر السرى للأمريكان يدعى «فارس عزاوى زعيتر» بعد أن منحوه محلا صغيرا يمارس فيه مهنته الأصلية وهى إصلاح كاوتشوك السيارات أو ما يسميه العراقيون « بنجرجى» ، قالت سندس أن هذا المجرم الذى لقى جزاءه العادل على أيدى اسياده من الأمريكان بعد آن تعددت وشاياته الكاذبة كان يحصل على ٤٠ دولاراً فقط نظير كل قصاصة ورق قاتلة يكتب عليها وشايته التى غالبا ما تؤدى إلى قتل أحد الأبرياء » .

بعد أن استعادت سندس عافيتها بعض الشيء مما أصابها من أمراض جراء حملة الرعب والترويع التى تلقتها مع أسرتها الصغيرة من القوة الأمريكية المهاجمة التى نفذت جريمتها بدعوى شكوك حول دور لزوجها فى عمليات المقاومة دون التأكد من تلك المعلومات احتضنت الأرملة المكلومة أطفالها الخمسة لترتسم لديها صورة عما يعانيه الأيتام وعرفت معنى أن تمس يدها الحانية طفلا بريئا فقد أبا بريئا وأن تدغدغ مشاعر أطفال فى عمر الزهور لتعوضهم بعض الشيء عن فقدان عائلاتهم بلا سبب معقول .

أسست سندس دارا للأيتام تضم ٧٥ طفلا ويتردد عليها حوالى ٤٥٠ طفل ممن فقدوا آبائهم على أيدى قوات الاحتلال الذين تتراوح فئتهم العمرية بين الصف الأول إلى السادس الابتدائى إلا أن مشروعها مازال يحتاج المزيد من العون شعبيا ورسميا حتى يكتمل وتعم فائدته النفسية والعلمية على منتسبيه من أيتام زمن المذبحة .

مازالت سندس الزوجة الشابة المكلومة تتساءل عن حقها وحق أطفالها الخمسة ومن يعوضها عن كل ما جرى ؟؟ تتساءل «حتى وإن حصلت على تعويض عادل وفقا لما تسوقه الولايات المتحدة عن أنها دولة راعية لحقوق الإنسان وأنها جيشت الجيوش لتنهى حكم صدام الديكتاتور وتنشر الديمقراطية فمن يعوضنا عن دم البرىء .. حينها سوف أعتذر عن شكوكى فى العدالة الأمريكية وأرد كلمة الجنرال الأمريكى الذى اعتذر عن قتل زوجى لإساءتى الظن به وأقول له « Sorry General» .

٣٤ - الشبح

ذات مرة تعرفت على شخصين حضرا لتأجير شقة فى العمارة التى كان يقع بها مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط قدما نفسيهما على أنهما ضابطان فى وزارة شئون الأمن الوطنى وهى وزارة ليس لها هوية توازى ما تقوم به أجهزة المخابرات وكان كل منهما يحمل هوية تشير إلى أن رتبته مقدم وكان يبدو عليهما علامات الثراء وينتميان إلى عشيرتين كبيرتين ويستقلان سيارات فارهة .. وعندما أصبحا جيرانًا لى علقا اسما وهميا لشركة وهمية على باب المكتب الذى كان وكراً للملذات والسهرات الحمراء .. فى إحدى المرات وجها الدعوة لى لعشاء يحضره أشخاص مهمون يريدون أن أتعرف عليهم كان بينهم رجل مسن يدعى دكتور نورى قالوا أنه كان سكرتيرا شخصيا للدكتور إياد علاوى رئيس الوزراء الأسبق ومسئول بوزارة التجارة يدعى باسم صدام وبعض كبار التجار والغريب أن بين الحاضرين شخصا قدموه لى على أنه شقيق مشعان الجبورى النائب السنى

البارز صاحب قناة الزوراء التى أجبر على إغلاقها بعد تدخل ذوى النفوذ من حكام العراق الجديد وخاصة قيادات التيار الصدرى والمجلس الا على باعتبارها قناة تحريضية تفضح جرائم فرق الموت والميليشيات وتروج للمقاومة السنية ولم تكن هناك وسيلة متاحة للتأكد من هوية الأشخاص الذين حضروا ذلك العشاء إلا من خلال تأكيدات شخص كان يقيم بالمكتب يحمل هوية نقابة الصحفيين العراقيين ويصدر جريدة « تابلويد» اكتشفت فيما بعد أنه مصور أفراح وإن كانت هوية نقابة الصحفيين التى يحملها حقيقية وصادرة من النقابة التى يحمل هويتها المئات وربما الآلاف ممن لا ينتمون إلى المهنة العريقة والنقابة العريقة كصورة واضحة للخلل الذى أصاب شتى مناحى الحياة بالعراق الجديد خاصة فى زمن المذبحة .

ومن خلال الحوارات التى دارت أثناء العشاء وبعده اكتشفت حقيقة الرجلين وما هما الا مخبرين سريين مدعومين بأسماء عشائرية كبيرة ويمارسان الابتزاز فى أفظع صوره ويديران صفقات مشبوهة من خلال وكر الملذات الموجود تحت عنوان وهمى فى العمارة التى أعمل وأقيم بها .. ويبدو أن توجيه الدعوة لى الذى كان يهدف إلى كسب ثقتى كان بداية كشف خطوط كثيرة فى عالم المخبر السرى بطريقتى الصحفية البسيطة التى لا تعطى أى انطباع بالاهتمام أو القلق مما أعرف من معلومات .. وهو ما جعلهم يكررون دعوتى لعزائمهم وأكرر أنا الموافقة والحضور حتى لا يظهر القلق كحجر عثرة فى سبيل علاقة ناشئة بفعل الجوار والرغبة الحصول على فيزا إلى مصر وهى الحلم الذى يراود آلاف العراقيين باعتبارى الصحفى المصرى الوحيد المتواجد بالعراق فى تلك الفترة من زمن المذبحة بعد أن قطع مراسل الأهرام مهمته لمدة عام تقريبا.

وبسبب عامل الثقة الذى تمكنت من زرعه فى قلب « رعد» و« وجاسم» كانا يرويان لى الكثير خاصة فى لحظات الصفاء التى تتبع نشوة الوصول إلى مرحلة السكر بفعل الويسكى الذى كان يأتى إليهم بالجملة وليس مفردا من خاطبين للود وراغبين فى الستر وخائفين من الغدر وطامعين فى قضاء أمر خاصة إذا كان غير شرعى .

قال لى « رعد » ذات مرة وقد غلبته نشوة الخمر « إن المتهم الذى يكون محل التقرير لا يستطيع إثبات براءته لأن الشخص الذي وجه له الاتهام عبارة عن شبح » .

سألته من أين يستمد قوته قال « أن الجميع يحتاجون إلى خدماتنا بما فيهم قادة جيش المهدى نفسه وسوف أثبت لك هذا عندما أصحبك غداً إلى التظاهرة المليونية التى دعا إليها السيد مقتدى فى ساحة الفردوس فنحن من يقول كيف

كانت ومن الذى غاب أو حضر وكيف كان آداؤه » .

ويبدو أن حالة القلق كانت تنتاب « جاسم» الذى شعر بأننى عرفت أكثر مما ينبغى رغم تظاهرى بالعكس وهو ما جعل بوادر شر تلوح فى أفق تلك العلاقة بعد مرور عدة أشهر وتسلل الرعب إلى نفسى مما دفعنى إلى البحث عن مخرج من تلك العلاقة وتلك المنطقة بالكامل وهو ما تحقق لى عندما قرر مالك العمارة الجديد رفع أسعار الإيجارات وهو مبرر كاف لأن توافق الوكالة على الانتقال إلى مقر آخر أقل تكلفة بالنسبة لهم وأكثر أمنا بالنسبة لى بعيدا عن سطوة المخبر السرى قبل أن تنالنى بعض من شروره .

وتروي «أم علي» قصة ابنها (١٩ عاما) عندما خضع لاستجواب مطول حول تجارته بالأسلحة .. وتقول إنه اعتقل بعد مشاجرة مع أحد الطلاب الذي يعمل والده ضابطا في الشرطة، إذ هدده بشكل علني بإيداعه السجن. وفي الليلة ذاتها دهمت قوة من الشرطة مسكنها واقتادت أيمن من فراشه وسط ذهول العائلة.

وتؤكد أنها اضطرت إلى الذهاب إلى منزل الواشي والاعتذار من والده والتعهد بنقل ابنها إلى مدرسة أخرى فتم الإفراج عنه.

أما زهراء عبد الرضا فعاشت تجربة مريرة عندما اكتشفت أن أحد تلاميذ زوجها المدرس في منطقة بغداد الجديدة هو الذي قدم تقريرا عن مدرسه واتهمه بإيواء الإرهابيين.. وتقول إن عائلة الصبي كانت على خلافات عائلية معها وأن التلميذ اتهم زوجها في تقرير سري بإيواء العناصر الإرهابية فكانت النتيجة اختفاء الزوج منذ أربع سنوات وتؤكد أنها اكتشفت هذا الأمر صدفة عندما بدأت البحث عن زوجها في المعتقلات.

وتقول إن المخبرين السريين يعملون بطريقة مشابهة لتلك التي كان يعمل بها البعثيون السابقون، عندما كانوا يقدمون تقارير كيدية للحصول على ترفيع وظيفي أو مكافأة نقدية.

وتضيف أن عدداً كبيراً من المواطنين تعرضوا للاعتداء والتجاوز والاعتقال والحبس بسبب وشايات كاذبة ومغرضة قام بها المخبر السري وعاشوا معاناة لا يمكن تصورها جراء تبليغات كاذبة وردت الدوائر الأمنية من مخبرين سريين وهناك مواطنون تعرضوا للتسليب المالي وبعضهم يشعر بالإحباط لأن اسمه وسمعته اهتزت جراء وشاية كيدية.

وتقول «إن الجريمة تبحث عن أي منفذ لتحقيق أغراضها في استلاب الناس حقوقهم وراحتهم والكثير من المواطنين من أصحاب المال والمهن الحرة يكونون هدفاً

لمثل هذه المؤامرات والاتفاقات التي ينجـر لهـا ذوو النفـوس المريضـة والمجرمـون المنخرطون في صنوف القوى الأمنية، ويتعرضون للإهانة والاعتقال من جراء المخـبر السري، ولا تنتهي القضية حتى يتم امتصاص مبالغ كبيرة من(المتهم) زوراً وبهتاناً.

وقد أشار تقرير أصدره مرصد الحقوق والحريات الدستورية الذي يرعاه عضـو مجلس النواب السابق حسين الفلوجي أن حوالي عشرين ألف حالة اعتقال جـرت خلال عام واحد اغلبها كانت عن طريق معلومات يقدمها المخبر السري.

وأكد المرصد في تقريره ضرورة الالتزام بمحاسبة كل من يقدم معلومـات إلى الأجهزة الأمنية تثبت التحقيقات أنها كيديـة والالتـزام بـالتعويض (المـادي والمعنوي) للمتضررين الأبرياء، سواء من جرى اعتقاله وثبتت براءته، أو من لقـي حتفه أثناء تنفيذ الاعتقال أو في السجن ثم ثبت أنه كان بريئاً .

وأشار مرصد الحقوق والحريات الدستورية إلى أن الحكومـة شـنت عمليـات عسكرية أسهمت في استتباب الأمن والقضاء على أوكار الإرهابيين، لكـن تلـك العمليات العسكرية رافقتها انتهاكات شديدة لافتة للنظر، متمثلة بالعديد مـن عمليات الاعتقال العشوائي حيث استندت الحكومة في أغلب اعتقالاتها إلى تقارير استخبارية تعتمد بدورها على تقارير مخبرين سريين وأن كثيراً من الأبرياء جرى اعتقالهم استناداً إلى هذه التقارير التي تشوبها الأخطاء وعدم الدقة والكيدية .

وذكر المرصد في تقريره أنه لاحظ ووفق معطيات وقرائن عدة، أن الحكومـة لم تجر مراجعة تقويمية لظاهرة المخبر السري، ولم تأخذ بنظر الاعتبار أهلية هـذا المخبر وصدقه، ولم تتشدد في فرض معايير رصينة يتم الاحتكام إليهـا في اختيـار المخبر السري (السمعة الحسنة والسجل الجنائي النظيـف والصـدق والأمانـة والالتزام الديني والاجتماعي، والولاء الوطني غير المشوب بشبهة التحزب والطائفية والعنصرية)، نظراً لأهمية الدور الذي يقوم به وتأثيره (سلباً أو إيجاباً) على الأفراد والمجتمع وانعكاسه على أداء الأجهزة الأمنية ومسارات تحقيق العدالة .

ولاحظ المرصد، أيضاً، أن الأجهزة الأمنية لم تتخذ السبل الكفيلة في التحري عن حقيقة المعلومات الواردة لها، مكتفية بإلقاء القبض على ماتسميهم (المشتبه بهم تبعا لتلك التقارير) ووضعهم في السجون لشهور انتظارا لعرضهم على قضاة التحقيق .

وجاء في التقرير أن المرصد، يأخذ على الحكومة والأجهزة الأمنية والجهات المعنيـة الأخرى، لاسيما وزارتي حقوق الإنسان والعدل واللجان المختصة في مجلس النواب، عدم تعاطيها بمسؤولية مع كثير من تقارير المرصد السابقة التي أشـارت بفصـاحة إلى زجّ العديد من المواطنين الأبرياء في السجون جراء وشايات كاذبة وتهم كيدية وإخبـارات

ملفقة قام بها مخبرون سريون بهدف تصفية حسابات شخصية أو عائلية أو انخراطاً في إملاءات ترمي إلى تكريس الاحتقان الطائفي والعرقي وزرع البغضاء والأحقاد بين أبناء المدينة الواحدة أو المنطقة أو الحي أو بين العشائر أو أبناء العشيرة الواحدة .

٣٥ - ضباط « الحواسم»

فى عراق ما بعد ٢٠٠٣ صار كل شيء ممكنا .. حلقات متوالية من الإجراءات والممارسات شكلت سلسلة طويلة من الأخطاء الاستراتيجية القاتلة تبعتها أخطاء بمثابة النتيجة الطبيعية الا أن عملية حل الجيش العراقى وتسريح كافة عناصر الأجهزة الأمنية كان الضربة القاسمة والمعول الرئيسى لهدم منظومة إدارة الدولة التى استقرت رغم تقلب الحاكمين .. وكان ضروريا تشكيل قوات من الجيش والشرطة والأجهزة الاستخبارية من عناصر النظام الجديد وهو الأمر الذى شهد ممارسات لا يصدقها عقل وإن كانت تبدو طبيعية فى زمن المذبحة .. كان من تلك الممارسات التى أدت إلى تسهيل الانهيار الأمنى هو ما بات يعرف بقرار دمج الميليشيات مع أجهزة الأمن، الذي أصدره مجلس الوزراء إبان فترة حكم رئيس الوزراء إبراهيم الجعفرى الذى كان يتزعم حزب الدعوة الإسلامية قبل أن يزيحه نورى المالكى من مقعديه رئاسة الوزراء والحزب أخيراً .. وأسهم هذا القرار فى ضم غالبية من عناصر الشرطة والمدنيين الذين ينتمون إلى قوات «بدر» الجناح العسكرى للمجلس الأعلى الإسلامى وحزب الله – تنظيم العراق بزعامة الشيخ عبدالكريم ماهود و المؤتمر الوطني بزعامة الدكتور أحمد الجلبي.

فتح هذا القرار الباب واسعا إلى عمليات إدخال رفاق السلاح ومن يواليهم من عصابات إلى أجهزة الأمن الرسمية من شرطة وجيش واستخبارات ليعملوا بغطاء رسمى من الدولة العراقية بينما يكون ولاؤهم لمن ولاهم تلك المناصب بعد منحهم الرتب التى تصل إلى لواء بمن فيهم رجل وزارة الداخلية القوى « الوكيل الأقدم»ع.أ.

وإذا كان القرار كما يقول أصحابه بمثابة درء خطر الميليشيات ودمجها فى القوات الرسمية حتى تتوجه أسلحتها إلى صدر الجريمة إلا أن الأمور سارت على الأرض على عكس ذلك تماما وأصبح الحصول على رتبة ملازم فما فوق وتولى منصب رفيع فى الأجهزة الأمنية مرتبط بالولاء وليس فقط الانتماء إلى أحد الأجنحة العسكرية التى يقول قادتها أنها حملت عبء الجهاد ضد الديكتاتورية وهو الأمر الذى خلق حالة من عدم التوازن داخل تلك الأجهزة وجعل مرجعيتها لا تعود إلى الوزير أو حتى رئيس الوزراء خاصة خلال أعوام ٢٠٠٥ وحتى أوائل ٢٠٠٨

وهو ما أظهرته الحملات الأمنية التى أمر بتنفيذها رئيس الوزراء نورى المالكى والتى فوجىء قادتها من المهنيين أنهم يحاربون بظهر مكشوف ولا يستطيعون إصدار أمر بالقتال ضد الميليشيات التى كانت تحكم محافظات بالكامل مثل البصرة التى كاد وزير الداخلية أن يلقى مصرعه فيها عندما ذهب للأشراف على عملية صولة الفرسان .. فيما تمت محاصرة رئيس الوزراء نفسه وقتل أحد مستشاريه لولا تدخل القوات الأمريكية التى قلبت المعادلة وتمكنت من فرض سيطرتها لتحل القوات العراقية فيما بعد محلها منتصف العام ٢٠٠٨ .

وقد تسبب من يسمون في قوات الشرطة والجيش بضباط الدمج فى كثير من المشاكل وحالات ارتباك في صفوف قوات الأمن، لا سيما في محافظات تسلمت فيها القوات العراقية الملف الأمني مبكراً لأن افتقار هؤلاء الضباط إلى العلوم العسكرية بسبب عدم انتسابهم إلى الكليات العسكرية جعل منهم عبئاً على قوات يفترض بها أن تبسط الأمن في محافظات تتنازعها تيارات إسلامية تحاول الاستئثار بالسلطة والنفوذ والثروات.

وتشير التقارير إلى أن رئيس الوزراء السابق الدكتور «إبراهيم الجعفرى» دمج حوالي ١٥ ألفاً من عناصر الأحزاب والميليشيات في شرطة بغداد ومحافظات الفرات الأوسط والجنوب الذين لا تنطبق على الغالبية العظمى منهم شروط اللياقة البدنية التي تفرضها المؤسسات العسكرية في العالم، فضلاً عن أنهم لا يجيدون القراءة والكتابة ومُنحوا رتباً عسكرية كبيرة.

وتسبب دمج هؤلاء الضباط فى خلق أجواء من التوتر بينهم وبين ضباط حصلوا على شهادات عسكرية

ويروى لى ضابط شرطة فى إحدى المحافظات أنه تم تبليغه بانتقال ضابط أعلى رتبة منه ليتولى قيادة مديرية الشرطة وفوجىء بأن هذا القائد هو الساعي العامل في خدمته، الذى كان يقف دائماً أمام باب مكتبه يقدم الشاي إلى الضيوف، وينظف حذاءه وغير ذلك من الأمور الخدمية لكنه أصبح يحمل رتبة مقدم فقط لانتمائه إلى أحد الأحزاب المتنفذة في الدولة.

وهذه الحال لم تحصل مع صديقى فقط بل مع عشرات الضباط الذين يحملون شهادات عسكرية وفوجئوا بقرار دمج الميليشيات الذى جاء بمئات بل آلاف الضباط فى الشرطة والجيش لا يحملون شهادات دراسية ويفتقرون إلى العلوم العسكرية بسبب عدم انتسابهم إلى الكليات العسكرية والشرطة.

وتشير تقارير إعلامية وتصريحات منسوبة إلى أعضاء برلمان أن هناك مناصب

حكومية وإدارية ومهنية حُجزت بأسماء موجودة خارج العراق، وجرى انتظارهم حتى أنهوا أعمالهم هناك، ومن ثم جاءوا كي يتسلموا مناصب حُجزت بأسمائهم ومنهم شخص كان يمارس مهنة البقالة في الدنمارك، تولى مهمات منصب وكيل إداري أو المسؤول الإداري في وزارة الداخلية.

وكانت لي عدة تجارب مع ضباط الدمج خلال مهمتى بالعراق بدءاً من ضابط يقف فى إحدى نقاط التفتيش حار فى قراءة هويتى التى تمنحها القوات الأمريكية للإعلاميين بهدف تسهيل دخولهم إلى المنطقة الخضراء حيث مقر الحكم والسفارات الهامة وهى مكتوبة باللغة الإنجليزية وبادرنى بسؤال عرفت من خلاله أنه لا يجيد حتى القراءة والكتابة « هل هذه هوية مجلس وزراء؟» قلت له نعم فابتسم وسمح لي بالمرور.

أما الحكاية المثيرة كانت مع شخص من ذوى السطوة والنفوذ فى إدارة الجنسية يدعى المقدم ماهر اصطحبنى إليه شخص كنت قد تعرفت عليه فى احد المؤتمرات داخل فندق الرشيد وقدم نفسه على أنه رئيس تحرير وصاحب امتياز لجريدة تدعى « أخبار اليوم» وكنت وقتها أعانى من مشكلة عدم تجديد إقامتى الرسمية رغم انفراج الأوضاع بعض الشيء على المستوى الأمنى .. قال لي أن الأمر لا يتطلب أكثر من ٥٠٠ دولار وتحصل على الإقامة عن طريق « المقدم ماهر» .

رغم خطورة الدخول إلى المصالح الأمنية وافقت على الذهاب معه بعد أخذ الاحتياطيات اللازمة ومنها إبلاغ أصدقاء لي بمكان تواجدى بصحبته .. كان يحمل ملفا كبيرا به عدد من المستندات والوثائق الرسمية والمزورة تعود لأشخاص عرفت فيما بعد يريدون استخراج جواز السفر الجديد الذى أصبح معتمدا ومع كل ملف ٥٠٠ دولار تسلم إلى المقدم ماهر وكان دور هذا الشخص « صاحب جريدة أخبار اليوم» هو تزكية الطلب بخطاب عليه رمز الجريدة وخاتمها باعتبار أن صاحب جواز السفر يعمل فى تلك الجريدة ويقتصر دور المقدم ماهر على تمرير تلك المستندات بدون الحاجة إلى هوية نقابة الصحفيين العراقيين التى من المفترض أن تكون مستندا رئيسيا لاستخراج مثل هذه الجوازات التى كان أصحابها يتنوعون ما بين سائقين وسيدات بلا مهنة وغير ذلك من النماذج التى لا يفترض أن تستخرج جواز سفر بهذه السهولة وفى خلال يوم واحد .. لكن هذه بركات المقدم ماهر.

اصطحبنى المقدم ماهر لتفتح له أبوب كثيرة لا تقل رتبة من يجلس خلفها عن عقيد إلا أنهم جميعا يؤدون التحية لسيادة المقدم الذى دفعنى الفضول

للتساؤل عن ماهيته لأكتشف أنه أحد عناصر قوات بدر وهو أكثر نفوذا من أى شخص آخر مهما كانت رتبته.

وبعد عدة حوارات مع مسئولين بمديرية الجنسية العامة خاطبنى المقدم ماهر قائلا «» موضوعك يم حاجى أبو دعاء « بمديرية الإقامة وعندما توجهت إلى مديرية الإقامة اكتشفت أن «حاجى أبو دعاء » لا يحمل أى رتبة عسكرية واضحة إنما هو الكل فى الكل بمديرية الإقامة حتى أن مدير قسم العرب المقدم هادر العنبكى الذى تمت تصفيته فيما بعد بعبوة ناسفة من النوع اللاصق بسيارته لابد أن يقدم التحية لهذا الحاجى قبل دخوله إلى مكتبه .

دفعنى الخوف والقلق من ملابسات الموضوع لأننى صحفى ومصرى ومازالت المخاطر تحيط بى مثل أى صحفى يعمل بالعراق إلى الانسحاب فورا من مديرية الإقامة لأظل بلا إقامة رسمية عدة اشهر أخرى حتى حصلت عليها بشكل رسمى مع صدور أوامر بضبط الإجراءات للمواطنين العرب تزامنا مع هدوء نسبى امتازت به الأشهر الأخيرة من العام ٢٠٠٨ وبدايات العام ٢٠٠٩ .

ورغم انتهاء الولاية القانونية للحكومة الثالثة فى عراق ما بعد الاحتلال الأمريكى إلا أن عمليات الدمج مازالت تجرى على قدم وساق مع تأكيدات من القائمين عليها أنها تتم فى إطار قانونى يبتعد عن المجاملات المبالغ فيها خاصة بعد عمليات التطهير التى طالت أكثر من ٢٠ ألفا من منتسبى وزارة الداخلية خلال السنوات الماضية وبإعلان رسمى من قبل الحكومة العراقية باعتبار أن أخطاء ارتكبها هؤلاء الضباط والمنتسبون بدءاً من تزوير الشهادات الدراسية مرورا بعمليات الفساد وتسهيل مهام المجموعات المسلحة لارتكاب أعمال إرهابية.

٣٦ - سوق مريدى

لا يكتمل الحديث عن ضباط الدمج وتصرفاتهم المشينة فى كثير من الأحيان ونشاطات التزوير خاصة فى الوثائق الرسمية والدراسية بل والشهادات العلمية دون الحديث عن المكان الأشهر والسوق الأكبر لهذه الممارسات .. فى هذا المكان يمكنك أن تنشىء جامعة بأكملها بخريجيها وأساتذتها وطلابها .. يمكنك أن تنشىء أى إدارة بموظفيها ورؤسائها ومديريها من خلال الوثائق المزورة باتقان مذهل .

وقد عرف «سوق مريدي» وسط مدينة الصدر فى السابق وطوال سنوات مديدة، بتسويق السلع المستعملة أو صناديق الخضروات والفواكه واللوازم البيتية وغالبا تلك المسروقة .. وعند زيارتى الأولى للعراق نهاية عام ٢٠٠٢ أخبرنى زميل لى أن

أى شيء مسروق يمكن لصاحبه أن يشتريه بقليل من المال إذا أعطى أوصافه لعرابى سوق مريدى .

في «سوق مريدي» كان الزبائن ولا يزالون يجدون كل ما لا يستطيعون الحصول عليه من الدوائر الحكومية.. شهادات تخرج جامعية وهمية، .. وثائق ملكية لمساكن وعمارات لا وجود لها، .. قرارات محاكم، ..وثائق تعيين، ..وثائق إعفاء، ..وثائق نقل، .. وثائق فصل / الأحكام العشائرية/ .. جوازات سفر ..عقود زواج ..مضابط بيع وشراء.. أوراق تعريف من سفارات ومن مراكز شرطة ومن شركات ووكالات ..مراجع ومعاهد لا ترصدها العين ولا تكتشفها سجلات ..وثائق ناجزة لأموات مستعدين للإدلاء بأصواتهم، .. أسماء أفراد عائلات تتناسل بطريقة شيطانية .. بطاقات تموينية لأسماء وهمية، ..أوراق تصويت تدخل إلى قلب صناديق الاقتراع بدون استئذان.. سجلات حية لسكان بلدات وقرى غمرتها المياه منذ زمن بعيد .

عندما تتجول في «سوق مريدي» ، وسط مدينة الصدر، وتسأل بعض التجار حتى تعرف سهولة الحصول على وثائق رسمية، إذ لا يحتاج الأمر إلى أكثر من ساعات معدودة وبعضها جاهز للتداول وبأسعار تناسب الجميع.

ورغم أن شهرة سوق مريدي فاقت شهرة غالبية أسواق التزوير في العراق، إلا أنها الوحيدة التي تلبي حاجة «المستهلكين» بسرعة حيث يمتلك من يمارسون هذه المهنة الأختام الخاصة بجميع الدوائر في بغداد وباقي المحافظات، ولا يستغرق استخراج الوثائق الرسمية البسيطة، مثل «الجنسية وشهادة الجنسية» / وهى تعادل البطاقة الشخصية فى مصر / أكثر من نصف ساعة وبتسعيرات ملائمة للجميع، تتراوح بين ٧ و٢٠ دولاراً، أما الجوازات الرسمية فتختلف باختلاف الفئة، فالجواز من الفئة (سي C) لا يكلف أكثر من ١٠٠ دولار، أما الجواز من فئة (جي G) فتسعيرته تصل إلى ٣٠٠ دولار ويعود ارتفاع سعر الأخير إلى صعوبة الحصول على نماذج منه من الدوائر الرسمية على عكس جوازات الفئة(أيه A) التي يسهل الحصول عليها وباتت غير معتمدة فى كثير من الدول لأنه يحتوي على لغة كردية.

ولا يقتصر نشاط السوق على تزوير الأوراق والوثائق الرسمية، بل يمتد ليشمل الشهادات والوثائق الرسمية الجامعية ولطالما خرج السوق طلاباً وأساتذة يفوق عددهم بكثير أولئك الذين خرجتهم الجامعات الرسمية في العراق .. حيث يلجأ غالبية الشباب إلى استخراج الشهادات المزورة قبل سفرهم بحثاً عن العمل، فيما يستخرجها آخرون للحصول على فرص التوظيف في دوائر ومؤسسات الدولة

بتزكية بسيطة من أى كادر فى أى حزب من حكام العراق الجدد .

وتختلف أسعار الشهادات بين جامعة وأخرى، كما تختلف من درجة إلى درجة. فشهادة البكالوريوس تنحصر أسعارها بين ٧٠ و١٠٠ دولار، أما شهادة الماجستير فتراوح أسعارها بين ٣٥٠ و٥٠٠ دولار، فيما تصل أسعار شهادة الدكتوراه إلى ٧٠٠ دولار ولا تختلف تلك الشهادات عن مثيلاتها الرسمية بأى شيء، لكنها ليست مسجلة في الدوائر واكتشافها يتم بسهولة كبيرة في حال الاستفسار عن صحة صدورها من تلك الدوائر وهناك صعوبات كبيرة في كشف الوثائق والشهادات التي يتم استخراجها للسفر أما تلك الشهادات التى تستخدم فى الداخل للحصول على وظائف فقد وجد المزورون المرتبطون بجهات رسمية وسيلة جيدة لطمس معالم التزوير إلا أنها تكلف الكثير من المال وهى الاتفاق مع موظفين فى إدارات المعلومات التكنولوجية « الحاسبة» فى الجهة أو الجامعة المقصودة ومن ثم يتم إدخال بيانات المزور بشكل رسمى فى جهاز الكومبيوتر الخاص بتلك الدائرة أو الجامعة وهو ما يجعلها رسمية تماما ولا يمكن إثبات تزويرها إلا عبر سلسلة طويلة من الإجراءات لا تتم غالبا لأن من يملك إدخال بيانات مزورة إلى الحاسبة خاصة حاسبة دائرة الجنسية مثل المقدم ماهر الذى ورد ذكره سابقا يمكنه بسهولة الحفاظ على سرية هذه المعلومات ومنع أى يد يمكن أن تصل إليها لاحقا سواء بالتهديد أو الوعيد .

وفي زيارة لي إلى « سوق مريدي» عرفت بوجود مكاتب خلفية يديرها رجال يملكون مهارات مذهلة في التزوير كما يملكون سجلات أسماء خطيرة عن أهم مسؤولي الدولة ورؤساء المحاكم ومدراء الشرطة والوزراء الجدد وعمداء الجامعات وزعماء الأحزاب وأئمة المساجد ونماذج من تواقيعهم، وقد شهدت بنفسي صفقة بين صاحب أحد المكاتب وزبون كان يريد الحصول على أطروحة مكتوبة يقدمها إلى احد المعاهد لينال بها شهادة عالية تؤهله لاحتلال وظيفة مرموقة.

قال لي مرافقى الطبيب « أستاذ أبو أياد» .. لو تريد تصير طبيب عراقى وفى أى تخصص وبشهادات رسمية وجواز سفر عراقى أنا حاضر .. لكن عليك أن تجيد اللهجة العراقية حتى لا ينكشف أمرك».

٣٧ - الاختطاف

فى أول أيام مهمتى المقدسة فى العاصمة المشتعلة بغداد زارني صديقان عراقيان كنت قد تعرفت بهم خلال مهمتى الأولى قبل الاحتلال الأمريكى للعراق

عام ٢٠٠٣ .. جاء الصديقان الطيبان رغم مخاطر الطريق ومشاعر الخوف التي كانت تغلف المشهد العراقي في تلك الأيام من عام ٢٠٠٦ .. حمل الشابان هدية غريبة ترحيبا بي كنت أعتبرها سلوكا مريبا منهما إلا أنني تبينت بعد ذلك أنها الهدية الضرورية في زمن المذبحة .. أهداني وسام مسدسا نوع « كلوك» ومجموعة طلقات .. فيما أهداني سلام سكينا كبيرا « خنجر» مع عصا كهربائية / عصا تصدر شحنة كهربائية تصيب بالشلل المؤقت / .. تعجبت من طريقة الترحيب وكيف لي أن أحتفظ بتلك الأشياء في مكتبي وهو مكتب رسمي يجب ألا تشوبه أي شائبة أو تثار حوله الشكوك كما أنني لا أحب استخدام السلاح مهما كانت الظروف بعد أن استقرت في عقلي الباطن مقولة أمي رحمها الله: « أن السلاح به شيطان يزيد الغضب ويقوي عزيمة الشر » .. قال لي وسام: هذا السلاح لن تستخدمه لقتل أحد. وإنما لقتل نفسك .

زادت دهشتي وقلقي وقبل أن أسأله كيف ولماذا ؟ بادرني قائلا « إذا لا قدر الله هاجمك أحد من أي جهة سواء لكونك مطلوبا أو لكونك موجودا بالعراق لا تدعه يأخذك حيا .. أطلق ما استطعت من رصاص حتى يقتلك المهاجمون ولا يأخذونك حيا » !

زادت دهشتي وفغرت فمي ... استمر وسام في الكلام « من الأفضل أن تموت قبل أن تأخذك أي جهة حيا فالموت السريع أفضل بكثير من الموت تحت وطأة التعذيب .. ثم أنك إذا مت وتركوك يمكن دفن جثتك .. أما إذا أخذوك فإنه يمكن ألا تعود أبدا لا أنت ولا جثتك .. ويصير مصيرك جثة مجهولة الهوية تدفن في مقبرة جماعية .. وقبل أن يقتلوك سوف تتعرض لتعذيب لا يمكن تخيله فهم مدربون على التعذيب بل ويتلذذون بآلام الضحية ويشجيهم صراخه .. أنهم فاقوا المغول في الإجرام والوحشية » .

كانت هذه نصائح أصدقاء يخافون عليّ قصوها على مسامعي مع مجموعة من قصص الاختطاف والتعذيب التي يعقبها قتل بعد الحصول على الفدية المطلوبة .. شردت لبعض الوقت أفكر كيف يمكن أن يعيش الإنسان في زمن يكون أمله فيه ليس الحياة وإنما الموت سريعا بدون تعذيب .. وكيف يحتفظ الإنسان بسلاح لا ليدافع عن نفسه بل ليكون استخدامه سببا لإنهاء الحياة والدفن بكرامة .. إلا أنني كنت قد بدأت أدرك بعض معالم تلك الأيام المأساوية وأن ما أسمعه وأعرفه كل يوم سيكون وسيلة ومنهاجا لي للعيش في زمن المذبحة .

تذكرت ما قاله أحمد « العراقي الطيب » عندما شرح لي طريقة الهروب من

المبنى إذا تمكنت من ذلك قبل أن يصل المهاجمون ووجدت الوقت الكافى للمراوغة .. كانت أولى نصائحه لى بعد أن هيأت مقر عملى وإقامتى هى معرفة طريق السلم الخلفى للبناية الذى يوصل إلى سرداب المبنى المجاور لأصعد سوراً خلفياً يلتى بى إلى الشارع الخلفى .. ربما أتمكن من الحصول على مخبأ أو مساعدة لبعض الوقت .

كانت تلك النصائح ضرورية لمعرفة بعض تفاصيل عمليات الاختطاف التى تجرى من داخل البنايات وتكون مخططة وتستهدف شخصا بعينه أما ما عرفته فيما بعد عن عمليات الاختطاف الأخرى فكان أكثر غرابة خاصة عمليات الاختطاف الجماعى التى شاعت فى تلك الفترة من زمن المذبحة .

خلال الفترة من منتصف العام ٢٠٠٦ وحتى بداية العام ٢٠٠٨ كانت شوارع بغداد تتميز عن غيرها من مدن العالم بظاهرة غريبة هى المواكب الممتدة من سيارات الدفع الرباعى ذات الزجاج المظلل باللون الأسود حتى لا يكشف من بداخل تلك السيارات وغالبا ما يتقدم الموكب سيارة شبه عسكرية أو أكثر يصوب من يعلوها من مسلحين ملثمين فوهات أسلحتهم نحو المارة مع إطلاق زخات تحذيرية لفتح الطريق أمام الموكب ويتكرر نفس المشهد بعد آخر سيارة مظللة حيث يقف عدة ملثمين يعتلون ظهر سيارة أو أكثر مزودة بمدافع ورشاشات من كافة الأنواع والطلقات أقلها / بى كى سى/ يطلقون زخات تحذيرية لمن تسول له نفسه من العابرين للطريق سيرا أو داخل سيارة الاقتراب من الموكب المهيب الذى لا يعرف أحد من بداخله الذى غالبا ما يكون قائدا فى إحدى المجموعات المسلحة أو مسئولا من أى درجة فى العراق الجديد حتى بات المشهد المزعج معتادا لدى العراقيين الذين يعلمون أن هذا الموكب وراءه أمر جلل سواء عملية اختطاف أو قتل فردى أو جماعى .

وذات مرة كنت أستقل سيارة لأحد سائقى وكالة أجنبية تطوع زميل لى يعمل بها أن يقوم بتوصيلى إلى مقر مديرية الإقامة فى محاولة لإنهاء حالتى غير القانونية والتى باءت كغيرها من المحاولات بالفشل لأظل مقيما غير شرعى لعدة أشهر وهو ما ورد تفصيلا فى موضع سابق .. وعند مرور أحد المواكب السيارة المهيبة فى تقاطع ميدان « كهرمانة » وسط بغداد بنفس السيناريو السابق وصفه حتى صاح السائق الطيب وكان يدعى « أبو حنين » غاضبا عندما طلبت منه الحذر وعدم الاقتراب حتى لا ننال جزاءنا الحتمى / القتل طبعا / وقال الرجل الطيب « هذوله حرامية .. سلابة .. قطاع طريق » وهو ما جعلنى أتساءل ماذا يعنى أليس من بداخل إحدى سيارات الموكب هو أحد المسئولين قال « لا أستاذ ..

مو بالضرورة مسئول ، وأخذ يتلو على مسامعى حكايات فى غاية الغرابة عن قيام مثل هذه المواكب المهيبة بعمليات اختطاف أو قتل لحساب إحدى الميليشيات أو فرق الموت وكان أبرزها عملية الاختطاف الجماعى لرئيس وأعضاء اللجنة الأوليمبية العراقية عندما كانوا يعقدون اجتماعا يوم١٥ يوليو من عام ٢٠٠٦ في النادي الثقافي النفطي بالقرب من ساحة الأندلس وهى تقع فى قلب العاصمة بغداد عندما هاجم حوالي خمسين مسلحا المركز الثقافي النفطي واقتادوا السامرائي وعدد من معاونيه بعد أن أوثقوا أيديهم وعصبوا أعينهم وكان ذلك قبل وصولي إلى بغداد بيوم واحد .. كما قص أبو حنين تفاصيل عمليتين متشابهتين وقعتا قبل أشهر حيث خطف في منطقة شارع فلسطين ما يقارب من ٥٠ من أفراد شركة حماية خاصة على أيدى مسلحين يرتدون ملابس قوات الأمن العراقية ويستقلون عربات حكومية .. ووقع الحادث الثاني في منطقة الصالحية وسط بغداد فى شهر يونيو ٢٠٠٦ عندما داهم مسلحون يستقلون عربات حكومية يرتدي أفرادها ملابس قوات الأمن الحكومية مقار لشركات نقل أهلية وخطفوا نحو ٣٥ فردا أغلبهم من العاملين في هذه الشركات.

ومن خلال الحوار الذى دار مع « أبو حنين، وما عرفته بعد ذلك من زملاء فى وكالات وفضائيات تبين لى أن جميع العمليات تمت بواسطة أشخاص يرتدون زي وزارة الداخلية أو زي القوات الأمريكية ويتنقلون بسيارات دفع رباعي تشبه السيارات التي تستخدمها مؤسسات الحكومة الأمنية وفي كل عملية اختطاف اشترك بها ما بين ٣٠ إلى ٤٠ مسلحا.

وكان منفذو عمليات الاختطاف يتمتعون بتسليح وتجهيز ممتاز مضافا إليها تميز عملياتهم بالسرعة والدقة في الهجوم والانسحاب مما يعكس الإمكانيات العالية في القيادة والتنظيم لمنفذي هذه العمليات الإجرامية ففي جميع عمليات الاختطاف التي ارتكبتها هذه الجماعات الإرهابية تمكن منفذو العمليات من التغلب على قوة الحراسة بدون أية خسائر بين المهاجمين بضمنها اختطاف الجنود الأمريكيين من مبنى محافظة كربلاء والذي كانت تحرسه القوات الأمريكية.

كما أن منفذى عمليات الاختطاف الجماعى يتحركون في قافلة من السيارات لا تقل عن خمس عشرة سيارة.

وقد نفذت جميع العمليات في وسط النهار وأمام مرأى ومسمع القوات الحكومية التي تسيطر عليها مليشيات أحزاب الإسلام السياسي.

وكان منفذو العمليات يجتازون كل نقاط التفتيش بدون أي مشكلة.

ولا تظهر أي جماعة لتتبنى العملية اللهم إلا عمليتين فقط تبنتهما جماعة عصائب أهل الحق المنشقة عن التيار الصدرى وهى عملية اختطاف البريطانيين الخمسة من مقر وزارة المالية بشارع فلسطين واختطاف الجنود الأمريكيين والغريب أن تلك الجماعة مارست أقصى درجات المساومة مع السلطات العراقية والأمريكية والبريطانية عبر وسيط كان يتولى وزارة المواصلات فى حكومة الدكتور إبراهيم الجعفرى وهو سلام المالكى وذلك لإطلاق سراح معتقلين من قادتها على رأسهم قيس الخزعلى وهو أحد أشد المقربين من زعيم التيار الصدرى وجيش المهدى مقتدى الصدر قبل أن ينشق عنه ويتزعم جماعة العصائب المتهمة عراقيا وأمريكيا بارتكاب أعمال عنف ذات درجة عالية من التقنية والتخطيط والتنفيذ الذى يرقى إلى عمليات كبرى أجهزة المخابرات فى العالم وهو ما عزز الشكوك فى اتصالها بفيلق القدس والحرس الثورى الإيرانى .

كما أن جميع عمليات الاختطاف حدثت في مناطق شيعية او قريبة منها.

ولم يعقبها اعتقال أي ممن ارتكب تلك الجرائم وإهمال التحقيق في هذه القضايا وإغلاق ملفاتها وهو ما جعل مصير المختطفين مجهولا حتى الآن رغم مرور حوالى أربع سنوات كما لم يتم العثور على جثثهم .

وفي أغلب العمليات التي نفذت في بغداد، أكد شهود عيان دخول موكب المختطفين مدينة الصدر أو مشاهدة الموكب يتجه باتجاه المدينة .

٣٨ - اختطاف البعثات

في عملية اختطاف هي الأكبر من نوعها من حيث عدد المختطفين منذ سقوط العاصمة العراقية بغداد في يد القوات الأمريكية والتي استهدفت أكثر من ١٠٠ من موظفي وزارة التعليم العالي .

ففى الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ١٤ / ١١ / ٢٠٠٦ دخلت إلى منطقة الكرادة وسط العاصمة بغداد أكثر من ٥٠ سيارة من نوعي «مونيكا» و«لاندروفر»، وعشر سيارات نقل صغير واتجهت نحو شارع «سلمان فائق» ومرت من جوار فندق طليطلة، وتوقفت لمدة دقائق قام خلالها أفراد القوة بإطلاق نار لغرض إجبار رجال المرور على فتح الشارع لهم حيث كانت السيارات تنتظر الإشارة الخضراء.

بعد ذلك توجهت تلك السيارات بسرعة يميناً، حيث ساحة الـ ٥٢، وتقع هناك كل من دائرة البعثات العلمية ودائرة الجوازات العراقية ومقر بناية الجرائم الكبرى التابعة للحكومة العراقية ، ثم قام ركاب السيارات الأولى بالترجل من

السيارات ورفع العارضة الحديدية المتحركة ثم إطلاق النار تحت أقدام الحراس وهم شيعة أيضاً، في مسرحية مكشوفة، وقام الآخرون بالدخول بسرعة إلى المبنى فيما قامت سيارات النقل بالاقتراب من الباب ووضع خلفية السيارات عند الباب الرئيسي، وكان يوم الثلاثاء هو اليوم المخصص لمراجعة مدرسي وموظفي محافظات/الأنبار وصلاح الدين ونينوى/، حيث أعلنت كل من روسيا وفرنسا والصين عن بعثات دراسية للكوادر العلمية العراقية وكان كل المتقدمين يقفون في طابور طويل جداً.

في البداية أطلق النار على الطابور للتخويف فقط إلا إن فتاة، وهي السيدة ذكرى فؤاد أحمد الدكتورة في كلية العلوم جامعة الموصل أصيبت بساقها بعدها قامت العصابة بعمليات ركل ودفع لكل من كان يقف في الطابور وكان عددهم أكثر من ٩٠ شخصاً، وتم وضعهم في تلك السيارات فيما قامت قوة أخرى بالدخول إلى أروقة الدائرة وسحب كل من كانوا يشاهدونه أمامهم من رجال ودامت العملية زهاء ربع ساعة، وبعد أن امتلأت سيارات النقل بالمختطفين حتى وصل عددهم أكثر من ١٤٠ شخصاً، وبعد عمليات السب والشتم على مقتدى الصدر وعلى السيستاني لكي يوهموا الناس أنهم من المقاومة، قاموا بوضع البقية الزائدة في السيارات التي يستقلونها ذات الدفع الرباعي مع استمرار إطلاق النار.

ثم اتجهوا نحو جسر ملعب الشعب أو جسر زيونة، وبعد خروجهم باتجاه الجسر قامت سيارة شرطة النجدة باللحاق بهم، ونجحت في معرفة وجهتهم الرئيسية قبل أن يتم إطلاق النار على الدورية من السيارة الأخيرة لتلك العصابة؛ مما أجبرها على الوقوف وأكدت سيارة النجدة أن السيارات اتجهت إلى شارع فلسطين الذي ينتهي إلى جسر القناة حيث منطقة مدينة الصدر معقل جيش المهدي.

ويروي أحد المختطفين المفرج عنهم وهو علي عبد الرضا وهو شيعي يعمل مدير الأفراد في دائرة البعثات العلمية إن الخاطفين أطلقوا سراحي في شارع فلسطين مع تسعة آخرين، وكانت نقاط التفتيش التي نمر منها التابعة للجيش العراقي والمغاوير نسمعهم يخاطبون سيارات العصابة التي تزيد على الخمسين وهي أكثر من سيارات موكب حماية رئيس الجمهورية، ويقولون لهم (ها عمي خوش صيده لا تنسون أخوتكم بالخير)، في إشارة إلى من يتم أخذ مال فدية منهم لإطلاق سراحه.

وأضاف « في الطريق كان أحدهم يسأل كل واحد عن مذهبه بقوله» سني أنت أو شيعي، ثم يتم التأكد من الهوية بعد ذلك، ولما وصل الدور إلي ونحن في الطريق قلت له: أنا شيعي، فقال لي: «هويتك وينها »، فأعطيته هويتي، ولما تأكد

من ذلك وكان معي آخرين من الشيعة تكلم مع السائق وطلب منه أن يخفف حركة السيارة قليلاً ثم طلب منا النزول بسرعة والقفز من السيارة وهي تتحرك.

وبالفعل قفزنا من السيارة مقابل مأكولات الطارق في شارع فلسطين، بينما اتجهوا هم إلى طريق جسر القناة وهو الطريق الموصل إلى مدينة الصدر .

وأوضح أن الخاطفين كانوا من جيش المهدي لأن أحدهم خاطبني عندما تأكد من كوني شيعي بقوله: نحن جيش الإمام (عج) وهو / الإمام الغائب المهدى المنتظر عجل الله فرجه / لا نؤذي شيعة أهل البيت؛ فنحن نحميكم أما الـ***** فهذا قليل بحقهم.

لوحات أرقام ثلاث سيارات من سيارات الخاطفين وهي:

- «لاندكروز» بيضاء اللون تحمل رقم ٤٤٤ داخلية.
- «مونيكا» بيضاء اللون تحمل رقم ٢٥٧٨ مواصلات.
- «بيك آب» بيضاء اللون طراز تويتا تحمل رقم ٧٨٣٥ داخلية.

ولم تكن هذه العملية هى الوحيدة التى يجرى فيها اختطاف مجموعة بالكامل من منطلقة واحدة ولكنها كانت الأكبر والأعلى ضجيجا خاصة وأن عددا كبيرا ممن تم اختطافهم مجهولي المصير حتى الآن مثل رئيس اللجنة الأوليمبية العراقية أحمد الحجيه السامرائى وأعضاء مجلس إدارة اللجنة الذين تم اختطافهم من قاعة معهد النفط فى قلب العاصمة بغداد ولم يعثر لهم على أى اثر حتى الآن وذلك ردا على اختطاف فريق التايكوندو الذى ينتمى إلى الطائفة الشيعية فى إحدى مناطق محافظة الأنبار السنية على أيدى عناصر تنظيم القاعدة إلا أنه تم العثور على جثث الفريق الذى كانت أعماره دون العشرين بعد حوالي عامين من عملية الاختطاف .

وتؤشر تلك العمليات النظمة التى كانت تجرى تحت سمع وبصر عناصر القوات الأمنية الرسمية وفى وضح النهار إلى مدى الخلل الذى كان يميز أيام المذبحة ويسمح باستباحة أى شيء بما فيها جثث الضحايا التى كانت تختفى فى أحيان كثيرة وبالتأكيد يجرى دفنها كجثث مجهولة الهوية فى مقابر جماعية أو مقابر منفردة فى صحراوات العراق الشاسعة.

٣٩ - أساتذة الجامعات

منذ احتلال بغداد يتعرض العلماء والأكاديميون والمهندسون العراقيون إلى

عمليات اغتيال وتصفيات خطيرة وفق مخطط يبدو منظما لتفريغ العراق من كوادره ومحو عقوله العلمية والفكرية وبشكل إجرامي انتقامي منظم لإخضاع العراق بتجريده من باحثيه وأكاديمييه وعلمائه وتدمير هويته الثقافية والعلمية لوقف عجلة التطور فيه ولإعادته عشرات السنين إلى الوراء ،، وتشير التقارير إلى أنه تم تصفية وقتل مئات العلماء والأكاديميين واختفاء مئات آخرين وهروب الآلاف إلى خارج العراق خوفا على حياتهم .

وتشير تقديرات جامعة الأمم المتحدة إلى أن ٨٤٪ من مؤسسات التعليم العالي قد أحرقت أو نهبت أو دمرت ويتضح أن هذا المخطط موجه ضد العراق الدولة بالدرجة الأولى حيث يتبين من هويات العلماء المقتولين أن الأمر لا يدخل ضمن الانتماء الطائفي أو الحزبي الداخلي كما أنه يتجاوز التخصص الأكاديمي حيث استهدفت عمليات القتل والتصفية الانتقامية أيضا كبار ضباط الجيش العراقي والطيارين الذين شاركوا في حرب إيران.

من يقوم بهذا المشروع الإجرامي الكبير وبهذه الالية المنظمة بارتكاب اكثر من ٣٠٠ عملية مداهمة ثم خطف وتعذيب ثم تصفية وقتل وتتنقل بين المحافظات وتمارس عملياتها في وضح النهار وبعض تلك العمليات يختطف الاكاديمي من داخل الجامعة ويصفى بالشارع أمام طلابه لابد أن تكون جهات تسيطر على مقاليد الأمور بالعراق بشكل شبه عام والقوتان المسيطرتان في الساحة العراقية هما أمريكا بفعل الاحتلال المباشر وايران عن طريق التواجد المخابراتي على الأرض وعن طريق عملائها بالحكومة والقوى السياسية المسيطرة ومعروف التأييد المطلق من قبلهم لإيران من منطلقات طائفية بحتة منذ أيام إنشائهم منظماتهم وأحزابهم برعاية إيرانية كاملة .

ولا يخلو موقع مهتم بالشأن العراقى من قوائم بأسماء مجموعة من العلماء والأكاديميين الذين تمت تصفيته وهذا مجرد نموذج واقعى لعلماء وأكاديميين تمت تصفيتهم بطريقة شبة متطابقة :

١- الأستاذ الدكتور محمد عبدالله الراوي، رئيس جامعة بغداد،نقيب الأطباء العراقيين، زميل الكلية الملكية الطبية، اختصاص باطنية، اغتيل في عيادته الطبية بمنطقة المنصور عام ٢٠٠٣.

٢- أ.د.مكي حبيب المؤمن، خريج جامعة مشيغان الأميركية اختصاص في مادة التاريخ المعاصر، أستاذ سابق في جامعة البصرة وبغداد ومركز الدراسات الفلسطينية وجامعتي أربيل والسليمانية. بعد السقوط تعرض إلى حادث سيارة مفتعل وتوفي يوم ٢٠٠٣/٦/٢٠ بعد أن أقعده المرض.

٣- أ. د. محمد عبد المنعم الأزميرلي، جامعة بغداد،كلية العلوم، قسم الكيمياء،من مصر العروبة يحمل الجنسية العراقية، تمت تصفيته من قبل قوات الاحتلال في معتقل المطار منتصف عام ٢٠٠٣ لأنه يحمل دكتوراه كيمياء وهو عالم متميز وعمل في مراكز بحثية متخصصة.

٤- أ. د. عصام شريف محمد التكريتي،جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ، عمل سفيراً للعراق في تونس منتصف التسعينات، اغتيل في منطقة العامرية يوم ٢٠٠٣/١٠/٢٢ مع خمسة أشخاص من أصدقائه.

٥- أ. د. مجيد حسين علي، جامعة بغداد، كلية العلوم، متخصص في مجال بحوث الفيزياء النووية، تمت تصفيته مطلع عام ٢٠٠٤ لأنه عالم ذرة.

٦- أ. د. عماد سرسم، أستاذ جراحة العظام والكسور، زميل كلية الجراحين الملكية عميد كلية الطب في جامعة بغداد سابقاً، عضو الهيئة الإدارية لنقابة الأطباء العراقيين، عضو اتحاد الأطباء العرب.

٧- أ. د.صبري مصطفى البياتي، رئيس قسم الجغرافية، كلية الآداب، جامعة بغداد، اغتيل في حزيران ٢٠٠٤.

٨- أ. د. أحمد الراوي، أستاذ سابق في كلية الزراعة، جامعة بغداد/قسم التربة، نسب للعمل في مركز (إباء) التخصصي. قتل مع زوجته عام ٢٠٠٤ على الطريق السريع في منطقة الغزالية.

٩- أ. د. عدنان عباس خضيرالسلماني، مدير في وزارة الري، أستاذ في كلية المأمون، اختصاص تربة استشهد في الفلوجة عام ٢٠٠٤.

١٠- أ. د. وجيه محجوب الطائي، اختصاص تربية رياضية، مدير عام التربية الرياضية في وزارة التربية.

١١- أ. د. علي حسين كامل، جامعة بغداد، كليةالعلوم، قسم الفيزياء.

١٢- أ. د. مروان مظهر الهيتي، جامعة بغداد، كلية الهندسة،اختصاص هندسة كيميائية.

١٣- أ. د. مصطفى المشهداني، جامعة بغداد، كلية الآداب،اختصاص علوم إسلامية.

١٤- أ. د. خالد محمد الجنابي، جامعة بابل،كلية الآداب،اختصاص تاريخ إسلامي.

١٥- أ. د. شاكر الخفاجي، جامعة بغداد،شغل منصب مدير عام الجهاز

المركزي للتقييس والسيطرة النوعية، اختصاص إدارة أعمال.

١٦- أ. د. عبدالجبار مصطفى، عميد كلية العلوم السياسية، جامعة الموصل، اختصاص علوم سياسية.

١٧-أ. د. صباح محمود الربيعي، عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية.

١٨- أ. د. أسعد سالم شريدة، عميد كلية الهندسة، جامعة البصرة،دكتوراه هندسة.

١٩- أ. د. ليلى عبدالله سعيد، عميد كلية القانون، جامعة الموصل،دكتوراه قانون، اغتيلت مع زوجها.

٢٠- أ. د. منير الخيرو، زوج د. ليلى عبد الله،كلية القانون، جامعة الموصل، دكتوراه قانون.

٢١- أ. د. سالم عبد الحميد، عميد كلية الطب، الجامعة المستنصرية، اختصاص طب وقائي.

٢٢- أ. د. علاء داود، مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية، جامعة البصرة.

٢٣- أ. د. حسان عبد علي داود الربيعي، مساعد عميد كلية الطب، جامعة بغداد.

٢٤- أ. د. مروان رشيد، مساعد عميد كلية الهندسة، جامعة بغداد.

٢٥- أ. د. فلاح علي حسين، عميد كلية العلوم / الجامعة المستنصرية.

٢٦- مصطفى محمد الهيتي، عميد كلية الصيدلة، جامعة بغداد،اختصاص علوم الصيدلة.

٢٧- أ. د. كاظم مشحوط عوض، عميد كلية الزراعة، جامعة البصرة.

٢٨- أ. د. جاسم محمد الشمري، عميد كلية الآداب / جامعة بغداد.

٢٩- أ. د. موفق يحيى حمدون، معاون عميد كلية الزراعة، جامعة الموصل.

٣٠- أ. د. عقيل عبدالجبار البهادلي، معاون عميد كلية الطب، جامعة النهرين.

٣١- أ. د. إبراهيم طلال حسين، معاون عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية.

٣٢- أ. د. رعد شلاش، رئيس قسم البايولوجي، كلية العلوم، جامعة بغداد.

٣٣- أ. د. فؤاد إبراهيم محمد البياتي، رئيس قسم اللغة الألمانية، كلية اللغات، جامعة بغداد، اغتيل أمام منزله فيحي الغزالية في بغداد يوم ٢٠٠٥/٤/١٩.

٣٤- أ. د. حسام الدين أحمد محمود، رئيس قسم التربية، كلية التربية،

الجامعة المستنصرية.

٣٥- أ. د. عبد اللطيف علي المياح، معاون مدير مركز دراسات الوطن العربي، جامعة بغداد، اغتيل أوائل عام ٢٠٠٤ بعد يوم واحد من ظهوره على شاشة إحدى الفضائيات العربية وهو يطالب بإجراء انتخابات نيابية.

٣٦- أ. د. هشام شريف، رئيس قسم التاريخ، جامعة بغداد.

٣٧- أ. د. إيمان يونس، رئيس قسم الترجمة، جامعة الموصل.

٣٨- أ. د. محمد كمال الجراح،اختصاص لغة إنكليزية، جامعة بغداد، نسب للعمل في المملكة المغربية، آخر موقع له مدير عام في وزارة التربية، اغتيل في منطقة العامرية يوم ٢٠٠٤/٦/١٠.

٣٩- أ. د. وسام الهاشمي، رئيس جمعية الجيولوجيين العراقية.

٤٠- أ. د. رعد عبد اللطيف السعدي، مستشار في اللغة العربية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، اغتيل يوم٢٠٠٥/٥/٢٨ في منطقة البياع ببغداد.

٤١- أ. د. موسى سلوم أمير الربيعي، معاون عميد كلية التربية، الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٥/٢٨ في منطقة البياع ببغداد.

٤٢- أ. د. حسين ناصر خلف، باحث في كلية الزراعة، مركز بحوث النخيل،جامعة البصرة، بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٢٢ عثر على جثته في منطقة الفيحاء بعد اختطافه يوم٢٠٠٥/٥/١٨.

٤٣- أ. د. محمد تقي حسين الطالقاني، دكتوراه فيزياء نووية.

٤٤- أ. د. طالب إبراهيم الظاهر، جامعة ديالى، كلية العلوم، اختصاص فيزياء نووية، اغتيل في بعقوبة شهر آذار ٢٠٠٥.

٤٥- أ. د. هيفاء علوان الحلي، جامعة بغداد، كلية العلوم للبنات، اختصاص فيزياء.

٤٦- أ. د. عمر فخري، جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص في العلوم البيولوجية.

٤٧- أ. د. ليث عبد العزيز عباس، جامعة النهرين، كلية العلوم.

٤٨- أ. د. عبد الرزاق النعاس، جامعة بغداد، كلية الإعلام، اغتيل يوم ٢٠٠٦/١/٢٨.

٤٩- أ. د. محمد فلاح هويدي الجزائري، جامعة النهرين، كلية الطب،اختصاص جراحة تقويمية، اغتيل يوم عودته من أداء فريضة الحج مطلع عام

٢٠٠٦ وهو طبيب في مستشفى الكاظمية التعليمي.

٥٠- أ. د. خولة محمد تقي، جامعة الكوفة،كلية الطب.

٥١- أ. د. هيكل محمد الموسوي، جامعة بغداد، كلية الطب.

٥٢- أ. د. رعد أوخسن البينو، جامعة الأنبار، كلية الطب، اختصاص جراحة.

٥٣- أ. د. أحمد عبدالرحمن حميد الكبيسي، جامعة الأنبار، كلية الطب، عضو هيئة التدريس.

٥٤- أ. د. نؤيل بطرس ماثيو، المعهد الطبي، الموصل.

٥٥- أ. د. حازم عبد الهادي، جامعة بغداد، كلية الطب، دكتوراه طب.

٥٦- أ. د. عبد السميع الجنابي، الجامعة المستنصرية، عميد كلية العلوم، اغتيل طعناً بالسكين عندما بدأ بتطبيق قرار وزارةالتعليم العالي بمنع استخدام الجامعات منابر للمظاهر الطائفية.

٥٧- أ. د. عباس العطار، جامعة بغداد، دكتوراه علوم إنسانية.

٥٨- أ. د. باسم المدرس، جامعة بغداد، دكتوراه علوم إنسانية.

٥٩- أ. د. محيي حسين، الجامعة التكنولوجية،دكتوراه هندسة ديناميكية.

٦٠- أ. د. مهند عباس خضير، الجامعة التكنولوجية،اختصاص هندسة ميكانيك.

٦١- أ. د. خالد شريدة، جامعة البصرة، كلية الهندسة،دكتوراه هندسة.

٦٢- أ. د. عبد الله الفضل، جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص كيمياء.

٦٣- أ. د. محمد فلاح الدليمي، الجامعة المستنصرية، معاون عميد كلية العلوم، دكتوراه فيزياء.

٦٤- أ. د. باسل الكرخي، جامعة بغداد، كلية العلوم،اختصاص كيمياء.

٦٥- أ. د. جمهوركريم خماس الزرغني، رئيس قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة، وهو أحد النقاد المعروفين على الصعيد الثقافي في البصرة، خطف يوم ٢٠٠٥/٧/٧، وجدت جثته في منطقة القبلة الواقعة على بعد ٣ كلم جنوب مركز البصرة.

٦٦- أ. د. زكي ذاكر العاني، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، اغتيل أمام بوابة الجامعة المستنصرية يوم ٢٠٠٥/٨/٢٦.

٦٧- أ. د. هاشم عبد الكريم، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، اغتيل أمام بوابة الجامعة المستنصرية يوم ٢٠٠٥/٨/٢٦.

٦٨- أ. د. ناصر أمير العبيدي، جامعة بغداد.

٦٩- أ. د. نافع عبود، اختصاص أدب عربي، جامعة بغداد.

٧٠- أ. د. مروان الراوي، اختصاص هندسة، جامعة بغداد.

٧١- أ. د. أمير مزهر الدايني، اختصاص هندسة الاتصالات.

٧٢- أ. د. عصام سعيد عبد الكريم، خبير جيولوجي، في وزارة الإسكان، يعمل في المركز الوطني للمختبرات الإنشائية، خطف يوم ٢٠٠٤/٩/٢٨ واغتيل يوم ٢٠٠٤/١٠/١.

٧٣- أ. د. حكيم مالك الزيدي، جامعة القادسية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

٧٤-أ. رافي سركسيان فانكان، ماجستير لغة إنكليزية، مدرس في كلية التربية للبنات، جامعة بغداد.

٧٥- أ. د. نافعة حمود خلف، جامعة بغداد، كلية الآداب، اختصاص لغة عربية.

٧٦- أ. د. سعدي أحمد زيدان الفهداوي، جامعة بغداد،كلية العلوم الإسلامية.

٧٧- أ. د. سعدي داغر مرعب، جامعة بغداد، كلية الآداب.

٧٨- أ. د. زكي جابر لفتة السعدي، جامعة بغداد، كلية الطب البيطري.

٧٩-أ.خليل إسماعيل عبد الداهري، جامعة بغداد، كلية التربية الرياضية.

٨٠- أ. د. محمد نجيب القيسي، الجامعة المستنصرية، قسم البحوث.

٨١- أ. د. سمير يلدا جرجيس، الجامعة المستنصرية، معاون عميد كلية الإدارة والاقتصاد،خطف من أمام بوابة الجامعة المستنصرية في آب ٢٠٠٥ ووجدت جثته ملقية في أحد الشوارع يوم ٢٠٠٥/٨/٢٥.

٨٢- أ. د. قحطان كاظم حاتم، الجامعة التكنولوجية، كليةالهندسة.

٨٣- أ. د. محمد الدليمي، جامعة الموصل، كلية الهندسة، اختصاص هندسة ميكانيكية.

٨٤- أ. د. خالد فيصل حامد شيخو، جامعة الموصل، كلية التربية الرياضية.

٨٥- أ. د. محمد يونس ذنون، جامعة الموصل، كلية التربية الرياضية.

٨٦- أ. د. إيمان عبد المنعم يونس، جامعة الموصل، كلية الآداب.

٨٧- أ. د. غضب جابر عطار، جامعة البصرة، كلية الهندسة.

٨٨- أ. د. كفاية حسين صالح،جامعة البصرة، مدرسة في كلية التربية.

٨٩- أ. د. علي غالب عبد علي، جامعة البصرة، كلية الهندسة.

٩٠- أ. د. محفوظ محمد حسن القزاز، كلية التربية / قسم العلوم التربوية والنفسية / جامعة الموصل، بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٥، لقي مصرعه إثر إطلاق نار عشوائي من قبل القوات المحتلة الأمريكية قرب جامع الدكتور أسامة كشمولة في محافظة نينوى.

٩١- أ. د. فضل موسى حسين، جامعة تكريت، كلية التربية الرياضية.

٩٢- أ. د. محمود إبراهيم حسين، جامعة تكريت، كلية التربية.

٩٣- أ. د. أحمد عبد الهادي الراوي، جامعة الأنبار، كلية الزراعة.

٩٤- أ. د. شاكر محمود جاسم، جامعة الأنبار، كلية الزراعة.

٩٥- أ. د. عبد الكريم مخلف صالح، جامعة الأنبار، كلية الآداب/ قسم اللغة العربية.

٩٦- أ. د. محمد عبد الحسين واحد، معهد الإدارة الفني - بغداد.

٩٧- أ. د. أمير إبراهيم حمزة، معهد بحوث السرطان، هيئة المعاهد الفنية.

٩٨- أ. د. محمد صالح مهدي، معهد بحوث السرطان، هيئة المعاهد الفنية.

٩٩- أ. د. سعد ياسين الأنصاري، جامعة بغداد.

١٠٠- أ. د. سعد الربيعي،جامعة البصرة، كلية العلوم، اختصاص علوم بيولوجية.

١٠١- أ. د. نوفل أحمد، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة.

١٠٢- أ. د. محسن سليمان العجيلي، جامعة بابل، كلية الزراعة.

١٠٣- أ. د. ناصر عبد الكريم مخلف الدليمي، جامعة الأنبار.

١٠٤- أ. د. حامد فيصل عنتر، جامعة الأنبار، كلية التربية الرياضية.

١٠٥- أ. د. عبد المجيد حامد الكربولي، جامعة الأنبار.

١٠٦- أ. د. غائب الهيتي، جامعة بغداد،أستاذ في الهندسة الكيمياوية، اغتيل في آذار ٢٠٠٤.

١٠٧- الدكتور اللواء سنان عبدالجبار أبوكلل، جامعة البكر للدراسات العليا، استشهد في سجن أبو غريب عام ٢٠٠٤.

١٠٨- د. علي جابك المالكي، اختصاص محاسبة، منتسب إلى وزارة المالية، مديرية الضريبة العامة، اغتيل عام ٢٠٠٤.

١٠٩- أ. عاشور عودة الربيعي، ماجستير جغرافية بشرية-جامعة مشيغان الأمريكية، شغل موقع مدير مركز الدراسات والبحوث / المنصور،اغتيل في منطقة العامرية عام ٢٠٠٤.

١١٠- أ. د. كاظم طلال حسين، معاون عميد كليةالتربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم الجمعة ٢٠٠٥/١١/٢٥ في منطقة الصليخ مع ٣ من مرافقيه.

١١١- أ. د. مجبل الشيخ عيسى الجبوري، عضو لجنة كتابة الدستور، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٧/١٩ في بغداد.

١١٢- أ. د. ضامن حسين عليوي العبيدي،عميد كلية الحقوق، جامعة صلاح الدين، عضو لجنة كتابة الدستور، قتل يوم ٢٠٠٥/٧/١٩ في بغداد.

١١٣- أ. د. أسامة يوسف كشمولة، جامعة الموصل، كلية الزراعة، دكتوراه زراعة، عين محافظاً للموصل يوم ٢٠٠٥/٤/٥ وجرى تشييعه يوم ٢٠٠٥/٧/١٤.

١١٤- أ. د. علي مهاوش، عميد كلية الهندسة-الجامعة المستنصرية، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٣/١٣.

١١٥- د. كاظم بطين الحياني، أستاذ علم النفس، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، اقتيد من قبل عناصر تابعة لأحد الأحزاب الدينية، بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣ وجدت جثته في مشرحة الطب العدلي وعليها آثار التعذيب، سبق أن شغل منصب محافظ القادسية حتى عام ١٩٩١.

١١٦- أ. د. صلاح عزيز هاشم، المعهد الفني - محافظة البصرة، اغتيل أمام المعهد يوم ٢٠٠٦/٤/٥.

١١٧- أ. د. عبد الكريم حسين، جامعة البصرة، كلية الزراعة، اغتيل يوم١١/٢٠٠٦/٤.

١١٨- ا.المهندس حسين علي إبراهيم الكرياسي، الجامعة التقنية – بغداد – الزعفرانية، اختصاص قسم المساحة اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٦ في منطقة العامرية.

١١٩- أ. د. عبد الستار الأسدي، معاون عميد كلية التربية، جامعة ديالى، اغتيل يوم١٩/٢٠٠٦/٤مع (٣) من الأساتذة.

١٢٠- أ. د. سلام حسين المهداوي، كلية التربية،جامعة ديالى، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢١- أ. د. مشحن حردان مظلوم العلواني، جامعة ديالى، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢٢- أ. د. ميس غانم، قسم اللغة الإنكليزية، جامعة ديالى، زوجة الدكتور مشحن حردان العلواني، اغتيلت يوم ٢٠٠٦/٤/١٩.

١٢٣- أ. د. عبدالستار جبار، جامعة ديالى، كلية الطب البيطري، اغتيل يوم ٢٠٠٦/٤/٢٢.

١٢٤- أ. د. مهند الدليمي، جامعة بغداد- كلية الهندسة، اغتيل عام ٢٠٠٤.

١٢٥- أ. د. حسن الربيعي، عميد كلية طب الأسنان- جامعة بغداد، اغتيل يوم ٢٠٠٤/١٢/٢٥ عندما كان يقود سيارته وبصحبته زوجته.

١٢٦- أ. د. أنمار التك، كلية الطب / جامعة الموصل، أحد أشهر أطباء العيون في العراق، حاصل على درجة بروفيسور، اغتيل في شهر تشرين أول ٢٠٠٤.

١٢٧- أ. د. المهندس محيي حسين، اختصاص هندسة طائرات / جامعة بغداد، اغتيل منتصف عام ٢٠٠٤.

١٢٨- أ. د. فيضي محمد الفيضي، جامعة الموصل، عضو هيئة علماء المسلمين في الموصل، اغتيل أمام داره في منطقة المثنى بالموصل بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٢٢،خريج كلية الشريعة عام ١٩٨٥، حاصل على الدكتوراه نهاية التسعينات.

١٢٩- الدكتورالعميد منذر البياتي، (طبيب) اغتيل أمام داره في السيدية يوم٢٠٠٥/٦/١٨.

١٣٠-الدكتور العميد صادق العبادي، (طبيب) اغتيل يوم ٢٠٠٤/٩/١ في منطقة الشعب في بغداد عند دخوله المجمع الطبي الذي شيده لتقديم الخدمات الطبية وبأسعار رمزية.

١٣١- الدكتور عامر محمد الملاح، رئيس قسم الجراحة في المستشفى الجمهوري التعليمي، اغتيل قرب داره يوم ٢٠٠٤/١٠/٣.

١٣٢- الدكتور رضا أمين، معاون فني في مستشفى كركوك التعليمي، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٨/١٥ في كركوك.

١٣٣- الدكتور عبدالله صاحب يونس، مدير مستشفى النعمان التعليمي في الأعظمية، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٥/١٨.

١٣٤- أ. إبراهيم إسماعيل، مدير عام تربية كركوك، اغتيل يوم ٢٠٠٤/٨/٣٠عندما كان متوجها إلى المعهد التكنولوجي جنوب كركوك.

١٣٥-أ.راجح الرمضاني، مشرف تربوي اختصاص، اغتيل بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٢٩ عند خروجه من جامع (ذياب العراقي) في محافظة نينوى.

١٣٦- أ. د. جاسم محمد العيساوي، أستاذ في كلية العلوم السياسية /جامعةبغداد، عضو في هيئة تحرير صحيفة (السيادة) اليومية، أحد الأعضاء المفاوضين مع لجنة صياغة الدستور، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٦/٢٢ في مدينة الشعلة في بغداد وعمره (٦١) عاماً.

١٣٧- الدكتور المهندس عبد الستار صابر الخزرجي، كلية الهندسة /جامعة بغداد، اغتيل يوم ٢٠٠٥/٦/٢١ وهو من سكنة مدينة الحرية في بغداد.

١٣٨- أ. د. حيدر البعاج، مدير المستشفى التعليمي في البصرة.

١٣٩- أ. د. عالم عبد الحميد، عميد كلية الطب، جامعة البصرة.

١٤٠- أ. د. محمد عبد الرحيم العاني، أستاذ في كلية القانون/الجامعة المستنصرية، وهو طالب دكتوراه في كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد، عضو هيئة علماء المسلمين، اعتقل يوم ٢٠٠٦/٤/٢٧ من أمام جامع الفاروق القريب من شارع فلسطين في بغداد من قبل عناصر وزارة الداخلية، وجدت جثته في مشرحة الطب العدلي في بغداد يوم ٢٠٠٦/٥/٢.

عراقيون لحقوق الإنسان

أرقام مزعجة وحقائق دامية أثارتها الأرقام المخيفة التي أعلنتها منظمة «عراقيون لحقوق الإنسان» في بغداد حول أعداد الذين تمت تصفيتهم من العلماء العراقيين والإعلاميين وعلماء دين ورياضيين وضباط وتجار سنة، أسئلة كثيرة ومخاوف كبيرة من المشروع الطائفي في العراق في ظل الاحتلال الأمريكي. فقد أوردت تلك المنظمة في تقريرها السنوي لعام ٢٠٠٦م أن ٣٢٠٠ عالم عراقي بمختلف الاختصاصات والمجالات تمت تصفيتهم جسدياً على يد منظمة بدر وجيش المهدي، وأوضحت أنهم علماء في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والذرة والعلوم الحياة والآثار، وذلك منذ احتلال العراق وحتى الآن. فيما ذكرت أن ٨٧ عالمًا لديه براءات اختراع عالمية تمت تصفيتهم أيضاً، وأوضحت أن ٧٠٠ عالم دين سني تمت تصفيتهم، من بينهم أكثر من ١٧٠ عالمًا من هيئة علماء المسلمين، وكذلك حفظة للقرآن الكريم، وخطاطون احترفوا كتابة المصحف الشريف. فيما قالت إن ١٥٠ صحافياً قتلوا منذ الاحتلال وحتى الآن؛ ٣٠ منهم على يد الاحتلال و٨٠ منهم على يد جيش المهدي وفيلق بدر، كان آخرهم في قناة الشعبية السنية في بغداد بمنطقة زيونه، فيما سجل قتل البقية على يد مجهول، و٥٠ رياضياً سنياً قتلوا منذ الاحتلال وحتى الآن على يد تلك المليشيات الشيعية في كرة القدم والسلة والملاكمة والتايكوندو حسب تقرير المنظمة.

واحتل ضباط الجيش العراقي السابق المرتبة الأولى في تلك الأرقام، حيث قتل ١١ ألف ضابط منهم على اختلاف صنوفهم بين القوة الجوية والبحرية والمشاة والدروع، أغلبهم من أهل السنة، وعدد قليل جداً من الشيعة الذين كانوا يحتلون مناصب بعثية عالية، إضافة إلى رتبهم العسكرية.

فيما تم تصفية ٣٢٨ تاجراً من أهل السنة كانوا يعتبرون أهم التجار المتحكمين في بورصة السوق العراقية في منطقة الشورجة وجميلة والمنطقة الصناعية في جنوب شرق بغداد.

يقول أحد الضباط السابقين في وزارة الداخلية، تم طرده من قبل «هيئة اجتثاث البعث»: عندما تسلم بيان جبر صولاغ وزارة الداخلية في حكومة إبراهيم الجعفري، لم يعد لفيلق بدر حاجة لارتداء البدلات السود أو استخدام كواتم الصوت، فقد قام هو بالمهمة عوضاً عنهم بصورة رسمية، حيث غيبت سجونه ١٢٣ أستاذاً وعالماً وتدريسياً من أهل السنة قضى أغلبهم من شدة التعذيب، فيما لايزال آخرون حتى الآن مسجونين بتهمة التعاون مع المقاومة التي يسمونها «الإرهاب». ويشير ذلك الضابط إلى أن لديه قائمة بأسماء ٢٢ عالماًعراقياً لايزالون في السجن حتى الآن، ولا يعلم عن مصيرهم شيء.. هم:

١- الدكتور رافد محمد العمر «طبيب»

٢- الدكتور البروفيسور طارق المشهداني «عالم كيمياء عضوية»

٣- الدكتور ناصر التكريتي «طبيب»

٤- الدكتور سعد الحياني «عالم هندسة وراثية»

٥- الدكتور فهد عبد الكريم الدليمي «عالم فيزياء»

٦- الدكتور جاسم الخالدي «خبير آثار»

٧- الدكتور علي الناصري «عالم اجتماع»

٨- الدكتور صلاح خالد كاظم «خبير اقتصاد»

٩- الدكتور وليد الجبوري «طبيب تجميل»

١٠- الدكتور أنور العاني «عالم فيزياء»

١١- الدكتور نبيل محمد العبيدي «إخصائي بكتيريا هوائية»

١٢- الدكتور باسل رزيك «عالم كيمياء»

١٣- الدكتور توفيق سعدي «عالم هندسة صواريخ»

١٤- الدكتور جبار أمين الباوي «عالم هندسة صواريخ»

١٥- الدكتور سليمان عادل الدليمي «مهندس طائرات حربيه ميج ٢١»

١٦- الدكتور سلام مخلص الحيالي

١٧- الدكتور صبري القيسي

١٨- الدكتور البروفيسور عاصم المحمدي «عالم ذرة»

١٩- الدكتور يوسف الكبيسي

٢٠- الدكتورة إيمان عمز عبد العزيز «فيزياء، اختصاص وقود صواريخ، ورئيسة قسم في التصنيع العسكري»

٢١- الدكتور حسام الموصلي

٢٢- الدكتور شجاع الحشماوي

٤٠ - عذاب البطانية

تشير تقارير لمنظمات عراقية معنية بتتبع علميات الاختطاف والاعتقال والتعذيب والقتل خاصة تلك التى طالت الكوادر العلمية أن بعض المعتقلين من الأساتذة فقدوا ذاكرتهم جراء (فقرة البطانية).. وهي إحدى فنون التعذيب الحديثة ، وهي كالآتي «يؤتى بالشخص المراد تعذيبه ويوضع على بطانية مقيد اليدين والرجلين، ثم يأتي أربعة من جماعة مالك وهو اسم قائد التعذيب في سجن وزارة الداخلية، ويقومون برفعه مع البطانية ورميه على الحائط بقوة، ثم يعيد دون الكرّة حتى تتكسر أضلاعه أو يحدث خلل في دماغه، وقد فقد الكثيرون ذاكرتهم بسبب هذه العملية.

٤١ - ذباح العلماء

«يوسف الموسوي» امتهن أحقر مهنة وأشدها إيذاءً للإنسانية؛ إذ تخصص بقتل وتعذيب العلماء وأساتذة الجامعات العراقية، وبعدها أضاف إليهم الطيارين والنساء، ثم أخذ يقتل على الاشتباه والانتماء الطائفي، فمجرد أن يتناه إلى سمعه أن فلاناً مثقف وأنه صديق لأحد أساتذة الجامعات أو طالب في الدراسات العليا يبادر إلى وضع اسمه على قائمة الاغتيالات التي تخصصت فيها هذه العصابة، كونها من عصابات جيش المهدي.

يوسف الموسوي الذي أثار الرعب بعصابته في المدن العراقية -وبخاصة في بغداد والبصرة والموصل والمدن التي تحتوي على جامعات- بدأ بوضع قائمة بأسماء أساتذة الجامعات العراقية بادئاً بالأسماء الكبيرة ذات الإنجازات العلمية المهمة، ولا فرق عنده أن يكون العالم سنياً أو شيعياً، المهم عنده أن يكون أستاذاً جامعياً ذا شهرة علمية كبيرة وأن يكون عربياً، وبدأ بتنفيذ جرائمه في بغداد متصيداً أساتذة الطب، حيث شهدت العاصمة العراقية مقتل العشرات من الأطباء المتميزين من أساتذة الطب في كلية طب بغداد، وبعد أن أجبر الآلاف من الأطباء على الهرب من العراق اتجه إلى أساتذة الجامعات في التخصصات الأخرى، فشهدت شوارع بغداد -وبخاصة القريبة من جامعتي بغداد

والمستنصرية- مقتل المئات من الأساتذة وعدد من الطلبة وخصوصاً طلبة الدراسات العليا، حتى كادت الجامعات تغلق أبوابها لامتناع الأساتذة من الذهاب إليها.

وبعد بغداد انتقل إلى البصرة ليقود عصاباته لقتل أساتذة جامعة البصرة، وأخذت المدينة الجامعية في التنومة بالبصرة تشهد سقوط العشرات من الأساتذة قتلى، ليهرب جميع الأساتذة، وقد أنشئت جامعة كاملة في دمشق جميع أساتذتها الدكاترة من الذين كانوا يدرّسون في البصرة..!!

وبعد أن أنجز يوسف الموسوي مهمة تفريغ العراق من العقول والعلماء بعد أن قتل ما قتل وهرب من هرب، اتجه إلى الطيارين العراقيين وبخاصة الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية، والذين تصدوا للهجمات التي كان يتعرض لها العراق من القوات الأمريكية، وكانت عصابات يوسف الموسوي تحمل قوائم بأسماء الطيارين لاعتقالهم وتعذيبهم ثم قتلهم.

وبعدها توجه لقتل النساء العراقيات المثقفات؛ إذ كانت النسوة العراقيات يُختطفن من الجامعات والوزارات وبعد تعذيبهن يجرى قتلهن وقذف جثثهن.

نهاية هذه السيرة الإجرامية لسفاح أساتذة الجامعات كانت شبيهة بما كان يرتكبه بحق ضحاياه، فقد قُبض عليه في معارك البصرة التى أطلق عليها « صولة الفرسان» ، كونه أحد قادة العصابات الإجرامية التابعة لجيش المهدي، ومثلما كان يعذب ضحاياه، عُذِّب هو الآخر على أيدي الفصيل الآخر من المليشيات الطائفية، ومثلما انتهى من كان يعذبهم، كانت نهاية هذا السفاح مقتولاً مذموماً حتى من جماعته..!

٤٢ - أئمة المساجد

يقول الدكتور أحمد عبد الغفور السامرائى رئيس ديوان الوقف السنى بالعراق أن عدد الأئمة الذين لقوا مصرعهم منذ بداية أحداث العنف الطائفى بلغ أكثر من ٤٠٠ إمام وخطيب مسجد نصفهم قتلته الميليشيات الشيعية المتشددة والنصف الآخر قتلهم تنظيم القاعدة باعتبارهم كفارا .. حيث كانت تهمة التكفير جاهزة دائما لإلصاقها بأى إمام أو خطيب يمتنع عن الترويج لأفكار تنظيم القاعدة .

وتبدو معظم القصص متشابه ترويها سيناريوهات تبدأ من المراقبة والتهديد ثم الاختطاف والتعذيب حتى الموت أو القتل بإحدى طريقتين رصاصات فى الصدر والرأس أو الذبح .. وكانت عمليات التعذيب والقتل يجرى تصويرها وتوزيعها على نطاق واسع عبر الهاتف المحمول أو السى .دى ربما لإشاعة أجواء من الرعب وتمجيد القتلة وبث الخوف فى النفوس التى قد يكون قد علق بها بقايا من

الشجاعة تدفع على الإصرار للاستمرار فى أداء مهمة الوعظ والإرشاد والإصلاح لما أفسدته أيام المذبحة أو التمسك بالبقاء فى الوطن .

٤٣ - شهيد المستنصرية

الوقت هو الثانية إلا الربع من بعد ظهر يوم الأربعاء فى ربيع ٢٠٠٦ مع انطلاق عمليات القتل الطائفى ..المكان هو حي المستنصرية أحد الأحياء القريبة من مدينة (الصدر) وتحديداً جامع الحاج حميد الجنابي المطل على أحد الشوارع الرئيسية شرق العاصمة بغداد.. الهدف إمام الجامع وخطيبه الشيخ عبد المجيد الابن الذكر البكر وأحد التوأمين لمؤسس ومشيد الجامع في أواسط السبعينيات المرحوم الحاج حميد الجنابي ، ذى الاثنين وأربعين عاما طويل القامة .. أبيض البشرة التقي الورع والذي اتخذ من نهج الرسول الكريم وسيرته وأخلاقه نهجاً لحياته وحياة عائلته.

الشيخ عبد المجيد هو ابن الأب السني والأم الشيعية من منطقة الصويرة بمحافظة واسط التى تبعد حوالي ٧٠ كم جنوب بغداد والمتزوج من امرأة شيعية من ناحية الإسكندرية التابعة لمحافظة بابل والتى تبعد ٥٠ كم جنوبى العاصمة .. كما عرفه كل من كان قريباً منه نأى بنفسه عن الدنيا وجند نفسه للدعوة إلى دين الله ونهج وتعاليم رسوله ..كان ممن لا يخافون من قول الحق .. يعرف بفطنته وعلمه وذكائه الحاد ما يمكن أن يحدث له في أيام المذبحة وأخبر عن ذلك كل محبيه مراراً .

في الوقت والزمان المحددين وخلال دقائق معدودة امتلأ الشارعان المحيطان بالجامع الصغير بحوالي ١٥ سيارة حديثة مليئة بأشخاص يرتدون الزي الأسود ومعظمهم يرتدي الستر الواقية ويحملون الرشاشات الحديثة وقاذفات الأر بي جي وفي نهاية الرتل كانت هناك إحدى سيارات الشرطة (تويوتا لاندكروز) .

كان الشيخ عبد المجيد يتوقع هذا اليوم ويحذر محيطيه دائما من يوم مشئوم ،.. خرج للمسلحين بدشداشته ناصعة البياض من بيته المجاور مع أخيه التوأم والأخ الأوسط رافعاً رشاشته وساحباً أقسامها عليهم ..انبطح المهاجمون وكانوا أكثر من ثلاثين على الأرض وتناثروا يميناً ويساراً استعدادا لمواجهة الرشاشة الوحيدة أمامهم ، .. تقدم حامل الأر بي جي موجهاً سلاحه إلى الشيخ وأخويه والمنزل ، وعندها أدرك الشيخ أن المواجهة غير متكافئة.. قال لهم ماذا تريدون، .. قالوا له تأتي معنا ، .. نظر إلى أخويه وردّ عليهم آتي معكم واتركوا الآخرين، .. تقربوا منه وقيدوه وكانوا كلهم ملتحين ولا تكاد تفرق لون بشرتهم عن لون ملابسهم السوداء.

أوفوا بوعدهم.. فقيدوا أخويه وغطوا رؤوسهم بأكياس كتلك التي نشاهدها في

الأخبار ، دخلوا المنزل وكان ابنه زيدون ابن الثالثة عشرة يشاهد ما يجري من سطح المنزل .. لمحه أحدهم فأطلق النار ..، فتشوا كل شيء وحملوا معهم كل ما وجدوه من مال وأجهزة ثمينة ، لم ينفع استنجاد أمهم الشيعية ولا صرخات زوجاتهم وبكاء أطفالهم.. حطموا السيارات بعد أن عجزوا عن تشغيلها عدا واحدة ، فأخذوها معهم.

اختفى الشيخ وأخواه وانسحبت السيارات إلى مكان آخر وكانت سيارة الشرطة في نهاية القافلة ..الهدف الآن آخرين يجمعهم الصلاة في الجامع والسكن في المنطقة ووجود أسمائهم في قائمة طويلة كانوا يحملونها معهم .

في هذه الأثناء اختفت وبشكل غريب عشرات السيارات من سيارات الشرطة التي كانت تجوب الشارع ذهاباً وإيابا طوال ساعات الليل والنهار بصفاراتها التي كانت تبعث الخوف والطمأنينة معاً، ..اختفت الشرطة ولم يعد أحد يسمع أي صفارة ..اختفت الشرطة ليبدأ فصل آخر .

حي المستنصرية الذي يتعايش فيه الشيعة والسنة والأكراد منذ نهاية الستينيات من العقد الماضي تزاوجوا وتآلفوا وتحابوا فيه .. كان وإلى وقت قريب أحد أجمل وأنظف أحياء بغداد وأكثرها حصولاً على الخدمات العامة، .. هذا الحي تملؤه الآن الأوساخ ودخان مولدات الكهرباء ووجوه كثيرة لم يألفها ولم يعرفها من قبل ..بعضهم حديثي النعمة ممن سلخ نفسه من الفقر المدقع إلى مصاف الأثرياء الكبار وبعد سقوط بغداد مباشرة فيما عرف بالفرهود وما بات يعرفون فى العراق الجديد باسم « الحواسم» وهى كلمة تطلق على من شاهدهم العالم على شاشات التلفاز بعد سقوط بغداد فى قبضة القوات الأمريكية وهم ينهبون القصور والبنوك والممتلكات العامة والخاصة .

انتشر الخبر وبدأت الأخبار الأخرى تتوالى بسرعة، ..خطفوا طارق ، ..يبحثون عن نادر ، ..قتلوا فلان ..يبحثون عن الأخوين فلان وفلان .. هجموا على المسجد القريب الأخر وفجروه بالقذائف ،.. يسبون ويشتمون الشباب الشيعة من سكان المنطقة ممن حاولوا التفاهم معهم ووقفهم ،.. أصوات الرشاشات والقاذفات بدأ يتصاعد والصراخ والاستنجاد يتعالى من البيوت التي يهجمون عليها ، ..أين هم ؟ أين الكلاب ؟ .. انضم إليهم البعض من الوافدين الجدد على الحي بعد أن ارتدوا الزي الأسود بسرعة وحاولوا وبغباء أخفاء وجوههم ولكن كل أهل الحي تعرفوا عليهم.

بعد أن اتضحت الصورة وتواردت الأخبار من المناطق الأخرى وبحلول الرابعة عصرا أقفرت الشوارع المحيطة بالحي وهي تؤدي إلى ساحات وشوارع رئيسية في بغداد بل لا يفصلها عن نصب التحرير الشهير سوى جسر واحد لكي تعبره عليك أن تمر من أمام واحد من أكبر قطاعات النجدة التي تتمركز فيه وتنطلق منه سيارات الشرطة وهو لا

يبعد عن الجامع أكثر من مئتي متر !! خلت الشوارع من السيارات ومن قوات الشرطة والجيش والذي بات يعرف بالحرس الوطني ومن الأمريكان أيضاً .. لا حراك سوى لأصحاب الزي الأسود بلحاهم وسياراتهم الحديثة ودروعهم التي يلبسونها .

تحرك البعض واشتغلت أجهزة الهواتف النقالة ، يتصل الصديق بصديقه والجار بجاره.. أين أخذوهم؟ هل تعرف أحد من مكتب الشهيد الصدر؟ .. تتوارد الإجابات . لا أعرف ، ربما فلان يعرف ، نعم أعرف .. دعني أتصل بفلان لأن له علاقة بفلان لعله يعرف .. مئات الاتصالات وسيل من الدموع والحسرة ،.. لقد تحركت الميليشيات السوداء بسرعة ،.. لقد أخذوا الجوامع وأئمتها ومن يصلي فيها على حين غرّة.

الأخ التوأم للشيخ ينظر إلى أخيه وهو يعذب في غرفة أمام عينيه .. بدأوا بكيه بالسجائر وبدأ الشيخ بقراءة القرآن ..لم يتوسل ولم يحني رأسه أبداً .

انتقلوا إلى الكهرباء وبدأوا يصعقونه حيث تطال يدهم من قامته الطويلة ، في صدره، ..بدأ صوت الشيخ يعلوا بقراءة سورة ياسين كانوا ..كلما زادوا بتعذيبهم كان الشيخ يعمد إلى رفع صوته في تلاوته للقرآن و كان ذلك يغيظهم أكثر ..انتقلوا إلى يديه ليشبعوها ضربا و تكسرت يداه ..ظل يقرأ القرآن ، ..شغلوا المثقاب الكهربائي « الشنيور» الذي يطلق عليه العراقيون «الدريل» .. الشيخ يقرأ ويتألم وحركة لا تهدأ في المنزل الذي يتواجد فيه .. نسوة تذهب وأطفال يجيئون ويذهبون ..يطلون برؤوسهم ليشاهدوا بعض المشاهد الحقيقية وهي تجري في يوم جديد من أيام المذبحة .. أخوه التوأم بدأ يبكي بصوت عال ويسترحمهم بأن كفى .. رد عليه الشيخ بأعلى صوته لا تبكي.. أخي .. لا تبكي .. يلتفت إليهم قائلاً : افعلوا ماتشاؤون .. استجاب ذوو الزى الأسود لنداء أخيه سريعاً بعد أن يأسوا من إيقاف الشيخ عن قراءة القرآن .. استجابوا له.. أطلقوا رصاصة الرحمة في رأسه.

المستغيثون عرفوا الخبر وجثته لم تصل بعد إلى الطب العدلي فهواتف «الحرية الجديدة» نقلت الخبر ،.. لا أمل في الشيخ لأن السيد أصدر حكمه ولكن تم قبول الاسترحامات التي وصلت بشأن أخويه .

بعد نصف ساعة من اختطافه تعود الفرقة السوداء إلى الجامع ، تدخله بدون مقاومة لتحرقه بكل ما فيه .

بعد ساعة أخرى قوات من الحرس الوطني تنتشر حول الجامع المحترق .. تعود فرقة سوداء أخرى .. يتهيأ لهم رجال الحرس بتوجيه أسلحتهم نحوهم، .. ينزل أحدهم مع رشاشته ، .. يطلب منه الضابط الابتعاد وإلا أطلق النار ، .. ينزل ذوو الملابس السوداء ولكن هذه المرة مع رشاشات البي كي سي وقاذفات الآر بي جي ، ..

يلين الضابط ويسأل ماذا تريدون ..الجواب حرق الجامع، .. يردّ الضابط الجامع محروق، .. تغادر الفرقة ولكن بعد أن دُخلوا وتأكدوا أن لا شيء آخر يمكن حرقه .

مع عمره الصغير إلاّ أنه كان يعد عدته لمواجهة ربه.. فأوصى قبل استشهاده عن تفاصيل غسله ودفنه .

من غسله شوهدت علامات الصعق الكهربائي في صدره ، ..شوهدت ذراعاه المحطمتان، ..شوهدت كيات السجائر، ..شوهدت علامات رصاصة الرحمة في رأسه.. لم يتسنى سوى لثلاثة أن يرافقوه من الطب العدلي « المشرحة» إلى مثواه الأخير فبغداد تخضع لحظر التجول.

في الطب العدلي شاهدوا مئات الجثث قبل أن يتعرفوا على عبد المجيد حميد الجنابي ،.. كل الجثث مشوهه والكثير منها محروقة وبينها عشرات الجثث لصبية بين العاشرة والخامسة عشرة.

٤٤ - ضباط الجيش السابق

ظهرت على الساحة العراقية وفي ظل الفوضى الأمنية عصابات إجرامية وفرق موت مرتبطة بجهات كثيرة قوى إقليمية تكن كل العداء لضباط الجيش العراقي السابق مهمتها قتل وتصفية ضباط الجيش العراقي السابق وخاصة الضباط الذين يحملون رتبا كبيرة بالإضافة إلى الطيارين الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ حيث استولت العناصر التابعة للحرس الثوري الإيراني بعد غزو العراق على قاعدة المعلومات الخاصة بضباط الجيش العراقي السابق عن طريق عملاء لهم داخل العراق علما إن جهاز المخابرات الإيراني (إطلاعات) لديه معلومات مفصلة ودقيقة عن كل ضابط شارك في الحرب ضد إيران.

ومنذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق في إبريل عام ٢٠٠٣ قتل واعتقل مئات من الضباط العراقيين الذين شاركوا في الحرب العراقية الإيرانية واستمرت عملية استهداف ضباط الجيش العراقي السابق وتصفيتهم حيث تواري المئات منهم عن الأنظار خوفا من الوقوع بيد فرق الموت التي تعمل داخل العراق .

ورغم انتشار الخونة والعملاء الذين نفذوا مخططات تصفية الضباط المنتمين إلى الطائفة السنية غالبا وبعض المنتمين إلى الطائفة الشيعية إلا أن ما يجب ذكره هنا هو أن الكثير من الضباط السنة الذين أفلتوا من نوبة التصفية يؤكدون أن من أنقذهم زملاء لهم من الشيعة الطيبين وروى لي كثيرون منهم كيف كانت عمليات اغتيالهم تفشل بسبب زميل أو مرؤوس لهم يخبرهم في الوقت المناسب

بالمؤامرة ويعمل على إنقاذهم وإبعادهم من مسرح العملية وهو ما حدا بهم إلى الهروب إلى خارج العراق أو الانكفاء على الذات ومزاولة أعمال لا علاقة لها بالعسكرية حتى يبتعدوا قليلا عن فرق الموت التى تستهدفهم .

٤٥ - السباك

عندما بدأت الأمور تتجه إلى الهدوء النسبى منتصف العام ٢٠٠٨ وزاد الطلب على إيجار المكاتب فى العمارة التى يقع بها مقر مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد « عمارة الكبيسى» بدأ ملاكها فى إصلاح ما أفسدته سنوات الوحشة عندما كانت البناية مهجورة تماما ليس بها سوى مكتب الوكالة وأحد المكاتب الأخرى ..طلب منى المشرف على إعادة إعمار البناية التعاون مع السباك المسئول عن إصلاح الأدوات الصحية للعمارة وكان رجلا عبوسا لا يبتسم أبداً رغم ملامح وجهه التى تنطق بالطيبة ووجهه الذى تبرز فيه سمة من يصلون النهار ويقومون الليل إلا أنه كان غاضبا بشكل دائم بلا سبب يبدو مقبولا لى .. ومع استمرار العمل داخل مكتبى جرت بيننا حوارات طويلة أظهرت مدى ثقافته وإطلاع ودقة تحليلاته للأمور وهو ما دفعنى إلى محاولة معرفة الكثير عنه رغم أنه شخص شديد الكتمان والحرص إلا أن المودة التى تولدت بفعل الوقت والظروف جعلته يفصح عما بداخله من قهر لأكتشف أنه كان طيارا حربيا برتبة عقيد وأحد الذين خاضوا معارك ضارية فى الحرب العراقية الإيرانية وأنه اضطر لممارسة مهنة السباكة حتى يتوارى عن الأنظار إلا أنه يعيش فى قلق دائم بسبب استهدافه كما أنه يعيش وضعا نفسيا قاسيا بسبب ما آلت إليه الأمور بالنسبة لضابط رفيع وطيار محترف مثله وهو ما يفسر غضبه وعصبيته الدائمة .

وتصديقا لهذا الأمر نشرت وكالة الأنباء الصينية تقريرا هاما حول تلك القضية وكيف تحول ملوك الجو إلى سائقى سيارات أجرة

بعقوبة ، العراق ٢٤ أبريل ٢٠١٠ (شينخوا) أرغمت الظروف المعيشية الصعبة الكثير من الطيارين العراقيين السابقين بعد الاحتلال الأمريكي للبلاد ، على العمل في مهن بسيطة لتوفير لقمة العيش لأسرهم ، فمنهم من عمل سائق باص أو بائعا في متجر صغير وسط سوق شعبي.

لكن هؤلاء الطيارين في حنين دائم للطيران كونهم يعشقون سماء بلاد الرافدين،ويأملون أن يعود الصقر العراقي، (الاسم الشعبي للطيار) إلى السماء قويا ليحمي أجواء البلاد من الأعداء .

وقال الدليمي ، وهو طيار سابق برتبة عقيد، طلب ذكر لقبه فقط لأسباب أمنية

لوكالة أنباء (شينخوا) « عندما يفقد الصقر لذة الطيران ويرغم على المكوث على الأرض فإنه يعيش ما تبقى من حياته عليلا .. تتطلع عيناه نحو السماء دوما لأنها عشقه الأبدي».

الدليمي ، الذي يسكن في أحد أحياء مدينة بعقوبة مركز محافظة ديالى شرقي البلاد،أشار بيده وهو يجلس في غرفة صغيرة متواضعة إلى الكثير من الصور المعلقة على الجدران، وجميعها تتحدث عن مسيرة حياته في مهنة الطيران الحربي منذ بداية عقد الثمانينات من القرن الماضي وحتى سقوط النظام السابق في عام ٢٠٠٣ ، وقال «إن الطيران مهنة رائعة لايمكن وصفها، أحببتها كثيراً واحترفت قيادة عدة أنواع من الطائرات الحربية وشاركت في الكثير من المعارك وحصدت الأوسمة والأنواط».

وكان سلاح الجو العراقي يضم مئات الطائرات ألحربية الحديثة ومن أنواع مختلفة خلال العقود الثلاثة الماضية، تعرضت أغلبها للتدمير في حربي الخليج الأولى والثانية حتى انتهى الأمر بالطائرات الحربية التي أنفقت ملايين الدولارات لشرائها إلى ركام وسط الأحراش والبساتين، فيما بدأت بوادر لبناء سلاح جو عراقي حديث بدعم أمريكي بداية عام ٢٠٠٤ لكنه لايزال في خطواته الأولى.

وسيطرت نبرة تحمل الألم والحسرة على الدليمي وهو يتحدث عما جرى للقوة الجوية العراقية وكيف دمرت بشكل كبير بعد احتلال العراق من قبل القوات الأمريكية ليرغم مئات الطيارين العراقيين على المكوث في منازلهم ليفقدوا متعة الطيران.

وقال الدليمي : إن «لعنة تاريخنا في عالم الطيران الحربي بدأت تطاردنا بعد سقوط النظام السابق وبدء مسلسل الاغتيالات المنظمة للعديد من الضباط المعروفين في مدينة بعقوبة بين عامي ٢٠٠٤-٢٠٠٥ لذا أرغمت وحفاظا على أرواح أسرتي على أن أهجر منطقتي وأرحل عنها للحفاظ على حياتي».

وتابع «اتخذت قرار الرحيل إلى منطقة أخرى حتى أكون بعيدا عن أعين المتربصين بي، وأفلت من مخططاتهم الإجرامية لكن الأمر ازداد سوءاً لأن الراتب كان ضئيلا جدا لا أستطيع معه توفير القدر الكافي من الحياة الكريمة لأسرتي، لذا أرغمت على اتخاذ قرار آخر وصعب جداً وهو أن أعمل سائق سيارة أجرة لكي أوفر القدر الكافي من المال حتى لا أدع أسرتي بحاجة لشيء».

وقال والألم يعصر قلبه « بالأمس كنت طياراً أجوب سماء البلاد شرقا وغربا، واليوم أقود سيارة أجرة قديمة وأتجول بها في مدينة بعقوبة .. إنها بحق سخرية القدر، لكننا نحمد الله على كل شي في نهاية المطاف».

ووصف الدليمي ما حدث من تدمير لسلاح الجو العراقي عام ٢٠٠٣بأنه مخطط متعمد يهدف لإبقاء العراق ضعيفا دوما، فبدون طيران قوي لا يمكنك أن تحمي البلاد، مبينا أن الخطوات التي تحاول الحكومة العراقية تنفيذها لإعادة بناء القوة الجوية بطيئة وضعيفة جدا.

بدوره قال صلاح الرفاعي، طيار عراقي سابق برتبة مقدم، عندما كان واقفا وسط محل تجاري في سوق بعقوبة، وهو ينظر إلى أطفال صغار يلعبون بطائرات ورقية ملونة ترتفع في السماء في متنزه قريب من متجره، «قضيت كثيرا من الوقت في السماء حتى تخيلت أنني لن أفارقها أبدا ، لكني أرغمت على فراق مهنتي التي أحببتها كثيراً لينقلب بي الحال من طيار محترف إلى بائع في متجر».

ووصف الرفاعي ما حدث للطيارين العراقيين بالأمر المجحف بكل معنى الكلمة بسبب وجود ما أسماها بأجندات خارجية أرادت أن تقضي على جيل كامل من الطيارين الموهوبين الذين كانوا الدرع الواقي لسماء البلاد وأنفقت الدولة العراقية ملايين الدولارات لتأهيلهم.

وتابع «لكن ما حدث بعد الاحتلال فاجعة بكل المقاييس، فقد قتل الطيارون وفق مخططات منظمة وأرغم الكثير منهم على الهرب خارج البلاد للخلاص من الموت المحقق، أما من تبقى فقد اختفى عن الأنظار وعمل في مهن مختلفة من سائق باص إلى صاحب متجر إلى أعمال ومهن أخرى لايمكن أن تقارن بأي حال من الأحوال بمهنة الطيران».

وأكد الرفاعي أن الطيارين العراقيين لم يكن ولاؤهم لنظام أو طائفة أو قومية، بل للعراق فقط، والساسة العراقيون يدركون الأمر جيدا لكنهم قبلوا أن يبعدوا أصحاب الخبرة والمهنية عن العمل لتبقى القوة الجوية العراقية ضعيفة لايمكنها مواجهة أية أخطار، وهذا ما يريده الاحتلال الأمريكي .

وأشار إلى أن هناك إهمالاً حكومياً لشريحة الطيارين السابقين، مبينا أن بعضهم تلقى عروضا للعمل خارج البلاد لكنهم رفضوا ذلك وفضلوا البقاء في بلادهم لأنهم فقدوا متعة الطيران في سماء العراق ولايرغبون أن يفقدوا لذة العيش على أرضه .

يذكر أن المئات من الطيارين وكبار ضباط وقادة الجيش العراقي السابق اغتيلوا على أيدي جماعات مسلحة مجهولة خلال السنوات السبع الماضية وخاصة في عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق.



الفصل الثالث

إعدام صدام



١ - النهاية

قبل أن يمضى عام ٢٠٠٦ الذى أرسى قواعد زمن المذبحة .. أراد سلاطين الخوف الذين توحدت إرادتهم مع السلطة الحاكمة أن يحفروا فى أذهان العراقيين والعالم مشهد النهاية لعصر صدام حسين من خلال مشهدَ إعدام الرئيس الذى تناقلته كل شاشات العالم ، لتغيِّرَ دقيقتان وثمانية وثلاثون ثانية ألملامح المميزة لطقوس ذلك اليوم الذي صادفَ أول أيام عيد الأضحى عند العرب السنة [١] حيث اعتاد العراقيون أن يحتفل السنة بالعيد على يومين وأحيانا ثلاثة فالسنة يبدأ عيدهم مع المملكة العربية السعودية ويليهم الشيعة التابعون للمرجع الأعلى آية الله على السيستانى وفى أحيان أخرى يتأخر أتباع الصدر ليوم آخر أو يستجيبون لتوقيت السيستانى .

في السادسة إلا خمس دقائق تقريبا من صباح يوم السبت، الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) عام ٢٠٠٦، الموافق العاشر من ذى الحجة جاءنى صوت زميلى عمر محمد مراسل قناة « الحرة عراق» ليؤكد تنفيذ حكم الإعدام شنقا فى « السيد الرئيس» بعد ليلة طويلة من السهر انتظارا للخبر الذى احتل شاشات وصفحات الجرائد فى العالم الذى كان يترقبُ آنذاك تصريحات المسؤولين العراقيين، ليلة وقفة عيد الأضحى : .. بعضها صدَر عن «مسؤول بارز» في وزارة العدل،.. وبعضها الآخر لـ«مسؤول رفيع المستوى»، فضّل عدم الكشف عن هويته، لتزيد ضبابية الموقف، ولا يحسمها تناقل وسائل الإعلام تأكيد القاضي في محكمة التمييز منير حداد بأن «كل الإجراءات تم اتخاذها.. أنا جاهز للحضور ولا يوجد سبب للتأجيل».

يتأخر رئيس الوزراء نوري المالكي في إعلانه الصريح لموعد تنفيذ الإعدام، وإنْ نُسبَتْ إليه تصريحات أطلقها حلفاؤه، لكن بعد تصريحه المتلفز الشهير ليلة الجمعة «لا رجعة في الحكم ولا تأخير في تنفيذه» .. راحت ردود الفعل العراقية، الرسمية والشعبية، تغذي الانقسام الطائفي الذي تفجرٍ ويزداد عمقا يوما بعد يوم .

إعدام صدام الذى غيَّر كثيراً من ملامح العيد في ذلك اليوم، وجعل أطفالاً يُقلدون تفاصيلها، فيلقى تسعة منهم حتفهم في أنحاء مختلفة من العالم وفق تقرير لوكالة أنباء «رويترز»، كان لها جزء ثانٍ سرعان ما ظهر وغذّى الانقسام

(١) جرت العادة بالعراق أن يحتفل الشيعة بالعيد سواء الفطر أو الأضحى بعد يوم من احتفال السنة وفقًا لحساباتهم الفلكية .

الطائفي، عراقيا وعربيا.

اعتبر السنّة العراقيون التوقيت تجاوزا على النصوص الدستورية، التي تحظر الإعدام في يوم العطل، ورأوا أن الهدف الحقيقي كان إيذاء مشاعرهم، خصوصا وأن الطائفة الشيعية تحتفل بعيد الأضحى بعد يوم واحد من السنّة.

وذهَب المزاجُ الشعبي نحو تأويل مرامي التوقيت، حدّ ربطه بقصدية أن يتمّ التعبير عن إعدام صدام يوم عيد الأضحى باعتباره «أضحية»، وهو القول الذي قاله صراحة مستشار الأمن القومي العراقي موفق الربيعي قبل تنفيذ الحكم الذي كان صدر قبل عشرين يوما من تنفيذه، وكان يحتاجُ إلى عشرة أيام أخرى حتى يخرج إلى حيِّز التنفيذ، ما يعني، وفق الرؤية المعارضة، إصرارا مستميتا لأن يكون الإعدام صبيحة يوم العيد.

لكن خطوة الإعدام، بتوقيتها والملابسات التي حدثت أثناءها، لم تلقَ ترحيباً حتى من ألدِّ أعداء صدام، فباستثناء تأييد إيران، وارتياح الولايات المتحدة والدول الحليفة مثل إسرائيل، فإن الباقين عبروا بحذر، وكان أبرز ردود الفعل هذه تعليق الكويت التي احتلها الجيش العراقي في عهد صدام لسبعة أشهر في العام ١٩٩٠، إذ اعتبرت الجارة الجنوبية للعراق حادثة الإعدام «شأناً عراقياً داخلياً»، بينما استغربتْ المملكة العربية السعودية، تنفيذ الإعدام فجر يوم عيد الأضحى، ورأته «تلويحاً ضد المسلمين السنّة».

أما الفقرة الثانية في مسلسل الشحن الطائفي الذي كرسه إعدام صدام فجر يوم عيد الأضحى فهو الشريط الذي تسرّبَ عبر موقع «اليوتيوب»، وتضمن تفاصيل لم تظهر في الشريط الذي بثه الإعلام الرسمي العراقي في الساعة الثامنة من صباح يوم الإعدام ، ودعمت «فرضية الانتقام الشيعي»، لدى السنّة؛ إذ يُسمع عدد من الحاضرين يرددون: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وعجّل فرجه والعن عدوه»، وهو دعاء شيعي يتمنى خروج المهدي المنتظر والنصر على أعدائه يردده أنصار التيار الصدري.

ويرد صدام: «هي هاي المرجلة»، عندما يصرخ أحدهم «مقتدى مقتدى مقتدى»، قاصداً الزعيم الشيعي مقتدى الصدر، وهو الابن الرابع للزعيم الشيعي محمد صادق الصدر الذي اغتيل في فبراير عام ١٩٩٩، واتهم النظام العراقي السابق بقتله.

وباتتْ مفرداتُ الحادثة مفتوحة للقراءات الموجّهة، فمكان الإعدام في قاعة الاستخبارات العسكرية العراقية السابقة،» الشعبة الخامسة» والتي كان صدام يوجّه منها الحرب ضد إيران (١٩٨٠ــ ١٩٨٨)، والحبلُ تم عقده بـ ٣٩ عقدة، وفق محامي الرئيس الراحل، خليل الدليمي، وهو عدد الصورايخ التي أطلقها صدام على

إسرائيل في حرب الخليج الثانية.

التفاصيل، التي تناسلتْ وحلّت مكان أحاديث العيد السودودة في ذلك اليوم، تراءى لها خيال الصدر ضمن الملثمين الذين ظهروا على منصّة الإعدام، وأصوات صراخ توزّعَ تحليل مصادرها على الأيام الأربعة التي سجلت حادثة لم يشهدها العصر الحديث .

وكما كان صدام حسين مثيرا للجدل فى حياته فقد آثار جدلا أكبر بمماته وتباينت الآراء حول الإعدام ، لم يؤيده علنا إلا الولايات المتحدة،واستراليا وإسرائيل، وإيران هذه الأخيرة اعتبرت كذلك أن الحدث يشكل نصراً للعراقيين ، أما الكويت فقد اعتبرت الامر شأنا عراقيا. الفاتيكان استنكره واعتبره فاجعة، والاتحاد الأوروبي اعتبره خطأ فادح،روسيا أدانت الولايات المتحدة رسميا لعدم الإصغاء للمجتمع الدولي، على الصعيد العربي تحفظت معظم الدول العربية على التعليق إلا ليبيا أعلنت الحداد، السعودية استهجنت واستغربت إعدامه فجر عيد الأضحى فيما يبدو تلويحا ضد المسلمين وذكرت في بيان رسمي أن المحكمة باطلة كونها أنشئت في ظل احتلال وإعدامه قد يؤجج الصراع الطائفي في العراق وذكر البيان بأن محاكمة رئيس دولة حكم أكثر من ٣٠ عاماً تمت بسرعة وبطريقة هزلية وغير قانونية ونفس الموقف عبر عنه رئيس أفغانستان حامد كرزاي وبيان مصر،ماليزيا التي كانت تتولى رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامي استنكرت الإعدام وشن رئيس وزرائها السابق مهاتير محمد هجوما على أمريكا واصفا الإعدام بهمجية جديدة للرئيس بوش ، حماس التي تتولى رئاسة الوزراء بفلسطين اعتبرته اغتيالا سياسيا وكذلك حركة الإخوان المسلمين وجميع فصائل المقاومة بفلسطين.

٢ - ضمير قاضي الإعدام

القاضي منير حداد الذي أعدم صدام حسين كان أول قاض بعد زميله رائد جوحي التقى صدام عقب اعتقاله، وكان يشغل منصب نائب رئيس المحكمة الجنائية العراقية العليا وأحد القضاة السبعة الذين وقعوا على إعدام صدام وكل من عواد البندر، وبرزان التكريتي، وجددوا العقوبة على طه ياسين رمضان من الحكم بالسجن المؤبد إلى الإعدام.

يروى القاضى الكردى أنه في ٢٣-١٢-٢٠٠٦، ذهب إلى قاضي التمييز زهير عبد الصاحب وطلب اليه اكمال القرار التمييزي في قضية الدجيل خلال فترة لا

تتجاوز ٤ أيام، فوافق لكنه فوجيء به يقول «إنني قد شملت بقرار الاجتثاث من قبل «هيئة اجتثاث البعث» بدعوى انني كنت بعثيا، فيما أنا برئ من ذلك ولا علاقة لي بالبعث، لذا أريدك أن تتدخل لدى رئيس الوزراء نوري المالكي شخصيا لرفع هذا الحيف الذي لحق بي».

توجهت إلى المالكي وعرضت عليه الأمر فقال «لا مانع من استثنائه ورفع الحيف عنه».

في ٢٦-١٢-٢٠٠٦، اجتمعت الهيئة التمييزية للمحكمة بحضور سبعة من أعضائها التسعة، لأن العضو الثامن كان في الحج، والتاسع كان يتمتع بإجازته في محافظة أربيل.

خلال هذا الاجتماع تم تصديق الحكم بالإعدام على صدام حسين وعواد البندر وبرزان التكريتي مع المصادقة على تشديد الحكم من المؤبد إلى الإعدام على طه ياسين رمضان.

بعدها، وصل وفد قضائي أمريكي برئاسة سيدة أمريكية تحمل الدكتوراه في القانون الدولي الجنائي بعنوان تقديم المشورة لنا، لكننا انتهينا من صياغة المصادقة على الحكم قبيل وصول هذا الوفد، وقد علموا من خلال وسائل الإعلام أننا قد انتهينا من تحرير صياغة قرار التمييز بالإعدام.

وفي ٢٩-١٢-٢٠٠٦، اتصل بي مكتب رئيس الوزراء طالبا حضوري، فتوجهت إلى هناك ووجدت المالكي جالسا مع مدير مكتبه الدكتور طارق نجم العبدالله، ومستشاره السياسي صادق الركابي، فسألني «شنو عندك؟» أي ماذا عندك؟

فقلت له: غداً أسافر إلى هولندا في إجازة. فرد علي «أنت لا تسافر وأنت الذي تنفذ حكم الإعدام بصدام، إذا كان ذلك جائزا من الناحية القانونية؟».

فأجبته «نعم، يجوز، وفي أصول المحاكمات الجزائيّة عدة مواد تتعلق بتنفيذ أحكام الإعدام وإجراءاتها تجيز ذلك».

فقال لي رئيس الوزراء «على بركة الله».

في ليلة تنفيذ الحكم اتصل بي هاتفياً رئيس المحكمة عارف شاهين من محافظة السليمانية بعد أن عرف أن الحكم سيتم تنفيذه غداً، وقال لي «لا تعدم صدام حسين، واطلب من رئيس الوزراء إرجاء التنفيذ، لأننا لم نعلم بعد، من له صلاحية التنفيذ، الرئيس جلال طالباني أم رئيس الوزراء؟». لكنني لم أبلغ المالكي بذلك إلا بعد التنفيذ وتحديدا خلال استقباله للمهنئين بعيد الأضحى، وكان من بينهم

رئيس أركان الجيش ومجموعة من كبار الضباط.

سمعت أن السفير الأمريكي السابق في بغداد زلماي خليل زاد قد اتصل هاتفيا برئيس الوزراء طالبا منه تأجيل التنفيذ، لكن المالكي رفض بشدة وهدد بتقديم استقالته عبر وسائل الإعلام بسبب تدخل أميركا في الشأن القضائي، فتراجع السفير الأمريكي عن طلبه.

في الساعة الخامسة والربع من صبيحة يوم ٣٠-١٢-٢٠٠٦ توجهت إلى مبنى مديرية الاستخبارات العسكرية السابقة، والتي هي الآن «سجن الحماية القصوى» الكائنة في الكاظمية، جلست هناك في غرفة مع وزير العدل، والمدعي العام، وقد أدخل علينا صدام حسين مكبلا وهو يحمل نسخة من القرآن الكريم بيده. .جلس على الكرسي وبقي يردد «لعنة الله على الأمريكان والإيرانيين، أنتم في النار ونحن في الجنة، المجد والخلود للعراق والأمة العربية، تعيش فلسطين».

تلوت عليه قرار محكمة الجنايات الأولى بإعدامه شنقا حتى الموت ثم القرار التمييزي بتصديق حكم الإعدام، ثم تلي عليه الأمر الديواني الموقع من رئيس الوزراء، فبقي يشتم بصوت عال، وكان أحد أفراد الشرطة الموجودين معنا، قال له «ليش حطمتنا وحطمت البلد بالحروب على إيران والكويت؟»، فرد على الشرطي بالقول «أنا حاربت أعداء العراق والأمة العربية».

ثم سأله المدعي العام «لمن تهدي قرآنك الذي بيدك؟»، فأجاب: «للمحامي بدر عواد البندر» أحد محاميّ الدفاع عن صدام.

فأخذ المدعي العام منه القرآن ثم اصطحبناه إلى مكان المشنقة وأثناء صعوده اليها، قلت له: «لا يوجد معنا رجل دين، فقل لي وصيتك لأوصلها بأمانة». فرد علي قائلا «تعيش ليست لدي وصية».

رفض صدام وضع الكيس في رأسه.. وقد تم شنقه فوقع سريعا ومات في الحال».

طلبت من المستشار السياسي لرئيس الوزراء صادق الركابي سيجارة لأدخن، ففتح علبة التدخين ووجد فيها سيجارة واحدة أعطاني إياها فرفضت.

أحسست أن الدنيا لا تساوي شيئا وقلت للركابي في حينها هذا صدام الذي كان الناس يخشون ذكر اسمه معلق في حبل المشنقة فحصه الطبيب وتأكد من موته، ثم قمت بتنظيم محضر تنفيذ الحكم ووقعت عليه ثم وقع عليه أيضا المدعي العام، وممثل رئيس الوزراء والطبيب، ورئيس السجن.

كنا ١٤ شخصا عدنا كل ٧ أشخاص بطائرة مروحية إلى المطار في المنطقة

الخضراء وكانت إحدى هاتين الطائرتين تحمل جثة صدام حسين مع الأشخاص السبعة فيما صعدت أنا الطائرة الأخرى

هبطت الطائرتان في المطار، وأقلت إحدى سيارات الإسعاف جثة صدام إلى منزل مجاور لمنزل رئيس الوزراء، وفي اليوم نفسه وصل وفد من محافظة صلاح الدين برئاسة نائب المحافظ عبد الله جباره الجبوري وطلبوا نقل الجثمان إلى هناك ووافق المالكي فتم نقله .

٣ - الحاكم رزكار

تبقى مسألة استقالة القاضي رزكار محمد أمين من رئاسة المحكمة التى أدانت الرئيس السابق صدام حسين فى قضية الدجل وأسبابها، من المسائل ذات الأهمية البالغة، ومن الأحداث البارزة في تأريخ القضاء العراقي في العصر الحديث.

ينادونه فى إقليم كردستان حيث يقيم « الحاكم رزكار» ويحظى باحترام شديد لدى الجميع حكاما ومحكومين .. يرفض الحديث عما دار فى الغرف المغلقة وخلف الستار ودفعه للاستقالة والتخلى عن الشهرة التى تتيحها محاكمة شخص مثل صدام حسين الذى كانت وقائع جلسات محاكته تنقل على شاشات التلفاز يوميا الا أنه قال ذات مرة عندما سئل عن إعدام صدام حسين « هناك إشكالات قانونية في مسألة ضرورة صدور المرسوم الجمهوري بالتنفيذ و اختيار يوم العيد و العطلة الرسمية للتنفيذ فبموجب المادة (٢٩٠) من قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي رقم ٢٣ لسنة١٩٧١ المعدل لا يجوز تنفيذ عقوبة الإعدام في أيام العطلات الرسمية و الأعياد الخاصة بديانة المحكوم عليه » .. كما لم تمض مدة ثلاثون يوما على تصديق الحكم .

بعد حوالي عامين على استقالة رزكار المسببة نشر خطاب الاستقالة عبر مواقع للانترنت .. وللحقيقة فإننى حاولت التأكد من الرجل شخصيا عن هذا الخطاب لكن الظروف حالت دون لقائى به حيث يقيم فى إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق .. الا أننى آثرت أن أنشر الخطاب كما هو منشور فى أكثر من موقع ربما يتيح دلالات معينة عن حقيقة ما جرى قبله وبعده رغم عدم اهتمام الصحافة العربية بهذه الاستقالة ، إلا أن نص الاستقالة يستحق النشر والتوثيق نظراً لأهميته التاريخية والقانونية.

نص خطاب استقالة القاضي رزكار محمد أمين

السيد رئيس المحكمة الجنائية العليا.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد...

أتقدم بوافر التقدير والاحترام لسعادتكم وأقدم لكم كتاب استقالتى من إدارة محاكمة الرئيس صدام حسين والآخرين الذين معه. استقالة مسببة... وللتاريخ فإننى أضع أسبابها بين أيديكم راجياً تحقيق العدالة فى عراقنا الحبيب.

١- أنتم تعلمون سعادتكم مدى فداحة الضغوط التى تمارس على إدارة المحكمة من قبل السلطة الحاكمة الحالية، ضغوط دولية وسلطوية لا يمكن للفرد ومهما يكن أن يتحملها، ولا يمكن لأى فرد يملك قليلاً من الشرف أن يتقبلها... فهؤلاء يا صاحب السعادة لا يريدون محكمة تحاكم الرئيس صدام حسين وأصحابه بل يريدون منّا أن نأخذ دور ممثلين فى مسرحية يتم تأليفها وإخراجها من قبلهم.

٢- عظمة هذا الرجل صدام حسين وشيبته ووقاره، والحق الذى يقف به أمام المحكمة، تجعل إدارة المحكمة فى موقف ضعف لا تحسد عليه وتجعلنا فى حيرة من أمرنا وصراع كبير بين ضمير عاشق خالص مع بعضه لهذا الرجل العظيم وبين ما يملى علينا من رغبات لمجاميع طائفية لا تملك فى تلك المحكمة غير الحقد والكراهية والطائفية.

٣- وفوق عظمة هذا الرجل تأتى عظمة القانون والشرع الذى لا تملكه محكمتنا هذه، فلا قانون سابق يؤهلنا لنحاكم هذا الرجل، ولا قانون جديد يشّرع لنا محاكمته على أعمال قديمة، فانتهينا إلى شعور بأننا أصبحنا مفضوحين أمام ضمائرنا وعيون الشعوب الشريفة.

هذه أسباب، وهناك أسباب أخرى كثيرة، قد أستطيع أن أذكر منها؛ إجلالى وتقديرى لشخص هذا الرجل وثقتى بنزاهته وتجرده من أطماع يتقاتل عليها الفرقاء.

عليه أرجو قبول الاستقالة التى لا رجعة فيها ومهما كانت الأسباب... وكان الله فى عون من سوف يجلس على كرسينا هذا حتى ولو اختاروا بديلاً مصنوعاً من الخشب فو الله إن وقف هذا البديل أمام ذاك الرجل فسوف يحى فيه ضميره الخشبي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رزكار محمد أمين

قاضى محكمة الرئيس صدام

الاثنين ٣ ربيع الثانى ١٤٢٧ - ١ مايو/ أيار ٢٠٠٦.

٤ - عار

يقول المثل الأمريكى « الغضب ريح قوية تطفىء نار العقل »

مهما كان العدو فإن للموت قدسية وللميت احترام ولجثته هيبة .. تفرض كل الشرائع والأعراف احترام لحظات الموت .. إلا أن ما حدث وجرى فضحه ساعة إعدام صدام كان عارا بكل المقاييس ربما لم يدرك منفذوه مدى رسوخه على مدى التاريخ ملتصقا بهم بعد أن قادتهم شهوة الانتقام إلى ارتكابه .. فبعد تنفيذ الإعدام بساعات قليلة انتشر فيلم تم التقاطه بهاتف محمول على الانترنت يصور اللحظات التى سبقت تنفيذ الإعدام .. وعلى الرغم من أن مروجى هذا الفيلم أرادو التشفى وتكريس النصر على العدو إلا أنهم كرسوا انتصاره عليهم بظهوره هادئا متماسكا حيث نطق الشهادة وتجاهل شعارات عدم الاحترام من حوله وواجه الموت مبتسما وهو يقول لمن وقفوا يتشفون فيه « هى هاى المرجلة» أى «هذه هى الرجولة ؟؟ » وقد أسهم هذا الفيلم خلافا لما أراد مروجوه فى التشكيك حول كل الإعلانات الرسمية حول ارتعاده من الموت وانهياره لحظة تنفيذ حكم الإعدام كما صرح مستشار الأمن القومى صاحب التصريحات المثيرة للجدل والتى ظهرت عدم صدقيتها فيما بعد سواء لحظة اعتقال صدام أو لحظة إعدامه .

٥ - مشهد الإعدام

شريط إعدام صدام عبارة عن فيلم صُوِّر بواسطة جهاز هاتف محمول مزود بكاميرا تصوير مدته ٢:٣٨ دقيقة ،عرضته قناة الجزيرة ،يصور أخر لحظات لإعدام رئيس العراق السابق صدام حسين في منظر غير رسمي احتفالي وكأنه كان انتقاميا بعكس ما صرحت به الحكومة العراقية أنه لم توجه أي إهانات لصدام حسين وتمت العمليه بكل احترافية واحترام ويعتقد على نطاق واسع أن أحد عناصر فرقة الإعدام واسمه علاء وهو من مسلمي العراق الشيعة هو مصور الشريط حيث يظهر الفيلم أنه كان يهتف باسم محمد باقر الصدر بلهجة أهل جنوب العراق وقد قام أحدهم بمناداته باسم علاء.

يظهر الفيلم قاعة بارتفاع ما يقرب من خمسة أمتار بأحد مباني المخابرات العراقية السابقة و تحديدا مبنى الشعبة الخامسة في الكاظمية شمال العاصمة بغداد يوجد بها منصة على ارتفاع ثلاثة أمتار حيث قام المصور بالتصوير بالقرب من درج حديدي على يسار القاعة يؤدي إلى المنصة حيث ظهر صدام حسين وقد

قيدت يداه إلى الخلف ويوجد عدد من الرجال المقنعين بلباس مدني حوله.

ويصور الفيلم رفض صدام ارتداء الكيس الأسود لتغطية رأسه ثم قوله : «يا الله».

ثم تقدم صدام باتجاه المشنقة ووقف على المنصة بهدوء محاطاً بالحراس وقام احد الحراس بلف الكيس الأسود على رقبتة ومن ثم لف حبل الإعدام والأنشوطة على يسار صدام.

ثم سمع عدد من الحاضرين يرددون «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، وعجل فرجه وانصر على عدوه» (وهو دعاء شيعي يتمنون خروج المهدي المنتظر والنصر على أعدائه).

ثم صرخ أحدهم «مقتدى مقتدى مقتدى».

فرد صدام عليه وقال : «هي هاي المرجلة» (وهي باللهجة العامية للعراقيين وتعنى هل هذه هي الرجولة ؟).

وهو مبتسم باستهزاء واضح في الفيلم.

ثم سمع أحد الحاضرين يقول «إلى جهنم».

وهتف آخر «عاش محمد باقر الصدر».

من جانب صدام تجاهل الصياح وردد صدام «أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله».

فقال آخر ويعتقد أنه المدعى العام منقذ آل فرعون «يا إخوان أرجوكم الرجل في إعدام، أرجوكم».

وقد أكمل بعض المجتمعين بالهتافات مشابهة.

وقام أحد الحراس فطلب من صدام إعادة الشهادتين.

وما أن أعاد صدام تكرار الشهادتين حتى سمع صوت طرقعة يعتقد أنه صوت فتح البوابة الحديدية تحت أقدام صدام ويسقط في حفرة الإعدام.

ثم سمع صوت أحد الحضور يصيح «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد».

وصرخ آخر «سقط الطاغية لعنة الله عليه».

وساد الصياح والهتاف في القاعة وسمع كلمات ليست عربية يعتقد أنها فارسية.

ثم ظهرت صورة صدام وهو معلق وينظر إلى أعلى .

أصدرت الحكومة العراقية أوامر بالتحقيق حول من قام بتصوير هذا الفيلم ومن هم الأشخاص الذين هتفوا في غرفة الإعدام كما أمرت بإغلاق قناة الشرقية والزوراء اللتين عرضتا الشريط بحجة التحريض..مساعد المدعي العام أكد أن الذين صوروا الفيلم بكاميرا هاتف محمول كانا مسؤولين رفيعي المستوى شهدا الإعدام، ورسميا لم يعلن عن أن مسؤول حضر تنفيذ الإعدام باستثناء موفق الربيعي مستشار الأمن القومى فى ذلك الوقت .

٦ - الفرعون يرقص

أظهر شريط فيديو جديد بعد يوم من عملية الإعدام جرت وقائعه عند تسليم جثة صدام حسين التى سيرد ذكر تفاصيلها ووقائعها لاحقا على لسان الرجل الذى وقع وثيقة الاستلام وهو عبد الله جبارة نائب محافظ صلاح الدين .. أظهر الفيلم المدعي العام لمحكمة الدجيل منقذ الفرعون الذى رأس هيئة الادعاء العام في قضية الأنفال بعد أن كان نائب رئيس هيئة الادعاء في قضية الدجيل التي أدين بها صدام حسين .محمولا على الأكتاف بعد خروجه من بناية رئاسة الوزراء مرددا شعارات طائفية مع العشرات من المسلحين العسكريين والمدنيين احتفالا بإعدام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، ويظهر أيضا جثمان صدام وقد بدت جروح في وجهه تؤكد تعرضه للضرب بعد عملية الإعدام وهو ما نفاه جبارة لي شخصيا وأكد أن الجثمان كانت به فقط اثر حبل الإعدام .

وفي الشريط الذي امتد دقيقتين وخمسين ثانية يظهر المدعي العام في محكمة الدجيل منقذ الفرعون الذي كان مكلفاً بالإشراف علي نقل الجثة من مقر الاستخبارات العسكرية في حي الكاظمية شمال بغداد، حيث جري تنفيذ الحكم، إلى المنطقة الخضراء المحصنة وسط العاصمة حيث تم تسليم الجثة إلى وفد من صلاح الدين لدفنها فى مسقط رأس صدام فى قرية العوجه .

وردد الفرعون مع عشرات المتظاهرين الذين حملوه علي الأكتاف شعار «منصورة يا شيعة حيدر» ، قبل أن تمر التظاهرة أمام مبني رئاسة الوزراء، وينقل إلى سيارة الإسعاف جثمان الرئيس السابق، بعد نحو ساعة من إعدامه، وقد لف بقماش أبيض، وبادر أحدهم إلى رفع القماش عن وجهه فيما ردد بعضهم عبارات السباب.

«وين الحاريك وينه» وتعنى باللهجة العراقية « أين الذى حاربك يا أنصار الإمام على» «صدام النذل وينه».

وسمع في شريط الفيديو صوت أحد الأشخاص الأربعة في داخل سيارة الإسعاف يطلب من الطبيب المشرف على الجثمان بالقدوم منبهاً على ضرورة استحصال نسخة من الشريط كما يحث ملتقط الفيديو على الإسراع في عملية التصوير، كما شوهد عدد من المتظاهرين يرقبون الجثمان من خلال شباك سيارة الإسعاف، واقترب مصور الفيديو من الجثمان المسجي، بعد كشف وجه صدام حسين الذي بدت آثار خدوش واضحة علي خده الأيسر، كما ظهر جرح قطعي في رقبته وآثار دماء بجوار فمه، وهو ما نتج عن عملية الإعدام.

٧ - أفراح بنى مالك

يقول الكواكبى « المستبد، فرد عاجز، لا حول له ولا قوة، إلا بالمجدين له».

فى الوقت الذى كانت مناطق داخل المنطقة الخضراء تشتعل احتفالا بإعدام صدام .. بينما تجرى فى غرف مغلقة مفاوضات حول مصير الجثة وإذا ما كان سيتم دفنها فى مكان سرى أو يجرى تسليمها إلى ذوى صدام لدفنها فى مسقط رأسه .. كانت حركة غير عادية من نوع آخر تجرى فى منزل رئيس الوزراء نورى المالكى داخل المنطقة الخضراء حيث كانت الاستعدادت على قدم وساق تجرى للاحتفال بزفاف ابنه أحمد ليلة إعدام صدام حسين .

ورغم أنه لم يتسنى لي التأكد من حقيقة وجود ترتيب مسبق أن يتم الاحتفال بعرس أحمد نورى المالكى ليلة تنفيذ حكم الإعدام فى صدام حسين أم لا .. إلا أن مظاهر البذخ التي تخللت حفل العرس والتى منعت السلطات تصويرها بأى شكل بعد أن تمت مصادرة كاميرات وهواتف المدعوين تؤكد أن حفل الزفاف ربما يعنى لأصحابه فرحتين .. فرحة النصر على عدو وإدخال الحزن إلى قلوب ذويه ومؤيديه يوم الاحتفال بعيد الأضحى .. وفرحة النشوة بإتمام العرس فى الليلة التى يحتفل بها الشيعة بعيد الأضحى أيضا / يحتفل الشيعة عادة بالأعياد بعد يوم من احتفال السنة ما عدا عام ٢٠٠٨ وما تبعها حيث أمر المرجع الشيعى الأعلى بالعراق آية الله على السيستانى بالاحتفال بالأعياد فى يوم واحد /.

ويفسر البعض إصرار نورى المالكى على تنفيذ حكم الإعدام فى هذا اليوم تحديدا وهو يوم عطلة رسمية وتهديده للسفير الأمريكى زلماى خليل زاد بأنه سيعقد مؤتمرا صحفيا يفضح فيه التدخلات الأمريكية فى الشأن الداخلى العراقى ما لم يوافق الأمريكيون على تسليم صدام لإعدامه هو دليل على ما أشيع من أن المالكي أقسم أمام ابنه وعدد من النسوة أن رأس صدام هو هدية المباركة

لابنه وزوجته وأنها المفاجأة التي أعدها لهذا الزفاف منذ شهرين وقد حضر الحفل الذى جرى وسط مظاهر من البذخ الشـديد عسـكريون أمريكيـون وموظفـون وموظفات من السفارة الأمريكية حيث منع رجال الحماية جميـع النسـاء مـن اصطحاب الهواتف النقالة باستثناء إسراء ابنة المالكي نفسه التي كانـت تصـور بكاميرا ديجتال نوع سوني .

يقول الكاتب الصحفى الأمريكى الشهير توماس فريدمان « إن ما جـرى يـوم السبت أقرب إلى طقس الانتقام القبلى العشائرى منه إلى بلوغ العملية الدستورية العراقية ذروتها ».

ويقول جى سيمبسون مراسل البى بى سى فى بغداد « إن مشهد إعدام صـدام حسين بدا كما رأيناه عملا قبيحا ومهينا فى مجمله ويحمل إلى الذاكرة صـور ومشاهد الإعدامات العامة التى شهدها القرن الثامن عشر أكثر من أن تكون لـه علاقة بممارسة العدالة المسئولة المعتبرة فى قرننا الحالى » .

ويقول الكاتب اللبنانى طلال سلمان تعليقًا على ما حدث « من السهل نسـبة هذه الجريمة إلى الاحتلال وهذا صحيح لكن هذا المتطوع لأن يتحمل المسئولية لا يقل خطورة عن الديكتاتور الذى تحول صبيحة الأضحى إلى شهيد للأمـة التـى قاتلها أو قاتل حتى يكاد يقتلها جميعا» .

٨ - العودة

كما شابت عملية اعتقال صدام ومحاكمته وإعدامه أمور لم يكشـف عنهـا بالكامل حتى الآن وبينها مخالفات ومغالطات وأحداث اختلط فيها الواقـع مـع الخيال والرغبة فى الانتقام مع المطالبة بالقصاص العادل ..إلا أن الساعات التى تلت تنفيذ حكم الإعدام وخاصة مفاوضات الساعات الأخيرة التى سبقت دفنـه .. وصراع الإرادات بين من يريد طمس قبره إلى حين .. ومن يريـد الفـوز بالجثـة لإعادة الانتقام من جديد .. ومن يريد اقتناص فرصة للثراء إذا ما بـاع الجثـة لأعداء انتظروا كثيرا انتهاء عصر جمهورية الخوف التى أسسها صدام على مدى فترة حكمه للعراق داخليا وخارجيا .. وبين من يرى أن صدام ليس شخصًا عاديًـا وانما هو رمز لدولة العراق .. وأنه يجب أن يتم دفنه بشكل يليق برئيس جمهورية سابق أو على الأقل دفنه بكرامة فى مسقط رأسه كما أوصى .. وبين من يريد أن يتم دفنه بشكل اعتيادى يحمل بعض اللياقة برجل كتب بعض سـطور التـاريخ بقراراته وحروبه وصداقاته وعداواته حتى تنتهى الأسطورة بهدوء ويغلق باب ردود

الفعل التى تسكب الزيت على نار العراق المحترق بفعل الفتنة الطائفية التى تأكل أبناءه من سنة وشيعة .

رجل واحد كانت عنده خيوط اللعبة .. يعرف حدود التفاوض .. مخاطر الانتظار بلا قرار .. مكامن الخطر فى تعثر سير المفاوضات .. مكامن القوة لدى الكارهين ومكامن القوة لدى المحبين .. سيناريوهات الرعب التى تنتظر البلاد والعباد إذا جرى ما يسوء بسبب إغفال أى احتمال فى عملية تسلم الجثة ونقلها ودفنها .

عبد الله حسين جبارة الجبورى نائب محافظ صلاح الدين وقت الأزمة .. ضابط سابق فى الجيش العراقى يتحدث الإنجليزية بطلاقة .. له امتداد عشائرى وعائلى عريق .. يحكم محافظة صلاح الدين فعليا منذ أن أسند إليه محافظها الأسبق اللواء حسين جاسم جبارة مهام التنسيق مع القوات الأمريكية عندما تولى منصبه كأول محافظ لصلاح الدين عقب الاحتلال الأمريكى .. يرتبط بعلاقات طيبة مع العراقيين والأمريكيين على حد سواء ليس فقط لوضعه العشائرى ولإنما لأنه رجل من هذا الصنف الذى يحتاج إليه أى حكم رشيد حتى ينجح فى ادارة شئون البلاد والعباد .

روى لى «أبو خالد » كما يناودنه فى بلدته « العلم » فى سهرة ربيعية رائعة على ضفاف نهر دجلة وعلى مدى حوالى خمس ساعات ما جرى وكيف سارت الأمور فى لحظة تاريخية فارقة كان يمكن أن تقلب الأوضاع فى عراق يحترق وتحيل أرضه السواد إلى حرائق لا يسكت لهيبها أبدا .

يقول أبو خالد .. عندما صدر الحكم بإعدام صدام حسين وتمت المصادقة عليه خرجت المظاهرات فى كافة أنحاء العراق وشارك فيها حتى أعداء صدام وكنا نتوقع أن يتم تأجيل التنفيذ نظرا لخطورة الأمر وتأثيره الكارثى على الأوضاع فى العراق خلال تلك الفترة من عام ٢٠٠٦ .. إلا أن الأمور كانت تسير إلى جهة تنفيذ الحكم لا محالة ولهذا سافرت إلى بغداد بصحبة محافظ صلاح الدين حمد حمود ترافقنا السيدة ستيفانى مايلو ممثلة السفارة الأمريكية فى صلاح الدين التى كان لها دور كبير فى انجاز المهمة .. وطلبت منها تحديد موعد مع قائد القوات الأمريكية فى العراق والسفير الأمريكى وما يمكن من مسئولين عراقيين لمناقشة التطورات والسيناريوهات التى يمكن أن تحدث فى حالة تنفيذ الحكم بإعدام صدام حسين .. وبالفعل غادرنا على متن طائرة هليكوبتر أمريكية مساء الأربعاء ٢٧ / ١٢ / ٢٠٠٦ لنبيت فى فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء والتقينا السفير الأمريكى وقائد القوات الأمريكية صباح اليوم التالى وتحدثت إليهما عن

انعكاسات تنفيذ حكم الإعدام على الوضع الأمنى بشكل خاص وعلى الوضع العراقى بشكل عام .. طرحت العديد من النقاط وطلبت عدم تنفيذ حكم الإعدام فى الوقت الراهن لأسباب عديدة أهمها تدهور الوضع الأمنى.

وبعد لقاء المسئولين الأمريكيين التقيت مع نائب الرئيس السنى الدكتور طارق الهاشمى الذى يرأس الحزب الإسلامى وصاحب النفوذ الواسع فى محافظة صلاح الدين وطرحت نفس النقاط ونفس الهواجس بالإضافة إلى أفكارنا حول الموضوع .

عدنا بالطائرة الأمريكية مساء نفس اليوم « الخميس» حتى نجهز لاحتفالات عيد الأضحى التى كانت ستحل يوم السبت ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٦ .. وبينما كنت أؤدى صلاة العيد فى المسجد وبعد انتهاء خطبة العيد جاء أخى محمد وأخبرنى بأنه جرى تنفيذ حكم الإعدام فى صدام حسين .. خرجت مسرعا من المسجد واتصلت بالمحافظ الذى أخبرنى بأنه يحاول الاتصال بى منذ فترة بعد أن أبلغته رئاسة الوزراء بأنه تم تنفيذ الحكم طالبين الحضور للمشاركة فى دفن جثمان صدام حسين فى مكان سرى فى بغداد حتى يأتى وقت مناسب للإعلان عن المكان أو نقله للدفن فى مكان آخر وأنه جهز موكبه وأفراد حمايته للسفر إلى بغداد ويريد معرفة رأيى .. فأكدت للمحافظ أن التاريخ لا يرحم وأن حضورنا دفن صدام فى مكان سرى فى بغداد سيلحق بنا وحممه قد تطال حتى عوائلنا .. قلت للمحافظ أن صدام حسين أعدم ولكن علينا أن نحاول جلب جثمانه إلى مسقط رأسه فى تكريت ودفنه باحترام لأنه رئيس دولة سابق لمدة أكثر من ٣٠ سنة .

طلبت من المحافظ الاتصال برئاسة الوزراء وإخبارهم بأن وفداً سيضمنى إلى جانب على الندا شيخ عشيرة البيجات « عشيرة صدام حسين »[1] سيذهب إلى بغداد بصحبة المحافظ لاستلام جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت وفى حالة رفضهم ذلك نعتذر عن الذهاب لنكون شهوداً على دفن صدام فى مكان سرى كما أرادوا.. طلبت هذا الأمر ليس حبا فى صدام حسين لأننى أعتبره مسئولا عن كل ما جرى للعراق والعراقيين سابقا بسبب سياساته الخاطئة ولكننى كنت أخشى أن تقوم الميليشيات المسلحة أو تنظيم القاعدة بخطف الجثمان وبيعه لإيران أو إسرائيل لكى يهان هناك وتقام عليه حفلات التشفى وتصبح وصمة عار فى تاريخ العراقيين تستمر لعشرات بل ومئات السنين .. كنت أخشى أن يقول الإيرانيون أو الاسرائيليون للعراقيين ويفتخرون بأن صدام الذى حاربهم دفع الثمن باهظا ..

(1) ينتمي صدام حسين إلى فرع البيجات من عشيرة البوناصر التي تضم فرعًا آخر هم اللطيفات .

وأن هذا قبره تحت أقدامنا وهذا ما دعانى للإصرار على جلب جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت تحت إشرافنا .. وقد أيدنى المحافظ وقال سأتصل بهم .. ثم عاد واتصل بي بعد قليل وقال أنهم يقولون « لا تفكروا بهذا الأمر مطلقا .. وقلت أنا بدورى لن نذهب مطلقا .

بعد ذلك اتصلت بالسيدة ستيفانى وأخبرتها بتفاصيل ما جرى وطلبت المساعدة فى إقناع الحكومة العراقية بجلب الجثمان ودفنه فى تكريت لأن عدم حصول ذلك سوف يؤدى إلى إشعال نار الفتنة والفوضى والمشاكل الأمنية التى لا يمكن لأحد أن يحدد مداها .. وشرحت لها أهمية أنه لابد أن يدفن باحترام بعد أن تم إعدامه يوم العيد المقدس لدى المسلمين وما لذلك من آثار نفسية .. اقتنعت المسئولة الأمريكية بهذا الرأى وأيدت طلبى بضرورة دفنه فى تكريت .. واستمرت الاتصالات وسط رفض السلطات العراقية لطلب دفن صدام حسين فى مسقط رأسه بقرية العوجه بتكريت بإشراف أهله وعشيرته .

٩ - تدخل بوش

يقول أبو خالد .. أبلغتنى السيدة ستيفانى بأن الأمر الآن مطروح على أعلى المستويات فى أمريكا وسوف نستمر بالضغط لمتابعة الموضوع .. وفى تلك الأثناء كنت على اتصال بالمحافظ وأخبرنى أنه تعرض لضغوط كثيرة للسفر إلى بغداد وإنهاء الأمر إلا أنه رفضها وتمسك بالموقف الموحد وهو تسلم جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت .

وفى حدود الساعة الثانية والنصف ظهرا أخبرنى المحافظ أنهم اتصلوا به من رئاسة الوزراء وأبلغوه بالحضور للتفاوض حول الأمر وأخبرته أن هذه نقطة جيدة تدل على حلحلة الموقف وأننا سنذهب إلى بغداد على شرط ألا نحضر مراسم الدفن فى بغداد مهما كانت الظروف إذا لم نستطع الحصول على جثمان صدام لدفنه فى تكريت .. اتصلت بالسيدة استيفانى وأخبرتها بأننا يجب أن نذهب إلى بغداد ونريد تأمين طائرة لهذا الغرض وكان لديها علم بالأمر وقالت أن الطائرة جاهزة لنقل الوفد إلى بغداد .. استقل الوفد الطائرة من قاعدة سبايكر « قاعدة الكلية الجوية سابقا » وتقع شمال غرب تكريت وأقلعت فى تمام الخامسة مساء مع غياب الشمس ورافقنا من الجانب الأمريكى العقيد مارك إدمون معاون آمر اللواء الأمريكى المسئول عن محافظة صلاح الدين آنذاك .

وصلنا إلى مهبط طائرات بجوار القصر الجمهورى داخل المنطقة الخضراء

ووجدنا سيارات من رئاسة الوزراء فى انتظارنا لاصطحابنا بعد أن اعتذر العقيد مارك عن مرافقتنا إلى رئاسة الوزراء باعتبار أن هذا شأن عراقى وأن دوره انتهى ولا يمكن أن يتدخل فى الأمر إلا أنه سيبقى فى الانتظار لنقل الجثمان بالطائرة إذا وافقوا على تسلمنا له .. وطلبت أن يرسل المترجم الخاص لآمر اللواء وهو أمريكى من أصل مصرى يدعى عمر بغرض تأمين الاتصال بالأمريكيين عند الحاجة .

وصلنا إلى مقر رئاسة الوزراء فى السابعة والنصف مساء ودخلنا إحدى القاعات الخاصة وكان بها عبد الكريم العنزى وزير شئون الأمن الوطنى آنذاك والدكتور محمد سلمان مستشار رئيس الوزراء والدكتور طارق نجم مدير مكتبه .. وبعد تبادل المجاملات والشاى بدأ العنزى بالتحدث عن العاطفة والمسئولية وبين لنا أن المسئولية تستوجب الحفاظ على أرواح العراقيين وأن نقل جثمان صدام بشكل علنى قد يؤدى إلى حوادث أمنية خطيرة لذلك فان الحكومة قررت دفنه فى مكان سرى وأن علينا حضور مراسم الدفن لنكون شهداء على ذلك وعند تحسن الأوضاع الأمنية يمكن نقل الجثمان إلى مكان آخر وإعادة دفنه .. قاطعته قبل أن يكمل حديثه وأخبرته أن الوضع الأمنى سوف يتدهور فعلا وبشكل خطير إذا عرف أن جثمان صدام لم يسلم إلى ذويه لدفنه وستظهر شائعات تقول إن الجثمان قد يكون تم نقله إلى إيران أو إسرائيل وأخرى تقول أن صدام مازال على قيد الحياة وعليه فإننى أقترح على الحكومة أن تعامله بعد تنفيذ حكم الإعدام كرئيس سابق وتنظم له مراسم دفن وتشييع عسكرى ثم تسلمنا الجثمان لدفنه فى تكريت وأن هذا الأمر إذا حدث فسوف يظهر كياسة ومهنية الحكومة العراقية .. ووعدت بأنه إذا جرت الأمور على هذا النحو فسوف أظهر على شاشات التلفاز وأصدر بيانا من فضائية صلاح الدين أثنى فيه على دور الحكومة فى هذا الأمر وسوف يؤدى ذلك إلى امتصاص النقمة من الشارع العراقى .. وأننى أتعهد بالأمن فى صلاح الدين وسوف أصبح مسئولا عن أى خرق أمنى قد يحدث .. أما غير ذلك فلن نحضر الدفن فى مكان سرى ولن نكون مسئولين عن أى شيء يحدث .. أجاب العنزى أن هذا الأمر مرفوض جملة وتفصيلا .

عندئذ طرح المحافظ خياراً قال أن عائلة صدام حسين طلبته بأن ينقل جثمانه إلى اليمن أو يدفن فى محافظة الأنبار / أكبر المحافظات السنية بالعراق/ حسب وصية صدام إذا لم يدفن فى تكريت .. استشاط العنزى غضبا من هذا الطرح وقال بانفعال أن هذا الأمر لن يحصل أبدا وأن الحكومة قررت دفنه فى مكان سرى وأن علينا

كمسئولين رسميين / المحافظ ونائبه/ تنفيذ أوامر الحكومة .. قلت له أن منصب نائب المحافظ لا يعنى لى شيئا ولن أحضر الدفن بهذه الطريقة مهما كانت الظروف والأسباب .

١٠ - لغة الشيوخ

انفردت بالعنزى جانبا وأخبرته أن الكلام بلغة الشيوخ أفضل .. وسألته إذا لجأ صدام حسين إلى شيخ عشيرة « بنى عنيزه» / عشيرة عبد الكريم العنزى/ وآل هذال هل ستسلمه عشيرة عنيزه إلى السلطات؟ .. قال « لا والله» .. قلت له أنا الشيخ عبد جباره وأنا أكلم ابن هذال .. أريد منك جثمان صدام حسين .. تغير شكل الوزير عبد الكريم واحمر وجهه وقال « الله كريم» سنحاول ولكن عليك أن تضمن أنه لن يحدث أى خرق أمنى فى صلاح الدين .. رد المحافظ قائلا أن الأمن مكفول ومضمون ونحن مسئولون عن ذلك .. قال الشيخ على الندا رحمه الله أن الكلام عن دفنه فى تكريت أفضل من أى مكان آخر .. أقسمت أنا بأنه إذا امتدت يد أى شخص إلى أحد دوائر الدولة أشحطه[1] بالشارع .. وإذا سلمتمونى جثمان صدام حسين سوف أصدر بيانا يشيد بالحكومة .. وإذا رفضتم فإننا سنعود إلى تكريت لنعلن ذلك وغير مسئولين عن أى شيء يحدث .

اصطحب العنزى كلا من الدكتور سليمان والدكتور طارق وذهبوا إلى رئيس الوزراء بينما أدينا صلاة العشاء أنا والمحافظ والشيخ الندا .. عاد العنزى ومن معه ليخبرونا بأن رئيس الوزراء وافق على تسليم الجثمان على أن يجرى الدفن ليلا فى تكريت مع شرط أن الحكومة غير مسئولة عن عملية نقل الجثمان إلى حيث مكان الدفن .. أخبرتهم بالموافقة لأننى أعلم أنه لا يمكن نقل الجثمان بالسيارات إلى تكريت لأننا لن نصل أبدا بسبب انتشار فرق الموت والمجموعات المسلحة التى تسيطر على الطريق كما أننى علمت بوجود مسلحين ينتظرون الموكب بالطريق داخل وخارج بغداد ومنهم عناصر من تنظيم القاعدة لأن مسألة ذهاب الوفد إلى بغداد لتسلم جثمان صدام كانت قد انتشرت عبر وسائل الإعلام والناس ينتظرون ما سيحدث .أخبرتهم أننا سنطلب مساعدة القوات الأمريكية فى نقل الجثمان وإذا رفضوا فسنوافق على الدفن فى مكان سرى ونعلن للناس أننا لم نتمكن من نقل الجثمان لأسباب أمنية .

(١) الشحطة : باللهجة العراقية تعني : السحل .

ذهبوا مرة أخرى إلى رئيس الوزراء وعادوا ليخبرونا بالموافقة وعندها طلبنا السماح بالذهاب إلى مكان الطائرة التى جاءت بنا من تكريت حيث ينتظرنا نائب أمر اللواء الأمريكى العقيد ادموند وعندما طلبت منه المساعدة قال أنه سوف يتصل بقيادة القوات الجوية الأمريكية لأنه ليس مصرحا له بإعطاء جواب على طلبى .. ثم اتصلت بالسيدة ستيفانى وطلبت المساعدة .. وأخبرتنى أن موظفا كبيرا بالسفارة الأمريكية سيأتى للقائنا وطرح بعض الأسئلة حول المهمة المطلوبة .

وبعد ١٠ دقائق وصل المسئول الأمريكى « موظف السفارة » وسألنى عن الدور الأمريكى فى العملية .. قلت له أنه لا يوجد دور أمريكى مطلقا عدا نقل الجثمان بالطائرة .. سألنى هل تطلبون تواجدا أمريكيا وقت الدفن فى تكريت .. أكدت له أننا لا نريد أى ظهور لتلك القوات وقت الدفن .. سألنى هل هذا العمل أفضل أمنيا .. قلت له نعم وأنا المسئول .

اتصل المسئول الأمريكى بوزارة الخارجية فى واشنطن وعلمت أنه اتصل بالوزيرة كونداليزا رايس شخصيا التى أبلغت بدورها الرئيس بوش وحصلت على موافقته .. وبعد ١٥ دقيقة جاءه الرد بالموافقة على نقل الجثمان بالطائرة .

عدنا إلى رئاسة الوزراء لإجراء مراسيم استلام الجثمان وطلبت شخصيا أن يجرى الكشف على جثة صدام أمام عدسات التلفاز لنتعرف عليه حتى لا يقال أن الجثة استبدلت وفى نفس الوقت أتأكد من عدم وجود علامات تعذيب على الجثة كما أشيع على نطاق واسع لأننى لابد أن أرد على ما يمكن أن يشاع أمام التاريخ ثم بعد ذلك نوقع وثيقة استلام الجثمان .

جلبوا لنا عشاء خفيفا رغم أن الوقت كان غير مناسب لتناول الطعام لكنهم أصروا على تقديم واجب الضيافة حتى يأتى الجثمان .

١١ - جثمان الرئيس

وصل الجثمان فى صندوق خشبى داخل حوض سيارة تابعة للشرطة / بيك آب ذات أربعة أبواب / .. فتحت الكفن وتعرفنا على الرئيس وعاينت بنفسى الجثمان وشاهدت الآثار الموجودة عليه .. كان مغسلا ومكفنا وأكدوا لنا أنه تم إقامة الصلاة عليه فى أحد المساجد بالمنطقة الخضراء .. لاحظت أن الجثمان تميل رقبته إلى الجانب الأيمن بشكل أكثر من الطبيعى وهناك بروز لعظم وجرح فى رقبته فى الجانب الأيسر وهناك خدش على خده الأيسر من منتصف الخد باتجاه الأعلى نحو عينه .. وهذه العلامات نتيجة تنفيذ حكم الإعدام شنقا ووضع عقدة

حبل الإعدام فى الجانب الأيسر من الوجه وليس إلى الخلف أو الأمام وهو ما أدى إلى كسر الرقبة وكشط بشرة الوجه نتيجة سقوطه من أعلى إلى أسفل قبل الإعدام .. ما عدا ذلك لم أجد أى آثار تدل على تعذيب أو اعتداء على الجثة كما أشيع .

وقعنا على وثيقة استلام الجثمان أنا والمحافظ والشيخ الندا .. ورافقت الجثمان إلى حيث تقف الطائرة ووضعناه مكان المقاعد الخلفية بعد أن طويت وربطنا التابوت بإحكام .. إلا أن الطائرة لم تتحرك إلا بعد حوالى ساعة كاملة وتحديدا فى الثانية والربع من صباح يوم ٣١ ديسمبر باتجاه تكريت .. أخبرنى أحد الضباط الأمريكيين المرافقين أن سبب التأخير هو اتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين مظلة جوية وطائرة أواكس لحماية الموكب الجوى الذى ينقل صدام حسين إلى مثواه الأخير .

وصلنا إلى قاعدة سبايكر حيث كان ينتظرنا قائد شرطة صلاح الدين اللواء حمد نامس وكانت درجة الحرارة ٢ تحت الصفر وهو ما أدى إلى أصابتنا بنزلة برد حادة .. تحرك موكب الجثمان بسيارات إلى قرية «العوجة » بعد وضع جثمان الرئيس فى احدى سيارات الشرطة وكانت الساعة تمام الرابعة صباحا عند وصولنا حيث سيتم دفن الجثمان .. كان أبناء «البيجات» جميعا فى انتظار وصول الجثمان .. كان الكثير منهم غير مصدق لما حدث ويحدث .. أخبرناهم أن الجثمان مغسل ومكفن ومصلى عليه .. جاء أحد الشيوخ وهو الملا جمعة الدهيمة وأيد أن الجثمان مغسل ومكفن على الطريقة الإسلامية .. كانوا قد أعدوا له قبراً فى قاعة المناسبات بالعوجة .. صلينا على الجثمان وواريناه الثرى .. قضينا ما تبقى من الليل فى دار المحافظ ودارت أحاديث مليئة بالحزن .. كان ما يعزز مشاعر التهر لدينا أن كل رؤساء العالم يخرجون إلى مثواهم الأخير معززين مكرمين فلماذا كتب على العراق أن يخرج رئيسه أيًا كان بهذه الطريقة .. وفى الصباح ألقيت بيانا عبر فضائية صلاح الدين شرحت ما جرى وشكرت الحكومة ورئيسها وكل منا ساعد فى إتمام الأمر .. أقيمت مجالس العزاء فى صلاح الدين ومناطق العراق .. وخلال أسبوع لم تشهد محافظة صلاح الدين أى حادث عنف .

كنت قد تسلمت مع الصندوق الخشبى الذى يضم الجثمان الكيس الأسود الذى رفض ارتداءه لحظة الإعدام .. الملابس التى ارتداها عند تنفيذ حكم الإعدام .. المصحف الذى رافقه خلال فترة سجنه وأوصى أن يسلم إلى المحامى بدر ابن قاضى الدجيل عواد البندر الذى تم إعدامه فى ١٥ / ١ / ٢٠٠٧ وتم دفنه خارج القاعة التى بها قبر صدام حسين .. وظلت هذه الأشياء فى حوزة شيخ عشيرة

البيجات على الندا الذى قتلته القاعدة فيما بعد .

يقول أبو خالد أنه خضع لحالة من الزهد الشديد فى الدنيا وما فيها بعد انتهاء تلك الأزمة .. وعندما كان يجرى دفن الرجل الذى ملأ الدنيا ضجيجا وتعلقت بإشارة من يده مصائر ملايين البشر كنت أنا أدفن أى رغبة زاد الدنيا .. لأنه لا شيء يستحق كل هذه الصراعات والعدوات والانكسارات والانتصارات .. لا شيء يبقى إلا وجه الله .. تقول الحكمة التركية « أيها الإنسان لا تنس الموت .. فإنه لن ينساك ».

١٢ - الكلمة الأخيرة

روى لى أحد أقارب الرئيس الراحل صدام حسين من عشيرة البيجات ويدعى قصى عندما زرت قبر صدام فى قريته «العوجه» الساعات الأخيرة قبل الإعدام وكيف كانت لحظات عادية لشخص قرر أن يغادر بغداد فى رحلة طويلة إلى تكريت .. مؤكدا أن صدام لم يكن يشعر أن فى الأمر موت أو نهاية وإنما بداية جديدة فى مكان آخر لكنه يختلف عن حياة القصور والسلطة التى ودعها بعد انهيار نظامه فى العام ٢٠٠٣ ..

يقول قصى أن « السيد الرئيس» كما يصفونه دائما عند الحديث عنه ودع أخويه وطبان وسبعاوى تمهيداً لإعدامه بعد أن يتم تسليمه أولاً إلى الحكومة العراقية وكان ذلك يوم الخميس، في لقاء نادر بالسجن وأخبرهما بأنه سعيد لأنه سيلقى حتفه على أيدي أعدائه، ويصبح شهيداً، لا مجرد أن يقاسي عناء السجن»، وأعطاهم رسائل إلى عائلته كما سلمهم «رسالة وداعية»، أعلن فيها قبوله بـ«الشهادة» وحث الشعب العراقي على الوحدة .. وقال إنه يقدم نفسه «فداء فإذا أراد الرحمن هذا صعد بها إلى حيث يأمر سبحانه مع الصدّيقين والشهداء.. وأن أجّلَ قراره على وفق ما يرى فهو الرحمن الرحيم وهو الذي أنشأنا ونحن إليه راجعون، فصبراً جميلاً وبه المستعان على القوم الظالمين.» وحث صدام في رسالته الشعب العراقي المتنوع طائفياً وعرقياً على أن يصبحوا نموذجاً للحب والتسامح والتعايش، وانتقد كلاً من قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة وإيران حيث قال «في ظل عظمة الباري سبحانه ورعايته لكم... ومنها أن تتذكروا إن الله يَسّر لكم ألوان خصوصيّاتكم لتكونوا فيها نموذجاً يَحتذى بالمحبة والعفو والتسامح والتعايش الأخوي فيما بينكم.»

وكشف قصى لى سرا أدلى به صدام لأخيه سبعاوى عندما كان يودعه ونقله سبعاوى بدوره إلى عشيرة صدام حسين .. كان هذا السر يتعلق بالشخص الذى

يعتقد صدام حسين أنه المسئول عن سقوطه فى قبضة القوات الأمريكية والسبب يعود إلى العرف العشائرى حيث أن مثل هذه الأمور يكون فيها « طلايب» بمعنى الثأر من المسئول عنها وهو ما يمكن أن يؤدى إلى دخول عشيرة صدام « البيجات» فى صراع مع عشائر أخرى يمكن أن يتطور إلى ما لا تحمد عقباه .

يروى « قصى » أن سبعاوى ابراهيم الحسن وهو الأخ غير الشقيق للرئيس العراقى الراحل طلب من صدام أن يقول كلمته الأخيرة بشأن المسئول عن تسليمه للأمريكيين لأن القضية فيها « طلايب دم» .. حيث كان هناك تضارب بين شخصين أولهم قيس النامق صاحب المزرعة التى تم اعتقال صدام فى أحد سراديبها وشخص من مرافقى صدام يدعى محمد إبراهيم المسلط وكان من جماعة خير الله طلفاح وأشيع أنه اضطر إلى كشف مكان اختفاء صدام حسين تحت ضغط أمريكى وتهديد بهتك عرض بناته وزوجته .

١٣ - أشبعت الكلاب

قال صدام هذه المقولة لأخيه سبعاوى قبل أن يؤكد حقيقة الشخص الذى سلمه للأمريكيين وهى كناية عمن تمتعوا بخيرات صدام أيام مجده وعزه .. قال صدام « دمى برقبة الدوريين» ونفى بذلك التهمة عن محمد إبراهيم المسلط .. وأكد أن من سلمه هو قيس النامق وطباخه ونسيبه .

وأيا كان من سلم صدام حسين للأمريكيين وحقيقة ما دار خلال تلك اللحظات القاتمة فى تاريخه الشخصى وتاريخ العراق والعرب كأول زعيم عربى ينتهر بهذا الشكل المهين فإن تلك القضية الخلافية تحتاج إلى المزيد من البحث فى إطار مناقشة كاملة تعليقا على ما حدث فى ساحة الفردوس عندما سقط تمثال صدام حسين فى المشهد الهوليودى الشهير فى ٩ ابريل عام ٢٠٠٣ وهو ما سيضمه كتاب جديد أعمل على إصداره حاملا شهادات حية ممن عاصروا صدام وسقوطه المدوى .

١٤ - نبش القبر

لم تتوقف الإشاعات عن صدام وخوارقه ومعجزاته بعد الموت من جانب مؤيديه ومريديه ومن يمتون إليه بصلة قرابة أو جوار أو نسب .. كما لم تتوقف الإشاعات المغرضة عنه وعن جثته بعد دفنها من قبل أعدائه وكارهيه .. ولعل أقوى تلك الإشاعات هى ما قيل عن نبش القبر وإذا ما كان قد تم لنقل الجثة ودفنها فى موقع آخر خوفا عليها أو العبث بالجثة من قبل جماعات غاضبة .. إلا أن القصة الحقيقية

لعملية إعادة فتح القبر رواها لنا أحد أقاريه الذى طلب عدم كشف اسمه .

ويروى هذا الشخص الذى يقوم على خدمة القبر الكائن فى قرية العوجة مستنط رأس صدام حسين أن عملية الدفن جرت فجر يوم ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠٦ فى مكان كان صدام حسين يتخذه كمضيف يستقبل فيه المهنئين بالعيد أو من لهم مطالب من أهالى بلدته وعشيرته .. حيث تم خلع قطع رخام تغطى بهو المضيف الذى ترتفع فوقه قبة عالية ووضع الجثمان ثم تغطية المنطقة .. وبعد هذا التاريخ بستة أشهر جاء شخص من أهالى تكريت ليبلغنا أن « السيد الرئيس» زاره فى المنام وقال له « أبلغ أعمامى أن الماء يؤذينى» .. بعدها قام القائمون على الضريح بإلغاء كل مصادر المياه .. وبعد ثلاثة أيام جاء نفس الشخص وكرر نفس الكلام .. وبعد ثلاثة أيام أخرى جاء وكرر نفس الكلام ووقف فوق قبر صدام وقال « اللهم قد بلَّغت .. اللهم فاشهد» .

وبعد يوم واحد جاء أحد أئمة المساجد فى تكريت ويدعى الملا جمعة الدهيمة وروى نفس الرؤية .. وكان لابد من اجتماع كبار العشيرة لبحث فتح القبر وإخراج الجثمان .. وبعد أن تمت الموافقة .. جرى إخراج الجثمان لنجد أن هناك عين ماء أسفله .

وبعد معالجة الأمر جرى تغسيل الجثمان وإعادة الصلاة عليه ليستقر فى موضعه من حينها تحت رعاية بعض أفراد العشيرة ويتوافد الناس على زيارته وقراءة الفاتحة له كل يوم من كافة أنحاء العراق .. كما يقرأ الزائرون الفاتحة لستة على مشاهد سبعة قبور تقع خارج القاعة التى دفن بها صدام حسين وهى قبور ابنيه عدى الذى كتب عليه « إن وعد الله حق .. قبر الشهيد المجاهد عدى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ وقصى الذى كتب على قبره « لكل أجل كتاب » قبر الشهيد المجاهد قصى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ ومصطفى ابن قصى الذى كتب عليه « إن وعد الله حق « قبر الشهيد المجاهد مصطفى قصى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ وعواد البندر قاضى محكمة الدجيل وبرزان إبراهيم التكريتى وطه ياسين رمضان وقبر على حسن المجيد.

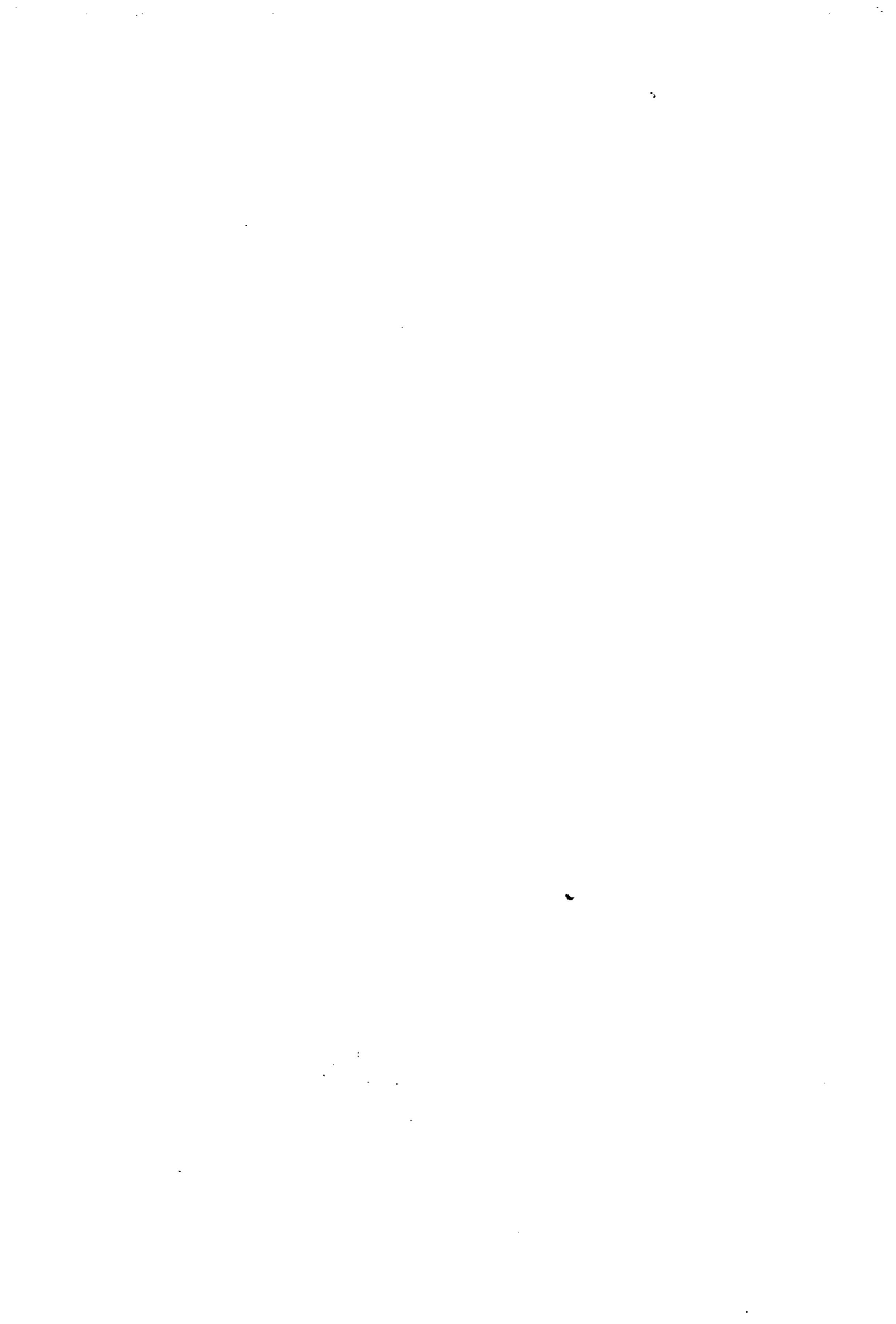


سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الرابع

عام
الدمار والانهيار



١ - دولة الرعب

مضى عام ٢٠٠٦ بعد أن أسس لدولة مكتملة الأركان لا علاقة لها بعراق الحضارة والتاريخ أو المستقبل الموعود الذى بشرت به أمريكا عندما رفع جندي أمريكي صبيحة التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ إصبعين بعلامة النصر فوق تمثال صدام حسين فى ساحة الفردوس المتهاوي،.. عندما اندفع صبية وشيخ وبطل سابق في رفع الأثقال على وقع صراخ الجنود إلى مكان التمثال يحطمون ماتبقى منه ويحملونه وزر الهزيمة وسنوات الكبت والجوع والحروب والحصار والتغييب.

هذه الدولة التى اكتملت أركانها بنهاية العام ٢٠٠٦ هى دولة الرعب التى أصبحت حدودها بحجم حدود العراق الجديد .. لها قادتها من أمراء الموت وشوارعها المفروشة بالدماء وجثث الأبرياء .. ليبدأ عام ٢٠٠٧ الذى كان عام الدمار والانهيار والكوارث واللامعقول .. ارتسمت فيه الفواجع ليتمدد زمن الحرائق ويطيح بآلاف الرؤوس ويضرب كل الرموز بدءا من شارع المتنبى العريق مرورا بجسر الصرافية وزلع كهرمانة فى بغداد ومئذنة المرقد المقدس فى سامراء الذى أطلق تفجير قبته الذهبية موجة العنف الطائفى التى أحرقت الأخضر واليابس وكادت أن تقود العراق إلى حرب أهلية شاملة .. وتجلى زمن المذبحة فى أبشع صوره .. فلا حصانة لمكان ولا إنسان ولا احترام لقيم أو تقاليد أو أعراف راسخة فى المجتمع العراقى ذى الطبيعة العشائرية فما بالك بالقانون الوضعى المهترىء الذى لم تقم له دولة تحميه وتكرس بنوده وتفرضها على حكام زمن المذبحة .

جاء عام ٢٠٠٧ ليكرس مبدأ الموت والدم في شوارع العراق ومنازله ويطرح تساؤلا هاما هو أين كان هؤلاء المتحاربون الذين يقفون اليوم على أبواب الأحياء السنية والشيعية يستعرضون مهارات قتل العراقيين والتمثيل بجثثهم وتهجيرهم من منازلهم وفرض القوانين الرجعية على حياتهم؟ .. هل هم عراقيون فعلا أم كما يقول الناس فى الشوارع وفى أحاديثهم الخافتة على أضواء اللالات / لمبة الجاز/ فى بيوتهم التى عشش فيها الرعب أ هؤلاء الذين يمارسون مهنة القتل والخطف ليسو عراقيين وإنما استوردهم المحتلون لينفذوا خططا ثم يختفون مرة أخرى بعد أن يتم قتل واعتقال بعضهم على أيدى من جاء بهم ليقتلوا أهل البلد ؟؟

جاء عام ٢٠٠٧ وقد استكمل أمراء الحرب كل متطلبات الحصانة ومقومات الجبروت ليزرعوا الموت فى زمن المذبحة ومعهم ميليشياتهم المدججة بالكراهية والارتباطات المشبوهة،.. استخبارات، وقطاع طرق، ومارقون، وأدعياء، ومحترفو قتل

وتدمير مدعومين بالفوضى السياسية المدمرة التى ورثتها حكومة نوري المالكي عن سابقاتها، فاحتفظت بالتقسيم الطائفي لوزاراتها في صيغة «حكومة الوحدة الوطنية» وتقاتل السنة والشيعة والأكراد سياسياً طوال اشهر لضمان حصة في الحكومة والقرار كما تقاتلوا بواسطة المسلحين على الأرض للتنفيس عن الاختناقات في أعلى قمة الهرم.

تبادل أطراف المشهد السياسى الاتهامات ونصب المكائد، كما تبادل المسلحون والمليشيات قذائف الهاون والاغتيالات ، وتحولت أحياء بغداد إلى ساحة صراع طائفي لتكريس تقسيم مذهبي يضمن «رصافة» شيعية و «كرخ » سني وأيضاً «كركوك» كردية.

وارتفع القتلى في صفوف القوات الأمريكية إلى أكثر من ٣٠٠٠ جندي .. فيما بلغت تكلفة الحرب على العراق مطلع عام ٢٠٠٧ إلى أكثر من ٢,٣ تريليون دولار .

عام ٢٠٠٧ شهد ما أطلق عليه «مذبحة المروحيات» بعد أن صار لدى المسلحين إمكانات عسكرية متطورة لإسقاط نحو ١٣ مروحية في شهرين

وسبقه صراع تنظيم القاعدة مع المجموعات المسلحة صراع دام مع العشائر السنية في المناطق التى كانت معاقل التنظيم حتى نهايات العام ٢٠٠٦ وهو ما قاد إلى حرب سنية – سنية معلنة شملت قتال جماعات من داخل عشائر البو عيسى والبو نمر وغيرها فى محافظة الأنبار وعشائر الجبور والخزرج فى صلاح الدين وهو ما أجج الصراع وساهم فى اتساع ميدان القتل الذى أصبح غير محدد المعالم أو الأهداف .. فالجميع يقتل الجميع .

فبالإضافة إلى تكفير الشيعة وقتل الشرطة والجيش والموظفين والإسهام في تقسيم العراق والمطالبة بقتال الطوائف العراقية الأخرى كانت الهوة تزداد اتساعاً بين القاعدة ومجموعات المقاومة العراقية لتتحول إلى مواجهات شبه يومية وعمليات اغتيال متبادلة طالت بالطبع أهالى المناطق التى ينتمى إليها المسلحون وأكثرها عنفا كان القتال بين عناصر الجيش الإسلامى وتنظيم القاعدة فى عدة مناطق سواء بالعاصمة بغداد وضواحيها أو المحافظات التى تعتبر مناطق نفوذ للطرفين فى صلاح الدين وديالى والأنبار .

٢ - ابنى قاطع طريق

دخلت عناصر المليشيات المسلحة إلى ساحة المواجهة الطائفية بشكل أشد تطرفا في مواجهة القاعدة واتخذت من مبدأ حماية الشيعة مسوغاً لاستعراض قوتها

واسهم غياب التنظيم والاستقطاب الخارجي في تحول جيش المهدي التابع للزعيم الشيعي مقتدى الصدر من جبهة مناهضة الاحتلال إلى سلاح مواجهة طائفية بموازاة القاعدة، ودخلت المجموعات المسلحة الأخرى مرغمة ساحة الصراع الجديدة التي ضاعفت فوضى العراق وقادت إلى واقع مذهبي مرير تعددت أوصافه لتجنب الإشارة إلى حرب أهلية.

وتضاعفت أعداد المقاتلين العراقيين الذين تم دمجهم في صفوف الشرطة والجيش إلى نحو ١٥٠ ألف مقاتل فيما تضاعفت أعداد المسلحين والميليشيات إلى ضعف هذا العدد وتفنن المتطرفون في تشويه جثث المختطفين فاستخدموا المثقاب الكهربائي / الدريل/ وتقطيع الأوصال والكي والحرق وقطع الرؤوس وبعضهم شق البطون وحشوها بالحصى.

وهجر آلاف الأطفال مدارسهم تحت مطرقة العنف اليومي وصارت لعبهم أسلحة ودبابات ونقاط تفتيش وهمية تماهياً مع عناصر الميليشيات.

ويروى لي «أبو شجاد» وهو شيعى من سكان حى البياع أنه كان عائدا ذات مرة إلى منزله ووجد الطريق مقطوعا وعشرات السيارات تقف فى طابور أمام إحدى نقاط التفيش التى نصبها مسلحون ملثمون يرتدون الزى الأسود وكانت أجسادهم ضعيفة ويمسكون بأسلحة تشبه الحقيقية .. بينما يرتعد سائقو السيارات وسط دعوات من الركاب بالرحمة والستر حيث كانت نقطة التفتيش التابعة للميليشيات تعنى سقوط أكثر من قتيل فى الحال أو اختطاف بعض المارة على الهوية .. وعندما اقترب أبو محمد بسيارته عندما جاء دوره فى التفتيش اكتشف أن من يقود هذه المجموعة هو ابنه محمد الذى ارتعد وهرب عندما رأى والده حيث كان يمارس اللعب مع بعض من زملائه الذين استهوتهم أدوار المسلحين الملثمين وزاد من إعجابهم بها نجاح التجربة وشعور الخوف والرهبة الذى كان ينتاب العابرين منهم دون أن يعلموا أن ملابسهم وأدوارهم وأسلحتهم كلها وهمية مثل نقطة التفتيش إلا أنها كانت ثقافة الرعب التى فرضتها فرق الموت والميليشيات فى زمن المذبحة وجعلت من يحمل أى سلاح زائف ويرتدى زياً أسود محل تقدير من الناس بفعل سلطان الخوف وسيناريوهات القتل العبثى التى انتشرت فى زمن المذبحة وشهدت فى العام ٢٠٠٧ أوج انتشارها دون ضابط أو رقيب أو حسيب .

٣ - حرائق المتنبى

غريبة هي العلاقة بين المتنبي وبغداد وتزداد غرابة فى زمن المذبحة وتحديدا عام

الدمار والانهيار ٢٠٠٧ .. فهى علاقة سلب مطلق ما إن تطأ قدما المتنبي بغداد حتى يلوذ بالفرار .. غير أن المفارقة في العلاقة بين المتنبي وبغداد حدثت بعد موته! إذ اختار الأرض التي لفظته دائماً، لتكون موطنه الأبدي! فمن بين العواصم والبلدان التي تقلب في جنباتها كالكوفة والموصل وحمص وأنطاكية وحلب ولبنان ومصر وشيراز وواسط، اختار بغداد وطناً للإقامة الرمزية المطلقة بعد أن ترك جسده في واسط وتحديدا فى مدينة النعمانية حيث يقع ضريحه على بعد حوالي ١٥٠ كم جنوب بغداد .

وفي بغداد تملَكَ المتبنى أروع بقعة للثقافة العراقية وهى شارع المتنبي الذى تروى أرصفته كل الحكايات وتحتض الجميع .. كاتب.. ناشر..بائع .. قارىء .. عابر سبيل.. باحث عن الحقيقة .. باحث عن متعة التنزه على ضفاف دجلة .. باحث عن لقاء الأصدقاء كل يوم جمعة فى مقهى الشابندر العريق الذى تحتضنه ساعة القشلة التاريخية الشهيرة ويواجهه محل بيع الكبة البغدادية « السراى» الذى يقف على بابه الجميع ينتظرون نصيبهم من الكبه الشهية .

وكما كان المتنبى يستقبل ضيوف شارعه العريق دائما .. يتسوقون .. يقرأون .. يتحاورون فى منتديات ثقافية وتجمعات شعرية .. استقبل المتنبى ضيوفه ذات يوم من أيام المذبحة الا أنه شارك أهل بغداد هذه المرة إحدى عاداتهم القديمة وهى صناعة الحزن، ليستيقظ على إحراق وعيه وخزائنه النفيسة من مصاحف مُنزلة، وأوراق متعانقة مع شتى العلوم والفنون والأفكار، وتراث من حوار الأفكار، وخزين؛ لا يُحصى، من المعرفة الالكترونية، وكنوز من الوثائق والمخطوطات.

شاهد المتنبى فاجعته هذه المرة دون أن يتمكن من إنقاذ كتابه المحترق واكتفى بتفقد أطلال مقهى الشابندر!.

فى يوم الاثنين الخامس من مارس عام ٢٠٠٧ اختلطت أوراق الكتب المتناثرة المحترقة مع الدماء والجثث المتفحمة على جانبي شارع المتنبي العريق في قلب العاصمة العراقية بغداد بعد أن استهدفه انتحارى قد لا يدرى قيمة ما تحويه تلك الأوراق والمجلدات التى أحرقها وما تمثله بنايات الشارع ومقاهيه من قيمة تاريخية وثقافية ليس لدى العراقيين فقط وإنما لكل المثقفين العرب .

وقد أدى الانفجار العنيف الذى شوهدت سحب الدخان التى سببها على بعد عدة كيلومترات إلى مقتل وإصابة أكثر من مائة شخص بالإضافة إلى تدمير منطقة شارع المتنبي التاريخية المليئة بالمكتبات واشتعال النيران في المتاجر والسيارات تصاعدت على أثرها أعمدة كثيفة من الدخان الأسود الخانق في سماء بغداد .

هرعت ظهر ذلك اليوم كالعادة عندما هزني الانفجار إلى سطح البناية لأجد دخانا كثيف السواد يتصاعد وجاءني صوت صديقي خالد مراسل وكالة رويترز عبر الهاتف ليؤكد أنها حرائق المتنبي الذي كان سواد دخانها يفوق أي سواد وعلى ما يبدو فإن الدخان نفسه اتشح بالحزن بعد أن كلل الإرهاب أعماله بعار حرق المتنبي ..

فيما كانت أصوات سيارات الإسعاف تدوي في المنطقة غرق الشارع المنظم الذي يعج بالمثقفين والمتبضعين في حالة من الفوضى وتلطخت الأرصفة بالدماء بعد أن كانت مفروشة بكل مناحي الثقافة والفكر ودمرت واجهات المتاجر وتناثر الحطام في المكان.

وتمكن رجال الإطفاء من إخماد النيران التي وصلت إلى الطابق الثالث من بعض المباني وتناثرت صفحات الكتب على الأرض بعضها محترق والبعض الآخر ملطخ بالدماء. وشوهدت جثث متفحمة ملقاة على الأرض دفن نصفها تحت أنقاض واجهات المتاجر.

وقد وقع الانفجار على بعد نحو ٥٠ مترا من مقهى الشابندر الذي كان منارة للحياة الأدبية المنتعشة في أيام بغداد المزدهرة وظلت تقاوم الظروف المأساوية التي عاشتها بغداد على مدى العقود الماضية .

قال لي حجي محمد كاظم الخشالي صاحب المقهى العريق بعد أن فقد خمسة من أبنائه في الانفجار المروع : أن هذه كارثة إنسانية لأن هذا المكان بعيد عن العنف إلا أن الانفجار حوله إلى حطام .. مؤكدا أن هذا المكان طالما كان يقود حملة توعية ضد العنف والمفروض أن يكون خارج دائرة الصراع والكثير من العرب والأجانب لازالوا يزورون هذا المكان العريق وأضاف أن «المجرمين استغلوا هذا الثغرة في الشارع الذي يبدو أنه خارج الخطة الأمنية».

قال لي: أن النيران شبت في عدد من المحال والمكتبات التي تنتشر في تلك المنطقة العريقة فيما أدى الانفجار إلى احتراق عشرات السيارات بعد أن غطت الدماء وجوه المصابين وأرصفة الشارع .

وروى لي الرجل المكلوم بالفواجع أن مقهى الشابندر العريق الذي رفض أن يتحول إلى مشروع تجاري أو الاستجابة لمغريات التحول كغيره من المقاهي شهد حريقا مروعا عام ١٩٨٤ مع المخزن الذي يضمه العائد لمطبعة ابن عربي وكانت خسائر في الأموال فقط .. فيما شهد الشارع عدة حوادث مفجعة لكنها كانت أقل تدميرا وتأثيرا إلا أن ما حدث يوم الخامس من مارس أدى إلى هدم جميع المباني في الشارع بسبب شدة الانفجار .

ويشرح الخشالي كيف أوقف المجرم سيارة نقل صغيرة نوع كيا محملة بالورق

الذى غطى كمية هائلة من المتفجرات أدت عند إنفجارها إلى هدم عمارة الميالى وعمارة الملى وتدمير واجهات المكتبات ومطبعة ابن عربى ومقهى الشابندر .

ويروى صاحب مقهى الشابندر كيف هرع ليسأل عن أبنائه وأحفاده المتواجدين فى المطبعة وعلم أنهم بداخلها لا يستطيعون الخروج بعد أن أغلقت إحدى السيارات المحترقة باب المطبعة وهو ما أدى إلى احتراق من فيها من بشر وما فيها من ورق وكتب ومعدات .

وقال أحد أصحاب المكتبات المحترقة وهو فى حالة ذهول أنه بحث عن أخيه الذى كان يعاونه فى إدارة المكتبة ولا زلال يجهل مصيره .. «المشكلة الكبيرة ان جميع الجثث عبارة عن قطع سوداء يصعب التعرف عليها بسبب الحروق التي تعرضت لها».

وقال نعيم الشطري، مسؤول مزاد الكتب في سوق الجمعة أن «هذا العمل جرى فقط في زمن هولاكو واليوم يحدث مجددا من قبل المجرمين القتلة الذين استرخصوا حياة الأبرياء».. مؤكدا أن قتل الكتاب اخطر من قتل الإنسان لأن الإنسان له عمر أما الكتاب فيبقى خالدا وقد حرقوه».

وأكد أن «الإرهابيين يحاولون قتل المعرفة في هذا البلد وهم يقتلون الطلبة في الجامعات واليوم يقتلون الكتاب في اعرق شوارع بغداد التاريخية».

وقد وقع الانفجار بالقرب من جامع الحيدر خانة وهو أحد الشواهد التاريخية فى المنطقة وأحيانا ما تعرف به المنطقة التى تعرف بالمتنبى كما وقع الانفجار على مقربة من التجمع الثقافي العراقي وهو عبارة عن قاعة يتجمع فيها المثقفون والأدباء، أنشىء نهاية العام ٢٠٠٣ وأصبح ملتقى للكتاب والأدباء. في وقت يشهد هذا الشارع ازدحاما شديدا.

وقال صاحب إحدى المكتبات التاريخية القديمة «لقد احترقت مكتبتي التي تضم موسوعات وكتب تاريخية نادرة ودينية مهمة جدا غير موجودة إلا في بغداد».. موضحا أن هذه الكتب تعتبر مصادر بحث علمية وأدبية للكثير من طلبة الدراسات العليا».

وكان الشارع الذي يعود إلى أواخر العصر العباسي، يعرف أولاً باسم «درب زاخا» وقد اشتهر منذ ذلك الحين بازدهار مكتباته واحتضن اعرق المؤسسات الثقافية منها مدرسة الأمير سعادة الرسائلي ورباط أرجوان (تكية دينية).

وقد أطلق عليه اسم المتنبي في عام ١٩٣٢ في عهد الملك فيصل الأول تيمنا بشاعر الحكمة والشجاعة أبو الطيب المتنبي. وكان يعرف أيضا باسم «شارع الأكمك خانة» أي المخبز العسكري.

ومن أشهر رواد هذا الشارع المستشرقان الفرنسيان لوي ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢) وجاك بيرك (١٩١٠-١٩٩٥) والأديب المصري زكي مبارك (١٨٩١-١٩٥٢) الذي كان يسكن في ١٩٣٨ في منطقة الحيدرخانة القريبة من الشارع والشاعر السوداني محمد الفيتوري.

ومن الشعراء العراقيين الذين كانوا من رواد شارع المتنبي، محمد مهدي الجواهري (١٨٩٩-١٩٩٧) وبدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) وعبد الوهاب البياتي (١٩٢٦-١٩٩٩).

وقبل ١٥ عاما وفي ظل الحظر الدولي الذي فرض على العراق تحول هذا الشارع إلى «بورصة ثقافية» تنظم كل جمعة وتعرض خلالها اشهر الكتب والمصادر وتنتعش فيه مكتبات الرصيف التي يفترش أصحابها جنبات الشارع طوال ساعات النهار.

كان شارع المتبني يشكل ملتقى العديد من الأدباء والمثقفين العراقيين من باقي المحافظات الذين كانوا يزورونه كل يوم جمعة ويلتقون بزملاءهم في بغداد لكن حظر التجول الذى تفرضه الحكومة العراقية يوم الجمعة من كل أسبوع منذ العام ٢٠٠٦م منعهم من ذلك.

وقد شهد شارع المتنبى عملية إحراق مقصودة للكتب والمؤلفات قام بها أصحاب المكتبات وباعة الأرصفة احتجاجا على فرض حظر التجول في يوم الجمعة.

وأطلق المحتجون عبارة «حرائق المتنبي» على تجمعهم الاحتجاجي مطالبين الحكومة العراقية والمسؤولين برفع حظر التجول المفروض على العاصمة كل يوم جمعة والذي تسبب في شل الحياة الثقافية التي كان يشهدها الشارع في يوم العطلة الأسبوعية .. إلا أن ما جرى يوم الخامس من مارس كان ضربة قاسية جعلت رواد الشارع يمتنعون ويتراجعون كثيرا ويدركون وطأة زمن المذبحة .. وكنت واحدا من هؤلاء الرواد ولم تطأ قدماى الشارع إلا بعد حوالى عام ونصف تقريبا وتحديدا فى صيف عام ٢٠٠٨ عندما ذهبت بصحبة أصدقاء قرروا إنهاء حالة الجمود فى العلاقة مع شارع المتنبى بعد أن عادت إليه الحياة تدريجيا وارتدى حلة جديدة بعد غسل آثار الهجوم البربرى الذى خرق كل الأعراف والقوانين كنموذج صارخ ساد أيام عام ٢٠٠٧ .

وفى تلك الزيارة لشارع المتنبى التى تبعتها زيارات أخرى مارست أنا وأصدقائى كل طقوسنا المحببة .. التجول بين عناوين الأرصفة .. شراء الكتب .. الجلوس على مقهى الشابندر الذى يتصدر مدخله صور الشهداء الخمسة أبناء «حجى محمد الخشالى » وهو ما جعل صاحبه يطلق عليه « مقهى الشهداء» .. المشاركة

فى ندوات بيت المدى الثقافى الذى أسسه صاحب دار المدى المثقف فخرى كريم .. تناولنا كبّه السراى .. وختمنا الزيارة بجلسة هادئة على ضفاف دجلة .

فى زيارتى الأخير لشارع المتنبى قبل إنهاء مهمتى بالعراق صيف العام ٢٠١٠ شديد الحرارة كان الطريق إلى هناك ليس سهلا رغم كل ما يقال عن استقرار أمنى ورغبة السلطات العراقية فى إعادة فتح شوارع بغداد التى أغلقت ما يزيد على نصفها فقد اضطررنا بسبب إغلاق معظم الطرق وسط بغداد إلى سلوك طريق طويل مررت خلاله من ساحة التحرير وسط العاصمة ثم دلفت إلى نفق الباب الشرقى لأسلك طريق محمد القاسم السريع الذى يقطع الطريق فوق مقبرة تضم الكثير من رموز التاريخ العراقى مثل السهروردى والسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد مروراً بالشارع المؤدى إلى المستنصرية حيث تقاطع معهد الفنون الجميلة الذى تميزه دعامات القطار القديم وقد تم صبغها بألوان العلم العراقى هذا الشارع الذى كان ينطق بالحياة يقطعه الطلاب ذهابا وإيابا إلا أنه أصبح شارعا شبه مهجور غطى التراب مبانيه وصبغ أشجاره التى كانت زاهرة الخضرة بلون رمادى كئيب يوحى بطبيعة ما مرت به عاصمة الرشيد من فواجع زمن المذبحة بينما يقف مبنى جريدة الجمهورية ومطبعتها الشهيرة شاخصا يدلل على حال الخراب الذى أصاب الكثير من المبانى التى مثلت فى وقت من الأوقات علامات بارزة سياسيا وثقافيا .

ثم مررنا بجوار مقبرة الإنجليز إلى تقاطع الباب المعظم الذى كان يمثل قلب بغداد وقد مزقته الحفر والأخاديد التى تم حفرها لأسباب يقول مسئولو العاصمة أنها إعادة إعمار وتغيير بعض الطرق وبناء جسر جديد بالمنطقة مرورا بميدان « جراح الأمانة » حيث كان يقع مبنى محافظة بغداد قبل تدميرها إبان الغزو الأمريكى عام ٢٠٠٣ لنصل إلى مدخل شارع الرشيد العريق وتبدو معالم القبة المميزة لجامع الحيدر خانة .. وهنا يتوقف الطريق بنقطة تفتيش تابعة للجيش العراقى فشلت مع عناصرها كل محاولاتنا للمرور بالسيارة رغم ما أظهرناه من هويات « كارنيهات» وتصاريح تسمح لنا بالمرور فى مناطق ممنوعة على المواطنين .

اضطررت للسير فى أجواء حارقة من شهر أغسطس تجاوزت فيها درجة الحرارة ٥٠ درجة مئوية حتى وصلت إلى مشارف شارع المتنبى الذى كان يعج برواده الذين أعادوا إليه الروح وغامروا بخطورة التعرض لهجوم بربرى جديد .. بينما افترش بائعوا الثقافة الكتب بكافة عناوينها وموضوعاتها وتصنيفاتها فى مشهد أعاد لى ذكريات مضى عليها أكثر من سبع سنوات عندما كنت أرتاد الشارع العريق

خلال مهمتى الأولى بالعراق .. عاد المتنبى إلى شارعه مع حلة جديدة أضافتها الواجهات الحديثة التى زينها أصحابها على أنقاض حرائق هجوم العام ٢٠٠٧ بينما اكتفى شارع الحيدر خانة الذي يضم مقهى الزهاوى الشهير ومقهى حسن عجمى اللتين كانتا منارتين ثقافيتين وطالما شهدتا جلسات وندوات ونقاشات ومعارك فكرية ببعض الحداثة فى المظهر ومحلات المأكولات وأشهرها محل لبيع الكص العراقى / الشاورمة/ يحمل إسم السيدة أم كلثوم التى لا يغيب صوتها الصداح عن أى بقعة من شارع المتنبى فهنا تستمع إلى الأطلال وهنا تأتيك مقدمة « أنت عمرى » الرائعة بينما يردد بائع مع اسطوانته المحببة التى أشعل صوتها لجمهوره « بعيد عنك» .

غادرت شارع المتنبى الذى كنت أزوره لآخر مرة بعد أن أهدانى الحاج محمد كاظم الخشالى كتابا أعده عن شهداء المتنبى ومقهى الشابندر موسوما بإهداء رقيق بخط يده .. ألقيت نظرة وداع على مكتبات الشارع العريق وجدرانه ورموزه التى تقف شامخة تتحدى الزمن وعدت لأتذكر كيف استمرت العلاقة بين المتنبى وبغداد هذا الشاعر الذى تحدى نفسه ليقتله بيت شعر قاله ذات يوم « الخيل والليل والبيداء تعرفنى » .. وهكذا تحدى أصحاب شارع المتنبى من باعة ومتسوقين ومثقفين برابرة العراق الجديد فى زمن المذبحة .

٤ - انكسار الروح

لم يذرف العراقيون من الدموع بقدر ما ذرفوا عندما نشرت صورة (جسر الصرافية) الذي وقع مكسور الخاطر على صفحات مياه دجلة الخير ليرسم، لوحة فريدة فى زمن المذبحة لا يمكن نسيانها بعد أن فجر رسل الخراب الجسر الذى لا ذنب له سوى أنه يمشي عليه العشاق ويسمونه الجسر الحديدي (جسر الحديد انكطع من دوس رجليه) .

كان أحد أيام الخميس المصبوغ بلون الدم والخراب فى عام الانهيار الذى غابت فيه كل السلطات ماعدا سلطة القتلة والمخربين .. أتذكر يومها أننى استيقظت من نومى كما جرت العادة فى تلك الأيام واقفا على صوت انفجار هائل هز مدينة بغداد وما عليها جاء متزامنا مع صوت سقوط مدوى زمجرت له مياه نهر دجلة بعد تدمير أجزاء من الهيكل المعدني للجسر،وسقوطه بعد أن قذف بعض السيارات في النهر.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة صباحا من يوم الخميس ١٢ / ٤ /

٢٠٠٧ عندما اهتزت نوافذ المكتب / مقر العمل والسكن / قبل أن تتصاعد سحب كثيفة من الدخان فوق منطقة واسعة بحيث انعدمت الرؤية بشكل كامل وتمكنت من تحديد موقع الانفجار بعد أن هرعت إلى سطح المبنى وأبلغني أحد مصادري الأمنية الذى كان قريبا من موقع الانفجار أنه أدى إلى انهيار جزء كبير من الجسر يقدر بنحو ربعه وأن عارضتين من الجسر انهارتا وسقطتا في النهر، كما انهار جزء من وسط الجسر فضلا عن تضرر جزء من طرفه.

وتضاربت التقارير وقتها بشكل كبير حول طبيعة هذا الانفجار المروع وما إذا كان هجوما بشاحنة مفخخة قادها انتحارى فجر نفسه على الجسر أم أنه انفجار جرى بتلغيم الجسر ووضع المتفجرات فى مناطق مفصلية لينهار تماما أم أنه جرى تفجيره باستخدام قصف جوى .. وأياً كانت طبيعة الانفجار إلا أنه أدمى قلوب العراقيين جميعا خاصة هؤلاء الذين يحتفظون بذكريات خاصة تربط حياتهم بعمر الجسر المديد الذي كان أحد رموز بغداد وانهار مع انهيار كافة الرموز فى زمن المذبحة .

وجسر الصرافية بناه البريطانيون عام ١٩٤٦ويعتبر أحد أجمل معالم بغداد ويبلغ طوله أربعمائة وخمسين متراً وعرضه ستة أمتار إضافة إلى ممر خاص للمشاة بعرض مترين، حيث سار الآلاف من المحبين والعشاق في ممر المشاة وعيونهم ترنو نحو بنات جامعة بغداد وأكاديمية الفنون الجميلة .

سمي جسر الصرافية شعبياً جسر القطار، وسماه من يعيش بقربه جسر العلوازية وجسر العيواضية وسماه أهل بغداد، كرخ ورصافة الجسر الحديدي وجسر الصرافية، والإسم الأخير هو الأشهر لكن تسمية (الجسر الحديدي) جاءت من أنه بني مركباً من قواطع حديدية ظاهرة وسقف بمقاطع حديدية على عكس جسور (العتيق) أو جسر المأمون ثم جسر الشهداء وجسر الصالحية الذي كان يسمى رسمياً جسر الملك فيصل ثم سمي جسر الأحرار وكان اسمه الشعبي جسر مود نسبة إلى القائد البريطاني الجنرال مود فاتح بغداد خلال الحرب العالمية الثانية وجسر الأئمة الذي يربط الكاظمية بالأعظمية وكان جسراً خشبياً مخيفاً قبل أن يبنى بشكل عصري وكان الغرض من إنشاء جسر الصرافية عبور القطار عليه ليوصل بين محطة قطار شرقي بغداد التي كانت تقع قريباً من كلية التجارة وإعدادية صناعة بغداد ومحطة قطار غربي بغداد التي كانت تقع في كراج العلاوي الحالي قبيل إنشاء محطة السكك بالكرخ التي تسمى بالمحطة العالمية.

كلفت شركة كوبرلايزرد البريطانية الاستشارية الهندسية بوضع تصاميم الجسر واستمر عملها عامين.

جسر في «سدني»

كان جسر الصرافية معداً للإنشاء في مدينة سدني في استراليا قبل أن تقرر وزارة الأشغال والمواصلات العراقية شراء هيكله الحديدي وتعهد إلى شركة كوبرلايزرد بإدخال التحويرات المقتضية على هيكله وبدأ العمل بتنفيذه أواخر سنة ١٩٤٦ من قبل شركة (هولو) البريطانية.

أطول جسر في العالم.. في حينه

بلغ طوال الجسر مع مقترباته ٢١٦٦ متراً بينما بلغ طول القسم الواقع على النهر (٤٥٠) متراً وكان بذلك أطول جسر في العالم في حينه.

تعثر بناء الجسر بسبب انتفاضة الوثبة سنة ١٩٤٨ واعتبره المواطنون الذين قاوموا عقد معاهدة بورت سموث بين العراق وبريطانيا جسراً يتم إنشاؤه لخدمة الأغراض البريطانية فقاموا بمهاجمة المهندسين الإنجليز والعمال الهنود الذين يعملون فيه ورموهم بالحجارة والقطع الحديدية كما تم رمي بعض قطعه الحديدية من النهر فتوقف العمل فيه لفترة.

وتمت العودة إلى العمل خلال وزارة السيد محمد الصدر واستمر حتى عام ١٩٥٢ حيث جرى احتفال رسمي كبير حضره السيد جميل المدفعي رئيس الوزراء حيث شاهد البغداديون لأول مرة قطاراً يسير على جسر حديدي على دجلة قاده المرحوم سائق القطار الأقدم السيد عبد عباس المفرجي وكان يشرف على سيره الفنان ياس علي الناصر باعتباره فنياً متخصصاً بسير القطارات الحديثة .

وجسر الصرافية هو واحد من مجموعة جسور تمتد على طول نهر دجلة.. جسور عبرت عليها المظاهرات الطلابية .. وجسور عبرت عليها جنازير دبابات الانقلابات العسكرية .. وجسور وقفت عليها دبابتان من دبابات القوات التي احتلت العراق في التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣ لينهار نظام كان يمتلك رابع جيش في العالم.

كان جسر الصرافية أحد ملاذات الأحلام للبغداديين بمختلف أعمارهم وانتماءاتهم وطبقاتهم وكان دائماً ثمة صبية يلعبون عند هذا الجسر ينتظرون أن يأتي القطار الذى يمر عابرا من سكك الشالجية ببغداد باتجاه محطة باب المعظم ثم باتجاه بعقوبة وكركوك وكان البغداديون يعرفون مواعيد مروره بالضبط، بل كان

مروره وصافرته المتميزة، المتعبة، تؤشر إلى الوقت الصحيح فيضبطون ساعات بيوتهم عليها .. كان الصبية يلوحون للقطار ثم يتسلقون الزلاقات الحديدة الساخنة سخونة شمس تموز بغداد حتى يصلوا إلى أعلاها ثم يجلسون مادين أرجلهم ليتزحلقوا على الحديد الحار في اللحظة التي يرتجف فيها الجسر تحت عجلات القطار، وثمة شرطي كان يجلس على كرسي عند كابينة خشبية يرد التحية على الماشين العابرين من الوزيرية إلى العطيفية وهو يلف سيجارته متطلعاً نحو السلم الحديدي الذي ينزل منه الناس إلى جرف دجلة إذا هم لم يكملوا المشي عبر ما تبقى من الجسر إلى الشارع الذي ينتهي عنده.

يسافر القطار على الجسر الحديدي بالجنود، يظل يمشي ولا يذهب بهم إلى جبهات الحروب ويظلون هم يلوحون من شبابيك العربات القديمة للعابرين على ضفاف دجلة ويبقى الشرطي العجوز يدخن سيجارة لفها منذ سنين ينفث دخانها وهو يبتسم لمن يلقي عليه التحية إلا أن هذا الانفجار عصف بسيجارة العجوز قبل أن يعصف به مع حديد جسر الصرافية .. ورغم ذلك ستبقى الذكريات معلقة على دعائم الجسر الغارقة في ماء دجلة الطيني الذي تعب من حمل أجساد الشباب إلى اليابسة.

يقول أحد شيوخ منطقة العطيفية الذى اقترب عمره من السبعين « إن عمري من عمر هذا الجسر، فمنذ أن تفتحت عيناي على الدنيا لم يفارق مشهده عيني. وأخشى أن يقتلني الحزن عليه كما دمره الانفجار الآثم » .

وإذا كان جسر الصرافية يحمل كل هذه الذكريات التى لم تتهاوى كما تهاوى الجسر فان المدلول السياسى والأمنى لتفجير الجسر حمل الكثير من المخاوف بعد أن تملكت مشاعر الرعب سكان بغداد من احتمال قيام المسلمين بتحويل نهر دجلة إلى خط تقسيم بين السنة والشيعة عبر تدمير جميع الجسور المقامة فوقه والتى تربط بين الرصافة « الجانب الشرقى » والكرخ « الجانب الغربى » .. حيث تعيش أغلبية سنية على الضفة الغربية للنهر التى تضم المنطقة الخضراء الخاضعة لحراسة مشددة والتي تؤوي المنشآت العسكرية والدبلوماسية الأمريكية ومباني الحكومة العراقية وقصور صدام حسين. وعلى الضفة الشرقية للنهر في الرصافة تعيش أغلبية شيعية.

ويربط جانبى بغداد ١١ جسرا هي الائمة، الأعظمية، الشهداء، الجمهورية، الأحرار، السنك، ١٤ تموز، الجادرية، ذو الطابقين، الرشيد، الحديد أو الصرافية وتم إغلاق بعض هذه الجسور مثل ١٤ تموز والشهداء والأئمة وبعضها حدد السير فيه للمشاة فقط مثل الرشيد.

وقد جعل تفجير جسر الصرافية الناس يتحدثون بنبرة تشاؤمية عن «حرب الجسور» التى تنذر بتقسيم بغداد إلى « كرخ سنى » و«رصافة شيعية » كما لو كان تكرارا لقصف جسر موستار الأسطوري الذي أصبح رمزا عالميا للحرب الأهلية في البوسنة والهرسك التى استمرت من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥ [١].

٥ - كيف حدث هذا ؟؟

بعد عدة ساعات من تفجير الجسر الذبيح الذى كان إيذانا بسياسة العزل الإجبارى بين جانبى بغداد / الكرخ والرصافة/ هز العاصمة المنكوبة انفجار أخر لا يقل عنفا بعد تنويعات من الانفجارات الاعتيادية التى كانت تميز تلك الأيام من زمن المذبحة وسرعان ما تناقلت الفضائيات الانفجار مع صور حيه من موقعه مترافقة مع تعليقات المراسلين الذين ترجمت أصواتهم حجم الصدمة مما جرى .. وجاءت عبر قناة « الحرة عراق» صورة صديقى على الياسى الذى كان يغطى وقائع جلسة البرلمان فى هذا اليوم وقد أصيب بجروح طفيفة جراء الإنفجار الذى كاد أن يودى بحياته لينضم إلى سلسلة العابرين فى مواكب الموت المجانى التى ميزت أيام المذبحة .. وكان الخبر الذى تناقلته وسائل الإعلام على الهواء مباشرة فى تغطية فريدة من موقع الحدث يقول « قتل ٨ أشخاص، بينهم نائبان عراقيان، وأصيب آخرون اليوم الخميس في هجوم انتحاري داخل مبنى البرلمان الواقع في المنطقة الخضراء شديدة التحصين بالعاصمة بغداد والتي تضم مقرات الحكومة العراقية وسفاراتي بريطانيا والولايات المتحدة ».

وقال الميجر جنرال، وليام كالدويل، «يبدو وفقًا لراويات شهود العيان أنها كانت سترة ناسفة. . الإحصاء الأولى للضحايا حتى الآن يقدر بنحو ٨ قتلى ونحو ٢٠ جريحًا ».

وصرح مسئول في البرلمان وشاهد عيان بأن الانفجار وقع في مطعم البرلمان بينما كان عشرات النواب يتناولون فيه طعام الغداء.

وأفاد مصدر أمني بأن أحد النائبين القتلى هو محمد عوض، العضو في جبهة الحوار الوطني التى يتزعمها الدكتور صالح المطلك (سني)، ويمثلها ١١ نائبا في البرلمان، المؤلف من ٢٧٥ مقعدا.

---

(١) تمت إعادة بناء جسر الصرافية فيما بعد خلال عام ٢٠٠٩، إلا أنه لم يعد مثلما كان رمزًا للذكريات وملاذًا للعشاق .

وأفادت قناة «العراقية» التلفزيونية الحكومية في شريطها الإخباري بأن نائبين اثنين قتلا، وأن أكثر من عشرة نواب آخرين أصيبوا، دون ذكر مزيد من التفاصيل. ومن جهته، أفاد المصدر الأمني بأن عشرة من مسئولي الأمن أصيبوا كذلك في الهجوم.

وأكد مسئول أمني في موقع الحادث أن التفجير نتج عن هجوم نفذه انتحاري باستخدام حزام ناسف، مشيرا إلى تناثر دماء وأشلاء بشرية في مطعم البرلمان حيث وقع الانفجار.

ونادرا ما تمكن المسلحون من اختراق نقاط التفتيش العديدة نحو المنطقة الخضراء لشن هجمات رغم أنهم كثيرا ما يطلقون قذائف مورتر وصواريخ على المنطقة.

وفي الآونة الأخيرة ذكر الجيش الأمريكي أنه جرى العثور على سترتين معبأتين بالمتفجرات في المنطقة المترامية الأطراف التي تضم مبان حكومية ومبنى السفارة الأمريكية.

والطريف فى الخبر هو ما يلى «أدان الرئيس الأمريكي، جورج بوش، التفجير، مشدداً على أن الولايات المتحدة ستواصل وقوفها إلى جانب حكومة بغداد».

وقال بوش للصحفيين بعد اجتماع في البيت الأبيض حول مشروع قانون التعليم: «أدين هذا العمل بشدة». وقال الرئيس الأمريكي: إن رسالته إلى الحكومة العراقية هي «أننا نقف معكم».

وحتى يعرف القارىء لماذا يثير هذا التصريح الضحك حتى البكاء لما يجرى وكيف تسيل دماء الضحايا من التفجيرات بينما تسيل دموعهم من التصريحات التى تعقب تلك التفجيرات فلابد من الإشارة إلى المكان الذى يقع فيه البرلمان العراقى الذى شهد الهجوم الانتحارى الذى سيطرح سلسلة تساؤلات عن كيفية دخول هذا الانتحارى ذلك المكان وبهذه الكمية من المتفجرات وكيف تمكن من تنفيذ جريمته بعد اختراق تلك السلسلة الطويلة من الإجراءات الأمنية المعقدة للوصول إلى مبنى البرلمان فما بالك بمنطقة الانفجار داخل المبنى المحصن الذى يقع داخل منطقة هى الأشد تحصينا فى كل أنحاء العراق هى المنطقة الخضراء .

٦ - المنطقة الخضراء

عندما يمر أي شخص بالقرب من أسوار المنطقة الدولية في بغداد والتي تحمل تسمية (المنطقة الخضراء) يحدق بدهشة نحو هذه الجدران الأسمنتية العالية المدججة بأبراج للمراقبة يطل منها القناصة الأمريكيون الذين يوجهون فوهات

بنادقهم الدقيقة الرصد والسريعة الإطلاق نحو جهات معينة، كما يمكن للعابرين عند التدقيق فى أبراج المراقبة المحيطة بتلك الأسوار العالية أن يروا بوضوح أعين القناصة مشدودة إلى عدسات «نواظير» دقيقة ترصد كل حركة وأصابعهم ملتصقة بزناد البنادق .. حيث ينتشر هؤلاء القناصة فوق أسطح أبنية فندق الرشيد ومجلس الوزراء ومجلس النواب (البرلمان العراقي)، ووزارة التخطيط السابقة وهم لا يتورعون على قنص ما يعتقدون أنه يمثل أدنى خطر على سكان الحصن المنيع .

ويتقاسم المسؤولية عن حماية المنطقة الخضراء إلى جانب القناصة .. كلاب مدربة على شم رائحة المتفجرات وقوات أمريكية خاصة ،.. و هناك أيضا في الداخل قوات أمريكية وقوات متعددة الجنسيات بالإضافة إلى شركات الحماية الخاصة التى ينتمى غالبية أفرادها إلى جنسيات لا تتحدث الإنجليزية أو العربية من التبت أو تايلاند أو جورجيا أو شيلى بالإضافة إلى جنود أفريقيين غالبا من أوغندا وغيرها يجيدون الإنجليزية ويرحبون جدا بمن ينتمى إلى القارة السمراء حيث أن وجهى أصبح معروفا لديهم وينادوننى بكلمة « إيجبتو » وهم يبتسمون إلا أن الخضوع للتفتيش بالأصابع الخشنة لا يفرق بين أفريقى وآسيوى أو بين مصرى وعراقى .. فالجميع يخضع لتحسس الأصابع الخشنة على كافة مناطق الجسم.

الاسم الرسمي للمنطقة الخضراء هو المنطقة الدولية وسوف تجد اللافتة التي تحمل هذا الاسم عند نقاط التفتيش المنتشرة عند البوابات وفي داخل المنطقة الدولية، وهي كما معروف المنطقة الأكثر حماية في العراق كله بسبب وجود مكاتب ومقرات سكن السفراء الأجانب وسفاراتهم، خاصة السفارتين الأمريكية والبريطانية، وباستثناء السفارتين الألمانية التي تقع في حى المنصور غربي بغداد والفرنسية التي تقع بنايتها قرب ساحة كهرمانة وسط العاصمة ، فان جميع السفارات الغربية تقع مقراتها ومواقع سكن سفرائها في حدود المنطقة الخضراء بالإضافة طبعا إلى قصور ومساكن كبار المسؤولين العراقيين بدءا برئيس الحكومة ومرورا بعدد كبير من الوزراء وأعضاء مجلس النواب ونزولا إلى حرس وسائقى وفرق حماية رئيس الحكومتين الحالية والسابقة .. أما رئيس الجمهورية جلال طالباني فهو يقيم مع بعض مستشاريه خارج المنطقة الخضراء فى مناطق تخضع لحراسة ونفوذ قوات حرس إقليم كردستان « البيشمركة» وتحديدا فى قصر السلام .

وتحتل المنطقة الخضراء مساحة أكثر من ثلاثة أحياء وجسر المعلق وتمتد

حدودها من حي القادسية وحي الكندي غربا، وجسر الجمهورية ومتنزه الزوراء شمالا، ويحتضنها نهر دجلة من الشرق والجنوب وبذلك تحتل مساحة حي كرادة مريم، وحي التشريع، وأم العظام، إضافة إلى جزء كبير من متنزه الزوراء (اكبر متنزه شعبي في بغداد) وساحة الاحتفالات الكبرى بما تضم من تماثيل ونصب وقاعات سينما ومسارح وصالات عروض تشكيلية، كما يدخل ضمن المنطقة طريق القادسية السريع ونفق فندق الرشيد والفندق ذاته أيضا والمساحات المحيطة به، وتعبر حدودها إلى جانب الرصافة حيث تسيطر على الجزء المحيط بالجسر المعلق في جهة منطقة الرولة في الكرادة الشرقية.

وللمنطقة الخضراء ثلاثة مداخل رئيسية، أي متصلة بالشوارع العامة يمكن الدخول إليها مباشرة من الشارع العام، وأهم هذه المداخل هي بوابة جسر الجمهورية، أو التي تقع قبيل هذا الجسر من جهة الكرخ بالقرب من بناية وزارة التخطيط سابقا، أو كما يطلق عليه مدخل وزارة الدفاع أما المدخل الثاني فيقع قرب فندق الرشيد الذى يقيم فيه الضيوف المهمون وبعض أعضاء البرلمان والمسئولين وعدد من الصحفيين الأجانب وبعض السفراء وهو المقر المؤقت للسفارة المصرية وسكن السفير وأعضاء البعثة من دبلوماسيين وموظفين قبل أن تنتقل إلى مبنى خاص في يونيو ٢٠١٠ داخل المنطقة الخضراء ، وهذا المدخل يقودك إلى بنايتي رئاسة الوزراء وقصر المؤتمرات الذي يتخذ منه مجلس النواب (البرلمان) العراقي مقرا له، ويقع المدخل الثالث عند بداية الجسر المعلق من جهة الرصافة.

وهناك أيضا مدخل آخر يحتاج إلى موافقات أمنية للوصول إليه، وهو مدخل القادسية.

عند كل مدخل تستقر قوة أمنية كبيرة تتألف من أفراد من القوات الأمريكية مدججين بالأسلحة المدعومة بدبابة أو قوة مدرعة ومترجمين وكلاب خاصة لشم رائحة المتفجرات إلا أنه بعد الاتفاقية الأمنية بين العراق والولايات المتحدة فقد تغير النظام وأصبح هناك تواجد لقوات عراقية وقوات من البيشمركة بالإضافة إلى جنود أفريقيين ذوى بشرة سوداء من عناصر شركات الأمن الخاصة .. بينما يقتصر تواجد القوات الأمريكية على تواجد رمزى .

ولعل أهم ما في موضوع المنطقة الخضراء هو الدخول إليها، فهناك من يحمل البطاقات (الباجات) التي تحمل تواقيع وتراخيص من السفارتين الأمريكية والبريطانية ورئاسة مجلس الوزراء مع تخويل بالدخول في أي وقت شاء ومن أية بوابة يريد ومنحه الحق باصطحاب ضيف إلى داخل المنطقة..وحاملو هذه الباجات

يعدون من المحظوظين جدا فهناك من يحمل باج (بطاقة) موقعة من قبل إحدى السفارتين فقط أو من رئاسة مجلس الوزراء إضافة إلى توقيع إحدى السفارتين، البريطانية أو الأمريكية، واضعف هذه البطاقات الموقعة من قبل رئاسة مجلس الوزراء فقط إذ لا تخول صاحبها أو حاملها إلا الدخول إلى بناية المجلس.

وتدل ألوان البطاقات، أو الباجات على أهميتها، وهي تبدأ بالزرقاء ثم الخضراء فالصفراء والحمراء، على أن جميع حاملي البطاقات ومهما كانت درجاتهم الوظيفية، باستثناء الوزراء، يخضعون لتفتيش دقيق وفي أحيان كثيرة يكون تفتيشا مذلا بما فيهم أعضاء البرلمان الذين يخضعون لتفتيش دقيق تساهم فيه الكلاب البوليسية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المناطق، وقبل أن تتحول إلى منطقة دولية كانت مفتوحة أمام حركة الناس والباصات والسيارات الاعتيادية حتى السنوات الأولى من الثمانينات، ثم بقيت مفتوحة أمام حركة السيارات الصغيرة باستثناء أجزاء بسيطة، وكانت مأهولة بالسكان من غير العاملين في القصر الجمهوري من أصحاب العقارات الكائنة هناك.

ولعل من الواجب ذكره هنا أنك لا تقرأ أبداً عند واجهات المداخل أية عبارة ترحيب سواء باللغة العربية أو الإنجليزية، بل هناك عبارات تحذير شرسة من موت محدق يحيط بمن يقترب من مداخل هذه المنطقة المحرمة، مثل «قف قوة مميتة أمامك» أو «قف أنت على مقربة من قوة سريعة الإطلاق» و«لا تقترب أكثر من ٢٠٠ مترا.. قوة مميتة»، هذا يضاف إلى ملامح وجوه عناصر القوات الأمريكية أو غيرها من الجنسيات، بما فيها العراقية التي لا تنم عن أية مشاعر ارتياح لوصولك إلى أي مدخل من مداخل المنطقة الدولية.

لافتة حديدية بلون أسود تحمل تعليمات مشددة بلون أبيض، وبعضها مشددة للغاية بلون أحمر تستقبل عادة الزائر إلى المنطقة الخضراء.. وبينما تسمح البوابات بالدخول للسيارة المرخص لها فان المواطن العادى حتى الصحفى فانه يعبر إلى داخل تلك المنطقة سيرا على الأقدام عبر سلسلة من نقاط التفتيش منها جهاز السونار الذى يكشف العظام.

بينما تتمتع سيارات القوات الأمريكية وسيارات الشيفروليه رباعية الدفع البيضاء والسوداء ذات الزجاج الأسود الداكن تماما والذي يمنع رؤية من في داخل السيارة، بالدخول السريع إلى المنطقة الخضراء تصحبها سيارات تحمل أشخاصاً مدججين بالأسلحة ويضعون نظارات شمسية سوداء موجهين فوهات بنادقهم نحو

الآخرين وركاب هذه السيارات لا يقلون خطورة عن الجنود الأمريكيين، اذ يطلقون النار كيفما شاؤوا خاصة خلال مرورهم بالشوارع والأسواق العامة لزرع الرعب في قلوب الناس، وليجبروا سائقي السيارات الأخرى على أفراغ الطريق لهم وهذه السيارات تستخدمها الشركات الأمنية الخاصة صاحبة السجل الطويل فى جرائم القتل لمجرد الشك وعلى رأسها « بلاكووتر » .

ولأن الانتحارى الذى دخل إلى البرلمان شخص بالتأكيد غير عادى فأنه لابد وأنه دخل من الأبواب التى تسمح بدخول السيارات وهى أيضا تخضع لإجراءات أمنية دقيقة ترافق الدخول إلى المنطقة الخضراء. ويجب على ركاب السيارات حاملى الباجات أو ضيوفهم أولا إغلاق الهواتف الجوالة، ثم فتح غطاءها وعزل البطاريات ووضعها في مقدمة السيارة ثم الترجل والابتعاد عن السيارة حتى يتأكد أحد الجنود الأمريكيين الذى يوجه فوهة بندقيته نحو العابرين من أن الموبايلات معزولة عن بطارياتها، وأنهم لا يحملون أي سلاح ثم يتقدم العابرون إلى نقطة التفتيش.

وتقتضي التعليمات أن يحمل الداخل إلى المنطقة الخضراء جواز سفر وبطاقة هوية أخرى ، يتم مصادرتها مؤقتا من الضيف الذى لا يحمل باجا للدخول وإعادتها له عندما يترك المنطقة الخضراء في تصرف يجبر الضيف على عدم البقاء طويلا في الداخل ، وإذا ما بقيت البطاقة أو الجواز لثلاثة أيام لديهم، فإنهم يتلفون الجواز أو البطاقة ويحققون مع المرافق الذي ادخل الضيف على مسؤوليته و خلال هذا الوقت يقوم الكلب المتخصص فى شم رائحة البارود أو الأسلحة بمهمته حيث يصطف طابور طويل من السيارات أمامه ، ولا أحد يستطيع أن يدفع الكلب للاستعجال فهو «يؤدي عمله على أحسن ما يكون» وعلى الجميع أن ينتظر مزاج الكلب «الشمام» حتى يسمح لهم بمواصلة الطريق إلى داخل المنطقة الخضراء.

ويبلغ الراتب الشهري المخصص لهذا الكلب ثلاثة آلاف دولار تقريبا، ويتم تخصيص جندي لمرافقته وسيارة كبيرة ذات دفع رباعي ومكيفة ينتظر أو يستريح فيها، بينما يؤدي عمله أما سعره فيتراوح ما بين ٣٥٠ إلى ٤٠٠ الف دولار امريكي ويتم دفعها طبعا من أموال النفط العراقى مثل معظم مخصصات المحتلين .

أما المنطقة الدولية من الداخل فهى عبارة عن مقاطعات ومناطق، مقسمة إلى حارات بواسطة جدران من الكونكريت «الخرسانة المسلحة» ، وبوابات حديدية وحراسات مشددة. وهذا يعني ان الدخول إلى المنطقة الخضراء لا يعني بأي حال من الأحوال حرية التجوال، ولكن التوجه إلى منطقة محددة، وعندما يتطلب الأمر

دخول بوابات أو الوصول إلى أقسام أخرى، فيجب أن يكون هناك دليل أو مرافق آخر يحمل بطاقة (باج) تخوله دخول هذه المنطقة.

أما دخول مبنى مجلس النواب (البرلمان العراقى) فانه يتطلب المرور عبر سلسلة إجراءات معقدة والحصول على موافقات وباجات فما بالك فى التحرك داخله وهو ما يعنى أن الانتحارى الذى فجر نفسه داخل قاعة كافيتيريا البرلمان كان يحظى بتأمين عالٍ المستوى والدقة ويتمتع بحرية الحركة إلى الدرجة التى تجعله يجلس فى كافيتيريا البرلمان وهو يحيط جسده بحزام ناسف يحمل كل هذه الكمية من المتفجرات التى مازال أمر دخولها إلى تلك النقطة العميقة فى بحر المنطقة الخضراء أمرا شديد الغموض ربما تنكشف أبعاده فى وقت لاحق رغم أنه تم عمليا توجيه اتهام رسمى إلى محمد الداينى عضو البرلمان الهارب بأنه هو المخطط والمنفذ لتلك العملية الغامضة .. إلا أن الأسئلة الحائرة تزداد بعد توجيه الاتهام إلى شخص بعينه عن هذا الهجوم المريب .. وأول تلك الأسئلة كيف تمكن الداينى من إدخال هذا الانتحارى بهذه الكمية من المتفجرات إلى هذه المنطقة .. وكم عدد نقاط التفتيش الحصينة التى عبرها للوصول إلى تلك النقطة وكم عدد الذمم التى اشتراها لتسمح له بالعبور وما هى جنسياتها .. وما هى تلك السلطة التى عطلت أجهزة السونار وأنوف كلاب الشم ومنعت الأيادى الخشنة لعناصر نقاط التفتيش من تحسس جسد الانتحارى الملفوف بحزام ناسف كما تتحسس أجسادنا المرهقة جيئة وذهابا كلما ساقتنا ظروف العمل إلى التواجد داخل إحدى حارات المنطقة الخضراء .

ربما تكون الإجابات اشد صعوبة من الأسئلة الحائرة .. وربما تتيح الظروف وتقلبات الأوضاع بالكشف عن هذا السر وغيره من أسرار زمن المذبحة .. إلا أن الشيء الوحيد المؤكد فى هذا الأمر هو أن سلطان القاتل فى زمن المذبحة كفيل بتخطى كل الحصون والقواعد والترتيبات وأن يشترى الضمائر التى تبلدت حتى يقتل البشر بعد أن قتل الشجر والحجر .

٧ - مئذنة الفتنة

يتسارع الزمن وتتسابق الأحداث فى عام ٢٠٠٧ لتتجاوز كافة الخطوط الحمراء التي طالما توعدت بتجاوزها فرق الموت والجماعات المسلحة لتستطيع أن توسع نفوذها وترغم الحكومة العراقية والأمريكية على التنازل لمتطلباتها.

ومن بين هذه الأحداث التى اخترقت حدود الخطوط الحمراء تفجير مئذنة

المرقدين الشيعيين المقدسين فى بلدة سامراء السنية التابعة لمحافظة صلاح الدين / مرقد الإمام العاشر على الهادى والحادى عشر الحسن العسكرى / وما تبقى من القبة التى أطلق تفجيرها فى ٢٢ فبراير عام ٢٠٠٦ موجة من العنف الطائفى كادت أن تقود العراق إلى حرب اهلية شاملة بعد مقتل وإصابة عشرات الآلاف وإحراق المئات من المساجد والحسينيات .

في الساعة التاسعة من صباح الأربعاء ١٣ يونيو حزيران/٢٠٠٧ الموافق ٢٥ جمادي الأول/١٤٢٨ استيقظ العراقيون واستيقظت معهم على كارثة جديدة من كوارث العام ٢٠٠٧ تنذر بانفلات الأمور بشكل أوسع بينما تلوح سحب الحرب الأهلية الشاملة فى الأفق ومع هذا التطور الخطير وتزايد معدلات الصراع على السلطة والنفوذ بين الشرعية القائمة التى لا تملك السيطرة على الأرض ممثلة فى الحكومة والشرعية المستندة إلى قوة السلاح والتى تملك الأرض وتفرض قانونها الخاص فى زمن المذبحة ويتزامن هذا في الوقت الذى يشتد فيه الاقتتال مابين الفصائل السنية مع حرب التصفيات الجسدية والعمليات الانتقامية خاصة من جانب تنظيم القاعدة الذى بدأت الأرض تهتز تحت أقدامه ويفقد ملاذاته الآمنة فى مناطق العشائر السنية فى الأنبار وصلاح الدين وديالى .

وكما كان تفجير القبة الذهبية غامضا حيث جرى فى منطقة تحظى بحماية أمنية مشددة من جانب قوات عراقية وأمريكية وحماية شعبية من جانب سدنة المرقد المقدس الذى يتولى حمايته أهالى سامراء السنة منذ مئات السنين .. كان تفجير المنارة التي أفلتت من التفجير الأول غامضا خاصة وأنه تم تشديد الحراسة على المرقد المقدس ومنعت القوات العراقية والأمريكية الوصول إليه .. فكيف تم التفجير الذى يتطلب وقتًا طويلا حتى يتمكن المهاجمون من تلغيم الهدف وأين كانت عناصر الحماية العراقية والقوات الأمريكية المدججة بكل أنواع الأسلحة وتقف متحفرة فى شوارع ضيقة تؤدى إلى المرقد المقدس الذى يضم فى جزء منه ما يعرف ب « مغيب المهدى المنتظر» الذى يعتقد الشيعة الجعفرية بأنه غاب فى هذا القبو ومنه سيعود فى آخر الزمان لينشر العدل ويقضى على الفتنة .. أى أن منفذى التفجيرين يعلمون جيدا مدى قدسية هذا المكان أكثر من أى مرقد اخر مقدس لدى الشيعة فى العراق أو العالم لأن تدميره يعنى ضرب أصل العقيدة الشيعية وهو كفيل بإحراق الأخضر واليابس .. إلا أن من عاش أيام المذبحة وخاصة عام ٢٠٠٧ وهو عام الدمار و الانهيار يدرك بسهولة أن خرق كل القواعد والقوانين كان أحد الظواهر التى ميزت زمن المذبحة .

وما جرى في سامراء من تفجير آخر يعتبر الثاني من نوعه لنفس المرقدين حيث فجر مسلحون مجهولون، منارتي المزار الذي يحتضن مرقدي الإمامين الحسن العسكري وعلي الهادي في مدينة سامراء، وفق ما أكدته الشرطة العراقية ومسؤول أمني.. وقال مصدر أمني أنه سبق التفجير اندلاع اشتباكات بين عناصر الشرطة ومسلحين، تبعها نجاح المسلحين في دخول المزار وزرعه بالألغام قبل تفجيره موضحاً إن الانفجار الأول أدى إلى انهيار المئذنة اليمنى للمرقد تبعه انفجار ثان تسبب بانهيار المئذنة اليسرى.

ومع انطلاق التحذيرات التى أشاعت أجواء هيستيرية من المخاوف من أن التفجير قد يؤدي إلى مزيد من الاقتتال المذهبي في البلاد سرعان ما حمل رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي تنظيم القاعدة وأنصار الرئيس السابق صدام حسين « من الصداميين والتكفيريين وأزلام النظام السابق » المسؤولية عن الهجوم معربا عن اعتقاده بأن مساجد أخرى سيجري استهدافها وانه طلب من قوات الأمن العراقية تكثيف التدابير الأمنية حولها .. وقد أدى ذلك إلى شيوع حالة من الاحتقان والتوتر الشديدين خاصة فى العاصمة بغداد ، فيما تجمع المواطنون حول المساجد والحسينيات، بانتظار ما سيصدر عن مقر المرجعية الشيعية في النجف التي اتجهت إليها الأنظار ، لتطوق هذه المحنة الجديدة التي يمكن أن تعصف بما تبقى من البلاد.

وانتشرت القوات الأمنية والعسكرية في شوارع بغداد خشية من تجدد مواجهات العنف الطائفي على غرار تلك التي شهدتها بغداد في أعقاب تفجير قبة سامراء في فبراير /شباط من العام ٢٠٠٦ .

وبالرغم من حالة الذهول التي خيمت على العراق من أقصاه إلى اقصاه، إلا أن الدعوة للتهدئة كانت سيدة الموقف الصعب الذي وجد فيه العراق والعراقيون أنفسهم حائرين بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على لقاء المالكي – نجروبونتي، الذى أمهل الحكومة العراقية شهراً واحداً لإنجاز تعهداتها بالقضاء على الميليشيات وفرق الموت بعد أن أشارت تقارير شبه مؤكدة عن دعم خفى تقدمه جهات نافذة فى حكومة المالكى لتلك الميليشيات وخاصة جيش المهدى .

٨ - طار الحمام .. حط الحمام

بعد ساعتين من تفجير مئذنة المرقد المقدس فى سامراء أعلنت الحكومة فرض حظر مفاجىء على التجوال حتى إشعار آخر تحسبا لوقوع أعمال عنف على غرار ما جرى فى فبراير عام ٢٠٠٦ بعد تفجير القبة الذهبية للمرقد .. ومع الانتشار

الكثيف للقوات الأمنية وتحليق المروحيات الأمريكية فى سماء بغداد هرع الناس إلى بيوتهم وانسحبوا مبكرا من الدوائر الحكومية وأغلقت المحال التجارية أبوابها وغدت بغداد مدينة أشباح عند حلول الظهر .

وفى تلك الأثناء وعندما كان الناس يفكرون فى القادم الأسوأ ويستعدون لأيام أشد قسوة فى ظل أجواء من الرعب فرضتها الأحداث .. كنت أنا فى عالم آخر فرضته على الأحداث أيضا ولكنه عالم يحتوى أفكارا أخرى ويتوقع سيناريوهات أخرى غير تلك التى يتوقعها العراقيون الذين يرتعدون خوفا داخل بيوتهم .

كان اليوم التالى للانفجار وهو يوم الخميس هو موعد سفرى إلى القاهرة فى أول أجازة بعد ١١ شهرا قضيتها فى أتون المذبحة وكانت حسابات المكسب والخسارة والخطورة والألم والقتل والرعب غائبة عن قاموسى فى هذا اليوم بعد أن أعددت العدة للسفر إلى القاهرة .. كانت يدى مربوطة إلى حقيبة السفر وعيونى معلقة على طريق المطار .. كنت قد أفرغت ثلاجتى من الطعام وتخلصت مما تبقى من بنزين للمولد مع الحفاظ على كمية تكفى حتى صباح اليوم التالى وأقرضت صديقا لى « جالون السولار » المتبقى .. واحتفظت بزجاجتى مياه لغرض الشرب وبعضا من الشاى والسكر يكفى ليلة واحدة .. فأنا ذاهب فى إجازة سوف تستمر ٤٥ يوما ولا حاجة لى بتلك الأشياء ولا مبرر لبقائها نهبا لحر الصيف وما يقاسمنى الشقة من حشرات وقوارض فى المبنى المهجور الذى يقع فيه مقر عملى وإقامتى .

وبعد ما جرى اضطربت كل الحسابات التى وان كانت تبدو بسيطة إلا أنها كارثية . فلا يوجد موعد محدد لرفع حظر التجوال ومن ثم فتح المطار حتى أتمكن من مغادرة بغداد .. ولا توجد محلات يمكننى أن أتزود منها ما أريد من احتياجات سواء للأكل أو الشرب أو لتشغيل مولد الكهرباء .. لا يوجد من ألجأ إليه فى تلك الظروف بعد أن لزم الجميع بيوتهم انتظارا لما تأتى به الأيام من أحداث فى ظل هذا التوتر المرعب .

امتدت حدود المكان واستطالت ساعات ذلك اليوم وأنا بين فكى الرحا .. لا مغادرة لبغداد بفعل حظر التجوال .. ولا مقومات بسيطة للحياة من مأكل ومشرب .. ولا وجود لبشر فى الشوارع التى خلت من الناس تاركين أماكنهم لقوات أمنية متحفزة على الأرض ومروحيات عسكرية تثير الضجيج فى السماء .. استسلمت لشاشة التليفزيون لمتابعة ما يجرى فى حدود المكان والمربع الإجبارى

المفروض إلا أغادره تحت أى ظرف .. تواترت الأنباء عن وقوع بعض أعمال العنف والاشتباكات وسط نشاط محموم لعناصر الميليشيات .. تناسيت ما ينتظرنى من مشاكل لوجستية ومارست مهمتى فى المتابعة عبر الهواتف وشاشة التلفاز ومواقع الانترنت ولم أدرى إلا بوصول اليوم إلى نهايته على دوى عدد من الإنفجارات وأصوات القذائف وطلقات الرصاص المتقطعة.

مستلقيا على فراش القلق احتضنت هواجسى المشتعلة وآمالى المرتعشة فى السفر إلى القاهرة حتى صباح اليوم التالى حيث كان على أن أوفر طعاما ومياه لأبقى على قيد الحياة والاقتصاد فى استهلاك المولد الكهربائى حتى يستمر إلى أطول وقت ممكن .. وعندما دوى صوت انفجار هرعت إلى سطح البناية لأتبين موقعه وفى الطريق إلى سطح المبنى وقعت عينى على أحد الأركان التى يستخدمها الحمام كعش لمبيته وقد عاد من رحلته فى البحث عن قوته مبكراً لأن أرض سمائه لم تعد آمنة بفعل التحليق المكثف للمروحيات والطائرات الحربية الأمريكية .. وكان القرار أن يكون طعامى خلال اليوم وما تبقى من أيام على فك حظر التجوال هو الحمام .. وعندما تجولت فى شقق العمارة المهجورة تماما اكتشفت المزيد من أعشاش الحمام .. وتمكنت من الإمساك بالكثير الذى لم يقاوم كثيرا وقمت بإعداد طعام يكفينى ليوم كامل .. وشعرت براحة كبيرة لأننى وجدت خزينا لطعام يكفينى لأيام إذا ما ساءت الأمور واستمر حظر التجوال ..حرصت على إبقاء هاتفى المحمول به قدر كاف من الشحن حتى يستمر إتصالى مع العالم الخارجى وأتمكن من الحصول على الأخبار وإرسالها إلى المركز الرئيسى للوكالة عندما ينتهى البنزين المتبقى وتنقطع كهرباء المولد .

وفى صباح يوم الجمعة كان قد تم الاعلان عن فك حظر التجوال اعتبارا من الأحد بعد أن اطمأنت القوات الأمريكية والعراقية إلى أن الأمور لن تشهد المزيد من التدهور الأمنى وأن سابقة ٢٢ فبراير ٢٠٠٦ وما جرى فيها من انفلات أمنى لن يتكرر بنفس الطريقة .. وأدى هذا الاطمئنان إلى إعادة فتح بعض المحال أبوابها فى المناطق خاصة محال « السوبر ماركت» وهو ما مكننى من الحصول على طعام ومياه واقتراض بعض البنزين من صاحب محل قريب كنت أحد زبائنه لتشغيل المولد .

وما أن انفرجت الأزمة وتم رفع حظر التجوال وإعادة فتح مطار بغداد حتى كنت أول الواصلين إلى هناك انتظارا لإقلاع أول طائرة إلى القاهرة يرافقنى شعور بالزهو لاجتياز الأزمة مع دعوات لم تفارق لسانى حتى وصلت إلى مطار القاهرة .. «الحمد لله الذى أطعمنى من جوع وآمنى من خوف» .. وهى الدعوة التى لازمتنى

طوال الفترة التى قضيتها بالعراق فى زمن المذبحة .

٩ - أبو بدور

يروى أبو بدور أنه فى صيف ٢٠٠٧ وبعد جلسة حوار مع أصدقاء عن الجماعات المسلحة وهل انتماؤهم للوطن أم للدين أم لأشياء أخرى باعتباره من منطقة الكاظمية التى تضم مرقد الإمام موسى الكاظم وهو الإمام السابع لدى الشيعة وله امتدادات عشائرية وعائلية قوية تتيح له التحدث بحرية وكان متحررا من الطائفة وما تمليه من ولاءات تمنع الخوض فى بعض الأمور أو المساس ببعض الأشخاص .. وكان رأيه واضحا فى قضية الصراعات الطائفية وهو الاستفادة الاقتصادية من قبل المنتمين إلى المجموعات المسلحة وغيرها من الانتماءات والدليل هو تاريخ المتصارعين .. وكانت الجلسة فى مقهى شعبى حيث روى قصة أحد الأشخاص الذين يطلقون عليهم صفة قيادى فى تلك المجموعات المسلحة وكان يعرفه فى طفولته كلص وسارق مهمل « نجرى» .. قال أبو بدور أنه شاهد هذا القيادى وهو يعدو وبيده كيس نقود يبدو أنه سرقه فيما يلاحقه المسروقين وساهم فى تخليصه من الموقف بعد أن توسل به وبدلا من حفظ الجميل لتخليصه حاول أن يمحوه من الوجود بعد أن صار قائدا لمجموعة مسلحة فى زمن المذبحة حتى يخفى ملفه الملوث ولا يفضحه أبو بدور .

وبعد هذه السهرة بيومين كان أبو بدور يتناول العشاء مع زوجته الحامل فى المطعم الوحيد الذى تحدى العنف بين منطقة حى البنوك ومدينة الصدر وهى مناطق مشتعلة كانت تحت سيطرة جيش المهدى وطلبت زوجته زيارة الامام الكاظم إلا أنه أصر على عودتها للمنزل حتى تنام الطفلة .. وفى منطقة القاهرة انفجرت السيارة حيث كان قد تم وضع عبوة ناسفة من النوع اللاصق « وهى نوع من العبوات التى يتم لصقها بمغناطيس أسفل السيارة بدلا من تفخيخها وقد أدت هذه التقنية الحديثة السهلة إلى مقتل المئات » .. وأدى الانفجار إلى تحطم السيارة وإصابة أبو بدور بإصابات بالغة جعلته اقرب إلى الموت من الحياة .. وأدى الانفجار إلى مقتل خمسة من المارة وإصابة عدد آخر بجروح بالغة .

يقول أبو بدور أنه رأى صورة أمه التى رحلت قبل عامين حينها بين غفوة الموت والحياة تطلب منه أن يبتعد عنها وإلا يدركها ويلحق بها فى عالمها .. صور وخيالات وأصوات وضوضاء بين من يقول أنه مات أو مازال على قيد الحياة ويحتاج الإنقاذ .. حمله الطبيبون رغم بدانته ووزنه الذى يتجاوز المائة كيلو جرام والشظايا التى تملأ

جسده الممزق .. بائعان شيعيان .. سائقان سنيان .. صاحب صيدلية دمر الانفجار واجهتها .. وعند أقرب طبيب وكان سنيا جرت معالجة أبو بدور وسط خليط من الخوف انتاب الطبيب الذى خشى أن يموت فى بيته بعد أن علم من هويته أنه شيعى والرغبة فى إنقاذ جريح شارف على الموت إلا أن الرغبة فى إنقاذ المصاب تغلبت على المخاوف .. تفحص الطبيب هاتفه المحمول ليتصل بـ « الروح» وهى زوجة أبو بدور «أختى أم محمد » « أختى أم على» وغير ذلك من الأسماء المسجلة على ذاكرة الهاتف التى تدلل على قرابة أو صداقة .. استيقظ ابو بدور ليجد كل ذويه وهم شيعة يصطفون حوله فى بيت الطبيب السنى .. قاموا بنقله إلى مستشفى بعد استقرار الحالة ليستكمل العلاج .

روى لى أبو بدور قصته وهو يشير إلى آثار الجروح والإصابات جراء الانفجار التى بقيت شاخصة على أجزاء جسده رغم مرور ثلاثة أعوام تقريبا على الحادث .. آثار التئام جروح فى الجبهة بعد عدة عمليات تجميل أصلحت الحروق .. ثلاثة أصابع كانت مقطوعة تماما جرى وصلها إلا أن آثار الجروح بقيت شاخصة لتدل على حجم الإصابة .. آثار غائرة فى القدم والذراع .. بقايا كسر مضاعف فى القدم اليمنى مازال يعانى بقايا ألم عندما يسير عليها كثيرا .. رحلة علاج خارج العراق جزء منها فى أمريكا وبقايا من العمر جعلت الموت يخطىء أبو بدور هذه المرة ليبحث عن قاتل الأبرياء الذى حاول قتله .

يقول أبو بدور أن من زرع العبوة اللاصقة أسفل سيارته يقضى الآن ما تبقى من حياته كسيحا بعين واحدة بعد أن انفجرت عليه عبوة أخرى حاول زرعها أسفل سيارة برىء آخر لا لشيىء إلا لأنه تجاوز من وجهة نظره وكشف بعضا من جوانب حياته المظلمة التى سبقت حياة البذخ والنفوذ بعد أن أصبح قائدا لمجموعة مسلحة عاثت فى الأرض فسادا وزرعت الموت فى زمن المذبحة .

يقول أبو بدور أن أكثر فائدة عادت عليه عندما خرج من الموت هو أنه غير أفكارًا كانت قد بدأت تستقر فى ذهنه عن زمن المذبحة أهمها أن الفتنة الطائفية لن تنتهى بالعراق وأن الانتماء الطائفى هو الغالب فى كل المواقف .. أما الآن فهو من دعاة الوحدة الوطنية وكما يقول « هذا الوطن ما نبيعه .. اخوان سنة وشيعة» .

١٠ - رتل الزيدان

فى يوليو عام ٢٠٠٧ كان ضياء وشقيقه أحمد فى طريق العودة من مقر إقامة

العائلة إلى حيث مقر العمل فى بغداد عبر رتل أمريكى منطقة الزيدان التى تبعد ٢٠ كم غرب بغداد الذى أدى إلى حصر كل السيارات المتوجهة إلى بغداد خلفه حتى يمر خرج مجموعة من المسلحين عددهم ١٢ شخصا ليقطعوا الطريق فورا بعد مرور الأمريكيين وأشاروا بتوقف كل العابرين الذين كانوا عبارة عن حافلة كبيرة لنقل الركاب /أوتوبيس/ وعدد من سيارات «جى إم سى» القادمة من الأردن وسوريا التى يطلق عليها العراقيون « جيمسى» محملة بالركاب وعدد من الحافلات الصغيرة لنقل الركاب وسيارات خاصة من بينها سيارة ضياء واحمد وهم من العرب السنة ينتمون إلى عشيرة المعمورى .. بينما كان معظم العابرين ينتمون إلى الطائفة الشيعية .

بدأت الأسئلة من جانب المسلحين الذين كان بينهم عناصر لا يزيد عمرها عن ١٣ عاما ولا يزيد عمر أكبرهم عن ٢٥ عاما بعد أن أمروا كل الركاب بالنزول من السيارات حتى جاء الدور على ضياء وأحمد .

ويروى ضياء أن احد المسلحين جلس فى السيارة بعد أن أخبره الشقيقان بأنهم من منطقة الخالدية وهى بلدة سنية خالصة تتبع محافظة الأنبار .. قال شلونها ؟ يعنى « كيف حالها ».. قالوا «يجاهدون جهادا قويا » حيث كانت إجاباتهم هى إجابة الخائف الباحث عن الأمان أخبرهم أن الإخوة المجاهدين الذين ينفذون تلك العملية هم من كتائب ثورة العشرين وطمأنهم بأنهم سوف يغيرون طريق العابرين من خلف سجن أبو غريب حتى يتفرغوا لضرب الأمريكيين .. كان هذا الكلام كذبا حيث عبر المسلحون إلى منطقة الزيدان التى تضم غابات كثيفة ومصارف لمياه الرى واقتادوا العابرين الذين بلغ عددهم حوالى ٢٠٠ شخص وتم تقسيمهم لغرض الاستجواب من جانب المسلحين .

دارت عمليات الاستجواب كما تجرى فى مثل تلك الأحوال بالسؤال عن الاسم ثم العشيرة ومن يثبت أنه شيعى يشار إليه بالدخول إلى المزارع الكثيفة بينما يتم إطلاق سراح السنى ليواصل طريقه إلى بغداد وذلك بعد عمليات تفتيش دقيقة لكل العابرين .

ويؤكد ضياء أن المسلحين لم يحاولوا الاستيلاء على أى نقود رغم أنه كان وشقيقه أحمد يحملون حوالى ٦٠ ألف دولار هى أسعار بضائع كانوا سوف يتسلمونها فى بغداد لصالح تجار كبار يعملون معهم .

كانت الطامة الكبرى عندما حصل أحد المسلحين أثناء عمليات التفتيش على «كارت شحن لتليفون محمول » بحوزة أحمد وظن أنه هوية أمريكية ومعناها

الذبح فورا وهو ما جعل الدماء تجف فى عروق الشقيقين بعد أن صدر القرار بذبحهما بسبب الهوية الأمريكية حيث كانت تلك الهوية الصادرة عن الأمريكيين أيا كانت نوعيتها بمثابة قرار الإعدام لحاملها أيا كانت طائفته أو وظيفته .

بعد قليل من التدقيق فى هوية أحمد « بطاقته الشخصية» التى تدل على صدورها من محافظة الأنبار وقليل من استجداء عطف من يقوم بعملية التفتيش تأخر قرار الإعدام بعض الشيء حتى جاء قائد المجموعة الذى كان يقوم بتقسيم العمل وبعد معرفة الحقيقة وقراءة المكتوب أكد للشاب ان هذا «كارت شحن موبايل» وليس هوية أمريكية وكان القرار هو الإفراج عن الشقيقين السنيين بعد أن كادا أن يفقدا حياتهما بسبب جهل أحد عناصر المجموعة الذى لا يعرف القراءة والكتابة ويمارس دور القاضى والحاكم والحامى للطريق .

ويقول ضياء أنه بعد الإفراج عن أبناء الطائفة السنية ممن لا يحملون هويات تدل على عملهم فى قوات الشرطة والجيش أو مع الأمريكيين أو فى دوائر الدولة تم اقتياد الباقين من السنة « الكفرة» التي أثبتت عمليات التفتيش وجود جهاز اتصال نوع «ثريا» وكميات من الدولارات أو الهويات الرسمية باعتبارهم يعملون مع الأمريكان وكان الضرب والشتائم لا تتوقف مع عمليات التحقيق .. كما تم اقتياد الشيعة إلى داخل البساتين ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الذبح رغم بكاء النساء وعويل الأطفال وتوسل العجائز بالمرض حتى يتركونهم ..إلا أن الرد كان حاسما من الحجى « قائد المجموعة» الذى قال للضحايا من الشيعة «حرقتم أهلنا وسنحرق أهلكم» .

ويشير ضياء إلى ان أهالى المنطقة كانوا يقومون بدور المتفرج المستريح على ما يجرى .. ربما لأنهم لا يستطيعون فعل أى شيء للضحايا الذين قادهم الحظ العاثر إلى المرور فى الطريق الخطأ وفى التوقيت الخطأ .. أو ربما كانوا يمتلكون القناعة الكافية بأن هؤلاء « المجاهدين» يؤدون دورهم المطلوب .

١١ - ما معنى «الله أكبر»

ذات مرة سألنى صحفى أجنبى يتحدث العربية عندما كنا نشاهد مقاطع مصورة لعمليات تعذيب وقتل وذبح يقوم بها ملثمون لضحايا لا ذنب لهم سوى أن حظهم العاثر ساقهم لأن يقعوا فى براثن إحدى نقاط التفتيش التابعة لفرق الموت أو تنظيم القاعدة ليلقوا مصيرهم المحتوم بعد وجبة دسمة من التعذيب بدت واضحة على أجسادهم ووجوههم .. سألنى الصحفى الأجنبى سؤالا أدهشنى وجعلنى عاجزا عن الرد قبل أن استجمع طاقتى الذهنية فى محاولة للإجابة عليه

.. قال لي « عندما تصلون وتعبدون الله تقولون الله أكبر .. وعندما تذبحون البشر تقولون الله أكبر .. أستاذ محمود ما معنى الله أكبر عندكم ؟؟ !! » .. باغتني السؤال كما رسم علامات الدهشة المصحوبة بالخجل على أوجه من كان يشاركنا تلك الجلسة فى أحد فنادق العاصمة بغداد .. قلت لصديقنا الصحفى الأجنبى أن من يقتل نفسا فى ديننا الإسلامى هو بعيد كل البعد عن تعاليم الله والقران الذى يقول « لا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » وأن ما يطلقونة من تكبيرات أثناء عمليات الذبح والقتل فلا مجال لها فى مثل هذا الموقف لأن كلمة (الله أكبر) هى كلمة تبين شيئاً من عظمة ربنا الجليل الذي لا يحيط به وصف الواصفين

الله أكبر كلمة جاء الأمر بها في أول بعث النبي ﷺ وأول إرساله فإن الله جل وعلا قال لنبيه: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»

وانطلقت أشرح له المعنى الحقيقى للكلمة المباركة فالله أكبر كلمة أمر الله بها أهل الإيمان في آية وصفها أهل العلم بأنها آية العز فقال جل وعلا: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾ أي عظمه جل وعلا تعظيماً، وصفه بأنه سبحانه وبحمده أعظم من كل شيء. الله أكبر كلمة يدعى بها أهل الإسلام إلى أعظم أعمالهم وهي الصلاة وإنها تلك الكلمة التي يرددها المؤمنون في مآذنهم وتدوي بها بلدان المسلمين

الله أكبر كلمة يفتتح بها العبد لقاءه بربه يكررها في ركوعه وسجوده وقيامه وقعوده وفي سائر تنقلاته ليحضر في قلبه عظمة من هو واقف بين يديه فإذا قالها المؤمن وهو حاضر الفؤاد في صلاته امتلأ قلبه هيبة من الله تعالى وإجلالاً لمولاه وذلاً له سبحانه وبحمده فإذا امتلأ قلب العبد بذلك فلا تسأل عن صلاته إنه في مناجاة عظيمة في لقاء برب الأرض والسماء ينزل به حوائجه يدعوه كشف الضر ويسأله خير الدنيا والآخرة.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قول العبد: (الله أكبر) خير من الدنيا وما فيها. (الله أكبر) كلمة جامعة لمعاني العبودية دالة على أصول عبادة الله تعالى وفروعها، (الله أكبر أصدق كلام وأعذبه وأحلاه، (الله أكبر) أبلغ لفظ يدل على تعظيم الله تعالى وتمجيده وتقديسه، (الله أكبر) كلمة جمعت الخير فنيها الشهادة لله تعالى بأنه أكبر من كل شيء وأنه سبحانه أجل من كل شيء وأنه تعالى أعظم من كل شيء.

(الله أكبر) كلمة يعلو بها المؤمن على كل علي من الخلق ولـذلك شـرع الله تعالى تكبيره في كثير من المواطن من الأماكن والأزمان والأحوال والرجـال الـتي يمتلئ فيها قلب الإنسان بتعظيم غير الله تعالى فجاء التكبير عند علـو الأمـاكن العالية جاء التكبير عند رؤية أمر يفرح به ويسر فيكون التكبير خافضاً لعظم كـل عظيم غير الله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء جل وعلا وهو أعظم من كل شيء سبحانه وبحمده.

قاطعنى متسائلا: « وما الفرح أو الأمر العظيم فى قتل مسلم لمسلم آخـر لأن هذا سنى وهذا شيعى أو حتى قتل شخص من أى ديانة أخـرى كمـا يقتلـون الأمريكان مثلا ؟؟ وحتى إذا كانوا يعتبرون قتلهم للأمريكان نصرا فلماذا يقومون بتشويه جثثهم وتعليقها على الأشجار كما رأينا أكثر من مرة ؟!

قلت له أن هذا ليس موضع ذكر كلمة الله أكبر لأنه من تعظيم الله تعـالى أن يعظم العبد حدود الله تعالى في نفسه فلا ينتهك حداً من حدود الله ولا يقـع فيما حرم الله تعالى ولا يقصر في شيء مما أوجبه الله تعالى عليه بل تجده مسابقاً لطاعة الله تعالى عاملاً بما يرضيه سبحانه وتعالى مجتنباً كل ما نهى الله عنـه ورسوله.

الله أكبر حاجز يمنع المؤمن من التورط في ألوان المعاصي والسيئات، الله أكبر حاجز يحول بين المرء وانتهاك الحرمات فإنه لا يضيع ما فرض الله تعالى عليه ولا ينتهك ما حرمه الله عليه إلا من خف في قلبه تعظيم الله تعالى وإنما يقل الخوف في قلب العبد من قلة تعظيم الله تعالى فإذا نما في قلب العبد تعظيم الله جل وعلا كان العبد مسابقاً إلى طاعة الله تعالى منتهياً عما نهى الله عنه ورسـوله وإنـني أذكر لكم شيئاً من سير من قص رسول الله ﷺ خبرهم حتى يتبين للمرء ما الذي يثمره التعظيم ما الذي يثمره إجلال الله وتقديره.

واستمرت حالة الجدل بين سؤال مستنكر لما يجرى من عمليات تعذيب يعقبهـا قتل برصاصة أسفل الرأس أو ذبح يثير الغثيان من الصحفى الأجنبى وجواب منى لا يملك تفسيرا لما يجرى من مسلحين ملثمين يرسمون بحماسة أسطورية، هـذه الصورة المشوهة للإسلام ويشعلون جذوة حرب عبثية دينية أحيانا وطائفية أحيانـا تحت عناوين مقدسة كالجهاد والدفاع عن الدين والوطن والطائفة والقومية وفقا لمداخلات وبيانات وخطب أطلقت باسم دعاة وعلماء دين وفقه وذهبت، من مواقـع متباينة، إلى تحبيذ الحرب وتبرير دواعيها، وهو ما أدى إلى حفر مجرى عميق مـن التحزب الأعمى في نفوس الموالين.. بينما يقف خارج المشهد أناس على شـاكلة

الصحفى الأجنبى ينظرون للأمر على أنه كوميديا سوداء لا يمكن تفسير الكثير من أحداثها ويختلط عليهم الأمر كيف ينظرون إلى المسلمين هل هم الرافضون لتلك الهمجية والذين يدركون جيدا حدود الخطأ والخطيئة وحدود الدفاع عن الوطن والدين أم هم هؤلاء الملثمون الذين لا يعرف أحد من أى جحيم خرجوا وبأى أحرف كتبوا عناوين مقدسة يرتكبون تحتها أكبر الكبائر .. ولأننى أدرك أن مثل هذا الجدل العقيم لا يمكن أن يستمر بسبب اختلاف الثقافات وهو ما يؤدى بالنتيجة إلى عدم وضوح الرؤية أنهيت الجدل المستمر بمقولة للقائد الأشهر نابليون بونابرت وهى أن « النافذة التي يخرج منها الهواء الفاسد هي نفس النافذة التي تسمح بدخول الهواء النقي ».

وانصرفت وأنا أسأل نفسى « لماذا يطلق من يذبح أخا له كلمة الله أكبر وهو يقتل نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ؟؟ !! » .. هل من إجابة !!!!

١٢ - لحظة تنوير

حل عام ٢٠٠٨ بعد احتراق الأخضر واليابس وانهيار سلطة الدولة بشكل شبه كامل حتى قيل أن الحكومة العراقية لا تستطيع السيطرة سوى على بعض مكاتبها فى المنطقة الخضراء .. فى وقت انتفض العراقيون السنة على ما كانوا يسمونهم المجاهدين الذين شكلوا عماد تنظيم القاعدة فى العراق وتمكنوا من طرد تنظيم القاعدة فى معظم المناطق التى كانت مناطق نفوذ بعد دعم تلقاه رجال العشائر من القوات الأمريكية ودعم على استحياء من السلطات العراقية وهو ما جعل موقف الحكومة الشيعية يبدو محرجا وبات المالكى وحكومته يتلقون سيلا من الاتهامات بدعم الميليشيات سواء عمليا أو بالسكوت عن أنشطتها غير القانونية .

بدأت الغمة تنكشف بينما تنهار جسور المودة بين السلطة الشرعية وسلاطين القتل وبدأت العمليات العسكرية واسعة النطاق التى كان أشهرها ما أطلق عليه « صولة الفرسان» فى محافظة البصرة الجنوبية ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية والتى باتت مجموعة من الممالك تديرها فرق الموت والميليشيات خاصة جيش المهدى وكتائب ثأر الله .. فيما انفرد حزب الفضيلة الإسلامى بالإدارة السياسية والاقتصادية الرسمية من خلال المحافظ القوى محمد مصبح الوائلى الذى تعرض لأكثر من محاولة اغتيال بسبب هجومه على إيران وفضح تدخلاتها فى المحافظة الاستراتيجية ودعمها للميليشيات .

ويبدو أن الكيل كان قد طفح برئيس الوزراء المنتمى إلى حزب الدعوة نورى

المالكى من زيادة نفوذ الميليشيات وخاصة جيش المهدى الذى أصبح بتشكيلاته يمثل دولة موازية للدولة الشرعية ربما استنادا إلى دعم المالكى نفسه فى كثير من المواقف فى مختلف مناطق العراق كرد للجميل لمن جاءوا به إلى السلطة على جثة غريمه إبراهيم الجعفرى الذى تمكن المالكى من عزله إلى حين ليتوارى عن المشهد السياسى بعد أن أزاحه من قيادة حزب الدعوة كما تمت ازاحته من مقر الحكومة قبل أن يعاود الظهور مرة أخرى بعد استعادة مقومات القوة ويتحالف مع أصدقاء المالكى السابقين وأعدائه الحاليين وهما المجلس الأعلى الإسلامى والتيار الصدرى ضمن الائتلاف الوطنى الذى تدعمه إيران باعتباره ائتلافا يمثل الشيعة الذين تمرد عليهم نورى المالكى وحاربهم ليوقف نفوذهم الذى يدير دوامة العنف والقتل .

وهنا رأيت أن أنشر النص الكامل لكلمة رئيس الوزراء نوري المالكي خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده يوم الأربعاء الموافق ٣٠-٤-٢٠٠٨ في بغداد التى توضح كيف كانت الصورة قبل أن يتمكن المالكى بدعم أمريكى من كسر شوكة جيش المهدى وغيره من حكام زمن المذبحة بعد معارك طاحنة كاد أن يفقد حياته فيها عندما حاصرته الميليشيات ابان تنفيذ حملة صولة الفرسان فى البصرة وقتلت أحد مستشاريه لولا الغطاء الجوى والبرى الأمريكى وهو ما سيأتى ذكره تفصيلا استناداً إلى رواية شهود عيان من عسكريين وصحفيين عاصروا الأحداث عن قرب وكانوا متواجدين فى ساحة المعركة الطاحنة.

«بسم الله الرحمن الرحيم»

في البداية شكرا على حضوركم ..ونذكر في هذه المناسبة بالمهمة الوطنية الشريفة التي تحملناها والتي هي وديعة الشعب العراقي الذين يتصدون للمسؤولية وهي مهمة بناء دولة القانون والمؤسسات وفق خيارات الشعب واليات الديمقراطية والدستور الذي نظم هذه العملية ولا شك بأن هذه العملية صعبة جداً وملامح الصعوبة فيها اننا علينا ان نهدم كل القيم والأخلاقيات التي ورثناها عن النظام الذي كان يقوده حزب البعث، وعلينا ان نبني قيما وأخلاقيات سياسية جديدة تؤمن بالأخر وتؤمن بالحوار وتؤمن بالدستور وتخضع وتسلم لإرادة الشعب عبر صناديق الانتخاب وهذه ليست مهمة سهلة انما تحتاج إلى ممارسة وترويض وقناعات ترسخ من أجل إعطاء الحق الذي يستند إلى البرهان والدليل، هذه المهمة لا يمكن أن تنسجم أبداً مع استمرار عمليات التصدي لدور الحكومة ومهماتها ونحن نريد أن نبني أو نهدم الأخلاقيات السابقة نواجه بمن يصر على إدامة

الأخلاقيات السابقة إدامة أخلاقيات حزب البعث، إدامة أخلاقيات التحكم وتهميش الأخر، أخلاقيات السيطرة والتهديد وفرض الإتاوات وإنشاء المحاكم، هذه كلها تتناقض مع العراق الجديد ونحن نبني على أن نواجه هذه الجهات التي تصر على الاستمرار بعقلية الجهل وعقلية السذاجة والضعف، العراق الجديد لا تبنيه إلا العقليات الحكيمة، العقليات التي تستطيع أن تخرج العراق من هذا النفق الذي دخل فيه، ولا يخرجه أولئك الذين يؤمنون بالقتل وتشكيل جيش إلى جنب جيش الدولة وإرادة إلى جانب إرادة الدولة وحكومة إلى جانب الحكومة، هذه كلها عمليات لا يمكن أن ننظر إليها إلا على أنها تمثل أخلاقيات النظام السابق ولا يمكن أن نتعامل معها ببساطة وسذاجة إلا أن نقول إنها محركة وان الذي يتحركون إن لم يكونوا هم من هذا النسيج المرفوض إنما هم مخترقون وموجهون بشكل مباشر من الذين يريدون العودة إلى سياسة الحزب الواحد، لذلك نجد هذه الظاهرة وهذه الممارسة موجودة من خلال جملة ممارسات بعضها إعلامي وبعضها ممارسات إجرامية على شكل عصابات منظمة وبعضها أفكار يراد لها أن تنتشر وهي أفكار فاسدة أفكار عفنة نواجهها في كل يوم وفي كل مكان نحن نسعى من اجل تثبيت عدة سياقات اتفقنا عليها واقرها المجلس السياسي للأمن الوطني وهي من صلب الدستور العراقي والقانون هي من صلب الظاهرة الحضارية التي يعمل بها المواطن العراقي من اجل بناء عراقاً حضارياً متطوراً يقوم على أساس الدستور والقانون، نحن نؤمن أن السلاح يجب أن يكون بيد الدولة فقط هذا مطلب حضاري من يريد أن يبني دولة لا يجب أن يكون إلى جانب سلاح الدولة سلاح آخر .. أن الجيش هو جيش الدولة لا جيش الميليشيات مهما كانت مسمياتها وأنواعها .. هذا يعني أننا نريد أن نبني دولة بحكومة واحدة وجيش واحد ومن يصر بالمقابل على وجود جيش أو جماعة مسلحة هو ينازع الدولة في مسؤولياتها و هذا منطق مرفوض قطعاً وكنا قد قابلناه وسنقابله بمختلف الوسائل والأساليب الثقافية والإعلامية واستخدام القوة في كسر هذه الإرادة التي تريد أن تؤسس دولتين وجيشين، .. حين نقول أن العراق الجديد يعني أن لا تدخل في شؤون الوزارات والدوائر والحكومات نأتي ونجد أن الكثير من الوزارات التي كانت تدار من جهة اشتركت سابقاً في الحكومة هي وزارات محطمة ، وزارات تعيث بها العصابات وزارات إلى الآن لا نستطيع أن ننهض بها مجدداً بالدور الذي يتعلق بخدمة المواطن، هذا لا ينسجم مع نظرية بناء الدولة وبناء القانون، .. حينما تتحول مصالح البلد إلى مجالات لكسب المال تحت عنوان هيئة اقتصادية أو مؤسسة اقتصادية تجبي الأموال من خلال المقاولات لا يمكن أن نبني الدولة ويهدد المواطن ويهدد الموظف في مختلف دوائر

الدولة .. فكل يوم نسمع عن أحد المواطنين العاملين في أجهزة الدولة إما هو أو عائلته تعرض إلى قتل أو إعدام لا يمكن أن نبني الدولة ويأتي التجار ويقولون: أنقذونا من الإتاوات دوائر كاملة وكأنها دولة إلى جانب الدولة لا يمكن أن نبني دولة .. ويأتينا أصحاب محطات الوقود ويقولون: أنقذونا من الذين يفرضون علينا أسعار زائدة وضرائب إضافية هذا كله وضعناه شرط في التعامل مع أي جهة كانت تتدخل في شؤون الوزارات والمؤسسات ومصالح المواطنين .

لا أفهم من أين جاءوا بهذا الحق أن الذي يبيع بيته في الشعلة عليه أن يدفع مبلغ خمس ملايين إلى الهيئة الاقتصادية بأي شرع بأي قانون من يقبل بهذا عالم مرجع إنسان .. حينما قلنا عدم التدخل في شؤون الأجهزة الأمنية نعم لا يمكن أن تستقر الدولة إلا من خلال أخذ الأجهزة الأمنية بعدها ومداها في أن تلاحق المجرمين وأن تلاحق المطلوبين قضائياً وفق سياقات القانون نحن نتخذ موقفا صارماً مع الجهات التي تخالف وتعتدي على المواطن لكن حينما تقوم بدورها حينما تؤدي واجبها الوطني في حفظ الأمن وملاحقة العصابات وملاحقة الجريمة،.. حينما قلنا أنه لا يمكن أن يكون مقبولا في كل يوم أن نسمع عن عشرات الصواريخ تطلق في بغداد ومناطق أخرى ويومياً يسقطون المدنيين الأبرياء بهذه الصواريخ ثم لا يمكن أن نسمع بشيء نعتقد أنه من صلب أخلاقيات حزب البعث أن هذه المدينة محاصرة .. هذا كذب صريح لا شيء في المدينة محاصر يدخل ويخرج من يريد إلى المدينة المواد الغذائية والطبية والسيارات كله مفتوح نعم حصار على السلاح حصار على الصواريخ التي تسقط على رؤوس الناس يومياً تفتيش على السيارات التي تخرج أو تدخل إلى المدينة خشية أن تنقل السلاح ولكن سياسة النظام البائد حينما استخدم العراقيون دروعاً بشرية هي ما زالت قائمة في بعض المناطق وهذا الإعلام النازي البعثي الموجه بأن هذه المدينة محاصرة من أجل أن يستدروا العطف .

أقول للمواطنين: إياكم أن تقعوا في شراك الحيل والألاعيب البعثية ولكن لن نسمح لأحد أن يحاصر أحداً من أهلنا ومواطنينا بل بالعكس زدنا في الخدمات في مدينة الصدر الكثير من الأماكن لم توزع فيها البطاقة التموينية وتوزع في مدينة الصدر الكهرباء غير موجودة ولكنه موجود في مدينة الصدر٢٤ ساعة والمستشفيات فيها ما يزيد عن ما هو موجود في غير مستشفيات نعم إذا كان هناك نقص فهو في العراق عموماً وهذه مخلفات النظام السابق، ليس هناك حساب أبداً وإنما عتبي على البعض من الإعلاميين والسياسيين الذين يصدقون الدعاية نعم هناك البعض هو من يختلق هذه الدعاية انتفاعاً معها ويروج لها ولكن من يهمه الحقيقة

والإنسانية في نفس الوقت عليه أن يفرز بين الحقيقة والادعاء وهذه كذبة تنسجم مع كذبات النظام السابق وأخلاقياته باستخدام الناس دروعاً بشرية وفي استخدام معاناة الناس من اجل الخروج من الأزمة.

أنا أعلم أنهم يضربون محطة الكهرباء ويمنعون توزيع المواد الغذائية حتى يجوع الناس ويستصرخوننا يومياً أهالي مدينة الصدر والشعلة أنقذونا من هذه العصابات ولم نسمح لأحد أن يأسر إخواننا، نحن جئنا لخدمة الناس وبالذات هذه المدينة المحرومة التي عانت في النظام السابق لكن يبدو أن الذي ظلمه في السابق يظلمه اليوم ولكن هذا لا نسمح به أبداً وسيكون لنا موقف حازم وستشهد الأيام كيف سنقوم بتحرير المواطنين من هذه العصابات، كما أننا قلنا مراراً أن من أراد أن يكون في العملية السياسية لا يجب أن يكون له جيش وقوات مسلحة وسيحرم كل من له جيش من المشاركة في العملية السياسية ومن أراد أن يكون جزء من العملية السياسية عليه أن يشترك مع الدولة في تسليم المتهمين أو الأخبار عن المطلوبين والمجرمين ولكن من يتستر على المجرمين ويؤويهم ويدافع عنهم وإذا قلنا انتم قد اخترقتم قالوا نعم نعلم ان هناك مسيئين عندما نذهب لاعتقال المسيئين نواجه بحركة واسعة من الرفض والدعاية والإعلام والدفاع عن هؤلاء المسيئين إذن الجريمة واحدة سواء كان الذي اخترق أو الذي تستر على هذه الجريمة، قلنا لهم نقول للجميع ونحن لا نتحدث عن ميليشيا واحدة ميليشيا وقاعدة تشكيلات أخرى من أراد أن يكون وطنياً وان يكون جزء في العملية السياسية عليه أن يشترك مع الدولة في تسليم المطلوبين أو الأخبار عنهم حتى تتمكن الأجهزة الأمنية من تنظيف البلد من هذه العصابات المجرمة ولكن حينما يقفون بالدفاع عن هؤلاء المجرمين فهم شركاء وليس لهم الحق في أن يتحدثوا عن مظلوميتهم، وأنا أقول لا تصدقوا الناس بهذه الدعاية إذن هي واحدة من الأساليب التي عمل بها صدام حينما جوع العراقيين مع وجود الأموال المخصصة في مشروع النفط مقابل الغذاء ولكنه ما كان يشتري شيء يتعلق بحياة الناس إنما يتعلق بمشتريات مرفوضة حتى إذا رفضت الأمم المتحدة يقول انظروا لقد جوعوا الشعب العراقي، اليوم كذلك بنفس الأخلاقية وبنفس الطريقة يتصرفون .

نحن نرفض استخدام الناس كدروع بشرية المواطن العراقي اليوم حر وليس لأحد تقييد هذه الحرية بأي شكل من الأشكال أما أن نعود بأن يكون المواطن درع بشري من اجل أهداف شريرة ونوايا سيئة هذه نرفضها أبداً ونرفض استمرار عملية استهداف مقرات الدولة والمواطنين يومياً بالصواريخ وليس من حق أي أحداً أن يمنعنا أن نذهب خلف هؤلاء في أي مكان كانوا من اجل أن نحمي المواطنين وهيبة

الدولة كما نرفض أن تتخذ المساجد والحسينيات و أماكن العبادة والأماكن المقدسة لتخزين السلاح والتحصن كما عملو في حضرة الإمام علي عليه السلام وكما أرادوا أن يعملوها في حضرة الإمامين الحسين والعباس وأرادوا أن يعملوها في حضرة الإمامين الكاظمين هذه ممارسات سيئة ويعثية فيها كل معاني الأخلاقية التي ورثناها عن النظام السابق .

أبداً لا نسمح أن تتدنس العتبات المقدسة وهذا القرار الذي اتخذناه سنمضي فيه وهو اعتبار المناطق المقدسة منزوعة السلاح وقرار الاستمرار في عملية تفتيش الكاظمية مستمر حتى ننزع آخر مسدس موجود عند أي مواطن موجود في هذه المدينة كما أننا سنقف بقوة ضد هؤلاء الذين يحذرون المواطنين من الاستمرار بالدوام .. أنا لا أدري كيف ينتسب هؤلاء لأسماء نحترمها ونجلها ونقدسها أسماء المهدي أو الصدر وهم يؤخذون مجموعة من الموظفين المساكين يكسرون أيديهم وأرجلهم لأنهم لم يلتزموا بالمنع عن الدوام مع الأسف الشديد أقولها لكل من يدافع عن هؤلاء أنه سيكون شريك لهم في هذه الجرائم البشعة .

أمس علقوا أخ أحد العاملين في وزارة الداخلية وهو الأخ اللواء عبد الكريم خلف المتحدث الرسمى ومدير العمليات على أعمدة الكهرباء بعد أن قتلوه .. هؤلاء الذين يدافع عنهم أو يتستر عليهم، ما هو مستقبل العراق لو تمكن هؤلاء!! لكن ثقوا لن يتمكنوا أبداً وسوف يكون مصيرهم حتما إلى زوال لأنهم يتنفسون بنفس الأخلاقية التي ثرنا عليها زمناً طويلاً وقدمنا في طريق التخلص منها دماء غزيرة ومقدسة الشهيد الصدر الأول والشهداء من آل الحكيم وشهداء حزب الدعوة وشهداء في كردستان وشهداء الأهوار وشهداء المقابر الجماعية من أجل أن نتخلص من هذه الأخلاقية وإذا اقتضى علينا الأمر أن ندفع المزيد من هذه الدماء فسندفع.

لا نسمح لأحد أبداً أن يبقى موجوداً في العراق وهو يمثل بجثث الضحايا يقلعون عيون الضحية لا يكتفون بقتله يصبون عليه البنزين ويحرقوه هذه هي الأخلاقية التي يمكن أن نصفها أنها تنتمي لعنوان مقدس وهل يمكن أن نسكت عن من يمارس هذه الجرائم، نعم أنا أعلم أن أهالي مدينة الصدر ومناطق أخرى وأهالي البصرة كما خاطبناهم آنذاك أنكم ستعانون حتماً لأن هذه الفتنة واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة نعم الناس تأذوا ولكن نحن مضطرين .

الذي يفرحنا أن الناس يقولون: اقتلونا واقتلوهم ولكن خلصونا من هذه العصابات لكن إن شاء الله سوف لن تطول هذه المعاناة ولن نسمح بمزيد من معاناة المواطنين حتى ننقذ أبناءنا وأهلنا في هذه المناطق من سيطرة العصابات لذلك

حينما نقول الهدف النهائي الذي لم نتراجع عنه هو نزع سلاح الميليشيات حل جيش المهدي حل الجيش الإسلامي حل جيش عمر إنهاء القاعدة هذه بالمحصلة النهائية هي البوابة الحقيقة للأمن والاستقرار لبناء العملية لسياسية لذلك قلنا بكل وضوح شروطنا على من يشترك بالعملية السياسية هو نزع السلاح وحل الميليشيات وعدم التدخل بشؤون الدولة ومؤسساتها وعدمٌ إنشاء المحاكم وعدم التدخل بعمل الأجهزة الأمنية وتسليم المطلوبين والتعاون مع السلطة من اجل كشفهم وملاحقتهم هذه ليست شروط تعجيزية بل هذه من أولويات وأبجديات العملية السياسية من أبجديات عمليات الاستقرار التي نتحدث عنها من أبجديات الدولة التي ينبغي أن تقام على أساس القانون والدستور.

ألفت نظر السادة الإعلاميين الذين ينشدون الحقيقة والإعلام المهمة مقدسة عادةً تعكس الحقيقة إلى الناس أن لا تصدقوا ما يقال وابحثوا عن الحقيقة وستجدون الأهداف والنواي الشريرة التي تقف خلف الدعايات التي يتلقفها بعض الإعلام ويعكسها دون أن يدري انه يعكس مؤامرات خبيثة وأيضاً في نفس الوقت أني أقول لكل الذين يحرضون على شاشات التلفزيون في كل يوم والذين يتحدون بلغة التحدي للدولة أقول لهم اصبروا فأن الأمر سيأتي والقضاء موجود ولابد أنكم ستمثلون أمام القضاء أنكم انتم الذين تضعون الزيت على النار وتأجون الفتنة بين المواطنين وبين المواطن والحكومة هؤلاء سواء كانوا أعضاء في مجلس النواب أو في التكتلات وأحزاب سياسية أو في الحكومة الذين لا يتورعون عن إثارة الفتنة والحديث السيء يومياً عبر وسائل الإعلام يتحملون المسؤولية والمسؤولية سيتحملونها وفق القانون لا نقول غير القانون وغير السياقات القانونية ولكن ليدرك كل من يتحدث عبر شاشات التلفزيون والإعلام أن حديثه السيء وان حديثة المحرض على الفتنة يتحول إلى رصاصات يتحول إلى انهار من الدم ويتحول إلى معاناة ويتحول إلى عراق مجهول لأن العنف لا يولد إلا العنف إذا أردنا السلام ينبغي علينا أن نعمل من اجله والعمل من أجل السلام والمحبة من اجل التعايش والاستقرار لا بد ان يقوم على أساس القانون والدستور وإعطاء الحق والالتزام بالضوابط الوطنية التي تشيد عادةً عليها الدول لقد سبقتنا دول في مثل هذه الفتن لكنهم تجاوزوها بالإرادة الصلبة والاحتكام إلى منطق العقل والدستور و من يخرج على إرادة العقل والدستور ينبغي أن يقاوم بكل قوة .

وشكراً جزيلاً لكم .

بغداد ٣٠-٤-٢٠٠٨

كان هذا الخطاب الرسمى لرئيس الوزراء نورى المالكى بعد أن ضاقت به الدنيا من سلوكيات الدولة الموازية وقادتها الذين تفوق سلطتهم نفوذ وقوة السلطة الرسمية للدولة[1] ولهذا كان العام ٢٠٠٨ بمثابة عام التحولات وعام انكشاف الغمة حيث رسم العام ٢٠٠٨ علامات بارزة فى المشهد العراقى تسارعت وتيرتها قبل أن يحمل نهاياته ويرحل جعلت من هذا العام بامتياز عاما للتحولات والانشقاقات وان كان بعض المراقبين يرون أنها نتائج ونهايات وربما حصاد لبدايات تطورت بشكل متتابع وسريع لترسم واقعا عراقيا جديدا مليئا بالمتغيرات والمتناقضات فى عراق ما بعد الاحتلال .

ولعل المراقب للساحة العراقية بقدر ما يلاحظ التغيرات المتسارعة فانه لا يستطيع أن يعطى وصفا دقيقا لنتائج تلك التغيرات أو يتوقع أثرها على الشعب العراقى أو جيرانه فكما يمكن أن ترسم تلك التغيرات ملامحا لواقع يسوده التفاؤل فى مستقبل زاهر فإنها أيضا يمكنها أن ترسم ملامحا لواقع تسوده النزاعات والتوترات عراقيا وعربيا وربما إقليميا .

فقد شهدت الساحة العراقية خلال العام ٢٠٠٨ عدة تحولات ايجابية قياسا بالسنوات الصعبة التي مرت بالشعب العراقي منذ دخول القوات الأمريكية ساحة الفردوس الشهيرة وسط بغداد فى التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣ وهو ما جدد الأمل في نفوس العراقيين بان يروا الضوء في نهاية النفق الذي كانوا ينتظرونه منذ تسعينيات القرن الماضي عندما فرض مجلس الأمن الدولي العقوبات الاقتصادية، وجاء الاحتلال ليزيد من العتمة التي غلفت المشهد الدرامى لبلادهم مع اقتراب نهاية عصر صدام حسين.

ولعل أهم هذه الأحداث هو تحسن الوضع الأمني في عموم محافظات العراق بعد تشكيل قوات الصحوة التي تمكنت بالتعاون مع سكان المناطق الساخنة من طرد عناصر تنظيم القاعدة وقتل واعتقال المئات منهم بالإضافة إلى تقليص نفوذ الميليشيات الشيعية وكسر شوكتها بعد افتضاح أمرها وتلقيها الدعم المادى واللوجيستى من إيران الأمر الذي انعكس بصورة ايجابية على جميع الأصعدة في العراق.

إلا أن ملامح الأمل التى غلفت المشهد العراقى على وقع التحسن الأمنى النسبى الذى أدى إلى انخفاض معدلات العنف إلى أكثر من ٨٠ فى المائة ما لبث

(1) كان المالكي يشير في هذا الخطاب إلى التيار الصدري وهو ما أدى إلى عداء شديد بين الجانبين استمر حتى ظهور نتائج الانتخابات النيابية الأخيرة إلا أن العدوين اللدودين أصبحا فجأة حليفين لصيقين .

أن شابتها مخاوف من عودة الأمور إلى المربع الأول مع حدوث عدة تفجيرات أدت إلى تحذيرات من قادة عسكريين ومسئولين أمنيين عراقيين وأمريكيين من احتمالات ضياع المكاسب الأمنية التى تحققت باعتبار أن الوضع ما زال هشا وهو ما عزز المخاوف لدى العراقيين من انهيار آمالهم فى الاستقرار والأمن .

وقد تطور الاستقرار الأمنى فيما بعد إلى إلقاء العديد من المسلحين لسلاحهم ودخولهم في العملية السياسية وتشكيلهم لكيانات سياسية خاضت انتخابات مجالس المحافظات التى رسمت ملامح جديدة للخارطة السياسية بالعراق مع انتخاب حكام جدد للإدارة المحلية فى المحافظات التى تتمتع بصلاحيات واسعة بعيدا عن سلطة الإدارة المركزية .

ولعل التحول فى المشهد الأمنى إلى جهة الاستقرار النسبى خلال العام ٢٠٠٨ بعد سلسلة من العمليات العسكرية الرسمية والشعبية نفذتها قوات عراقية وأمريكية مدعومة برجال العشائر فى مناطق النفوذ القديمة للقاعدة والميلشيات هو ما جعل المراقبين يرون أن هذا التحول ما هو إلا نهاية متوقعة لبدايات قاسية كرس فيها المسلحون بمختلف فصائلهم ونزعاتهم وانتماءاتهم كافة الجهود لخلق حالة من الفوضى وانعدام الأمان بالإضافة إلى عمليات التهجير القسرى والتطهير العرقى للمناطق على أساس طائفى .

١٣ - صولة الفرسان

فى تصريح منشور للواء عبد الجليل خلف قائد شرطة البصرة فى بداية العام ٢٠٠٨ قال إنه اكتشف بعد تسلم منصبه وجود ٢٥٠ سيارة شرطة و٥٠٠٠ مسدس جرت سرقتها ، واستخدمت من قبل فرق الموت التي تنظمها الميليشيات الشيعية.

وقال «الذين جاءوا إلى سلك الشرطة فقراء وصاروا الآن أغنياء جدا .. طردت المئات منهم لكن ما زال هناك بيننا رجال ميليشيات فنحن ندفعهم من الباب ليعودوا من الشباك».

قوات الأمن العراقية في البصرة كانت تعتبر مثالا واضحا على التوتر القائم بين الأحزاب السياسية، وما يسمى بوحدة شرطة الجرائم الكبيرة في البصرة هي المثال الأسوأ حيث جرى ضبط فرقة قتل مرتبطة بالميليشيات الشيعية، وسبق أن هاجم البريطانيون بدباباتهم في ديسمبر عام ٢٠٠٦ مقر هذه الوحدة وهدموه تماما لكن مذكرات الاعتقال العراقية التي صدرت ضد أفراد الوحدة لم يتم تنفيذها كغيرها من مذكرات التوقيف التى صدرت عن وزارة الداخلية عدد كبير من

قادة المجموعات المسلحة بتهمة تنظيم أعمال خطف وتعذيب واغتيالات

كانت تلك الصورة المضطربة أمنيا وسياسيا دافعا لنوري المالكي الذي أراد أن يثبت أنه رجل العراق القوي الذي يضرب بيد من حديد ليس ضد السنة فقط وإنما ضد الشيعة أيضا وعلى رأسهم من جاءوا به إلى كرسي الحكم حتى يهيئ الساحة العراقية لإنجاز الاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة ويشكل قوات عراقية جديدة بتسلم مهام الملف الأمني المعقد ولهذا جاءت حملة صولة الفرسان التي أرادها المالكي نموذجا لفرض سلطة الدولة وإنهاء سلطة الميليشيات والأحزاب التي خربت البلاد والعباد .

لم يتوقع الرجل الذي يجلس على مقعد الحكم في المنطقة الخضراء أن تلك الحملة ستكون بمثابة الصدام الأعنف لرسم طريق اللاعودة في علاقاته مع الصدر .. والحقيقة أن أحداً لم يتصور مستوى قدرة ميليشيات الصدر وغيرها على الصمود وتهديد سلطة الدولة التي انسحب مقاتلوها من ساحة المعركة ورفض معظمهم القتال ضد الميليشيات رغم التعزيزات الكبيرة التي جاءت من بغداد وعلى رأسها قوة كبرى قادها وزير الداخلية جواد البولاني بنفسه إلا أن مفاجأة غير سارة كانت بانتظاره حيث هاجم المسلحون موكبه ولولا سيارته المصفحة المضادة للرصاص لكان في خبر كان مثل كثير من أعضاء القوة الحكومية القادمة من بغداد الذين انقلب عليهم عناصر القوة المحلية وقاتلوا في صفوف الميليشيات لأن ولاءهم الأول لهم والثاني للعشيرة ثم يأتي الولاء للدولة في النهاية وربما لا يأتي أبدا .

عندما وصل موكب رئيس الوزراء نوري المالكي إلى مبنى المحافظة تمت محاصرة المكان ومهاجمته وهو ما أدى إلى مصرع أحد مستشاري رئيس الوزراء وهو ما حدا بالمالكي إلى طلب النجدة من القوات الأمريكية محذرا إياها من انهيار الحكم والدولة العراقية وسقوط البصرة ثم باقي المحافظات في أيدي الميليشيات بمختلف انتماءاتها وولاءاتها خاصة تلك الموالية للجارة الشرقية إيران .

ويروي لي أحد كبار ضباط العمليات الذين شاركوا في صولة الفرسان وهو يحمل رتبة عميد ركن أن الليلة الأولى لمهمتهم كانت عصيبة حيث تم قصف الموقع الذي يتخذونه كمركز للعمليات ب ١٩٢ قذيفة هاون .. ثم توالت الهجمات بعد أن فوجئوا بتلك القوة المميتة والأسلحة المتطورة والدعم غير المحدود الذي تتمتع به قوات الميليشيات خاصة جيش المهدي .

ويؤكد لي العميد الركن أنه ومن معه نطقوا الشهادتين واستعدوا للموت بعد تواتر

الأنباء عن مهاجمة موكب وزير الداخلية والمكان الذى يتحصن فيه رئيس الوزراء واستعدوا للقتال كأى جندى محاصر فى ساحة معركة لن يخرج منها حيا .. كان هدفهم إلا يكونوا صيدا سهلا لتلك الزمر المجرمة التى لا تعرف حتى القراءة والكتابة وإنما تستند إلى قوة وحشية ونفوذ لا محدود فرضه حكام زمن المذبحة الذين كانوا قد شيدوا دولة الخوف والقهر التى فاقت سلطتها سلطة الدولة الشرعية التى تعمل فى كنف القوات الأمريكية والبريطانية التى هرعت لنجدة حليفها المالكى .

كان من المفترض أن يؤكد الهجوم العسكري العراقي في البصرة قوة وسلطة الحكومة المركزية في بغداد، لكنه كشف عن استمرار قوة ونفوذ مقتدى الصدر.

فقد تمكنت ميليشياته «جيش المهدي» من الصمود عدة أيام في قتالها العنيف ضد جنود الحكومة المدعومين بقوة جوية أمريكية وبريطانية، غير أن الأمر الأكثر أهمية من الطريقة، التي استخدمتها تلك الميليشيات في قتالها، هي الطريقة التي توقفت بها عن القتال.

فكما بدأت تلك القوات القتال بأمر من مقتدى الصدر توقفت بعد أن أصدر الصدر أمرا لأفراد جيش المهدي للامتناع عن الظهور في الشوارع بأسلحتهم، والتوقف عن مهاجمة المنشآت الحكومية.

وما أن مر وقت قصير حتى توقف القتال على نحو تام تقريبا.

ورأى كثيرون من المراقبين السياسيين في هذا ردا منذرا بالسوء على السؤال الذي طالما أثاره المراقبون العسكريون الأمريكيون وهو هل الصدر لا يزال قائدا لحركة موحدة وقوة عسكرية؟

الجواب على هذا على ما يبدو: نعم.

فبينما كان العديد من الضباط والجنود الأمريكيين يعتقدون أن جيش المهدي تحول إلى مجموعات صغيرة مشرذمة تعمل كل واحدة منها على هواها ومنها عصابات إجرامية، يبين القتال الأخير في البصرة أن تلك الميليشيات تُصغي عندما يتحدث الصدر.

هذه السلطة الواضحة تتباين تماما بالطبع مع ضعف رئيس الحكومة العراقية نوري المالكي الذي كان سافر إلى البصرة بنفسه مع وزراء أمنه للإشراف على العملية شخصيا.

لكن بعد أيام قليلة من القتال المكثف مد المالكي الموعد الذي كان قد حدده للميليشيات للاستسلام وتسليم أسلحتها مقابل مبلغ من المال، لكن على الرغم من

هذا، احتفظت هذه الميليشيات عند إعلان قرار وقف إطلاق النار بتلك الأسلحة ولم تسلمها.

كرست تلك العمليات حقيقة أن الصدر في موقف ممتاز في حلبة السياسة وخارجها، فهو جزء من المؤسسة الحاكمة ومناوئ لها في وقت واحد.

فعلى الرغم من القتال، لم يسحب أبدا حلفاءه من الحكومة، أو يسحب تأييده للمالكي في البرلمان، وهو أمر كان بالإمكان عمله كما لم يطالب كل أنصاره بالانسحاب من البرلمان أو العمل خارج إطار النظام السياسي الراهن إلا أنه أمر في صيف عام ٢٠٠٨ وزراءه، بالخروج من حكومة المالكي بعد رفض رئيسها تحديد جدول زمني لانسحاب الجنود الأمريكيين من العراق، وبدا بذلك فى نظر الرأي العام العراقي كرجل يحافظ على مبدأ رفض الاحتلال.

غير أن مقاطعته للحكومة لم تخفف من تأثيره عليها، فكل الوزارات التي ترأسها حزبه مرة لا تزال مليئة باتباعه الذين لا يزالون يعملون لتوفير وظائف للموالين لهم ويديرون ماكينة الصدر السياسية.

وهكذا لم يعد الصدر قوة عسكرية فحسب بل صار أيضا زعيما سياسيا وهو ما جعله مؤهلا لأن يكون زعيما وطنيا حقيقيا يخشاه الأمريكيون والمالكي فقد تزامنت أوامره بوقف القتال عمليا مع تحقيق أقصى قدر من الكسب السياسي واحتفاظه بقدراته العسكرية التى كان يمكن أن يتم تدميرها تحت وطأة الضربات الأمريكية.

وهو الدرس الذى استفاد منه في تجربة عام ٢٠٠٤ حيث تكبدت ميليشيات الصدر خسائر جسيمة بشريا وماديا في قتالها المرير مع الجنود الأمريكيين ومشاة البحرية الأمريكية إلا أن الصدر ما لبث أن أصبح بعد ذلك رمزا للمقاومة الشيعية للاحتلال العسكري الأمريكي، وتمكن من خلال سمعته هذه من دخول عالم السياسة.

والآن، في الوقت الذي بدأ فيه نجمة يخبو ويصبح على الهامش في الفترة الأخيرة، جاء هجوم الحكومة العراقية الأخير ليُلمع صورته كزعيم مناضل يتحدى الولايات المتحدة والحكومة العراقية، التي ترفض طرد الأمريكيين من بلاده، وبذا، بات الصدر أقوى بعد صولة الفرسان وحتى بعد إعلانه حل جيش المهدى ودخوله المعترك السياسى رغم أنه يقيم فى إيران التى أظهرت الوقائع على الأرض لكافة العراقيين أنها تعمل ضدهم .. رغم هذه الظروف إلا أن الصدر تمكن بعد عامين من صولة الفرسان أن يحقق نتائج ايجابية فى الانتخابات النيابية التى جرت فى السابع من مارس ٢٠١٠ واستطاع تيار الأحرار الذى يمثل الواجهة

السياسية للتيار الصدرى من الحصول على غالبية مقاعد الائتلاف الشيعى « الائتلاف الوطنى العراقى » وظل محتفظا بعدائه الشديد للمالكى الذى يسعى لتجديد ولايته كرئيس للوزراء لفترة ثانية .

استطاع الصدر أن يرد الضربة ضربات لنورى المالكى الذى دمر جزءاً كبيراً من مقاعده وأفقد رجاله نفوذهم الطاغى فى مختلف مناطق العراق وشرد قادته فقتل من قتل وهرب من هرب إلى خارج العراق .. وبعد أن ناور الصدر ليمنع المالكى من الاستمرار فى سدة الحكم كرئيس لوزراء العراق .. بينما تتحقق مطالبه التى كرست حضوره كقائد وطنى رافض للاحتلال بمغادرة الجزء الأكبر من قوات الاحتلال الأمريكى للعراق فى نهاية أغسطس من العام ٢٠١٠ وفق الجدول الزمنى الذى أقرته الاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن ، عاد الصدر حليفًا للمالكي بضغوط إيرانية بعد أن فرض شروطًا سوف تجعله لاعبًا رئيسيًا على الساحة العراقية خلال السنوات الأربع القادمة .

١٤ - تحولات

واكب عملية صولة الفرسان عمليات أخرى حملت نفس الاسم فى مدينة الصدر معقل جيش المهدى الذى آثر قائده الانسحاب من المشهد الأمنى مؤقتا لتهدأ الساحة العراقية لبعض الوقت ويعلن رئيس الوزراء نورى المالكى انتصاره العسكرى المنقوص ونجاح خطته التى أطلقها لفرض القانون .

أدى هذا التحول على الصعيد الأمنى إلى تحول آخر على الصعيد الاجتماعى حيث شهد العام ٢٠٠٨ بدايات العودة لمئات الآلاف من العراقين الذين نزحوا من مناطق سكناهم الأصلية إلى داخل وخارج العراق واستقبل مطار بغداد عشرات الرحلات من العائدين خاصة من الأردن وسوريا ومصر إلى بلدهم بعد استقرار الأوضاع الأمنية فى مناطقهم وهو تحول بالغ الدلالة يؤشر لمنهج جديد بعيدا عن الطائفية التى أدت إلى نزوح أكثر من ٤ ملايين عراقى إلى الخارج ناهيك عن النازحين إلى الداخل إلى مناطق أكثر أمنا .

أما التحول الآخر المهم الذي شهده العراق هو الانفتاح على محيطه العربي وإذابة الجليد الذي اعترى علاقاته مع أشقائه العرب، فقد زار بغداد هذا العام العاهل الأردني الملك عبدالله ، وهي أول زيارة لزعيم عربي للعراق بعد الاحتلال الأمريكي، أعقبتها زيارات لمسؤولين عرب رفيعي المستوى من دول عربية لها تأثيرها ووزنها الإقليمي والدولي وعلى رأسها مصر وأدت هذه الزيارات، والزيارات التي قام

بها كبار القادة العراقيين للدول العربية إلى إعلان أربع دول عربية إعادة فتح سفاراتها في العراق وهو ما ولد شعورا لدى العراقيين بان بلدهم الذي مزقته الحروب والتدخلات الأجنبية في شؤونه باق في محيطه العربي رغم المحاولات الكبيرة التي بذلت لإبعاده عنه.

ولا يقتصر هذا التحول الكبير على أهميته السياسية فقط وإنما يتجاوزها إلى الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية فلا يخفى على أحد ما يتمتع به العراق من امكانيات اقتصادية هائلة فى كافة المجالات وعلى رأسها الاستثمارات فى مجالات النفط علاوة على ما يحتاجه العراق من آلاف المشروعات حتى يعيد بناء ما دمرته سنوات الحصار والحروب والإنهيار الكبير فى بنيته الأساسية التى كرستها سنوات ما بعد الاحتلال الأمريكى .

رغم هذه التحولات الإيجابية إلا أن هاجس المخاوف ظل مستمرا لان الوضع في العراق لم يصبح طبيعيا فلا تزال هناك أعمال عنف وقتل وتهديد ، رغم أن الحكومة العراقية حاولت استغلال هذه التطورات الإيجابية وتصحيح الأخطاء التي وقعت بها العملية السياسية للانطلاق نحو مستقبل أفضل وبناء علاقات متوازنة على أساس المصالح المتبادلة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية مع دول الجوار والمنطقة بأسرها.

وعلى صعيد التحولات الكبرى وهو ما جرى من إعادة تشكيل المسرح السياسى العراقى وصعود قوى سياسية أهمها القوى العلمانية ومجالس الصحوات على حساب أخرى أهمها قوى الإسلام السياسى والأحزاب الدينية التى اعتبرها العراقيون تكريسا لمبدأ الطائفية والشعارات الزائفة التى قادت البلاد إلى حافة الحرب الأهلية ولم تقدم أيا من وعودها فى بناء العراق الجديد .

حمل العام ٢٠٠٨ مفاجآت كبرى فى إطار تفكيك وتشرذم الكتل النيابية التي بنيت على أساس طائفي مع زيادة الوعي الوطني بين أبناء الشعب العراقي الذي بدأ يلتف حول الأحزاب والتيارات العلمانية ذات النفس الوطني والبرنامج الواضح المحدد، بعد أن يأس من الأحزاب الدينية، وجربها طوال الخمس سنوات الماضية ولم يحصد منها سوى القتل والدمار وقلة الخدمات والتهجير .

بدأت الانشقاقات والتحولات فى كتلة الائتلاف العراقي الموحد الشيعية الحاكمة التى أصبح لها ٨٣ مقعدا في البرلمان قياسا بالعام الماضي عندما كان عدد نوابها ١٢٨ نائبا حيث انشق حزب الفضيلة الإسلامى الذى يتمتع بنفوذ واسع فى محافظة البصرة الاستراتيجية ثم تبعه التيار الصدرى الذى يمثله ٣٠ نائبا

فقط إلا أنه يتمتع بنفوذ واسع على المستوى الشعبى .

أفرزت عدة مواقف انفراط عقد الائتلاف الشيعى بشكل كامل خاصة فى ظل الخلافات المتصاعدة بين المجلس الأعلى ورئيس الوزراء نورى المالكى رجل العراق القوى الذى يتزعم حزب الدعوة الذى تعرض فى الأساس إلى انشقاقات أنتجت حزب الدعوة / تنظيم العراق/ وتيار الإصلاح الذى يتزعمه رئيس الحزب السابق الدكتور إبراهيم الجعفرى بالإضافة إلى الخلاف بين المالكى والصدر .

وجاء انفراط عقد الائتلاف الشيعى الحاكم متواكبًا مع تشكيل التحالف الرباعى الذى ضم الحزبين الكرديين الكبيرين وهما الاتحاد الوطنى الكردستاني الذى يتزعمه الرئيس جلال طالبانى والحزب الديمقراطى الكردستانى الذى يتزعمه رئيس اقليم كردستان مسعود بارزانى إلى جانب المجلس الأعلى وحزب الدعوة مع محاولات لضم الحزب الإسلامى الذى كان يتزعمه نائب الرئيس الدكتور طارق الهاشمى ، قبل أن ينشق فيه ويتزعم حركة تحديد ويخوض بها الانتخابات النيابية الأخيرة .

أما جبهة التوافق العراقية التى كانت تمثل أكبر تكتل للعرب السنة مشارك فى العملية السياسية ويمثلها ٤٤ نائبا فقد انفرط عقدها تباعا عندما خرج منها ستة نواب بشكل فردى ثم انسحب منها مجلس الحوار الوطني برئاسة الشيخ خلف العليان وكتلة المستقلين بسبب «فشلها» في أداء رسالتها التي تشكلت من أجلها و«التفرد» باتخاذ القرارات .

وجاء هذا الانسحاب على خلفية إجبار الدكتور محمود المشهدانى وهو أحد قيادات مجلس الحوار الوطنى على الاستقالة من منصبه كرئيس لمجلس النواب وهو ما شكل بداية لتغييرات جذرية في الخارطة السياسية خصوصاً بعد انتخابات مجالس المحافظات التى جرت فى يناير من عام ٢٠٠٩ .

في حين أن كتلة الحوار الوطني التي يرأسها الدكتور صالح المطلك وكان لها ١١ نائبا أصبحت تضم نحو ٢٠ نائبا إضافة إلى تشكيل كتل سياسية داخل البرلمان تضم مستقلين وترفع شعارات وأهدافًا وطنية قد تتوسع هذه الكتل لتحتل مكان الكتل الكبيرة في الانتخابات المقبلة، التي جرت في مارس ٢٠١٠، حيث انضم المطلك إلى تكتل العراقيين الذي يضم علاوي زعيم حركة الوفاق الوطني وحركة تجديد بزعامة الهاشمي .

ولعل المثير فى هذا الأمر هو أن مجرد تحديد موعد الانتخابات المحلية كان كفيلا ببروز تحالفات سياسية جديدة نتيجة انقسامات داخل تحالفات قائمة بالفعل وإن حاول أصحابها التقليل من شأنها باعتبارها انقسامات معللين ذلك

بأن تلك التحالفات وجدت فقط لخوض الانتخابات وإنما الأبقى والأرسخ هو التحالفات القائمة بالفعل والتى سوف تندمج مرة أخرى بمجرد الحصول على حصة وافية فى مجالس المحافظات .

ولعل أهم تلك التحالفات التى برزت على ساحة الانتخابات هى تحالف « دولة القانون» الذى أعلنه رئيس الوزراء نورى المالكى والذى ضم حزب الدعوة مع سبع كيانات أخرى بعيدا عن المجلس الأعلى والحلفاء الأصليين فى الائتلاف الشيعى الحاكم وهو التحالف الذى حقق نتائج مبهرة فى انتخابات مجالس المحافظات ثم فى الانتخابات النيابية التى جرت فى مارس عام ٢٠١٠ .. بالإضافة إلى التحالفات التى شكلتها مجالس الصحوة لخوض الانتخابات التى فشلت فى تحقيق نتائج مرضية سياسيا رغم انتصارتها العسكرية ضد تنظيم القاعدة والميليشيات والتى أدت إلى دعم التوجه الحكومى والأمريكى لتهدئة الأوضاع نسبيا بالعراق خلال الفترة التى تلت أعوام العنف الطائفى .

واذا كانت تلك التحولات التى كرستها الانشقاقات والتحالفات الجديدة قد حملت بعضا من الأمل فى اصلاح الوضع السياسى الذى طالما حذر القادة الأمنيون من أنه ما لم يتم تطويره فانه سيعيد الوضع الأمنى إلى المربع الأول إلا أن تلك التحولات حملت ايضا هاجسا ومخاوف من أن صراع القوى سوف يجر العراق إلى مأزق تقاسم السلطة وفق قانون الصراع على المكاسب والتحزب وهو ما بدا بوضوح بعد إعلان نتائج الانتخابات النيابية التى أفرزت فوزا كبيرا لقائمة « العراقية» العلمانية التى يتزعمها إياد علاوى وتضم مكونات سنية .. فيما حل ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه رئيس الوزراء نورى المالكى ثانيا بفارق مقعدين فقط وتراجع الائتلاف الشيعى إلى المركز الثالث بفارق حوالى ٢٠ مقعدا إلا أن ظروف اللعبة السياسية جعلت من ذلك الائتلاف بمثابة رمانة الميزان التى تتحكم بولادة الحكومة العراقية الجديدة وهو ما أدى إلى تأخر تشكيلها عدة أشهر بعد انتهاء العملية الانتخابية .. حيث سارت الأمور بين شد وجذب وممارسات سياسية قوامها سياسة « حافة الهاوية» وممارسة لعبة عض الأصابع للوصول إلى أقصى مكاسب ممكنة .

ومن الأحداث المهمة التي حصلت قبل نهاية عام ٢٠٠٨ والتى حملت أبعادا إقليمية ودولية هو توقيع العراق للاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة، التي ستنهي بشكل أو بآخر التواجد الأمريكي فيه ، حيث انسحبت القوات القتالية الأمريكية من المدن والقصبات العراقية في نهاية يونيو من عام ٢٠٠٩ بينما تنسحب القوات الأمريكية من العراق ككل نهاية العام ٢٠١١ بالإضافة إلى توقيع اتفاقيات إطارية

للتعاون فى المجالات الاقتصادية والثقافية بين البلدين .

١٥ - الرحلة الخطرة

حمل العام ٢٠٠٨ تحولا كبيرا من الإدارة الأمريكية باتجاه منظمة مجاهدى خلق المعارضة للنظام الإيرانى والتى يتواجد عدد من أعضائها على الأراضى العراقية تحت حماية أمريكية حيث سلمت الإدارة الأمريكية نهاية العام مسئولية معسكر اشرف الذى تتخذه المنظمة مقرا لها فى محافظة ديالى / ٨٠ كم شمال شرق بغداد/ إلى السلطات العراقية التى تعتبر تلك المنظمة غير مرغوب فى تواجدها على الأراضى العراقية باعتبارها تمارس عملا عدائيا ضد دولة تعتبرها الإدارة العراقية الحالية حليفا استراتيجيا رئيسيا وهى إيران .

تأسست مجاهدى خلق في أعوام الستينات كتنظيم معارض لشاه إيران ونفذت في ذلك الوقت والعقد الذي تبعه هجمات أسفرت عن مقتل العديد من الكوادر العسكرية الأمريكية ومدنيين يعملون في مشاريع دفاع في إيران، مما دعا الولايات المتحدة إلى وضعها على قائمة التنظيمات الإرهابية الأجنبية.

وهاجرت المنظمة إلى خارج إيران في العام ١٩٧٩ في أعقاب قيام الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخومينى وأعادت تشكيلها في العراق برعاية من صدام حسين، حيث أخذت تشن هجمات في إيران.

وبعد الغزو الأمريكي للعراق في العام ٢٠٠٣، نزع الجيش الأمريكي سلاح عناصرها وأبقى عليهم في قاعدتهم بمعسكر اشرف الذي وضع تحت الحماية الأمريكية على الرغم من تصنيفهم تنظيما إرهابيا وصار وجودهم نقطة خلاف كبيرة في العلاقات بين بغداد وطهران. حتى تولى العراق الولاية القضائية على المعسكر بعد الاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة وعلى الفور أبلغت الحكومة العراقية قيادة المنظمة بسيناريوهات محتملة لإعادة توطينهم خارج العراق أى طردهم من الأراضى العراقية وهو تحول بالغ الدلالة حمله العام ٢٠٠٨ ضمن ما حمل من تحولات كبرى .

كانت العلاقة بينى وبين منظمة مجاهدى خلق لا تعدو أن تكون علاقة صحفى بفريق إعلامى لتنظيم سياسى عسكرى محظور يتلقى بياناته بانتظام وينشر ما يصلح منها للنشر حتى زارنى ذات مرة شخص يدعى الدكتور محمد الموسوى بعد أن استأذن للحضور إلى مقر وكالة أنباء الشرق الأوسط وسط العاصمة بغداد لإيصال بعض المواد الصحفية وبعض الأقراص المدمجة التى تخص منظمة مجاهدى خلق باعتباره أحد المتعاطفين معها من العراقيين الرافضين للنظام

السياسى الحاكم بعد عام ٢٠٠٥ المدعوم من إيران انطلاقا من مبدأ «عدو عدوى صديقى» .

رغم خطورة الاتصال المباشر بأشخاص لهم علاقة بمنظمة تعادى إيران وهى الدولة ذات النفوذ الواسع فى العراق الجديد وافقت على الزيارة بعد إلحاح شديد على أن تتم خارج المكتب الرسمى وألا يطول وقتها بسبب الظروف الأمنية فى منتصف العام ٢٠٠٧ حيث كان القتل ثمنا قليلاً لسلوك من هذا النوع وان كان بدافع مهنى لمعرفة المزيد من الحقائق عن جهات وأماكن يعتبر التفكير فى الاقتراب منها كابوسا لأى شخص مهما كانت صلاته وطبيعة عمله .. فما بالك بصحفى مصرى يعتبره حكام زمن المذبحة شخصا غير مرغوب فيه ويستحق القتل لأسباب عديدة كما ذكرنا سابقا .

استمر اللقاء حوالى ساعة تخلله غداء أردته أن يكون بداية لعلاقة صداقة بعد أن تحدثت إلى الرجل المهذب المخلص لوطنه .. الذى رفض استغلال امتداده العشائرى الدينى فهو « سيد موسوى»[1] لينال الكثير من المميزات المتاحة لمن هم مثله فى العراق الجديد مقابل إرضاء ضميره والعمل لصالح وطنه وهو ما جر عليه الكثير من الويلات .. حكى لى الرجل الكثير من القصص وأمدنى بالكثير من المعلومات عما دار ويدور منذ انهيار نظام صدام حسين فى ابريل عام ٢٠٠٣ .. رغم قصصه المثيرة ووصفه للمعسكر الذى يقيم فيه عناصر منظمة مجاهدى خلق لم أقتنع كثيرا بأسلوبهم فى المعارضة المقيدة للنظام الإيرانى وبقائهم داخل معسكر أشبه ما يكون بالجيتو المعزول يخضع لنظام شبه عسكرى لا مجال فيه للحياة الخاصة أو المشاعر أو غير ذلك من أساسيات الحياة .. أخبرنى أن من يقيم بالمعسكر يقضى يومه فى العمل المكلف به وفق نظام حاسم أرساه قادة المعسكر لا وقت سوى لتناول الطعام بشكل جماعى ومشاهدة الأقراص المدمجة التى يفرضها القائمون على إدارة المعسكر بشكل جماعى أيضا .ثم النوم فى موعد محدد والاستيقاظ فى موعد محدد فى صباح اليوم التالى لمواصلة نفس البرنامج اليومى .

إلا أن إجاباته على تساؤلاتى بشأن قيام عناصر المنظمة بعمليات عسكرية ومشاركتهم فى تدهور الوضع الأمنى وإشعال الفتنة الطائفية كما يتم تسريبه من اتهامات على لسان المسئولين العراقيين كانت حافزا لى لطلب لقاء آخر لمعرفة

---

(1) يطلق لقب سيد بالعراق على من ينتمي لعائلة يمتد نسبها إلى آل البيت مثل : الموسوي ، والياسري وغيرها من العائلات التي لها أصول ثابتة دينيًا .

المزيد من التفاصيل عن طبيعة عمل منظمة مجاهدى خلق بعد سقوط نظام صدام حسين الذى كان قد منحهم خلال حكمه الكثير من المهمات القتالية والدفاعية خاصة إبان المرحلة الأخيرة التى سبقت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد واستيلاء الحكام الجدد على كل ممتلكات ومقرات مجاهدى خلق ومعظم أسلحتهم وقيام القوات الأمريكية بتحديد تواجدهم داخل معسكر « أشرف بمحافظة ديالى » بعد نزع ما تبقى من أسلحتهم وإلزامهم بعدم العمل على الصعيد السياسى أو العسكرى نظير توفير الحماية لهم فى هذا المعسكر الذى تبلغ مساحته عشرات الكيلومترات .

استمرت اللقاءات مع الدكتور محمد الموسوى وكان كل مرة يوجه لى الدعوة لزيارة المعسكر للتعرف بشكل أكثر وضوحا على طبيعته ربما أتمكن ذات يوم من الكتابه عن حقيقة المقيمين بداخله الذين تمتلىء وسائل الإعلام بأخبارهم وتفرد الصفحات لعرض آراء المحللين السياسيين عنهم داخل العالم العربى وخارجه ولكن دون الاقتراب منهم مثلما فعلت فيما بعد استجابة لدعوة زيارة « معسكر أشرف » الذى يقيم فيه مجاهدى خلق بعد تفكير عميق فى تلك الرحلة شديدة الخطورة التى يفترش الموت كافة الطرق المؤدية إليها بدءا من حدود العاصمة بغداد فى مناطق الشعب والحسينية التى يسيطر عليها جيش المهدى والميليشيات الشيعية الأخرى مرورا بقرى وبلدات محافظة ديالى التى يسيطر تنظيم القاعدة على مناطق شاسعة منها خاصة تلك المؤدية إلى طريق العظيم حيث يقع معسكر أشرف على بعد حوالى ٨٠ كم إلى الشمال الشرقى من بغداد .

وعكس ما سبق من مغامرات أقل خطورة لم أستأنس برأى رفاق سلاح القلم الطيبين لأننى كنت أعرف الإجابة مسبقا وأنهم سوف يفعلون أى شيء لمنعى من الإقدام على تلك المغامرة المميتة سواء فى الطرق المؤدية إليها أو عند عودتى إلى بغداد لأننى بهذه الزيارة أتجاوز الكثير من الخطوط الحمراء بالنسبة للإدارة العراقية التى تناصب سكان المعسكر العداء وتتحين الفرصة للانتقام منهم خاصة من ينتمى إلى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وجناحه العسكرى « منظمة بدر» أو حزب الدعوة الإسلامية نظرا لأن عناصر مجاهدى خلق متهمون بتنفيذ عمليات ضدهم إبان حكم صدام حسين خاصة خلال حرب الثمان سنوات مع إيران .

انطلقت صوب معسكر اشرف بمحافظة ديالى بصحبة الدكتور محمد الموسوى بسيارة « نوبيرا» ذهبية اللون يقودها رجل فى العقد الخامس ينادونه «أبو محمد» كان قد اعتاد على العمل مع القائمين على المعسكر لنقل ضيوفهم أو شراء ما

يحتاجونه من بغداد أو إيصال رسائل إلى أشخاص أو جهات .. حيث كان محرما على سكان معسكر أشرف مغادرة بوابته تحت أى ظرف وفقا لاتفاق الحماية الأمريكى وإنما يقتصر تواجدهم ضمن حدود المعسكر .. بينما يسمح لعائلاتهم بالزيارة وفق تنسيق رفيع المستوى مع الحكومتين العراقية والإيرانية وحكومة إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق الذى يعتبر معبرا رئيسيا لضيوف المعسكر القادمين من خارج البلاد سواء كانوا إيرانيين أو من أى جنسية أخرى .

عندما اقتربنا من حدود منطقة الشعب التى كانت إحدى مناطق نفوذ جيش المهدى وشهدت شوارعها وأزقتها أعمال قتل مروعة وكانت بيوتها ملاذات أخيرة للمختطفين يجرى فيها تعذيبهم قبل قتلهم والقائهم فى الشوارع أو المساومة على فدية مالية كبيرة من ذويهم خاصة خلال العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .. أشار لى « أبو محمد إلى نقاط التفتيش الرسمية والوهمية التى كانت مصائد للموت فى زمن المذبحة إلا أنه طمأننى بأنه معروف لديهم ونصحنى بعدم التحدث .. ثم مررنا بمنطقة الحسينية التى لم تكن أفضل حالا من سابقتها حيث تنتشر الرايات السوداء وعليها كتابات تؤشر لعبارات ورموز دينية شيعية « يا حسين» « فداك يا أبا عبد الله» مع صور كبيرة الحجم للصدرين / محمد باقر الصدر ومحمد محمد صادق الصدر / .. وبعد ذلك دخلنا إلى تخوم محافظة ديالى التى كان اسم أى منطقة فيها يثير الرعب نظراً لما تشهده من أعمال عنف مروعة وعمليات اختطاف وقتل وتفجيرات وسطو مسلح وغير ذلك من الجرائم التى يتيح ارتكابها فى ذلك الوقت غياب سلطة الدولة وانتشار البساتين الكثيفة على جانبى الطريق وهى ملاذات آمنة للمجموعات المسلحة والعصابات على حد سواء .

تنتشر على جانبى الطريق بقايا سيارات وشاحنات تم تفجيرها وبعض البيوت الريفية البسيطة لأهل القرى وأصحاب تلك البساتين الشاسعة .. الطرق الخالية تبدو للمسافرين طويلة جداً عندما يعتريهم الخوف والقلق من شيء ما، وطريقنا يكاد يكون شبه خال، وقد عملت فيه العبوات الناسفة حُفراً عديدة،بعضها دمر نصف عرض الشارع، وهذا يقتضي من السائق الانتباه الشديد لئلا يقع في إحداها، وفي بعض الأماكن يحتاج السائق أن يقود مركبته بطريقة ملتوية (زجزاج) بعد تخفيف السرعة إلى أقصاها، وفي كل مرة يعبر عن تذمره لهذه الحالة، ويشتم الدوائر البلدية لتقاعسها عن ردم الحفر التي تشكل خطرا كبيرا على المسافرين.

يخيل إليك وأنت تسير في هذه الطرق وكأنك ذاهب إلى جبهة قتال، بخاصة أن بعض الوحدات العسكرية المنتشرة بمسافات متباعدة على طول الشارع قد

حفرت مواضعاً لآلياتها وأقامت سواتر لحماية الجنود، .. أوقف سائقنا السيارة بطريقة مفاجئة على الحافة الترابية للشارع بسبب قدوم رتل عسكري أمريكي يسير في الشارع الذي نسلكه وبطريقة معاكسة لاتجاهنا، برغم أن الشارع الآخر الموازي لاشيء فيه يضطر الرتل إلى سلوك شارعنا لكن هذه هى الأحوال فى الزمن الجديد الذى لا مجال فيه للخطأ أو عدم الانتباه للعابرين لأن ذلك يعني ببساطة أن تفتح تلك الآليات نيران أسلحتها لتحيل العابرين غير المنتبهين إلى أثر بعد عين .

بعد حوالى ساعة ونصف الساعة انحرف سائقنا يمينا وابتسم لى إيذانا بوصولنا إلى مقصدنا بينما قال الدكتور محمد حمد الله على السلامة هذه هى بوابة المعسكر .. لاحظت حركة كثيفة لمواطنين عراقيين يدخلون ويخرجون من المعسكر الذى يطلق عليه أصحابه « مدينة أشرف» وبادرنى الدكتور محمد بالقول أن المعسكر مفتوح لأهالى المنطقة لأنه يضم مستشفى ومنتزهات عائلية يسمح لأهالى القرى المحيطة به من سكان محافظة ديالى باستغلال مرافقه وأن هناك علاقات ودية وثيقة بين سكان المعسكر وأهالى المناطق المحيطة بهم لأنهم يشكلون حماية طبيعية لهم .. كما أن سكان المعسكر أقاموا العديد من المشروعات الخدمية خاصة محطات تنقية مياه الشرق وخطوط المياه لسكان المنطقة .

عبر بوابات وإجراءات أمنية مشددة دخلنا إلى المعسكر الذى تحيطه أبراج الحماية يعلوها المسلحون بينما تنتشر عناصر من مجاهدى خلق على بواباته بزى موحد يشبه زى الجيش «زيتى اللون» لاستقبال الزائرين الذين يتطلب دخولهم إلى المدينة المرور عبر ثلاث بوابات تنتشر على جوانبها الدشم الحصينة والأكياس المحملة بالرمال التى يطلق عليها العراقيون كلمة « هسكو» بما يشبه الثكنة العسكرية .. كنت قد اشترطت على مرافقى إلا يسجل إسمى فى سجلات الزوار وأن أحتفظ بهويتى دون أن يفحصها أى شخص أو تخضع لتدوين بياناتها أو تصويرها كما هى العادة والإجراءات المتبعة مع كافة الزائرين .. وكان لى ما أريد كإجراء احترازى يمنع ورود اسمى بشكل رسمى أو شبه رسمى كعابر إلى هذا المكان نظرا لحساسية الموقف سياسيا وأمنيا .

استقبلنا رجل ذو وجه مبتسم يدعى سعيد يتكلم العربية بلكنة فارسية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة كان هو المكلف بمرافقتى طوال فترة الزيارة التى استمرت ثلاثة أيام .. اصطحبنا سعيد إلى منطقة الـ VIP حيث كان مقرراً أن نقضى فترة الزيارة بينما ذهب الدكتور محمد الموسوى إلى حيث يقيم دائما كمتعاون مع المنظمة

حيث كان يجرى الإعداد لعقد مؤتمر كبير داخل مدينة اشرف بعد يومين بحضور عدد من أعضاء البرلمان الأوروبى ومجلس النواب العراقى للتنديد بالممارسات الإيرانية داخل العراق .

صعدت سيارة « لاندكروز» مع مرافقى واجتزنا شوارع نظيفة منسقة تنتشر الحدائق على جانبيها لنصل إلى الميدان الرئيسى للمدينة والذى تتوسطه صورة زيتية كبيرة لزعيم المنظمة مسعود رجوى وأخرى لزوجته السيدة مريم رجوى ثم عرجنا إلى المنطقة المخصصة لإقامتى وهى عبارة عن بيوت صغيرة يضم كل منها أربعة غرف تحيطها حديقة منسقة لاكتشف أننى لست وحدى المتواجد بها وإنما هناك ضيفان آخران حضرا للمشاركة فى المؤتمر المقرر عقده بعد يومين هما الصحفى العراقى المخضرم نصير النهر وصحفى كندى يعمل فى مجال الأبحاث ويعد دراسة عن منظمة مجاهدى خلق .

بعد تناول الغداء الإيرانى المميز الذى تفوح منه رائحة الرمان والعنبر شرح لنا سعيد نظام المعسكر وكيف جرى تصميمه مثل مدينة طهران بكل تفاصيلها بما ذلك المسجد الكبير وأسماء الشوارع والجسور وحتى الأنهار والحدائق ليكون كما أراد القائمون عليه نموذجا لعاصمة إيران حتى يشعر سكانه أنهم فى بلدهم الأم ..وحرص القائمون على المعسكر أن يكون محمية طبيعية ترى فيها كل أنواع الطيور والحيوانات التى تعتبر تلك المناطق بيئة أصلية لها ويمنع منعا باتا الصيد بكافة أنواعه حيث يعيش الطيور والحيوانات وحتى الحشرات بلا أى تهديد .. كما تنتشر فى المدينة الأشجار العتيقة ذات الأنواع النادرة .. ويحرص القائمون على المعسكر على أن يكون نمط الحياة فيه كأى مدينة حيث يضم مركزاً للشرطة لا يسجل فيه بالطبع أى شكوى وإدارة للمرور تشهد بعض التقارير عن مخالفات بتجاوز السرعة نظرا لجودة شوارع المعسكر وفراغها تقريبا من السيارات التى لا يحتاج إليها سكان المعسكر إلا فيما ندر لأن كل شخص فى المعكسر الذى يضم حوالى ٣٥٠٠ رجل وامرأة يعرف عمله جيداً ويتحرك ضمن دائرة مرسومة لا يخرج عنها مطلقا .

عندما تتحرك فى شوارع المعسكر الهادئة سواء بالسيارة أو سيراً على الأقدام يفاجئك هذا النظام الملحوظ والنظافة المبالغ فيها .. وبخلاف ما كنا نسمعه فى العاصمة بغداد من تفجيرات وإطلاقات نارية فإن المعسكر لا تسمع فيه سوى أصوات الطيور أو صوت احتكاك إطارات السيارات القليلة العابرة من قسم إلى آخر لتنقل بعض أعضائه أو تأتى باحتياجاتهم التى يشترونها من خارج المعسكر .

وعندما تستدعى الصور التى مازالت تنشر لفتيات ونساء منظمة مجاهدى خلق

اللاتى يحملن السلاح بزى عسكرى وأخريات يعتلين ظهر دبابات أو آليات عسكرية .. يفاجئك هذا الهدوء الغريب الذى يعم أرجاء معسكر أشرف لتكتشف أن تلك الصور هى صور قديمة كان قد تم التقاطها إبان العمل العسكرى الذى كان يقوده فصيل « جيش التحرير الوطنى» قبل أن تقوم القوات الأمريكية بنزع سلاح هذا الفصيل ضمن صفقة الحماية التى فرضت هدوءا داخل المعسكر بعد أن ترك الجميع السلاح عمليا ليمارسوا أعمالا مدنية انتاجية وتثقيفية.

إلا أن هذا الهدوء الغريب قطعه صوت سقوط ثلاثة صواريخ كاتيوشا باتجاه المعسكر أثارت بعض الفزع فى نفس ساكنيه ولم تؤدى إلى أى خسائر بشرية حتى أنها لم تنفجر وإنما أحدثت بعض الحفر فى أرضية المعسكر .. وسرعان ما وجهت المنظمة فى بيان الاتهام إلى ايران باستهداف المعسكر الهادئ الذى كان يستعد لاستقبال مؤتمر صاخب طالب المشاركون فيه بطرد السفير الإيرانى حسن كاظمى قمى من بغداد وأدانوا التدخل الإيرانى فى الشأن العراقى وهو ما جلب الكثير من المشاكل لمعظم من شارك فيه خاصة الدكتور صالح المطلك رئيس جبهة الحوار الوطنى الذى استقبلته مطالبات من زملاء له فى البرلمان بطرده ورفع الحصانة عنه خاصة النواب الممثلين للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية ومنظمة بدر التى يقودها رئيس لجنة الأمن والدفاع بالبرلمان فى ذلك الوقت هادى العامرى وكذلك خطيب جامع براثا « الشيخ جلال الدين الصغير» .

استمرت الزيارة وفق برنامج منظم من اللقاءات المكثفة بقيادات المنظمة المتواجدين بالمعسكر خاصة قادة جيش التحرير الوطنى والمسئولين عن الإعلام فيه بالإضافة إلى لقاءات مع بعض سكان المعسكر الذين يتوزعون على وحدات تحمل أرقاما بعضها مخصص للرجال والآخر للنساء حيث أن المعسكر ممنوع فيه الاختلاط وسن القائمون عليه مبدأ التآخى الذى فصل حتى بين الزوج وزوجته باعتبار أن الاستمتاع بأى مباهج الحياة محرم على المجاهدين » كما يحبون أن يطلق عليهم «حتى تحقيق النصر وإسقاط نظام ولاية الفقيه فى الجمهورية الإسلامية الإيرانية .

كما شملت الزيارة مواقع إنتاج المتطلبات الرئيسية لغذاء سكان المعسكر الذين يقومون بأعمال الزراعة وصناعة الأغذية والمرطبات والأجبان والمربات ويشترون فقط الدجاج واللحوم من خارج المعسكر .. كما يضم المعسكر مصنعا كبيرا للحافلات « الكرفانات» وثلاجات الشاحنات وهو يعد أحد مصادر الدخل الرئيسية للمنظمة ويتم تسويق ما يفيض من منتجات عبر إقليم كردستان ووسطاء عراقيين لتوفير المبالغ اللازمة لشراء الاحتياجات لسكان المعسكر .

يضم المعسكر مستشفى صغيرا به عدد من الأطباء والممرضات من عناصر المنظمة من الجنسين يعاونهم بعض المتطوعين من الأطباء العراقيين والأكراد وهو مفتوح لعلاج الحالات المرضية من أهالى القرى المحيطة بمدينة اشرف بالمجان.

روى لى أحد النزلاء الدائمين بالمستشفى كيف اجتاحت قوات ترتدى زى الجيش الإيراني مناطق شرق العراق إبان الغزو الأمريكى عام ٢٠٠٣ وكيف انتقموا من مقاتلى منظمة مجاهدى خلق المنتشرين بالقرب من الحدود الإيرانية وكان واحدا منهم وكيف فتكوا بهم ومثلوا بجثث بعضهم وتتبعوا آثار من تمكن من الفرار حتى داخل مستشفى بعقوبة مركز محافظة ديالى التى تبعد ٦٦ كم شرق بغداد وقتلوا عشرات الجرحى .. قال لى الرجل الذى تعمل نصف أجهزته فقط أن السبب فى انهيار وضعه الصحى ووصوله إلى عتبة الموت هو محاولة ضباط إيرانيين قتله داخل المستشفى عندما كان يتلقى علاجا من إصابة فى قدمه إلا أنه استطاع مقاومة الموت والبقاء على قيد الحياة رغم أن نصف أجهزة جسمه ومعظم أعضائه قد دمرت وأصبحت عاجزة عن العمل .

الغريب فى الأمر أن المعسكر لا يشهد على غرار العاصمة العراقية بغداد ومعظم مناطق البلاد أى انقطاع للكهرباء أو مياه الشرب النقية حيث يضم محطة كبيرة لإنتاج الكهرباء ومحطات لمياه الشرب وتحقق المحطتان الاكتفاء الذاتى لسكان المعسكر ويتم ضخ ما يفيض لسكان القرى المجاورة كما أنك لا تلحظ أى تلوث فى أجواء المعسكر حيث المساحات الخضراء والبحيرات الاصطناعية خاصة فى ظل عدم وجود مولدات تعمل بالسولار وما تنتجه من ملوثات ودخان أسود يغلف سماء بغداد وغيرها من المناطق المحرومة من الكهرباء .

ووفقا لنظام الحياة بالمعسكر التى تشبه الحياة العسكرية فإن الزى العسكرى الزيتونى هو السائد بلا أى إشارة إلى رتبة أو منزلة أو درجة توضح الرئيس من المرؤوس إلا أن الجميع يعلم مكانته ودوره داخل منظومة العمل التى تسير بشكل آلى .. لا مكان للنقود فى المعسكر فكل فرد فيه يأخذ الاحتياجات المقررة من جانب القادة .. حتى أن المول الذى يقع داخل المعسكر ويضم محالا تجارية تضم ماركات عالمية وبضائع بعضها إيرانى والآخر تركى وأماكن ترفيهية ومطاعم ومحال لبيع المكسرات والمشروبات والأجهزة الكهربائية والملابس وغيرها من المتطلبات كأى مركز تجارى يتم البيع فيها من خلال « بون» أو هوية شراء يكتب عليها اسم المشترى وقيمة مبلغ الشراء بالعملة العراقية « الدينار » ويقوم المشرف على المحل أو المطعم بتسجيل

البيانات المدونة على « البون» لخصمها من رصيد المشترى لدى إدارة المعسكر أو هو الرصيد الذى يتراكم بفعل العمل فى مناطق الإنتاج سالفة الذكر .

يضم المعسكر متحفا لضحايا مجاهدى خلق ممن تم إعدامهم على أيدى الأنظمة الإيرانية المتعاقبة ونماذج مجسمة وصورا لهؤلاء الضحايا وبعض مقتنياتهم وبقايا كتاباتهم وآثارهم .. كما يضم قاعة للفيديو تعرض بعض عمليات التعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام التى يجرى أغلبها فى الشوارع والميادين العامة.

• أم كلثوم وعبد الباسط

كانت مساءات الزيارة عبارة عن لقاءات ترفيهية مع أعضاء المعسكر الذين يقيمون مأدبة العشاء للضيوف يعقبها حوار مفتوح يتخلله عرض لمواهب المجموعة صاحبة الدعوة وتتوزع بين كتابة الشعر العربى والفارسى والغناء وعزف العود ..أما الأمر الذى جذب انتباهى هو الجماهيرية الكبيرة التى تحظى بها سيدة الغناء العربى كوكب الشرق أم كلثوم فى المعسكر حيث يحرص الجميع على سماع أغنياتها خاصة فى لحظات التنزه المسموح بها أوقات العصر حتى المغرب على البحيرة الصناعية الموجودة بالمعسكر والحدائق التى تنتشر بالمعسكر رغم أن معظم عناصر مجاهدى خلق لا يجيدون العربية إلا أنهم أخبرونى بعشقهم لصوت أم كلثوم والموسيقى المصاحبة له .. كما يحظى القارئ المصرى الشهير الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بشعبية جارفة لدى محبى الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم حتى أن كثيراً منهم طلبوا منى إحضار شرائط كاسيت خاصة بأم كلثوم وعبد الباسط عند زيارتى القادمة للمعسكر التى لم تحدث حتى الآن .

بعد الاستمتاع والسمر بعد تناول العشاء يجرى عرض ما يتم اختياره من قبل القائمين على المعسكر من أخبار ولقطات مصورة إما لإشاعة أجواء الحماسة أو تطمين عناصر المعسكر على مساندة ودعم مجاهدى خلق بالإضافة إلى خطابات السيدة مريم رجوى وزوجها الموضوع قيد الإقامة الجبرية فى أوربا بصفته مطلوبا بتهم الإرهاب مسعود رجوى .. كما يجرى عرض الحفلات التى أقامها أعضاء المنظمة فى أوقات سابقة قبل تدهور الأوضاع الأمنية .. مع أناشيد حماسية وذلك عبر دائرة تليفزيونية مغلقة يتحكم فيها قادة المعسكر .

ورغم النظام الدقيق الذى تسير به الأمور كما خطط المسئولون عن « مدينة أشرف » واستسلام عناصر المعسكر للأوامر الصارمة وتنفيذها بدقة ترقى إلى فرق

الجيش النظامى سواء فى العمل أو الحياة المنضبطة .. ورغم ما رواه لى أعضاء من أعمار متفاوتة داخل المعسكر عن إيمانهم بقيم المنظمة ونذر حياتهم للجهاد من أجل الحرية وتخليص الوطن ممن يعتبرونهم أعداء لإيران ورضاهم الكامل بذلك النمط شديد الخشونة من الحياة الذى يحرم عليهم أى شيء سوى العمل الشاق .. إلا أن ما جعلنى اشعر بقسوة الأوضاع هو هؤلاء الشباب المنضم حديثا إلى معسكر اشرف من الجنسين وملامح القهر البادية على قسمات وجوههم التى لم يتسلل الجمود وتجاعيد الزمن إليها بعد .. وكنت أتساءل كلما التقت عينى بعين أحدهم « كيف يمكن للإنسان أن يتنازل عن كل هذه الحقوق والمتع ؟؟ وكيف له أن يكبت رغباته ويلغى حاجاته الطبيعية ؟؟ .. وما هو ثمن هذا النضال الممتد الذى لا تظهر له أى نتيجة على مدى العقود الماضية ؟؟.

غادرت المعسكر ولم تفارقنى ملامح الإصرار التى تملأ وجوه المقيمين فيه خاصة أولئك الذين يقدمون خدمات إنسانية فى المستشفى وغيرها من مرافق المكان ورغبتهم العارمة فى تكرار الزيارة ولكن ليس بمفردى فى المرة القادمة .. كنت أتساءل هل يدرك سكان المعسكر ما يدور خارج أسواره .. وهل يعلمون الحجم الحقيقى لمأساتهم وكيف أن الجميع تخلى عنهم حتى أمريكا التى تحميهم بشكل مؤقت وتتحين الفرصة للمقايضة بهم ضمن صفقة جرت وقائعها فيما بعد عندما سلمت المسئولية الأمنية لمعسكرهم إلى القوات العراقية فى إطار تنفيذ بنود الاتفاقية الأمنية .

ربما يخالجك وأنت تزور عناصر منظمة مجاهدى خلق إحساس بالشفقة عليهم رغم كل ما يشاع عن جرائم ارتكبوها وفق تصريحات المسئولين العراقيين الحاليين .. إلا أن الكارثة الكبرى من وجهة نظرى هى ما يقوم به المسئولون عن المعسكر من إخفاء للحقائق عن سكانه وجعلهم تحت سيطرة الدائرة التليفزيونية المغلقة وهو ما لا يمكن أن ينتج سوى ذاكرة مشوهة غير قادرة على اتخاذ القرار الصحيح بالبقاء لمواصلة ما يعتقدون أنه نضال حقيقى ضد الظلم أو العودة إلى حيث جاءوا ويرضوا بالأمر الواقع ليتولى غيرهم من المعارضين النضال ضد النظام الإيرانى بأسلوب مختلف .

قال لى سعيد وهو يودعنى عند آخر نقطة مسموح له بالتواجد فيها على حدود معسكر أشرف أن القدر شاء أن تنتصر المعارضة العراقية وينهار نظام صدام حسين حتى تزداد مأساة مجاهدى خلق ويكون للنظام الإيرانى النفوذ الأكبر فى البلد التى اختاروها ملاذا ومنطلقا لمعارضتهم له ويصبحوا هم ورقة للمساومة فى إطار صفقات استعراض العضلات بين واشنطن وطهران .. ضحك سعيد بسخرية متسائلا « ماذا

لو كان قد حدث العكس وانتصرت المعارضة الإيرانية وانهار نظام ولاية الفقيه ؟؟ » .

غادرت معسكر أشرف تنتابنى الكثير من المخاوف أولها طريق العودة عبر مناطق محافظة ديالى المشتعلة واحتمالات تسرب خبر وجودى فى المكان المحظور الذى يقيم فيه أعداء حكام العراق الجدد وغير ذلك من الهواجس التى رافقتنى فترة طويلة وغادرنى بعضها .. بينما بقيت بعض الهواجس والتساؤلات فى جزء من زوايا الذاكرة أستحضرها مع ما يراودنى من مشاهد كلما وصلنى بيان إعلامى عليه شعار « مجاهدى خلق » .



الفصل الخامس

الصحفيون ...
أبطال الحقيقة



فى العالم المملوء بالأخطاء
مطالب وحدك إلا تخطىء
لأن جسمك النحيل
لو مرة أسرع أو ابطأ
هوى ..وغطى الأرض اشلاء

أحمد عبد المعطى حجازى

١ - الموت والحقيقة

يقول الصديق العزيز الكاتب العراقى هادى جلو مرعى فى مقال رثاء لنقيب الصحفيين السابق شهاب التميمى الذى توفى بعد محاولة اغتيال ودفن فى منطقة خصصها مجلس محافظة النجف كمقبرة خاصة للصحفيين « كنا نرغب أن ندفن فى مقابر العامة من الناس .. فهذا فأل سوء أن تكون لنا مقبرة خاصة .. فإذا كنا ندفن مع بقية الأموات فهذا يعنى أن موتنا سيكون بأسباب طبيعية أو حوادث لا صلة لها بالقتل .. أما المقابر الخاصة فهى موصولة بأسباب غير طبيعية.. كنا نأمل أن يتوقف النزف وينقطع وألا تكون لنا مقبرة باسمنا .. بؤسنا نحن الصحفيين مازال يدفعنا للسير مكشوفين دون ضمانات بالأمن وحتى الصحفيون ذوى الرتب العالية لا أحد يحميهم .. أهل الصحافة وحملة الأقلام مشاريع موت قادم ومستمر والحكومة عاجزة إلا عن بيانات الاستنكار».

في بلد مثل العراق، اعتاد المراسلون والصحفيون أن يكون يومهم الاعتيادي مليئا بالمخاطر والأحداث، ومنذ دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد عام ٢٠٠٣ بات الإعلاميون أحد أهم الأهداف لكافة الجهات التى ما زال الكثير منها مجهولاً بالنسبة للقائمين على التحقيق فى حوادث الاختطاف والقتل والاختفاء القسرى».. بينما تكتفى المؤسسات الإعلامية بتعليق أسماء وصور من سقط من صحفييها على أبوابها منذ بداية زمن المذبحة .

ولا تتوقف معاناة الصحفيين عند القتل والاختطاف والاختفاء المريب فقط انما تمتد المعاناة لكل من يعمل بالصحافة والإعلام لتشمل ملابسات وأجواء العمل خاصة تنصل المسؤولين أو السياسيين من تصريحاتهم في اليوم التالي من إعلان التصريح بعدما يرون أن التصريح كان له تأثير سلبي على جهة ما أو أن أحد المسؤولين وجه إليه انتقادا على هذا التصريح وهو ما يجعل الإعلامى والصحفى فريسة للمخاطر بدءا من القتل الخطأ أو العمد والاختطاف بالإضافة إلى التنصل من التصريحات،

لأنه هدف سائغ وسهل لأي طرف في العراق بالإضافة إلى عدم وجود قانون ينظم العمل الصحفى أو يحمى الصحفيين والإعلاميين فى حالة حدوث مكروه.

ولعل من المخاطر التى تحيط بالإعلاميين والصحفيين العراقيين هو استباحة الميدان الإعلامى من جانب فئات لا علاقة لها بهذا العمل ولا تجيد التعامل مع طبيعة الواقع ولا تقيم وزنا للتقاليد المهنية والأخلاقية العريقة التى يجب أن يتم الحفاظ عليها باعتبار العراق من البلدان التى تمتلك تراثا ثقافيا وتاريخيا عريقا وعدم الالتزام بمعايير الانتماء إلى نقابة الصحفيين العريقة التى كان يجلس على مقعد النقيب فيها الشاعر العظيم محمد مهدى الجواهرى وهو ما جعل هوية النقابة تفقد الكثير من احترامها بعد أن بات يحملها أشخاص لا علاقة لهم بالمهنة ولا يملكون أى مقومات أو أدوات تتيح لهم الانتماء للنقابة العريقة .

ولعل أهم ما يميز المشهد الإعلامى العراقى هو أن من يتصدى للدفاع عن الصحفيين ويلبى احتياجاتهم المهنية ويساعدهم وقت الحاجة هى منظمات مجتمع مدنى مهتمة بالشأن الإعلامى وعلى رأسها مرصد الحريات الصحفية الذى يتميز بعناصره ورموزه من أصحاب المهنية العالية ويخضع لنظام صارم إداريا وماليا ومعرفيا .

تتخذ الأرقام و الأسماء سمة الإحاطة الكاملة بالحجم الحقيقي للمأساة التي يعيشها الصحفيون العراقيون في ظل الأوضاع الأمنية المتردية ، وفي ظل التراجع الملحوظ في مستوى الحماية التي يتوجب توفيرها للعاملين في هذا الحقل الحيوي ، الذي يسهم في الكشف عن التجاوزات والفظائع التي ترتكب بحق الإنسان .

وقد أصدر مرصد الحريات الصحفية إحصائية هامة حول أعداد القتلى من الصحفيين والإعلاميين العراقيين تثبت دون أي لبس بأن دماء هؤلاء الأبطال توزعت على عدة جهات منها ١٨٦ صحفياً قتلوا على أيدي مسلحين مجهولين أو مليشيات ٣٥ آخرين لقوا حتفهم أثناء تواجدهم في أماكن حدثت فيها انفجارات نفذها مجهولون ٢٢ صحفيا قتلوا بنيران القوات الأمريكية صحفيان قتلا بنيران القوات العراقية

ويشير المرصد فى تقريره إلى ان الصحفي العراقي مستهدف من كل الأطراف المتنازعة دون استثناء ، وأن مهنة الصحافة باتت موضوع انتهاك يومي ، دون ادنى اعتبار للدور المهني والإنساني الذي تقدمه ، وأن (سلطتها الرابعة) التي مارستها في خضم الأحداث على مدار السنوات الثلاث الماضية ، تواجه الآن انتقاما ممن يضيقون ذرعا بحق الإنسان - داخل العراق وخارجه - في معرفة الحقيقة ، وممن يخرقون المواثيق والأعراف والمحرمات ، إذا وجدوا أن هذا الخرق قد يخدم مصالحهم .

بناء على ما تقدم ، فان سؤالا من نوع ما من المسؤول عن كل هذا ؟ يبدو مشروعا بل واجبا دوليا وإنسانيا تمليه فظاعة المأساة وأبعادها الإجرامية ، وادعاءات العالم الحر بالحرص على احترام الصحافة والصحفيين .

أما الإجابة على هذا السؤال ، فتتمثل في تحديد الجهات التي يجب أن تتحمل مسؤولية هذا الاستهداف غير المسبوق للعاملين في حقول الصحافة والإعلام ، ونعني هنا ، القوات الأمريكية التي قتلت ٢٢ صحفيا ، والقوات العراقية التي قتلت صحفيين اثنين، إذ من غير المعقول أن تتنصل القوات النظامية من فداحة هذه المسؤولية ، وتقوم بتسجيل بقية الجرائم التي ارتكبت ضد جهات إرهابية أو مسلحين مجهولين لا يمكن الوصول إليهم أو التعرف عليهم، فضلا عن أن أولئك المسلحين ما كانوا ليرتكبوا جرائمهم المدرجة في هذه الإحصائية لو لم تهيأ الأجواء والمناخات السياسية والأمنية التي سمحت لهم بقتل الصحفيين ، عدا من قامت القوات الأمريكية والعراقية النظامية بقتلهم حتى وان كان ذلك قد تم بطريق الخطأ.

ويؤكد مرصد الحريات الصحفية أنه بات من الضروري الآن ، أن يقوم المجتمع الدولي بدوره الفاعل من أجل حماية الصحفيين العراقيين ، عن طريق تشكيل لجنة دولية مستقلة للتحقيق في الانتهاكات اليومية التي يتعرضون لها ، وان تقدم من تثبت مشاركته في هذه الجرائم أيا كانت جنسيته ، إلى المحاكم الدولية المختصة ، وان تبادر القوات الأمريكية والحكومة العراقية ، إلى إجراء تحقيقات واسعة تطال كل من تورطوا في هذه الانتهاكات ، من عسكريين ومسؤولين ومسلحين غير نظاميين، وتقديمهم إلى العدالة ومحاكمتهم ، كذلك اتخاذ كل ما يلزم من إجراءات حمائية تضمن سلامة الصحفيين أثناء أدائهم لدورهم المهني والإنساني .

كنت أتمنى أن تتسع المساحة ويطول الوقت ليحتض جهد الكتابة عن كل أبطال المهنة الذى استشهدوا فى سبيل الحقيقة أو اختفوا بشكل مريب ولم يظهر لهم أثر أو أصيبوا إصابات قاتلة جعلتهم يترجلون عن صهوة جواد الصحافة لكننى سوف أكتفى بما يلى من قصص كنماذج لأبطال البحث عن الحقيقة فى زمن المذبحة.

٢ - الصديقان

فى أبريل عام ٢٠١٠ بث موقع إلكتروني أمريكي شريطا مصوراً يظهر مقتل أحد عشر مدنيا بينهم الصحفي نمير نور الدين حسين وسائقه سعيد شماغ وإصابة طفلين بنيران مروحية أباتشي تابعة لقوات الاحتلال الأمريكية أثناء قيامها بعملية عسكرية في حي بغداد الجديدة شرق العاصمة بغداد فى عام ٢٠٠٧

وذكر موقع ويكيليكس الإلكتروني أن الشريط سُرب إليه من قبل عدد من الجنود، وقد استهدفت المروحية الأمريكية عدداً من الأشخاص هرعوا لإسعاف أحد الصحفيين المصابين. فيما أوضح متحدث باسم القيادة الوسطى لقوات الاحتلال الأمريكية أن قيادته تنظر في محتوى الشريط للحصول على معلومات إضافية، مشيرا إلى أنه لا علم لها بمحتوى الشريط، في حين لم يصدر أي تعليق رسمي عن وزارة الدفاع الأمريكية.

وقد أكد رئيس تحرير الموقع جوليان أوجونز صدقية الشريط، وقال: إنه واثق من ذلك خصوصا أن الموقع أمضى ثلاثة أشهر في فك الشفرة المتعلقة بمواد ومحتويات هذا الشريط.

وأضاف أوجونز «نحن لدينا مصادر داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية وجهات حكومية أخرى من الذين هم ليسوا مرتاحين من سير الأمور. ففي الوقت الذي لا نستطيع الكشف عن أسماء معينة لكننا نفترض أن المؤسسة العسكرية أعطتنا من بعض المصادر هذا الشريط إضافة إلى مواد أخرى كانت مشفرة ونحن قضينا ثلاثة أشهر لفك الشفرة ونجحنا بذلك».

ولد الصحفي نمير نور الدين في ١٩٨٤/٩/١ في مدينة الموصل الحدباء مركز محافظة نينوى / ٤٠٠ كم شمال بغداد/ واكتسب من والده مهارة التصوير وعشق الكاميرا في عمر مبكر.. وبينما كانت وكالة رويترز للأنباء تبحث عن مصورين متميزين في مدينة الموصل ليعملوا معها على تغطية الأحداث أولا بأول في هذه المدينة الساخنة قادهم بحثهم إلى نمير وهو ما يزال طالبا في معهد الصناعة وسرعان ما أخذ نجم نمير يتألق في عالم التصوير الصحفي حيث انتشرت العديد من صوره المعبرة والمؤثرة وبادرت كبريات الصحف والمجلات الأجنبية إلى نشرها على أغلفة مطبوعاتها..

تتواصل الأحداث سريعا في الموصل لتكشف عن شخصية متميزة للفتى (نمير)، فهو لم يكن موظفا لدى وكالة أنباء فحسب، بل كان عراقيا محبا لوطنه كارها للاحتلال، لذا سخر كاميرته ومهارته لتصوير انتصارات المقاومة العراقية وتعقب وتتبع وبكل شغف آليات الجيش الأمريكي المحترقة بضربات موجعة.. حينها اكتشف الجيش الأمريكي أنه أمام خصم آخر لا يقل ضراوة ولا تأثيرا عن القاذفة والعبوة الناسفة.. إنه سلاح الكاميرا الصادقة في يد عراقية مخلصة..!

جاء الاختبار الأول الصعب لنمير عام ٢٠٠٥ عندما ساقته قدماه إلى جسر في مدينة الموصل كانت تتدلى من فوقه دبابة أمريكية مشتعلة قد حطمتها وقتلت من فيها قذائف المقاومة وبينما كانت كاميرته تلتقط صور هذه الدبابة إذا به يفاجأ

بجنود أمريكيين ينهالون عليه ضربا بأخمص بنادقهم ويحطمون كاميرته ، رغم أنه كان يحمل ترخيصا وباجا ويلبس ما يشير إلى أنه صحفي يعمل لدى وكالة رويترز.. لكن جنود الجيش الأمريكي لم يكونوا يعترفون بكل هذا خاصة عندما يشاهدون آلياتهم المتطورة تحترق على أيدي العراقيين. تسبب هذا الاعتداء في كسر بوجه نمير، ثم بادرت رويترز لرفع شكوى لدى قيادة الجيش الأمريكي، والذي سارع حينها بالاعتذار وتعويض الوكالة عن الكاميرة التي هشمت، ومنح نمير أيضا مبلغا من المال ليذهب لعلاج الجروح التي تعرض لها.

بعدما شفي نمير من جروحه قررت وكالة رويترز استقدامه إلى بغداد لتبتعد به عن المضايقات الأمريكية في الموصل التى كانت ومازالت من أخطر مناطق العراق ، وتحول نمير في فترة وجيزة إلى أحد أفضل المصورين الصحفيين لدى الوكالة. فقد كان يبحث عن أماكن الحدث الساخنة لينقل منها الصورة والخبر أولا بأول، ولأنه كان أعزباً فقد كان يطلب من زملائه الصحفيين من أصحاب العائلات أن لايغامروا بأنفسهم في المواقع الساخنة والخطرة رفقا بأطفالهم، وكان يعرض دوما أن يذهب هو بدلا عنهم..

فى تلك الأثناء ربطت الصداقة الحميمة بين نمير وسعيد شماغ، تلك الصداقة التي لم تفرقهما على الإطلاق منذ أن التقيا عام ٢٠٠٦ وحتى قضيا نحبهما معاً على أيدي الجيش الأمريكي. وأجمل ما في هذه العلاقة، ووفق مصطلحات العراق (الجديد) التي جاءت بعد الاحتلال، أن نمير كان (سنيا) من الموصل، بينما كان سائقه ومساعده وصديقه الحميم (سعيد شماغ) شيعيا من بغداد. ولأنهما كانا عراقيين قبل كل شيء، فقد جمعهما عمل واحد، ومائدة طعام واحدة، وقتلا في ساعة واحدة، وفوق أرض واحدة، ومن قتلهما هو عدو واحد ، ثم جمعهما مجلس عزاء واحد، وترافقت صورتيهما بعد استشهادهما في جميع وسائل الإعلام.. إنها قصة العراق بأجمعه تختصرها قصة رجلين.. عاشا معا واستشهدا معا..

فى يوم ١٢ يوليو /تموز ٢٠٠٧ تلقت عائلتي نمير وسعيد نبأ استشهادهما.. ويروي نورالدين والد نمير أن القوات الأمريكية تركت جثث الشهداء العراقيين على الأرض ثم غادرت موقع الجريمة، وقام أبناء المنطقة بنقل جثتي الشهيدين بعد أن تم الاتصال بوكالة رويترز وتكشف هذه الحقيقة الخطيرة عن حجم الاستهتار الفاضح لجنود الاحتلال الأمريكي وهم يتعاملون مع أرواح العراقيين بهذا الاحتقار، وحاولت وكالة رويترز أن ترفع دعوى قضائية ضد الجيش الأمريكي داخل الولايات المتحدة، لكن الإدارة الأمريكية وكعادتها بررت ودافعت عن وحشية جنودها وردت الدعوة.. لكن

الإدارة الأمريكية لم تكتف بذلك فحسب، بل أود. ات تهديدات مبطنة إلى عائلات الشهداء أنهم ما لم يكفوا عن مطالبهم بالتحقيق في هذا الأمر فسوف تزداد الأمور تعقيدا ، بعد أن ألصقت تهمة (مساندة الإرهاب) بكل من الشهيدين نمير وسعيد.. !!!

٣ - ضد الرصاص

ثلاث رصاصات بالرأس ورابعة على تخوم الرقبة كانت من نصيب الطفل المشاغب المندهش دائما كلما بلغته وقائع جريمة فساد أو إفساد رغم أن مثل تلك الجرائم صارت من طقوس زمن المذبحة .. عماد العبادي حاولوا إسكاته حتى يوقف هوايته فى البحث عن الحقيقة ونشرها أيا كانت المحاذير أو المخاطر .. كما يقول أصدقاؤنا أن عماد كان يفضل حمل السُلّم بالعرض حتى وإن أعاقه ذلك عن العبور ربما لارتفاع معدل الثقة بالنفس لديه .. ربما لأنه أدرك نهاية الطريق مبكرا وأراد الوصول إليها قبل غيره .. لا أجد إجابات شافية لأننى كلما التقيت به وجدت زيادة فى التحدى يطرح ما يريد قوله بصوت يسمع من به صمم كما يحب، أن يصف نفسه .في يدرك عماد العبادى جيدا أن نهايته الحتمية ربما تكون كنهاية المتنبى الذى وصف نفسه بأنه نظر الأعمى إلى شعره وأسمعت كلماته من به صمم .

جاء عماد العبادى من بلدة يحمل اسمها « عباده» تتبع إداريا ناحية الفهود بقضاء الجبايش وتنظيميا تتبع سوق الشيوخ بمدينة الناصرية مركز محافظة ذى قار التى تبعد حوالى ٣٦٦ كم جنوب شرقى بغداد .. مارس كل فنون العمل الإعلامى صحفيا وكاتبا ومذيعا ومقدم برامج منذ عام ١٩٩٥ حتى استقر به الحال فى فضائية الديار التى يمولها اليد فيصل الياسرى وهى تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية والمصداقية وهو ما جعل عماد يستغل ذلك فى الانطلاق عبر برنامجه « أفكار بلا أسوار» الذى بدأ تقديمه منذ عام ٢٠٠٣ بشكل أسبوعى حيث تناول فى حلقاته التى تجاوزت الثلاثمائة حلقة قضايا حساسة ومهمة وشائكة ومثيرة للجدل .. كان عماد يعلم أنه يقترب من مناطق محظورة فى عالم السياسة والامن لا يقتصر مداها على حدود حلقاته التليفزيونية وإنما يتجاوزها إلى الرأى العام لتصبح حديث الشارع .

واصل عماد تقديم برنامج «أفكار بلا أسوار» على قناة الديار، في تواصل محموم على مدار سنوات ملتهبة دون انقطاع وفي ظل ظروف عمل قاسية مرت بها الصحافة كان يع. ر بحرية تامة يعبر عن رأيه في ظل ظروف المحاصرة والمليشيات وشراء الدمم وثقافة الاستبداد والتشكي والتشكيك بالولاءات والانتماءات .

يقول عماد أنه مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية فضلت جهات معينة تغييبه عن الساحة حتى لا يثير الزوابع ذات الخطورة على صورتها خاصة بعد سلسلة مقالات كتبها تحمل عناوين مثيرة وكلمات تفوق إطلاق الرصاص منها « ائتلاف المتعة وكذبة وطن وفضيحة فساد لرئيس الوزراء ومسخرة المفسد والأمين وملاحظات على مؤتمر هيئة الاتصالات و٨٠٠ ألف بطانية تحجب الرؤية عن جلال الدين الصغير »وغيرها .. كان عماد يرى أن الصحفيين في العالم الخارجي وفي أوروبا مثلا يبذلون وقتا ومالا وجهودا كبيرة لكي يوثقوا ويثبتوا فضيحة سياسية أو مالية واحدة، وقد يستغرق ذلك أشهرا أو سنوات ولكن بالعراق يكشف الصحفيون في اليوم الواحد العشرات من الفضائح !

لم يكتفى عماد بنافذته عبر قناة الديار وإنما حل ضيفا على قنوات أخرى يدلي برأى أو يقدم ملابسات فضيحة جديدة وفى يوم ٢٢ / ٩ / ٢٠٠٩ حل ضيفا على شاشة قناة الحرة وتحدث كثيراً عن قضايا فساد موجها انتقادات لاذعة للحكومة وآدائها ونهجها كما اعتاد دائما وفى اليوم التالي جاءته الرصاصات الأربعة.

يروى لي عماد أن أحد زملائه ويدعى أحمد الأبيض إتصل به يطلب أن يمر عماد على داره ليأخذ بعض الطلبات الموجهة لوزير الداخلية جواد البولانى حيث كان سيلتقيه مساء ذلك اليوم وعندما وصل إلى باب زميله فى منطقة العرصات عاجله قاتل مأجور أو مجموعة قتلة برصاصات من مسدس كاتم للصوت وغطت الدماء وجهه وجسده المتعب .. مرت صور أطفاله وأمه التى كانت تستعطفه لترك هؤلاء الفاسدين وتقول « عوفهم إنهم كلاب دم » .. مرت عشر دقائق من الدهشة القاتلة ولم يأتى أحد ليرى ماذا حل بالضحية .

تحسس عماد أعضاءه بيد مرتعشة إلا أنها تمكنت من قيادة السيارة والاتصال فورا بزياد العجيلى الذى يدير مع الزميل هادى جلو مرعى مرصد الحريات الصحفية لإبلاغه بما حدث .. هرع بسيارته متجاوزا نقطة التفتيش التى تقف بالقرب منه وشهدت على الجريمة لكنها اكتفت حين رأته يقود السيارة مضرجا بدمائه بالسؤال عن سلامته دون أن تكلف نفسها محاولة إنقاذه أو حتى إيقافه .

دفعته صور أمه وأطفاله إلى محاولة النجاة وقاد السيارة مسافة تزيد على أربعة كيلومترات وهو شبه فاقد للوعى عابراً فى تلك المسافة التى تخترق وسط بغداد حوالي عشر نقاط تفتيش اكتفت بالقول « سلامتك» .. عبر عماد الرصافة / الجزء الشرقى من بغداد/ عبر الجسر الجمهورى فوق نهر دجلة ليصل إلى الكرخ حيث مقر قناة الديار وهى النقطة الوحيدة التى دفعته إرادته للوصول إليها والتوقف

عندها خوفا من تتبع قاتليه له والإجهاز عليه .. وعندما وصل إلى النقطة المحددة كانت كل قواه قد خارت وسقط مغشيا عليه .. حمله فيصل الياسرى صاحب القناة وكان بصحبته جواد الحطاب مدير مكتب قناة العربية بالعراق إلى أقرب مستشفى .

أبلغ الأطباء من اصطحبوه بأن أمره قد انتهى وما هى إلى لحظات ويلفظ أنفاسه الأخيرة إلا أن جواد الحطاب أسرع بالاتصال بأطباء أمريكيين طلبوا نقله إلى مستشفى الكاظميه التى كانت إمكانياتها لا تسمح بإنقاذه وحاولوا نقله إلى قاعدة بلد الجوية التى تبعد عن بغداد حوالى ٨٠ كيلومترا إلا أن الضباب حال دون نقله واضطر الأطباء إلى إجراء عملية جراحية تبعتها عمليات أخرى فى محاولة لاستخراج الرصاص من رأسه ورقبته .. ظل عماد فاقدا للوعى فترة طويلة بعد استخراج رصاصتين فقط حتى يوم ٣ / ١١ حيث جرى نقله بطائرة خاصة إلى ألمانيا وجرى إخراج باقى الرصاصات .

لم يمت عماد بقدرة إلهية رغم الرصاصات الأربعة التى استقرت فى رأسه ورقبته وإنما عاد ليمارس نفس الدور المقدس المشوب بمشاغبات تطال الجميع خاصة الفاسدين والقتلة وحكام زمن المذبحة .. عاد عماد من الموت أكثر قوة وشدة .. يشير إلى رقبته حيث الرصاصة التى كادت أن تقتله ويقول لى المثل المصرى « الرصاصة التى لا تميتنى تقوينى».

٤ - أم البنات

فى عام ٢٠٠٦ بعد أن بدأت مهمتى بالعراق بوقت قصير تعرض اللواء وائق الحمدانى مدير شرطة محافظة نينوى لمحاولة اغتيال أذاعت وسائل الإعلام حينها أنه لقى مصرعه فيها وتضاربت التقارير حول صحة مقتل الرجل وكانت نينوى حينها وتحديدا مدينة الموصل التى تبعد ٤٠٠ كم إلى الشمال من بغداد من أشد مناطق العراق سخونة وما زالت والوصول إلى معلومة تخص الأحداث فيها أمر يكتنفه الكثير من المخاطر بسبب سيطرة المجموعات المسلحة خاصة تنظيم القاعدة على مقدرات الأمور فيها بشكل كامل لدرجة اعتراف وزير الدفاع العراقى حينها بأن الأوضاع فى الموصل أسوأ كثيرا مما تخيله .. وعندما جاءنى اتصال عاجل من المركز الرئيسى لوكالة أنباء الشرق الأوسط بالقاهرة يطلبون توضيح الأمر وإذا كان اللواء الحمدانى قد لقى مصرعه فعلا أم لا شعرت بحيرة بسبب صعوبة الاتصالات وعدم وجود مصدر يؤكد أو ينفى الخبر .. واقترح أحد الزملاء أن أقوم بالاتصال بالزميلة

سحر الحيدرى فهى كما قال بيدها مفاتيح الأحداث والمسئولين وتسعد عندما تقدم مساعدة لأى زميل وبالفعل قمت بالاتصال بسحر التى جاء صوتها مغلفا بالفرح والترحيب بالشقيق المصرى وبالفعل كانت سحر عندها الخبر اليقين حيث أكدت لى أنها كانت منذ دقائق مع اللواء الحمدانى وأنه ينفى خبر مقتله جملة وتفصيلا.

بعد أن انتهيت من كتابة الخبر وإرساله للقاهرة جاءنى صوت سحر عبر الهاتف لتطمئن وتسالنى عن ظروف عملى وهل أنا بأمان وكيف أتعاطى مع واقع بغداد المؤلم وكيف أستطيع توفير احتياجاتى وماذا أعددت لمواجهة معضلة الكهرباء وحرب الماء فى وقت لا توجد فيه أى خدمات بالعراق وهل أحتاج لمساعدة من أى نوع .. كنت أستمع إليها وأنا فى دهشة فهذه السيدة التى تعمل داخل جحيم الموصل وتتلقى التهديد تلو التهديد تكبدت عناء الاتصال بى رغم شبكة الاتصالات المهترئة بالعراق ولم تكتفى بمساعدتى مهنيا بل عرضت أن تهيىء لى أى أجواء آمنة وتنجز لى أى شيىء يساعدنى على الاستمرار فى مهمتى المغلفة بكل أنواع العنت والمخاطر - رغم أنه لم يكن لى بها أى علاقة سابقة ولم نلتقى أبدا - باعتبارها إبنة بغداد التى تعرف دروبها وتستطيع تولى مهمة نصحى بصدد العيش فيها لأن إقامتها بالموصل جاءت بعد أن قضت نصف عمرها فى عاصمة الرشيد وتوطدت بالارتباط بأستاذ جامعى هو هيثم النقيب .

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع اتصالات سحر الحيدرى للاطمئنان والسؤال عن الصحفى المصرى الذى يعمل فى غمار المذبحة التى كانت قد بلغت ذروتها حتى يوم السابع من يونيو عام ٢٠٠٧ عندما جاءنى خبر استشهادها على أيدى عناصر تنظيم ما يعرف « دولة العراق الإسلامية» حيث كانت المطلوب رقم (٤) فى قائمة المطلوبين لأمير الدولة الإسلامية وفقا لمنشورات كان قد تم توزيعها بالموصل وتعليقها على جدران المساجد تطالب بقتل « العملاء والخونة الذين يتعاملون مع قوات الشرطة والجيش والقوات الأمريكية».

اذكر أننى سألت سحر ذات مرة عندما تواترت أنباء تلك المنشورات إلا تخافين من الموت ؟ ولماذا لا تغادرين الموصل إلى حين حتى تنكشف الغمة ؟ قالت لى سحر بكل إصرار « لاتهمني الرصاصة إذا كانت قاتلة ، ما يخيفني هو الألم والعوق .. كل منا بيومه » .. روت لى سحر كيف جرى اختطافها عام ٢٠٠٥ على يد مسلحين ونجاتها بأعجوبة بعد أن تم تحريرها على يد قوات الشرطة، وكيف أصيبت فى نفس العام ٢٠٠٦ بإطلاقه من بنقديه «بي كي سي» وكيف خضعت لعمليتين جراحيتين وعادت بعدها لتمارس عملها بالموصل غير عابئة بما ينتظرها من مصير محتوم كانت

تعلمه جيدا .. كانت سحر تقول أن مسألة الخطورة في العمل أصبحت واقع حال علينا لا نتحدث عنها، ولك أن تعلم بأنك إذا وددت العمل بالصحافة في العراق فاعتبر نفسك مقتول مقتول ..لا محالة من ذلك ..وعليك الخيار في القبول بالمخاطرة أو ترك العمل.

اختارت سحر العمل حتى آخر لحظة فى حياتها والمثير أن آخر قصة كتبتها سحر الحيدري لمعهد صحافة الحرب والسلم تناولت عمليات الاغتيال التي تنفذها المجموعات المسلحة المرتبطة بتنظيم القاعدة بحق المصورين العاملين في الموصل ونشر هذا الموضوع في شهر أكتوبر ٢٠٠٧ ضمن تقرير خاص أعدَه المعهد عن واقع الإعلام في العراق في ذلك التاريخ، كانت سحر قد راحت بدورها ضحية القتل عندما تعرَضت لإطلاق نار كثيف فيما كانت تغادر منزلها في حى الحدباء بالموصل.

كانت سحر الحيدري على علم بالمخاطر المحدقة بها ويؤكد لي صديقى المشترك مع سحر الذى يعمل بوكالة أصوات العراق عادل فاخر أن سحر تلقت أكثر من ١٣ تهديدا من من جهات مجهولة، وهي عبارة عن رسالتين كتبتا باليد ووضعتا في باب منزلها و ١١ تهديداً من خلال الهاتف منها ستة اتصالات من أرقام مجهولة توعدتها بالقتل وخمس رسائل حملت نفس المضمون وسبق لها أن نقلت أفراد عائلتها إلى سوريا ضماناً لسلامتهم، لكنها كانت تعود باستمرار إلى الموصل لتواصل عملها بعد أن اطمأنت على بناتها الأربعة .

سحر البغدادية الشيعية تركت بيت أهلها فى منطقة زيونة الراقية شرق بغداد لتكمل دراستها بالموصل حيث تخرجت من كلية الإعلام عام ١٩٨٨ وأثمر زواجها من شاب سنى في الموصل عن أربعة بنات أكبرهن دعاء التى فقدت عريسها قبل أن تكتمل فرحتها بالزواج منه عندما طالته يد الغدر قبل أن يضمه عش الزوجية معها .. ويقول عادل أن هذا الشاب الوسيم المتفائل الطموح كان قد جمع مبلغا من المال خلال تجارته بالسيارات ولحقته إحدى العصابات التى تحكم الموصل فى زمن المذبحة بعد أن حصل على مبلغ كبير من بيع إحدى السيارات وقتلوه ليسرقوا النقود وسيارته الحديثة إلا أن سحر الأم القوية الحنونة تمكنت من احتواء ابنتها والعبور بها من تلك المرحلة القاسية رغم ما تعانيه من مطارادات وملاحقات لا تنتهى .

كانت المهنية العالية التى تتمتع بها سحر تدعمها حيادية وشفافية فى التعاطى مع الأحداث سببا فى أن تحظى سحر باحترام الجميع خاصة بعد أن انضمت لفريق عمل وكالة أصوات العراق الوليدة فى نوفمبر عام ٢٠٠٤ وكان الأستاذ عاصم عبد المحسن هو رئيس التحرير في حينها .. كتب عنها عاصم عندما استشهدت «وكأنه

قدرنا الآتي أن ننتقل من اللوعة والأسى على فقد زميل إلى لوعة وأسى أكبر على رحيل زميلة.

لقد تحدت سحر كل ما هو طبيعي وغير طبيعي من أجل أن تواصل المهنة التي عشقتها وكرست لها حياتها..

تحدت أنها امرأة.. تحدت أنها زوجة وتحدث أنها أم لأربع من الزهور البريئة.. تحدت فقدان عريس إحدى بناتها الذي طالته يد الغدر قبل أن يضمه عش الزوجية معها.

لكن تحديها الأكبر كان لقوى الظلام المتربصة بها من أكثر من عام، والتي طاردتها من مكان إلى مكان لكنها أبداً لم ترفع الراية البيضاء.

إن استشهاد سحر لا يمكن أن يكون انتصاراً لتلك القوى لكنه وقود يضاف لكي تظل جذوة الكلمة الحرة مضيئة وسوف تظل » .

وعندما تولى الأستاذ زهير الجزائري رئاسة تحرير أصوات العراق طلب منها أن تنتقل إلى أربيل بإقليم كردستان لتقيم هناك وتعمل بمكتب الوكالة حيث أن كردستان أكثر أمنا بعيدا عن التهديدات الخطيرة التى كانت تتعرض لها من قبل دولة العراق الإسلامية وعندما زارت سحر مقر الوكالة في أربيل قبل وفاتها بأسبوع تقريبا خرجت من الموصل وهى ترتدى نقابا حتى تختفى بعض الوقت عن أعين المجموعات المسلحة لكنها أصرت على إكمال مشوارها بالموصل وعادت مرتدية النقاب رغم أنها لم ترتدى الحجاب فى حياتها .. لم تترك سحر مدينتها التى أحبتها وعملت فيها وأصرت على الاستمرار حتى النهاية . كتب زهير الجزائرى عنها بعد استشهادها يقول « منذ عام أو عامين توطن سحر نفسها مع فكرة القتل، وأحيانا تتحسس ملمس الرصاصة التي تستهدفها، تفعل ذلك لكي لا تتوقف عن ممارسة مهنتها الصحافة. خطفت وأفلتت من خاطفيها بمعجزة ، وحين سافرت لتشفى من صدمة الخطف انتظرتها في بغداد رصاصة طائشة. لم تستطع المكوث في المستشفى، بل حملت جرحها وسافرت إلى الموصل على عجل لتتابع ما فاتها من أخبار.. عاشت تحت التهديد وحفظت رقمها (الرابعة) في قائمة المطلوبين لأمير الدولة الإسلامية، وحفظت معه ملمس الرصاصة التي ستقتلها .. الموت الحقيقي لسحر هو أن تنقطع عن ممارسة المهنة، وفيما عدا ذلك فما سيحصل هو قدر» .

كانت سحر الحيدرى قد حصلت على جائزة كورت شوت للصحافة المحلية والدولية في حفل أقيم في العاصمة البريطانية لندن في نوفمبر من عام ٢٠٠٧. وهي جائزة تقام للمرة الثانية لاستذكار الصحفي الذي قتل بكمين في سيراليون واشتهر

بتغطيته الصراع السياسي والعسكري ليوغسلافيا، كما حصلت الحيدري على جائزة المنظمة الكندية في نفس العام وأقيم احتفال بالمناسبة في السفارة الكندية في سوريا.

خسرت وكالة أصوات العراق في أسبوع واحد من شهر يونيو عام ٢٠٠٧ ثلاثة صحفيين هم نزار الراضي مراسل الوكالة في محافظة ميسان جنوب شرق بغداد وعارف علي مراسل الوكالة في ديالى شمال شرق العاصمة وسحر التى لم يغلق ملف التحقيق فى مقتلها بعد ولم يسدل الستار على حادث اغتيالها المريب.

رحلت سحر الحيدرى « أم البنات» تاركة بناتها الأربعة بلا يد تكفكف دموعهن ومدينتها التي عاشت فيها زهرة عمرها بلا زهور بعد أن احترقت « أم الربيعين »[1] بنيران الكراهية والقتل والأعمى.

رحلت سحر العطوفة الحنونة حتى على الغرباء دون أن التقيها ولو لمرة واحدة رغم رباط المودة الذى استمر حوالى عام عبر الهاتف بعد أن راهنت على تجربتها المثيرة في التعامل مع المواقف الصعبة، .. خسرت سحر حياتها ولم تخسر الرهان على محبة القطاع الأعظم في الحدباء للشابة البغدادية والقطاع الأعظم ممن شاركوها الأيام الصعبة فى بلاط صاحبة الجلالة.

٥ - الشاعر

أموت بساحتى وما اترك الملعب   شربت الموت طوعا ما شكيت بيوم

فى يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٧ كانت إحدى قاعات فندق المنصور ميليا الفخم الذى يقع بمنطقة الصالحية فى الجانب الغربى من نهر دجلة على رأس جسر السنك الشهير تتهيأ لاستقبال المشاركين فى أحد مؤتمرات المصالحة الوطنية من شيوخ عشائر الأنبار والذى كان يشارك فيها قادة المنطقة السنية التى شهدت نشاطات القاعدة وبداية النهاية لها ومن بات يطلق عليهم قوات الصحوة .. وكان الشاعر والإعلامى رحيم طاهر جناح الشهير «برحيم المالكى» يشارك فى المؤتمر باعتباره أول إعلامى يدخل الأنبار وقت اشتعال الفتنة الطائفية وأول من بدأ الجهود الحقيقية لتغيير الصورة الذهنية عن الطائفة الشيعية التى عاشت فى أخوة دائمة مع السنة قبل زمن الفتنة عندما سيطرت قيادات القاعدة على المناطق السنية وفرق الموت والميليشيات على المناطق الشيعية وأراها الجانبان حربا أهلية باعتبار أن الشيعة روافض والسنة نواصب.

(١) أم الربيعين : أحد أسماء مدينة الموصل عاصمة محافظة نينوي التي تعتبر أكثر مناطق العراق اشتعالاً بعد أن كانت أكثر المناطق زهوًا وجمالاً وخضرة وهي أيضًا تسمى الحدباء.

كان رحيم يقول بصوت عال شديد الضجيج رغم ما يعنى ذلك من الوقوف أمام فوهة مدفع الطائفية المقيتة

أرادونا تفرق يا عراق الخير

حدر جنح الظلام اتسللت أقزام

القنابل والمعاول والذبح والموت

كلها اتجمعت حكمت عليك إعدام

لأنك جزء طاهر فى جسد معلول

وطن وحدك صحيح بخارطة جرذان

البعض رادت تجعلك بالأخير تصير

لكنك عراق بكل وقت قدام

ذهب رحيم إلى فندق المنصور للاتفاق مع شيوخ الأنبار الذين استطاع بناء علاقة طيبة معهم باعتبار أحد دعاة الوحدة الوطنية على تنظيم مؤتمر عام يضم قيادات سنية وشيعية للمزيد من المصالحة فى وقت كانت المصالحة نغمة نشاذا لدى حكام زمن المذبحة الذين استطاعوا النفاذ إلى كل الأمكنة حتى تلك المحرمة ومنها هذا الفندق الفخم الذى يحظى بإجراءات أمنية مشددة نظرا لموقع الاستراتيجى المواجه لمحافظة بغداد والسفارة الإيرانية ومبنى شبكة الإعلام العراقى الرسمية التى تمتلك القنوات التليفزيونية والإذاعات التابعة للدولة ومنها قناة العراقية التى كان يعمل بها رحيم بالإضافة إلى موقعه على رأس أحد أهم الجسور التى تربط شطرى العاصمة بغداد « الكرخ والرصافة» وهو جسر السنك .. حيث نفذ الرافضون للمصالحة والدفىء بين أبناء العراق الممزق مجزرة جديدة من خلال تفجير مسروع راح صحيته العشرات بين قتيل وجريح بالإضافة إلى تدمير مدخل النفق وعدد من قاعاته .

روى لى حيدر الإبن الأكبر لرحيم المالكى كيف استطاع القتلة من خلال تواطؤ عناصر لا احد يعلمها كما جرت العادة فى مثل تلك الأمور أن ينفذوا إلى داخل الفندق ويقوموا بزرع المتفجرات داخل القاعة التى كان يفترض أن تشهد الاجتماع الرئيسى لمؤتمر المصالحة الوطنية وهى قاعة الأمراء بطريقة لا تسمح لأحد من الحاضرين بالنفاذ من لهيب انفجارها وهو دليل على أن عملية التفخيخ جرت بهدوء تام وفق آلية تحتاج الكثير من الوقت والكثير من الخبرة الفنية .

يقول حيدر أنه علم بوجود مرافق لأحد المسئولين الكبار كان قد أقام بالفندق قبل موعد المؤتمر بعدة أيام واستطاع أن يقيم علاقة قوية مع الحراس والمسئولين

بالفندق الشهير من خلال الإغداق عليهم بالهدايا والأموال وهو ما أتاح له الدخول فى أى وقت يشاء مع أى شخص يشاء دون المرور بإجراءات التفتيش الصارمة التى يخضع لها جميع المقيمين بالفندق أو الزائرين وهو ما يفسر اللغز وراء هذه العملية التى جرت مثل كثير من التفجيرات وتركت أسئلة حائرة لكل من يعرف جغرافية المكان الذى شهد التفجير وطبيعة المناطق التى يجب أن يمر بها المنفذون أو من يحملون حقائب المتفجرات .. فهذه المنطقة المشئومة التى شهدت تفجيرات الأحد الدامى والأربعاء الدامى بعد ذلك بحوالى عامين محاطة بسياجات أمنية وإجراءات شديدة التعقيد لا يستطيع أحد أن ينفذ إليها إلا بسلطان .

يروى حيدر كيف نجا والده من الإعدام فى عهد صدام حسين عندما جرى اعتقاله مع المعارض الذى تم إعدامه على الكعبى عام ١٩٩٩ إلا أنه نجا بأعجوبة بعد أن نفى عنه رفاقه تهمة كتابة قصيدة تحرض على الثورة ضد صدام حسين وهى أحد الأسباب التى أعدم بسببها الكعبى إلا أنه لم يستطع النجاة من حكام زمن المذبحة الذين فرضوا قانون «الموت للجميع» وهو ما تنبأ به رحيم المالكى قبل موته عندما توفى أحد أصدقائه المقربين ويدعى على محسن فكتب يقول :

انا ميت شعر واتوسل الشيطان

يا شيطان شعرى انقطعت أخبارك

قبل كانك جحا كل ساعة تدق الباب

مارايد شعر .. مر وخد مسمارك

يا شيطان شعرى شاعر أنى أموت

يتعطل فرض والكون يدارى

أنا واثق عفتنى / تركتنى/

روح لا رديت

يوم فراق وجهك .. يوم المبارك

إش جنيت من الشعر

لو سجن .. لو طعنات

يقول حيدر أن شقيقته الصغرى هدى التى تسير على درب أبيها ما زالت حزينة لأن رحيم ذهب دون أن يلقى عليها تحية الوداع وإن كان قد احتضنها وهى تغص فى نوم عميق عندما خرج للمرة الأخير ذاهبا إلى ميدان العمل الصعب الذى اختاره ولكن هذه المرة كانت خروجا بلا عودة بعد أن أرسى إحدى قواعد الوحدة الوطنية بأشعاره

التى يرددها الجميع .. يقول رحيم المالكى فى إحدى قصائده التى يكتبهـا باللهجـة العراقية

سد باب الفتن واقطع حدود إبليس

ما فى مشكلة بلا حل

ياهو اللى فهمك من نقعد أنى وياك ونديرالبلد

هذا البلد يختل

يا هو اللى اوهمك

واللى قال لك كذاب أقبل ذل

ما أهاب الموت مقابل رمح طولك

وأرفض اتختل / اختبىء/

٦ - الموسوعى

لم تصنف منظمة اتحاد الصحفيين الدولي العراق كأخطر دولة بالنسبة للعمـل الصحفي عبثا.. فالصحفيون العراقيون والأجانب يعملون في آتون النار وهم يبحثون عن الخبر أو الحقائق أو حتى الأشياء البسيطة التي يتطلبها عملهم الصحفي.

وفى هذا الإطار راح الكثيرون ضحايا المحرقة العراقية التي تأكل الأخضر واليـابس دون تمييز فى الجنس أو اللون أو الدين أو الاثنية العرقية التى تتعدد فى العراق منـذ القدم .

ومن الأسماء التي بقيت في ذاكرتي الدكتور جاسم العيساوي ، الذي حدثني عنـه ذات يوم أحد الأصدقاء الصحفيين .. فالعيساوي لم يكن صحفيا مجردا ، فهو حاصـل على شهادة الدكتورارة فى العلوم السياسية من جامعة بغداد ، كما انه حاصل علـى شهادة الإفتاء وفق مذهب الإمام الشافعي ، وفوق هذا كله كان احد الذين شاركوا في كتابة الدستور العراقي من أهل السنة ، وساهم في تأسيس صحيفة (السـيادة) الـتي احتلت عند انطلاقتها عام ٢٠٠٤ مكانة متميزة على الساحة الإعلامية العراقية قبـل أن تنزوي أخيراً بسبب الإمكانات المادية شأنها شأن الصحف العراقية الجادة التي لا تجـد من يدعمها.

أخبرني صديقي أن العيساوي قبل مقتله بأيام قليلة اخبرهم بأنه يشـعر بـالتوتر لأن هناك من يترصد خطواته ، وعندما طلب منـه زمـلاؤه في العمـل الحـد مـن تحركاته والبقاء في المنزل فترات أطول ، ابتسم ,وقال «لندع الأمر على الله».

قال صديقي الصحفي أن العيساوي اخبره ذات يوم انه يشعر بأن هناك من يقوم بتصويره ومراقبة دخوله وخروجه إلى المنطقة الخضراء عند حضوره الجلسات الخاصة بلجنة كتابة الدستور عام ٢٠٠٥ ، ومع انه كان يشعر بالتهديد إلا أن إصراره على أن يؤدي ما يعتبره واجبا تجاه الشعب العراقي ،يجعله يستمر بعمله دون خوف ، خاصة بعد أن بدأت سلسلة من عمليات الاغتيال ضد الأعضاء السنة في لجنة كتابة الدستور.

يقول سائق سيارة الميكروباص التي تنقل العاملين في جريدة السيادة «في أحد الأيام وبينما أقوم بعملي المعتاد صباحا لجلب العاملين في الجريدة إلى مقر العمل من منازلهم اجتزنا حي الشعلة الذي كان تحت سيطرة المليشيات ، كنا نشعر بالخوف والتوتر كلما اجتزنا هذه المنطقة باتجاه منطقة الكاظمية عبر إحدى البقع الخطرة في بغداد والتي تسمى (جكوك) وهي عبارة عن منطقة قام الناس ببناء دورهم فيها تجاوزا على الأراضي بعد سيادة الفوضى على بغداد عقب الاحتلال الأمريكي ».

يضيف السائق «ما أن وصلنا منطقة جكوك حتى لاحت لنا سيارتان متجاورتان في إحداهما مسلحون راحوا يطلقون النار على السيارة الأخرى التي انحرفت عن الطريق وانقلبت مرات عدة ، ويكمل وهو يغالب دموعه ، لم يكتف المسلحون بذلك بل ترجل احدهم من السيارة واتجه نحو السيارة المقلوبة وراح يطلق النار باتجاه من فيها ليتأكد من مقتلهم ، وعاد إلى سيارته التي غادرت مكان الحادث مسرعة فيما بقينا نحن وآخرين نراقب الموقف عن بعد عاجزين عن فعل أي شيء.!!

ويكمل السائق «حين أبصرت السيارة المقلوبة عرفت على الفور أنها سيارة الدكتور جاسم العيساوي فأخبرت من معي ،غير أنهم لم يصدقوا حتى اقتربنا من مكان الحادث وترجلت لاشاهد العيساوي ملقى داخل السيارة وقد مزق الرصاص جسده بعد أن ارتمى فوق جسد ابنه وكأنه يحاول أن يحميه ، ولكن دون فائدة فقد ذهب الاثنان ضحية العنف والتطرف ، والإرهاب ».

يقول صديقي الصحفي لم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة والفريدة ، فقد كنا نشاهد يوميا عند ذهابنا إلى العمل صباحا الجثث ملقاة على قارعة الطريق ، أو داخل سيارات كانوا يستقلونها ،وقد مزقها الرصاص ،ونمرّ نغالب دموعنا وخوفنا ، ومشاعرنا كأن الأمر أصبح اعتياديا ،كأنها أصبحت طبيعة الحياة في بغداد التي سيطرت عليها المليشيات ، والتنظيمات المسلحة التي لا تدري إلى أي جهة تنتمي حتى شاعت نكتة في بغداد تقول أن المرء يخاف أن يقول لسيطرة ما أنا شيعي فيكتشف أن السيطرة الوهمية لتنظيم سني ،أو يقول أنا سني فتكون السيطرة لتنظيم شيعي ،

صحيح كما يقال شر البلية ما يضحك فلم يتوان العراقيون عن قلب الأحـداث إلى نكت وطرائف تشي بالواقع المؤلم والمخيف الذي يعيشـونه باسـم الـدين والسياسـة والتحرير!

٧ - الغائبان

لا تـزال قناة السومريـة تترقـب خبـرا عن مراسليـها ريـم زيـد ومـروان خزعـل اللذين اختطفا من قبل جهـة مجهولـة في بغداد، أما ذويهما فلـم يهـدأ لهم بـال، ومناشـدة الخاطفين الإفراج عنهما .

باتت الرجاء الوحيد للأهل والأصدقاء هو عودة الغائبين رغم مرور العام تلو الآخر بلا أى أثر أو حتى مجرد معلومة يمكن أن تجلى الحقيقة .. فلا أثر لحياة للغـائبين ولا قبر يمكن زيارته .

تقول الرواية التى لا يعلم غيرها الجميع أن ريم زيد ومـروان خزعـل اختفيـا في ظروف مجهولة وغامضة بعد أن جرى اختطافهما فى أول فبراير من العـام ٢٠٠٦ ولم تزل كذلك حتى الساعة.

ريم زياد وزميلها مروان خزعل كانا قد خرجا للتو من مؤتمر صحفي بمقر أحـد الأحزاب في حي اليرموك غرب العاصمة بغداد عندما استوقفتهما سيارة تشبه سـيارات المسئولين وحكام العهد الجديد رباعية الدفع ذات زجاج مظلـل ترجـل منهـا أربعـة أشخاص مسلحين وتحت التهديد اقتادا الشابين اليافعين إلى مكان غير معـروف بـلا سبب معروف أو تهمة محددة سوى أنهما من أبطال الحقيقة الذين يعملون فى ميـدان ليس فيه قاعدة أو قانون ولا مصير لمن يغيب إلا الموت .. خمسة أعوام بلا أى خبر عـن الصحفيين الشابين .

ربما ذنب ريم ومروان أنهما ينبذان العنف ويعشقان الكلمة.. عاشا قضايا الـوطن والإنسان بكل تجرد ومحبة وإحساس في ظل العنف المتمادي الذي يهدد كيان الـبلاد وحياة العباد.

٨ - المنسى

يرقد إبراهيم الكاتب على فراش من الألم .. قعيدا يعانى من كسر فـى الفقـرة السابعة أضرت بالحبل الشوكى وهو ما أدى إلى عجز كامل فـى القـدمين اللـتين طالما ملأتا شوارع بغداد ركضا وراء خبر أو صورة أو تقرير فى زمن كانت فيه الكلمة سبيلا مباشرا للموت.

تعلو وجه إبراهيم ابتسامة ساخرة تختلط فيها مشاعر من الألم والأمل والحب والنشوة والرغبة فى القفز مرة أخرى وراء حقيقة ينتظرها العراقيون الذين يراهم إبراهيم فى حال ليس أفضل من حاله فإذا كان قد فقد القدرة على الحركة وأصبح طريح الفراش عندما أصابته شظايا انفجار أطاح برؤوس آخرين فإن باقى العراقيين باتوا عاجزين عن الحركة التى تنظم حياتهم بعد أن أطاحت الصراعات السياسية بآمالهم فى أن يروا نتائج خروجهم بالملايين للتصويت فى الانتخابات النيابية التى جرت فى مارس ٢٠١٠ ويجلس على كراسى الحكم والبرلمان رجال يحققون طموحاتهم فى العيش الكريم.

كانت موهبة إبراهيم الذى ولد عام ١٩٧٥ ورغبته فى الإصلاح والتغيير بمثابة الدافع الأكبر للالتحاق بالعمل الإعلامى الذى كان يمثل بالنسبة له نافذة للإطلال على الحقائق المتوارية بفعل العاطفة والولاءات والانتماءات الحزبية والعشائرية والطائفية بالإضافة إلى الخوف من التعرض للعقاب الذى يتصاعد حسب الجرم والمسافة التى يقف فيها الإعلامى من الحقيقة ولهذا حاول إبراهيم أن يقترب من الحقيقة كلما أمكن مع حيادية نسبية وهو أمر تغلفه المخاطر خاصة فى بلد مثل العراق الذى لا مجال فيه لهذا النوع من الاستقلالية .. فلابد أن يقودك العمل الإعلامى إلى الاحتكاك بجهة ما سواء كانت حاكمة أو نافذة سياسيا أو أمنيا فى زمن المذبحة .. إلا أن إبراهيم حاول قدر الإمكان أن يبتعد عن النقاط المحرمة مثل الطائفية والدين الذى غرس تجاره أنيابهم فى جسد المجتمع العراقى المنهك بالطعنات والتراتيل التى أسسها حكام زمن المذبحة وترعرعت فى ظل نظام يقوم على المحاصصة الطائفية والجهوية والعرقية وكل أنواع المحاصصات التى تزكى نيران الفتنة .

التحق إبراهيم بقناة العراقية شبه الرسمية عام ٢٠٠٤ وتنقل بين أقسامها محررا ومندوبا ومراسلا ليصول ويجول ينقل الأحداث ويمد شاشته بتقارير مثيرة تتناول جوانب يصعب تمريرها داخل قناة تخضع لسيطرة الدولة خاصة تلك التى تراجع ترتيبات البيت العراقى المضطرب ..وفى تلك المرات التى خرج فيها الشاب الطموح سعيا وراء مادة إعلامية متميزة بمناسبة انعقاد مؤتمر للمصالحة الوطنية فى منطقة أبو غريب المشتعلة التى تقع على بعد ٢٠ كم غربى بغداد ربيع عام ٢٠٠٩ وتحديدا يوم ١٠ مارس وكان يشارك فيه اللواء مارد عبد الحسن مسئول العشائر بوزارة الداخلية الذى يبدو أنه أصابته نشوة الاستقرار الأمنى الهش الذى كانت تتميز به تلك الفترة من زمن المذبحة وأصر على تفقد الشوارع والأسواق فى البلدة التى كانت أحد معاقل القاعدة وفرق الموت ليثبت من خلال صورة مباشرة وجود استقرار أمنى .

كان هناك من يترقب تلك اللحظات التى تحركها نشوة النصر لرجال الأمن وثقتهم الزائدة فى قدرتهم على ضبط الأمور ويبدو أن تسريبا جرى إلى إحدى الخلايا النائمة بالمنطقة فقامت بنصب كمين محكم للزائرين المنتشين بالأمن الهش حيث وقع انفجار مروع نفذه انتحارى بحزام ناسف أعقبه سيل من الطلقات النارية مما أدى إلى استشهاد مراسل قناة البغدادية صهيب عدنان ومصوره حيدر هاشم الذين كانوا ضمن الموكب واستشهاد وإصابة أكثر من ٨٠ آخرين .. فيما أصيب إبراهيم الكاتب بتهتك شديد فى الفقرة السابعة وتم نقله إلى مستشفى أبو غريب التى رفضت استقباله لخطورة حالته ثم إلى مستشفى اليرموك ببغداد لإجراء عملية فورية لاستخراج شظيه استقرت بالرأس ونظرا لصعوبة التنفس تم عمل فتحة فى الرقبة لغرض التنفس الصناعى إلا أن الحالة ساءت كثيرا .

لجأ مرافقوا إبراهيم للقوات الأمريكية التى قامت بنقله إلى قاعدة بلد على بعد ٨٠ كم شمال بغداد وتم إجراء عدة عمليات جراحية بإشراف أمريكى جرى بعدها نقله إلى مدينة الطب وسط بغداد .

ساءت حالة إبراهيم بسبب عدم وجود رعاية طبية جيدة خاصة وأن حالته تستدعى نقله للعلاج بالخارج وأدى ذلك إلى إصابته بعدة قرح فى الظهر والرأس والقدمين مع استمراره طريح الفراش دون أن يلتفت أى من مسئولى القناة التى يعمل بها والمملوكة للدولة إلى حالته رغم المناشدات المتكررة من أهله وبعض منظمات المجتمع المدنى المهتمة بالشأن الصحفى والتى تعجز إمكانياتها عن توفير العلاج لحالته الحرجة التى استقرت عند إصابته بعجز كامل فى القدمين يحتاج علاجهما مع إعادة التأهيل إلى حوالى ١٠٠ ألف دولار يقول إبراهيم بضحكة عالية لو أملك هذا المبلغ لتزوجت لتشاركنى زوجتى فراشى البارد !!

عندما زرت إبراهيم فى منزل أهله فى منطقة السيدية التى تبدو كسجن مفتوح تحيطها الحواجز والجدران الأسمنتية العالية ولا يوجد لها سوى مدخل وحيد ومخرج وحيد حيث كانت منطقة محرمة شهدت من أعمال العنف أبشعها ومن صور القسوة أشدها فهى تواجه منطقة البياع التى تخضع لنفوذ فرق الموت والميليشيات فتحولت من منطقة راقية تراود أحلام الجميع للسكن والعيش فيها إلى منطقة تفوح منها رائحة الموت لا يجرؤ كائنا من كان على السير فى شوارعها ولا يحلم أحد بالوصول إليها بعد انتصاف اليوم وفقا لقانون فرضه حكام زمن المذبحة لكنها فى نهاية العام ٢٠١٠ تبدو منطقة هادئة رغم أنها لم تتخلص من الجدران الأسمنتية التى تحيط بها من كل جانب .. شاركت إبراهيم غرفته المتواضعة ليوم كامل لم

تتوقف قفشاته وضحكاته العالية ومناقشاته الجادة فى الأدب والفن والسياسة بـنفس الحيوية التى لم تغادره رغم كل ما غادر جسده من قوة وما أصابه من عجز فى الجزء الأسفل لم يؤثر من قليل أو بعيد على جزئه الأعلى .. يقضى إبراهيم يومه متنقلا بين صفحات الإنترنت والكتب ومحاولة كتابة فيلم وثائقى جديد عن الاتجاه الدينى بالعراق الجديد وهل هو اتجاه سياسى أم دينى أخلاقى وهل هو عراقى خالص أم تدفعه أجندات خارجية .

قال إبراهيم أنه كان يكره صدام حسين بشده ويلعن فترة حكمه التى جرت الويلات على الشعب العراقى إلا أن ما جرى بعد سقوط صدام حسين جعله يعيد النظر فى البديل الذى لم يكن كما أراد هو ومواطنوه وصار التغيير الذى هلل له غالبية العراقيين فرحا أشد وطأة وظلما وتقاعسا عن نصرة المواطن المنكوب فى كل العهود .

ببعض النكات المصرية ودعنى إبراهيم من فوق فراش الألم الذى لا يفارقه إلا قليلا مع ابتسامة لا تغادر وجهه رغم الفاجعة متمنيا أن يزول الوهم ويأتى الحلم منتشيا ليصبح العراق كما أراده دائما لا يهم أن يعيش خلاله بحيوية الشباب وانطلاقته أو يستمر طريح الفراش ..غادرت إبراهيم الكاتب ترافقنى مشاعر متصارعة لا أستطيع التعبير عنها لترسم فى مخيلتى صورا لا تغيب عن شاب مقبل على الحياة رغم كل ما يعانيه يتحدث فى الفكر والثقافة والحكمة .. يحلم أن يغير مجتمعه الذى تغير فعلا ولكنه تغيير لا يروق لمن أرادوه ولا يمد يد المساعدة لمن يحتاجوه .. غادرت إبراهيم لأتقمص حلمه فى أن يعود منطلقا على قدمين ثابتتين يطارد الحقيقة ويمارس عمله الإعلامى مرة أخرى حتى وإن قتلته الرغبة فى كشف الحقيقة هذه المرة حتى لا يبقى ذلك المنسى طريح فراش الألم .

٩ - رائحة الموت

فى كردستان العراق حيث الطبيعة الساحرة والاستقرار الأمنى الملحوظ كل شيىء متاح ومباح إلا شيء واحد هو الاقتراب من المناطق المحظورة خلف الأسوار العالية لقصور الحكم والغرف المحفورة فى غياهب السجون التى لا يعلم أحد من يقيم فيها وإلى أين تمتد إقامته .. لأن الحقيقة تقتل قائلها وكل مقال تصبح قيمته رصاصة واحدة إذا تجاوز صاحبه الحدود المسموح بها فى الإقليم المحكوم بقبضة حديدية تغلفها قشور من الديمقراطية الظاهرية تديرها عائلات بمنطق العشيرة لا الدولة الحديثة .

ورغم أن سردشت عثمان كان يعلم ذلك جيدا إلا أنه قرر أن يخوض غمار

معركة الحقيقة التى تفوح خلالها رائحة الموت وظل يتقدم واثق الخطى حتى لامس تلك الحقيقة التى يغلفها الموت ويمارس طقوسه فى أبشع صورها .

سردشت عثمان الطالب في السنة الرابعة بكلية الآداب كان من المفترض أن ينهي دراسته الجامعية بعد شهر لينال الليسانس من جامعة صلاح الدين والذي يقوم فضلا عن نشر مقالاته التي تنبيء بموهبة صحفية كبيرة بترجمة الموضوعات من اللغة الإنجليزية إلى الكردية جرى اختطافه من داخل جامعته «صلاح الدين» بأربيل، عاصمة إقليم كردستان التي يقال عنها أنها أكثر عواصم العالم أمنًا ! واقتيد من قبل الخاطفين «أمام أنظار الطلاب في الثامنة والنصف صباحا و قبل نصف ساعة من محاضرة كان يتجه لحضورها , وفي صباح اليوم وجدوا جثته ملقاة في المحافظة المجاورة « نينوى » مقيد اليدين والعينين يثقب الرصاص جسده لتنتهى حياته كما أراد نهاية تراجيدية .

قبل أن يرحل سردشت الوسيم النابه كانت رائحة الموت قد اقتربت منه حتى ميزها بدقة وكتب مقالا فى موقع كردستان بوست يوم ٢٠١٠/١/٢١ بعنوان «اول أجراس قتلي دقت»

قال فيه .. في الأيام القليلة الماضية قيل لي انه لم يبق لي في الحياة إلا القليل، و كما قالوا أن فرصة تنفسي الهواء أصبحت معدومة. لكنني لا أبالي بالموت أو التعذيب. سأنتظر حتفي وموعد اللقاء الأخير مع قتلتي. وأدعو أن يعطوني موتا تراجيديا يليق بحياتي التراجيدية. أقول هذا حتى تعلموا كم يعاني شباب هذه البلاد وان الموت هو ابسط اختياراتهم. حتى تعلموا أن الذي يخيفنا هو الاستمرار في الحياة وليس الموت. وهمي الأكبر هو إخوتي الصغار وليس نفسي. ما يقلقني في هذه التهديدات هو أن هناك الكثير الذي لابد أن يقال قبل أن نرحل. مأساة هذه السلطة هي أنها لا تبالي بموت أبنائها.

أمس أخبرت عميد كليتي أنني قبل يوم تعرضت للإهانة والتهديد بالقتل. ولكنه قال لي أن هذه مشكلة تخص البوليس. لا اعلم هل هناك جامعة في العالم يهدد احد تلامذتها بالقتل ثم لا تبالي بذلك وتجلس بكل راحة في صلافتها وانحطاطها؟ كان على عميد كليتي أن يجعل هذه المشكلة تخصه أو تخص الجامعة لأنني جزء منها. لكنني لم اصدم لأنني اعلم منذ وقت طويل أن جامعات هذا البلد ليست بيوت اطمئناننا.

بعد هذا اتصلت بالعميد عبدالخالق مدير البوليس في أربيل. قال لي: «أن رقم التليفون الذي هددك قد يكون من الخارج، أو ربما مشكلة شخصية. قد تتكرر التهديدات لكن مدينة أربيل آمنة ولن تحدث مشاكل من هذا النوع». بابتسامة

ساخرة كنت أتخيل عما إذا كان ساركوزي هو الذي هددني، لكنني كيف أأمن على حياتي واحد أصدقائي تعرض قبل أيام للضرب والإهانة بسبب عدة مقالات نشرها قبل فترة، اجبر على إثرها ترك هذه المدينة؟

فليحدث ما يحدث، لأنني لن اترك هذه المدينة وسأجلس في انتظار موتي. أنا اعلم أن هذا هو أول أجراس الموت، وسيكون في النهاية جرس الموت لشباب هذا الوطن. ولكنني هذه المرة لن اشتكي ولن ابلغ السلطات المسؤولة. أنها خطوة خطوتها بنفسي وأنا بنفسي أتحمل وزرها. لذلك فمنذ الآن فصاعداً أفكر أن الكلمات التي اكتبها هي آخر كلمات حياتي. لهذا سأحاول أن أكون صادقا في أقوالي بقدر صدق السيد المسيح. وأنا سعيد أن لدي دائما ما أقوله وهناك دوما أناس لا يسمعون. ولكننا كلما تهامسنا بدأ القلق يساورهم. إلى أن نبقى أحياء علينا أن نقول الحق. وأينما انتهت حياتي فليضع أصدقائي نقطة السطر، وليبدءوا هم بسطر جديد.

كان سردشت يعلم أنه اقترب كثيراً من قدره المحتوم وأن الأمر مسألة وقت حيث كان قد دق بعنف أبوابا محرمة من خلال مقالين أثارا ضجة كبرى وجلبا عليه الويلات والتهديدات فى مجتمع لا يعرف المداعبة أو «الهزار» كما يقول المصريون .. ولعل قراءة متأنية لمقالات سردشت يمكن أن تؤشر إلى اليد التى أطلقت الرصاص عليه بعد أن أذاقته أشكال التعذيب لتلقى به على قارعة الطريق

**** المقال الأول :**

أنا اعشق بنت مسعود بارزاني

(نشر في ٢٠٠٩/١٢/١٣ في موقع كردستان بوست)

أنا اعشق بنت مسعود بارزاني. هذا الرجل الذي يظهر من شاشة التلفزيون ويقول أنا رئيسك. لكنني أود أن يكون هو (حماي) اي والد زوجتي.، أي أنني أريد أن أكون عديلا لنيجيرفان بارزاني (رئيس حكومة كردستان السابق).. حين أصبح صهرا لبارزاني سيكون شهر عسلنا في باريس، ونزور قصر عمنا لبضعة أيام في أمريكا.. سأنقل بيتي من حيِّنا الفقير في مدينة أربيل إلى مصيف (سري رش) حيث تحرسني ليلا كلاب أمريكا البوليسية وحراس إسرائيليون.

والدي الذي هو من (بيشمركة) أيلول القدامى، والذي يرفض الحزب الديمقراطي الكردستاني إلى اليوم تقديم خدمات التقاعد له بسبب انه ليس ضمن صفوف الحزب في الوقت الحالي، سأجعله وزيرا للبيشمركة.

أخي الذي تخرج من الكلية، وهو الآن عاطل عن العمل ويريد الذهاب إلى الخارج

كلاجئ، ساعينّه كمسؤول لحرسي الخاص. أمّا أختي التي مازالت تستحي أن تذهب إلى السوق عليها أن تسوق افخر السيارات مثل بنات العشيرة البرزانية. و أمي التي تعاني أمراض القلب والسكر وضغط الدم ولا تملك المال للعلاج خارج الوطن، سأجلب لها طبيبين إيطاليين خاصين بها في البيت.. وسأفتح لأعمامي دور ضيافة وأعيّن أبناء عمومتي وأخوالي نقباء و عمداء ألوية في الجيش. لكن أصدقائي يقولون لي «سرو» (تصغير اسم سردشت) دع عنك هذا الأمر فهذه عائلة الملا (يقصد الكاتب عائلة ملا مصطفى البرزاني والد مسعود) ما أن قالوا انتهى أمرك حتى صار قتلك حتمياً.. لكنني لست اكفر.. احلف بمقبض خنجر ملا مصطفى البرزاني أن والدي قضى ثلاثة ليال متوالية في احد الجبال مع إدريس البرزاني ابن الملا.. لذلك فما الضير أن يقول مسعود أنا رئيسكم؟ ولكن فليقل الرئيس كم مرة زار حياً من أحياء أربيل والسليمانية منذ ثمانية عشر عاما وهو رئيسنا؟

ولكن مشكلتي هي أن هذا الرجل عشائري إلى درجة لا يحسب أي حساب لأي رجل خارج حدود مصيف سري رش. بنقرة واحدة في شبكة الانترنيت استطيع أن أجد كل زوجات رؤساء العالم لكنني لا اعرف إلى الآن كيف هي حماتي؟ (يقصد الكاتب زوجة مسعود بارزاني).

لا اعرف اطلب من مَن ليرافقني لطلب الزواج؟

في البداية قلت اصطحب عددا من الملالي والشيوخ المسنين والبيشمركة القدامى بعد التوكل على الله سنتقدم للخطبة في أمسية ما.. لكن صديقا لي وهو صحفي قال لي: (ابحث عن الجحوش والخونة الذين قاموا بعمليات الأنفال واصطحبهم معك لان مسعود بارزاني يحب جدا أمثال هؤلاء).. لكن صديقا آخر قال (إذا تسمع كلامي اقترب من نيجيرفان في مؤتمر صحفي وأهمس في أذنه أنك وراء مهمة خيرية.. أو إذا لم تستطع فاسأل (دشنى-مطرية كوردية على النسق الأوروبي) أن تدبر لك هذا الأمر، فهي تلتقي بهم كثيرا (بعائلة بارزاني).

**** المقال الثاني :**

الرئيس ليس إلهاً ولا ابنته

(نشر في موقع كردستان بوست في ٢٠١٠/١/٢)

هنا بلدٌ لا يسمح لك ان تسأل كم هو مرتب الرئيس الشهري؟ لا يسمح لك أن تسأل الرئيس لماذا أعطيت كل هذه المناصب الحكومية والعسكرية لأبنائك وأحفادك وأقاربك؟ من أين أتى أحفادك بكل هذه الثروة؟ إذا استطاع أحد أن يطرح هذه الأسئلة

فإنه قد اخترق حدود الأمن القومي وعرّض نفسه لرحمة بنادقهم وأقلامهم. وبالنسبة لي بما أنني ذكرت في إحدى مقالاتي بنت الرئيس، فإنني بذلك تجاوزت الخط الأحمر للوطن والأخلاق والأدب الإعلامي.. أن ديمقراطية هذا البلد هي هكذا، ممنوع التعرض إلى اليشماغات الحمراء (تلك التي يضعها رجال عشيرة بارزاني على رؤوسهم) والأعصبة، أن فعلت ذلك فلدى القوم حلول نعرفها جميعا.. لا اعلم هل بنت رئيسنا راهبة لا ينبغي لأحد أن يعشقها، أم أنها مقدسة لا بد أن تبقى أيضا رمزا وطنيا؟

تُرى ما هي مخاطر كتابة كوميدية عن الرئيس؟ جميعنا شاهد فيلم شارلي شابلن الدكتاتور العظيم الذي عرض آلاماً عظيمة عن طريق الكوميديا.

الكثير من الرسائل الإلكترونية التي وصلتني كانت تهددني وتطلب مني أن أنشر صورتي وعنواني، كأنني لو كنت سائق سيارة لم يقف عند الإشارة الحمراء.. لقد بعثت بصورتي إلى هؤلاء الأصدقاء، ولا أعلم ماذا يريدون من صورتي؟

لكن هذه المقالة هي جواب على مقالة احدهم تجرأ أن يكتب مقالة للرد عليَّ، منتحلا اسم فتاة.. قبل كل شئ أبارك له انه تجرأ على أن يرد عليَّ.. ولكن رجائي من هذا الشخص أن لا يعرّفني كنوشيرواني ــ نسبة إلى زعيم حركة التغيير المعارضة نوشيروان مصطفى الذى فاز بالانتخابات فى السليمانية معقل أنصار جلال طالبانى) بل كشاب من شباب هذا البلد.. صحيح أنني أعطيت صوتي لقائمة التغيير في الانتخابات، وكنت من أنصارها الجدّيين واجمع لها الأصوات في المجالس والندوات.. لكن كل هذا كان بدافع مبدأ هو: (أننا رابحون حتى ولو بدلنا الشيطان بتلاميذه). أما أنت – كما الجميع - كنت قد طلبت مني صورتي الشخصية واسمي الحقيقي، كنت أود أن ابعث لك صورتي وكن على يقين أن اسمي ليس مستعارا، ولكنك لم تضع عنوان بريدك الالكتروني في مقالك حتى أبعث لك ما طلبت.. منذ الآن فصاعدا أنا كأي شاب لا مبالي في أزقة وشوارع مدينة أربيل، عاصي عن كل أصنام وتماثيل السلطة، ننتظر مثل النبي إبراهيم الفرصة لنكسرها كلها.. هذا المقال هو جواب على مقالة نشرت في موقع كردستان نت لأحدهم ادعى أن اسمه (أفين) تحت عنوان: جواب لأحد الشاتمين في موقع كردستان بوست.

وتذكر عملية قتل سردشت بعملية مشابهة إلى حد كبير حصلت مع صحفي كردي آخر فى يوليو عام ٢٠٠٨ فعدا المئات من الانتهاكات التي طالت الصحفيين الأكراد في السنوات الماضية والتي تم توثيقها من قبل الجهات المختصة مثل نقابة صحفيي كردستان ومرصد الحريات الصحفية وجمعية الدفاع عن حقوق الصحفيين والتي كانت تتراوح بين الضرب والإهانة والاعتقال ومصادرة وكسر الأجهزة

الصحفية، حصلت حادثة منذ سنتين تم فيها اغتيال الصحفي المستقل «سوران مامة حمة» أما منزله في مدينة كركوك المتنازع عليها والتى يطالب الأكراد بضمها إلى إقليم كردستان بينما يطالب العرب والتركمان ببقائها تحت ولاية الحكومة المركزية العراقية.

وكان «مامة حمة»، البالغ من العمر ٢٣ عاما، مسؤول مكتب مجلة «لفين» السياسية الناقدة في كركوك وتم اغتياله بعد أن كتب عدداً من التحقيقات النقدية التي تكشف فساد مسؤلي الأجهزة الأمنية في المدينة وأغلبيتهم كانوا تابعين لحزب مسعود بارزاني.

وكما قال لي صحفي كردى: «عندما تلامس الحقيقة فى كردستان فإنك تلامس الموت ، ولهذا اعتبرت صحيفة «الجارديان» البريطانية أن اختطاف وقتل الصحفي الكردي سردشت عثمان يطرح «أسئلة صعبة» على حكومة إقليم كردستان .

وقالت الصحيفة: «قد تكون هناك مأساة أخرى إذا وقعت في أي مكان آخر في العراق، ولكن قتل زردشت عثمان (٢٣ عاما) الصحفي المستقل والطالب الجامعي بعد خطفه وتعذيبه، قد شكل صدمة لإقليم كردستان العراق المستقر نسبيا، حيث أن السلطات تقوم بالكثير والمزيد من الإيضاحات حول ذلك.

وأضافت أن «عثمان كان يكتب بشكل مجهول ولكنه كشف عن هويته في وقت لاحق منتقدا السلطات والمحسوبية والفساد الذى يعاني منه إقليم كردستان كما دفعت به الحرية في (الإقليم) إلى نشر عدد من المقالات التحريضية ضد كبار المسؤولين وإهانة الاتحاد الوطني الكردستاني (بزعامة جلال طالباني) والحزب الديمقراطي الكردستاني (بزعامة مسعود بارزاني).

وأشارت «الجارديان» إلى أن عثمان تجاوز الخط الأحمر من المحرمات المحلية عن طريق كتابة رغبته في الزواج من ابنة الرئيس مسعود بارزاني حيث واجه بعد نشر مثل هذه المقالات، التخويف وتلقى تهديدات بالقتل (كما وصفها هو في مقال كتبه في ديسمبر ٢٠٠٩) بعد ثلاثة أشهر انتهت بوفاته، وأن أصابع الاتهام موجهة الآن نحو حكومة إقليم كردستان، وأجهزتها الأمنية، أو على أقل تقدير، جماعة تنتمي إلى واحدة من الكيانات الحاكمة».

وتابعت الصحيفة تقول: «كثيرون يقولون أن مثل هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة. إلا أن عثمان اختطف في وضح النهار من جامعته أمام حراس الأمن المسلحين، حيث تمكن المهاجمون من إلقائه في السيارة وساروا به في مدينة أربيل عاصمة الإقليم المزدحمة بالسكان.

وتستطرد الصحيفة البريطانية «مر الخاطفون عبر عدد لا يحصى من نقاط التفتيش الأمنية ومن ثم تم نقله إلى الأراضي المضطربة والمتنازع عليها في الموصل عاصمة محافظة نينوى حيث ألقوا بجثته في الليلة التالية. ربما يكون سردشت قد مات خلال هذه الرحلة، أو في مدينة الموصل نفسها».

وتابعت الجارديان «يجب أن تكون هناك إجابة مقنعة على الأسئلة التي تدور في أذهان معظم الناس الأولى: من الجهة التى تقف وراء المهاجمين والقادرة على خطف سردشت عثمان بسهولة كما فعلوا؟.. وثانيا، لماذا كان يشكو إلى الشرطة وعميد الجامعة عن التهديدات التي تلقاها ولماذا لم يتابعوا الموضوع؟».

وتتساءل الصحيفة، «بعد أن اختطف عثمان ما هي الخطوات التي لم تتخذها السلطات لاعتراض المهاجمين؟ فليس من المنطق ، بعد اختطافه في رحلة لا تقل عن ثلاث ساعات، أن يمر الخاطفون عبر نقاط التفتيش الأمنية، دون جدال فيها ودون رادع».

وتقول الصحيفة «بعبارة أخرى، على حكومة إقليم كردستان أن تتجاوز مجرد إلقاء اللوم على الأفراد أو كيان معين. بالطبع، يمكن أن تكون هناك أسباب أخرى لقتل سردشت عثمان ولكن هذه لا تبدو معقولة جدا».

وختمت الجارديان تقريرها بالقول أن «عملية قتل سردشت عثمان جريئة جدا، وبالتأكيد، في الظروف العادية، كان يتطلب التخطيط الأكثر تطورا والأكثر دهاء والعناصر المدربة بشكل استثنائي من المهاجمين».

١٠ - لو لم أكن عراقيا

لا تقتصر معاناة الصحفيين والإعلاميين العراقيين على المخاطر المحدقة بهم فى كل وقت وفى أى مكان أو عمليات الاختطاف القتل التى تطالهم تحت أى مسمى وبأى تهمة ولأى سبب معقول أو غير معقول إنما تتجاوز القضية ذلك بكثير فهناك أنواع شتى من القتل لا تقف عند حدود الدم والبارود وأساليب القتل الاعتيادية وهى عمليات القتل المعنوى بإغلاق كافة السبل أمام المبدع الحقيقى وترحيل الفرص التى يجب أن يحصل عليها والمناصب التى يجب أن يحتلها إلى من هم دونه كفاءة وثقافة وإخلاصا ليبقى هو أسير الضياع سعيا وراء لقمة العيش .. ربما يعيد حساباته تجاه سادة العهد الجديد ويخفف من حدة انتقاداته ويروج لأفكارهم وأنماط تعاملهم مع الوطن والمواطنين .. هكذا هي الحياة في العراق ، قد تعيش دهرين ولاتحصل على درهمين.وقد تبدع في عوالم مختلفة ثم تقمع من جميع العوالم لتبقى خارج المنظومة

تصارع الفضاءات المفتوحة لتصل إلى مستويات من الكآبة والشعور بلا جدوى وتصبح انتقاداتك ومنظوماتك القيمية التى تحاول الترويج لها مثل الصراخ فى وادى ويصبح إبداعك ومحاولاتك للتصحيح ما هى إلا مثل «من يؤذن فى مالطا» وهو نوع آخر من الاغتيال والقتل للإعلامى الجاد .

بهذه المقدمة أستطيع تلخيص سيرة حياة الصحفي العراقي هادي جلومرعي المبدع في مجال العمل الصحفي والكتابة والإدارة والتحليل السياسي والدفاع عن الحريات الصحفية الذى عايشته لفترة ليست طويلة في البلد الذي عاش ظروفا وحوادث قلما مرت بها شعوب هذه الأرض وعرفت منه كم هو مستعد للتضحية بنفسه أو أن يعيش الكفاف ليوصل رسالة أو ليعمل بجنب الفقراء والمحرومين وحتى الصحفيين الذين يعانون كثيرا وقد مروا بمتاعب لاتوصف منذ الغزو الأمريكي للعراق في أبريل من العام ٢٠٠٣ حتى الآن ..رسالته واضحة هي أن يقدم شيئا مختلفا حتى لو عانى الكثير وخسر كل شيء فالهدف عند هادي جلو مرعي أن ينجح والغاية بحسب وصفه أن يستمتع بحياة سيغادرها مرغما في يوم ما.

عاش طفولة معذبة بعد وفاة والده وسعت والدته لتربيته مع أخيه الأكبر الذي يعمل الآن رئيس مهندسين في إحدى أفضل الشركات العاملة في العراق.

يقول هادي «كانت والدتي تضع الطعام قبالتنا أنا وأخي ولاتشاركنا خوفا من إلا يكفينا وكانت تفرح حين نكتفي من الطعام حتى كبرنا ونجحنا وصرنا مفخرة لها وهي سعيدة بأن النساء حين يلاقينها يسألنها عنا كثيرا ويهنأنها لتقدمنا ونجاحنا».

كان هادى منذ صغره يعشق الصحافة وكان خاله الأصغر جنديا في الجيش العراقي ويأتيه كل يوم بصحف الصباح وقت المساء وظل يجمعها حتى بلغت من العدد ما لم تطقه الأم التي طلبت إليه أن يترك مكانا لهم لأنه ملأ البيت صحفا لايحصر عددها.

يقول هادى «في واحد من أيام الشتاء قررت أن احرق الصحف المخزنة جميعها وكنت حزينا وقد أحرقت الصحف الرياضية الملونة التي كانت توقد نارا بألوان شتى ثم الصحف السياسية التي كانت بالأسود والأبيض..يوم لا أنساه ».

في الجامعة رافقه الفقر والنجاح والتحدي حتى تخرجه ودخوله إلى عالم الصحافة في آخر أيام حكم صدام حسين وكان يتندر بالقول «أنا لست من أزلام صدام وهي تسمية أطلقت على مجموعات من العراقيين كانت تعمل في الحلقات القريبة من النظام لأنني دخلت الصحافة في الدقائق الأخيرة لمباراة الصراع مع الولايات

المتحدة الأمريكية ».

عمل وباجور متدنية في صحف صدام حتى عام ٢٠٠٣ حيث تغيرت الأمور كثيرا بعد هذا العام وتدفقت أسماء وعناوين فضائيات وصحف وإذاعات ومواقع انترنت وصار العمل في الصحافة متاحا للجميع.

يقول هادي « الصحافة في العراق أصبحت كحديقة حيوان يمكن للجميع الدخول إليها والتفرج على الملاه والألعاب والأشجار والحيوانات دون أن يدفع رسوما مالية..كثرة الصحفيين أدت إلى ضياع معالم الصحافة العراقية واحتجنا لوقت طويل حتى نتمكن من تحديد آليات وأطر عمل منظمة تساعدنا في بناء منظومة إعلامية تتيح للصحفيين أن يكونوا أحراراً لا يرضخون للضغوط وان يتوفر لهم العيش الكريم وقبل هذا أن يكونوا على مستوى متوازن من الحرفة والتأهيل وهي عملية كانت شبه مستحيلة لأن الصحافة وكثرة وسائل الإعلام وتنوع المولين الذين يريدون من الصحفي أن يكون كبوق الفوزفيلا الإفريقي ليطبل ويزمر لهذا الحزب أو ذاك عدا الحاجة إلى منظمات تعنى بالحريات الصحفية أدت جميعها إلى تعقيد الأمور وإرباك العاملين فى الصحافة العراقية وبالتالي ضياع جهود كبيرة ليتم الوصول إلى حال يطمئن إليه هؤلاء الصحفيون ويشعروا معه أنهم أدوا المهمة ».

وبشق الأنفس وصل هادي وزملاء آخرون معه إلى نقطة مهمة للنجاح..وبعد سبع سنوات كانت القنوات الفضائية على مستوى من الأهلية مكنتها من أن تحتل مكانا بين وسائل إعلام مختلفة وظهرت العشرات من الصحف والإذاعات التي تشبه في توجهاتها السياسية والقومية والدينية مجموعات من العصافير التي تعود إلى أعشاشها عند المغرب لتزقزق بأصوات متنوعة.

وفي هذا الوقت كان مرصد الحريات الصحفية الذي يديره هادى وزملاء آخرون قد حصل على جائزة أفضل منظمة في العالم في مجال الدفاع عن الحريات الصحفية لعام ٢٠٠٣ .

كانت الكتابة هما يوميا لمرعي الذي تفوق ليكون الكاتب الأول في العراق حيث ينشر مقالات لاذعة في صحيفة الزمان المعارضة التي توزع في العراق وأوربا .. كانت معرفة هادي بقضايا السياسة أتاحت له أن يلج عالم التحليل السياسي على مختلف القنوات الفضائية المحلية والعربية والأجنبية عدا عن وكالات الأنباء والصحف والإذاعات.

استطاع هادى أن يؤسس لشكل مختلف من أشكال العمل في الدفاع عن الحريات الصحفية ويقول عن عمله كمدير تنفيذي لمرصد الحريات الصحفية «نحن لسنا مركز شرطة إنما جهة ضغط لنخفف من معاناة الصحفيين الذين قتل منهم

العشرات واضطر آخرون للمغادرة ومنهم من أصيب بإعاقات مختلفة ».

كانت الأجواء في العراق صعبة للغاية طوال السنوات التي تلت الدخول الأمريكي وعمت الفوضى التي أصابت قطاعات من الحياة ولم تستثن الصحفيين الذين اكتووا بنار العنف الطائفي والعرقي ودفعوا أثمان باهظة لعملهم في الصحافة.

وسط كل هذا الركام كان هادي مرعي يعمل بصمت وفي صخب أحيانا حتى صنع لنفسه حضورا لافتا يغبطه عليه الأصدقاء ويحسده الذين كانت الغيرة تنهش نفوسهم وصار يظهر على مختلف وسائل الإعلام ويشارك في مؤتمرات عالمية وسياسية والتقى بمختلف القادة العراقيين والأجانب وزار العديد من دول العالم.

يتذكر هادي كيف كان العمل في السنين الأولى للدخول الأمريكي وكيف كان يمر قريبا من أماكن الانفجارات التي تهز بغداد يوميا ويرى جثث الناس في الشارع لكنه قرر أن يستمر حتى تنجلي العاصفة أو يموت أو يصاب لكنه بسبع أرواح كما يقول لذلك مرت العاصفة ومازال حيا لم يصب بأذى ويشبه ذلك بحاله في الجامعة عندما كان لا يمتلك المال الكافي ليدرس بشكل جيد ويدفع تكاليف الدراسة الجامعية وبرغم ذلك عاهد نفسه أن ينجح على الدوام لكي لا يضطر إلى دفع تكاليف إضافية.

هادى جلو مرعى الذى يمارس كل أنواع وأشكال العمل الإعلامى مازال يحلم أن يمتلك بيتا مستقلا ويأكل عشاء كاملا ويستقل وسيلة نقل مريحة يستطيع فقط دفع تكاليفها ليتمكن من الانتقال إلى ميادين تطليه دفاعا عن الصحفيين وتوثيقا لحالات الاعتداء عليهم .. أمنيات شديدة البساطة يمتلك أضعافها من لا يملك موهبة حقيقية بالعراق الجديد وإنما أتاحتها له ولاءات وانتماءات .. بينما يبقى هذا المبدع الذى يمتلك الكثير من الإمكانيات والأدوات عاجزا عن تحقيق تلك المطالب الطبيعية البسيطة التى صارت حلما فى بلد يعوم على بحار من النفط ويستحق من هم دون هادى جلو مرعى أن يتحقق حلمهم فى امتلاك بيت وامتلاك قوت يوم واحد دون عناء .

حلم آخر غير امتلاك بيت وقوت يوم كامل يراوغ هادى هو زيارة مصر التي يقول عنها» أن طباع أهلها تشبه طباع العراقيين فهم طيبون ومحبون وودودون وليس الغدر من شيمتهم ولو لم أكن عراقيا لتمنيت أن أكون مصريا ».

ويضيف « إذا كان معقولا إلا أمتلك بيتا فى بلدى العائمة على بحور النفط فهل يعقل أن ازور دولا عربية عدة وإسلامية وأوربية وحتى كندا وأمريكا ولا أتمكن من زيارة مصر؟؟ !!

١١ - تحية الوداع

وفي نهاية كلّ يوم

ينعب ؛ في خرائب روحنا ؛ البوم

فنمرّ على بنادق القناصة

ونكتب اسمنا على رصاصة

عندما كنت ألملم أوراقى لمغادرة العراق فى مهمتى الأولى يوم ١٨ مارس ٢٠٠٣ جاءنى صوت أطوار بهجت رحمها الله نقيا كما اعتدت خاليا من الوحشة تقول « اعذرنى محمود لأنى لم أحضر للسلام عليك قبل سفرك إلى مصر لأننى لا أجيد تحية الوداع » وعدت إلى مصر دون أودع أطوار تلك الصديقة التى تفيض أصالة ومروءة .. الرائعة فى كل شيء.. بعد هذا التاريخ بحوالى ثلاث سنوات وعندما كنت أستعد للعودة إلى بغداد لأبدأ مهمة جديدة كان خبر اختطاف وقتل أطوار قد سوّد كل شاشات وصفحات الجرائد فى العالم ليدشن مرحلة من الجنون أطلقت شهوة القتل لتحرق الأخضر واليابس وتجعل الموت مبتزلا من كثرة الاستعمال يلوح فى كل وقت للعابرين أو المرابطين فى انتظار أقدارهم .. إلا أن موت أطوار لم يكن مثل غيره ورحيلها لم يكن رحيلا عاديا .. لم يكن لموتها حرمة ولم يكن لجسدها المثخن بطعنات الفراق والفقد والألم حظوة الدفن الهادئ بعد العثور عليها وقد ثقب جسدها الرصاص ملقاة على قارعة الطريق ليبدأ المشيعون رحلة من الرعب لمواراة الجثمان فى مستقره الأخير .. رحلت أطوار هذه المرة قبل أن تلقى تحية الوداع الأخيرة على أى من أهلها أو أصدقائها حتى أنها لم تستكمل تحضيرات زفافها الذي كان مرتقبا فهى كما كانت تقول دائما « لا تجيد تحية الوداع » .

توفي والد أطوار وهي في الـ ١٦من عمرها ، وكان مديرا لإحدى المدارس في سامراء، لتتكفل بمعيشة أمها وأختها الوحيدة (إيثار)، التي ما تزال طفلة صغيرة بعد.

عملت أطوار بعد تخرجها في الجامعة، في عدة صحف ومجلات ، قبل أن تنتقل إلى قناة «العراق» الفضائية كمذيعة ومقدمة برامج ثقافية، بحكم موهبتها الشعرية التى أفرزت ديوانا يتيما عنوانه « غوايات البنفسج »، وبعد احتلال العراق، عملت فى قناة الجزيرة، قبل أن تنتقل قبل ٣ أسابيع من استشهادها في مكتب قناة «العربية» بالعراق.

اضطرت أطوار للانتقال مع أسرتها الصغيرة من سامراء إلى بغداد من أجل العمل

حيث استقرت بعض الوقت في منطقة العامرية غربي بغداد التى كانت ساحة حرب شديدة الخطورة وبهذا لم تتمكن من العيش طويلا هناك نظرا للاضطرابات الأمنية وانتقلت إلى منطقة الحارثية وسط العاصمة وذلك حفاظا على أمها وشقيقتها الصغيرة، لكنها لم تكن تخشى شيئا فيما يتعلق بحياتها هي بعد أن تحولت شاعرة الحب الرقيقة إلى مقاتلة سلاحها الميكروفون والشاشة الفضية وكانت تتحمس للذهاب إلى أكثر الأماكن خطورة دون أى مبالاة بالتهديدات الجدية المحيطة بحياتها والتى كانت تتلقاها بشكل مباشر وغير مباشر كلما اقتربت من مناطق محظورة وهى كثيرة فى زمن المذبحة .

قبل أن تتوجه أطوار إلى سامراء فى رحلتها الأخيرة إلى الحقيقة والتى كانت خاتمة عملها في حقل الإعلام، ونقطة النهاية لحياتها قامت أطوار بتسجيل حلقات لبرنامج «مهمة خاصة» الذي تبثه قناة «العربية» عن الأوضاع فى كركوك تلك المدينة العائمة على بحيرة من النفط والتى كانت وستظل حلقة مؤجلة فى مسلسل الصراعات الذى لا ينتهى بالعراق ولأن المدينة لم تكن آمنة تماما، كانت تضطر طوال ٣ أيام إلى المبيت في السليمانية العاصمة الإقتصادية والسياحية لإقليم كردستان العراق والتى تحظى بأمان كبير ، والتوجه صباحا إلى كركوك.

كانت أطوار وكل من يعمل فى حقل الإعلام يعلم أن الداخل إلى سامراء غير مقرر له الخروج منها ولهذا طلب منها الزملاء في مكتب العربية ببغداد التروى قبل تنفيذ قرارها بالذهاب إلى هناك خاصة بعد تفجير القبة الذهبية للمرقدين المقدسين لدى الشيعة وما يعنيه ذلك من مخاطر تقود إلى الموت فى أفضل الأحوال لأى إعلامى يحاول سبر أغوار حقيقة ما حدث وهى الحقيقة التى ستظل غائبة طويلا ، ردت عليهم «نحن عراقيون ولابد أن نتحمل مسؤولية نقل صوت العراقيين إلى العالم».

ذهبت أطوار رغم كل التحذيرات لأنه لا شيء فى الدنيا يمكنه أن يعيق باحثا عن الحقيقة من التوجه إلى ساحة المخاطر رغم علمه بأن القتل ربما يكون أقل ثمن للبحث عن تلك الحقيقة خاصة فى بلد مثل العراق فى زمن المذبحة .

لم تستطع أطوار الدخول إلى المدينة المشتعلة ، توقفت على الأبواب وتلت آخر رسالة عبر الشاشة يوم ٢٠٠٦/٢/٢٢ قالت أطوار « ما زالت مشارف المدينة مغلقة نحن الآن عند المدخل الشمالي لمدينة سامراء من خلف، المدخل ما زال مغلقاً وعدد من الأهالي الذين تركوها في الصباح قبل الحادث موجودون معنا الآن، لم يستطيعوا الدخول إلى المدينة، من داخل المدينة الأنباء المتواترة أشارت بالفعل إلى اعتقال عدد من الأشخاص».

وبعد أن ظهرت على شاشة العربية لآخر مرة لتقول كلمتها فيما جـرى ويجـرى بالعراق لم تسلك أطوار طريق العودة كالمعتاد ولكنها سلكت طريقاً آخـر بعـد أن أجبرها قاتلوها على تغيير طريقها المعتاد ليذهبوا بها إلى حيث لن تعود أبدا .. حيـث كانت الساعة تشير إلى حوالي ٦:٣٠ مساء بتوقيت بغداد حين علم أعضاء مكتب قنـاة «العربية» في بغداد نبأ اختطافها مع زميلين آخرين هما المصور عدنان عبد الله ومهندس الصوت خالد محسن في سامراء التي كانت تتهيأ لتضع العراق علـى أعتـاب حـرب طائفية يتم فيها قتل المواطنين بالوكالة وتتصارع فيها الميليشيات وفرق الموت لكنهـا لا توجه أبداً السلاح إلى بعضها وإنما إلى المواطن العراقي المنكوب حتى احترقت أنامل المودة بين الجميع وصارت الفرقة والدم والكراهية عناوين ثابتة يساق إليها الضحايا بلا ثمـن وبلا سبب معقول بعد أن بات الموت قدراً في بلد صار «مقبرة مفتوحة» في زمن المذبحة .

بدم بارد تم قتل أطوار بهجت ورفيقيها وإلقاء الجثث على قارعة الطريق رغم كل الإتصالات التي جرت بعد إختطافهم في محاولة لإنقاذهما من المصـير المحتـوم لأن قرار الإعدام كان قد صدر من جهات لا تقيم وزنا للمشاعر أو البطولة أو الأخـلاق أو أي من القيم التي أصدر حكام زمن المذبحة فرمانا بتغييبها إلى حين .

ولم يتوقف الأمر عند قتل الشهيدة أطوار بدم بارد وإنما تتبـع القتلـة الموكـب الجنائزي بمن فيه ليستمروا في الإنتقام تارة بالهجوم المسلح على الموكب وتارة أخرة بسيارة مفخخة وضعت على جانب الطريق الذي سلكه المشيعون .

ويقول الزميل الإعلامي ضياء الناصري الذي رافق جنازة أطوار بهجـت أنهـا لم تقتل لشخصها، ولم تنتهِ المهمة عند مقتلها، بل حتى الجنازة والمعزين فيها لم يكونـوا بمنأىً عن دائرة الخطر، فأكثر من ١٠٠ صحفي تحدوا خطر القتـل أو الخطـف أو عدم العودة ليشاركوا في جنازتها، في يوم حظرٍ كاملٍ للتجوال، لكن يداً غادرةً آثمـةً كانت أيضاً بالمرصاد، وحتى وصول المزيد من العسكريين لم يحسم المعركـة الـتي لم يكونوا فيها هم هدفاً ولا طرفاً بل الصحفيون لوحدهم هم الهدف، وساطاتٌ من أعلى المستويات ومن كافة الأطراف وبعد عدة ساعاتٍ من القتال سمح للجنـازة بسـلوك طريقها إلى مقبرة الكرخ بالعاصمة بغداد ، بعد أن توقفت في منطقة خان ضـاري في أبو غريب على بعد ٢٠ كم غربي بغداد وهي مقر الشيخ حارث الضاري رئـيس هيئـة علماء المسلمين ، لكن الهدنة كانت فقط لتجهيز سيارة مفخخة وضعت على جانـب الطريق للإجهاز على باقي الصحفيين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم اسـتنجدوا مـن شرور القتلة.

«حماة الإعلاميين في ذلك اليوم وحدهم هم من دفعوا الثمن، واستشـهد مـنهم

أربعة فيما جرح ستة، لكن مسيرة الصحافة وحملة راية الإعلام أكملت طريقها، قتل كثيرون من الصحفيين لكن مسيرتهم لم تتوقف، ومن يتهيب صعود الجبال يعيش أبدا الدهر بين الحفر.

في قصيدتها "اعتذار" تنبأت أطوار التى لا تجيد تحية الوداع بالنهاية المفزعة حين قالت.

نبوءة من ألف جرح..
كنت أدري بأنك الموتُ
من ألف جرح..
والسوء آتٍ

لم تكن أطوار الأولى ولا الأخيرة من مذيعى قناة العربية التى يصدر القرار بتغييبها ويتم تنفيذه بدقة متناهية حيث سار على طريق الموت قبلها الشاب الطيب علي الخطيب وكذلك علي عبد العزيز على يد القوات الأمريكية ثم المصور مازن الطميزي ، كما تعرض كاظم جواد لمحاولة اغتيال وصل فيها إلى أعتاب الموت وكما يقول دائما « عايشت لحظات الموت بكل تفاصيلها »، ورغم ما أصيب به من عجز جسدى إلا أنه هذا العجز لم يتسلل إلى إرادته ولم يطفىء وهج وجهه المشرق الذى يطالعنا به عبر شاشة العربية من وقت إلى آخر ، كما تعرض مكتب القناة في بغداد لعمليتى تفجير قضى خلالهما عدد من العاملين في المكتب كان آخرهما التفجير الذى أثار جدلا واسعا فى يوليو عام ٢٠١٠ عندما تمكن انتحارى يستقل سيارة مفخخة من اختراق كل الحواجز والتحصينات وأن ينفذ من الإجراءات الأمنية المشددة ونقاط التفتيش المتحفزة دائما التى تحيط بمقر مكتب العربية فى منطقة الحارثية بجوار منزل نائب رئيس الوزراء العراقى السابق الدكتور سلام الزوبعى الذى يحظى بحماية فائقة ليفجر سيارته المحملة بحوالى ١٣٠ كم من المواد شديدة الانفجار ويدمر المبنى وعدد من المبانى المجاورة ليكرس مفهوما ساد فى زمن المذبحة وهو أنه « لا حصانة لأحد » بعد أن حل رصاص الغزو والعتمة محل نخيل وبنفسج العراق .

١٢ - البطولة الزائفة

فى الوقت الذى كان يحتفل الرئيس الأمريكى جورج بوش بما اعتبره الانتصار الأخير لإدارته قبل أن تحمل عصاها وترحل حمل له هذا الاحتفال مفاجأة من العيار

الثقيل تناقلتها وسائل الإعلام فى العالم كمشهد كوميدى لم ولن يتكرر.

كانت المفاجأة هى فردتى حذاء قذفهما صحفى عراقى فى وجه الرئيس بوش الذى نجح فى تفاديهما مع عبارات حادة قال الصحفى أنها قبلة الوداع لبوش المنتصر حيث كانت تلك الحادثة بالغة الدلالة على شعور عراقى يحمله قطاع كبير يمثله هذا الصحفى بما تسبب فيه بوش من آلام للشعب العراقى نتيجة الاحتلال رغم أن بوش اعتبر هذا الحادث الطريف المحرج تحولا يكرس لمبدأ يرى أنه أرساه فى العراق وهو الديمقراطية باعتبار أن هذا الصحفى فعل ذلك دون أن يخشى على حياته كما كان يحدث ابان عهد صدام حسين وهو أن يكون جزاؤه القتل والتنكيل مع أفراد عائلته وربما عشيرته .

تم تقديم الصحفى إلى المحاكمة وهو ما اعتبره أيضا رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى سلوكا ديمقراطيا فى العراق الجديد الذى تتم فيه محاسبة من يخطىء على قدر الخطأ دون التجاوز على حياته .

الا أن هذا الحادث والطريقة التى جرى التعامل مع منفذه إعلاميا وشعبيا شابها الكثير من اللغط وربما تجاوزت حدود الفعل نفسه ومنحته ما لا يستحق .. كرست صاحبه كبطل قومى ألحق العار بأمريكا الإمبريالية باعتبار أنه انتصر لضحايا الاحتلال الأمريكى بالعراق .. ورد ضربات أمريكا الإمبريالية للعالم الإسلامى والعربى .. كما اعتبر آخرون هذا التصرف ردا على مجازر ترتكبها إسرائيل يوميا بحق الفلسطينيين .. وذهب آخرون إلى أحقية هذا الصحفى فى قيادة وحكم بلده باعتباره بطلا وقف ضد رئيس أكبر دولة فى العالم .. بينما رقص آخرون فرحاً وفخرا ببطل العرب رغم أن ما ارتكبه فى العرف العشائرى والصحفى يعتبر سلوكا مخلا بالأخلاق ولا يجب ابدا اعتباره مفخرة وطنية وقومية يحتفل لها الشارع العربي.

ورأى أغلب الصحفيين الذين التقيتهم واستطلعت رأيهم فيما حدث أن ما قام به الصحفي ، مراسل الفضائية البغدادية، في المؤتمر الصحفي الذي حضره الرئيس الأمريكي بوش، ورئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، مساء الأحد ٢٠٠٨/١٢/١٤ ، برمي الحذاء نحوهما، هو سلوك لا تبرير له .. فأخلاق الحذاء أو «القنادر، بلهجة العراقيين» لا يجب أن تكون جزءً من السلوك الذى يجب انتهاجه في السياسة والثقافة العراقية.

ورأى صحفيون عراقيون أن سلوك الحذاء ليس له جذور في التراث السياسي الحديث، وإنما هى سلوكيات فردية بدأت في العهد الملكي عندما ردد الشيوعيون

أهزوجة (نوري السعيد القندرة، صالح جبر قيطانه)، وتعنى أن نورى السعيد حذاء وصالح جبر رباطها مروراً بنعل أبي تحسين وهو يضرب به رأس تمثال صدام حسين بعد سقوطه في ساحة الفردوس في بغداد يوم ٢٠٠٣/٤/٩ و كذلك عندما استقبل أتباع التيار الصدري رئيس الوزراء العراقي الأسبق الدكتور أياد علاوي بوابل من الأحذية عند زيارته للضريح الحيدري في النجف الأشرف عام ٢٠٠٥ بعد أن خاض هجوما ضد جيش المهدى الذى احتمى بالضريح المقدس مدعوما بالقوات الأمريكية ثم أكد هذا السلوك الدكتور محمود المشهداني، رئيس البرلمان العراقي، عندما علق على قول لم يعجبه من أحد النواب وتحت قبة البرلمان الذى كان يرأسه وأجبرته القوى السياسية على الاستقالة من منصبه بأنه ليس لديه إلا « القندره» للرد .

والمثير فى الأمر أن الصحفى المغمور يصبح أشهر من نار على علَمْ في ساعات قلائل، وبطلاً من أبطال العروبة نظرا لما ناله من إعجاب عربي وتأييد جماهيري، وحتى في أوساط بعض المثقفين مع الأسف رغم أنه سلوك فردى .

ويقول الكاتب عزيز الحاج في مقال له بعنوان : «العراق هو الذي أهين، لا شخص بوش» / هذا السلوك أضر بسمعة الشعب العراقي ووجه إهانة إلى الدولة العراقية أكثر مما أساء إلى الرئيس بوش الضيف على العراق والعرب يتبجحون بإكرام الضيف،/الطريف والغريب فى الأمر أنه بعد وقوع الحادث، بثت فضائية البغدادية التي يعمل لصالحها هذا الصحفي بياناً «ثورياً» أعادت قراءته عدة مرات، مصحوباً بأناشيد «ثورية» لتلهب حماس الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج، والأغرب من ذلك أن اعتبر بيان الفضائية هذه الممارسة مظهراً من مظاهر حرية التعبير، ليرافقه سيل عارم من المقالات لكتاب عراقيين وعرب، فرحين جذلين، وشامتين، يصفون هذا الصحفي بالبطل، وأن ما قام به يعد نصراً مبينا للأمة العربية والإسلامية .

إضافة إلى ذلك خرجت مظاهرات صاخبة في بغداد من التيار الصدري يتقدمها العشرات من المعممين، رافعين الأحذية كرمز نضالي لهم تأييداً «للبطل» الصحفي .. كما تواترت أخبار تفيد بتبرع عدد من الأثرياء العرب بملايين الدولارات لهذا الصحفي، وعائلته .

ولعل السبب الرئيسى فى اعتراضى على هذا السلوك وهو ما وافقنى فيه المئات من الصحفيين العراقيين هو أنه في جميع الأعراف تعتبر مهمة الصحفي هي البحث عن الحقيقة ونشرها على الناس، وأداته الكلمة وليس الحذاء أيا كان من وجهت له الضربة وهو ما ذهب إليه الكاتب المخضرم مالوم أبو رغيف عندما تساءل فى مقال له «هل أصبح الحذاء كلمة؟».

وأود هنا أن أشير إلى كلمة هامة قالها الرئيس المنصرم بوش تعليقا على الواقعة عندما قال (هذا دليل الحرية) أى أن الحذاء الطائش الذى منح صاحبه بطولة وهمية منح لبوش الفخر ليقول أنه منح العراقيين الحرية وكلنا يعلم كم دفع العراقيون من ثمن لحرية بوش .

ويقول الكاتب الساخر، سامي البحيري في مقال له في موقع صحيفة إيلاف الإليكترونية واسعة الانتشار (أنا أسأل المواطنين العراقيين الكرام والذين عاصروا «العهد الذهبى» لصدام حسين، تخيلوا معى أن الرئيس العراقى كان يدير مؤتمرا صحفيا بحضور الرئيس الروسى «بوتين» وقام صحفي بإلقاء فردتي حذاء على الرئيس بوتين، فماذا كان سيفعل به صدام حسين؟ والجواب معروف.) من هنا نعرف معنى الحكمة القائلة (من أمن العقاب أساء الأدب).

حقائق واقعة الحذاء

رغم أننى لا تربطنى أى علاقة بالحادث من قريب أو بعيد إلا أن فضولي الصحفى جعلنى أتقصى حقيقة ما حدث من عدة مصادر سواء مقربين من بطل واقعة الحذاء أو صحفيين حضروا المؤتمر الصحفى الذى شهد الواقعة أو غير ذلك من المصادر التى أكدت فى مجملها أن فى الواقعة شيىء غامض فسره كم الأكاذيب التى عاصرت الواقعة حول تعرض الصحفى صاحب الحذاء إلى ضرب مميت بالقضبان الحديدية وكابلات الكهرباء وغير ذلك من أدوات التعذيب التى لو صحت لاستمر أثرها بادياً على جسده سنوات طويلة ولكانت صحته قد تأثرت تأثيراً قد يكون مدمراً بسببها .

قال لي صديقى خالد الأنصارى الذى يعمل لحساب وكالة رويترز أنه حضر بعض جلسات التحقيق مع راشق الحذاء كانت إحداها الجلسة التى عقدت يوم الخميس ١٩ فبراير عام ٢٠٠٩ والتى واجه فيها القاضى الصحفي العراقي الذي رشق بوش بفردتي حذائه بقرص مدمج يتدرب فيه على إلقاء الحذاء وهو ما يؤشر إلى وجود جهة ما تقف وراء هذا السلوك بل وتدعمه إلا أن راشق الحذاء اعترف بأنه صور نفسه وهو يتدرب على رشق بوش بالحذاء وإن ابتسامة بوش « الباردة» أثارت حنقه.

وقال أمام لجنة مكونة من ثلاثة قضاة و٢٥ محاميا توافدوا للدفاع عنه إنه اعترف بتصوير شريط الفيديو لتدربه على قذف الحذاء أثناء التحقيق معه بعد اعتقاله في المؤتمر الصحفي ببغداد أمام حرس رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بعدما تعرض للضرب وبعدما تعرض جسده لصدمات بالكهرباء. وأشار إلى أنه كان يخطط في

الأصل إلى قذف بوش بالحذاء أثناء مؤتمر صحفي في العاصمة الأردنية عمان .. لكنه أصر على أنه لم يخطط للهجوم على بوش فى تلك المرة إلا أن المتتبع لوقائع يوم «واقعة الحذاء» يمكنه أن يدرك بوضوح أن الأمر تم التخطيط له بعناية حيث حضر راشق الحذاء متأخرا عن موعد دخول الصحفيين إلى قاعة المؤتمر الصحفى وتمكن من الدخول إلى القاعة رغم أنه لم يكن مسجلا .. حيث كان لكل فضائية مراسل ومصور يمكنهما الدخول وتغطية المؤتمر الصحفى لرئيس الولايات المتحدة وبالفعل كان المصور والصحفى اللذين تم تكليفهما من قبل الفضائية التى يعمل بها حاضرين فى القاعة ورغم ذلك تمكن من الدخول وهو ما يؤشر إلى وجود من سهل له الالتحاق بكوكبة الإعلاميين الذين حضروا المؤتمر الصحفى .

ولعلنا نذكر كيف برز اسم راشق الحذاء للمرة الأولى عندما تعرض لعملية اختطاف عجيبة على أيدي مجهولين أثناء توجهه إلى مقر عمله في السادس عشر من نوفمبر عام ٢٠٠٧ غير أنه وبعد ثلاثة أيام من الاختطاف، أطلق الخاطفون سراحه دون مقابل مادي أو فدية أو حتى دون أن يتعرض لأى إيذاء رغم أن تلك الفترة من زمن المذبحة كانت لا تترك مجالا للرحمة لمن يتم اختطافه خاصة إذا كان صحفيا وهو ما جعل الكثير من زملائه الإعلاميين حتى داخل الفضائية التى يعمل بها يؤكدون أن عملية الاختطاف هذه كانت مفبركة وصاروا يتهامسون فيما بينهم عن العملية الوهمية التى جلبت المزيد من الشهرة للصحفى المغمور .. حيث خصصت محطة «البغدادية» التي يعمل بها خلال عملية اختطافه العجيبة برنامجاً من ساعتين فى ١٨نوفمبر، وفق موقع مراسلون بلا حدود.

ورغم البطولة التى أظهرها راشق الحذاء أمام الكاميرات وما خرج من تصريحات نارية عبر أشقائه الذين برزوا كنجوم ومصادر لكبريات الصحف والفضائيات واكبها حملة شبه منظمة لصناعة بطل وهمى أعلن راشق الحذاء أسفه بعد حوالي عام على الواقعة لكون الشهرة التي اكتسبها منذ أن رشق الرئيس الأمريكي جورج بوش بالحذاء لم تجلب له المال والغنى كما كان يتوقع؛ بل بقيت أحواله المادية على ما كانت عليه، موجهاً اللوم لوسائل الإعلام التي اتهمها بـ«تشجيعه».

وقال في حديثه لصحيفة «الأويزرفر» البريطانية نشر يوم الأحد ٢٠-١٢-٢٠٠٩، أن أسفه الوحيد بعد أن أمضى ٩ أشهر في السجن هو «بقاؤه فقيراً» .. وقال «إنني ألوم وسائل الإعلام لأنها قالت إني سأصبح غنياً لفعل ما فعلته، وسأصبح مليونيراً».

وأضاف أن «كل وعود الهدايا التي سمعتها عندما كنت في السجن كانت فارغة تماماً. والهدية الوحيدة التي تلقيتها منذ الإفراج عني هي حذاء ذهبي أعطي لي

كجائزة «رجل العام» من التلفزيون الكندي».

وأكد إنه يسعى الآن لجمع أموال لفتح دار للأيتام، التي ستتكفل أيضاً بتلبية احتياجات النساء اللواتي ترمّلن نتيجة الحرب وأنه سيعود إلى بلاده عندما يجد الدعم لمؤسسته لمساعدة الأيتام والأرامل كما كان قد وعد لأن الكل ينتظره .

• حذاء بحذاء

وسط تجمع نظمه البعثيون في باريس رشق الصحفي العراقي سيف الخياط اللاجئ السياسي في عاصمة النور راشق الحذاء الذى كان يقوم بجولة أوربية وعربية شملت العاصمة الفرنسية بالحذاء ، وكان منتظر راشق الأحذية يحاضر في نادي الصحافة العربية في باريس فقال له الخياط بصوت «لقد جلبت العار للصحفيين العراقيين والعرب وجعلتنا نكسر أقلامنا ونرفع الأحذية، وان كانت لديك نوايا صادقة كان الأولى أن ترشق نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي الذي يعمل على عودة الاستبداد وليس جورج بوش ».

وأضاف الخياط «أن العراق رسميا وقانونيا ذو سلطة وسيادة حسب قرارات مجلس الأمن وان الفشل الذي يمر به العراق هو بسبب قادته السياسيين وليس نتيجة عملية حرب العراق التي قادتها الولايات المتحدة».

ومع اعتراضنا الشديد على ثقافة الحذاء التى تعد مظهراً بعيداً كل البعد عن التحضر والحوار الذى أمر به ديننا الحنيف .. إلا أن القضية الرئيسية هى سوء التقدير والفهم لبعض السلوكيات التى تصنع أبطالا وهميين سرعان ما يتواروا عن الأنظار ويسقطوا فى زوايا النسيان عندما تنكشف زيف الادعاءات .. فرغم مرور حوالى عامين على واقعة الحذاء لم يحدث ما روج له راشق الحذاء بشأن وجود مخططات من جانب جهاز المخابرات الأمريكى « سى آى إيه» وغيره من الأجهزة الإمبريالية لتصفيته وتسقيطه سياسيا واجتماعيا لأنه سقط فعلا من الذاكرة ليذهب إلى زوايا النسيان وظل رمزا فكاهياً يتندر به الناس عند ذكر الواقعة لأنه لا يمكن أن يستمر رمزا للبطولة كما صوره البعض لأن السلوك الذى جاء به وما تلاه من توصيفات خيالية مردها حالة الإحباط العربى العام لا يعدو أن يكون بطولة زائفة ترجمت فى ألعاب « الفيديو جيم» التى يستمتع الأطفال بلعبها كما يستمتع الناس بالضحك عند ذكر الواقعة «الفضيحة» .



الفصل السادس

عام
الأيام الدموية



١ - عودة الدم

حمل عام ٢٠٠٨ عصاه الغليظة ورحل بعد أن رسم صورة يظهر فيها الأمل على استحياء تبشر بعودة شبه طبيعية للحياة خاصة مع ما حملته نتائج انتخابات مجالس المحافظات « الانتخابات المحلية التى جرت بداية العام ٢٠٠٩ من نتائج مبشرة بانتهاء عهد الأحزاب الدينية وخفوت نجم الخطاب الطائفى ، ورغم اتجاه الأوضاع الأمنية إلى الاستقرار النسبى وعودة الحياة إلى طبيعتها بشكل كبير بما يؤشر إلى انتهاء عصر ممالك الخوف وزمن فرق الموت التى سادت أيام المذبحة .. إلا أن هذا العام شهد هجمات دموية أعادت للاذهان ذكريات غلفها اللون الأسود وخضبتها الدماء وهو ما أدار دفة الاستقرار باتجاه عكسى وتراجع صناع النصر على زمن المذبحة عن الاحتفال بانتصاراتهم التى كانت قد بدأت بالظهور برفع الكتل الأسمنتية التى تحيط بشوارع العاصمة بغداد وتغلق أكثر من ٦٠ ٪ منها لتستحيل حياة سكانها جحيما وتتقطع السبل بهم مرات ومرات خاصة أولئك الذين كانوا يمتلكون محال تجارية ومعامل ومصالح ومقاهى تعذر الوصول إليها بسبب إغلاق كافة الطرق المؤدية منها واليها .

بدت الأمور للمراقب وحتى المواطن العادى أن هناك من يريد إكمال الطريق الذى بدأ والإجهاز تماما على زمن المذبحة .. بينما يقف له بالمرصاد من يريد إعادة أيام المذبحة أو على أقل تقدير ابطاء الخطى نحو تحقيق الاستقرار ليبقى الاستقرار المتحقق هشا سائبا يذوب بفعل نيران مشتعلة تسببها الانفجارات والهجمات المسلحة .. بدا رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى الذى نسبت إليه الانتصارات على كل من حمل سلاحا موازيا للدولة خاصة جيش المهدى منتشيا بالنصر ويخطو خطوات واثقة دعمتها الانتصارات المبهرة التى حققها ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه فى الانتخابات المحلية والتى اعتبرها تخويلا من الشعب بإكمال السير قدما نحو إنهاء زمن الفوضى المنظمة وإيقاف أنهار الدماء التى سالت وطمس معالم زمن الخوف ليذهب دخان التفجيرات بعيداً بعد أن أحرق الأخضر واليابس .. إلا أن هذا التوجه اصطدام فيما يبدو ببقايا سلاطين الخوف والقهر وحكام زمن المذبحة الذين اعتبروا ذلك تمرداً عليهم قاهراً لسلطتهم التى أرادوها فوق سلطة الدولة .. تتعدد العناوين والأسماء لتلك الجهات والقوى الداخلية والخارجية التى حالت دون إحراز المزيد من التقدم على الصعيد الأمنى خاصة مع بدء سريان الاتفاقية الأمنية .. إلا أن الهدف كان واحداً هو وقف تحسن الأوضاع وإظهار الأنياب

السوداء بين الحين والآخر حتى يظل الشعب العراقى رهينة للخوف ويبقى المالكى وأركان حكومته متحفزا دائما ربما يجافيه النوم أياما تحت وطأة الضربات الموجعة التى شهدها عام ٢٠٠٩ وهو عام الأيام الدموية بامتياز .

وإذا كانت الهجمات خاصة التفجيرات الكبرى قد انخفضت وتيرتها وتراجعت أعمال العنف إلى معدلات تصل إلى ٨٠ ٪ إلا أن كل شهر من شهور العام ٢٠٠٩ كان يخبىء يوما دمويا حارقا يحد من انطلاق العراقيين وخاصة سكان بغداد نحو ممارسة حياتهم بشكل طبيعى لتعود المخاوف وتسيطر على مشاعرهم وتخفف الهواجس من شعورهم بالأمن المفقود وسوف أقدم سردا بسيطا لأشد التفجيرات التى شهدها العام ٢٠٠٩ باعتبارها سهلة الحصر أما أعمال العنف المنظمة فمن الصعوبة بمكان حصرها مثل الاغتيالات بالطلقات كاتمة الصوت والقتل بتفجيرت العبوات اللاصقة التى زاد استخدامها اعتبارا من عام ٢٠٠٩ وهى عبوات تشير أصابع الاتهام الرسمية والشعبية إلى إيران بتعميمها على مناطق العراق حيث لا يكلف الأمر سوى القليل من الدولارات لشرائها وهى عبارة عن كمية من المتفجرات مزودة بمغناطيس يتم لصقه بالسيارة لينفجر من خلال جهاز التحكم عن بعد أو مع تشغيل محرك السيارة وربما لا يتعدى تأثيره تدمير السيارة الملتصق بها وقتل صاحبها أو إصابته بجروح بالغة .

فى الرابع من كانون الثاني/يناير لقى ٣٨ زائرا شيعيا مصرعهم فى هجوم انتحاري قرب ضريح الإمام الكاظم / الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية/ فى منطقة الكاظمية شمال بغداد وهو الهجوم الذى أدى إلى إصابة أكثر من مائة آخرين رغم أن هذه المنطقة المقدسة لدى الشيعة تحظى بإجراءات أمنية شديدة الإحكام وهو ما تسبب فى هز ثقة الناس فى قدرة الأجهزة الأمنية وسريان شعور بالإحباط واللاجدوى طالما تمكن هذا الانتحارى من النفاذ إلى تلك النقطة الحصينة من بغداد .

وفى الثالث عشر من شباط/فبراير لقى ٤٠ شخصا معظمهم من النساء والأطفال مصرعهم فى هجوم انتحاري نفذته امرأة استهدف موكبا للشيعة فى المسيب التى تبعد حوالى ٨٥ كم جنوب بغداد وتتبع محافظة بابل وكان هذا الموكب متوجها إلى كربلاء المقدسة لدى الشيعة لزيارة مرقد الإمام الحسين وأخيه غير الشقيق العباس بن على بن أبى طالب وهى هجمات ينظر إليها على أنها محاولة لإعادة إنتاج الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة إلا أنها محاولات يائسة ثبت فشلها بعد اتضحت الصورة أمام الشعب العراقى وأدرك جيدا مثل هذه المؤامرات وما ترمى إليه .

أما الثامن من آذار/مارس فقد شهد هجوما نوعيا كرس المخاوف من اختراق الأجهزة الأمنية ووجود من يسهل عمل المهاجمين بسبب استهدف الهجوم منطقة أمنية مغلقة ومحصنة وهى مقر أكاديمية الشرطة وسط العاصمة بغداد وأسفر عن مقتل ٢٨ شخصا غالبيتهم من المتطوعين الجدد في سلك الشرطة وإصابة ٥٨ آخرين بجروح وذلك عن طريق انتحارى يرتدى حزاما ناسفا جعل الناس فى الشارع يتساءلون كيف تمكن مثل هذا الانتحارى تجاوز كل هذا العدد من نقاط التفتيش والنفاذ للوقوف وسط المتطوعين المفترض أن يصبحوا مسئولين عن أمنهم وأمن المواطنين .. وتلا هذا الهجوم الانتحارى بيومين فقط هجوم مماثل استهدف سوقا شعبيا هذه المرة في منطقة أبو غريب التى تبعد ٢٠ كيلومترا غربى بغداد أسفر عن مقتل وإصابة حوالي ٨٠ شخصا .. فيما فجر انتحاري نفسه وسط مجلس عزاء في منطقة جلولاء بمحافظة ديالي شمال شرقى بغداد فى ٢٣ آذار/مارس مما أدى إلى سقوط ٢٥ قتيلا و٥٠ جريحا تلاه بثلاثة أيام انفجار سيارة مفخخة وسط بغداد سقط نتيجتها عشرون قتيلا و٣٨ جريحا.

وفى السادس من ابريل /نيسان قتل ٣٤ شخصا وجرح ١٣٠ أخرون في موجة تفجيرات استهدفت ست مناطق في بغداد وضواحيها .. فيما ضربت ثلاث هجمات انتحارية الزوار الإيرانيين في قضاء المقدادية التابع لمحافظة ديالي المشتعلة ، شمال شرق بغداد فى ٢٣ من نفس الشهر أسفرت عن مقتل ٨٤ شخصا على الأقل وإصابة العشرات تلاها بيوم واحد سقوط ٥٨ قتيلا بينهم ٢٠ من الزوار الإيرانيين في تفجير انتحاري شمال بغداد.

واستمرت الهجمات ضد الشيعة، فى محاولة لإشعال الفتنة النائمة مرة أخرى حيث ضربت سلسلة تفجيرات بالعبوات خمسة مساجد شيعية فى ٢١ من نفس الشهر أدت إلى مقتل ٢٩ شخصا وجرح ١٣٦ آخرين .. فيما سقط ٥١ قتيلا يوم ٢٩ جراء انفجار ثلاث سيارت مفخخة في مدينة الصدر معقل أنصار التيار الصدرى وجيش المهدى المجمد .. كما امتدت الهجمات لتطال مناطق أخرى ذات غالبية شيعية فى ٢٠ أيار/مايو حيث قتل ٤٠ شخصا وجرح ٨٣ بانفجار سيارة مفخخة في حى الشعلة، شمال غرب العاصمة بغداد.

وفى ٢٠ حزيران/يونيو قتل ٧٢ شخصا وأصيب أكثر من ٢٠٠ آخرين جراء انفجار شاحنة مفخخة في بلدة تازا التركمانية الشيعية التى تقع على بعد ٣٠ كم من كركوك، شمال العراق.. فيما ضرب تفجير بسيارة مفخخة أحد اسواق مدينة الصدر بعد ذلك بأربعة أيام أدت إلى سقوط ٦٢ قتيلا و١٥٠ جريحا .

وتصاعدت الهجمات مع بدء تطبيق القوات الأمريكية لبنود الاتفاقية الأمنية والانسحاب من مراكز المدن يوم ٣٠ حزيران/يونيو حيث سقط ٢٦ قتيلا و٧٠ جريحا في انفجار سيارة مفخخة في كركوك التى تبعد ٢٥٥ كم شمال العاصمة والتى تشهد نزاعا بين الأكراد من جهة والعرب والتركمان من جهة أخرى وتتنازع القوات الكردية بمختلف صنوفها « البيشمركة والأسايش» مناطق النفوذ مع القوات العراقية « الجيش والشرطة» .

وامتدت الهجمات لتضرب مناطق خارج العاصمة بغداد خاصة محافظة نينوى الشمالية لتوقع المزيد من الضحايا وترسم مشهدا أمنيا شديد الاضطراب رغم محاولات القائمين على الشأن الأمنى الحفاظ على فرض الاستقرار وان كان هشا .. في ٩ تموز/يوليو سقط ٣٥ قتيلا و٦٠ جريحا في عمليتين انتحاريتين في حي سكني في تلعفر التى تقع على بعد ٦٠ كيلومتر تقريبا غربى الموصل عاصمة محافظة نينوى شمال العراق والتى ظلت عصية على الاستقرار طوال الوقت بسبب انتشار المجموعات المسلحة خاصة التابعة لتنظيم القاعدة وما تشهده من صراعات خفية وعلنية بين العرب والأكراد والتركمان .. كما سقط ٣٧ قتيلا و٢٧٦ جريحا في انفجار سيارة مفخخة قرب مسجد تركماني شيعي يوم السابع من آب/أغسطس تلاها بيومين فقط سقوط ٢٣ قتيلا و١٣٨ جريحا في تفجيرين بشاحنتين مفخختين في قرية خزنة التي تبعد ٢٠ كم شرق الموصل.

ولم يسلم المسيحيون الذين نالهم نصيب وافر من عذابات زمن المذبحة من التفجيرات النوعية التى استهدفت إعادة الأمور بالعراق إلى المربع الأول حيث تعرضت ست كنائس بالعاصمة بغداد خلال يوم التاسع من أغسطس ، إلى سلسلة تنجيرات استهدف الانفجار الأول، كنيسة «القديس يوسف»، غربي بغداد، في حوالي العاشرة من مساء السبت بالتوقيت المحلي ولم يكن أحد موجوداً بالكنيسة وقت التفجير الذي استخدمت فيه عبوتان ناسفتان.. فيما وقعت ثلاثة انفجارات أمام ثلاث كنائس في غضون ١٥ دقيقة، بين ٤:٣٠ و٤:٤٥ بعد ظهر الأحد ، وتوجد كنيستان منها بمنطقة «الكرادة» وسط العاصمة العراقية، بينما تقع الثالثة بمنطقة «الغدير» شرقي بغداد..كما انفجرت سيارة مفخخة أمام إحدى الكنائس في شارع «فلسطين» شرقي العاصمة العراقية في حوالي السابعة الأحد، أدى إلى سقوط أربعة قتلى على الأقل، وإصابة ٢١ آخرين .. فيما سقط ثلاثة جرحى في انفجار استهدف كنيسة سادسة، بمنطقة «الدورة» جنوبي بغداد، وأشار شهود عيان إلى أن بعض هذه التفجيرات وقعت قبل قليل من موعد صلاة مساء الأحد.

٢ - الزلزال

إلى هذا الحد ظلت الأمور تسير بشكل شبه طبيعى حيث اعتاد العراقيون على مثل هذه الأمور من تفجيرات وهجمات بعد أن كانت طقسا يوميا فى زمن المذبحة بل أنهم باتوا يحمدون الله على قلة عددها وانخفاض معدلات ضحاياها بعد أن سجلت الأجهزة الأمنية فى يوم واحد ٦٠ انفجاراً فى بغداد فقط عام ٢٠٠٦ .. استمر رئيس الوزراء نورى المالكى فى تنفيذ خططه الرامية إلى إعادة فتح ٤٠ ٪ من شوارع العاصمة بغداد وإلغاء ظاهرة الحواجز الأسمنتية التى ترقد على صدور البغداديين وتثير فى نفوسهم الكثير من القهر حتى أصبح من يسكن بغداد كمن يعيش داخل معتقل مفتوح تحيطه الأسوار الأسمنتية العالية التى عزلت مناطق بأكملها عن الأخرى فى عاصمة الرشيد .. وأعيد فتح المدخل المؤدي إلى وزارة الخارجية بمنطقة العلاوى وسط بغداد والمنطقة الخضراء فى شهر مايو من عام ٢٠٠٩ بعد إغلاق دام حوالى أربع سنوات في إطار خطة اعادة فتح الشوارع وإزالة الحواجز الأسمنتية التي امر بها المالكي.

إلا أن ما حدث يوم الأربعاء التاسع عشر من أغسطس كان بمثابة الزلزال المدمر الذى يجب على ضوئه إعادة تقييم الأمور ورسم الخارطة من جديد حيث سادت حالة من الإرباك والخوف العاصمة العراقية بغداد بعد سلسلة انفجارات عنيفة هزت إحياءها في أوقات متقاربة وخلفت أكثر من ١٢٠٠ قتيل وجريح في أعنف موجة للعنف تجتاح العاصمة بعد هدوء نسبى استمر أكثر من عام .

انفجرت السيارة الأولى عند الساعة العاشرة صباحا قرب وزارة المالية وسط بغداد من الجهة الشرقية / الرصافة/ مما أسفر عن انهيار جزء من جسر طريق محمد القاسم السريع المحاذي للوزارة التى أصابها دمار كبير وتصاعدت سحب دخان كثيفة في سمائها وسط دوي أبواق سيارات الإسعاف وفرق الإطفاء فضلا عن أصوات سيارات الجيش والشرطة العراقية مع تحليق كثيف للطيران الأمريكى .. فيما سقط عدد من السيارات من فوق الجسر وكان الانفجار أشبه بزلزال واهتزت الوزارة وتحطم كل شي بها .. سقط الموظفون ملقون على الأرض وعم مشهد الدماء والدمار في جميع أنحاء المبنى الذى غطاه الغبار والدخان.. ضاقت صالات المستشفى القريب بالجرحى وتم تحويل عدد منهم إلى مستشفى تخصصي آخر لعدم إمكانية استيعابهم .

أعقب هذه الانفجار بفارق دقائق انفجار هائل آخر قرب مبنى وزارة الخارجية في محيط المنطقة الخضراء وسط العاصمة من جهة الغرب / الكرخ/ أحدث حفرة

قطرها حوالي ستة أمتار بعمق مترين وانهارت واجهة وزارة الخارجية بالكامل ولحقت أضرار كبيرة بمجمع الصالحية السكني المقابل .

تكرر المشهد الذى غاب بعض الوقت عن الساحة البغدادية .. جثث تحترق ..كميات كبيرة من الأشلاء وبقع الدماء .. عشرات السيارات المدنية المحترقة امتدت على بعد أكثر من ٣٠٠ متر من موقع الانفجار.

بعد أربعة أيام من الانفجار تلقيت دعوة من وزارة الخارجية مع عدد من الصحفيين والإعلاميين لتفقد آثار الدمار عن قرب والاستماع إلى رسائل مهمة أراد الوزير هوشيار زيباري أن ينقلها عبر وسائل الإعلام أهمها تأكيدات وجود تواطؤ من قبل أجهزة أمنية وحكومية عراقية في تسهيل حدوث التفجير الذي طال وزارته، وأدت إلى إعادة إغلاق الطريق المؤدى إليها من جانبيه وإعادة نصب الجدران الأسمنتية حولها وتكثيف الحراسة وإجراءات التفتيش .. وأذكر أن عددا من الزملاء الذين رافقونى خلال تلك الزيارة اضطروا إلى الإفطار بسبب المسافة التى قطعناها سيرا على الأقدام تحت قيظ شمس أغسطس الحارقة حتى نتمكن من الوصول إلى مبنى الوزارة الذى كان محتفظا بآثار الهجوم البربرى شاخصة على أرضيته التى حفرها الانتحارى بشاحنته المفخخة بطنين من المتفجرات وحوائطه المنهارة ووجوه منتسبيه التى تنطق بالحزن بينما اتشح أصحابها برايات الحداد حزنا على الشهداء والمفقودين والجرحى .

تساءل زيبارى فى لهجة تنطق بالاتهام لجهات لم يرد أن يفصح عنها ،كيف يستدل شخص جاء من شمال أفريقيا إلى سوريا، ومن ثم يدخل إلى العراق ليصل إلى وزارة الخارجية ويفجّر نفسه.. لا استبعد وجود تواطؤ من قبل أجهزة أمنية والعناصر الإرهابية لتمرير السيارات المفخخة إلى هذه المناطق الحساسة».

واستدرك قائلا أن «رئيس الوزراء نوري المالكي أمر باعتقال قيادات أمنية برتب عميد ومقدم ورائد للمساءلة عن كيفية السماح لمرور هذه الشاحنة في هذه المنطقة الحساسة.. منتقدا ضعف الدور الأمني .. وأضاف «لا بد أن يكون هناك تحقيق مسؤول وتسمية الأمور بأسمائها والكف عن التصريحات المتفائلة أكثر من اللازم والأمن الزائف ولا بد أن نقول الحقيقة .. هناك تدهور امني واقعي ، والقادم ربما يكون أسوأ ».

طالب زيبارى بلهجة حاسمة باتخاذ إجراءات حازمة، قائلاً «علينا معالجة الخمول والكسل وعدم الانضباط لدى الأجهزة الأمنية وهذا لا بد أن يعالج بجهد امني وليس بالتصريحات .. أن الذي حصل يعتبر كارثة وطنية من حيث حجم الدمار وعدد الضحايا »، وانتقد «تعدد المسؤوليات الأمنية وكثرة التضارب فى تصريحات المسؤولين الأمنيين بشأن الخروقات الأمنية والتي تفقد مهمة تحديد

الجهة المسؤولة».

وقال «التفجيرات مدروسة ومبرمجة ومخطط لها منذ أشهر، وتم تنفيذها بمساعدة آخرين أمنياً ولوجستياً، وكان هناك تواطؤ من قبل أجهزة أمنية وحكومية في هذا الموضوع، إذ كيف يستدل شخص جاء من شمال افريقيا إلى سوريا ومن ثم يدخل إلى العراق ليستدل ويصل إلى وزارة الخارجية ليفجر نفسه من دون وجود عناصر من الأجهزة الأمنية يدلونه على ذلك .. التقديرات التي نمتلكها أن الشاحنة التي انفجرت قرب الوزارة كانت تحتوي على طنين ونصف الطن من المتفجرات شديدة الانفجار، وان العملية تشبه إلى حد كبير العمليات التي ينفذها تنظيم القاعدة «.. مشيرا إلى أن «الانفجار تزامن مع ذكرى التفجير الإرهابي الذي تعرض له مقر بعثة الأمم المتحدة عام ٢٠٠٣، وهذه هي الأجندة الإرهابية المعروفة».

قال زيباري «هناك تدخل كبير لها في العراق لأنها تسعى إلى تغيير نتائج الانتخابات المقبلة، كما أن بعض الدول أعلنت استعدادها بشكل علني لملء الفراغ الأمني بعد الانسحاب الأمريكي، فى إشارة إلى إيران، وهذا الأمر فيه تدخل كبير بالوضع العراقي، بل هناك جهات أعلنت موقفها الرافض للوضع الجديد في العراق».

٣ - إبنى ماكو

بعد انتهاء المؤتمر الصحفى اصطحبنا وزير الخارجية فى جولة حول محيط المبنى المدمر الذى كانت بقايا جدرانه تحمل آثار الهجوم المروع فيما تملأ أرضيته بقايا القطع المتطايرة من الشبابيك والأبواب الألومنيوم وقطع الزجاج المهشم التى تغطى بعض الأوراق المحترقة وتحمل بقايا دماء الشهداء والجرحى .. وقفنا على حدود الحفرة التى سببها الانفجار والتى ملأتها المياه الجوفية رغم حرارة الجو فيما كان المسئولون عن إعادة إعمار المبنى يعملون على قدم وساق لإصلاح ما أفسده الانتحارى .

مرت سيدة طاعنة فى السن بجوار الوزير ومرافقيه وهى تستند إلى عصا خشبية وتبكى بمرارة كبيرة ولا يفارق لسانها توسلات لمن يمكن أن يسمعها « ابنى ماكو» / وتعنى باللهجة العراقية أن ابنى لم يعد موجودا / .. أشارت بيدها المرتعشة إلى الوقفين قائلة « وينه» يعنى أين هو .. قال أحد حراس الوزير أنها والدة أحد المراجعين الذين كانوا متواجدين بالوزارة لتوثيق بعض الأوراق من القسم القنصلى ولم يعثر له على أثر مثل كثيرين غيره سواء من العاملين بالوزارة أو المواطنين

الذين قادهم قدرهم إلى هذا المكان فى هذا الوقت من هذا اليوم الدامى الذى كان بمثابة زلزال هز بغداد بمبانيها وسكانها .. أعاد الخوف إلى النفوس لتسيطر الهواجس مرة أخرى على من استراح قليلا من لون الدم ورائحة البارود التى أزكمت أنوف البغداديين فى ذلك اليوم لتعزز مخاوفهم من القادم الأسوأ .

فى طريق العودة إلى مكتبى وسط بغداد داهمنى مشهد شوارع العاصمة التى بدت خالية لأول مرة منذ أكثر من عام عندما عاد البغداديون يمارسون طقوسهم الحياتية العادية بعد الهدوء النسبى الذى فرضه توارى جيش المهدى والمجموعات المسلحة وفرق الموت عن الساحة وإن كان عملها يجرى بشكل أقل ضجيجا فى مناطق بعيدة عن مركز العاصمة بغداد .. عندئذ فقط تأكدت أن القادم ربما يكون أسوأ مما توقع وزير الخارجية العراقى ولكن ليس بمنظوره السياسى والأمنى ولكن بمنظور رجل الشارع الذى يعيش وسط الناس بعيدا عن الحصون المنيعة .. داهمتنى مشاعر حزن دفين بسبب تراجع آمال الناس الذين التقيتهم فى أن يتطور الوضع إلى الأفضل وأن تنتهى دوامة العنف إلى غير رجعة .. إلا أن ما شهدته العاصمة بغداد بعد هذا الأحد الدامى من أيام أشد دموية أطاح بتلك الآمال وجعل الناس يتوقعون الأسوأ مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية التى رافقها الكثير من الجدل كرس تعميق الفجوة بين الشركاء السياسيين لينعكس ذلك على الوضع الأمنى الذى ازداد تعقيدا فيما بعد ليضع العراق على حافة مذبحة جديدة ولكن بتفاصيل مختلفة .

٤ - الخروج من الموت

عشر دقائق فقط كانت حجم المسافة بينى وبين الموت المفاجىء فى مذبحة جديدة تتشح بالسواد والألم والمرارة أطلق عليها الإعلام يوم الاثنين الدامى لتتشح أيام بغداد بالسواد ،كما سودوا وجه الأحد الدامى والثلاثاء الدامى والأربعاء الدامى ولم يتبقى من أيام بغداد سوى ثلاثة لتصبح كافة أيام الأسبوع مغلفة بلون الدم وتفوح منها رائحة البارود

فى بغداد عاصمة الرشيد التى تساوت البربرية فيها مع مناطق الصحراء المفتوحة والمدن المظلمة وتناثرت الدماء فى دوامة من الموت العبثى الذى لا يدرك الضحية أو قاتله كيف بدأت وإلى أين تمضى أو متى تنتهى والجميع يتساءل لماذا؟؟.

وسرعان ما يرتد السؤال فالمقتول ضحية للقاتل بلا سبب معقول والقاتل ضحية

لقاتل أكبر ربما يعرف وحده سبب القتل وإلى أين ستمتد انهار الدماء التى باتت بديلا عن أنهار الخير التى طالما روت ارض السواد وبساتينها .

تفاصيل بسيطة تغلفها الدهشة ويكسوها الألم للحظات فارقة بين الموت والحياة فى مدينة تفوق فيها فرص الموت فرص الحياة بأضعاف المرات ويسير فيها الجميع فى مواكب موت مجانى لا يعلمون متى يأتى عليهم الدور وبات وضع من يعيش بالعراق يختصر فى كلمات معبرة يتفوه بها الكبير والصغير وهى أن من يعيش بالعراق / لازم سرى على الموت/ وتعنى الجميع يقف فى طابور الموت .

ولأننى أحد هؤلاء أطلت الوقوف فى هذا الطابور وفى كل مرة لا يأتينى الموت أعلم أن الدور لم يصلنى بعد .

وفى يوم الاثنين الدامى ٢٥ يناير ٢٠١٠ تكرر الأمر وكنت قد هربت من ملل الغربة والأخبار المؤلمة والصراعات الفارغة التى نسود بتفاصيلها صفحات الجرائد إلى لحظات صفاء نفسى مع صديقى على اليأس وهو أحد مراسلى قناة «الحرة» قبل أن يغادر العراق ليستقر في أمريكا، ربما نتمكن سويا من القضاء على الألم والهم المشترك الذى تفرضه الأحداث ونرسم من خلال مناقشات مثمرة صورة أكثر إشراقاً لمستقبل غلفته الأحداث والمواقف بلون رمادى باهت وجعلت رؤية الغد أكثر ضبابية .. وكان الموعد على شاطىء نهر دجلة الحزين لتناول «السمك المسجوف» الذى ظل يصارع كل الأيام والآلام ليبقى مفضلا لدى العراقيين أو ضيوفهم وبعد أن انتهينا من تناول الطعام وتجاذب أطراف الحديث وانطلقنا فى طريق العودة إلى مقر قناة الحرة داخل المجمع الذى يضم فندق فلسطين وعشتار شيراتون استأذنت مضيفى أن أمضى إلى مقر مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط الذى لا يبعد كثيراً عن فندق فلسطين رافضا دعوة كريمة لاستكمال الضيافة وقبل أن أصل إلى مكتبى بعد مرور حوالى ١٠ دقائق على مغادرة بوابة فندق فلسطين دوى انفجار عنيف هز مدينة بغداد وما عليها وهشم زجاج النوافذ التى طالها صداه وسارعت بالاتصال بصديقى الذى غادرته للاطمئنان وجاءنى صوته مضطربا يحكى لى ما حدث حيث تمكن انتحارى يقود سيارة محملة بنصف طن من المتفجرات من اختراق كافة نقاط التفتيش والمنطقة المحصنة بالكتل الأسمنتية الضخمة وفجر نفسه عند بوابة الفندق التى غادرناها قبل ١٠ دقائق تقريبا وانهار سقف مكتب الحرة وتهشمت النوافذ فى الفندقين الشهيرين وسقط العشرات بين قتيل وجريح بالإضافة إلى احتراق عشرات السيارات .

لم يمنعنى الخوف من الموت الذى قد يكون مزروعا على جوانب الطريق أو طلقات

الرصاص التى أخذت تدوى فوق رؤوس المارة فى مشهد يتكرر دائما مع كل انفجار أو هجوم انتحارى .. لم تمنعنى حالة الهلع التى أصابت أهل المنطقة من شدة الانفجار وكأنه الأول الذى يضرب منطقتهم .. لم يمنعنى ذلك من العودة إلى حيث كنت لأمارس مهمتى المقدسة التى قد يكون ثمنها الموت فى كثير من الأحيان .

داهمتنى لوحة دموية رغم تكرارها إلا أنها مازالت تثير فى نفسى الكثير من القرف والحزن والرعب والبكاء رؤوس متطايرة .. أذرع .. أقدام .. جثث .. مصابون .. ناس يبكون ويصرخون على من قتل أو أصيب أو سيارة احترقت أو تضررت وكل هذا مغلف برائحة شواء للحم بشرى .

تذكرت نفس المشهد الذى لا يغيب عن ذاكرتى عندما رأيت التفجيرات المروعة فى ساحات بغداد عند قدومى إلى العراق منتصف العام ٢٠٠٦ وكنت أرى لأول مرة الرؤوس البشرية التى تتطاير ومازال الشعر عالقا بها وتتطاير معها أذرع وسيقان مع صرخات الهلع والحزن التى تجعلنى فى كل مرة أعود باكيا على موت البشر الذين أعرفهم أو لا أعرفهم.

فى كل مرة كان يقول لى صديقى العراقى أن دورنا فى مواكب الموت المجانى لم يأت بعد .

وفى هذه المرة ربما كان الانتحارى يستقل سيارة تسير بجوار السيارة التى كانت تقلنى فى طريق أبو نواس وانفجرت سيارته المفخخة لخطأ فنى وطالنى من لهيبها شيىء يقتلنى أو يصيبنى .. ربما لو تأخرنا قليلا بسبب الزحام لعشر دقائق فقط كنت فى عداد القتلى أو المصابين .. ربما كانت هناك يقظة من رجال نقاط التفتيش أو بقايا ضمير تكشف هذا الانتحارى بمتفجراته التى تجاوزت الـ ٥٠٠ كيلو جراما وعندها كان قد فجر نفسه قبل الوصول إلى هدفه واصبحت أحد الضحايا .

احتمالات كانت ومازالت قائمة .. أتساءل دائما متى وأين تتحول من احتمالات إلى أمر واقع وعندها يكون دورى فى مواكب الموت المجانى قد جاء .

اليوم .. خرجت مرة أخرى من الموت باكيا كما كنت أبكى كل مرة وحيدا فى مساءات أيام بغداد الدامية أبكى على شعب خلقه الله فقط للبكاء .. للنواح..للرعب ..لمجالس العزاء .. أبكى بحثا عن أمن مفقود يبدو أنه لن يأتى أبدا .

٥ - أين أهلى

عدت سريعا إلى مكتبى بعد أن رأيت الصورة القاتمة المشتعلة التى رسمها الهجوم الانتحارى على الأرض وكانت الاتصالات قد تعطلت بعض الوقت حيث أن معظم

مناطق العراق لا تتمتع بخدمة الهاتف الأرضى مثل باقى خلق الله وإنما الاعتماد الأساسى على شبكات الهاتف المحمول وما أدراك ما هو الهاتف المحمول فى بلد مثل العراق فكما اعتاد العراقيون الجوع والحزن والبكاء فإنهم يتقاسمون تلك العادات مع ما يثيره استخدام الهاتف فى النفس من ألم وضيق ودعوات بأن يخلص الله البلاد والعباد من كل هم وغم وظلم لا يدرى العراقيون ما ذنبهم الذى ارتكبوه حتى يعاقبون عليه بكل هذا الألم .. انهالت الاتصالات من كل حدب وصوب للاطمئنان على أحوالى بعد هذا الانفجار الذى لا يبعد كثيرا عن مكتبى .. أصدقاء وزملاء شيعة وسنة وأكراد.. بل جاء عدد كبير من الزملاء تباعا إلى مكتبى ليروا ما ألحقته شدة الانفجار من أضرار سواء مادية أو شخصية وبعد أن شاهدوا ما لحق بالمكتب من أضرار اعتيادية فى مثل هذه الحالات مثل تهشم زجاج النوافذ وسقوط بعض الأشياء على الارض وتكسرها اطمأنوا على أننى ما زلت بخير وبصحة جيدة إلا من بعض الذهول الذى اصابنى عندما بدأت أستعيد ما جرى وكيف كانت الصورة التى يمكن أن أكون عليها إذا تواجدت فى مكان الهجوم الانتحارى أو حتى بالمكتب لحظة الانفجار الهائل الذى هز بغداد وما عليها وتبعه سلسلة انفجارات استهدفت مناطق أخرى تضم عدداً من الفنادق التى يتخذها إعلاميون آخرون مقار لهم وهو ما دفعنى إلى أخذ دورى فى الاطمئنان على زملاء فى مناطق طالتها الانفجارات الأخرى فى نفس الوقت تقريبا دون أن يدرى أحد حتى الآن معرفة كيف وصل هؤلاء الانتحاريون الذين حملوا الموت والرعب إلى تلك المناطق الهامة الحساسة المحمية بمئات الرجال من قوى الأمن ومئات الكتل الأسمنتية الضخمة اللهم إلا من خطط ونفذ تلك الهجمات الجبانة ومن عاونهم أو تواطأ معهم لتنفيذها حتى تبث الرعب وتعيد صور الفزع والقلق من الغد بعد أن اختفت تلك المشاعر قليلا لعدة أشهر شابها هدوء نسبى تغلب خلالها العراقيون على مشاعر الخوف وعاشوا حياتهم البسيطة بشكل شبه طبيعى وارتادوا المتنزهات وتبادلوا الزيارات القليلة وعادت ظاهرة اختفت أو كادت إلى الحياة العراقية عندما كانت شوارع بغداد وغيرها من المحافظات تختفى منها الحركة فى الثالثة عصرا ليصبح العراق بكل مناطقه مدنا للأشباح لا تسمح بالحركة إلا لأعضاء التنظيمات المسلحة بكل انتماءاتها وأسمائها .

عادت صورة مدن الأشباح للظهور مرة أخرى خلال الأيام القليلة التى أعقبت تفجيرات الاثنين الدامى خاصة مع تواتر الأنباء عن صراعات سياسية محمومة بسبب ما عرف بإجراءات هيئة المساءلة والعدالة التى منعت مئات المرشحين من

خوض الانتخابات النيابية وكان غالبهم من السنة النافذين أو من الشيعة الذين ينتمون لتكتلات وائتلافات قد تشكل خطرا على الائتلاف العراقى.

وسط هذه المشاهدات المثيرة للقلق والحزن اكتشفت أمراً زادنى حزنا وقلقا وإن كان شبه متوقع وهو أن أحدا من عناصر سفارتنا الغراء لم يكلف نفسه للاتصال بى للاطمئنان ومعرفة ما جرى رغم أن الجميع يعلمون موقع وكالة أنباء الشرق الأوسط وما مدى الأضرار التى قد تكون لحقت بالمكان ومن فيه اللهم إلا شخص طيب يعمل سائقا بالسفارة كان قد زارنى ذات مرة فاجأنى باتصال ودى للاطمئنان وأبلغنى أنه كان جالسا مع سعادة السفير فى غرفته الفارهة بفندق الرشيد المحصن داخل المنطقة الأكثر تحصينا بالعراق / المنطقة الخضراء/ والتى لا يغادرها سعادته إلا للقاء بروتوكولى أو تلبية لدعوة عشاء أو للتنزه فى حدائق الفندق الغناء واحتساء الشاى العراقى مع مساعديه بدون سكر فى جلسات السمر الليلية التى ينعم بها سكان الفندق الحصين.

سألت الرجل الطيب هل علم سعادة السفير بمكان الانفجار فأجابنى خجلا نعم ويبدو أنه كان يحاول إخفاء تقصير -غير مفهوم- من سعادة السفير الذى كان يجب أن يبادر بالاتصال ليس بصفتى الوظيفية أو بصفتى صحفى مصرى مستمر بالعراق فى تلك الظروف القاسية ولكن بصفتى أحد رعايا سعادته المتواجدين على أرض النار.

اتصل بى القنصل المصرى هشام صبرى حجازى الذى تربطنى به علاقة صداقة وطيدة خارج نطاق العمل الرسمى وكنت أعتبره نموذجا للمصرى الذى يعمل بلا كلل أو ملل خدمة لوطنه وأبناء وطنه حيث كان الدينامو الحقيقى للبعثة المصرية التى لا يمكن لأى مواطن عادى مقيم بالعراق الوصول إلى أبوابها إلا بصعوبة وبالتأكيد يمكنه الوصول إلى مبنى القنصلية بشارع الأميرات الذى يمارس فيه القنصل أعماله بعيدا عن حصون المنطقة الخضراء كما يفعل سعادة السفير وفريقه الذين سيأتى ذكرهم بشكل موسع فى جزء من الكتاب باعتبارهم من الواقفين على حافة المذبحة دون أن يشهروا أية أسلحة إنما يستمتعون بوقتهم الطويل فى الفندق الفخم ويتابعون ما يدور خارج أسوار المنطقة الخضراء من خلال شاشات التلفاز والكومبيوتر .. تماما كما يقضون ساعات طويلة ويتواصلون مع ذويهم من خلال الشات.

فى المساء اتصل بى شخص مصرى شديد الرقى والإخلاص لمصريته وعروبته هو خالد سعودى مساعد رئيس بعثة الجامعة العربية فى بغداد ومسئول الشئون المالية والإدارية ليطمئن على ما جرى وينقل لى تحيات القائم بأعمال البعثة ناجى

أحمد شلغم .

بعد هذا الانفجار الذى أثار فى نفسى الكثير من التوتر بعد أن أعقبته تفجيرات أخرى طالت مناطق حساسة وفنادق تحظى بحماية أمنية مشددة وإجراءات بالغة التعقيد بدأت توجهاتى التى كان يحدوها الأمل فى استقرار أمنى نسبى وتطور فى العملية السياسية تتغير ويتراجع مؤشر الثقة بالأوضاع إلى درجات متدنية مثلما حدث لغالبية العراقيين الذين شعروا بالصدمة من تزايد حدة الصراع السياسى على خلفية قرارات اعتبرها الناس بداية جديدة للفرز الطائفى وعودة نغمة الصراع على أساس مذهبى وان كان الأمر قد أخذ شكلا مختلفا بتوجيه أسنة الرماح إلى من يطلق عليهم البعثيون والصداميون وهى جزء من نغمة بغيضة كانت تتردد من جانب المسئولين العراقيين كلما سقط ضحايا أو ضرب تفجير مروع منطقة أو أخرى وهى « تحميل المسئولية لتنظيم القاعدة ومن تحالف معه من أزلام النظام السابق والتكفيريين والبعثيين والصداميين المجرمين » وهى أوصاف تعنى بشكل أو آخر المعارضين من أبناء السنة .. فيما وصل الشحن الطائفى ذروته البغيضة فى عدة مناسبات كان أشدها على الإطلاق زيارة أربعينية الإمام الحسين والزيارة التى سبقتها بمناسبة استشهاد الإمام الحسين فى واقعة الطف يوم عاشوراء حين سارت مواكب التطبير التى يطلق عليها « المواكب الحسينية » لأول مرة فى قلب بغداد معلنة عن استعراض للقوة الشيعية حيث يقوم مسيروها الذين يرتدون الزى الأسود بضرب أجسادهم وشج رؤوسهم حتى يسيل الدم منها فى مشهد مروع كان يقتصر على مناطق بعينها وليس فى شوارع قلب العاصمة بغداد .. تظاهرات تم تنظيمها بعناية للاعتراض على قرارات بخوض مرشحين تم استبعادهم من خوض الانتخابات بتهم تتعلق بانتمائهم لحزب البعث الصدامى المحظور رغم تأكيدات من مشاركين فى السلطة والبرلمان على أن عدداً كبيراً من هذه الأسماء ليس له علاقة بالبعث أو أنه شارك بقوة فى عمليات المعارضة ضد نظام صدام حسين أمثال الدكتور صالح المطلك والسيد راسم العوادى بالإضافة إلى أحد أهم الوزراء فى حكومة نورى المالكى وهو وزير الدفاع عبد القادر محمد جاسم العبيدى المحسوب أصلا على السنة إلا أنه رفض الانسحاب من الحكومة إبان الأزمة التى انسحب على أثرها ١٧ وزيرا يمثلون التيار الصدرى والقائمة العراقية التى يرأسها الدكتور إياد علاوى وجبهة التوافق أكبر تكتل سنى مشارك فى العملية السياسية عندما قاطع السنة العملية السياسية ورفض معظمهم المشاركة فى انتخابات مجالس المحافظات والانتخابات النيابية التى تشكل على أساها أول برلمان بعد الاحتلال عام ٢٠٠٥ .

وترافقت عمليات الشحن الطائفى على الأرض مع شحن من نوع آخر على الصعيد الشعبى والإعلامي حيث شاهدت سابقة لم يعتدها الإعلام خاصة الحكومى حين عرضت قناة العراقية الرسمية صور مجموعة من فدائيى صدام ملثمين وهى تقطع رؤوس عدد من الأشخاص عام ١٩٩٨ فى قضية يحاكم فيها مجموعة من رموز النظام السابق فى إحدى الساحات لمراكز فدائيى صدام وهم يرقصون بالرؤوس فرحا.

ونقلت القناة المشاهد بكافة تفاصيلها ضمن عرض محاكمات المسئولين السابقين فى قضية تصفية الأحزاب الدينية وذلك فى يوم ٢٨ يناير ٢٠١٠ وهو دليل إدانة لا يقبل الشك لنظام صدام ومن يمجده حاليا ومن يتحالف معه وفقا لاتهامات الحكومة من عناصر القاعدة وهى عملية تحمل الكثير من المخاطر على الصعيد الشعبى خاصة وأنها ترافقت مع شحن طائفى منظم .

٦ - تباشير العودة

كنت قد تلقيت دعوة للقاء القائم بأعمال بعثة جامعة الدول العربية السيد ناجى أحمد شلغم فى محاولة لرتق الدور العربى بالعراق ومحاولات الرجل المستمرة للعمل الجاد على كافة المستويات وكان يرافقنى الزميل نزار السامرائى وهو مدير تحرير وكالة الصحافة المستقلة « أيبا » والزميل إبراهيم السراجى رئيس جمعية الدفاع عن حقوق الصحفيين إلا أننا فوجئنا بقطع كافة الطرق المؤدية إلى الجانب الغربى من بغداد /الكرخ/ بالإضافة إلى جسرى الجمهورية والسنك وهو ما جعل السراجى يتراجع عن إكمال المسيرة معنا بعد أن تعطلت سيارته وقررنا أنا ونزار السامرائى الوصول سيرا على الأقدام للوصول إلى مقر بعثة الجامعة العربية فى الكرخ وهالنا ما رأينا من آليات عسكرية تتحرك وانتشار أمنى كثيف وعمليات تفتيش دقيقة للعابرين لجسر السنك المؤدى إلى بداية الطريق إلى منطقة العلاوى التى يقع قربها المقر خلف وزارة الخارجية العراقية وتواكب هذا مع تحليق كثيف لمروحيات على بعد منخفض وهو ما يوحى بأن الأمر خطير .. حاولنا دون جدوى الاستفسار من الجنود أو الضباط الذين يتولون تفتيشنا مع إغلاق الطرق عن سبب ما يجرى ولكن دون جدوى والجواب واحد « نحن فى واجب» أى أننا فى مهمة لا نعلم تفاصيلها واستمرت حيرتنا حتى وصلنا إلى نهاية جسر السنك ليفاجئنا مشهد مئات المتظاهرين والمتظاهرات الذين تم حشدهم للتنديد بأى محاولة لاشتراك « البعثيين والصداميين» فى الانتخابات النيابية التى لم يتبق على موعدها إلا شهر واحد دون التوصل إلى صيغة لحل الأزمة التى أثارتها هيئة المساءلة والعدالة التى أصبحت بديلا لهيئة اجتثاث

البعث والخاصة باستبعاد أكثر من ٥٠٠ مرشح وعدم السماح لهم بخوض الانتخابات القادمة .

داهمنا المشهد الحماسى واللافتات الكبيرة المنددة بالبعث ونظام صدام حسين والقتلة من أزلام النظام السابق مع نسوة يتشحن بالسواد حاملات لصور شهداء العهد البائد إلا أن المثير فى الأمر هو هذا الإغلاق التام لكل الطرق والجسور والمنافذ فى خطوة أدت إلى شلل تام فى العاصمة التى كانت قد خلت من أهلها تقريبا خلال زيارة أربعينية الإمام الحسين حيث تعطلت كافة المصالح وأغلقت المحال أبوابها بسبب الزيارة المقدسة لدى الشيعة والتى يبدو أنها كانت مناسبة جدية ورائعة للدعاية الانتخابية وإعادة إنتاج الشحن الطائفى لجماهير ظهر رفضها للأحزاب الدينية التى أدت أربعة أعوام من حكمها إلى خراب البلد وانهيار كافة مرافقه بدءا من الماء والكهرباء مروراً بالطرق والأمن الهش ناهيك عن البطالة والفساد اللذين يهددان أى نظام ولو بلغ ذروة الاستقرار . .تساءلت ومرافقى هل تستحق تظاهرة محدودة تم تسييرها لجماهير لا يملكون قوت يومهم ولا يتمتعون بأى خدمات على مدى حوالى سبع سنوات أن تغلق كل تلك الطرق والجسور وتتعطل كافة مصالح الناس إلا أن التفسير بات واضحا فلم يعد هناك مجال لتضييع الوقت دون استغلال كل فرصة ومناسبة لزيادة الشحن الطائفى والضرب تحت الحزام لقوى يمكن أن تمثل تهديداً ولو غير مؤكد لمنعها من التقدم واللعب على ردود أفعال ربما تكون غاضبة وتمنع قوى وكيانات بأكملها من مواصلة الماراثون الانتخابى وهو بالتأكيد لصالح من يمسك بزمام الأمور ويخشى فقد المزيد من مساحات النفوذ بعد النتائج التى أفرزتها انتخابات مجالس المحافظات التى جرت فى يناير ٢٠٠٩ .

وفى نفس الوقت تواترت الأنباء حول وجود نية لإعلان البصرة إقليماً مستقلاً بناء على مطالب الجماهير إذا ما تم السماح للبعثيين بالعودة إلى الميدان السياسى وهو ما يعنى كارثة محققة خاصة وقف تصدير النفط من المنفذ الجنوبى الوحيد للعراق على الخليج العربى وهى نافذة جديدة لخراب البلاد واحتراق العباد .

ولعل ما زاد مخاوفى أن عملية الشحن الطائفى والتوجه نحو التخندق والمزيد من الانغلاق ربما لن يتوقف أثره على نتائج الانتخابات فقط أو ما يسبقها من عملية انتخابية شهدت عزوفا كبيراً من الجماهير على المشاركة فى التصويت خلالها وإنما المخاوف والقلق الأكبر الذى انتابنى هو امتداد هذا الشحن إلى ما بعد الانتخابات أى على علاقات الناس بعضهم البعض بعد أن أفلتوا من حرب أهلية شاملة جرت مقدماتها المروعة ومشاهدها البشعة خلال عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧

وأوائل ٢٠٠٨ .. كما أن ما يجرى من أجواء سياسية وأمنية مشحونة بالتوتر يمكن أن يكون له نتائج كارثية على الأوضاع الأمنية خلال الحملات الانتخابية وما يتلوها من عمليات التصويت ناهيك عما يمكن أن يحدثه هذا الجو المشحون إذا ما ظهرت النتائج وكانت على غير هوى بعض القوى النافذة وما لها من سطوة ومناصرين وميليشيات ومجالس إسناد وصحوات وغير ذلك من المسميات التى تصب فى اتجاه واحد وهو العمليات المسلحة والقتل والعشوائى وعمليات الاختطاف والاغتيالات و التفجيرات وغير ذلك من مسميات تصبح أمرا واقعا عند انفلات الأمور وتطال الجميع بلا استثناء أو تمييز .

جعلتنى تلك الأمور أرسم صورة شديدة السواد لمستقبل الوضع بالعراق وأدعو الله صباح مساء أن تكون ظنونى فى غير محلها وأن يكون تحليلى للأمور خاطئا .. إلا أن الأمر المؤكد هو أننى اتخذت قرارا نهائيا بإنهاء مهمتى بالعراق فى أقرب وقت ربما أستطيع أن أرى الصورة أكثر وضوحا عندما أكون خارج المشهد الذى يستعيد بعضا من دمويته التى طالنى بعض منها منذ بدء المهمة منتصف العام ٢٠٠٦ إلا أن هذا الأمر ليس قرارا منفردا يمكن أن أتخذه وأقوم بتنفيذه فالأمر كان يتطلب بعض الترتيبات التى عملت على أن تتم وساعدنى فيها كثيراً رئيس الوكالة الأستاذ عبد الله حسن الذى وافق على إنهاء مهمتى مؤكداً أنها خسارة كبيرة لكنه مشفق علىَّ بشكل يحول دون الرفض بسبب ما عانيته خلال أربعة سنوات هي مهمتي بالعراق .

٧ - تجاذبات الشركاء

جرى ما يعرف بالتصويت الخاص فى الانتخابات النيابية وهو يشمل المنتسبين للقوى الأمنية والراقدين فى المستشفيات والمعتقلين ممن لا تزيد محكوميتهم على خمس سنوات وسط تبادل للاتهامات بين الجميع بارتكاب مخالفات وعمليات تزوير وكان هذا التصويت يسبق الانتخابات بأربعة أيام وبعد أن انتهى التصويت لبيت دعوة مع عدد من الإعلاميين على غداء مع رئيس الوزراء نورى المالكى أعقبه مؤتمر صحفى موسع شن فيه الرجل هجوماً حاداً على من وصفهم بالمنفذين لأجندات خارجية والذين يلجأون إلى دول خارج الحدود للاستقواء بهم على الداخل فى إشارة إلى جولات يقوم بها رئيس القائمة العراقية المدعوم عربيا وأمريكيا إياد علاوى شملت كلا من مصر والسعودية وهو ما دفع بالصراع بين القوى الإقليمية إلى الواجهة وباتت الاتهامات واضحة وصريحة فهناك من يتهم القوى الشيعية باللجوء

إلى إيران بينما يلقى اتهاما من قوى أخرى بالتوجه نحو السعودية وغيرها من الدول العربية .. إلا أن الهجوم الحاد الذى شنه المالكى على علاوى وملامح وجهه كانت تشير إلى حجم الأزمة بين الرجلين ومدى اقتراب كل منهما من حافة الفوز وهو ما يغذى صراعا خفيا ظهر عبر تصريحات ترجمت إلى مواقف بعد الإعلان عن النتائج النهائية التى أظهرت تقدم علاوى بفارق مقعدين عن المالكى وتمسكه بتشكيل الحكومة الجديدة مع تشكيك المالكى بالنتائج بل والطعن فى نتائجها .

ومع استمرار حالة الجدل والتجاذبات بين الرجلين ودخول الائتلاف الوطنى والتحالف الكردستانى على خط الازمة /بعد أن أصبح الجانبان بمثابة « رمانة الميزان» أو بيضة القبان كما يسميها العراقيون رغم حصولهم على المركزين الثالث والرابع ب٧٠ مقعدا للائتلاف بينها ٤٠ مقعد للتيار الصدرى و٤٣ للتحالف الكردستانى الذى حاول جمع شتات معارضيه ليكتمل عدد مقاعد الأكراد ويصل إلى ٦٠ مقعدا/ ارتفعت حدة التوتر وعلت نبرة التحذيرات من انفلات الأوضاع الأمنية وبلغت حدة التصريحات أعلى مدياتها وسط مخاوف ملأت الشارع العراقى من عمليات تصفية جسدية وتفجيرات وأعمال عنف تعيد الأمور بالبلد إلى المربع الأول .

وتواصلت المشاورات داخليا مع زيارات الوفود خارجيا وبدأت نبرة جديدة تغلف الخطاب السياسى للائتلاف الشيعى والتحالف الكردستانى أنه لا يمكن تشكيل حكومة بدون إشراك كافة الأطراف وأن مفهوم الكتلة الأكبر التى يسند لها تشكيل الحكومة يعود إلى تفسير المحكمة الاتحادية للمادة ٧٦ من الدستور والذى أكدته المحكمة عبر بيان واضح بأن الكتلة التى يسند لها تشكيل الحكومة هى ليست الكتلة الفائزة بأعلى عدد من المقاعد / كتلة علاوى/ وإنما الكتلة التى يتم تكوينها داخل البرلمان من عدة كتل مؤتلفة وهو ما أثار لغطا شديداً خاصة مع تمسك كل من المالكى وعلاوى بمنصب رئيس الحكومة ناهيك عن التيار الصدرى الذى يرى أنه وبصفته صاحب أكبر عدد من المقاعد داخل الائتلاف الشيعى فإنه الأحق برئاسة الحكومة باعتبار أن الائتلاف يجب أن يشكل الحكومة كحل وسط للخروج من مأزق تمسك المالكى وعلاوى بالمنصب .

ولم تتوقف التجاذبات عند حد المنافسين ولكنها تجاوزت ذلك إلى الحلفاء المفترضين رغم وجود فراق ظاهرى واقصد ائتلاف دولة القانون الذى يتزعمه نورى المالكى الساعى إلى تجديد ولايته كرئيس لوزراء العراق والتيار الصدرى حليف الأمس المنتمى إلى البيت الشيعى الذى بات يقف حجر عثرة أمام طموحات المالكى وائتلافه فى حكم البلاد لأربع سنوات أخرى رغم الإعلان عن تحالف استراتيجى بين

دولة القانون الإئتلاف الوطنى الذى يضم إلى جانب التيار الصدرى المجلس الأعلى الإسلامى وتيار الإصلاح برئاسة الدكتور إبراهيم الجعفرى وحزب المؤتمر الوطنى برئاسة أحمد الجلبى وهو التحالف الذى عزز المخاوف من إعادة انتاج الفرز الطائفى باعتباره ائتلافا شيعيا ضد ائتلاف العراقية الذى يحظى بدعم العرب السنة .

بلغ حد التجاذبات بين الشركاء إلى حد أن تقوم (شبكة عراق القانون) المؤيدة لائتلاف دولة القانون بنشر رسالة بعثها زعيم التيار الصدرى مقتدى الصدر إلى الرئيس الراحل صدام حسين بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢ وهى تؤكد ما ذهبنا إليه فى موضع سابق فى الكتاب من رعاية نظام البعث للشاب مقتدى وعائلته بعد اغتيال والده « الصدر الثانى» عبر الجريدة الرسمية فى ذلك الوقت (القادسية) وهو يقدم الشكر والثناء لصدام ، إلى جانب ملحق جاء فيه.

«ليس من باب التشهير بمقتدى الصدر ، لكن لوضع النقاط على الحروف امام الجميع، وليعلم القاصي والداني (تأريخ) رجال السياسة والمتصدين في عراق اليوم. السيد مقتدى الصدر والذي تقبّل بكل رحابة صدر هجوم قوات الجيش العراقي وبأمر مباشر من رئيس الوزراء السابق أياد علاوي في أحداث النجف المعروفة ، لكنه لم يغفر للمالكي حربه على المليشيات الخارجة عن القانون في البصرة في صولة الفرسان. في حين أن المعركة الأولى كانت قد حدثت بمواجهة مباشرة بين قوات يقودها مقتدى الصدر من جهة، وبين قوات يقودها أياد علاوي من جهة ثانية ، أما معركة صولة الفرسان فكانت ضد عصابات وخارجين عن القانون أذاقوا البصريين سوء العذاب . وأشاعوا القتل والترهيب بين الأهالي ، وما إصرار أهالي البصرة على انتخاب قائمة دولة القانون في الانتخابات المحلية والبرلمانية إلا دليل واضح على تقديم الشكر والثناء لرئيس الوزراء المالكي لتخليصهم من براثين عصابات القتل والتسليب.

لكن السيد مقتدى الصدر يصر على أن صولة الفرسان كانت موجهة ضد قواته (جيش المهدي) وهو اعتراف وإصرار منه على أن الخارجين عن القانون في البصرة هم فعلا اتباعه واعوانه. وهذا الامر يدفعنا بقوة إلى طرح قضية غاية في الأهمية ، تتعلق بالكيفية التي تسلّق بها مقتدى الصدر إلى هرم القيادة للتيار الذي كان يقوده السيد محمد محمد صادق الصدر ، وعن كيفية استطاعة شاب لم يكن ناجحا حتى في دراسته الحوزوية ، وكان يقضي جلّ وقته في لعب البليارد في النجف كيف استطاع أن يقفز فوق الجميع ليقود أضخم وأكبر تيار شيعي ، هذا التيار الذي دفع السيد الشهيد / فى إشارة إلى والد مقتدى/ دمه في سبيله ، لكننا نراه اليوم قد وقع في قبضة مجموعة من الصبية ممن لا يفقهون شيئا. ولنطرح التساؤل بطريقة

أخرى ، فلو كان فعلا مقتدى الصدر هو ثقة السيد الشهيد ، فلماذا لم نسمع له دورا يذكر في حياة والده ، بل لماذا كان هناك إصرار من السيد الشهيد على أن يكون ممثله الوحيد هو السيد جعفر محمد باقر الصدر وليس السيد مقتدى؟ بالتأكيد أن لسيدنا الشهيد أسبابه الخاصة التي دعته أن يلغي أي دور يذكر لمقتدى ، لمعرفته المسبقة بفشل وعدم قدرة الأخير لأي مسؤولية تلقى على عاتقه».

٨ - الفائز الأكبر

يستنتج تقرير لمركز بحوث إسرائيلي أن كل ما حصل في العراق – بما في ذلك نتائج الانتخابات الأخيرة- يعدّ «نصراً صامتاً» لإيران، مشيراً إلى أن استفادتها من الفراغ السياسي الحالي، أخطر من استغلال الجهاديين السنّة له. ويتوقع التقرير أن إياد علاوي قد ينتهي إلى القبول بـ«دور ثانوي» وبمنصب أقل من رئاسة الوزراء

. ويقول جوناثان سبيير، الباحث البارز في مركز بحوث «هيرتزليا» للشؤون الدولية، أن الغرب مجّد كثيراً الانتخابات العراقية، كمؤشر على ظهور البلد كدولة ديمقراطية، قادرة على تشكيل قدرها الخاص، برغم الفراغ السياسي الحالي الذي يُظهر كم يمكن أن يكون خاطئاً، ذلك التقييم الغربي.

وفي وقت مبكر من هذا الأسبوع – يقول سبيير- قتل نحو ١٠٠ شخص وجرح مئات آخرون في سلسلة من التفجيرات في بغداد. والتفجيرات –التي نُسبت إلى القاعدة، أو إلى متطرفين سُنّة آخرين- جاءت على خلفية «المأزق السياسي» الذي تلا النتائج غير النهائية لانتخابات الشهر الماضي.

وكان وزير الخارجية، هوشيار زيباري قد علق على هذه الهجمات، رابطاً إياها مباشرة بـ«الفراغ السياسي الخطر» الذي تركته الانتخابات في العراق. وأخبر زيباري المراسلين أن التفجيرات كانت «هجمة سياسية بعثت رسالة مفادها أن الإرهابيين مازالوا يعملون.. .بسبب هذا الفراغ السياسي على هامش خلافات تشكيل الحكومة المقبلة، ولقد أرادوا توصيل تلك الرسالة».

ويقول الباحث الإسرائيلي أن إرهابيي القاعدة ليسوا الوحيدين الذين يراقبون التطورات في العراق من كثب. ففي الحقيقة، أن اللاعبين الآخرين، يستفيدون أيضاً من الفراغ السياسي، والذين قد يكونون أكثر خطراً على المنطقة من «الجهاديين السنّة»!.

ويتابع قائلاً: يلاحظ المرء أن النتائج الأولية للانتخابات تظهر «نصراً ضئيلاً»

للقائمة المختلطة «السنّية الشيعية» لرئيس الوزراء الأسبق، أياد علاوي. وبالمقارنة مع صور الانتخابات الإقليمية المألوفة، فإن نتائج الانتخابات العراقية، بداية لمعركة حقيقية، فضلاً عن خاتمتها.

وقال الباحث في مركز هرتزليا اليهودي أن علاوي يواجه صعوبة في تكوين تحالفه ضمن محاولته تشكيل الحكومة الجديدة، والتحالف الوطني العراقي «الديني» ذا الصلة بإيران، برز كصاحب نفوذ كبير في هذه العملية السياسية. ويتساءل سبيير في تقرير نشرته صحيفة جيروزاليم بوست الناطقة باللغة الإنجليزية، قائلاً: لماذا يواجه علاوي مشاكل كبيرة في سعيه لتشكيل تحالف برلماني؟.

ويجيب عن ذلك بقوله: أن قائمة العراقية التي يقودها رئيس الوزراء الأسبق، ظهرت كرابح لأعلى الأصوات في البرلمان الجديد، ٩١ مقعداً من أصل (٣٢٥ مقعداً) لكنّها بذلك، تبقى بعيدة جداً عن استحقاق الأغلبية التي تحتاجها (١٦٣ مقعداً) لكي تستطيع تشكيل الحكومة المقبلة.

ولهذا فإنّ الحاجة إلى التحالف مسألة واضحة. وإذ يشترط الدستور العراقي، أن الكتلة التي حصلت على العدد الأكبر من المقاعد، تُعطى ٣٠ يوماً لتشكيل الحكومة، فإن علاوي كان يفترض أنّه بالنتيجة التي حصل عليها، يجب أن يُكلف بتشكيل الحكومة. لكنْ على الجانب الآخر –يضيف سبيير- قدّم رئيس الوزراء الحالي نوري المالكي –والذي حصلت قائمته دولة القانون على ٨٩ مقعداً- التماساً إلى المحكمة العليا، بخصوص المعنى الدقيق لعبارة «كتلة». ونجح في الحصول على قرار، يبين أن «الكتلة» لا تعني القائمة المفردة، لكنها تعني أيضاً «تحالفاً من القوائم، يُنشأ بعد الانتخابات، ويكون جاهزاً في وقت انعقاد البرلمان».

والبرلمان الجديد يُنتظر أن يعقد جلسته الأولى نهاية الشهر الحالي. ولهذا فإن المالكي في مسعاه للتفاوض مع القوائم الأصغر، ضمن محاولته لضمان دعمها، كي يكون قادراً على الاستمرار في منصبه رئيساً للوزراء، بتشكيله للحكومة الجديدة.

وفي المرتبة الثالثة –يقول الباحث- حصل التحالف الوطني العراقي ذو العلاقات الوطيدة مع إيران على ٧٠ مقعداً، متبوعاً بالتحالف الكردي الذي حصل على ٤٣ مقعداً. وعلاوي –الذي تتضمن قائمته العلمانية التي يهيمن عليها السُنّة،عناصر كانوا سابقاً مرتبطين بحزب البعث الموالي لصدام- سيكون في موقف ضعف في استقطاب كلا الحزبين المذكورين الشيعي والكردي.

والتحالف الوطني له أسبابه في تفضيل الشيعة المعتدلين في قائمة المالكي. وعلاقات علاوي مع الأكراد ضعيفة أيضاً. وهذا يعني أنه –برغم نصره الظاهر-

فإن علاوي قد ينتهي إلى قبول منصب أقل من رئيس الوزراء، وإلى أداء دور ثانوي في أي تحالف يشكل. إن الحدث غير المحتمل -يقول سبيير- هو أن يشكل علاوي تحالفاً، ذلك أن التحالف الصاعد إلى السلطة، لابد أن يضم الائتلاف الوطني العراقي، وبالدرجة الأساس يكون فيه تحالف المالكي، وكلا التحالفين يسود فيهما الشيعة بشكل مطلق، إذن سيكون صعباً على تحالف علاوي أن يكون وسط هذا الحضور، وضمن «منصب» يُختار له بـ«عناية»!.

ومن جانب آخر فإن قوات الميليشيات التي تدعمها إيران، أظهر كيانها السياسي حضوراً واضحاً في الانتخابات، مقابل أن القوات الأمريكية سيتلاشى دورها العسكري العملياتي، بعد انسحاب يُستكمل في آب المقبل.

أما تباهي الأمريكان -يؤكد الباحث السياسي الإسرائيلي- بإنجاز نصرهم ضد القاعدة والمجموعات المتطرفة الأخرى، بقوات «السورج» وبعدد كبير من المتمردين السُنّة السابقين، فإنه سيتبخر لأن الأمور نهاية هذه السنة والسنة التي تليها ستجعل العراق عرضة أكثر من ذي قبل وبشكل خطير لـ«النفوذ الإيراني».

وقال أن الإيرانيين يستقتلون من أجل بقاء وتطوير هذا النفوذ، لأنهم يحتاجونه في مخطط هيمنتهم على المنطقة. وحسب صحفي عراقي في لبنان «حسين عبد الحسين» فإن النتيجة الحقيقية للانتخابات العراقية، أنها «نصر صامت» لإيران وليس للولايات المتحدة.

وأضاف: «لقد أدارت إيران ثانية عملية هزيمة الولايات المتحدة وشركائها الإقليميين العرب».

لكن الباحث الإسرائيلي يقول: أن هذا لا يعني طبعاً أن الإيرانيين لا يمكن أن يُوقفوا، ولا يعني أن النظام الوحشي واللاديمقراطي في إيران -بحسب تعبير الباحث- لا يمكن أن يُجابه.

ولكن لكي تكون عملية مواجهته فاعلة، يجب أن تعرف أسباب الصمت الطويل على الأدوار التي يلعبها النظام الإيراني في الشرق الأوسط. وطالب جوناثان سبيير الغرب بجعل مواجهة إيران ضمن أولوياتها![1].

(١) أثبتت النتائج على الأرض صحة هذه التوقعات بعد أن تحالف مقتدى الصدر مع نوري المالكي وانضم الأكراد للتحالف واضعين القائمة العراقية في موقف ضعيف أجبرت علاوي وقائمته على التنازل عن أحقية تشكيل الحكومة فيما بعد.

٩ - القنصلية

وسط هذا الجدل المحتدم ضربت العاصمة بغداد سلسلة تفجيرات مروعة استهدفت بعثات دبلوماسية مما أدى إلى سقوط أكثر من ٢٠٠ قتيل وجريح وكان من بين المناطق المستهدفة مقر القنصلية المصرية بشارع الأميرات بحي المنصور الراقى وحاولت الاتصال بأى شخص من أعضاء البعثة المصرية / السفارة/ دون جدوى حتى تمكنت من الاتصال بالسكرتير الثانى / أحمد الأنصارى/ وطلبت منه أن يبلغ السفير بضرورة خروج تصريح رسمى حتى نوقف سيل التصريحات التى تبثها الفضائيات دون وجود معلومة رسمية مصرية خاصة مع استمرار الاتصالات من زملائى من الإعلاميين يستفسرون منى حول ملابسات الأمر لأنهم بالطبع لا يستطيعون الاتصال بسعادة السفير أو أى من عناصر البعثة المتواجدين فى فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء المحصنة ولا يقيمون أى علاقات ممتدة مع أى من وسائل الإعلام العراقية في ذلك الحين .

جاءنى صوت الدبلوماسى الشاب مضطربا رغم أن التفجيرات تبعد عنه عدة كيلومترات كما أن أيا منها لا يستطيع الوصول إلى مقر السفارة التى تتخذ من بعض غرف فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء مقرا لها وهو المكان المحصن الذى يقع داخل حصون تحيطه من كل جانب ..قال الدبلوماسى الشاب بصوت مرتعش « إحنا فاضيين للبيانات الصحفية ؟ ! لما نشوف الأول الكارثة اللى إحنا فيها » متجاهلا بذلك دور الإعلام فى توضيح حقيقة المشهد ومنع أى التباس فى المعلومات خاصة إذا جاء عبر مراسل وكالة الأنباء الرسمية المصرية .. رثيت لحالى أنا الصحفى المحمل بجذوة معرفة الحقيقة .. الذى أعيش فى وسط بغداد ضمن مناطق نفوذ لكافة فرق الموت والميليشيات بلا حماية أو حصون تمنع عنى أى هجوم من خلال قناص أو مجموعة مسلحة قد أكون هدفا له أو أى انفجار قد يطيح برأسى أو مكتبى أو كلاهما معا عكس ما ينعم به الدبلوماسى الشاب الذى يقيم داخل حصون المنطقة الخضراء ويقوم على خدمته فريق كامل من الموظفين والإداريين فلا يضطر لمجرد الظهور خارج القلاع التى يقيم ويعمل فيها ولا يحمل هما للكهرباء أو الماء أو غيرها من الخدمات الأساسية التى بات الحصول عليها بانتظام فى بغداد من أمور الرفاهية التى يتمتع بها الدبلوماسى الشاب مع باقى سكان المنطقة الخضراء ..أما أنا فلا خدمات إلا بشق الأنفس ولا حماية ولا فريق عمل يشاركنى قلقى ووحشتى فى أيام بغداد الدامية التى تقتل الإنسان المعني

بنتل الحقائق .. ثم تمحق الحقائق بعد أن تبيد من يتكفل بنقلها ورغم كل ذلك أمارس كافة أنواع العمل الإعلامى كمراسل لوكالة أنباء الشرق الأوسط ومراسل للإذاعة المصرية وإذاعة صوت العراب وجريدة الشروق اليومية المصرية عبر شبكة من العلاقات تمكنت من بنائها على مدى سنوات المذبحة رغم كل الظروف القاسية التى أعمل فى ظلها والتى عرضتها فى مواضع سابقة من الكتاب .

استمرت حالة اللغط فى التقارير الإعلامية حتى أصدرت وزارة الخارجية المصرية بيانا رسميا بثته الوكالة والقنوات المصرية إلا أنه كان لا يحمل معلومات دقيقة عن الهجوم أو ربما أرادت الخارجية المصرية التهوين من هول الهجوم الذى وقع عند باب القنصلية .. حيث اكتفى البيان بالإشارة إلى إصابة أربعة من الموظفين المصريين فى القنصلية ومقتل قائد الحراسة إلا أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك تماما وكيف لا وأعضاء البعثة يتحصنون خلف جدران المنطقة الخضراء ويعتمدون فى معلوماتهم على الاتصالات الهاتفية .

أبلغنى فى تلك الأثناء زميلى شعلان الجبورى مدير القسم العربى بوكالة الأنباء الصينية / شينخوا/ والذى يقع مقره فى حى المنصور حيث وقع التفجير الذى استهدف القنصلية المصرية أن هجوما انتحاريا استهدف المقر وأن خسائر مادية وبشريه كبيرة لحقت بالمكان .. وتمكنت من الاتصال بأحد الموظفين ويدعى عبد العظيم وطلبت منه أن يدخل الهاتف إلى القنصل هشام حجازى لكى أطمئن عليه .. وجاءنى صوت صديقى هشام مضطربا ليؤكد لى أنه بخير ولكن توجد بعض الأضرار وانتهت المكالمة وأنا فى قلق بالغ على صديقى أولا ومن يعملون معه ثانيا وخاصة بعد أن تأكد مقتل قائد الحرس الخاص بالمقر الرائد طارق نصر الله وكنت قد التقيت به عدة مرات ولا أنسى ابتسامته وطيبته العراقية وهو ما جعلنى أهرع إلى مقر القنصلية متناسيا كل المخاطر المحدقة بالطريق واصطحبت معى أحمد فاضل مراسل قناة النيل للأخبار .

داهمنا مشهد مروع رغم أن أنظارنا اعتادت عليه إلا أنه يداهمنا كل مرة.. دمار شديد .. حفرة فى الأرض تنضح منها المياه .. آثار حرائق وتهشم مبانى وقطع زجاج متناثرة .. سيارات اختفت معالمها وأخرى احتفظت ببعض أجزائها المعدنية .. بقايا أجسام بشرية تفوح منها رائحة الشواء .. حالة من الهلع والذهول والاستنكار تغلفها فرحة مكبوتة بالنجاة من موت محقق .. حزن لفقدان صديق أو قريب .. دعوات بأن ينتقم الله من الظالمين .

إلا أن ما داهمنا هذه المرة أنا وزميلى مراسل النيل /وهو عراقى خاض معترك الموت

عبر مهنة الصحافة وعاصر المئات من التفجيرات / حوار دار بين أحد أقارب ضحايا الهجوم الانتحارى وأحد مسئولى الأمن العراقيين اللذين كانوا يتابعون الحادث سأل العراقى المكلوم عن أخ له كان متواجدا لحظة وقوع الهجوم فأجابه المسؤول / لا يوجد غير فخذ محترق ملقى بجوار مولد الكهرباء / تنهد الرجل فى لهفة تغلبها الدموع / أشوفه الله يخليك .. بكى « يا ريت» يكون فخذ أخى/ .. وعندما شاهدت صديقى القنصل وقد غطى التراب وجهه وملابسه وبدت عليه علامات الإحباط والقلق وارتسم وجهه المشرق المبتسم دائما بقسمات - لم أراها منذ التقيته حين تولى مسئوليته بالعراق - تنطق بالكثير من الهموم التى يغلفها الذهول لما حدث .

احتضنته كأخ لى وترقرقت عيناى بدموع حارقة .. وهمس فى اذنى طالبا عدم نشر أى شيء غير ما يردنى من الجهات الرسمية العراقية وعاتبنى على تعريض نفسى للخطر ومشقة الطريق إلا أنه الواجب الذى لا يمكن أن يمنعنى عن الاطمئنان عليه وعلى أعضاء القنصلية الذين يعملون وسط كل هذه المخاطر والظروف القاسية وبإمكانيات محدودة على حل ما يمكنهم من مشكلات للمصريين المتواجدين بالعراق بعيدا عن حصون المنطقة الخضراء .

عدت وزميلى مراسل قناة النيل نجتر الألم وكأننا نرى مشاهد التفجير للمرة الأولى إلا أن بغداد كلها بدت وكأنها تتعرض لتفجير للمرة الأولى حيث خلت الشوارع بشكل مثير للدهشة بعد أن هرع الناس إلى بيوتهم رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز الثالثة عصراً وبات الجميع ونحن منهم ينتظر الأسوأ وما سيئول إليه الوضع المضطرب والجميع يتساءل إلى أين تسير خلافات شركاء العملية السياسية .

وكما كنا نتساءل كل مرة يحدث فيها تفجير مروع يستهدف منطقة محصنة تساءلنا تلك المرة .. كيف تصل تلك المفخخات التى يقودها انتحاريون إلى مكان مثل السفارة الإيرانية فى منطقة الصالحية على سبيل المثال ؟ وموقع السفارة الإيرانية فى بغداد لمن لا يعلم موقع استراتيجى تم اختياره بعنايه ورغم وقوعه خارج المنطقة الخضراء إلا أن الوصول اليه تعيقه حواجز بشرية وكتل أسمنتية وجدران محصنة فالقادم بسيارته عبر جسر « السنك الواصل بين الكرخ والرصافة يمر خلال مسيرته للوصول إلى السفارة بعدة نقاط تفتيش وأجهزة لكشف المتفجرات وكذلك القادم عبر جسر « الجمهورى، الذى يمر بجوار مدخل وزارة الدفاع أما القادم إلى ذلك المكان من منطقة العلاوى التى تضم وزارة الخارجية وبعض الوزارات والمبانى والمقرات الهامة فانه يمر أيضا خلال عدة نقاط تفتيش شديدة السيطرة تصطف أمامها طوابير السيارات للتفتيش والتدقيق فى الهويات والسؤال نفسه يندرج على كل

المواقع التى تم تفجيرها خاصة سلسلة التفجيرات التى هزت العاصمة وأطلق على أيامها الأربعاء الدامى والأحد الدامى والاثنين الدامى وغير ذلك من الأسماء الدموية .

علمنا فيما بعد أن المنزل المجاور للقنصلية المصرية كان عبارة عن ذاكرة ثقافية انهارت مع تفجيره فقد كان بيت الأديب والفنان الموسوعى جبرا إبراهيم جبرا الذى لم يعرف الانتحاري الذي قاد السيارة المفخخة مستهدفاً مبنى القنصلية المصرية شيئاً عنها ومن هو صاحبها؟ وماذا تحوي من كنوز فنية ونفائس أدبية؟ وأي تراث شخصي وتاريخ ثقافي قد دمّر بفعله الإجرامي - لحظة انفجاره بما يقود ويحمل ليدمر ويحرق كل شيء في الدار التي من بابها دخل: من البشر، إلى الفن، إلى الثقافة، وما هنالك من وثائق مهمة تمثل ذاكرة مرحلة من أهم مراحل الثقافة الحديثة؟

ترك جبرا إبراهيم جبرا من بعد وفاته عام ١٩٩٤فى تلك الدار ، أعمال فنية نادرة لكبار فناني العراق، وآلاف الأوراق المخطوط منها والمطبوع، والوثائق التي تمثل ذاكرة مرحلة لعلها من أخصب مراحل الإبداع وأكثرها غنى.

ذهب الهجوم البربرى بما فيها بعد أن تحولت إلى ركام من الحجارة والتراب والرماد ..فالدار تهاوت على ما فيها، ومن فيها، والأعمال الفنية والكتب والورق بصفحاته التي تعد بالآلاف تحولت إلى رماد .. وأعلى هذا الركام لافتة سوداء تنعى «أم علي» شقيقة زوجة ابن جبرا التى كانت لحظة وقوع الحادث تجلس في تلك الغرفة الصغيرة، على يسار الدار من ناحية الجراج، وهي الغرفة المحببة إلى جبرا والتي كان يحب أن يستقبل فيها الخاصة من أصدقائه، فتهاوت عليها، ولم يتمكنوا من انتشال جثمانها من تحت الركام إلا في اليوم التالي!

ذهب ما كان في داخل الدار، وفي الممرات والغرف من أعمال فنية تجمع بين جواد سليم، وشاكر حسن، ومحمد غني، ونوري الراوي، وضياء العزاوي، ورافع الناصري، وراكان دبدوب، وسعاد العطار، وعشرات الأسماء الأخرى من فناني العراق، من جيله ومن الآتين من بعد ذلك الجيل الرائد، فضلاً عن أعماله هو. وكذلك الأوراق التي تضم ما كتب ولم يضمه في كتاب، والمسودات التي تمثل الكتابة الأولى لرواياته وقصصه، بوجه خاص، فضلاً عن مئات الرسائل المهمة أدبياً من عشرات الأدباء والأصدقاء من عرب وأجانب، وصور عن رسائله التي كتبها لهؤلاء الأصدقاء منذ ثمانينات القرن الماضي وحتى يوم رحيله

ذهبت الدار، التي رسم جبرا خريطتها بنفسه وأشرف على تنفيذها، وأرادها أن

تكون «متحفاً» له من بعد وفاته، إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل!

ومن بين ما ذهب مع ما ذهب صور فريدة، وتسجيلات صوتية، وأشرطة فيديو لندوات ولقاءات ومحاضرات كان يلقيها أو يشارك فيها، وها هو اليوم كل شيء يتداعى ويحترق: الدار بمن فيها وما فيها، والنار التي عصفت بكل شيء وأتت على كل شيء، مخلفة الرماد، ولا شيء سوى الرماد من دار كانت مركز حيوية ثقافية على مدى نحو نصف قرن من الزمان..

١٠ - تقرير الشروق

بعد مرور يومين على الهجوم المروع على مبنى القنصلية المصرية فى بغداد لم تنقطع خلالهما الاتصالات مع القنصل المصرى هشام حجازى للاطمئنان على سير العمل فى إزاحة آثار الهجوم البربرى ومحاولة إقناعه بعمل تقرير مصور يوضح حقيقة ما جرى والدور البطولى للمصريين والعراقيين على حد سواء وإظهار موقفه الرائع الرافض للانتقال إلى داخل حصون المنطقة الخضراء رغم حجم المخاطر التى ترجمت عمليا فى هجوم بربرى أطاح بفريق الحماية وكاد أن يطيح برؤوس عدد من موظفى البعثة .. اقتنع الصديق برأيى الصحفى وسمح لى بكتابة تقرير كأول صحفى يدخل إلى مبنى القنصلية المدمر وتصوير ما لحق بالمكان وسكانه ونشره فى صحيفة الشروق التى أمدها ببعض المواد الصحفية .. فكان هذا التقرير المدعم بالصور :

«فى شارع الأميرات بحى المنصور الراقى غربى العاصمة العراقية بغداد تقاطعت كل الخطوط .. سياسيا .. أمنيا .. إنسانيا لترسم مشهداً معقداً اجتمعت فيه نذالة القاتل مع شهامة الشهيد .. وارتفعت أصوات التحدى والبقاء لتطغى على نعيق التهديدات التى يترجمها الإرهاب عمليا إلى بارود ودماء .

«الشروق» تمكنت من الدخول إلى مسرح الحدث حيث المشهد الدامى لتكون وسيلة الإعلام الوحيدة التى اخترقت كل التحصينات الأمنية التى فرضتها السلطات العراقية بعد أن أغلقت كل الطرق المؤدية من وإلى القنصلية المصرية بعد تعرضها لهجوم انتحارى بحافلة صغيرة أدى إلى انهيار عدد من المبانى المجاورة للقنصلية ومقتل وإصابة عدد كبير من المدنيين الأبرياء .. فيما نال مبنى مقر القنصلية نصيب وافر من الدمار والحرائق خلفت أربعة قتلى من الفريق العراقى المسئول عن حماية المبنى على رأسهم الرائد طارق قائد الفريق وإصابة أربعة آخرين بجروح خطيرة بالإضافة إلى إصابة أربعة من المصريين العاملين بالقنصلية بجروح ليست خطيرة .

بعد محاولات مضنية لتجاوز الحواجز الأمنية والكونكريتية التى تغلق الطرق المؤدية من وإلى مبنى القنصلية المصرية تمكنت من الوصول سيراً على الأقدام إلى الشارع المؤدى إلى المبنى وبدأت آثار الهجوم تظهر شيئا فشيئا ..بقايا الزجاج الذى يفرش الأرض .. سيارات محترقة تماما أو مهشمة .. بيوت يكسوها السواد وتعلوها شارات الحزن ..أب مكلوم بفقدان ثلاثة من أبنائه يقف بباب بيته ينتظر خبرا عن طفله الذى لم يعثر له على أى أثر بسبب شدة الانفجار..رجال أمن عراقيون يصطفون على جانبى الطريق متحفزين ..حفرة قطرها أربعة أمتار بعمق يزيد على المتر أحدثها الانفجار .. قطع حديد صغيرة متفحمة هى كل ما تبقى من الحافلة التى كان يستقلها الانتحارى قبل أن يفجرها .. بقايا السور الرئيسي للتنصلية الذى أطاح الانفجار ببواته الحديدية العملاقة .. عمال عراقيون يعملون بجهد خارق لإزالة آثار الدمار يعاونهم عدد من العاملين بالقنصلية فى مشهد يشرف عليه القنصل المصرى هشام حجازى الذى نجا بأعجوبة ويسابق الساعات حتى يعيد المشهد إلى ما كان عليه قبل الهجوم بأسرع وقت ممكن ليواصل تقديم الخدمات المعتادة للمصريين والعراقيين الذين يراجعون القنصلية .

استقبلنى القنصل بابتسامة يغلفها الحزن وتنطق بالإصرار على الاستمرار رغم كل ما حدث .. قال لى بنبرة الواثق سوف نستمر فى العمل مهما كانت الظروف ومهما زادت المخاطر لأن العراق لمصر ومصر للعراق وأكبر دليل على ذلك هذه الكوكبة من الشهداء العراقيين المسئولين عن حماية السفارة الذين اندفعوا لأداء واجبهم المقدس فى حماية إخوانهم المصريين واستشهدوا لأنهم لم يخافوا من الموت المحقق ودافعوا بكل قوة حتى لا يتمكن الانتحارى من الوصول إلى نقطة أقرب من تلك التى وصلها بحافلته المليئة بالمتفجرات .. وما حدث هو تعبير عن اليأس .

سألته كيف ؟؟ .. قال لى أن الانتحارى ومن وراءه أيا كانت هويتهم وصلوا إلى مرحلة اليأس وما حدث من هجوم مروع هو نوع من الرد على نشاط الدور المصرى والعربى فى العراق خلال الفترة الماضية .. وكما ترى الإرهاب موجه للجميع لتغييب الدور الحقيقى الداعم للعراق الذى يريد أن يخرج من كبوته وينفتح على محيطه العربى والإقليمى .

اصطحبنى الوزير المفوض هشام حجازى إلى داخل المبنى لأكون شاهد عيان على ما لحق به من دمار لا يمكن أن يثنيه هو أو فريق عمله عن مواصلة جهدهم فى خدمة مصر والعراق .. رأيت حجم الدمار الذى لحق بالمبنى من الداخل

وكيف تحولت مكاتب موظفيه إلى ركام وبقايا حطام وخراب لم تتوانى السلطات العراقية لحظة واحدة عن مد يد العون لإنهائه بعد أن طالت يده كل مكان في القنصلية وهو ما جعل القنصل المصرى يظهر الكثير من الامتنان للعراقيين وخاصة الشهداء الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الواجب .

أكد لى أن السلطات العراقية بكافة مفاصلها قدمت العون حيث أرسلت وزارة الدفاع خلية طبية وقامت الخارجية فى غضون ساعات بعد الهجوم بالعمل على إعادة التيار الكهربائى والمياه كما زار القنصلية شيروان الوائلى وزير الدولة لشئون الأمن الوطنى والفريق الركن حسين العوادى قائد الشرطة الوطنية واللواء رعد عبد الكاظم قائد حماية السفارات كما عبرت كافة القوى السياسية عن دعمها .. الجميع لا يريد أى غياب للدور الذى تقوم به مصر وهو ما يعجل بعودة ماكينة العمل بالقنصلية للدوران مرة أخرى فى أقرب وقت ممكن .

قال لى القنصل المصرى « أن الدعم العراقى لم يتوقف عند حدود الكلام وإنما تمت ترجمته عمليا بإرسال فريق جديد للحماية وتكثيف الإجراءات الأمنية وتخصيص سيارة مصفحة بعد أن تهشمت كل سيارات القنصلية بما فيها سيارة القنصل وهو ما اعتبره مؤشراً راسخاً على علاقات وطيدة استطاع بناءها خلال فترة عمله بالعراق مدعوما بالثقل المصرى ورغبة العراقيين فى مد الجسور مع الشقيقة الكبرى » .

ثم روى لى عبد العاطى سعيد الذى تسلم عمله بالقنصلية المصرية بالعراق قبل أسبوعين فقطه عن بطولة الشهيد الرائد طارق نصر مبارك الذى هرع إلى بوابة القنصلية عندما سمع إطلاق النار من جانب أفراد الحماية الذين حاولوا إيقاف تقدم الانتحارى وكيف واجه الانتحارى بشجاعة فائقة وأطلق نيران مسدسه فى محاولة فاشلة لايقاف تقدمه وهو ما جعل الانتحارى يفجر نفسه ليطيح بالشهداء الثلاثة من عناصر الحماية ويقتل سبعة من جيران القنصلية ويصيب عددا كبيرا بينهم أربعة من عناصر الحماية العراقيين حالتهم خطيرة بالإضافة إلى أربعة من المصريين اللذين تم نقلهم إلى مستشفى اليرموك القريب لتلقى العلاج السريع ثم عادوا إلى مقر القنصلية ليستكملوا علاجهم .

«الشروق» التقت اثنين من المصابين المصريين رووا ما حدث وكيف أطاح الانفجار بهم وأدى إلى إصابات كبيرة لكنها ليست خطيرة .. يقول صبحى سعدى مصطفى الذى تحول مكتبه إلى أطلال « الحمد لله على النجاة من موت محقق .. عندما وقع الانفجار فقدت الوعى ولم أشعر بنفسى إلا فى المستشفى وأنا مصاب بجروح فى

الرأس واليد والقدمين ولكننى فضلت العودة لأشارك زملائى فى إعادة العمل بالقنصلية لوضعه الطبيعى رغم أننى أخضع للعلاج » .. ويتساءل الحاج صبحى كما يطلقون عليه بالقنصلية .. لماذا يحدث كل هذا .. لمصلحة من .. ماذا سوف يكسبون .. وما السبب الذى يجعل الانتحارى يفعل كل هذا .. وما هى النتيجة .. ربنا يهدى».

ويتول «أحمد محمود الغرباوى» الذى كان قد اقترب كثيرا من الموت وشاهد ما جرى منذ اللحظة الأولى حيث كان مسئولا عن استلام جوازات السفر من المراجعين عند البوابة الخارجية للقنصلية « شاهدت الرائد طارق رحمه الله يجرى باتجاه الانتحارى الذى كان يقود حافلة بيضاء صغيرة محاولا إيقافه وهو يطلق النيران ومعه أعضاء الحماية وهو السبب فى عدم اختراق الانتحارى لأبواب القنصلية لأنه اضطر إلى تفجير الحافلة وبعدها فقدت الوعى وعندما عدت اكتشفت حجم الدمار الذى لحق بالقنصلية والبيوت المجاورة لها » .. ويؤكد أحمد وهو شاب لم يتجاوز الثلاثين أنه رغم ما حدث وخضوعه للعلاج فانه يواصل عمله قدر ما يستطيع حتى تعود الأمور إلى طبيعتها وأن هذا الهجوم الجبان زاده إصراراً على مواصلة العمل بالعراق ضمن فريق القنصلية .

أما المصابين الآخرين وهما فوزى عبد السلام وأيمن فهيم فقد حالت ظروف الوقت دون لقائهما حيث كان النهار قدوصل إلى نهايته مما اضطرنى إلى الإسراع لمغادرة المكان والعودة إلى أدراجى بعد أن اطمأننت عليهما وأن حالتهما مستقرة ويمارسان حياتهما بشكل طبيعى ويخضعان لعلاج داخل القنصلية من فريق طبى عراقى .

السفير المصري في العراق شريف كمال شاهين الذى زار القنصلية فى اليوم الثانى للهجوم للوقوف على حقيقة ما جرى ومعاينة الأمور على أرض الواقع أكد « للشروق » خلال اتصال هاتفى أن البعثة الدبلوماسية المصرية لن تغادر العراق».. فالبعثة كانت تواصل عملها، وسوف تستمر فى أداء عملها دون أن تتأثر بحادث التفجير .

وقال شاهين « هذا هو هدف الإرهابيين الذين أرادوا إرهابنا معنويا حتى لا نقف مع العراق» .. مشيرا إلى أن السفارة المصرية مدينة للعراقيين الذين استشهدوا وهم يدافعون عن مقر القنصلية ، لأن تدخلهم منع الانتحارى من دخول مبنى القنصلية وإلحاق المزيد من الأضرار وربما الضحايا .

وأضاف «هناك تنسيق مع السلطات العراقية للكشف عن هوية مرتكبى الهجوم » إلا أنه رفض الكشف عن أية معلومات حول ما انتهت إليه تحقيقات الجانب العراقى خلال الساعات الماضية».

١١ - بعد العاصفة

فى آخر زيارة لى إلى مقر القنصلية قبل مغادرتى العراق بحوالى شهر هالنى ما رأيت بعد أن تغيرت معالم الطريق المؤدى إلى المبنى الذى بدا يتعافى بمن فيه .. جدران أسمنتية يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار تحيط بالمبنى وتسد الطريق إليه بالكامل من جانب بيت جبرا إبراهيم جبرا وحدود مدرسة الرسالة بينما يقف حراس متحفزون شاهرين سلاحهم فى وجه القادمين على حدود جدار أسمنتى آخر عند المدخل المؤدى إلى مكتب القنصل .

لم يعد هناك مكان آدمى لاستقبال المراجعين للقنصلية من العراقيين والمصريين الذين يضطرون للوقوف ساعات طويلة ينتظرون إشارة المرور من حراس المقر الذى بات يوحى مشهده بالعاصفة التى تعرض لها جراء الهجوم الانتحارى .. حيث شكا لى مصريون جاءوا لإنهاء مصالحهم بالقنصلية من طول الانتظار فى لهيب الشمس الحارقة بينما شكا عراقيون بينهم طلاب وموظفون وإعلاميون وأساتذة جامعات ومهندسون وأطباء ورجال أعمال وتجار من استحالة الحصول على تأشيرة دخول إلى مصر سواء للعلاج أو الدراسة أو زيارة الأهل الذين حصلوا على إقامة بالمحروسة قبل اشتداد الأزمة .

نقلت الشكوى إلى القنصل هشام حجازى الذى يحاول قدر الإمكان إنهاء ما تيسر من مراجعات وتذليل بعض العقبات فشكا لى بدوره من ضعف الإمكانيات وانخفاض أعداد العاملين بالقنصلية قياسا بما ينجزونه من أعمال .. إلا أن قضية منح التأشيرة تبقى أمرا شديد الغموض ويبدو أنه مازال مستعصيا على الحل رغم توافر التأشيرات إلى مصر بمبالغ كبيرة من خلال شركات السياحة المنتشرة فى كل مناطق العراق بالإضافة إلى ما تمنحه القنصلية من تأشيرات للوفود الرسمية أو بعض الحالات سعيدة الحظ .



الفصل السابع

مصريون
داخل المذبحة

١ - حكايات

تثير حكايات المصريين بالعراق حتى من نجح منهم الكثير من الألم فى النفس حُزنًا على مواطنين حضروا للعراق تحت ضغط الحاجة وطمعا فى بناء بيت وتكوين عائلة عند العودة إلى بلدهم إلا أنَّ حتى من نجح منهم بالعراق لم ينجح فى تحقيق الحلم الثانى وهو تكوين عائلة مصرية وإنما احتمى بعائلة عراقية ربما تكون جدارا يحتمى به إذا ما ضل طريق العودة إلى بلده الأم أو عوضاً عن الفشل فى جمع ثروة كان يحلم أن يعود بها ليبنى بيتا بالطوب الأحمر فى قريته ويصبح من ذوى الجاه .. أما من وقف الحظ العاثر فى طريقه فهم الأغلبية من المصريين اللذين استمروا بالعراق بعد الاحتلال الأمريكى واللذين لا توجد إحصائية ولو تقريبية لأعدادهم ومناطق تواجدهم .. حكايات هنا وهناك عن مصريين خاضوا غمار المذبحة .. اكتوى بعضهم بنيرانها وساهم آخرون فى إطفائها .. حقق بعضهم الكثير وصار أحد العناصر الفاعلة بالمجتمع العراقى ونموذجا يحتذى وفشل الآخرون على كافة المستويات وصاروا نماذج منبوذه فى مجتمع عشائرى يعلى قيم الالتزام والأخلاق على النجاح والثراء .. ربما تكون القصص التى أعرضها قصصا فردية لأشخاص محددين إلا أن تلك القصص تتشابه وتتكرر ولكن بأسماء مختلفة وأماكن مختلفة .

٢ - الصعيدى والقاعدة

وجه

ومن أقاصي الجنوب أتى

عاملاً للبناء

كان يصعد «سقالة» ويغني لهذا الفضاء

هكذا وصف أمل دنقل فى قصيدته الرائعة « الجنوبى» وجها صعيديا لا يعرف إلا خشونة العيش أينما كان المكان ووقتما كان الزمان .. تذكرت تلك القصيدة عندما التقيت هذا الصعيدى الذى ذاع صيته فى منطقة يطلق عليها أرض النار فيها تشكلت دولة العراق الإسلامية وانطلقت منها وبعدد من سكانها صولات تنظيم القاعدة وهجماته التى أحرقت الأخضر واليابس .. وفيها كانت بداية النهاية للتنظيم بعد أن دق مناصروه المسمار الأخير فى نعشه بعد أن كشفوا حقيقته وطبيعة أفكاره التدميرية التى طالت الجميع وأصبح لكل بيت فيها نصيب من الموت

قهرا أو قتلا .. جاء عايد محمد عبد العزيز الذى يعرفه الجميع بـ« عيد المصرى » إلى العراق نهاية الثمانينيات مثل ملايين المصريين الذين توافدوا على أرض الخير بحثا عن الرزق الوفير ليعودوا إلى قراهم ويبنوا بيتا بالطوب الأحمر وبه التليفزيون والفيديو والمروحة .. جاء إلى العراق بعد أن ضاقت به «أولاد طوق – شرقية التابعة لمحافظة سوهاج .. ترك قريته «نجع البلابيش» التى ضاقت أرضها الطيبة بأولادها ليزرع أرضا أخرى ربما تمنحه المزيد من الرزق .. لم يكن يملك من حطام الدنيا إلا جلبابا صعيديا يحمله فوق جسده الممتلىء .. لأخبرة لديه سوى حرث الأرض وزراعتها .. لا شيء يعينه على الحياة سوى بعض الصحة التى وهبها له الله وزادتها أرض الصعيد الطيبة وحياتها الخشنة .. كان عيد محظوظا كغيره من المصريين الذين حط بهم الرحال فى هذا المكان وبين هؤلاء الناس .. بدرى محمد محمود عثمان وهو من أبنوب بمحافظة أسيوط الذي يعرفه أهل البلد بالطيبة ورقة الطبع رغم أصوله الصعيدية وحياته الخشنة .

كما غادر عيد أرضا طيبة استقر فى أرض طيبة برعاية أهلها الطيبين الذين احتضنوه وزوجوه من بناتهم فالالتزام الأخلاقى فى المجتمعات العشائرية هو الأساس .. صار عيد يتمتع بخصوصية فى منطقة الضلوعية التابعة لمحافظة صلاح الدين التى تبعد حوالى ٩٠ كيلومترا إلى الشمال من بغداد .. صارت كل البيوت بيته يشارك أهلها أفراحهم وأحزانهم .. تعلم عيد فضيلة « الفزعة» وتعنى التطوع لخدمة الجيران فى كل أمور الحياة بدءا من العمل بالزراعة فى أرضهم أو حتى القتال فى قتالهم .. كان الرد بالمثل .. كما أحب عيد أهل الضلوعية أحبوه حتى أنه شارك فيما عرف بالجيش الشعبى الذى كان يضم متطوعين من مختلف الأعمار يقاتلون بالتوازى مع الجيش النظامى العراقى ومهمتهم الأساسية حماية مناطقهم من تسلل أى غريب .

بعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق عام ٢٠٠٣ شارك عيد المصرى فى عمليات المقاومة التى قادها رجال مخلصون يدافعون عن حق مقاومة الاحتلال التى كفلتها كل القوانين الدولية بعيدا عن أى أجندات خارجية .. إلا أن عمليات المقاومة الحقيقية سرعان ما تحول مجراها إلى جهات لا تعنيها مقاومة المحتل بقدر ما تعنيها فرض فكر رفضه الجميع وأعنى بذلك تنظيم القاعدة الذى تحول مقاتلوه بعد عام ٢٠٠٥ إلى مقاتلة العراقيين وذبح أهل السنة تحديدا فى المناطق السنية توازيا مع ذبح الشيعة « الرافضة » عندما تطالهم أيدى المسلحين كما يحلو لتنظيم القاعدة ذلك .

سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ وصارت الضلوعية مركزا للموت والقهر

والرعب وجرى على عيد ما جرى على أهل البلدة الطيبين الذين ردت لهم القاعدة جميلهم فى دعم المجاهدين بقتل أهلها والتنكيل بهم .. وكان قتل ثلاثة من أبناء أحد رفاق عيد ويدعى «طلب حسين » نقطة تحول ساهمت فى فورة دم صعيدية تطوع عيد على أثرها ضمن إحدى المجموعات التى شكلها رجال العشائر لمقاتلة تنظيم القاعدة والتى عرفت باسم قوات الصحوة وخاض قتالا ضاريا مع تلك القوات .

يروى عيد أن تنظيم القاعدة حاول فى ربيع عام ٢٠٠٧ تفجير المنزل الذى يقيم فيه مع أسرته حيث كان ملكا لأحد العاملين فى المطار اسمه «رزاق الناصر» وهو فى رأى القاعدة خائنا لأنه يعمل مع الصليبيين .. قام مجموعة من مقاتلى القاعدة بزرع كميات من المتفجرات حول المنزل كما كانت تجرى الأمور غالبا بالنسبة لبيوت من تثبت عليه تهمة العمل مع الأمريكان كمترجم أو مقاول أو حتى عامل نظافة .

أعطى المسلحون عيد مهلة أسبوع لمغادرة المكان وإلا هدموه فوق رأسه مع زوجته وأطفاله .. لم يستسلم وذهب إلى أمير المجموعة وكان سورى الجنسية وطلب منه إلغاء الأمر بتفجير المنزل .. لكن الأمير رفض وقال يمكن مد المهلة شهراً واحداً .. وخلال هذا الشهر كان القتال ضد تنظيم القاعدة قد اشتعل وظهرت قوات الصحوة لتعمل فى العلن كما بدأت قوات الشرطة والجيش فى استعادة بعض مقاليد الأمور وهو ما سيرد ذكره تفصيلا فى موضع آخر من الكتاب .

يقول عيد أنه انضم إلى مجموعة قوات الصحوة التى قادها الشيخ نجم العبد الله الزويع والتى كان يطلق عليها « صحوة أسود أبو نمر» والتى كانت مسئولة عن منطقة الداودية « شرق الضلوعية» والتى خاضت معارك عنيفة مع تنظيم القاعدة تمكنت خلالها من كسر شوكته وكبدته خسائر بشرية ومادية فادحة .. كانت أشد هذه المعارك كما يروى عيد فى منطقة « البوصليبى » التى تقع على طريق العظيم الذى كان يسمى طريق الموت حيث لا أحد يستطيع الوصول إلى هذا الطريق .. استمرت المعركة لمدة ست ساعات انضمت خلالها قوات الشرطة والجيش الرسمية إلى قوات الصحوة.

يقول عيد « كانت تلك المنطقة محورا مفتوحا على ثلاث محافظات هى ديالى وكركوك وسامراء ضمن محافظة صلاح الدين وكان لابد من تأمين تلك المنطقة ولهذا فإن هذه المعركة العنيفة فتحت الباب لعمليات قتالية انتقامية من قبل تنظيم القاعدة أدت إلى مقتل عدد كبير من قوات الصحوة والمواطنين الذين دعموها ضد القاعدة فى هذه المعركة .

شجعت هذه المعركة ومعارك أخرى تلقت فيها القاعدة ضربات موجعة الناس على التحرر من مخاوفهم بعد أن كانوا يتحاشون الصدام مع تنظيم القاعدة وكان من لا يقدر على القتال يقوم بتزويد القوات الأمنية بالمعلومات اللازمة عن اختباء المسلحين الذين جرى إلقاء القبض على عدد كبير منهم وخاصة القياديين .

خاض عيد المصرى هذه المعارك التى خلصت المنطقة من شرور تنظيم القاعدة كأى عراقى وهو الصعيدى الطيب الذى مازال يحتفظ بابتسامة عريضة وصوت جهورى يعرفه الجميع لتظل كل البيوت بيته وكل الناس أهله .. عرف عيد الطريق إلى أرقام الهاتف المحمول فهو الوسيلة الوحيدة الآن للتواصل مع « نجع البلابيش» وأولاد طوق وسوهاج .

عاش عيد كأن الحياة أبد
وكأن الشراب نفد
وكأن البنات الجميلات يمشين فوق الزبد
عاش منتصباً، بينما
ينحني القلب يبحث عما فقد
«فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنه
يشتهي أن يلاقي اثنتين
الحقيقة والأوجه الغائبة» .

٣ - جميل

حَمَلَتْنا الشَّواديفُ من هدأةِ النهرِ
ألقتْ بنا في جداولِ أرضِ الغرابة
نتفرَّقُ بينَ حقولِ الأسى.. وحقولِ الصبابة.

من إحدى قرى سيدى سالم الفقيرة بمحافظة كفر الشيخ شمال مصر جاء جميل ضمن مواكب العابرين إلى أرض الغربة فى مرحلة كان العراق أرض الخيرات التى تتيح الحصول على أموال وفيرة من خلال العمل الجاد بعد أن أكلت سنوات الحرب مع إيران خيرة الشباب العراقيين وأصبح المصريون يشكلون الجبهة الداخلية التى تدير عجلة الإنتاج فى كافة القطاعات والميادين حتى تستمر الحياة الطبيعية دون أن تتوقف تحت وطأة حرب الثمان سنوات التى احترق فيها الأخضر واليابس بلا هدف محدد أو نتيجة حتمية أو مكاسب حقيقية .. عمل

جميل مثل معظم المصريين فى مجال المطاعم والمقاهى بدءاً من البصـــرة جنوبـــا حتى حطت به الأيام فى العاصمة بغداد .. سنوات الكفاح الطويل التى راح معظم نتاجها المادى أضاعت سنوات العمر الذى زحف إلى نهاية الأربعينيات . كان سوء الحظ يقف له بالمرصاد .. فما أن يستقر فى عمل حتى تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .. وما أن يمسك بيده بعض المال حتى تذهب به الأهوال أدراج الريـــاح .. مرة يتعرض للسرقة .. وحين يعوض ما ضاع تأتى قرارات الحصار علـــى العـــراق فتنهار العملة إلى الحضيض وبدلا من أن تعادل آلاف الدنانير التى يدخرها آلاف الدولارات تصبح بلا قيمة ولا تساوى حبر الطباعة التى كتبت به حيـــث كـــان الدينار العراقى يساوى أكثر من ثلاثة دولارات إلا أن إجراءات الحصـــار الـــدولى عقب غزو الكويت أدى إلى انهيار العملة العراقية ليصبح الـــدينار فـــى عـــام ٢٠٠٢ يساوى ٢٥٠٠ دينار .

هكذا مضت السنون تأكل من أموال جميل وأيام عمره ليتبدل جميل من شاب يافع حالم بغد مشرق إلى كهل أبيض الشعر يمتلىء وجهه بتجاعيد عرجها الزمن وزاد من اتساعها رغم أنه لم يصل إلى الخمسين .. لا بيت ولا أولاد ولا أموال حتى دخلت القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وانهارت مؤسسات الدولة العراقيـــة ليبـــدأ عهد جديد لم يكن أفضل حالا بالنسبة لجميل .

هيأت له الظروف إقامة فى فندق مهجور وسط بغداد التى كانت فنادقهـــا قـــد أغلقت أبوابها يقضى يومه يبيع الشاى العراقى على ناصـــية أحـــد شـــوارع وســـط العاصمة ليكسب ما يقيم أوده فقط ويلقى بجسده المثقل على أرض الفندق المهجـــور بلا فراش راضيا بالنصيب والقدر المحتوم الذى ضيع كل ما حلم به ومنعه من مجرد التفكير فى العودة خالى الوفاض إلى أهل ربما ينتظرون عودته وهو يحمـــل كنـــوز العراق التى حلموا بها معه عندما غادرهم لأول مرة وهو فى ريعان الشباب .

ولأنه مصرى فى وقت كان من يحمل تلك الجنسية متهم بلا مبرر يقع تحـــت طائلة حقد أعمى من أشخاص أو جهات ربما لا تربطه بهم أى علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالخير أو الشر إنما هو حقد من يظن أن المصريين حصلوا على امتيازات فى عهد صدام حسين الذى باتوا يطلقون عليه لفظ العهد البائد وهو ما جعـــل جميـــل ضمن طائلة الأحقاد والشكوك بلا جريمة ارتكبها وبلا مكاسب حصل عليهـــا ربمـــا كانت أنقذته من حالة مذرية يعيشها طوال يوم قاس ينتهى بنوم على أرض خشـــنة بلا فراش أو غطاء .

يبدو أن مبررا طرأ على أحد الساقطين اللذين اكتوى أقرانهم بنيران احقادهم

وسفالتهم وسقوطهم الأخلاقى ضمن ما كان يعرف بالمخبر السرى الذى يشى بالناس لمجرد عدم القبول أو الاستلطاف ويمكن لوشايته الحقيرة أن تذهب بحياة شخص لا ذنب له إلا أنه حلم ذات مرة أن يعيش كباقى خلق الله حياة مستقرة بعد شقاء سنوات الغربة .

كان هذا ما جرى لجميل الذى طمع أحد الساقطين من المخبرين السريين اللذين تذهب إخبارياتهم إلى عناصر الميليشيات التى كانت تسيطر على المنطقة فى ذلك الوقت .. طمع هذا الساقط فى أرض يلقى جميل عليها بجسده المثقل ويلتحف برداء ملىء بثقوب تحكى سنوات ضياعه وشقائه وانهيار أحلامه فى الاستقرار والحياة العادية .

أخبر هذا الساقط رجال الميليشيات بوجود/مصرى مجرم يمارس تجارة المخدرات ويفسد الشباب الصالحين من اهل المنطقة ضمن مؤامرة تدمير العراق/ التى يقع على العرب عامة والمصريين خاصة العبىء الأكبر لتنفيذها !!! وأقسم يمين القران الشريف على أيدى من لا يؤمنون بما جاء فى كتاب الله وإنما يتخذونه غطاء لأعمالهم الإجرامية من قتل وتنكيل فى من يعتبرونهم أعداء الله والرسول وأهل بيته الكرام .

نهاية العام ٢٠٠٦ جرت عملية اعتقال لجميل من عناصر ميليشيا مسلحة وجرى تعذيبه رغم العذابات التى جربها طوال ٢٠ عاما .. كانت هذه هى النهاية بالنسبة لجميل كجسد غادرته الروح منذ بعيد إلا أنه بقى عالقا بين اليأس والرجاء طمعا فى انقلاب الأمور إلى حالها الطبيعى وتحقيق ما يمكن من بقايا حلم عادى إلا أن تلك النهاية الفاجعة أكملت على ما تبقى من حطام أحلام جميل واستقرت رصاصة أسفل الرأس ألقى بعدها على قارعة الطريق حتى انتهى المطاف بجسده المثخن بطعنات الزمن إلى أرضية إحدى ردهات الطب العدلى / المشرحة/ مثل آلاف غيره لقوا نفس المصير ضمن موجة القتل العبثى التى لم يكن يعلم أحد إلى أين تمتد وتم دفن جميل فى المقابر الجماعية لمجهولى الهوية بمدينة النجف الأشرف وتحول الفتى الذى كان جميلا إلى مجرد رقم وصورة لن تجد من يفتش عن صاحبها .

٤ - العاشق

لاتفَري من يدي مختبئة

.. خبت النار بجوف المدفأة

أنا..

(لو تدرين)

من كنتِ له طفله

لولا زمان فجأة

كان في كفي ما ضيعته

في وعود الكلمات المرجأة

كان في حبي لم أدر به

.. أو يدري البحر قدر اللؤلؤة؟

إنما عمرك عمر ضائع من شبابي

في الدروب المخطئة

في العام ١٩٨٤ جاء عاشق إلى بغداد هربا من فشل في إتمام مشوار الحب بمن يحب .. غادر مصر هربا من شعور بالهزيمة رغم نجاحه في دراسته وحياته وعلاقاته العادية .. إلا أنه فشل في أهم علاقة .. كان قراره الانتقام بمزيد من النجاح في مكان غير المكان ومع ناس غير الناس وفي وطن غير الوطن .. شباب مصري يتمتع بقدر من الوسامة وقدر من المهارة في كل شيء .. وجوده بالعراق قصة نجاح رغم ما شابها من تحديات ونضال مع الواقع المرير الذي كان حلوا في سنواته الأولى إلا أن رحلة النجاح كادت أن تنتهي بكارثة لولا إرادة الله التي غيرت المصير من جثة مجهولة الهوية إلى خسارة جزء كبير من ثروة مادية ضخمة جمعها على مدى ٢٠ عاما مع تكرار المشهد الذي يقوم فيه بدور الضحية المختطف بينما يتفاوض ذووه على مبلغ الفدية التي تطلبها عصابات عاثت في أرض العراق فسادا مرتدية رداء الدين تارة ورداء السياسة والأمن تارة ورداء العصابات المافياوية تارة أخرى إلا أن الضحية واحدة في كل الحالات / مواطن مصري أو عراقي / لا ذنب له سوى تمسكه بالرزق والحياة في بلاد الخير أرض السواد .

عمل سعيد الذي فضل أن أذكر اسمه الأول فقط في مجال الفندقة رغم أنه حاصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة المنصورة حيث أراد أن يكسب رزقه ويبني مستقبله بعيداً عن فشل حكاية العشق التي تكتظ بالذكريات الأليمة والتي سئمها وسئم الحياة بسببها .. وصل إلى بغداد بحثا عن فرصة عمل حقيقية يمكن من خلالها أن يعود منتصراً بشكل حقيقي بعيدا عن كل مقومات الهزيمة التي تحيط بخريجي الجامعات المصريين .. كان العراق في ذلك الوقت بوابة مفتوحة لمن يريد .. يسعى إليها كل من يريد أن يبني بيتا ويؤسس حياة كريمة

دون الوقوع تحت ضغط عقود العمل المقيدة بالكفيل والذل فى بلدان أخرى .. كان لسعيد ما أراد وتمكن بعد رحلة كفاح استمرت حوالى عشر سنوات من امتلاك مطعم كبير للمشويات فى قلب العاصمة بغداد كان قبلة لكل ذى ذوق وكل ذى مركز اجتماعى مرموق .. أصبح هذا المطعم الذى تغلفه شخصية صاحبه الرقيقة عالية الذوق مكانا مفضلا لمن يريد تنظيم حفل أو دعوة كبيرة من مسئولى الأندية وأصحاب القصور والبيوتات البغدادية الراقية وهو ما منح لصاحبه السعيد / سعيد/ أن يجمع ثروة طائلة بعد جهد وعرق وكفاح طوال الفترة التى سبقت دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وانهيار نظام صدام حسين فى التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ وهو ما جعل الدائرة تدور على المصريين الذين كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة من العراقيين بإذن قائدهم صدام حسين الذى كان يعتبر أى اعتداء على مصرى اعتداء عليه شخصيا وهو ما سمح للمجتهدين من المصريين أن يكونوا الكثير من الثروات وعاد منهم الآلاف إلى وطنهم منتصرين بينما استمر آخرون سواء لكسب المزيد من الثروات أو الوقوع تحت وطأة المزيد من الفشل .

أصبح استهداف المصريين والعرب وخاصة ذوى المال والمكانة المرموقة أمراً ممنهجا وهو ما جرى على سعيد الذى كان محط أنظار الجميع محبين وكارهين .. جرى اختطافه ثلاث مرات ليس بدافع سياسى أو أمنى وإنما طمعا فى فدية تقدر ببضع آلاف من الدولارات جمعها الشاب المكافح الذى اقترب من نهاية عقده الرابع على مدى سنوات الكفاح فى بلاد الخير .. خسر سعيد الذى يعرفه الجميع بأبو محمد ما يقرب من عشرات الآلاف من الدولارات لينقذ حياته فى كل مرة من أياد لا ترحم لا تعرف سوى قطع الرؤوس أو ثقبها بالرصاص أو مبادلة ذلك بآلاف الدولارات أو كلا الأمرين معا إذا تعرف الضحية على خاطفية وعندها يصبح جثة مجهولة الهوية ويصير الحصول على جثته مجالًا آخر لاستنزاف ذويه المنكوبين .

رغم ما عاناه سعيد فى سنواته الأخيرة التى قضاها بالعراق قبل أن يقرر العودة نهائيا مع أسرته «زوجة عراقية طيبة وثلاثة أبناء » إلا أنه ظل متماسكا يحاول تعويض ما فقده من ثروة كبيرة وذلك من خلال رفاق طيبين لم ير منهم إلا الخير وعاش معهم / على الحلوة والمرة/ .. كانوا عونا له فى محنته ورجحت كفتهم الطيبة على كفة الأشرار اللذين أذاقوه لوعة الخسارة إلا أنهم ساهموا فى تقليص سنوات الغربة التى كان قد قرر أن يعود منها منتصرا بكفاح شخصى بعيدا عن أى دعم من جهة رسمية مصرية حتى فى محنة اختطافه التى انتهت

بمساعدة الطيبين اللذين عاش معهم وشب أبناؤه الثلاثة فى معيتهم وعلى خير بلدهم .. خسر سعيد حبه الأول عندما جاء إلى العراق منذ حوالى ٢٦ عاما وخسر جزءا من ثروته عندما قرر أن يعود إلى مصر .. إلا أنه لم يخسر نفسه فى كلتا الحالتين .. حقق الكثير من النجاح واستعاض بأسرة محبه عن حبيبة فشل فى أن تكون نواة لأسرته .. يستعد الآن للعودة إلى وطنه الأم مغادرا وطنه البديل الذى أصبح له فيه عائلة ومحبين وذكريات ونجاحات وقليل من العذابات .

٥ - السجين

من شدة الحر .. من البقّ .. من الألمْ

يا أصدقائي... لم أنمْ

و الحارس المسكين ما زال وراء البابْ

مازال في رتابة ينقـّل القدمْ

مثلي لم ينمْ

كأنه مثلي.. محكوم بلا أسبابْ

تذكرت تلك الكلمات الرائعة للشاعر الفلسطينى سميح القاسم عندما كنت أستمع إلى قصة مجدى الذى جاء من الإسكندرية سعيا وراء الرزق فى عراق الخير منذ تسعينيات القرن الماضى وهى المرحلة التى بدأ نجم العراق يخبو تمهيداً لخروجه من دائرة الدول التى يعمل لها حساب بعد حربين فاشلتين أكثرها قسوة وألما حربه لدخول الكويت ثم الانسحاب المخزى الذى تلاه سلسلة من الخطايا دمرت الدولة ومهدت لسقوط نظام صدام حسين وسقوط البلاد فى هوة المذبحة .

عمل فى مطبعة كبيرة بالعاصمة بغداد وساعده تمكنه وإخلاصه فى العمل من نيل ثقة أصحاب المال ليعتمدوا عليه بشكل كامل تاركين له مفاتيح المال والعمال مع مكافآت مجزية لإتقان العمل وتحقيق الأرباح تدعمها أمانة الشاب المصرى الذى كان نموذجا للمواطن الصالح .

بعد فترة عمل شاق تكللت بمكاسب مالية كبيرة تمكن مجدى رغم قسوة الظروف والأحداث التى ترافقت مع فرض الحصار على العراق وتجويع شعبه المظلوم دائما منتصف التسعينيات من شراء مطبعة صغيرة فحقق الجزء الأول من حلم أى مصرى وهو الوقوف على قدمين ثابتتين لبناء مستقبل إلا أنه فشل فى تحقيق الجزء الثانى من الحلم وهو تكوين أسرة مصرية استعاض عنها بتكوين أسرة عمادها زوجة عراقية ذات أصول كردية وعاش حياة شبه مستقرة ماديا وعائليا حتى

وقعت الواقعة ودخلت القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى إبريل عام ٢٠٠٣ وما تلا ذلك من فوضى عارمة وعمليات سرقة ونهب منظمة لدوائر الدولة وبيوت من فر هاربا تحت وطأة الفاجعة وهو ما أطلق عليه وقتها « الحواسم» نسبة إلى مقولة صدام حسين قبل الحرب الأخيرة أنها ستكون معركة الحسم وكانت بالفعل حاسمة ولكن لصالح الاحتلال وحكام زمن المذبحة من عصابات وميليشيات خربت البلاد والعباد .

فى شهر أغسطس الحارق أى بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد بحوالى أربعة اشهر تقريبا تعرضت منطقة البتاويين التى يقع بها مقر المطبعة التى يمتلكها مجدى مع عدد كبير من المطابع وهى منطقة تقع وسط العاصمة بغداد لمداهمات من جانب القوات الأمريكية اختفى بعدها مجدى وأغلب الظن أنه راح ضحية وشاية من مخبر سرى أو منافس أراد التخلص منه كمنافس أولا وكمصرى ثانيا مثل آلاف المصريين اللذين ضاعت أقدارهم وسط ضجيج حرب الاستعداء على كل عنصر عربى موجود بالعراق فى تلك الفترة والتهمة دائما جاهزة أما الإرهاب وهى التهمة الغالبة وإما الإجرام وتم إغلاق المطبعة ولم يتمكن أحد من رفاقه المصريين من مجرد الوصول إلى مكانها بعد أن أصبحت منطقة البتاويين محرمة إلا على المجرمين والقوادين قبل أن تستولى عليها عناصر الميليشيات التى ترتدى رداء الدين والعقيدة وترتكب باسم الدين أفظع الجرائم وأشدها قسوة على الإطلاق بلا أى وازع من ضمير وذلك بدعوى تطهيرها من الفساد .

اختفى مجدى متنقلا بين المعتقلات والسجون تاركا خلفه زوجته الجميلة وطفلا صغيرا لا يدرك ما الذى جرى أو ماذا سيجرى عليه من سواد فى أيام شديدة الظلمة والقهر على العراقيين ومن يعيشون معهم خاصة المصريين والعرب بشكل عام .. وحط الرحال بالمصرى الحالم بمستقبل واعد فى أحد سجون إقليم كردستان شديدة القسوة وربما كان من حسن حظ زوجته ذات الأصول الكردية وربما بقايا من الحظ هى التى قادتهم إلى مكانه وجعلت هناك وسيلة اتصال بين الزوجين المكلومين المظلومين حيث تمكنت الزوجة الكردية من زيارة زوجها كونها كردية لا لسبب آخر حاملة طفلها الصغير الذى لم ينعم بطفولة بريئة مثل ملايين الأطفال العراقيين الذين أتوا إلى الدنيا ركضا فى خضم المذبحة بدلا من الركض فى الحدائق والتنزه والتمتع بطفولتهم التى لن يعيشوها أبداً .

روى لى أحمد وهو أحد المصريين الذين عاصروا أيام الخير وخاضوا غمار المذبحة نقلا عن زوجة مجدى أنه لا توجد تهمة محددة موجهة إلى زوجها ولا يوجد قرار بسجنه لمدة معروفة وإنما هو اعتقال مفتوح لا تعلم متى ينتهى فى ظروف بالغة

القسوة لا تتوافر فيها أدنى صورة لحقوق الإنسان وفقا لتقرير صدر عن وزارة حقوق الإنسان في حكومة إقليم كردستان باستمرار حدوث انتهاكات لحقوق النزلاء في سجونها حيث أشار التقرير الذي يصدر عن وزارة حقوق الإنسان إلى سوء تصرف العاملين ومسؤولي السجون مع النزلاء وعدم السماح لذويهم بعدد كاف من الزيارات، وضيق غرف وقاعات السجون، وتدني مستوى الخدمات الصحية مما أدى إلى انتشار الأمراض الجلدية وإصابات بالسل، فضلا عن افتقاد النزلاء للغذاء الجيد والمياه.

وكشف التقرير الذي صدر في أغسطس عام ٢٠٠٧ عن وجود ٣٦٦٧ سجيناً في محافظات إقليم كردستان العراق الثلاثة، أربيل والسليمانية ودهوك، بينهم ١٣٤٧ محكوما عليه و٢٣٢٠ موقوفا على ذمة قضايا.

كما أشار إلى وجود مئات من المحتجزين دون تهم، تشتبه الحكومة في ارتباطهم بعلاقات مع جماعات «إرهابية» دون توفر أدلة تدينهم، وتعود فترات اعتقالهم إلى سنوات، حيث تصل بعض الحالات إلى خمس سنوات.

وقدر وزير حقوق الإنسان بحكومة كردستان العراق شوان محمد عزيز عدد المحتجزين دون تهم بثلاثمائة شخص .. موضحا في لقاء مع الجزيرة نت تعليقا على التقرير أن «المشكلة التي تواجهها الحكومة في هذا الموضوع هي أن اعتقال هؤلاء قد تم قبل صدور قانون مكافحة الإرهاب عن البرلمان، وهو ما يمنع قانونا توجيه تهم لهم وفق القانون الجديد».

وكان برلمان إقليم كردستان العراق قد أصدر عام ٢٠٠٦ قانون مكافحة الإرهاب، الذي يطلق يد الأجهزة الحكومية المختصة في اعتقال المواطنين وتوجيه تهم بممارسة الإرهاب إليهم في حالات عدة، مما أثار حينها حفيظة نشطاء ومنظمات تعمل بمجال الدفاع عن حقوق الإنسان في شمال العراق.

ويذكر التقرير كمثال على الانتهاكات انتشار الأمراض الجلدية وبعض الإصابات بمرض السل بين نزلاء عدد من السجون، مثل مركز التوقيف والتسفير بمدينة السليمانية، وسجون منطقة كرميان، ومحافظة أربيل.

وكان تقرير أصدرته منظمة «هيومن رايتس ووتش» مطلع يوليو عام ٢٠٠٧ حول وضع السجون في منطقة كردستان العراق، قد رصد وجود انتهاكات أخرى مثل التعذيب الذي تعرض له نزلاء السجون التابعة للأمن في المنطقة بشكل واسع.

وقد دفع ذلك مسؤولة قسم الشرق الأوسط وشمال افريقيا في المنظمة سارة لي، إلى دعوة كبار المسؤولين الأكراد إلى الاعتراف علنا بوجود انتهاكات في

السجون، كجزء من توجه جديد في تعاطيهم مع موضوع حقوق الإنسان.

وحالة مجدى بالطبع تتكرر كثيراً وما جرى له جرى ويجرى لآلاف المصريين بالعراق بعيداً عن أعين الحكومة المصرية وممثليتها التى لا تلقى بالا لمثل هؤلاء البسطاء اللذين ظلموا فى بلدهم الأم وذاقوا الامرين دون التمكن من تأمين فرصة عمل تتيح حياة كريمة دفعتهم دفعا إلى مستنقع تحول إلى مذبحة مشتعلة تحرق كل من يقترب منها أو يضطر إلى الدخول فى أتونها بينما يقف السادة على حافتها يتفرجون دون تحريك أى ساكن أو محاولة انقاذ ما يمكن إنقاذه من حالمين ضائعين طحنتهم رحا المذبحة أما أحياء بلا حياة أو أمل فى العودة أو معذبين فى معتقلات لا حقوق فيها لبشر أو حجر .. بينما ينتهى أمر الكثيرين قتلى فى مقالب القمامة يتم دفنهم فى مقابر جماعية فى النجف أو كربلاء باعتبارهم مجهولى الهوية ويتحولون إلى مجرد أرقام على شواهد بلا قبور .



الفصل الثامن

الواقفون على
حافة المذبحة



• أيها الواقفون على حافّة المذبحه
أشهروا الأسلحة!
سقط الموتُ؛ وانْفَرَطَ القلبُ كالمسبحهْ
والدم انساب فوق الوشاح!
المنازل أضرحَة،
والزنازن أضْرِحَهْ
فارفعوا الأسلحة
واتبعوني!
أنا ندم الغد والبارحة
رايتي: عظمتان... وجُمجُمَة
وشعاري: الصباح.

أمل دنقل

يقول مارتن لوثر كنج « لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلا إذا كنت منحنيا ».

عندما دخلت إلى المذبحة كان بعض ممن بداخلها قد خرج منها إلى غير بعيد وأصبح من الواقفين على حافتها ربما للمراوغة أو انتظار دور أو استكشاف ما يدور أو ربما لمجرد التواجد فى محيط لم يعد له دور فعال فيه ومن العار تركه تماما وحتى يكون هناك ما يقال إذا ما بلغت التهم المطلقة موقع الحساب شعبيا أو تاريخيا أو على أى مستوى فهؤلاء الواقفون على حافة المذبحة كان حرياً بهم أن يتواجدوا داخلها عمليا لمحاولة تفكيكها أو إنهائها لأنهم شاءوا أم أبوا جزء من أسبابها سواء بالجوار المكانى أو المسئولية التاريخية ،إلا أننا لا يمكن أن نغفل أدوار بعض الواقفين على حافة المذبحة التى تجرى فى حدود المتاح سواء لظروف الدول التى ينتمى إليها هؤلاء الواقفون وهى دول فرضت الجغرافيا والتاريخ أن يكون دورها محدوداً أو الظرف الموضوعى العراقى الذى لا يسمح بالكثير من الحركة إلا بناء على توافقات وتوزنات لأدوار القوى الدولية والإقليمية .

١ - الجامعة العربية

عندما دخلت إلى المذبحة كانت الجامعة العربية بمقرها الكائن فى منطقة بين منطقتين أى أنها عمليا داخل منطقة محمية تقع فى محيط المنطقة الخضراء خلف مبنى وزارة الخارجية تلك المنطقة التى تضم منازل عدد من الوزراء

والمسئولين ومقرات لمنظمة المؤتمر الإسلامى وعدد من المصالح الحكومية العراقية إلا أنها شكليا تقع خارج المنطقة الخضراء شديدة التحصين التى تضم ما تضم من مبان تحكم العراق عمليا وشكليا فهى تضم السفارتين الأمريكية والبريطانية بالإضافة إلى مقار مجلس الوزراء والنواب ووزارة الدفاع ومنازل الوزراء وكبار المسئولين وفندق الرشيد الذى يقطنه عدد كبير من أعضاء البرلمان والسفراء والشخصيات الهامة ممن لم يحصلوا على منازل فى المنطقة الخضراء .

كان فى ذلك الوقت السفير مختار لمانى هو رئيس بعثة الجامعة العربية يعاونه قائم بالأعمال لبنانى الجنسية هو طارق بلطجى يتحدث اللهجة المصرية حيث قضى ردحا من الزمن فى قاهرة المعز الذى كان دينامو البعثة بينما يكتفى السفير لمانى باللقاءات والحفلات البروتوكولية دون دور يذكر .. والحق يقال أن الرجل ربما حاول أن يلعب دورا رآه ضروريا لدعم التواجد العربى بالعراق خاصة بعد أن طرحت الجامعة العربية مبادرة المصالحة الوطنية التى ظلت شعارا يحول دون تحقيقه صراعات أقوى من الوطنية ومحاولات التقريب وان كانت فى ظاهرها صراعات ضيقة تغلب عليها الفئوية والجهوية والطائفية وكل تلك المصطلحات التى زادت نيران المذبحة اشتعالا لأنها كما يعلم الجميع مرتبطة بمصالح قوى إقليمية ودولية رسمت مصير العراق منذ أمد بعيد وخطت بداية مأساته عبر سلاسل من الفواجع والكوارث لم يكن أولها بالطبع دخول القوات الأمريكية إلى قلب عاصمة الرشيد فى إبريل من العام ٢٠٠٣ حاملة على مدافع دبابتها حكام العراق الجدد اللذين ربما أراد بعضهم فعلا تغيير البلاد وبدء عصر جديد إلا أن طريق الكوارث مفروش دائما بالنوايا الحسنة فصاروا جزءاً من المذبحة وليس وسيلة لإنهائها بينما ظل الشعب العراقى فى كافة العهود والتقلبات وقود المذبحة لا حول له ولاقوة

فى الحقيقة أننى لم التقى الرجل / السفير لمانى/ أبداً نظراً للظروف الاستثنائية التى كانت تحكم تحركات من يعيش فى كافة مناطق العراق وخاصة بغداد والتى وصفت جزءا منها فى بداية الكتاب .

إلا أننى لا أنسى أبدا ما ذكره زملاء لى كانوا أكثر حرية فى الحركة داخل بغداد لأنهم أبناءها وكما نعلم فإن « أهل بغداد أدرى بشعابها» كما أننى أمضيت فترة طويلة من الوقوف داخل المذبحة دون أن أتحرك حتى أصبحت جزءا من تضاريسها المحترقة واعتدت على التحرك داخلها مثل باقى العراقيين أو من يعيش بالعراق بعد أن تأكدت من حتمية الحياة بطريقة شبه طبيعية مهما كانت

المخاطر لأن الموت مزروع على الطرقات وفى ذرات التراب الذى يستنشقه العراقيون ومن قدر له أن يعيش معهم فى تلك الفترة التى شهدت أحداثا لم يمر بها أى بلد فى العالم .

ويحكى زملائى فى المهنة عن الرجل الذى كان يتعامل مع منصبه الهام على أنه مهمة الوقت الضائع حتى أن أحد اصدقائى عندما التقى به فى مقر الجامعة العربية ليجرى معه حوارا صحفيا التقى به وهو يرتدى / الترييننج سوت/ .

وقد أنهى السفير لمانى مهمة الوقت الضائع بخطابه القنبلة إلى الأمين العام للجامعة العربية الذى كان يشرح فيه أسباب استقالته من مهمته المستحيلة حيث أبلغ لماني الأمين العام للجامعة عمرو موسي أنه قرر الانسحاب من مهمته هذه لاستحالة إنجاز أي شيء جدي وإيجابي نهاية الشهر المقبل في غياب تام لأي رؤية عربية لمعالجة الوضع العراقي. وجاء هذا القرار في رسالة خطية بعث بها لماني إلى موسي الأسبوع الماضي .

وقال لماني في رسالة من ثماني صفحات مؤرخة في الثاني والعشرين من يناير أن الواقع علي الصعيد العراقي الداخلي معقد وعلي كافة الأصعدة الإقليمية والدولية .. مؤكدا أنا لأمر مؤلم استحالة إنجاز أي شيء جدي وايجابي لهذا فانه من الأمانة الانسحاب وإنهاء المهمة اعتبارا من فبراير ٢٠٠٧

نص رسالة استقالة مختار لماني

مبعوث الجامعة العربية الدائم في العراق ٢٠ -١ -٢٠٠٧

معالي السيد الأمين العام

تحية طيبة وبعد...

أولاً: علمنا التاريخ أن أرض العراق هي مهد الحضارات وأن ساكني هذه الأرض عبر تاريخهم الذي يقاس بطول التاريخ نفسه عرفوا بفسيفسائهم الجميلة والغنية أن يجعلوا من العراق منارة علم وأرض عطاء وتأثير حضاري وديني وفكري وثقافي.

علمنا التاريخ أن أهل العراق عرفوا عبر تاريخهم الطويل محناً ومآس قد تكون أسوأ من محنتهم الحالية لكنهم استطاعوا دوماً أن يتغلبوا على هذه المحن...

إلا أن محنتهم الحالية تتميز بخطورة خاصة تتلخص في محاولة تدمير تماسك الفسيفساء الجميلة فيها عوامل متعددة داخلية وإقليمية ودولية ولكل عامل من هذه العوامل تعقيداته ويزداد تعقيدها بتفاعلها مع بعضها البعض.

١- داخلية: لا يتفق حالياً أهل العراق على تشخيص موحد لمشاكلهم وبالتالي

على الالتزامات الواجب الوفاء بها لتحقيق النقلة النوعية في علاقاتهم.

سمة هذه العلاقات تكمن حالياً في انعدام الثقة تماماً وهروب أهل العراق إلى الأمام في ردود فعل وتخندق أصبح عنفه عبثياً وبدائياً ومتناقضاً مع رواسب ثقافتهم العريقة.

أهل العراق في وضع حالي يهدف إلى تدمير تماسكهم الاجتماعي في عمقه نافياً جذوره الضاربة في أعماق التاريخ.

طوائف أهل العراق كما هو حال كل الطوائف الإنسانية دينية كانت أم إثنية تعرف غلاة في الأطراف لكن غلاة أطياف أهل العراق انتقلوا من الأطراف إلى المركز راهنين طوائفهم في فعل ورد فعل وتعميم أعمى يغير المعالم ويهجر الناس ويقتل على الهوية.

نتيجة هذا الوضع أصبحت علاقات أهل العراق تتسم بنفيهم لعراقيتهم، وهم مقتنعون أنه لا يمكن لأي طرف التفرد بأمور بلدهم. مشكلتهم ليست في الانفراد بل في كيفية ومدى إشراك الآخر.

أهل العراق في حالة شديدة من الاحتقان والانفعال ولم يقتنعوا بعد أن التحصين الصحيح والوحيد لبلدهم يمكن في توافقهم لإنقاذ بلدهم، توافق يرتكز على إيجاد منتصر واحد ووحيد وهو العراق نفسه.

٢- خارجياً: للعراق جوار معقد لا يقل تعقيداً عن داخله بأبعاده التاريخية والروحية والعرقية وكذلك انتماء العراق لمنطقة ذات أولوية للاقتصاد العالمي، وبالتالي فاتهامات ومصالح الجوار والقوى الكبرى تتقاطع وتتضارب في حقول متعددة ومتداخلة كما أن الأبعاد الدولية لعلاقات الجوار تنعكس بشكل مباشر ومؤثر على الساحة العراقية بل أن ما يزيد الوضع العراقي تعقيداً أن عدداً ليس بالهين من هذه القضايا أصبح ميدانها هو العراق والاتجاه الذي أراه من الداخل هو المزيد من استعمال العراق كميدان لعدد من المعارك ولأطراف متعددة تضم دولاً ومنظمات وحضارات.

واعتقد أن أهل العراق بمختلف أطيافهم يرتكبون خطأ قاتلاً إذا واصلوا محاولاتهم تحصين بلدهم من خلال تحالفات خارجية ويبقى الحل الوحيد والضمان لربط ماضي العراق العريق بمستقبله هو تحصينه باتفاق أهله في مشروع وطني يضمن للجميع كافة الحقوق المتساوية في المواطنة وإنجاح ذلك من خلال دولة مؤسسات، بل إن من شأن ذلك عودة للدور التاريخي الرائد والمؤثر للعراق كنموذج يقتدى به. ويجب على أهل العراق أن يتذكروا أن ما وحدهم في

الماضي كان عاملاً أساسياً سمح لأجدادهم بلعب دور تاريخي ساهم في بناء الحضارة الإنسانية.

ثانياً: قدمت للعراق منذ حوالي سنة نتيجة قرار عربي للمساهمة والسعي لتحقيق الوفاق العراقي وجعله حقيقة ثابتة وبمتابعة للتطورات من الداخل وانعكاساتها الخارجية توطدت قناعتي أن في نجاح العراق ومناعته مصلحة لأهله وجواره بل للعالم وفي انهياره وسقوطه كارثة على الجميع لما لذلك من تداعيات وتعقيدات دينية وطائفية وإثنية وقومية.

الشعب العراقي الذي وجدته في العراق خلال هذه المهمة، مهدد في عمقه وجائع وغير آمن.

النظرات التي شهدتها في عيون أطفاله تفيض بتساؤلات عميقة غير قادرة على فهم ما يقع ولماذا يقع بإختصار شديد ما كنت شهدت عليه طيلة هذه السنة الحزينة وفي ظروف أقل مما يقال عنها أنها عبثية ولا تتناغم مع أية مقاييس عرفتها خلال ٢٧عاماً كموظف دولي أتيحت له الفرصة في معايشة مناطق أزمات أخرى في العالم.

قد تكون أطياف الشعب العراقي وطوائفه شديدة القناعة بما عانته عبر تاريخها الطويل وتفاوتت هذه المعاناة في هذه المرحلة أو تلك لكن لمست خلال هذه السنة أن هذه المعاناة لم تنل من عزة نفسه وشهامته وكرامته. وإذا استطاع هذا الشعب أن يقف من جديد وحصن أهله بلدهم بتوافقهم الداخلي فلن يحتاج العراق لمساعدة أحد لما وهبه الله من خيرات ليست فقط مادية (نفط وماء) بل حضارية وروحيه وما أخشاه هو أن لا ينسى كيف تعامل مع الآخرين وهو يعاني من محنة فريدة وشديدة تهز بنيانه وتضرب عمق مجتمعه وتدمر فسيفسائه.

ثالثاً: حاولت خلال هذه السنة جاهداً التواصل مع كل الأطراف العراقية من خلال تنمية علاقات صادقة وصارمة وغير مجامله اتسمت بالجدية والمصارحة وأستطيع القول والتأكيد أنه ليست لدي مشكلة مع أي طرف عراقي بل كانت مشكلتي الوحيدة تكمن في علاقتهم ببعضهم البعض وشعورهم القوي بأن كل طرف منهم ضحية الطرف الآخر. وربما هذا هو العامل الوحيد المشترك بين أهل العراق في هذه المرحلة العصيبة.

رابعاً: اتخذ العرب في قمتهم الأخيرة في الخرطوم يوم ٢٩مارس ٢٠٠٦ قراراً نصت إحد فقراته (الفقرة الثامنة) على التنفيذ الفوري لقرار فتح بعثة لجامعة الدول العربية في بغداد وذلك تفعيلاً للدول العربي في العراق.... وفتحت البعثة

بدون أي إمكانيات مادية أو أمنية، لا داعي للدخول في سرد تفاصيلها والصعاب والمخاطر التي رافقتها وفتحت البعثة خارج المنطقة الخضراء المحصنة لضمان وتسهيل تواصلها مع كافة العراقيين وصممت هذه البعثة خلال هذه السنة لأن عراقيين كثيرين هم من ساعدوها بمؤازرتهم ودعمهم نتيجة علاقات بنيت على الثقة وبهدف واحد هو مساعدة العراق للوقوف من جديد كمنارة إشعاع حضاري. وهؤلاء العراقيون منهم الكردي والعربي والتركماني ومنهم المسيحي والمسلم الشيعي والسني والصابئي والزيدي والشبكي والقائمة قد تطول.

ولا أخفي انه لم تكن لدي أوهام حين اتخذ العرب قرارهم وكما عهدوا في أدبياتهم الدبلوماسية سهولة الإقرار وعدم التنفيذ لكن ما دفعني لقبول المهمة هو التحدي والرغبة الشديدة في مساعدة أهل العراق مهما كانت ضآلة هذه المساهمة. أقول : قبلت المهمة ولم أتعامل معها في أي لحظة كدبلوماسي بل تعاملت من قلبي وببساطة باعتبار أن أهل العراق أهلي وحرصت أن تكون العلاقة متوازنة وبنفس المسافة مع كل الأطياف والأطراف مركزا على كل من شأنه التقريب بينهم من خلال توافقهم السياسي وتلاحمهم الوطني.

قدمت إلى بغداد خلال فترة اعتبرت فيها الأمم المتحدة بل العالم بغداد كأخطر منطقة في العالم وحرصت في الشهور الأولى وفي تواصلي أن أكون مستمعاً لرجال السياسة والدين والفكر والعشائر والمجتمع المدني.

قدمت بدون قيام الدول التي أوفدتني إلى بغداد بتقديم اي مساعدة أمنية أو مادية وهي نفس الدول التي توجه دبلوماسييها المعتمدين لدى العراق بالإقامة في عمان ولا تسمح لهم بالسفر إلى بغداد بالرغم من إمكانياتها المادية والأمنية لحمايتها ولم يكن بإمكان البعثة التي فتحتها (وكلمة بعثة هنا مجازية مجازفة لأنها في حقيقة الأمر شخصان فقط) أن تصمد طيلة هذه السنة في ظروف يصعب أن لم يستحيل وصفها لولا عاملي الإيمان والتحدي.

خامساً: في غياب تام لأي رؤيا عربية متماسكة وجادة في معالجة الموضوع بل انعدام حتى الوعي بضرورة تواجد هذه الرؤيا بأبعادها السياسية والأمنية وإعادة البناء والاكتفاء لدى البعض أحياناً بالانجرار إلى مواقف ترقيعية ومن منطلقات ضيقة لا تضع بالأساس ولا بالضرورة المصلحة العليا للشعب العراقي وإنهاء محنته بمساعدة أهله بتحصين بلدهم بتلاحمه الوطني وضمان ربط مستقبلهم بماضيه المجيد والعريق ولقناعتي أن الثقة والمصداقية وحدهما لم ولن يمكنا من مساعدات أهل العراق بل ولدا في أعماقي شعور قوي بالإحباط والقهر أمام المعاناة التي كنت

شاهداً عليها طيلة هذه السنة وكذلك أحاسيس متناقضة بين ما يمكن للمرء ما يتمناه للعراق وما يراه فعليا ً على أرض الواقع.

والشعب العراقي وأقصد المواطن العراقي أصبح في موقع لا يحتاج فيه إلى المؤتمرات تصدر بيانات مهذبة وجميلة، سياسية كانت أم دينية، هي في نهاية المطاف عبارة عن مبادئ أخلاقية عامة و متسامحة لا يختلف عليها اثنان لكنها وللأسف بدون أي أثر يذكر على الواقع اليومي الأمني والمعيشي لهذا المواطن والذي يزداد سوءاً ورعباً.

أما الأمور اللوجستية المتعلقة بهذه المهمة والمساومات التي طالتها فقد أصبحت لا تستحق التعليق بل ولا حتى الإشارة إليها.

سادساً: أمام هذا الواقع المرير والمؤلم وأمام استحالة إنجاز أي شيء جديد وإيجابي، على الأقل بالنسبة إلي، فأجد نفسي مضطرا ً ومتألما ً وحزينا ً لإبلاغ معاليكم بأنني قررت الإنسحاب من هذه المهمة بحلول نهاية شهر فبراير ٢٠٠٧، في انتظار قيام معاليكم بتعيين بديل قد يستطيع إنجاز ما لم أتمكن من إنجازه.

وفي النهاية أود أن أعبر عن شكري لتفهمكم وشكري موجه كذلك لكافة الزملاء في الأمانة العامة لدعمهم وصداقتهم.

كما أود أن أشيد إشادة خاصة برفيقي في هذه المغامرة الزميل طارق عبد السلام، الوحيد من الأمانة العامة الذي قبل أن يرافقني في هذه المهمة وواصلها بثبات وأمان بالرغم من ظروفها الأمنية والتهديدات التي رافقتها مهددة عدة مرات حياتنا وفارضين على عائلتينا سنة من الخوف من المجهول وضغط رهيب، أنا متأكد، لن يتمكنوا من نسيانه فترة طويلة.

الإشادة كذلك تطول العاملين المحليين في البعثة لدعمهم للمشروع بالرغم من التهديدات والخطورة البالغة على حياتهم كل يوم وهم قادمون للبعثة وكل مساء وهم منصرفون.

وتفضلوا معالي الأمين العام بقبول أسمى عبارات التقدير والاحترام.

مختار لماني

رئيس البعثة الدائمة

لجامعة الدول العربية في بغداد

إذا كانت هذه الرسالة القنبلة التى عرت واقع التواجد العربى بالعراق خاصة الجامعة العربية التى بقيت متواجدة بعد اختفاء الدور المصرى بشكل شبه كامل على خلفية اختطاف المرحوم السفير ايهاب الشريف فى عام ٢٠٠٥ وفشل مصر

حتى فى استعادة جثمانه إلا أن تصريحات لمانى أوضحت بمرارة حال التشظى وعدم وضوح الرؤية التى شابت رئيس البعثة الذى تسلم مهام منصبه بعد استقالة لمانى بأكثر من عام وهو السفير هانى خلاف الذى كان يعتبر أحد الخبراء فى الشئون العربية والشأن العراقى تحديدا حيث ذكر لماني في حديث خاص مع جريدة «الشرق الأوسط» نشر فى ٨ مارس عام ٢٠٠٧ أنه اجتمع مع عمرو موسى في القاهرة قبل انعقاد الاجتماع الوزاري للجنة العراق ، التي تضم وزراء خارجية دول الجوار إضافة إلى العراق والجزائر ، والسودان والبحرين ، ودولة الإمارات الذي عقد في شهر ديسمبر (كانون الأول) الماضي. وقال لماني : «اقترحت على عمرو موسى عقد قمة عربية استثنائية مخصصة فقط للعراق وأن لا يكون في أجندتها سوى موضوع واحد هو الوضع في العراق». وأضاف لماني، الذي قضى سنة كاملة في العراق، أن «الغرض من هذه القمة مناقشة مشروع سياسي محدد يمهد الطريق لمشاركة جميع الأطراف والأطياف العراقية وكيف يمكن حل المأزق الأمني إضافة إلى تحديد دور خاص للعرب في برامج إعادة إعمار العراق» مشيرا إلى انه اقترح أيضا تشكيل لجنة رباعية تتكون من السعودية والإمارات ومصر والجزائر لديها تفويض كامل مع التأكيد على أن لا يكون العراق ميدان صراع أمريكي — إيراني. ويروي مبعوث الجامعة العربية السابق تفاصيل اللقاء مع عمرو موسى حيث أكد له وفق مشاهداته ولقاءاته مع كل القوى السياسية والدينية، ومن بينها منظمات المجتمع المدني، أن «مؤتمر المصالحة الوطنية لا يمكن أن يحقق أي شيء وهو أمر مضحك نتيجة الدور الإيراني والأمريكي في العراق». ويتذكر لماني أن الأمين العام طلب منه إلقاء كلمة خلال الاجتماع الوزاري أمام لجنة العراق، ويقول : إنه «فوجئ في يوم انعقاد الاجتماع باستبعاده من اجتماع لجنة العراق الوزارية، وطلب مني أن أقدم ورقة مكتوبة، وهذا ما دفعني إلى مقاطعة الاجتماع وقررت الاستقالة». وفي غضون تلك الفترة أوضح لماني انه وجهت له دعوة من قبل دولة الإمارات يوم ١٥ يناير (كانون الثاني) الماضي لزيارة الإمارات للقاء المسؤولين هناك، ويقول : «هذا ما دفعني لتأجيل الاستقالة على أمل أن تأخذ دولة الإمارات المبادرة، ولكن كما تبين فإن الإمارات لا تريد أن تأخذ زمام المبادرة وأنها تريد فقط الإطلاع على طبيعة ما يجري في العراق». وأضاف: «بعد زيارة الإمارات قدمت استقالتي مع رسالة مرفقة بثماني صفحات إلى الأمين العام عمرو موسى وطلب مني المجيء إلى القاهرة تحت إلحاح أحمد بن حلي الأمين العام المساعد للجامعة العربية، وعرض علي زيادة الراتب وبعض الإغراءات من أجل البقاء في بغداد، لكني رفضت بسبب عدم وجود رؤيا أو منهج واضح للتعامل مع الأزمة العراقية». ويؤكد

لماني أن حكومة نوري المالكي هي جزء من الأطراف العراقية، وقال : «إنها لا تحكم حتى المنطقة الخضراء، وأن أي مصالحة وطنية لا تتحقق إلا بمشاركة كل الأطراف والأطياف العراقية بما فيها المقاومة باستثناء تنظيم القاعدة». ولم يخف لماني مرارته من تجاهل الجامعة العربية للأخطار التي تعرض لها، ويتذكر أنه مرة تعرض للتهديد، ما دفع الرئيس العراقي جلال طالباني إلى إيوائه في بيته لفترة حتى تم نقله إلى منزل في منطقة القادسية ببغداد، ويقول «كما بدا لي أن فتح بعثة للجامعة العربية كان هو الهدف الأساسي بدون القيام بعمل باتجاه التعامل مع الأزمة العراقية بشكل جدي».

وفي هذا السياق شكك مختار لماني في نجاح المؤتمر الإقليمي الذي عقد في بغداد بمشاركة سوريا وإيران، وقال : «إن دول الجوار عقدت أكثر من اجتماع ولم يصدر منها سوى بيانات جميلة وبراقة ولم تحقق أي شيء ملموس على الأرض». وأعرب عن قناعته بأنه لا يمكن حل المأزق الأمني في العراق عسكريا، وقال: «إن الحل سياسي بالدرجة الأولى نظرا لتباعد وجهات نظر الأطراف المشاركة في العملية السياسية ووجهات نظر الأطراف غير المشاركة في العملية»، ويضيف : «عندما كنت التقي بثلاثة وزراء في المنطقة الخضراء كنت أشعر وكأني التقي بثلاثة وزراء من ثلاث حكومات مختلفة». وأكد لماني أن خروج القوات الأميركية في الوقت الحالي سوف لن يساهم في حل الأزمة العراقية نتيجة تراكم الأزمات والمشاكل وعلى رأسها مشكلة التهجير القسري، ويقول : «لقد تم تهجير حوالي ٥ ملايين شخص وهذه أكبر هجرة تحدث في العالم العربي بعد نكبة فلسطين».

• **هاني خلاف**

بعد ساعات من زيارة مفاجئة لوزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط إلى العراق، وإعلانه من هناك قرب إعادة افتتاح السفارة المصرية في بغداد، تسلم السفير هاني خلاف، الممثل الجديد للأمين العام لجامعة الدول العربية مهام منصبه كرئيس لوفد الجامعة العربية بالعراق وذلك يوم الإثنين الموافق ٦ أكتوبر عام ٢٠٠٨.

كان خلاف على الرغم من تجاوزه سن الستين إلا أن الزمن لم ينل من نشاطه وحيويته وبدأ عمله قبل أن يتسلم المنصب حيث زار بغداد عقب تعيينه وأجرى محادثات مع عدد من كبار المسؤولين العراقيين، حيث كان يشغل سابقاً منصب مندوب مصر الدائم لدى الجامعة العربية ولديه الكثير من الخبرة بالملف العراقي وهو ما اعتبره المراقبون حينها تدشينا لعودة عربية مكثفة للعراق، قد تنتشله من

جحيم الصراعات الطائفية، ومن تنفذ القوى الإقليمية ، التى تمثل احتلالاً موازياً للاحتلال الأمريكى على الأرض العراقية.

وفى حوار أجرته معه صحيفة اليوم السابع فور وصوله إلى بغداد عبر الهاتف عن أبرز المشروعات التى يعتزم العمل على تنفيذها لدعم الدور العربي بالعراق ؟

قال خلاف : «هي عبارة عن أفكار للتفاعل والتواصل، وتبنى أساساً على قرارات القمم العربية، فهناك التزامات، تم إقرارها فى تلك القمم، على العراق أن يلتزم بها وأيضا على باقى الدول العربية أن تلتزم بها تجاه العراق، ومن بينها تفعيل إجراءات بناء الثقة بين العراق والدول العربية، بعض هذه الأفكار قد يكون له برامج تنفيذية وبعضها قد يكون للدفع وتقديم الأفكار الجديدة.

ويبدو أن السفير النشيط لم يكن يعلم ما يدور فى الشارع أو فى الكواليس والذى يترجم عمليا ليرسم المشهد العراقى ..لم يكن « خلاف » يعلم حقيقة الأوضاع التى تختلف كثيرا عما يدور فى اللقاءات البروتوكولية داخل الحصون التى تحكم العراق حيث أجاب على سؤال فى نفس الحوار عما إذا كانت الجامعة العربية سوف تلعب دوراً موازيا للدور الإيراني؟

بالقول:إن الجامعة العربية تضم ٢٢ دولة وأعتقد أنها قادرة على أن تقدم مساهمات للجانب العراقى شعباً وحكومة وتستطيع أن توازى وتقلص الدور الإيراني الذى بات يقلق الجميع ولكن دعنا نتوصل أولاً لخطوات عملية لدعم المصالحة الوطنية ونحن متمسكون فى الجامعة العربية بتطوير العلاقات والتعامل مع جميع القوة السياسية العراقية ولن نستثنى أحداً، فلابد أن يكون هناك عراق موحد ومتصالح مع نفسه ونحن نسعى لتحقيق هذا والجامعة العربية هى الطرف الأساسى الذى يصر على تحقيق تلك المصالحة لإخراج العراق مما هو عليه.

تتوالى إجابات السفير النشيط على أسئلة اليوم السابع التى شجعتنى كثيرا على زيارة الرجل حيث جاء الحوار كالتالى :

سبق أن حاولت الجامعة فى موضوع المصالحة فى عام ٢٠٠٥ فهل هناك رؤى وأفكار جديدة تحملها ؟

نعم هناك أفكار جديدة فى المستقبل القريب وتحتاج إلى وقت ولكن مع الوقت ودراسة الظروف التى دفعت بالكثير من القوى السياسية والاجتماعية فى العراق لتطوير مواقفها، وبالتالى نستطيع أن نقدم تصوراً شبه متكامل للوصول لميثاق وطنى جديد يجتمع عليه كل الأطراف، لكن المهم التقاء كل القوى السياسية فى منطقة وسط، تحقق للجميع مصلحة مشتركة وهى مصلحة العراق الواحد.

هل لديك رؤية لشكل جديد من العلاقات بين العراق وجيرانه؟

جاءت مبادرة الأمين العام لتعيين بعثة للجامعة العربية فى أواخر يوليو الماضى أعقبها إعلان ٥ دول عربية أنها فى سبيلها لفتح سفاراتها بالعراق، بدأتها مصر مما يدل على أن النشاط الدبلوماسى ليس شكلياً ولكنه مصحوب بأنشطة عملية واقتصادية، ونأمل أن يصل قريباً السفراء العرب للدول العربية التى أعلنت استعدادها لفتح سفاراتها ببغداد، ويكون الحضور العربى موازياً للحضور الأجنبى.

من ناحية ثانية، على كافة الدول العربية أن تعى أن العراق له ثقل اقتصادى كبير وبالتالى فإن تحقيق المصلحة المشتركة للدول العربية والعراق يجب أن يرافقه نظرة اقتصادية كبيرة لهذا البلد.

متى تتوقع أن تعود مصر لفتح باب سفارتها فى بغداد؟

هى مسألة شهور أو أسابيع ، فقد أشار الوزير أحمد أبو الغيط فى تصريحه عقب لقائه وزير الخارجية العراقى، أن فتح السفارة المصرية ببغداد «سيتم فى القريب، أو على مراحل» كما أن العلاقة بين القاهرة وبغداد لا تنحصر فى فتح السفارات، ولكن تمتد إلى مشروعات ومصالح متبادلة، وماذا ستقدم مصر للشعب العراقى وما ستقدمه الشركات فى مجال التشييد والبناء والكهرباء والنفط، فالعراق بحاجة إلى القدرات المصرية فى مرحلة إعادة البناء، مع النقص الشديد الذى يعانى منه العراق فى الكهرباء ووقود السيارات، وهذا ما يمكن أن توفره مصر للعراق، كما ذكر وزير الخارجية المصرى.

كان كلام الرجل مشجعا جدا وإن بدا وصفا لمشاهد من خلال شباك الطائرة ولا يدل على حقيقة الوضع بالعراق أو ربما كان الرجل يعلم لكن لا يريد أن يتحدث إلى الإعلام أو ربما جعله الوضع الأمني الذى بدا مستقرا بعض الشىء نهاية العام ٢٠٠٨ منتشيا وأكثر تفاؤلا من سلفه الذى أمضى فترة عضيبة بالعراق احترق فيها الأخضر واليابس خلال عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

لا يمكن لى أن أصف درجة سعادتى كصحفى مصرى وحيد يعيش داخل المذبحة.عندما اتصل بى السفير هانى خلاف يوم العاشر من أكتوبر أى بعد وصوله إلى بغداد بأربعة أيام ودار بيننا حديث ودى جميل غلفته مشاعر الأبوة القلقة على شاب مثلى يعيش وسط هذا الجو الاستثنائى وكيف تمكنت من الصمود طوال هذه الفترة وكيف مضى عام ونصف تقريبا وأنا داخل المذبحة .. دعانى الرجل لزيارته وتبادل أطراف الحديث وأبدى رغبة شديدة فى أن أضعه فى الصورة الحقيقية للأوضاع بالعراق خارج الجدران التى تحجب الكثير من الرؤية.

وعندما وصلت إلى مقر بعثة جامعة الدول العربية فى بغداد استقبلنى الرجل استقبالا حافلا كأنه يعرفنى منذ زمن طويل واختلطت عندى مشاعر الفرح بلقاء مسئول مصرى وعربى بمشاعر القلق على الرجل الذى أطلت من عينيه إرادة حقيقية للعمل الجاد دبلوماسيا وإنسانيا وهو أمر يشوبه الكثير من المخاطر فى بيئة مازالت تعتبر الوجود العربى غير مرغوب فيه رغم كل التصريحات والأمنيات المعلنة .. تذكرت تصريحات الرجل لصحيفة روز اليوسف التى اعتبر فيها أن الولايات المتحدة وأطرافا عراقية وإقليمية، فى إشارة واضحة إلى إيران، لا ترغب فى وجود دور قوى للجامعة العربية فى العراق،رغم مبادرة بعض الدول العربية فى تعيين سفراء فى بغداد وفتح قنوات اتصال مع الحكومة العراقية. وأوضح فيها أن واشنطن لا تزال تتردد فى الاعتراف بدور واسع للجامعة العربية فى العراق، موضحا أنه يعتزم العمل على تحقيق مقاربة عربية - إيرانية تبدأ بحوار مع طهران حول القضايا ذات الاهتمام المشترك .

ومن هنا بدأ حوارنا بعد أن سألنى عن حقيقة الأوضاع خارج الجدران والأسوار المغلقة أمنيا وإنسانيا وسياسيا .. ولم أبخل على الرجل الذى أبدى لى رغبة حقيقية فى أن أعمل معه من خلال الأفكار والمقترحات لدعم دور البعثة العربية على الأرض والاقتراب من الناس بشكل عملى وقال لى وقتها « أنت اكتشاف » وما قاله رئيسك عبد الله حسن عن إمكانياتك لم يكن مبالغة منه .

سعدت كثيرا بهذا الإطراء إلا أن السؤال الذى أطلقته حول تصريحاته بشأن العمل على تحقيق مقاربة ايرانية – عربية رغم كل ما ذكرته وما يعلمه هو عن حقيقة الدور الإيرانى بالعراق جعل دفة الحوار تدور بيننا فى محاولة من جانب كل منا إقناع الآخر برأيه فقد كان السفير خلاف يتبع مدرسة الدكتور مصطفى الفقى الذى يرى بضرورة التقارب مع إيران وليس الوقوف ضدها بينما أرى من خلال معايشتى للأوضاع بالعراق وما تفعله إيران على الساحة العربية بشكل عام أنه يجب الوقوف فى وجه الأطماع الإيرانية أولا بشكل فاعل ثم وضع الية للتعامل معها بعد تحقيق التوازن فى علاقاتها مع العرب ومع مصر تحديدا .

وبعد حوار مطول استمر أكثر من ساعة استمر كل منا على موقفه بخصوص إيران ودورها بالعراق ومع اختلافنا فى هذا الأمر إلا أننا اتفقنا على ضرورة العمل بشكل مؤثر لدعم التواجد العربى بشكل عام فى العراق وقطع الطريق على المزيد من الدور الإيرانى الذى خرب البلاد والعباد حيث تقدمت ببعض المقترحات التى تخص الجانب الإنسانى أولا لأننى أكثر احتكاكا بالناس نظرا لطبيعة عملى ورغبتى فى

التواجد خارج الجدران بما فيها جدران الفنادق الكبرى التى غالبا ما تكون مقرا لوسائل الإعلام خاصة غير العراقية وتعهد السفير خلاف بالتركيز في مهمته الجديدة في العراق على الدور الإنساني والاجتماعي للجامعة ليضاف لجهودها في موضوع المصالحة الوطنية وكان ذلك تأكيدا لتصريحات سابقة له أعجبتني كثيرا وابلغته رؤيتى الخاصة بأن تكون تلك البداية الناجحة وهو أن يعطي أولوية لأوضاع المهجرين والنازحين الذين تأثروا بالقصف والقتال، وأوضاع الأرامل والمعاقين، والمهجرين قسريا وتحديد أماكن نزوحهم، مع وضع برامج فرعية صغيرة لهذه القضايا.

دار الحديث بيننا حول أمر خلافى آخر ورد فى تصريحات صحفية للسفير خلاف وهو أنه سيتابع مع الجانب العراقي قضايا مهمة مثل المعتقلين السياسيين، والسجون بلا محاكمات، وأوضاع عدد من ضباط الجيش العراقي الذين لم يكن لهم دور في سياسات النظام السابق بحيث يكون لهم الحق في الحياة ودخل منتظم يكفيهم، ومسألة فرص العمل المتاحة للجميع هل فيها تمييز على أساس محاصصي أو أساس طائفي حيث كان يرى أن كل هذه الأمور يمكن متابعتها تفصيليا مع الوزارات والهيئات المعنية في الجانب العراقي إلا أننى أوضحت له وجهة نظر مخالفة وهي أن تلك الأمور ربما ستكون غير مرغوب فيها من الجانب العراقى ولا يجب التركيز عليها كثيرا لأن هناك حساسية كبيرة لدى العراقيين خاصة المسئولين وان كانوا لا يظهروها وهى أنهم يعتبرون الجامعة العربية فناء خلفيا لوزارة الخارجية المصرية خاصة بعد تعيين رئيس للبعثة كان مندوبا لمصر بالجامعة العربية وقبلها مساعدا لوزير الخارجية المصرى للشئون العربية .

واستكمالا لشعور النشوة بالمنصب الجديد أكد لي السفير خلاف أن هناك أبعاداً جديدة لدور الجامعة العربية في العراق .. مشيرا فى هذا الصدد إلى استكمال أدوار الجامعة العربية السابقة مثل مسألة المصالحة الوطنية لأن أية منهجية عمل للجامعة العربية في العراق كانت قديما تتحدث عن دفع عملية المصالحة الوطنية والتصدي لفكر التشرذم والقتل، ولهذا يجب أن يكتمل هذا الدور بدراسة ما تم من الإجراءات السابقة وما لم يتمّ وأن يتم تنبيه الجهات التي كان مفترضا أن تقوم بشيء في إطار عملية المصالحة الوطنية ولم تقم به.

أنهيت لقائى مع السفير خلاف الذى أصر على اصطحابى إلى آخر بوابة لبعثة الجامعة باعتبارها فرصة للمشى خارج الجدران ولو لأمتار قليلة وهو يؤكد لي أن التعاون بيننا سيكون له كبير الأثر على مهمته بالعراق وأنه فى انتظار مقترحات

مكتوبة حول ما يمكن عمله على الأرض .

غادرت المنطقة شبه المحمية وخرجت إلى الشارع الرئيسى سيرا على الأقدام تتقاذفنى الأفكار المنتشية بسعادة اكتشاف هانى خلاف لى وسعادتى باكتشاف مسئول يريد أن يؤدى دورا طالما تمنيته وحلمت به حتى قبل بدء مهمتى بالعراق منتصف العام ٢٠٠٦ .. تصارعها أفكار أخرى يغلفها الرعب الذى تطرحه أسئلة مشروعة «ماذا لو علم من لا يريدون دورا عربيا بالعراق ما أفعله ؟ وماذا لو تتبعنى مراقب من حيث أتيت وإلى أين سأذهب وفيما أفكر حتى أسهم فى اتساع الدور العربى بالعراق ؟ » .. ويبدو أن شعور النشوة تغلب على شعور الرعب خاصة وأننى اعتدت تماما على أجواء الخطر حتى إننى أكملت سيرى على الأقدام لأعبر الجسر الجمهورى وصولا إلى شارع أبو نواس الذى كان يستعد لعودة الحياة بعد أن هدأت الأوضاع قليلا حتى وصلت إلى مقهى البغدادى الشهير الذي أعيد افتتاحه، حيث كانت جلستى المفضلة على ضفاف دجلة باتت طقسا شبه يومى رغم كل ما يحيط بها من مخاطر.

ومع شعور النشوة بدخان النرجيلة الذى اختلط بنشوة لقاء السفير المتحمس للعمل العربى بدأت الأفكار تتسرب واحدة تلو الأخرى لأكتبها على قصاصة ورق صغيرة تمهيدا لتدوينها بشكل منظم وتقديمها للسفير خلاف وتناسيت تماما مشاعر الخوف وهواجس ما قد يصيبنى من شذرات نيران أعداء التواجد العربى بالعراق .

فى اليوم الثانى بادرت بالاتصال بسعادة السفير المتحمس وطلبت اللقاء وظهرت من نبرات صوته ارتفاع نبرة الحماس لديه وطلب منى أن أشاركه غداء اليوم التالى بعد أن ننهى مناقشات العمل وكأول مرة استقبلنى الرجل بحفاوة بالغة واستمر الحوار بيننا حوالى ٣ ساعات متواصلة لم يقطعها غير رفعت الحارس الكردى الذى يأتى كل مرة ليقدم القهوة وتلخص اللقاء فى أمرين هامين أن تقوم بعثة الجامعة العربية بدعم مشروعين نموذجيين فى مجالى المرأة والشباب حتى يكونا تدشينا لنشاط إنسانى يمكن للسيد الأمين العام زيارتهما عند مجيئه إلى العراق وكاثبات لتواجد العرب بشكل حقيقى وان كان رمزيا .. أما الامر الثانى وهو عمل خطة عمل إعلامية لسعادة السفير من خلال لقاءات صحفية وتليفزيونية وإذاعية بالإضافة إلى كتابة مقال شبه ثابت فى صحيفة أو اثنين من الصحف المرموقة مثل الصباح شبه الرسمية والمدى التى تنشرها مؤسسة يملكها فخرى كريم كبير مستشارى الرئيس طالبانى وهى جريدة رصينة تحظى

بحضور مؤثر واهتمام كبير لدى المثقفين العراقيين وبعض الدول العربية .

طلب سعادة السفير المتحمس أن نبدأ بالأمر الثانى لأسباب عديدة ليس أهمها ولعه الشديد بالإعلام والنجومية التى يتيحها له منصبه الهام ولياقته الشخصية وحسن اختياره لعباراته المنمقة وحسن استقباله وتواصله مع الإعلاميين وإنما أيضا لأن الأمر الأول وهو العمل الحقيقى والمهمة الرئيسية لم يكن وحده طرف معادلتها وإنما سلسلة طويلة من المراجع دبلوماسيا وماليا وربما على نطاقات أخرى وهى مراجع بالتأكيد لم تكن تحمل درجة حماسه العاطفى للعمل فى بلد مثل العراق بكل ما يموج به من تناقضات وصراعات وتوجهات .

اعتذرت عن الاستمرار لتناول الغداء بعد أن قاربت عقارب الساعة الرابعة عصرا وهو توقيت لا يحبذ كثيرا البقاء بعده فى مناطق بعينها حتى لا يحدث مكروه رغم توجه الأمور إلى الاستقرار النسبى أمنيا .. إلا أن عمليات الاختطاف لم تكن لتتوقف حيث استمرت مع بداية الفورة الطائفية وحتى نهاية مهمتى بالعراق وهرعت إلى مقر عملى وإقامتى طلبا للسلامة.

بدأنا منذ اليوم الثانى خطة العمل فى المجال الإعلامى بحديث مطول لصحيفة المدى أسعد السفير كثيرا واتفقنا على المزيد إلا أننى اكتشفت بعد فترة ليست طويلة أن التلميع الإعلامى لسعادته هو الأمر الوحيد المتاح له ولنا حيث يمكنه من خلاله شرح لقاءاته التى جاوزت المائة لقاء مع مسئولين وممثلين لكافة الطوائف والقوميات العراقية بما فيها المرجع الشيعى الأعلى بالعراق آية الله على السيستانى بالإضافة إلى تكرار لما سبق من تصريحات تؤكد على وحدة البلاد وخير العباد والتأكيد على أن الجامعة العربية تقف على مسافة واحدة من كافة مكونات الشعب العراقى وغير ذلك مما سئمنا كتابته وقراءته فى كافة وسائل الإعلام وهو ما جعلنى استشعر ما سوف ينتهى إليه ذلك التعاون الذى بدأ مشتعلا مع سعادة السفير وأن ما يمكن لسعادته عمله هو فقط عرض الأفكار وإجراء اللقاءات وإطلاق المزيد من التصريحات دون فعل حقيقى يمكن أن نبنى عليه وجودا حقيقيا للمنظمة العتيقة وهو ما جعلنى اشد كآبة وامتعاضا من المرحلة التى التقيت فيها رئيس بعثة الجامعة العربية نظرا لارتداد الحلم إلى كابوس جديد يؤكد الفشل العربى بالعراق .

ويبدو أن الرجل تأكد مثلى أنه لا دور حقيقياً له بالعراق واستعاض بلعب كرة القدم والجرى فى ملعب وزارة الخارجية عن إجراء اللقاءات الصحفية والإعلامية لقتل ما يفيض من وقت يقضى غالبه فى لقاءات بروتوكوليه وحفلات

شاى وأفراح لأبناء كبار المسئولين العراقيين فى قصورهم المحصنة فى وقت لا يجد فيه العراقيون أمنا ولا خدمات وفى الوقت الذى كانت تتلألأ قصورهم بالأضواء المبهرة كان العراقيون يقضون لياليهم وسط ظلام دامس إلا من هيأت له ظروف الرزق أن يشغل مولدا منزليا أو يشترك فى مولد كبير بينما يتغلب الباقون وهم الأغلبية على الظلام بإشعال «اللالات » وهى مثل لمبة الجاز المصرية التى توقف القرويون عن استعمالها منذ أكثر من عقدين .

ويبدو أن البديل الذى اختاره سعادة السفير قتلا للوقت كان وبالا عليه حيث أدى تعثره ذات مرة إلى إصابة قدمه إصابة اعتبرها بسيطة إلا أن عمر الرجل وعدم وجود رعاية طبية جيدة حتى فى أرقى مستشفيات بغداد كما أن عدم استماعه لنصيحتى المخلصة بالتوجه إلى مصر للعلاج بدلا من البقاء بالعراق كان سببا فى تفاقم الحالة التى تطورت إلى ورم شديد وقطع فى وتر القدم إلا أن كل هذا لم يمنع الرجل من ممارسة مهام منصبه الخطير الذى كنت أتابعه بعد أن توقفت عن الاتصال به حيث كان نشاطه البروتوكولى يردنا من خلال البيانات الصحفية من مكاتب المسئولين الذين يلتقى بهم .

كانت مناسبة الانتخابات المحلية فترة زاهية إعلاميا لسعادة السفير نظرا لمشاركة الجامعة العربية فى مراقبة تلك الانتخابات بوفد كبير رأسه السفير محمد الخمليشى مساعد الأمين للجامعة العربية عوضه عن توقف البرنامج الإعلامى الذى كنا قد اتفقنا على تنفيذه موازيا للبرنامج الأكثر أهمية وهو خدمة العراق ودعم الدور العربى ويبدو أن ولع السفير خلاف بالإعلام والظهور جعله ينسى إصابته الكبيرة فى قدمه والتى كانت سببا رئيسيا فى إنهاء مهمته القصيرة بالعراق والتى استمرت حوالى ستة اشهر كان ضجيجها الإعلامى الذى رافقها والذى تبعها أكثر وضوحا من وجود الجامعة العربية بالعراق الذى لم يشعر به أحد .

بعد عدة أشهر من إنهاء السفير خلاف لمهمته لأسباب صحية زرت الرجل فى منزله الفخم بحى الوزراء بالقطامية زيارة مجاملة للاطمئنان على صحته بعد أن علمت أنه يتلقى علاجا منظما بين القاهرة وجنيف وسألنى إذا ما كان اليأس قد تسرب إلى نفسى من إمكانية وجود دور عربى فاعل وسألته إذا ما كان اقتنع بطبيعة الدور الحقيقى لإيران فى تخريب العراق ودار حوار طويل بيننا حول من سيأتى بديلا عنه لرئاسة بعثة الجامعة العربية فى بغداد ولماذا تأخر اتخاذ القرار بشأن البديل وحاول الرجل تهدئة مخاوفى من عدم وجود جدية لدى الجامعة العربية

للعب دور فاعل بالعراق وأكد أنه عما قريب سيتم تفعيل دور البعثة لأن هناك رغبة حقيقية فى دعم التواجد العربى الذى يرى أنه مبشر بوجود عدة بعثات لدول عربية على رأسها سفير وخاصة بعد تسمية سعادة السفير شريف كمال شاهين سفيرا لمصر لدى العراق .

وعلى ذكر سعادة السفير شاهين أكد لى السفير خلاف أنه سوف يعرض عليه خبراته الكبيرة بالشأن العراقى للاستفادة !!! وأبلغنى أنه سوف يخبر السفير شاهين بأنه يمكنه التواصل معى فيما يخص الوضع العراقى خاصة خارج أسوار المنطقة الخضراء مما جعلنى أتفاءل لبعض الوقت رغم ما تملكنى من يأس بسبب غياب الدور العربى بشكل عام والمصرى بشكل خاص مما فتح الأبواب واسعة لتكريس النفوذ الأجنبى بشكل عام والإيرانى بشكل خاص فى البلد الذى دمره العنف المنظم.

• ناجي شلغم

بعد عدة أشهر تولى الوزير المفوض ناجى أحمد شلغم مهام القائم بأعمال بعثة الجامعة العربية فى بغداد إلى حين تسمية سفير جديد كرئيس للبعثة خلفا لهانى خلاف واتصل بى مساعد رئيس البعثة والمسئول المالى والإدارى المصري خالد سعودى وطلب منى أن أتحدث إلى المسئول الجديد مع مقدمة رائعة للرجل وهو ليبى الجنسية حيث كان خالد يعلم توجهاتى ورغبتى العارمة فى التواصل مع البعثة ربما وجدت ضالتى فى متحمس حقيقى يتعاون معى ونتبادل الأفكار الهادفة لدعم التواجد العربى بشكل فعلى وليس بروتوكولى أو إعلامى فارغ يزيد من الهوة ولا يردمها وكنت فى ذلك الوقت خارج العاصمة بغداد واتفقت مع السيد شلغم على زيارته عند عودتى إلى بغداد لمناقشة ما يمكن عمله من خلال بعثة الجامعة .

عندما زرته فى مقر بعثة الجامعة بدا لى السيد شلغم كصورة مشرقة لدبلوماسى عربى يريد أن يعمل بجدية وأن يترك بصمة واضحة للمكان الذى يمثله واستمر نقاشنا أكثر من ساعتين ثم استمر النقاش على الغداء وبعده واتفقنا على تقديم أفكار واضحة قابلة للتنفيذ، وأن يكون تحرك الرجل أكثر فاعلية مع الحفاظ على الواجب البروتوكولى وأبلغنى بزيارة قريبة لوفد رفيع المستوى برئاسة السفير أحمد ابن حلى مساعد الامين العام للجامعة العربية برفقة السفير على الجاروش مسئول ملف العراق وذلك بمناسبة اقتراب انعقاد القمة العربية فى طرابلس التى سيكون العراق بندا رئيسيا فيها .. إلا أن هذه

الزيارة واكبت مشكلة كبيرة يبدو أن الجامعة العربية أرادت لعب دور مؤثر فيها وهى قضية إبعاد عدد من المرشحين العراقيين من خوض الانتخابات بتهم تتعلق بالارتباط بحزب البعث ونظام صدام حسين وعلى رأسهم القيادى السنى الدكتور صالح المطلك .

ورغم ازدحام جدول الزيارة إلا أنه تم ترتيب لقاء طويل مع السفير بن حلى بهدف إجراء حوار صحفى بثته وكالة أنباء الشرق الأوسط إلا أن من رتب اللقاء كان يعلم أننى سوف أتحدث مع السفير بن حلى فى نفس القضية التى تشغلنى وهى تفعيل دور الجامعة العربية ودعم التواجد العربى بالعراق وبالفعل تم ما أردت بعد إجراء الحوار وتحدثت إلى الرجل بكل صراحة وأكدت له أن الوقت بات أكثر ملاءمة لتكثيف الدور العربى بعد أن جرت عملية الفرز من العراقيين أنفسهم الذين تأكدوا أنهم للعرب والعرب لهم وأن حقيقة الدور الإيرانى ظهرت جلية أمام الجميع إلا أن هناك عتاب شديد على العرب الذين تركوا العراق نهبا للغرباء على كافة المستويات .

والحقيقة أن الرجل استمع باهتمام شديد وأبدى سعادة بالغة بمثل هذا التوجه الذى يجب أن يدعم ويتم البناء عليه لتحقيق الهدف المنشود فى صالح العراق والعرب على حد سواء ووعد بالعمل على كافة المستويات لتحقيق ذلك وأن تتم نقل الصورة إلى سعادة الأمين العام للجامعة العربية مع استعدادى التام للعمل بكل ما لدى من وقت وعلاقات لإنجاح هذا الدور المنشود .

وبعد انتهاء لقائى مع السفير بن حلى كنت على موعد آخر مع السفير على الجاروش وهو الخبير بالشأن العراقى الساعى دائما إلى عمل إيجابى يدعم التواجد العربى بالعراق ولكن فى إطار مؤسسة الجامعة التى تخضع لإرادات أعضائها جميعا وهو ما يجعل ترجمة الأفكار الجيدة إلى نتائج على الأرض أمرا ليس سهلا .. دار بيننا حوار استمر أكثر من ساعة حضر جزءا منه السيد شلغم وتقدمت ببعض المقترحات البسيطة ولكنها مؤثرة وسهلة التنفيذ من وجهة نظرى وذلك بعد أن شرحت له مشكلة معهد الدراسات العربية فرع العراق بناء على رغبة عدد من الزملاء العراقيين الذين يدرسون فى المعهد[(١)] .

---

(١) معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ومقره القاهرة ويرأسه الدكتور أحمد يوسف ومشكلته الرئيسية هي وجود ثلاث جهات بالعراق تمارس نشاطه العملي وتدعي حصولها على تفويض بإنشاء فرع له في بغداد وتحصل على رسوم تقدر بآلاف الدولارات من الطلبة العراقيين الذين يعملون بالدراسة في المعهد بمصر .

وطلب منى السفير الجاروش الذى لم يخفَ سعادته وبدا أكثر حماسا منى أن أكتب تلك المقترحات وأبعث بها إلى بريده الإلكترونى الخاص أو من خلال بعثة الجامعة فى بغداد مع وعد مؤكد بدراستها جديا وتنفيذ المتاح منها ومازلت أحتفظ بتلك المقترحات التى كانت كالتالى :

١- فى مجال الإعلام والتعليم

كسب الإعلامين العاملين في مختلف الصحف العراقية ،خاصة ممن يحمل توجهات قومية من خلال إقامة دورات صحفيه لهم برعاية الجامعة العربية.

دعوة الصحفيين العراقيين ،المستقلين لحضور المؤتمرات التي تعقد من قبل الجامعة العربية من اجل توثيق العلاقات بينهم وبين الصحفيين والإعلاميين العرب.

توفير مراجع علمية للجامعات والمعاهد العراقية بالتنسيق مع مختلف الجهات العلمية في الدول العربية المختلفة من خلال رعاية مكتبة ضخمة تحمل إسم الجامعة العربية .

إقامة ورش عمل وندوات علمية بمختلف الاختصاصات بمشاركة خبراء عرب تستقدمهم الجامعة العربية وبالتنسيق مع المنظمات والجهات المختصة.

دعم قيام مركز للدراسات والأبحاث التي تخص العراق .

دعم إجراءات فتح فرع لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية في بغداد بالتنسيق مع المعهد الموجود في القاهرة،وجعله تحت رعاية الجامعة العربية ،ورفده بالإمكانات العلمية مع الاستفادة من الباحثين والطلبة الدارسين فيه في مجال البحوث والدراسات الخاصة بالعراق.

٢- فى مجال الشباب والمرأة

دعم إقامة الدورات والندوات بإشراف الجامعة العربية سواء فى دولة المقر أو العراق أو باقى الدول العربية التى ترغب فى استضافة مثل هذه الفاعليات .

دعم المرأة العراقية خاصة قطاعات الأرامل والأيتام بالمشروعات الصغيرة فى إطار المبادرة الكويتية لدعم الأعمال الصغيرة والمتوسطة في نطاق دول الجامعة العربية الصادرة عن مقررات القمة العربية الاقتصادية والتنموية والاجتماعية والتي عقدت في دولة الكويت يومي ١٩ و ٢٠ من يناير من العام ٢٠٠٩ .

تنظيم مهرجانات للشباب من الجنسين بالتعاون مع الدول العربية تحت خيمة الجامعة العربية لتدعيم قيم السلام والتواصل الاجتماعى والثقافى بين الشباب العرب .

رعاية عدد من مراكز الشباب وتطوير امكانياتها والأنشطة التى تقدمها .

دعم منظمات العمل المدنى خاصة المهتمة بالأرامل والأيتام .

وحفاظا على العلاقة مع السيد شلغم ورغبة منى فى دعم عمله الذى بدا لى أنه جاد فيه من خلال لقاءات ودية معه فضلت أن أتقدم بتلك المقترحات من خلال بعثة الجامعة فى بغداد ومن خلال مكالماتى الهاتفية مع السيد شلغم والتى كانت البديل عن اللقاءات المباشرة نظرا لتدهور الوضع الامنى من جديد كان الأمر يزداد نضوجا ووضوحا مع التأكيد على أن الجامعة العربية تقف على مسافة واحدة من كافة مكونات الشعب العراقى وأنها جادة فى دعم العمل العربى والتواجد العربى بالعراق وربط العراق بمحيطه العربى وهو الأمر الذى يدعو إلى عدم الاكتفاء بالتواجد الشكلى للعرب بكافة مؤسساتهم مع دعم المبادرات الخاصة لبعض الشركات والمقاولين الهادفين للربح رغم أن نصيب الشركات العربية والمستثمرين العرب لا يمكن أن نحدد له نسبة فى مواجهة الشركات والمستثمرين الأتراك والإيرانيين بالطبع .

ربما يكون اختيار الدبلوماسى المخلص ناجى شلغم فى حد ذاته بالإضافة إلى الدور الهش لمؤسسة الجامعة العربية نسبياً من أسباب عدم دفع الدور العربى عمليا وترجمة كل الأفكار المطروحة من جانبى والتى حظيت باهتمام من التقيتهم من مسئولى الجامعة العربية وخاصة السفير على الجاروش والسفير محمد الخمليشى وذلك لسببين رئيسيين لا يرتبطان بشخص الدبلوماسى الليبى النشيط الساعى إلى العمل بإخلاص مدفوعا بالكثير من النوايا الحسنة والرغبة فى النجاح أولهما أن الرجل رغم عمله كقائم بأعمال بعثة جامعة الدول العربية بالعراق إلا أنه ليبى الجنسية وهو ما يعنى أنه ينتمى لدولة ترفض الاعتراف بالوضع الجديد بالعراق وتقاطع العملية السياسية برمتها كما أنها متهمة بشكل واضح بالمسئولية عن اختفاء السيد موسى الصدر وهو وإن كان لبنانيا إلا أنه ينتمى لعائلة الصدر العريقة التى يتمتع أحد فروعها المنتمى إليه زعيم التيار الصدرى مقتدى الصدر بمساحة لا بأس بها من خارطة النفوذ فى العراق الجديد وذلك رغم التأكيد الليبي بعدم المسئولية عن ذلك .

أما السبب الثانى فهو المؤسسة التى ينتمى إليها الدبلوماسى الليبى المخلص وهى الجامعة العربية التى لا تحظى باليات عمل واضحة ومحددة ولا تمتلك قرارا مستقلا لأنها بوتقة تجمع أطرافا متناقضة المواقف فى أمور شتى وعلى رأسها الموقف من النظام العراقى الذى نشأ على أنقاض نظام صدام حسين فى ظل

احتلال أمريكى مغلف برداء دولى وهو ما يجعل العمل الواقعى على الأرض خاصة على الصعيد السياسى أمرًا لا يتعدى طرح المبادرات وإصدار البيانات المتوازنة للترحيب والشجب والاستنكار .. كما أن العمل على الصعيد الإنسانى والاجتماعى تحيطه الكثير من المخاطر فى ظل عدم توافر الرغبة الحقيقية لدى أطراف نافذة بالعراق لتواجد عربى فاعل ناهيك عن قوى عراقية وغير عراقية لا تريد أصلا أى تواجد عربى .

عندما زار السفير محمد الخمليشى مساعد الأمين العام للجامعة العربية لشئون الإعلام والاتصال بغداد فى الخامس من مارس عام ٢٠١٠ ليرأس وفد المراقبين للانتخابات النيابية العراقية أعدت طرح الأفكار السابقة عليه خاصة قضية دعم الإعلاميين العراقيين الحقيقيين وتنظيم حلقات نقاشية وندوات ودورات تدريبية وغير ذلك من وسائل الدعم ومحاولة تنشيط دور الجامعة العربية فى المجال الثقافى .. رحب الرجل بذلك ترحيبا شديدا وطلب منى التنسيق مع السيد ناجى شلغم ووعد بتقديم كافة أوجه الدعم وترجمة الأفكار عمليا .

خلال الفترة التى تلت زيارة الخمليشى لبغداد لم تنقطع اللقاءات مع أعضاء بعثة الجامعة العربية بالعراق .. كنت أراقب عن قرب مدى نشاط الدبلوماسى الليبى الطيب ناجى شلغم ومحاولاته المستميتة لعقد صداقات مع كافة القوى السياسية العراقية والتعامل مع أطياف الشعب التى تشبه الفسيفساء .. أراد شلغم أن يكون وجوده محسوسا وملحوظا رغم المخاطر وأراد أن يؤكد وحدة العراق على طريقته فكان يصلى بمسجد الخلانى الشيعى وسط العاصمة بغداد أحد فروض الصلاة ثم يذهب ليصلى الفرض الذى يليه فى الحضرة القادرية « مسجد عبد القادر الجيلانى » أحد أهم مساجد السنة .. كان يصلى ويتجول فى منطقة الأعظمية التى ينتسب اسمها إلى الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وهى سنية خالصة .. ثم يذهب إلى المنطقة المقابلة لها ذات المكانة القدسية لدى الشيعة وهى الكاظمية التى ينتسب اسمها إلى الأمام موسى الكاظم « الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية».

حاول شلغم أن يتحاور مع كل الأطراف الفاعلة على الساحة وأن يمد جسور العلاقات بين الجامعة العربية وكافة الرموز المؤثرة فحرص على لقاء المرجع الشيعى الأعلى بالعراق فى النجف الأشرف التى تبعد ١٦١ كم إلى الجنوب من العاصمة بغداد آية الله على السيستانى فى الوقت الذى كان يرتب للقاء مع السفير الأمريكى داخل حصون السفارة بالمنطقة الخضراء التى تقع بعثة الجامعة خارج جدرانها شديدة التحصين .

ومن الواجب ذكره هنا أن بعثة الجامعة العربية لم تأل جهدا فى القيام بمهمتها خاصة بعد تولى ناجى شلغم المسئولية إلا أن الأمر فى العراق لا يأتى بالنوايا الحسنة فقط وأعتقد أن الإمكانيات المتاحة لدى بعثة الجامعة قلصت الكثير من الفرص للعب دور مؤثر داخل العراق رغم الجهود الكبيرة لفريق السيد شلغم ومحاولات مساعد الأمين العام للجامعة العربية لشئون الإعلام والاتصال السفير محمد الخمليشى دعم دور الجامعة خاصة على الصعيدين الإعلامى والاجتماعى وكذلك السفير على الجاروش الذى كنت أحرص كل مرة أزور فيها القاهرة على لقائه وتبادل الآراء معه وهى اللقاءات التى كرست عندى قناعة بأن هناك من يريد أن يعمل بجدية فى العراق خاصة مع تأكيدات السفير الجاروش خلال الاتصالات معه التى لم تنقطع على الرغبة القوية للأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى فى بذل المزيد من الجهود على الأرض .. لكن يبدو أن هناك الكثير من الأمور التى تعوق تلك الأمنيات يجب وضعها فى الحسبان .

وعندما كنت أواصل إستعداداتى لمغادرة العراق بعد انتهاء مهمتى التى تجاوزت الأربع سنوات كانت مؤشرات الأمل فى دور أكبر للجامعة العربية بالعراق قد بدأت تتصاعد خاصة عندما وجدت بعض الأفكار التى شاركنى فى أهميتها مسئولو الجامعة العربية طريقها نحو التنفيذ على الأرض ثقافيا وإجتماعيا وإن كانت ظروف إنهاء مهمتى بالعراق لم تسمح لى برؤيتها شاخصة إلا أننى قررت الاستمرار فى متابعة الأمر مع مسئولى الجامعة العربية سواء بعثتها لدى بغداد أو السفير على الجاروش رئيس الدائرة العربية بالجامعة والسفير محمد الخمليشى مساعد الأمين العام لشئون الإعلام والاتصال بالجامعة .

٢ - السفارة المصرية

مع كل ازمة كنت أمر بها منذ دخولى إلى المذبحة العراقية كنت اتساءل إلى من الجأ كمواطن مصرى فى بلد غريب ومن يمكن أن يقف إلى جانبى فى هذه الأزمة أو تلك ومن يمكن أن يتفاوض مع خاطفى على الفدية أو يتسلم جثتى إذا غدر بى الغادرون مع عدم وجود سفارة مصرية واقتصار الأمر على قائم بالأعمال لا حول له ولا قوة منذ اختطاف السفير إيهاب الشريف رحمه الله فى العام ٢٠٠٥ وإذا كانت مصر لم تعرف حتى الآن مصير جثته بعد اشاعة خبر قتله على يد تنظيم القاعدة هل يمكن أن تتبع أثرى إذا ما تم اختطافى أو ذبحى فى إحدى نقاط التفتيش الوهمية التى كان عددها أكثر من نقاط التفتيش الحقيقية فى

تلك المرحلة، ولهذا كان وقع خبر تسمية سفير لمصر بالعراق مع وعــود جازمــة بإعادة فتح السفارة فى بغداد يفوق اثره بالنسبة لـ أثره على أى شخص آخــر .. حيث كان يعنى لـ الأمان فى بلد ليس فيه أمن والاطمئنان فى بلد لا ينعم فيــه الناس بأى درجة من الاطمئنان كما أن وجود سفير مصرى يعنى لـ ما لا يمكــن التعبير عنه من مشاعر بالفرح والأمل فى اقتراب تحقيق ما أحلم به دائمــا وهــو التواجد الحقيقى لمصر العروبة لتلعب دورها الغائب سياسيا واقتصــاديا وثقافيــا وسط تساؤلات حائرة من الإخوة الباحثين عن الشقيقة الكبرى فى محنتهم التــى يتنازع الدور الأكبر فيها من لا يريد خيرا لهذا البلد المنكوب .

قبل أن يتسلم سعادة السفير شريف كمال شاهين مهام منصــبه فــى بغــداد كنت قد اكتشفت بالصدفة المحضة أن مصر قد عينت قنصلا هو هشام صــبرى حجازى بعد انتهاء مهمة القائم بالأعمال الأخير حيث كان من يتولـ هذا المنصب لا يستمر بالعراق لأكثر من ثلاثة أشهر ربما لدواع أمنية .

ويبدو أن تعيين القنصل كان توطئة لقدوم السفير شاهين والحــق أقــول : إن لقائى بالوزير المفوض حجازى كان تدشينا لمرحلة من الأمل والطمأنينة اتســاقا مع خبر تسمية السفير حيث كان الرجل شديد النشاط والحيوية الممزوجة بمودة خالصة لكل مصرى ورغبة صادقة لخدمة أبناء البلد المنكوبين بالتواجــد داخــل المذبحة العراقية .. كان الرجل المخلص يعمل أكثر من ١٥ ســاعة يوميــا فــى محاولة لإيجاد حلول لازمات المصريين التى لا تنتهى بالعراق بدءا من عدم وجــود جواز سفر أصلا يثبت هويتهم مرورا بظروف غاية فى الصعوبة عايشوها كــأنهم عراقيون تتنوع بين القتل والتهجير بــلا ســبب ســوى أنهــم مصــريون مــرورا بالاعتقالات العشوائية وفقدان كل شيىء وهو ما جاء ذكره تفصيلا فــى جــزء سابق من الكتاب تم تخصيصه عن المصريين بالعراق أو ربما سوف أعــد كتابــا خاصا حول الحالة المصرية بالعراق تعرض قصصا ونماذج من أرض الواقع .

لم يخفـ الرجل سعادته البالغة بلقائى وما يمكن أن يكون بيننا من علاقة عمل وصداقة وتعاون يمكن أن يضيف له ولـ فى ظل أوضاع مضطربة وظروف شــديدة التوتر كان يزداد كلما اقترب الاستحقاق الانتخابى إلا أن كل ذلك لم يــؤثر على الرغبة الصادقة فى إنجاح الدور المصرى لأن السيد حجازى كان أشد منــى رغبة وحماسا فى تفعيل هذا الدور عمليا لأنه كان يؤمن أن مصر أكبر كــثيرا من أن تلعب دورا هامشيا لا يعدو أن يكون بمثابة ردود أفعال لا تخرج حدودها عن صفحات الجرائد وشاشات الفضائيات وذلك على الرغم مــن حساســية موقفــه

كدبلوماسى مصرى يقع ضمن دائرة التهديد التى سبق وأن راح ضحيتها السفير إيهاب الشريف الذى كان هشام صبرى يجلس على نفس مكتبه بعد أن تحول مبنى السفارة القديم بشارع الأميرات بحى المنصور إلى مقر للقنصلية .

عندما أبلغنى السيد حجازى باقتراب موعد قدوم السفير شاهين مع تعليمات واضحة بعدم تسريب أى خبر إلا بعد وصول الرجل وتأمين إقامته داخل المنطقة الخضراء أردت أن أرفع الحرج عن السيد حجازى واتصلت هاتفيا بالسفير شاهين فى القاهرة وعلمت بموعد وصوله بالتحديد وأكدنا اتفاقا سابقا بأن يبلغنى بوصوله على أرقام هاتفى التى أعطيتها له خلال اتصال جرى قبل موعد وصوله بحوالى ١٠ أيام وتمنيت له التوفيق وحسن الإقامة وأنا يحدونى الأمل الذى جعلنى أقفز فى الهواء فرحا وكأننى سوف ألتقى عزيزا غاب عني طويلا حتى أن زوجتى شعرت فى نبرة صوتى بسعادة غير عادية عندما تواصلنا كالعادة لكنها قدرت شعورى بالسعادة البالغة باعتبارها شريكا رئيسيا فى أحلامى .

كانت الصدمة الأولى التى حاولت امتصاصها هى مرور ثلاثة أيام بعد وصول السفير شاهين إلى بغداد دون الاتصال بى حتى أذهب إلى لقائه إلا أن السيد هشام حجازى الذى طمأننى وهدأ من روعى عندما أبلغته بحالة الضيق التى انتابتنى لعدم تواصلى مع العزيز الذى انتظرته أكثر من ثلاث سنوات وطلب منى أن أبادر أنا بالذهاب إلى فندق الرشيد للقاء السفير لأنه غارق فى ترتيب إقامته مع فريق العمل المحدود الذى يرافقه خاصة وأنه لم يؤمن بعد وسيلة اتصال يمكن أن أتحدث معه من خلالها للاستئذان فى لقائه والترحيب به .

اتفقت مع زميلى مراسل الأهرام ورتبت لقاء معه على حدود المنطقة الخضراء عند تقاطع وزارة الخارجية حتى نذهب سويا للقاء سعادة السفير داخل فندق الرشيد الذى يتطلب إجراءات بالغة التعقيد والقسوة أولها أن تحمل نوعين من الأوراق الرسمية بينهما جواز السفر كما يجب أن تمر عبر سلسلة طويلة من نقاط التفتيش العراقية والأمريكية حاملا كل ما لديك من نقود وأوراق وهواتف بعد نزع بطارياتها ثم المرور عبر جهاز الأشعة الذى يكشف العظام وبعد انتهاء تلك السلسلة من الإجراءات / التى وردت تفصيلا فى جزء سابق من الكتاب/ .. وعندما وصلنا إلى بهو فندق الرشيد حيث فاجأنا مشهد السفير وهو يجلس محاطا بفريق عمله الذى لا يتجاوز الخمسة أشخاص غارقا فى الأوراق وأجهزة الكومبيوتر المحمول / لاب توب / وبعد اجتياز الحراسة الخاصة بسعادته قدمنا أنفسنا ورحب بنا الرجل ترحيبا حارا وانفرد بنا فى جلسة ودية استمرت حوالى

ساعة انضم خلالها إلينا شاب يبدو أنه كان يحظى بثقة السفير وهو سكرتير ثانى فى السفارة التى تتخذ من بعض غرف الفندق المحصن مقرا لها على أمل الانتقال إلى المقر الضخم الذى يقع داخل المنطقة الخضراء أيضا وهو امر أكد لى أن ممارسة السفير والسفارة لمهامه فى خدمة المصريين أمر شبه مستحيل لأن الدخول إلى المنطقة الخضراء غير متاح لأى شخص وهو ما جعل مؤشر الأمل عندى ينخفض درجة وتذكرت مع الفارق طبعا محفوظ عجب فى رائعة نجيب محفوظ (القاهرة ٣٠) عندما تلقى عرض الزواج من سعاد حسنى عبر سكرتير الباشا وكان كلما اقترب من حقيقة الوضع يقول « أه نزلنا درجة » حتى بلغت الحقيقة ذروتها فقال قولته المشهورة « نزلنا أسفل السافلين » وهو ما عدت أعمل له حساب أن ينخفض مؤشر الأمل إلى الصفر عندما أكتشف حقيقة دور السفارة والسفير رويدا رويدا .

دار حوار طويل حول الأوضاع فى البلد ورؤيتنا للموقف وطرحنا عليه ما نراه من مشكلات يعانى منها المصريون المقيمون بالعراق بالإضافة إلى ما يطلبه العراقيون من الشقيقة الكبرى وكيف اعتبروا وجود سفير مصرى لديهم بادرة أمل على تسهيل الكثير من الأمور الصعبة وأهمها منح تأشيرات الدخول إلى مصر خاصة للحالات التى يجب عدم التنصل منها لدوافع يقال أنها أمنية مثل التعليم والعلاج والاستثمار وغير ذلك من الأهداف والفئات التى يعتبر دخولها إلى مصر إضافة للبلد ووجودها رصيد مستمر يسهم فى دعم الدور المصرى المطلوب فى العراق خاصة وأن هناك الكثير من الشركات الخاصة التى توفر تلك التأشيرات بمبالغ تصل إلى ٢٠٠٠ دولار بل تتعداها أحيانا ويتم ذلك بشكل غير رسمى من خلال طرق يشوبها الفساد والتحايل فى حين أن منح التأشيرة من خلال السفارة أو القنصلية المصرية مع وضع ضوابط محددة وفئات محددة هو الطريق الأمثل والبداية الحقيقية للإعلان عن وجود حقيقي لسفارة مصرية بالعراق .

إلا أن مؤشر الأمل هبط درجة أخرى عندما اكتشفت أن إعادة فتح السفارة المصرية لن يتم قبل عام تقريبا لظروف وملابسات يستعصى كثير منها على الفهم كما أن الدبلوماسى المصرى الذى يعتمد عليه السفير بشكل واضح يسأل فى بديهيات الشأن العراقى لدرجة أنه افصح لى عن رغبة فى معرفة أسماء الفضائيات والصحف العراقية والى من تؤول ملكيتها لأكتشف أنه يستقى أخبار العراق من مواقع محدودة على الانترنت وبعض الفضائيات المتاحة للجميع دون معرفة توجهات تلك المواقع أو الصحف اللهم إلا الفضائية والصحيفة اللتين

تتبعان الدولة وهما قناة العراقية وصحيفة الصباح وهو ما جعلنى أشعر بأن هناك مسئولية تقع على عاتقى لإيضاح بعض الأمور إذا طلب منى ذلك وهو ما حدث بالفعل .

فى الحقيقة كان اللقاء فى مجمله وديا وشعرنا خلاله أن سعادة السفير بمثابة أب لنا واعتقدت أننى عثرت على الأهل فى بلد الغربة حيث كان كلامه يسرى إلى القلب سريعا بعد أن استمع لنا باهتمام حيث قال: « السفارة بيتكم ولا تترددوا أبدا فى اللجوء إلينا فى أى حالة نحن هنا لكم وإن شاء الله سنعمل كشخص واحد كل فى مجاله ولا تعتبرونى إلا أخا أكبر لكم وباقى أعضاء السفارة إخوانكم » .. المهم أن اللقاء انتهى على وعد بالتواصل الدائم الذى جعل مؤشر الأمل يستمر رغم انخفاضه درجتين .

فى اللقاء الثانى مع سعادة السفير والذى تم بناء على طلبى بسبب مشكلة تسبب فيها تصريح أملاه على السفير شخصيا عبر الهاتف حول سلامة المصريين من سلسلة تفجيرات كانت قد ضربت العاصمة بغداد وهى تفجيرات الأربعاء الدامى حيث كنت قد اقترحت على سعادته أن أبث الخبر عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط صباح اليوم التالى لأن فرصة نشره بالجرائد تكون محدودة إذا بثته الوكالة بعد السابعة مساء باعتبار أن هذا التصريح خصنى به سعادة السفير ويجب أن يأخذ مكانه اللائق فى النشر بالصحف والجرائد المصرية والعربية التى تعتمد فى جزء من أخبارها على ما تبثه الوكالة ووافقنى سعادة السفير .. وعندما أرسلت الخبر إلى الوكالة فى صباح اليوم التالى فاجأنى زميلى الفاضل مشرف الدورة الصباحية باتصال به بعض العتاب وهو أن هذا الخبر نصا تم نشره فى كافة الصحف المصرية نقلا عن السفير المصرى فى بغداد من خلال بيان وزعه المكتب الصحفى بوزارة الخارجية المصرية على كافة الصحف فى نفس الوقت الذى كان يتحدث معى سعادة السفير ويؤكد أنه خص وكالة أنباء الشرق الأوسط ممثلة فى شخصى بالتصريح الهام مما جعلنى فى موقف حرج مع الوكالة لكن زميلى الذى عتب على تفهم الموقف عندما شرحت له الملابسات وعندها قررت أن ألتقى بسعادة السفير لأوضح طبيعة نشر الأخبار بالوكالة وأنه يجب أن أحافظ على مصداقيتى عندما أقول أن التصريح خاص بوكالتنا وأنه لا يجب أبدا أن أكتب « فى تصريح خاص لمراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد» فى الوقت الذى تم توزيع التصريح على كافة وسائل الإعلام .

وبالرغم مما تسبب فيه الموقف من حرج لى إلا أننى التمست العذر لسعادة

السفير باعتبار أن مثل هذه الأمور فنيه وأن الرجل ربما أراد أن يبلغنى بالخبر بنفسه حتى لا أفاجأ بنشره فى الصحف دون علم منى بصفتى مدير مكتب المؤسسة الصحفية المصرية الوحيدة التى لها مكتب دائم بالعراق وحرصا منى على تعاون مثالى مع سعادة السفير طلبت اللقاء لتوضيح الأمور وحتى تكون العلاقة على خير ما يرام باعتبارنا فريق عمل واحد كل فى مجاله خاصة أن مثل هذه الأمور البسيطة ليست هى محور العلاقة وان كانت ضرورة ملحة لتنسيق التعاون لأن هدفى بل وحلمى الذى أنتظره من مثل هذا التعاون المبنى على علاقة وطيدة تتمتع بخصوصية هو أن أكون أحد المؤثرين فى تفعيل الدور المنوط بسفارة مصر فى العراق ودعم فريق العمل بالسفارة بكل ما يجب من معلومات واقتراحات وشواهد وعلاقات حتى يتمكن سعادة السفير من أداء دوره كأب للمصريين بالعراق أولا وما أدراك ما يعانيه أبناء مصر فى هذا البلد المضطرب وكجسر لاعادة بناء العلاقة مع العراق وإصلاح ما أفسدته سنوات القطيعة وغياب الدور المصرى والعربى ثانيا .

استقبلنى الرجل فى بهو فندق الرشيد وهو المقر المؤقت للبعثة المصرية والذى فقد كلمة مؤقت لفترة طويلة[(١)] ودار بيننا حوار طويل لأكثر من ساعتين بعد شرح الحرج الذى تعرضت له بسبب الخبر الذى أملاه سعادة السفير كتصريح خاص لى وهو أمر لم يستمر لأكثر من ١٠ دقائق إلا أن الحوار الهام هو الذى استمر طوال مدة اللقاء وتناولنا خلاله ما يعانيه المصريون من حالة تشبه الضياع خاصة بعد انهيار نظام صدام حسين ودخولهم دائرة الاشتباه بلا مبرر منطقى وسيادة النظرة الخاطئة إلى كل مصرى على أنه إرهابى وهو موقف تعرضت له شخصيا من جانب مسئول أمنى عراقى كبير كنت قد عاتبته فى أحد المؤتمرات بسبب عدم تمكنى من الحصول على إقامة رسمية بالعراق وهو ما يعرضنى لمضايقات ليس أقلها احتجازى من قبل إحدى نقاط التفتيش ولولا تدخل بعض الأصدقاء الذى انقذنى من براثن رجال الأمن كنت قد تحولت إلى معتقل من آلاف المعتقلين الذين لم يرو النور لسنوات طويلة بدون أى اتهامات محددة ومنهم الكثير من المصريين ناهيك عمن تعرضوا للتصفية الجسدية بعد نزع كل أوراق تثبت شخصيتهم وتحولوا إلى جثث مجهولة الهوية ضمن فوضى القتل العبثى التى أصابت العراق بالجنون عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

---

(١) انتقلت السفارة المصرية إلى مقر آخر مؤقت داخل المنطقة الخضراء أيضًا في مبنى مقابل للسفارة البريطانية بسبب قيام السلطات العراقية بتجهيز فندق الرشيد وعدة فنادق أخرى بالعاصمة بغداد أملاً في انعقاد القمة العربية هناك ٢٠١١.

ولعل من الإنصاف القول بأن تلك الصورة المأساوية للمصريين خفت حـدتها بعد فرار الآلاف منهم عائدين بلا أمل إلى بلدهم بعد أن اقترضوا ثمـن تـذكرة السفر بالإضافة إلى الهدوء النسبى للأوضاع الأمنية إلا أن الخطر يظل قائما بـل ويطال لهيبه بين فينة وأخرى بعض المصريين الذين يسوقهم الحظ العاثر إلى قدر محتوم سواء من القتل أو الاعتقال خاصة وأن أعدادا كبيرة مـنهم لا يحملـون جواز سفر أو آية أوراق تثبت مصريتهم بعد أن فقدوها خلال عمليات الهروب مـن منطقة إلى أخرى بحثا عن أمن مفقود أو خلال مـداهمات عشـوائية أعقبتهـا عمليات اعتقالات جرى خلالها إتلاف الممتلكات أو نهبها .

نقلت إلى سعادة السفير الصورة بلا أية رتوش مع سرد نماذج عديدة التقيتهـا شخصيا أو روى لى قصصها أشخاص أثق فى رواياتهم سواء داخل العاصمة بغـداد أو فى محافظات العراق المختلفة .. كما نقلت لسعادته ما تقوم به القنصلية من جهود جبارة فى هذا الصدد من خلال الوزير المفوض هشام حجـازى إلا أن هـذا الجهد لا يكفى بل يحتاج الأمر إلى عمل منظم والى فرق عمل خاصة وأن جهـود القنصلية لا تتعدى تقديم خدماتها لمن يتمكن من الوصول إلى مقرها فى منطقة المنصور غربى بغداد وهو طريق محفوف بالمخاطر خاصة على بسـطاء المصـريين اللذين يقيمون خارج العاصمة موزعين على مناطق تفاوتت فيها معاملة سـكانها لهم .. فبقدر ما لاقوه من معاملة قاسية وملاحقة وتصفية فى بعض المناطق بقدر ما أحيطوا بالمودة والعناية فى مناطق أخرى وكونوا عـائلات بضـمان كـونهم مصريين دون وجود أية أوراق رسمية تثبت هويتهم اللـهم إلا أخلاقهـم الطيبـة وشهادة بعض من رق قلبه لهم إلا أن المشكلة تبقى قائمة فمعظم هؤلاء يريـد أن يكمل هيئته الاجتماعية ويمتلك ما يثبت مصريته كما أن عددا كبيرا منهم لم يؤدى خدمته العسكرية وهو حائر ماذا يفعل وكيف يمكن أن يسوى تلك المشكلة دون أن يمتلك جواز سفر أو هوية ناهيك عن مشكلة الحصول على إقامة شرعية التى يتفنن موظفوا مديريات الإقامة سواء فى بغداد أو المحافظات فى عرقلتهـا حتى إذا كان هذا المصرى يمتلك كافة الأوراق المطلوبة بمـا فيـه عقـد زواج مصدق من عراقية وهو أمر كفيل بحصول أى شخص على إقامة رسمية بـالعراق خاصة إذا كان إيرانى الجنسية أما كونه مصرياً فهذا عائق لا يتجاوزه كثيرون وهو ما يتطلب تدخلا حازما من السفارة المصرية .

شرحت لسعادته المشكلة الغريبة التى تثير الكثير من الاقاويل والشـكوك لـدى العراقيين بشكل عام والمثقفين الملتزمين بشكل خاص وهى مشكلة تأشيرات الـدخول

إلى مصر التى يمكن لأى شخص يمتلك ١٦٠٠ دولار فما فوق أن يحصل عليها بسهولة من خلال شركات سياحة تعمل فى قلب بغداد وفى عدد من المحافظات فى الوقت الذى يفشل فيه أساتذة جامعات وصحفيون ومفكرون ورجال أعمال فى الحصول على تأشيرة الدخول إلى مصر بالطريق الشرعى من خلال القنصلية أو السفارة حتى أن مواقف محرجة تعرض لها كثيرون عندما منحهم القنصل النشيط تأشيرة دخول على مسئوليته الخاصة نظرا لقيمتهم فى الهيكل الاجتماعى أو العلمى العراقى ثم فوجئوا بمن يمنع دخولهم ويعيدهم على نفس الطائرة التى أقلتهم بعد التعرض لإهانات بالغة ومعاملة قاسية بدعوى عدم الحصول على موافقة أمنية مسبقة .

والحقيقة أن سعادة السفير كان متفهما جدا ما أقول ووعد بتذليل كافة العقبات وحل مشكلة منح التأشيرات بشكل يحفظ للخارجية المصرية سمعتها بعيدا عن أحاديث التورط من جانب البعض فى الحصول على عمولات باهظة من شركات السياحة العراقية لتسهيل دخول عملائها إلى مصر خارج النطاق الرسمى الذى يجب أن يكون من خلال القنصلية أو السفارة حيث أنه يتم منح التأشيرة بالمجان ولا يدرى أحد أين تذهب آلاف الدولارات التى يدفعها عملاء شركات السياحة التى تنتشر إعلاناتها فى شوارع بغداد نظير الدخول إلى مصر وإذا كانت هناك إمكانية لدخول العراقيين إلى مصر لماذا لا يدخلوا بالطريق الرسمى والشرعى حتى وان استفادت السفارة بمبلغ تفرضه مقابل منح تأشيرة الدخول الأصولية .

إلا أن مشاكل المصريين التى وعد السفير بفعل ما يستطيع لحلها بدت لى من نبرته أنها أكبر من قدرات السفارة بوضعها الحالى وربما اللاحق عكس ما بدا لى من نبرة صوته عندما كان يتحدث عن مشكلة تأشيرة الدخول إلا أن نبرة الصوت التى تنم عن تمكن القادر ونبرة المحاول كلاهما ذهب إلى مصب واحد وهو مجرد التوقف عند حدود الكلام دون فعل ما يذكر وهو ما تأكد لى خلال ما تلا ذلك اللقاء من وقائع وهو ما جعل مؤشر الأمل ينخفض عندى درجة أخرى تفوق الدرجتين السابقتين وخشيت أن أنزل بعد ذلك إلى أسفل السافلين مثل محفوظ عجب .

بعد انتهاء اللقاء وافقت على دعوة كريمة من سعادة السفير لتناول الغداء لاستكمال المناقشات بناء على رغبته للإجابة على بعض التساؤلات بخصوص القوى السياسية والأوضاع العامة بالعراق خلال الفترة المقبلة والتى كانت موسما

للصراعات بسبب الانتخابات التشريعية التى كان قد تقرر إجراؤها فى السابع من مارس ٢٠١٠ حيث عرضت على سعادة السفير أن أقوم بترتيب بعض اللقاءات له مع عدد من ممثلى مختلف التيارات والقوى السياسية العراقية وأعضاء البرلمان ممن تربطنى بهم علاقات وثيقة ورحب الرجل بذلك وكانت سعادتى بالغة إلا أن الأيام مرت دون أى جديد على أى مستوى ودون التصدى لأى أمر من الأمور التى طرحتها وتجاوب معها سعادة السفير مما جعلنى أقترب من حافة اليأس لشعورى بأن الأمر يبدو أنه سيتحول إلى صورة مشابهة لتجربتى مع سعادة سفير الجامعة العربية إلا أننى أجلت هذا الشعور باليأس بعد أن طرحت مخاوفى على صديقى القنصل وهدأ من روعى وطلب منى الهدوء والصبر حتى يلتقط الرجل أنفاسه كما قال وان كانت نبرة صوته تؤكد مخاوفى من أن وجود سعادة السفير لن يعدو كونه أمرا بروتوكوليا سجلته بيانات مكاتب المسؤلين الذين كان يلتقيهم سعادته وأقوم أنا ببث أخبارها وما يتلوها من تصريحات مكررة عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط وهو الأمر الذى استمر حتى جاء موعد زيارة رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى إلى القاهرة والتى كانت مسألة هامة ومؤثرة بالنسبة للعلاقة بين مصر والإدارة العراقية فى عصر ما بعد صدام حسين كما كان ما جرى قبلها وبعدها مسألة فاصلة بالنسبة لى فى تأكيد مخاوفى ومن ثم علاقتى بسعادة السفير .

قبل أن يغادر رئيس الوزراء إلى القاهرة فى ١٩ أكتوبر عام ٢٠٠٩ تحدد لى موعد لإجراء حوار معه فأبلغت سعادة السفير وتناقشت معه عبر الهاتف حول ما يمكن أن أثيره من قضايا مع دولة رئيس الوزراء العراقى فطلب منى أن أذهب لمقابلته فى فندق الرشيد / مقره المؤقت الدائم/ وجرى معه لقاء استغرق حوالى الساعة تحدثنا خلاله عن مختلف الأمور والقضايا التى سبق وتحدثنا فيها وأنهى الرجل اللقاء بطلب تقبلته وهو إلا اثير أية قضايا عالقة قد تعكر صفو الأجواء قبل الزيارة خاصة مصير المعتقلين المصريين ومصير التحقيقات فى اختفاء السفير إيهاب الشريف وغير ذلك من الأمور الثقيلة على نفس المصريين والعراقيين على حد سواء / كل طرف بأسبابه/ .. سألت سعادة السفير إذا كان سيرافق رئيس الوزراء فى زيارته للقاهرة أم لا حتى أرتب أمرى فى السفر مع رئيس الوزراء أو البقاء إذا كان سعادة السفير لن يسافر إلى القاهرة فأكد لى الرجل أنه لن يسافر برفقة رئيس الوزراء وهو ما جعلنى أعتذر عن مرافقة رئيس الوزراء العراقى إلى القاهرة خاصة وأننى كنت عائدا للتو من أجازة عيد الفطر التى قضيتها مع

أسرتى بالقاهرة .

وخلال لقائى مع سعادة السفير اتصل بى أحد الأصدقاء من مكتب مستشار رئيس الوزراء للشئون الإعلامية ومدير المركز الوطنى للإعلام السيد على الموسوى وطلب منى استئذان السفير فى إجراء مقابلة للقناة الرسمية / قناة العراقية/ بمناسبة زيارة المالكى إلى مصر وأبلغت سعادة السفير بتلك الرغبة وطلبت تحديد موعد إلا أن الرد جاء صادما وهو أن سعادة السفير لا يستطيع إجراء أى مقابلة صحفية أو تليفزيونية بدون الحصول على إذن من وزارة الخارجية وهو ما جعل مؤشر الأمل عندى ينخفض عدة درجات وأشعر بالإحباط كما أن هذا الرد أكد مخاوفى من كون وجود السفير لا يتعدى التواجد البروتوكولى المقيد بمقره / المؤقت / بفندق الرشيد .

انصرفت تحيطنى مشاعر مختلطة من اليأس والإحباط والرغبة فى إنهاء مهمتى بالعراق فلا طائل من البقاء على حافة المذبحة وتحمل المخاطر والسير فى مواكب الموت المجانى.

وفى الوقت الذى كان يتطلب إجراء سعادة السفير لحوار مع قناة رسمية عراقية اذنا من وزارة الخارجية كانت أخبار نشاطات السفير الإيرانى المنشورة وغير المنشورة تبعث على الإحباط عند المقارنة بين السفيرين ليس أقلها قيام السفير بافتتاح مسجد فى محافظة ميسان جنوبى العراق وسط موكب إمبراطورى مهيب يليق بسفير الإمبراطورية الفارسية يرافقه المحافظ محمد شياع فى وقت كانت بلاده تحتل أحد الحقول النفطية الهامة وهو حقل الفكة رقم ٤ .. فيما كنت قد قرأت خبرا طريفا فى صحيفة حريات التركية يشير بما لا يدع مجالا للشك كيف يعمل المسؤولون لصالح بلادهم دون النظر إلى الصورة النمطية المسبقة لنظام الحكم أوصفته .. فتركيا التى يحكمها حزب العدالة والتنمية ذى التوجهات الإسلامية أسهمت نشاطات سفارتها فى العراق وقنصلياتها التى تغطى ثلاثة مناطق فى شمال العراق وجنوبه إلى تصدير بيرة تركية للعراق خلال عام ٢٠٠٩ بقيمة ٢٢ مليون و١٠٠ ألف دولار ضمن معدلات تبادل تجارى تمكنت تركيا خلالها إلى تحقيق ٧ مليارات دولارات وتعمل على زيادتها خلال العام ٢٠١٠ إلى ٢٠ مليار دولار فى وقت لا توجد لدينا أية أرقام عن حجم التجارة المصرية العراقية وحتى أن وجدت فهى بالتأكيد أرقام هزيلة لا ترقى إلى ما حققته تركيا أو إيران الذى تجاوز ميزانها التجارى مع العراق ثمانية مليارات معلنة ومثلها تجارة خفية عبر طرق غير رسمية .

تغلبت على تلك المشاعر المحبطة عندما أبلغنى القنصل هشام حجازى أنه

سيرافق رئيس الوزراء بناء على طلب منه شخصيا وهو ما أحيا الأمل بوجود من هو مثلى يعمل ويعمل ويتمتع بميزة كونه أحد عناصر الإدارة الرسمية المصرية فيما يخص العراق وله سلطه حقيقية ليست مثل سلطة الصحافة التى تتوقف نتائجها وتأثيرها عند رغبة المسئول فى الإنجاز وتحقيق ما يمليه الموقف من ضرورة .

كان ما حدث بعد ذلك مسألة فاصلة فى علاقتى بسعادة السفير حيث تأكدت أن مسار تلك العلاقة لن يكون كما تمنيت ولن يحقق وجوده ما توقعت حيث فوجئت بسفر الرجل قبل سفر رئيس الوزراء العراقى إلى مصر ليكون فى استقباله هناك دون أن يبلغنى أو يفسر لى سبب إخفاء الأمر عنى ومن ثم اثنائى عن السفر مع المالكى ضمن الوفد الصحفى المرافق له إلى القاهرة إلا أن هذا الموقف جعلنى أستعيد ذكرى واقعة غريبة كان بطلها إلى جانب سعادة السفير شخص يدعى /......./ ضمن أعضاء البعثة طلب منه السفير أن يعطينى عنوان بريده الإلكترونى لاستخدامه إذا أردت أن أتحدث مع سعادة السفير أو أبلغه بأمر هام وتعذر ذلك عن طريق الهاتف المحمول نظرا لسوء الخدمة وضعف شبكة الاتصالات بالعراق بشكل عام إلا أننى فوجئت بأن هذا البريد الإلكترونى غير صحيح وعادت لى الرسالة التى أرسلتها / فيلر نوتيس/ وعندما أبلغت السفير بذلك لم يحرك ساكنا وعندها تأكدت أن الأمر برمته غير مريح وأنه لا طائل من التواصل مع سعادته وتحمل تكاليف الاتصالات والانتقال إلى مقره بالمنطقة الخضراء وما يرافق الدخول إلى تلك المنطقة المحصنة من إجراءات تبعث على الضيق والقرف خاصة المرور على جهاز الأشعة الذى يكشف ما تحت الجلد وهى إجراءات لا يمر بها سعادة السفير أو أيًا من أركان بعثته لأنهم لا يغادرون المنطقة المحصنة إلا من خلال مواكب رسمية لإجراء مقابلات رسمية تاركين المصريين التعساء ممن هم خارج أسوار المنطقة الخضراء فى العراء لا يملكون حتى ترف الإهانة بكشف ما تحت ملابسهم الداخلية لأنهم لا يجرؤن على مجرد الاقتراب من الحصون المنيعة التى يقيم خلفها من ارتضوا أن يكونوا من الواقفين على حافة المذبحة مجرد متفرجين بلا أى أثر بينما يقف غيرهم داخل المذبحة يؤثر فيها ولا يتأثر مواطنوه بها إنما يستفيدون من وجود ممثليهم داخل المذبحة بينما هم يصولون ويجولون محققين المكاسب على كافة المستويات لا يجرؤ كائنا من كان على الاقتراب منهم أو إغفال حقوقهم أو التجاوز عليهم فى الوقت الذى تبقى أبواب بلادهم مفتوحة على مصراعيها لاستقبال العراقيين سائحين ومستثمرين

يسبقهم قادتهم من شتى الطوائف والمكونات فالمصالح مثل السياسة لا تعترف بالسكون وتغليب المشاعر والعواطف إنما تعترف فقط بالمكاسب وتعمل لها بكل جدية وإخلاص وفق رؤية واضحة ترعى المصالح وتحقق الأهداف المنشودة وهذا هو سبب النجاح الباهر لدول مثل إيران وتركيا على سبيل المثال لا الحصر حيث تقع سفاراتهم بعيداً عن التقوقع داخل حصون المنطقة الخضراء المنيعة بدعوى الاستهداف الذى كان يجب أن يكون عنصرا محركا للعمل الجاد والأخذ بالأسباب للتأثير فى الواقع العراقى بالتواجد الفاعل داخل المذبحة بلا هشاشة منبعها الخوف أو ربما الاستجابة لضغوط أطراف لا تريد تواجدا حقيقيا لمصر وهو ما صبغ الدور المصرى والعربى منذ دخول القوات الأمريكية إلى العراق فى أبريل عام ٢٠٠٣ واستمر حتى طبع هذا الكتاب وربما سوف يستمر طويلا طالما تجرى الأمور وفق أهواء من لا يريد لنا تواجدا بالعراق بينما نكتفى نحن بالوقوف متفرجين على حافة المذبحة .

وقد جعلنى وضع السفارة والسفير أتساءل دائما إذا كان سعادة السفير لا يملك مجرد صلاحية منح تأشيرة دخول لأى عراقى إلى مصر بما فى ذلك أساتذة الجامعات ورجال الأعمال والإعلاميين وطلبة العلم والمحتاجين للعلاج وغير ذلك من الفئات التى يجب الترحيب بها فى أى وقت فما جدوى وجود بعثة مصرية داخل حصون المنطقة الخضراء لا يستطيع أى مصرى التواصل معها أو مجرد الوصول إلى أبواب الحصون التى تحتمى بها .

وإذا كانت أوضاع السفارة المصرية بالعراق أصابتنى باليأس من دور فاعل وحقيقى بسبب عدم وجود تواصل حقيقى بين البعثة المصرية ومواطنيها بالعراق على كافة المستويات .. فباستثناء شخص مثلى اختار الابتعاد وعدم التواصل غير المجدى مع عناصر البعثة الذين يتواجدون داخل حصون المنطقة الخضراء فقد شكا إليّ كثير من المصريين المقيمين بالعراق من أسلوب تعاطى عناصر البعثة معهم واكتفائهم بنمط جاف من العلاقة وإطار محدد لا يتجاوز من يعمل بالبعثة كدبلوماسى أو موظف أو حارس أمن .

قبل مغادرتى العراق بأيام كنت قد لبيت دعوة على إفطار رمضانى من أحد الأصدقاء العراقيين المقيمين بالمنطقة الخضراء وهو برلمانى سابق شديد الحب لمصر ويتمنى مثل غيره من العراقيين أن يزداد الدور المصرى فى بلاده وأن يكون هناك تواصل حقيقى بين عناصر السفارة المصرية لدى بغداد مع أشقائهم العراقيين وأن تتاح للجميع زيارة مصر للتجارة أو السياحة أو غير ذلك من الأمور الهامة .. مررت على المبنى الصغير الذى انتقلت إليه البعثة المصرية بشكل مؤقت

بعد إغلاق فندق الرشيد لغرض ترميمه استعدادا لاستقبال القمة العربية القادمة رغم ما يعانيه العراق والعراقيون من أزمات وانهيار أمنى وخدمى شامل وهو مبنى مواجه للسفارة البريطانية شديدة التحصين وذلك بعد الخضوع لإجراءات أمنية معقدة رغم أننى أحمل الكثير من الهويات « الكارنيهات» ويصطحبنى أحد سكان المنطقة الخضراء بسيارته الخاصة .. تساءلت مرة أخرى كيف يمكن لمواطن مصرى بسيط الوصول إلى تلك الحصون ليلتقى بمن داخلها الذين هم مرجعيته الأولى فى بلد مثل العراق وإلى متى يستمر دور البعثة المصرية بروتوكوليا ومتى تنتقل السفارة إلى مقرها الدائم داخل المنطقة الخضراء أيضا وتمارس دورا حقيقيا ؟؟ !!

٣ - السفارة اللبنانية

رغم انتمائه للمذهب الشيعى إلا أن القائم بالأعمال اللبنانى هزاع شريف لا يعترف بما يسمى الطائفية التى جعلها بعيدة عن مجال عمله الدبلوماسى ولهذا لا يذكر أبدا أنه سئل ذات مرة عن طائفته أو مذهبه .

خلف جدران عالية لا يعترف بها يمارس القائم بالأعمال اللبنانى ما يسميه الدبلوماسية الشعبية ، يواصل عمله المضنى نهارا فى خدمة المراجعين من العراقيين المسافرين إلى بيروت واللبنانيين المقيمين بالعراق ،بينما ينهى يومه فى زرع الزهور والعناية بحديقة مبنى السفارة التى تسلمها قفرا مجدبة تليق بصورة بغداد خلال تلك الفترة شديدة القسوة من زمن المذبحة وتحديدا فى يناير عام ٢٠٠٦ .

روى لى هزاع شريف أنه تسلم عمله فى مرحلة بالغة الصعوبة من تاريخ العراق ، شجعه على ذلك أن المهمة رغم قسوتها فإنها فريدة ولن تتكرر سواء فى وقائعها أو ملابساتها أو شخوصها وظروفها ، تجربة كرسها احتلال العراق من أكبر دولة بالعالم تستوجب رؤية الأحداث ومعايشتها على الأرض رغم أنه كان يتوقع ما جرى بعد زيارة استكشافية قبل أن يتسلم مهامه الرسمية بعام تقريبا وذلك فى فبراير عام ٢٠٠٥ .

يقول هزاع : « إن التواجد داخل العراق فى تلك الفترة يتيح للدبلوماسى أو المراقب السياسى الاقتراب من البوصلة التى يتحرك العالم على ضوئها ومن ثم يمكن تحديد توجهات القوة العظمى نحو المنطقة بالكامل وليس العراق فقط ، حيث أثبتت الأيام صحة توقعاته لما جرى لأن ذلك كان جزءا من مخطط لإثارة الفتنة المذهبية ليس بين العراقيين فقط وإنما بالمنطقة إلا أن ذلك لم يتم مثلما أراد مخططوه .

عندما زرت مقر السفارة اللبنانية للمرة الأولى عام ٢٠٠٨ حيث تقع بالقرب من

مدينة الطب تحتضن نهر دجلة مقابل جسر الصرافية أدركت مدى خطورة المكان التى لا تكمن فقط فى وقوعه خارج حصون المنطقة الخضراء وإنما لاقترابه من مناطق تماس لنفوذ الميليشيات الشيعية التى كانت تمارس جرائمها فى مدينة الطب القريبة حيث يقع الطب العدلي « مشرحة بغداد» التى ورد ذكرها فى جزء سابق من الكتاب وكذلك قربها من كورنيش يؤدى إلى منطقة الأعظمية السنية حيث يمتد نفوذ تنظيم القاعدة .. إلا أن هزاع بادرنى بالقول « عندما تقبل الخدمة بالعراق فأنه يجب أن تحسب حسابا للمخاطر لأن الخدمة هنا سواء كانت سياسية أو إعلامية مسئولية لا يقدر على تحمل شرفها إلا المخلصون لأوطانهم وبلدانهم » .

فسر لي هزاع كيف تمكن من العمل خارج حصون المنطقة الخضراء معتمدا على قوة حماية بسيطة رغم خطورة المرحلة التى حضر فيها إلى العراق ، حيث أكد أن الموقف المتوازن الذى سار عليه لبنان جعل الاستهداف غير وارد إلا قليلا حيث تعرضت السفارة لاستهداف منظم إبان معركة نهر البارد بين الجيش اللبنانى وجماعة فتح الإسلام فى شتاء عام ٢٠٠٨ حيث كان يوجد تقاطع بين جماعة شاكر العبسى وتنظيم القاعدة .

تقع السفارة اللبنانية فى موقع فريد تحتضن نهر دجلة حيث كانت مقرا لسكن السفير اللبنانى قبل قطع العلاقات الدبلوماسية بين بيروت وبغداد بسبب اغتيال الشيخ طالب السهيل المعارض لنظام صدام حسين فى أوائل التسعينات من القرن الماضى وتوجيه الاتهام لعناصر من السفارة العراقية لدى لبنان بالتورط فى عملية الاغتيال ، إلا أن منزل السفير بات مقرا للسفارة عندما عادت العلاقات بين البلدين بعد سنوات من القطيعة .

فى إحدى زياراتي للسفارة اللبنانية التى جعل منها هزاع شريف ملتقى للأصدقاء من كافة الجنسيات حيث يعقد جلسة فى يوم الجمعة من كل أسبوع تضم عراقيين ولبنانيين ومصريين وغير ذلك من الأصدقاء يرتادها رجال أعمال ومسؤولون وقادة أمنيون ، روى لي القائم بالأعمال اللبنانى أحد المواقف الصعبة التى تعرض لها والتى كاد أن يفقد حياته بسببها وهى سقوط كتلة حديدية فوق المبنى وتحديدا فى الطابق الثانى الذى يتخذه مسكنا ، كانت هذه الكتلة التى تزن حوالي ٢٠٠ كجم جزءا من جسر الصرافية الحديدى الذى جرى تفجيره عام ٢٠٠٧ ضمن موجة العنف التى استهدفت معالم العراق وكرست مبدأ الفصل بين شطرى العاصمة بغداد تحديدا الكرخ السنى والرصافة الشيعية / الجزءان الغربى والشرقى من العاصمة التى

يقسمها نهر دجلة وتمتد فوقه الجسور رابطة بين البغداديين .

يقول هزاع : إنه فى ذلك اليوم من ربيع ٢٠٠٧ كان طريح الفراش بالمستشفى لينقذه القدر من موت محقق بعد أن هدمت القذيفة الحديدية الطائرة الطابق الثانى من مبنى السفارة .

تحدى الرجل ما مر به من أيام قاحلة ورعب وأحداث دموية ليدشن حديقة رائعة فى باحة السفارة الخارجية ، حيث يلاحق الجمال والدقة كل من زوار السفارة بعد أن صارت حديقتها لوحة جمالية رسمها فنان مبدع لم يستجب للضغوط النفسية التى تفرضها لغة الرصاص وتكرسها رائحة الدم والبارود .

فى آخر زيارة للقائم بالأعمال كان قد جهز كميات من الرصاصات الطائشة التى أصابت المبنى أيام العنف الطائفى سواء بقصد أو غير قصد كما طلبت منه حيث يحتفظ بصندوق كامل به طلقات لكافة الأسلحة ومختلف العيارات ، إلا أن هزاع شريف الذى يتنقل بشكل دائم ضيفا أو مضيفا بين مختلف مناطق بغداد ، بينما لا يتوقف جرس هاتفه عن الرنين طلبا للمشورة من مستثمرين ورجال أعمال عراقيين ولبنانيين يديرون مشروعات مشتركة فى مجالات الإعمار والتجارة والاتصالات ، بينما تفتح لبنان جامعاتها ومستشفياتها ومناطقها السياحية للعراقيين بدون تأشيرة دخول كملاذ آمن لهم يسمح بفتح كافة الميادين لزيادة التعاون على جميع المستويات بين العراق ولبنان وهو ما جعل اللبنانيين يحظون بالكثير من الفرص الاستثمارية فى العراق بفضل الدبلوماسية الشعبية التى يجيد هزاع شريف فنّ ممارستها دون حساب مقيد بسبب الظروف الأمنية التى يعانى منها العراق ولبنان معا .

٤ - سفارة الإمارات

مساء الثلاثاء الموافق ١٦-٥-٢٠٠٦ أعلن مصدر بوزارة الداخلية العراقية أن مسلحين مجهولين اختطفوا ناجى النعيمى وهو دبلوماسي يمثل دولة الإمارات العربية المتحدة في بغداد خلال زيارة كان يقوم بها للملحقية الثقافية الإماراتية في حي المنصور الراقي (غرب بغداد) وقاموا بإطلاق النار على احد حراسه الشخصيين وهو سوداني الجنسية مما أسفر عن إصابته بجروح بليغة لفظ أنفاسه الأخيرة على أثرها وأصدرت جماعة عراقية تطلق على نفسها اسم «لواء الإسلام» بعد ذلك بيومين شريط فيديو طالبت فيه دولة الإمارات العربية المتحدة بإغلاق سفارتها في العراق.

وبعد الإفراج عن الدبلوماسى الإماراتى المختطف مقابل فدية مالية كبيرة

بحوالى عامين أعلنت الدولة الاتحادية التى أسسها الراحل الكبير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عام ١٩٧١ من سبع إمارات إعادة فتح قلبها وسفارتها في بغداد وتسمية اللواء السابق بالجيش عبد الله إبراهيم الزوي الشحي سفيرا لها بالعراق إيذانا باستمرار الجهود الإنسانية وتفعيل المشاركة الاقتصادية وضخ مليارات الدولارات للاستثمار فى إعادة إعمار البلد الذى دمرته الحروب الخارجية والداخلية .

ولم يكن غريبا على المتابع للشأن العراقى أن يرى تلك الخطوة التى تبعتها خطوات أشد تأثيرا وأكثر دعما للعراقيين حيث كانت الإمارات أول دولة عربية حاولت إطفاء فتيل الحرب العراقية الإيرانية ومنذ بداياتها، وذلك من خلال مبادرة الشيخ زايد رحمه الله بتحمل جميع خسائر الطرفين من قبل دولته مقابل إنهاء تلك الحرب، وأردفها بمبادرة أخرى باقتراحه على رأس النظام السابق ترك العراق قبيل غزوه، واستعداد الإمارات لتضييفه، بالإضافة إلى مبادرات إيجابية أخرى تبعت انهيار نظام صدام حسين تهدف إلى خدمة الشعب العراقى دون النظر إلى طائفة دينية أو قومية .

ولعل الاختيار الموفق للسفير عبد الله الشحى كان له أبلغ الأثر فى دعم التواجد الإماراتى القوى اقتصاديا وإنسانيا فى العراق حيث أن الرجل تخرج من مدرسة الراحل الكبير الشيخ زايد الذي ترك الكثير من حكمته ومبادراته الإنسانية ليعمل فى ظلها السفير الإماراتى لدى العراق رغم الظروف التي يعيشها البلد في هذه المرحلة حيث سعى إلى أن يرتقي بالعلاقات الثنائية الاقتصادية بين الإمارات والعراق لتتماشى وتتناغم مع مستوى العلاقات السياسية، من خلال انفتاح عراقي وثقة باقتصاد الإمارات وشركاتها، مع المشاركة في إعمار العراق من منطلق حاجة العراق إلى المساندة والدعم في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه التي تحتاج إلى مسابقة الزمن وتحقيق الاستقرار والرفاهية للمواطن العراقي،

ويقول الشحى : إنه سعى دائما إلى أن تكون للشركات الإماراتية الأسبقية في الاستثمار في العراق من خلال زيارة الوفود الاقتصادية وترجمة ذلك عمليا على الأرض من خلال مشروعات عملاقة فى مختلف القطاعات وكافة المناطق العراقية .. حيث قامت وزيرة التجارة الخارجية معالي الشيخة لبنى القاسمي بزيارة إلى إقليم كردستان في ١٨-١٩ يونيو ٢٠١٠ على رأس وفد ضم مجموعة متنوعة ومختارة من رؤساء ومدراء ٤٥ من الشركات الإماراتية من جميع القطاعات الاقتصادية والتجارية والاستثمارية وغيرها، وهو ما يؤكد حرص الإمارات المستمر على توسيع قاعدة التعاون الثنائي في جميع المجالات التي تشكل اهتماماً مشتركاً

بين البلدين

ويروى الشحى كيف أن العلاقات التجارية بين الإمارات والعراق حملت عام ٢٠٠٩ أنباءً سارة ومفرحة، إذ أنه في الوقت الذي تراجعت فيه حركة التجارة الدولية بشكل ملحوظ بسبب ظروف تباطؤ الاقتصاد العالمي، ازداد حجم التبادل التجاري غير النفطي بين البلدين بنسبة ٦٣٪ ليرتفع من ثلاثة مليارات و(٧٩) مليون دولار في عام ٢٠٠٨ إلى خمسة مليارات و(١٩) مليون دولار في عام ٢٠٠٩ ليصبح العراق الشريك التجاري الحادي عشر عالمياً للإمارات والشريك التجاري الثاني عربياً.

وفي الوقت الذي ارتفع فيه حجم صادرات الإمارات إلى السوق العراقية خلال عام ٢٠٠٩ بنسبة ٥٤١ مقارنة بالعام ٢٠٠٨ ليصل إلى أربعة مليارات و(٢٤١) مليون دولار، كذلك وصلت صادرات العراق إلى سوق الإمارات إلى (٧٧٨) مليون دولار ، وهذه المؤشرات الإيجابية جداً في حركة التجارة بين البلدين تعد إحدى ثمرات الجهود المشتركة من أجل الارتقاء بمستوى العلاقات التجارية وتوسيع مجالات التعاون الاقتصادي .

ويقول سفير دولة الإمارات العربية المتحدة أن وقوف بلاده مع العراق في هذا الظرف هو ليس «منة» بل هو واجب لا تهتم القيادة الإماراتية بإبرازه إعلاميا ، وعلى سبيل المثال : إن الجرحى العراقيين الذين يأتون إلى الإمارات يتم منع الصحافة على اختلاف انتماءاتها أجنبية أو عربية من تصوير استقبالهم أو نشر الخبر عن علاجهم فى مستشفيات دبى أو غيرها ،وما قدمته دولة الإمارات للعراق هو بسيط جداً ونراه واجباً حتمياً علينا أن نؤديه لعضو من أعضاء جسمنا، وأكرر وأقول : إنه واجب وليس «منة» خاصة وأن الجالية العراقية الموجودة في الإمارات يقدر عددها بحدود (٢٠٠) الف عراقي .

ولعل قراءة سريعة لتصريحات المسئولين من الإمارات أو العراق يمكن أن يلقى المزيد من الضوء عن الدور الهام حاضرا ومستقبلا لهذه الدولة الصغيرة التى لا يزيد عدد سكانها عن ٥,٦ مليون نسمة ومساحتها ٨٢,٨٨٠ كيلو متر مربع، حيث قالت وزيرة التجارة الخارجية الشيخة لبنى القاسمي على هامش زيارتها لإقليم كردستان العراق ، : «أن الإمارات تعد بوابة العراق نحو المستقبل»، كاشفة عن أن «الإمارات تقود الاستثمارات في إقليم كردستان العراق، نتيجة قدرة الشركات الإماراتية على استكشاف الفرص الاستثمارية بشكل مبكر، والتنافسية العالية التي تنتهجها في عملها، سواء في السوق المحلية أو الأسواق الخارجية».

وأضافت أن «أرقام التبادل التجاري بين الإمارات والعراق، تظهر أنها حققت ارتفاعاً ملحوظاً خلال السنوات الماضية، بلغت نسبته ٢٨٪ بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨

وبزيادة طفيفة بلغت ١,٢٪ بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ لتصل إلى أكثر من ثلاثة مليارات دولار، ما يعكس الجهود التي تبذلها الجهات الحكومية، ومؤسسات القطاع الخاص، للارتقاء بمستوى العلاقات الاقتصادية، وتوسيع مجالات التعاون التجاري».

ولفتت إلى «زيادة الصادرات غير النفطية الإماراتية إلى السوق العراقية، بنسبة تجاوزت ٨٩٪، ووصلت إلى نحو ٣٥٨ مليون دولار، مقارنة بعام٢٠٠٧ فيما بقيت قيمة إعادة التصدير من الإمارات إلى العراق مرتفعة، رغم انخفاضها بنسبة ٥,٧٪، لتبلغ أكثر من ٢,٦ مليار دولار.

وأوضحت أنه «إذا كانت الاستثمارات الإماراتية في الخارج تتمتع ببعد عربي كبير، خصوصاً في السنوات الأخيرة، فإننا نؤكد أن العراق يشكل إحدى أهم المحطات العربية للاستثمارات الإماراتية خلال المرحلة المقبلة، بالتزامن مع خطط الإصلاحات وزيادة الانفتاح الاقتصادي».

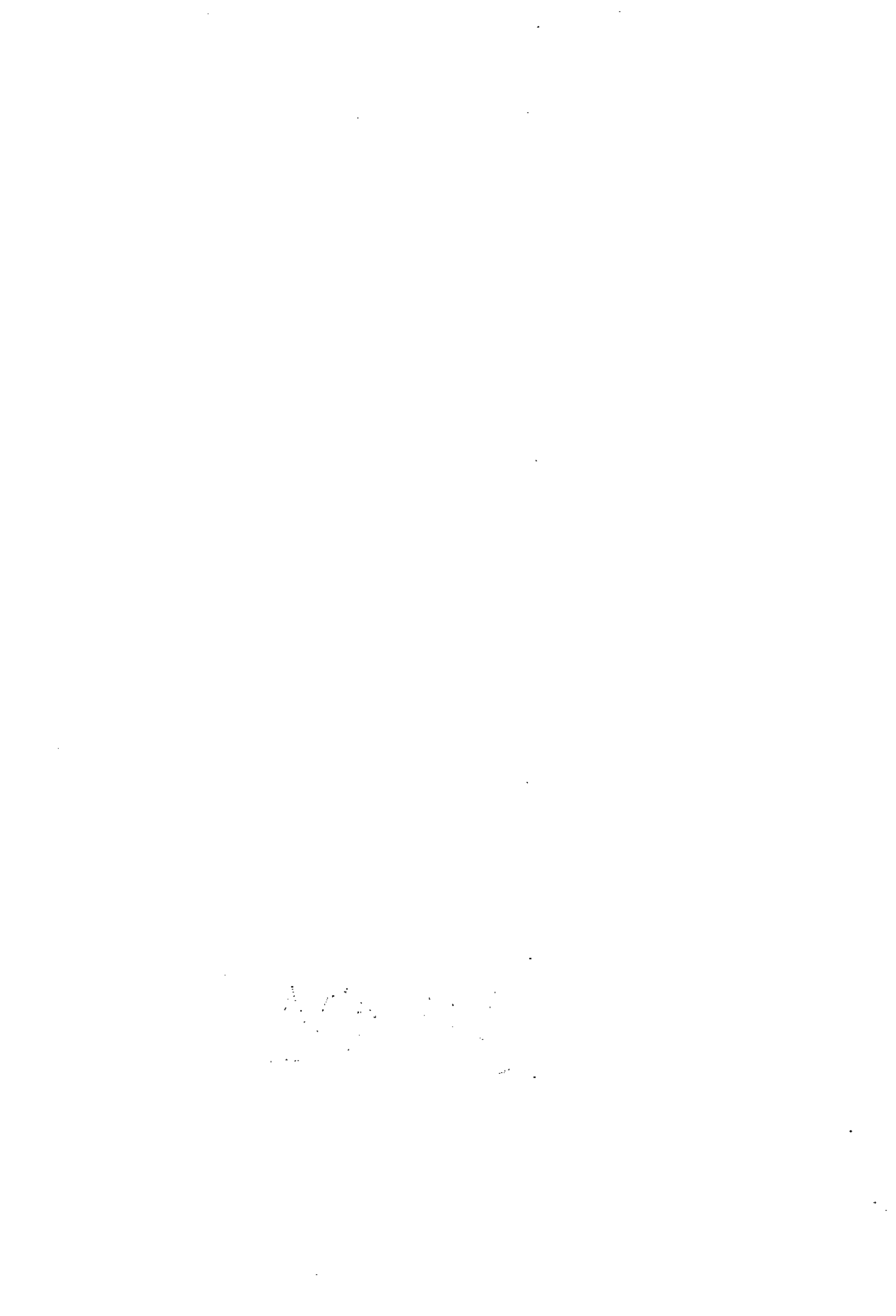
وأشارت القاسمي إلى ما وصفته بـ«خصوصية الشركات الإماراتية» التي تعتمد في أدائها على ثقافة الجودة العالمية، وفي تنفيذ المشروعات على المصداقية والالتزام الصارم بمواعيد التنفيذ والتسليم، مع المحافظة على أعلى مقاييس الاحتراف»، مؤكدة «حرص الشركات الإماراتية باستمرار على تطبيق استراتيجيات مهنية محددة، تجعلها تتميز بالابتكار، بما يتناسب مع احتياجات ومتطلبات الدول التي تستثمر فيها، ما يساعدها على الثبات والتنافس رغم وجود شركات عالمية عريقة».

كما تشير التقديرات إلى أن عدد الشركات الإماراتية الراغبة بطرح مشاريعها الاستثمارية في محافظة البصرة تزايدت في الآونة الأخيرة حيث أن محافظة البصرة استقبلت أكثر من أربع شركات إمارتية في غضون شهر، مما يدل على أن الشركات الإماراتية الراغبة بطرح مشاريعها الاستثمارية قد تزايدت.

وأوضح أن محافظ البصرة شلتاغ عبود استقبل وفداً من المكتب الاستشاري الإماراتي (ديوان) ضم بعضويته المدير العام للمكتب محمد الأعسم والمهندس الأقدم إحسان كبة وتباحث الجانبان تفعيل الاستثمار داخل المحافظة وسبل الارتقاء به وبكافة المجالات

وتم خلال الاجتماع الاتفاق على جوانب مهمة لدى بعض الشركات الإماراتية للاستثمار في مجال المجمعات السكنية والتجارية إلى جانب بعض الصناعات الخفيفة بقيمة تتجاوز الـ٥٠ مليون دولار.

وتدلل هذه الأرقام والتقارير بما لا يدع مجالاً للشك أن الإمارات بإنتاجية الأطراف الفاعلة ليس فقط على الصعيد الإنساني وإنما الاقتصادي أيضاً بالعراق .



الفصل التاسع

من يدير المذبحة



• عرضنا فى الفصل السابق نماذج للواقفين على حافة المذبحة موقف المتابع دون تأثير بينما حاول بعضهم التعامل فى حدود المتاح رغم الخطر المحدق وإستراتيجية الاستهداف المتعمد التى ينفذها من يدير المذبحة بعد أن أسس لها عبر سلسلة من الأحداث المروعة التى تم تخطيطها وتنفيذها بعناية لفرض أمر واقع جديد فى عهد ما بعد صدام حسين كان الحصول على مساحة من النفوذ فيه يتطلب الانتصار فى « حرب تكسير العظم» التى فُرضت على الجميع بما يتيح امتلاك أكبر عدد ممكن من أوراق اللعب التى تترجم إلى نفوذ سياسى واقتصادى على أساس النفوذ الأمنى .. وإذا كان الجميع يتهم الجميع بتأسيس المذبحة وإدارتها إلا أن الوقائع على الأرض التى لمستها من خلال معايشة يومية للأحداث عن قرب على مدى أربعة أعوام سبقتها سنوات من المتابعة الدقيقة للشأن العراقى عبر قراءة عشرات الكتب وآلاف التقارير الصحفية المكتوبة والمسموعة والمرئية أستطيع أن أحصر إدارة المذبحة فى طرفين بارزين لا ينحصر نفوذهما فى اتهامات وإنما يتجاوزه إلى أحداث يمكن قراءتها بوضوح من خلال نتائجها المؤثرة فى الواقع العراقى بكل تفاصيله المعلن منها وغير المعلن .. يدير هذان الطرفان المذبحة بكل تفاصيلها بين شد وجذب وفقا لما تمليه آليات الصراع بينهما فى قضايا قد لا تكون ذات صلة مباشرة بالواقع العراقى وإنما تتجاوزه إلى أمور تخص مصالح البلدين اللتين تمثلان قوتين عظميين أحداهما القوى العظمى الأولى فى العالم والثانية القوة العظمى الإقليمية التى تسعى لتجاوز حدودها كقوة إقليمية عظمى تم الاعتراف بها فعليا من خلال إشراكها فى إدارة بعض الملفات الحساسة ضمن مناطق نفوذها وتريد أن يعترف بها كقوة عظمى دولية استنادا إلى أطماع فى استعادة الإمبراطورية الفارسية .

فى ١١ مايو ٢٠١٠ عشية موجة التفجيرات الدموية التى ضربت العراق من البصرة جنوبا إلى نينوى شمالا مرورا بمحافظات بابل وواسط وبغداد وسط العراق والأنبار غربا وديالى شرقا نشرت وكالة مهر الإيرانية هذا التصريح

« نبه الرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد الولايات المتحدة الأمريكية بأن بلاده تمثل «مفتاح الحل» في قضايا العراق وأفغانستان وفلسطين.

ونسبت وكالة «مهر» الإيرانية شبه الرسمية للأنباء إلى نجاد إشارته، يوم الاثنين خلال تكريم الأساتذة والطلاب الجامعيين النموذجيين، إلى إنه قال في مقابلة مع إحدى الشبكات التلفزيونية الأمريكية، أن «البعض يريدون دفع (الرئيس الأمريكي باراك أوباما)، فيما يتعلق بإيران، إلى اتخاذ موقف لا رجعة فيه أو إصدار قرار

عقوبات».

وحذر نجاد أن «هذا يعني نهاية أميركا».

وأضاف لقد قلت لمراسل تلك الشبكة التلفزيونية أن «إيران تمثل أكبر وأسهل فرصة أمام أوباما كما أن إيران تمثل مفتاح الحل في قضايا العراق وأفغانستان وفلسطين».

وقال «عندما يقوم أوباما باتخاذ قرار عقوبات ضد إيران سوف لن يكون بمقدوره إصلاح علاقاته مع إيران وهذا معناه أن الرئيس الأمريكي لن يكون قادرا على تنفيذ وعوده التي أطلقها خلال حملته الانتخابية أو أنه يريد العودة إلى نهج سلفه جورج بوش وهو نهج فاشل لا يمكن مواصلته».

واعتبر «أن كل من يتصور أن بإمكانه إصدار قرار عقوبات وإرغام الشعب الإيراني على التراجع ولو مليمترا واحدا فهو واهم مائة في المائة لأن إيران ليست ذلك البلد الذي بإمكانهم أن يقتلوا سكانه الأصليين واحتلاله فالشعب الإيراني شعب أبي».

وتؤشر تلك التصريحات مدى قوة وتواجد النفوذ الإيرانى بالعراق وهو أعلن عنه القادة الإيرانيون مرارا من خلال التأكيد على قدرتهم ملىء الفراغ الذى سوف يتركه الانسحاب الأمريكى من العراق وفق الاتفاقية الأمنية والذى يصر رئيس أمريكا الجديد على الالتزام بها .. فما هو سر القوة وكيف تمكن الإيرانيون من دعم وجودهم بهذا الأسلوب الذى دعا أكثر من مسؤول أمريكى إلى التصريح عنه .. ناهيك عن المحاولات الأمريكية وهى القوة العظمى للتقرب من إيران وطلب مساعدتها فى أمور تخص الشأن العراقى .

١ - إيران

لا أدرى لماذا أتذكر دائما فيلم الريس عمر حرب الذى أبدع فيه الفنان خالد صالح والشاب الرائع هانى سلامة خاصة عندما قال صالح فى حوار رائع : « أن المفتاح الحقيقى للإنسان هو الخوف ولابد أن يستمر هذا الخوف حتى يبحث دائما عن الأمان » وهو ما نجحت فيه إيران بشكل كبير بعد أن نشرت الخوف سواء بمفردها أو مع شريكتها الرئيسية فى إدارة المذبحة أمريكا عندما التقت الأهداف بجعل العراق ساحة لتصفية الحسابات بين الطرفين أو بين كل طرف وأطراف أخرى .. راهنت طهران على كل أرقام الروليت..وإجادت اللعب .. كما أجادت توظيف من يدير الروليت داخل اللعبة .. واستخدمت كل المهارات والإمكانيات والوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى تصير الساحة العراقية ملعبها الذى تريح

فيه دائما .. فالتغلغل الإيراني المحكم فى كل مناحى الحياة العراقية ليس هدفه فقط الهيمنة على الشيعة باستخدام مفتاح الخوف من تكرار وقائع تاريخ مشكوك فى معظم رواياته حول استهدافهم وإقصائهم وتهميشهم وهى نبرة عالية الصوت وتجد إذانا صاغية دائما وإنما يتجاوز الهدف ذلك إلى إغراء الأكراد الحالمين بالاستقلال الكامل والحصول على نصيب الأسد من بحور النفط فى كركوك والمناطق المتنازع عليها أو كما يسمونها المستقطعة باعتبارها جزءا أساسيا من أراضي كردستان التاريخية بالإضافة إلى توريط السنة بالمصالح الخاصة وإذكاء نيران الخوف أيضا من الإقصاء والتهميش فى عصر باتت فيه السيادة الشيعية على مقدرات الأمور غير قابلة للتجاوز باعتبارهم أغلبية سكانية حقيقية وتعرضوا لمظالم على مدى تاريخهم .. وما بين المكونات الثلاثة الرئيسية كان يهدف التغلغل الإيرانى إلى وضع باقى مكونات الطيف العراقى تحت السيطرة سواء بالبقاء على الهامش أو الهجرة القسرية أو الانضواء تحت لواء المكون الشيعى بمسميات جديدة وذلك باستخدام مفتاح الخوف أيضا وهو مفتاح أثبت جدارته على مدى سنوات المذبحة سواء اتسعت وقائعها أو ضاقت فى فترات هدوء نعم فيها العراقيون بأمن نسبى واستقرار هش .

لعل المثير الذى يدركه العراقيون جيدا وربما يدركه غيرهم دون أن يعلنوا ذلك هو أن : «آيات الله» الإيرانيون «هزموا» أمريكا في العراق وقد أكد لي أحد قادة الجماعات المسلحة الذى تحول إلى حليف لأمريكا ضمن ما عرف بقوات الصحوة التى قاتلت القاعدة بشراسة وهو « أبو عزام التميمى » أن القادة الأمريكيين اعترفوا فى أكثر من حوار معه أنهم لم يقدروا قوة إيران بالشكل الصحيح بل واعترف اخرون بأن إيران خدعتهم وكانت أكثر استفادة منهم وأنهم قدموا مكاسب مجانية لطهران على أطباق من الذهب فى إطار ما يمكن قراءته على أنه تحالف غير معلن بين طهران وتل أبيب وواشنطن ضمن مشروع التغيير فى المنطقة بكاملها بدءا من بغداد .

ويقول الكاتب والمحلل السياسى الأمريكى روبرت داريفوس وهو مؤلف كتاب / لعبة الشيطان/ أن الاعتراف الأمريكي بتنامي النفوذ الإيراني في العراق وتحوله من مساعد إلى شريك حقيقي، يعني انه لابد من البحث عن صيغ توافقية بين القوتين لضمان عدم تضارب المصالح بينهما وهو ما يفسر سكوت الأمريكيين عن سرقات النفط العراقي في حقول مجنون وانتشار المخدرات في العراق وتنامي قوتي /بدر / وهى الجناح العسكرى للمجلس الأعلى الإسلامى الحليف الاستراتيجى لإيران وجيش القدس الإيرانى وفسح المجال لهما في جنوب ووسط العراق على

حساب التيار الصدري الذي تم استهدافه من قبل الجميع وهو ما أدى إلى تجميد نشاطات جناحه العسكرى /جيش المهدي / واستكانة قائد التيار الذى كان له توجهات قومية عربية منذ نشأته إلى الدروس الحوزوية فى قم حتى يحمل لقب أية الله وربما يصير مرجعية بديلة للمرجع الأعلى الشيعى بالعراق أية الله على السيستانى الذى يرفض رغم جنسيته الإيرانية الخضوع لمبدأ ولاية الفقيه.

ويقول داريفوس أن الولايات المتحدة التى حققت – بغزوها العراق- الحلم الإيراني الإمبراطورى الموروث بالتغلغل السري والعلني في بلد تعاني أكثريته العربية الشيعية من ضغط نفسى تمت ترجمته عمليا خاصة ابان حكم صدام حسين بتهمة «التبعية الطائفية» لإيران، ومن ضغط آخر بـ«تواطؤ» بعض القيادات الشيعية التى احتضنتها طهران خاصة مع بدء حرب الثمان سنوات العبثية والتى عادت طبقة حاكمة للعراق بعد انهيار نظام صدام حسين وهو الأمر الذى جعل بسط الهيمنة الإيرانية على الشيعة بشكل خاص والعراق بشكل عام أمرا سهلا

كما أدى بنتيجة طبيعية موازية إلى إطلاق العنان للإسلام الأصولي ممثلا فى تيارات الإسلام السياسى التى حكمت العراق منذ سقوط صدام حسين عام ٢٠٠٣ باستثناء مرحلة رئاسة الدكتور إياد علاوى للحكومة المؤقتة التى لم تستمر طويلا ليأتى الرجل الذى يتهمه العراقيون برعاية بذور الطائفية السياسية حتى باتت أشجارا تختفى تحت ظلالها أى ملامح أخرى لصورة المشهد العراقى .

ولعل هذه الإشكالية التى يبدو أن أمريكا لم تدرس نتائجها بعناية جعلت واشنطن تعاني على أرض العراق من «عقدة مزدوجة» في التحالف مع إيران، وفي الحرب معها بالنيابة وأظهرت الوقائع على الأرض أن الغلبة كانت دائما لإيران التى أجادت استخدام كافة أوراق اللعب مع أمريكا . وبالرغم من الطعن العلني النشط الذى تمارسه أركان الإدارة الأمريكية وقادتها العسكريون بالعراق ضد إيران، فقد وقفت الولايات المتحدة في حالة يمكن أن يقال عنها «تحالف أمر واقع» مع إيران في دعم النظام الشيعي الذي نصبته في بغداد.

ويؤكد درايفوس أن العنصر الأكثر قوة في النظام ، المجلس الإسلامي العراقي الأعلى وميليشياته التى شكلت النسبة الغالبة من القوات الأمنية العراقية /قوات بدر/، هي ايضا الجهة العراقية الحليفة الوثيقة لإيران .

وبالاستفادة من المزايا التي خلقها الفراغ السياسي الذي خلفته الولايات المتحدة بتدمير حكومة صدام حسين ، فقد أقامت إيران وجودا واسعا سواء بشكل

علني أو سري ، في العراق ، وبنفوذ متعاظم تقريبا بين كل حلفائها من الأحزاب الشيعية والكردية .

ويقول شاس فريمان السفير الأمريكي السابق في السعودية أن « الاحتلال العسكري الأمريكي للعراق سهل الاحتلال السياسي الإيراني للعراق ».

وبالنتيجة فان الواقع العراقى بعد ٩ أبريل ٢٠٠٣ / تاريخ دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد / بات مثيرا للدهشة والقلق ويؤشر لنتائج أكدتها الأحداث على الأرض وذلك لأن قرار واشنطن لإسقاط صدام حسين وما تلا ذلك من قرارات أمريكية خلال تولي الحاكم المدنى للعراق / بول بريمر/ أدى إلى وصول نخبة حاكمة وثيقة الصلة مع إيران وتأتمر بأمرها بدلا من الولايات المتحدة وهو ما يؤكد أن آيات الله في طهران نجحوا فى إفشال الجهود الأمريكية لإقامة نظام مذعن مرتبط بالولايات المتحدة في بغداد وتحويل النتيجة إلى صالح النظام الإيرانى ليحقق ما لم يخطر ببال قادة طهران فى أجمل أحلامهم وهو ما ترتب عليه بالنتيجة مشهدا مغايرا لعبت فيه الحروب بالنيابة دور البطولة ضمن واقع معقد كما يقول شاعرنا العظيم أمل دنقل :

« ميزانه البندقية،

أبناؤهُ صلبوا في الميادين

أو شنقوا في زوايا المدن »

وتقول تريتا فارسي مؤلفة كتاب « تحالف الغدر – التعامل السري بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة : « إن الإيرانيين يستثمرون فعليا كل المكونات هناك ، فقط ليتأكدوا انه حينما ينجلي الغبار كائنا من يكون مسيطرا في العراق سيكون مدينا لإيران إلى درجة معينة ، وإيران تضع الأموال على كل أرقام لوحة الروليت .

• **نكتة نجاد**

ضمن إجادتها للعبة واستخدام كل الأرقام والأوراق بشكل قد تصل المبالغة فيه إلى حد اعتباره نكته تصيب من يقرأ تفاصيلها بموجة من الضحك الهيستيرى هو ما ورد فى خبر تناقلته وسائل الإعلام بعد أن بثته وكالة الأنباء الإيرانية / إرنا/ يقول «كشف الرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد، الخميس، انه كان يمتلك معلومات موثقة، بشأن محاولة من سماهم «الاعداء» لاختطافه واغتياله أثناء الزيارة التي أجراها للعراق مطلع شهر آذار /مارس الماضي، مبينا انه كان أول

رئيس يزور العراق وفق «إعلان مسبق».

ونقلت وكالة الأنباء الإيرانية (إرنا)، عن نجاد قوله إنه «رفض خلال زيارته للعراق أن يقيم في المنطقه الخضراء الخاضعة لسيطرة الأمريكيين.» كاشفا عن انه بناء على «معلومات موثقة، فان الأعداء كانوا قد خططوا لاختطافي واغتيالي ....» إلى آخر الخبر الطريف .. فالجميع يعلم أن زيارة أحمدي نجاد لبغداد تعد علامة فارقة في تاريخ الصراع الأمريكي الإيراني في العراق لأنها اعتراف تام بدور إيران في العراق ومدي التنسيق بين الجانبين في الشأن العراقي، ومن المثير للدهشة أن يصطحب نجاد معظم قادة الحرس الثوري الإيراني في اشارة إلي أهمية ودور ذلك الجناح العسكري في الصراع بما يشمل من استفزاز للعراقيين الذين حاربوه على مدى ٨ سنوات إبان حكم صدام حسين فالبعض يفسر الزيارة علي أنها تحقيق التوازن بين قوي الاحتلالين الأمريكي والإيراني للعراق وآخرون يرون أنها إشارة إلي ما سوف يتم تنفيذه من ملء إيران للفراغ في العراق في مقابل انسحاب القوات الأمريكية بعد استمرار نزيف الخسائر في قواتها وإحراج الإدارة الأمريكية.

فالكل يعلم أن الولايات المتحدة هي الحاكم الفعلي للعراق ولا يمكن أن تتحقق مثل هذه الزيارة بدون الحصول علي الضوء الأخضر الأمريكي، وهذا يؤكد وجود تنسيق بين الطرفين المؤثرين على الساحة العراقية بشأن الزيارة وكان الدليل الأوضح هو عقد المؤتمرات الصحفية في المنطقة الخضراء وكانت حماية الرئيس الإيراني من قبل القوات الأمريكية بالإضافة إلي / قوات حرس إقليم كردستان/ المعروفة باسم البشمركة والقوات الإيرانية مجتمعة .

ولاشك أن وصول الأدميرال مايك مولن رئيس هيئة الأركان المشتركة إلي العراق تزامنا مع وجود أحمدى نجاد يميط اللثام عن وجود اجتماعات سرية مشتركة لم يحضرها أي مسئول عراقي، أما الاتهامات التي تبادلها الطرفان فهي للاستهلاك المحلي ففي الوقت الذي صرح فيه نجاد خلال لقائه بالحكيم بأن «منطقة الشرق الأوسط لم تعرف فيما سبق مثل هذا الوجود الإرهابي قبل قدوم الأمريكان لها»، وتحذير الرئيس بوش لنجاد من تصدير إرهابيين والعنف إلي العراق، كما أن رد اللفتانت جنرال ريموند اوديرنو قائد القوات الأمريكية بالعراق بأن إيران تشكل أكبر تهديد في الأجل الطويل لاستقرار العراق في اليوم التالي لزيارة نجاد تأتي جميعاً وفق هذا المنظور.

والغريب فى الأمر هو تصريحات أوديرنو بأن الوضع الأمني مشكلة العراق

الرئيسية وأن لإيران الدور المهم في نشر الفوضي وأن الولايات المتحدة لديها أدلة واضحة عن استمرار إيران بتدريب مجموعات خاصة شيعية، ومازلنا نعثر علي كثير من الأسلحة والذخيرة القادمة من إيران، وهو نفس ما ردده الجنرال فالون أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي بقوله نعمل جادين لوقف النفوذ الإيراني في العراق، كما أن دور الميليشيات التابعة لإيران لا يحتاج إلى مجهر لمعرفة خواصه ونشاطاته وتحركاته، وهو ما يضع المراقب فى حيرة مؤقتة إلا أنها سرعان ما تزول إذا وضع القضية فى سياقاتها وهى التعاون التام بين الحليفين اللدودين وهو ما يجعل من اتهامات نجاد لواشنطن بمحاولة اختطافه وقتله مجرد نكته تثير الضحك لكنه كما يقول المتنبى / ضحك كالبكاء/

ومن الأمور التى تداهمك غرابتها أيضا «الى حين» أن تتوقف جميع الأعمال الإرهابية وقت زيارة نجاد للعراق ويستتب الأمن فجأة رغم انشغال القوات العراقية بمراسيم عاشوراء وإرهاقهم بالواجبات ويبدو أن القيادة الأمريكية حلت اللغز بسهولة عندما ذكر أوديرنو أن الرئيس نجاد تحرك بسهولة دون مشكلات أمنية خلال الزيارة لأن المجموعات التي تستهدف الزوار مدعومة من إيران، ويعلل الأمر بأنه عند قدوم أي زائر أمريكي للعراق علي مدي الاثني عشر شهراً التي سبقت زيارة نجاد نقوم بإحباط هجوم صاروخي أو يقع الهجوم لأنه ينفذ بمعرفة وكلاء إيران في العراق وهذا ما لم يحدث في زيارة نجاد؟ فكيف نفسر هذه المسألة؟!!!![1] .

• الحرس الثورى

كان الوفد المرافق لنجاد معظمه من قادة الحرس الثوري الإيراني خلال الحرب العراقية الإيرانية ومنهم علي سبيل الذكر وليس الحصر العميد مهدي اختياري والعميد علي رضا عظيمي والسادة مجتبي ثمرة هاشمي وحسين مهدي موسوي ومحمد جعفر بهداد، مما يعطي الانطباع بان الزيارة كان فيها طابع استفزازي للعراقيين، مما أثار حفيظة الكثير منهم وأعلنوا رفضهم للزيارة.

وفى تقرير نشرته شبكة مكلاتشي الصحفية على موقعها الالكتروني قالت: إن أحد أقوى الرجال في العراق ليس مسؤولًا حكوميًا أو قائد ميليشيا أو مرجعا دينيا أو قائداً عسكريًا أمريكيًا أو دبلوماسيًا، بل هو جنرال إيراني يُدعى اللواء قاسم

(١) كشفت الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس عن أن إيران والميليشيات المدعومة منها خططت لضرب المنطقة الخضراء بأسلحة كيماوية .

سليماني، قائد قوات القدس التابعة للحرس الثوري الإيراني.

وتشير الشبكة الأمريكية إلى أن هذه المنظمة هي شبه عسكرية، ذات طابع استخباراتي تضطلع بمهمة توسيع النفوذ الإيراني في منطقة الشرق الأوسط.

وأشار التقرير إلى أن مهمة اللواء سليماني تتلخص فى توفير الدعم العسكري والمالي للجماعات العراقية المختلفة بهدف إفشال التجربة الأمريكية لبناء نظام حكم على النمط الغربي.

وقال مسؤول عراقي طلب عدم الكشف عن إسمه، أن سليماني هو نقطة ارتكاز السياسة الإيرانية في العراق، مضيفا أن قوات القدس تُعنى بجميع الملفات السياسية والامنية والمخابراتية والاقتصادية.

وأكد التقرير أن اللواء سليماني تدخل شخصيا لإنهاء القتال الذى دار في البصرة ربيع ٢٠٠٨ بين القوات الحكومية العراقية وميليشيا جيش المهدي، ونقلت عن مسؤولين عراقيين تأكيدهم أن الرئيس جلال طالباني التقى شخصيا باللواء سليماني في إحدى النقاط الحدودية مع إيران لطلب مساعدته في إيجاد حل للأزمة.

ونقلت شبكة ماكلاتشي عن مسؤولين عراقيين و أمريكيين، لم تكشف عن هوياتهم، أن سليماني تمكن من الدخول إلى المنطقة الخضراء في شهر نيسان/أبريل من عام ٢٠٠٦ بغرض عملية اختيار رئيس الوزراء في حينها، فيما يؤكد مسؤولون أمريكيون أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التي استطاع فيها اللواء سليماني النفاذ إلى المنطقة الخضراء.

وتضم الشبكة التي أنشأها سليماني لجمع معلومات استخبارية عن العمليات العسكرية العراقية والأمريكية، جميع الموظفين السامين في السفارة الإيرانية بمن فيهم السفير حسن كاظمى قمى ، حسب قول بعض المسؤولين العراقيين والأمريكيين.

ويقول رسول نفيسي المحلل في معهد واشنطن لدراسات الشرق الأوسط، أن النظر إلى قوات فيلق القدس كمنظمة إرهابية كما تفعل الولايات المتحدة ليس مجديا، فهي تأتي كأداة في المرتبة الثانية في الدبلوماسية الدولية الإيرانية.

ويشير مسؤولون من الاستخبارات الأمريكية لم تكشف الصحيفة عن أسمائهم، إلى أن فيلق القدس يدعم مقاتلي طالبان وحزب الله بالإضافة إلى حماس والجهاد الإسلامي في غزة.

ويتهم المسؤولون الأمريكيون سليماني بأنه المزود الرئيس للمسلحين بالعبوات الناسفة المتطورة التي تستخدمها المجموعات الخاصة وباقي الميليشيات الشيعية

وهى العبوات الخارقة للدروع التى كبدت القوات الأمريكية خسائر فادحة.

وقد رفضت السفارة الإيرانية في بغداد وممثليها لدى الأمم المتحدة في نيويورك، الرد على دعوة الشبكة الصحفية الأمريكية للرد على ما جاء في تقريرها.

وتؤكد الصحيفة أن واحدة من أولى الانتصارات التي سجلها سليماني ضد واشنطن في العراق لم تكن عن طريق استخدام السلاح بل الطرق السياسية، وذلك عندما نجح في تنظيم أول انتخابات عراقية عامة عام ٢٠٠٥.

وبذلت إدارة بوش كل في ما في وسعها لإبقاء إياد علاوي رئيسا للوزراء، ولكن سليماني استخدم آلته الدعائية الهائلة لإفشال مهمتها، وبعد عام واحد فقط وفي نيسان/أبريل ٢٠٠٦ أظهرت إيران قلقها من المفاوضات التي كادت تصل إلى أفق مسدود لاختيار رئيس وزراء جديد.

وعندها كما يؤكد مسؤول عراقي لم تكشف الصحيفة عن اسمه، تسلل سليماني إلى المنطقة الخضراء لضمان أن يكون رئيس الوزراء الجديد مقبولا من طهران، ووصلت التفاهمات إلى اختيار نوري المالكي.

وطلب الأميركيون من المسؤولين العراقيين تفسيرا لنتائج الإنتخابات، ويقول نائب رئيس الجمهورية القيادى فى المجلس الأعلى الإسلامى المقرب من ايران وأحد المرشحين الأقوياء لمنصب رئيس الوزراء عام ٢٠٠٦ عادل عبد المهدي في لقاء مع ماكلاتشي «إن الأميركيين شعروا بخيبة أمل ولكن ما حدث كان حلا للمشكلة في وقتها».

ويضيف عبد المهدي «أعتقد أن الأمريكيين كانوا يشعرون بالرضا لأن تدخل اللواء سليماني أنهى الأزمة من جهة، إلا أنهم كانون يشعرون بعدم الرضا بالطبع لأن سليماني كان داخل المنطقة الخضراء، على ما أظن».

من جهته، قال السفير زلماي خليل زاد السفير الأمريكي آنذاك في بغداد للصحيفة ذاتها، إنه كانت هناك بالطبع مزاعم حول دخول سليماني إلى المنطقة الخضراء في أبريل /نيسان ٢٠٠٦ ولكنه لا يستطيع أن يتذكر الآن فيما إذا قامت السفارة الأمريكية بالتثبت من هذه المعلومة.

ويؤكد مسؤول مخابراتي أمريكي أن هذه لم تكن المرة الأخيرة التي دخل بها سليماني إلى العراق بل كرر هذه الزيارات لعدة مرات.

وتختم الصحيفة تقريرها بالقول: أن سليماني أثبت براعته في استخدام الوسائل السياسية لتحقيق أهدافه في العراق، مشيرة إلى دوره المحورى محوريا لإنهاء القتال بين

القوات الحكومية وجيش المهدي في البصرة والذي كان يهدد بشل الصادرات النفطية.

وذهب وفد مؤلف من حزب الدعوة والمجلس الأعلى إلى إيران للتحادث مع كبار المسؤولين والتقوا بسليماني في طهران ثم مع مقتدى الصدر في قم.

ويقول عمار الحكيم : «إن الوفد ذهب للتحدث باسم كتلة الائتلاف والطلب من المسؤولين الإيرانيين حث هذه الجماعات للالتزام بحدود القانون، ومن ضمن المسؤولين الذين التقوهم كان السيد سليماني».

أما علي الأديب القيادي البارز في حزب الدعوة والذي كان ضمن الوفد الذي التقى بسليماني، فيقول أن المسؤولين الإيرانيين أقسموا أنهم لا يزودون جيش المهدي بالأسلحة.

ويضيف الأديب المقرب جدا من إيران «لقد ذكرناهم بأن الأمن في العراق يؤثر على الأمن في إيران، وأي دعم يقدمونه للتيار الصدري معناه إرسال رسالة إلى الأمريكيين للبقاء في العراق».

وترجع الصحيفة لتؤكد أنه في الفترة ذاتها أي ما بين ٢٨ و٢٩ آذار/مارس عام ٢٠٠٨ فإن اجتماعا آخر على مستوى عال أخذ مكانه على الحدود العراقية الإيرانية وبالضبط في نقطة مريوان حيث ناشد الرئيس العراقي جلال طالباني الجنرال الإيراني بالضغط على مقتدى الصدر للإعلان عن وقف إطلاق النار.

ويقول مسؤول عراقي أن سليماني أرسل رسالة فورية بهذا الخصوص، وبالفعل توقف القتال في اليوم التالي مباشرة.

وأكد مسؤولان عراقيان عقد مثل هذا الاجتماع فيما لم تتمكن الصحيفة من الحصول على تعليق من الرئيس طالباني.

وبالرغم من نجاح سليماني في وقف الإشتباكات المسلحة، إلا أن عشرات القادة العراقيين الذين استطلعت الصحيفة آراءهم في بغداد حذروا من خطورة التصارع بين الأجندتين الأمريكية والإيرانية والتي ستؤدي إلى تمزيق العراق.

وفي لقاءات متفرقة مع الحكيم وعبد المهدي قال الرجلان أن العراق يبدو وكأنه «واقع بين فكي الشيطان الأكبر ومحور الشر.»

ويصف الحكيم المحسوب على إيران التي احتضنت المجلس الأعلى للثورة الإسلامية طوال سنوات معارضته للنظام السابق سليماني بالقول إنه «رجل مثل باقي الرجال وقد يتوفر على قدرات مخابراتية مهمة ولديه جوانب جيدة وأخرى سيئة ولكن لا أرى من المنطق أن نبالغ في تصوير هذه الجوانب إلى حد وضع صورة

سريالية عنه، وطالما تمتعنا بالتفرج على الأفلام الأمريكية التي تصور البطل الخارق، حيث يموت جميع أبطال الفيلم ما عداه، ولكن فور انتهاء الفيلم سرعان ما نعود إلى أرض الواقع حيث لا أحد معصوم غير الله».

الواضح أن الكثير من أعضاء النخبة الإيرانية الحاكمة يجابهون صعوبة في الاعتراف بذلك، فبالنسبة لهم، لا تحمل مفاهيم مثل السيادة الوطنية أهمية كبيرة. الملاحظ أن ملالي رسميين، أمثال أحمد خاتمي، إمام صلاة الجمعة في جامعة طهران، يتظاهرون بأنهم لم يسمعوا بكلمة «عراق» من قبل قط، حيث يشيرون إلى الدولة المجاورة باعتبارها «بين النهرين» أو «العتبة العلية». وعلى ما يبدو، فإن الحرب التي استمرت ثمانية أعوام وخلفت مليون قتيل فشلت في إقناعهم بأن العراق دولة ذات سيادة.

- **مخططات الهيمنة**

شكلت الهيمنة على العراق أحد أطماع النخب الإيرانية منذ طرد العثمانيين لفارس من العراق عام ١٧٩٧، في أعقاب وفاة كريم خان زاند.

بعد الحرب العالمية الأولى، وتفكك الإمبراطورية العثمانية، حاول رجال الدين الشيعة إقناع قاجار شاه في طهران لضم المدن «المقدسة» في العراق[(١)]. لكن القاجاريين، الذين كانوا في طريقهم إلى مقبرة التاريخ، لم يكونوا في موقف يمكنهم من الحلم بغزو جديد.

بمجرد أن بدا واضحا أن العراق سيصبح دولة مستقلة بدعم بريطاني، قرر رجال الدين مقاطعة العملية برمتها وأبقوا الشيعة العراقيين على الهامش. بحلول أربعينات القرن الماضي، وجدت النخبة الإيرانية نفسها مضطرة لتقبل حقيقة استقلال العراق. في الخمسينات، فشلت محاولة للربط بين الدولتين عبر زواج ملكي، عندما أخفقت الأميرة شاهيناز، ابنة الشاه، والملك العراقي فيصل، في تنمية ود كاف بينهما للمضي قدما في تنفيذ الخطة.

في الستينات ومنتصف السبعينات، حاولت الأنظمة العراقية اجتثاث جذور النفوذ الإيراني عبر التأكيد على عروبة العراق. بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٥، تعرض ما يقرب من مليون عراقي للطرد من بلادهم بسبب روابطهم الإيرانية خاصة ما

(١) النجف التي تضم مرقد الإمام علي بن أبي طالب وكربلاء التي تضم مرقد الإمام الحسين وأخيه غير الشقيق العباس بن علي بن أبي طالب.

يعرف بالكرد الفيليين / الأكراد الشيعة .

في أعقاب إبرام اتفاقيات عام ١٩٧٥ التي أدت إلى استعادة العلاقات بين الجانبين بعد سنوات من العداء، حاول الشاه إحياء الوجود الإيراني في العراق عبر التجارة والحج والتواصل الثقافي.

تمثلت الفكرة التي حاول الشاه تحقيقها إغراق المدن العراقية بالحجاج والسائحين الإيرانيين مع ضمان اضطلاع إيران بدور كبير في الاقتصاد العراقي. وانتهى هذا المخطط عام ١٩٧٩ بسيطرة الملالي على السلطة في إيران. من جهته، لم يرغب حاكم إيران الجديد، آية الله الخميني، في التمتع بنفوذ داخل العراق فحسب، وإنما رغب في السيطرة عليه.

كانت أطماع الخميني الشرارة التي أشعلت حرب عام ١٩٨٠، والتي رغم أن الذي بدأها فعليا كان صدام حسين، فإن آية الله هو الذي عمد إلى إطالة أمدها حتى عام ١٩٨٨. كان من شأن سقوط صدام حسين إمداد الجمهورية الإسلامية بمصدر تهديد وفرصة في ذات الوقت. تمثل التهديد في أن العراق، الدولة الوحيدة بخلاف إيران التي ينتمي غالبية سكانها إلى الشيعة، ربما يتحول إلى دولة ديمقراطية حديثة ومنافس للنموذج الخميني. أما الفرصة فتمثلت في أن تتمكن إيران من سد الفراغ الناجم عن انهيار الدولة العراقية، وبالتالي تحقيق حلم الهيمنة على العراق.

يتمثل التحليل السائد في إيران حاليا في أن الشطر الخاص بالتهديد اختفى.. لقد كان بإمكان العراق بناء نظام ديمقراطي وتهديد النموذج الخميني فقط حال تمتعه بدعم طويل الأمد من قبل الولايات المتحدة وقوى غربية أخرى. عام ٢٠٠٨، بدا الوضع في العراق شبيها بما كان عليه الحال في ألمانيا الغربية عام ١٩٤٨.

حال سحب الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى دعمها لدولة ألمانيا الغربية الناشئة في ذلك الوقت، كان الاتحاد السوفييتي سيسارع إلى ملء الفراغ. ويسود اعتقاد في طهران بأن إدارة أوباما ليست ملتزمة تجاه العراق اليوم بقدر التزام إدارة ترومان تجاه ألمانيا الغربية عام ١٩٤٨. وعليه، تتهيأ إيران بقوة للتحرك وسد الفراغ.

الملاحظ أن إيران تتقدم على جبهات مختلفة، فعلى مدار السنوات التي تلت الاحتلال الأمريكي ، انتشرت في العراق مئات الشركات التي تعمل بمثابة واجهة وتعتمد على أموال إيرانية. بل وتسببت «الاستثمارات» في ظهور فقاعة بمجال العقارات بمدن مثل النجف وكربلاء.. أما في البصرة، تشير تقارير إلى أن أكثر من ٧٠٪ من جميع التصاريح التجارية تخص شركات إيرانية.

استقر الآلاف من عملاء الاستخبارات الإيرانية في العراق بعد دخولهم إلى البلاد، بجانب ما يقرب من ستة ملايين حاج منذ عام ٢٠٠٣. حتى الآن، فشلت طهران في السيطرة على «الحوزة الشيعية » ذات الأهمية الحيوية في النجف، حيث يعمل عدد من كبار رجال الدين بقيادة آية الله العظمى علي السيستاني الذى يرفض مبدأ ولاية الفقيه رغم أنه إيرانى الجنسية .

ومع ذلك، تعمد طهران إلى تدريب وتعزيز جيل جديد من رجال الدين من أجل العراق، بينهم مقتدى الصدر الذي يدرس في «قم» حاليا على أمل الحصول على لقب آية الله.

وقد نشرت العديد من وسائل الإعلام تقريرا لوكالة «أسوشييتد برس»من مدينة النجف التى تضم مقار الحوزة الشيعية والمراجع الدينية الكبرى نقل عن مصادر مطّلعة في المدينة قولها بإن طهران تعزز من وجودها داخلها ، التي طالما كانت مستقلة عن المراكز الدينية الشيعية في إيران. ويقول الشيخ علي النجفي، وهو الابن والمساعد الأبرز لآية الله بشير النجفي، الباكستاني المولد وأحد أبرز أربعة مراجع كبار في المدينة: «في بعض الأحيان تحاول أيادٍ خفية التدخل في شؤون المرجعية».

وقال في إشارة ضمنية إلى إيران: «من المتوقع أن تقوم دول أجنبية بالتدخل في شؤون النجف».

وأضافت الوكالة نقلا عن مساعد للمرجع الشيعى الأعلى بالعراق آية الله على السيستاني أن رجال دين بارزين من إيران، ومن بينهم المرشد الأعلى آية الله على خامينئي، قاموا أخيرا بافتتاح مكاتب تمثيل لهم في النجف، ويقوم البعض بالحصول على «الخمس» / زكاة الشيعة وتقد ر بملايين الدولارات /وإدراج أسماء الطلبة في معاهد دينية يديرها نواب لهم.

وقال مساعد السيستاني: «عندما يغادر الأميركيون، سوف يلعب الإيرانيون بنا كما يشاءون»، مشيرا إلى المخاوف داخل مدينة النجف وفي أماكن أخرى داخل العراق من ازدياد نفوذ طهران بعد رحيل الولايات المتحدة من العراق.

والمعروف أن السيد علي السيستاني يقدم توجيهاته إلى ساسة بارزين يطلبون نصحه ودعمه من وراء الكواليس. ويتم التعامل مع تصريحاته بصورة حرفية، وتدخل حيّز التطبيق فور إصدارها، وتتنوع ما بين فتاوى يتم صياغتها بحرص وأحكام تتناول شؤون البلاد في المجمل. وسيلعب خليفة السيستاني، دورا هاما في صياغة مستقبل العراق، وتحديد الاتجاه الذي تسير إليه الأغلبية الشيعية. ويضفي ذلك على المنصب جاذبية خاصة بالنسبة إلى إيران، في الوقت الذي تسعى

فيه لتعزيز مكانتها مع بدء القوات الأمريكية انسحابها، المقرر أن يتم في نهاية ٢٠١١.

وتتمتع إيران فعلا بنفوذ كبير، ويعود ذلك بدرجة كبيرة إلى أن معظم الساسة الشيعة العراقيين عاشوا هناك عدة أعوام إبان حكم صدام حسين.

• العباءة والخيار

ربما لم ينتبه أحد إلى قضية هامة في العراق، تتفاعل في معيارها الحقيقي حداً يتجاوز الثقل الاقتصادي إلى قضية أبعد اجتماعياً وربما نفسيا وسياسيا حيث لم تجد الحكومات العراقية بعد التغيير حلا لكثير من المشاكل،وبالطبع سيندرج ضمنها قضية الاختلال في التوازن التجاري بين العراق وإيران،حيث كانت الجارة الشرقية تفرض حضورها الاقتصادي السلبي الجديد في البلاد، عبر إغراق السوق، وإدخال المستورد بشكل حرم الإنسان العراقي من فائدة الجودة، وشجع المستهلك أمام الأسعار الإغرائية المُنخفضة بالمقارنة والمنتج المحلي، و بشكل تسويقي مرن، يسمح بالبيع الآجل والمضمون مروره في السوق العراقية دون أي رادع.

كل هذه الأمور الخالية من أي غطاء تشريعي محلي عراقي؛ يمكن أن يساند ما تتطلبه الحاجة الوطنية، ويحدد سمات التبادل التجاري،ويكون ضامنا لجودة البضائع عابرة الحدود،والبضائع الإيرانية خاصة؛ التى يمتلىء بها السوق المحلي منذ سنوات.

هذا التسيّب والإهمال عطل بدوره عمل لجان مهمة في البلاد ،على رأسها لجان التقييس والنوعية،ممهداً لعبور (الكوارث) إلى البلاد، من خلال فسحة غياب الرقابة، لتسمم السوق،وتضع البلد تحت آلية يمكن أن توصف في مُحصلتها النهائية بالآلية الاستعمارية الاقتصادية الشاملة.

وقد أدت السياسات الإيرانية الممنهجة إلى تدهور الزراعة العراقية بسبب تحويل عدد من مجارى الأنهار مثل نهرى الوند والكارون .. كما دعم انتشار العنف واستغلال المجموعات المسلحة للغابات والبساتين الخطة الإيرانية فى إغراق السوق العراقية بكافة أنواع الفاكهة والخضروات بما فيها الطاطم والخيار الإيرانى .. وقد تراجعت أعداد النخيل من حوالي ٣٠ مليوناً إلى حوالي ٥،٩ مليون بسبب الحروب وخاصة الحرب العراقية –الإيرانية وقلة المياه وملوحتها والأمراض الزراعية والإهمال. لذا بات تدهور الغابات والنباتات الأخرى عاملا مهما في تدهور البيئة وتوجهها نحو الجفاف .. فمثلا عندما تقتضي المواقف السياسية للنظام الإيراني القيام بقطع المياه عن الشيعة العراقيين في مناطق جنوب العراق فإن هذا النظام الثيوقراطي يرتكب تلك الجريمة

بحق البشر والطير والنبات بكل برودة دم وأعصاب وعاطفة مذهبية خامـــدة ؟!، دون أن يأخذ هذا النظام « الإسلامي - الشيعي - بنظر الاعتبار كون أهل الجنوب العـــراقيين هم مثلهم من المسلمين الشيعة!!..

مثلما لم يأخذ يزيد السفاح بنظر الاعتبار كون الإمام الحسين وأهله الأبـــرار هم من أهل البيت وأحفاد الرسول ، وذلك عندما قطع عنهم الماء ليعانوا عطشـــا مريرا هم وأطفالهم الصغار قبل أن ينكل بهم فى واقعة الطف عام ٦١ هجرية وهى الذكرى الأكثر ألما فى التاريخ الشيعى !..

ومما لا شك فيه أن نجاح السلع الإيرانية فى النفاذ إلى السوق العراقى ، يأتي على حساب الصناعة العراقية، وقد سجل أحد تلك المنتجات من المكيفات كـأعلى سلعة مبيعا في بغداد لستة أعوام متتالية[1] ويقبل الزبائن في العراق ليس فقط على مكيفات الهواء القادمة من إيران، بل على سلع أخـــرى كـــثيرة، فـــالمواد الغذائيـــة والخضروات وكل شيء يأتي من إيران أرخص كثيرا وما عليك إلا أن تزور الحدود الإيرانية العراقية لترى مئات الشاحنات القادمة كل يوم، محملة بكـــل شـــيء مـــن الفواكه والأسمدة، إلى الطوب والأجهزة وغيرها.. إذ بعد عقـــود مـــن العقوبـــات.. العراقيون مقبلون على السلع الاستهلاكية... وإيران هي المصدر الأول لها بالإضافة إلى تركيا .

ولا يمكن للمصانع العراقية التي عفا عليها الزمن أن تنافس المنتجات المستوردة بأي حال من الأحوال، في وقت لا تفرض فيه الدولة أي رسوم على الاستيراد، بينما تدعم طهران صادراتها بإعانات سخية.

ويقول فوزي الحريري وزير الصناعة العراقي : «عندما سقط نظـــام صـــدام ، سقط معه كل شيء.. واليوم في الوقت الذي كان أكبر تهديد لنا هو الإرهـــاب، فإن ثاني تهديد هو الخطر المحدق بالتنمية الاقتصادية في هذا البلد» .

ولا يتوقف الإغراق الإيرانى للسوق العراقى على السلع الإستهلاكية والمـــواد الغذائية وغير ذلك من الصادرات إنما تجاوز الأمر إلى أن تسعى إيران إلى فـــرض نمط من الملابس يرتبط إرتباطا مباشرا بالتراث الثقافى والدينى العراقى وأقصد بذلك العباءة (العباية) العراقية التى تعتبر نموذجا لحجاب المرأة العراقية، وأهـــم رموز الأزياء الشعبية في الجنوب والوسط، .. حيث اشتهرت المرأة العراقية بعباياتها

---

(١) يستورد العراق ملايين المكيفات التي تعمل بالماء والتي يطلق عليها «المبردة» أو مكيف الصحراء والتي ورد شرح كيفية عملها في جزء سابق نظرًا لأنها تستهلك الكثير من الكهرباء .

حتى تغزَّل الشعراء بها.. ولعل الأغنية التراثية العراقية المشهورة التي تقول : «يا أم العباية حلوة عباتج - يا سمره هوايه، زينه صفاتج» / حرف الجيم عند العراقيين يحل محل الكاف/ خير دليل على ذلك الرمز الشعبي العراقي الجميل الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياة المرأة في كثير من المناطق خاصة الوسط والجنوب .

إلا أن الذي بدأ يهدد هذا الرمز هو المنافسة الشديدة التي دخلت عليه من قبل التشادور (أو الجادر) الايراني. فقد بدأت الفتيات العراقيات بارتدائه وخصوصا في مناطق المراقد المقدسة لدى الشيعة فى النجف وكربلاء وأصبحت ظاهرة ارتداء التشادور أمراً يكاد يكون مألوفا.

ويبدو أن سياسة الإغراق تعد من أهم الأسباب وراء هذه الظاهرة حيث إن العباية العراقية غالية الثمن بالقياس مع التشادور فقد وصل سعر «الشيرازه» كما يسميها العراقيون وهو طريقة خياطة العباءة إلى ٢٥ ألف دينار ناهيك عن سعر القماش الذي يصل أحياناً إلى ٥٠ ألف دينار عراقي وقد تصل العباءة المتوسطة إلى أكثر من ١٥٠ ألف دينار عراقي ومنها ما يصل إلى ٥٠٠ ألف دينار/ الدولار يساوى ١٢٠٠ دينار تقريبا.

وإذا كان إغراق السوق العراقى بالبضائع الاستهلاكية رخيصة الثمن قد أدى إلى تدهور القطاعين الزراعى والصناعى إلا آن هذه الظواهر ليست مجرد أزياء دخلت البلاد بل هي ثقافة جديدة حيث من المعروف أن الأزياء لها سلوكيات خاصة وتأثيرات نفسية تؤثر بمن يرتديها فلكل نوع من اللباس طريقة في الحركة والسلوك وهذا ما يؤكده علماء الاجتماع والنفس معا .. كما أن «التشادور» الإيرانى لا يمثل حالة وجدانية لدى المرأة العراقية كما تمثله العباءة وهو ما يؤدى إلى وجود حالة من الانقطاع الوجداني وهو بمثابة غزو ثقافى إيرانى يضاف إلى أنواع الغزو الأخرى .

وتشير التقارير إلى أنه يجري في الأسواق القديمة في كربلاء المقدسة لدى الشيعة والتى تضم مرقد الإمام الحسين ثالث الأئمة وأخيه غير الشقيق العباس بن على بن أبى طالب تداول التومان الإيراني جنبا إلى جنب مع الدينار العراقي. لكن العملات الورقية التي تحمل صورة آية الله الخميني والأحاديث باللغة الفارسية ليست المظاهر الوحيدة التي تضفي نكهة فارسية إضافية على المدينة.

فعلى أرفف المتاجر تقبع حاويات ضخمة من العسل ومساحيق التجميل ومعجون الأسنان، وكلها وجدت طريقها عبر الحدود المتنازع عليها بين البلدين وتتميز بأنها رخيصة لكنها جيدة، والبعض لا يهتمون بشأن التكلفة، لكن من يرغبون في شراء منتجات منخفضة التكاليف يلجأون إلى المنتجات الإيرانية .

وتجلب التجارة مع الجارة الشرقية إلى العراق الأموال التي يحتاجها بشدة

وينتظر توقيع اتفاقيات بين البلدين بقيمة مليار دولار وهناك عدد من البنوك الإيرانية المدرجة على القائمة السوداء الأمريكية ستفتتح فروعا لها في العراق « وفقا لتقرير الأسوشيتيد برس» .. وقد تعددت لقاءات المسؤولين الإيرانيين والعراقيين، ونتج عن هذه الزيارات العديد من اتفاقات التعاون الاقتصادي بين البلدين ومن بينها اتفاقات تزويد الطاقة للعراق والتعهدات بإنشاء منطقة تجارة حرة عبر الحدود بين البلدين. وعرضت إيران على جارتها قرضا بمليار دولار لشراء منتجات إيرانية.

وفي البصرة ثاني أكبر المدن العراقية ومعقل الجماعات الشيعية القوية، اجتمعت أكثر من ٦٠شركة تجارية إيرانية ربيع العام ٢٠١٠ في معرض للأعمال على مدار خمسة أيام يعد الأضخم من نوعه بالنسبة لحدث تشارك فيه إيران منذ الغزو الذي قادته الولايات المتحدة. وضم المعرض منتجات شملت شاحنات لنقل البضائع المجمدة ودراجات نارية إلى جانب منتجات الألبان والبضائع المعلبة والملابس والإسمنت.

ويقول حيدر علي فاضل، الذي يترأس مفوضية البصرة للاستثمار: إنه تم توقيع اتفاقية بما يقرب من مليار دولار مع شركة إنشاءات إيرانية لبناء آلاف المنازل وفنادق وأسواق تجارية في المدينة. افتتح بنك «ملي» الذي تملكه الحكومة الإيرانية فرعه الثاني في العراق على الرغم من خضوع البنك لعقوبات أميركية وأوروبية نظرا لعلاقته بالبرنامج النووي الإيراني. ويتوقع أن يفتتح بنكا «بارسيان» و«كارافارين»، الموضوعين على قائمة الترقب الأميركية فروعا لهما في العراق .

ويقول مسؤولو السفارة الإيرانية في بغداد أن مستويات التجارة الفعلية بين البلدين تصل إلى ٧ مليارات دولار، وهو ما يجعل العراق واحدا من أضخم الشركاء التجاريين لإيران. وتتطلع وزارة التجارة الإيرانية إلى رفع حجم التجارة بين البلدين إلى ١٠ مليارات دولارات سنويا خلال السنوات الثلاث المقبلة.

ويقول كنيث كاتزمان، وهو متخصص فى شئون الشرق الأوسط بمركز أبحاث الكونجرس التابع للحكومة الأمريكية: «بالنسبة لإيران فإن الاستثمارات في مكان مثل البصرة والأماكن المقدسة مثل النجف وكربلاء هي أدوات تكميلية لبسط نفوذها في العراق. أنا لا أرى الولايات المتحدة ترغب في تعزيز ذلك، فمصلحة الولايات المتحدة تكمن في عزل إيران. وليس في تشجيع التكامل الاقتصادي».

وكانت إيران قد سعت لسنوات لإنشاء خط أنابيب يحمل النفط العراقي إلى معمل تكرير عبادان الإيراني، ثم يشحن النفط المكرر إلى الاتجاه المعاكس. وتصدر

إيران فعليا النفط إلى العراق، على الرغم من افتقار كل منهما إلى القدرات التكريرية لمواجهة الطلب المحلي المتزايد. ويقول صامويل سيزكوك، محلل شؤون الطاقة في «آي إتش إس جلوبال إنسايت»: «إنها خطوة ذات دوافع سياسية».

وعلى الرغم من قول العديد من العراقيين إنهم يستفيدون من العلاقات الوثيقة مع إيران، فإنهم يبدون تذمرا من إغراق السوق العراقية بالمنتجات الإيرانية الرخيصة رديئة الجودة التي تزيد من صعوبة المنافسة أمام الشركات المحلية.

وهناك أيضا عدد آخر من الشكاوى، ففي ردهة فندق نور الزهراء في كربلاء، تقبع ساعتان على جدران البهو : إحداهما تعمل حسب التوقيت العراقي والأخرى حسب توقيت طهران. لكن مالك الفندق إسماعيل محسن عبيد علي يقول إنه يحاول تجنب تأجير الغرف للإيرانيين الذين يقول عنهم إنهم مثيرون للمشكلات. القضية كما يقول هي الشركة المعروفة باسم «هيئة الحج والعمرة» المملوكة للدولة الإيرانية تقتصر على السياحة الدينية التي تدفع بـ٥٠٠٠ شيعي إيراني إلى العراق كل يوم. ويفرض ممثلو الحكومة شروطا قاسية، يطالبون فيها بتخفيضات ويتعاملون مع عدد محدود من وكالات السفر المعروفة، بحسب عبيد علي ورجال أعمال آخرين.

• الشيطان وامبراطورية الشر

قلما تجد صحيفة عربية أو عالمية، وكذلك قلما تجد نشرة أخبار عربية أو عالمية، إلا وقد نقلت خبراً بخصوص تهديد أمريكا لإيران، واحتمالية أن تتجه أمريكا لحرب إيران عسكرياً نتيجة للنشاط النووي البارز الذي تقوم به هذه الدولة «المارقة» بحسب توصيف الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش..

ويتساءل الكثيرون: هل يمكن - فعلاً - لأمريكا أن تفتح جبهة جديدة للحرب ضد إيران؟ وهل خطورة النشاط النووي الإيراني ستدفع أمريكا إلى تكرار تجربة العراق؟ وهل المصلحة الأمريكية في العالم الآن تستلزم هذه الخطوة الخطيرة؟

كلها تساؤلات تجعل العالم يتابع باهتمام هذه القضية الحساسة..

والذي يبدو لي في هذه المسألة أن احتمال ضرب أمريكا لإيران بعيد جداً، بل لعله غير وارد بالمرة!

فأمريكا لم تصل إلى هذه الدرجة من الغباء حتى تفتح على نفسها جبهة جديدة في إيران؛ لأن الجيوش الأمريكية دخلت في مستنقع العراق، ووجدت ما لم تكن تتوقعه من المشاكل، وتعرضت لما خرج عن حساباتها من الخسائر، والكثير من

الشعب الأمريكي يطالب بسحب القوات من العراق، وفاز باراك أوباما على جون ماكين فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية لأن هناك من يريد أن يغير وخاصة فى إطار البحث عن وسيلة لإنهاء المشكلة العراقية.

كما أن أمريكا تعلم جيدا أن ضرب إيران قد يُوَحِّدُ السنة والشيعة – على الأقل سياسياً - في قضية واحدة هي الحرب ضد الأمريكان، وهذا قد يُتْعِبُ الأمريكان كثيراً؛ كما أن تجربة أمريكا الوحيدة في إيران عام ١٩٨٠ لتحرير دبلوماسييها المحتجزين من قبل شباب الثورة الإيرانية، كانت تجربة سلبيّة، وفقدت فيها أمريكا جنوداً وطائرات وموقفاً سياسياً، كما أن أمريكا تعلم أن النشاط النووي الإيراني ليس وهمياً كالذي كانت تتهم به العراق؛ ومن ثم فإن ضرب إيران لا بُدَّ أن يحمل خطورة عليها .

هذا بالنسبة لأمريكا أما بالنسبة لإيران فإن الوقائع التاريخية تشير إلى أنه ليس من المعتاد أن تُكَشِّرَ هذه الدول أنيابها في وجه المعتدين جديا ، إلا إذا تعرضوا لها شخصياً حيث يصبح القتال من أجل البقاء فالدولة الصفوية الشيعية لم تحارب فرنسا وانجلترا وروسيا، بل حاربت الدولة العثمانية السنية.

والدولة الإيرانية الشيعية لم تحارب روسيا الملحدة بل كانت تخطف المجاهدين الأفغان، ولم تحارب أمريكا أو اليهود بل حاربت العراق ثمان سنوات وكلنا يعلم أن الحرب ضد طالبان أفغانستان لم يكن انتصارا أمريكيا فقط بل إنتصار للدولة الشيعية ضد طالبان الوهابية المتشددة ..

كل هذا التاريخ يُرَجِّحُ أن إيران لن تتطوع بحرب ضد اليهود أو الأمريكان إلا إذا حدث غزو لأرضها فهنا ستظهر المخالب دفاعاً عن الرقعة التي يسيطرون عليها، تماماً كما حدث من حزب الله عند احتلال جنوب لبنان فقط إلا أنه وقف لم يحرك ساكنا عندما ضربت إسرائيل غزة بمنتهى القسوة بل وحاول دفع اتهام عن نفسه عندما أطلقت صواريخ كاتيوشا من لبنان إبان تلك الحرب .

وقد ذكرنا فى وضع سابق من الكتاب أن الرئيس الإيراني أحمدي نجاد زار العراق تحت حماية أمريكية! مما يؤكد أن العلاقات ليست بالسوء الذي تصفه وسائل الإعلام..لهذا فإننى اتصور أن التضخيم من شأن النشاط النووي الإيراني والتهويش الدائم بضربها لا يحمل إلا معنى واحداً، وهو أن أمريكا تريد أن تصنع من إيران «بعبعاً» جديداً يُخَوِّفُ المنطقة بكاملها؛ بحيث يصبح الوجود الأمريكي في العراق والخليج مُبَرَّراً؛ أي أن إيران ستقوم بالدور الذي كان يقوم به صدام حسين قبل ذلك، حيث حرصت أمريكا على إبقائه في مكانه دون أذى ثلاثة عشر عاماً

كاملة، حتى يقبل الجميع بوجود الحامي الكريم (أمريكا) لتحفظ البلاد الإسلامية من شرور صدام! ثم انتهى دور صدام، وضعفت قوته إلى الدرجة التي لم يعد فيها مُخيفاً لغيره، فكانت تمثيلية أسلحة الدمار الشامل ثم القضاء عليه واحتلال العراق، ولم يجد أحد أسلحة دمار شامل ولا غير شامل لكن الناس تنسى بسرعة، والآن تحتاج أمريكا إلى «بُعْبُع» جديد تُبْقِيه تحت السيطرة، فلا يؤذي أحداً، ولا تنمو له مخالب، ولا يتطوع بهجوم أو تهور، ولم تجد أمريكا أفضل لهذا الدور من إيران؛ ولذلك قادت هذه الحملة الإعلامية المنظّمة..

وقد ينتهي دور إيران بعد عدة سنوات، لتبحث أمريكا عن بُعْبُع جديد، ولن تنتهي هذه اللعبة السخيفة إلا عندما يصبح المسلمون قادرين على الدفاع عن أنفسهم ضد أي بُعْبُع في المنطقة سواء كان إيرانياً أو أمريكياً أو يهودياً أو حتى من الفضاء الخارجي!!

إن زيارة احمدي نجاد للعراق هي تتويج طبيعي للتلاقي الإيراني – الأمريكي – الإسرائيلي، في عهدي الشاه والخميني، حول هدفهم المشترك وهو تفتيت الأمة العربية كلها، بسلاح الطائفية الآن، وبسلاح القوة في عهد الشاه، فكل السياسات الإيرانية وبغض النظر عن النظام السياسي موجهة أساسا للهيمنة على الأمة العربية وغزو أجزاء منها، جغرافيا وسكانيا، وإقامة إمبراطورية فارسية تحت غطاء الدين، لذلك يجب أن لا نفصل الزيارة عن إطارها الاستراتيجي وسياقها التاريخي.

لقد جسدت الخومينية أقوى أشكال العداء القومي الفارسي للأمة العربية برفع شعار اسماه (الثورة الإسلامية) في الوطن العربي وليس في بلدان غير إسلامية، وكانت الترجمة لهذا الشعار، والتي أشعلت الحرب الدامية بين العراق وإيران، في عام ١٩٨٠، هو (تحرير القدس عبر تحرير بغداد) واتخاذ خطوات عملية لتنفيذه وأهمها إعلان رسمي إيراني متكرر بان إسقاط نظام البعث والرئيس صدام حسين هو الخطوة الأولى نحو تحرير القدس! واقترن ذلك بالقيام بنشر أعمال التخريب والاغتيالات في العراق! .

وتشير الوقائع التى تناقلتها وسائل الإعلام إلى هذه الصلة الأمريكية مع إيران ومعهما إسرائيل ، فلقد ثبت وباعترافات رسمية إيرانية وأمريكية وإسرائيلية، بان إيران تلقت أسلحة ضخمة من امريكا وإسرائيل، فيما سمي (إيران – كونترا جيت). ومن المثير للتأمل والدهشة هو أمريكا قد دعمت العراق أثناء الحرب مع إيران إلا أن إسرائيل وأمريكا قدمتا السلاح لإيران أثناء الحرب .

جاء غزو العراق ليقدم الحقائق الدامغة والتي يستحيل إنكارها على أن إيران، هي حليف أمريكا الأساسي في الحرب على العراق وأصبحت اذرع إيران في العراق هي القاعدة الأساسية للاحتلال، وتلك حقيقة لا يمكن إنكارها وكانت إيران أول دولة تعترف بالاحتلال، من خلال زيارة وزير خارجيتها، الذي كان أول وزير خارجية يدخل العراق بعد الاحتلال ويؤيده .

استطاعت إيران، وبواسطة فرق الموت التي توجهها المخابرات الإيرانية باغتيال آلاف الضباط والطيارين العراقيين، بهدف الانتقام من الجيش بالإضافة إلى تصفية الضمانة الأساسية لقدرة العراق على إعادة ما دمره الغزو ومواصلة التقدم، وهي العلماء والمهندسين والأكاديميين، نتيجة وجود معلومات لدى إيران من داخل العراق سابقة للغزو عن أسماء اغلب هؤلاء.

ولا يمكن فصل تصريحات المسؤولين الإيرانيين عن استعداد بلدهم لملء الفراغ الذى ستتركه القوات الأمريكية عند رحيلها عن ما قامت به إيران من تفاوض مع أمريكا رسميا حول ما أسمته (مستقبل العراق)! وكأن العراق محافظة إيرانية كما كرر اكثر من مسؤول إيراني الاعتراف الذي صدر عن محمد خاتمي في نهاية عام ٢٠٠٤، حينما كان رئيسا لإيران، وهو انه (لولا مساعدة إيران لما نجحت أمريكا في غزو أفغانستان والعراق)! أن هذا الاعتراف الذي كرره أقطاب إيران ومنهم هاشمي رفسنجاني واحمدي نجاد وغيرهم بطرق مختلفة لكنها تتفق على أن إيران كانت هي المساعد الأول لأمريكا في النجاح بغزو العراق، هذا الاعتراف وحده يكفي لإثبات أن إيران شاركت أمريكا في غزو وتدمير العراق، لقد بدأ التدخل الإيراني في الشأن العراقي منذ سقوط صدام، وراح يتسع ويتفاقم على كل الأصعدة: استخباريا، وتسليحا للإرهاب، ودعما للمليشيات وحتى للقاعدة، وكذلك التدخل تجاريا ودينيا واقتصاديا، وحتى لغويا. هذا كله معروف، وقد نشر عنه الكثير جدا من المقالات والتقارير والوثائق.

وإذا كان رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام فى إيران على أكبر هاشمى رفسنجاني قد أبدي سعادته لأن « أصدقاء إيران» في السلطة إلا أن ذلك لم يمنع إيران من التخريب، وتسليح الإرهاب، وتغلغل عنصر فيلق القدس، وإيواء زعماء من القاعدة كما أن إيران ترفض التنازل عن «تعويضات» تطالب بها العراق بسبب حرب الثمان سنوات باعتبار أن صدام حسين هو الذى بدأ بالحرب ، وإن كان هذا هو الثابت فعلا إلا أن الخميني أطالها سنوات، وهو ما يعنى أن التعويضات واجبة على الطرفين .

وسوف أنقل مقالا كتبه الأستاذ مهدى قاسم في موقع صوت العراق الإلكتروني واسع الانتشار بعنوان هذا ما جناه الشيعة من النظام الإيراني : مآس و معاناة لتوضيح أن المسألة ليست شيعة وسنة وإنما مصالح إيرانية يجرى الحفاظ عليها رغم أى علاقة قائمة بين النظام الإيرانى ومن يعتبرون أصدقاء كما صرح رفسنجانى .

يقول مهدى قاسم « لقد سبق لنا أن كتبنا مرارا وتكرار بأن أنظمة الحكم الإيرانية السابقة أو الراهنة و ربما اللاحقة أيضا ، تأتي عندها أولويات مصالحها القومية العليا في الدرجة الأولى والأخيرة واضعة إياها فوق أي اعتبار ديني أو مذهبي أخر، وما المزاعم المذهبية أو الدينية التي اتكأت عليها أو ترفلت بمسوحها هذه الأنظمة ولاسيما نظام الملالي الحالي ، إلا مجرد وسائل وتوظيفية دعائية من اجل نشر وتوسيع هذه المصالح القومية العليا والنفوذ « الفارسي » في بلدان مجاورة أو بلدان أخرى بعيدة بعض الشيء ، ولكن أخس الوسائل وأكثر وضاعة ودناءة التي استعان ويستعين بها النظام الإيراني الحالي هو جعل الشيعة غير الإيرانيين وقودا ومحرقة لتعميق وترسيخ هذه المصالح القومية « الفارسية» لحد التضحية بالشيعة غير الإيرانيين كما لو كانوا خرافا للقرابين و الأضحية الرخيصة في محراب مصالح إيران القومية العليا ..

وقد كان لحصة لشيعة العراقيين النصيب الأكبر و الأكثر من هذه التضحية والمحرقة والقرابين الرخيصة والبالغة بمئات آلاف من ضحايا الإرهاب التكفيري ـــ البعثي ، المدعوم أصلا من قبل النظام الإيراني نفسه منذ سقوط النظام السابق و حتى الآن ..

وهو النظام الذي احتضن بعضا من قادة وعناصر « تنظيم القاعدة ، الذين وضعوا أمام عيونهم إبادة الشيعة في العالم و خاصة الشيعة العراقيين كهدف رئيسي ووحيد !..

وأكبر دليل على ما نقول هو موقف النظام الإيراني الحالي من سكان مناطق جنوب العراق وغيرهم وهم الذين جلهم من الشيعة ، والذين يعانون من شحة المياه وكثرة اليباس واتساع وانتشار الجفاف وتشقق الأرض العطشاء وتيبس العشب ونفوق الحيوان وهجران الطير ، وتصحر الأرض المعطاء لتصبح جدباء ، وحيث تشرد آلاف عائلات على أثر ذلك الجفاف والتصحر ونتيجة مباشرة لذلك ، بسبب تحويل مسار أنهار عديدة نحو العمق الإيراني وحرمان أراض عراقية شاسعة الأطراف وكذلك آلاف من سكانها من تدفق مياه هذه الأنهار نحو مناطقهم

وروافدهم داخل العراق !..

بينما في مقابل ذلك نجد الإعلام الطائفي المنحاز والحاقد يشحّن ويؤلب الشارع العربي بالأحقاد والكراهيات المذهبية ضد الشيعة بشكل عام و ضد الشيعة العراقيين بشكل خاص ، وتحاول بكل خبث تصويرهم على أساس أنهم عملاء النظام الإيراني وناشري نفوذه ومصالحه في البلدان العربية ، في حين أن الشيعة العراقيين وكما أتضح ويتضح مراراً ، إنهم أكثر البشر تعرضا للأضرار والمعاناة والكوارث والمأساة والمعاناة اليومية بسبب موقف النظام الإيراني الداعم للإرهاب في العراق وعملياته التخريبية المتواصلة لإبقاء الوضع الأمني في العراق مضطربا ومتدهورا وهشا وقابلا للانفجار ، ليبقى هو مسيطرا على المفاصل السياسية الأساسية في العراق تمهيدا للهيمنة النهائية عليه ـــ ولو بشكل غير مباشر ـــ بعد الانسحاب الأمريكي النهائي من العراق ..

لنصل في المحصلة النهائية إلى النتيجة التالية :

- أن الشيعة في العالم وخاصة الشيعة العراقيين لم يجنوا من النظام الإيراني « الشيعي » الحالي غير المآسي والمعاناة والقتل والحروب و مواسم الموت والتخلف والجهل والدسائس والمؤامرات وتدمير الزرع والضرع ، سواء من خلال دعم الإرهاب أو من خلال قطع المياه - كعملية تدمير وتخريب إيرانية موجهة ضد الشعب العراقي و خاصة المكوّن الشيعي منه ، وهو الأمر الذي جعل بعض الشيعة العراقيين المخدوعين بالنظام الإيراني ، أن يروا الأمور كما هي بكل حقائقها العارية ، وأن يرفعوا أصواتهم منددين وفاضحين النوايا الجهنمية و العدوانية والعنصرية الحاقدة للنظام الإيراني والمبيتة ضد الشعب العراقي بجميع مكوناته و بدون أي استثناء بين هذا المكوّن أو ذاك ..

من هنا نرى أنه من السذاجة بمكان تماما ، التعامل مع النظام الإيراني على أساس مذهبي أو ديني ، بقدر ما يجب التعامل معه على أساس كونه نظاما قوميا وعنصريا مستعد للتضحية بجميع شيعة العالم من أجل نشر وتقوية مصالحه القومية ونفوذه السياسي في جميع أنحاء العالم بدليل أن هذا النظام قد ضحى بشيعة العراق ، وكذلك ورط الحوثيين في اليمن بالتمرد والقتال دون أن يلجأ إلى مساعدتهم .

في الحقيقة لم يكن هذا الموضوع أول الغيث الذي نحن بصدده بل سبقته مزن كالحة عديدة تشي بان العراق مقبل على أن يكون رهينة بيد المد الديني المخيف الذي اخذ يتناسل مثل السرطانات ولهذا المد فكره المتخلف ورجالاته القساة مسخرين

أموال العراق لتمرير هذه المخططات التي إذا ما استمر الصمت لإيقافها فلنتهيأ لقراءة الفاتحة على ما تبقى من هذه الدولة المنكوبة. فمنذ سقوط الصنم وحتى خراب طويريج ونحن نراقب ونعاين ونعايش مسلسل الخراب يوميا لا على يد المأفونين البعثيين وفلول القاعدة فهؤلاء قد خبر أفعالهم العراقي المكلوم بل على يد الفرسان الجدد.

اليوم يصل إلى أسماعنا خبر يقضي باتخاذ مجلس محافظة البصرة قرارا وسابقة خطيرة في نظر من يحترم فسحة الحرية واحترام حياة الناس ذلك أن المجلس الموقر قرر منع شرب وبيع الخمور وكأني بهذا المجلس الخرافي قد حل كل مشاكل البصرة من عدم انقطاع التيار الكهربائي وتزويد البيت البصري والمرافق الحياتية الأخرى بالماء الصالح للشرب وبناء مجمعات سكنية لإيواء المشردين والعمل على إعادة إيجاد البنى التحتية المخربة من طرق وشوارع ومياه صرف صحي وبناء مستوصفات وإيجاد حلول لمشكلة البطالة المتفاقمة وغيرها من العشرات من المشاكل المتعاظمة والتي حولت المجتمع البصراوي إلى جحيم حقيقي أسوة ببقية مناطق العراق المنكوبة.

• صفقات إيران مع الغرب

كشف سفير بريطانيا لدى الأمم المتحدة السير جون ساورز لبرنامج وثائقي بثته «بي بي سي» عن مفاوضات الكواليس بين إيران والغرب وكانت الهجمات المسلحة ضد الجنود البريطانيين والأمريكيين في العراق قد تصاعدت وبلغت ذروتها عام ٢٠٠٥ وكان مدى الدور الإيراني في تسليح وتدريب الميليشيات مجهولا آنذاك.

وبينما أنكرت إيران أي دور فيما كان يحدث، كان المسؤولون البريطانيون يغلفون اتهاماتهم بالقول: أن «لديهم أدلة مفصلة».

ويكشف الدبلوماسي البريطاني ليس عن اعتراف الإيرانيين بضلوعهم وحسب، بل وعن عرض مثير للدهشة للتوقف عن هذه الهجمات في العراق مقابل توقف الغرب عن الاعتراض على برنامج إيران النووي المثير للجدل.

وقال السير جون ساورز: أن الإيرانيين عرضوا الاقتراح خلال محادثات غير رسمية بأحد فنادق لندن.

وأضاف قائلا لـ«بي بي سي»: «اتصل عدد من الإيرانيين جاؤوا إلى لندن واقترحوا جلسة شاي في هذا الفندق أو ذاك. إنهم يحاولون نفس الشيء في باريس وبرلين. بعدها نقارن بين ما سجلناه» .

وزاد موضحا: «كانوا يريدون الحصول على صفقة يتوقفون بموجبها عن قتل قواتنا في العراق مقابل السماح لهم بالاستمرار في تطوير برنامجهم النووي: ؟نتوقف عن قتلكم في العراق، وتسمحون لنا بالاستمرار في برنامجنا النووي دون عراقيل.»

وبعد أن رفضت بريطانيا العرض استؤنفت عمليات تخصيب اليورانيوم بعد وقت قصير.

إنه حادث واحد يكشف عن نمط من صفقات الكواليس التي أبرمت مع الإيرانيين منذ عام ٢٠٠١.

ويبدو من اللقاءات مع المسؤولين الإيرانيين والأمريكيين أن طهران ومنذ سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١ تعاونت عن قرب مع الولايات المتحدة لقلب نظام طالبان في أفغانستان، وبلغ هذا التعاون حدا كشفت فيه عن معلومات استخباراتية للأمريكيين

وتتذكر هيلاري مان وكانت عضوا في إحدى البعثات كيف ضرب مسؤول عسكري إيراني بقوة على الطاولة للضغط على الأمريكيين حتى يغيروا الهدف.

وقالت للـ«بي بي سي» موضحة: «إنه نشر خارطة ثم أشار إلى الأهداف التي ينبغي أن يركز عليها الأمريكيون. ولقد حملنا معنا الخريطة إلى مركز القيادة، واعتمدنا بالفعل هذه الخطة.»

وفيما يتعلق بالعراق عرض الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي التعاون من أجل الإطاحة بصدام حسين بحجة أن الزعيم العراقي كان عدوا لإيران أيضا، لكن العلاقات ساءت بعد أن أدرج الرئيس السابق جورج بوش الابن إيران ضمن ما سماه «محور الشر».

ولم تسفر محاولات الأوروبيين لفتح مفاوضات عن أي نتيجة.

ووفقا لنيك بيرنز المكلف بالملف السياسي في وزارة الخارجية على عهد الإدارة الأمريكية السابقة يبدو أن اللهجة المتشددة مع إيران لم تكن مثمرة.

وقال بيرنز: « لقد أيدنا تغيير النظام، لقد فضلنا موقف التهديد خلال عدة سنوات. ولم يؤد ذلك إلى أي نتيجة إيجابية إطلاقا.»

إن لقطات البرنامج الوثائقي عن سلسلة اللقاءات غير الرسمية التي أجريت على امتداد عدة سنوات وأثمرت تعاونا حقيقيا قد تبدو مشجعة، لكن مجموعة اللقاءات الصحفية المذهلة لا تكشف عن آفاق مستقبل العلاقات وعن إمكانية تحسنها.

وتبقى العقبة الأساسية قائمة: فكل الساسة وأصحاب القرار في إيران -حتى الرئيس الإصلاحي السابق محمد خاتمي - يصرون على حق إيران في تطوير برنامجها النووي دون عراقيل.

وفي المقابل يصر الغرب على الاعتقاد بأن هذا البرنامج ستار لتطوير سلاح نووي، ويطالب بوقف نشاط تخصيب اليورانيوم.

• صفقة مجاهدى خلق

بين مئات الملفات العالقة و القضايا الغامضة ووسط ركام الفوضى وتداخلاتها في المشهد السياسي العراقي الراهن يبدو مصير المعارضة الإيرانية المقيمة في العراق، وتحديدا أقوى تياراتها وهي جماعة «مجاهدي خلق» مجهولا في ظل الصراعات الصامتة بين أطراف مهمة في السلطة العراقية الراهنة، والتي تدعو علنا للتخلص التام من تلك الجماعة و تدعو إلى طردها من العراق بالكامل أو تسليم قياداتها وعناصرها للنظام الإيراني! و هو ما تختلف بشأنه بكل تأكيد بقية القوى السياسية العراقية المشاركة في العملية السياسية أو تلك التي تتفرج على الأوضاع العامة؟ وليس سرا أن تشابك المواقف العراقية هو حالة غريبة و عجيبة لا نظير لفرادتها ، فالوجود الإيراني المعارض في العراق هو وجود قديم ويمتد تحديدا لأكثر من ربع قرن مضى و تحديدا منذ الشهر الأول للحرب العراقية - الإيرانية التي اندلعت في سبتمبر ١٩٨٠ و من ثم سلسلة الأحداث الداخلية العنيفة في إيران، والتي تميزت بالصراع الشديد والدموي بين المؤسسة الدينية الإيرانية وبين بقية القوى السياسية التي شاركت في عملية التغيير الثوري الكبيرة وإسقاط نظام الشاه الراحل و التي سرعان ما دخلت في صراع دموي مع منافسيها ضمن إطار النظرية المعروفة دائما : (الثورة تأكل أبنائها)! ، وقتها جرت اغتيالات و تصفيات متبادلة و جاءت الحرب بين إيران و العراق لتضفي على مشاهد الصراع الإقليمي خلفيات مبهرة من التداخلات والتدخلات فالنظام الإيراني احتضن بشكل واسع المعارضة الدينية العراقية بل ودعمها علنا في حملتها لإسقاط النظام البعثي السابق و إقامة البديل الإسلامي على النمط الإيراني وفقا لرؤى تلك الأيام! وضمن إطار ومخطط تصدير الثورة الإسلامية لدول الجوار و حيث يحتل العراق محط الاهتمام الأول في هذا الإطار .. النظام العراقي السابق بدوره استجاب للتحدي الإيراني ودعا المعارضة الإيرانية للعمل من خلال البوابة العراقية و كجزء من حال الفعل و رد الفعل و الاعتماد على كل الأوراق المتوفرة من أجل حسم الموقف ، وفعلا فقد أضحت الساحة العراقية مجالا رحبا لقوى المعارضة

الإيرانية الرئيسية و خصوصا «مجاهدي خلق» الذين تمركزوا في مواقع قرب الحدود المشتركة و تحديدا ضمن محافظة ديالى و في معسكر «أشرف» الذي تحول لمدينة كاملة لها منشآتها ومؤسساتها خصوصا إلا أن التغيير الكبير في المنطقة بقيام الولايات المتحدة بإسقاط النظام العراقي السابق عام ٢٠٠٣ فرض واقعا جديدا تميز بالغرابة ، فمدينة «أشرف» أضحت محمية من جانب القوات الأمريكية المحتلة للعراق إضافة لوسائل الحماية الذاتية لقوى المعارضة الإيرانية المسلحة ؟ كما أن هذه المدينة و في خضم تطور و توسع النفوذ العسكري و السياسي و الاستخباري الإيراني في العراق أضحت هدفا سهلا للنظام الإيراني الذي يريد إغلاقها بالكامل أن لم يكن تدميرها بشكل نهائي خصوصا و أن حلفاء النظام الإيراني المعروفين من القوى السياسية العراقية لم تتمكن أبدا من اختراق الطوق بسبب موقف القوى السياسية العراقية الأخرى في التوافق و الحوار و بعض العشائر العربية ، و بسبب الواقع الاجتماعي المعاش و علاقات الصداقة التي نمت بين أهل «أشرف» و المحيط المجاور إضافة لموقف الحكومة الأمريكية الذي لم يسمح أبدا بالمساس بتلك المدينة رغم أن العلاقات الرسمية بين الولايات المتحدة و«مجاهدي خلق» ليست حسنة بما فيه الكفاية لرفع اسم المنظمة الإيرانية من قائمة الجماعات الإرهابية على العكس تماما من الموقف الأوروبي المساند لتلك الجماعة التي تحظى بنفوذ في فرنسا و ألمانيا و هولندا، و كل دول الإتحاد الأوروبي ، وإزاء المستجدات الكبيرة في الساحة العراقية و توقيع الاتفاقية الأمنية مع الولايات المتحدة، وهي الاتفاقية التي تنظم شكل و طبيعة الوجود الأمريكي و بما يؤدي لانسحاب عسكري أمريكي من العراق خلال السنوات الثلاث المقبلة برزت من جديد قضية «مدينة أشرف» و الوجود الإيراني المعارض الذي يعتبر ورقة قوية جدا للجانب الأمريكي في أي عملية مفاوضات مقبلة مع الإيرانيين .

رفع الأمريكيون طوق الحماية الأمنية و العسكرية حول معسكر مدينة «أشرف» وهو ما أدي في النهاية لاجتياحها عسكريا و أمنيا من قبل قوات الأمن العراقي وسمحت الولايات المتحدة بحدوث كارثة بشرية هناك في ظل الرغبة الرسمية الإيرانية لإبادة تلك المدينة بمن فيها بعد أن انتقلت الحماية الأمنية المباشرة للقوات العراقية وقد تابعنا منذ بداية العام ٢٠٠٩ وسريان الاتفاقية الأمنية محاولات سيطرة القوات العراقية على « مدينة أشرف » باعتبارها جزء من التراب العراقى ولا يجوز إقامة أى جهة لا تحظى برضا الحكومة الشرعية وتهدد مصالحها مع الجارة الشرقية أقرب الحلفاء مما جعل تلك الأحداث الدموية تثير كل معاني القلق والتوجس العالمى من كارثة حقيقية تحيط بحوالي ٣٥٠٠

شخص يقيمون فى المدينة . لقد تغيرت المعادلات الدولية و الإقليمية منذ ذلك التاريخ بشكل حاد وعاصف ولكن ما لم يتغير هو مواقف العداء التاريخية المسبقة بين الطرفين ولهذا استغلت الحكومة العراقية الاتفاقية الأمنية لتضرب ضربتها النهائية فى محاولة لإنهاء الوجود الإيراني المعارض على أراضيها وسط مطالب بنقل مجاهدى خلق إلى خارج الحدود العراقية إذا وافقت أى دولة أخرى على إستضافتهم أو نقلهم إلى معسكر فى صحراء محافظة المثنى أقصى الجنوب الغربى للعراق بعيدا عن الحدود الإيرانية .

حدث هذا رغم انتقال ملف المعارضة الإيرانية و مدينة أشرف للإدارة الأمريكية الديمقراطية الجديدة برئاسة أوباما والتي كان من المتوقع أن تستخدم الملف كورقة تفاوض ثمينة مع الجانب الإيراني ورغم وقوف الإدارة الجديدة حائلا دون تنفيذ إرادة الحكومة العراقية الحليفة لإيران حتى الآن إلا أن شبح الكارثة يبدو أكثر إطلالة في هذا الملف ما لم يتم التعامل بحكمة وواقعية مع الموقف و بشكل يراعي الجوانب الإنسانية لجميع الأطراف باعتبار أن القضية برمتها قد أضحت إنسانية محضة، كما أن ملف المعارضة الإيرانية في العراق و مستقبلها هو واحد من الملفات الحساسة في الوضع العراقي لأنه يرتبط بمصالح استراتيجية و مستقبلية مهمة للغاية، وأي تسرع غير محسوب في التعامل مع ذلك الملف سيكون كارثة!..

ولعل من الجدير ذكره هنا انه ومنذ زيارتى لمعسكر أشرف الذى يقع على بعد حوالي ٨٠ كم إلى الشرق من العاصمة بغداد عام ٢٠٠٧ كما ورد ذكره فى موضع سابق من الكتاب فإن العلاقة مع سكان المعسكر على المستوى الصحفى ظلت مستمرة وهو ما أتاح لي متابعة الأحداث التى أعقبت تسلم القوات العراقية للمعسكر أوائل العام ٢٠٠٩ عن كثب من خلال الاتصال المباشر هاتفيا أو عبر البريد الإلكتروني بقيادات المعسكر ومسئولية الإعلاميين وسوف أعرض صورة لأحد البيانات التى وصلتنى حال إعداد هذا الكتاب .

رسالة ٥٣ من مجاهدي خلق في « أشرف » إلى الأمم المتحدة حول تعرضهم للتعذيب النفسي من قبل عملاء الاطلاعات الإيراني

ًٌُ: ًفقوهملففوٍُ@نفوًفٌ–ّى.هً

ٌمس: □فلّمَلمط، □فحـ ٠٥، ٢٠١٠ ٣:٢٤:٢٦ حذ

ٌُث: _□ًأفىوّ٠٧@ّىفٍُو.ٍُك

٥٣ من أعضاء مجاهدي خلق في« أشرف »ممن أصبحوا منذ ثلاثة أشهر عرضة

لشتى حملات الأكاذيب والتخرصات والتعذيب النفسي من قبل اطلاعات حكام إيران السيئة الصيت تحت غطاء ما يسمى بالعوائل، بعثوا مرة أخرى برسائل منفصلة وكذلك رسالة جماعية إلى المسؤولين في الامم المتحدة بينهم المسؤول عن شؤون حقوق الانسان ومدير مكتب يونامي في العراق معلنين أنهم وتحدياً لمهزلة وحملات الابتزاز التي يمارسها عناصر نظام الملالي العميلة في مدخل أشرف وتحدياً لبث المعلومات المضللة والكاذبة التي تهدف إلى تهيئة المناخ لحملات القمع والإبادة الوحشية ضد سكان أشرف ومواصلة الحصار اللاانساني، إنهم لم ولن يلتقوا بأي عميل لمخابرات الملالي وقوة القدس الإرهابية بأي شكل و تحت اي مسمى كان سواء كان غطاؤه عائليا أو غير عائلي.

وأكد المجاهدون الأشرفيون أن الاساليب التي يعتمدها نظام الملالي ومخابراته القذرة لتجنيد أفراد بعض من العوائل من قريب أو بعيد للتخابر على سكان أشرف، تم استنساخها من المخططات الفاشية المستخدمة في الحرب العالمية الثانية والإعلام الغوبلزي المقزز وتم تخصيبها. الغاية من هذه الألاعيب العفنة هو التغطية على دماء المجاهدين الأشرفيين المراقة في يومي ٢٨ و٢٩ تموز الماضي وتبرير الحصار والجريمة الكبرى ضد الانسانية التي لا يقبلها أي ضمير إنساني يكره الاستسلام والخنوع.

وفيما يلي فقرات أخرى من رسالة هؤلاء المقيمين في أشرف وأسماء الموقعين للتفضل بالإطلاع والنشر .

مع فائق الاحترام

مع الود-محمد اقبال-مجاهدي خلق الإيرانية

... ففي تموز الماضي شن الجيش العراقي ويطلب من النظام الايراني هجوماً وحشياً على سكان اشرف مما أدى إلى سقوط ١١ شهيداً و٥٠٠ جريح و أكثر من ألف مضروب ومكدوم. والآن رأس خيط القضايا يمسكها الولي الفقيه المهزوز الحاكم في طهران والحرسي كاظمي قمي أحد قادة قوة القدس الإرهابية التي يعمل كسفير للنظام في بغداد.

وكشفت أمانة المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية أنه ويأمر من خامنئي ، شكلت وزارة المخابرات سيئة الصيت لجنة خاصة لمارسة القمع والتعذيب النفسي بحق سكان أشرف حيث تقوم وعبر فروعها في الأقضية وتأسيس جمعية يسميها المواطنون «جمعية النجاسة» بتجنيد عملاء من المرتبطين بالمجاهدين نسبياً وذلك بهدف تبرير الجرائم اللاانسانية المتواصلة ضد الأشرفيين منذ ١٦ شهراً وللحيلولة

دون العلاقات الاجتماعية بين المواطنين العراقيين مع المجاهدين في خضم الانتخابات العراقية.

ان الممثل الخاص للجنة قمع أشرف في مخابرات الملالي في طهران هو جلاد يدعى حاج علي وهو الآن مقيم في اللجنة العملياتية للنظام في السفارة الإيرانية في بغداد. إن العناصر المجندة يتم نقلهم مباشرة جواً من طهران أو من المحافظات إلى بغداد وفي كل رحلة أو في كل مجموعة هناك مسؤول من وزارة المخابرات تحت عنوان جمعية النجاة مكلف بادارة وترتيب شؤون المجموعة المبعوثة من قبل الوزارة السيئة الصيت.

إن لجنة قمع « أشرف » بطهران تضغط على سفارة النظام في بغداد وتحاسبها بأنها ومنذ كانون الثاني كانت حصيلة عملها قليلة جداً بالمقارنة مع التكاليف المصروفة حيث سلمت السفارة لحد الآن عنصرين تائبين من الحرب الثماني السنوات فقط وليس من المعلوم ما ربطهما بنشاطات العوائل المرسلة أمام مخيم أشرف.

وأكد المجاهدون اللأشرفيون الـ ٥٣ في رسالتهم إلى مدير مكتب يونامي ببغداد: نحن كأفراد استخدم ذوونا في هذه الحرب كأداة سياسية لقمع أشرف علمنا أن اطلاعات حكام إيران وعبر موقع في الانترنت تم تأسيسه ويدار من قبل عنصرين للمخابرات شوهدا في معتقل أوين للتعذيب ، وهما العميل مسعود خدابنده وزوجته البريطانية العميلة أن سنغلتون نسبت أقوال إليكم كذبتها يونامي خلال اتصال هاتفي للجنة الشؤون الخارجية للمجلس الوطني للمقاومة الإيرانية. نحن سكان « أشرف » نعيش الآن أشد حالات الحصار والحرب النفسية القذرة وحالات التهديد التي شوهدت مثلها فقط في الحرب العالمية الثانية من قبل الفاشية الهتلرية وفي الاعلام الغوبلزي. نرجو منكم أن تزوروا أشرف على عجالة لتروا الموقف عن كثب مثلما يراه ممثلو يونامي عن قرب. إننا ومنذ ١٦ شهراً وفي الوقت الذي لم يسمح لأي فرد من عوائل الاشرفيين أينما كان في العالم بزيارة أي فرد من الاشرفيين خارج الرحلات التي تنظمها مخابرات الملالي، وفي الوقت الذي نحن فيه محرومون من اللقاء بمحامينا والمراسلين والبرلمانيين خلافاً لجميع القوانين الدولية وفي الوقت الذي يتم فيه اعتقال افراد تلك العوائل التي زارت أشرف في السنوات السابقة بعيداً عن رحلات المخابرات ، ويتم تعذيبهم ، وإصدار الحكم عليهم بالسجن لمدد طويلة، بدأ الآن الولي الفقيه للنظام الرجعي وعناصره العميلة من العراقيين الاصرار على لقائنا مع المجندين الذين جاؤوا تحت مسمى العوائل ، وذلك شريطة أن يتم اللقاء خارج أشرف وداخل الفوج العسكري العراقي

ويتم اللقاء تحت السلاح. وهذا يعني الابتزاز وكتم الافواه للتوبة والندامة أمام الجلادين الحاكمين في إيران ولا ينبغي لنا فعل ذلك إطلاقاً. لذلك نرجو إنصافكم بحقنا ونؤكد مرة أخرى اننا لم ولن نلتقي بأي عميل لوزارة المخابرات وقوة القدس الإرهابية تحت أي غطاء كان سواء عائلياً أو غير عائلي.

إننا نطالب باللقاء معكم في أشرف باعتباركم جهة دولية محايدة ونتطلع إلى عنايتكم بطلبنا هذا. وقد سبق لنا أن قدمنا طلبنا في رسائل عديدة إلى مؤسسات دولية مختلفة وخاصة « يونامي » وهو اللقاء مع ممثلي الأمم المتحدة ولكن لم يتسن ذلك لحد يومنا هذا أي ٢٧ من نيسان الجاري.

حسن عارف- محمد رضا قديمي- محمد كريمي-محمد رضا راكي پاور- مقصود محمد زاده- امير اصلان حسن زاده- غلام ساجدي فر-محمد فرجي - شهاب فروزنده-سيد رضا تارا- سلمان دولت بناه- محسن حسن كاويار- خليل بزرگمهر- ميرمحسن مرتضوي- اسماعيل حسين زاده- محمود سعادت- سميع ناظري- محمدرضا حسين - امين عبدلي- محمد رضا آغاسي- ابراهيم محمديان –محمدرضا صديق- جعفر باباي نژاد- بهمن عتيقي- طوبى بوزروجمهر- حسين شجاعي- نادر كشميري- فريدون زارع- عيسي أكبر زاده- حيدر بيرزادي- رحيم چارلنك- علي هاجري- مهدي حميدفر- ايرج رمضاني- عبدالرضا واديان- بخشعلي عليزاده- علي يوسفي- محمد حمادي- زهرا فنودي - نسرين علافبور- راضيه خبازان- سميه محمدي- معصومه أولادي- عليرضا زيبايي- عليرضا رحماني- حسن رهنما- حسين عيني- برات ربيعي- مهري سعادت- ناهيد سعادت- امير مزرعة - اشرف آوري- خرم رمضاني

مؤامرات جديدة يحيكها النظام الإيراني ضد « أشرف» /محاكمة عوائل سكان مخيم أشرف

تحية طيبة

فيما يلي البيان الصادر عن أمانة المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية حول مؤامرات جديدة يحيكها النظام الإيراني ضد أشرف ومحاكمة عوائل سكان المخيم. للتفضل بالإطلاع والنشر .

مع الود

مؤامرات جديدة يحيكها النظام الإيراني ضد أشرف/محاكمة عوائل سكان مخيم أشرف

أصدرت أمانة المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية بيانًا جاء فيه: "تفيد التقارير الواردة من داخل النظام الإيراني أنه وتزامنًا مع تواجد عملاء مخابرات النظام في مدخل مخيم أشرف تنوي قوة «القدس» الإرهابية ووزارة المخابرات وبالتعاون مع الحكومة العراقية وكذلك بتوظيف عملائهما وعناصرهما العراقيين أن تدبرا مزيداً من المؤامرات والمخططات ضد مجاهدي أشرف. وفيما يلي بعض من هذه المؤامرات والمخططات:

١- أن قوة «القدس» الإرهابية قد كلفت المدعو «صادق جعفر الحسيني» أحد قادة فيلق ٩ بدر ونائب رئيس فرع المجلس الأعلى في ديالى وهو نائب رئيس مجلس محافظة ديالى أيضاً بتنسيق نشاطات عملاء النظام الإيراني العراقيين في ديالى ضد مخيم أشرف. أن عم وصهر صادق جعفر وهما أبو علي الزهيري نائب وزيرة حقوق الإنسان وعلي الحسيني و كلاهما من أفراد فيلق بدر ومجلس الأعلى يعاونانه ويساعدانه في هذا المجال ميدانياً. وكان علي الحسيني يقيم في إيران لأمد طويل وقد عاد مؤخراً من إيران إلى محافظة ديالى.

٢- طبقًا لخطة قوة «القدس» من المقرر أن يؤسس أبو علي الزهيري مركزًا في قضاء الخالص تحت عنوان «مركز حقوق الإنسان» يهدف أساسًا إلى تنظيم نشاطات العملاء ضد أشرف.

٣- «اختطاف أحد قادة أشرف» والاستغلال الدعائي لذلك «وخلق حالة من انعدام الثقة في صفوف مجاهدي خلق لفصل قادتهم من الأفراد الآخرين في أشرف».

٤- نشر أكاذيب ومنها أن اثنين من المجاهدين الـ ٣٦ الذين كانوا قد اختطفوا كرهائن خلال الهجوم على أشرف في يومي ٢٨ و٢٩ تموز (يوليو) الماضي قد هربا من أشرف وهما حالياً لدى الحكومة العراقية وسيتم تسليمهما لعائلتيهما.

٥- تقديم شكاوى من قبل عملاء وزارة المخابرات ضد المسؤولين في منظمة مجاهدي خلق الإيرانية بأن هؤلاء المسؤولين احتجزوا أبناءهم عنوة في سجن أشرف وطلب اعتقالهم بموجب قانون مكافحة الإرهاب، بالإضافة إلى تفعيل الشكاوى الكيدية ضد سكان مخيم أشرف بأنهم غصبوا أراضي الغير كون أراضي أشرف عقارات وأملاك خاصة لمالكيها العراقيين.

إن المؤامرات والممارسات القمعية ضد مجاهدي أشرف تأتي في وقت تستمر فيه حملات الاعتقال والتعذيب ومحاكمة عوائل سكان مخيم أشرف ويعيش عدد كبير من أفراد عوائلهم قيد السجن حالياً في سجون النظام. وآخر مثال على

ذلك أن السجينة السياسية السيدة مريم أكبري قد حوكمت يوم ٢٧ نيسان (أبريل) ٢٠١٠ أمام محاكم النظام الإيراني بعد مضي ٨ أشهر على اعتقالها وقال لها الجلاد الذي يطلق على نفسه «القاضي»: «إنك مدانة بالمحاربة لأن جميع أفراد عائلتك وذويك متواجدون في أشرف.. وآخرون من أفراد عائلتك كانوا منافقين [من مجاهدي خلق] وقد تم إعدامهم حتى الآن.. كما قد كتب في ملفك أنك محاربة».

أصدرت أمانة المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية بيانا بعنوان« إجراءات قمعية واستفزازية للجنة قمع أشرف ونقل مجموعة جديدة من العملاء إلى باب المخيم .. الحرسي الاريجاني يسافر إلى كرمانشاه ومضيق «شهار زير» للتآمر« ضد أشرف » جاء فيه:

في الوقت الذي أصبح فيه الشهر السادس من تواجد عملاء الفاشية الدينية الحاكمة في إيران في باب مخيم أشرف يوشك على الانتهاء وفي الوقت الذي تم فيه تشديد عمليات التعذيب النفسي لسكان أشرف على مدار الساعة والتي تجري بمساندة شاملة من القوات العراقية ولجنة قمع أشرف المتمركزة في ديوان رئاسة الوزراء العراقية، قام أفراد هذه اللجنة والمسؤولون فيها بتصعيد إجراءاتهم القمعية والمزعجة والاستفزازية الأخرى ضد سكان مخيم أشرف تمهيداً لخلق أجواء التوتر وتأزيم وتصعيد الموقف ومن ثم شن الهجوم على سكان المخيم وقتلهم جماعياً:

١- أفراد اللجنة ومعهم قوات عراقية يتجولون في مختلف الساعات ليلاً ونهاراً في شوارع أشرف ويتعرضون في أحيان كثيرة على سكان في المخيم يترددون بمفردهم ويهينونهم أو حتى يضربونهم ويشتمونهم ويهددونهم في بعض الحالات بالاعتقال والقتل.

٢- أحد هؤلاء الأفراد يدعى «الملازم حيدر عذاب ماشي» من ضباط الاستخبارات في الجيش العراقي ومعه عدد من الجنود العراقيين اعتدوا يوم ٢٤ تموز (يوليو) ٢٠١٠ على أحد سكان المخيم وهو «غلام حسين نيكو» بالضرب والشتائم بحيث أصيب بشدة في يده.

٣- وسبق ذلك بعدة أيام هدد حيدر عذاب شخصاً آخر من سكان مخيم أشرف وهو «محمد أفضليان» بالقتل وحاول اعتقاله واختطافه ولكنه فشل في ذلك.

٤- إنه ومع عدد من القوات العراقية يدخل في مختلف الساعات ليلاً ونهاراً مقرات عمل وإقامة سكان المخيم برغم احتجاجهم على ذلك ويهددهم بالاعتقال والقتل ويشجع سكان المخيم بكل وقاحة على الانضمام إلى النظام الإيراني، كما

يقوم وبطلب اللجنة بإعداد وإرسال تقارير كاذبة عن الموقف في أشرف.

٥- أن حيدر عذاب هو أحد ضباط الارتباط للجنة القمع مع عناصر وزارة مخابرات النظام الإيراني في باب مخيم أشرف ويقوم بتوفير التسهيلات الضرورية لهم بأمر من سفارة النظام الإيراني ولجنة القمع. وهو الذي قام يوم ٢٧ تموز (يوليو) ٢٠١٠ ولغرض تأزيم وتصعيد الموقف بدفع هؤلاء العملاء إلى داخل مخيم أشرف ونشرهم في ساحة «سين» في المخيم، ولكن إثر احتجاج سكان المخيم على ذلك اضطرت القوات العراقية إلى سحبهم.

٦- وفي الوقت نفسه وخلال يومي الأربعاء والخميس ٢٨ و٢٩ تموز (يوليو) ٢٠١٠ نقلت مخابرات الملالي الحاكمين في إيران وللمرة الثانية عدداً من عملائها إلى العراق ليتمركزوا في مدخل مخيم أشرف. أن الفاشية الدينية الحاكمة في إيران وإثر فشلها في تجنيد وتوظيف عوائل سكان أشرف قد اضطرت إلى جعل حفنة من عناصر المخابرات وقوة «قدس» الإرهابية يتناقلون بالتناوب بين أشرف وإيران.

إن هذه التحركات القمعية والمزعجة تأتي في وقت سافر فيه الحرسي علي لاريجاني رئيس برلمان النظام الإيراني يوم الثلاثاء ٢٧ تموز (يوليو) ٢٠١٠ إلى مدينة كرمانشاه (غربي إيران) ومضيق «شهار زبر» غربي المدينة المذكورة بهدف تكثيف المؤامرات والإجراءات ضد أعضاء منظمة مجاهدي خلق الإيرانية في مخيم أشرف.

إن نظام الملالي الحاكم في إيران وإثر إصابته بخيبة أمل تامة وغيظ شديد من نتائج الانتخابات العراقية والإقبال العام في العراق على البديل الوطني وإثر فشله في إيصال عملائه في العراق إلى السلطة، يحاول استغلال الظروف السياسية الهشة وغير المحسومة السائدة حالياً في العراق لفرض مزيد من الضغوط والمضايقات والضربات على سكان مخيم أشرف طالما تكون حكومة المالكي قائمة على السلطة في العراق.

إن المقاومة الإيرانية تلفت انتباه الإدارة الأمريكية والقوات الأمريكية في العراق والأمين العام للأمم المتحدة وممثله الخاص في العراق إلى المحاور المذكورة أعلاه وتطالب بعودة القوات الأمريكية إلى داخل أشرف وضمان حماية سكان المخيم من قبل هذه القوات وتمركز فريق مراقبة تابع ليونامي في أشرف والتزام جميع الجهات بحقوقهم باعتبارهم محميين بموجب اتفاقية جنيف الرابعة وذلك لتفادي وقوع كارثة إنسانية جديدة.

وفي المرفق المادة نفسها للتفضل بالاطلاع والنشر

محمد إقبال-مجاهدي خلق الإيرانية-أشرف

يجرى هذا دون أن تحرك الولايات المتحدة صاحبة السلطة الحقيقية بالعراق

ساكنا تاركة عناصر مجاهدى خلق يواجهون مصيرهم دون أى حماية .. فيما أوصت دراسة أعدها المعهد الوطنى لبحوث الدفاع الوطنى الأمريكى أجراها ايرميا غولكا وليديا هانسيل واليزابيث ويلكه وجوديث لاسون تحت رعاية مكتب وزير الدفاع الأمريكى فى نوفمبر عام ٢٠٠٩ بأن يشجع المسئوولون الامريكيون حكومة العراق لتامين التخلص الجغرافى من مجاهدى خلق بالاسلوب الذى يلبى المعايير الدولية ومعايير حقوق الانسان وهو ما تريده ايران التى يبقى هاجسها الأكبر بقاء تلك المجموعة منزوعة السلاح على حدودها مع العراق حيث تحاذى محافظة ديالى حدود إيران الغربية .

٢ - أمريكا

ما يحصل في العراق منذ اجتياحه عام ٢٠٠٣ يتطلب قراءة لا تقلل من أهمية ترابط الجرائم وتوقيتها التسلسلي ووظائفها وما أدت إليه في النهاية من محصلة عامة تؤشر إلى انقسامات مذهبية تأسست بداية على مبدأ الجريمة وقتل الأبرياء وتخويف الناس وإرهابهم وإجبارهم للنزوح ومغادرة مناطقهم إلى مواطن متجانسة طائفياً أو عرقياً أو قومياً.

وبهذا المعنى الميداني تبدو الجرائم المتتابعة حلقات متواصلة في سلسلة دموية منظمة تستهدف تحطيم وحدة العراق وإلغاء هويته ودوره وموقعه ومنعه من العودة إلى محيطه العربى واستعادة قوته السياسية والاقتصادية مستندا إلى إمكانياته الإقتصادية والبشرية الهائلة والرصيد التاريخى كدولة حضارية ذات تاريخ ضارب فى القدم مثلت مسلة حمورابى فيها حجر الزاوية لأول قانون عرفته البشرية ومثلت الكتابة المسمارية واحدة من أنضج الحضارات التى ابتكرت الكتابة والعلم .

تشكلت هذه الغاية في ضوء تفاعلات استراتيجية الاحتلال منذ اليوم الذي دخل فيه الجيش الأميركي بغداد فى ٩ ابريل عام ٢٠٠٣ الذى أصبح يوما للإستقلال يحتفل به بعض العراقيين على الأقل رسميا حتى أنه جرى تغيير أحد الأحياء شرقى بغداد من « ٧ نيسان» وهو يوم تاريخى لحزب البعث الذى حكم العراق برئاسة صدام حسين إلى « ٩ نيسان» وهو يوم دخول القوات الأمريكية قلب بغداد وما شهده من أعمال نهب للمتاحف والمكتبات والجامعات وحرق للمؤسسات والوثائق ومطاردة للعلماء والأساتذة والأطباء ، وكل العاملين في حقول الهندسة والبناء، لا يمكن عزلها عن تلك الوقائع اليومية التي عصفت بالعراق وأدت إلى تقويضه وتحطيمه وشرذمته إلى دويلات طوائف ومذاهب.

وهذه الغاية التي خطط لها الاحتلال لا تكترث كـثيراً للأبريـاء والمصلين والآمنين والمدنيين، ولا تهتم كثيراً بالجهة التي تقترفها والقوى المتضـررة منهـا مادامت تؤدي الجرائم وظيفتها المحددة .. فالغاية الأميركية كانـت ولا تـزال ليس نشر «الديمقراطية» وفضائل «الليبرالية» وتداول السلطة سلمياً وإنمـا هـي تقويض الدولة وتفكيك البلاد وفرز الطوائف والمـذاهب وتوزيعهـا قهـراً علـى كانتونات (وحدات ذاتية) تتزاحم على احتلال المواقع والمناصب والمغانم وهو مـا بدا جليا خلال السنوات التى تلت الاحتلال حتى فى ظل أنضج تجربة كان يمكن أن يشار اليها بالبنان وهى تجربة الانتخابات النيابية التى جرت فى السـابع مـن مارس عام ٢٠١٠ والتى قهر العراقيون فيها مخاوفهم وخرجوا جماعات وأفرادا فـى كافة مناطق البلاد ليصوتوا للمشروع الوطنى بعيدا عن الاصطفافات الطائفيـة والتخندقات المذهبية إلا أن ما أفرزته النتائج بعد ذلك من عدم تقدم أى كتلـة سياسية بأغلبية مريحة جعل الأمور تراوح مكانها ؛ لتنقلب الديمقراطيـة ، ترتـد النشوة لتستحيل كابوسا قاتما فى صراع محموم على السلطة والأحقية فى تولى مقعد رئاسة الحكومة وما يعنيه من توزيعات فى المناصب الأخرى وزاريـا وإداريـا لعدة أشهر وهو ما أدى إلى انتشار جرائم القتل التى تتسم بالكراهيـة والعبثيـة وعدم الاكتراث للضحية مرة أخرى بعد أن هدأت قليلا أملا فى الخروج من النفق المظلم الذى كرسته الحقبة الطائفية فى زمن المذبحة والتى بات مـن الصـعب تفسيرها أو تحليلها أو ضبط الجهة التي تقف وراء تشجيعها وتمويلها وتسـهيلها، لأنها ببساطة عدمية في منطقها السياسي وهي في مجموعها تؤكد أن الاحـتلال هو الطرف المباشر المسئول معنوياً وأخلاقياً ودولياً عن كل الكوارث الـتي أفرزهـا زمن المذبحة .

وكما يؤكد مراقبون محايدون أن ادعاء واشنطن عدم علمها بالجهات المنفذة للعنف لا يرفع عنها المسئولية ولا يضعها في خانة الطفل الـبريء، لأن المواثيـق والمعاهدات الدولية واضحة في فقراتها فهي تشير دائماً إلى المحتل بصـفته القـوة التي فتحت الباب لمرور المجرم والجرائم.

فالاحتلال الأمريكي هو المايسترو الذي يتحكم بخيوط اللعبة ويوزع الأدوار من دون اكتراث للفاعل أو المفعول به وما يحصل في بغداد وباقى المناطق العراقيـة لا يمكن عزله عن مظلة الاحتلال وتشعباتها وامتداداتها الأخطبوطية وما تمثله من مواقف سياسية غامضة تتقصد إضعاف هذا الطـرف وتقويـة ذاك ثـم تقويـة الضعيف وإضعاف القوي ثم خلط الأوراق وبعدها فرزها وإعادة فرز الصناديق ثـم

توزيعها في لعبة موت عبثية لا منطق لها حتى تصبح كل الأطياف في حال استنفار وتوتر وخوف... وأخيراً الاستعداد للانتحار الذاتي والجماعي.

وقد اعتبر معهد شبكة العلاقات الدولية والأمن الذي يتخذ من زيورخ مقرا له في تقرير تحت عنوان «بغداد مقسمة»، للباحث كلوديو جولر أن الحرب الأهلية العراقية، كانت قبل كل شيء، تدور بسبب تغير السلطة في البلاد التي نشب فيها العنف بعد الغزو، والخرائط التي أعدها الباحث مايكل ايزادي لدى معهد جامعة كولومبيا للشؤون الدولية والعامة، اعتبر أن الطائفية التي نشأت في بغداد في فترة ما بعد الغزو، تؤكد هذا التغيير الجوهري.

وذكر التقرير أن المجموعات الخمس من الخرائط، والتي حملت عنوان «الجماعات الاثنية في بغداد»، تظهر التطهير الطائفي الكلي، والعزل المذهبي الذي شهدته بغداد خلال العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧.

وأشار التقرير إلى أن العملية العسكرية الأمريكية في بغداد التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن تحت اسم «الطريق الجديد إلى الأمام» في العاشر من شهر كانون الثاني/يناير العام ٢٠٠٧، تضمنت ثلاثة عناصر، أولها إصلاح التكتيكات العسكرية التي أجراها القادة الأمريكيون الميدانيون، بالتركيز على حماية السكان المدنيين، واعتماد خطة «طهّر ثم حافظ على الموقع ثم ابني» بدلا عن استراتيجية «طهّر» البدائية لمكافحة التمرد.

إما العنصر الثاني فكان احتضان العملية الأمريكية، بنجاح، لحركات الصحوة السنية [1]، فيما كان العنصر الثالث إرسال الجزء الأكبر من الجنود الإضافيين الذي وصل عدده إلى ٢٨ الفا، إلى مدينة بغداد.

واعتبر التقرير أن العنصرين الأولين ساعدا على ضبط إراقة الدماء، أما الثالث، فلعب دوراً هامشياً في إخماد البؤر الملتهبة، مشيرا إلى أن تحالف «الصحوات» بقيادة الشيخ عبد الستار أبو ريشه والذي انطلق في العام ٢٠٠٦ وكسب زخماً كبيراً غير عادي، بعد أن لعب دوراً أساسيا في إنهاء تواجد تنظيم القاعدة أو على الأقل تقليص نفوذه بنسبة تصل إلى ٩٠ فى المائة وكذلك إنهاء تواجد الميليشيات فى معظم المناطق ومن ثم تقليص فرص تطور الحرب الأهلية

---

(١) حركات الصحوة هي مجموعة مسلحة تشكلت من رجال العشائر السنية في المناطق التي كان يسيطر عليها تنظيم القاعدة وتمكنت بدعم أمريكي من هزيمة عناصر القاعدة وفرض الأمن في مناطقها إلا أنها تحولت إلى عبئ لا تستطيع الحكومة العراقية تحمله بسهوله .

العراقية التى انطلقت على أساس طائفى بعد دعوة زعيم تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى إلى قتل الشيعة « الروافض» .

وأشار إلى أنه مع انقضاء العام ٢٠٠٦ والدخول في العام ٢٠٠٧، احتضنت الولايات المتحدة «الصحوات» ووضعتهم على قائمة رواتب «العم سام»، وشجعت العشائر على التوقف عن إيواء القاعدة، كما حثتهم على تقليص استعمالهم للقوة.

وأضاف أن الخطة نجحت، وانه مع بلوغ شهر أيار/مايو ٢٠٠٧، كانت العشائر قد طردت معظم أفراد القاعدة، وحدت من عملياتهم القتالية، ما أدى إلى تراجع أعمال العنف.

واعتبر التقرير أن «مخاوف السنة من انتقام وهيمنة شيعية وشيكة» تقدم التفسير الصحيح لهذا التحول.

وبعدما اشار إلى أن بغداد كانت قبل الغزو، أكثر المناطق العراقية تنوعا اثنيا، أوضح أن ٨٠ في المائة من العنف في العراق ضرب العاصمة بغداد والمناطق المحيطة بها.

وبحسب التقرير، فان خرائط الدكتور إيزادي التي أعدت ميدانيا، أظهرت أنه منذ بداية العام ٢٠٠٦ إلى منتصف العام ٢٠٠٧، حيث مثل تفجير مقام الإمام العسكري في سامراء في شهر شباط/فبراير العام ٢٠٠٦ بداية الحرب الأهلية العراقية، طهر جيش المهدي وسائر المجموعات الشيعية المسلحة بغداد من السنة، عازلين من تبقى في معاقل سنية في الجزء الغربي من المدينة.

وقال إيزادي أنه «استناداً إلى عدد الجثث في بغداد، كان عدد القتلى السنة ثلاثة أضعاف عدد القتلى الشيعة»، مضيفا انه «بقي في بغداد التي كانت خلال الأربعينات مدينة سنية أساساً، مئات آلاف قليلة من المواطنين السنة في نهاية العام ٢٠٠٨، من أصل ٥ ملايين مواطن».

واعتبر «بالرغم من أن هذا مؤسف، لو لم يحصل قتل الشيعة الهائل للسنة، كما عملية التطهير الاثني والطائفي الشاملة، لما كانت اتضحت آفاق الصحوة السنية، ولما كان انتابهم شعور بالتدمير الوشيك وبإخضاع الشيعة لهم».

ورأى أن «العملية العسكرية الأمريكية كانت بمثابة إشارة نفسية بأن الولايات المتحدة قد تغادر وتترك السنة يتفقون مع الشيعة، بمفردهم. ومنذ العام ٢٠٠٣ حين نظر السنة إلى الولايات المتحدة وإلى قوات التحالف على أنهم أعداء يجب إخراجهم من العراق، وصولاً إلى العام ٢٠٠٧ حيث كان يُنظر إلى الأمريكيين كقوة وحيدة تفصل بينهم وبين ملايين الشيعة المنتقمين، حدث انقلاب تام في الموقف السني».

وذكر التقرير انه حين أعلن «جيش المهدي»، في شهر آب/أغسطس من العام

٢٠٠٧، وقفاً لإطلاق النار من طرف واحد، وهو قرار كان نتيجة دوافع متشعبة، ومن ضمنها ازدياد الضغط العسكري الأميركي، إلا أن التطهير الطائفي وما يترتب على ذلك من تغيير في ميزان القوى، كان قد اكتمل.

وخلص إلى القول انه مع حلول شهر أيلول/سبتمبر العام ٢٠٠٧، انتهت الحرب الأهلية العراقية، وانسحبت القوات الأميركية من المدن في الثلاثين من شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٩، لكن بغداد بقيت منقسمة.

وتساءل التقرير عما إذا كانت الحرب الأهلية في العامين ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ قد هيأت أرضية لديكتاتورية جديدة، هي ديكتاتورية الأغلبية، حيث ينقل عن ايزادي قوله أن «الكرد آمنون في جبالهم، ومستقلون منذ العام ١٩٩١، أما الشيعة فلهم منطقتهم مع قوتهم الجديدة، ويبقى السنة الذين يحتمل أن تكون أعدادهم تضاءلت ليمثلوا ١٢ في المائة من السكان العراقيين فقط (بعد هجرتهم الضخمة إلى سوريا والأردن)».

ولعل من الصعوبة بمكان الحديث عن أمريكا واحدة بالعراق فالإدارة الأمريكية على ما يبدو مقسمة بين أمريكا الرسمية التى تعلن عن خططها لنشر الديمقراطية فى الشرق الأوسط انطلاقا من العراق وأن ما تقوم به بلاد الرافدين يؤتى ثماره وينتج تحولات رائعة فى النمط المعيشى والفكرى .. بينما تظهر أمريكا أخرى ممثلة فى أجهزة المخابرات وشركات الأمن الخاص « المرتزقة الجدد» وتجار السلاح والمقاولون النهمون لالتهام الكعكة العراقية كاملة وغير ذلك من أصحاب المصالح الذين تظهرآثار أياديهم بقوة فى إدارة المذبحة العراقية .

كما أن ما حدث كان نتيجة أخطاء ساعدت على اتساع المذبحة ربما يعود جزء كبير منه إلى تعدد مراكز القرار ولجوء بعض صغار الضباط والمسئولين إلى اتخاذ قرارات فردية يرونها ضرورية فى أوقات حاسمة بدافع الخوف واستباقا لنتائج قد تكون سيئة إذا ما تم اتخاذ القرارات الخاصة بها ضمن سياق المرجعيات الإدارية والعسكرية .

• المرتزقة

يقول «بيتر سينجر» من معهد بروكينجز: أن المقاولين الخاصين كانوا يشكلون ثاني اكبر قوة عسكرية في العراق بعد القوه العسكرية الأمريكية، وانه تم استئجارهم بواسطة الحكومة في عدد من المهام المخصصة للعسكريين النظاميين، ومنها تامين الشخصيات، وفرض اتفاقيات السلام، وتدريب عناصر الشرطة والجيش في دول العالم الثالث، ويرجح تفضيل استخدام المرتزقة في الأساس لما يتمتعون به من خبرات قتاليه سابقه، حيث تقوم الشركات الكبرى الرائدة في هذا

المجال بنشر إعلانات احتياج حول العالم، مستخدمة كافة الوسائل الدعائية ومنها الانترنيت واضعة شروط وجود خبرة قتال لتقل عن خمسة سنوات، وتلاقي هذه الوظائف إقبال في عدد من الدول لارتفاع معدل الراتب المالي وبالتأكيد أن لا يشكل مقتل أي مرتزق عبئا على عكس الخسائر والقتلى في صفوف القوات النظامية على سبيل المثال عند قتل عدد من الجنود الأمريكان النظاميين في الصومال ١٩٩٣ خلال عملية «توفير الراحة» تحول الأمر إلى ثورة من الغضب لدى الأمريكيين مما أدى إلى اتخاذ قرار سياسي من الرئيس الأمريكي «كلينتون» بإلغاء المهمة بالكامل وإعادة الجنود إلى وطنهم على العكس من ذلك فإن أعمال القتل المستمرة بين المرتزقة الأمريكيين العاملين في حرب ضد عصابات المافيا وعصابات المخدرات لم تثر غضبا ولا ثورة في أمريكا واستمرت دون توقف.

وتشير التقارير إلى أن استخدام المرتزقة في السابق كان سرا إلا انه اليوم أصبح علنيا وتحت اسم متعهدين عسكريين خاصين يمارسون في الغالب معظم المهام الضرورية التي تمارسها الجيوش النظامية في ساحات الحروب، ولكن بادوار خفية وبمهام قذرة وبخسائر لا تحسب على الجهد العسكري العام، مما يصرف الأنظار عن حجم الخسائر الحقيقية في ساحة المعركة ومقدار الفشل العسكري والسياسي لحكومات هذه الدول .

• **بلاك ووتر**

شركة «بلاك ووتر» الشهيرة بحوادث القتل الإرهابي للمدنيين العراقيين هي شركة كبيرة لتجنيد المرتزقة من أي مكان ولأي مكان في العالم، ولها تاريخ اسود في الجرائم ضد البشرية في زيمبابوي - ساحل العاج - السودان - أفغانستان - العراق وتم بالفعل التوجه لتجنيد العراقيين للعمل كمرتزقة وبرواتب اقل بكثير من الأجانب وبمسميات وواجهات مختلفة، والتي لا تطالها منظمات حقوق الإنسان والقانون الدولي لأنها فوق القانون الدولي، ويتقاضى الفرد فيها راتبا يصل إلى عشرات الآلاف من الدولارات سنويا مقابل خدماته ، وبالأسلوب التجاري المخادع الذي يمارسه السياسيون الأمريكيون لتضليل الناس عن حقيقة هذه المرتزقة فإنهم يطلقون على هذه الشركات» شركات إدارة المخاطر وهو يجعلها تشبه الشركة التي مارست تجنيد المرتزقة في الثمانينات في أفريقيا والتي اتهمت بجرائم التمييز العنصري الفظيعة ، كما أن الأربعة المدنيين الأمريكيين الذين قتلتهم عناصر المقاومة العراقية في الفلوجة، لم يكونوا كما زعمت إدارة بوش متعهدين مدنيين ،

ولكن كانوا في الحقيقة خبراء ومدراء من شركة بلاك ووتر للاستشارات الأمنية العاملة في العراق، وكانوا أعضاء سابقين في قوات الأمن أبان الحكم العنصري بجنوب أفريقيا وان احدهم كان قد اعترف بجرائمه عندما قدم طلبا للعفو عنه إلى «لجنة الحقيقة والمصالحة» في جنوب أفريقيا، وتبدو كرد فعل شعبي لجرائم الاستجواب والتعذيب للمعتقلين العراقيين على أيادي العناصر الذين جندتهم شركة «بلاك ووتر» واستخدمتهم في استجواب وتعذيب المعتقلين العراقيين وكونهم مخضرمون في ارتكاب هذه الجرائم وعدد ليس بالقليل منهم صهاينة، وذكر الحاج علي القيسي منسق «جمعية ضحايا سجون الاحتلال» الذي تم تعذيبه بشكل وحشي أن المحققين الذين كانوا يحققون معه جميعهم صهاينة ومارسوا معه شتى أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهم أخبروه بأنهم صهاينة.

تدير شركة «بلاك ووتر» منشأة تدريب المرتزقة لتنفيذ المهام الأمنية وتقع على مساحة ٢٤٠٠هكتار مربع في مدينة «مويوك» شمال ولاية «كارولينا» ، ومن بين المرتزقة الذين يعملون في العراق يوجد حوالي أكثر من مئة من عناصر «الكوماندوز» عملوا في ثمانينيات القرن الماضي لحساب رئيس «شيلي» (اوجوستو بينوشيه) بالإضافة إلى أعداد كثيرة تقدر بحوالي عشرين ألف إلى ثلاثين ألف مرتزق معظمهم متورطون في ارتكاب جرائم ضد الإنسانية ، كما إزدهر سوق تجنيد المرتزقة منذ تولت إدارة بوش الابن السلطة في الولايات المتحدة ،ليس فقط بسبب خصخصة الجيش والحروب التي تبناها نائب الرئيس الأمريكي « ديك تشيني» ووزير الدفاع « دونالد رامسفيلد» . وإن تورط الولايات المتحدة في حربين إقليميتين في العراق وأفغانستان في اقل من ثلاث سنوات دليل واضح لحجم الفائدة المادية التي تجنيها هذه الشركات وفق استراتيجية خصخصة الحروب ، ولم يكن غريبا أن تزداد أرباح شركة «بلاك ووتر» منذ عام ٢٠٠١ الذي شنت أمريكا الحرب ضد أفغانستان بنسبة٣٠٠٪ ففي أكتوبر ٢٠٠٣ابرمت «بلاك ووتر» عقدا قيمته٧،٣٥مليون دولار للقيام بتدريب عشرة آلاف من المارينز السابق من فرجينيا وتكساس وكاليفورنيا كل عام على فنون حرب العصابات ، يطلق عليها المسؤولون في شركة بلاك ووتر تسمية عملية التدريب هذه «حماية القوات» وقد مارس المرتزقة العاملون في العراق أعمالهم الإجرامية روتينيا بما يخالف القوانين الدولية، والقوانين العسكرية الأمريكية التي تنظم وتحكم «قواعد الاشتباك والسلوك» أثناء الحرب وفيما بعد الحرب في المناطق المحتلة، حيث استخدم المرتزقة استخدموا طلقات لها خاصية الاختراق النسبي للدروع ضد الأفراد» ، وهذه الطلقات تم خطر

استخدامها بواسطة الجيش الأمريكي لما تحدثه من معاناة وعذاب ودمار لمن يصابون بها نتيجة تفتيت الأعضاء الداخلية من أجسادهم وقد أثار هذا النوع من الذخائر المحرمة جدلا واسعا في الأوساط الأمريكية المعنية ، ولان هذه الذخائر المحرمة إذا وقعت بأيادي المرتزقة الذين كانوا في السابق يعملون في فرق القوات الخاصة الأمريكية، واستخدموها بعد ذلك فعلا عندما أصبحوا مرتزقة فإنهم يعرضون أنفسهم بذلك للمحاكمة العسكرية لأنهم يعلمون أن هذه الذخيرة المحرمة، لم يصادق الجيش الأمريكي على استخدامها لمخالفتها المعايير القياسية المعمول بها .

تفجرت فضيحة أبي غريب وكشف النقاب عن أن المرتزقة الذين استأجرهم «البنتاجون» عبر شركات الخدمة العسكرية الخاصة قد شاركوا في استجواب وتعذيب المعتقلين العراقيين لانتزاع الاعترافات منهم بالقوة، وهذا الاختيار من البنتاجون يشير إلى خلل حقيقي في نضوج مقومات المؤسسة العسكرية الأمريكية ومهنيتها واكتفائها الذاتي، وخصوصا في مثل هذه المهام الحساسة والناتج من الافتقار للعناصر العسكرية النظامية لتقوم بمثل هذه المهام ، ويقول : «جاري سوليز » خبير جرائم الحرب في جامعة «جورج تاون» لقد تم الآن إلغاء الكثير من الوظائف الحساسة في الجيش، لدرجة أنهم عندما يحتاجون إلى متخصصين مدربين في بعض التخصصات العسكرية الحرجة لا يجدونها، وان معظم الباقين في القوات الأمريكية أصبحوا أفراد الجيش العاديين(جاذبي زناد البندقية-) مما يدفع قيادات الجيش إلى الاعتماد على المتعاقدين المتخصصين من رجال الجيش سابقا والمرتزقة حاليا،والمرتزق الذي يستأجره البنتاجون يدفع له ثلاثة أضعاف مرتب الجندي الأمريكي النظامي، الذي من المفروض يدين بالولاء القومي الوطني العسكري، ويرجح «سوليز» أن المشكلة سببها فشل إدارة بوش في التخطيط لمواجهة الازمات الطارئة في العراق لاسيما ما كان متوقعا من بروز المقاومة العراقية بسرعة وفعالية من جراء الاحتلال الأمريكي للعراق، وما واكب ذلك من قرارات نفذها الحاكم المدني وكما وصفها «وولفويتز» نائب وزير الدفاع الأمريكي السابق بأن إلغاء القوات المسلحة العراقية وملاحقة عناصر حزب البعث الذي أوجد فراغ سياسيا وامنيا كبيرا في العراق .

• أزمة

واجهت قوات الاحتلال ودوائرها السياسية اكبر أزمة سياسية وعسكرية في حروبها، وكان للشماعة الأمريكية التي تعلق على الورش العاملة معها من ذوي الأصول العراقية في أروقة البنتاجون الذين صوروا لهم احتلال العراق نزهة ستكلل

باستقبال الورود والأزهار من الشعب العراقي أوقعهم بالفخ كما يقولون! وهل ينجح هؤلاء العملاء باستدراج أمريكا وإقناعها بالزحف الزمني لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد وهل هو من وحيهم أم استراتيجية أمريكية (مشروع القرن الأمريكي الجديد) انطلاقا من العراق كرأس جسر إلى الدول العربية والإسلامية وشواهد الأحداث دلاله لتقبل الشك، و اعتمدت الإدارة الأمريكية على استخدام المرتزقة كسوق تجار الحروب تشيني و رامسفيلد ومستشارين آخرين بان تجنيد ١٥٠٠٠من المرتزقة المتوحشين وتوزيعهم على المناطق الساخنة في العراق كفيل بالقضاء على المقاومة العراقية، وإخضاعها من خلال تنفيذ عمليات مشبوهة تنسب إلى المقاومة ومحاولة الاختراق وتصفية قيادات وعناصر المقاومة، والمشاركة الفعلية مع القوات النظامية في العمليات الكبرى مثل تدمير المدن العراقية الرافضة للاحتلال وكذلك ارتكاب الجرائم الفظيعة، ويوضح خبير جرائم الحرب في جامعة «جورج تاون» سوليز على خلفية هذه التوصيات قائلاوفي حقيقة الأمر أن هذا الأسلوب في الاعتماد على المرتزقة في إخضاع الشعوب تحت الاحتلال قد سبق وان نجح مع تشيني في «بورما»، ومع كسينجر في «اندونيسيا» و«شيلي»ومع «رومي» في الحرب العراقية الإيرانية، ذلك أن الكثير من الجرائم التي ارتكبتها المرتزقة في العراق، سبق لمرتزقة شركة هاليبرتون في بورما أن نفذتها عندما كان تشيني رئيسها.

يشير تقرير لمعهد «معهد الدقة العام» أن شركة «هاليبرتون» التابعة لنائب الرئيس الأمريكى السابق ديك تشيني حققت فائدة هائلة من المشاريع التي تقوم بها حول العالم ، والتي تم أدانتها على نطاق واسع بسببما تسببه من أساءه لحقوق الإنسان وتدمير البيئة تدميرا كاملا، وتوجد أمثله كثيرة على ذلك منها القيام بإعمال مع شركة خطوط أنابيب» سيئة السمعة في «بورما» فقد تسبب مشروعها في تدمير البيئة، وارتكبت هناك المرتزقة جرائم بالغة الخطورة بحق الإنسانية كأعمال القتل والاغتصاب والقهر وإجبار السكان على ترك أماكن أقامتهم والهروب إلى مناطق أخرى بعيدا عن عمل هذه الشركة ، وهو مشابه تماما لما يجري في العراق من جراء الاحتلال وعبث المرتزقة، وتتراوح رواتب المسلحين المأجورين من المرتزقة حسب اختصاصاتهم وجنسياتهم ويبقى الأمريكيون البريطانيون أغلاهم سعرا، وهذا يحث الكثير من عناصر الجيوش الغربية الاستقالة والالتحاق بشركات المرتزقة لارتفاع نسبة الرواتب عن الجيش النظامي أربع أضعاف رواتبهم في الجيش النظامي، وفي محاولة من الإدارة الأمريكية لتجميل عمل شركات المرتزقة تصفهم بأنهم (مقاولون أو متعهدون) وبالحقيقة توكل

أليهم مهام قتالية قذرة، وأن القانون الدولي وجميع القوانين العسكرية والوطنية في جميع دول العالم تحرم نشاط الارتزاق العسكري- واتفاقيات جنيف-بما فيها ألاتفاقيه الرابعة تسقط من حسابها الأسرى في زمن الحرب من المرتزقة باعتبارهم أسوأ فئة من مجرمي الحرب، وهو ما يعني أن أي من بنود الاتفاقيات لا تنطبق عليهم.

• الأدوار القذرة

أدت شركات الخدمة العسكرية الخاصة دورا قذرا وحشيا في العراق وارتكبت جرائم بحق الشعب العراقي يندى جبين الإنسانية من ذكرها، و نمطية عملها وتاريخها الدموي في الصراعات الإقليمية وأدوارها المشبوهة التى يمكن إحصاؤها بسهولة حيث كانت قوات المرتزقة تعمل جنبا إلى جنب القوات النظامية خلال العمليات العسكرية لغزو العراق وشاركت أيضا في حملات عسكرية «حرب الفلوجة» و«النجف» وغيرها من العمليات الحربية التي استهدفت المدن العراقية بالإضافة إلى المشاركة في تنفيذ عمليات النهب والسلب وحرق مؤسسات الدولة العراقية والمصارف الوزارات والقصور الرئاسية وسرقة الآثار أثناء احتلال بغداد.

كما قامت تلك الشركات بالسيطرة على المواقع المهمة استراتيجيا واقتصاديا، والمشاركة في تعذيب المعتقلين الأسرى العراقيين وانتزاع الاعترافات منهم بوسائل وحشية كما تناولته وسائل الإعلام بالإضافة إلى تامين الحمايات الشخصية للموظفين والعاملين مع دوائر الاحتلال وبعض من الأشخاص ذوي الأصول العراقية ومواكبتهم في تنقلاتهم، وارتكبوا جرائم ومجازر كثيرة بحق المدنيين الأبرياء العزل من جراء تلك الأعمال وكذلك تامين الحماية لقوافل الإمداد اللوجستي لقوات الاحتلال وحماية المنطقة الخضراء والمطار وغيرها من الأماكن المهمة التي تتواجد فيها دوائر الاحتلال.

ولعل من أهم الأدوار التى قامت بها هو تنفيذ مهام التصفيات الجسدية ذات الطابع السياسي والاعتقالات ومتابعة واستهداف وتصفية قيادات ومفاصل المقاومة العراقية وكذلك تنفيذ التفجيرات وسط حشود المدنيين بوسائل متطورة وتوصف أحيانا سيارة مفخخة أو حزام ناسف..الخ ، لإذكاء الفتنه الطائفية أو أحداث تغيير تكتيكي سياسي يوظف إعلاميا.

كما قامت تلك الشركات بتنفيذ عمليات القتل العشوائي ضد المدنيين في مناطق معينة للإيحاء أنها أعمال ذات طابع طائفي ، وتم كشف عدد من عناصر

المرتزقة على طريق اللطيفية الحلة وعلى طريق أبي غريب الفلوجة وفي البصرة على طريق القرنة البصرة يرتكبون تلك الجرائم، وتم التعتيم عليها إعلاميا رغم تناولها من قبل عدد محدود من وسائل الإعلام ومواقع الانترنت.

كما لا يمكن غض النظر عن عمليات السرقات الكبرى للمصارف العراقية وعمليات الاختطاف والقتل والهجمات المنسقة الخاصة وعمليات التصفية الجسدية لائمة الجوامع وتدمير وحرق بيوت الله واستهداف المصلين بالتعاون والتنسيق مع المليشيات الطائفية الإرهابية الممولة من إيران

وهناك الكثير من الأعمال الدموية الوحشية ترتكبها هذه الشركات بدون حساب أو مساءلة قانونية وبحصانة وصلاحية اكبر من حصانة الجندي الأمريكي النظامي التي لا تضاهيها أي حصانة قانونية في العالم تبيح لهم إزهاق أرواح الأبرياء دون مسائلة قانونية. حيث ترتبط شركات الخدمة العسكرية الخاصة بوزارة الخارجية الأمريكية وتقبل معدلات عناصرها في العراق أكثر من ١٤٥ ألف من غير العراقيين .

• **الخيار السلفادوري**

كثيرة هى الحكايات عن تورط جهات أمريكية رسمية فى إدارة المذبحة خاصة فى الحقبة الطائفية إلا أن الحصول على وثائق تؤكد تلك الحكايات ربما يبدو ضربا من الخيال حاليا إلا أنه قد يصبح أمرا ممكنا فى وقت لاحق[(١)] وإذا كانت أجزاء سابقة من الكتاب قد حملت دلالات لا تقبل الشك من شهود عيان فى زمن المذبحة إلا أننى سوف أستند فى هذا الجزء إلى تقارير صحفية منشورة حيث كشفت مصادر صحفية فرنسية عن أن فضيحة أشد سوء من فظائع وفضائح أبو غريب هذا السجن العراقى الذى جرت فيه أبشع انتهاكات لحقوق الانسان . وقالت مجلة (ماريان) الأسبوعية الفرنسية أن تلك الفضيحة الجديدة تتعلق بميليشيات غير نظامية مدعومة ماليا وعسكريا من قبل البنتاجون ، مهمتها زرع الموت والدمار والقتل في العراق.

وأضافت (مارايان) الفرنسية في مقال كتبه الصحفي رافائيل ميريكي: أن

(١) أكدت الوثائق التي نشرها موقع ويكيليكس تورط أمريكا في أعمال العنف بشكل مباشر وغير مباشر من خلال عمليات التعذيب وتغاضيها عن معلومات تؤكد تورط السلطات العراقية في أعمال عنف وتعذيب .

الأمريكان في العراق يعاودون التجارب المرة للحروب الاستعمارية..

وبالنسبة لواشنطن فإن الجيش الذي لا يكسب الحرب فانه خاسرها ونظرا لحالة اليأس التي يعيشها منظرو البنتاجون إزاء إخفاقاتهم المتكررة وخيبة أملهم بما يتعلق وقابليات الجيش العراقي الجديد والذي بلغت تكاليف تدريبه الخمسة مليار دولار.

فإن هؤلاء بدأوا يقامرون بمغامرات خطيرة جديدة وهي إقامة ودعم وتشجيع عصابات غير نظامية إضافة إلى ميليشيات بارزاني - طالباني ، أو تلك الموالية لإيران والتي يستخدمها المحتل في ضرب المقاومة. وقد قال رامسفيلد عن هذه العصابات بأنها الوحيدة القادرة على إنهاء الإرهاب.

وتابعت الصحيفة الفرنسية تقول انه في خريف ٢٠٠٤ وقد يكون ذلك بسبب انتخابات ديسمبر ٢٠٠٥ بدأت هذه العصابات بالانتشار والاتساع بشكل رهيب والتي قال عنها المحتل الأمريكي إنها تتكاثر كالفطريات فيما استطاع مراسل (وول ستريت جورنال) كريك جاف، تعداد ما لا يقل عن ١٢ عصابة مسلحة بتسليح جيد وذي بنية لا بأس بها.

وأضافت المجلة الفرنسية تقول أن الجنرال الأمريكي داوننغ وهو قائد سابق للعمليات الخاصة قارن هذه العصابات التي يمولها الاحتلال الأمريكي في العراق بفرق الموت في جمهورية السلفادور في ثمانينيات القرن الماضي ..مشيراً إلى أن أمريكا قررت القيام بالشيء ذاته في العراق والاعتماد على (الخيار السلفادوري).

وأوضحت (ماريان) الفرنسية انه من يقوم بتطبيق الخيار السلفادوري بالعراق هو الجنرال بيتروس المعني بتدريب الجيش العراقي وهو الذي يسلح ويمول ويدرب هذه العصابات التي ما هي إلا ميليشيات خاصة تعهد إليها العمليات القذرة التي لا يريد الجيش المحتل القيام بها والتي تكبده تكاليف باهظة في المعدات والجنود.

ومضت المجلة الفرنسية الأسبوعية تقول أن لهذه السياسة نتائج خطيرة جداً إذ أن تكاثر واتساع هذه العصابات بدعم من البنتاغون تضيف إلى الحرب حرباً وتشعل أوار النعرات والأحقاد الطائفية، وقالت أن الفوضى وصلت إلى الحد الذي

لم يعد فيه ممكنا التعرف على الجهة أو الطائفة التي تنتمي إليها الجثث المجهولة الهوية والتي غالباً ما تلقى في نهر دجلة.

وأضافت (ماريان) أيضا أن جورج بوش يعرف جيدا بان عصابات القتل والموت هذه يقودها اصدقاء وأقارب الوزراء المعينين من قبل المحتل الذي يقدم لها الغطاء والدعم المعنويين إضافة إلى الإفلات من اية مساءلة أو حساب.

وأوضحت (ماريان) تقول أن من ضمن قادة هذه العصابات المدعو عدنان ثابت

٦٣ عاما تلقى خبراته العسكرية في الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا كان يعمل سابقا في المخابرات وشارك إياد علاوي في محاولة الاغتيال الفاشلة التي استهدفت الرئيس صدام حسين وقد حكم عليه بالسجن المؤبد إلا أنه تم إصدار قرار العفو عنه عشية العدوان الأمريكي. وقالت أن (عدنان ثابت) أنشأ في أكتوبر عام ٢٠٠٤ وبيركة ابن أخيه وزير الداخلية في الحكومة العراقية المؤقتة والمعينة من قبل الاحتلال، ميليشيا قوامها ١١٠٠٠ عنصرا أطلق عليها اسم مغاوير العمليات الخاصة والتي تعد ثاني قوة عسكرية في العراق تفوق عددا القوات البريطانية.

وقالت المجلة الفرنسية أن جلال طالباني لم تعجبه هذه العصابات وطلب من وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد إنهاء وجودها أو تغيير قائدها إلا أن رامسفيلد رفض الطلب.

وأشارت المجلة إلى أن هذه الميليشيات شاركت في جميع الهجمات العدوانية التي شنها المحتل الأمريكي علي مدن وقرى العراق وخاصة فى الرمادي والموصل وبغداد موضحة انه بهدف إرهاب المقاومة والكلام مقتبس نصا عن المجلة الفرنسية، فان عدنان ثابت ، كلف بعضها بإجراء دوريات في شارع حيفا وسط بغداد فيما تحتل فئات أخرى مدينة الفلوجة.. وكشفت المجلة أيضاً عن أن هذه الميليشيات تكبدت مالا يقل عن خمسين قتيلا وأكثر من ٣٠٠ مصاب. كما أن لتلك العصابات سجون خاصة سرية في كل من الموصل وبغداد حيث يقبع المئات وتمارس فيها شتى أنواع التعذيب والممارسات اللا أخلاقية ويتم عرض هؤلاء السجناء في برنامج (الإرهاب: يد العدالة) تبثه قناة «العراقية» وأكدت المجلة الفرنسية أن هذه القناة التلفزيونية تديرها شركة استرالية هي (هاريسون كوربوريشن) وهي بمثابة هدية قدمها البنتاجون لهذه الشركة والتي حظيت بعقود «إعادة إعمار» عملاقة في العراق مكافأة لها وكرد اعتبار لمبلغ ٢٦٠٠٠٠ دولار تبرعت به الشركة الاسترالية المذكورة لحملة بوش الانتخابية عام ٢٠٠٤.

وأكدت المجلة أن هذه القوات المدعومة من أمريكا تحمل في ثناياها بذور فتنة طائفية وعرقية مما سيؤدي إلى تصفية حسابات دموية.

ومضت (ماريان) تقول انه إضافة إلى هذه العصابات المسلحة فإن القوات الأمريكية هي الأخرى عمدت مؤخرا على إقامة ميليشيات مسلحة لاستخدامها الخاص فأنشأوا سرية من المرتزقة قوامها ٦١ عميلا شاركوا الفوج ال ٢٣ الأمريكي أثناء العدوان على محافظة الانبار.

وأكدت (ماريان) أيضاً : إن القائد المسؤول عن منطقة الدورة في بغداد سعيد

مالك يقوم بتصفيات واغتيالات على الطريقة السريعة لحساب الأمريكان وهؤلاء يردون إليه الاعتبار بمنحه عقود بناء ضخمة.. أما المحتل الأمريكي فإنه غالباً ما يطلب إطلاق سراح القتلة والمجرمين شريطة قيامهم بعمليات غدر وتجسس ضد (المتمردين الصداميين) وختمت (ماريان) الفرنسية بالقول وهكذا يستمر الاحتلال بتشجيع نخر المجتمع المدني العراقي حيث الميليشيات المسلحة والتي قوامها ٥٠٠٠٠ عنصرا تجول وتصول وهي تمارس القتل والدمار والتطهير العرقي دون حساب أو عتاب وتحت أنظار المحتل الأمريكي.

وفي نهاية يوليو ٢٠١٠ قرر قاض فيدرالي أميركي السماح لـ٧٢ مواطنا عراقيا بمواصلة دعاوى قضائية كانوا قد رفعوها عام ٢٠٠٨ ضد شركة خاصة قامت بتعذيبهم في المعتقلات التي يديرها الجيش الأميركي في العراق.

وأعطى القاضي بيتر ميسيت الضوء الأخضر لـ٧٢ مواطنا عراقيا لمواصلة تحركهم أمام القضاء في الدعاوى التي رفعوها عام ٢٠٠٨ ضد شركة بلاك ووتر » التي اتهموها بممارسة التعذيب ضدهم حين كانوا معتقلين، بحسب وكالة «فرانس برس».

ونقلت الوكالة عن نسخة حصلت عليها من قرار القاضي ميسيت جاء فيه «استنادا إلى الوقائع التي تم نقلها، يمكن التأكيد أن » خرقت قوانين الحرب بحيث لا تنجو من ملاحقات قضائية»، وأن «الشكوى لا تثير مسائل سياسية إذ أنها تستهدف شركة خاصة، ولا تثير بالتالي جدلا حول فصل السلطات».

يشار إلى أن الشركة الخاصة موضع الشكوى، تؤمن للجيش الأميركي مترجمين في السجون التي يديرها في العراق، ومنها سجن أبو غريب.

وكانت محكمة الاستئناف في واشنطن حكمت في قضية منفصلة في شهر أيلول ٢٠٠٩ بحفظ شكوى مماثلة رفعها معتقلون عراقيون سابقون ضد الشركة نفسها.

وعلق القاضي مبررا مواصلة المحاكمة انه «في زمن الحرب يسمح بأمور كثيرة لا تكون مسموحة في زمن السلم، لكن بعض الأفعال شنيعة أو بعيدة عن هدف الانتصار إلى حد تثير تنديدا عالميا».

من جانبها، قالت سوزان بورك وهي من المحامين الأمريكيين : إنه بفضل هذا القرار سوف يقدم هؤلاء الرجال الأبرياء إسهامهم في التاريخ الحقيقي لسجن أبو غريب المشؤوم.

فيما وصفت المحامية كاثرين غالاغر القرار بـ«المنطقي» ويقول بوضوح أن الشركات تحمل مسؤولية ما ترتكبه من أخطاء تستوجب التنديد في جميع إرجاء

العالم حتى لو كانت متعاقدة مع الإدارة الأميركية.

وما زال في وسع الشركة والجيش الأميركي استئناف القرار، ومن المحتمل أن تصل قضية سجن أبو غريب إلى المحكمة العليا في حال استمرار الخلاف في وجهات النظر بين مختلف المحاكم، ما سيرجئ صدور الحكم بعد ست سنوات على نشر صور يظهر فيها معتقلون عراة في أوضاع مذلة أو مكدسين أرضا.

ولم تخرج الملاحقات القضائية حتى الآن من الدائرة العسكرية، وجرت محاكمة ١١ جنديا أميركياً وحكم عليهم بعقوبات تراوحت بين بضع ساعات من العمل للمصلحة العامة والسجن عشر سنوات.

والمعتقلون السابقون الـ٧٢ الذين أطلق سراحهم جميعا دون أن توجه إليهم أية تهم اثر مدد اعتقال استمرت من شهر إلى أربع سنوات، يقولون أنهم خضعوا للضرب والتعذيب والتعديات الجنسية والصدمات الكهربائية والتعليق من القدمين، كما تم تهديدهم بالإعدام .

• المرتزقة الأفغان

يكشف المحلل السياسي الاستقصائي وين ماديسون، المقيم في واشنطن، وكاتب العمود في صحف ميامي هيرالد، وهيوستن كرونيكل، وفيلادلفيا انكوايرر، ومواقع كاونتر بنج، وكورب ووج، وأونلاين جورنال، وغيرها أن الولايات المتحدة «استوردت» المتمردين الأفغان لمصلحة (القاعدة في العراق). وقال إنه علم من مصادر استخبارية خدمت سنة ٢٠٠٧ في قاعدة (طليل) الجوية في العراق، والتي كانت تُسمَى من قبل قاعدة الإمام علي الجوية واحتلتها القوة الجوية الأميركية في وقت مبكر، أن أجهزة المخابرات الأميركية استوردت (مرتزقة أفغان) لدخول العراق بهدف مهاجمة المدنيين، وأفراد الجيش والشرطة العراقيين، وكذلك مهاجمة قوات التحالف، بضمنها جنود الجيش الأميركي. وأوضح أن هؤلاء المرتزقة الأفغان جُنِّدوا من قبل زعماء في طالبان، ودفعت لهم مبالغ ضخمة كنتيجة لـ(خدماتهم) في العراق. وأماط ماديسون اللثام عن علمه أن الشرطة العراقية أوقفت خلال سنة ٢٠٠٧، شاحنة تسحب مقطورة (تريله) طولها ٤٠ قدماً فوق أحد جسور بغداد. وعندما فحص ضباط الشرطة العراقيون مقطورة الشاحنة، اندهشوا لاكتشافهم بين ٣٠ إلى ٤٠ أفغانياً من عناصر طالبان. لقد قيل لهم إنهم جلبوا إلى العراق من قبل الولايات المتحدة الأميركية، وكُلفوا بمهمة إثارة المشاكل والفتن في العراق، والتي وصفت معظمها من قبل الجيش الأميركي بأنها (أعمال

مريبة) يقوم بها تنظيم القاعدة الجهادي في بلاد الرافدين، والتي تُشتهر على نطاق واسع باسم (القاعدة في بلاد الرافدين)!. وكان القادة العسكريون الأميركان الموجودون ساعة اكتشاف الشاحنة قد أمروا الشرطة العراقية بالسماح للمتمردين الأفغان بمغادرة جسر منطقة الكرادة من دون أية إعاقة. لقد عملت خلية طالبان في العراق –كما يبدو للمحلل السياسي- بموجب خطة سرية بغطاء أميركي لمواجهة خلايا جيش المهدي التي كانت تزرع القنابل في طرق القوات الأميركية.

وفي ٩ أبريل/نيسان سنة ٢٠٠٩، علم ماديسون من مقاول عسكري خاص سابق مع الجيش الأميركي في العراق أن الولايات المتحدة كانت تعرف بالضبط هويات صانعي القنابل، وأرقام تلفوناتهم الخلوية ممن يعملون مع جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر. ويقول أديسون أن خلايا القنابل كانت مسؤولة عن تفجير الكثير من القنابل التي استهدفت السُنَّة وجنود قوات التحالف، بضمنهم الأميركان. ويؤكد أن فشل الجنرال ديفيد بيتريوس، وجورج كيسي لعمل شيء ضد خلية صنع القنابل، كان يهدف إلى عدم تعريض اتفاقية تمديد اتفاقية الشهور الستة لوقف إطلاق النار بين قوات التحالف متعددة الجنسيات، وبين الميليشيات الشيعية سنة ٢٠٠٦.

ويقول أن واحدة من خلايا صناعة القنابل كان موقعها في منطقة الكرادة ببغداد، وهي المنطقة نفسها التي أوقفت فيها الشاحنة من قبل الشرطة العراقية. لقد حصل المحلل السياسي الأميركي على قائمة –بجزءين- وصلت إلى السلطات الأميركية من قبل خلية قنابل الكرادة. ولم تتخذ الاستخبارات الأميركية أية إجراءات بصدد ذلك، كأن تخبر جنود الجيش الأميركي لإعاقة عملية صنع القنابل التي تقوم بها المجموعة الشيعية شبه العسكرية. وفي الترجمة الإنكليزية لخلية صنع القنابل ذكر أحدهم الآتي: إسمي (فاضل سليم ناجي) في منطقة الجادرية ٩٢٣٤٣، بغداد، ورقم الموبايل ٠٧٩٠١٢٨٩٦٨٧. كنتُ قبل سنة ٢٠٠٣ عضواً في حزب البعث، و(منسّقاً) للحكومة العراقية مع الحكومة الإيرانية. ومنذ ذلك الوقت أعمل مع الحكومة الإيرانية بالتنسيق مع جيش المهدي. كان دوري تسلم الأموال لشراء أسلحة هذا الجيش من الاستخبارات الإيرانية، وتقديم طلبات الأسلحة. وموقع اجتماعي مع الإيرانيين، كان عند نقطة حدودية قريبة من مدينة ماراغين الإيرانية... وكنت أتلقى أوامري دائماً من مدينة الثورة «الصدر حالياً»، وفيها كنت أجري اتصالاتي بزعماء جيش المهدي.

أما (عقيل سلام حامد) الملقب بـ(الإيراني) والذي يقيم في منطقة الجادرية ببغداد، فكان يعمل مع أخيه (حسين سلام حامد) وكلاهما مسؤولان عن صنع

القنابل وتدبير أدوات زراعتها. ورقم هاتفه الخلوي (٠٧٧٠٢٦٦١٨٥) والرقم الأرضي (٧٧٨٦٤٩٥). وحسين مسؤول عن حساب المركبات العسكرية في منطقة الجادرية، وهو ضابط التخطيط الرئيس في تحديد الأهداف والبنايات والطرق التي يتم زرع القنابل فيها، ويضمن ذلك المتفجرات اللاصقة البلاستيكية التي تستخدم لمهاجمة الخصوم في أغراض شتى. لقد صنع مؤخراً القنبلة التي جرى تفجيرها في محل مرطبات بشارع الجادرية. أما رقم هاتفه فهو ٠٧٨٠٣٤١١٤٨٠. ويذكر ماديسون أسماء (فاضل دبوس) و(باسم حيدر) و(سالم) الاسم الأخير يُذكر مشفوعاً بالرقم ٢٣، وكان سالم قد أخبر من قبل حسين حامد أن أمامه ثلاثة أيام لترك عمله أو أنه وأفراد عائلته سوف يقتلون. وأوضح ماديسون أن رقم الهاتف الخلوي لفاضل ٠٧٩٠٦٧٦١٧٢٣ في مدينة الثورة (يقصد مدينة الصدر) وكان قد تلقى مكالمتين من حسين حامد في ٢٣-١٠-٢٠٠٧ و في ١١-١٠-٢٠٠٧. كما جرى تهديد زوجة فاضل دبوس من قبل حسن حامد أمام مبنى مدرسة خولة بنت الأزور في الجادرية. وقال أن (راند بدري) المعلمة المشرفة في المدرسة قتلت قبل أسبوع من قبل حسين سالم حامد، والذي قتل أيضا والدها المدير في المدرسة. ويبين المحلل السياسي أن هناك زعيماً آخر في جيش المهدي اسمه (فاضل) يحمل الهاتف الخلوي ذي الرقم ٠٧٨٠١٦٥٧٥٦٦. وأوضح أن منطقة زيونه ببغداد، كانت (موقع عمل اغتيالات يقوده حسين حامد) وبرقم الهاتف الخلوي ٠٧٩٠٢٢٧٢٨١٤. وكشف أن السيارة المرقمة ٢٦٨٨٨ بيضاء اللون، استخدمت لنقل عناصر الميليشيات من نقطة الحدود التي سبقت الإشارة إليها. وأورد ماديسون في تقريره اسم (سعيد حامد) الذي يستخدم رقم الهاتف الخلوي ٠٧٩٠٢٢٧٢٨١٤ أيضاً باعتباره (الجهاز التنفيذي) للعمليات التي يأمره بها حسين حامد، وهو مسؤول أيضا عن عمليات القتل والتفجير في المنطقة. ويخلص المحلل السياسي من تفاصيل تقريره إلى القول أن استعمال قوات العمليات الخاصة الأمريكية، ووكلاء الاستخبارات الأمريكية السريين لعناصر إرهابية من مقاتلي طالبان الذين يجلبونهم من أفغانستان، ولعناصر من متمردي جيش المهدي لتصعيد العنف الطائفي والعمليات الإرهابية في العراق يمثل حتى الآن (انتهاكاً صارخاً لمعاهدات واتفاقيات وقوانين مناهضة الإرهاب المحلية والدولية) مارسته إدارة (بوش-تشيني).

• الفساد

في ٢٧ يوليو من عام ٢٠١٠ ذكر مكتب المفتش العام الأمريكي لإعادة إعمار العراق أنه رغم إنفاق ملايين الدولارات لإعمار العراق، فان معظم هذه الأموال

اختفت دون أن تتمكن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) التي أدارت برنامج الإعمار من إعطاء تفسير حول مصيرها.

وندد المكتب في تقرير نشرته وسائل الإعلام بإدارة أموال إعمار العراق من قبل الوكالات العسكرية الأمريكية، التي أخفقت في الالتزام بالقواعد الأمريكية حول كيفية الرقابة على إنفاق هذه الأموال.

وأشار إلى أن الوزارة أخفقت في تقديم حسابات مصرفية بشأن ٩٦ ٪ من الأموال اي ٨,٧ مليار دولار من أصل الـ٩ مليارات التي حصلت عليها في إطار برنامج إعادة إعمار العراق في الفترة بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٧.

وذكر التقرير أيضاً أن الجيش الأمريكي ما زال يحتفظ بمبلغ ٣٤,٣ مليون دولار من هذه الأموال على الرغم من أن الواجب إعادته إلى الحكومة العراقية في ديسمبر /كانون الأول ٢٠٠٧.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه الأموال جاءت من عوائد النفط والغاز العراقي بالإضافة إلى بيع بعض ممتلكات صدام حسين وحاشيته.

ربما يتساءل القارىء الكريم ما العلاقة بين ضياع تلك المليارات والدور الأمريكى فى المذبحة العراقية والإجابة هى أن إشاعة ثقافة الفساد والإفساد لا تختلف كثيرا عن إشاعة ثقافة العنف والفتنة والقتل الأعمى فكلا الثقافتين نتيجتهما واحدة وهى تدمير المجتمع واستنزاف ثرواته المادية والبشرية وقد عرضت قناة الحرة عراق الفضائية يوم الخميس ٢٠١٠/٣/٢٥ برنامج الطبعة الأخيرة الذي يعرض مقالات وإخبار الصحافة الغربية.

وسلط مقدم البرنامج الضوء على ما نشرته صحيفة (نيويورك تايمز) عن تورط عراقيين وأمريكيين في قضايا فساد كبيرة تحت لافتات مشاريع إعادة أعمار العراق .

وعلق مقدم البرنامج على موضوع التحويلات المالية للمفسدين الأمريكان من المقاولين والضباط والجنود الأمريكان فأشار إلى اختلاف طرق تحويل الأموال من العراق إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وشرح طرق تحويل الأموال ومنها شراء الأراضي وقروض ووضع الأموال في المنازل وشراء العجلات الفارهة من طراز بي ام دبليو و همفي والإنفاق المجنون في الكازينوهات والملاهي الليلية .

وأضاف مع عرض مقالة صحيفة (نيويورك تايمز) على شاشة القناة أن

الطرق الأخرى في عمليات غسيل الأموال هي إخفاء الأموال في حسابات في البنوك الأجنبية في غانا وسويسرا وهولندا وبريطانيا .

وفي نهاية برنامج الطبعة الأخيرة تطرق مقدم البرنامج إلى أن مدير مكتب المفتش العام الأمريكي ستيورت بوين يرفض الكشف عن تفاصيل عمليات الفساد وغسيل الأموال في برنامج إعادة الأعمار العراقي والبالغة (٢٥٠ مليار دولار) .

وفي سياق متصل نشرت جريدة صوت العراق الصادرة يوم ٢٠١٠/٣/١٦ (الصفحة الثانية) خبرا حول الجرائم المالية حيث أشار (الخبر) إلى ما قاله ستيفن هوداك الناطق باسم جهاز مكافحة الجرائم المالية بوزارة المالية الأمريكية أنهم يضعون ما بين ١١٥إلى ١٦ مليون تقرير سنويا حول أنشطة مالية مشبوهة بما في ذلك ودائع نقدية تزيد عن عشرة آلاف دولار.

وأضاف أن المعاملات المالية تشمل تحويلات بنكية وشيكات وكازينوهات ومكاتب سماسرة أوراق مالية وشركات تامين مبينا أن جهاز مكافحة الجرائم المالية شارك في عمليات الفساد في برنامج إعادة إعمار العراق .

وفي الموضوع ذاته ذكر مختصون في مجال مكافحة الفساد أن الحكومات المتعاقبة الأمريكية والعراقية كانتا تدركان و تعرفان جيدا ماذا يجري في العراق بعد ٢٠٠٣/٤/٩ من عمليات فساد حيث مارست فيها شركات أمريكية وعراقية تابعة للبعض من كبار المسئولين في كلا الحكومتين عمليات غسيل أموال وفساد وهو ما يطلق عليه تضارب المصالح والفساد الخارجي وعولمة الفساد.

ولا يقتصر الفساد الذى ترعاه جهات أمريكية نافذة على ضياع الأموال فقط وإنما يتجاوزه إلى حماية المفسدين حيث اقتحمت القوات الأمريكية مركزا للشرطة في المنطقة الخضراء التى تخضع لنفوذها وأطلقت سراح وزير الكهرباء السابق أيهم السامرائي الذي يحمل الجنسية الأمريكية وهو متهم بقضايا فساد تصل مبالغها إلى أكثر من مليار دولار بينما قامت الحكومة العراقية بإطلاق سراح آلاف المتهمين بقضايا سرقة المال العام ، ولعل أبرزهم وزير التجارة عبد الفلاح السودانى أضف إلى ذلك أن المادة ١٣٦ ب من قانون أصول المحاكمات الجزائية(تسمح للوزير بغلق ملف الفساد) لا تزال سارية المفعول وان اغلب قضايا الفساد تغلق من قبل الوزراء في الحكومة .

وتؤكد التقارير ، الرسمية والصحفية ، الصادرة من داخل أمريكا أن عددا من الشركات الأمريكية العاملة بالعراق مارست وما تزال عمليات فساد مالي كبيرة لاسيما تلك المرتبطة بنائب الرئيس الأمريكي السابق ديك تشيني وإذا كان

بعض المسؤولين ورجال الأعمال العراقيين قد مارسوا فسادا ماليا فان المفسدين الأمريكيين علّموهم وجرؤّهم على ممارسة عمليات فساد ما كانوا ليجرؤا عليها بمفردهم .

والمعطى السيكولوجي الذي أحدثه الاحتلال لدى عدد من المسؤولين والموظفين ورجال الأعمال العراقيين أن لسان حال الواحد منه صار يقول : « ما دام المحتل ينهب العراق وليس له من رادع ..فلماذا لا أنهب أنا وطني».

ولقد خلقت سلطة الاحتلال أجواء نفسية شجعت على إشاعة الفسادين المالي والإداري ..والسياسي أيضا .فمع الاحتلال جاء الإرهاب ، وكاد أن يتحول الاحتراب الطائفي بين السّنة والشيعة إلى حرب أهلية ، وتحولت الحياة إلى فوضى ، وصار الناس لا يأمنون يومهم ويتوقعون الشر في غدهم .

وفي أجواء نفسية كهذه فان الناس تسيطر عليهم سيكولوجية « الحاجة إلى البقاء » التي من خصائصها أنها توجه سلوكهم نحو أية وسيلة تساعدهم على البقاء حتى لو كانت غير مشروعة وكان الفساد المالي هو الوسيلة التي مارسها عدد من العراقيين في موقع المسؤولية ، فيما كانت السرقة وسيلة من ليست لديهم وظيفة ، من المتذرعين بمقولة « الضرورات تبيح المحظورات ».

ولم يتوقف الفساد على الشأن العراقى فقط بل تعداه إلى الشأن الأمريكي ممثلا بشكل كبير فى المشكلات التي أصابت السفارة الأمريكية في بغداد ، كما نقلت ذلك كل من وكالتي اسوشييتد بريس ووكالة الصحافة الفرنسية وصحف واشنطن بوست ومكلاتشي ويو أس أي توداي والتايمز اللندنية فضلا عن مجلة فورن بوليسي وشبكة سي أن ان التى أوردت عناوين مختلفة تتعلق بهذه المشكلات التي تتعرض لها الآن السفارة وهذه نماذج منها :

- أخطاء متعددة تتعلق بسعر مبنى السفارة الأمريكية في بغداد.
- صحيفة مكلاتشي ٢٢ أكتوبر.
- أمريكا تستحق إعادة بعض نقودها التي صرفت على مبنى سفارتها في بغداد.
- يو إس أي توداي ٢٢ أكتوبر.
- مزيدا من المشكلات المفجعة في سفارة أمريكا في العراق.
- مجلة فورن بوليسي ٢٢ أكتوبر.
- أمريكا تطلب خصم عن عمل بناء سفارتها في العراق.
- اسوشيتيد بريس ٢٢ أكتوبر.
- بسبب الأخطاء ...تعويض قدره ١٣٢ مليون دولار تتعلق ببناية السفارة .

- واشنطن بوست ٢٣ أكتوبر.
- تقرير يؤكد وجود أخطاء كبيرة في السفارة الأمريكية في بغداد .
- شبكة سي أن إن ٢٤ أكتوبر.

السفارة الأمريكية التي اعتبرها المراقبون أكبر سفارة في العالم بتكلفة ٧٠٠ مليون دولار وسعة لحوالي ٢٠٠٠ موظف ، والتي لها القدرة على مقاومة الهزات الأرضية وهجمات المسلحين على حد تعبير أوليفر أوكست في صحيفة التايمز ، هذه السفارة التي لم يمض تسعة أشهر على بنائها ...هاهي الآن تعاني من مشكلات جسيمة يُكلف إصلاحها ١٣٢ مليون دولار طالب المفتش العام في الخارجية الأمريكية هارولد كازل باستردادها من الشركة الكويتية التي قامت باستلام ٤٧٠ مليون دولار .

التقرير أو الدراسة التي كتبها المفتش العام في وزارة الخارجية الأمريكية وأرسلت إلى الكونجرس الأمريكي في بداية الأسبوع الماضي والتي نُشرت على الموقع الرسمي لوزارة الخارجية يوم الجمعة ٢٤-١٠-٢٠٠٩ ، أشارت إلى وجود مشكلات حقيقية تتعلق ببناء السفارة ووصلت إلى نتيجة مؤلمة صاغتها في عبارة « نتيجة للعيوب التي وجدت في بناء السفارة فإنه قد نتج عنها بناء غير متكامل ولا يمكن الوثوق به إلى حد ظهور رائحة لمياه التصريف في مقر إقامة نائب السفير الأمريكي في العراق، كما أشارت إلى ذلك صحيفة التايمز ، لذلك ننصح وزارة الخارجية باسترداد ١٣٢ مليون من الشركة الكويتية .

السؤال الذي نطرحه هو: إذا أخفق الأمريكيون في بناء سفاراتهم في العراق . كيف يمكن أن يكون للعراقيين أمل في قدرة الولايات المتحدة على بناء العراق الجديد ؟

سؤال مهم ينبغي الإجابة لأن الذي حصل يجب أن يحفز السياسيين العراقيين على مواجهة ذاتهم ومصارحة أنفسهم بأن بناء بلدن وأعمارد وانتشاله من واقعه المزري لا يتم إلا بأيديهم أنفسهم لا بأيدي الآخر ويجب أن يضعوا ما حصل نصب أعينهم عساهم يفلحوا في بناء البلد المدمر الذي عانى مأساة إنسانية تصلح أن تكون أكبر قصة درامية في تاريخ الأدب الإنساني العالمي!

• ماما أمريكا

رغم مسئولية الولايات المتحدة عن كل ما جرى فى العراق بعد انهيار نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ باعتبارها دولة الاحتلال الأولى التى أسست لتدمير العراق

بتركها صدام حسين يحكم ١٣ عاما بعد إخراجه من الكويت ودحر جيوشه وما تلا ذلك من حصار وتدمير وضربات عسكرية إجهاضية قبل توجيه الضربة الأخيرة التى انتهت بالسقوط المدوى لعاصمة الرشيد فى قبضة القوات الأمريكية .. رغم كل ذلك فإن هناك الكثير من العراقيين الذين يعتبرون أمريكا دولة محررة لبلدهم بل وينظرون إلى الرئيس السابق جورج بوش نظرة البطولة وأنه الرجل الذى يستحق أن ينصب له تمثال فى كل مكان ينتزع منه تمثال صدام حسين .. بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك برفع العلم الأمريكى فى بيته مجاورا للعلم العراقى أو الكردى .

وتدحض هذه الصورة ما يشاع عن رفض عراقى مطلق للتواجد الأمريكى سواء فى بداية دخول القوات الأمريكية إلى بغداد أو الأشهر الأخيرة من العام ٢٠١٠ والتى يواصل فيها الأمريكيون استعداداتهم لسحب القوات القتالية من العراق تنفيذا للاتفاقية التى وقعها جورج بوش الابن قبل أن يغادر البيت الأبيض نهاية العام ٢٠٠٨ .

وتختلف الأسباب التى يسوقها من يرى فى الترحيب بالاحتلال الأمريكى أمرا واجبا وأن بقاء القوات الأمريكية هى الضمانة الوحيدة للاستقرار حتى يكتمل المشروع الذى يجب أن يسود العراق الجديد وما يمثله من قيم الحرية والديمقراطية والانتقال من النظام الديكتاتورى التسلطى إلى النظام التعددى الليبرالى .

والحقيقة أننى كنت أتعجب كثيرا عندما يؤكد لى عراقيون سواء من السنة أو الشيعة حرصهم على بقاء القوات الأمريكية باعتبارها ضمانا لأمنهم خاصة فى سنوات العنف الطائفى رغم كلما يقصونه عن دور أمريكى فى تلك الفتنة .. حيث أكد لى كثيرون أنهم كانوا يسمحون بدخول القوات الأمنية إلى مناطقهم خاصة المناطق السنية بالعاصمة بغداد عندما تكون بصحبة قوات أمريكية باعتبارها ضمانا لعدم التعرض لهجمات من فرق الموت التى ترتدى زى القوى الأمنية العراقية .. بينما كان يوجد اتفاق بين وجهاء تلك المناطق بمهاجمة أى قوة أمنية عراقية تدخل شوارعهم بسبب الشكوك فى ممارستها أعمال عنف على أساس طائفى .

إلا أن ما جرى من مواقف كنت طرفا فيها مع مواطنين عراقيين أكد لى بما لا يدع مجالا للشك أن نظرة نسبة كبيرة من العراقيين للأمريكيين ليست نظرة عدائية حيث قال لى رجل أعمال شيعى ملتزم عندما كنا نتحاور حول ما آلت إليه الأوضاع بالعراق فى ظل الاحتلال الأمريكى وما تكبده المواطنون الأبرياء من خسائر فى الأرواح والممتلكات خاصة فى عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ أنه دعا لجورج بوش الابن عندما

زار الأراضى المقدسة وداخل الحرم الشريف بمكة ..وبدت على علامات الاستغراب المشوبة بالحذر من هذا الكلام .. أعرف أن هناك من كان يريد الخلاص من صدام حسين ورحب بالامريكيين لهذا السبب ولكن ليس لدرجة الدعاء لبوش الذى أنهى تاريخه السياسى بفردتى حذاء من شيعى شاب ربما كانت له أهداف أخرى .

سألت مضيفى كيف تصل درجة الإعجاب بالاحتلال إلى هذا الحد إلا يعد ذلك مدعاة للقول بأن الشيعة لا يحبون بلدانهم رغم أن لى أصدقاء من شيعة العراق ربما لا تجد لهم مثيلا فى الوطنية والإخلاص والمودة والكرم وكل قائمة الصفات النبيلة .. أجاب الرجل بهدوء شديد ينم عن ارتباط روحى عميق بالدين وأهل البيت « لقد كان بوش سببا رئيسيا فى أن أمارس طقوسى الدينية بكل حرية وهو ما يريح قلبى وضميرى كشيعى ملتزم» .. كنا محرومين من كل شىء فى عهد صدام لا نستطيع حتى الإفصاح عن معتقداتنا أو رفع الصوت بدعائنا الذى ورثناه عن الأئمة الأطهار أما الآن فحتى السعودية / التى أشاد بأدائها كثيرا فى تنظيم الحج/ تسمح لنا برمى الجمرات من الأرض وليس عن طريق الجسر وهى شعيرة هامة بالنسبة للحجاج الشيعة كانت لا تطبق لسببين خوفا من تقارير رجال صدام المرافقين للحجاج وعدم وجود مثل هكذا إجراء فى السابق .

سألته «الم يكن الثمن فادحا وفاق عدد القتلى من الأبرياء خلال أعوام ما بعد الاحتلال ما قتله صدام خلال ٣٥ عاما ؟» .. قال لى «بالتأكيد الثمن فادح ومن ارتكب ذلك لم يكن ملتزما بالدين ودخلت فى الأمور أمور أخرى واختلط الدين بالسياسة بالمصالح الاقتصادية والتجارية ولكن هناك أمر عاد إلينا نحن الشيعة كنا مستعدين لدفع ثمن يفوق ما دفعناه نحن واخواننا السنة أضعافا مضاعفة حتى نحصل عليه ».

سألته ما هو ؟؟ .. قال «الحرية أولا دينيا واجتماعيا والانتماء ثانيا » .. ويعترف الرجل بكل شجاعة بأن «الكثير من الشيعة والسنة كانوا يتمنون بل ويدعون أن يهزم العراق فى كل المحافل والمعارك ليس العسكرية فقط وإنما حتى الرياضية والثقافية لان أى انتصار يتم تجييره لصالح البعث ونظام صدام حسين وعائلة صدام حسين ».

ربما يثير هذا التفسير حفيظة البعض ويعتبر ذلك دليلا لخيانة الشيعة لكن المذهل فى الأمر أن الشعور المرحب بانهيار نظام صدام حسين لا يفرق بين سنى وشيعى فقد التقيت فى أكثر من مناسبة وأكثر من مكان بعراقيين ينتمون إلى الطائفة السنية ومن قادة الجيش السابق لا شيء فى فمهم عندما يذكر صدام

حسين إلا دعاء عراقيا يحمل الكراهية والتشفى والرغبة فى الانتقام وهو « طيح الله حظه» خرب البلاد والعباد وان كان الشعور الآخر بالانتكاسة والحزن لضياع البلد والخراب الذى حل بها بعد دخول الاحتلال لان ما لا يعلمه الكثيرون أو يعلمونه ولا يريدون البوح به ونشره على نطاق واسع أن صدام ألحق الأذى الأكبر بالسنة وقتل الكثير من قادته العسكريين السنة بل ومن نفس العشيرة وربما العائلة فهو لم يفرق أبدا على أساس المذهب وإنما على أساس المصلحة الشخصية العليا التى كانت تختصر فيها مصالح العراق وربما الأمة العربية كلها

وربما يفسر هذا الأمر أيضا ما رايناه عن عزوف الكثير من الشيعة عن المشاركة فى مذابح الفتن سواء الطائفية أو العشائرية التى اندرجت تحت مسميات شريفة منها الجهاد أو حماية الطائفة وابتعد الكثيرون من الطرفين عن مسميات مثل النواصب / اللفظ البغيض الذى يطلق على السنة/ والرافضة / اللفظ البغيض الذى يطلق على الشيعة / والذى جعل من القتل رسالة مقدسة راح ضحيتها مئات الآلاف ممن لا ذنب لهم سوى أنهم يحملون أسماء غير مسؤولين عنها أطلقها آباؤهم مثل عمر وعثمان وأبو بكر وعائشة كسنة أو حيدر والعباس وكاظم وما عُبد منها كشيعة /عبد الكاظم وعبد العباس .

وفى حوار آخر مع جار لى كردى يدعى «أبو زينب» قال لى بكل فخر إنه يضع داخل بيته ومكتبه العلم الأمريكى بجوار العلم الكردى بينما لا يضع العلم العراقى وهو سلوك أكد لى أن الغالبية العظمى من الأكراد يشاركونه فيه بإعتبار أن أمريكا هى التى حررت الأكراد من قبضة صدام ومنحتهم الكثير من الحقوق وأحيت آمالهم فى استعادة أحلامهم الضائعة فى دولة كردية تضم الكثير من المناطق التى يعتبرونها تاريخياً أرضا كردية وعلى رأسها كركوك العائمة على بحار من النفط / ٢٥٥ كم شمال بغداد/ وبعض مناطق من محافظات نينوى وصلاح الدين وديالى وهى المناطق التى بات يطلق عليها إعلاميا « المناطق المتنازع عليها» بينما يسميها الأكراد « المناطق المستقطعة» بل أن هناك وزير فى حكومة إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق يسمى « وزير مناطق خارج الإقليم» وهى المناطق التى وردت فى خارطة حدود ضمن دستور أقره الأكراد من خلال برلمانهم المستقل .

قال لى جارى الكردى كنا نقول دائما أن«الجبال هى الصديق الوحيد للأكراد» أما الآن فإننا وجدنا صديقا أشد إخلاصا وأكثر فائدة وهم الأمريكان الذين ننظر إليهم كمحررين من النظام الديكتاتورى الذى أذاق الأكراد الويلات .

وربما يكون جورج بوش الأب أو الابن سعيد جدا عندما يعلم ذلك لأنه بالتأكيد لم يكن يهدف إلى توفير الحرية العقائدية للشيعة أو العطف والرحمة بالسنة عندما فكر فى إنهاء وجود صدام حسين وبدء عهد الديمقراطية والحرية التى قذفها فوق رؤوس العراقيين من «الإف ١٦ والبى ٥٢» وجاء المبشرون بها على أسنة فوهات المدافع يلتقطون صور الفخر والانتصار أمام الدبابات الأمريكية التى دخلوا بها إلى وطنهم المحطم تحت عنوان المنقذين.

• بلاك ليبول

بعد حوالى شهرين من دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد كنت قد عدت إلى القاهرة بعد إنهاء مهمتى الأولى فى بغداد عام ٢٠٠٣ اتصل بى زميل عزيز يدعى ناصر كان يعمل مصورا تليفزيونياً مع إحدى الوكالات الصحفية المصورة إبان فترة الغزو الأمريكى للعراق وأخبرنى بأنه يحمل لى رسالة وهدية من صديق عراقى أصر أن أوصلها لك بالقاهرة .. سعدت كثيرا بهذه المكالمة الهاتفية واتفقنا على موعد لاستلام «الأمانة» التى حرص مرسلها على أن يغلفها ويجعلها فى أجمل صورة مع رسالة بخط اليد .

وعندما عدت إلى منزلى فتحت الرسالة لأقرأها وأرى تلك الهدية التى بدت من مظهرها أنها ثمينة خاصة وأن من أرسلها من ذوى الثراء فى عراق صدام حسين وما بعده .. إلا أننى صدمت من الرسالة والهدية معا حيث كتب صديقى أسامة يقول « أرسلت لك الهدية التى تليق بما صار العراق عليه من حرية وديمقراطية أتاحها الأمريكان وهى عبارة عن زجاجة ويسكى فخمة ماركة «بلاك ليبول» اعتبرها صديقى رمزا للعهد الجديد الذى جلب ما كان يحلم به أسامه ومن هم مثله فمثل هذه المشروبات الفخمة كانت محرمة تقريبا فى زمن صدام حسين مع محرمات أخرى ظهرت فى شوارع بغداد بعد يوم واحد من دخول القوات الأمريكية مثل حرية ممارسة الحب فى شوارع بغداد واحتساء الخمور فى المحال العامة خاصة بعد أن شن صدام فى أوائل التسعينيات ما أطلق عليه الحملة الإيمانية وصار هناك قانون يمنع تناول الخمور فى الأماكن العامة ولم يكن موجودا بالأسواق سوى « العرق العراقى» وبعض أنواع والبيرة والخمور الرديئة .

كان سلوك أسامة المرحب بالاحتلال الأمريكى نموذجا للشباب الواهم الذى إعتقد أن دخول القوات الأمريكية إلى عاصمة الرشيد ونهاية عهد صدام حسين يكرس لعصر جديد من الحرية المطلقة على النمط الغربى وما يشمله ذلك من

التمتع بأطباق الاستقبال « الدش» التى كانت محرمة على العراقيين وكذلك الهواتف المحمولة « الموبايل» وأجهزة اتصالات « الثريا» وغير ذلك من القشور الزائفة للعهد الجديد الذى حمل معه الكثير من الفوضى فيما بعد وهو ما أطلق عليه « الحواسم» الذين انطلقوا تحت سمع وبصر القوات الأمريكية ينهبون بغداد وانتقلت العدوى إلى مناطق أخرى ربما انتقاما من الحرمان وربما تنفيذا لمخطط محو صورة المواطن العراقى الشريف وبدء عصر جديد من الفوضى بشتى صورها وما تبع ذلك من عمليات قتل وقتل مضاد ونهب ونهب مماثل من عصابات احترفت الجريمة وأعطتها ظروف المرحلة بعدا سياسيا وأخلاقيا ضمن قيم أرساها زمن المذبحة الذى لا يمكن بأى حال من الأحوال للإدارة الأمريكية الفكاك من مسئوليتها عنه باعتبارها أحد أهم الأطراف التى أدارت المذبحة .

٣ - إسرائيل

من الأطراف التى تثير الكثير من الجدل حول طبيعة تواجدها فى العراق الجديد هى إسرائيل .. ولعل الضجيج الشديد الذى يتواكب دائما مع كل مناسبة يرد فيها إسم إسرائيل بالإضافة إلى ما يحيط محاولات كشف ذلك الأمر والتحقق منه عمليا من مخاطر بل واستحالة ذلك يجعلنا نضع إسرائيل ضمن الدول التى تدور فى فلك من يدير المذبحة بغض النظر عن كل التقارير الصحفية والتصريحات المتواترة عن قادة عراقيين وعرب حول تواجد إسرائيلى مكثف فى العراق الجديد خاصة المناطق الشمالية التى تتمتع بالحكم الذاتى / إقليم كردستان العراق / .

في يونيو /حزيران عام ٢٠٠٤ كتب الصحفي الأمريكي المعروف سيْمور هيرش في مجلة «نيويوركر» عن تنكّر إسرائيليين في شمال العراق بزيّ رجالِ أعمال، بهدف تنظيمِ عملاء أكراد يَجْمعون لهم المعلومات، تحضيراً لعملِ إسرائيلي ـ أمريكي محتمل ضدّ إيران.. فيما تحدّثتْ صحيفة هاآرتس الإسرائيلية عن شخصٍ إسرائيلي اسمُه شلومي مايكِلْز يَخْضع لتحقيقٍ إسرائيليّ رسميّ بسبب عمله في كردستان «من دون ترخيصٍ من السلطات الإسرائيلية. وفي ١١ أبريل /نيسان ٢٠٠٧، كَتَبتْ لورا روزنْ عن تحقيقٍ أجرتْه طوالَ عام ٢٠٠٦ ، وتَبيّن خلالَه أن مايكلز وشريكَه داني ياتوم (رئيسَ جهاز الموساد الإسرائيلي السابق) جزءٌ من مجهودٍ كرديّ ـ غربيّ لإعطاءِ الأكراد «مزيداً من القوة في العراق» ولإعادة إحياء العلاقات الإسرائيلية «بحلفاء أكرادٍ تاريخيين»، وذلك من خلال أعمالٍ مشتركة

(إسرائيلية ـ غربية ـ كردية) تُطاوِل البنى التحتيةَ والتنميةَ الاقتصاديةَ والمشاريعَ الأمنيةَ. وقد جاء مايكِلْز (بحسب صحيفة يديعوت أحرنوت الإسرائيلية) بضبّاطِ إسرائيليين ليدرِّبوا قواتِ الأمن الكردية على "مكافحة الإرهاب" تنظيم القاعدة وغيرها من المجموعات المسلحة في مخيّمٍ سريّ في العراق، مقابلَ "بضعةِ ملايينَ من الدولارات." لكنّ السلطات التركية (التي عَبَر الإسرائيليون بجوازاتِ سفرهم من أمامها) تنبهَتْ للأمر وأَخْطرت السلطاتِ الإسرائيليةَ، فأَجْرَتْ هذه الأخيرةُ تحقيقاتٍ مع مايكِلْز وغيرِه، بيْد أنها وافقتْ عمليًا على إرسال المعدَات الدفاعية والاتصالية إلى كردستان ــ العراق من أجل "تنميةِ وجودٍ لها في المنطقة الكردية."

• **وزير إسرائيلى**

فى ٤ سبتمبر عام ٢٠٠٨ ألقى وزير الأمن الإسرائيلي الأسبق (آفي ديختر) محاضرة هامة حول الدور الإسرائيلي في العراق وذلك بمعهد أبحاث الأمن القومى الاسرائيلى أكد فيها أن إسرائيل حققت في العراق أكثر مما خططت وتوقعت وأن تحييد العراق عن طريق تكريس أوضاعه الحالية تشكل أهمية استراتيجية للأمن الصهيوني كما أن العراق تلاشى كقوة عسكرية وكبلد متحد، وأن خيار إسرائيل الاستراتيجي هو بقاؤه مجزءاً.. وأن ذروة أهداف إسرائيل هو دعم الأكراد بالسلاح والتدريب والشراكة الأمنية من اجل تاسيس دولة كردية مستقلة فى شمال العراق تسيطر على نفط كركوك وكردستان .

وسوف أعيد هنا نشر نص تلك المحاضرة التى تلقى الضوء حول كثير من الأمور التى تتناولها وسائل الإعلام ولا يمكن نشرها هنا بدون وثائق أو أدلة رأيت أنه من المستحيل تأمينها على الأقل حاليا .

«ليس بوسع أحد أن ينكر أننا حققنا الكثير من الأهداف على هذه الساحة بل وأكثر مما خططنا له وأعددنا فى هذا الخصوص. يجب استحضار ما كنا نريد أن نفعله وننجزه فى العراق منذ بداية تدخلنا فى الوضع العراقى منذ بداية عقد السبعينات من القرن العشرين، جل وذروة هذه الأهداف هو دعم الأكراد لكونهم جماعة أثنية مضطهدة من حقها أن تقرر مصيرها بالتمتع بالحرية شأنها شأن أى شعب.

فى البداية كان المخططون فى الدولة وعلى رأسهم « أورى ليبرانى » المستشار

الأسبق لرئيس الوزراء ثم سفيرنا فى تركيا وأثيوبيا وإيران قد حدد إطار وفحوى الدعم الإسرائيلى للأكراد. هذا الدعم كان فى البداية متواضعا، دعم سياسى و إثارة قضية الأكراد وطرحها فوق المنابر. لم يكن بوسع الأكراد أن يتولوها فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وحتى داخل بعض دول أوروبا. وكان دعماً مادياً أيضا ولكنه محدود.

التحول الهام بدأ عام ١٩٧٢. هذا الدعم اتخذ أبعادا أخرى أمنية، مد الأكراد بالسلاح عبر تركيا وإيران واستقبال مجموعات كردية لتلقى التدريب فى إسرائيل بل وفى تركيا وإيران.

هكذا أصبح هذا الدعم المحرك لتطور مستوى العلاقات الاستراتيجية بين إسرائيل والأكراد، وكان من المنتظر أن تكون له نتائج مهمة لولا أن ايران الشاه والعراق توصلا إلى صفقة فى الجزائر عام ١٩٧٥، هذه الصفقة وجهت ضربة قوية إلى الطموح الكردى. لكن وفق شهادات قيادات إسرائيلية ظلت على علاقة بزعيم الأكراد مصطفى البرزانى. الأكراد لم يتملكهم اليأس، على العكس ظلوا أكثر إصرارا على الاستمرار فى صراعهم ضد السلطة فى بغداد.

بعد انهيار المقاومة الكردية كنتيجة للاتفاق مع إيران توزعت قياداتهم على تركيا وسوريا وإسرائيل.. إسرائيل وانطلاقا من التزام أدبى وأخلاقى كان من واجبها أن تظل إلى جانب الأكراد وتأخذ بأيديهم إلى أن يبلغوا الهدف القومى الذي حددوه، تحقيق الحكم الذاتى فى المرحلة الأولى ومرحلة الاستقلال الناجز بعد ذلك.

لن أطيل فى حديثى عن الماضى، يجب أن ينصب حديثى على أن ما تحقق فى العراق فاق ما كان عقلنا الاستراتيجى يتخيله.

الآن فى العراق دولة كردية فعلا، هذه الدولة تتمتع بكل مقومات الدولة أرض شعب دولة وسلطة وجيش واقتصاد ريعى نفطى واعد، هذه الدولة تتطلع إلى أن تكون حدودها ليست داخل منطقة كردستان، بل ضم شمال العراق بأكمله، مدينة كركوك فى المرحلة الأولى ثم الموصل وربما محافظة صلاح الدين إلى جانب جلولاء وخانقين(ضمن محافظة ديالى المحاذية لإيران).

الأكراد حسب ما لمسناه خلال لقاءات مع مسؤولين إسرائيليين لايدعون مناسبة دون أن يشيدوا بنا وذكروا دعمنا ويثمنوا مواقفنا والانتصار الذي حققوه فى العراق فاق قدرتهم على استيعابه.

وبالنسبة لنا لم تكن أهدافنا تتجاوز دعم المشروع القومى الكردى لينتج كيانا

كرديا أو دولة كردية.. لم يدر بخلدنا لحظة أن تتحقق دفعة واحدة مجموعة أهداف نتيجة للحرب التى شنتها الولايات المتحدة وأسفرت عن احتلاله.. العراق الذي ظل فى منظورنا الاستراتيجى التحدى الأخطر بعد أن تحول إلى قوة عسكرية هائلة، فجأة العراق يتلاشى كدولة وكقوة عسكرية بل وكبلد واحد متحد، العراق يقسم جغرافيا وانقسم سكانيا وشهد حربا أهلية شرسة ومدمرة أودت بحياة بضع مئات الألوف.

إذا رصدنا الأوضاع فى العراق منذ عام ٢٠٠٣ فإننا سنجد أنفسنا أمام أكثر من مشهد :

١. العراق منقسم على أرض الواقع إلى ثلاثة كيانات أو اقاليم رغم وجود حكومة مركزية.

٢. العراق ما زال عرضة لاندلاع جولات جديدة من الحروب والاقتتال الداخلى بين الشيعة والسنة وبين العرب والأكراد.

٣. العراق بأوضاعه الأمنية والسياسية والاقتصادية لن يسترد وضعه ما قبل ٢٠٠٣.

نحن لم نكن بعيدين عن التطورات فوق هذه المساحة منذ عام ٢٠٠٣، هدفنا الاستراتيجى مازال عدم السماح لهذا البلد أن يعود إلى ممارسة دور عربى وإقليمى لأننا نحن أول المتضررين.

سيظل صراعنا على هذه الساحة فاعلا طالما بقيت القوات الأمريكية التى توفر لنا مظلة وفرصة لكى تحبط أية سياقات لعودة العراق إلى سابق قوته ووحدته.

نحن نستخدم كل الوسائل غير المرئية على الصعيد السياسى والأمني.

نريد أن نخلق ضمانات وكوابح ليس فى شمال العراق بل فى العاصمة بغداد. نحن نحاول أن ننسج علاقات مع بعض النخب السياسية والاقتصادية حتى تبقى بالنسبة لنا ضمانة لبقاء العراق خارج دائرة الدول العربية التى هى فى حالة حرب مع إسرائيل، العراق حتى عام ٢٠٠٣ كان فى حالة حرب مع إسرائيل.. وكان يعتبر الحرب مع إسرائيل من أوجب واجباته.

إسرائيل كانت تواجه تحديا استراتيجيا حقيقيا فى العراق، رغم حربه مع ايران لمدة ثمانية أعوام واصل العراق تطوير وتعزيز قدراته التقليدية والإستراتيجية بما فيها سعيه لحيازة سلاح نووى.

هذا الوضع لا يجب أن يتكرر نحن نتفاوض مع الأمريكان من أجل ذلك، من أجل قطع الطريق أمام عودة العراق ليكون دولة مواجهة مع اسرائيل.

الإدارة الأمريكية حريصة على ضمان مصالحنا وعلى توفير هذه الضمانات عبر وسائل مختلفة.

١. بقاء القوات الأمريكية فى العراق لفترة لا تقل عن عقد إلى عقدين حتى فى حالة فوز باراك أوباما الذي يحبذ سحب القوات الأمريكية .

٢. الحرص على أن تشمل الاتفاقية الأمنية بين الولايات المتحدة والحكومة العراقية أكثر من بند يضمن تحييد العراق فى النزاع مع إسرائيل وعدم السماح له بالانضمام إلى أية تحالفات أو منظومات أو الالتزام بمواثيق تتأسس على العداء ضد إسرائيل كمعاهدة الدفاع العربى المشترك أو الاشتراك فى أى عمل عدائى ضد إسرائيل إذا ما نشبت حرب فى المنطقة مع سوريا أو لبنان أو إيران.

إلى جانب هذه الضمانات هناك أيضا جهود وخطوات نتخذها نحن بشكل منفرد لتأمين ضمانات قوية لقطع الطريق على عودة العراق إلى موقع الخصم. استمرار الوضع الحالى فى العراق ودعم الأكراد فى شمال العراق ككيان سياسى قائم بذاته، يعطى ضمانات قوية ومهمة للأمن القومى الإسرائيلى على المدى المنظور على الأقل.

نحن نعمل على تطوير شراكة أمنية واستراتيجية مع القيادة الكردية رغم أن ذلك قد يثير غضب تركيا الدولة الصديقة. نحن لم ندخر جهدا فى سبيل إقناع الزعامة التركية وعلى الأخص رجب أردوغان وعبد الله جول بل والقادة العسكريين أن دعمنا للأكراد فى العراق لا يمس وضع الأكراد فى تركيا.

أوضحنا هذا أيضا للقيادة الكردية وحذرناها من مغبة الاحتكاك بتركيا أو دعم أكراد تركيا بأى شكل من أشكال الدعم، أكدنا لهم أن الشراكة مع إسرائيل يجب أن لا تضر بالعلاقة مع تركيا وأن ميدان هذه الشراكة هو العراق فى الوقت الحالى، وقد يتسع المستقبل لكن شريطة أن يتجه هذا الأتساع نحو سوريا وإيران.

مواجهة التحديات الاستراتيجية فى البيئة الإقليمية يحتم علينا أن لا نغمض العين عن تطورات الساحة العراقية وملاحقتها، لا بالوقوف متفرجين بل فى المساهمة بدور كى لا تكون تفاعلاتها ضارة ومفاقمة للتحديات.

تحييد العراق عن طريق تكريس أوضاعه الحالية ليس أقل أهمية وحيوية عن تكريس وإدامة تحييد مصر، تحييد مصر تحقق بوسائل دبلوماسية لكن تحييد العراق يتطلب استخدام كل الوسائل المتاحة وغير المتاحة حتى يكون التحييد شاملا كاملا.

لا يمكن الحديث عن استخدام خيار القوة لأن هذا الشرط غير قائم بالنسبة

للعراق. ولأن هذا الخيار مارسته القوة الأعظم فى العالم، الولايات المتحدة، وحققت نتائج تفوق كل تصور، كان من المستحيل على إسرائيل أن تحققه إلا بوسيلة واحدة وهى استخدام عناصر القوة بحوزتها بما فيها السلاح النووى.

تحليلنا النهائى أن العراق يجب أن يبقى مجزأً ومنقسما ومعزولا داخليا بعيدا عن البيئة الإقليمية، هذا هو خيارانا الاستراتيجى. ومن أجل تحقيقه سنواظب على استخدام الخيارات التى تكرس هذا الوضع، دولة كردية فى العراق تهيمن على مصادر انتاج النفط فى كركوك وكردستان

هناك التزام من القيادة الكردية بإعادة تشغيل خط النفط من كركوك عبر الأردن وقد جرت مفاوضات أولية مع الأردن وتم التوصل إلى اتفاق مع القيادة الكردية، وإذا ما تراجع الأردن فهناك البديل التركى أى مد خط كركوك ومناطق الإنتاج الأخرى فى كردستان تتم إلى تركيا وإسرائيل، أجرينا دراسات لمخطط أنابيب للمياه والنفط مع تركيا ومن تركيا إلى إسرائيل.

المعادلة الحاكمة فى حركتنا الاستراتيجية فى البيئة العراقية تنطلق من مزيد من تقويض حزمة القدرات العربية فى دولها الرئيسية من أجل تحقيق المزيد من الأمن القومى لإسرائيل.

- **خبير مصرى**

فى يوم الأربعاء ٩ أبريل عام ٢٠٠٨ كشف الدكتور طارق فهمي الخبير الإستراتيجي في المركز القومي لدراسات الشرق الأوسط عن وجود إسرائيلي مكثف في العراق، حيث تشارك إسرائيل بشكل كبير في «إعمار» ما يسمى بالعراق الجديد.

وطرح فهمى ثلاثة سيناريوهات تحدد شكل العلاقة بين إسرائيل والعراق في المستقبل القريب.

وقال في ندوة بعنوان «خمس سنوات على الاحتلال الأمريكي للعراق.. الآفاق والمستقبل» : «هناك وجود إسرائيلي مكثف في العراق

على عكس ما يصوره الإعلام العربي، فالإسرائيليون موجودون في كل المؤسسات والشركات من خلال الاستثمارات».

وأضاف فهمي في مداخلته بالندوة التي عقدت بمناسبة الذكرى الخامسة لدخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وسقوط نظام صدام حسين أن إسرائيل تتحرك وكأنها الحاضر الرئيسي في العراق وفي مقدمة الأحداث وليست في خلفيتها».

واستند الدكتور فهمي في كلمته إلى دراسة أجرتها وزارة المالية الإسرائيلية

ووزارات أخرى قالت: أن الحكومة الإسرائيلية لها استثمارات في إعمار ما يسمى العراق الجديد؛ وهو ما يعطي الفرصة لإسرائيل لإرساء تجارة تحقق منها أرباحا كثيرة.

واشار إلى أن دخول إسرائيل مجال الأراضي والعقارات في العراق هو أحد المحاور التي تسعى إسرائيل من خلالها لفرض نفوذها داخل البلاد.

ولتنفيذ هذا المخطط، أوضح الخبير الإستراتيجي أن إسرائيل تعمل على توظيف رأس المال اليهودي لشراء الأراضي في شمال العراق وتسمح بتسهيلات كبيرة في إعطاء القروض لبعض العراقيين وخاصة الأكراد.

٣ سيناريوهات

وطرح الدكتور فهمي ثلاثة سيناريوهات للتعامل بين إسرائيل والعراق في المستقبل القريب:

- **السيناريو الأول:** هو أن تدخل إسرائيل في علاقات دبلوماسية كاملة مع النظام العراقي الحالي برغم تأكيد الرئيس العراقي جلال طالباني عدم وجود علاقات قريبة سوف تحدث بين الجانبين.
- **السيناريو الثاني:** أن تدخل إسرائيل والعراق في علاقات ثلاثية (الولايات المتحدة– إسرائيل- العراق) وربما تدخل الأردن في علاقة دبلوماسية معهم.
- **السيناريو الثالث:** تأجيل خطوة العلاقات الدبلوماسية بين الجانبين وتكوين علاقات غير رسمية على كل المستويات.

ويرجح الدكتور فهمي حدوث السيناريو الثالث؛ وهو ما يؤكده القادة العراقيون فيما يتعلق بالدخول في علاقات غير رسمية مع الجانب الإسرائيلي.

ووفقاً لمصادر أمريكية فهناك حوالي ٢١٠ شركات إسرائيلية تعمل في العراق حتى الآن في مجالات كثيرة منها السياحة والبترول والمنسوجات والإلكترونيات والمياه المعدنية والهواتف.

وحسب تقرير إستراتيجي صادر عن مركز «جافي» في الجامعة العبرية، فإن الإسرائيليين يطمحون في أن يقوم الأمريكان ببناء قاعدة عسكرية لهم في صحراء العراق وهو ما يسمح لإسرائيل لاحقاً بالتواجد العسكري هناك.

عراق إسرائيل

وأكد فهمي على أن هناك إجماعا وطنيا في إسرائيل على أن تقسيم العراق هو الحل الأمثل لحل أزمته. وأوضح أن إسرائيل كلفت وزارة الدفاع منذ أربعة أشهر

بإعداد دراسة شارك فيها ٦ أجهزة أمنية والعديد من الجنرالات في الجيش الإسرائيلي انتهت إلى أن الوضع الراهن في العراق هو أفضل الآن والحل هو تقسيمه.

وأشار فهمي إلى أن المناورات التي تجريها إسرائيل هذه الأيام تضع في اعتبارها عراقا مفتتا لتفرض سيطرتها عليه.

وأقر «مؤتمر الدولة العبرية» الذي يعقد في شهر يناير من كل عام في دورته الأخيرة بأن «العراق المقبل هو عراق إسرائيل».

* إسرائيل وإيران

كثيرة هى المقالات والكتب التى تتناول العلاقة بين إسرائيل وإيران خاصة تلك التى تؤكد مدى قوة تلك العلاقة ضمن ثالوث «طهران – واشنطن- تل أبيب» رغم كل ما تتناقله وسائل الإعلام من صراع معلن وتهديدات عالية الصوت من الأطراف الثلاثة ضد بعضها إلا أن كتاب (التحالف الغادر: التعاملات السريّة بين إسرائيل و إيران و الولايات المتّحدة الأمريكية) للكاتب «تريتا بارسي» وهو أستاذ في العلاقات الدولية بجامعة «جون هوبكينز»يعتبر من أهم الكتب التى تكشف بجلاء طبيعة العلاقات الوطيدة والمصالح المشتركة التى تسير عبر محور «طهران- تل أبيب » .

وتأتى دراسة «بارسى» الذى ولد في إيران و نشأ في السويد و حصل على شهادة الماجستير في العلاقات الدولية ثم على شهادة ماجستير ثانية في الاقتصاد من جامعة «ستكوهولم» لينال فيما بعد شهادة الدكتوراة في العلاقات الدولية من جامعة «جون هوبكينز» في رسالة عن العلاقات الإيرانية-الإسرائيلية لتؤكد أنه تمّ إرسال العرض الإيراني أو الوثيقة السريّة إلى واشنطن. لقد عرض الاقتراح الإيراني السرّي مجموعة مثيرة من التنازلات السياسية التي ستقوم بها إيران في حال تمّت الموافقة على «الصفقة الكبرى» و هو يتناول عددا من المواضيع منها: برنامجها النووي، سياستها تجاه إسرائيل، و محاربة القاعدة. كما عرضت الوثيقة إنشاء ثلاث مجموعات عمل مشتركة أمريكية-إيرانية بالتوازي للتفاوض على «خارطة طريق» بخصوص ثلاث مواضيع: «أسلحة الدمار الشامل»، «الإرهاب و الأمن الإقليمي»، «التعاون الاقتصادي».

«وكتاب التحالف الغادر: التعاملات السريّة بين إسرائيل و إيران و الولايات المتّحدة الأمريكية» ليس عنوانا لمقال لأحد المهووسين بنظرية المؤامرة من العرب، و

هو بالتأكيد ليس بحثا أو تقريرا لمن يحب أن يسميهم البعض «الوهابيين» أو أن يتّهمهم بذلك، لمجرد عرضه للعلاقة بين إسرائيل و إيران و أمريكا و للمصالح المتبادلة بينهم و للعلاقات الخفيّة بل إنه الكتاب الأكثر أهمية على الإطلاق من حيث الموضوع و طبيعة المعلومات الواردة فيه و الأسرار التي يكشف بعضها للمرة الأولى و أيضا في توقيت و سياق الأحداث المتسارعه في الشرق الأوسط و وسط الأزمة النووية الإيرانية مع الولايات المتّحدة.

وتأتي أهمية هذا الكتاب الذى لم تتم ترجمته حتى الآن إلى العربية من خلال كم المعلومات الدقيقة و التي يكشف عن بعضها للمرة الأولى، إضافة إلى كشف الكاتب لطبيعة العلاقات و الاتصالات التي تجري بين هذه البلدان (إسرائيل- إيران – أمريكا) خلف الكواليس شارحا الآليات و طرق الاتصال و التواصل فيما بينهم في سبيل تحقيق المصلحة المشتركة التي لا تعكسها الشعارات و الخطابات و السجالات الإعلامية الشعبوية و الموجّهة.

كما يكتسب الكتاب الذى قدمت بعض المواقع الإليكترونية عروضا لمحتواه على شبكة الإنترنت أهميته من خلال المصداقية التي يتمتّع بها الخبير في السياسة الخارجية الأمريكية «تريتا بارسي». فعدا عن كونه أستاذا أكاديميا، يرأس «بارسي» المجلس القومي الإيرانى-الأمريكي، و له العديد من الكتابات حول الشرق الأوسط، و هو خبير في السياسة الخارجية الأمريكية، و هو الكاتب الأمريكي الوحيد تقريبا الذي استطاع الوصول إلى صنّاع القرار (على مستوى متعدد) في البلدان الثلاث أمريكا، إسرائيل و إيران.

يستند الكتاب إلى أكثر من ١٣٠ مقابلة مع مسؤولين رسميين إسرائيليين، إيرانيين و أمريكيين رفيعي المستوى و من أصحاب صُنّاع القرار في بلدانهم. إضافة إلى العديد من الوثاق و التحليلات و المعلومات المعتبرة و الخاصة.

و يعالج «تريتا بارسي» في هذا الكتاب العلاقة الثلاثية بين كل من إسرائيل، إيران و أمريكا لينفذ من خلالها إلى شرح الآلية التي تتواصل من خلالها حكومات الدول الثلاث و تصل من خلال الصفقات السريّة و التعاملات غير العلنية إلى تحقيق مصالحها على الرغم من الخطاب الإعلامي الاستهلاكي للعداء الظاهر فيما بينها في إطار اللعبة السياسية التي تتّبعها هذه الأطراف الثلاث، و يعرض بارسي في تفسير العلاقة الثلاثية لوجهتي نظر متداخلتين في فحصه للموقف بينهم:

أولا: الاختلاف بين الخطاب الاستهلاكي العام و الشعبوي (أي ما يسمى الأيديولوجيا هنا)، و بين المحادثات و الاتفاقات السريّة التي يجريها الأطراف

الثلاث غالبا مع بعضهم البعض (أي ما يمكن تسميه الجيو-استراتيجيا هنا).

ثانيا: يشير إلى الاختلافات في التصورات والتوجهات استنادا إلى المعطيات الجيو-ستراتيجية التي تعود إلى زمن معين و وقت معين. ليكون الناتج محصلة في النهاية لوجهات النظر المتعارضة بين «الأيديولوجية» و «الجيو-ستراتيجية»، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المحرّك الأساسي للأحداث يكمن في العامل «الجيو-ستراتيجي» وليس «الأيديولوجي» الذي يعتبر مجرّد وسيلة أو رافعة.

بمعنى ابسط، يعتقد بارسي أن العلاقة بين المثلث الإسرائيلي- الإيراني – الأمريكي تقوم على المصالح و التنافس الإقليمي و الجيو-استراتيجي و ليس على الأيديولوجيا و الخطابات و الشعارات التعبوية الحماسية...الخ.

و في إطار المشهد الثلاثي لهذه الدول، تعتمد إسرائيل في نظرتها إلى إيران على «عقيدة الطرف» الذي يكون بعيدا عن المحور، فيما تعتمد إيران على المحافظة على قوّة الاعتماد على «العصر السابق» أو التاريخ حين كانت الهيمنة «الطبيعية» لإيران تمتد لتطال الجيران القريبين منها.

و بين هذا و ذاك يأتي دور اللاعب الأمريكي الذي يتلاعب بهذا المشهد و يتم التلاعب به أيضا خلال مسيرته للوصول إلى أهدافه الخاصّة و المتغيّرة تباعا.

و استنادا إلى الكتاب، وعلى عكس التفكير السائد، فإن إيران و إسرائيل ليستا في صراع أيديولوجي بقدر ما هو نزاع استراتيجي قابل للحل. يشرح الكتاب هذه المتولة و يكشف الكثير من التعاملات الإيرانية – الإسرائيلية السريّة التي تجري خلف الكواليس و التي لم يتم كشفها من قبل. كما يؤكد الكتاب في سياقه التحليلي إلى أن أحداً من الطرفين (إسرائيل و إيران) لم يستخدم أو يطبّق خطاباته النارية، فالخطابات في واد و التصرفات في واد آخر معاكس.

ووفقا لبارسي، فإنّ إيران الثيوقراطية ليست «خصما لا عقلانيا» للولايات المتّحدة و إسرائيل كما كان الحال بالنسبة للعراق بقيادة صدّام و أفغانستان بقيادة الطالبان. فطهران تعمد إلى تقليد «اللاعقلانيين» من خلال الشعارات و الخطابات الاستهلاكية و ذلك كرافعة سياسية و تموضع ديبلوماسي فقط. فهي تستخدم التصريحات الاستفزازية و لكنها لا تتصرف بناءاً عليها بأسلوب متهور و أرعن من شانه أن يزعزع نظامها. و عليه فيمكن توقع تحركات إيران و هي ضمن هذا المنظور لا تشكّل «خطرا لا يمكن احتواؤه» عبر الطرق التقليدية الدبلوماسية.

و إذا ما تجاوزنا القشور السطحية التي تظهر من خلال المهاترات و التراشقات

الإعلامية و الدعائية بين إيران و إسرائيل، فإننا سنرى تشابها مثيرا بين الـدولتين في العديد من المحاور بحيث أننا سنجد أن ما يجمعهما أكبر بكثير مما يفرقهما.

كلتا الدولتين تميلان إلى تقديم أنفسهما على أنّهما متفوقتين على جيرانهم العرب. إذ ينظر العديد من الإيرانيين إلى أن جيرانهم العرب في الغرب و الجنوب باعتبارهم أقل منهم شأنا من الناحية الثقافية و التاريخية و في مستوى دوني. و يعتبرون أن الوجود الفارسي على تخومهم ساعد في تحضرهم و تمدّنهم و لولاه لما كان لهم شأن يذكر.

في المقابل، يرى الإسرائيليون أنّهم متفوقين على العرب بدليل أنّهم انتصروا عليهم في حروب كثيرة، و يقول أحد المسؤولين الإسرائيليين في هذا المجال لبارسي «إننا نعرف ما باستطاعة العرب فعله، و هو ليس بالشيء الكبير» في إشارة إلى استهزائه بقدرتهم على فعل شي حيال الأمور.

و يشير الكتاب إلى أننا إذا ما أمعنّا النظر في الوضع الجيو-سياسي الذي تعيشه كل من إيران و إسرائيل ضمن المحيط العربي، سنلاحظ أنهما يلتقيان أيضا حاليا في نظرية «لا حرب، لا سلام». الإسرائيليون لا يستطيعون إجبار أنفسهم على عقد سلام دائم مع من يظنون انهم اقل منهم شأنا و لا يريدون أيضا خوض حروب طالما أن الوضع لصالحهم، لذلك فان نظرية «لا حرب، لا سلام» هي السائدة في المنظور الإسرائيلي. في المقابل، فقد توصّل الإيرانيون إلى هذا المفهوم من قبل، واعتبروا أن «العرب يريدون النيل منّا».

استنادا إلى «بارسي»، فإن السلام بين إسرائيل و العرب يضرب مصالح إيران الإستراتيجية في العمق في هذه المنطقة و يبعد الأطراف العربية عنها و لاسيما سوريا، مما يؤدي إلى عزلها استراتيجيا. ليس هذا فقط، بل أن التوصل إلى تسوية سياسية في المنطقة سيؤدي إلى زيادة النفوذ الأمريكي و القوات العسكرية و هو أمر لا تحبّذه طهران.

و يؤكّد الكاتب في هذا السياق أن أحد أسباب «انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان في العام ٢٠٠٠» هو أن إسرائيل أرادت تقويض التأثير و الفعالية الإيرانية في عملية السلام من خلال تجريد حزب الله من شرعيته كمنظمة مقاومة بعد أن يكون الانسحاب الإسرائيلي قد تمّ من لبنان.

و يكشف الكتاب من ضمن ما يكشف أيضا من وثائق و معلومات سرية جدا و موثقة فيه، أن المسؤولين الرسميين الإيرانيين وجدوا أن الفرصة الوحيدة لكسب الإدارة الأمريكية تكمن في تقديم مساعدة أكبر وأهم لها في غزو العراق العام ٢٠٠٣ عبر

الاستجابة لما تحتاجه، مقابل ما ستطلبه إيران منها، على أمل ان يؤدي ذلك إلى عقد صفقة متكاملة تعود العلاقات الطبيعية بموجبها بين البلدين و تنتهي مخاوف الطرفين.

و بينما كان الأمريكيون يغزون العراق في أبريل /نيسان من العام ٢٠٠٣، كانت إيران تعمل على إعداد «اقتراح» جريء و متكامل يتضمن جميع المواضيع المهمة ليكون أساسا لعقد «صفقة كبيرة» مع الأمريكيين عند التفاوض عليه في حل النزاع الأمريكي-الإيراني.

تمّ إرسال العرض الإيراني أو الوثيقة السريّة إلى واشنطن. لقد عرض الاقتراح الإيراني السرّي مجموعة مثيرة من التنازلات السياسية التي ستقوم بها إيران في حال تمّت الموافقة على «الصفقة الكبرى» و هو يتناول عددا من المواضيع منها: برنامجها النووي، سياستها تجاه إسرائيل، و محاربة القاعدة. كما عرضت الوثيقة إنشاء ثلاث مجموعات عمل مشتركة أمريكية-إيرانية بالتوازي للتفاوض على «خارطة طريق» بخصوص ثلاث مواضيع: «أسلحة الدمار الشامل»، «الإرهاب و الأمن الإقليمي»، «التعاون الاقتصادي».

وفقا لـ«بارسي» فإنّ هذه الورقة هي مجرّد ملخّص لعرض تفاوضي إيراني أكثر تفصيلا كان قد علم به في العام ٢٠٠٣ عبر وسيط سويسري (تيم غولدمان) نقله إلى وزارة الخارجية الأمريكية بعد تلقّيه من السفارة السويسرية أواخر نيسان / أوائل أيار من العام ٢٠٠٣.

هذا و تضمّنت الوثيقة السريّة الإيرانية لعام ٢٠٠٣ و التي مرّت بمراحل عديدة منذ ١١ أيلول ٢٠٠١ ما يلي:

١- عرض إيران استخدام نفوذها في العراق لـ (تحقيق الأمن و الاستقرار، إنشاء مؤسسات ديمقراطية، و حكومة غير دينية).

٢- عرض إيران (شفافية كاملة) لتوفير الاطمئنان و التأكيد بأنّها لا تطوّر أسلحة دمار شامل، و الالتزام بما تطلبه الوكالة الدولية للطاقة الذرية بشكل كامل و دون قيود.

٣- عرض إيران إيقاف دعمها للمجموعات الفلسطينية المعارضة و الضغط عليها لإيقاف عملياتها العنيفة ضدّ المدنيين الإسرائيليين داخل حدود إسرائيل العام ١٩٦٧.

٤- التزام إيران بتحويل حزب الله اللبناني إلى حزب سياسي منخرط بشكل كامل في الإطار اللبناني.

٥- قبول إيران بإعلان المبادرة العربية التي طرحت في قمّة بيروت عام ٢٠٠٢، أو ما يسمى «طرح الدولتين» و التي تنص على إقامة دولتين و القبول بعلاقات طبيعية و سلام مع إسرائيل مقابل انسحاب إسرائيل إلى ما بعد حدود ١٩٦٧.

المفاجأة الكبرى في هذا العرض كانت تتمثل باستعداد إيران تقديم اعترافها بإسرائيل كدولة شرعية!! لقد سبّب ذلك إحراجا كبيرا لجماعة المحافظين الجدد و الصقور الذين كانوا يناورون على مسألة «تدمير إيران لإسرائيل» و «محوها عن الخريطة».

ينقل «بارسي» في كتابه أن الإدارة الأمريكية المتمثلة بنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني و وزير الدفاع آنذاك دونالد رامسفيلد كانا وراء تعطيل هذا الاقتراح و رفضه على اعتبار «أننا (أي الإدارة الأمريكية) نرفض التحدّث إلى محور الشر». بل أن هذه الإدارة قامت بتوبيخ الوسيط السويسري الذي قام بنقل الرسالة.

و يشير الكتاب أيضا إلى أن إيران حاولت مرّات عديدة التقرب من الولايات المتّحدة لكن إسرائيل كانت تعطّل هذه المساعي دوما خوفا من أن تكون هذه العلاقة على حسابها في المنطقة.

ومن المفارقات الذي يذكرها الكاتب أيضا أن اللوبي الإسرائيلي في أمريكا كان من أوائل الذي نصحوا الإدارة الأمريكية في بداية الثمانينيات بأن لا تأخذ التصريحات و الشعارات الإيرانية المرفوعة بعين الاعتبار لأنها ظاهرة صوتية لا تأثير لها في السياسة الإيرانية.

٤ - الأكراد

فى تقرير «سرى وشخصى » تمكنت من الحصول عليه عن الوضع الأمنى فى محافظة نينوى وعاصمتها مدينة الموصل / ٤٠٠ كم شمال بغداد/ نهاية العام ٢٠٠٨ جاء الدور الكردى المريب فى المحافظة مترامية الأطراف كأحد أهم أسباب التدهور الأمنى .. حيث أكد التقرير أن مطامع الجانب الكردى واستغلال الساحل الأيسر من المدينة الذى ترتبط حدوده الشرقية والشمالية مع محافظتى أربيل ودهوك وذلك بفتح ونشر مقرات للأحزاب الكردية فى البنايات الحكومية المحمية من قبل قوات حرس إقليم كردستان« البيشمركه» بما لا يتناسب مع نسبة الأكراد فى المحافظة التى يقطنها خليط من العرب والتركمان والشبك والمسيحين الأمر الذى جعل هذه المقرات أوكارا لدعم الإرهاب وجمع المعلومات عن كبار الشخصيات وأساتذة الجامعات وكبار الضباط وتصفية عدد كبير منهم وكذلك إرهاب السكان

والسيطرة على مداخل مدينة الموصل من الجانب الشمالى والشرقى بنقاط تفتيش « سيطرات» عناصرها من الأكراد مما يسهل لمجاميعهم الدخول والخروج والعمل بحرية كاملة .

وأوضح التقرير أنه يجرى تبديل عناصر حمايات المقرات للأحزاب الكردية كل أسبوعين وهو ما أدى إلى حدوث حالات سرقة سيارات كثيرة فى الساحل الأيسر من المدينة .. كما تمت السيطرة على الأقضية والنواحى التابعة للمحافظة مثل « تلكيف والشيخان ومخمور وسنجار » ورفع الأعلام الكردية على كل الدوائر الحكومية .

ونبه التقرير إلى أن منتسبى الجيش العراقى من الأكراد فى محافظة نينوى يعملون لصالح أجندات سياسية بالاضافة إلى إستفزاز المواطنين والقيام بمداهمات واعتقالات عشوائية إستهدفت المواطنين الأبرياء والمثقفين من أهالى الموصل ولم يعرف مصير غالبية هؤلاء المعتقلين .

وتبع هذا التقرير تقرير آخر عام ٢٠٠٩ أكد قيام الأكراد فى قضاء سنجار بنتح باب التطوع للقوات الخاصة التابعة لاقليم كردستان من الطائفة الأيزيدية برواتب تصل إلى ٣ ملايين دينار عراقى شهريا / حوالى ٢٥٠٠ دولار/ الهدف منها مضايقة العرب الموجودين فى القضاء والمناطق الأخرى .

كما أشار التقرير إلى أعتقال مجموعة إرهابية تقوم بزرع العبوات الناسفة بالقرب من مركز التنسيق المشترك وفندق نينوى إعترفوا بانتمائهم إلى تنظيم دولة العراق الإسلامية ويمولهم شخص يدعى « أبو زمن» موجود بأحد مقرات الأحزاب الكردية فى منطقة المجموعة الثقافية .. حيث أكد التقرير تسجيل حالات كثيرة مماثلة منسوبة للأحزاب الكردية التى تشجع الإرهاب ضمن مدينة الموصل لوجود أطماع توسعية لدى الجانب الكردى .

وإذا كان هذا التقريران الرسميان يؤكدان طبيعة الدور الكردى فى الأزمة العراقية كون الأكراد أحد الأطراف التى تدير المذبحة فإن الحديث يطول عن الخطط الكردية لتوسيع إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق بضم ما يطلق عليه الأكراد « المناطق المستقطعة» وعلى رأسها كركوك الغنية بالنفط وهو ما ورد فيما تم تسويقه إعلاميا على أنه دستور إقليم كردستان عام ٢٠٠٩ وأثار الكثير من الجدل حينها مما دفع بالمسئولين الأكراد إلى التقليل من شأن هذا الإعلان ومحاولة تهدئة مخاوف العراق ودول الجوار مما ورد فيه من معلومات تشى بحجم المطامع الكردية .

والمعروف أن مقرات الفيلق الخامس بالجيش العراقى السابق كانت موجودة

بكافة معداتها وأسلحتها فى الموصل ولم تتضررر كثيرا خلال الغزو الأمريكى لأنها لم تدخل مواجهة مباشرة مع الأمريكان ، تمت السيطرة عليها من قبل القوات الكردية « البيشمركة» بعد السيطرة على المحافظة فى نيسان / أبريل ٢٠٠٣ والحقيقة أننى حاولت زيارة إقليم كردستان أكثر من مرة بطريق رسمى بصفتى مدير مكتب وكالة الأنباء الرسمية المصرية بالعراق للوقوف على حقيقة ما يجرى داخل كردستان وإبراز بعض الجوانب الإيجابية بما فى ذلك حركة الإعمار الجارية على قدم وساق داخل الإقليم برؤوس أموال عربية وأجنبية نظرا لحالة الاستقرار الأمني التى يتمتع بها الإقليم .. إلا أن تلك المحاولات فشلت بسبب عدم ترحيب المسئولين الأكراد بالأمر وذلك عكس ما يعلنونه دائما من أنهم يريدون التواصل مع الجانب العربى بل أنهم عرضوا استضافة القمة العربية فى أربيل عاصمة إقليم كردستان بدلا من بغداد إلا أن هذا الأمر إذا تم فإنه يكرس لحالة الانفصال التى يعمل الأكراد على تثبيتها بكافة الطرق [(١)] .

كما أننى علمت بطريقة الدخول إلى أقليم كردستان الذى يتطلب حصول المواطن العراقى على كفيل أما بالنسبة للصحفيين فإن الأمر يتطلب موافقات أمنية عبر قائمة طويلة من المراجعات والتوقيع على إقرارات والحصول على بصمة العين وغير ها من الإجراءات الأمنية المشددة مما يعطى انطباعا بأن الشخص قد دخل حدود دولة أخرى وليس أرضا عراقية وفى تصورى أن هذه القضية تحتاج إلى كتاب منفصل يتناول الحالة الكردية بكل تعقيداتها ومفاصلها وسوف أكتفى فى هذا الجزء من الكتاب بعرض دراسة مهمة للباحث الامريكي مايكل روبين تحت عنوان(هل كردستان العراق حليف جيد؟)،نشرها معهد أمريكان انتربرايز في ١٣ أغسطس/ آب ٢٠٠٨ تحلل التجربة السياسية في كردستان،ونتائج الأخطاء التي ارتكبتها القيادات الكردية على الوضع في العراق ودول الجوار وتأثيرها على تحالفات الولايات المتحدة مع حلفائها الاستراتيجيين في المنطقة

• **ملخص الدراسة**

يمكننا أن نتفهم الدعم الأمريكي لكردستان العراق من منطلق عاطفي بحت،

---

(١) وفقًا لمقررات القمة العربية فإنه من المفروض انعقاد القمة القادمة في العراق خلال مارس ٢٠١١ ونظرًا لعدم اكتمال الاستعدادات وعدم استمرار الاستقرار الأمني فإن الأكراد يرجون لفكرة عقدة القمة في أربيل عاصمة كردستان .

ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى أضاع الأكراد فرصتهم للحصول على دولتهم في الوقت الذي نالت فيه شعوب أخرى استقلالها. ويبقى الأكراد اليوم أكبر مجموعة عرقية لا دولة لها

لقد عانوا الكثير على يد الآخرين، ولكن بينما تتقدم كردستان العراق، فإن عدم الثقة بقادتهم يجعل أي تحالف أمريكي-كردي طويل المدى أمراً غير حكيماً. فبدلاً من أن تكون منارة للديمقراطية، يبدو بأن القيادة الكردية العراقية الحالية مصممة على تكرار نماذج أكثر استبدادية. وبدلاً من أن يسعى الرئيس الكردي العراقي مسعود بارزاني لأن يصبح نيلسون مانديلا إقليمياً، يبدو أنه ينتهج حالياً مساراً ليصبح ياسر عرفات جديد. على الرغم من البيان المتغطرس حول مناسبته ليكون حليفاً، فإن تصرفاته تفيد بأنه بعيد أن يكون أهلاً للثقة.

لقد كانت كردستان العراق ـ ربما ـ المستفيد الأكبر من (تحرير العراق)، إذ يتمتع أكراد العراق اليوم بأعلى مستويات المعيشة، وأعلى مستويات من الاستثمار الأجنبي والأمن. لقد انتهت العزلة الدولية حيث تحمل شركات الطيران الأوروبية المسافرين وحتى السياح من ميونيخ وفيينا مباشرة إلى السليمانية وأربيل.

وتستمتع القوات متعددة الجنسيات بالراحة والاسترخاء في فنادق دهوك ومنتجعات دوكان. وتتدافع إدارات النفط من الولايات المتحدة وأوروبا لجذب الاهتمام الكردي. استبقى الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني بيتر غالبريت، السفير من عهد كلينتون، للقيام بالضغط من جانبهم، وحتى اقتراح إقامة قاعدة عسكرية أميركية في المنطقة.

منذ خمس سنوات مضت، كان الوضع مختلفاً تماماً في حين كان أكراد العراق يتمتعوا فعلياً بحكم ذاتي منذ عام ١٩٩١، فقد هيمن الشك على حياتهم اليومية. كانت ثقة أكراد العراق ضعيفة جداً بأن الولايات المتحدة والأمم المتحدة سيقوموا بأكثر من إدانة بغداد أو زيادة العقوبات في حال تحرك الجيش العراقي نحو الشمال.

في عام ١٩٧٥ ضحى وزير الخارجية هنري كيسنجر بأكراد العراق مقابل اتفاق تبني سياسة واقعية مع بغداد، التي كان يسيطر عليها نائب الرئيس في حينه صدام حسين والتزم المجتمع الدولي بشكل عام الصمت عندما استخدمت الحكومة العراقية الأسلحة الكيماوية ضد المواطنين الأكراد عام ١٩٨٨.

وقامت القوات الأميركية بالقليل عندما أمر صدام قوات الحرس الجمهوري

باحتلال إربيل عاصمة اقليم كردستان عام ١٩٩٦. بينما قامت إدارة كلينتون بإدانة التحرك، تجاهلت الدول الغربية ومنظمات حقوق الإنسان الدولية بشكل كبير المنطقة الوحيدة الحرة نسبياً في العراق التي عانت ليس فقط من عقوبات الأمم المتحدة وإنما أيضاً في ظل الحظر المنفصل الذي فرضه حكم صدام في بغداد، والذي أعطاه الأمين العام للأمم المتحدة في حينها بطرس غالي السلطة لتوزيع الغذاء والدواء على كردستان العراق بموجب برنامج الأمم المتحدة « النفط مقابل الغذاء » . في أواخر عام ٢٠٠١، أكدت إدارة الدولة بأن سفر المواطنين الأميركيين إلى كردستان العراق غير قانوني بموجب جوازات سفر أمريكية وذلك بناءً على العقوبات الأميركية وعقوبات الأمم المتحدة المفروضة.

في أول مارس/ آذارعام ٢٠٠٣ أعطى قرار تركيا عدم المشاركة في عملية (تحرير العراق) حكومة إقليم كردستان دفعاً إستراتيجياً غير متوقعاً. في حين أن القوات الخاصة الأميركية قد تشاركت مع ميليشيات البشمركة / قوات حرس إقليم كردستان /والقيادة السياسية الكردية في الأشهر السابقة لاندلاع العداوات، وقد ارتأى مخططو الجيش الأمريكي شراكة أكثر قوة مع تركيا.

في فبراير /شباط عام ٢٠٠٣، كرر الدبلوماسيون الأميركيون والأتراك وضباط الجيش مذكرة دبلوماسية شاملة لاستعراض فهم التعاون الأميركي-التركي في العراق.

كان المسئوولون الأكراد العراقيون مقتنعين تماماً بأن العلاقة التركية مع واشنطن يجب أن تحتل الأولوية على اهتماماتهم الخاصة التي اختطوها ليس لمنع التدخل التركي ولكن للحصول على موافقة، في البداية، أن يحدد البنتاغون الوجود التركي في العراق إلى ممرات تزويد محددة في شمالي العراق، وثانياً أي فريق تركي حقيقي يمكنه العمل فقط في مناطق جنوب أو شرق تكريت، ومناطق العمل التي تعتقد إربيل بأنها تحد من التأثير التركي في منطقة كركوك المتنازع عليها.

أدى رفض البرلمان التركي المشاركة مع الولايات المتحدة للتحالف إلى قطع النفوذ الإستراتيجي التركي ودعم الأهمية الإستراتيجية للقوات الكردية العراقية لأهداف الولايات المتحدة. بدلاً من العبور من تركيا قامت القوات الأمريكية بالهبوط بالمظلات في مهابط حرير، في شمالي اربيل. قد تكون البشمركة قامت بالسلب أكثر من القتال في الأسابيع الأولى من الحرب، ولكن، رمزياً، عززت العلاقة المتنامية مع القيادة المركزية الأمريكية الشكوكية، المعتادة أكثر على رأي

العالم بالقادة العرب وأقاربهم في الهيئات العامة أكثر من الاهتمامات الكردية.

وقد دعمت الرومانسية أيضاً العلاقة الأمريكية-الكردية. كان من الصعب على العديد من أفراد الجيش الأمريكي إلا يتعاطفوا مع أكراد العراق: كان العديد قد اختبر أكراد العراق عام ١٩٩١ عندما ساعدوهم في صد الهجرة والمجاعة الكبيرة من خلال عملية توفير الراحة. وبالعودة بعد اثني عشر عاماً، وجدوا بأن المنطقة قد تحولت، على الرغم من العقبات العديدة، بفضل القيادة الكردية.

كما سهلت الثقافة الكردية المحلية العلاقة مع الولايات المتحدة. يصر كلٌ من دبلوماسيي وضباط الجيش التركي على المضي قدماً في المراسم والالتزام المتزمت بقواعد المقاطعة بدلاً عن تسهيلهم للعلاقات. يشعر القليل من الدبلوماسيين الأمريكيين بالمودة تجاه محاوريهم الأتراك.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الأكراد العراقيين يمطرون المسئوولين الأمريكيين بالضيافة، وتحضير مآدب سخية، وفي بعض الأحيان تسهيل العلاقات مع النساء.

يضع الحزب الديمقراطي الكردستاني المسئوولين الأميركيين في أماكن ضيافتهم ويقدموا الهدايا لمسئولي إدارة الدولة والجيش تتراوح ما بين السجاد الحرير والمجوهرات الذهبية. و في حين يرفض معظم المسئولين الأمريكيين مثل هذه الهدايا، خلال فترة سلطة الائتلاف المؤقتة، فإن بعض المواطنين المسئولين المدنيين الأميركيين وضباط الجيش يقبلون بها.

ومن أساليب تعزيز التأثير الكردي في واشنطن كان استئجار حكومة إقليم كردستان لخدمات ضباط ومسئولين سياسيين أميركيين سابقين لتمثيلهم. فمثلاً قامت القيادة الكردية بتوظيف شركة ضغط يديرها روبرت د. بلاكويل، نائب مستشار سابق في الأمن القومي، لتمثيل مصالح الأكراد في واشنطن ولتحضير لقاءات مع مسئولي الإدارة.

هاري سكوت، القائد العسكري السابق في الكتيبة ٤٠٤ للشؤون المدنية المرتكزة في اربيل، استقال من مهمته العسكرية ليصبح مستشاراً مأجوراً لرئيس الوزراء الكردي نيجيرفان بارزاني. كلاً من الجنرال غارنر (المتقاعد) والكولونيل ديك ناب (متقاعد)، اللذين قادا الإدارات المدنية في فترة ما بعد الحرب في بغداد واربيل، على التوالي، عادوا إلى كردستان العراق من أجل عقود. بينما قام قوباد طالباني، نجل جلال طالباني، الرئيس العراقي و زعيم الإتحاد الوطني الكردستاني، بالطلب من الأكراد ومن أصدقاء الأكراد العراقيين أن يتبرعوا لصالح الحملات الانتخابية الأميركية لأعضاء الكونجرس الذين يتعاطفون مع الاستقلال الكردي.

أدت مشاركة الأكراد إلى جانب القوات الأميركية في (تحرير العراق)، خاصة مقارنة مع الأفعال التركية، بالقيادة الكردية إلى التعبير عن إحساس بالجدارة. واستجابة لسؤال في مقابلة عام ٢٠٠٣ حول المكافأة المتوقعة لأكراد العراق لقاء دعمهم للأهداف الأمريكية، قال مسعود بارزاني رئيس إقليم كردستان: إن مطلبنا الأساسي من الولايات المتحدة وبريطانيا...هو دعم نضالنا لإحراز حقوقنا الوطنية. في مقالة عام ٢٠٠٥ بخصوص الموضوع نفسه، أشار بارزاني، بعد القوات المسلحة الأمريكية، كانت قواتنا من البشمركة أكبر عضو في التحالف.

و يبدو بأن تعاليم بوش بإقامة تحالف مع كردستان العراق طبيعياً كما تؤكد الدراسة .. فقد كانت الدبلوماسية وموضوع التحول إلى الديمقراطية في صدارة جدول الأولويات، على الأقل بيانياً ونظرياً، في سياسة البيت الأبيض. وقد يبدو هنا كردستان العراق على أنه نموذجاً. قبل سقوط صدام بسنتين، وصف كارول أوليار، طالب مقيم في مركز الجامعة الأميركية للسلام الكوني، كردستان العراق بأنها بوتقة للديمقراطية ونموذجاً لعراق ما بعد صدام. أطلق سفير كير أوريدسون وأولي شميدت، مؤرخ في جامعة لوند وسياسي سويدي على التوالي، على منطقة كردستان العراق منارة للديمقراطية في الشرق الأوسط.

في عام ٢٠٠٦ قامت حكومة إقليم كردستان التي تدير التعاون التنموي الكردستاني بوضع إعلانات تلفزيونية في الولايات المتحدة تصف كردستان العراق بأنه «يمارس الديمقراطية منذ أكثر من عقد من الزمان». مع العلم بأن الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني لم يسمحا بأي تحديات انتخابية جدية، إلا أن المغالاة المتعلقة فهي في حين كانت باقي أنحاء الدولة التي ترزح تحت حكم صدام كانت الأقاليم الثلاثة المحكومة من قبل مسعود بارزاني وجلال طالباني قائد التحالف الوطني الكردستاني أكثر حرية.

ولكن لم يكن لا بارزاني ولا طالباني ديمقراطيان. خلال الحرب الأهلية الكردية الداخلية ١٩٩٤-١٩٩٧، قام القائدان الكرديان بانتهاك حقوق الإنسان بشكل كبير: فقد اختفى المناوئون وأمر بارزاني وطالباني بإعدام السجناء. ويقدر اليوم نشطاء أكراد العراق في المناطق التي يحكمها القياديان السياسيان بأنه لا يزال هناك ثلاثة آلاف سجين كردي مصيرهم غير معروف، ولكن منظمات حقوق الإنسان الإقليمية تقول بأن القادة السياسيين يمنعان أي مطالبة من عائلات المفقودين. وخلال محاكمة صدام عام ٢٠٠٦، أشار العديد من المثقفين الأكراد في الجامعات الإقليمية والمقاهي بسخرية إلى أن القيادة الكردية العراقية قد ارتكبت بعضاً من الجرائم، وإن

كان دون استخدام الأسلحة الكيماوية، التي كان يحاكم على أساسها صدام.

لقد تغير العراق ولكن كردستان العراق لم تتغير بعد سقوط صدام، توقع العديد من أكراد العراق بأن منطقتهم سوف تتحرر وتصبح ديمقراطية. فبدلاً من الإصلاح تعاظمت السياسات الإقليمية. حافظ بارزاني على حكم ديكتاتوري على محافظتي دهوك واربيل، وطالباني بالمثل يسيطر على السليمانية في حين أنه ليس دقيقاً أن توصف القيادة الكردية، على الأقل من جانب الإتحاد الوطني الكردستاني، على أنها عشائرية، فقد كان الطرفان يعتمدان على أفراد العائلة في الحكم. فقد عين بارزاني ابن أخيه رئيساً للوزراء وكلف ابنه مسرور ذى الخمس وثلاثون عاماً بإدارة وكالة المخابرات المحلية. بينما يحكم أقارب آخرون شركات الهاتف الإقليمية، والصحف والإعلام.

وبالمثل تدير هيروخان، زوجة طالباني محطة التلفزيون الفضائية المحلية. وفي حين أن أحد أبناء جلال طالباني يدير عمليات مخابرات التحالف الوطني الكردستاني، فإن الآخر (قوباد طالباني)ممثل لحكومة إقليم كردستان في واشنطن. وعندما حان الوقت لتوزيع الحقائب الوزارية في بغداد، استدار كلا القائدين الكرديين إلى عائلاتهم: أعطى بارزاني خاله هوشيار زيباري وزارة الخارجية، بينما طالباني أعطى صهره عبد اللطيف جمال رشيد حقيبة الموارد المائية وأخ زوجته إلى السفارة في الصين. ولكن النقطة التي هي في صالح طالباني هي أن رجاله مؤهلون.

يسيطر كل من بارزاني وطالباني « وفقا للدراسة» على الشركات القابضة، فبعضها مرتبط بأقاربهم والبعض الآخر بأحزابهم السياسية. حوّل طالباني الأراضي الحكومية، بصفته قائد الإتحاد الوطني الكردستاني، إلى أقاربه لكي يكسبوا الفوائد. في إحدى الحالات، استخدم نوكان، وكيل أعمال الحزب، كوسيط لطرد اللاجئين من الأرض التي يرغب حزبه في تطويرها لرعاية أعضائها. وبما أن كلاً من الحزب الديمقراطي الكردستاني والأتحاد الوطني الكردستاني يسيطران على التعيينات القضائية، يفتقد اللاجئون والمواطنون العاديون الذين ليس لديهم علاقات رفيعة المستوى للاحتكام إلى القضاء خلال الزيارات الدورية للسجون اكتشف مراقبو حقوق الإنسان المستقلين رجال أعمال مسجونين دون أي تهمة ويقولون بأنهم مسجونين بموجب قرار من أحد أبناء بارزاني بعد أن رفض شراكات خفية مع رجال أعمال من عائلة بارزاني.

وتشير الدراسة إلى أن بارزاني وطالباني قد كدسوا ثروات تفوق ٢ مليار و٤٠٠ مليون دولار، على التوالي. حيث إن القيادة السياسية الكردية تجادلت ذات مرة على

عائدات الجمارك، قامت اليوم بدمج الخزينة الوطنية مع أموال الرشوة للحزب والمحافظ الشخصية. عملياً هنالك فرق بسيط بين ملكيات بارزاني وطالباني كأفراد وممتلكات أحزابهم السياسية وحكومة إقليم كردستان بمجملها. قام بارزاني بتحويل منتجع عام في «ساري راش» إلى مجمع شخصي، وقام أفراد عائلته ووزرائه ببناء منازل فخمة على الأراضي العامة المجاورة.

تسيطر على مفاوضات النفط الحديثة الضبابية المستمرة على الأصعدة السياسية والتجارية الكردية. للحصول على امتيازات التنقيب عن النفط وعقود التنمية في اربيل ودهوك يجب أن تقيم الشركات شراكة خفية مع رابطة معينة من قبل بارزاني. يقول العديد من المسئوولين المقربين من مفاوضات النفط المختلفة بأن روابط بارزاني قد طلبت نسب وصلت حتى ١٠% من العائدات المستقبلية على أن تحول إلى بارزاني شخصياً وقيمة مساوية لحزب بارزاني السياسي. أن الخزينة العامة لحكومة إقليم كردستان أمر ثانوي، حتى وإن كان النفط، ولو نظرياً، مصدر لكامل منطقة كردستان، أن لم نقل للعراق. أن مثل هذه المضاربات في المصالح ليست جديدة.

تناقش الوثائق التي ضبطت بعد سقوط صدام معاملات تجارية بين نيجرفان بارزاني وأبناء صدام. ينتشر الفساد بسرعة كبيرة في هذا الوسط. بناءً على معلومات منظمات غير حكومية في حلبجة، عام ٢٠٠٦، دمر حريق مشكوك بأمره أرشيف اتحاد المعلمين من الاتحاد الوطني الكردستاني بعد أن صدر أمر بإرسال لجنة تدقيق حسابات بخصوص اختلاسات من أموال الاتحاد. إلا أن العديد من أكراد العراق يقولون بأنهم يأملون بأن يحفز الوجود الأميركي الإصلاح والشفافية والمحاسبة.

وتشير الدراسة إلى أنه يجري التحكم السياسي في العمق. في حال وجود ضحية تتعلم من جلادها، فإن كلا الحزبين يكرر آليات حكم حزب البعث. ينتدب كل من الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني ممثلين ليس فقط إلى صفوف الكلية وإنما إلى المدارس العليا. في بعض الحالات، هؤلاء الطلاب الممثلين الذين يقومون بعمل المفوضين السياسيين لا تتجاوز أعمارهم الأربعة عشر أو خمسة عشر عاماً: يقومون بتجميع تقارير عن المناقشات داخل الصف إلى جانب المناقشات الخاصة، التي تقوم مخابرات الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني بتفحصهم.

تجري أجهزة الاستخبارات في العمق، ويكون التعذيب شائعاً. يبدو بأن كلا

الحزبين الكرديين يحذون حذو حزب البعث. بينما لا يلتزم أي منهما بأيديولوجيات تأسيسهم (مثلاً عدد قليل من أعضاء المكتب السياسي، يلتزمون بجدية بمعتقدات الاشتراكية الدولية، على الرغم من أن الإتحاد الوطني الكردستاني عضو في هذه المنظمة)، يمضي الأعضاء الطموحين بالإخبار عن زملائهم.

يتعامل الأكراد مع الأجانب بشكل جيد، ولكن ينظرون إليهم بعين الشك: يقوم سائقو سيارات الأجرة المتوقفين خارج فنادق السليمانية برفع تقارير إلى مخابرات الإتحاد الوطني الكردستاني. عادة ما يقوم الاتحاد باستضافة الأجانب في مترات ضيافة منتجع صلاح الدين. وفيما هم مرتاحين، يجبرهم التحالف على الاعتماد على سائقي الحزب (لا يمكن لسائقي سيارات الأجرة الاقتراب من هذه المنشأة.(ويوجه عادة الحزب الديمقراطي الكردستاني سائقي سيارات الأجرة بعدم نقل الغربيين الذين لم يحصلوا على إذن من رئيس مخابرات الحزب الديمقراطي الكردستاني للتحرك بين المدن.

أما طاقم العمل في الفنادق الرئيسية في إربيل ودهوك والسليمانية فيفترض أن يكونوا من أعضاء الحزب؛ هناك الكثير منهم مرتبطين مع أجهزة المخابرات ويعدوا ملفات عن الزوار والأشخاص الذين يقابلونهم. قامت جامعة دهوك بتركيب سوفت وير للتعقب على أجهزة الكمبيوتر التي يستخدمها الأجانب؛ ومن المرجح بأن الكليات والجامعات الإقليمية الأخرى تقوم بعمل الأمر نفسه.

وتشير الدراسة إلى أن عواقب عدم الانقياد بخط الحزب له جذور عميقة: الطلاب الذين ينتقدون الحزب أو قيادته يوضعون على القائمة السوداء من حيث التوظيف وفرص التعليم. في جامعة صلاح الدين، مثلاً، الطلاب الحاصلون على درجات عليا ولكن غير مرتبطين بالحزب الديمقراطي الكردستاني يجب أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم غير كفوئين.

يتمتع بارزاني وطالباني بآليات أخرى للحكم. (البشمركة تحديداً)، أولئك الذين يواجهون الموت، يكون عملهم كجيش لكردستان العراق أقل من عملهم كمليشيا لفرض رغبات قادة الأحزاب السياسية. على الرغم من الاتحاد الاسمي بين إدارتي القادة الكرديين، فإن أجهزة استخبارات الأحزاب والمليشيا تبقى مستقلة. المسافرون الواصلون إلى كويسنجق، أول مدينة رئيسية في منطقة الاتحاد الوطني الكردستاني يتم التحقيق معهم من قبل بشمركة التحالف الوطني الكردستاني وفي بعض الأحيان من قبل أجهزة مخابراتهم أيضاً.

غالباً يكون أعضاء البشمركة فوق القانون. في إحدى الواقعات الحديثة، قام عضو في البشمركة بإطلاق النار على ضابط شركة أثناء الوقوف على إشارة مرور عادية. وقام زملاء المشتبه بنقله من سجن الشرطة لكي يمنعوا على المدعي العام محاولات توجيه الاتهامات له.

ليس هناك تحقيقات ولا توازنات، أن حرية الصحافة في كردستان العراق في تراجع، حتى أثناء توسعهم في المناطق غير الكردية.، تستخدم زوجة طالباني نفوذها على كل من المحطة الفضائية المحلية والمجلة المحلية لضبط النقد.

وعلى الرغم من وجود صحيفتين مستقلتين في كردستان العراق، «أوين» و«هاولاتي»، فإن القيود تتزايد عليهما. يستخدم كلا الحزبين تحكمهم بمحاكم القانون بالتهديد، والإفلاس وحتى حبس الصحفيين الذين ينتقدون الأحزاب الحاكمة والمسئولين. مثلاً لاحق الإتحاد الوطني الكردستاني محررين من «هاولاتي» بعد أن اتهمت الصحيفة رئيس الوزراء فى حكومة كردستان بإساءة إستخدام السلطة. وقد هدد مكتب نيجرفان بارزاني بمحاكمات تافهة للكتاب والمحللين الأجانب الذين لا يلتزموا بخط الحزب.

أما أولئك الذين يرفضون الانضمام أو على الأقل أن يلتزموا الصمت يواجهون أجهزة الاستخبارات. في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٦ قامت المخابرات السرية للحزب الديمقراطي الكردستاني باختطاف الصحفي النمساوي-الكردي كمال سعيد قادر بعد كتابته مقالات تتناول الفساد ضمن جماعة بارزاني الحاكمة وقام بنشر وثائق تشير إلى الروابط بين الملا مصطفى بارزاني ومسعود بارزاني الأب، وأجهزة الاستخبارات الروسية. بعد محاكمة لمدة ١٥ دقيقة، حكم قاضي الحزب الديمقراطي الكردستاني على كمال بالسجن لمدة ثلاثين عاماً، ولم يستبدل هذا الحكم حتى قامت حملة من المنظمات غير الحكومية الدولية وبعد إدانة الحكم من قبل إدارة الدولة[(١)].

تظهر الإدارات الكردية بأنها مصممة على استعادة التحكم السياسي المحكم على الصحافة. ويبقى القانون الكردي معتمداً على القانون العراقي. المادة ٤٣٣ من قانون الجنايات العراقي، الذي سنه حزب البعث، يساوي بين كافة الانتقادات على أنها جرائم قذف. اتحادات الصحفيين المحلية التي رغبت بتغيير هذا النتاج

(١) في جزء سابق من الكتاب قصة اختطاف وقتل الصحفي الشاب سردشتا عثمان من باقة جامعة صلاح الدين أمام زملائه وإلقاء جثته في إحدى مناطق الموصل بمحافظة نينوى

قوبلوا بغضب بارزاني. في ٢٠ كانون الأول ٢٠٠٧، أبلغ بارزاني البرلمان أن يعيد النظر بالتشريع الذي قد يقلب قانون الصحافة من العهد البعثي ويجيز انتقاد حكومته.

كما لم تكن المنظمات غير الحكومية جهات مستقلة. تعمل معظم المنظمات الكردية تحت رعاية القيادة السياسية الكردية. مثلاً تعتمد منظمة رعاية الأطفال الكردية على رعاية زوجة طالباني وتعمل بشكل كبير بموجب أهداف الحزب. أما عمال المساعدات الخارجية فيقولون بأن كلاً من الحزب الديمقراطي الكردستاني والتحالف الوطني الكردستاني قد أصرا على تشغيل أعضاء الحزب في حال أرادا العمل بالتنسيق مع الحكومة المحلية. عندما رفض موظفون أكراد مستقلون يعملون مع الوكالة الأميركية للتنمية الدولية إطاعة تعليمات التحالف الوطني الكردستاني، قام مسئولو أمن الحزب بصياغة ملفات عنهم وقدموا مزاعم عن اعتبارات أمنية إلى إداريي الوكالة، الذين قاموا فوراً بطرد المستقلين وتعيين الموالين للاتحاد الوطني الكردستاني.

مع بعض الاستثناءات القليلة جداً قامت منظمات حقوق الإنسان المحلية ووزارة حقوق الإنسان الحكومية بالتركيز على الأعمال الوحشية ضد الأكراد في ظل نظام صدام، بدلاً من الإساءات التي توجهها القيادة السياسية الحالية.

بينما كانت الهوة بين القيادة الكردية والناس الذين يدعون بأنهم يمثلونهم تزداد عمقاً، كان التنافر أيضاً يزداد. يشعر العديد من الأكراد بالعجز. ليس هنالك محاسبة، حتى عندما تقوم الحكومة بإصدار قرارات متعجرفة مثل توفير ٢٤ ساعة من الكهرباء لإضاءة قبر إبراهيم أحمد، والد زوجة طالباني، بينما يقطع التيار الكهربائي عن اللاجئين الأكراد.

وأوضحت الدراسة أن قرار التحالف الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي الكردستاني للدخول في نفس قائمة الانتخابات علناً واقتسام المناصب سرياً قد أثرت سلبياً على منع حق الاقتراع عن الشعب المحلي. عندما بدأ الاتحاد الإسلامي الكردستاني، الجناح غير العنيف من الإخوان المسلمين، باعتداءاته، قامت حشود يرعاهم الحزب الديمقراطي الكردستاني بإحراق مكاتب الحزب في عدد من المدن وقتلت رئيس الحزب في دهوك.

حتى بعد تنظيمهم لتجنب المنافسة، لمس دبلوماسيو الولايات المتحدة وهيئة الانتخابات المستقلة بأن الحزب الديمقراطي الكردستاني يقوم بتزوير فاضح في الانتخابات في كافة أنحاء البلاد، باستخدام البشمركة لمنع وصول الناخبين

وقيام مراقبي الحزب بتعبئة صناديق الاقتراع. كان التزوير لا مبرر له، حيث أنه بدون هذا التزوير فإن آلة الحزب والمصادر كانت الضامن للفوز، حتى وإن لم تكن على نفس الدرجة مما قام به الديكتاتوريين

وخلصت الدراسة إلى أنه قد لا يكون كردستان العراق منارة للديمقراطية التي يدعيها ممثلوه، ولكن الواقعيين في مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية قد يجادلون بأن ممارساتهم تجاه الشعب غير هامة بالنسبة للمصالح الأميركية، خاصة إذا ما استمرت المنطقة الكردية بكونها مؤيدة للمصالح الأميركية.

إن مثل هذه الحسابات متسمة بقلة التمييز. وبما أن حكومة الولايات المتحدة قد دعمت كلا القائدين الكرديين، فإن الأكراد بشكل عام يربطون سوء سلوك قادتهم بسياسة الولايات المتحدة. تتزايد عبارات الاستياء عندما يعزو الأكراد إساءات قادتهم للمصالح الأمريكية: عام ٢٠٠٦، مثلاً، عندما طلبت الحكومة الأميركية بمكان من أجل مكاتبها في السليمانية، قام طالباني بطرد كلية تقنية بدون سابق إنذار، أن لم نذكر الإجراء المناسب، مما أدى إلى غضب شريحة كبيرة من الشعب.

وتشير الدراسة إلى أنه:

خلال الأسبوع الأول من يوليو /تموز ٢٠٠٣، كانت وحدة عسكرية أميركية تقوم بدورية في الجبال في الشمال الشرقي للعراق حوالي ثلاثين ميلاً من الحدود الإيرانية وصادفوا نقطة تفتيش غير رسمية للحزب الديمقراطي الكردستاني، حيث قاموا بمصادرة حفنة من جوازات السفر الإيرانية والأموال. لقد استخدم مسئولو الحزب الديمقراطي الكردستاني هذه النقطة لتسهيل تمرير الإيرانيين، بالسماح للعاملين الإيرانيين باستبدال جوازات السفر الإيرانية بوثائق هوية كردية محلية، مقابل مبالغ مالية واعترف القادة الأكراد بسرية بأن هذه الحالة لم تكن وحيدة.

في بداية التمرد العراقي في أبريل /نيسان عام ٢٠٠٤، أصبحت كردستان العراق منطقة عبور لأنصار السنة: فقد دخل أفرادها كردستان العراق من إيران وتمكنوا من الوصول بسلام إلى الموصل مركز محافظة نينوى / ٤٠٠ كم شمال بغداد/ مقابل اتفاقية بعدم القيام بعمليات في المحافظات الشمالية الثلاث أربيل والسليمانية ودهوك/، وربما إلى جانب دفع مبالغ معينة.

وتؤكد الدراسة أن التعامل المزدوج للأكراد مع إيران مستمر حتى اليوم .. مشيرة إلى أنه في ١١ يناير /كانون الثاني عام ٢٠٠٧ وفي ٢٠ سبتمبر /أيلول عام ٢٠٠٧ داهمت القوات الأمريكية المنشآت في إربيل والسليمانية وألقت القبض على ستة من أفراد

الاستخبارات الإيرانية.. فيما كان المسؤولون العراقيون يحتجون في كل مرة على الاعتقالات[1].

بعد الواقعة الأولى، أصدر مكتب بارزاني بياناً يقول فيه يُفضل إعلام الحكومة الكردية قبل اتخاذ إجراءات ضد أي شخص، وفي الواقعة التالية، وصفت حكومة إقليم كردستان الاعتقال بأنه غير شرعي وقالت بأن إن مثل هذه الإجراءات لا تخدم أحداً. أن القرار بعدم تحذير السلطات الكردية لم يكن سخافة دبلوماسية وإنما كان نتيجة للخبرة، فإن صانعي القرار الأمريكيين فقدوا الثقة بالسلطات الكردية من عدم إفشائها معلومات حساسة ذات علاقة بالعمليات. فيما إذا كانت القيادة الكردية أو التابعين لها في البشمركة وأجهزة الأمن يقومون بذلك للتوصل ببراعة إلى سلطات إقليمية أو لأسباب شخصية فإن ذلك ليس هاماً.

إن رفض السلطات الكردية اللاحق، من جانب كل من حكومة إقليم كردستان وهوشيار زيباري، وزير خارجية العراق وخال بارزاني والشخص المختار للمنصب، بتزويد المسئولين الأمريكيين بقائمة دبلوماسية قد قطعت ثقة القوات متعددة الجنسيات بالقيادة الكردية. أن مثل هذه القائمة التي لا مبرر لوجود السرية حولها سوف تمكن السلطات الأمريكية من تحديد الوضع الدبلوماسي قبل العمليات.. كما يظهر الرفض الكردي عدم الاستعداد لمساعدة الجهود الأمريكية لمواجهة تسلل عناصر الحرس الثوري الإيراني.

وترى الدراسة أن عداوة بارزاني مع تركيا تقطع أيضاً أي إمكانية للتحالف مع الولايات المتحدة. ينظر العديد من المسئولين الأكراد إلى العلاقات الأمريكية- التركية على أنها لعبة يخرج فيها الطرف الثاني صفر اليدين: فإما أن تقوم واشنطن بتنفيذ صداقة مع إربيل أو أن تتحالف مع أنقرة. لا يفهم معظم المسئولين الأكراد بأنه لا يفترض بالعلاقات أن تكون مقتصرة. غالباً ما تقول السلطات الكردية للمسئولين الأمريكيين الزائرين بأن كردستان العراق ستكون حليفاً أفضل بكثير من تركيا. فهم لا يفهمون لا اتساع العلاقات الأميركية التركية ولا مدى الاستخفاف الذي تلاقى به المطالب الكردية حيث أن واشنطن تقوم بفلترة حلفائها عبر مصالحها في أي دولة أخرى. لا يتمتع بارزاني بهذا النوع من التمرس ويبدو

---

(١) أثناء رحلتي إلى معسكر مجاهدي خلع وهي المعارضة الإيرانية الرئيسية واكتشفت أن كل ضيوف المعسكر سواء عرب أو أجانب يأتون من خلال مطارات وإقليم كردستان وبتسهيلات في الدخول إلى العراق والانتقال إلى معسكر أشرف.

عازماً على إجبار البيت الأبيض على الاختيار بين أنقرة وإربيل. في حال قيامه بذلك، فإن القيادة الكردية سوف تصاب بخيبة أمل.

وترى الدراسة أنه ليس هناك سبباً جازماً بأن بارزاني يجب إلا يدافع عن المصالح الكردية، ولكن غالباً ما تتحول بياناته إلى تهديدات. في ديسمبر /كانون الأول ٢٠٠٥ مثلاً أوضح بأنه أن لم تنضم مدينة كركوك الغنية بالنفط إلى إدارته بحلول ديسمبر كانون الأول ٢٠٠٧، فسوف يشعل فتيل الحرب الأهلية في كل أرجاء العراق. ثم في أبريل/ نيسان ٢٠٠٧ هدد بمساندة التمرد في تركيا في حال لم تذعن أنقرة لمطالبه في كركوك. يتورط الإعلام الذي يسيطر عليه حزبه بنفس النوع من التحريض ضد تركيا كالذي يقوم به الإعلام الفلسطيني ضد إسرائيل. تظهر الخرائط التي تباع في ظل برلمان حكومة إقليم كردستان بأن منطقة كردستان الكبرى تمتد إلى داخل تركيا. تشير الصحف الكردية إلى كردستان العراق على أنها جنوب كردستان، ويكمن المعنى الضمني بأن تركيا الجنوب شرقية هي شمال كردستان.

من هذا المنطلق أصبحت علاقات بارزاني مع حزب العمال الكردستاني معضلة. قد لا يكون بارزاني قومياً، ولكنه واقعي أيضاً. إنه يكره حزب العمال الكردستاني القوي، ليس لأن إرهابه يلوث قضية القومية الكردية ولكن لأنه يقدم بديلاً. عبد الله أوجلان، قائد الحزب، سعى إلى الصدارة على منافسيه الأكراد العراقيين. بارزاني وطالباني مثل الأقدام والأذرع، أما أنا فالرأس الأساسي أو العقل ، كما فسر أوجلان الأمر في مقابلة معه عام ١٩٩٨. أمر بارزاني وطالباني جماعاتهم من البشمركة في التسعينات بمقاتلة حزب العمال الكردستاني في أي مكان يحاولون فيه إنشاء موطئ قدم لهم في مناطقهم.

في ذلك الوقت، طلب بارزاني من الحكومة التركية أن تساند جماعته من البشمركة وأن يحاربوا معه ضد المجموعة الإرهابية بناءً على ما يقوله عدد من الدبلوماسيين وضباط المخابرات الأتراك. وأدرك بارزاني بأن أي ملاذ آمن لحزب العمال الكردستاني سيكون لعنة لمصالحه وتحرك لمنع ذلك. ولكن بوجود أوجلان في السجن لم يعد يشكل حزب العمال الكردستاني تهديداً لتفوقه السياسي، تبنى بارزاني المجموعة لاستخدامها كأداة ضد تركيا.

بعد قرار البرلمان التركي في أول مارس/آذار ٢٠٠٣ بعدم المشاركة في التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ضد صدام، غدا بارزاني على ثقة كبيرة بتقديراته بخصوص الصداقة مع واشنطن واتخذ خطاً حامياً ضد أنقرة. فاستقبل قادة حزب

العمال الكردستاني في منطقته، وخاصة في منطقة المثلث الحدودي إيران، العراق وتركيا. في حين أن المتحدثين باسم بارزاني وحكومة إقليم كردستان قد كرروا وعودهم بحملة لفرض النظام كان بارزاني في الواقع يكرر إستراتيجية رئيس السلطة الفلسطينية الراحل ياسر عرفات: كان ينكر التورط بالإرهاب ولكن مع ذلك يسعى إلى رفعه إلى مكاسب دبلوماسية.

إنه يقول للدبلوماسيين الأميركيين بأن تهديد حزب العمال الكردستاني سوف يختفي في حال عرضت أنقرة المزيد من التنازلات فيما يخص العفو العام والإذاعة والإصلاحات الدستورية، بينما في الوقت نفسه يشجع قادة حزب العمال الكردستاني على الاستمرار في الهجمات، وفي الواقع، يسهل لهم هذه العمليات الإرهابية.

تقول السلطات التركية بأن لديهم صور لقادة رفيعي المستوى من حزب العمال الكردستاني يتلقون الرعاية الطبية في مشافي إربيل ويلتقون مع حلفاء بارزاني في المطاعم المجاورة. عن طريق بيع المؤن والغذاء، حصل بارزاني على ربح جيد، وعندما انخرط أفراد عائلته بالتجارة أصبحوا مدمنين عليها. يشك المسئولون الأتراك بأن ابن بارزاني يبيع السلاح لحزب العمال الكردستاني. أن هذه المعلومة أجبرت أنقرة على اتخاذ ذلك النهج القاسي ضد كردستان وأقنعت المسئولين الأميركيين بدعم أنقرة، حتى عندما كانت الطائرات الحربية التركية تقصف الأهداف الكردية.

وتقول الدراسة أن كردستان العراق يعيش في الماضي، حيث يمضي بسمعة زائفة، وينعزل عن الواقع بفضل مديح مجموعات الضغط والمستشارين. لدى كل من بارزاني وطالباني سبباً لكي يشعروا بالفخر: في أواخر التسعينات وقبل الإطاحة بصدام، كان كردستان العراق قصة نجاح، ديمقراطي نسبياً ومزدهراً حتى في ظل العقوبات. قد يعذر الأكراد أخطاء قادتهم بسبب الأزمة الأكبر، ولكنهم يتحلون بالأمل في المستقبل.

كل جيل ينمو بمزيد من العزلة والفساد. بعد تحرره من ظل صدام انزلق كردستان العراق إلى الخلف. ومع رفع العقوبات انتشر الفساد بشكل كبير.. بينما يخبر بارزاني المستثمرين عن خططه بتحويل المنطقة إلى دبي جديدة، لا يفهم بأن إدارته للفساد سوف تعيق مثل هذا النجاح. بينما تزداد الهوة بين الغنى والفقر، وبينما طالباني وبارزاني يستخدمان آليات الحكم لإخماد المعارضة، فإن الأحزاب الإسلامية سوف تزداد شعبيتها، لقد قاموا باعتداءاتهم، أن لم يكن بسبب آرائهم الدينية فإن ذلك بسبب اعتبار الأكراد لهم البديل «النزيه» الوحيد لفساد الحزب الديمقراطي الكردستاني والإتحاد الوطني الكردستاني. يتجنب معظم الأكراد التشدد الديني

للاتحادات الإسلامية الكردية، ولكن في حين أن الحزب يزداد شعبيةً، فإن انتقاده الكبير للسياسة الأميركية ولنظريات المؤامرة حول النوايا الأميركية سوف تتخذ لها جذوراً قوية[١].

يقترح عدد من المسئولين الأكراد العراقيين وبعض المعلقين الأميركيين بأن كردستان العراق يمكنه أن يستضيف الوجود الأميركي العسكري الطويل الأمد، مما سيمكن القوات الأميركية من الانسحاب من باقي أنحاء العراق، حيث لا يلقوا نفس الترحيب. كان هذا الأمر خياراً ذات مرة، ولكن سلوك بارزاني جعله أمراً غير حكيماً. في حين أن قاعدة في كردستان العراق، على الورق، يبدو بأنها قيمة إستراتيجية للبنتاغون، في الواقع قد تكون مسئولية.

حيث أن بارزاني يمكّن، أن لم يكن يرعى، إرهاب حزب العمال الكردستاني ضد تركيا، فإن أي وجود أميركي سوف يحمي كردستان العراق من أي محاسبة. يريد بارزاني قاعدة أميركية على أراضيه لأنها ستوفر له حصانة من الانتقام التركي. في الواقع، أن إقامة أي قاعدة أميركية في كردستان العراق، طالما أن بارزاني بقي في السلطة، قد يؤدي إلى نزاع أكبر. أن بارزاني ليس شخصاً محباً للغير: أن الاختباء خلف كتائب دائمة من القوات الأميركية، سوف يمنحه في الواقع الحصانة التي يريدها.

فيما إذا رغب البنتاغون بإنشاء قاعدة في كردستان العراق، يجب أن يتوقع مشاكل من حزب العمال الكردستاني ومن ازدياد تحريض بارزاني لدول الجوار ، فإن أي قاعدة في كردستان العراق في الظروف الحالية سوف تضمن توسعاً في النزاع. في حال كانت كردستان العراق حليفاً جيداً، فقوة الاستقرار، والتحفظ من الأيديولوجيات المتآكلة للقوميات الإسلاميات العربية، فإن إستراتيجية الولايات المتحدة يجب أن تركز على المصالح الطويلة الأمد.

أن كردستان العراق هامة إستراتيجياً. أن الفيدرالية هي مستقبل العراق. في حين أن الكثير من الخبراء، وفي الواقع، العديد من العراقيين يتوقون إلى عودة الرجل القوي ونمط الحكومة المركزية للعراق، فإن مثل هذا النظام لم يفلح يوماً: كانت العراق على شفا حرب أهلية مستمرة في الفترة ما بين ١٩٦١ و٢٠٠٣، حين كان

---

(١) بسبب حالة السخط العام خاصة من الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه جلال طالبان حقق عزيمة نوشيروان مصطفى زعيم حركة التغيير نتائج مبهرة في الانتخابات النيابية مارس ٢١١٠ وهزم طالبان في معقله بالسليمانية .

العراقيون يقاومون محاولات بغداد فرض إرادتها الديكتاتورية. يبدو بأن القيادة القوية جيدة، ولكن العراق يبقى دولة فيها مئة من الأولويات المتوقعة لكل خصوصية.

يجب أن تتحلى واشنطن بمبدأ عدم السماح بأي نوع من الإرهاب على الإطلاق. لقد اتخذت كردستان العراق خطوات كبيرة، ولكن بارزاني يجازف بكل شيء قد حصله أكراد العراق بتوريط نفسه مع حزب العمال الكردستاني. لقد خان كلاً من الحزب الكردستاني الديمقراطي والتحالف الوطني الكردستاني ثقة واشنطن في تعاملاتهم مع إيران. في حين أنه من الطبيعي أن يكون لكلا الحزبين علاقات مع جيرانهم، فإن بيعهم للمعلومات أو تسهيلهم للتسلل إجراءات غير مقبولة لتواصلهم مع جيرانهم[1].

إن مسئولون القيادة ليست اختيارية. فالقيادة الكردية العراقية المسئولة يجب أن تضع حداً للتحريض. قد تصنع الغوغائية سياسات جيدة وقد تبعد عن مواضيع الفساد والمحاسبة التي يرغب بارزاني بتجنبها، ولكن التحريض يعطي نتائج عكسية. تنشر اللغة الكردية بأن تحكم الأحزاب الحاكمة يؤدي أحياناً إلى تأجيج المشاعر القومية. عن طريق تخصيص خمس وعشرون دقيقة من نشرة أخبار لمدة ثلاثين دقيقة للمطالب الشعبية بالاستقلال، مثلاً، مقابلة أطفال المدارس وجعلهم يسردون المطالب القومية، يجر بارزاني نفسه ومنطقته إلى صراع مع جيرانه. قامت إدارة الدولة بتجاهل مثل هذا التحريض في السنوات الأولى من السلطة الفلسطينية وذلك لكي تحكم الكيان بالفوضى؛ ويجب إلا يتكرر الخطأ نفسه، لأسباب عملية، مع السلطة الكردية. بينما تقصف الطائرات الحربية التركية معاقل الإرهاب في كردستان العراق، فقد حان الوقت لكل من واشنطن واربيل لإعادة النظر بسياساتهم.

لدى واشنطن العديد من الأوراق لاستخدامها. أن التعاطف مع كردستان مفهوم ولكنه يعتمد بشكل متزايد على الأسطورة. يجب إلا تكون الإرادة الطيبة للولايات المتحدة تخويلاً؛ قد يبقى بارزاني حليفاً، ولكنه حرم نفسه من الأهلية لأي شراكة حقيقية. لقد حان الوقت لاتخاذ مبدأ الحب القاسي لكردستان العراق. يجب إلا تكون هناك مساعدات ولا شرعية دبلوماسية طالما أن كردستان العراق بقيت مأوى لحزب

(١) إشارات تقارير إلى قيام الساطت الكردية بتسهيل عمليات تهريب لمشتقات نفطية خاصة السولار إلى إيران المجاورة رغم ما يعانيه العراق من عجز شديد في هذه المواد .

العمال الكردستاني، تبيع الأمن الأميركي لمن يدفع أكثر، وتترك الإصلاح الديمقراطي راكداً.

• طرائف مثيرة

نشر هذا الخبر بصحيفة الشرق الأوسط فى ٨ سبتمبر عام ٢٠٠٨ أنباء عن مقتل ٣عناصر الموساد بكركوك. .ومصادر أميركية وعراقية تنفي نفى اللواء تورهان عبد الرحمن، المدير العام لقوات الشرطة في مدينة كركوك، أنباء مقتل ثلاثة من عناصر جهاز المخابرات الاسرائيلي (الموساد) في مدينة كركوك شمال العراق.

وقال تورهان لـ«الشرق الأوسط» أن «تلك الأنباء عارية عن الصحة تماما ولم تسجل دائرة الحوادث في شرطة كركوك اي حوادث قتل من هذا النوع منذ فترة طويلة». وكانت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية نقلت عن مصادر إسرائيلية أمس نبأ مقتل ثلاثة من عناصر «الموساد» الأربعاء الماضي في مدينة كركوك أثناء عملية أمنية. وبحسب الصحيفة فان القتلى الثلاثة يتحدثون العربية باللهجة العراقية، وان قادة «الموساد» أبدوا استغرابهم من تمكن المنفذين من كشف هوية الرجال الثلاثة الذين كانوا يعملون بغطاء هويات عراقية مزورة وبصفة رجال أعمال.

ويملك القتلى الثلاثة منازل سكنية في المدينة على أساس أنهم عراقيون مغتربون من أهالي الزبير في مدينة البصرة أساساً، وأشارت الصحيفةً إلى أن المنزل الذي كان يقطنه الثلاثة كان محاطاً بمركز للشرطة العراقية وهم أنفسهم محاطون بحرس من العراقيين استأجرهم لهم «الموساد» عن طريق شركة «بلاكووتر» الأميركية.

الى ذلك، قال عبد اللطيف ريان، المتحدث باسم القوات المتعددة الجنسيات في العراق، لـ«الشرق الأوسط» أن «أي حادث قتل لم يحصل ولم يسجل في ذلك اليوم الذي ذكرته الصحيفة بل أن حوادث القتل لم تسجل منذ أسبوع في كركوك».

ونشرت وكالة الأنباء التابعة للحزب الديمقراطى الكردستانى الذى يتزعمه مسعود بارزانى رئيس إقليم كردستان « بيامنير» هذا الخبر على صدر صفحتها يوم ١١ أبريل / نيسان عام ٢٠٠٩ وهى تعليمات للتعامل مع اصابات في فصل الربيع وخاصة ضربات الشمس ويطلب فيها كاتب الخبر عند التعرض لها الإتصال الفورى بنجمة داود الحمراء على الرقم ١٠١!!!!

علوم - تعليمات للتعامل مع اصابات في فصل الربيع

- للتعامل مع اصابات قد تقع في الفترة القريبة، بسبب حلول فصل الربيع

وارتفاع درجات الحرارة التي قد تؤدي إلى الجفاف، وخروج الأفاعي والثعابين والعقارب من حجورها بعد أن كانت مختبأة طوال فصلي الخريف والشتاء.

الجفاف

في حالة الجفاف والذي هو عبارة عن ارتفاع درجة حرارة الجسم في أعقاب حالة الطقس، أو مجهود جسماني كثير اللذين يؤديان إلى التصبب عرقا، وفقدان كمية كبيرة من المياه. ومن عوارض الاصابة بالجفاف: العطش، الحالة بالغثيان، ضيق التنفس، دوخة، اوجاع الرأس، والجفاف الشديد في الفم. لمنع حدوث الجفاف ينصح بشرب كميات كبيرة من المياه. ويتمثل حالة جفاف شديدة بالاغماء وفقدان الوعي، نبض سريع جدا، وارتفاع درجة حرارة الجسم وتوقف العرق. حالة كهذه تعتبر «ضربة شمس» وفي هذه الحالة يجب الاتصال بنجمة داود الحمراء على الرقم ١٠١. في حال وتظهر عوارض الجفاف، يجب التوقف عن أي فعالية جسدية وأخذ قسط من الراحة، الجلوس بمكان مظلل وبارد نسبيا وشرب كمية من المياه.

• لدغة الأفاعي

مع وصول فصل الربيع تخرج الأفاعي من جحورها، وتنتشر في غالبية أنحاء البلاد أنواع قليلة من الأفاعي، ويضاف اليها عدد من الأفاعي المتواجدة فقط في النقب. وفي هذه الفترة تكون قد استفاقت الأفاعي من سبات الشتاء وتكون لديها مخزون كبير من السم. عادة ما تختبئ الأفاعي تحت الحجارة وبين الصخور، لذلك ننصح بعدم رفع الحجارة أو تحريكها من مكانها أو النبش في الخضيرة، فقد تكون في كل واحد من هذه الأمكنة الأفاعي. في حالة الاصابة بلدغة أفعى يجب تهدئة المصاب، أن نتركه يرتاح بمكان قريب كي نقلل من امكانية تفشي السم في جسمه. ويجب أن تحاول عدم تحريك عضو الجسم المصاب. الاتصال مباشرة بطواقم الاسعاف التي ستقوم بإخلاء المصاب للمستشفى. يمنع مصّ السم، يمنع ايضا وضع حاجب للأوعية الدموية حول المنطقة المصابة. لا تحالوا تبريد منطقة اللدغة، لأن التبريد لا يساعد بل قد يؤدي إلى تفاقم الاصابة. ويجب أن يمتنع المصاب عن شرب مشروبات كحولية.

• لدغة عقرب

يعيش في البلاد ٢١ نوعا من العقارب، الخطير منها هو العقرب الأسود أو العقرب الأسود ذو الذنب الكبير. سم العقارب يعمل مباشرة ويصيب النظام العصبي. من عوارض الإصابة بلدغة عقرب: ألم شديد على الفور، تسارع النبض، قلة الهدوء،

انتفاخ، احمرار شديد، التصبب عرقا، والتقيؤ. ويجب التعامل مع إصابة جراء لدغة عقرب مثل التعامل مع لدغة الافعى، أي يجب تهدئة المصاب، أن نتركه يرتاح بمكان قريب كي نقلل من امكانية تفشي السم في جسمه. ويجب أن تحاول عدم تحريك عضو الجسم المصاب. الاتصال مباشرة بطواقم الاسعاف التي ستقوم بإخلاء المصاب للمستشفى. يمنع مصّ السم، يمنع أيضا وضع حاجب للأوعية الدموية حول المنطقة المصابة. لا تحاولوا تبريد منطقة اللدغة، لأن التبريد لا يساعد بل قد يؤدي إلى تفاقم الإصابة. ويجب أن يمتنع المصاب عن شرب مشروبات كحولية.

• الإغماء

يتمثل الاغماء بالدوخة والشعور بالدوار وفقدان التوازن المرفق بفقدان الوعي المرحلي. وقد تكون الأسباب للاغماء كثيرة ومتعددة، منها الخوف، الألم، التأثر، انخفاض ضغط الدم، نزيف دموي حاد وغيرها. وفي حالات الاغماء يجب أن يتمدد المصاب ورفع رجليه إلى أعلى، حاولوا فتح أي ملابس قد تكون ضاغطة قد تصعب عملية التنفس. إرجاء الرأس إلى الوراء بهدف فتح مجرى التنفس، وإذا لم يستعد المصاب عافيته افحصوا تنفسه، وفي حال لم يكن يتنفس ابدأوا مباشرة بعملية انعاش.

• لسعة بعوض أو نحل

في غالبية الحالات لا تشكل لسعة بعوض أو نحل خطرا على حياة الإنسان، ولكن في حالة حساسية زائدة للحيوان اللاسع قد تشكل خطرا. عوارض اللسعة هي سهلة وهي تتمثل بالاحمرار، الألم الموضعي، والانتفاخ. وقد تؤدي اللسعة إلى مشكلة وحالة مرضية شاملة اذا كانت هناك حساسية. إذا لم تكن الاصابة خطيرة، فإن العلاج هو سهل جدا وهو عبارة عن غسل الجرح بالماء والصابون، وفي حال يظهر المصاب عوارض لحساسية شديدة يجب الاتصال بنجمة داود الحمراء .



الفصل العاشر

الخروج
من المذبحة



١ - مخاوف

توالت دوامة التفجيرات التى ضرب إحداها يوم ٢٣ أبريل حسينيات « مساجد الشيعة» فى مدينة الصدر معقل أنصار التيار الصدرى وجيش المهدى الذى كان قد توارى بفعل قرار قائده وزعيم التيار المثير للجدل والمقيم فى إيران السيد مقتدى الصدر .. إلا أن بيانا اصدره مقتدى الصدر بدعوة « المؤمنين» من رجاله عناصر جيش الإمام المهدى العقائدى إلى التطوع فى مساعدة القوات العراقية غير القادرة على حماية الناس وتشكيل لجان لحماية المساجد عزز المخاوف من «عودة الجيش الضال» الذى عاث فى العراق فسادا وقتلا ليعجل عودة الإمام الغائب عجل الله فرجه .. عزز هذا البيان المخاوف من عودة نشاط عناصر جيش المهدى ومن يستغلها ستارا وغطاء سياسيا نافذا لارتكاب جرائم منظمة من الابتزاز والسرقة والاختطاف والقتل سواء فى العاصمة بغداد أو غيرها من المناطق التى اكتوت بنيران تلك العصابات التى يقول قادتها: أنها جيش عقائدى مهمته نبيلة وهى خدمة الشعب إلا أن هناك من امتطى صهوتها وارتكب الجرائم بإسمها .

نشرت جريدة الحياة الرصينة تقريرا أكدت فيه تلك المخاوف حيث قالت: أن عددا كبيرا من المثقفين الليبراليين في البصرة يخشون من عودة الجماعات والتيارات الإسلامية المتطرفة إلى المدينة مستغلة ما أفرزته الانتخابات البرلمانية من ثقل للتيار الصدري (٤٠ مقعداً).

وأشار صحفي يعمل في احدى وسائل الإعلام العربية فضل عدم الإشارة إلى إسمه إلى أن «واحدة من الصور التي تثير قلقنا أن هذه الجماعات التي سبق أن استغلت الوزن المحلي لمكتب الشهيد الصدر وعمليات جيش المهدي ضد القوات البريطانية قبل عام ٢٠٠٨، وراحت تعتدي على المواطنين وتضيق عليهم حرياتهم، نراها اليوم عادت إلى الشارع وفتحت مقرات لها باسم المدارس الدينية».وتابع، وهو يتذكر كيف كان يكتب قصصه عما كان يدور في البصرة: «كنا نكتب بأسماء مستعارة مرة، ومرة ندعي إننا ننقل الأحداث من مدن قريبة لتحاشي بطشها».المثقفون في البصرة يتداولون القصص ذاتها، ولا يجرؤون على ذكر أسمائهم. يقول أحد الشعراء أن «إعادة فتح بعض المدارس الدينية أو عودة قيادي سابق هنا وآخر هناك من هذه الجماعات إلى حسينيات أو مساجد يجعلنا نتأكد من عودتها إلى البصرة». ويكمل «نحن قلقون فعلاً من استغلال هؤلاء نتائج الانتخابات، وفوز الصدريين بهذا العدد الكبير من المقاعد ليعاودوا نشاطاتهم». مشاعر القلق تزداد سوءاً، عندما يلمس الأهالي سوء الخدمات، ففي جولة «الحياة» في

أهم مركز تسويقي في البصرة وأقدم أسواقها في منطقة الخضارة لاحظت أنها مملوءة بالقمامة وفضلات الخضر والمنتشرة في شارعها الرئيسي غير الصالح للسير بسبب الأضرار البالغة التي أصابت بالأسفلت.رسام تشكيلي تربى في كنف والده الشيوعي قال: «قبل أيام وعندما دعا الصدر إلى تظاهرة ضد الاحتلال في النجف خرج العشرات من الحافلات تقل المئات من انصاره. كان عدد منهم يرددون شعارات وهتافات جلها تهديد ووعيد يطلقونها عند حواجز التفتيش. هذا نذير لا يبشر بخير». وقاد رئيس الوزراء نوري المالكي في شتاء عام ٢٠٠٨ حملة على «الخارجين عن القانون» في إشارة إلى مليشيا «جيش المهدي» ووقعت معارك ضارية هناك تضاربت الانباء عن تفاصيلها حينها واختلفت الآراء في كفاءة قادتها وانتهت بإقالة قائد الشرطة فيها اللواء الركن عبدالجليل خلف شويلي. وقال العميد السابق في الجيش احمد التميمي : إن «عمليات صولة الفرسان لم تتحقق فيها كل عناصر وسياقات العمل العسكري في ظل ظروف العصيان والتمرد».وزاد : إن «العمليات خلفت في البصرة عداوات وثارات في الجيش والشرطة. عدد كبير من أهاليها قاتلوا الميليشيات وآخرون جمعوا المعلومات وشيوخ عشائر قدموا تسهيلات. وجميع هؤلاء الان من دون حماية».اذاعي بصري علق على المخاوف من عودة المليشيات بالقول: «لقد صدقنا ما قيل لنا بأنها لن تعود. هجوناها في قصائد كثيرة وتشفينا بها بعد صولة الفرسان. ولا ادري كيف سيكون رد فعلها ... انها لا تنسى ابداً». واستدرك «قبل عامين لم نصدق كلام احد قادة صولة الفرسان من أن عناصر الميليشيات انسحبوا إلى الاهوار مسلحين بما يوازي تسليح فرقتين عسكريتين. وقتها قلنا هذا هراء. لن يعودوا ابداً. لكننا الآن مجبرون على تصديق ما كان يشاع من أن خروجهم سالمين إلى الهور كان صفقة».وكان اللواء الركن عبد الجليل خلف شويلي، قائد الشرطة السابق في البصرة توقع في مقابلة مع «الحياة» مطلع عام ٢٠٠٩ «عودة المليشيات وقال أن العشرات منها فروا إلى الأهوار ويمتلكون ترسانة من الأسلحة تكفي لتجهيز فرقتين عسكريتين».

لكن الناطق باسم مقتدى الصدر الشيخ صلاح العبيدي بدد هذه المخاوف وقال لـ «الحياة» إن «أي جهة لن تتمكن مجدداً من استغلال غطائنا وثقلنا السياسي والشعبي بالاعتداء على أي كان، منذ فترة وضعنا آلية عمل لجميع عناصر جيش المهدي في عموم البلاد، من شأنها طمأنة الناس إلى عدم اختلاط الأوراق في الشارع من جديد».وأوضح أن «الآلية تكرس الجهد الثقافي لأبناء هذا الجيش الشريف في عموم العراق وتحدد الذين ينهضون بعمل المقاومة المسلح ضد المحتل، وحصر هذه المهمة بلواء اليوم الموعود على أن تكون ساحة عملياتهم خارج المدن وأن لا يتعرضوا

إلا لمن يعمل مع الاحتلال».وأكد العبيدي تنامي عمليات التهريب في البصرة بعد انحسار دور «جيش المهدي» في مراقبة عمل مؤسسات الدولة بعد «صولة الفرسان» وقال: «أصبحت عمليات التهريب تدار من بغداد بكل أنواعها بما فيها تهريب النفط والنساء».وأضاف: «خلال أكثر من عامين تضاعف عمل المهربين واستشرى أكثر من ذي قبل، ووصل حد الاستهانة بثروات البلاد وقد تجرأ احد موظفي الموانئ على بيع باخرة تحمل الأطنان من السكر ضمن عقود مفردات البطاقة التموينية (...) وفرغت الحمولة في بلد مجاور. أبلغني هذه الواقعة احد مسؤولي وزارة التجارة».

٢ - تطمينات

في ٢٩ مايو ٢٠١٠ شاركت في حفل مع صديقى الكاتب العراقى هادى جلو مرعى رئيس مجلس ادارة مرصد الحريات الصحفية أقامته صحيفة البيان الناطقة بلسان رئيس الوزراء نورى المالكى بمقر حزب الدعوة فى بغداد ودار بينى وبين السيد ياسين مجيد المستشار الإعلامى للمالكى وأحد المقربين منه حول ما يجرى على الساحة العراقية والصورة الضبابية التى تغلف المشهد السياسى وحالة عدم اليقين التى تعزز المخاوف من انفلات شامل يطيح بما تبقى من مكاسب أمنية حققتها حكومة المالكى .. وجدوى الإصرار على التمسك بمقعد رئيس الوزراء .. حاولت أن أقترب كثيرا من مناطق محرمة ربما أستطيع رسم صورة واضحة للمشهد العراقى المضطرب أو أحصل على تطمينات لمخاوفى التى تعكسها قراءات للواقع ونقاشات لا تنتهى مع كافة الأطراف بدءا من المسئوولين والقيادات السياسية العراقية مرورا بالزملاء من الإعلاميين والمراقبين السياسيين انتهاء برجل الشارع العادى .

سألت السيد ياسين مجيد حول ما يدور داخل الغرف المغلقة من مشاورات وهل هناك فعلا تحالف حقيقى بين ائتلاف دولة القانون والائتلاف الوطنى العراقى .. هل يضع التيار الصدرى خطا أحمر على تجديد الولاية لنورى المالكى .. ما هى المكاسب التى سيحصل عليها الصدريون فى حالة موافقتهم على إعادة تنصيب المالكى وكلنا يعلم ما بين الطرفين من مخاوف وعدم ثقة بعد موقف المالكى الحازم من تمدد نفوذ الصدر وكسر شوكة جيش المهدى فى مختلف مناطق العراق رغم أن الصدر هو الذى جاء بالمالكى إلى كرسى الحكم .. هل فعلا يمكن أن يعود هذا النفوذ الموازى لنفوذ الدولة وربما يفوقها ضمن صفقة الرضا عن المالكى .. هل يمكن أن تعاود ميليشيات الرداء الأسود الانتشار فى المناطق التى طردتها لترد الضربة بأشد منها وتعيث فى الأرض فسادا .. ما موقف علاوى وائتلاف العراقية من

مسألة تشكيل الحكومة ولماذا كل هذا اللغط حول لقاء الشريكين اللدودين « علاوى والمالكى» وهل سيحل هذا اللقاء كل المشاكل أو يسهم فى خلخلة الأوضاع وإذابة جليد الموقف المتجمد ؟ .. هل يمكن أن يتم تشكيل الحكومة الجديدة قبل بدء الانسحاب الكبير للقوات الأمريكية فى أغسطس من عام ٢٠١٠ وفقا للاتفاقية الأمنية .. ما مدى النفوذ الإيراني وهل حقا أن الجارة الشرقية هى الفائز الأكبر مما يجرى .

عشرات التساؤلات طرحتها على الرجل المقرب من نورى المالكى حتى أتمكن من فهم جزءٍ مما يدور على الساحة وأقترب إلى تحليل أكثر واقعية للمشهد السياسى الذى يؤشر إلى طبيعة مستقبل المشهد الأمنى .

قال لي يا سين مجيد أن الصورة الغائمة سببها كثرة التصريحات من أشخاص لا يعلمون ما يدور داخل الغرف المغلقة .. الحوارات تجرى على قدم وساق بين ائتلاف دولة القانون والتيار الصدرى بعد أن ذاب الجليد وانتهت كل الخطوط الحمراء .. الحوارات مع العراقية يجرى على كافة المستويات .. لم يعد هناك سوى وضع التفاصيل بعد رسم الخطوط العريضة . قال أن المشكلة الرئيسية مع العراقية هو تعدد القيادات وأن المكون السنى داخل القائمة وهو الذى يغلب عليها « ٧٩ مقعدا من ٩١ » يعمل على قدم وساق من أجل تسوية حقيقية للمشاكل العالقة .. أكد أن كل مكون فائز سوف يأخذ حقه كاملا عند تشكيل الحكومة وتوزيع المناصب والوزارات .

سألته هل يستمر نظام الحصص على أساس طائفى وقومى رغم كل ما يشاع عن الدولة الديمقراطية والعمل وفق آليات الدستور .. ابتسم الرجل ليؤكد أنه لا يصلح للعراق الآن سوى نظام المحاصصة وإلا سوف تفقد مكونات هامة مكانها فى منظومة الحكم .. رسم مجيد توزيعا للمناصب وفق آليات الدستور القائمة العراقية أولا تفوز بمنصب رئيس الوزراء وسيتولاه علاوى وهو شيعى .. ائتلاف دولة القانون ثانيا يفوز بمنصب رئيس الجمهورية ويتولاه المالكى وهى شيعى .. الائتلاف الوطنى العراقى ثالثا يفوز بمنصب رئيس مجلس النواب وهو شيعى أيضا .. وتساءل ماذا يتولى العرب السنة والأكراد من المناصب الرئاسية السيادية .. رد « لا شيىء» ولهذا لا مناص من نظام الحصص .. رئيس الوزراء شيعى من دولة القانون ورئيس مجلس النواب سنى من العراقية ورئاسة الجمهورية من نصيب الأكراد .

رغم أن الكلام وفقا لقائله يحمل الكثير من التطمينات ويملك الكثير من المنطق إلا أن الصورة تظل عالقة على حائط التوقعات ويبقى تدخل القوى الإقليمية والدولية فى الشأن العراقى وهو ما لم ينفيه الرجل وثيق الصلة بالمالكى هو المعيار النهائى الذى يتم على أساسه رسم المشهد العراقى طوال السنوات

القادمة .. ويبقى هاجس العودة لقوى تستخدم أجنحة مسلحة شاخصا رغم أى تطمينات تصدر من اشخاص يديرون الحوارات الفاعلة داخل الغرف المغلقة [١] .

رغم استمرار هذا الحوار المفتوح لمدة تزيد على الساعة إلا أن الموقف المصرى والدور الغائب كان هو الحوار الأطول .. يتساءل الجميع أين مصر .. هى الوحيدة التى لم تتورط بشكل سلبى فى الشأن العراقى فلماذا هى غائبة عن الساحة .. بعض كلمات الإشادة بالإخوة المصريين وحرص مصر على تواجد سفير لها وان كان تواجدا رمزيا غير ملموس .. رد حاسم من مستشار رئيس الوزراء عن أنه لمس من خلال لقاءاته بالقيادات المصرية وعلى رأسها الرئيس حسنى مبارك برغبة حقيقية فى التواصل إلا أنها مازالت مجمدة لم تترجم على أرض الواقع فى استثمارات وعلاقات مفتوحة وأنشطة متبادلة بين القاهرة وبغداد .

أكد كلام ياسين مجيد ما قاله مساعد وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة لشؤون الشرق الأدنى جيفري فيلتمان فى تصريحات نشرتها صحيفة الشرق الأوسط قبل لقائى به بيوم واحد أكد فيها أن إيران فشلت في تشكيل حكومة عراقيّة مواليّة لها فور إجراء الانتخابات العراقيّة، نافياً التقارير «حول قرب انتهاء عمل السفير الأمريكي لدى العراق، كريستوفر هيل، وترك فراغ في السفارة الأمريكيّة إلى حين ترشيح سفير جديد في بغداد».

وأشار فيلتمان في حديثه لصحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية إلى «التحديات الكثيرة التي تواجه العراق، ومن بينها حلّ القضايا العالقة بين العراق والكويت، وهي قضية تستعد الأمم المتحدة للإسهام فيها أيضاً، إذ من المرتقب أن يزور الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق، اد ميلكرت، الكويت الشهر المقبل لهذا الغرض».

وشدد على أن «معالجة هذه القضايا العالقة بين البلدين لا يمكن أن تتم إلا بعد تشكيل حكومة جديدة في العراق، فالتركيز الآن في العراق يجب أن يكون على تشكيل حكومة. وبعد تشكيلها علينا أن نعالج كل هذه القضايا ولكن حتى ذلك الوقت من المهم أن يتخذ العراق والكويت خطوات لتحسين الأجواء بينهما».

وعبّر عن تفاؤله «بتشكيل حكومة تمثّل إرادة الشعب العراقي»، معتبراً أن المبدأ في

(١) أثبتت النتائج على الأرض فيما بعد توقعيات ياسين مجيد حيثي أيد التيار الصدري تولي نوري المالكي رئاسة الحكومة فيما تم التجيدي لجلال طالبان فترة رئاسة ثانية وحصل القيادي السني بالعراقية أسامة النجيفي على رئاسة البرلمان .

العلاقات بين بغداد وطهران هو «أنه يجب أن يكون لدى العراق علاقات وثيقة مع كل جيرانه بناء على الاحترام المتبادل وعلى مبدأ عدم التدخل في سيادة الدولة الأخرى».

وأردف: «سمعت الكثير عن التدخل الإيراني داخل العراق، ولكن لنرى ما حدث بعد الانتخابات، فالكثير من الساسة العراقيين تمت دعوتهم إلى طهران بعد الانتخابات بهدف بدا وكأن الإيرانيين أرادوا أن يشكّلوا حكومة لبغداد من طهران، ولكن لم يحدث ذلك، بل تمّ رفضه من القادة العراقيين ومن قبل الشعب العراقي وكان هناك الكثير من مقالات الرأي المنتقدة لذلك».

واعتبر أن ذلك «دليلاً آخر على قوّة الوطنيّة العراقيّة وإصرار الشعب العراقي على اتخاذ قراراته بنفسه». ورأى أن «هناك محاولات لتدخل طهران بشؤون العراق، لكن العراقيين وقفوا في وجه تلك المحاولات».

إلا أن تصريحات فيلتمان الذى تكررت زياراته للعراق فيما بعد لم تكن دقيقة وربما كانت منافية للحقيقة .. حيث انتهت بالفعل فترة عمل كريستوفر هيل كسفير للولايات المتحدة بالعراق وغادر بغداد متفائلا رغم كل ما يجرى ليحل محله سفير جديد هو جيمس جيفري الذى تسلم رئيس الجمهورية المنتهية ولايته جلال طالبانى أوراق اعتماده يوم ١٨ أغسطس ٢٠١٠ .. فيما نجحت إيران فى تعطيل الخطط الأمريكية الرامية إلى تكوين تحالف بين القائمة العراقية بقيادة إياد علاوى الفائزة ب ٩١ مقعدا وائتلاف دولة القانون بزعامة نورى المالكى وله ٨٩ مقعدا ضمن ورقة تقدم بها فيلتمان تقضى بتقاسم السلطة بين الرجلين المطالبين بمقعد رئاسة الحكومة وهو تحالف كان كفيلا بإنهاء أزمة تشكيل الحكومة التى استمرت حتى مغادرتى العراق وحتى بعد مرور أكثر من ثمانية اشهر على الانتخابات النيابية فى ٧ مارس ٢٠١٠ .

وقد أكدت « زلة لسان » من نورى المالكى حملت صبغة طائفية قال فيها «إن القائمة العراقية قائمة سنية» مدى قوة النفوذ الإيرانى الذى كان المالكى يحاول الفكاك منه بدعم عربى فشل فى الحصول عليه بسبب موقف السعودية منه وهو ما حاولت إيران إستغلاله من خلال أعادة ترتيب البيت الشيعى والحيلولة دون تولى علاوى منصب رئاسة الحكومة مع محاولات مستمرة نجحت في التقريب بين مكونات التحالف الشيعى « الائتلاف الوطنى وائتلاف دولة القانون» ومنع انفراط عقده رغم الخلافات الظاهرة بين المالكى وعناصر الائتلاف الذين كانوا قد أعلنوا صراحة رفض كل مكونات الائتلاف الوطنى تجديد الولاية له كرئيس للوزارة أربعة أعوام أخرى إلا أن إيران كما يقول صديقنا سرمد الطائى مدير تحرير جريدة العالم لن توفر جهدا في تخريب أي اتفاق

بين ثلاثي «علاوي - الحكيم - الصدر» لأن التصالح العابر لحواجز « اسلامي علماني شيعي سني»، يغضب جنرالات طهران كثيرا وهو ما حدث بالفعل وتم ترتيب البيت الشيعي ليفوز نوري المالكي متحالفاً مع الائتلاف الوطني في النهاية .

٣ - انتفاضة الكهرباء

عندما تتجول في العاصمة العراقية بغداد نهارا تستطيع بصعوبة أن ترى صفحة السماء الواسعة بسبب ظاهرة فريدة تتميز بها عاصمة الرشيد منذ دخول القوات الأمريكية إلى ساحة الفردوس إيذانا بإنهيار نظام صدام حسين فى ابريل عام ٢٠٠٣ وهى وجود ملايين الأسلاك المتقاطعة مع بعضها والتى تشكل شبكة تشبه خيوط العنكبوت تمتد بامتداد شوارع المدينة ، هذه الشبكة العنكبوتية من الأسلاك التي أتحدى أى شخص فى العالم مهما بلغت مهارته وإمكانياته البصرية أن يحدد مسارها تزود البيوت والمحلات التجارية والمكاتب بالطاقة الكهربائية التى يوفرها أصحاب المولدات الكهربائية الخاصة المنتشرة فى كل الأحياء السكنية والمناطق التجارية سواء الراقية أو الشعبية بنظام إبتكره العراقيون هو « الأمبير» الذى يحدد سعره ملاك هذه المولدات الذين باتوا يشكلون طبقة جديدة من الأغنياء فى العراق .

ويتفاوت المبلغ الذى يدفعه صاحب البيت أو المكتب أو المحل وفقا لعدد الأمبيرات التى يحصل عليها والتى تكفى حاجته بحساب دقيق لاستهلاك كل جهاز موجود بالمكان حيث تصل فى أحيان كثيرة إلى أكثر من نصف مليون دينار عراقى شهريا / حوالى ٤٥٠ دولار بواقع ٢٠ دولارا أمريكيا للأمبير شهريا، ويكفي العائلة المتوسطة العدد من ١٠ إلى ١٥ أمبير شهريا، علما أن هذه الامبيرات لا تكفى لتشغيل جهاز تكييف أو مدفأة وإنما تكفى لتشغيل ثلاجة ومجمدة / ديب فريزر/ وبعض المراوح والأضواء وهو ما أدى إلى أن يستخدم العراقيون وسائل أخرى للتبريد مثل جهاز التكييف الذى يستهلك حوالى ٧ أمبيرات والمبردة المائية / تكييف الصحراء/ التى تستهلك من ١ إلى ٣ أمبيرات صيفا والمدفأة النفطية / الصوبه/ التى تعمل بالنفط الأبيض / الكيروسين / بينما لا يتجاوز وقت الكهرباء التى تعطيها الحكومة ويسميها العراقيون / الوطنية/ أكثر من ساعة فى معظم الأحوال كما أن «التيار الكهربائي الذي تجهزه الحكومة يصيب الناس بالإرباك، فما أن تأتي الوطنية ويتم تشغيل الأجهزة الكهربائية البيتية حتى ينقطع التيار بعد عشر دقائق أو ربع ساعة وهو ما جعل العراق يتفرد بأن هناك « مس كول» على الكهرباء بدلا من رنة الموبايل .

وقد بدأت أزمة الكهرباء منذ عام ١٩٩١ أثر القصف الجوي والصاروخي

الأمريكي للبنية التحتية العراقية، إلا أنها استفحلت كثيرا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق بعد أن إعتقد العراقيون أن وجود الأمريكيين في بلدهم سوف ينهي أزمة الكهرباء والماء، لكن المشكلة تعقدت كثيرا، وتشابكت مثل تشابك أسلاك التيار الكهربائي في سماوات العراق عامة، وسماء بغداد خاصة.

وكان من الشائع أن صدام حسين يتعمد قطع التيار الكهربائي لإشغال وإلهاء الشعب العراقي عن الأمور السياسية من جهة، ويستخدم هذا الموضوع كعقوبة ضد أبناء شعبه، مع أن التيار الكهربائي وقتذاك كان يعمل وفق ما يعرف بالقطع المبرمج والتي لا يزيد فيها انقطاعه عن ساعتين أو أربع ساعات في أسوأ الحالات أما مع انقطاع الكهرباء لمدة تصل إلى ٢٣ ساعة يوميا فقد وجد البعض في الأزمة فرصة للكسب السريع والخيالي وظهرت طبقة أصحاب مولدات الطاقة الكهربائية الذين يثرون على حساب الناس وهناك تجار المولدات الكهربائية البيتية الذين سجلت مبيعاتهم أرباحا هائلة على مدى السنوات الماضية، ومعهم برزت في الضرورة فئة باعة وقود المولدات (البنزين والسولار) في السوق السوداء وبأسعار عالية وهم من باتوا يعرفون بطبقة «البحارة»، كما طفت على السطح، طبقة مصلحي هذه المولدات بسبب استيراد هذه المولدات من مناشئ رخيصة وسيئة حتى توافق نسبة دخل العراقيين .

ويتوازى مع أزمة الكهرباء أزمة أخرى تضاف إلى أزمات العراقيين الصعبة للغاية، هي انقطاع مياه الشرب التي لا تصلح أصلا للشرب وغالبا ما يأتي الماء ممزوجا بالطين ذي لون مائل للبني . وفي بعض الأحيان يكون الماء مصحوبا بالحشرات الناعمة وأذكر أنني قضيت خمسة ايام كاملة فى آخر أيام مهمتي بالعراق حيث بلغت درجات الحرارة معدلات قياسية تجاوزت الخمسين درجة بدون ماء رغم صيام شهر رمضان الفضيل الذي لم يشفع للناس لدى الحكومة المنتهية ولايتها وبدلا من شراء زجاجات المياه الصحية الصغيرة منها والكبيرة لاستخدامها للشرب كنت أستخدمها أيضا للاستحمام . . وقد أعادتني تلك الأزمة التي يعاني منها العراقيون رغم أن بلدهم تمتلك نهرين من أعذب أنهار الدنيا هما دجلة والفرات إلى ذكريات مضى عليها أكثر من ثلاثين عاما عندما كانت المياه الصحية غير متاحة لكل بيوت بلدتنا « رشيد» الواقعة على مصب نهر النيل على البحر المتوسط حيث كان الأمر يتطلب أن نحمل الجالونات الفارغة من علب السمن الهولندي وهي مكونة من الصفيح التي يوجد فى أعلاها قطعة من الخشب مثبت بها سلسلة من الحديد أو خيطا قويا من الحبل يتصل بعارضة خشبية قوية نحملها على كتف مرهقة بعد أن نملأها بالمياه من صنبور « حنفية» عمومية

توجد فى كل شارع تقريبا تسمى «حنفية السدأه» ويطلق عليها اسم أقرب منزل منهـا فهذه « حنفية الصفتى » وهذه «حنفية عكاشة» لنخزنها فى أوعية من الفخار « الزيـر» التى كانت جزءا اساسيا فى كل بيت حينها .. وها أنا أرى العراقيين يمارسون نفـس الطقوس ولكن بشكل حديث حيث أصبح مشهد الشاب او الفتاة أو الرجل المسن يجـر عربة خشبية صغيرة محملة بزجاجات المياه أو الجالونات البلاستيكية المملوءة بالمياه من أقرب صنبور أمرا طبيعيا لأن مياه الإسالة التى تسرى إلى داخل البيوت أصبحت شـبه معدومة فى بلاد دجلة والفرات لأنها حتى وإن وجدت تتطلب الكـثير مـن أمـبيرات الكهرباء لرفعها إلى الأدوار التى تلى الطابق الأرضى .

الطريف فى الأمر أيضا هو إنتشار تجارة كانت رائجة فى ريفنا المصرى قبل إنتشار الثلاجات فى البيوت وهى بيع قوالب الثلج ، حيث لم يعد يداهمنى مشهد إنتشار بائعى الثلج الذين يفترشون شوارع رئيسية وراقية فى قلب العاصـمة بغـداد ناهيـك عـن المحافظات بطاولات حديدية تعلوها قوالب الثلج التى يجـرى تقسـيمها وتقطيعهـا بمنشار حديدى ليباع قالب الثلج كخمسة أجزاء كل جزء منها يسمى «ربـع» أى أن القالب الواحد يقسم إلى خمسة أرباع ، ومن القصص الطريفة التى رافقت مشهد بيـع الثلج وجرت وقائعها معى أن أحد المشترين للثلج إلتفت بإتجاهى يسألنى /ترى أسـتاذ الله يقبل ما يحدث للعراقيين بلد الخير لا ماء ولا كهرباء / فقلت له « الله كـريم» إنشاء الله ربنا ينهى أزماتكم ويزيل الغمة فرد الرجل منفعلا « والله أستاذ مـادام بـائع الثلج يقسم القالب الوا حد إلى خمسة أرباع لا يمكن حال البلد ينصلح لأننـا نغـش عينى عينك » وكان يعنى بالطبع أن أى شيىء يقسم إلى أربعة أرباع فقط ولا يوجـد شيىء يقسم خمسة أرباع وهذا يعنى وجود غش .

وقد دفعت هذه الحالة العراقيين خلال شهر يوليو مـن العـام ٢٠١٠ بعـد أن تجاوزت درجات الحرارة ٥٣ درجة إلى القيام بتظاهرات عارمة شملت معظم مناطق العراق وأطلق عليها « انتفاضة الكهرباء» حيث حمل المتظـاهرون نعوشـا رمزيـة كتب عليها الكهرباء وأحيانا « الماء والكهرباء» بالإضافة إلى رفع لافتـات منـددة بالحكومتين المركزية والمحلية مطالبين بإقالة وزير الكهرباء كريم وحيد الـذى إستقال فعلا تحت ضغط الأزمة التى بلغت ذروتها فى مدينة البصـرة الجنوبيـة العائمة على بحر من النفط حيث سقط خلال المظاهرات قتلى وجرحـى كمـا سقط ١٤ جريحا في صفوف الشرطة خلال تظاهرة في مدينة الناصـرية مركـز محافظة ذى قار / ٣٦٦ كم جنوب بغداد/ وتخلل التظاهرة اعمال شغب عندما قام عدد من المتظاهرين برشق مبنى مجلس المحافظة بالحجارة، الأمر الذي اسـتدعى

تدخل قوات مكافحة الشغب واستخدمت الشرطة خراطيم المياه لتفريق المتظاهرين بعد أن وضعت حواجز واسلاك شائكة حول مبنى مجلس المحافظة.

والغريب فى الأمر أنه توجد في محافظة ذي قار احدى اكبر محطات توليد الطاقة الكهربائية في العراق.

كما خرج المئات من أهالي كربلاء / ١٠٨ كم جنوب بغداد/ في تظاهرة احتجاج على عدم وفاء المسؤولين بوعودهم بتحسين التيار الكهربائي وتردي الخدمات وحمل المتظاهرون ، الذين طافوا شوارع المدينة ثم اتجهوا إلى مقر مجلس المحافظة ، شعارات طالبوا فيها الحكومة بالغاء تسعيرة الكهرباء الجديدة ، ورددوا «لاكهرباء لاماي كلهم حرامية» وين الكهرباء يا دولة الفانوس» وقدموا مطالبهم للمجلس وخرج مئات المواطنين في الرمادي مركز محافظة الأنبار/ ١١٠ كم غرب بغداد/ في تظاهرة احتجاج على تردي الكهرباء في المحافظة وطالب المتظاهرون بتوفير حصة عادلة وكافية من الكهرباء للمحافظة والموافقة على المشاريع الإنتاجية في مجال الكهرباء التي قدمها مجلس المحافظة . كما طالبوا برفع دعوى قضائية ضد وزير الكهرباء بتهمة الاهمال وهدر المال العام .

وإذا كانت تلك الإنتفاضة قد أعلنت الحرب على المسئولين العراقيين رغم استمرار غياب الكهرباء وإعتبارها بحكم الميت منذ سبعة أعوام إلا أن الوقائع على الأرض تشير إلى وجود عامل آخر مهم لا يمكن تجاهله وراء هذه الانتفاضة الجماهيرية وهو أزمة الصراع السلطوي بين قادة القوى السياسية والذي أصبح أمرا لا يطاق وخصوصا بعد ان اكتشف الجميع بأنه لا يتعدى أطماع الهيمنة على مناصب القوه والنفوذ في العراق الجديد .

وقد حدا هذا الأمر بصحيفة «وول ستريت جورنال الأمريكية» إلى نشر تقرير بتاريخ ١٢تموز/يوليو ٢٠١٠ حثت فيه المسؤولين العراقيين على حل مشكلة الكهرباء لأن «تأمين الكهرباء اللازمة للمدنيين هو المفتاح للحفاظ على الاستقرار عندما ينسحب الأمريكيون من العراق».

ونقل التقرير عن المهندس السابق في الجيش البريطاني هاميش ماكنينش، والذي خدم كمستشار في شؤون الطاقة لقادة قوات التحالف في العراق بين العامين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، قوله « أن إقالة الجنرال الأميركي ستانلي ماكريستال من منصبه حتما ستغيّر حياة الجنرال ديفيد بتراوس»، ولكن عليه أن «ينظر بعين القلق إلى استقالة وزير الكهرباء العراقي كريم وحيد».

وبعدما ذكَر بمدى معرفة بتراوس «بأهمية الكهرباء في حياة العراقيين»، ومدى

معرفته بأن «تأمين الطاقة سيقلّص الدعم لحركات التمرّد، فضلاً عن تنشيط الاقتصاد»، كتب ماكنينش أن «بتراوس والسفير الأميركي ريان كروكر ذكّرا القادة العراقيين، باستمرار وإلحاح، بأن عليهم تأمين الكهرباء إلى منازل العراقيين».

هي نصيحة لقيت الدعم المناسب، سواء في الموارد أو التقنيات، وبالنتيجة تم ضبط «هيكلية الكهرباء في البلاد»، وتم «وضع خطة لتنمية هذا القطاع»، ما أثار الأمل في النفوس، حسبما قال ماكنينش.

ولكن، ماذا حصل بعد الأشهر الـ١٨ الأخيرة؟ وأجاب ماكنينش «لم يستمر التطوير، والعديد من العراقيين لا يحصلون على الكهرباء سوى لأقل من ست ساعات يومياً»، آخذاً على «القيادة العراقية عدم أخذها ملف الكهرباء على محمل الجد».

وبعدما أشار إلى ما قاله رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بأن «شركتي جي.اي وسيمنز أنهيتا بناء محطات للكهرباء»، قال الكاتب في «وول ستريت جورنال» أن «الحقيقة المرة هي أن لا جي.آي ولا سيمنز تقومان ببناء محطات للكهرباء في العراق».

وشرح ماكنينش أن الشركتين «تلقيتا طلبات من الحكومة العراقية من أجل تأمين مولّدات الطاقة»، لكن «صناعة المولّدات تكلّف نصف ما تكلّفه صناعة محطة كهرباء»، كما أن «صناعة المولدات هي الجزء الأسرع في صناعة محطة للطاقة»، التي هي من اختصاص «مهندسين وشركات بناء، لم تختر الحكومة العراقية أياً منها، من أجل البدء بالمهمة».

وبدا ماكنينش متشائماً في تقريره في «وول ستريت جورنال»، كاتباً أنه «حتى لم تم توقيع عقد من أجل بناء محطة للكهرباء غداً، وبدأ العمل بأكبر سرعة ممكنة»، سيكون العراقيون أمام «شوط طويل قبل الحصول على كهرباء مستدامة، خلال عامين»، وهي المدة التي تحدّث عنها المالكي.

وختم ماكنينش تقريره في «وول ستريت جورنال» بالحث على ضرورة «ضمان الوصول المناسب للكهرباء، إلى المدنيين العراقيين، لأن ذلك قد يكون العنصر الوحيد الأكثر أهمية في الحفاظ على السلام والاستقرار في العراق»، ما أن يبدأ «الجنود الأميركيون انسحابهم من بلاد ما بين النهرين»، وختم بوصف هذه المهمة بـ«الحيوية»، محذراً الحكومة العراقية بأنها «خسرت الكثير من الوقت، وليس بإمكانها خسارة المزيد».

ربما لا يدرك كثيرون الحجم الحقيقي لمشكلة الكهرباء التى ترافقها درجات حرارة تتجاوز الخمسين لأن حقيقة تلك المشكلات لا يتم تسليط الضوء عليها إعلاميا وهذه المشكلات تنتج عن إنفلات أعصاب الناس بسبب الضيق الشديد وهو ما

يدفعهم إلى محاولة إفراغ شحنات الغضب فينفجرون فى بعضهم البعض من خلال ردود أفعال ومواقف عشوائية وانفعالية تؤدى إلى القتل أحيانا لأتفه الأسباب .

٤ - هوا شباط

يطلق العراقيون على الشخص المتذبذب متقلب الآراء أو القضية التى لا يوجد لها حل واضح « هوا شباط» وذلك فى إشارة إلى أجواء شهر فبراير الذى يمثل المرحلة الإنتقالية بين شتاء قارس البرودة وربيع قصير يؤدى إلى صيف هو الأشد حرارة فى العالم حيث يتعرض العراق خلال شهر شباط / فبراير لرياح غريبة لا يمكن تحديد إتجاهها تصيب الإنسان بالدوار من كثرة حركتها وتعدد اتجاهاتها ويطلق على جزء منها « الريح الشرجى » أو الشرقى حيث ينطق العراقيون حرف القاف جيم بالتعطيش .. فيما يطلق على جزء آخر من تلك الرياح التى تصيب من يتعرض لها بالدوار والصداع الدائمة « ريح العجوزة» التى يجب تجنب التعرض لها بشتى السبل .

إلا أن الوضع السياسى الذى يعيشه العراق بعد الانتخابات التشريعية في ظل الازمة السياسية بسبب الصراع بين القوى السياسية الفائزة على منصب رئيس الحكومة ،أمر لا يمكن الفكاك منه أو تجنبه رغم أنه يصيب بالدوار مثل « هوا شباط» من شدة التناقضات وتعدد الإتجاهات التى يعجز أى محلل مهما بلغت قدرته على التحليل أن يحدد سيناريوهات واضحة لمستقبله ولو على المدى القريب ،مما أنتج أزمة خانقة في جميع مرافق ومؤسسات الدولة وهياكلها ، بعد أن اخذ كل طرف يناور بالهجوم تارة والتراجع تارة أخرى من اجل الفوز بالسلطة ، وتزايدت نسبة الاحتقان والجمود السياسي بين مختلف الفرقاء الفائزين في الانتخابات التشريعية التي تعتبر الركيزة الاساسية لتشكيل المشهد السياسي العراقي خلال السنوات الأربع المقبلة.

ولا تبتعد دول الجوار كثيرا عن المشاركة فى خلق حالة « هوا شباط» لما لها من دور مهم في خلق هذه الازمة وإطالة أمدها بتغذية الصراع بين القوى السياسية وزيادة الهوة بدلا من جسرها مما يؤدى إلى تفسخ المجتمع العراقي وانشطاره ، مستغلين بذلك التناحر المذهبي ضمن سياقات سياسية في العراق.

ولعل عجز الشركاء السابقين إبان المعارضة عن التوصل إلى تقاربات تتيح إنهاء تلك الحالة من عدم اليقين ومكافأة الناخب العراقى الذى تحدى كل المخاطر وخرج فى عرس إنتخابى شهد له العالم هو ما أدى إلى فتح المجال واسعالا أمام كافة القوى الإقليمية والدولية للتدخل فى العملية السياسية العراقية لتكون جزءا من المشكلة بدلا من أن تكرس دورها فى الحل واصبحت حجر عثرة في عملية

تشكيل الحكومة العراقية ،بينما تتحرك كل جهة سياسية عراقية لمصلحة دول بعينها أو عدة دول تريد أن تمرر اجندتها ومشاريعها الخاصة ، حيث تعمل هذه الدول بجهد ومثابرة على تأسيس قاعدة سياسية واقتصادية بشكل متين في العراق من اجل تحقيق مصالحها سياسيا واقتصاديا وأمنيا بعيدا عن مصلحة المواطن العراقي الذي يحلم بالامان والاستقرار والخدمات التى لا يملك حتى حق المطالبة بها وهو ما يظهر جليا فى المعاملة القاسية التى يتعرض لها المشاركون فى أى تظاهرة تطالب بالخدمات سواء فى الجنوب الشيعى أو الوسط السنى والتى كان آخرها إصابة العشرات من المتظاهرين خلال مسيرة احتجاجية فى مدينة الناصرية مركز محافظة ذى قار / ٣٦٦ كم جنوب بغداد/ والتى تمثل قلب الجنوب الشيعى يوم السبت ٢١ أغسطس ٢٠١٠ بعد أن طفح الكيل من إنعدام الخدمات الأساسية خاصة الماء والكهرباء ناهيك عن تدهور الوضع الأمنى وظهور ميليشيات مسلحة تطلق على نفسها « سيف الحق» التى تمارس عملها فى وضح النهار مما يعيد للأذهان ايام الدم والنار التى عاشها العراق حتى منتصف العام ٢٠٠٨ بسبب الصراع الشيعى - السني .

ومما يزيد الموقف ضبابية هو ذلك السيل من التصريحات التى تأتى من كافة الأطراف تارة تعلن عن تحالف سرعان ما يتم نفيه وتارة تعلن عن تعثر سرعان ما يتم نفيه أيضا ليزف تصريح آخر البشرى بقرب التوصل إلى توافقات لتشكيل الحكومة ثم يخرج علينا قياديون نافذون فى كتل نافذة ليؤكدوا بعد مرور أكثر من خمسة أشهر على الانتخابات النيابية التى جرت فى ٧ مارس ٢٠٠٣ أن كل ما يجرى هو مشاورات تحضيرية ليست رسمية وإنما هى مجرد اجتماعات لطرح الرؤى والأفكار ومحاولات التقارب وهو ما جعل الديمقراطية التي استبشر بها العراقيون لبناء دولتهم على أسس حقيقية ومعايير سليمة تتحول إلى كابوس ثقيل جاثم على صدورهم بسبب ما يعتبرونه عدم اهلية الاحزاب والقوى السياسية العراقية لاستخدامها الاستخدام الأمثل لمصلحة بلدهم نتيجة عدم ثقة هذه القوى السياسية ببعضها البعض والتي تكالبت على بعضها البعض لاستحصال حصصها من الغنيمة من جهة ، ومن الجهة الأخرى إنهم يسبحون دائما في فلك سياسات الدول المجاورة ويعملون وفق اجنداتهم ، حيث يحاولون أن يمرروا مشاريع الدول الاقليمية من خلال استلام السلطة والاعتماد عليهم للإحتفاظ بكراسيهم من خلال دعمهم ماديا ومعنوياً .

والغريب فى الأمر هو عودة نبرة « الله يرحم زمن صدّام حسين » سواء على لسان السنة أو الشيعة بعد أن اصبح واضحا امام الجميع بان كل طرف يحاول أن ينفرد بالسلطة دون مشاركة الاخرين في القرارات الحاسمة وهو ما جعلهم

يقولون أن ما كان يفعله صدام حسين يجرى الآن ، هى مجرد غنيمة يريدها الجميع بعد أن إحتدم الصراع حول موقع رئيس الوزراء ، حيث يصبح المسؤول الاول في الدولة ويتخذ القرارات منفردا محاولا دعم موقعه ونفوذه داخل السلطة ويستثمرهما لمصلحته الشخصية والحزبية ، وتقريب المقربين والمتزلفين له ليحتلوا المناصب المهمة رغم أنهم لا يملكون أية إمكانيات مهنية حقيقية .

وقد ضرب الصراع السياسي على السلطة فى مشهد لا يمت بصلة للديمقراطية ولا يجسد مفهوم التداول السلمي كل القوانين، فلا حساب لجداول زمنية دستورية يجب على الكتل السياسية العراقية الالتزام بها ، ولا حساب لبلد يئن مواطنوه تحت ضغط الظروف القاسية ، ولا حساب لعدم وجود برلمان يحاسب الحكومة على ما تفعل ، فقط يخرج المسئولون المنتهية ولايتهم والذين لا يقرون بإنتهاء تلك الولاية باسمين يؤكدون أن الأوضاع على ما يرام وأن ما يجرى هو مظهر من مظاهر الديمقراطية الوليدة التى سوف تصبح نموذجا يحتذى فى كل دول المنطقة .. فيما يضرب المواطن العراقى رأسه غيظا مما يجرى بعد أن أصابه الدوار من تشابك الأمور وتضارب التصريحات وهو ما يضع العراق على كف عفريت .

وكانت الجلسة الاولى لمجلس النواب العراقي قد انعقدت في ١٤ حزيران/يونيو ٢٠١٠ ، واقتصرت على أداء الاعضاء اليمين الدستورية جماعيا بعد اعلان الفصل التشريعي الجديد، واستثني من اداء القسم اعضاء السلطة التنفيذية بمن فيهم رئيس الوزراء ونائباه ونائبا رئيس الجمهورية.

وانتهت المدة الدستورية المحددة لاختيار رئيس الجمهورية ، بعد أن تم تجاوز المهلة المحددة لاختيار رئيس مجلس النواب والتي كانت مقررة خلال ١٥ يوما من انعقاد جلسة النواب الاولى واعلن في بغداد تمديد مدة الجلسة المفتوحة (١٥) يوما اضافية لاعطاء فرصة للكتل السياسية التوصل إلى اتفاق بشأن تسمية الرئاسات الثلاث وحسم ملف تشكيل الحكومة ويبقى التناقض حتى بين الخبراء القانونيين حول مدى دستورية وقانونية ما يجرى من إختراق لكل المواعيد الدستورية الواضحة كما يستمر الخلاف حول تفسير المحكمة الإتحادية للمادة رقم ٧٦ من الدستور العراقى والخاصة بتكليف الكتلة الأكبر لتشكيل الحكومة فالقائمة العراقية التى يتزعمها إياد علاوى ترى أنها الكتلة الأكبر لفوزها بأكبر عدد من المقاعد النيابية (٩١ مقعدا) ، بينما يرى ائتلاف دولة القانون بزعامة نورى المالكى أنه بتحالفه مع الائتلاف الوطنى الشيعى يكون الكتلة الأكبر ويحق له تشكيل الحكومة ولا يوجد من يرجح أحد الرأيين لتبقى القضية تائهة فى أروقة عقول الشركاء السياسيين.

وفى الوقت الذى يعلن فيه ستيف لانزا المتحدث باسم الجيش الأمريكى جاهزية القوات العراقية لتسلم المهام الأمنية والحفظ على استقرار البلاد تعلن وزارة الخارجية الأمريكية عن إعادة استقدام الآلاف من شركات الأمن الخاصة للقيام بدور فى الحفاظ على الأمن بالعراق رغم ارتكاب تلك الشركات جرائم قتل وتنكيل وتهريب للأسلحة وغير ذلك من الانتهاكات وهو ما يعكس حقيقة الشكوك الأمريكية فى قدرة العراقيين وقواتهم الأمنية على ملىء الفراغ الذى تركه تخفيض عدد القوات الأمريكية إلى خمسين ألف جندى داخل قواعد محددة بمختلف مناطق العراق بنهاية أغسطس ٢٠١٠ .

ويستمر « هوا شباط » الأمنى ليعلن رئيس أركان الجيش العراقى الفريق أول بابكر زيبارى وهو كردى أن القوات العراقية لن تكون جاهزة لتولى مسئوليتها الأمنية قبل عام ٢٠٢٠ وأن هناك حاجة ماسة لتواجد القوات الأمريكية ومشاركتها فى الحفاظ على الأمن ، ويسارع رئيس الوزراء العراقى المنتهية ولايته بصفته القائد العام للقوات المسلحة العراقية لينفى تلك التصريحات ويؤكد أن ما أعلنه رئيس الأركان هو رأى شخصى وأن القوات العراقية على أهبة الإستعداد لتولى مسئولياتها وملئ الفراغ الأمنى الذى خلفه الانسحاب الأمريكى وفق الخطط المتفق عليها التى تضمنتها الاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن ، فيما يفاجأ الشارع العراقى بين يوم وآخر بهجوم إنتحارى أو تفجير مروع يسقط فيه العشرات وربما المئات بين قتيل وجريح بمن فيهم عناصر القوات الأمنية .

وكان أسوأ الهجمات وإن كان عدد ضحاياه ليس الأكبر هو عندما شن مسلحون مجهولون هجوما نادرا من نوعه ضد حشد من الجنود العراقيين داخل حي الأعظمية الذى تقطنه أغلبية سنية شمال العاصمة بغداد ، ورفعوا لفترة موجزة علم تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، بالقرب من نقطة تفتيش تابعة للجيش.

وحمل الهجوم والمعركة التي اندلعت في إثره لعدة ساعات وخلفت ستة جنود عراقيين على الأقل قتلى، أصداء الصدامات التي عصفت ببغداد في خضم الحرب الطائفية عام ٢٠٠٧، وبدأ الهجوم مع اقتراب مسلحين يحملون مسدسات مزودة بكواتم للصوت من نقطة تفتيش تابعة للجيش في حي الأعظمية المحاط بمتاريس وحوائط أسمنتية عالية ، وأصابوا أربعة جنود إصابات قاتلة، وعندما هرع جنود وقوات شرطة إلى الموقع للتحقيق في الهجوم، انفجرت أربع قنابل كانت قد زرعت في وقت سابق بمختلف جنبات المنطقة، مما أسفر عن قتل وإصابة الكثير من المسعفين.. فيما شاهد سكان المنطقة رجالا ملثمين يحملون صواريخ محمولة على

الأكتاف (آر بي جي) يتجولون بالشوارع بالقرب من مواقع التفجيرات بينما كانت شاحنات الشرطة تحترق وهو ما يؤكد فرضية عدم الجاهزية الأمنية خاصة مع تكرار هذا الحادث فى منطقة ساحة اللقاء بحى المنصور غربي بغداد والذى كان أحد أهم معاقل تنظيم القاعدة وذلك خلال شهر يوليو ٢٠١٠ .

وبينما تؤكد إيران على أعلى مستويات القيادة فيها معارضتها التدخل فى الشأن العراقى وانها تقف على مسافة واحدة من كافة الأطراف وهو ما أكده قياديون بالتيار الصدرى عندما أعلنوا أن تواجد زعيم التيار مقتدى الصدر بإيران ليس له أى تاثير على قراره بخصوص قبول أو رفض تجديد الولاية لنورى المالكى أو تأييد شخص دون آخر لتولي منصب رئاسة الحكومة نشرت جريدة الشرق الاوسط يوم ٢٩ يوليو ٢٠١٠ نقلا عن مصدر مطلع وموثوق أن إيران بغلت حلفاءها في المجلس الأعلى الإسلامي بزعامة عمار الحكيم والتيار الصدري بزعامة مقتدى الصدر رسالة شديدة اللهجة ، مفادها أن لا خيار أمامهم سوى قبول نوري المالكي، رئيس الوزراء المنتهية ولايته زعيم ائتلاف دولة القانون، مرشحا لرئاسة الحكومة المقبلة.

وأضاف المصدر، وهو قيادي في الائتلاف الوطني الذي يتزعمه الحكيم، لصحيفة الشرق الاوسط أن الرسالة الإيرانية كانت «ستقبلون بالمالكي حتى وإن ضربكم على رؤوسكم». وحسب المصدر فإن مقتدى الصدر «منع من السفر إلى أربيل عاصمة إقليم كردستان للاجتماع بعدد من الأطراف السياسية في البلاد».

وقال ــ مشترطا عدم ذكر اسمه لحساسية الموضوع : أن الصدر أراد السفر إلى أربيل «لكن ضغوطا مورست عليه من قبل إيران منعته من السفر بسبب مواقفه الأخيرة الرافضة للمالكي وتقاربه مع القائمة العراقية بزعامة رئيس الحكومة السابق إياد علاوي»، رافضا الكشف عن المزيد من التفاصيل.

إلا أن قياديا في التيار الصدري أكد أن الصدر «لا يسمح بممارسة أية ضغوط عليه من أية جهة وهو يتصرف بحرية في توجهاته السياسية». ونفى أن تكون إيران منعت الصدر فعلا من السفر إلى أربيل وقال : «إن جميع التيارات تمارس حريتها في التوجه حتى وإن كانت هناك أجندات أميركية أو إيرانية داخل البلاد فإنها لن تكون على حساب الأجندات الوطنية».

وأكد أن الضغط باتجاه أن يكون المالكي رئيسا للوزراء «لا مانع فيه لكن مع وجود تطمينات من قبل المالكي بأنه سيغير سياسته الحكومية، وبما أن هذا الأمر لم يتم من قبل المالكي فإن ترشيحه لولاية ثانية مرفوض من قبل التيار». وحول ما إذا مورست ضغوط على الصدر قبيل سفره إلى دمشق واخترقها الصدر لكسر الحاجز، قال المصدر

: «لم تمارس أية ضغوط. السيد مقتدى قرر السفر إلى دمشق بناء على دعـوة مـن الرئيس السوري بشار الأسد والتقى بقيادات عراقية لترطيب الأجواء وحلحلة الأزمـة السياسية وفعلا تم له ما اراد، وبشأن زيارة أربيل أيضا فإن الصدر تحدث مع بـارزاني الذي وجه إليه الدعوة ولكن لم يحدد الصدر تاريخها بعد»[1] .

ورغم ما يعرفه الجميع من تأييد أمريكى لرئيس القائمة العراقية إياد عـلاوى لتولى رئاسة الحكومة إلا أن علاوى نفسه أكد فى تصريحات صحفية أثناء زيارته المفاجئة لموسكو والتى التقى خلالها القيادات الروسية أن أمريكـا تريـد رئيسـا لحكومة العراق ترضى عنه إيران فى إشارة إلى إحتمـال وجـود صـفقة يجـرى التفاوض بشأنها كما أن هذا التصريح يعبر عن يأس من تـدخل حقيقـي مـن جانب الإدارة الأمريكية لحلحلة الأزمة وإنهاء الجمود السياسى وإجبار الأطـراف المشاركة بالعملية السياسية على تنفيذ الإستحقاقات الإنتخابية وتكليف القائمة العراقية الفائزة بأكبر عدد من الأصوات بتشكيل الحكومة وهو ما يعنى استمرار الجمود السياسى إلى أجل تحدده طهران وواشنطن .

المتسابقون يواصلون مشوارهم ، والمواطنون يواصلون ضـرب الـرأس بحـائط الواقع غير قادرين عن تجنب « هوا شباط »السياسى ومن يتتبع المشـهد العراقـي خاصة بعد زيارة وفد الكونجرس الأمريكي ونائب الرئيس صاحب خطة التقسـيم الشهيرة للعراق جو بايدن يمكن أن يستنتج أن امريكا لازالت حريصة علـى أن لا تتدخل مباشرة في تشكيل الحكومة لكنها تركت وصاياها وما ترغبه على طاولـة الفرقاء وستعود اليها لاحقاً لتضمن الحصول على أقل الخيارات مـرارة بالنسـبة لمصالحها التي يهددها التحالف الإيراني السوري وهو ما يجعل الأمر يبدو معقـداً لكنـه فى نفس الوقت يحمل عوامل انفراجـه .

التحالف الوطني الذي كان يعاني من مأزق أكثر من مرة أدى إلى توقف المفاوضات بين مكوناته الشيعية الخالصة المدعومة إيرانيا / ائتلاف دولة القانون «المجلس الأعلـى الإسلامى «التيار الصدرى ، تيار الجعفرى « الإصلاح» ، حزب الفضيلة ، حزب الجلبـى» المؤتمر الوطنى» / وذلك بسبب إسم مرشح رئاسة الحكومة حسم موقفه بعـد مـرور أكثر من سبعة أشهر من الجدل والمعارضة بقبول المالكي .

(١) اعترف مقتدى الصدر في بيان أعلن فيه قبوله تأييد ترشيح نوري المالكي لرئاسة الوزراء لمرة ثانية أن هذا الأمر جاء بعد ضغوط قاسية مورست ضده للقبول بالمالكي الذي جرى تكليفه رسميًا يوم ١١ نوفمبر ٢٠١٠.

ائتلاف العراقيـــة الذى يضم خمســـة كيانات على راسها تجمع اسامة النجيفى « عراقيون» وحركة طارق الهاشمى « تجديد» كل منها يطمح أن يكون ممثلاً للسنة بعد إنفراط أكبر تكتل للعرب السنة « جبهة التوافق » بسبب تجربتها المريرة خـــلال السنوات الأربع الماضية / ٢٠٠٦ – ٢٠١٠ /ولم تطرح تلك المكونات على طاولة الائتلاف حصـــة كل طرف مـــن كعكـــة الحكومة سوى اتفاقهـــا مرحلياً أن يكـــون ايـــاد علاوي مرشحها لرئأسة الوزراء بالرغم مـــن انـــه لم يكن قـــادراً علـــى الأحتفـــاط بجميع كيانات القائمة العراقيـــة خلال السنوات الأربع الماضية وأدت الخلافـــات إلى انفراط عقدها .

وقد فسر لى احد كبار مستشارى رئيس الوزراء العراقى نورى المـــالكى كيـــف كان ينظر التحالف الشيعى إلى ائتلاف «العراقية » ويلعب بالوقت مراهنـــا علـــى تفككه وإنفضاضه من حول زعيمه علاوى فقال :« أن إئتلاف العراقيـــة بأغلبيتـــه السنية يشبه الرأس وفوقها طربوش والأسهل فى هذه الحالة الإحتفـــاظ بـــالرأس والإطاحة بالطربوش حتى يمكن التفاهم » ويعنى بهـــذا أن عـــلاوى الشـــيعى لا يمتلك سوى عددا محدودا من النواب يمثل حركة الوفاق الوطنى التى يرأســـها بينما تتكون الكتلة العراقية من أغلبية نواب يمثلون الطائفة السنية ، وفى حالـــة نجاح محاولات شق الصف يمكن التخلص من علاوى الذى يمثل المنافس الأكثـــر حقا دستوريا برئاسة الحكومة لنورى المالكى وبالتالى يمكـــن أن ترضـــى المكونـــات الباقية بمنصب رئاسى هو « مجلس النواب»[(١)] ..

التحالف الكردستاني رفع سقف مطالبهم الذى تمثل فى ورقة ضمت ١٩ مطلبا شديدة الغلو ونجحوا في ممارسة سياسة « حافة الهاويـــة» للوصـــول إلى الحـــد المناسب لمطالبهم .

ومع استمرار « هوا شباط» سياسيا وأمنيا وخدميا كنت دائما كمراقب أصابه الدوار مما يجرى مثلما تضربنى « ريح العجوزة» أتساءل هل يمكن السيطرة علـــى هذا الشعب على المدى الطويل ومنعه من التظاهر أو إعلان العصيان ؟؟ وهـــل أن البقاء في هكذا دوامة سيقود العراقيين إلى الثورة أم أنهم ســـوف يســـتمرون فـــى انتظار مالا يجىء أملا فى أن يتغير الحال ؟؟ .

يقول مثل شعبى عراقى « شباط إن شبطت أو لبطت .. أيام الصيف غلابة » ويعنى أنه مهما طال هواءشباط أو استمرت حالة الدوار بسبب الريح المتقلبة ، حيث يشـــهد

(١) هذا ماحدث بالفعل وتولى أسامة النجيفي الذي يتزعم تجمع عرقيون رئاسة البرلمان .

اليوم الواحد فى شباط « فبراير» تقلب الفصول الأربعة على مدى ساعاته فإن أمل العراقيين لا ينقطع فى أن ينقشع هذا الهواء الذى يصيبهم بالدوار وتأتى أيام الصيف الطويلة التى وإن كانت تزعجهم بشدة حرارتها بسبب عدم توافر الكهرباء التى تتيح تبريد الأجواء بالمكيفات إلا أن رياحها الساخنة ثابتة يمكن فهمها والتعامل معها .

٥ - نصف درجة الغليان

تقول حكمة عراقية : « إن مرور الوقت الثقيل على أمة تنتظر بصعوبة يشبه القتل البطىء».

انتظر العراقيون طويلا حتى يأتى من يخلصهم من نظام صدام حسين ثم إنتظروا أن يفى المخلصون بتعهداتهم بنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان ودعم الخدمات الأساسية إلا أن الوقائع على الأرض التى عايشتها خلال أربعة أعوام تؤشر إلى أن الإنتظار سيطول يدعمه صبر العراقيين المثير للتساؤلات على كل ما يتعرضون له من قهر وضيم وظلم وأهوال .. فكل شىء عند العراقيين يقف فى منتصف الطريق بين الإنتظار والتحرك بشكل يشبه كثيرا درجة حرارة صيفهم القائظ فهى عند نصف درجة الغليان تقريبا وإن تجاوزتها بعض الوقت .. العراقيون يقفون أيضا عند منتصف الطريق بين الصبر على ما يعانون خاصة انعدام الخدمات الأساسية والإنفجار لتغيير الأوضاع المزرية .. بينما يقف السياسيون أيضا عند منتصف الطريق بين نجاح الانتخابات البرلمانية وتشكيل الحكومة وسط حالة من عدم اليقين تدعم الجمود السياسى الذى يجرى تكريسه بشكل دائم بسبب فشل أى مفاوضات تتيح تحالفا يشكل الحكومة التى طال انتظارها .. حتى إن أحد المقترحات الأمريكية دعم نظرية نصف الطريق ونصف درجة الغليان عندما قضى بتقاسم السلطات بين الشريكين اللدودين اياد علاوى رئيس ائتلاف العراقية ونورى المالكى رئيس إئتلاف دولة القانون يتولى خلالها الرجلان منصب رئاسة الحكومة لمدة عامين أو تقاسم سلطات رئيس الحكومة من خلال تفعيل المجلس السياسى للأمن الوطنى ومنحه جزءا من صلاحيات رئيس الوزراء الذى يتمتع وفق النظام الحالى بصلاحيات وسلطات مطلقة.

٦ - تناقضات

رغم مرور سبع سنوات على إنهيار نظام صدام حسين الذى كان ومازال شماعة مثالية تعلق عليها كل المشاكل وما يعانيه العراق من إنهيار فى البنية الأساسية

والإقتصاد والأمن والعلاقات المضطربة مع دول العالم القريبة والبعيدة فقد احتل العراق المرتبة ١١٠ في قائمة أسعد الشعوب وفق المسح الذي اجراه معهد جالوب الامريكي في ١١٥ دولة.

ووفقا للمسح الذى نشرته مجلة فوربس يشارك العراق في المرتبة التي تبين حجم التحديات التي تحول دون سعادة العراقيين كلاً من ناميبيا وانغولا وارمينيا ولاتفيا فيما 'حتلت الصومال المرتبة ٨٥ متقدمة بذلك على العراق بنحو ٢٥ نقطة.. حيث اعتمد المسح على سؤال وجه لآلاف المواطنين وهو «ما هو مدى الرضا العام عن حياتك؟» والإجابة يجب أن تكون ما بين ١ إلى ١٠، كما اعتمد المسح على أسئلة تتعلق بالخبرة الحياتية للمواطن فى هذه الدول ومدى شعوره بالاحترام والتقدير وسهولة الحياة.

يأتى هذا فيما تدور حوارات ونقاشات السياسيين ، باسترخاء تام، وراء أبواب الغرف المغلقة المكيفة حول موائد عامرة بما تشتهى الأنفس من مأكولات ومشروبات باتت محرمة على الجماهير التى حملتهم عبر صناديق الإقتراع إلى تلك القصور الفارهة لا يشعرون فيها بما يدور خارجها ولا تلسعهم حرارة الصيف اللاهبة بدون أى حسابات للوقت أو لمعاناة العراقيين الذين يتلظون بجحيم درجات الحرارة التي تتجاوز في أيام كثيرة من أشهر الصيف الطويلة الخامسة والخمسين، ووسط عواصف ترابية ترسل المئات من الأطفال وكبار السن إلى المستشفيات التي تشكو من أزمات في توفر أجهزة التنفس، يضاف إلى هذا انقطاع للتيار الكهربائي وشحة غير مسبوقة في المياه.

وفى وقت يتمتع فيه السياسيون العراقيون بامتيازات لا يحلم بها رؤساء دول أوروبية وأمريكية .. سيارات فارهة محصنة ضد الرصاص .. سيارات أخرى لحماية هذا السياسي وذاك البرلماني السابق واللاحق .. سيارات تطلق المنبهات لفتح الطريق أمام السياسي الذي يسرع للوصول إلى بيته الفاره سواء في المنطقة الخضراء أو في حي القادسية المخصص للوزراء وأعضاء البرلمان .. بيوت لا ينقطع عنها التيار الكهربائي أو التبريد، مع وفرة في المياه تسمح بملء المسابح المترفة الملحقة بفيلات حي القادسية بجانب الكرخ، ورواتب ومخصصات مالية تفوق كل التصورات، .. قال تقرير ميرسر العالمي لجودة مستويات المعيشة الذي صدر في نهاية مايو ٢٠١٠ أن بغداد ما تزال أسوأ مدن العالم من حيث جودة مستويات المعيشة واحتلت الرقم ٢٢١ من بين مدن العالم على الرغم من تحسن نقاطها بشكل ضئيل (من ٤ .١٤ إلى ٧ .١٤ عام ٢٠١٠)،

واضاف التقرير « لا يزال لعدم الاستقرار وتدني مستويات الأمن الأثر السلبي على جودة مستويات المعيشة في المدينة، كما أن نقاطها ما تزال بعيدة جدا عن ثاني أسوأ مدن القائمة، وهي بانغوي في جمهورية إفريقيا الوسطى .

ومن حيث البيئة جاءت في أدنى مراتب القائمة أنتاناناريفو في مدغشقر (٢١٧) بمجموع ٧ .٣٩ نقطة، بينما جاءت بغداد في المركز ٢١٤ بمجموع ٥ .٤٠ نقطة .

وتصنف الدراسة الناحية البيئية بناء على توافر المياه وصلاحيتها للشرب والتخلص من النفايات ونوعية أنظمة مياه الصرف الصحي ومدى تلوث الهواء والازدحام المروري.

كما بقيت بغداد (٢٢١) في أسفل القائمة على الرغم من تحسن نقاطها بشكل ضئيل (من ٤ .١٤ إلى ٧ .١٤ هذا العام)، حيث لا يزال لعدم الاستقرار وتدني مستوى الأمن الأثر السلبي على مستويات المعيشة في المدينة .

وتقول ميرسر أن تقريرها يعتمد على تحليل ظروف الحياة وفقاً لـ ٣٩ عاملاً مصنفة في ١٠ فئات هي (١) البيئة السياسية والاجتماعية (٢) البيئة الاقتصادية (٣) البيئة الاجتماعية والثقافية (٤) الصحة والنظافة (٥) المدارس والتعليم (٦) الخدمات العامة والنقل (٧) الترفيه (٨) السلع الاستهلاكية (٩) الإسكان (١٠) البيئة الطبيعية .

الغريب فى الأمر هو أن الحكومة العراقية التى تعترف بإخفاقها فى توفير الخدمات والحفاظ على الاستقرار الأمنى الهش تسعى جاهدة لاستضافة القمة العربية عام ٢٠١١ حيث خصص مجلس الوزراء العراقي ٣٠٠ مليون دولار استثناءً من التعليمات كسلفة لتغطية تكاليف إعداد المؤتم استعدادا لاستضافة القمة الأمر الذى أثار استياءا شديدا لدى المواطنين يمكن أن يوسع الهوة بين العراقيين ومحيطهم العربى بدلا من التقريب الذى تسعى إليه القمة العربية حيث تشير كافة الحوارات بين المواطنين إلى أن الحكومة فضلت استضافة القمة العربية كحدث دعائى وخصصت لها ملايين الدولارات بدلا من توجيه تلك الملايين إلى تحسين الخدمات الأساسية شبه المنعدمة .

وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط يوم ١٩ أغسطس ٢٠١٠ تقريرا رائعا يرسم صورة واضحة المعالم لهذا التناقض الذى يصل إلى حد التضارب بين الوضع الحقيقى لمعاناة العراقيين وقرارات حكام البلاد الجدد قالت فيه أن النخبة السياسية العراقية، التي مكنها الغزو الأمريكي واستأمنها على مستقبل البلاد، بدأت في توجيه النقد الشديد لنفسها، وهذا نذير شؤم للبلاد التي أصبح يسيطر عليها الخوف من حدوث أزمات وصراعات وحتى انقلابات جديدة بعد انسحاب القوات الأمريكية.

وفي هذا السياق، يقول نائب الرئيس العراقي القيادى فى المجلس الأعلى الإسلامى عادل عبد المهدي، الذي كان يعيش في المنفى سابقا «يجب أن نخجل من الطريقة التي نقود بها هذا البلد».

وهذا الرأي، الذي غالبا ما يردده أقران عبد المهدي بين صفوف معارضة المنفى، التي عادت إلى العراق بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣، ومنذ ذلك الحين تقود البلاد، يسلط الضوء على ما أصبح عليه عراق اليوم، والذي لا يزال من غير حكومة بعد خمسة أشهر من الانتخابات العامة التي كانت من المفترض أن تأتي بحكومة جديدة.

فالشعب العراقي يفتقر إلى ابسط مستلزمات الحياة وابسط الحقوق والخدمات بسبب انشغال المسؤولين بكراسي السلطة أكثر من إهتمامهم بالخدمات العامة ، جعلوا الإنسان العراقي ضحية الأزمات ، والإرهاب ، والجريمة المنظمة ، والتطرف الديني وغيرها من المشاكل خلال سبع سنوات عجاف بسبب التناحر الطائفي والحزبي ، ناهيك عن تفشي الفساد الإداري والرشوة في هياكل الدولة ، وتدمير البيئة والمنشآت الاقتصادية التى يمكن بقليل من المجهود وإستغلال الأمكانيات المادية الهائلة إعادتها إلى مركز الصدارة عالميا خاصة وأن الميزانيات المعلنة تبلغ مئات المليارات من الدولارات وهى كفيلة بأن تجعل من العراق جنة حقيقية.

٧ - الخروج

عندما كنت أنهى إجراءات الخروج من العراق فى مديرية الاقامة والتى تتطلب الحصول على إذن « مغادرة وعودة» بعد سلسلة طويلة من المراجعات والأوراق كنت أشعر بسعادة غامرة لأنها المرة الأخيرة التى سوف أتواجد فيها بهذا المكان بسبب الذكريات المزعجة التى أحتفظ بها والتى تعاود مشاكستى كلما أتيت إليه رغم وجود بعض العراقيين الطيبين فيه .. إلا أن تلك السعادة الغامرة كان يغلفها الكثير من الخوف والقلق بسبب سخونة الأجواء وتعقيدات الإجراءات الأمنية والانتشار الكثيف لقوات الأمن العراقية لدرجة إغلاق الكثير من شوارع عاصمة الرشيد بسبب نقاط التفتيش التى لا تسمح بمرور أكثر من سيارة عبر إجراءات التفتيش الدقيق لكل العابرين .

ولم تمنع تلك الإجراءات المبالغ فيها كالعادة مرور المفخخات وزارعى العبوات الناسفة لتضرب العاصمة بغداد وثمان محافظات شمالا وجنوبا في سلسلة إجراءات منسقة أشارت فيها أصابع الإتهام إلى تنظيم القاعدة رغم حرمة شهر رمضان التى يجب مراعاتها إلا أن الهجمات الدامية نشرت شبح العنف من شمال

البلاد حتى جنوبها في سلسلة من التفجيرات الانتحارية بالسيارات المفخخة والعبوات الناسفة، مما أسفر عن مقتل ٦٥ عراقيا وإصابة أكثر من ٣٠٠ اخرين، بينهم عدد كبير من عناصر الشرطة العراقية وهو ما إعتبره مراقبون اول امتحان للقوات الأمنية قبل خمسة أيام من الاعلان الرسمي عن الانسحاب الأمريكي من العراق والإبقاء عن خمسين الف جندي في مهام مساندة نهاية أغسطس ٢٠١٠ .

وقد أثارت تلك التفجيرات الكثير من الهواجس لدى العراقيين من مرحلة بعد الانسحاب الأمريكى ،فالعراقيون الذين يمقتون الوجود الأمريكي على أرضهم يشعر كثير منهم بمرارة شديدة بسبب الفوضى التي خلفها الغزو الأمريكي لأرضهم ، لكنهم متوجسون مما قد يحدث في حالة خروج الأمريكيين ما لم تكن القوات العراقية جاهزة لملء الفراغ الذي سيتركونه رغم ما يراه البعض من أن الانسحاب التدريجي الذي تحدث عنه الرئيس الأمريكى باراك أوباما لا يعدو كونه خطوة تكتيكية وأن إعادة تسمية القوات القتالية الأمريكية أو إعارتها وتفويض عملها للآخرين لا تعني بالضرورة إعادة البلاد إلى أهلها وإعادة الأرض إلى أصحابها .

فبالرغم من تأكيدات الرئيس الأمريكي باراك أوباما المتمثلة في كَوْن انسحاب قواتِه من العراق سيتم حسب الجدول الذى أقرته الإتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن والتى بدأ سريانها أول يناير عام ٢٠٠٩ ، إلا أن بقاء العراق على الصورة الراهنة يعزز المخاوف من انهيار شامل ، فالعراق بلد مفتت لا سلطة فيه، بلا خدمات وبلا دولة مستقلة كاملة السيادة وبلا جيش، وبلا قطاع اقتصادي قادر على النهوض زراعياً وصناعياً، وبلا منظومة تعليم وصحة .

كما أن خطة الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية والتي بدأت بسحب ٥٠ ألف جندي نهاية العام ٢٠٠٦ وتلاها تخفيض كبير عام ٢٠٠٧، تبدو قريبة جداً من الخطة التي نشرها مشروع البدائل الدفاعية بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٩ بعنوان « استراتيجية للخروج من المأزق العراقي » ويبدو واضحاً أن هذا الخروج الأمريكي ليس انسحابا كاملا إنما هو انسحاب جزئي متبوع بإعادة انتشار واسعة داخل العراق تهدف إلى تخفيف المخاطر الامنية على القوات الأمريكية خاصة مع سحب القوات الأمريكية من المدن والبلدات إلى داخل القواعد منتصف العام ٢٠٠٩

ولعل من المفيد ذكره أن الانسحاب العسكري الأمريكى كما جرى الاتفاق عليه مع العراقيين ، لا يتضمن بأي صورة من الصور، تعهداً حقيقياً بترك العراق للعراقيين، أي بتحقيق وعد الاستقلال الوطني الناجز والتام خاصة وأن هذا الانسحاب لا يمكن أن يتم دون ضمانات فعلية للأمريكان حول الحفاظ على

مصالحهم السياسية والاقتصادية والعسكرية أيضا ، وإلا لماذا غزت أمريكا العـــراق منذ البداية وقدمت كل هذه التضحيات من رجال وأموال .

وتزامنا مع مغادرتى للعراق كانت طائرة نائب الرئيس الأمريكى جو بايدن تحــط فى بغداد فى محاولة جديدة لحلحلة الأمور عبر مقترحات جديدة لا يــدرى أحــد إذا كانت لتصحيح الأخطاء أو تكريس الأوضاع القائمة والعمل على استمرار حالة عــدم اليقين التى تغلف الساحة العراقية ، كانت الحوارات مع الأصدقاء وزملاء مهنة المتاعب تدور حول مستقبل الأوضاع الأمنية والسياسية المتوترة وسيناريوهات المستقبل الغامض وهل سيستمر المنسوب العالي للعنف أم أن سيكون مرشحاً للارتفاع بعد انسحاب القوات الأمريكية من العراق ،أم أن تصحيح الأخطاء الاستراتيجية وأبرزها المشهد السياســي يمكن أن يعيد رسم السيناريوهات باعتبار أن قوات الاحتلال هي التي تغذي العنــف وأن مستواه سوف ينخفض بعد انسحابها .

كانت تلك المناقشات والحوارات تدور خلال حفلات وداع جماعية وفردية مــن العراقيين الطيبيين غادرت بعدها بغداد للمرة الأخيرة وسط صورة مهتزة لواقــع أشد اهتزازا وساحة مفتوحة على كل الاحتمالات ، يرافقنى شعور بالتوتر والقلق أبى أن يغادرنى بعد أن رافقنى طوال فترة مهمتى بالعراق التى إستمرت أكثر من أربعة أعوام ، يزاحمه شعور بالأمل فى أن ينهض العراق من كبوته كمــا إعتــاد على مدى تاريخه العريق الممتد منذ آلاف السنين .

عندما كانت السيارة الـــ«الجيمسى » تقطع الطريق البرى من بغداد إلى عمان عبر محافظة الأنبار والذى كان يسمى «طريق الموت » ، مرت آلاف الصــور التــى تختزنها ذاكرتى عن هذا الطريق أمام عينى ليتغلب شعور الأمل قلــيلا فــى أن يستمر الإستقرار النسبى المدعوم أمنيا بعد إنهيار نفوذ تنظيم القاعدة وفرق الموت جزئيا ليتجاوز العراق مرحلة الهشاشة التى يمر بها ،وتذكرت قول شاعر العـــراق الكبير بدر شاكر السياب فى رائعته « قصيدة إلى العراق الثائر » :

يا للعراق أكاد ألمح عبر زاخرة البحار
في كل منعطف و درب أو طريق أو زقاق
عبر الموانئ و الدروب
فيه الوجوه الضاحكات تقول قد هرب التتار
والذكر عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار
طلع النهار فلا غروب

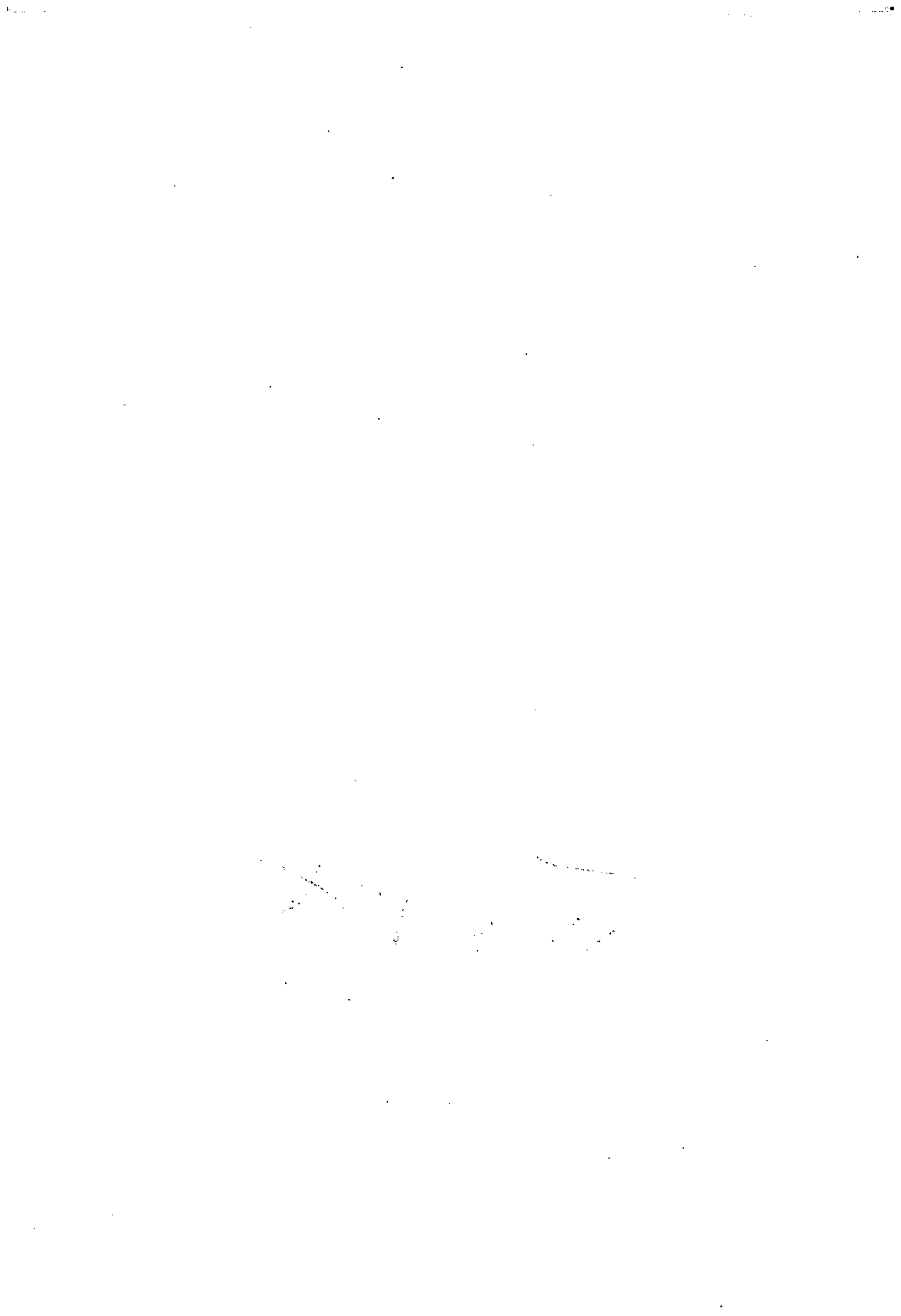
الجزء الثاني

بساتين الفخر والنار



الفصل الأول

طريق الحصاد



١ - رحلة

قادنى فضولى الصحفى الذى حركه موقف طريف تعرضت له فى أحدى ضواحى العاصمة بغداد إلى رحلة خارج العاصمة بعد أن توارت فرق الموت بكافة مسمياتها قليلا وانزوى دورها تحت وطأة ضربات أمنية موجعة ساند خلالها رجال العشائر السلطات الحكومية وفرضوا أمنا نسبيا فى عدد من مناطق العراق التى اكتوى أهلها بنيران الفتنة تارة ونيران التكفير تارة أخرى وهو الأمر الذى عزز الأمل فى استقرار دائم بعيدا عن أجواء الرعب وحكايات المشاهد المؤلمة التى غلفتها أجواء الرعب فى كل شىء لتجعل الحركة من مكان إلى آخر هاجسا يؤرق كل من يعيش بالعراق .

بدأت الحكاية عندما كنت أستقل سيارة « تاكسى» مع شاب عراقى يحب مصر كثيرا مثل كل العراقيين الطيبين الذين لم تغير مشاعرهم عمليات الشحن المنظمة ضد كل ما هو عربى أو مصرى باعتبارهم مصدر الارهاب فى العراق الجديد .. وفى أحد شوارع الضاحية البغدادية العامرة بالحفر والمياه الراكدة وبينما كان الحوار يدور عن مصر أم الدنيا والمصريين الذين عاشوا بالعراق كجزء من أهلها مع عتاب كبير عن منع العراقيين من زيارة مصر وصعوبة الحصول على فيزا للاستمتاع بليالى القاهرة التى لا تنام والهروب من ضجيج المولدات والأيام القاحلة والذهاب إلى مسرح عادل إمام الذى يعشقه العراقيون كثيرا لنسيان الذكريات التعيسة والأزمات الخانقة .. وبينما كانت ضحكاتنا تتعالى متذكرين قفشات عادل إمام فى مسرحياته وأفلامه حتى توقفت السيارة متعثرة فى إحدى الحفر المليئة بالماء الراكد وكان علينا أن نخرج وسط هذا الطين المحاط بالأوساخ فى محاولة لرفع السيارة من الحفرة التى استقرت فيها وعندما فشلت جهودنا وخارت قوانا دون جدوى تبدلت معالم وجه الشاب العراقى التى كانت تنطق بالسعادة وتعلوها البشاشة لينقلب إلى وجه مخيف ينطق بالشر وأقسم قسما غريبا لم أفهمه ساعتها « والعباس اذا صار للسيارة شيىء لأفصلك اليوم » .. أما العباس فهو الأخ غير الشقيق للإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام وهو من الشخصيات التى تتمتع بقدسية كبيرة لدى الشيعة ويعنى الحلفان به أقصى درجات الصدق لديهم فهو الشهيد الذى خاض قتالا بطوليا مع أخيه الحسين « الامام الثالث لدى الشيعة» فى ملحمة كربلاء ويواجه مرقده فى كربلاء مرقد الامام الحسين ويطلق على المنطقة التى تفصلهما وهى لا تزيد على مائتى متر « منطقة ما بين الحرمين الشريفين » ..

وأما الفصل فهو طريقة حسم النزاع بعيدا عن أقسام الشرطة والقانون الحكومى ويتم اللجوء إليها على نطاق واسع لأن العراق مجتمع عشائرى تفوق فيه

سلطة العشيرة ما دونها من سلطات خاصة بعد إنهيار نظام صدام حسين الذى كانت سلطة الدولة خلاله هى الأقوى والأشد عنفا ويخضع لها الجميع ويجرى الاستعانة بالفصل العشائرى خشية الفتنة والخوف من وقوع حوادث تجر إلى ما لا تحمد عقباه وهو قانون لا يسير على قاعدة معينة وإنما يختلف بالنظر لعرف كل قبيلة والقبائل المجاورة .. ولولا تدخل بعض المارة من العراقيين الطيبين الذين حملوا السيارة إلى خارج الحفرة وحاولوا تهدئة السائق الشاب وتقليل ثورته باعتبارى ضيفا والواجب إكرامى وتحمل أخطائى .. لولا ذلك التدخل واطمئنان السائق على أن سيارته لم يطالها سوء لكان سيناريو الحكاية قد تبدل إلى ما لا تحمد عقباه ذلك لأن صورة الحل فى قانون الفصل العشائرى كما علمت بعد ذلك لا يكون مشتركا وإنما فيه خلاف وهذا الخلاف إما أن تكون له قوة تدعمه أو ضعف يفرض الاستسلام لمطالب الطرف الأقوى أو يتباعد العرف لتصل الأمور إلى نهايات غير حميدة .

٢ - الشخصية العراقية

مضى كل منا فى طريق بعد انتهاء المشكلة إلا أن تفاعلاتها فى ذهنى مضت إلى غير طريق عبر سلسلة من الأسئلة فهل الشخصية العراقية هي الوحيدة التي تمزج هذا العنف بقيم وشفرات تستوحي قوتها من عقائدها المسكوت عنها؟ وهل هي المتفردة في إيجاد هامش ثقافي لهذا العنف وهذه العقائد في نصوص وطقوس يشتبك فيها الرمز والاستعارة مع موحيات التقديس؟ وهل هذه الثقافة ترتبط بشكل أو بآخر بخصوصيات عبادية تؤسس الديانات خطابها بناء على العلامات الطقوسية والرمزية باعتبارها أشكالاً مقدسة لمواجهة القوة وسيطرة رمزية العنف السلطوي في مكان العقائد؟ وهل هذه المورثات هي المسؤولة عن صناعة المجال التوليدي لاستمرارية انتاج القسوة وسردية الحاكميات والحكومات، تلك التي وجدت في فرض عنف السلطة ضرورة للدفاع الغريزي عن نوعها وعن ذكورتها القهرية؟ وهل التاريخ السياسي للسلطة في مدن العراق بدءا من النموذج الأموي والعباسي وما تلاه في تاريخ الفترة المظلمة، كما تسمى ونموذج السلطة العثمانية وانتهاء بالنموذج الوطني للسلطة بدءا من عام ١٩٢١ ولغاية ٢٠٠٣، هو خارج سياق انتاج العنف الضاغط والمولد لثقافة العنف المضاد أو العنف المكبوت في الشخصية العراقية؟

قادت هذه الأسئلة إلى أسئلة أخرى تطلبت إجابات قادت بدورها إلى رحلتين فى شدة الخصوبة والثراء اكتشفت خلالهما جانبا اخر من العراقيين الطيبين وجوانب من مداخل لفهم الكثير مما شهده العراق بعد سقوط نظام صدام حسين

.. كانت الرحلة الأولى نظرية تطلبت الإطلاع على عشرات الكتب حول العشائر العراقية التى يتكون منها المجتمع ونسيجه الفسيفسائى المتشعب القوميات والأعراق والمذاهب والقوميات وهى أمور رأيت أن كلا منها يستحق تأليف أكثر من كتاب أدعو الله أن يساعدنى على إنجاز بعضها بعد انتهاء مهمتى بالعراق بالإضافة إلى دراسات عن الشخصية العراقية التى اختلف الساعون إلى تقييمها وفهمها من خلال البحث في زوايا متعددة من التحليل النفسي والاجتماعي والتاريخي بحيث جاءت تلك التحليلات التي شملت أداء فلاسفة وعلماء اجتماع وسياسيين ومؤرخين وباحثين في علم الأخلاق وغيرهم متباينة إلى درجة كبيرة تتراوح بين وسمها بالطابع المرضي إلى وصفها بالطابع الإبداعي بينما يعدها البعض مصابة بحالة من اختلال التوازن والانسجام ناتجة عن تراكم عقد ومركبات نفسية واجتماعية أنشأت حالة من الانشطار الوجداني فيها وآخرين اعتقدوها مصابة بالازدواجية السلوكية الناتجة عن إحتوائها ضمنياً على أكثر من نموذج نفسي واجتماعي مختلف ومتباين في خليط عجيب .

لم تستطع الشخصية العراقية حسم صراعها الذاتي بين هذه النماذج نهائياً بحيث يتمكن الباحث العلمي تأكيد نموذج سلوكي متوقع أو التنبوء به على نحو الحتمية إزاء المسائل العامة أو الخاصة.

في حين تقف مجموعة ثالثة لتصف الشخصية العراقية بالينبوع المتدفق من الإبداع والاجتهاد طلبا للتغير المستمر باعتباره هدفاً حياتياً وبذلك لم تشهد هذه الشخصية السكون ولم تذق طعم الاستقرار منذ آلاف السنين وقد ساعدنى فى ذلك كثيرا وجود أحد أهم علماء الاجتماع وعباقرته على مستوى العالم بالعراق وهو الأستاذ الدكتور علي الوردي المولود فى كاظمية بغداد عام ١٩١٣ والمتوفي فى يوليو عام ١٩٩٦ حيث انطلقت إلى كل حدب وصوب أبحث عن مؤلفاته وألتهمها بشراهة وجدية تفوق جدية بحثى عن حقائق ما يجرى بالعراق المشتعل فقد كتب الوردي ثمانية عشر كتابا ومئات البحوث والمقالات خمسة كتب منها قبل ثورة عبد الكريم قاسم فى ١٤ يوليو /تموز/ ١٩٥٨ ولعل أهمها كتابه « وعاظ السلاطين» الذى وجه خلاله نقدا لاذعا لهؤلاء الوعاظ « رجال الدين» وأتهمهم بالوقوف إلى جانب الحكام وتجاهل مصالح الأمة على حساب مصالحهم الضيقة متخاذلين عن واجبهم الديني فى الوقت الذى يعتمدون على منطق الوعظ والإرشاد الافلاطوني منطلقا من أن الطبيعة البشرية لا يمكن إصلاحها بالوعظ وحده، وان الوعاظ انفسهم لا يتبعون النصائح التي ينادون بها وهم يعيشون على موائد المترفين، كما أكد بأنه ينتقد وعاظ الدين وليس الدين نفسه..

وقد دعا الوردي إلى نبذ الخلاف الطائفي بين الشيعة والسنة وطالب بالنظر إلى موضوع الخلاف بين الإمام علي والصحابة على إنه خلاف تاريخي تجاوزه الزمن ويجب على المسلمين عوضا عن ذلك استلهام المواقف والآراء من هؤلاء القادة التاريخيين وما أحوج العراقيين خاصة والمسلمين فى بقاع الأرض بشكل عام لهذا التوجه حتى يبتعدوا عن الطائفية التى تغذيها مصالح سياسية فى المقام الأول وارتباطات وصراعات بين القوى الدولية والإقليمية تأخذ من الصراع الدينى الطائفى كواجهة لتمرير مخططات وأجندات بعيدة كل البعد عن الدين وطوائفه خاصة السنية والشيعية .

اما الكتب التي صدرت بعد ثورة ١٤ يوليو /تموز/ فقد اتسمت بطابع علمي ومثلت مشروع الوردي لوضع نظرية اجتماعية حول طبيعة المجتمع العراقي وفي مقدمتها كتابه دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ومنطق ابن خلدون ولمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الذي صدر في ثمانية أجزاء.

لقد تنبأ الوردي بانفجار الوضع مثلما تنبه إلى جذور العصبيات التي تتحكم بشخصية الفرد العراقي التي هي واقع مجتمعي تمتد جذوره إلى القيم والاعراف الاجتماعية والعصبيات الطائفية والعشائرية والحزبية التي ما زالت بقاياها كامنة في نفوس العراقيين وكذلك إلى الاستبداد السلطوي، الزمني والتزامني، الذي شجع وما يزال يشجع على اعادة إنتاج الرواسب الاجتماعية والثقافية التقليدية القديمة وترسيخها من جديد، كما يحدث اليوم من اعادة انتاج الفتنة الطائفية ومحاولة تصديرها حتى ينشغل بها الجميع عن القضايا الرئيسية .. بالإضافة إلى خلق أعداء وهميين يكونوا عوضا عن محاربة الأعداء الحقيقيين .

ولعل ما يثير التساؤلات الحائرة هو كيف تمكن العراقيون من الحفاظ على أمن بلدهم دون حوادث عنف طائفى أو سياسى أو إرهابى وغيرها من المسميات التى طفت فيما بعد على السطح بعد دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد فى ٩ أبريل / نيسان/ عام ٢٠٠٣ والإعلان رسميا عن نهاية عهد صدام حسين بالرغم من عدم وجود حكومة لمدة تزيد على ١٤ شهرا عندما تولى اياد علاوى رئاسة أول حكومة انتقالية نهاية يونيو عام ٢٠٠٤ وكذلك في السنوات الثلاثة التى أعقبت الاحتلال والتي تميزت بغياب شكل ديمقراطي للحكم وغياب حياة حزبية رصينة ومتجذرة وغياب الولاء لشخصية البطل الفرد الراسخة في الوجدان الشعبي.

وربما تفسر خلاصة الدراسات التى نشرت عن طبيعة الفرد العراقي ذلك السلوك المتسامى من العراقيين الذين أداروا شئون بلادهم بدون حكومة بشكل رائع

لمدة تزيد على ١٤ شهرا رغم ما حدث من عمليات نهب منظمة أطلق عليها « الحواسم » والتى سيأتى ذكرها تفصيليا فى كتاب اخر تعليقا على ما حدث فى ساحة الفردوس وسط بغداد بعد سقوط تمثال صدام حسين فى المشهد الهوليودى الشهير يوم التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ .. حيث تشير تلك الدراسات إلى أن الفرد العراقي الطبيعي الذي لا ترتبط مصالحه الفردية الأنانية بأي مصالح ذاتية يقاوم بطبيعته وباللاشعور أي محاولات تؤدي إلى إنغلاق شخصيته وانعزاليتها لأن هذا يجافي النزوع التاريخي الموروث فيه نحو التغيير والانعتاق ويؤدي به إلى المزيد من القلق والتوتر اليومي حيث يسبح في عوالم نفسية متناقضة يقوم الولاء في أحدها على مقاومة الولاءات الأخرى .. ولكن إذا ما تحرك خزين الوعي فسرعان ما يجره نحو التسامي على الأنانيات والضغائن التي تحفزه عليها رواسب التحيزات الذاتية المتقوقعة ويعمل على تفتيح شخصيته التي تتكشف دائماً عن لؤلؤة ثمنية، هي أخوة المواطنة ذلك أن الوعي الاجتماعي الموجود يتغلب عند اللزوم فيما يشبه انتفاضة الوعي التاريخي في وجدان وعقل الفرد العراقي وحين ينتفض الوعي ويتسامى تتحطم أطر الولاءات الذاتية المتقوقعة ويفيض نهر المواطنة الحقة .. نهر الوحدة والمحبة والتسامح .

٣ - ثراء المتناقضات

ترتبط أزمة الحديث عن الشخصية العراقية أساساً بأزمة إدراك طبيعة هذه الشخصية في المكان والزمان، خاصة ما يجعل هذين المؤشرين خاضعات لمرجعيات سياسية قهرية، وأنماط من الحكم والسطوة والكبت، تلك التي جعلت صيرورة الشخصية رهينة بتراكم وقائع ضاغطة تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وكوارث طبيعية وعسكرية وغزوات دامية، .. كل هذه سحبت هوية الشخصية إلى ارتكازاتها النفسية، وما تمثله هذه الوقائع من علامات للدمار والعنف وهذا ما جعل الشخصية العراقية تبحث دائما عن عوامل لمواجهة هذا الإقصاء الذى يصل إلى حد المحو أحيانا وهو الذى ارتبط بعوامل خارجية مثل (الغزو والكوارث والحروب) وداخلية مثل قهر السلطة وقمعها، والقوة الغاشمة للقوى المهيمنة (مؤسسات الأمن، الإرهاب، المؤسسات العسكرية).

وقد أدت تلك العوامل الضاغطة إلى نزوع الشخصية العراقية إلى مواجهة هذه القوى بصناعة مصدات ثقافية ونفسية للدفاع عن هويتها ووجودها وحتى عقائدها، جعلها الأقرب إلى التماهي مع الثقافات الباطنية، والدفاعية وثقافات (التقية) وهى وان كانت تمثل جزءا رئيسيا فى عقيدة الشيعة إلا أنها تمارس من كافة المكونات « السنة والصابئة والمسيحيين » وغيرها من مكونات الشعب العراقى وهو ما كان يظهر

جليا فى أن يحمل الفرد العراقى أكثر من اثبات للشخصية / هوية/ تتغير مع تغير المناطق التى يضطر إلى عبورها وصولا إلى وجهته النهائية بسبب وجود مناطق تقع تحت سيطرة الميليشيات الشيعية وأخرى تحت سيطرة القاعدة السنية خاصة فى فترة اشتعال الفتنة الطائفية التى بدأت بذورها عام ٢٠٠٥ وبلغت ذروتها عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ عندما سادت الثقافة الاقصائية التي تقوم على محو الآخر، أو فرض أشكال من الإرهاب الثقافي اللغوي والرمزي والمادي عليه، بما يمنح هذا الآخر صفة العدو، المختلف معه، الكافر،الزنديق، الخارج عن الملة والأمة التي توجب تكفيره، ولزوم قتله أو طرده أو تغييبه وهو ما أنتج أكبر موجة نزوح بشرى فى العصر الحديث حيث جرى تطهير مناطق العراق على أساس طائفى وعرقى فهرب أكثر من مليونى شخص إلى الخارج ونزح مثلهم إلى الداخل فى مناطق تتواءم مع طائفتهم أو قوميتهم .

٤ - العنف

ويعتقد كثير من الباحثين أن تاريخ العنف في الحياة العراقية هو نتاج لعنف الدولة بدءا من دولة المناذرة ودولة الحروب خلال الفتوحات الإسلامية وصولا إلى الأمويين و العباسيين وحروب هولاكو وجنكيزخان وتيمورلنك والسلاجقة والبويهيين الصفويين والعثمانيين وانتهاء بنمط الدولة الانقلابية الذي بدأ منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ٢٠٠٣ لان هذا العنف اسهم في صناعة سياقات اجتماعية ووظائف وتوصيفات رمزية مثل وظائف العسس والبصاصين والسيافين وأصحاب الحسبة ورجال الأمن والمخابرات والقناصين وما أدخلته ظاهرة «الحواسم» من مصطلحات لا تختلف كثيرا عما سبق مثل « العلاسة» والمخبر السرى والصكاكه وغيرها من أشكال تؤدى فى النهاية إلى السجن أو القبر .

إن صناعة العنف في المكان العراقي، هي صناعة موجهة، ذات مرجعيات إشكالية، أسهمت في إنتاجها عوامل السلطة القهرية، التي حكمت هذا المكان بأنماط محددة من المعيش،والوجود، والعلاقة المأزومة بين الحاكم والمحكوم، أو بين (السلطة والرعية) اذ كان رعب هذه العلاقة هو المولد لثقافة العنف والكراهية، فضلا عن أن شيوع الفقر والجهل والتخلف وهما جزء من مخلفات السلطة القهرية،أسهم هو الآخر في صناعة الشخصية المطلبية،الشخصية التي تبحث عن مصادر معيشها ووجودها،مثلما أسهمت في الشخصية الخانعة المستلبة الخاضعة لتوجهات السلطة، وحتى شخصية(الشقاوة)في البيئة الشعبية العراقية هي في جوهرها صناعة دفاعية عن المكان والوجود لجأ اليها الخيال الشعبي للدفاع عن مكانه وهويته. ويقول بعض الباحثين : إن الإنسان العراقي ابن مكانه، وان القهر المكاني

والعنف المكاني وتشوهات المكان هي التي أسهمت في انتاج الكثير من ملامح هذا العنف السلوكي والرمزي والممارسات التي تحمل في جوهرها شفرات احتجاجية رافضة للسلطة ولقوة رأس المال والتملك بدءا من التملك الحكومي وانتهاء بالتملك الطبقي..ولعل قراءة ظواهر مثل الحواسم، والعنف الطائفي تنعكس عبر قراءة الظواهر الاشكالية في المكان وأنماط الثقافات المهيمنة خاصة الثقافات الفقهية التي تم توظينها من قبل السلطة والايديولجيا بشكل مشوه لفرض الهيمنة، والتي أصبحت فضاء مفتوحا لأنماط أخرى اكثر تطرفا وغلوا في تكفير الآخر واباحة دمه وماله وعرضه ناهيك عن أن ظاهرة الحواسم / لم تكن بعيدة عن الاختلاط الثقافي وتشوه موجهاته، والاثر النفسي العميق الذي يعكس نزعات دفاعية إكراهية عدوانية مقابلة للخطاب المهيمن الذي كان يملك كل شيء ويوزع دون عدالة الحقوق والثروات على الآخرين إلا أن العراقى الطيب ينتصر في النهاية إذا أخذنا معيار الوعي التاريخي الدفين لدى الشعب العراقي وانحسار الغبش، وذلك سر الشخصية العراقية.

ويرتبط مع طابع العنف فى الشخصية العراقية لفترات الحرمان والضغط والاضطهاد والإحباط صفة أخرى ارتبطت بمراحل القهر والفقر بعد العزة والإشباع وهى إفتقاد الشخصية العراقية إلى المرونة الكافية إلى حد التطرف أحيانا في التعبير عن أحاسيسها ومشاعرها سواء الحب أو الكراهية فهي إذا أحبت مجدت وإذا كرهت أسقطت كلياً نفس الشخوص وذات المواضيع.

كما حثت الظروف التاريخية المسلطة على الشعب العراقي عبر القرون إلى نزوع الشخصية العراقية نحو الاندفاع المفاجئ في المواقف بانفعالية والانفجار غير المتوقع في أحيان كثيرة بشكل يصعب السيطرة عليه حتى وصف العراقي بأنه مثل «نار الحلفة» لسرعة الاشتعال والانطفاء .

٥ - كأن الريح تحتي

لعل أهم ما يميز الشخصية العراقية بالاضافة إلى العنف هى أنها شخصية قلقة وغير ساكنة ينطبق عليها قول المتنبى « على قلق كأن الريح تحتى » وهذا شيء جيد لمن يريد التغيير فذلك يمنحه شعباً جاهزاً يتمتع بحيوية .. حيث يعتبر القلق موروثا أساسيا في الشخصية العراقية عبر القرون وليس قلقاً فردياً يمكن إعادة أصوله إلى التكوين النفسي للفرد العراقي .

وبالتأكيد فإن الظروف التي مر بها العراقي عبر التاريخ وكثرة المتغيرات الحاصلة وتقلب الأحوال السياسية والاقتصادية وما يرافقهما من انعكاسات اجتماعية

وتتابع عمليات الاحتلال وتوالي أنواع أنظمة الحكم المتناقضة في المقاصد والسلوك السياسي وطرائق الحكم قد ساهمت في عدم استقرار أوضاع هذه الشخصية التي تعرضت في أحوال كثيرة لظلم تاريخي تنوع بين البطش والقتل والاستلاب .. كما لعبت الثورات والانقلابات العسكرية والمشاكل الداخلية والمنازعات والاحتكاكات القبلية والطائفية والعنصرية دورها في ذلك .. ولطالما عاش العراقى عقوداً في أجواء المظاهرات والاعتصامات والمسيرات وإعلان الأحكام العرفية وحل البرلمان وتعطيل الصحف وسريان الاعتقالات والمطاردات والنفي والطرد والفصل والعزل والتصفية وإغلاق المدارس والجامعات وسقوط الوزارات وإسقاط الجنسية وشيوع ألوان التخلف وإنعدام الحقوق المدينة حتى جاء العقد القريب الذي شهد في بعض السنوات السبعينية استقراراً نسبياً لتبدأ سلسلة من الحروب المدمرة للأرواح والنفوس والاقتصاد مع الجارة إيران ثم الكويت ساهمت في شرذمة المجتمع وترسيخ الحالة القلقة فيه إلى أعلى مستويات القلق الإنساني والخوف من المستقبل المجهول.

لقد أكدت الفردية والسلبية ترسيخ الفروق والاختلافات وانعدام الثقة بالآخرين وقلة التعاون وشيوع أجواء الكراهية .. والغريب أن تلك السلوكيات استمرت موروثًا يظهر أحيانا ويتوارى أحيانا أخرى منذ أيام السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين وأيام الأمويين والعباسيين وما تلاها من أيام السلاجقة والفرس والأتراك وغيرهم فهي داخلة في الموروث التاريخي العراقي الذى أنتج التصفية والاجتثاث اللذين قرأنا عنهما الكثير وشهدنا نماذجهما الحية خصوصاً النزوع الحالي بقوة وكثافة إلى العنف التصفوي الدموي كما يعبر عن واقعة اليومي بصورة مكشوفة وسافرة.

٦ - ميراث القهر والغضب

أدى مرور الحكام الغرباء على العراق عبر العصور وما مارسوه من ظلم واستبداد إلى قطع خيوط الصلة الودية بين الشعب وحكامه التى لم تتصل بين الشعب وحكامه من أبناء جلدته العراقيين بسبب التسلط ولهذا استمرت رواسب هذه العقدة وهذا الانقطاع يحرك الشخصية العراقية ويغذى فيها عدم الثقة بالحكومات وشيئاً لا يستهان به من الكراهية وهو ما جعل العراقي يؤلف في وجدانه الباطني سلماً من الولاءات تتغير في حركة دائبة من الصعود والهبوط فتارة تتقدم الأسرة والعشيرة وتارة تتقدم الطائفة الدينية وذلك ضمن نظام متأرجح تؤثر فى نتائجه طبيعة الحياة التى تختلف بين القرية والمدينة .

الفصل الثاني

الشيعة



١ - الشيعة .. ببساطة

يقول رائد علم الاجتماع العراقى الدكتور على الوردى إن النزاع بين الشيعة والسنة، اتخذ شكل التعصب لآل النبي من جهة.. ولأصحاب النبي من الجهة الأخرى.. فأهل السنة تعصبوا للأصحاب، بينما تعصب الشيعة لآل النبى .. وأخذ كل فريق يغالي في تمجيد من تعصب لهم. التزم أهل السنة بالحديث النبوي القائل «إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيهم أخذتم به اهتديتم»، واختلاف أصحابي رحمة.. والتزم الشيعة من الجانب الآخر بالحديث القائل «إنما مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

أولئك جعلوا مقياس الفضيلة في الصحبة النبوية، وهؤلاء جعلوه في البيت العلوي.. اخذ أهل السنة يطلقون على الشيعة لقب "الروافض" باعتبار أنهم رفضوا الصحابة، بينما أطلق الشيعة، على أهل السنة"النواصب" باعتبار أنهم نصبوا العداء لأهل البيت وحالفوا اعداءهم الأمويين.. وبهذا تمادى الغلو من كلا الجانبين وأصبح داء اجتماعيا وبيلاً..

لم يكن الشيعة «روافض» في أول أمرهم.. وكذلك لم يكن أهل السنة «نواصب» وإنما هو التطرف والتعصب.. وسمما بالتراكم الفكري الذي أدى بهما إلى هذه النتيجة المحزنة.. وإذا أراد الشيعة وأهل السنة في هذا العصر أن يتحدوا، فليرجعوا إلى شعارهم القديم، الذي اتخذه زيد بن علي وأبو حنيفة. أي شعار«الثورة على الظلم في شتى صوره »لا فرق في ذلك بين الظالم الشيعي أو الظالم السني.

إن هدف الدين هو العدل الاجتماعي، وما الرجال فيه إلا وسائل لذلك الهدف العظيم .. جاء البويهيون إلى بغداد في القرن الرابع، فأضافوا بمجيئهم إلى الطنبور نغمة جديدة ..كان البويهيون من الشيعة، أما خلفاء بني العباس فكانوا من أهل السنة وبهذا اجتمعت في بغداد طائفتان من السلاطين.. خلفاء سنيون وأمراء شيعة، فأصبح البلاء بهذا الحكم المزدوج عظيما كان سلاطين الصوفيين لا يختلفون اختلافا أساسيا عن سلاطين العثمانيين.. كلهم يعبدون الله وينهبون عباد الله.. حدثت المفارقة الكبرى على ضفتي دجلة، فالإمام الأعظم مدفون على الضفة اليسرى. والإمام الكاظم مدفون على الضفة اليمنى، ونسيَ الناس أن إماميهما كانا من حزب واحد إذ كانا من أعداء السلاطين... عارض أبو حنيفة المنصور بنفس الشدة التي عارض بها موسى الكاظم حفيده هارون الرشيد.. وقد مات كلاهما في سجن هذين السلطانين الظالمين..

فرق السلاطين بينهما بعد المـوت.. إذ لم يسـتطيعوا أن يفرقـوا بينهمـا في الحياة.. ولله في خلقه شؤون..

قالوا : «إن السياسة ما دخلت في شيء إلا أفسدته» فدخلت وأفسـدت مختلـف المذاهب والأديان.

من هم الشيعة ؟ متى ولدوا ؟ وكيف تكونوا عبر التاريخ ؟ ما دورهم العقائدي والسياسي مع المسلمين ؟ وما مخططاتهم في يومنا الحاضر ؟

تحتاج الإجابة على هذه الأسئلة تفصيليا تأليف عـدة كتـب إلا أن طرحـا مبسطا لتاريخ التشيع وملابسات نشوء المذهب يمكن أن يختصر الكثير من الوقت والجهد الذى إستغرق من وقتى مئات الساعات لقراءة عشرات الكتب التـى تـؤرخ وتبحث ماهية الشيعة ومذاهبها والتحولات التى أدت إلى حدوث التباسات كـبرى بسبب ما أدخلته السياسة على المذهب وما بات يعرف بالتشيع العلـوى والتشـيع الصفوى .

بعد كفاح مرير استطاع الرسول الأمين محمد ^أن يؤسس نواة دولته بهجرته إلى يثرب أول مدينة تبايعه على النبوة والزعامة وبدأ بذلك التـاريخ السياسـي للإسلام في العام ٦٢٢ ميلادية والتى أصبح يطلق عليها حاليا « المدينة المنورة » .

وبعد ١١ عاما من هجرته توفي رسول الله تاركا دولة فتية، بعد أن أكمل لها المقومات الأساسية للنهوض والارتقاء بتركة كتاب الله وسنة نبيه مع جيل كامل من تلاميذه الذين رباهم على يديه وفق المنهج الأصيل واصطلح علـى تسـميتهم الصحابة.

ونتيجة لفهمهم العميق باشر الصحابة فور وفاة نبيهم مناقشة حرة مفتوحـة لاختيار خليفة لزعامة الدين والدولة ، وتم ترشيح رجل لم يخيب ظنهم وظن الأمة فيه ذلك هو الصديق أبو بكر ..`وبعامين وشهرين حفر الخليفة الأول اسمـه في سجل المجد وصار قبره بجوار قبر نبيه .

ولان الدولة كانت مشتبكة بفتوحات العدل لنشر الخير شاور الخليفة في مرضـه الأخير الصحابة ليسلم الأمانة إلى عمر بن الخطاب ليصبح الخليفة الثاني.. فشرح الله على يديه قلوب الناس للحق،وفتحت جيوش الإسلام العـراق والشـام والقـدس ومصر وغيرها ودمر نفوذ القوتين العظميين آنذاك الفرس والروم .

وبطعنات من خنجر مجوسي لا يزال قبره إلى اليوم مزارا مشهورا في إيران غادر الخليفة الثاني الحياة الدنيا شهيدا تاركا الأمر شورى بـين سـتة شـهد لهـم الأصحاب ومن قبلهم رسول الله بالكفاءة والتقوى هـم علـي وعثمـان وعبـد

الرحمن وسعد والزبير وطلحة .

وبعد مناقشة مستفيضة أجراها الستة اختير الثري القرشي الذي تبرع بماله أيام العسرة ليصبح خليفة المسلمين أيام التفوق والقدرة ، وليكمل الراشد عثمان بن عفان طريق تحرير البلدان وفتح العقول والقلوب للحق والهداية.

في السنة الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان بدت في الأفق سمات التوتر وأخذت مجموعة من اليهود المتقمصين بالإسلام تتحين الفرصة للكيد والتآمر ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ المعروف بابن سوداء وأخذ ينظم فريقا سريا لحملة ضد الخلافة مستغلا بعض أخطاء الأمراء وتساهل وطيبة الخليفة، واخذ فريقه يحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة وغشهم بكتب ادعى أنها وردت من بعض الصحابة تدعو لقتل من يحتج على سياسة الخليفة . .ثم اتفقوا على القيام بخطوتهم العملية بمهاجمة عثمان في المدينة المنورة.

وقرروا أن يأتوا من مراكزهم الثلاثة: مصر ــ حيث كان ابن سبأ ــ، والكوفة، والبصرة في موسم الحج وان يغادروا بلادهم في صورة الحجيج فإذا وصلوا المدينة تركوا الحجاج يذهبون إلى مكة لأداء المناسك واستغلوا فراغ المدينة من أهلها المشغولين بالحج.

وفي سنة ٣٥ من الهجرة قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان في بيته بعد أن دامت خلافته اثني عشر عاماً إلا قليلا وقد شكلت هذه الحادثة أول مشكلة سياسية خطيرة تمر بها الدولة الإسلامية .

طلب المسلمون من علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه أن يكون الخليفة ولكنه اعتذر وقال لهم:(إني لكم وزير خير لكم مني أمير) ولكن الناس الحوا عليه وبذلك أصبح الخليفة الرابع وهنا تبدأ فصول إحداث معقدة عصفت بالمسلمين وما زالت إلى اليوم .

رأى أمير المؤمنين أن أفضل حل للأزمة في المدينة هو إخراج المتمردين منها، وأن أفضل مكان يتجه إليه هو العراق فتحرك بمن معه، ورافق رؤوس الفتنة ومشعلوها التحرك .

وأثناء ذلك وصل خبر مقتل عثمان إلى الأمصار، فتحركت مشاعر الناس مطالبين بالقصاص من قتلة عثمان.

وطالب كثير من الناس علياً بالقصاص من القتلة، ولكن عليا كان يرى أن لكل واحد منهم قبيلة وأتباع ولابد أنهم سيطالبون بدمه مما يؤدي إلى إشعال فتنة أكبر، لذلك كان رأيه تأجيل ذلك إلى حين استتباب الأمور.

كاتب أهل البصرة الصحابيين الكبيرين الزبير وطلحة وطلبوا منهم التوجه إلى البصرة ووعدوهما بالنصرة للقصاص من قتلة عثمان فخرج الصحابيان متوجهين بالجيش إلى الكوفة لمطالبة علي بتسليم قتلة عثمان فتحرك علي بمن معه لإيقاف هذه الحركة باعتبارها انشقاقا وتجاوزا على سلطة الخلافة .

وبعد مفاوضات اتفق الطرفان على تسليم القاتلين، ولكن رؤوس الفتنة أحسوا بالخطر فدبروا للإيقاع بين الفريقين وذلك بافتعال تراشق بالنبل اتهم بعدها كل فريق الآخر ببدئه ونجح الكيد واشتبك الجيشان في موقعة الجمل التى جرت وقائعها فى ١٠ جمادى الأولى عام ٣٦هـ، وقيل ١٠ جمادى الثانية و سُمِّيت المعركة بحرب الجمل؛ لأنّ زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة كانت راكبة فيها جملاً إسمه عسكر .

٢ - معركة صفين

وفي الشام أرسل معاوية ابن أبى سفيان وهو ابن عم عثمان- فالاثنان من بني أمية- كتابا إلى أمير المؤمنين في الكوفة يسأله أن يمكنه من قتلة عثمان، لكن موقف علي كان واضحاً أن الوقت غير مناسب للقصاص وأن هذه بداية تمرد على مركز الخلافة وأمر بعزل معاوية الذي رفض الأمر بشدة ، وتوسع نفوذه بسرعة ، حتى تحرك بجيشه قاصداً الكوفة، التى تبعد عن بغداد حوالي ١٦٠ كيلومتراً جنوب بغداد وعندما وصلت أخبار تحرك معاوية إلى علي تحرك بجيشه والتقوا في مكان يدعى صفين عرفت الواقعة باسمه وحدثت معركة بين الطرفين في سنه ٣٩ هجرية، فضعفت كفة جيش معاوية فلجأ إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح وعرَضَ التحكيم، فرضي أمير المؤمنين علي بن أبى طالب بذلك حقنا للدماء رغم أن جيشه كان المتفوق في تلك الفترة.

وتم اختيار الحكمين وهما عمرو بن العاص من جهة معاوية وأبو موسى الأشعرى عن الإمام على لكنهما لم يتفقا على شيء محدد سوى التواعد على جلسة مفاوضات أخرى.

الخوارج

رفض فريق من جيش الإمام على التحكيم و تمرد عليه وقال بردته لأنه حكم الرجال وترك تحكيم كتاب الله كما زعموا ، وعرف هؤلاء بالخوارج، وأصبحوا فرقة تهدد أمن الدولة الإسلامية مما حدا بعلي أن يرسل إليهم ابن عباس ليقيم

الحجة عليهم ولكن المحاولات لم تفلح بل أخذوا يعتدون على الناس مما اضطر عليا إلى مقاتلتهم في معركة النهروان فقتل الكثير منهم .

وبذلك يكون الخوارج أول تيار بدأ بانحرافات وأفكار عقائدية كالتكفير وحكم مرتكب الكبيرة ..الخ

وبينما كان علي مشغولا بمقاتلة الخوارج استطاع معاوية تكوين دولة قوية في بلاد الشام منفصلة عن الدولة المركزية.

وفي عام أربعين من الهجرة خرج عبد الرحمن بن ملجم وهو احد الخوارج في طلب الثأر لأصحابه الذين قتلوا في النهروان، و دخل المسجد متخفياً وضرب علي بن أبي طالب بسيف مسموم على رأسه مما أدى إلى استشهاد الخليفة الرابع في يوم ٢١ من رمضان متأثراً بتلك الضربة، بعد خلافة استمرت أربعة أعوام وتسعة أشهر.

٣ - ظهور مصطلح الشيعة

أدت الأحداث التي أعقبت تولي الإمام علي كرم الله وجهه الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنهما وخروج المطالبين بقتلة عثمان واشتباك علي وجيشه معهم إلى انقسام الناس بين مناصر لعلي عرفوا بشيعة علي، وفريق المطالبين بالقصاص عرفوا بشيعة عثمان، وكان هذا أول انشقاق سياسي في الدولة الإسلامية وهو أول تسجيل للتشيع والتحزب داخل الأمة الواحدة.

وضاعف رؤوس الفتنة الهوة بين أبناء الأمة الواحدة مستغلين الانشقاق وعوامل الفتنة، وبدأ الجدل حول من هو أفضل علي أم عثمان.

وكان هذا الانقسام سياسيا بحتا ولم يحمل أي بعد عقائدي وبهذا المعنى فان كل من يحمل مسمى شيعي في القرن الأول هو ذو موقف سياسي أو عسكري في النزاع داخل الصف الإسلامي وليس ذو توجه عقائدي ،ونستطيع الآن أن نفهم كيف أن رواة الحديث السنة يستدلون في رواياتهم عن أشخاص يطلق عليهم تسمية شيعة .

٤ - تاريخ

نظراً لأهمية هذا الموضوع الذي شق المسلمين، ومازال تأثيره العميق باقياً إلى الآن، ولإعطاء صورة واضحة عما جرى في يوم وفاة النبي، ننقل هنا مقتطفات مما جاء في تاريخ الطبري

«ولما اشتد المرض برسول الله ﷺ قال: « أئتوني باللوح والدواة- أو بالكتف

والدواة- أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده ». فقالوا: أن رسول الله يَهْجُر، (أي كلام من تأثير الحمى).

«وعن ابن عباس أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله؟ قال أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب، فقال: إني أرى رسول الله سيتوفى في وجعه هذا، واني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب إلى رسول الله فسله فيمن يكون هذا الأمر؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمر به فأوص بنا. قال عليٌ: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً، والله لا أسألها رسول الله أبداً.

«ولما توفي الرسول ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة، فبلغ ذلك أبا بكر، فأتاهم ومعه عمر، وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء. ثم قال أبو بكر: إني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر أو أبا عبيدة، أن النبي ﷺ جاءه قومٌ فقالوا أبعث معنا أميناً فقال: لأبعثن معكم أميناً حق أمين، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وأنا أرضى لكم أبا عبيدة. فقام عمر، فقال: أيكم تطيب نفسه أن يخلُف قدمين قدَّمهما النبي ﷺ! فبايعه عمر وبايعه الناس، فقالت الأنصار- أو بعض الأنصار- لا نبايع إلا علياً.

«وتخلف عليّ والزبير (عن ذلك الاجتماع)، واخترط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى يُبايَع عليٌ، فبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فقال عمر: خذوا سيف الزبير، فاضربوا به الحجر. قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعباً، وقال: لتبايعان وأنتما طائعان، أو تبايعان وأنتما كارهان! فبايعا». (تاريخ الطبري، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣٤).

وعن محاولة أبي سفيان في الصيد بالماء العكر، يقول الطبري: «ولما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان (إلى علي بن أبي طالب)، وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين المستضعفان! الأذلان عليّ والعباس! وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتى أبايعك. فزجره عليٌ، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك». (الطبري، نفس المصدر، ص ٢٣٧).

والجدير بالذكر أن الإسلام قد أقام نظام الشورى، إذ قال تعالى: «وشاورهم في الأمر»، وكان النبي ﷺ يشاور المسلمين في معظم الأمور، ولكنه لم يترك قاعدة

واضحة وثابتة لاختيار الخليفة من بعده.

ويبرر العلامة أحمد أمين موقف النبي من ذلك بقوله: «... وترك الأمر مفتوحاً لأنه لو وضع قاعدة فيه لاتخذها المسلمون ديناً يتحجرون عليه. فلما مات النبي حصل هذا الاختلاف فبايع عمر أبا بكر ثم بايعه الناس وكان في هذا مخالفة لركن الشورى ولذلك قال عمر (فيما بعد) :إنها غلطة وقىَ الله المسلمين شرها. وكذلك كانت غلطة بيعة أبي بكر لعمر وإن كان قد استشار كبار الصحابة في ذلك فبعضهم حمده وبعضهم خاف من شدته فقال أبو بكر إنه يراني ألين فيشتد». (أحمد أمين، يوم الإسلام، ص٥٣-٥٤)

وفي الجدال الذي دار بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة حول الخلافة، استشهد أبو بكر بقول أسنده إلى النبي: (الخلافة في قريش)، ثم دب الخلاف بين المهاجرين أنفسهم، فمنهم من رأى أبا بكر أولى بالخلافة، وكان عمر بن الخطاب هو الذي رشحه ودعمه لهذا الأمر، ومنهم من رأى علي بن أبي طالب أولى بالخلافة لقرابته من النبي، فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، ويعتقد الشيعة (وبعض السنة) أن النبيﷺ أوصى في خطبة الوداع لعلي بقوله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه»، والتي سميت بخطبة الغدير، في مكان سمي بغدير خم يقع في منتصف الطريق بين مكة والمدينة.

وكان عمار بن ياسر من المطالبين بإسناد الخلافة إلى علي، وعارضه آخرون. وكان الإمام علي منشغلاً في تلك الإثناء بدفن جثمان النبي ﷺ ولم يكن حاضراً لاجتماع سقيفة بني ساعدة.

ويضيف أحمد أمين: « على كل حال، اتسعت هوة الخلاف، فلما علِمَ أبو بكر وعمر باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ذهبا إليها، وخطب أبو بكر خطبة موفقة أقنع فيها الأنصار بأولوية المهاجرين الأولين، وبذلك كُفيَ المهاجرون خلاف الأنصار، ثم كان أن كُفي أبو بكر أمر عليّ، فقد كره كثير من الصحابة أن يجمع بين النبوّة والخلافة، ولعلمهم بشدة عليّ في الحق وعدم التساهل.» (أحمد أمين، نفس المصدر، ص٥١).

وهكذا أسندت الخلافة إلى أبي بكر، ولما علم الإمام علي بما جرى في سقيفة بني ساعدة، وأن المهاجرين تمسكوا بأولوية قريش في الخلافة لقرابتهم من النبي، قال والله «تمسكوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»، يعني أنهم اتخذوا القرابة من النبي حجة لهم ولكنهم منعوه هو من الخلافة. (أحمد أمين نفس المصدر).

على أي حال ومهما كان من أمر، فقد بايع الإمام علي أبا بكر بعد ستة أشهر من وفاة الرسول وبعد وفاة زوجته فاطمة، لأنها (فاطمة) لم تكن على وئام مع أبي بكر حيث منعها من حقها في فدك، إذ تمسك بقول أنه سمع رسول الله يقول: «نحن معشر الأنبياء لا نورث وما نتركه صدقة» ولم تنتقل فدك إلى أهل البيت إلا في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز.

ومهما يكن من أمر، فقد بقي الإمام علي وفياً للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. ولقد وقف عليّ بباب أبي بكر ساعة وفاته ونعاه قائلا: «يرحمك الله يا أبا بكر، لقد كنت والله أول القوم إسلاما صدقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا » (أحمد أمين، نفس المصدر)

وقد دامت خلافة أبي بكر عامين، ثم أوصى بها قبل وفاته إلى عمر بن الخطاب، والذي بدوره أوصى وهو على فراش الموت بتشكيل مجلس شورى من ستة أشخاص من الصحابة الكبار، ليختاروا واحداً من بينهم، فاختاروا عثمان بن عفان، بعد أن تعهد لهم بالالتزام بنهج الشيخين، أبي بكر وعمر. وقد نفذ وعده هذا خلال السنوات الست الأولى من خلافته، ولكنه شذّ عنه في السنوات الست الأخيرة حيث انحاز إلى أقربائه من بني أمية ففضلهم على بقية المسلمين في السلطة والمال والنفوذ. وقد برر عثمان فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال فقال: «إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله، وأنا أعطي قرابتي احتساباً لله، ومن لنا بمثل عمر؟» (طه حسين، الفتنة الكبرى، ج١، ص٤٢). وهذا الانحياز لقرابته أثار عليه نقمة المسلمين من مختلف الأمصار، فثاروا عليه وقتلوه.

وبعد مقتل عثمان انتخب الثوار علياً خليفة، وبايعه الناس بمن فيهم طلحة والزبير. ويقول طه حسين في هذا الخصوص في كتابه (الفتنة الكبرى، علي وبنوه،ج٢):«... فقد كان خليفتهم الجديد أجدر الناس بأن يملأ قلوبهم طمأنة، وضمائرهم رضىً ونفوسهم أملاً. فهو ابن عم النبي ﷺ وأسبق الناس إلى الإسلام بعد خديجة، وأول من صلى مع النبي من الرجال، وهو ربيب النبي قبل أن يُظهر دعوته ويصدع بأمر الله.... وكان النبي يحبه أشد الحب ويؤثره أشد الإيثار، استخلفه حين هاجر على ما كان عنده من ودائع حتى ردها إلى أصحابها، وأمره فنام في مضجعه ليلة ائتمرت قريش بقتله، ثم هاجر حتى لحق بالنبي ﷺ في المدينة فآخى النبي بينه وبين نفسه، ثم زوجه ابنته فاطمة، ثم شهد مع النبي مشاهده كلها، وكان صاحب رايته في أيام اليأس. وقال النبي ﷺ يوم خيبر:

«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». فلما أصبح دفع الراية إلى عليّ. وقال النبي حين استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تبوك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». وقال للمسلمين في طريقه إلى حجة الوداع: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاده».

ويضيف طه حسين فيقول: «وكان عمر رحمه الله يعرف لعليّ علمه وفقهه ويقول «إن علياً أقضانا». وكان يفزع إليه في كل ما يعرض له من مشكلات الحكم. وقال حين أوصى بالشورى: « لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة.» إلى فضائل كثيرة يعرفها له أصحاب النبي على اختلافهم، ويعرفها له خيار المسلمين التابعين، ويؤمن له بها أهل السنة كما يؤمن له بها الشيعة». (طه حسين، الفتنة الكبرى، ج٢، ص ١٥-١٦).

ولكن رغم كل هذه الفضائل لعلي، تمردّ عليه كثيرون ومنهم من بايعوه مثل طلحة والزبير. وقد اتخذ بنو أمية وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان مقتل عثمان ذريعة لنيل الخلافة لأنفسهم، فقاموا بمطالبة علي بالكشف عن قتلة عثمان والانتقام منهم، الأمر الذي لم يكن بإمكانه تنفيذه لعدم معرفة القاتل الحقيقي في خضم تلك الثورة، وكان محمد بن أبي بكر أحد المتهمين بقتل عثمان. فأعلن معاوية، الذي كان والياً على الشام، التمرد على الخليفة.

ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص، أن سئل الإمام عليّ في رأيه في عثمان وقاتليه فقال: «إنه استأثر فأساء الأثرة، وجزعوا فأساءوا الجزع، ولله حكم واقع، في المستأثر والجازع». ويعلق أحمد أمين قائلاً: ولعل هذا أصدق وصف لما كان بين عثمان والناقمين عليه، وهو كذلك أصدق وصف للأمويين والعباسيين، والناقمين عليهم من الشيعيين. (أحمد أمين، ضحى الإسلام ج٣، ص ٣٠٠).

٥ - العراق الشيعي

عرف العراق كونه متشيعا لعلي بن أبي طالب، بعد معركة الجمل، التي دارت رحاها على أرض البصرة، بين جيش علي كرم الله وجهه المكون أساسا من أهالي البصرة والكوفة وبين الجيش القادم من مكة بقيادة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر.

بدأ التشيع أساسا في البصرة والكوفة ومن ثم انتشر إلى مناطق العراق الأخرى وبقية البقاع المجاورة، وكان لشيعة العراق الدور الهام في نشر التشيع في مكة والمدينة وبغداد والري وبخارى وخراسان واليمن والبحرين. ومثال على ذلك: المحدث البصري معمر بن راشد الأزدي سكن اليمن عشرين عاما وهو من اصحاب الإمام الصادق«٥»

أعيان الشيعة ٢: ٣١٢،معجم رجال الحديث ١٨: ٢٦٤

وجعفر بن سليمان الضبعي البصري، ويقول أحمد بن حنبل: قدم جعفـــر بـــن سليمان عليهم بصنعاء فحدثهم حديثا كثيراً، وكان عبد الصمد بن معقل يجيئ فيجلس اليه «٦». تهذيب الكمال ٥: ٤٦

وقد لعبت الحكومات المتتابعه على العراق منذ أن دخل الإسلام إلى العراق دورا كبيرا في تشويه ومحاربة التشيع ومنع انتشاره ومحاولة اقتصـــار التشـــيع علـــى الكوفة فقط، ولهذا فلم تكن العلاقة بين الشيعة واغلب الحكومات المتعاقبة جيـــدة إطلاقا «٧»«٨» «٩» ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ج٢ ص ١٠

أ ب السالنامة العثمانية الخاصة بولاية البصرة لسنة: ١٣٠٩هـــ

مدرسة الحديث في البصره ٣٢-٣٣

يذكر العلامة المظفر قائلا: مهما أجتهدوا في جعل العراق أمويا كانت تلك الجهود فاشلة، وكانت الروح السائدة عليه هاشمية وعلوية خالصة إلا في البصرة في عهود قليلة «١٠». تاريخ الشيعة ٧٦

ولم تمض السنون حتى تغلب حب أهل البيت في البصرة على المشايعة لبني أمية فعادت علوية شيعية، فهي اليوم ومن قبل اليوم بقرون شيعة، ويوجد في البصرة على غير مذهب أهل البيت نفر أن قلو في العدد إلا إنهم كثيرون بالمـــال والملـــك«١١». تاريخ الشيعة١١٣ .

٦ - الامام الحسن

بعد مقتل الامام علي رضى الله عنه بايع أهل المدينة و الكوفة الحسن بن علي أميراً للمؤمنين بينما بايع أهل الشام معاوية أميراً.

وكان الحسن يميل إلى الصلح مع معاوية حقناً لدماء المســـلمين ولكنـــه لم يصرح بذلك في بداية الأمر لعلمه بطبيعـــة أهـــل العـــراق، ووســـط إلحـــاحهم وإظهارهم الاستعداد لمقاتلة أهل الشام، تحرك الحســـن بـــالجيش فلمـــا تقـــارب الخصمان بدءا مفاوضات اظهر فيها الحسن نيته الصلح وتنازل فعلا عن الخلافة شرط أن يعود الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية فسمي ذلك العام بعـــام الجماعة

دامت خلافة الحسن ستة أشهر تقريباً وبذلك انتهت فترة الخلافة الراشـــدة مصداقا لما أشار إليه الحديث النبوي أنها ستكون ثلاثين سنة.

تسلم معاوية الخلافة عام ٤١هـ واتخذ دمشق عاصمة جديدة و في العام ٥٠ للهجرة توفي الحسن بن علي مسموماً وبذلك خلت الساحة من منافس لسلطة معاوية بن أبي سفيان .

٧ - دم الإمام وسيف الخليفة

في سنة ٦٠ هجرية توفي معاوية بعد أن أسند قبل وفاته ولاية العهد إلى ابنه يزيد وأخذ له البيعة خلافا لما تم الاتفاق عليه مع الإمام الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السلام ، ولهذا امتنع الإمام الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير بن العوام عن البيعة ليزيد الذى عرف بالبغى والسفه ، وهناك من هو أحق منه بخلافة المسلمين التى تتطلب الكثير من المقاييس لم تتوافر فى يزيد بن معاوية .

أشار أهل العراق على الإمام الحسين بالقدوم ووعدوه النصرة إذا أراد الخروج على يزيد لأنه وصل إلى الحكم دون شورى ولا اختيار من أهل الحل والعقد وأن هذه طريقة غير شرعية فقرر الحسين التوجه إلى العراق رغم أن الكثير من الصحابة في المدينة المنورة نصحوه بعدم الخروج وحذروه من غدر أهل العراق به ولكنه لم يستمع لهم فقد كان عنده مئات الرسائل تسأله القدوم وتعده النصرة.

وفي مطلع سنة ٦١ هـ تحرك الحسين بأهله رجالا ونساءً وأطفالاً متجهاً إلى العراق ونزل بمكان يدعى «الطف » ، وهناك دارت مأساة شهيد كربلاء لينتهى الأمر باستشهاد الإمام الحسين وسبعين رجلا من أهل بيته في ذلك اليوم ، ولكن الله قدر أن ينجو رجل واحدا فقط من بيت الحسين هو الإمام الرابع زين العابدين الملقب بالسجاد الذي كان مريضا ساعة المعركة وبعد أربع سنوات من حكم يزيد تصل الخلافة إلى شيخ بني أمية مروان بن الحكم .

شكك عبد الله بن الزبير في شرعية السلطة الأموية وأعلن التمرد وسيطر على مكة وتوفي مروان بن الحكم فاستلم السلطة ابنه عبد الملك وظهر في الكوفة المختار بن عبيد الله الثقفي، وجمع من حوله «شيعة علي» وراح يتتبع قتلة الامام الحسين هنا وهناك ، وراح يدعو لمحمد ابن على بن أبى طالب (محمد بن الحنفية) ويناديه بالإمام المهدي.

أغضبت الدعوة باسم محمد بن الحنفية «عبد الله بن الزبير» فأرسل أخاه «مصعب بن الزبير»؛ ليكون أميرا على العراق، وأمره بالقضاء على «المختار الثقفى».

ونجح مصعب فى حصار المختار بالكوفة وقتله، وأصبح الحجاز والعراق لابن

الزبير ومصر والشام لعبد الملك بن مروان،الذي تحرك جيشه بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى من الطائف إلى مكة فحاصرها وظل يضيق على ابن الزبير حتى قتل سنة ٧٣هـ واستمرت خلافته تسعة أعوام وبمقتل ابن الزبير دخلت الحجاز من جديد تحت حكم بنى امية،

٨ - زيد والرافضة

في زمن هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين واتصل بالفقيه أبو حنيفة النعمان الذي أيده وقال: (هو والله صاحب حق) وقد سمي السبئية في عهد زيد بالرافضة لانهم رفضوا إمامته ، كونه رضي بولاية أبي بكر وعمر وترحم لهما وانتهت ثورة زيد بن الحسين بتمكن الجيش الأموي منه فقتل وصلب.

تعاقب بعد هشام بن عبد الملك أربعة من الخلفاء الأمويين عجزوا عن ممارسة السلطان، وأتاحوا الفرصة لعوامل الهدم والاضمحلال، فراحت الدولة الأموية تتهاوى لتسقط سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م فاسحة المجال لعهد جديد دشنه بنو العباس .

٩ - الخلافة العباسية

بدأت حقبة جديدة بتشكيلة مختلفة من التحالفات مؤسسة على بعد جديد في الولاية والحكم يتزعمها اناس ادعوا الصلة المباشرة ببيت النبوة (العباس عم النبي تحديدا)، وهم ابناء علي بن عبد الله بن عباس، الذين حصلوا على تاييد الناس خصوصا بعد الانحرافات التي ظهرت في نهاية العهد الأموي.

وأدى قيام دولة بني العباس على أساس القرابة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلى خوفهم من منافس اكثر صلة منهم بالبيت النبوي وربما يشكل تهديدا حقيقيا لهم خصوصا وانه يمتلك منزلة في قلوب الناس اكبر منهم ولذلك هو اقدر على جذب الجماهير وكسب ولائهم وهم العلويون (احفاد علي بن طالب» الحسنيون والحسينيون »وهذا ما حصل فعلا في المرحلة اللاحقة بين العباسيين والعلويين الذين كانوا يثورون لأنهم رأوا أحقيتهم بالخلافة لقرابتهم من بيت النبي.

١٠ - ثورة (النفس الزكية)

في عام ١٤٥هـ خرج محمد بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالمدينة وأخوه

إبراهيم في البصرة، ولما تمكن من المدينة بايعه جمع من العلماء يروى أن منهم الإمام مالك الذي أفتى الناسَ بمبايعته وتلقب محمد بن الحسن بالمهدي طمعاً منه أن يجذب قلوب وطاعة الجماهير ، ولكن المنصور العباسي قرر أن يلقن أهالي البصرة درسا قاسيا بسبب إسنادهم لإبراهيم فأرسل إلى عاصمة العراق الجنوبية المدعو سلم بن قتيبة وفوض إليه أن يعاقب بلا رحمة جميع من اشترك في الانتفاضة من السكان، وعندما تباطأ العامل في تنفيذ هذا الأمر القاسي استدعي على الفور واستبدل بمحمد من سليمان وقد نفذ هذا تعليمات الخليفة بدقة فقد هدم ما يقارب ثلاثين ألف دار ودمر أكثر من عشرين ألف نخلة يملكها أنصار إبراهيم، كما أنه اعدم خمسة وخمسين شخصا من الوجهاء المحليين وأرسل ما لا يقل عن خمسمائة آخرين مكبلين بالأغلال إلى بغداد لكي يقتص منهم الخليفة بنفسه - «٨» أ ب السالنامة العثمانية الخاصة بولاية البصرة لسنة: ١٣٠٩هـ في شهر رمضان سنة ١٤٥هـ .

١١ - الدولة البويهية

في عام ٣٢٢هـ ظهر نفوذ « بني بويه» وهم نسل من سلالة ملوك الفرس الساسانيين وقد اعتنقوا الجيل الأول من فكر التشيع العقائدي ووصل نفوذهم إلى بغداد حيث آلت الأمور إليهم فصاروا يخلعون ويعينون الخليفة متى يشاءون وفي ذلك الوقت بدأ التشيع العقائدي يخرج من الأقبية والغرف المغلقة إلى العلانية والجهر مدعوما بقوة الدولة والسلطان وللمرة الأولى في التاريخ.

ابتدع البويهيون ما يسمى اليوم بالشعائر الحسينية وبما في ذلك اللطم والنياحة والتطبير ، كما أظهروا الطعن واللعن على الصحابة وقاموا بالتوجيه لإنشاء أماكن لنشر هذه الأفكار وتطويرها فأنشئت ما تعرف اليوم بالحوزة العلمية.

تتوزع فرق الشيعة إلى أكثر من مذهب أكبرها هى الشيعة الاثنى عشرية وهى المنتشرة بالعراق والجارة ايران تليها الشيعة الزيدية والاسماعيلية .

١٢ - الاثنى عشرية / الجعفرية / الإمامية

الشيعة الإمامية أو الاثنى عشرية أو الجعفرية هم الفرقة الذين قالوا أن عليّا هو الأحق في وراثة الخلافة دون الشيخين / أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب / وعثمان رضي الله عنهم اجمعين وقد أطلق عليهم الإمامية لأنهم جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي تشغلهم وسُمُّوا بالإثنى عشرية لأنهم قالوا بإثني

عشر إماماً غاب آخرهم وهو المهدى المنتظر عجل الله فرجه كما يسمون بالجعفرية لأنه ينسب إلى إمامهم السادس جعفر الصادق تثبيته دعائم المذهب حيث استمرت إمامته ٣٤ عاما وينسب إلى الإمام الصادق عدد من الكتب لم يصل إلينا منها شيء، مثل: «كتاب الرد على القدرية»، وكتاب «الرد على الخوارج»، وكتاب «الرد على الغلاة من الروافض»، بالإضافة إلى بعض الرسائل التي كان يمليها على تلاميذه، ومنها وصاياه إلى ابنه موسى الكاظم، ورسالة في شرائع الدين، ورسالة إلى أصحاب الراي والقياس، وتنسب إليه رسائل في الكيمياء جمعها تلميذه جابر بن حيان، وقد روت الشيعة عنه الكثير، حتى صنفوا من إجاباته عن المسائل كتباً كثيرة سموها «الأصول». فالمعروف أنه لم يرو عن أحد من أهل بيت النبي ﷺ ما روي عن جعفر الصادق .

كما أنهم القسم المقابل لأهل السنة والجماعة في فكرهم وآرائهم المتميزة، وهم يعملون لنشر مذهبهم ليعم العالم الإسلامي.

والمعروف أن الإمام المعصوم عند الشيعة الاثني عشرية هو أحد الأئمة الاثني عشر من نسل الإمام الأول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)وفاطمة الزهراء (رضي الله عنها)بنت محمد ﷺ الذين توارثوا العلم والحكمة عن النبي محمد وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وهم حسب اعتقاد متبعيهم أئمة معصومين في التبليغ عصمة الأنبياء، وكلامهم تشريعي يعتبر بمثابة الحديث النبوي في تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .. وبذلك يشمل كتب الحديث عند الشيعة: حديث النبي ﷺ الذي يكون منقولا على السنة الأئمة أو أحاديث الأئمة أنفسهم أيضا، لقول الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه): «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين(رضي الله عنه)، وحديث أمير المؤمنين (رضي الله عنه)حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله ﷺ حديث الله عزّ وجلّ »، وتذكر المصادر الشيعية أن مصدر التلقي عند هؤلاء الأئمة (رضي الله عنه)من مصدر الهي وهو الوحي (ليس بوحي الشريعة لأنه مختص فقط الانبياء وانما هو علم لدني، والقرآن يذكر أن الله عز وجل قد أوحى إلى مريم (رضي الله عنه)وام موسى (ع)و الخضر(رضي الله عنه)) ومصدر نقلي وهي كتب ومدونات يتناقلها الإمام (ع)إلى من ينص عليه، إلا أن التاريخ يشير إلى حيرة الشيعة بعد وفاة كل من هؤلاء الأئمة في اتباع الإمام المنصوص عليه بعده مما يجعل أصل وجود مثل هذه المدونات أو نص كل إمام على من يليه لينقل العلم إليه دون أخوته مسائل تحتاج إلى مزيد بحث (في الحقيقة هي حيرة غير الشيعة،

لان الائمة (ﷺ)حاولوا في بعض الأوقات أن يحيطوا الإمام التالي ببعض الغموض مخافة قتله من قبل النظام الحاكم حتى لاتخلوا الأرض من حجة لله وهو في الحقيقة تدبير الهي مثال ذلك الامام جعفر الصادق (ﷺ)وهارون العباسي).

وقد ورد عند الشيعة أن رسول اللهﷺ قال لعلي بن أبي طالب(ﷺ) :«الأئمة من بعدي إثنا عشر، أولهم أنت يا علي، وآخرهم القائم الذي يفتح الله تبارك والله ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها» من كتاب «الإمام علي (ﷺ)» - أحمد الرحماني الهمداني - صفحة ١٢٨ الحديث ١٣.

١٣ - الأئمة الـ١٢

علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي يلقبونه بالمرتضى ـ رابع الخلفاء الراشدين، وصهر رسول الله ﷺ، وقد مات غيلةً حينما أقدم الخارجي عبد الرحمن بن ملجم على قتله في مسجد الكوفة في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ.

ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويلقبونه بالمجبتى (٣ ـ ٥٠هـ).

ـ الحسين بن علي رضي الله عنهما ويلقبونه بالشهيد (٤ ـ ٦١هـ).

ـ علي زين العابدين بن الحسين (٣٨ ـ ٩٥ هـ) الناجي الوحيد من مذبحة كربلاء ويلقبونه بالسجّاد.

ـ محمد الباقر بن علي زين العابدين (٥٧ ـ ١١٤هـ) ويلقبونه بالباقر.

ـ جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٣ ـ ١٤٨هـ) ويلقبونه بالصادق.

ـ موسى الكاظم بن جعفر الصادق (١٢٨ ـ ١٨٣هـ) ويلقبونه بالكاظم.

ـ علي الرضا بن موسى الكاظم (١٤٨ ـ ٢٠٣ هـ)هـ ومرقده فى إيران ويلقبونه بالرضى.

ـ محمد الجواد بن علي الرضا (١٩٥ ـ ٢٢٠هـ) ويلقبونه بالتقي.

ـ علي الهادي بن محمد الجواد (٢١٢ ـ ٢٥٤هـ) ويلقبونه بالنقي.

ـ الحسن العسكري بن علي عبد الهادي (٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ) ويلقبونه بالزكي.

ويطلق على الامامين العاشر والحادى عشر (الامامين العسكريين)

ـ محمد المهدي بن الحسن العسكري (٢٥٦هـ ـ ...) ويلقبونه بالحجة القائم المنتظر. حيث غاب بعد أن دخل سرداباً في دار أبيه فى / سُرَّ مَنْ رأى / سامراء ولم يعد، وقد اختلفوا في سِنّه ووقت اختفائه فقيل أربع سنوات وقيل :ثماني سنوات، وهو (المهدي المنتظر) (عج)مدة إمامته ممتدة لأن الشيعة الاثني عشرية

يعتقدون أنه حي ومرتقب الظهور (٨٧٤ —...)

والمعروف لدى الشيعة أن مهدي الزمان المنتظر أصبح يتصل بالناس عبر السفراء واطلقوا تسمية الغيبة الصغرى على هذه القصة .

١٤ - سفراء الإمام الغائب

تفوق أربعة اشخاص بالسفارة عن المهدي المنتظر دون ما يقارب عشرين شخصا، وهم عثمان بن سعيد العمري ثم ابنه محمد ثم الحسين بن روح النوبختي ثم علي بن محمد السمري وهو آخر السفراء عن المهدي الغائب باعتبار أن الإمام غاب غيبته الكبرى، عام٣٢٩هـ.

وكان للسفراء الأربعة دور كبير في تطور التشيع العقائدي ونشر أفكاره، فبدأت في زمن الغيبة الصغرى حركة التأليف الشيعي العقدي، عن طريق ما يعرف بالتوقيعات التي كان ينقلها السفراء الأربعة عن المهدي المنتظر وكانت تضم تعليمات وفتاوى عن الإمام.

وفي هذا العهد كتبت الكتب الأربعة الأهم لدى الشيعة والتي يعتبرونها كأصول لمذهبهم وهي الكافي للكليني والتهذيب والاستبصار للطوسي وفقيه من لا يحضره الفقيه للصدوق، وتعتبر هذه الكتب أهم مصادر الحديث والروايات لدى الشيعة .

والمعروف أن حركة التأليف وتدوين الحديث الشيعية تأخرت عن مثيلتها السنية ما يقارب قرنين من الزمان، فقد بدأت حركة تدوين الحديث عند السنة منذ زمن الإمام مالك ٩٣-١٧٩هـ. بينما تأخرت حركة التدوين والتأليف الشيعية حتى زمن الغيبة الصغرى ٢٦٠-٣٢٩هـ

١٥ - الزيدية

بعد مقتل الإمام الحسين بن علي ثالث أئمة الشيعة وبعد وفاة ابنه علي زين العابدين / السجاد /الذي كان له ولدان محوريان هما زيد بن علي ومحمد الباقر خرج زيد على الأمويين والتف حوله جمع من الناس من الشيعة وغيرهم، ويقضي زيد أيضا أنفاسه الأخيرة بعد قصة مأساوية لا تختلف كثيرا عن قصة جده الإمام الحسين، وبعد وفاته تنفصل طائفة عن الشيعة ولاترى الإمامة لمحمد الباقر الذي كان الشيعة يعتبرونه إمامهم حتى في حياة زيد وعرفت هذه الطائفة بالزيدية نسبة إلى زيد بن علي واختلفت هذه الطائفة الموجودة إلى يومنا عن باقي

الشيعة انها رأت أن الإمامة ليست بالنص على شخص محدد وإنما الإمامة هي لأي شخص من نسل علي بن أبي طالب يخرج طالبا لها ويعتبر من أئمتهم يحيى بن زيد بن علي وأيضا محمد النفس الزكية وغيره.

وتعتبر الزيديه قريبة من المذهب السني لأخذها بفقه المذهب الشافعي.الذي يعد بدوره أقرب المذاهب السنية للشيعة وتنتشر باليمن .

١٦ - الإسماعيلية

بعد وفاة الإمام جعفر الصادق / سادس أئمة الشيعة/ التف الشيعة حول ولده موسى الكاظم ولكن بعض الشيعة أعلنوا أن الإمام كان إسماعيل بن جعفر الصادق وان مات في حياة أبيه فإن الإمامة في نسله ورفضوا إمامة موسى الكاظم. وظهر ثاني انقسام وهو ما يعرف بالطائفة الإسماعيلية التي حدث بها انشقاق هي الأخرى إلى فرعين (نزارية – مستعلية) وما زالتا موجودتين .

واشتهر الإسماعيليون بنشاطهم ، بل استطاعوا ولأول مرة بعد مقتل الإمام على ابن أبي طالب تأسيس دولة شيعية بخلافة شيعية يرأسها أئمة ظهروا بعد نجاح دعوتهم السرية قائلين إنهم من ذرية علي بن أبي طالب ، وهي الدولة الفاطمية التى بدأت في شمال أفريقيا ووصلت إلى مصر واسسوا العاصمة القاهرة التى كانت أكبر مدن العالم آنذاك. يوجد الإسماعيلون فى نجران جنوب المملكة العربية السعودية وفي الهند وغيرها من البلدان .

١٧ - الصفوية والتشيع

كان الشاه إسماعيل الصفوي قد توجّه بجيش كثيف إلى بغداد، ودخلها سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م وفتك بأهلها وأهان علماءها وخرّب مساجدها وجعلها اصطبلات لخيوله وهدم ما كان فيها من قبور أئمة السنة، وذبح جماعة من علمائهم.. فسرت شائعة في البلاد التركية بأن مذبحة عظيمة أصابت المسلمين السنة في بغداد على يد الصفويين، وعامل الشاه غير المسلمين معاملة أكثر صرامة، ثم زار العتبات المقدسة في الفرات واصلح نهرا من الأنهر وأسماه نهر الشاه، وشيد بناية ضخمة على قبر موسى الكاظم ، وقد هزمه السلطان سليم الأول في معركة جالديران عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ودخل عاصمته تبريز ولكنه لم يدخل بغداد بسبب تمرد العسكر وعاد إلى الشام. فبقيت بغداد بيد الصفويين حتى عام ٩٤٠هـ/١٥٣٤م.

وفي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م استغل الشاه الصفوي « طهماسب » حصار السلطان سليمان القانوني لفيينا فاسترد تبريز من العثمانيين مما حدا بسليمان القانوني أن يوقف زحفه في أوروبا، وعاد بقسم من الجيش لمحاربة الصفويين وتأديبهم"١٧" تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك، ص٩٠ فدخل تبريز أولا ثم بغداد بعد ذلك عام ٩٤٠هـ/١٥٣٤م«١٦» أ ب ت أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن هيمسلي لونكيرك، المفتش الإداري في الحكومة العراقية سابقا. ونقله إلى العربية جعفر الخياط. دار الرافدين. الطبعة الخامسة..

وزار سليمان القانوني كلا من ضريح عبد القادر الكيلاني « الحضرة القادرية »وتقع وسط بغداد وقبة موسى الكاظم ومحمد الجواد وأمر بإكمال بناء إسماعيل الصفوي على قبر موسى الكاظم، ثم أوقف مقاطعات مغلة للمقاصد الدينية، الشيعية والسنية على السواء.. كما أعاد بناء ضريح أبي حنيفة النعمان وارجاع الجثة التي كانت مخفية، وأعاد بناء قبة فخمة للضريح، وقد كان الصفويون قد هدموا القبة والضريح ودنسوا مكان الرفات"١٦" أ ب ت أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن هيمسلي لونكيرك، المفتش الإداري في الحكومة العراقية سابقا. ونقله إلى العربية جعفر الخياط. دار الرافدين. الطبعة الخامسة..

بقيت الأوضاع بالعراق هادئة تحت حكم العثمانيين حتى عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م عندما انتهز الشاه عباس الصفوي تغلغل العثمانيين في أوروبا وحروبهم مع النمسا والمجر، فعاد إلى مهاجمة بغداد، ودخلها بنفس العام"١٨" تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك، ص١٢٠.

يقول الباحث العراقي الدكتور علي الوردي متحدثاً عن حكم الصفويين لإيران والعراق:«يكفي أن نذكر هنا أن هذا الرجل (الشاه إسماعيل الصفوي) عمد إلى فرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة / أبو بكر وعمر وعثمان/ وكان شديد الحماس في ذلك سفاكاً لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه وقيل أن عدد قتلاه ناف على ألف ألف نفس»١٩» لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، ج١، ص٤٣..

أما بالنسبة لرأي الحوزة العلمية في النجف وهي بمثابة أعلى سلطة دينية شيعية حيث يتواجد العديد من مراجع الشيعة الدينيين الكبار فقد كان بشكل عام موقفاً حذراً وسلبياً من الدولة الصفوية ثم القاجارية باعتبارها دولة زمنية لا دينية كما ابتعد كبار رجال الدين ومراجع التقليد الشيعة في النجف عن السياسة ورجال الحكم «٢٠» الشيعة الحاكمون، محمد جواد مغنية صفحة ٩ و ٢٧

حيث كانوا يتبعون المفهوم العبادي لمبدء ولاية الفقيه "٢١" تأريخ الحركة الإسلامية في العراق الجذور الفكرية والواقع التاريخي (١٩٠٠-١٩٢٤)، عبد الحليم الرهيمي - الطبعة الأولى ١٩٨٥م، صفحة ٩٤-٩٦..

١٨ - العراق العثماني

أدى انهيار الدولة الصفوية في إيران سنة ١٧٢٢، وما صاحبه من فقدان للأمن وحروب الأمراء، إلى هجرة أعداد متزايدة من العلماء الشيعة إلى النجف وكربلاء.

وذكر العالم محمد كامل الرافعي في رسالة أرسلها سنة ١٣٢٦ هـ من بغداد إلى صديقه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، ونشرتها المنار، ما شاهده من قيام علماء الشيعة بدعوة العرب إلى التشيع "٢٢" أصول مذهب الشيعة، د. ناصر القفاري، ج٣، ص١٤٥٠. كما عدد العالم البغدادي إبراهيم فصيح الحيدري (توفي ١٨٨٢ م) عشائر العراق وذكر تاريخ دخول كل منها في المذهب الشيعي في كتابه «عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد » فقال «وأما العشائر العظام في العراق الذين ترفضوا « تشيعوا» من قريب فكثيرون منهم ربيعة ترفضوا منذ سبعين سنة وتميم وهي عشيرة عظيمة ترفضوا في نواحي العراق منذ ستين سنة.» ويقول «والخزاعل ترفضوا منذ أكثر من مئة وخمسين سنة، وهي عشيرة عظيمة من بني خزاعة فحرّفت وسميت خزاعل وعشيرة زبيد وهي كثيرة القبائل وقد ترفضت منذ ستين سنة بتردد الرافضة إليهم وعدم العلماء عندهم ومن العشائر المترفضة بنو عمير وهم بطن من تميم والخزرج وهم بطن من بني مزيقيا من الأزد، وشمر طوقة وهي كثيرة، والدوار والدفافعة. ومن المترفضة عشائر العمارة آل محمد وهي لكثرتها لا تحصى وترفضوا من قريب وعشيرة بني لام وهي كثيرة العدد وعشائر الديوانية وهم خمس عشائر: آل أقرع، وآل بدير، وعفج، والجبور، وجليحة ومن عشائر العراق العظيمة المترفضة منذ مئة سنة فأقل: عشيرة كعب وهي عشيرة عظيمة ذات بطون كثيرة»٢٣» عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، إبراهيم الحيدري، ص١١٢-١١٨ ومع ذلك بقيت العديد من عشائر العراق سنية.

وعن تأثر العراق بإيران يقول الوردي: «بعد أن تحولت إيران إلى التشيع، أخذت تؤثر في المجتمع العراقي تأثيراً غير قليل. فقد بدأ التقارب بين الإيرانيين وشيعة العراق ينمو بمرور الأيام. وصارت قوافل الإيرانيين تتوارد تباعاً إلى العراق من أجل زيارة العتبات المقدسة (عند الشيعة) أو طلب العلم أو دفن الموتى وغير ذلك»٢٤». لمحات

اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، د. علي الوردي، ج١، ص١٢.

يقول فرهاد إبراهيم أستاذ العلوم السياسية بجامعة برلين في كتابه «الطائفية والسياسية في العالم العربي» موضحاً أثر تشيع هذه القبائل في جعل الشيعة أكثرية في العراق، فيقول (ص٤٤): «المذهب الشيعي لم ينتشر بصورة كبيرة في العراق إلا تحت حكم المماليك (١٧٤٣-١٨٣١)». ويقول في (ص٤٥): «أثّرت الدعاية الشيعية وذكر الظلم الذي تعرضوا له ومقتل الحسين في كسب القبائل ونشر التشيع». ويضيف في (ص٤٨) أن جماعات السكان من الشيعة من منطقة بلاد ما بين النهرين كانوا يشكلون منذ هجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة أعداداً قليلة، وذلك في الفترة منذ القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، ولم يشكل الشيعة الأغلبية في مجموع السكان إلا بعد الهجرة وتحول هذه القبائل إلى المذهب الشيعي. ويقول المؤلف (ص٦٣-٦٤): «إضافة إلى القبائل التي نزحت إلى العراق وتشيعت، فإن هناك الفرس والفرس المستعربين والهنود يشكلون نسبة غير ضئيلة من مجموع السكان الشيعة خاصة في المراكز الحضرية. وكانت هجرة رجال الدين الشيعة وعدد آخر من جماعات السكان إلى العتبات المقدسة قد جاء نتيجة لانهيار الدولة الصفوية. وظلت هذه الهجرات تتوالى حتى نشأة الدولة الحديثة في العراق».

وكان انتشار التشيع في جنوب العراق قد تم تحت سمع الدولة العثمانية وبصرها، وبموافقة رجالها في معظم الأحيان."٢٥" إذ إنه منذ أن وصل العثمانيون للعراق، قام سليمان القانوني بإتمام بناء الحضرة الكاظمية، وزار المقامات السنية والشيعية، وأمر بحفر نهر الحسينية لإيصال المياه إلى مدينة كربلاء.

وتحت الدولة العثمانية انفصل الفضاء الشيعي في العراق مديراً شئونه بقدر كبير من الاستقلال. اضف لذلك ظهور الحركة السلفية الوهابية في منطقة نجد واستعدائها للدولة العثمانية لذلك فضل العثمانيون تشييع جنوب العراق لتشكيل سد فكري مانعا انتشار الافكار التي تبناها محمد بن عبد الوهاب وأتباعه في مناطق جنوب العراق بسبب الاتصال العشائري بين جنوب العراق ومنطقة نجد، بينما عمد علماء الشيعة في الحوزة العلمية في النجف إلى نشر التشيع بين قبائل جنوب العراق من أجل إقامة سد بشري ضد هجمات أتباع محمد بن عبد الوهاب على المنطقة. ويذهب إسحاق نقاش إلى أن تشيع القبائل العراقية—التي كانت تشكل ٥٠٪ من سكان جنوب العراق عام ١٨٦٧—لم يكن مخططاً له من قبل الدولة العثمانية وإنما كانت نتيجة غير مقصودة لسياسة توطين القبائل التي اتخذها العثمانيون آنذاك.

بالرغم من التواجد الكبير للطائفة الشيعية في العراق فإن العلاقة بين السنة والشيعة كانت طيبة، حيث أن العراقيين عموماً لم يكونوا ينظرون إلى الانتماء الطائفي كعامل أساسي، كما أن العديد من العائلات العراقية هي خليط من الشيعة والسنة معاً. وهذا يوضح قبول العشائر الشيعية بأن يحكم العراق أهل السنة بعد الثورة على الإنجليز، التي شاركت بها العشائر السنية والشيعية على حدٍ سواء وأصدرت المراجع الشيعية في النجف فتوى بالجهاد لتحريك الشارع العراقي لثورة العشرين.

وأثناء الحرب العراقية الإيرانية، كانت الأفكار القومية هي السائدة في العراق وباعتبار أن غالبية أعضاء حزب البعث في العراق كانوا من الشيعة، فقد وصل الشيعة إلى مناصب عالية في الدولة. وكانت سيطرتهم في التعليم والتجارة والاقتصاد واضحة .

١٩ - الطقوس الشيعية

أسس الصفويون في إيران منذ القرن السادس عشر الطقوس الشيعية المعروفة من حيث إقامة مجالس العزاء وإخراج المواكب الحسينية وما أشبه، وانتشرت هناك دون أن تأتي للعراق، فقد كان الولاة العثمانيون يمنعونها من الدخول إلى العراق، واستمروا على ذلك أكثر من قرنين حتى جاء الوالي على رضا باشا عام ١٨٣١ والذي كان بكتاشياً يكن حباً شديداً لأهل البيت والأئمة الإثنى عشر، فكان هذا أول الولاة الذين سمحوا لها. وقبل ذلك كانت تقام مجالس التعزية في السراديب ويجعلون إمرأة تدير الرحى في صحن الدار لكي لا يسمع المارة في الشارع صوت من في المجلس، خاصة في عهد داوود باشا الذي كان متشدداً ضد الشيعة. (علي الوردي، لمحات إجتماعية، ج٢، ص١٠٩.)

وكان أول رجل استطاع أن يقيم مجلس عزاء في العراق من أهل النجف اسمه الشيخ نصار بن سعد العبسي. والظاهر أنه اغتنم فرصة الصلح الذي عقد في عام ١٨٢١ بين داوود باشا وحكومة إيران الذي توسط فيه الشيخ موسى كاشف الغطاء، فأخذ يقيم مجلس التعزية في داره، واقتدى بعض سراة النجف تدريجياً. أما في بغداد فقد بقي المنع سارياً حتى مجيء على رضا باشا الذي انتصر على داوود باشا.

وجرى الولاة بعد علي رضا باشا على سنته، فكانوا يتساهلون في أمر انتشار الطقوس الشيعية، ماعدا مدحت باشا الذي حاول منعها ولكنه لم يوفق، ويقال أنه سأل اسطنبول في أمرها فكان الجواب: «دعهم يفعلون ما يشاؤون ما داموا لا يؤذون

سوى أنفسهم». (علي الوردي، لمحات اجتماعية،ج٢، ص١١٠، نقلاً عن علي الخاقاني (شعراء الغري) النجف ١٩٥٤-ج١٢ ص٣٢٤.)

أما موضوع زيارة الشيعة لقبر الحسين، والأئمة الآخرين، فقد بدأت في مرحلة مبكرة، أي منذ العهد الأموي، والزيارة هذه تحمل معها نوعاً من التبرك بأهل البيت، وقد حاول المتوكل منعها بتدمير قبر الحسين وغمره بالمياه، إلا إنه فشل في ذلك.

وقد رافقت الزيارة مواكب العزاء التي تحمل في طياتها الثورة ضد الحكام. إذ كان الشيعة في حالة ثورة دائمة ضد ظالميهم من الحكام وعلى مختلف المراحل منذ العهد الأموي وحتى عهد صدام حسين. ويفسر الوردي هذه الظاهرة كما يلي: «يزور الشيعة قبر الحسين بمئات الألوف كل عام. ثم يرجعون من الزيارة كما ذهبوا- لم يفعلوا شيئاً غير النواح واللطم. إنهم اليوم ثوار خامدون. فقد خدَّرهم السلاطين، وحوّلوا السيوف التي كانوا يقاتلون بها الحكام قديماً إلى سلاسل يضربون بها ظهورهم وحراب يجرحون بها رؤوسهم. ومن يدري فقد يأتي عليهم يوم تتحول فيه هذه السلاسل والحراب إلى سيوف صارمة من جديد. إنهم لا يحتاجون في ذلك إلا إلى فرد مشاغب من طراز ابن سبأ».

ويضيف: «إن موسم الزيارة في كربلاء يمكن تشبيهه بموسم الحج لكثرة الوافدين إليه. هذا ولكن الزيارة الشيعية تختلف من بعض الوجوه عن الحج، إذ هي تحمل في باطنها بذرة من الثورة الخامدة، ومن يشهد هرج الزوار في كربلاء يدرك أن وراء ذلك خطراً دفيناً...». (علي الوردي، وعاظ السلاطين، ص ٢٥٥).

أجل، أينما وجد الظلم فهناك احتمال الثورة عليه، والشيعة كانوا مظلومين في جميع العهود، لذلك فهم في حالة ثورة دائمة. ويشرح الوردي ذلك فيقول: «شبهنا التشيع في وضعه الراهن بالبركان الخامد. فهو قد كان في يوم من الأيام بركاناً ثائراً، ثم خمد على مرور الأيام وأصبح لا يختلف عن غيره من الجبال الراسية إلا بفوهته والدخان المتصاعد منها. والبركان الخامد لا يخلو من خطر رغم هدوئه الظاهري. إنه يمتاز على الجبل الأصم بكونه يحتوي في باطنه على نار متأججة ولا يدري أحد متى تنفجر هذه النار مرة أخرى». (علي الوردي، وعاظ السلاطين، ص ٢٥٥).

وتشير الإحصاءات البريطانية لسكان العراق عام ١٩١٩ م إلى أن نسبة الشيعة في العراق تقدر بحوالي ٥٣٪ من السكان وبعدد يبلغ حوالي الـ ١،٥٠٠،٠٠٠ نسمة من عدد السكان البالغ ٢،٨٥٠،... نسمة. وعام ١٩٣٢ م بلغت نسبتهم ٥٦٪ من عدد السكان.

وقد أدى عدم وجود إحصاء سكاني حديث في العراق يكون أكثر دقة من احصاء عام ١٩٥٧ ، يُظهر النسب الحقيقية لكل طائفة، إلى التركيز على التوزيعات العرقية وليس الطائفية ولذلك تختلف التقديرات في نسبة كل طائفة وأي منها تشكل الغالبية خاصة بعد تأجيل الاحصاء الذى كان مقررا اجراؤه فى أكتوبر / تشرين أول/ عام ٢٠٠٩ وهو ما جعل الانتخابات النيابية الحاسمة تتم على أسس مختلفة وتم تحديد عدد سكان العراق بحوالي ٣١ مليون نسمة دون تشخيص نسب محددة للطوائف والعرقيات التى يتكون منها النسيج العراقى .

أما التقديرات الغربية فتقول بإن نسبة الشيعة في العراق هي ٦٠٪-٦٥٪، بينما السنة هم ٣٢٪-٣٧٪ وتذكر مواقع غربية أخرى نسبا تجعل نصف مسلمي العراق من الشيعة على الأقل .

وأيا كانت التقديرات العراقية أو الغربية لحجم الشيعة والسنة بالعراق فانه لا توجد فروق واضحة بين المكونين داخل الفسيفساء العراقية .. فعندما تزور عائلة شيعية وأخرى سنية فلا شيىء يداهمك سوى الطيبة والكرم والتسامح .

الطيبة .. تلك الصفة التى لازمت أهل النعمانية الشيعية ووقفت حائلا دون وقوع اى أعمال عنف تستحق التسجيل على مدى أيام المذبحة التزاما بموقف المرجع الأعلى أية الله السيد على السيستانى الذى أعلنه صبيحة يوم الكارثة التى ضربت وحدة العراقيين ودقت الكثير من المسامير فى نعش التعايش الأخوى بين الشيعة والسنة عندما تم تفجير القبة الذهبية لمرقد الامامين العسكريين على الهادى والحسن العسكرى / الامام العاشر والحادى عشر لدى الشيعة الجعفرية/ فى بلدة سامراء السنية التى احتضنت المرقدين مئات السنين وطالما رحب أهلها الطيبون بزوارهما من الشيعة العراقيين وغيرهم حتى بعد الاحتلال الامريكى وسقوط نظام صدام حسين فى أبريل عام ٢٠٠٣ .

الكرم .. تلك الصفة التى تلازم أهل الضلوعية السنية والتى كانت السبيل لدخول عناصر القاعدة إلى المدينة تحت راية الجهاد ضد الاحتلال مستغلين كرم اهلها الطيبين الذين قدموا الغالي والنفيس لنصرة «المجاهدين» قبل أن تظهر حقيقتهم ونواياهم وينقلب الكرام الطيبون الذين فتحو أبواب قلوبهم قبل دورهم «للمجاهدين» ويتحولوا إلى مقاتلين أشداء ويتمكنوا من طرد عناصر القاعدة بعد تلقينهم درسا اخر بعد دروس الكرم وهو درس « البطولة» التى أصبحت نموذجا يحتذى لتصحيح الأوضاع واصلاح ما أفسده الضيوف المخادعون .

التسامح .. تلك الصفة اللصيقة بأهل ناحية العلم الذين حملوا عبئا ثقيلا

عندما أعدم صدام حسين رجالاتهم وشبابهم من الجبور بتهمة التخطيط لانقلاب عسكرى ضده .. ومع ذلك رفض أحد أبنائهم أن يدفن صدام حسين فى مكان سرى ومارس كل الضغوط واستغل كل العلاقات حتى يعود جثمان صدام إلى مسقط رأسه « تكريت» ويدفن بكرامة كرئيس دولة سابق وزعيم للعراقيين مهما ارتكب من أخطاء .



الفصل الثالث

أرض النعمان



١ - النعمانية

قادنى الموقف الغريب الذى رويته فى بداية الكتاب وما توصلت اليه بعد سلسلة القراءات عن طبيعة الشخصية العراقية خاصة جانب سلم الولاءات إلى البحث فى إشكالية أخرى هى الطبيعة القبلية أو العشائرية للمجتمع العراقى وعلاقة ذلك بالارتباط بالمرجعية عند الشيعة بالعراق وما يقابله من منظومة أخلاقية ودينية عند السنة وبدأت سلسلة من القراءات عن العشائر العربية شكلت أساسا نظريا قادنى إلى رحلتين فى منطقتين الأولى ذات غالبية شيعية هى « النعمانية» التابعة لمحافظة واسط وتبعد حوالى ١٥٠ كم جنوبى العاصمة بغداد وهى المنطقة التى لم تشهد مثل باقى مناطق العراق أى أعمال عنف كبرى لاسباب كثيرة أولها الإلتزام العشائري والسكون إلى توجيهات المرجعية العليا بالعراق ممثلة فى أية الله على السيستانى .. أما الرحلة الثانية فكانت إلى منطقة سنية أطلق عليها المراقبون «أرض النار» وهى الضلوعية التابعة لمحافظة صلاح الدين وتبعد حوالى ٩٠ كم شمالى بغداد بسبب ما شهدته من أعمال عنف دموى كانت نموذجا لكل المتناقضات التى شهدها الواقع العراقى خلال الفترة التى أعقبت تفجير المرقدين الشيعيين المقدسين فى فبراير عام ٢٠٠٦ وما غلف المشهد الدموى العراقى من مسميات تأرجحت معانيها بين المقاومة والإرهاب فسرتها وقائع الأحداث على الأرض لمن عاشها ونقلها لى عبر مجموعة من القصص التى أصبحت شاهدا على ما تركته من اثار على البشر والشجر والحجر فى منطقة الضلوعية .. ويوازى الضلوعية ويعتبر امتدادا لها ولعشائرها خاصة « الجبور» منطقة سنية أخرى تسمى « ناحية العلم » وهى تتبع اداريا مدينة تكريت مسقط رأس صدام حسين وهى مركز محافظة صلاح الدين التى تبعد حوالى ١٧٥ كم شمالى بغداد .. هذه المنطقة التى تتميز بجوها الرائع وبساتينها المروية من نهر دجلة رفضت أى تواجد للمجموعات المسلحة ولم تشهد سوى انفجار واحد على مدى زمن المذبحة وفى ذروة أعمال العنف وفشل تنظيم القاعدة فى أن يجد له موطىء قدم فيها وهو ما جعل أهلها فى مقدمة المطلوبين لدى المجموعات المرتبطة بتنظيم القاعدة .. وبمجرد انتماء الشخص إلى تلك الناحية « العلم » كفيل بتنفيذ حكم الاعدام فيه أينما وجد .

تجولت بين المكتبات وأرصفة شارع المتنبى العريق لأجد ضالتى فى عدة كتب ودراسات وفر لى ما لم أجده منها أصدقاء عراقيون من أبناء العشائر العراقية الأصيلة كان أولها « سبائك الذهب » من تأليف الشيخ أبى الفوز محمد أمين بن أبى السعود

محمد سعيد بن أبى البركات عبد الله الشهير بالسويدى .. والكتاب الثانى هو « القبائل العراقية » للعلامة محمد مهدى القزوينى وكتاب « عشائر الألوسى » ومؤلفه محمود شكرى الالوسى وكتاب ابن دريد الشيخ أبى بكر محمد بن الحسن « كتاب الإشتقاق » ثم كتاب « القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم » للشيخ أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى وكتاب « عشائر العرب » ويسمى « كتاب الدرر والمفاخر فى أخبار العرب الأواخر » للشيخ محمد ابن حمد البسام التميمى وأخيرا كتاب « عشائر العراق » ومؤلفه المحامى عباس العزاوى فى أربعة أجزاء .

٢ - على قبر المتنبى

ما كان «أبو الطيب المتنبي» أو «أبو سورة»، كما يدعونه أهالي مدينة النعمانية، أحد اقضية محافظة واسط (١٥٠ كم جنوب بغداد) ليوبخ غلامه «مفلح» عندما عاتبه على هربه امام «فاتك الاسدي» قائلاً: «أتهرب وأنت القائل : الخيل والليل والبيداء تعرفني ......» لو كان يعلم أن قبره سيوحد العراقيين بعد مئات السنين فيعلو بهم على تمزقات «الصراعات الطائفية» عندما اقيمت أول دورة لمهرجان المتنبى عام ٢٠٠٤ واستمر بعد تعثر ليجمع المثقفين العراقيين كل عام فى النعمانية التى مثلت نموذجا للتعايش الأخوى بين السنة والشيعة فى ذروة أيام المذبحة التى شهدها العراق منذ العام ٢٠٠٥ واستمرت لتحرق الأخضر واليابس خاصة عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

وعندما قررت بدء الرحلة إلى النعمانية أبلغنى أصدقاء عراقيون بالكثير من المخاوف التى يمكن أن تحيط بالرحلة خاصة على الطرق المؤدية إلى هناك والتى كانت معظمها طرقا ومصائد للموت يدير بعضها الميليشيات الشيعية ويتولى الجزء الآخر تنظيم القاعدة .. مما يجعل تلك الرحلة مغامرة كبرى قد تنتهى بالموت المحقق .. إلا أن القول الفصل جاء بعد أن عرف اصدقائى من سيكون رفيقى فى تلك الرحلة .. سألنى أحد الأصدقاء الذين كانوا يمثلون مرجعية لى فى الكثير من الأمور طوال السنوات الأربع التى قضيتها بالعراق عن الأشخاص الذين سيتولون أمرى خلال الرحلة فأبلغته بأسمائهم وانتماءاتهم ونسبهم العشائرى فاطمأنوا قليلا .. عندما أبلغتهم عن وجهتى أنه شيخ عشيرة أولاد بركة التى يعود أصلها إلى قريش وكذلك الشيخ كريم شيخ السوالم .. أبلغتهم أنى سأزور أيضا خلال الرحلة رجلا يعتبره الشيعة والسنة معا قيمة روحية عالية وهو « السيد مالك الياسرى» .. عندها بارك صديقى خطوتى بعد أن اطمأنوا تماما مع الدعوات بالتوفيق والنجاة من

شر الطريق .

دلفنا من طريق محمد القاسم السريع مرورا بمنطقة الرستمية التى تحتضن احدى القواعد الأمريكية .. وفى الطريق بدت آثار التفجير الذى دمر جسر ديالى بشاحنة مفخخة وقد سمى الجسر بهذا الاسم لأن نهر ديالى يمر أسفل الجسر إلى مناطق شرق بغداد فى محافظة ديالى .. ثم عرجت السيارة التى يقودها « رياض» الشيعى الطيب الذى يقطن فى مدينة الصدر وهو أحد المرافقين لوكيل وزارة الداخلية أحمد الخفاجى على منطقة «جرف النداف « وكانت إحدى بؤر الإرهاب الأسود حيث تمتد مزارعها وبساتينها ومناطقها المفتوحة لتمثل حاميات طبيعية للمسلحين الذين استغلوا أرضها التى تنبت الخير كأوكار للشر والقتل ومارسوا فيها ابشع أعمال العنف بعد أن أغرتهم تضاريسها على الاختفاء والمناورة .

ثم عرجنا إلى « دوار الموت» كما يطلق عليه العابرون إلى مناطق الجنوب الشيعى وهى « فلكة سلمان باك » / يطلق العراقيون على الميدان كلمة فلكة بكسر الفاء/ ومنطقة سلمان باك أو « المدائن» تسمى بهذا الإسم نسبة إلى الصحابى الجليل سلمان الفارسى وبها بقايا ايوان كسرى أو « طاق كسرى « الذى انطفأت نيرانه عند مولد الرسول عليه الصلاة والسلام .. ثم يتفرع الطريق إلى البسماية والنهروان وهى بلدة فقيرة يبلغ عدد سكانها مائة ألف وهي معقل رجال الميليشيات الشيعية في المنطقة الريفية جنوب شرقي بغداد وهي من الاماكن التي أختبرت فيها هذه استراتيجية جديدة طبقها الجيش الأمريكى مثل غيرها من المناطق السنية وهى أنه يجب أن يوفر الأمن للناس إذ أن «الناس تميل للتحالف مع الجماعات التي تضمن لها الأمان.» ويتعين إقامة روابط متبادلة بين الجيش والمبادرات الاقتصادية والسياسية.

ويروى مرافقى على « أبو سجاد» وهو شيعى من سكان منطقة الزعفرانية أن صدام حسين كان قد أعاد توطين آلاف الشيعة في هذه البلدة مما جعل النهروان جيبا شيعيا محاطا بمجتمعات سنية مسلمة صغيرة وعندما تم تفجير مرقد الإمامين العسكريين فى فبراير عام ٢٠٠٦ أصبحت النهروان ساحة قتال لعنف طائفي وحشي.

وبعد بضع ساعات من الهجوم على أحد المساجد أخرج مسلحون من السنة ٤٧ شيعيا من قافلة مركبات وأطلقوا النار على رؤوسهم وألقوا بهم في قناة مائية وبعد أسبوع قتلوا ٢٥ شيعيا في مصنع للطوب وأربعة في محطة كهرباء قريبة.

وفي ظل غياب وجود عسكري أمريكي دائم في المنطقة لجأ السكان الشيعة إلى ميليشيا جيش المهدي بقيادة مقتدى الصدر وعندما بدأت القوات الامريكية في الوصول إلى المنطقة عام ٢٠٠٧ في اطار زيادة عدد القوات واجهت هجمات متوالية من

جانب رجال الميليشيات الشيعية وتحولت النهروان إلى منطقة شديدة الخطورة.

وتحركت القوات الأمريكية لاعتقال قادة الميليشيات وبدأت في القيام بدوريات في البلدة ووضعت خططا اقتصادية وسياسية في محاولة لتحسين الرخاء والحكم والأمن.

وعلى مسافة قصيرة من السوق تنقل الرافعات كتلا كبيرة من الخرسانة لبناء جدار واق لموقع أمريكي في وسط البلدة - في تحول عن السياسة القديمة المتمثلة في إبقاء القوات في قواعد كبيرة بعيدة عن المراكز السكانية.

حيث عمل الجنود الأمريكيون مع المجلس المحلي وزعماء العشائر على دعم مشروعات إعادة البناء والمشروعات الانسانية وتجنيد سكان محليين لتولي نقاط التفتيش ومراقبة المنطقة بدلا من نقاط التفتيش الوهمية التى كانت تمارس القتل على الهوية الطائفية حتى بداية العام ٢٠٠٨ وكانت الطرق التى نسير فيها خلال رحلتنا إلى النعمانية تسمى طرق الموت .

غادرنا العاصمة عبر بوابة بغداد الجنوبية التى كانت أكبر مناطق نقاط التفتيش الوهمية لنصل إلى الصويرة حيث كان نهر دجلة فيها مصبا للجثث مجهولة الهوية التى يتم القاؤها فى النهر بعد تعذيبها وذبحها فى المدائن والنهروان وجرف النداف .

ويروى مرافقى « أبو سجاد» أن السلطات العراقية نصبت شبكة كبيرة في هذه المنطقة لالتقاط الجثث بدلا من أن يجرفها التيار إلى مناطق بعيدة من نهر دجلة حيث يتم دفنها فى مقابر جماعية بعد تشوهها وانتفاء هويتها لتصبح « مجهولة الهوية « .

عندما وصلنا إلى منطقة الحفرية التابعة لقضاء الصويرة أصر رفيقا الرحلة على زيارة أحد المراقد الشيعية وهو « مرقد سيد تاج الدين» الذى يعود نسبه إلى الإمام موسى الكاظم / الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية/ الذى يرتاده المئات يوميا للزيارة .. وواصلنا مسيرتنا إلى العزيزية والزبيدية والدبونى لنعرج إلى مقصدنا وهى مدينة النعمانية .. حيث أشار مرافقى إلى طريق رئيسى يعبر فيه الزوار الشيعة القادمين من إيران عبر معبر « بدرة» الحدودى بين العراق وإيران للذهاب إلى كربلاء المقدسة من خلال الطريق المؤدى إلى الديوانية والنجف وكربلاء .

عندما وصلنا إلى النعمانية كانت وجهتنا الأولى قبر الشاعر « أبو الطيب المتنبى » وتلقيت ترحيبا شديدا من القائمين على الضريح عندما أخبرهم مرافقى أننى صحفى من مصر .. ورغم انتهاء الوقت المخصص للزيارة إلا أنهم فتحوا لنا أبواب

الضريح وسمحوا بالتقاط الصور .. وكيف لا وأنا من مصر العروبة وقد حللت ضيفا على أهل الطيبة والكرم .

يرقد المتنبى فى ضريحه المهيب مستريح البال بعد أن ملأ الدنيا ضجيجا وشغل الناس في حياته المليئة بالاحداث التراجيدية وجذب النقاد لعبقريته الشعرية، وهو اليوم يشغلهم في الخلاف على موقع قبره والمكان الذي شهد مأساته الأخيرة .. ربما كان المتنبى أكثر سعادة اذا سمع قول كاتبنا العملاق عباس محمود العقاد يقول «

خلعت اسمي على الدنيا ورسمي   فلا أنعي رحيلا أومقاما

هو الشاعر العربي الكبير أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندي الكوفي ولد عام ٣٠١ للهجرة في الكوفة وتوفي في ٣٥٤ عن عمر يناهز ٥٣ عاما .. درس في الكوفة وهى بلدة تقع على بعد ٢٠ كيلومترا شرق مدينة النجف ثم سافر إلى بادية الشام فأتقن العربية بعدها عاد ليحترف الشعر وبدأ بمدح رجال الكوفة وبغداد قبل أن يتنقل بين مدن الشام ليمدح شيوخ البدو والأمراء والأدباء.

رافق المتنبي سيف الدولة الحمداني، وصار شاعره وصديقه المقرب، وعاشا معاً في بلاط سيف الدولة في حلب تسع سنوات يغدق سيف الدولة عليه المال، ويفيض المتنبي بأروع القصائد في مديحه.

لكن الوشاة أفسدوا علاقتهما، فهرب إلى مصر، التي لم يحقق مطامحه فيها فانتقل إلى العراق متنقلاً بين مدنه .

وكان مصرع المتنبي على يد أحد الذين هجاهم وهو «فاتك بن أبي جهل الأسدي» قرب موقع دير العاقول بقضاء النعمانية وتقول الروايات أنه أثناء مواجهة المتنبي للاسدي ورجاله بدير العاقول شعر المتنبي بأن الدائرة تدور عليه فهم بالهرب من المواجهة لكن خادمه قال له أتهرب وانت القائل (الخيل والليل والبيداء تعرفني.. والسيف والرمح والقرطاس والقلم) فقال له المتنبي : (قتلتني ورب الكعبة)، فعاد وتبارز مع فاتك ورجاله حتى قتل وكان ذلك آخر شهر رمضان سنة ٣٥٤ هجرية الموافق (٩٦٥ ميلادية.

قال المتنبي قصديته الشهيرة والتي كان مطلعها:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

انام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

هذه كانت أبيات قصيدة المتنبي إمام شعراء العربية في كل العصور الذي كان له

من اسمه نصيب حيث اثبتت الأيام صدق نبوءاته وشغل الناس في مماته أكثر مما شغلهم في حياته..

تعددت الأحاديث عن مكان قبر المتنبي، فمنهم من يقول :إن قبره يقع في منطقة (تلول العزيزية) على مسافة ٨٠ كم إلى الشمال من الكوت مركز محافظة واسط، وهناك من قال أن مقتله كان قرب بلدة جصان (٦٥ كم شرقي الكوت)، بينما يرى القسم الآخر أن مقتل المتنبي كان قرب ناحية الزبيدية إلى الشمال الغربي من الكوت، إلا أن جميع الأمكنة المذكورة هي في محافظة واسط التي تحتضن جسد الشاعر وولده محسد وغلامه مفلح .

يقع ضريح المتنبي على مقربة من بلدة النعمانية، على الطريق العام الواصل بينها وبين الزبيدية، ويحتل مساحة تقدر بأربعة دونمات (عشرة آلاف متر مربع) وتضم المقاطعة التي يقع فيها الضريح عدداً من المواقع الاثرية أهمها قصر النعمان بن المنذر الذي يقع إلى الشمال من ضريح المتنبي بمسافة نحو خمسة كيلومترات على شاطئ دجلة.

ويتبرك أهل النعمانية بضريح المتنبي، ويطلقون عليه لقب « أبي سورة » وهي تسمية جاءت نسبة إلى المياه التي تسوّر الضريح في مواسم إرواء الزرع وعند موسم المطر دون أن تلامسه أو تصل قريبا منه على الرغم من استواء الارض.

وتشير جميع الدلائل التاريخية إلى المكان الذي قتل فيه المتنبي فتؤكد انه مكان الضريح الحالي، حيث إن وفدا من دائرة الآثار والتراث زار المنطقة في السبعينيات من القرن الماضي وأكد أن الشواهد والأدلة والوثائق تؤكد أن المكان الذي قتل فيه المتنبي هو «دير العاقول» أو «البغيلة» إلى الشمال من مركز بلدة النعمانية بنحو ألفي متر، وكان الضريح عبارة عن مبنى بسيط من الطين في الأربعينات من القرن الماضي شيده صاحب شكوري الحمود، من عشيرة الدليم التي تسكن المنطقة.

وشيّدت هيئة الآثار العراقية الضريح بعد تحويله إليها مطلع الثمانينات من القرن الماضي على هيئة نصب يتألف من ستة أعمدة ارتفاع كل منها ١٣ مترا تلتقي في الأعلى في قبة تطل على القبر تحتوي على زخارف جميلة تضفي على المقام هيبة وجلالا.

وقد الحقت بالضريح فيما بعد منصة للاحتفالات ودار استراحة ومكتبة وأبنية خدمية وإدارية.

ويحيط بالضريح سور حديدي تم تزيينه بكلمات المتنبي التي يقول فيها :

انا الذي نظر الأعمى إلى ادبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وأسمعت كلماتي من به صمم » وقد جرى حفرها بشكل واضح أعلى السور.

في عام ٢٠٠٠ شهد الضريح حملة إعمار واسعة فتم تسييج المكان وترميم الضريح وإيصال الماء والكهرباء له واكساء الطريق الذي يربطه مع الشارع العام نعمانية – زبيدية بالاسفلت بعد أن كان ترابيا ، كما تم بناء منصة للاحتفالات ودار استراحة ومكتبة وأبنية خدمية وإدارية ملحقة به.. وغالبا ما تأتي النساء ليخضبن الضريح بالحناء لدفع البلاء أو لطلب شيء معين، أو التبرك به وهي تقاليد معروفة تمارس أثناء زيارة العتبات المقدسة والأئمة الأطهار، وهناك من يقدم له النذور وعند بعض العائلات يستخدمون ضريح المتنبي لفطام ابنائهم ودفن (السرة فيه) كونه احد المواقع المباركة عندهم .

٣ - بستان الحب

تقع مدينة النعمانية التي تبعد حوالي ١٥٠ كم إلى الجنوب من العاصمة بغداد على ضفة نهر دجلة في محافظة واسط وهي مدينة تكثر بها بساتين النخيل والفواكه، وتضم منطقة لصيد الطيور البريه والغزال البري وتوجد بها آثار مدينة المناذرة

ويعتقد أن ملك اللخميين بن المنذر الرابع الملقب بأبي قابوس انشأها واتخذها مقرا له واستوطنت النعمانية عائلات كثيرة قبل الاسلام بمائة سنة ويقال أن عدد نفوسها بلغ سنة ٨٥٠ هجرية نحو ٤٥٠٠ نسمة ولكن المدينة افل نجمها في فترة حكم العثمانين للعراق بسبب عوامل كثيرة منها الفيضانات المستمرة والكوارث الطبيعية حتى اصبحت عام ١٢٩٧ هجرية مدينة مهجورة فيها صرائف واكواخ وقام الوالي تقي الدين باشا عام ١٨٨٢ ميلادية باعادة تخطيط المدينة وبنى دورا ودكاكين فيها.

والنعمانية كانت تسمى آنذاك ب«البغيلة» نسبة إلى نهر البغيلة وموقعه حاليا بالقرب من شارع الكورنيش الجديد الذي تزينت به وتجملت .

والنُعمانيّة بضم النّون وهي بلدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق، على ضفة دجلة، معدودة من أعمال الزاب الأعلى. (معجم البلدان: للحموي٥/ ٢٩٤

والنعمانية(بالفتح) بليدة بين الحمى والحلب ويُنسب إليها أبو العلاء أحمد بن عبد الله الضرير (أبو العلاء المعري) كما في تلخيص الآثار، وأيضاً تطلق على اسم وادٍ في طريق الطائف والنعمان (بالضم) اسم لجماعة أعاظم، منهم النعمان بن المنذر الذي هو من الملوك وإليه ينسب الورد المعروف بشقائق النعمان. (مقدمة كتاب الغيبة للنعماني، ط١ـ تبريز)

فيما يرى البعض أن التسمية جاءت نسبة إلى اسم احد انواع السفن التي اشتهر اهالي القضاء بصناعتها.

وكان عام ١٩٣٠ ميلادية شهد تغيير تسمية «البغيلة» إلى تسمية النعمانية لتصبح في هذا التاريخ ناحية تابعة لمدينة الكوت مركز محافظة واسط وتبعد ١٧٢ كم جنوب بغداد وفي عام ١٩٦١ تم رفع درجتها الإدارية إلى قضاء وأول من تولى منصب القائمقام في النعمانية هو هاشم ناجي الهرمزي، وترتبط به ناحية واحدة هي الأحرار والتي كانت تعرف سابقا بتسمية «الحسينية» نسبة إلى اسم نهر صغير يجري فيها، وقد تم اكتشاف النفط فيها عام ١٩٧٩ و باشرت شركة صينية بموجب عقد مع وزارة النفط الاعمال الخاصة باستثمار النفط في الابار الموجودة في الناحية مطلع العام الحالي.

وعرفت النعمانية ايضا بتسمية دير العاقول نتيجة لكثرة انبات أرضها لنبات العاقول وهو من النباتات البرية الطبيعية، ويرى بعض المؤرخين أن كلمة العاقول هي تحريف للكلمة الارامية عاقولا والتي تعني منعطف الطريق.

ولموقع النعمانية اهمية جغرافية كبيرة لوقوعها في منتصف الطريق الواصل بين العاصمة بغداد ومحافظات الجنوب وهى البصرة وميسان وذى قار وكذلك لوقوعها على الطريق المؤدي إلى محافظات كربلاء والنجف المقدستين. يقع مركز قضاء النعمانية في الشمال الغربي من مدينة الكوت وتبعد عنها (٤٥)كم وتقع في الجنوب الغربي من مدينة العزيزية وتبعد عنها بمسافة (٦٠)كم تحدها من الشمال ناحيتي الزبيدية والدبوني ومن الجنوب ناحية الأحرار ومقام المهدي (عليه السلام) ومن الشرق هور الشويجه والغرب نهر المالح الذي يفصل بينها وبين محافظة بابل.ويتوسطها نهر دجلة وتمتاز بخصوبة الأرض وتوسط الموقع وعذوبة الهواء لذلك كانت مصيفا. تبلغ مساحة القضاء (١١٠٠٣)كم٢ بموجب الإرادة الملكية المرقمة ٢٧ والمؤرخة في سنة ١٩٢٣.

أما الطبيعة الديموجرافية للمحافظة بشكل عام وقضاء النعمانية بشكل خاص والذي يمكن اعتباره مجسماً للتعايش السلمي بين ابناء الطائفتين السنية والشيعية متمثلة بعشائر الدليم التي تقطن المنطقة وتشارك العشائر الشيعية التى لها امتدادات سنية فى محافظات أخرى فالعراق واحد « سنة وشيعة» حيث تسكن قبائل عربية تمتهن الزراعة والرعى وصيد السمك ومن أشهر عشائر المدينة عشيرة قريش المشهورة التى كانت ضيافتنا فى ديوان أحد شيوخ أفخاذها الكثيرة وهم أولاد بركة إضافة لباقي العشائر وفيها من الكوادر العلمية الطبية والهندسية كما تشتهر هذه المدينة بوجود

عدد من الدواوين والمنتديات الأدبية والاجتماعية ويشتهر أهل المدينة بالطيبة ومساعدة الآخرين وذلك لاحتفاظنها بالقيم الإسلامية والعربية الأصيلة ولها مواقف مشرفه في تاريخ العراق الحديث وقدمت العديد من قوافل الشهداء لوقوفها بوجه الانحرافات السياسية .

وكان لتكوين الأرض الرسوبية للنعمانية مما حمله نهر دجلة وروافده وترسباته اثر كبير فى أن تكون النعمانية واحدة من بين المناطق الزراعية المهمة في المحافظة. . كما توضح الاكتشافات الأثرية أن ارض النعمانية كانت مغمورة بمياه البحر في العصر الحجري، وبحكم اختراق نهر دجلة مدينة النعمانية فإن المدينة مقسمة إلى ضفتين اليمنى ويسكنها خليط من العشائر أبرزها عشائر قريش وتتمركز في مركز المدينة وبالريف وكذلك زبيد والكلابيين والهليجية والنصيرات والبيات والكرد الفيلية والسادة آل الحبوبي والعواودة والزوامل والغرابات وخفاجة والدفافعة والوائلية وبعض العشائر الأخرى أما الضفة اليسرى فتنتشر فيه عشائر شمر.

ويلاحظ زائرها أن على ضفتي النهر آثار جسر (سيار) كان يطلق عيه ايضا تسمية (الشريمة)، ثم تم انشاء جسر خشبي مكون من مراكب تم ربطها بعضها ببعض وتثبيت اطرافه بدعائم حديدية، وفي عام ١٩٧٤ تمت المباشرة بتنفيذ جسر حديث اكتمل عام ١٩٧٩.

ويعتمد اقتصاد النعمانية بالدرجة الأساس على الزراعة وخاصة زراعة محصولي الحنطة والشعير إلى جانب زراعة القطن والأرز والخضروات وأشجار الحمضيات والتمور وتربية الأبقار والجاموس والأغنام كما وتوجد أعداد كبيرة من حقول الدواجن ومعامل إنتاج الأعلاف، كما تمتاز بصناعاتها اليدوية البسيطة بالإضافة إلى وجود معامل الصناعات التحويلية الغذائية والبلاستيكية وأهمها شركة صناعة المعجون والمخللات التي تم انشائها عام ١٩٧٥.

وتمتاز النعمانية ايضا بوجود الاسواق والحوانيت والوكالات التجارية والمطاعم والمقاهي وقد دخلت مقاهي الانترنت اليها مؤخرا ولاقت رواجا كبيرا بين أبنائها بمختلف مستوياتهم العمرية والثقافية.

وتوجد مكتبة مركزية واحدة تأسست عام ١٩٣٠ تضم حاليا آلاف الكتب في مختلف العلوم والمعارف وكانت أول مدرسة ابتدائية أسست هي مدرسة «النعمانية الأولية للبنين».

وشهدت النعمانية افتتاح أول مستوصف صحي على يد طبيب لبناني يدعى شاكر فرنجيه وقد تبرع السيد (شنابة الياسري) الذي يعد واحدا من أقدم سكنة

القضاء بدار عائدة له لتكون المكان المخصص لهذا المستوصف وكان أول مضمد صحي عمل في هذا المستوصف شخص يدعى علي القريشي.

توجد ثمانية مشاريع اروائية مشهورة في النعمانية هي«الروضان» و«عوينة» و«الجمهورية الغربية» و«الحجام» و«الجمعية» و«شاذي»

وللحركة الرياضية في النعمانية أثر ملموس فملعبها الرياضي يعود تاريخ تأسيسه إلى عام ١٩٦٥ وهو مخصص لمختلف الألعاب الرياضية وفيها نادي رياضي ومنتدى للشباب وبرز من الرياضيين الرباع رياض صبحي خضير الذي احرز بطولة العرب واسيا برفع الأثقال عام ١٩٨٩ وكذلك حصول شقيقه خضير صبحي خضير على لقب بطل آسيا عام ١٩٩٢ وكذلك لاعب كرة القدم نوري ذياب وبطل العراق بالوثبة الثلاثية الرياضي محمد حمزة .

ومن بين ٤٢٠ موقع أثري في محافظة واسط يوجد عدد كبير في قضاء النعمانية وأبرزها على الإطلاق موقع «تل الولاية» وأهميته ناشئة عن كونه يضم بقايا مدينة «لارك» السومرية والتي ذكر أسمها في الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري وهذه المدينة تعد احدى المدن الخمسة التي حكمت العراق القديم قبل حدوث الطوفان و تم القيام بأعمال التنقيب في هذا الموقع لمدة خمس سنوات ، تم على إثرها نقل أكثر من ٣٠٠٠ قطعة أثرية إلى المتحف الوطني في بغداد وهذا الموقع يعد من الناحية التاريخية مهم نظرا لضمه ثلاثة أدوار حضارية تاريخية تمثل عصور الحكم السومرية والأكدية والآشورية.

ويوجد في النعمانية أكثر من عشرين تل أثري يتراوح تأريخها بين العصر البابلي والعصر العربي الإسلامي منها تل أبوصخي وتل النعمان وتل كليبه وتل أم حلانه وتل الروسيات وتل سمر وتل أبو ذهب وتل الصخرية وتل قوم لوط وتل المصابحية وتل اتويم وتلول السود وغيرها من التلول إلى جانب مواقع أثرية من أهمها «قصر النعمان» الذي يطل على نهر دجلة ويبعد قرابة ٥ كم عن مركز المدينة « مقبرة الحيثيين» قرب نهر دجلة و«بلاط الملك» و«مخازن الملك» عند مدخلها الشمالي وكذلك وجود آثار «النجمي» على مبعدة ١١ ميل غربي المدينة وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هذا الموقع الأثري هو موقع دفن الشيخ (البجلي) وتوجد بالقرب من آثار النجمي آثار «النيليات».

ويوجد في النعمانية عدد كبير من الدواوين أبرزها دوواين «حبيب الخطيب» و«ال الحبوبي» و«بيت جبارة» و«بيت قرطاس» و«مجيد الحمامي» و«كريم الخطيب» و« سيد صادق» و«صاحب الشاهين» وإعلان العجم و«جليل الهبان».. حيث تشهد هذه الدواوين

عملية تزاور من قبل اهالي النعمانية للتعبير عن محبتهم واحترامهم المتبادل وكذلك تعد مكانا لحل النزاعات العشائرية بالطرق السلمية وأهل النعمانية عموما يتصفون بالأخلاق العالية وحب الضيافة والكرم العربي .

وتشتهر النعمانية بزراعة القطن والذرة الصفراء والحنطة بالإضافة إلى زراعة الفواكه والخضروات وفيها غابات تضم اشجار الصنوبر وتعرف بتسمية غابات النعمانية وهي من بين وتبتعد عن أرض المدينة عدة أهوار من أشهرها هور الشويجة الواقع في الجهة الشرقية من نهر دجلة شمال شرقي مدينة الكوت وهو قليل العمق يجف في بعض فصول السنة وهور الدلمج الذي يقع في الجهة الغربية من نهر دجلة ويمتد حتى مدينة الديوانية.

وفي النعمانية يقع مقامٌ شريفٌ ينسب إلى الإمام المهدي عليه السلام فيقال له : مقام الإمام المهدي في منطقة تدعى (أم عكيط) وهو على جادة الطريق بين النعمانية وواسط (الكوت)، يبعد عن النعمانية نحو (١٥) كيلومتراً، وعن مدينة الكوت نحو (٢٢) كيلومتراً، ويقع المقام على يمين الذاهب من النعمانية إلى الكوت، ومن الخلف عن نهر دجلة نحو ١٥٠ متراً، ومنطقة أم عكيط اليوم تابعة للنعمانية التي هي من أقضية محافظة واسط:

قبل الدخول إلى المقام يرى القاصد إليه عدّة قبور من جهة اليمين اتُّخذت مدفناً لأطفال أهل المنطقة، وعلمت أخيراً أن الناس مُنعوا في الآونة الأخيرة من الدفن في هذا المحل، وعن اليسار توجد مغاسل للوضوء أُنشئت حديثاً في العمارة الأخيرة للمقام، وتبلغ مساحة المقام الكلية نحو (٢٠٠٠) م مربع مسيّجة بالآجر، وللمقام ثلاثة أبواب خارجية. وعند الدخول للمقام تجد ساحة خارجية فيها عدة أشجار من السدر والنخيل،و من أمام المقام وخلفه عدّة محلات تجارية عن اليمين واليسار لبيع ما يحتاجهُ الزائر من أمور ضرورية، وفي الجهة الجنوبية الشرقية رأينا هيكل بناء لم يتم لحسينية كبيرة.

وقبل الدخول للمقام تجد إيواناً كبيراً جُعل لخدمة الزائرين فيه عدّة أعمدة، ثم تدخل من باب حديدي للمقام طوله ٢م وعرضه ٣م ولونه أخضر، يعلوه دعاء (اللهمّ كن لوليّك...) فعند دخولك تجد رواقاً يحيط بروضته المقام من جميع الجهات، فمن الجهة الشمالية تجد باباً للدخول إلى الروضة، وعن يمينك محراب دال على جهة القبلة معمول بالقيشاني الأزرق، وعدة ألواح معلّقة ذُكرت فيها الزيارة ورواية ابن أبي الجواد النعماني المخصوصة بهذا المقام وزيارة أخرى للإمام المهدي عليه السلام.

وعن اليسار توجد مكتبتان صغيرة وكبيرة من الساج الأصلي، فيهما عدة مصاحف وكتب متنوعة العلوم من الفقه والسيرة والتاريخ وما شاكلها.

وهناك لوحة كتب عليها دعاء أهل البيت المعمور (المشهور).

وفي الرواق الغربي يوجد منبر للوعظ والإرشاد، وفي هذه الأروقة ٢٢ شباكاً تطل على المساحة الخارجية للمقام، ثم تدخل إلى روضة المقام وهي المكان الأصلي للمقام، وللروضة هذه أربع فتحات لدخول المقام والخروج منه، يعلو الروضة قبة كبيرة مساحتها ٨م مربع، وبجوارها منارتان ارتفاع كل منهما ٣٠ متر، ولون القبة من الخارج أخضر، وهي ذات شبابيك عددها ثمانية، وعرض الروضة ٤١٧ متراً وارتفاعها ٢٧ متراً، ويتوسط الروضة ضريح يُنسب إلى محمد بن القاسم بن علي بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام والمشهور بالصوفي.وعرض الضريح ٣م وارتفاعه ٥/ ٢ م وهو من الألمنيوم، وأعلى الضريح مزين بالزجاج، وعلقت عليه عدّة ألواح كتب فيها رواية ابن ابي الجواد النعماني، وفي احدها زيارة لصاحب القبر ونسبه .

٤ - سيد مالك

فى إحدى قرى النعمانية ذات البساتين الممتدة كنهر من الخضرة وعبر طريق مرصوف يفترش البسطاء جانبيه مثل أشجار تزينه سعيا إلى مزار ليس كغيره من المزارات ،اصطحبنى إثنان من شيوخ المنطقة هما الشيخ محمد مهدى صالح ردام شيخ أولاد بركه « عبد النعيس» والشيخ كريم كاظم السالمى شيخ السوالم ويعود نسبهما إلى قريش التى تضم ١٢ عشيرة ويتمتعان بمكانة رفيعة فى تلك المنطقة من النعمانية التى تضم عدداً كبيرا من القرى ويعمل أهلها بالزراعة والتجارة وكان مقصدنا أحد البيوت الأطهار كما يسمونه أهل المنطقة ينتسب صاحبه إلى أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام وهو من السادة الياسريين ويدعى سيد مالك الياسرى .

ويعود نسب السيد مالك إلى السيد دنبوس الياسري (١٨٨٤ – ١٩٣٩م) ابن كاطع بن بطي بن حمود بن عزيز بن علي بن ياسر الصغير . ولد في أرياف قضاء الحي منطقة البكع بمحافظة واسط . كان ذا مقام جليل ، فضلاً عن امتلاكه ثروة طائلة سخّرها لصالح الفقراء والمحتاجين . برع في فض المنازعات واجتهد في حسم كثير من قضايا العشائر العويصة وكان كريماً إلى أبعد الحدود، وديوانه من الدواوين المباركة التي لها مكانة خاصة في تلك المناطق ، وكان له مجلس في ديوانه قيلت فيه الأحاديث الدينية والأشعار والقصص ، شكل مدرسة للتقاليد الريفية الإيجابية . .أعقب السيد دنبوس ثلاثة رجال هم : مالك ، وعبد الله ، وحبيب.

والسيد مالك بن دنبوس بن كاطع بن بطي بن حمود بن عزيز بن علي بن ياسر الصغير ولد سنة ١٩٣٦م في قضاء (النعمانية) في محافظة واسط ، ومنذ نشأته الأولى رأى العامة تفتخر بمكانته فازداد تواضعاً وتودداً ، فالتودد حسب اعتقاده نصف العقل أن لم يكن كل العقل، لأن الإنسان إذا سلك طريق الحب والتواضع ، حمل الناس على حبه والميل له ، كان منهجه هذا في التعامل الاجتماعي السبب الأول في توافد الناس على مضيفه حتى أضحى مضيفه قاعدة العشائر كلها .

والسيد مالك الياسري سيد جليل ومصلح ذات البين ، كان في مضيفه طبيباً اجتماعياً لكل الناس . يطيّب لهم الاختناقات التي تجدّ لهم ، ويعالج الجراحات الاجتماعية ، وينهي كل مشكلة أو قضية عصية ، فقد أصلح مئات القضايا التي كادت تصبح مثار حروب بين العشائر والطبقات ، وهو أيضاً خبير في الزراعة القديمة والحديثة ومزارع كبير ورث أراضيه من أجداده السادة . سخي الوجه والروح فيعطي المعوزين بلا منة ويوزع فيوض حلاله بأمانة الدين والأعراف .

عندما وصلنا مشارف الطريق المؤدى لبيت سيد مالك الذى لم يتوقف الحديث عنه طوال الطريق اليه من قرية أولاد بركه والذى استغرق حوالى ٣٥ دقيقة داهمنى مشهد بقدر غرابته إلا أننى توقعته من خلال روايات الشيخين الذين رافقانى فى الرحلة ، حيث اصطف الناس على هيئة طابور طويل وما أن يصل أحدهم إلى باب السيد مالك حتى ينحنى يقبل الحائط ويمسحه بيديه كما يفعل المسلمون عند الحجر الأسود ، فالرجل يحظى بمكانة تقترب من القدسية لدى أهل النعمانية والمدن المحيطة بها حتى أن أحدهم قال لى لا تكتمل زيارتك دون المرور على سيد مالك وندعو الله ان يوافق على طلب اللقاء به !! .

زادنى الحديث والمشهد فضولا لأن أرى هذا السيد الذى يعتبره أهالى الكوت ومناطق أخرى رمزا دينيا يطلبون منه البركة والدعاء ليس فقط فى هذا العهد الذى أتاح الحرية الدينية للشيعة وإنما منذ عهد صدام حسين الذى كان سيد مالك يحظى خلاله بمكانة كبيرة ويرتاد مضيفه المسئولين والحكام طلبا للدعاء والرأى فى بعض المشاكل والأمور الدينية والدنيوية .

بعد ١٠ دقائق من الإنتظار خارج منزل سيد مالك عاد شيخ أولاد بركة ليبشرنى بموافقة السيد على لقائى بعد أن عرف أننى مصرى مع نصائح لى بعدم التطرق إلى أمور سياسية أو أسئلة صحفية لأن السيد مالك لا يحب الإعلام كثيرا ،مؤكدا فى الوقت نفسه أننى « وجه خير» لأنه سعى إلى لقائه منذ أشهر ولم يتمكن من ذلك بسبب كثرة مشاغل السيد وتقدمه فى السن.

عندما دخلنا إلى باحة منزل سيد مالك الياسرى شاهدت ثلاث سيارات مرسيدس بيضاء اللون تحمل لوحات معدنية بأرقام / ٧ ، ٨ ، ٩ واسط / وهو ما يؤيد الحديث عن مكانة السيد فى المنظومة الإجتماعية فى المحافظة .. وعندما دخلنا إلى المضيف شاهدت سيد مالك يحيط به عدد كبير من الشيوخ والمسئولين فى مشهد لا يخطئه مراقب يدلل على مكانة السيد الرفيعة .

توجه المرافقون لى وبينهم الشيخان محمد وكريم إلى السيد مالك ليقبلا يديه ورأسه ويطلبان الدعاء وصافحت السيد الذى طلب منى الجلوس بجواره مرحبا بإبن النيل ومصر العروبة التى تضم مراقد آل البيت خاصة « الإمام الحسين والسيدة زينب » وهو ما جعلنى أنعم بحظوة اللقاء والجلوس إلى جوار السيد والحديث معه لمدة ساعة كاملة وهو أمر نادر الحدوث ظل مادة للحديث بين زملائنا من الصحفيين والإعلاميين العراقيين خاصة الذين ينتمون إلى المذهب الشيعى .

غادرت بيت السيد مالك الياسرى تحيطنى نظرات التبجيل والتقدير من مرافقينى الذين طاب لهم حضور جلسة فى حضرة السيد لمدة ساعة كاملة يستمعون إلى حديث فى مختلف الشئون السياسية والأمنية والإجتماعية والدينية مع أسئلة وحوار متبادل من شاب فى مثل عمرى سمح له السيد بالمناقشات المستفيضة ، بينما ظلت فى ذاكرتى أفكار حركها اللقاء بما قبله وما بعده من مشاهد وتساؤلات عن تلك القدسية التى يحظى بها آل البيت من الأئمة فما دونهم من أشخاص لدى شيعة العراق وكيف يمكن أن تكون تلك القدسية المغلفة بالسمع والطاعة سبيلا إلى إشعال فتيل أزمة أو إطفائها بإشارة من يد أحد هؤلاء السادة والمراجع سواء الكبار الذين يتخذون من مدينة النجف مقرا لحوزاتهم العلمية منذ مئات السنين أو أقطاب المذهب من السادة والشيوخ الذين يؤمون المصلين فى الجوامع والحسينيات .

٥ - السنينة والكويت

فتحت زيارتى للسيد مالك الياسرى الباب واسعا لنقاشات مع أهالى النعمانية سواء الشيوخ أو الناس العاديين حول هذا الإرتباط الروحى بينهم وبين مراجعهم وسادتهم من آل البيت وهل كان لهذا الإرتباط دور فى وأد الفتنة وعدم مرور بلدتهم بما مرت به مناطق أخرى من العراق فى زمن المذبحة خاصة الفترة التى عصفت فيها رياح الفتنة بالبلاد والعباد رغم أن الشيعة يمثلون غالبية السكان بالعراق ، فما هو أصل الخلل ؟؟ ولماذا ظلت مناطق هادئة مستكينة لا وجود فيها للعنف بعد أن كان يتم وأده فى مهده بينما إحترقت مدن ومناطق بالكامل بنيران العنف الطائفى الأعمى

؟؟ وكيف حافظ أهالي النعمانية التي إعترتها نموذجا تكرر في مناطق أخرى على الترابط بينهم وإلتزم الصغير والكبير بالقانون والأعراف الدينية والعشائرية ؟؟ .

أما بداية الخلل كما يراها الشيوخ كانت مع أكل الحرام لأن الحرام يفسد كل شيء ، ربما كان التفسير غريبا بعض الشيء إلا أنه بسيط ومقنع حيث تصل القناعة بهذا التفسير إلى منزلة الإعتقاد الراسخ وهو أن بداية الإنهيار للمجتمع العراقي هو إحتلال الكويت وإغتصاب مال وأملاك الكويتيين سواء كانت بشكل شخصي فوضوى أو جماعي منظم.

قال لي شيخ أولاد بركه أن أهل الدين يقولون : أكل الناس للحرام أفسد كل شيء وهو ما جعل الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب يعتبر ما جرى في عام ١٩٩١ أكبر انتصار أمريكي على مجتمع عربي لأنه نجح بما فعل في تخريب المجتمع بعد أن سهل انهيار القيم وجعل أبناء المجتمع العراقي يأكلون الحرام ، وروى الشيخ قصة مأثورة عن شعب لم يتمكن أي حاكم من هزيمته أو السيطرة عليه بسبب إيمانه ودعوته المستجابة التي كانت كفيلة بالإطاحة بأي ظالم حتى جاء حاكم ظالم يتمتع بالذكاء وأقنع هذا الشعب بأن يأكل حراما وجعلهم يلهثون وراء الكسب السهل بطريقة محرمة فضاع مقدارهم وأصبح دعاؤهم لا يستجاب وظهر بينهم الخراب في البصائر والضمائر وهذا ما جرى بعد غزو الكويت للعراقيين حيث لم يشهدوا يوما هانئا رغم كثرة الحروب التي مروا بها وكان آخرها الحرب مع الجارة الشرقية إيران التي استمرت أكثر من ثمانية أعوام إلا أنها لم تسبب انهيارا بالمجتمع العراقي كما سببته حرب الكويت .

أما عن دور الإرتباط بالمرجعية وحب آل البيت في تصفية الأجواء بالنعمانية وغيرها من المناطق وحفظ النظام الاجتماعي خارج إطار منظومة العُنف الطائفي التي ميزت زمن المذبحة فكانت الإجابة متطابقة بين الشيوخ والشباب فالالتزام بالمرجعية وما يعلن من آرائها كان السبيل إلى منع الفتنة أو مجرد امتدادها إلى بساتين الحب التي لا تعرف إلا الحرث والزرع وانتظار الحصاد الطيب ، أما ما جرى في المناطق الأخرى لا يعدو أن يكون من فعل العصابات الخارجة على كل القوانين سواء الارتباط بالمرجعيات أو قوانين وأعراف العشائر .. بينما تظل قوانين العشيرة هي المحرك الرئيسي لكل أمور الحياة وتغلف الالتزام بالمرجعية الدينية حيث تحل السنينة « لائحة قانون العشيرة» محل أي قانون آخر يلتزم بها الجميع وغير مسموح بالخروج على الإطار القيمي الذي ترسمه منذ مئات السنين وإلا يكون العقاب هو « الكسر من العشيرة » وتعني البراءة من الخارج على السنينة أو دستور العشيرة .

وعندما تتبع أنساب العشائر الشيعية فى النعمانية أو باقى مناطق محافظة واسط أو محافظات الجنوب الشيعى فأنه يمكن بقليل من الجهود معرفة أن تلك العشائر أو معظمها هى امتدادات لعشائر سنية موجودة فى مناطق الوسط والشمال العراقى مثل محافظات ديالى وصلاح الدين والأنبار وهو ما يعنى أن نسيج المجتمع العراقى متصل حتى وإن تغير المذهب وإذا كانت العشائر التى تبعت المذهب الشيعى شديدة الارتباط بمرجعياتها الدينية إلا أنها تشارك عشائر الوسط والشمال السنية فى الإلتزام الشديد بقانون أو دستور العشيرة « السنينة» .

روى لى شيخ أولاد بركة أن السيد تركى العوادى وهو أحد شيوخ قريش العائدين إلى « بنى زيد » السنية كان يصلى بيد مرفوعة إلى الصدر كصلاة السنة ويد ملتصقة بجانبه كما يصلى الشيعة وذلك حتى يثبت أنه لا فرق فى الأصول بين السنة والشيعة وأن ما دخل على المذهب الشيعى من طقوس وممارسات هى أمور جلبتها السياسة وغلفتها المصالح بينما تبقى الأصول واحدة وهى الالتزام الأخلاقى والدينى والعشائرى .



الفصل الرابع

ضد الخوف



١ - العلم

عندما تعبر بوابة تكريت التى تبعد عن بغداد حوالى ١٧٥ كم شمالا تصل الى قرية العوجة مسقط رأس صدام حسين التى ظلت على علاقة طيبة مع عشائر الجبور سكان ناحية العلم الأساسيين رغم محاولة تورط فيها بعضهم لاغتيال صدام عام ١٩٩١ .. ونظرة على بيوت تلك القرية تبدد كل ما كان يقال عن أن صدام حسين منح أقاربه امتيازات وأموال على حساب العراقيين .. بيوتها شديدة البساطة حتى أن بعضها لم يكسى بالمحارة ويقى على حال الطوب الاحمر .، شوارعها كبقية شوارع العراق من حيث كمية الحفر والمطبات وفوضى الارصفة .، ندخل إلى مدينة تكريت عاصمة محافظة صلاح الدين التى يبدو شارعها الرئيسى نظيفا تتوزع على جانبية دوائر الدولة الرئيسية بالمحافظة بعد اجتياز أرصفتها المنسقة .، هدوء ملحوظ جعل المدينة تبدو مستريحة على حافة السكون تعيش فى سلام وهدوء كأنها لم تعش حالة الحرب كباقى مدن العراق .. كما بدت على أحد جانبى الطريق بوابة قصر الفاروق وبدت خلفها القصور الرئاسية التى تحدث العالم عنها كثيراً بلونها الصحراوى الباهت وغلافها الحجرى والصخرى المنقول من شمال العراق والمصفوف بعناية فوق أسطحها وواجهاتها .

فى منتصف مدينة تكريت طريق يؤدى الى الجسر الوحيد فى المدينة الذى يخترق القصور الرئاسية وصولا إلى ناحية العلم وهى مقصدنا عبر نهر دجلة .

يبدو الطريق الى ناحية العلم مختلفا عن غالبية مناطق العراق .. بصمة نهر دجلة الذى تغفو عليه الناحية كانت واضحة على الطريق ذى الخمسة عشر كيلومتراً بين مركز المحافظة / تكريت/ ومركز ناحية العلم .

الغطاء النباتى الكثيف من مختلف أشجار الفاكهة فضلا على مزارع القمح والشعير والمحاصيل الصيفية كانت تغطى كل شبر من أرض المنطقة .. لم يبق سوى الشارع وبيوت المواطنين والتى زرعت حدائقها هى الأخرى بالعشب الأخضر وزينت بمختلف أنواع الزهور .. أجواء ناحية العلم مختلفة تماما عن غيرها حتى من المناطق القريبة .. احتضانها لدجلة وانخفاض مستوى الأرض وارتفاع الرطوبة فيها جعل أجواءها أكثر اعتدالا تقترب من أجواء بلاد الشام وتبتعد قليلا عن أجواء العراق القائظة الملتهبة .

تستقبلك بساتين الفاكهة المنتشرة على جانبى الطريق مع مظاهر لريف يتميز بالرقى تخترق طرقه سيارات فارهة لتصل إلى بيوت أراد سكانها أن تكون ذات طراز

معمارى بسيط يضم .. المضيف والحديقة وسكن الاهل مع توفير كل مقومات الرفاهية مع وضع معضلة الكهرباء فى الحسبان فلا بيت يخلو من مولد .. لا بيت يخلو من استاذ جامعى أو معلم أو طبيب أو مسئول فى أحد دوائر الدولة .. وكيف لا وهذه الناحية شهدت تأسيس أول مدرسة ابتدائية فى الريف العراقى عام ١٩٣٣ هى مدرسة الخرجة الابتدائية على يد الشيخ محمد الحسن جبارة شيخ عشيرة الجبور فى هذه المنطقة .

تواجهك من الضفة الأخرى لنهر دجلة جامعة تكريت التى تضم فى جنباتها أكبر نسبة من الأساتذة من هذه المنطقة بدءا من رئيس الجامعة الدكتور على صالح حسين الجبورى وليس انتهاءا بعدد من عمداء كلياتها السبعة عشر ومئات الأساتذة والطلبة .. العمق العلمى لهذه المنطقة والذى يصل إلى قرن كامل عززه فى العام ١٩٩١ قرار الرئيس الراحل صدام حسين بطرد أبنائها من الجيش والدوائر الأمنية بسبب المؤامرة آنفة الذكر مما جعل توجه أبنائها حتميا لمقاعد العلم والدراسة مما أنتج ما يقرب من ٥٠٠ شهادة عليا فيها .

يحد ناحية العلم من الشرق سلسلة جبال حمرين والتى تفصلها عن محافظة كركوك وهى أحد أهم مناطق نفوذ المجموعات المسلحة خاصة تلك المرتبطة بالقاعدة والتى زاد تمركزها فى تلك المنطقة الجبلية الصحراوية بعد فقد ملاذاتها الآمنة فى المدن والمجتماعات السنية على أيدى رجال العشائر والصحوات .

وتمتاز ناحية العلم بخصوبة أراضيها الصالحة لزراعة القمح والشعير والتى تروى بواسطة الآبار مما يجعلها فرصة استثمارية لمن يريد ..كما يوجد على أراضيها حقل عجيل النفطى الذى يضم فى باطنه ثلاثة مليارات برميل من الاحتياطى المؤكد وهو ما يجعلها من أغنى مناطق العراق المنسية .

يقيم فى الناحية ٤٤ ألف نسمة يتوزعون بين عشائر عدة أكبرها الجبور ثم العبيد والعزة والبوعجيل وجميلة .

وبرغم رفض أهالى الناحية لكل النشاطات المسلحة وكافة المجموعات التى تمارس العنف فانها لم تشهد أى أعمال عنف سوى انفجار سيارة مفخخة وكانت حادثا بسيطا لم ينجم عنه الكثير من الخسائر المادية والبشرية بسبب تكاتف أبنائها وتشخيصهم لكل تصرف مريب وشخص غريب يمكن أن يدخل إلى منطقتهم وهو ما جعلهم هدفا للقتل أينما وجدوا خارج منطقتهم الآمنة وهى ضريبة قاسية وثمنا باهظا دفعه أبناء الناحية بسبب رفضهم للفكر المتطرف حيث جرى اختطاف وقتل أكثر من ١٠٠ من أبناء الناحية خلال الفترة من ٢٠٠٤ وحتى

٢٠٠٩ معظمهم من رجال الأمن .

٢ - الناجي لم يدفن بعد!!!

في العام ١٩٠٢ انتقل الشيخ محمد الحسن الجبارة من الضلوعية بعد صراع مشيخه مع أخواله (السلامة) شيوخ الضلوعية وهم عمود الجبور في الضلوعية آنذاك وسكن في منطقة (الخرجة) ناحية العلم حاليا وسميت بالخرجة حسب إحدى الروايات بأنها أول منطقه خرجت عن مجرى النهر ورواية أخرى بأنها سميت بالخرجة نسبة إلى أنها أول منطقه رفع بها علم الخراج للدولة العثمانيه.

قام الشيخ محمد الحسن الجبارة باستقدام أقاربه من مناطق الهارونية في ديالى وهم(الكلش) ومن الخرنينة قرب بيجي(الشحيل) ومن الضلوعية (الإبراهيم) وانتقل (الحبيب) من الحويجه الماحوز واجتمعوا في بيوت من الشعر ثم استوطنوا قرب نهر دجله.. وفي العام ١٩٢١وقع محمد الحسن الجبارة والشيخ محمود الملا عبد وثيقة تؤيد موافقتهم على تنصيب الملك فيصل ملكا على العراق وهو ما يدل على أن العشيرة لها ثقل ودور كبير في الحياة الاجتماعية والسياسية.

في العام١٩٣٣ بنى محمد الحسن أول مدرسه في أرياف تكريت وهي ثاني مدرسه على مستوى الأرياف العراقية وبذلك فتح باب العلم والمعرفة والثقافة أمام أبناء عشيرته والعشائر المجاورة له وقد لمس أبناء عشيرة الجبور الفرق الآن وتحققت نبرءة شيخهم الذي أبناء عشيرته سيكون لهم شان في العراق .

توفي محمد الحسن الجبارة ١٩٣٧/٥/٢٥وأصبح بعده ابنه الشيخ حسين الجبارة الملقب حسين كبير حيث كان في العائلة اثنان من أبنائها باسم حسين سمي احدهم حسين صغير والآخر حسين كبير الذي بنى أول مسجد في المنطقة في بدايات الأربعينيات وكان له دور فى إيصال أبناء عشيرته إلى مراكز مهمة وكان له صديق من تكريت اسمه (أحمد ناجي) اسم مركب وقد تدرج ليصبح أول معلم في المدرسة وقد سمى الشيخ حسين كبير ابنه البكر أحمد ناجي على اسم المعلم الأول في المدرسة توفي حسين كبير عام ١٩٥٩ بعد إصابته بمرض السرطان في الحنجرة.

وتولى أمور العشيرة الشيخ احمد ناجي (ناجي الجبارة) الذي توفي والده وهو شاب يافع وعندما كانت الحياة صعبه في العراق آنذاك فقد عمل في مجال الزراعة والسواقة وأعمال أخرى من أجل توفير معيشة له ولأخوته وبقى ناجي الجبارة متمسكا بعشيرته وعشيرته متمسكة به حتى جاء احتلال العراق عام ٢٠٠٣ والذي كان له شان

في قيادة دفة الحكومة المحلية في صلاح الدين التي تعتبر من أهم المحافظات العراقية لأنها كانت معقل النظام السابق الذي قاد العراق لمدة ٣٥ سنه .

ولد احمد ناجى حسين محمد حسن جبارة عام ١٩٣٧ واستلم زمام العشيرة مبكرا بعد وفاة والده عام ١٩٥٩ واستمر فى قيادة العشيرة حتى غزو العراق عام ٢٠٠٣ حيث قاد المفاوضات مع قوات الاحتلال للحفاظ على المحافظة وأسس أول مجلس لقيادة المحافظة بعد أن قاد معركة للدفاع عن مدينة تكريت مع ميليشيات كردية جاءت للانتقام من أقارب صدام حسين فى تكريت وخاصة العوجة حيث أرادوا حرقهما ونهب المنطقة .. ورغم الخلافات بين عشيرة الجبور وصدام حسين إلا أن القضية كانت مبدئية فهذه بلد وهؤلاء أهلها ويجب الدفاع عنها ومن جاء يريد الثأر وكان لابد من المرور عبر أراضى الجبور والبوعجيل ورفض الشيخ إلا على جثث الأبطال .. ودارت المعارك ثلاثة أيام اندحرت على أثرها الميليشيات وعادت خائبة وهو موقف بطولى لم ينساه أهالى المحافظة للشيخ وعشيرته لأنهم باتوا الأقوى والأقدر على الحماية والإدارة ومن هنا جاءت مسألة توليهم أمر البلاد والعباد وتم تكوين مجلس لإدارة شئون المحافظة مؤلف من عدد من شيوخ العشائر برئاسة الشيخ ناجى

واستمر هذا المجلس حتى يوم السابع من مايو ٢٠٠٣ حيث جرى تعيين محافظ هو اللواء الركن حسين جبارة الذى كان ضابطا فى الجيش السابق وفى هذه الفترة استطاع أن يعطى رواتب للموظفين وإعادة تشغيل كافة الخدمات الأساسية إلى أن شكل الشيخ أول مجلس حكم للمحافظة بعد تشكيل مجلس الحكم المركزي واستمر لمدة عام حتى أجبر من قبل الأمريكان على الاستقالة بسبب شعبيتهم وخدمتهم للبلد .

ورغم ما لاقى أهل وعشائر الجبور من البعث وصدام حسين إلا أن الشيخ ناجى بسمة التسامح التى سبغت ذلك المكان وأهله أصدر تعميما بعدم طرد أى بعثى أو منع راتبه خلاف ما جرى فى باقى مناطق العراق والعمليات الانتقامية التى جرت ضد البعثيين وعناصر الجيش السابق الذين كان معظمهم مجرد موظفين ومنفذى أوامر .

بعد ترك منصبه أسس الشيخ ناجى مجلس شيوخ عشائر صلاح الدين والذى كان يمثل كل عشائر المحافظة وساهم فى جمع شمل العشائر وساهم فى تذويب الجليد وحل الخلافات بين مكونات المجتمع العراقى فى صلاح الدين الذى يعتبر أحد أكبر المجتمعات القبلية الذى تحتل فيه العشيرة المكانة الأكبر .

بعد أن سيطرت القاعدة على مناطق السنة باعتبارها الحاضنة لهم لترويجهم لفكرة الجهاد ضد الاحتلال كان الشيخ ناجى رغم محاربة الاحتلال له أحد

المستهدفين باعتباره تعامل مع من كان يعتبرهم التنظيم قوات صليبية محتلة وخاصة مع وجود مخطط تدعمه أجندات خارجية لتدمير المجتمع السنى وتغييب السنة عن أماكن الحكم ومؤسساته بدعوى التعامل مع الاحتلال

فى الثامن من يناير ٢٠٠٧ وفى طريق عودته من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج قامت مجموعة من المسلحين التابعين لتنظيم القاعدة باختطافه فى طريق سامراء الفلوجه وهو أحد طرق الموت المعروفة وهو الطريق الذى شهد نهاية أكبر قائدين بالقاعدة وهما أبو عمر البغدادى وأبو أيوب المصرى / طريق السدة .

ويروى مروان الناجى كيف جرت عملية الاختطاف التى تصادفت مع تأخر عودته ليوم واحد بسبب تعطل إحدى السيارات التى تقل الحاجات من النساء فى طريق الرمادى مركز محافظة الأنبار التى تبعد حوالى ١١٠ كم غربى بغداد وكان من المفترض أن فوجا من الشرطة يؤمن ذلك الطريق الذى كان خاضعا لنفوذ القاعدة بالكامل وتبين أن الفوج لم يؤد الواجب المطلوب منه .. وقبل أن يصلوا تقاطع سامراء – الفلوجة بحوالى ١٥ كم أوقفتهم ٣ سيارات تقل مسلحين تابعين للقاعدة وصعد الملثمون وسألوا عن حسن زين العابدين وهو تركمانى شيعى ويشغل منصب مدير عام الصحة بمحافظة صلاح الدين وهم يفتشون فى جوازات السفر بحثا عن شخص آخر مستهدف دون تسميته وتعرفوا على الشيخ ناجى وأمروه بالنزول من السيارة تحت تهديد السلاح واقتادوه إلى جهة مجهولة تبين فيما بعد أنها منطقة الضلوعية .. وبعد الحادث بحوالى ساعة تلقى مروان الخبر الذى دخل إلى حمد حمود القيسى محافظ صلاح الدين وروى الموضوع وتم إجراء مجموعة اتصالات مع الشرطة والشيوخ والأهل وتم تأهيل قوة كبيرة لتفتيش كل المنطقة إلا أن فارق الوقت ومرور ٣ ساعات تقريبا أدى إلى ضياع أثر الشيخ .

وجرت عمليات بحث واسعة النطاق فى كل مكان .. وجرى الاتصال بالمجموعة المنفذه من خلال وسطاء وفروا قرصا مدمجا / سى دى/ للشيخ وهو يتحدث عن شروط الخاطفين وهى شروط لا يمكن تنفيذها ومنها استقالة الجيش والشرطة فى أربعة محافظات وتسليم أسلحتهم للقاعدة ومبايعة شيوخ صلاح الدين والأنبار وكركوك والموصل للتنظيم وأميره أبو عمر البغدادى وبالطبع تم رفض الشروط التعجيزية المهينة فانقطعت الأخبار الخاصة بالشيخ .

وكانت صحوة صلاح الدين قد تشكلت بتاريخ ١٣ يونيو ٢٠٠٧ فى قرية السلام غرب بيجى من قبل الشيخ معاوية الناجى ابن الشيخ وبدأت تأخذ دورها فى قتال القاعدة والمجموعات المسلحة .. وتمكنت من اعتقال عدد كبير منهم بينهم عناصر

شاركت فى اختطاف الشيخ مثل عدنان خليل فرج وخالد الحبيب وعلى يوسف لجى الذى لقى مصرعه خلال القبض عليه فى منطقة الثرثار إلا أن العمليات العسكرية ضد المسلحين جعلتهم يحولون الشيخ إلى منطقة جلام سامراء ومن هناك جرى تسليمه إلى المقاتلين العرب الذين كانوا يقودون التنظيم فى تلك المناطق وتمت تصفيته هناك ودفنه فى أحد المناطق غير المعلومة حتى الآن مثل كثيرين غيره لم يعثر لهم على أثر . ونصل للسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو :

لماذا لم تتمكن القاعدة من العمل فى العلم وأخذها كملاذ آمن مثل معظم المناطق المحيطة ؟؟

يروى أبو عمر وهو أحد أبناء المنطقة أن السبب الرئيسى فى ذلك هو توحد المؤسسة الدينية ذات التوجه السلفى الرافض للفكر التكفيرى مع السلطة العشائرية التى تهدف أساسا إلى حماية أبناء العشيرة من أى خطر خارجى أو مشكلة داخلية .. كان يمثل الاتجاه السلفى فى العلم الشيخ أبو منار العلمى الذى رفض الفكر التكفيرى / فكر القاعدة/ جملة وتفصيلا وحذر منذ وقت مبكر من مخاطر وصول هذا الفكر إلى الشباب لما له من توجهات تستبيح الدماء دون مسوغ شرعى أو قانونى أو أخلاقى وكان العلمى شيخ شيوخ الدعاة السلفية وتعرض للسجن فى زمن صدام حسين وقطعت قدمه وأصيب بالسرطان أثناء سجنه .. فيما كان يقود السلطة العشائرية فى المنطقة الشيخ ناجى جبارة الذى يحظى باحترام كبير من مختلف العشائر ليس فى تكريت فقط وإنما فى جميع أنحاء محافظة صلاح الدين .. وهنا حصل اللقاء بين السلطتين الدينية والعشائرية بهدف حفظ أرواح المواطنين فى المنطقة وأسست بذرة الرفض للمنهج التكفيرى فى كل محافظة صلاح الدين وانتقلت إلى كل مناطق العراق كنموذج يُحتذى لأن العراقيين بمجملهم لم يعرفوا التطرف الدينى بل كانوا على الدوام متعايشين بكافة طوائفهم خاصة طائفتيهم الرئيسيتين السنة والشيعة مع الكثير من الطرق والمناهج داخل الطائفتين وكان احتضانهم للمقاتلين وخاصة العرب بدافع مقاومة الاحتلال وهو ما منح هؤلاء المقاتلين المنتمين للقاعدة وغيرها من التنظيمات الملاذ الآمن الذى ضاعوا بعد أن فقدوه عندما اكتشف الناس حقيقتهم وطبيعة أهدافهم .

٣ - صراع السلفية

قادنى الحوار مع أبو عمر إلى البحث فى قضية الصراع بين أطراف السلفية في العراق وهو صراع عقائدي وفكري لأنهم كانوا جميعاً تياراً واحد هم «السلفية في

العراق» ، وفي عهد صدام حسين كان يعرفون بالسلفية بصورة عامة وكان يسموهم أو يعرفون في بعض المنابر بالوهابية لأن اللباس القصير واللحى الطويلة كانت تجمعهم وتميز المنتمين إلى الفكر السلفي .

ويعتبر عناصر تنظيم القاعدة أنفسهم سلفيون، إلا أن المرحلة التى تلت الاحتلال الأمريكى أفرزت اتجاهين وصار بالعراق سلفية معتدلة، وسلفيون يحاربون القاعدة، بسبب الاختلاف الفكري والمبدئي لأن السلفية المعتدلة ترى أن مقاومة المحتل الآن تؤجل بسبب عدم تكافؤ القوى مع المحتل ومن شروط القتال عندهم أن يكون هناك تكافؤ في المواد والعدة العسكرية والتكنولوجيا وغيرها ولذلك يطلق عليهم أتباع تنظيم القاعدة صفة المرجئة بمعنى أنهم يعطلون الأمور أو يرجئونها بينما يرى تنظيم القاعدة في العراق أن من أولوياته مقاتلة الاحتلال، والسلفية المعتدلة ترى عكس ذلك تماماً لأن الوقت لم يحن بعد للمقاتلة لأنهم يرون أن العراق يجب أن يحصن عقائدياً ويزول عنه الفساد، ويقولون « كيف نحارب الآن ونحن لم تكتمل عندنا العقيدة الصحيحة وهناك فساد في الأرض؟ ولهذا يجب أولاً أن يصححوا ما في الداخل ثم بعد ذلك يقاتلوا.

ولعل هذا الخلاف هو ما جعل كثير من الناس لا يفرق، بين الخطين المتضادين لدرجة العداء والاستهداف فالتيار السلفي المعتدل الذي يرى أن القتال الآن غير واجب، لكن للأسف أن النصوص لا تسعفه، بينما يرى السلفيون الآخرون وهم تنظيم القاعدة أن من أولويات عملهم هو مقاومة المحتل.

ومن الأمور الخلافية التى أدت إلى استهداف قادة السلفية المعتدلة « المرجئة» ومن والاهم خاصة أهل ناحية العلم الذين صاروا هدفا مفضلا للقتل والاختطاف هو أنهم بسطاء وليس عندهم مشكلة على الدخول بالعملية السياسية، وأيضاً شجعوا على الانخراط في الجيش والشرطة وهو ما كان تنظيم القاعدة يعتبره كفرا وأن من يعاون الاحتلال والحكومة العراقية مرتدا يجب قتله اينما وجد .

ورغم وجود حوار بين الخطين السلفيين فى بداية الاحتلال إلا أن تنظيم القاعدة خلط الأوراق وصار يقتل على الشبهة، ولا يفرق بين العراقي والمحتل وهو ما أدى إلى انقلاب الناس عليهم فى المناطق التى كانت ملاذات آمنة لهم، وصارت قطيعة وقتال بسبب استهداف الأبرياء من الناس الذين لم يقاتلوا لأنه أمر مرفوض شرعاً وعرفاً وقانوناً، وهناك أحكام الذميين والمستأمنين في العراق أو غير العراق وبعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق حصلت لقاءات بين السلفية المعتدلة وتنظيم القاعدة ، ولم يتوصلوا إلى نتيجة ولم يقنعوا فكرياً، وبعد ذلك

حصل لقاء مسلح وكفر اتباع السلفية المعتدلة تنظيم القاعدة .. فيما كفر التنظيم أيضاً السلفية المعتدلة وحدثت مناوشات بينهم واعتداءات، لأن تنظيم القاعدة يعتبر أي شخص يخالف مبدأه أو منهجه هو ضده ويقاتله .

وقد أدى هذا الخلاف الذى لم يكن يعرفه كثيرون إلى توجيه أصابع الاتهام إلى السلفية بالمسئولية عن الضربات التي يتلقاها عناصر الجيش والشرطة وبقية القوى الأمنية بالإضافة إلى سائر المواطنين بسبب أن تنظيم القاعدة ينتمي إلى المنهج السلفي حيث يتواجد أتباع السلفية في أغلب مناطق بلاد الرافدين إلا أن السلفية المعتدلة التي تتخذ من مناطق أطراف محافظة صلاح الدين أماكن لتواجدها، لم ترفع السلاح يوماً بوجه القوات الأمريكية أو العراقية، بل على العكس من ذلك شجعت المواطنين على الدخول في سلك الشرطة والجيش والمشاركة في العملية السياسية.. حيث اندفع الكثير ممن ينتهجون التيار السلفي للعمل تحت مظلة القوات الأمنية ورفع السلاح ضد من تثور ثائرته تجاه تلك القوات بعد الكتاب الذي ألفه أبو منار العلمى شيخ السلفية والذي أجاز فيه فتاوى عديدة منها دخول السلفية في مجال القوى الأمنية وحمل السلاح .

وفي وقت كان المنهج السلفي المعتدل في العراق ميزانًا يذعن له المخالف وينضوي تحته الكثير، أصبح تهمة يتبرأ منه تنظيم القاعدة ويستهدفه بين الفينة والأخرى بسبب النهج الذي يحمله والذي يخالف التنظيم بأفكاره عندما أعلن عن عدم مشروعية مقاتلة القوات الأمريكية في الوقت الحاضر، فكانت الضربة الموجعة التي تلقاها السلفية أثناء تأديتهم صلاة الفجر في مسجد الإمام مسلم، بناحية العلم مما أدى إلى مقتل وإصابة حوالي ٢٥ شخصا بتاريخ ٢٠٠٦/٦/١٥ عندما دخلت مجموعة مسلحة بعد انتهاء صلاة الفجر مباشرة، وفتحت النار على من كانوا بالمسجد . إلا أن هذا الهجوم كان الوحيد في المنطقة التي استمرت آمنة .

٤ - المرجئه

يعرف المرجئة تاريخيا بأنهم فئة من المسلمين, خالفوا رأي الخوارج في مرتكب الكبيرة وقالوا بأن كل من آمن الإرجاء في اللغة : التأخير، وفي الاصطلاح تأخير العمل وإخراجه عن حقيقة الإيمان، قال ابن كثير في بيان سبب تسمية المرجئة بهذا الاسم: « .. قيل مرجئة لأنهم قدموا القول وأرجأوا العمل - أي أخروه » وهم أقسام وفرق متعددة مختلفة في تحديد معنى الإيمان عدّها الأشعري في المقالات اثنى عشر فرقة، وأشهرهم فرقتان:

الأولى مرجئة الفقهاء : وهم الذين يرون أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب، لا يزيد ولا ينقص، والأعمال الصالحة ثمرات الإيمان وشرائعه، قال الإمام الطحاوي - في بيان هذا المذهب: « والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى، ملازمة الأولى » (العقيدة الطحاوية).

الثانية مرجئة المتكلمين : وهم الجهمية ومن تابعهم من الماتريدية والأشاعرة.

يقول الفضيل بن عياض : « أهل الإرجاء - إرجاء الفقهاء - يقولون : الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل » (تهذيب الآثار الطبري ١٨٢/٢)،. ويقول وكيع بن الجراح : « ليس بين كلام الجهمية والمرجئة فرق كبير ؛ قالت الجهمية: الإيمان المعرفة بالقلب ، و قال المرجئة : الإقرار باللسان » أي مع اعتقاد القلب (نفس المصدر السابق)

وقال الإمام أحمد :« الجهمية تقول إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه، وهذا كفر؛ إبليس قد عرف ربه ، فقال : رب بما أغويتني » (الخلال اللوحة ٩٦).

وقد اختلف الباحثون في تحديد أول من أظهر مذهب مرجئة الفقهاء على أقوال، فقيل هو: ذر بن عبد الله الهمداني : وهو تابعي متعبد توفي في نهاية القرن الأول، قال إسحاق بن إبراهيم : « قلت لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد -: أول من تكلم في الإيمان من هو؟ قال: يقولون: أول من تكلم فيه ذر » (مسائل الإمام أحمد لإسحاق بن إبراهيم (٢ / ١٦٢)؛ قال سلمة بن كهيل : « وصف ذر الإرجاء و هو أول من تكلم فيه، ثم قال أني أخاف أن يتخذ هذا دينا ، فلما أتته الكتب في الآفاق ، قال: فسمعته يقول : وهل أمر غير هذا » (السنة لعبد الله بن أحمد ، ص٨١).

وقيل أن أول من قال بالإرجاء حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة وتلميذ إبراهيم النخعي ، قال معمر كنا نأتي أبا إسحاق ، فيقول: من أين جئتم ؟ فنقول: من عند حماد ، فيقول: ما قال لكم أخو المرجئة ؟!! وعن أبي هاشم قال أتيت حماد بن أبي سليمان ، فقلت: ما هذا الرأي الذي أحدثت ولم يكن على عهد إبراهيم النخعي ؟ فقال: لو كان حيا لتابعني عليه يعني الإرجاء ». وقيل أول من أنشأ القول بالإرجاء قيس الماصر : فقد نقل الحافظ ذلك عن الأوزاعي ؛ قال: أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل الكوفة يقال له: قيس الماصر . تهذيب التهذيب ٤٩٠/٧. وقيل سالم الأفطس : فعن معقل بن عبيدالله الجزرى العبسي قال: « قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء، فعرضه فنفر منه أصحابنا نفارا شديدا، و كان

أشدهم ميمون بن مهران و عبد الكريم بن مالك ، فأما عبد الكريم فإنه عاهد الله لا يأويه و إياه سقف بيت إلا في المسجد.

مؤسس مذهب مرجئة المتكلمين : هو الجهم بن صفوان: كان رجلا من أهل الأهواء لم يجالس عالما قط، ولم يعرف بطلب العلم، وإنما جالس أهل الأهواء وفي مقدمتهم الجعد بن درهم الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري لزندقته ونفيه صفات الله سبحانه، وكان الجهم مع جهله خصما مجادلا، التقى جماعة من زنادقة الهند يقال لهم: « السمنية » فسألوه عن مصدر المعرفة وكانوا لا يؤمنون إلا بالمحسوس، فقالوا له: صف لنا ربك هذا الذى تعبده يا جهم ، و بأي حاسة أدركته من الحواس، أرايته أم لمسته - أم ... الخ ؟! فمكث فترة لا يجيبهم، ثم اخترع قولا في الله أجابهم به، فقال : « هو هذا الهواء مع كل شئ وفي كل شئ و لا يخلو من شئ » (الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص٦٥). ولم يكن لأقوال جهم في حياته ولا بعد وفاته قبول، بل عاش مطاردا مطلوبا من ولاة الأمر حتى قتله سلم بن أحوز عامل نصر بن سيار على مرو، وقال له: « يا جهم ! إني لست أقتلك لأنك قاتلتني، أنت عندي أحقر من ذلك، ولكني سمعتك تتكلم بكلام باطل أعطيت لله عهدا أن لا أملك إلا قتلك فقتله » ا.هـ من فتح الباري (٣٤٦/١٣) .

وتلقف أقوال جهم من بعده - سواء في الصفات أو في الإيمان - بشر المريسي شيخ المعتزلة، جاء في ترجمة بشر في البداية والنهاية : « حكي عنه أقوال شنيعة وكان مرجئيا، وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول : أن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة للكفر »

وممن تلقف مذهب جهم في الإيمان ابن كلاب أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان رأس المتكلمين بالبصرة، والإمام أبو الحسن الأشعري ، وهذان هما اللذان نشرا مذهب جهم في الإيمان، قال الإيجي في المواقف بعد أن ذكر معنى الإيمان في اللغة : « وأما في الشرع .. فهو عندنا وعليه أكثر الأئمة كالقاضي والأستاذ : التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة، وتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا » فالإيمان عند الأشعرية لا يتعدى تصديق القلب من غير إقرار لسان ولا عمل جوارح.

ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي لما عرف باسم المرجئة نستطيع أن نتبين لماذا يرفض السلفية المعتدلة التي تدعوا إلى إرجاء مقاومة المحتل إطلاق لفظ المرجئة عليهم لأنهم كما يقولون فئة ضالة وإن إشاعة هذا الوصف وإلصاق كلمة المرجئة بهم إنما هو من فعل أعدائهم

سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الخامس

أرض النار



١ - الضلوعية

فيما كان الرحالة المشهور فرديناد ماجلان يقترب من الرأس الجنوبي لجنوب أمريكا وذلك في أول رحله له حول العالم سنه ١٥٢٠, وفيما هو يجتاز الجزر القريبة من رأس هورن بدت لناظريه نيران كثيرة مشتعلة على الشاطئ ونيران أضرمها سكان تلك النواحي وترك هذا المشهد أثراً كبيراً في نفسه .. أطلق على تلك الجزر اسم تيرا ديل فويغو أي ارض النار إلا أن هذا الاسم لايعبر عن واقع حال تلك المنطقة فالمنطقة شديدة البروده هناك فهى أرخبيل في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية بالمحيط الهادي مساحته ٧٧,٠٠٠ كم مربعة ويقطنه حوالي ١٣,٠٠٠ ن مقسَم بين الأرجنتين وتشيلي ويفصلهما مضيق ماجلان.

أما أرض النار العراقية فكانت سخونتها أشد وطأة من النار على العراقيين .. مدنيون أبرياء دفعهم كرمهم ونخوتهم إلى فتح الأحضان للمقاتلين ضد الاحتلال من العراقيين والعرب ثم دفعتهم نخوتهم إلى الانقلاب على هذا الهراء الذى أحرق الأخضر واليابس ووقفوا بالمرصاد ضد من أحال حياتهم جحيما حتى تمكنوا من طرد تنظيم القاعدة من منطقتهم وكانوا نيرانا أحرقت شرارتها التنظيم الذى بدأ يتراجع على كافة المستويات حتى تلاشى أو كاد .. كما كانت نارا على الأمريكيين فكبدتهم أكبر خسائر يمنى بها الجيش الأمريكى على مدى سنوات بقائه بالعراق التى بدأت ربيع ٢٠٠٣ .. الضلوعية مدينة عراقية صغيرة تقع على بعد ٩٠ كم إلى الشمال من العاصمة بغداد، على الضفة الشرقية من نهر دجلة، يبلغ عدد سكانها حوالي ٦٢ ألف نسمة، وهي كوحدة إدارية ناحية تتبع قضاء بلد في محافظة صلاح الدين ذات الأغلبية السنية .

الضلوعية نسبة إلى الضلوع، وهي جمع ضلع، سميت بذلك لأن أول من سكنها نظر إلى جغرافيتها فوجد نهر دجلة يحيط بها من ثلاث جهات (الجنوب والشرق والغرب) فقال : هذه الأرض كالقلب بين الضلوع، يحرسها دجلة من ثلاث جهات أما الجهة الرابعة (الشمال) فهي أرض مفتوحة ولكن حسبنا عشرة مقاتلين لحراستها، ومن هنا اشتق اسمها (الضلوعية) حيث اليابسة بمنزلة القلب، ومنحنيات نهر دجلة كالقفص الصدري الذي يحويه.. تتبع للضلوعية بعض الضواحي، أبرزها ضاحيتان جميلتان هما حويجة الضلوعية، التي يحيط بها نهر دجلة من جميع الجهات، وتظهر وكأنها جزيرة سابحة في الماء .. والضاحية الثانية بيشكان ومعناها باللغة الكردية رأس النبع، حيث تلتقي عندها بعض روافد

نهر دجلة .

وقد سميت بهذا الاسم كون نهر دجلة يحيط بها من ثلاث جهاتٍ وكأنها قلب بين الضلوع، مدينة زراعية لم يقتل بها إنسان منذ العام ١٩٨٨ حتى مرت القاعدة فيها، وتضم أكثر من ٦٠٠ ضابط في شتى الصنوف .

منذ عام ١٩٨٨ وحتى عام ٢٠٠٣ لم تسجل جريمة قتلٍ واحدة في منطقة الضلوعية، المدينة العراقية الهادئة التي يسكنها خليط من البشر المتجانس شديد الوعى والكرم والشجاعة ولم تكن تعرف من التدين إلا معاني الرحمة والسلام والمحبة، ولكن في زمن المذبحة حملت هذه المدينة المسالمة لقب «أرض النار» وتحولت إلى واحدة من أهم معاقل تنظيم القاعدة في العراق .

٢ - قميص الطريق

لا يوجد طريق بالعراق مفروش بالحكايات والمفاجآت والمخاطر أكثر من الطريق إلى الضلوعية حتى أن العابرين فى هذا الطريق كانوا يضطرون إلى استبدال قميصهم عدة مرات خاصة فى تلك الأيام التى توافق مناسبات دينية لدى الشيعة بسبب انقسام هذا الطريق إلى عدة مناطق شيعية واخرى سنية متداخلة وهو ما يعنى أنه منطقة نفوذ لكل فرق الموت من الميليشيات الشيعية أو المجموعات المسلحة السنية .

عندما بدأنا رحلتنا الخطرة إلى أرض النار كان مرافقى « شعلان العود » رئيس القسم العربى بوكالة أنباء الصين « شينخوا، وهو ينتمى إلى أكبر عشائر الضلوعية « الجبور » قد ألقى على مسامعى نصيحة هامة وهى عدم التكلف فى المظهر وعدم الحديث عند نقاط التفتيش أو إظهار أى هوية « كارنيه» إلا عند الإلحاح من قبل الطالب .. وبعد أن نطقنا الشهادتين أشار إلى طريق يقع على يسار اتجاهنا هو الخط السريع المؤدى إلى مناطق محافظة الأنبار غربى العاصمة بغداد وأولها منطقة أبو غريب التى تضم السجن الشهير الذى شهد جرائم المجندين والمجندات الأمريكان ضد المعتقلين العراقيين فى بداية الاحتلال .. أما الطريق الآخر وهو الذى سلكناه لنصل إلى مقصدنا فهو يؤدى إلى محافظات شمال بغداد وكان ساحة لمعارك ضارية كبدت الأمريكيين خسائر فادحة مادية وبشرية .

مررنا عبر هذا الطريق بعدة مناطق تحمل الكثير من الحكايات والصور .. فهذا مسجد « أم القرى » الذى أصبح مقرا رئيسيا لهيئة علماء المسلمين أكبر مرجعية للعرب السنة وتسبب رفض قادتها وعلى رأسهم الشيخ حارث الضارى المشاركة فى العملية السياسية إلى حظرها واتهامها بدعم الإرهاب وكان يسمى قبل إنهيار

النظام السابق « أم المعارك» حيث بناه صدام حسين على أطلال مزرعة اختبأ فيها إبان حرب الكويت عام ١٩٩١ .. خلف هذا المسجد تقع منطقة الغزالية وهى أحد معاقل القاعدة فى بغداد ومقر القيادى السنى البارز الدكتور عدنان الدليمى رئيس مؤتمر أهل العراق وجبهة التوافق أكبر تكتل للعرب السنة شارك فى العملية السياسية وكانت مسرحا لأعمال عنف طائفى مروعة قبل أن يتم توجيه الاتهام إلى نجل الدليمى بارتكاب أعمال إرهابية ووضع الرجل المسن / ٨٣ عاما/ قيد الإقامة الجبرية فى فندق الرشيد المحصن داخل المنطقة الخضراء حتى غادر العراق نهائيا .

يروى صديقى شعلان أنه عندما كان يعبر هذا الطريق باتجاه مقر اقامة عائلته بالضلوعية كان يتحتم عليه مراعاة لون الملابس التى يرتديها خاصة فى أوقات المناسبات الدينية خاصة شهر محرم [(١)] ففى تلك المناطق السنية يلبس قميصا ملونا إلا أنه يضطر لاستبداله عندما يعبر المناطق الشيعية بقميص آخر أسود .. وربما كان لون القميص إذا غفل صاحبه سبباً فى الموت سواء على أيدى عناصر القاعدة أو ميليشيا جيش المهدى .

نمر عبر منطقة أطراف سبع البور وهى ذات غالبية شيعية تداهمنا مساحة شاسعة من الأرض محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة تضم بعض المبانى المتواضعة يقول مرافقى أن عدى صدام حسين كان يجهزها لإقامة مدينة رياضية كبيرة إلا أن المشروع انهار بعد سقوط نظام صدام واستولى عليها مواطنون ليس لهم سكن ضمن ما عرف باسم الحواسم التى استحل خلالها العراقيون المحرومون أملاك الدولة وأموالها بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد فى ٩ إبريل ٢٠٠٩ والتى كانت تقف متفرجة على ما يجرى دون أن تحرك ساكنا .. نمر عبر تلك المنطقة التى تتبع إداريا ناحية التاجى التى تمثل نهاية حدود العاصمة بغداد حيث يوجد مسجد كبير يسمى « البتول» وكان مقرا لفرقة حزبية تابعة للبعث.

يقول مرافقى شعلان الجبورى أن خطورة هذا الطريق تكمن فى أن جانبه الأيمن يخضع لنفوذ تنظيم القاعدة بينما يسيطر جيش المهدى الميليشيات الشيعية على جانبه الأيسر وهو بداية الطريق الدولى الرابط بين العراق وتركيا حيث تنتشر محطات الموت على جوانبه ممثلة فى نقاط تفتيش وهمية تديرها الميليشيات

(١) هذا الشهر من أشد الشهور وطأة على العراقيين حيث تحل فيه ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام مع أخيه غير الشقيق العباس بن علي بن أبي طالب وهي الذكرى الأكثر تقديسًا وألمًا لدى الشيعة .

تساعدها نقاط تفتيش رسمية مرتبطة بشكل أو بآخر بفرق الموت خاصة جيش المهدى الذى تنتهى دائرة نفوذه عند منطقة الطارمية ليبدأ نفوذ تنظيم القاعدة بشكل كامل .. كان هذا الطريق يخضع فى معظم الأوقات للإغلاق من جانب القوات الأمريكية مما يضطر العابرين إلى السير فى طريق فرعى عبر بساتين وجداول كان معبرا لسكة قطار بغداد – الموصل وهو طريق مهجور يتخذه عناصر تنظيم القاعدة ملاذا آمنا يتلقفون فيه العابرين أمام سمع وبصر القوات الأمريكية التى تغلق الطريق الرئيسى وهو ما جعل الناس يعتقدون بشكل لا يقبل الشك أن هناك ثمة تواطؤ .

دلفنا إلى منطقة المشاهدة عبر بستان رائع الخضرة والنضارة يحكى إحدى قصص التظلم التى تؤشر إلى عهد محسوب على الطائفة السنية .. حيث كان ذلك البستان المثمر محط أنظار الناس لدرجة أثارت طمع مدير المخابرات العراقية الأسبق فاضل طلفيح الذى كان قد تولى منصب محافظ صلاح الدين وتتبعه المنطقة إداريا فى ذلك الوقت وعندما حلت لعنة الطمع كان ثمنها رأس مالك الأرض الذى لم يتجاوز عمره حينها ١٦ عاما بعد تلفيق تهمة جزاؤها الإعدام وهى التآمر على قلب نظام الحكم الذى لم يكن الفتى يعلم معناها.

غادرنا المشاهدة السنية لنصل إلى الدجيل الشيعية التى أصبحت عنوانا لمحاكمة العصر بعد أن دارت دورة الزمان وأصبح المحكومون حكاما حيث صدر الحكم بإعدام صدام حسين بتهمة قتل ١٤٨ شخصا من أهالى تلك المدينة البائسة عندما تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة الثامن من يوليو عام ١٩٨٢ وكان أبطالها من أبناء المدينة الذين وجهت لهم تهمة الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية الذى حكم اثنان من زعماء العراق بعد الاحتلال الأمريكى وهم الدكتور إبراهيم الجعفرى ونورى المالكى .. ويروى شعلان العود الجبورى أن تلك المدينة التى عانت بسبب وضعها ضمن دائرة شكوك نظام صدام حسين وتم تجريف أراضيها لم تشهد أى أعمال عنف طائفى أو حوادث انتقامية بين أغلبيتها الشيعية وأقليتها السنية رغم ما جرى من فواجع فى زمن المذبحة بعد أن أفشل شيوخها محاولات قائد العمليات فيها عندما حاول إذكاء العنف الطائفى مستغلا قضية الدجيل التى كان يحاكم فيها صدام حسين وأعوانه .. حيث طلبوا نقل هذا القائد الطائفى وحافظوا على العرف العشائرى حتى أن أهل الضلوعية السنة كانوا يشيدون دائما بأخلاق أهل الدجيل الشيعة الذين حافظوا عليهم سواء كانوا عابرين لطريق بلدهم أو موظفين فيها .

وتعد الدجيل تاريخيا من المناطق الزراعية المعروفة في العصر العباسي وفي اوائل محرم من عام ٦٥٦ هجريا عام ١٢٥٨ ميلاديا شهدت الدجيل اشتباك جيوش الدولة العباسية بالجيش المغولي وانتهت المعركة بتحطيم الجيش العباسي وتقدم هولاكو بالجيش المغولي المؤلف من مائتي ألف محارب إلى بغداد .

وسكان الدجيل من قبيلة الخزرج الذين يتفرعون من خمسة بطون اعتنق عدد منها المذهب الشيعي وهي البطون التي نزحت فيما بعد إلى الكاظمية والنجف والناصرية والسماوة.

والدجيل بستان كبير لكنها مدينة صغيرة وعلى الرغم من أن الاراضي الزراعية تحيط بها من كل جانب فان بيوتها ليست كبيوت القرى ويشقها نهر صغير يطلق عليه تسمية « مشروع الدجيل » وتكثر فيها اشجار الحمضيات بكل انواعها والكروم والنخيل غير أن صدام اقدم على تجريفها وحولها فيما بعد إلى ارض قاحلة بعد تعرض موكبه إلى اطلاق نار اثناء مسيره في احد شوارع البلدة

يواجهك على طول الطريق من الدجيل إلى منطقة بلد الشيعية اللافتات السوداء التى كتب عليها شعارات شيعية صرف تعلن عن أسماء مواكب الزوار الشيعة العابرين إلى قضاء « بلد» حيث مرقد « سيد محمد» ابن الإمام على الهادى وهو أحد المزارات الشيعية الهامة بالعراق أو باتجاه سامراء حيث مرقد الإمامين العسكريين / الإمام على الهادى والحسن العسكرى وهما الإمامان العاشر والحادى عشر لدى الشيعة الجعفرية / .. فهذه لافتة تشير إلى مرقد الصحابى الجليل مالك بن الأشتر وهذه لافتة تشير إلى موكب قطيع الكفين وموكب خادم الإمامين العسكريين وهذه لافتة تشير إلى حسينية أنصار الرسول وغيرها تشير إلى موكب أم البنين .

٣ - البوزرواحد

وصلنا بعد ذلك إلى منطقة محطة بلد المؤدية إلى مدينة بلد الشيعية التى خضعت لسيطرة الميليشيات وشهدت أعمال عنف دموية مروعة ذات طابع طائفى أشعلتها مواقف يرى أهلها أنها من صنع جهات شديدة التنظيم تعرف هدفها جيدا وتجيد استغلال المواقف لإشعال الفتنة التى استجاب لها الجهلاء للأسف حتى باتت من المناطق المحرمة التى لم تنعم بالأمن على مدى سنوات المذبحة .. ثم دلفنا إلى طريق فرعى يؤدى إلى مقصدنا « الضلوعية » داهمنى فى بدايته مشهد لأحد الجسور «كوبرى» كان يختصر الطريق قال الأمريكيون أن شاحنة مفخخة

دمرته إلا أن من شهد تلك الفترة يؤكد أنه تم تفجيره من خلال قصف جوى أمريكى حيث أدى هذا التفجير وانهيار الجسر إلى تشكيل منطقة تعد من أسوأ مصائد الموت حيث كان السنة يضطرون بعد انهيار الجسر إلى عبور قنطرة فوق أحد فروع نهر الإسحاقى عبر « بلد» لتتصيدهم الميليشيات الشيعية الطائفية أو يعبرون طريقا آخر به نقطة تفتيش حكومية فى منطقة نفوذ لتنظيم القاعدة .. وتجاور « بلد »الشيعية بلدة تسمى تل الذهب توجد بها نقطة التفتيش القاتلة التى تسمى « نقطة ١٤ » .. ويقول شعلان: (فى هذا المفترق من الطرق يجب أن تختار بين الموت والموت السريع حيث تجرى سلسلة حسابات لمعدل الخطورة واحتمالاتها فإما المرور عبر « بلد » الشيعية حيث ميليشيا جيش المهدى أو نقطة « قناة ١٤ » حيث تنظيم القاعدة) وهو ما جعل أهالى المنطقة يقولون دائما فى إشارة إلى أن جهات متعاونة تدير المذبحة بقول « البوزر واحد» والبوزر هو مضخة البنزين التى تعبأ بها السيارة من المحطة وتعنى أن الجهة أو الجهات التى تدير عمليات تنظيم القاعدة هى نفس الجهة أو الجهات التى تدير عمليات جيش المهدى وتمولها.

وصلنا إلى منطقة بنى سعد وهى منطقة مختلطة من السنة والشيعة كانت نقطة التواصل بين بلد الشيعية والضلوعية السنية حيث كان سكانها من الطائفة السنية يقومون بقضاء مصالح أهل بلد التى يحتاجون إليها فى الضلوعية بينما يقوم أهلها من الطائفة الشيعية بقضاء مصالح أهل الضلوعية التى يحتاجونها فى بلد حيث كانت المناطق جرى تقسيمها طائفيا فى زمن المذبحة وصارت محرمة إلا على من ينتمى لطائفتها .. ثم عبرنا جسر الضلوعية فوق نهر دجلة لندخل حويجة الضلوعية وتبدأ البساتين لتشكل بحرا من الخضرة التى تروى حكايات المجد والدم بالظهور لترسم مشهداً معقداً من الجمال والرعب والرهبة والأمل والرخاء والبؤس والحياة والموت إيذانا بوصولنا إلى « أرض النار» وتحديدا فى حى الجبور الذى لا تزيد مساحته على ثلاثة كيلومترات إلا أن كل شارع فيه يحتفظ بتاريخ وتروى كل زاوية قصة بطولة أو انكسار لتبدأ الروايات التى لا تنتهى عن أحداث هزت العراق ورسمت بعض معالم زمن المذبحة .. أين كانت البداية .. كيف استمرت الحكاية .. من أطلق صافرة النهاية .. هذا ما سوف تفسره الصفحات القادمة .

٤ - سيباط كمال

يقول كمال الذى يمارس الكتابة كوسيلة للتطهير غير طامح فى أن يسبق

اسمه لقب الكاتب أو الأديب .. يسجر التنور بأجساد الرعية وأرواح من بقى على قيد الحياة وتطحن الرحى نفسها وتصيح هل من مزيد ؟ .. تعددت الأسباب والقاتل واحد ..فهذا مات لأنه تعثر بجثة رفيقه فى ساحة الحرب التى لا يعرف لماذا اشتعلت .. وذلك مات لأنه قال هذا ظلم لماذا يقتل لأنه تعثر ؟ .. والآخر مات لأنه شاهد على قول الثانى ولم ينقله بأمانة وسرعة لحاشية الوالي .. ومات آخر كمدا حين علم بهذه الحادثة .. هذه أحدث طريقة لقتل الشعوب ووأد ثوراتها ليرحل الجميع تاركين وراءهم أطنانا من الأمانى تعصف بها الريح .. فتدق الطبول .. كل يوم فى بلادى تدق للحرب طبول .. ومن يموت غير صاحب الحياء ؟ .. يبقى فقط الصلف وحفار القبور .

فى هذا المكان « السيباط أو المضيف» تجتمع الضلوعية بكل مكوناتها وأفكارها وانتماءاتها .. كان ملاذا للمجاهدين الحقيقيين وغير الحقيقيين .. من حمل السلاح ضد الأمريكيين ومن عمل معهم طلبا لراتب مجز .. من قاتل دفاعا عن الوطن ضد الاحتلال ومن قاتل تنفيذا لأجندة خارجية .. من وجه سلاحه وقنابله ضد المحتل ومن وجه سلاحه وقذائفه ضد أهل العراق الطيبين .. من بين جوانبه انطلقت عمليات هددت الوجود الأمريكى بالعراق واليه لجأ رجال المقاومة بعد انتهاء مهمة لهم كبدوا فيها الأمريكيين خسائر فادحة .. على بساطه البسيط جلس المقاوم للاحتلال والمتعاون معه .. كان صاحبه « كمال» من أوائل المجاهرين بعدائهم للقاعدة والمقاتلين العرب الذين أحرقوا البلاد ووجهوا فوهات بنادقهم إلى صدور أهل الضلوعية الطيبين بعد أن تحولت من بساتين الخضرة والجمال إلى أرض النار .

يروى كمال كيف تحولت الضلوعية إلى جذوة مشتعلة من المقاومة مع احتلال بغداد فى ٩ أبريل عام ٢٠٠٣ حيث كانت المدينة بين تيارين بعثي وإسلامي من أبناء المساجد، ومن كلا التيارين خرج من يحمل فكر التغيير عن طريق السلاح ضد القوات الأمريكية .. كانت الضلوعية صغيرة المساحة كبيرة التأثير تحتضن ذوى التوجه إسلامي ، وأيضاً كانت معقلاً من معاقل حزب البعث بها مقرات للحزب وفيها عسكريون أيضاً دخلوا حزب البعث بحكم الوظيفة العسكرية، وعندما دخل الأمريكيون حصل نفير من الإسلاميين من جهة ونفير من قبل البعثيين من جهة أخرى حمل البعثيون السلاح وحمل الإسلاميون الذين كانوا في المساجد بشكل أساسي أو التيارات السلفية السلاح لأن القضية باتت قضية مقاومة الاحتلال وليس أى شيىء آخر فلا وجود لمسميات ولا وجود لقادة ولا وجود لخطط

ولا وجود لتنظيمات خارجية مثل القاعدة وإنما كان الهدف هو مقاومة الاحتلال باعتباره حق مشروع .

ويتول كمال أن عمليات المقاومة كانت تتم بشكل فردى أو على شكل مجموعات صغيرة لا يتجاوز عدد أعضائها الخمسة أفراد يعملون على توفير السلاح من مالهم الخاص بل كان بعض الموظفين يقترضون بضمان راتبهم لشراء أسلحة ومتفجرات وهى متوافرة لاستخدامها فى عمليات ضد القوات الأمريكية التى تواجدت بكثافة بعد عملية « شبه الجزيرة » التى كانت أكبر عملية عسكرية تنفذها القوات الأمريكية بعد الإعلان رسميا من جانب الرئيس الأمريكى جورج بوش بانتهاء العمليات العسكرية ونجاح احتلال العراق .

ويؤكد أنه لم يكن للقاعدة أي تواجد على مدى سنة الاحتلال الأولى حتى بدأ فكر القاعدة يدخل إلى المدينة عندما بايع أبو الحارث واثق عبد الله لطيف الجبوري أمير القاعدة في العراق أبو مصعب الزرقاوي، وأبا الحارث شاب عمره ٢٥ سنة وهو شقيق الناطق باسم دولة العراق الإسلامية محارب الجبوري الذى تعددت الروايات حول مقتله وبعد البيعة أصبحت الضلوعية أهم معقل من معاقل القاعدة وفيها تم تشكيل مجلس شورى المجاهدين بحضور أبي مصعب الزرقاوي عام ٢٠٠٥ وأبي علاء تلعفر ومحارب الجبوري وملا ناظم الجبوري وأبي عبد الله قائد المجلس في الأنبار، وبتلك البيعة كان الدخول الثاني لأبي مصعب للضلوعية.

ويكشف كمال عن أن أهل الضلوعية كانوا بين فكى كماشة إما الانتماء إلى الجيش الإسلامى أو القاعدة حيث كان الجيش الإسلامى الذى يقوده مؤيد متعب سالم ينتمى إلى أحد أفخاذ عشيرة الجبور المعروفين تاريخياً بجلب الأفكار الجديدة وتبنى كل فكر يسود بالعراق أو خارجه بما فيها الفكر اليسارى بينما كان أحد الأفخاذ الأخرى للجبور وهو فخذ محمد العبد الله يقود عمليات الجهاد ضد الاحتلال فى إطار عمليات مقاومة حقيقية تستهدف القوات الأمريكية فقط وقد رفض هذا الفخذ الا نضمام إلى الجيش الإسلامى فصار بالنتيجة مع القاعدة الذين كان يطلق عليهم قبل دخول التنظيم اسم « التوحيد والجهاد»، وكان ينتمى لهم محارب الجبورى الذى تولى فيما بعد منصب وزير إعلام الدولة الإسلامية والمتحدث باسمها.

كان سيباط كمال « المضيف» مركزا لتجمع عناصر المقاومة وأحد مخازن الأسلحة وأحد أهم المخابىء التى تخطئها عين القوات الأمريكية حيث كان كمال يعمد إلى استقطاب العاملين مع الأمريكان من العراقيين سواء المترجمين أو

العمال داخل المعسكرات الذين صاروا فيما بعد هدفا مفضلا لمقاتلى القاعدة حيث كان يطلق على المضيف اسم « سيباط العملاء» وكان صاحبه يسعد بذلك لإبعاد الشبهة عن المقاومين الحقيقيين الذين كانوا يلجأون غالبا إلى المضيف بعد تنفيذ عملياتهم عندما كانت تلك العمليات بمثابة فرصة للثواب والأجر .

ويقول كمال أنه عايش عدداً كبيراً من المجاهدين الحقيقيين سواء العراقيين أو العرب الذين كان غالبهم سعوديون يمارسون الجهاد ولا يتقبلون أى دعم ويعيشون حياة الزهد بل أن أحدهم دفع حوالى ٥٠ ألف دولار حتى يتمكن من الدخول إلى العراق والجهاد فى صفوف المقاومة ضد الاحتلال .. وكان يطلق على أحدهم لقب بن لادن ويدعى عبد الله إبراهيم أجدع كان يتميز بعزيمة وغيرة وقوة فى المنطق وكان طعامه الخبز والبصل المشوى ويفترش الأرض وعندما تشتد قسوة البرد يلف جسده بفرش بسيط من هذا الفراش المتواضع الذى ينام عليه البسطاء فى الريف .

ويروى كمال كيف تحولت المقاومة من جهاد ضد قوات الاحتلال إلى قتل منظم لأهل المنطقة لأى سبب إما عدم دعم المجاهدين أو العمالة للاحتلال بسبب لجوء بعض الأهالى إلى العمل فى معسكرات القوات الأمريكية أو كمقاولين بهدف تحسين ظروفهم المعيشية أو العمل مع الدولة فى قوات الجيش والشرطة وذلك كان فى عام ٢٠٠٥ عندما ازداد تدفق المقاتلين العرب على الضلوعية باعتبارها مركزا رئيسيا لتجمعهم وعملياتهم بعد أن زار المنطقة أبو أنس الشامي، واطلع على تفاصيل المدينة، فاتخذها معقلا للأجانب بجنسيات عدة، فكانت المنطقة العسكرية للتنظيم تمتد من شرق المدينة إلى حدود محافظة ديالي، ومن ثم شمالا حتى كركوك تحت إمرة محسن كبير أبو عبيدة المغربي، وهو من مراكش، وكان المفتي الشرعي للتنظيم وكان القائد العسكري الدكتور نجم النعيمي أبو صفا، وهو من أهالي الأعظمية، وبعد ذلك اتخذت القاعدة من المنطقة مقرا رئيسيا لتدريب المقاتلين؛ حيث منطقة نهر العظيم التي تضم معسكرات التدريب الرسمية للمقاتلين الجدد من العراقيين والعرب الوافدين للقتال في بلاد الرافدين، وكان المعسكر تحت إمرة أبو عبد الكريم المصري، وأبو إسحاق التونسي.

ويقول كمال أنه حاول بما لديه من قوة أن يوجه النصح إلى هؤلاء المقاتلين الذين باتوا مصدر ضيق وقلق لأهل الضلوعية الذين احتضنوهم فى البداية ووفروا لهم الملاذات الآمنة إلا أن النصائح ذهبت أدراج الرياح وبدا للجميع أن الجهاد صار عنوانا وهميا وأن ما يجرى على الأرض من عمليات اختطاف وقتل بعيدة كل البعد عن الإسلام والمقاومة والجهاد وغير ذلك من العناوين الشريفة التى دخل

بها هؤلاء المقاتلون إلى البساتين التى أحالوها جحيما وصارت عملياتهم مثار انتقاد وغضب من الأهالى بعد أن كانت نساء المدينة يطلقن الزغاريد فرحا بهجماتهم ضد القوات الأمريكية .

وكانت عمليات المقاتلين حتى تلك الموجهة ضد القوات الأمريكية لا تراعى مصالح أهالى المنطقة أو ما يمكن أن ينالهم جراء نيران الغضب الأمريكية بعد كل عملية وهو ما حدث ذات مرة عندما تمكن أحد هؤلاء المقاتلين من ضرب آلية أمريكية نوع همر ضمن رتل كان يعبر المنطقة وفر محتميا بالمضيف رغم تحذيرات كمال له بعدم مهاجمة الأمريكان فى مكان قريب ثم اللجوء إليه حتى لا يثير الريبة وينقد المقاتلون ملاذا آمنا ومخبأ جيدا .. وساعده كمال على الهرب واستغلها فرصة لإحراق المضيف فى دقائق قليلة معللا ذلك لدورية أمريكية تتبعت المهاجم بأن الحريق ناتج عن محاولة لإيقاد بعض الأخشاب بغرض التدفئة إلا أن نيرانها طالت المضيف المصنوع من البوص وبقايا الأشجار فالتهمته .

٥ - حريق النهر

كما احترق مضيف كمال بسبب أحد ضيوفه احترقت الضلوعية بأفعال من ضيفتهم ووفرت لهم الملاذ الآمن فتارة أحرقتها التفجيرات والمعارك من جانب القاعدة وتارة أخرى أحرقتها الطائرات الأمريكية وقنابلها بهدف الإبادة المنظمة لتلك البساتين الكثيفة التى مثلت مخابىء مثالية ومقرات آمنة للمقاتلين .

كانت الضلوعية تبدو مثل نهر من الخضرة معلق على جوانب نهر دجلة حيث تمتد بساتين البرتقال والحمضيات والتوت فى مشهد رائع قلما تجد له نظيرا فى العالم .. ويبدو أن كثافة بساتين تلك المنطقة ووعورة الطرق المؤدية منها وإليها أغرت قيادات المجموعات المسلحة سواء من تنظيم القاعدة أو الجيش الإسلامى على اتخاذها مقار لهم يمارسون فيها جرائمهم ويهربون عبر دروبها وقت الضرورة بالإضافة إلى تخزين أسلحتهم

بل أصبحت تلك البساتين مناطق آمنة لإقامة مصانع بدائية لصنع المتفجرات من الصواريخ والعبوات الناسفة تحت قيادة أمراء التنظيم حتى أن أمير تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى لم يترك المدينة، بل كانت المحطة المهمة في تنقله بين المناطق السنية الأخرى، وكان متواجداً في منطقة البوعواد الزراعية التي تقع بالقرب من نهر دجلة كما كانت الممرات المتواجدة بتلك المناطق الزراعية الكثيفة الخضرة يستخدمها مقاتلو القاعدة وقياداتها يدخلون

ويخرجون منها ويربطون بينها وبين معاقلهم الأخرى في المحافظات القريبة خاصة ديالى وباقى مناطق صلاح الدين والأنبار وغيرها من المناطق العراقية، وهو الطريق الذي استغله الزرقاوي أكثر من مرة في الدخول والخروج من المدينة قبل أن يلقى مصرعه في قرية هبهب التى تبعد حوالى ٥٠ كم شرق بغداد والتى لا يفصلها عن الضلوعية وبساتينها سوى عدة كيلومترات.

بعد أن أحكمت القاعدة سيطرتها على بساتين الضلوعية بدأت منذ العام ٢٠٠٦ عمليات التصفية الجسدية بحق كل من انتمى للجيش العراقي أو دوائر الدولة الأخرى وتم تصفية العشرات منهم جسديا وإلقاء جثثهم على قارعة الطريق كما تم اختطاف المئات منهم ولم يعودوا، ولم تكن القاعدة قد صبت غضبها على أهالي الضلوعية فحسب وإنما شملت التصفية الضيوف القادمين إليها بعد اشتداد قوتها وإعلان دولة العراق الإسلامية، وتولي المسؤولية الأمنية على المدينة المقاتلون الأجانب، وإعلان الضلوعية جزءاً من إمارة إسلامية تابعة لولاية صلاح الدين التي كانت بقيادة النعيمي.

وبدأت مرحلة جديدة في الضلوعية على يد القاعدة، إذا أمرت بإسقاط الأعلام العراقية التي ترمز لمعالم حكومة العراق حين كان أبو عبيدة المغربي « الجزائرى» القائد العام للمنطقة .

ولما رأى الأمريكيون قوة القاعدة في المنطقة أقاموا عند مدخلها الوحيد جداراً أسمنتياً عزل أهلها عن العالم لأكثر من شهرين، وأغلقوا جسرها بقطع كونكريتية « أسمنتية» للسيطرة على المدينة التي بدأت بتوريد عناصر القاعدة إلى المحافظات الأخرى، كما أزالت القوات الأمريكية مساحات شاسعة من بساتين الضلوعية التى احترقت بنارين نار الأمريكيين ونار القاعدة وتلون نهر الخضرة الفاتن بلون السواد ولم يتبقى من أشجاره سوى جذوع سوداء استمرت شاخصة لتروى ما فعلت القاعدة والاحتلال بنهر الخضرة والخير الذى استحالت أرضه إلى يباب وخراب وباتت مساحته الشاسعة مكانا غير صالح للعيش بعد الحريق وهذا ما شاهدته عندما زرت الضلوعية فى عام ٢٠٠٩ وتحدثت مع أصحاب تلك البساتين الذين استحالت فرحتهم إلى بؤس بسبب انهيار الزراعة التى كانت مصدر رزقهم الأساسى .

ويروى الشيخ دحام أحد وجهاء الضلوعية الذين شاركوا فى أول مجلس محلى بعد الاحتلال ونالهم من التهديد والوعيد الكثير إلا أن القدر شاء أن تبقى رؤوسهم فوق أجسادهم حتى الآن أنه عند تفجير مرقد الإمامين العسكريين / الإمام العاشر والحادى عشر لدى الشيعة الجعفرية/ في سامراء فى فبراير عام

٢٠٠٦ كان العشرات من عناصر القاعدة يخرجون لممارسة التصفية الطائفية عند منطقة البوصلبيي شرق الضلوعية، ولم يسلم أهالي المدينة من التصفية الجسدية تحت راية التكفير والردة والتجسس لصالح القوات الأمريكية أو العراقية.

وذلك رغم التأييد الواسع الذى حظيت به القاعدة والمقاتلين العرب والذى فاق بتية الفصائل المسلحة الموجودة في الساحة، بعد أن دخل واثق عبد الله لطيف هو شقيق محارب الجبوري الذى أصبح الناطق باسم دولة العراق الإسلامية « وزير الإعلام» في صفوف القاعدة حيث كان بينه وبين أبو مصعب الزرقاوي زعيم تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين لقاء وبيعة حقيقية على السمع والطاعة وكانت المناطق الواقعة شرق الضلوعية هي مناطق تواجد للقاعدة، وكان أبو مصعب الزرقاوي ينتقل إلى ديالي حيث جرى قتله من قبل القوات الأمريكية بقصف جوى منتصف عام ٢٠٠٦ عن طريق هذه المناطق، حيث كان يستقر في أحد المنازل شرق المدينة، ويروى الشيخ دحام أن قيادات كثيرة لصلاح الدين وأحد ولاة الموصل وشخص أيضاً سعودي «أبو الحارث السعودي» كانوا يتواجدون بالضلوعية ، وحضر من يمثل المدينة عسكرياً وهو أبو الحارث العراقي من الضلوعية، وجرت بينه وبين أبو مصعب الزرقاوي بيعة تم بموجبها إعلان إقامة خلية جديدة لتنظيم القاعدة تعمل في المدينة ثم توسعت إلى المناطق المحيطة، وباشرت أعمالها شأنها شأن بقية القواطع الأخرى.

وبعد البيعة صارت المدينة أكبر مأوى وحاضنة للمقاتلين الأجانب بعد أن فتحت الضلوعية صدرها لهم باعتبارهم يقاتلون المحتل وبدأت الجماعة تتوسع حتى أصبحت المدينة من أهم المناطق العسكرية للقاعدة رغم وجود ثلاث قواعد عسكرية للقوات الأمريكية تحيط بها.

وتوافد المقاتلون العرب بكثرة إلى المنطقة ..سعوديون من تبوك ومن الرياض ومن بيشم .. يمنيون من حضرموت وغيرها .. تونسيون ..جزائريون ..مصريون .. سوريون حيث زار المنطقة أبو أنس الشامي وبعد أن تعرف على تضاريسها اتخذها معقلاً للأجانب بجنسيات عدة،.

ويقول محمد « أبو الجيس» الذى عمل لفترات ضمن صفوف المقاومة أنه بعد تعرض المقاتلين المتواجدين فى مناطق سامراء التى تبعد حوالى ٣٠ كم شمال الضلوعية لضغوط كان من الواجب البحث عن مدينة أخرى أو بيئة أخرى تحتضن هؤلاء المقاتلين ، فبحثت القاعدة عن منطقة بديلة جغرافياً تأويهم، لا تشاهدها الأنظار ولا تقترب منها قوات حكومية أو غير ذلك مما يشكل تهديدا للمقاتلين المنتمين للقاعدة توفر بيئة ملائمة لاحتضانهم وإخفائهم.

ولهذا اتخذت القاعدة المنطقة مقراً رئيسياً لتدريب المقاتلين حيث منطقة نهر العظيم التي تضم معسكرات التدريب الرسمية للمقاتلين الجدد من العراقيين أو العرب الوافدين للقتال في بلاد الرافدين، وكان المعسكر تحت إمرة أبي عبد الكريم المصري وأبي إسحاق التونسي.

كما كانت هنا معاقل لكثير من قيادات القاعدة، ومراكز لتدريبها، ومنطلق لشن هجماتها، وأصبحت المنطقة خطا رئيسيا يربط صلاح الدين بديالى وكركوك والموصل، و كانت القاعدة تتنقل وتتحرك لشن هجماتها إلى المحافظات الأخرى وهو ما أدى إلى هجرة معظم أصحاب الأراضى بعد أن استحلتها القاعدة وارتكبت أبشع الجرائم بحق من احتضنها وساعدها من أهالى تلك المناطق .. فيما أدت الهجمات الأمريكية ضد عناصر التنظيم بمشاركة قوات الشرطة والجيش وعناصر الصحوة إلى إحراق نهر الخضرة الذى كان يمتد لمئات الأفدنة.

٦ - الدولة والإمارة

انحصر الصراع فى ثنائية الدولة العراقية المنهارة والإمارة الإسلامية الناشئة الفتية بعد أن أعلن تنظيم القاعدة دولة العراق الإسلامية التى صار لها قانونها الخاص وقادتها وعناصرها ليحلوا محل الدولة الرسمية تحت سمع وبصر قوات الاحتلال الأمريكى .. حيث يؤكد المقدم محمد خالد عبد الحميد قائد شرطة الضلوعية أن القاعدة في أثناء سيطرتها على المنطقة قامت بتدمير كافة الدوائر العائدة للشرطة منها مديرية الشرطة التى تقع فى منطقة الجبور وتم تفجيرها، كما تم تفجير مراكز الشرطة وسلب الأسلحة والتجهيزات الموجودة فيها وكانت القاعدة لا ترغب فى وجود أي مظهر من مظاهر الدولة في المنطقة، حيث كل عنصر يستطيع أن يقول فلان لديه موظف يقومون بخطفه وتصفيته فوراً ، وأصبحت المنطقة خالية من العسكريين ومن عناصر الشرطة وتوقف عمل الشرطة في منطقة الضلوعية ناحية الجبور تحديداً نهائيا .

كما جرى تحريم أي مَعلم من معالم دولة نورى المالكي التى تعتبرها القاعدة حكومة الاحتلال سواءً رفع العلم العراقي أو التواجد في دوائر الحكومة أو ارتداء الزي العسكري سواءً في الشرطة أو الجيش العراقي أو غيرها وكل ما من شأنه أن يعطي إشارة إلى أن هذا الشخص هو جزء من الدولة كان يتوجب عليه إما أن يتوب ويسلم سلاحه وإما أن يذوق ما ذاقه غيره من المدنيين الذين قتلوا أو اختفوا بعد اختطافهم .

ويوضح قائد شرطة الضلوعية الأمر لى قائلا : أنه عندما تم استحداث جهاز

الشرطة بعد سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ كان الجميع يرفض الانضمام إليه خوفا من عودة صدام حسين إلى الحكم مجددا كما كانت تروى الحوارات الشعبية العراقية فى ذلك الوقت[١] .. وعندما أصبحت الضلوعية من أشد مناطق العراق سخونة بعد تشكيل المجموعات المسلحة كان الانتماء للشرطة أيضاً أمراً يشوبه الكثير من التحفظات حيث كان الأهالي يناصرون المسلحين باعتبارهم مجاهدين فى هذا الوقت وتحديدا حتى نهاية العام ٢٠٠٥ وهو ما خلق شعوراً بالدونية لدى كل من ينتمى إلى جهاز الشرطة .

ويروى قائد الشرطة أن المقاتلين « المجاهدين» كانوا يحظون بدعم لا نهائى من أهالي الضلوعية وعلى رأسهم قوات الشرطة وما يدل على ذلك أن القوات الأمريكية حاصرت مجموعة من المسلحين الذين ينتمون لتنظيم القاعدة بعد تنفيذ عملية كبيرة ضد أحدى الدوريات الأمريكية فى عام ٢٠٠٥ وفرت لهم قوات الشرطة الحماية اللازمة ووضعت كل امكانياتها تحت إمرتهم فاستخدموا سيارات الشرطة وارتدوا ملابس عناصر الشرطة وخرجوا من الحصار تحت سمع وبصر الأمريكيين باعتبارهم قوات من الشرطة العراقية .

وعندما سقطت الأقنعة وظهرت الوجوه الحقيقية للمقاتلين سواء العرب أو العراقيين اكتشف الجميع أن هناك أجندات خارجية بدأت تدخل إلى العراق ويريد المقاتلون تنفيذها بعد أن توجه سلاح المقاتلين « المجاهدين» إلى صدور الأهالي خاصة العاملين مع القوات الأمريكية من مترجمين وموظفين .. فيما كان النصيب الأوفر من القتل يخص عناصر القوات الأمنية وبدأت الشكوك تحوم حول هؤلاء المجاهدين الذين استفحلت قوتهم وعجز الأمريكيون أو تعاجزوا عن ردعهم ووقف أنشطتهم .

تغيرت توجهات القاعدة وصيغتها وثوابتها واستفحل أمرها وبدلا من أن كانت جهة تقاتل قوات الاحتلال شأنها شأن الجماعات المسلحة الموجودة على الساحة العراقية ، إذا بها جهة تترك المحتل يصول ويجول وتستهدف الإنسان العراقي ، تغيرت القاعدة بدرجة ٣٦٠ إلى الشمال وليس إلى اليمين، وانقلبت على المواطن العراقي، وكانت سيارة المحكمة الشرعية لدولة العراق الإسلامية ولاية صلاح الدين قاطع الضلوعية، وهي محكمة يتواجد فيها قاض عراقي وقاض سعودي أو

(١) حتى تنفيذ الحكم بإعدام صدام حسين نهاية عام ٢٠٠٦ كان المزاج الشعبي العراقي وخاصة المناطق السنية يؤكد أن صدام عائد لا محالة بعد أن فشل الحكام الجدد في إدارة البلاد .

مغربي، ويتواجد معهم بعض الحماية لتأمين إقامة الحدود وأحكام التعزير على المواطنين الذين يختلفون معهم ربما في الفكر وفي المنهج، وكانت مسؤولية المحكمة الشرعية التي كانت تجول في سيارتها صباح مساء، إما تصفية وإعدام من ينتسبون إلى الحكومة العراقية وقتلهم أو اختطافهم والمساومة عليهم، أو تطبيق أحكام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التى كانت تحكم على بعض الناس بالتعزير « الضرب المبرح» ، وتأخذ السلاح والهويات من التائبين عن العمل في الحكومة وتجعلهم تحت المراقبة في بيوتهم لا يخرجون منها إلى دوائر حكومية، كما كانت هذه المحكمة الشرعية معنية بتحريم بيع وشراء السجائر، وفسخ عقود الزواج ممن تزوجن من قوات الشرطة.

ويرى قائد الشرطة أن الأمريكيين ربما كانوا يريدون بتغاضيهم عن نشاطات المقاتلين خاصة المنتمين إلى القاعدة أن يزيدوا إجرامهم ويشجعونهم على استهداف رموز المجتمع المدنى حتى ينتفضوا ضدهم حيث تم اعتبار من يساهم فى أى تنظيمات مرتبطة بالنظام الرسمى العراقى عملاء من وجهة نظر المقاتلين أو الحكام الجدد للمنطقة وهو ما حدا بالكثير من شيوخ المنطقة وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد شويش إلى الانسحاب من أى تنظيمات محلية مرتبطة بالدولة العراقية أو القوات الأمريكية .

ويشير قائد شرطة الضلوعية إلى أن حضور القائد فى تنظيم دولة العراق الإسلامية « أبو عبيدة الجزائرى » واسمه الحقيقى محسن كبير إلى الضلوعية كان العلامة الفاصلة حيث صارت كل أمور المنطقة بأمره منذ العام ٢٠٠٦ وأصدر الكثير من الفتاوى ضد العاملين بالدولة والشرطة تحديدا منها أن من يزوج ابنته لشرطى يقام عليه الحد وتعتبر ابنته زانية وهو ما أدى إلى إضعاف موقف قوات الشرطة وأصبحت عاجزة حتى عن حماية نفسها وهو ما جعل الأهالى يلجأون إلى المقاتلين لحمايتهم وأخذ حقوقهم بعد أن حلت الإمارة الإسلامية محل الدولة العراقية الرسمية لوقت طويل قبل أن ينقلب السحر على الساحر ويتحول الأصدقاء والمناصرين إلى أعداء بفعل عناصر الدولة الإسلامية وجرائمهم البشعة التى يندى لها جبين الإنسانية والتى بدأت بفتاوى العهد الجديدة للإمارة الإسلامية ذات الصبغة المتشددة والغريبة فى أن واحد .

٧ - فتاوى

قبل أن نتطرق إلى حكايات المكتوين بنيران القاعدة وفكرها التكفيرى والجرائم

المروعة التى كان يتم ارتكابها تحت مسميات وذرائع لا تمت للدين الإسلامى بصلة سوف نعرج قليلا على الفتاوى التى أصدرها قادة الإمارة الإسلامية بعد أن صارت الأمور لهم والتى كان يستوجب مخالفتها أشد العقاب الذى كان يصل إلى القتل فى كثير من الأحيان .

حرمت هذه الفتاوى السجائر وتداولها حيث كان الباعة فى المحال يلجأون إلى لغة خاصة مع المشترين الذين يريدون شراء السجائر فكان المشترى يتفق مع البائع على كلمة « عدس مثلا» عندما يريد شراء السجائر وإذا تم ضبط أحد الأشخاص يدخن فكان يتم تعزيره فى أول مرة ثم كسر أصابعه فى المرة الثانية حتى يتطور الأمر إلى قطع يد المدخن بالكامل .. وتمتد قائمة المحرمات لتطال لحم الماعز مثلا باعتبار أن عورة الماعز ظاهرة وهو حيوان غير مستور كما تم تحريم الثلج وهو مادة حيوية فى صيف العراق القائظ بسبب عدم وجود كهرباء متواصلة تتيح تشغيل الثلاجات والمجمدات بشكل متواصل باعتبار أن الثلج لم يكن موجودا ايام الرسول الكريم وبالتالى فهو مادة محرمة لا يجوز استخدامها .. كما حرمت فتاوى القاعدة أكل الموز والآيس كريم لما لهما من دلالات جنسية !!

ويمتد التحريم إلى «السلاطة » باعتبارها تجمع بين الطماطم الأنثى والخيار الذكر وكذلك تحريم بيع الصنفين فى مكان واحد .. بينما تم تحريم جلوس المرأة على الكرسى لأنه مذكر وتحريم حلاقة السيدات « الكوافير» .

وتمتد قائمة المحرمات لتطال الكثير من نواحى الحياة بدون تفسير عقلى يبرر هذا التحريم سوى رأى الأمير أو المفتى الذى كانت تجرى له عمليات المبايعة بشكل علنى بعد نصب محكمة شرعية فى الشارع العام ويتم توقيف العابرين إما المبايعة وإما قطع الرأس .

٨ - الواوى فرخ بالتبن

تقول الحكمة الشعبية العراقية «لو ما كان الكلب حيز .. ما فرخ الواوى بالتبن» .

وتعنى هذه الكلمات أنه لولا أن الكلب الحارس للحقل متواطىء لما تمكن الثعلب من أن يعيش حتى ينجب فى التبن « قش الأرز» .. وهذا ما جرى فى الضلوعية وغيرها من مناطق العراق فقد تمكن الثعلب من الحياة والتمدد ليصبح صاحب المكان وحاكم الزمان تحت سمع وبصر القوات الأمريكية والحكومة العراقية التى وقفت عاجزة عن حماية منتسبيها وتركت قواتها الأمنية نهبا للحكام الجدد الذين أصبحوا يديرون معركة غير متكافئة لفرض النفوذ

والسيطرة على البلاد والعباد تحت راية مزيفة هى «مقاومة الاحتلال وحكومته» أرادوا من خلالها نشر أفكار لا تمت بصلة للجهاد أو المجاهدين أو كافة القيم النبيلة للدين الإسلامى حتى أن المسلحين المنتمين لتنظيم القاعدة بعد أن فرضوا نفوذهم بالكامل على الضلوعية التى أصبحت أرض النار فعليا استحلوا مراكز الشرطة بالمنطقة حيث قاموا فى شتاء ٢٠٠٦ بهدم مبنى مديرية الشرطة واستولوا على كل الأسلحة والعتاد والسيارات وطلبوا من عناصر المديرية أن يلزموا منازلهم وعدم استخدام سيارات الشرطة التى باتت ملكا للمسلحين وعندما طلب مدير الشرطة بالضلوعية العون من شرطة المحافظة لوضع حد لما يجرى أرسلوا تهديدا صريحا مكتوبا يقولون فيه للمقدم إسماعيل « يبدو أن سيارتك زايدة عليك» .

وتحت وطأة التخويف والترهيب المتزامن مع تخلى الدولة عن سلطتها لصالح سلطة المسلحين وتغاضيها عن دورها فى حماية عناصر قواتها الأمنية بات معظم هؤلاء إما منعزل فى بيته لا يقوى على مجرد الظهور بالزى الرسمى أو متواطىء مع المسلحين يقوم بدور المرشد لهم خاصة إذا عبر نقطة التفتيش صيد ثمين حتى تتلقاه إحدى المجموعات المسلحة فى الطريق وتقوم بعمل اللازم .

ويروى مرافقى فى رحلاتى إلى أرض النار شعلان العود أن نقطة تفتيش منطقة الإسحاقى التى تبعد حوالى ١٠٠ كم شمال بغداد فى الطريق إلى سامراء وتكريت كانت تقوم بهذا الدور على أكمل وجه وهو ما يسميه العراقيون « العلاسه» أو المخبر السرى لتنظيم القاعدة حتى نهاية العام ٢٠٠٧ .. حيث كانوا يقومون بعمليات تفتيش روتينية للعابرين والسيارات وإذا اكتشفوا وجود صيد سواء كان فردا أو مجموعة كانوا يبلغون عناصر القاعدة الذين يقومون بنصب نقطة تفتيش وهمية لا تبعد كثيراً عن نقطة التفتيش الرسمية ويوقفون المطلوب أو المطلوبين ويصطحبونهم إلى مراكز الاعتقال أو الذبح حيث يوجد طريق جانبى يؤدى إلى صحراء الأنبار ومنطقة بحيرة الثرثار وهو طريق مهجور كان يستخدمه تنظيم القاعدة فى تنفيذ عمليات الإعدام الفردى أو الجماعى ونصب المحاكم الشرعية التى تضم أمير المنطقة والمفتى الشرعى والسياف الذى يقوم بتنفيذ أحكام الإعدام.

ويروى شعلان أن المفتى العام لهذه المناطق كان ملحدا من الطبيعيين « الذين يتولون أن الطبيعة هى التى خلقت نفسها وينكرون وجود الله تعالى تماما » ويدعى على يوسف الجبورى « اللجى» حيث استمر على إلحاده حتى عام ٢٠٠٥ ثم انتمى بعد

ذلك إلى تنظيم القاعدة وتولى منصب المفتى بدرجة أمير وكان يحكم المنطقة الممتدة من حدود بغداد حتى الموصل مركز محافظة نينوى / ٤٠٠ كم شمال بغداد/ .

ومن المناطق المريبة التى كانت أشد خطورة بسبب غياب سلطة الدولة وتغافل الأمريكان عن نشاطات القاعدة والميليشيات منطقة تسمى « عقده ١٤ » وهى منطقة نفوذ مقسمة بين القاعدة وجيش المهدى حيث مناطق التماس بين « الدجيل وبلد» الشيعيتين و«الضلوعية والإسحاقى » السنيتين وتتميز بكثافة مزارعها وبساتينها بالإضافة إلى طرقها الوعرة والترابية خاصة تلك التى تمر ببلدة «يثرب » التى كانت معقلا لتنظيم القاعدة وكان الجميع سواء كانوا سنة أو شيعة يتحاشون المرور من هذا المكان المسكون بالموت لأنه لابد سيقوده الطريق إلى منطقة نفوذ لا يستطيع النفاذ منها .

ويروى شعلان العود أن أبناء « بلد» الشيعية على سبيل المثال وهى تبعد حوالى ٨٠ كم شمال بغداد وتضم مرقد سيد محمد بن الإمام على الهادى عندما كانوا يريدون الذهاب إلى كركوك التى تبعد ٢٥٥ كم شمال بغداد وتحاشيا للمرور على المناطق السنية التى تسيطر عليها القاعدة مثل العظيم وجبال حمرين كانوا يسافرون إلى بغداد ويستقلون الطائرة إلى السليمانية باقليم كردستان أقصى شمال العراق ثم يعودون براً إلى كركوك فى رحلة تستغرق أكثر من يوم بدلا من أن تستغرق حوالى ساعتين فى الزمن المعتاد والظروف العادية .

ويروى لى عمار النزهان وهو من أبناء الضلوعية وكان يعمل فى أحد المعسكرات الأمريكية قرب منطقة أبو غريب غربى العاصمة بغداد عندما كان يريد قضاء الإجازة مع أهله بالضلوعية التى تبعد ٩٠ كيلومترا فقط شمال بغداد وتحاشيا للمرور على مناطق شيعية تسيطر عليها ميليشيا جيش المهدى أو غيرها من فرق الموت التى كانت تقوم باصطياد السنة وخاصة أهالى الضلوعية كان يضطر للسفر برا إلى سوريا ثم يعود إلى الموصل ومنها إلى الضلوعية عبر طرق ليس بها أى تواجد للميليشيات الشيعية رغم ما يعنيه ذلك من قطع مئات الكيلومترات وضياع الساعات الطويلة للعودة إلى مقر إقامته الذى تحيط به طرق الموت من كل جانب .

٩ - الفتنة

بدأت المحاولات مبكرا للإيقاع بين السنة والشيعة فى تلك المنطقة من العراق وتحديدا بين الضلوعية السنية و« بلد» الشيعية رغم أن المواطنين عاشوا فى تلك

المنطقة عشرات السنين دون أن يحدث بينهم أى خلاف على أساس المذهب أو الانتماء وكانت الضلوعية أحد المحطات الهامة للعابرين نحو مرقد الإمامين العسكريين / الإمام على الهادى والحسن العسكرى / فى سامراء حيث كانت تستقبل المواكب الحسينية الذاهبة لزيارة المرقدين المقدسين لدى الشيعة بينما كان أبناء البلدتين يعيشون فى سلام ووئام حتى بعد سقوط نظام صدام حسين وتمركز القوات الأمريكية فى قواعدها الثلاث الموجودة بالمنطقة .

ويقول أحد الشباب الذين انضموا إلى تنظيم القاعدة بدافع الجهاد ومقاومة المحتل أن أبا عبيدة الجزائرى القيادى الكبير فى التنظيم خطط ذات مرة لتسميم أهالى « بلد» من خلال دس سم بطيء المفعول فى خط المياه الواصل إلى البلدة التى تضم أحد المراقد المقدسة لدى لشيعة وهو مرقد « السيد محمد بن الإمام على الهادى» حيث يرتاد الزوار البلدة فى مواكب حسينية مثل التى يتم تنظيمها لزيارة باقى الأئمة الذين تتواجد مراقدهم بالعراق مثل الإمام على والإمام الحسين والإمام موسى الكاظم وغيرهم .

وكشف لى « أبو الجيس» هذا السر لأول مرة حيث لم تعلن عنه القاعدة التى لم يعلم أحد من قادتها من الذى أفشى سر المحاولة ولم تعلنه أى من السلطات العراقية أو الأمريكية ربما لعدم إثارة المزيد من القلاقل أو تنبيه أى فصائل أخرى لمثل هذه الأمور .

ويروى « أبو الجيس» كيف أفاق قبل الكارثة بعد أن علم بقيام تنظيم القاعدة بدفع عشرات الآلاف من الدولارات لشراء هذا المركب السام الذى كان مخططا أن يتم تذويبه فى المياه التى يشربها أهالى « بلد » وينتهى أمرهم بعد مرور ستة أشهر على أكثر تقدير .. حيث قام بتسريب الأمر إلى أحد المسئولين وتم اتخاذ التدابير اللازمة لحماية خط المياه والحيلولة دون وصول عناصر القاعدة إليه لتسميمه .

إلا أن محاولات القاعدة لإشعال الفتنة بين السنة والشيعة فى تلك المنطقة لم تتوقف رغم محافظة أهالى البلدتين السنية والشيعية عل التعايش ولم يحصل بين الضلوعية وبلد حتى مع امتداد العمل العسكري ضد الأمريكيين على طوال ثلاث سنوات أي مشاكل إلا أن تنظيم القاعدة أعلن فى بيان رسمي بوجوب ترحيل مدينة «بلد» خلال أسبوع، وعلى سكان المدينة « الرافضة » أن يغادروها، لأنها جزء من دولة العراق الإسلامية، وفى شتاء العام ٢٠٠٦ وتحديدا الساعة الواحدة والنصف ظهر يوم ٢٦ رمضان اختطفت القاعدة ١٤ من عمال مدينة بلد، بينهم

اثنان من القصّر لم يتجاوز عمرهم ١٠ أعوام واقتادوهم فى سيارة « ميكروباص» وتوجهوا بهم إلى جنوب الضلوعية وهم يصيحون « الله أكبر » ورغم محاولات الأهالي التوسط لدى أبو عبيدة وغيره إلا أن الحكم كان قد صدر ورفض قادة القاعدة الموجودون بالضلوعية إلا أن ينفذوا فيهم حكم الإعدام .

ويقول شعلان العود أن هذه المجموعة من العمال الشيعة كانوا بمثابة ابناء الضلوعية حيث ساهموا فى بناء الكثير من بيوت البلدة السنية ومن بينها جامع « الإمام على» وكان بينهم شخص يدعى على فاضل الذى تطوع ببناء بيوت للمسلحين عندما كانوا يرفعون شعار المقاومة ضد الاحتلال والجهاد على نفقته الخاصة إلا أن هذا لم يشفع له لدى قاتليه الذين كانوا ينفذون أوامر بإشعال الفتنة دون النظر إلى أى اعتبارات أخرى أو مراعاة لقيم وتقاليد ترفض قتل صبيين لا يتجاوز عمرهما ١٠ أعوام .

وتقول رواية غير مؤكدة أن المقدم عبد السلام احد كبار ضباط شرطة الضلوعية قام بتسليم الجثث إلى قيادة شرطة بلد وبذل محاولات للتخفيف من وطأة الجريمة .. إلا أن أياد خفية قامت بالتمثيل بالجثث لإثارة المزيد من الفتنة قادها العميد نبيل البلداوى مما أشعل نار الغضب التى أزكتها أطراف تريد الصيد فى الماء العكر وفتحت تلك الواقعة الباب على مصراعية لبعض الميليشيات الشيعية التي جاءت من بغداد إلى مدينة بلد أن تنتقم وهو ما أدى إلى تصفية أكثر من ٥٠ سنياً أيضاً في المدينة التى سيطر عليها جيش المهدى بالكامل لتبدأ موجة من القتل والاختطاف والتهجير القسرى طالت السنة وراح ضحيتها عدد من المصريين الذين يقيمون فى المنطقة وانقطعت العلاقات تقريبا بين المدينتين كما واكب ذلك عمليات انفصال وطلاق بين أزواج سنة وزوجات من الشيعة والعكس لتأخذ الفتنة مداها لمدة تزيد على العامين .

١٠ - الراعى

فى يوم ١٢ / ٤ /٢٠١٠ كنت أشارك فى مجلس عزاء المرحوم العقيد مشعان رميض حمادة بالضلوعية اقترب منى رجل رسم الحزن تعاريج شديدة الوضوح على قسمات وجهه النحيف .. قال لى بعد أن قدم نفسه أنه مازال يحتفظ بسجادة الصلاة الملطخة بدماء ابنه الذى ذبحته القاعدة وهو يؤدى الصلاة فوقها .

روى لى الحاج كريم عبد الله محمد الذى كان يمتلك ٨٠٠ رأس غنم يرعاها مع أولاده فى أرض الضلوعية شديدة الخصوبة أنه كان يقدم كل الدعم

للمقاتلين من عناصر القاعدة باعتبارهم مجاهدين ضد الاحتلال وكيف ردوا الجميل بذبح ابنه البكر جزاء على كرمه الشديد معهم .. قال لى أنه كان يذبح لهم فى كل مرة يأتون إلى حيث مرعاه اثنين من الأغنام ويقدم لهم الطعام بيديه .. إلا أن زيارتهم فى تلك الليلة ٣١ – ٧ -٢٠٠٧ لم تكن ككل الزيارات السابقة حيث قرأ فى عيونهم غدرا لم يدركه إلا بصرخة ألم النهاية التى أطلقها إبنه البكر قبل أن يذبحوه وهو قائم يصلى العشاء وتسيل دماؤه الزكية على سجادة الصلاة .

يقول الحاج كريم بنبرة ألم ورغبة فى القصاص أن عناصر القاعدة الذين كان يعرف بعضهم ويقودهم «واثق الحرامى » وهو من أبناء عمومته اقتادوه مع ابنه وأغنامه وجثة إبنه البكر إلى قبو تحت الأرض فى أحد البساتين الكثيفة التى تنتشر فى منطقة « الكلعة» الواقعة عند ضواحى الضلوعية ومارسوا بحقهم كل وسائل التنكيل والتجويع لمدة ١٥ يوما متواصلة قبل أن يطلقوا سراحه مع ابنه الأصغر إلا أنهم احتفظوا بجثة ابنه البكر التى عثر عليها بعد ثمانية أشهر فى إحدى المناطق النائية .. ويقسم أن الجثة كانت لشخص توفى منذ دقائق فقط وليس منذ ثمانية أشهر .. لا رائحة .. لا تآكل .. لا علامات سوى آثار الذبح ومكان السكين الذى مازال يحتفظ ببقايا الدماء الطاهرة .

روى لى الحاج كريم كيف انتقم ابنه الأصغر الذى نجا من موت محقق معه من قتلة شقيقه عندما خرج مع قوات مشتركة من الشرطة والصحوات بعد ورود معلومات بتواجدهم فى أحد المخابىء حيث تمكن الابن الأصغر من قتل ثمانية مسلحين بمفرده .

ورغم انتقام الابن الأصغر واعتقال «واثق الحرامي» إلا أن الحاج كريم مازال ينتظر قصاصا عادلا حتى اليوم وتعويضا مناسبا عن أغنامه التى كان يبلغ عددها ٨٠٠ رأس والتى ضاعت عندما ضاعت سلطة الدولة لصالح سلطة الذباحين الذين غدروا بمن استقبلهم وقدم لهم واجب الضيافة وذبح لهم الكثير من أغنامه ليكافئوه بذبح ابنه البكر وسرقة أغنامه فلا يجد الراعى ما يرعاه بعد أن تغافل الراعى الأكبر المسؤول عن الرعية وتنازل عن دوره وسلطته طوعا أو قهرا وترك الراعى الأصغر وأغنامه نهبا لذئاب العهد الجديد الذين استباحوا البلاد والعباد تحت رايات شتى .

١١ - لا أنام

عندما زرت محمود محسن عباش الذى يعمل شرطيا بمديرية شرطة الضلوعية

أشار بكثير من الفخر وبقايا من الرعب إلى منزل قريب وقال لى هذا هو بيت ابن عمه مقداد العبدون « أمير الضلوعية » الذى منع عنى النوم ثم بدأ يروى قصته مع القاعدة التى أحالت ليل أيامه إلى نهار بسبب بطولته .. قال لى « لا أنام خوفا على حياتى وإنما على زهرة عمرى بنتان وولد وزوجة طيبة، بعد أن بلغت التهديدات مداها من عناصر القاعدة وأميرها الذى يجاور منزله بيتى البسيط .

أما بداية الحكاية فكانت يوم ١٨ – ١٠ ٢٠٠٨ عندما كان محمود فى واجب اعتيادى ضمن دورية للشرطة عند نقطة تفتيش الشهداء وسط الضلوعية واقتربت منه فتاة دون العشرين ترتدى الزى المميز لنساء المنطقة تعلوه العباءة السوداء الفضفاضة لتسأل عن « المفرزة الطبية» حتى تتلقى علاجا من ألم يعتريها ورغم إجابته على سؤالها استمرت فى الاقتراب منه مع توتر واضح على ما يظهر من قسمات وجهها .. ومع زيادة اضطرابها أزاحت العباءة السوداء لتظهر أسلاك التفجير المؤدية إلى الحزام الناسف الذى ترتديه إلا أن محمود تناسى مصيره المحتوم فى هذه الحالة واندفع نحوها بسرعة البرق ليدفعها مسافة عدة أمتار قبل أن تفجر حزامها الناسف بعد الصيحة المعتادة « الله أكبر» .

وفى تلك الأثناء كان باقى جنود نقطة التفتيش قد تواروا خلف الجدران الأسمنتية القريبة واستمر إطلاقهم للرصاص فى كل اتجاه تحسبا لهجوم مباغت ممن أرسل هذه الفتاة الانتحارية التى نجحت القاعدة فى تجنيدها لتقوم بقتل عناصر نقطة التفتيش مع اختيار توقيت دقيق هو تغيير الوردية حتى يتجمع أكبر عدد من الجنود وقت تسلم الواجب .

فتح محمود جهاز التليفون المحمول الذى يحتفظ عليه بفيلم قصير لنهايات المشهد المؤلم تظهر فيها بقايا الانتحارية وأشلاءها المتناثرة جراء الانفجار الذى أطاح بكتلة أسمنتية كبيرة وأدى إلى حريق محدود فى بقايا النخيل الموجود بالمكان.

قال لى محمود أن الفتاة التى نفذت هذا الهجوم المروع كانت تتمتع بقدر كبير من الجمال ولم تتجاوز الثمانية عشر عاما إلا أن شياطين الإنس تمكنوا من إقناعها بتفجير نفسها انتقاما لزوجها علي إبراهيم فارس (ضابط شرطة ترك العمل في الشرطة وانتمى لتنظيم القاعدة وقتل في منطقة نائية مع احد عناصر القاعدة ويدعى عبدالله الملك وقد اتهم في حينه الجيش الإسلامي بقتلهما)

(وفي تلك الفترة كان قتال بين الجيش الاسلامي والقاعدة، وكانت الشرطة في الضلوعية بتوجيه من الأمريكان غض الطرف عن الجيش الإسلامي ، لاستمرار

عمليات التصفية لعناصر الفصيلين.

ويروى محمود كيف بدأت مضايقات تنظيم القاعدة وتوالت التهديدات ليترك عمله فى الشرطة إلا أنه أصر على البقاء بعد أن اقترب كثيراً من الموت وكاد يلقى حتفه فى هذا الهجوم الانتحارى .. إلا أن النوم ظل عصيا عليه عدة اشهر حتى تم تطهير الضلوعية بالكامل من عناصر القاعدة والمسلحين .

١٢ - هضيمه .. شهداء الكراهية

يتثاءب صبر هضيمه قليلا فاسحا المجال لقطرات من الدموع تنهمر ساخنة على وجنتين غادرهما البهاء وفم لم يعد يعرف سوى كلمات من لغة الحزن يتوسط وجها فعلت به الأحداث ما لم يفعله الزمن والعمر الذى قارب الخمسين حفرت فيه المأساة درب شقاء لا ينتهى راسما خطوط وتعاريج كثيفة غطت ملامحه الأصلية الذى زادت عمق أخاديده مرارات وقائع مذبحة أبطالها أربعة شهداء كانت الكراهية دافعا وحيداً لقتلهم .

سعدون أحمد مشلب زوج هضيمه وأبنائهما الثلاثة حكيم ومحمد وأحمد أبطال مذبحة مروعة تأبى أن تذهب إلى زوايا النسيان رغم مرور السنين .. وكما تقول هضيمه تسبقها دموعها الساخنة أن دماءهم لن تجف أبدا وتتساءل بمرارة بأى ذنب قتلوا ؟!.

إلتقيت هضيمة فى منزلها شديد التواضع على حدود منطقة منخفضة تؤدى إلى بساتين كثيفة الأشجار تسمى «هور شهاب» وهو طريق ممتد يخضع لنفوذ الجماعات المسلحة المرتبطة بتنظيم القاعدة ينتهى إلى مدينة كركوك ولا توجد فيه أى مظاهر لسلطة الدولة العراقية حتى منتصف العام ٢٠٠٨ .. روت لى تفاصيل المأساة وكيف استقرت رصاصات المجرمين فى أحشاء زوجها وأبنائها الثلاثة قبل أن يهرب مرتكبوا الجريمة ويتركوها تصارع الموت فى ليل حالك السواد.

تقول هضيمه أن مجموعة مسلحة ترتدى ملابس قوات الصحوة هاجمت منزلهم فى ليلة ١٢ يناير عام ٢٠٠٨ وكان أول من تلقى رصاصاتهم القاتلة هو الأب سعدون الذى سقط صريعا وعلى وقع أصوات الرصاص انطلق الابن أحمد فى محاولة لمعرفة ما يجرى فى مدخل المنزل فتلقى ضربة على رأسه بأخمص البندقية طرحته أرضا .. وهرعت زوجته لترتمى فوقه تستعطف المهاجمين حتى لا يقتلوه وهو لم يمضى على زواجه منها سوى أربعة اشهر إلا أن قرار إنهاء حياته كان قد صدر

مسبتنا لينهى أحد المهاجمين حياته برصاصة فى الجبهة التى تزينها علامة السجود .

أكمل المهاجمون مهمتهم كما تروى هضيمه واقتادوا الشقيقين حكيم ومحمد إلى خارج المنزل لينفذوا فيهما حكم الإعدام وسط بستانهما الذى ارتوى بدماء من زرعوه ورووه قبل أيام بعرقهم .. إلا أن المهمة لم تكتمل حيث كان الشقيق الرابع فى مقر عمله بقوات الصحوة وفشلوا فى معرفة مكانه رغم ما أذاقوه لنساء المنزل من ضرب وتعذيب .

تقول هضيمه أن القتلة أعادوا المحاولة فى ثانى أيام مجلس العزاء حيث هاجموا المعزين المتواجدين بسرادق العزاء فى محاولة لقتل الشقيق الرابع أكرم مما أدى إلى إصابة عدد منهم ونجا أكرم للمرة الثانية من القتل .

روى لى أكرم الذى ترك عمله فى الجيش بسبب التهديدات وانتمى لقوات الصحوة التى طردت القاعدة فيما بعد كيف جرى اختطاف أبيه وشقيقه حكيم قبل الهجوم بعدة أيام بسبب شكوك قالوا أنها تستحق تأديب من يشكون فيه بسببها وهى العمالة لصالح الأمريكان رغم أن الأب سائق تاكسى بسيط لا يملك إلا قوت يومه يمضى ساعات طويلة على الطريق بين الضلوعية وتكريت ليأتى فى نهاية اليوم بالخبز الحلال لأولاده وبناته .

يتساءل أكرم لماذا كل هذا العنف ؟؟ لماذا حرموه من أبيه المكافح ؟؟ لماذا حرموا شقيقه حكيم من أن يفرح بإنهاء دراسته ونيل شهادة البكالوريوس ؟؟ لماذا قتلوا شقيقه محمد الذى لا يريد إلا النذر اليسير من حقه فى الحياة يستعين على حاجته بالشقاء والسعى لكسب الرزق الحلال ؟؟ لماذا حرموا الرضيع مصطفى من أن يرى أبيه أحمد الذى رحل بعد أربعة أشهر فقط من الزواج كان هو ثمرتها ؟؟ لماذا حكموا على عروس أحمد أن تسعى للانتقام وتعيش مكلومة تنتظر عدالة السماء بدلا من أن تنتظر زوجها الشاب الذى لن يأتى أبدا ؟؟ .

قالت لى هضيمه أنها ألحت لتواجه قتلة زوجها وأبنائها الثلاثة الذين تعرفت عليهم وهم قيادات معروفة بالقاعدة لتسألهم عن سبب جريمتهم فرد أحدهم بتبجح « أنا أكرههم فهم متفوقون فى كل شيء .. الأخلاق .. الدراسة.. العمل .. حتى لعب الكرة!!».

غادرت هضيمه تطاردنى ملامح وجهها الذى بات جامداً حجرياً لا يعبر عن فرح أو حزن وإنما حيرة ودهشة .. عينان جاحظتان من كثرة البكاء على شهداء الكراهية تنتظران إجابة شافية عن سؤال حارق « بأى ذنب قُتلوا ؟؟ ».

١٣ - حويجة الجابر

فى قلب نهر دجلة تمتد مساحة واسعة من الأرض شديدة الخصوبة لحوالى ١٥٠ دونم / الدونم ٢٥٠٠ م/ تضم بساتين كثيفة من البرتقال والليمون والتفاح ومختلف أنواع الفواكه الصيفية والشتوية تسمى حويجة الجابر حيث تواجه مجموعة من المنازل الفخمة تسمى « الجوانين» أو منطقة مشروع الماء .. كانت هذه المنطقة محرمة على الجميع بمن فيهم ملاك أراضيها وبساتينها الخصبة حيث كانت تخضع لنفوذ قادة « دولة العراق الإسلامية» .. لا يستطيع رجل أو طفل أن يسبح فى نهر دجلة المحيط بها ولا يستطيع فلاح الوصول إليها بعد أن صارت تلك البقعة الطيبة الخصبة مزروعة بالموت تفوح منها رائحة البارود وتحول « دجلة الخير» إلى نهر من الدماء ليس فيه سوى الكراهية والموت .

تحولت تلك الجزيرة شديدة الخصوبة إلى مخازن للأسلحة والمتفجرات بعد أن كانت مزروعة بأطيب الثمرات تفوح منها رائحة معطرة بزهور البرتقال والتفاح والمشمش والليمون حيث إستغلها قادة القاعدة ملاذا آمنا ومخزنًا لأسلحتهم ومقرا لإحدى محاكمهم التى تنتهى محاكماتها فى أغلب الأحوال بالموت وذلك بسبب موقعها الفريد وسط مياه نهر دجلة بناحية الضلوعية وما يتوافر لها من حماية طبيعية بالمياه تجعل الوصول إليها مستحيلا إلا بإنزال جوى محفوف بالمخاطر .

فى منطقة «الجوانين » المواجهة لحويجة الجابر كان يقع منزل « حاجى خالد» وهو الأمير العسكرى لمحافظة صلاح الدين الذى انتقل فيما بعد إلى منطقة بات يطلق عليها « حى الوزراء فى أطراف الضلوعية سيأتى ذكرها فيما بعد بينما استمر إخوته وهم من العناصر الفاعلة فى تنظيم القاعدة يقيمون بالمنزل وعلى بعد ١٥٠ متر تقريبا من منزله يقع منزل أحد أمراء القاعدة الخطرين وهو عدنان خليل فرج الذى صدر بحقه حكم بالإعدام فى ٢٩ أبريل عام ٢٠٠٨ فى قضية اختطاف وقتل الشيخ ناجى جباره الجبورى بينما ثبت تورطه فيما بعد فى جريمة بشعة كان ضحيتها أحد وجهاء المنطقة ويدعى شكر محمود حسين الذى كان بمثابة عم لعدنان إلا أن تلك القرابة لم تمنع تنفيذ الحكم الصادر بحقه من قادة الدولة الإسلامية ليلقى مصيره المحتوم بسبب صراحته الزائدة وإنتقاده الدائم لجرائم تنظيم القاعدة التى كانت قد بلغت ذروتها عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

روى لى أحد سكان المنطقة كيف تم تنفيذ حكم الإعدام فى الشيخ شكر بعد اتهامه بالإبلاغ عن مخزن سلاح تابع لتنظيم القاعدة رغم أن الرجل مشهور

بشهامته ورجولته وأخلاقه الطيبة ورفضه القاطع للتعاون مع الاحتلال .. ولم تتوقف الجريمة على قتل الرجل بل تجاوزتها إلى قتل إبنه محمود بعد أن توصل إلى خيوط تقود إلى مرتكبى جريمة قتل والده قرر على أثرها الإنتقام .. فيما تم قتل زوج ابنة «شكر» لأنه كان شيعيا من أهل الجنوب رغم ما يحظى به من مكانة فى منطقة الضلوعية السنية بسبب أخلاقه التى يشهد بها الجميع إلا أن هذا الأمر قد بات معتادا فى زمن المذبحة وفقا للقانون الذى سنه حكامها ونفذوه بدقة لينشروا الرعب والموت فى أرض الخير ويجعلوا منها مناطق محرمة على أهلها الطيبين .

عندما زرت الضلوعية « أرض النار» للمرة الأخيرة فى صيف ٢٠١٠ كانت الجزيرة « حويجة الجابر» قد إستعادت نضارتها وباتت روائح الثمار الطيبة تفوح منها من جديد .. وبعد أن لبيت دعوة كريمة على غداء عراقى فى منزل أحد وجهاء المنطقة استمتعت بجولة نهرية فى قارب صغير يطلق عليه العراقيون « بلم» بفتح الباء واللام كنت أشارك فى قيادته بتحريك أحد مجدافيه بينما يحيطنى أطفال من المنطقة يسبحون حاملين براءتهم على سطح النهر هربا من حرارة الصيف الذى تجاوزت درجات الحرارة فيه ٥٣ درجة مئوية يؤدون بعض الحركات البهلوانية فرحا بالضيف المصرى العزيز ولإثبات قدرتهم على الترحيب الممزوج بالمرح بعد أن حرموا كثيراً من الضيوف عندما كانت منطقتهم من أخطر مناطق «أرض النار » .

قال لى مرافقى شعلان العود الجبورى مبررا هذا الفرح والمرح أن تلك المنطقة كانت محرمة على أهلها .. فما بالك بالضيوف .. ضحك شعلان متسائلا « تدرى لو كنت فكرت بالمرور من هنا قبل ثلاثة أعوام فقط ؟؟ » .. أجبت باسما أعلم جيدا .. وسارع أحد الأطفال الذين يسبحون حول قاربنا ليقول بكل ثقة « كانوا سووك كباب عمو » أى كانوا عملوك كفتة!! .

١٤ - الأمير الغامض

ومن الروايات المثيرة التى تؤكد وجود أمور مريبة وتقاطعات للمصالح بين أطراف نافذة كانت تعمل على استمرار تدهور الأمور بدعم كل الجهات التى تمارس العنف والتخريب بالعراق رغم التناقض الفكرى والمذهبى والأيديولوجى هى حكاية « أبو عبد الله محارب الجبورى » الذى كان يحمل لقب وزير الإعلام بدولة العراق الإسلامية وكان يتولى منصب « أمير الشمال» حيث تمتد منطقة نفوذه من بغداد حتى

كركوك التى تبعد حوالى ٢٥٥ كم شمالا والموصل ، ٤٠٠ كم شمال بغداد .

وتشير الحكايات التى يرويها أهالى الضلوعية عن « الأمير الوزير» أنه كان موظفا فى كلية صدام للحقوق التى يقع مقرها فى منطقة الكاظمية « نسبة للإمام موسى الكاظم الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية، وهى منطقة خاضعة بالكامل لنفوذ جيش المهدى، والمليشيات الشيعية وسميت الكلية بعد ذلك « كلية الحقوق » حيث كان محارب يدرس الماجستير وتضطره وظيفته ودراسته إلى الذهاب بشكل دائم شبه يومى إلى المنطقة الشيعية الخاضعة لنفوذ خصوم القاعدة الألداء كما هو ظاهر للجميع وهم عناصر الميليشات الشيعية دون أن يتعرض لأيه مشاكل أو توقيف أو اختطاف أو قتل .

حمل محارب الجبورى فى البداية لقب « أمير سرايا الغرباء» بعد أن اتخذ طريقا مغايرا لرفاقه حيث تولى مؤيد متعب سالم منصب « أمير شمال بغداد للجيش الإسلامى» الذى خاض قتالا ضاريا فيما بعد مع تنظيم القاعدة فى عدة مناطق بدعم من القوات الأمريكية بينما اختار أبو منار العملى خط « المرجئة» وهؤلاء الرفاق وغيرهم كانوا ضمن التيار السلفى الذى برز بالعراق عام ١٩٩٩ حتى بدأ استقطاب الشباب المتدين ليتلقى دورات اسلامية تدرس الفكر المتشدد وهى الدورات التى خرجت أمير تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى ..وبعد احتلال العراق فى إبريل عام ٢٠٠٣ تبنوا مثل غيرهم من العراقيين خاصة الملتزمين دينيا قضية مقاومة الاحتلال إلا أن الصراع العشائرى بين محارب الذى صار أحد أمراء القاعدة ومؤيد متعب الذى صار أميرا للجيش الإسلامى دفع بمحارب إلى استغلال العرب الراغبين فى الجهاد ضد الأمريكان وتدعيم قيادته داخل تنظيم القاعدة ثم دولة العراق الإسلامية حتى صار الرجل الثالث فيها قبل الإعلان عن مقتله الغامض فى منطقة الغزالية غربى العاصمة بغداد الذى تضاربت حوله الروايات الرسمية أمريكيا وعراقيا وحتى بين عناصر تنظيم القاعدة أنفسهم .

ويروى لى أحد الشباب الذى عمل فترة طويلة تحت راية القاعدة لمقاومة الاحتلال أن المقاتلين العرب أحكموا سيطرتهم على تنظيم القاعدة وخاصة قائد يدعى « أبو الفدا » وبدأوا فى إصدار الفتاوى الغريبة والدعوة إلى إغلاق المدارس والجامعات وتعطيل الحياة والمؤسسات الخدمية بدعوى أنها ضمن ولاية الاحتلال الأمريكى بالإضافة إلى منع النساء من السير والخروج إلى الشارع وغير ذلك من الفتاوى وعلى رأسها إغلاق مديرية الشرطة بالضلوعية وعدم مصاهرة أى عنصر من الشرطة وهو ما

أثار الناس ضدهم ودفع بالقيادات العراقية إلى الاعتراض .. حيث أصدر محارب الجبوري فتوى بعزل ٢٧ من الولاة العرب والوقوف ضد تلك الفتاوى .

وتم توجيه الدعوة إلى محارب لحضور اجتماع هام في العاصمة بغداد لتصفية الأجواء وإنهاء الخلافات بين القادة العراقيين في تنظيم القاعدة والقادة العرب الذين قويت شوكتهم وأصبح الأمر بيدهم وتم قتله في المكان المحدد للاجتماع وتولت القوات الأمريكية والعراقية أمر الإعلان عن مقتله ونشر صور لجثته التي بدت منتفخة وتؤشر إلى مرور عدة أيام على مقتله عندما تم عرض صور الجثة على شاشات التليفزيون مما يدل على أنه تم العثور على الجثة بعد مقتله وليس كما أعلن وقتها عن مقتله في عملية عسكرية مشتركة .

وروى لي أحد الصحفيين العراقيين الذين كانوا يرتبطون بصلات وثيقة مع قادة القاعدة في ذلك الوقت أن الشيخ نجم النعيمي الذي كان يتولى منصب والي صلاح الدين أمر بتفجير مبنى إدارة حماية الطرق الخارجية في منطقة البوعجيل التابعة لتكريت مركز محافظة صلاح الدين ١٧٥ كم شمالي بغداد من خلال هجوم انتحاري راح ضحيته عشرات القتلى والجرحى وهو الهجوم الذي أثار خلافا شديدا بين قادة القاعدة المحليين والقادة العرب وجاءت الأوامر إلى أحد أهم القادة العرب ويدعى «عيسى الريس» بالتنحي وكان مقربا من محارب الجبوري وتم استدعاء عيسى إلى سوريا ليلتقي بمسئول القاعدة لمنطقة شرق أوروبا وكان الهدف من اللقاء هو تزكية المقاتلين العرب ومنحهم دورا أكبر وهو ما أدى إلى تمكن هؤلاء المقاتلين من السيطرة بشكل شبه كامل على المناطق وأصبحوا قادة فعليين للعمل العسكري وهو ما حدا بمحارب الجبوري الذي كان يعتبر الرجل الثالث بالتنظيم ذلك الوقت إلى إصدار قرار بحل التنظيمات وتصفية بعض العناصر مما أثار عليه بعض القيادات العربية بالتنظيم داخل العراق ودبروا له كمينا في بغداد وقتلوه وأبلغوا بعد ذلك القوات الأمريكية والعراقية بمكان الجثة .

وقد أكد لي الملا ناظم الجبوري وهو أحد الستة الذين أسسوا مجلس شورى المجاهدين بالعراق وكان أحد أهم قيادات الدولة الإسلامية قبل أن ينقلب على تنظيم القاعدة ويؤسس مجلس إسناد الضلوعية الذي طرد التنظيم مع قوات الصحوة أن محارب الجبوري لم يقتل على أيدي القوات الأمريكية أو القوات العراقية وإنما قتلته القاعدة وتحديدا المقاتلون العرب بعد خروجه على توجهاتهم بسبب الصراع بين القيادات العراقية والعربية داخل التنظيم وهو ما أدى إلى وجود

أصل الصراعات وهو تبني العرب لقرارات لا تمثل للسنة نتائج مربحة، وليس فيها ثمار معينة لأهل السنة.

وأشار الملا ناظم إلى أن هناك العشرات من قيادات القاعدة تم تصفيتهم بسبب ذكرهم كلمة خوارج أو اختلافهم على تولي العرب لإمارات معينة، أو بسبب مخالفتهم لقتال الجيش الإسلامي أو إظهار صور جنود الجيش الإسلامي على الإعلام وهم يعدمون من قبل تنظيم القاعدة.

١٥ - اللص والحرامى

عندما روى لي أهالي الضلوعية القصة التالية تذكرت « ريشه الطبال» فى فيلم دم الغزال الذى قامت ببطولته مجموعة رائعة من الفنانين وأدى دور «ريشه» الفنان محمود عبد المغنى وكان طبالا ونموذجا للرذيلة وأصبح أميراً لإحدى المجموعات التى مارست العنف فى الأحياء الشعبية الفقيرة فى مصرنا المحروسة تحت راية الحفاظ على شرع الله ومحاربة مخالفيه رغم أنه استمر يمارس كل أنواع الرذيلة لكن هذه المرة بغطاء القوة المسلحة التى يتيحها الانتماء إلى جماعات العنف .

«وليد عبد الله عياش» أمير بدرجة والى تقع تحت مسئوليته القيادية وفق منظومة القاعدة فى بلاد الرافدين المنطقة التى تغطى الطريق من بغداد العاصمة إلى قضاء بلد / ٨٠ كم شمال بغداد/ كان هذا الأمير القائد لصا من أرباب السوابق وتحول فى زمن الفتنة إلى أمير يدين له المئات وربما الآلاف من المقاتلين بالولاء والطاعة .. كانت إشارة واحده من يده الملوثة بجرائم السرقة كفيلة بإنهاء حياة أحد العابرين على هذا الطريق مهما كانت درجته العملية أو صفته الشخصية أو مكانته العشائرية ويبدو أن درجات الإمارة كان يتم توزيعها بقدر كميات الدماء التى يتسبب القاتل فى هدرها ولهذا كان عياش أميرا من الوزن الثقيل وأصبح اعتقاله الذى جرى فى خريف عام ٢٠٠٧ بمثابة الإمساك بكنز من المعلومات .

ويروى أحد المسئولين الأمنيين قصة اعتقال هذا الأمير اللص المسئول عن مئات الجرائم من الاختطاف والقتل والسلب حيث وردت معلومات بأن الهدف موجود فى منطقة زراعية يحيطها جبل وتلال ووديان تسمى « خر نصر» وهى محاذية لمحافظة ديالى ويقود واديها الممتد إلى منطقة نهر العظيم على الحدود بين محافظتى ديالى وصلاح الدين حيث خطوط الإمدادات الرئيسية لمقاتلى تنظيم القاعدة .. وجرى التنسيق بين قوات الشرطة وعناصر الصحوات ورجال العشائر الذين استعدوا لهذا

الصيد الثمين بكل ما يلزم من العدة والعتاد والرجال فالأمير اللص لم يكن مجرما بالشبهة وإنما صدرت ضده عدة أحكام بالإعدام فى جرائم كان مسئولا عنها أما بالفعل أو الأمر .

وبعد معركة ضارية بين مقاتلى القاعدة من عناصر حماية الأمير اللص والقوات المشتركة تم القاء القبض على عياش الذى كان أول أمير من تنظيم القاعدة يتم اعتقاله وجرى احتجازه فى سجن تكريت الواقع داخل أحد القصور الرئاسية وسط تكريت وتتولى قوة عراقية إدارته إلا أنه تمكن فى عملية نوعية من الفرار مع ١٥ معتقلاً من عناصر القاعدة مساء الأربعاء ٢٠٠٩/٩/٢٤ بعد أن قاموا بخلع نافذة دورة المياه وتسللوا عبر سلالم أحد أبراج المراقبة وأوضحت التحقيقات الأولية أن هؤلاء المعتقلين الخطرين ربما تلقوا مساعدة من الداخل ولهذا صدر قرار بطرد العقيد محمد صالح الجبوري مسؤول جهاز مكافحة الإرهاب في المحافظة وتوقيف عدد كبير من المنتسبين لإدارة السجن .. وتمكنت القوات الأمنية من اعتقال الأمير اللص بعد يومين من فراره فى مزرعة بمنطقة البوعجيل القريبة من تكريت وتبين أنه كان العقل المدبر لعملية الهروب الكبير .

أما الحرامى فهو واثق عبد الله لطيف الجبورى شقيق محارب الجبورى وزير إعلام دولة العراق الإسلامية الذى نصبه أميراً على ولاية صلاح الدين وتتناقض الروايات حول تسميته بالحرامى وهو لقب جده الرابع إلا أن من يروى لى سبب التسمية من أهالى أرض النار يقولون «يا ليت هذا المجرم كان حراميا وليس ذباحا» .. وأصبح للحرامى شأن كبير فى دولة العراق الإسلامية خاصة بعد مقتل شقيقه الوزير فصار صاحب المشورة والرأى فى كثير من القضايا والمخطط لجرائم بشعة تم تنفيذ الكثير منها فسالت دماء الأبرياء .

ويروى أن الجريمة التى تم التخطيط لها ولم تنفذ بستر من الله اعترف بها الأمير الحرامى بعد اعتقاله ويقول أهالى الضلوعية أن هذه الجريمة لو قدر لها أن تتم لكانت واحدة من أبشع الجرائم وأكثرها ضجيجا من حيث عدد الضحايا .. هذه الجريمة التى لم تنفذ بستر من الله كانت تبدأ بعملية اختطاف للشيخ حسين على صالح شيخ الجبور بالضلوعية وهو رجل يمتلك الكثير من الحكمة والثروة ويحظى بحب واحترام بالغ من الجميع وبعد أخذ الفدية التى تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات يتم قتل الشيخ كما جرت العادة وعند تشييع الجنازة التى كان يفترض أن يرتادها المئات من الشيوخ والوجهاء والمواطنين من أبناء عشيرة الجبور لوداع شيخهم يقوم انتحاريون من القاعدة بمهاجمة المشيعين بسيارات مفخخة وقنابل وهى جريمة

لو تم تنفيذها بهذا التخطيط المحكم فإن الضحايا من القتلى سيكونون بالمئات .

أما الجريمة التى اشرف الأمير الحرامى على تنفيذها فراحت ضحيتها أسرة بكاملها حيث أصدر المجرم أمرا بقتل المقدم زياد ابراهيم خليل قائد سرية الحرس الوطنى السابق بالضلوعية خلال عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ وهو مشهور بوطنيته وحبه لأهله حيث استقال بعد رفضه مشاركة القوات الأمريكية فى عملية عسكرية بمدينة سامراء .. ورغم استقالته إلا أن حكم الإعدام قد صدر بحقه من قبل تنظيم القاعدة حيث تم قتله بعد قتل ابنه أمام عينيه وهو ما أدى إلى وفاة الزوجة المكلومة بفقدان الزوج والابن أمام عينيها .

١٦ - ابن حمده

ماذا يمكن أن يصدر من شخص تآمر على قتل والده بعد أن قام الوالد والزوج المخدوع بقتل ابن عمه بعد اكتشاف علاقة غير شرعية بينه وبين زوجته حمده .. كيف يمكن أن يكون سلوك « ابن حمده» عندما يصبح بيده أمر البلاد والعباد فى زمن المذبحة بلا رادع ولا حساب ؟ .. وكيف يمكن تصنيف الحالة النفسية لرجل ينسب إلى والدته التى يعلم الجميع سلوكها بعد أن غيب السجن والده عندما ارتكب جريمة قتل دفاعا عن شرفه ؟ .. ماذا يمكن أن يفعل « ابن حمده» عندما يتولى منصب قائد سرية الاغتيالات فى تنظيم بات الأمر بيده عندما غابت سلطة الدولة الحقيقية ليحل محلها مستندا إلى فكر يعتبر الجميع كفارا ما لم يكونوا ضمن عناصر هذا التنظيم ؟ .

عندما تسلمت القوات العراقية « إبن حمده» واسمه الحقيقى خلف محمد حسين من القوات الأمريكية نهاية عام ٢٠٠٨ بعد أن بدأ سريان الاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن وبدأت نهايات تنظيم القاعدة فى المناطق السنية التى مثلت الحواضن والملاذات الآمنة للتنظيم عندما جاء تحت راية الجهاد ضد القوات الأمريكية سقطت كل الأقنعة وتوالت الاعترافات التى كشفت ما وراء الحجب التى ينزوى خلفها قادة وأمراء القاعدة .. بينت الاعترافات كيف كان القتل غاية والتشفى متعة والشر مذهب والحقد مبدأ .. أوضحت الاعترافات مدى التواطؤ الرسمى وغير الرسمى الذى كرس دولة القتل والرعب فى زمن المذبحة وكيف تمكن العرابون من بيع البلاد والعباد لصالح أجندات لا تسعى إلا لخراب الذمم وقطع طريق الخير وإنهاء النخوة وتغييب الشجاعة وضرب الكرم وإنهاء حياة الكرام وبث الرعب فى نفوس الصغار قبل الكبار فى مسلسل من القتل العبثى

بأفظع الأساليب حتى أصبح الموت بعيدا عن أعين الأبناء آخر أمنية لأى أب جاء موعد تنفيذ حكم الإعدام فيه .

روى لي قائد شرطة الضلوعية المقدم محمد خالد عبد الحميد كيف « صادرت» القوات الأمريكية ابن حمده عندما تم اعتقاله من جانب قوات الشرطة بلا سبب واضح غير أنه مطلوب لديهم رغم تواجدهم طوال الوقت بالمنطقة التى كان يمارس فيها جرائمه على مرأى ومسمع منهم.

قال المقدم عبد الحميد أن قواته وضعت خطة لاعتقال أو قتل « ابن حمده» عندما كان يزف إلى عروسه فى حفل زفاف إسلامى لقطع رأس الفتنة بعد أن استباح المنطقة وحتى يكون إنذارا لما تبقى من فلول تنظيم القاعدة بأنه لا سكوت بعد اليوم على جرائمهم التى طالت الجميع ،حيث تم رسم الخطة لتتبع موكب العرس ومحاصرته لاعتقاله أو قتله .

وتمكنت قوات الشرطة من تحديد السيارة التى يستقلها « ابن حمده» حيث كان متخفيا فى زى امرأة ويستقل سيارة « ميكروباس» مع مجموعة من النساء حتى يصطحب زوجته من منزلها وألقت القبض عليه بدون أى نقطة دم ،عندئذ ظهرت القوات الأمريكية وطلبت اصطحابه لأنه مطلوب لديهم حتى استعاده العراقيون ليبدأ مشوار كشف الحقائق .

على مدى ١٥ ساعة استمرت التحقيقات مع « إبن حمده» التي بدأت من الثالثة عصرا وحتى السابعة صباحا وكان المحقق شقيق أحد الضحايا حيث يتولى مركزا أمنيا مرموقا ورفض نصائح الزملاء بألا يكون ضمن فريق التحقيق حتى لا يفقد أعصابه عندما تبدأ اعترافات القاتل ويصف كيف نفذ جريمته فى شقيقه بلا رحمة أو ضمير ولماذا قتله بلا سبب غير أنه تلقى أمراً بذلك من أميره العسكرى « أبو عبيده الجزائرى » الذى جرى اعتقاله فيما بعد ويوجد حاليا فى سجن « المشتركة » بتكريت انتظارا للقصاص العادل .

روى « ابن حمده» كيف إرتكب جريمته عندما إقتحم مع مجموعة مسلحة بيت سبهان خلف حمد الموظف فى مفوضية الانتخابات عندما كان يقضى ليلة صيفية هادئة مع زوجتة وأولاده فى حديقة المنزل هربا من قيظ يوليو وأبلغوه أن قرارا بإعدامه صدر وأنهم جاءوا لتنفيذه وعندما سألهم عن السبب قالوا نحن ننفذ حكم الإعدام فقط عندما يأمرنا قائدنا العسكرى الذى يأمر غالبا بإعدام المرتدين « حيث أن الموظف فى الدولة العراقية يعتبر مرتدا فى حكم القاعدة» .

يقول « ابن حمده » أن سبهان توسل بهم إلا ينفذوا حكم الإعدام أمام زوجته

وأطفاله بعد أن نطق الشهادتين إلا أن الأمر قد صدر بتنفيذ الإعدام على مرأى من الأسرة لبث الرعب الشديد فى نفوس أفرادها ونفوس كل من يفكر فى التعامل مع السلطة التى يعتبرها تنظيم القاعدة كافرة .. توسلت الزوجة بأن يرحموا زوجها فهو موظف لا يؤذى أحدا والوظيفة هى مصدر دخله الوحيد .. إلا أن كل التوسلات وبكاء الأطفال لم يثنى كتيبة الإعدام التى سارعت بإطلاق رصاصات الغدر فى رأس وصدر سبهان .

اعترف « ابن حمده» بكل الجرائم الأخرى التى ارتكبها تنفيذاً لأوامر « أبو عبيده الجزائرى» كقائد سرية الإغتيالات والتى كان آخرها قتل أحد الشباب الذى كان ينوى الالتحاق بكلية الشرطة حتى يكون أيضا عبرة لغيره من الشباب الذى يمكن أن يفكر فى الإنتماء لقوات الأمن العراقية .

وإلحاقا لاعترافاته بكافة الجرائم المرعبة التى ارتكبها منفردا أو ضمن مجموعات يجرى تدريبها على الاختطاف والقتل بدون تفكير فى ماهية الضحية أو الجريمة التى ارتكبها ليستحق عليها القتل ، اعترف « ابن حمده » كيف تآمر على قتل والده عندما أنهى عقوبة السجن لمدة ١٧ عاما بتهمة قتل ابن عمه بعد اكتشاف علاقة غير شرعية تربطه بزوجته « حمده» .

روى القاتل أنه إتفق مع أبناء عمومته على استدراج أبيه الذى خرج من السجن ودفع الفصل العشائرى الذى قضى برحيله من البلدة إلى كركوك وذلك بإعطاء الوالد الأمان حتى يعود إلى بلدته ويعيش وسط أهله وأبنائه وعندما استجاب الرجل رغبة فى إنهاء حياته وسط أهله نصب الإبن كمينا لوالده انتقاما منه على التشهير بأمه « حمده» وقتله هو بدم بارد ولهذا ينسب لوالدته .

قال لى أحد القادة الأمنيين فى الضلوعية أن الظروف غير الطبيعية والشاذة التى نشأ فيها « ابن حمده» جعلت منه شخصية شاذة وكان يبحث عن أى دور فى مجتمعه العشائرى الذى لا يقيم وزنا لمثله حتى حانت الفرصة وأصبح أحد أهم عناصر تنظيم القاعدة ليمارس كل ما يمكنه من جرائم مرعبة ويفرض سطوته ضمن دولة أقامها حكام المرحلة الجدد وفرضوا قانونها الخاص الذى لا يقيم أى وزن لغيره من القوانين التى رسخت على مدى مئات بل آلاف السنين وهى قوانين الحياة الطبيعية والقادة الطبيعيين والسلوكيات الطبيعية .

١٧ - جحش التوحيد

فى يوليو عام ٢٠٠٦ صدرت أوامر تنظيم القاعدة بإكمال تطهير الضلوعية

ممن تصفهم بالكفار وعملاء والاحتلال وكان الهدف هذه المرة مجموعة تابعة لفكر « المرجئة » يتخذون من مسجد أبو بكر الصديق مقرا لهم يقيمون فيه صلواتهم ومحاضراتهم الدينية حيث يقول « المرجئة» كما أوردنا سابقا بإرجاء فكرة الجهاد فى الوقت الحالى بسبب عدم تكافؤ القوة مع القوات المحتلة ويعتبرهم تنظيم القاعدة كفارا حيث يقولون « مالم تجاهد فإنك كافر» .. وكان التنظيم قد اغتال شيخ المسجد حكمت حسن حماش بعد صلاة العشاء فى أحد أيام ربيع عام ٢٠٠٦ .

وتولى الإمامة خلفا للشيخ حماش الشيخ عبد الوهاب حسن صالح وكان شقيقه ينتمى لتنظيم القاعدة ويحتل موقعا تنفيذيا مهما لكونه ينفذ الأوامر بطريقة عمياء وبغباء شديد دون مناقشة وكانوا يطلقون عليه « جحش التوحيد » ولهذا صدرت له الأوامر باعتقال كل المصلين الذين يقيمون الصلاة خلف شقيقه الإمام باعتبارهم من المرجئة الكفار وكان عددهم فى تلك الليلة ١٨ مصليا بينهم شخص يدعى زهير صالح وهو ابن عم الشيخ نجم العبد الله الزويع الذى قاد إحدى تشكيلات قوات الصحوة التى تقاتل القاعدة بدعم من الأمريكان وهو كان مبرراً لتنفيذ حكم الإعدام فيه بعد عمليات تعذيب بشعة تعرض لها كذلك أحد أساتذة الجامعة ويدعى ياسر خلف جادر وأسامة جاسم زويع وكان طالبا بالكلية العسكرية وتعرض لعمليات ضرب وتعذيب وهددوه بالقتل ما لم يترك الكلية العسكرية ورغم إطلاق سراحه إلا أنه لم يمتثل للتهديد وتخرج من الكلية عام ٢٠٠٧ وتولى أمره أحد قيادات القاعدة بالمنطقة ويدعى عدى علوان حيث اختطفه من الشارع العام بالضلوعية وبعد فترة أعلن عن مقتله إلا أنه لم يعثر على جثته حتى الآن .

وروى أحد المعتقلين لى كيف مارست القاعدة بحقهم شتى أنواع التنكيل والتعذيب، قبل أن تطلق سراحهم بعد عدة أيام ما عدا زهير الذى جرى تنفيذ حكم الإعدام فيه بعد أن تم اقتيادهم إلى ناحية مسعدة القريبة من الضلوعية وتسليمهم بعد ذلك إلى مجموعة أخرى اقتادتهم إلى ناحية ابن جبير بمحافظة ديالى وبعد وجبة ضرب وتعزير قاسية تم احتجازهم فى بيت ريفى يعود إلى ما يسمى بالهيئة الشرعية لتنظيم القاعدة وجرى تقسيمهم إلى قسمين حيث جرى التحقيق معهم مصاحبا للضرب مع « أبو عبيدة الجزائرى» وذلك بتهمة تشكيل تنظيم يسمى « الرايات السود» والذى أتهمته القاعدة بالتحريض ضدها وقتالها بسبب منشورات كانت توزع فى عدة مناطق تحمل شعار التنظيم الذى لا يعلم أحد حتى الآن ماهيته أو قادته .. إلا أن مخالفة السلفيين الذين يرفضون إطلاق لقب المرجئة

عليهم لتنظيم القاعدة ودعوتهم بتأجيل الجهاد ضد القوات الأمريكية كانت مبررا لاعتبارهم يقفون خلف تنظيم الرايات السود .

ويقول أحد المعتقلين الناجين الذى طلب عدم ذكر اسمه لأسباب عديدة أنه دار بينه وبين أبو عبيدة الجزائرى حوار مطول عن أمور شرعية خاصة أهمها رفض السلفيين قتل الشيعة واعتبارهم روافض وقبولهم بالانتماء إلى الجيش والشرطة ومؤسسات الدولة وكذلك رفض السلفيين إعلان الدولة الإسلامية فى ظروف مثل تلك التى يمر بها العراق فى ذلك الوقت .

كانت الحوارات الدينية تدور بشكل حاد بسبب اختلاف الجانبين فى أمور كثيرة وهو ما كان يوجب قتلهم جميعهم إلا أن إرادة الله شاءت أن يوافق الأمير القاعدى على إطلاق سراحهم بعد أن عجز عن الرد على هذا المختطف الذى يمتلك الحجة القوية كما يبين الحوار الذى دار و رواه لى خاصة بعد أن علم بمقتل زميلهم زهير حيث سأل أبو عبيده اتقتلون رجلا لمجرد شهادة غير وافية الأدلة قال له أبو عبيده « نحن نقتل لمجرد الشبهة وعلى الله حسابه فإذا كان مظلوما غفر له الله ».

ازدادت المناقشة حدة كما يروى لى وقال لأبو عبيده « تكفرون الجيش والشرطة لأنهم يداهمون المساجد بالسلاح والأحذية وأنتم داهمتم مسجدنا بنفس الطريقة » .. رد أبو أبوعبيدة «أن ما يجوز للجهاد لا يجوز لغيره ونحن نفعل أى شيىء لصالح الجهاد والمجاهدين » .

ويؤكد المعتقل الناجى أن المناطق التى تم اقتيادهم إليها والتحقيق معهم فيها كانت تحلق فوقها المروحيات الأمريكية وكان صوتها ملحوظا جدا لأنها كانت تحلق على ارتفاعات منخفضة .

وفى وثيقة حصلت عليها عبارة عن أوراق التحقيق مع أحد قيادات القاعدة اعترف فيها بأن المختطف الوحيد الذى تم قتله فى هذه العملية وهو زهير جرى إعدامه حتى قبل التحقيق معه بسبب شهادة من جحش التوحيد بأنه استقبل أمريكيين فى بيته وضيفهم وهى جريمة رآها القاضى الشرعى سببا كافيا لتنفيذ حكم الإعدام فى الرجل الذى كانت كل جريرته أنه أحد موظفى الدولة العراقية وان كانت وظيفته لا تمت بأى صلة للسياسة أو الأمن وإنما كان موظفا فى دائرة المياه !!!

كان « جحش التوحيد» هو بطل هذه العملية التى قام خلالها ومن معه من مسلحين بضرب أخيه ضربا مبرحا دون مراعاة أن يكون إمام المسجد هو شقيقه فالولاء للتنظيم يفوق أى ولاءات أخرى يعتبرها المنتمون ولاءات مزيفة وزائلة .

١٨ - الله لا يرحمه

يروى « أبو عمر» وهو يتولى مركزاً مرموقا فى إحدى الوزارات الأمنية العراقية رغم أنه سنى من أهالى الضلوعية أنه إلتقى ذات مرة بمقاتل سورى كان أميرا لمنطقة تمتد من الضلوعية لتشمل مناطق نفوذ القاعدة فى الطريق إلى سامراء وخاصة منطقة الإسحاقى وروى له كيف غادر العراق وترك منصب الإمارة فى الدولة الإسلامية بداية العام ٢٠٠٧ عندما طلب منه قياديون بالتنظيم ترك مهمة ضرب القوات الأمريكية والتوجه لتنفيذ عمليات ضد الموظفين ومنتسبى القوى الأمنية وخاصة القيادات من أبناء الطائفة السنية لإجبارهم على ترك العمل لأنه جاء من بلده بهدف الجهاد ومقاومة المحتل مثل غيره من المجاهدين الحقيقيين الذين كانوا يدفعون الغالى والنفيس ليتمكنوا من الوصول إلى العراق لمقاومة الاحتلال وتولى إمارة المنطقة بدلا منه شخص يدعى « أبو رحمه» لم يكن يذكر أهالى المنطقة اسمه إلا متبوعا بالقول « الله لا يرحمه» وقد نفذ هذا الأمير مخطط الفتنة كما هو مرسوم بل مارس من عمليات القتل والاختطاف والتعذيب ما لم يكن مطلوبا منه حيث مارس كل صنوف الإجرام ضد سكان المنطقة تحديدا والعابرين الذين يقودهم الحظ العاثر للمرور عبر إحدى نقاط التفتيش التى يقيمها على الطرق .

كان « الله لا يرحمه» واسمه الحقيقى « أواب الخلايلة » ويرتبط بصلة قرابة مع أمير تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى / ابن خالته/ ضخم الجثة أشقر ذى عينين زرقاوين يثير الرعب لمجرد ذكر اسمه حيث تبنى أقصى درجات العنف والقسوة البالغة وكان يجد أى مبرر للقتل وكان يفضل استخدام المنشار الكهربائى فى عمليات الذبح وكان ينتقى عناصره من الساقطين وأرباب السوابق ويمدهم بالمال والسلاح حتى يمارسوا كل أنواع الترهيب والتعذيب بحق الأبرياء .

ويروى « أبو عمر» أنه تلقى سيلا من التهديدات ليترك منصبه الأمنى الهام إلا أنه رفض وهو ما أدى إلى استهدافه حيث قامت عناصر من تنظيم القاعدة يوم السبت ١٢ – ٢- ٢٠٠٧ بمداهمة منزله الساعة الخامسة فجراً لقتله إلا أنه لم يكن موجودا بالمنزل آنذاك لالتحاقه بالعمل وتصدت الزوجة الشجاعة للمهاجمين وأطلقت عليهم وابلا من الرصاص استيقظ على إثره الجيران والأهل القريبين من منزل « أبو عمر »الذى علم بما جرى وآثر البقاء فى بغداد وعدم العودة إلى الضلوعية حتى هدأت الأمور وانكسرت شوكة القاعدة.

وتتوالى القصص المروعة حول الجرائم التي ارتكبها تنظيم القاعدة في تلك المنطقة التى كان يحكمها « الله لا يرحمه» أو غيرها من المناطق التى حاربها التنظيم بدون استثناء، وقتل أبناءها من كافة العشائر بغض النظر أن هذا خزرجي أو جبوري [1] سواء كان سنيا أو شيعيا، واستمرت تلك الحرب لتتنوع بين خطف الناس ومقايضتهم بالفدية والحصول على مئات الآلاف من الدولارات وعمليات الخطف ثم القتل، وغير ذلك من العمليات البشعة من قطع الرؤوس وقطع أعضاء الجسم باستخدام المنشار الكهربائي حتى تبين للمنطقة أنهم ينفذون أجندة خارجية ويأتمرون بأوامر مخابرات دولية، تنفذ أجندتها على أرض العراق وإذا كان هناك من يرفض الربط بين تلك الأجندات عمداً إلا أنها التقت على هدف واحد هو التخريب والترويع .

ويروى شقيق أحد ضحايا القاعدة ، الذي كان يعمل سائق تاكسي من تكريت مركز محافظة صلاح الدين التى تبعد ١٧٥ كم شمال بغداد إلى الضلوعية، وقامت عناصر تنظيم القاعدة باختطافه يوم ٢٠٠٧/١٠/٢٤ في منطقة الركة، بدون أي سبب لأنه غير مرتبط بأى جهة ولا يعمل مثل من يقولون أنهم مرتدين بالشرطة والجيش، كان هذا السائق العائل الوحيد لعائلة تتكون من أمه وأبيه وطفليه الاثنين وزوجته .

قامت مجموعة مسلحة من تنظيم القاعدة بخطف السائق الذى لا يعلم شيئا عن السياسة أو القتال أو غير ذلك من الأمور وإنما كان همه الوحيد جلب الرزق لعائلته ، وبعد ثلاثة أيام ألقوا رأسه في منطقة الإسحاقى بدون جثة .

١٩ - إسبح بالدم ، تلقى برودة

فى شتاء العام ٢٠٠٩/٢٠١٠ خلال إحدى زياراتى لأرض النار « الضلوعية» كان العشاء فى منزل السيد طالب الشيخ حمد الجبورى أو « حجى طالب» كما ينادونه وهو مدير الأمن الوطنى « أمن الدولة» ودارت أحاديث الحاضرين لدعوة العشاء من القادة الأمنيين ووجهاء المنطقة حول الأوضاع التى يمر بها العراق وسيناريوهات المستقبل ومدى قدرة القوى الأمنية على فرض الاستقرار مع تربص الخلايا النائمة من تنظيم القاعدة بالمناطق السنية وكذلك فرق الموت والميليشيات التى كانت تسيطر على المناطق الشيعية .. ومع تناول أقداح الشاى العراقى حاول مضيفنا التخفيف من حدة التوتر الذى كان يبعثه الحديث عن

(١) الخزرج والجبور من عشائر المنطقة .

المخاطر والتطورات غير المريحة على الساحة السياسية مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية وعلت الضحكات مع إلقاء بعض الأشعار الساخرة والنكات المصرية والعراقية بالإضافة إلى الروايات التى تؤرخ لذكريات بعض الحاضرين حتى اتجهت ناصية الحوار إلى مقارنة ما نروية من أشعار ونكات وما كان يردده عناصر تنظيم القاعدة والمتعاطفين معهم حتى دق جرس تليفون « حجى طالب» المحمول ليبلغه المتصل بانتحار واحد من أخطر المطلوبين وهو معتقل لدى القوات العراقية ويدعى « على بللوز» الذى ينتمى إلى عشيرة الخزرج حيث وصفه الحاضرون بأنه أخطر المجرمين ولا توجد عملية قتل أو اختطاف بالمنطقة إلا وكان طرفا فيها منفذاً أو مخططاً أو معاوناً يسهل أمر التنفيذ وكان آخرها الهجوم الإنتحارى الذى استهدف جامع الخلفاء وكان خطيبه الملا ناظم الجبورى أحد القادة الستة الذين شكلوا مجلس شورى المجاهدين مع أبو مصعب الزرقاوى ثم انشق على التنظيم وتعرض لعدة محاولات اغتيال أحدها هجوم انتحارى يوم ٢٠ أبريل عام ٢٠٠٩ سهل « بللوز» دخول المهاجم الانتحارى إلى المسجد فى عملية راح ضحيتها أربعة شهداء أحدهم كان أهالى المنطقة يطلقون عليه « عباد الشمس» لأن برنامجه اليومى وخط سيره لا يتغير أبداً من المحل الذى يملكه إلى المسجد ثم المنزل والثانى شخص بالغ الطيبة والمودة يدعى إبراهيم ينطبق عليه قول الله تعالى « تحسبهم أغنياء من التعفف» وهو موظف بسيط يسعى لتأمين المأكل الطيب لأسرته والثالث طالب بالثانوية العامة كان يقرأ القرآن بين الأذان والإقامة قبل صلاة العشاء والرابع شخص متدين من أهالى المنطقة لا تفوته صلاة جماعة فى المسجد .

أبلغنى « حجى طالب» بأن « بللوز» كان قد تم اعتقاله عقب هذا الهجوم الانتحارى بحوالى ثمانية أشهر وكان بمثابة كنز من المعلومات نظرا لما يمتلكه من أسرار حول عمليات تنظيم القاعدة بالمنطقة وغيرها من المناطق وهو ما جعل جميع الحاضرين ينهون الحوارات وتختفى البسمة وحالة الارتياح تدريجيا من على وجوههم لتحل حالة من الوجوم وقام الجميع لينهون الجلسة التى بدأت صاخبة تغلفها المشاعر الطيبة والحوارات الثرية والذكريات الجميلة لتنتهى حوارات الذكريات والأشعار الساخرة بأهزوجة كان يرددها عناصر تنظيم القاعدة ومن يدعموهم أو يتعاطفون معهم واشتهر بترديدها هذا المجرم وهى « اسبح بالدم تلقى برودة .. وصباح الشر تزهى وروده» .

وبعد عدة أيام قبل أن أغادر المنطقة علمت أن « بللوز» لم يتمكن من الانتحار وإنما تم إنقاذه بعد أن تعاطى كمية كبيرة من المخدرات حتى تبلد إحساسه ولم

يعد يشعر حتى بوخز السكين فى جسده حتى ظن القائمون على السجن أنه انتحر ومات .. وبقدر ما كان خبر انتحاره فاجعا مثيرا للضيق والحسرة ، كان خبر إنقاذه مثيراً للفرح جعل أهالى المنطقة خاصة العالمين بالأمور يتبادلون التهنئة لسبب بسيط وهو أن هذا المجرم يمتلك الكثير من الأسرار والمعلومات عن حوالى ٩٠ فى المائة من الجرائم المروعة التى اكتوت أرض النار وأهلها والمناطق المحيطة بها كما أنه يمكن أن يكشف الكثير من الحقائق عن التواطؤ بين المجموعات المسلحة وبعض المسئولين الأمنيين من الجانبين العراقى والأمريكى ذلك التواطؤ الذى أسهم فى تسهيل عمل القاعدة منذ البداية خاصة مع تنفيذها أجندات القتل الأعمى وإثارة الفزع بين أهالى محافظة صلاح الدين خاصة وباقى المناطق العراقية بشكل عام فى أخطر مرحلة من زمن المذبحة تلك الفترة التى تولى أمرها نماذج من تلك التى تسبح بالدم لتشعر بالبرودة وتتفاءل بالشر لتزهى وروده السامة .

٢٠ - حي الوزراء

عندما وصلنا إلى نهاية الشارع العام لناحية الضلوعية وقبل مسجد « الإمام على بن أبى طالب « عرجنا إلى ممر ضيق غير معبد يطلق عليه اسم « ممر التورنة» وتعنى باللهجة العراقية « المخرطة» حيث كان يتم فيه تصنيع السلاح والمتفجرات ويجرى به تفخيخ السيارات لتنطلق إلى مقصدها ، يؤدى هذا الممر إلى منطقة على ضفاف نهر دجلة كانت تسمى « نقرة الشرح» حيث كانت منخفضا من الأرض تدخل إليه مياه فيضان نهر الخير .

كان يقيم فى « نقرة الشرخ» ثلاثة من كبار قادة تنظيم القاعدة هم على اليوسف وهى المفتى الشرعى لولاية صلاح الدين وفق التنظيم الإدارى لدولة العراق الإسلامية وخالد الحبيب الملقب « حاجى خالد» وهو الأمير العسكرى لقاطع سامراء حتى محافظة ديالى بالإضافة إلى وهاب الصحو الذى كان يشغل منصب أمير سرايا الغرباء وهو المسئول عن عمليات الاغتيال التى تستهدف العراقيين خاصة «الجنود والمترجمون وعناصر الشرطة» وكذلك وليد عبد الله العياش وهو أمير لواء سامراء وهو ما جعلها تحمل اسم « حى الوزراء ».

تتميز المنطقة بكثافة بساتينها تكثر بها أشجار الموالح والنخيل والأشجار الكثيفة ولا يسكن بها أحد سوى قادة القاعدة وعائلاتهم وتتميز بطبيعتها الجغرافية الاستراتيجية حيث يحدها نهر دجلة الذى يمكن من خلاله العبور إلى منطقة صحراء العظيم أحد أهم مراكز نفوذ تنظيم القاعدة وكذلك إلى

محافظتى ديالى وكركوك مما يجعلها منطقة شديدة الأهمية تنظيميا واستراتيجيا وأدى ذلك إلى انتقال عدد من عناصر التنظيم للإقامة بالقرب من أمرائهم فى تلك المنطقة التى كانت عنوان دولة العراق الإسلامية فى « أرض النار» حيث كان قادتها يقيمون الحدود ويتولون توزيع المحروقات والإشراف على إمدادات مياه الشرب والكهرباء والغاز بالإضافة إلى صندوق الشكاوى الذى كان يتم من خلاله معرفة مشاكل سكان المنطقة وحلها على الطريقة الإسلامية .

روى لى أحد سكان المنطقة التى تحاذى حى الوزراء كيف كان يجرى التخطيط والانطلاق لتنفيذ العمليات من داخل هذا الحى الذى يسكنه الرعب ولا يجرؤ كائنا من كان على الاقتراب من تخومه دون إذن من أمراء الموت .

ويقول « أحمد» أنه رأى ذات مرة عملية تفخيخ لسيارة عائدة لأحد الشيعة من سكان بلدة الدجيل التى تبعد ٦٠ كم شمال بغداد قتله أحد عناصر القاعدة ويدعى مثنى الحشماوى وأرسل سيارته إلى على الصحو الذى أمر بتفخيخها فى منزل أحد جنود الدولة الإسلامية ويدعى كمال عدوان بمشاركة شاب سعودى حضر إلى العراق للجهاد ضد الأمريكان وكان طالبا بالسنة الثانية بكلية الطب وينتمى لعائلة ثرية يدعى « زين » وبعد أن سلم « الأمير المفتى الشرعى على اليوسف » مبلغ مائة ألف دولار قاد السيارة المفخخة ليفجرها بالقرب من دورية أمريكية إلا أنها لم تسبب أية خسائر سوى تدمير المنزل الذى جرت عملية التفجير بجواره ويعود لرجل ثرى يدعى « حاجى مؤيد» .

ويقول أحمد أنه عندما كان يؤثث منزله على تخوم حى الوزراء حيث يمتلك قطعة أرض هناك حضر إليه ملثمون وطلبوا منه أن يترك المكان لبعض الوقت لأنهم يحتاجون المنزل وبالطبع استجاب الشاب لأنه يعلم نتيجة عدم الاستجابة وترك لهم المنزل الذى كان قد اكتمل بناؤه وفى طور التأثيث ، وما كان من الملثمين إلا أن أطلقوا قذيفة هاون باتجاه منطقة بلد الشيعية القريبة وردت القوات الأمريكية من إحدى القواعد القريبة وهى قاعدة القدس التى كانت أحد مقرات جيش القدس التابع لصدام حسين ثم صارت قاعدة أمريكية بعد الاحتلال و أصبح اسمها « معسكر بلواده» ، وكانت النتيجة تدمير منزل أحمد بالكامل جراء القصف الأمريكى الموجه لموقع إطلاق الهاون ليعيد أحمد بناءه من جديد بعد أن مضى عصر الدولة الإسلامية ولقى قادتها مصيرهم المحتوم بالقتل أو الإعتقال وأولهم المفتى الشرعى الذى لقى مصرعه عند اعتقاله بتهمة اختطاف وقتل الشيخ ناجى جباره.

٢١ - نساء القاعدة

نسوة شاحبات يتشحن بالسواء لا يملكن حاضراً ولا أمل فى مستقبل قريب

بعد أن ذهبت أيام المجد عندما كن زوجات أو شقيقات لأمراء ووزراء فى الدولة الإسلامية ، وقبل أن يتعاطف معهن زائر أو يرق لحالهن يبادرن بالقول أن الفرج قريب وستعود دولة العراق الإسلامية بفرسانها وستفرض القاعدة سطوتها من جديد وسيعود لهن النفوذ والبهاء والعز الذى ذهب بعد أن اعتقل أو قتل الأمير والوزير الذى كانت تهتز له مناطق ونواحى وتدين له رؤوس وشوارب .. أنهن نساء القاعدة الزوجات والشقيقات للقادة والأمراء والوزراء اللاتى كن ينعمن بالغنائم التى تأتى من كل حدب وصوب حتى أن أشقاء وليد وبارق العياش على سبيل المثال وهما اثنين من أمراء التنظيم اعتقل أحدهما « وليد» عام ٢٠٠٧ بينما قتل «بارق» فى نفس العام كانوا يمتلكون ٦٠٠ رأس غنم قبل أن تضيع الثروة ويعيشون على بيع حليب بقرة يتيمة تشاركهم منامهم فى بيت من الطين « زريبة» .

• الشقيقات

عائلة تفتت بين سلطتين ،سلطة شرعية لا وجود لها ممثلة فى القوات الأمنية العراقية ،وسلطة فرضتها سطوة القوة وقوانين زمن المذبحة ممثلة فى أحد أمراء دولة العراق الإسلامية التى ضمت تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين مع عدة تنظيمات أخرى بايعت على إقامة دولة موازية للدولة التى تعتبرها كافرة وليس لها حق الطاعة أو الولاء .

أربعة شقيقات للمفتى الشرعى لولاية صلاح الدين وفق نظام الدولة الإسلامية «الأمير «على اليوسف » جاء نصيب اثنتين منهن مع رجلى شرطة قبل أن يظهر نشاط القاعدة للوجود فى أرض النار بينما تزوجت إحداهن بأحد أمراً التنظيم ويدعى سعد محمد الفارس وهو ينتمى إلى عشائر الجبور وتزوجت الأخرى من أحد مقاتلى القاعدة ينتمى لعشيرة البوجوارى بعد أن صار الشقيق الأكبر أميراً بالقاعدة .

وكما كانت تجرى الأمور فى ذلك الوقت صدرت الفتوى من الزوجين المنتمين لتنظيم القاعدة بقتل الزوجين المنتسبين لقوات الأمن حيث كانا وفقا لأحكام الدولة الإسلامية «مرتدين » كإجراء لتطهير العائلة منهما وتصحيح الأوضاع لتعود الزوجتان إلى بيت الشقيق الأمير أرملتين .. وبعد أن دارت الدائرة على تنظيم القاعدة ليجرى على القاتل ما جرى على القتيل ويلقى نفس المصير ولو بعد حين عادت الشقيقتان تتجرعان نفس الكأس بعد أن صارتا أرملتين لتعيشان فى بيت واحد مع من ترملتا على أيدى زوجيهما القاعديين ، إلا أن سطوة الشقيق الأكبر الذى ظل محتفظا بمكانته بعض الوقت منعت الاحتكاك والتناحر بين الشقيقات اللاتى كتب

عليهن الشقاق وحل العداء بديلا عن الرحمة بسبب قوانين زمن المذبحة التى ألغت قوانين الطبيعة الراسخة لتحيل حياة العراقيين إلى جحيم لا يدرى أحد من أين أتى .

بعد مقتل «الأمير » على اليوسف عاشت الشقيقات الأربعة فى كنف الأم المسنة والأب العجوز الذى لم ينله من نعيم الغنائم ما يقيم أوده حتى أن القوات الأمريكية عندما داهمت المنزل ذات مرة عثرت على حقيبة مليئة بالدولارات فى وقت كانت الأسرة تعانى فيه أشد حالات العسر والضيق ماديا وإنسانيا بعد أن انفض عنها المريدون والأتباع وفرضت عليها ما يشبه العزلة لأن أحداً لا يريد أن يتعامل مع عائلة تسبب ابنها ومعاونوه فى تغييب العشرات وربما المئات من شباب المنطقة وشيوخها بسبب فتاوى التكفير التى كانت لا تستثنى أحدا .. بات طريق الحرير الذى كان يؤدى إلى منزل الأمير طريقا ترابيا يجتازه المارة والسيارات بعناء شديد وبات المنزل الذى كان أحد مقرات حكم الدولة الإسلامية معزولا لا يقوى ساكنوه على إضاءة مصباح كهربائى واحد لأنهم لا يملكون ثمن بنزين المولد .

يقضى أفراد الأسرة نهارهم فى زراعة قطعة الأرض المحيطة بالمنزل ليأكلن ما تنتجه من خضروات أو فاكهة بسيطة تكفى بالكاد للبقاء على قيد الحياة بعد أن جف نهر الغنائم ومضى زمن العز الذى لم يبق، منه سوى ذكريات باتت تعرف طريقها إلى زوايا النسيان وأحلام غير مكتملة فى عودة سلطة ذهبت إلى غير عودة .

• زوجة الأمير

فى نصف منزل متواضع تقضى زوجة خالد الحبيب الأمير العسكرى السابق لولاية صلاح الدين بدولة العراق الإسلامية وقتها الرتيب مع طفليها مهاجر ذى الأربعة أعوام وزينب ذات الست سنوات بعد أن جرى اعتقال الزوج المهيب الجانب عام ٢٠٠٨ ونفاذ ما تبقى من حصاد أيام الحكم عندما كان الزوج « الأمير» يملك بإشارة واحدة من يده مصادرة المال والحلال « المواشى» والسلاح وأى ممتلكات تعود لأى « مرتد» من عناصر السلطة العراقية أو أحد عناصر أجهزتها الأمنية ليصبح كل ذلك غنائم حرب لقائد عسكرى فى دولة نصب قادتها أنفسهم حاكمين باسم الإسلام .

كان خالد الحبيب أميرا بكل ما تحمله الكلمة من معنى يمارس طقوس الحاكم بأمره فى كل شيء يقضى فى كل أمر من أمور حياة ولاية صلاح الدين التى كان يشغل منصب أميرها العسكرى ،تأتيه الغنائم من كل حدب وصوب ، يتلألأ منزله العامر بأضواء المصابيح المبهرة فى وقت تعج فيه غالبية مناطق العراق فى ظلام دامس وتعيش زوجته المعتزة كزوجة أمير ، ترتدى أبهى الثياب ، وأثمن الحلى ، تقوم على خدمتها تابعات يملأن المنزل العامر بكل الخيرات .

بعد اعتقال « الأمير» الذى طال أغلقت زوجة الأمير الباب على نفسها وأطفالها واضطرت لتقسيم المنزل إلى جزئين تقيم مع أسرتها الصغيرة فى جزئه الأصغر بينما تؤجر الجزء الأكبر لتعيش من ريعه الذى يكفى بالكاد طعام وشراب زوجة الأمير السابق وأولاده الذين كانوا يرتعون فى خيرات غنائم الغزوات التى أحرقت الذرع والضرع وأثمرت خرابا وحرائق وعائلات بلا عائل وأطفال يتامى وزوجات أرامل وأمهات ثكالى والتهمة الجاهزة هى « الردة» .

• الأم الحائرة

فى بيئة مواتية داخليا وخارجيا لتكون حاضنة للإرهاب يصبح الانتماء إلى تنظيم القاعدة أو غيره من التنظيمات المسلحة أمرا طبيعيا ، بينما يصبح الانتماء إلى الجيش أو الشرطة أو حتى قوات الصحوة التى حاربت القاعدة وقضت عليها مجرد رد فعل غير مأمون العواقب خاصة داخل أسرة واحدة تضم كل هذه الأطياف .

فى عائلة تضم مقاتلين بالقاعدة والجيش الإسلامى وجندى بالجيش الرسمي وأحد عناصر الصحوة يقف الأب يحركه العقل والطبيعة الخيرة موقف الضد من ولديه المنتميان للمجموعات المسلحة التى تقاتل الدولة وموقف المناصر للشرعية المتمثلة فى السلطة الفعلية وسلطة المجتمع والعشيرة التى رفضت الفكر التكفيرى وعمليات القتل والأعمى وغيرها من السلوكيات التى دمرت المجتمع الآمن وأحالت هدوءه إلى جحيم ودمار .. فيما تقف الأم مقسومة إلى جزءين من تؤيد ومن تعارض فالجميع أبناءها وهى أم قبل أى شيء .

عائلة شلال جاسم العراقى الطيب الذى يشتهر بالأخلاق الحميدة حتى صارت كل البيوت مفتوحة له ,فرض واقع أرض النار أن يكون أبناؤه الأربعة إما مقاتلين بالقاعدة أو فى قوات الأمن العراقية ، انتمى ولداه عبد الرحمن وأزهر إلى القاعدة والجيش الإسلامى بينما انتمى ولداه الآخران غيث إلى قوات الصحوة وليث إلى الجيش العراقى .

روى لـ غيث أن شقيقه عبد الرحمن انتمى إلى تنظيم القاعدة بعد اعتقاله بلا سبب عام ٢٠٠٥ حيث كانت السجون الأمريكية بالعراق مدارس تخرج المتطرفين وتهيىء الشباب المعتقل بلا ذنب لأن يصبحوا إرهابيين حقيقيين ،أما أزهر فقد انتمى للجيش الإسلامى فى أول الأمر ثم انضم لتنظيم القاعدة فيما بعد حيث يعتبر خاله محمد الفارس من أشرس مقاتلى التنظيم بينما كانت البيئة المحيطة

بالأسرة حاضنة مثالية للأفكار المتطرفة التكفيرية .

ويقول غيث أنهم يسكنون بجوار قيادات بالقاعدة مثل وليد العياش ويحد منزلهم جامع البخارى الذى كان مكانا لتفريخ عناصر القاعدة وهو ما آدى إلى انخراط الشقيقين بشكل كامل فى تنظيم القاعدة وأصبحا من أشد عناصره استجابة لأوامر القادة فى الاختطاف والقتل حتى بلغ الأمر بالشقيق « أزهر» أن يصدر بيانا يهدر فيه دم والده الذى يعارض توجهه وشقيقيه لعدم امتثالهما لأوامره بالانضمام لسلك القاعدة والجهاد خاصة بعد أن انضم ليث للجيش وانضم غيث لقوات الصحوة التى كان نشاطها قد بدأ بدعم أمريكى لمقاتلة القاعدة نهاية العام ٢٠٠٦ .

لم يعد منزل شلال جاسم يتسع للأبناء الأربعة بعد أن لفظ الأب ولديه اللذين انضما للقاعدة وأعلن براءته منهما رغم ما يحيط بذلك الأمر من مخاطر ليس أقلها القتل أو تفجير المنزل ،إلا أن وجود الأم المقسمة بين الأبناء المتحاربين وتعاطفها مع ولديها القاعديين ربما منعهما من تفجير منزل العائلة انتقاما من الأب والشقيقين « المرتدين» .

فى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٧ لقى أزهر مصرعه أثناء مشاركته فى هجوم على قوات الشرطة بينما لقى عبد الرحمن مصرعه بانفجار حزام ناسف فى منطقة العظيم وهى أحد مراكز نفوذ القاعدة عام ٢٠٠٨ ، وكان رد فعل الأب مثيرا حيث هدم خيمة العزاء فى الحالتين وقال بصوت عال « المجرم لا يقام له خيمة عزاء » وهو ما كان سببا فى عدم وجود مطالب عشائرية بالثأر منه ومن إبنيه الآخرين بسبب جرائم القتل والاختطاف التى ارتكبها الشقيقان القاعديان حيث يقضى القانون العشائرى ب « الفصل» فى حالات القتل وهو ما يعنى دفع الدية أو الدم من جانب أهل القاتل وهى حالات ظهرت وسوف تظهر يجد فيها الآباء والأشقاء أنفسهم مطالبون بدفع ثمن جرائم ذويهم الذين انتموا للقاعدة أو غيرها من التنظيمات المسلحة التى مارست القتل ضد العراقيين تحت مسمى الجهاد .

وفى خلفية هذا المشهد تقف الأم الحائرة بين نارين ، نار الفقد لاثنين من الأبناء دفعت بهما الظروف والبيئة المحيطة للإنتماء للقاعدة وسلوك طريق الموت المحقق أو الاعتقال ولم تكن تمتلك القوة على البراءة منهما مثلما فعل الأب ،ونار الثأر الذى ينتظر الابنين الآخرين اللذين إذا شفع لهما قتالهما ضد تنظيم القاعدة وخلصهما من الثأر العشائرى فإنه لن يشفع لهما وسيكون مبرراً لثأر التنظيم الذى تعرض لضربات موجعة لكنه مازال يعمل بنشاط ازداد خلال الفترة الأخيرة بسبب التراخى الأمنى والأجواء السياسية المتشنجة التى أتاحت له مجالا

جيدا للحركة والانتقام خاصة من عناصر قوات الصحوة.

٢٢ - رواية جديدة

كما كانت حياته مثيرة للجدل ،باتت نهايته أكثر إثارة بعد أن نسجت حوله الحكايات والقصص الخيالية إبان توليه منصب أمير القاعدة فى بلاد الرافدين وتأسيسه مجلس شورى المجاهدين الذى انبثقت منه « دولة العراق الإسلامية» بعد مبايعة عدة تنظيمات جهادية ودخولها تحت ولاية تلك الدولة التى جرى رسم حدودها وتعيين وزرائها وقادتها فى معزل عن الدولة العراقية القائمة بالفعل .

ولسنا هنا فى موضع الحديث عن حياة أبو مصعب الزرقاوى وإنما عن نهايته التى روى لى أحد الشباب الذين كانوا على مسافة قريبة من التنظيم ووقائع عملياته بحكم الظرف المكانى ،كما كان أكثر قربا من واقعة مقتل الزرقاوى وتحديداً كيف ذهب إلى مصيره المحتوم ليتم قصفه فى منزل بناحية هبهب التابعة لمحافظة ديالى على بعد حوالى ٥٥ كم شرق العاصمة بغداد فى يونيو عام ٢٠٠٦ ليدق مقتله المسمار الأول فى نهاية دولة العراق الإسلامية وتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين .

فى ربيع عام ٢٠٠٦ قتلت قوات حرس إقليم كردستان « البيشمركه» التى يتواجد فوج منها فى إحدى مناطق ناحية الضلوعية ثلاثة من عناصر تنظيم القاعدة ذوى المكانة المتميزة عسكريا هم خلف الصحو وصدام جاسم وهما من منطقة « بيشكان» التابعة للضلوعية وحاجى خالد وهو من منطقة الطارمية التى تبعد ٤٠ كم شمال العاصمة بغداد عندما كان الثلاثة يستعدون لتنفيذ إحدى العمليات العسكرية التى تستهدف قوة أمريكية ،وكان يوجد اتفاق سابق بألا يتدخل هذا الفوج من البيشمركه فى أى عمليات وفقا لصفقة عقدها مع قيادات القاعدة مقابل عدم استهداف عناصره .

ونظرا لمكانة القتلى فى التنظيم حضر الأمير أبو مصعب ليشارك فى مجلس العزاء بنفسه خاصة وأن خلف الصحو كان من أكثر شباب القاعدة نشاطا والتزاما وكان يلقب بـ«فتى القاعدة المدلل » .. وتعهد الزرقاوى أمام والده بأن يثأر لمقتله بعملية تهتز لها أركان فوج البيشمركه المنتشرين من منطقة المعتصم حتى جسر الضلوعية « قاعدة الميكنزى» وكانت من أهم مناطق نفوذ القاعدة فى ذلك الوقت .

عاد أبو مصعب بعد انتهاء مجلس العزاء مصطحبا كتيبة يطلق عليها « الكفر

بالطاغوت» وقوامها أكثر من ٦٠٠ شخص مسلحين حتى وصلوا إلى منطقة «مسعدة» وجمع الزرقاوى شباب القاعدة وألقى محاضرة حماسية أمام الشباب الذى كان يتوق لرؤية قائدهم بعد أن سمعوا عنه الكثير من الحكايات الأسطورية وذلك تمهيدا للعملية .

دفع الزرقاوى بسبعة انتحاريين يرتدون أحزمة ناسفة فى المقدمة وعبروا إلى حيث تتمركز قطعات ودوريات من فوج البيشمركه الذى تمت تصفية غالبيته وهو ما أدى إلى سحب ما تبقى ومنع تواجد أى كردى بالمنطقة وعاونهم فى تلك « الغزوة» عناصر من قوات الشرطة العراقية التى كانت تعاون التنظيم « والمعروف أن المكان الوحيد الذى أثنى الزرقاوى على من يعمل بالحكومة أو الشرطة تحديدا فى ذلك الوقت كانت شرطة الضلوعية قبل أن ينقلبوا على التنظيم » .. كان دور قوات الشرطة فى هذه الغزوة هو إخلاء المصابين من شباب القاعدة باستخدام زيها الرسمى والسيارات التابعة لها وتقديم الإسعافات الأولية لهم .

ويقول الشاب القاعدى الذى طلب عدم ذكر اسمه أن هذا التصرف من الأمير « الزرقاوى» كان عاطفيا غير محسوب العواقب وهو أمر يحدث للمرة الأولى وهو ما أدى إلى كشف تحركاته بشكل كامل رغم أنه كان ينتقل فى العديد من المناطق ودخل إلى الضلوعية أكثر من مرة قبل ذلك ، ومما زاد الأمر سوءا هو خروجه من الضلوعية متوجها إلى هبهب فى محافظة ديالى مباشرة وهى تبعد حوالى ٣٠ كم فقط عن الضلوعية .

ويؤكد الشاب القاعدى أن الرواية المعروفة القائلة بأن الشريط الذى أذاعته الفضائيات للزرقاوى كان بداية النهاية له رواية غير دقيقة حيث جرى هذا التصوير فى منطقة الثرثار قرب أحد قصور صدام حسين وكان معه وقتها كل من ظاهر شاهين وحاتم مخلف وخالد عسكر والشيخ مقداد وهم الذين إستضافوه بمحافظة الأنبار عند دخوله العراق عندما شارك فى معارك الفلوجة عام ٢٠٠٤ .

ويعتقد الشاب القاعدى أن أحد المقربين منه وشى بتحركاته تلك المرة وأبلغ الأمريكان بالمكان الذى ذهب إليه وهو ما سهل رصده وقصف المنزل المتواجد فيه بقنبلة تزن نصف طن لينتهى أمره وتبدأ قيادة جديدة للقاعدة فى بلاد الرافدين .

٢٣ - مات مرتين

ثلاثة أعوام من الألم وصل خلالها إلى عتبة الموت مرتين أسفرت عن عجز دائم فى القدم اليسرى بسبب عمله فى المجال الأمنى ، إلا أن العزم يشتد والعزيمة

قائمة لا تهتز حتى لا تعود القاعدة إلى الضلوعية مرة أخرى رغم تسلل عناصرها بين الفينة والأخرى لتنفيذ عمليات النفس الأخير بلا ملاذات آمنة لأن حاضنتهم لفظتهم وصمم رفاق النضال ضد القاعدة ومعهم المقدم على الا تعود القاعدة أبدا إلى منطقتهم حتى لو لامس الموت مرة ثالثة .

فى ربيع العام ٢٠٠٥ كان المقدم على عائدا من تكريت عاصمة محافظة صلاح الدين حيث يعمل ضمن شعبة الجرائم الكبرى إلى بيته فى الضلوعية يرافقه العقيد شكر مدير حسابات صلاح الدين عندما مر رتل عسكرى أمريكى على الطريق ويبدو أن إحدى مجموعات المقاومة كانت قد نصبت كمينا لهذا الرتل وجرى تبادل كثيف لإطلاق النار بين الجانبين نال المقدم على منه نصيب وافر رغم أنه لم يكن طرفا فى القتال مما أدى إلى إصابته بإطلاقة قاتلة فى الفخذ أسفرت عن نزيف كاد يودى به إلى الموت بسبب قطع بلغ طوله حوالى ١٣ سم فى الشريان الرئيسى مما تتطلب إجراء عملية جراحية « فوق الكبرى» لربط الشريان بوريد من القدم اليمنى .

ويروى لى المقدم على « أبو حسين» أنه بعد إجراء العملية إنفجر الشريان مرة أخرى ليصل إلى الموت ثانية وكان الحل الوحيد هو بتر القدم بسبب لجوء الأطباء إلى «عقد الشريان » مما أدى إلى منع وصول الدم إلى باقى القدم وهو ما يتطلب بترها ، إلا ان قدرة الله أنقذت القدم من البتر حيث سرى الدم من الشريان عبر أوردة ضعيفة مما اعتبره الأطباء معجزة لا تحدث كثيراً .. عندها قام الأطباء بإجراء عدة عمليات جراحية لإصلاح القدم وتنظيفه لمدة ٣٠ يوما متواصلة أنهت الأزمة مؤقتا إلا أنها جعلته قعيد الفراش لمدة عامين كاملين تمكن بعدها من السير باستخدام « العكازين» .

يقول « أبو حسين » أنه رفض التعويض والبقاء قعيدا فى منزله كما تجرى العادة فى مثل هذه الأمور حيث لم يعد يمكنه السير بشكل طبيعى حتى بعد شفائه إلا أن القادة الأمنيين نزلوا على رغبته للعودة إلى العمل نظرا لكفاءته وحاجة المنطقة إلى خبراته بعد أن بدأت النهايات الأخيرة لتنظيم القاعدة وأصبح مثل الثعبان الجريح يضرب فى أى مكان وأى شيء يجده ،وبالفعل تولى منصب معاون مديرية شرطة الضلوعية وتمكن من خلال مجموعة فاعلة من المعاونين ضباطاً وجنوداً من تطهير المنطقة من أخطر عناصر القاعدة واعتقال أحد أهم الناشطين وهو « على اليوسف» المفتى الشرعى لمحافظة صلاح الدين بالتنظيم كما تمكن من إعتقال أحد الأمراء الخطرين ويدعى جمال ثامر وهو أحد ال١٦ قياديا الذين فروا من سجن « المشتركة» بتكريت عام ٢٠٠٩ وكان بينهم خمسة من المحكومين

بالإعدام .

رافقت المقدم «على» ذات مرة إلى تكريت مقر جامعة صلاح الدين حيث يدرس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية لأنه لا يعرف حدودا للتعلم ولا يرى نهاية لا يمكن الوصول إليها لهذا لا يكتفى بمركزه الأمنى المرموق ونجاحاته فى ميدانه الذى اختاره وصمم عليه رغم بلوغه حد الموت مرتين وإنما يواصل التعلم إلى ما لا نهاية .

يقول « أبو حسين» أن نجله الأكبر التحق بكلية الشرطة ليتخرج ضابطا خلال هذا العام ويكمل مسيرة والده الذى غاب ثلاثة أعوام كاملة عن العمل الأمنى وعندما استفاق من كبوته وتحقق له الشفاء كانت بلدته الضلوعية « أرض النار» بدأت تفيق من كبوتها لتطرد عناصر القاعدة الذين غرروا بهم تحت عنوان الجهاد فكان الأهالى يدعمونهم بما يستطيعون ويوفرون لهم الملاذات الآمنة حتى سقطت الأقنعة وبدأت النهايات .

٢٤ - النهايات

تمتد الحكايات لتطال مناطق مؤلمة فى ذاكرة الطيبين من أهالى أرض النار بينما تتعدد الروايات حول البداية الحقيقية لانتفاضة الأهالى ضد تنظيم القاعدة الذى أحال حياتهم إلى جحيم يغلفه الرعب بعد أن تغيرت المعركة من معركة بين قوات محتلة وفصائل مقاومة داخل البلاد إلى استهداف للمواطن نفسه وترك المحتل وهو ما تتطلب وقفة وإعادة حسابات بعد أن تحولت القاعدة من مشروع مقاوم في العراق إلى مشروع لقتال واستهداف المواطن العراقي سواء كان من المسلمين الشيعة أو من المسلمين السنة، وتغيرت معالم الجهاد بشكل كامل .

تعددت الوقائع على الأرض التى لا تدع مجالا للشك وكانت سببا أساسيا في تغيير نظرة أهالى « أرض النار» إلى من احتضنوهم من المقاتلين سواء العراقيين أو العرب باعتبارهم مجاهدين وبالتالى خروجهم على عناصر القاعدة واستهدافهم بدلا من حمايتهم ومنحهم الملاذ الآمن والحاضنة التى جعلت مهمة قتلهم أو اعتقالهم شبه مستحيلة بعد أن كرست سلوكيات عناصر التنظيم قناعات لدى الناس بأن القاعدة انتقلت من فصيل مسلح يهدف إلى الجهاد ضد المحتل إلى فصيل خارجي ينفذ أجندات لا علاقة لها بالجهاد أو المقاومة وهو ما دفع الكثير من الناس إلى أن يتركوا تنظيم القاعدة بسبب اعتبار التنظيم أن كل من ليس عضوا فيه كافر أو مرتد أو ممتنع أو صائل وهى درجات من الاتهامات تستوجب العقاب والقتل فى معظم الأحيان .

اجتمع المنشقون عن تنظيم القاعدة من الأهالي مع ضباط الشرطة وعناصرها الذين عادوا لممارسة عملهم فى الضلوعية بعد أن ظلوا فى منازلهم بين مجبر غير قادر على العمل أو متعاون مع القاعدة ، محذرين من يحاول اعتراضهم بأن مصيره القتل، هذا الانشقاق عن القاعدة جاء بعد التفاوض مع ملا ناظم الجبورى أحد الستة الذين شكلوا مع أبو مصعب الزرقاوى مجلس شورى المجاهدين وذلك فى اجتماع جرى بمنزله نهاية عام ٢٠٠٥ وهو ما حدا بقادة القاعدة إلى تحذير ملا ناظم ومطالبته بالرجوع إلى رشده بعد أن هاجمهم غلانية من فوق منبر مسجد الخلفاء الذى يؤم المصلين فيه امتداداً لوالده رحمه الله .

أدى هذا الموقف إلى أن تضاعف القاعدة عملياتها ضد أهالي الضلوعية فتختطفهم وتقوم بتصفيتهم أو تعذيبهم إما بشكل علنى في الشوارع كقضايا التعزير، وإما في معتقلاتها كحجز لمدة أكثر من شهر والتعذيب والجلد وغيرها من الأمور، وهو ما أدى إلى نقطة تحول لدى الناس الذين طالهم الأذى بسبب احتضانهم للقاعدة ودعمهم لمشروع الجهاد والمقاومة، تغير المجتمع بشكل عام، بعد أن رأى أهل الضلوعية أن هذه الأفعال جزء من أجندة خارجية لا تمثل المقاومة ولا تمثل الدفاع عن الوطن ولا تمثل الجهاد، فانقلب على القاعدة ومن يواليها وقرر أن يطردها فإن امتنعت عن مغادرة حاضنتها الآمنة فلا خيار سوى القتال ، وكان هذا الخيار هو الأرجح بعد أن تمادى عناصر القاعدة فى تصرفاتهم.

وهنا تتعدد الروايات حول من قاد القتال ضد القاعدة وأين كانت بداية النهاية ومن الذى بدأ بإعلان التمرد على جحافل المسلحين المتحفزين لإسكات أى صوت يرتفع ضد إرادتهم وتصفية من يثبت ولو بالشبهة أنه يخالف منهجهم ،إلا أن كل الروايات تصب فى خانة واحدة وهى إصرار الجميع بعد أن طفح الكيل على طرد القاعدة ومحاربة عناصرها حتى يتم القضاء عليهم سواء بالاعتقال أو القتل .

الرواية الأولى لقائد شرطة الضلوعية محمد خالد عبد الحميد تقول أن جهاز الشرطة بعد أن فقد مركزه بسبب عدم تمكنه من محاربة عناصر تنظيم القاعدة الذين كانوا يحظون بدعم الأهالي باعتبارهم مجاهدين أدركوا قبل الجميع أن الأمر لا يعدو أن يكون أجندة خارجية وأن الجهاد عنوان عريض يتوارى خلفه المسلحون خاصة بعد أن بدأ «اللثام » يطغى على الشارع وبات لمن يرتديه الحل والعقد وتوجه السلاح إلى صدور العراقيين بدلا من الأمريكيين خاصة المترجمين والموظفين وعناصر القوات الأمنية ،وبعد مقتل الشرطيين جاسم ولؤى الزويع بدأت الشكوك تحوم حول تعاون هؤلاء الملثمين مع قوات الاحتلال بعد أن استفحلت قوتهم .

ويرى المقدم عبد الحميد أن الأمريكان ربما فعلوا كل ما يمكن حتى تستفحل قوة المسلحين ويزداد إجرامهم حتى أنهم كانوا يشجعونهم على استهداف رموز المجتمع المدنى حتى ينفر منهم المجتمع ويلفظهم وينوب فى القتال عن الأمريكيين ضدهم بعد أن خرجوا عن حدود السيطرة حتى أن هؤلاء المسلحين اعتبروا من يساهم فى أى تنظيم رسمى أو شعبى خارج نطاقهم جاسوسا ومتعاونا مع الاحتلال ويحق قتله وهو ما حدا بشيوخ المنطقة ووجهائها إلى الانسحاب تماما من الساحة وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد شويش وهو ما جعل الساحة خالية أمام هؤلاء المسلحين أو « الحكام الجدد» .

ويقول القائد الحالى للشرطة أن مديرية شرطة الضلوعية صارت إدارة تابعة « للمجاهدين» بعتادها وسلاحها وحتى ملابسها حتى بدأت سلوكياتهم تثير المجتمع عليهم خاصة بعد أن أقروا مبدأ تصوير البنات بدعوى التأكد من ارتدائهم الحجاب والخمار والنقاب ثم يميزون الجميلات منهن ويجبرون أهلها على تزويجها لأحد عناصر التنظيم وفق دستورهم خارج نطاق الأطر الرسمية للمجتمع أو حتى العشيرة .

وفى ٢٨ مارس عام ٢٠٠٦ هاجموا المركز الشمالى للشرطة ثم هدموا مبنى المديرية العام لشرطة الضلوعية فى شتاء ٢٠٠٧ واستولوا على كل ما فيه من سلاح وعتاد بعد أن بدأت عمليات التصفية لهم من جانب قوات الصحوة بمساعدة الشرطة التى بدأت تحاول استعادة دورها ،وعندما تولى المقدم عبد الحميد مسئولية إدارة الشرطة فى الضلوعية جاءت معلومة استخبارية بأنه سوف تجرى عملية مبايعة علنية لتنظيم القاعدة فى الشارع العام حتى تثبت القاعدة أنها مازالت قوية رغم بدء عمليات القتال ضدها حيث قرر أمراء التنظيم نصب هيئة شرعية فى الشارع العام للضلوعية يوم ٢٧ يوليو عام ٢٠٠٧ ومن يمتنع عن المبايعة يتم قطع رأسه فورا أمام الجميع وهو ما حدا بالرجل إلى أن « ينتخى» رجاله أى يطلب منهم المساعدة وحثهم بالطريقة العشائرية حتى ينهوا تلك المهزلة وخاض معركة عنيفة مرتديا ملابس رياضية غير رسمية حتى تمكن من هزيمة المسلحين وطردهم من مبنى مديرية الشرطة والمنطقة بالكامل ليهربوا إلى المناطق الصحراوية والبساتين البعيدة على تخوم المنطقة .

أما الرواية الثانية فيرويها أحد قادة الصحوة بالضلوعية وهو أحمد طبيعة الذى خاض ومازال معارك شرسة ضد عناصر التنظيم ،حيث يؤكد أن القاعدة عندما تمادت فى التحكم بالناس وصار عناصرها هم أهل الحل والعقد يتحكمون فى الضلوعية التى تتميز بكثرة عدد مثقفيها من أطباء ومهندسين وأساتذة

جامعات وقادة بالجيش والشرطة رغم أن هذه العناصر لا تحمل أية مـؤهلات ولا تملك أى رصيد اجتماعى أو عشائرى .

يقول « طبيعة» أن الأمريكيين كانوا يبحثون فى تلك الفترة عن شخص يتوافق مع أفكارهم ولديه الأرضية الراسخة لدى شباب وأهالى المنطقة ويتميز بالشجاعة التى تتيح له البدء بالتصدى لتلك الموجة العاتية من العنف التى أدت إلى أن يفقد عناصر تنظيم القاعدة تعاطف الأهالى ، وبالفعل أرسل الأمريكان فى طلبه بطريقة غير اعتيادية حيث جاء شخص من أهالى منطقة بلد الشيعية المجاورة ينتمى لعشيرة السعدى ليخبره أن هناك مذكرة اعتقال بحقه وأنه يجب أن يذهب إلى معسكر القدس ليبرىء نفسه عند الأمريكان.

وروى لى « طبيعة» كيف استقبله بالمعسكر شخص يدعى « كابتن هنجر» ، وبعد حوار جرى خلاله التعارف أبلغه أن القوات الأمريكية قررت تأسيس قوات مسلحة سرية لمقاتلة القاعدة بعقود رسمية وهو أمر اعتبره خياليا حيث كانت القاعدة تسيطر على كل مقدرات الأمور بالمنطقة ومناطق كثيرة بالعراق أمنيا وسياسيا واجتماعيا .

ويقول « طبيعة» أنه فجىء بوجود ملا ناظم الجبورى الذى كان أحد أهم قيادات القاعدة فى ذلك الوقت وجرى فى بيته تأسيس مجلس شورى المجاهدين مع زعيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى إلا أن وصول شخص يدعى « مقدم مكارثى» حسم الأمر وأكد دور ملا ناظم فى مقاومة القاعدة وتم الاتفاق على تشكيل كتيبة تصفيات لعناصر القاعدة من ١٨ شخصا ، وتواصلت الاجتماعات السرية لاختيار الأشخاص الذين لديهم استعداد للقتال ويتمتعون بذكاء ميدانى .

فى تلك الأثناء كانت قد ظهرت للوجود جماعة سرية أطلقت على نفسها اسم « الرايات السود» وهى عبارة عن مجموعة من الشباب ذوى التوجهات الإسلامية اتفقوا فيما بينهم على قتل القاعدة بعد استفحال نفوذها وظهر تأثيرها السلبى ، حيث تمكن طبيعة كما روى لى من اتخاذ هذه الجماعة كواجهة قامت بتوزيع المنشورات ضد القاعدة بعد أن قام بتنظيم العمل مدعوما من القوات الأمريكية .

وكانت أول عملية تم التخطيط لها بعناية هى تصفية « خالد الحبيب» الذى كان يقيم فى نفس المنطقة التى يتواجد بها منزل أحمد طبيعة ،إلا أن المحاولة فشلت وأصيب الحبيب وهو ما جعل قادة القاعدة يشعرون بالخطر بسبب التحركات المتلاحقة ضدهم .. فيما كانت العملية الثانية هى تصفية أحد القياديين وهو حايف الشيتاوى الذى كان يقود جيش أنصار المجاهدين حيث تم

زرع عبوة ناسفة فى صندوق نفايات وتفجيرها عن بعد لدى مروره إلا أنه نجا أيضا من الموت..أما المحاولة الثالثة فكانت قتل وهاب الصحو عن طريق بندقية قنص إلا أنه أفلت فى اللحظة الأخيرة من القتل .

ويروى « طبيعه» أن استمرار المحاولات ضد عناصر تنظيم القاعدة وقياداته عززت المخاوف لدى التنظيم وزادت المخاطر عليهم بعد ظهور معارضين علنيين وتكاثف الجميع لمحاربتهم من الأهالى وقوات الشرطة وقوات الصحوة مدعومين بهجمات القوات الأمريكية التى كانت قد قررت إنهاء دور القاعدة تماما ،كما تم تنفيذ عمليات عسكرية ضد مقاتلى القاعدة خارج الضلوعية خاصة منطقة « خر نصر» بتنسيق مع الأمريكان وبإسناد جوى .

بدأ المتطوعون يتوافدون للانضمام إلى عناصر الصحوة وشكل الشيخ نجم العبد الله الزويع مجموعة من قوات الصحوة قوامها ٥٠ مقاتلا .. كما تشكلت قوة أخرى مشابهة بقيادة وليد طلب حسنين ،وكانت أول عملية مداهمة علنية تنفذها قوات الصحوة لمنزل وزير إعلام الدولة الإسلامية محارب الجبورى حيث تمكن انتحارى يحمل الجنسية السعودية كان مختبئا بالمنزل من تفجير نفسه مما أدى إلى استشهاد « وليد» فى خريف ٢٠٠٧ .. فيما كانت العملية الثانية هى صد هجوم نفذته القاعدة ضد الضلوعية بعد طردهم من البلدة وكانت هذه المعركة هى النهاية الحقيقية لتواجد القاعدة وكسر شوكتها وهو ما جعل عناصر التنظيم يلجأون إلى صحراء العظيم ومناطق البساتين والأدغال التى صارت مصائد للموت ، وقامت قوات الصحوة بتطهير ما تبقى من جيوب وخلايا نائمة وتم توقيع وثيقة عهد لشيوخ الضلوعية بألا يظهر أى مسلح فى مناطقهم وهو ما أفقد القاعدة حاضنتها العشائرية.

ويقول « طبيعة» أن القوات الأمريكية بدأت تساوم قيادات وعناصر الجيش الإسلامى لتحركه لقتال القاعدة مقابل العفو عن مسلحيه وذلك فى منطقة المعتصم التى تمركزت فيها القاعدة بعد انسحابها وذلك من خلال مفاوضات شاقة مع الدكتور فرياد ضارى وملا بابان الذين حصلوا على موافقة قائد الجيش الإسلامى بالعراق مؤيد المتعب وهو ما أدى إلى اندلاع معارك شرسة بين عناصر القاعدة والجيش الإسلامى قادها خالد المنديل وعمر حسين بالتنسيق مع الأمريكان من خلال « طبيعه» ، إلا أن الجيش الإسلامى اضطر للانسحاب من القتال بسبب تكبده خسائر فادحة وطلب استبداله بعناصر من قوات الصحوة .

كما تكبدت القاعدة خسائر كبيرة بلغت مئات المقاتلين وهو ما شجع الشيخ باهض الفراجى أكبر شيوخ المنطقة على مقاتلة القاعدة بعد أن شكل صحوة تضم

حوالي ١٥٠ مقاتل مما أسهم فى حصار مقاتلى القاعدة وقتلهم أو اعتقالهم فى ناحية المعتصم.

ويقول « طبيعه» أنه جرى تطهير معظم المناطق المحيطة بالضلوعية ما عدا قرية « بيشيكان» المحاذية لمحافظة ديالى حيث فشلت كافة الجهود للسيطرة عليها بسبب صعوبة تضاريسها وتشابك حدودها مع جهات يسهل استخدامها للهرب مما جعلها ملاذا مناسبا لمن تمكن من الفرار من مقاتلى القاعدة .

ويؤكد «طبيعة» قوة الدور الإيرانى فى تمويل عناصر من تنظيم القاعدة تم تجنيدها لحساب إيران وهى التى سببت الكثير من المتاعب للأمريكان ومازالت القوات الأمريكية تعانى منه ،حيث جرت خلال تلك العمليات مصادرة كميات هائلة من الأسلحة والأموال الإيرانية كانت بحوزة المقاتلين ليس فى الضلوعية والمناطق المحيطة بها فقط وإنما فى مناطق أخرى مثل منطقة الأعظمية شمال العاصمة بغداد التى تم فيها اعتقال من يطلق عليه قناص الأعظمية « أبو الذهب» واثنين من مساعديه الذين اعترفوا بأنهم تلقوا تدريبهم فى إيران وأرشدوا القوات التى إعتقلتهم عن مخبأ ضخم جدا لأسلحة إيرانية الصنع وذلك رغم الصراع العقائدى بين إيران الشيعية والقاعدة التى تمثل السلفية الجهادية المتطرفة .

أما الرواية الثالثة فهى لناظم الجبوري أو « ملا ناظم» الذى رفض نصيحة صديق الأمس عدو اليوم «أبو عبيدة الجزائرى الذى طلب منه الرجوع إلى رشده وعدم مهاجمة «إخوانه المجاهدين » وقام الجبورى بإعلان الثورة مع ٨٠٠ شخص برفقة قوات الجيش التي كانت تقف على أسوار المدينة ضد القاعدة، التي أرسلت تهديدات بحق من يحاول إعادة الشرطة للعمل في الضلوعية التابعة لدولة العراق الإسلامية، وأعلن من فوق منبر الجمعة الذي كان يصدح من خلاله لقتال الأمريكيين أن هذه الجماعة التي كان ينتمي إليها خارجة عن منهج الإسلام، وأن قتالها واجب على كل مسلم بعد أن خرجت عن المنهج الحق والصراط القويم، وتحولت عن استهداف الغزاة المحتلين إلى منهج غاية في التطرف والتشدد وهو منهج الخوارج، الذين يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الكفر.

تزامن هجوم ملا ناظم مع هجمات الشرطة فردت القاعدة بهجوم على المدينة بواسطة الأسلحة المتوسطة والخفيفة والسيارات المفخخة، عندها كان الأهالي قد ضاقوا ذرعا من القاعدة ووجدوا من يتحرك أمامهم لقتالها، وتم صد الهجوم من قبل الشرطة والأهالي بعد معارك دامية قتل فيها عدد كبير من عناصر القاعدة التي اعتبرت الضلوعية بلدة مرتدة أى أنه يجب قتل كل من ينتمى إليها حتى لو

كان من أقرب أقارب أعضاء التنظيم وهو ما أدى إلى تنفيذ القاعدة لإستراتيجية جديدة بعد أن فقدت ملاذها الآمن فى الضلوعية وسقطت كل الأقنعة التى كانت تختبىء وراءها وأصدرت الحكم الأقسى على الأهالى الذى يفوق درجة الكفر وفقا لفكرهم وهو أن الضلوعية بكاملها خارجة عن الإسلام « مرتدة» .

أينما وقعت نفعت

بعد هذه المعارك وانتقال عناصر تنظيم القاعدة إلى الصحراء لترتيب صفوف مقاتليها، بعد أن تم تحرير العديد من المناطق المحيطة بالضلوعية من يد دولة العراق الإسلامية في منتصف العام ٢٠٠٧، لم تسلم تلك المناطق من بعض هجمات القاعدة التي لم تغفر لأهلها الذين تمردوا عليها إلا أنها بدأت إستراتيجية جديدة فى تلك الهجمات التى تفسر مدى الهزيمة التى لحقت بالتنظيم ماديا وبشريا وهى إستراتيجية عمادها الكر والفر أى تنفيذ عمليات سريعة ضد الضلوعية وأهلها دون الارتكاز على قواعد ثابتة من خلال تفجيرات وهجمات مسلحة واستهداف من ساهم فى طرد التنظيم خاصة ملا ناظم الجبورى الذى تعرض لثلاثة محاولات إغتيال نجا منها بأعجوبة ، بالإضافة إلى عمليات قصف مكثف بقذائف الهاون والكاتيوشا التى كانت تصيب الدور والجوامع والبساتين المحترقة وفقا لمبدأ أقره قادة التنظيم وهو « أينما وقعت نفعت» ويعنى أن أى شيء تصيبه القذيفة أو أى خسائر تسببها سواء سقطت على مسجد فقتلت المصلين أو على منزل لعائلة لا طائل لها بما يجرى فقتلت سكان المنزل من النساء والأطفال فأن أيا من تلك الخسائر مفيد ونافع باعتبار البلدة مرتدة يستحق كل أهلها القتل ويستحق ثمرها ونخيلها الحرق .

ورغم تطهير الضلوعية والمناطق المحيطة بها إلا أن محاولات تنظيم القاعدة لضربها لم تتوقف رغم ما حدث من تغييرات كبيرة تؤشر إلى سيطرة القوات الأمنية بكل عناصرها وفئاتها على مقدرات الأمور وفرض الأمن والاستقرار بسبب وجود بعض الخلايا النائمة التى تنتظر أى لحظة استرخاء لتقتنص الفرصة وتوجه إحدى ضرباتها وهو ما حدث بالفعل أثناء إحدى زياراتى يوم ٢٠ يونيو عام ٢٠١٠ عندما انفجرت عبوة ناسفة على الشارع العام مستهدفة المقدم قنديل « أبو تبارك» قائد قوة الرد السريع إلا أنه نجا من الانفجار لتبدأ مرحلة جديدة وخطة جديدة لملاحقة الخلايا النائمة لتنظيم القاعدة حتى لا تتمكن من توجيه ضربات أخرى .

٢٥ - بيت الرعب

يحكى هذا المكان قصة صعود وانهيار مجتمع الرعب والإرهاب كما يحكى كيف يمكن أن تنبت الحياة فى وادى الموت، ويبقى هذا المكان شاخصاً بكل أفراحه الحالية وأطراحه السابقة التى رسمت تاريخاً من القهر مغلفا بالدم والبارود، ثم استحال إلى ربيع للحياة ومزار للترويح عن النفس.

يحكى شعلان العود كيف صار مبنى يقع وسط مدينة الضلوعية «أرض النار» مقرا للقاعدة تجرى خلف حوائطه المظلمة قصص من الغدر والرعب والقهر كانت تتكرر سيناريوهاتها لتخلف أحزاناً ودماءً وتخط تاريخاً مليئاً بالقتل والقتل المضاد والانتقام الذى يحركه الثأر العشائرى وهو ما يخشاه الجميع رغم انتهاء أيام بيت الرعب.

فى سبعينيات القرن الماضى كان هذا المبنى ملاذا للفقراء من العائلات المتعففة الغريبة يحتضنها لتجد مكانا للإقامة بعد أن ضاقت بها أرض العراق الواسعة، ثم تمضى الأيام ويتحول البناء غير المكتمل إلى مقر رئيسى لقيادة تنظيم القاعدة يضم المحكمة الشرعية والسياف والأمراء والقوات التى تنتظر الأوامر بالتحرك لتنفيذ عملية اختطاف يتبعها قتل بعد محاكمة شرعية تفتقد لأبسط قوانين الإنسانية تطير بعدها رقبة المحكوم عليه بأنه مرتد أو كافر.

كان موقع هذا المبنى بمثابة ملاذ استراتيجى لأنه تعتبر مركزاً رئيسياً ينتهى عنده طريق الإمدادات والأسلحة والهروب إذا لزم الأمر، حيث يطل على بستان كبير ومنطقة مفتوحة تتيح لمن يقيم فيه أن يتحرك بسهولة ويسر لينفذ أى مخطط لجلب الأسلحة أو الرهائن كما أنه يصلح كمقر للإقامة للنوم والراحة بعد يوم عمل شاق يبدأ بالاختطاف والاستجواب والتعذيب ثم القتل.

كان بيت الرعب مثار استياء لأهالى «أرض النار» حيث كان سكانه يغالون فى استغلال نفوذهم القائم على العنف والإرهاب وخوف الأهالى منهم حتى بلغ الأمر إلى المطالبة بتجهيز الطعام بالإكراه باعتبار سكان هذا المكان هم حماة المنطقة والمدافعون عن شرف البلاد والعباد ومقاومى الاحتلال الغاصب.

بعدما دارت الدوائر وتغيرت الأمور كانت رغبة أهالى «أرض النار» العارمة لتغيير صورة المكان والغاء تاريخه الدموى كفيلة بأن يتحول بيت الرعب إلى أكبر مركز تجارى وترفيهى للمنطقة حيث تطوع الشباب وطلبوا من صاحب البناية ليتحول إلى مجموعة من المحلات لبيع الذهب والأزياء ومتطلبات المنزل والأسواق التى تبيع

المواد الغذائية وبات بيت الرعب يسمى «مول الضلوعية» لينبض بالحياة بعد أن كان يثير فى النفس الكثير من الألم والاشمئزاز واقبل الأهالى على محلات هذا المول أملا منهم فى استمراريته كمكان ينبض بالحياة بعد أن كان مجرد العبور من أمام تلك البناية كابوسا تخرج فيه الروح من جسد العابر بسبب الرعب الذى كان يعشش على المكان.

وكما عادت «أرض النار» أرضا للبهاء والكرم وخيمة تستضيف العابرين بعد أن كانت محرمة على أهلها قبل الغرباء عادت البناية التى كان يطلق عليها بيت الرعب لتحمل الكثير من الحياة والراحة لكل من يعبر بجوارها أو يدخلها ليتسوق بحرية غير مبال بتاريخها الدموى.



الفصل السادس

سيف
الجنوب الشيعي



بعد ترتيب وتخطيط مسبق كنت قد قررت القيام بزيارة للجنوب الشيعى وأعنى البصرة والناصرية والعمارة تلك المدائن العتيقة شديد الثراء بالتاريخ والقيم إلا أن تحذيرات أمنية ألغت تلك الزيارة التى كانت تكليلا لزيارات عابرة لمدن تضرب باستقرارها أعماق العراق، خاصة فى ظل الظرف التاريخى الذى تمر به أرض الرافدين وذلك الجدل العقيم المبنى على تصنيفات قهرية لأبناء بلد اشتهر بتنوعه الدينى والعرقى مع الإحتفاظ بمنظومته القيمية التى أسس لها نظامه العشائرى والاجتماعى عبر آلاف السنين .

كان ظهور جماعة تعرف باسم « سيف الحق» مع ما حملته أيام أغسطس القائظة من مؤشرات على عودة العنف مبررا كافيا لإلغاء الرحلة ،حيث عاد الشباب الملثم المرتدى للزى الأسود المرعب للظهور فى الشارع العراقى خاصة محافظات الجنوب الشيعى ليثير الرعب والقلق ويعزز المخاوف من دورات لا نهائية من العنف الأعمى والقتل غير المبرر خاصة مع عدم معرفة المرجعية التى تحرك تلك الجماعة ذات الزى الأسود .

كان مقررا أن تشمل الرحلة البصرة عاصمة العراق الاقتصادية التى تبعد حوالى ٦٠٠ كم جنوب بغداد والتى كانت في سبعينيات القرن الماضى أجمل من دبي حاليا ..فيها البترول وملتقى دجلة والفرات وأكبر المصانع مثل مصنع البتروكمياويات وهو اكبر مصنع في الشرق الأوسط وفيها معمل الورق في منطقة تسمى «الدير» وهى تواجه كلا من الكويت و إيران وفيها حقول مجنون أكبر الحقول النفطية في العراق .

كان أهل البصرة حتى نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينيات علمانيون لا ينتمى أيا منهم إلى التيار الدينى ،حيث كانت البصرة أم الفنون ومنها الخليل بن احمد الفراهيدي الذى تبقى منه تمثال كبير ومنها بدر شاكر السياب أحد رواد الشعر الحديث الذى يتوسط تمثاله أحد أهم ميادين البصرة ليشهد على تاريخ المدينة التى تحتضن الكورنيش والموانئ والسفن قبل أن تصبح جبهة حربية من كل النواحي إبان حرب الثمان سنوات مع إيران فى ثمانينيات القرن الماضى وقبل أن يعصف بها التطرف المتشح برداء الدين بعد عام ٢٠٠٣ الذى كان بداية لفرض الولاء للأحزاب الدينية بكل مسمياتها ومرشديها ومرجعياتها مثل حزب الفضيلة الإسلامى والتيار الصدرى وحزب الدعوة وغيرها من الأحزاب ذات الواجهة الإسلامية .

ورغم متعة زيارة جامعة البصرة فى منطقة المعقل التى تضم أحد أهم أقسام الإعلام فى العالم العربى إلا أن متعة مشاهدة حقول النخيل سواء النابضة بالحياة أو تلك التى احترقت وغادرتها الحياة في معركة الفاو لا تفوقها متعة .

كما كان مقررا أن أزور الناصرية وهى مركز محافظة ذى قار وتبعد عن بغداد حوالى ٣٦٦ كم جنوبا وخاصة الشطرة وسوق الشيوخ وشارع الحبوبي الذى يتوسط المدينة وكذلك مجموعة الأهوار التى تتمتع بحياة برية لا مثيل لها فى العالم من حيث تنوع ووفرة أحيائها وطيورها مثل أهوار الجبايش والحمار « بفتح الحاء وتشديد الميم» وهور أبو عجل .

كما كان مقررا أن ألتقى بفنان العراق الشهير ابن الناصرية حسين نعمة الذى أثرى الطرب العراقى كغيره من أبناء الناصرية مثل صباح السهل وحميد منصور وداخل حسن وحضيري أبو عزيز اللذين كانت القاهرة تحتضنهما كثيرا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي ويروى صديقى الصحفى عادل فاخر أن حضيري ارتجل أغنية شهيرة على أحد مسارح القاهرة وهى «عمي يا بياع الورد» والتى لاقت نجاحا باهراً وقتها ، أما داخل حسن فقد التقى السيدة أم كلثوم التى أعجبت بصوته جدا مطلع السبعينيات وفي لقاء تلفزيوني روى لمقدمة برامج تدعى نضال فاضل أن أم كلثوم قدمت له هدية عبارة عن تنورة « جيب» لزوجته (أم كاظم) وقال لأم كلثوم أن أم كاظم لا تلبس تنورة لأنها لا تعرف كيف تلبسها لأنها تضع على رأسها عصابة ولا يمكن أن ترتدى سوى الجلباب الأسود .

ومدينة الناصرية الحالية بنيت عام١٨٧٠ ميلادية على ضفاف نهر الفرات .بناها الأمير ناصرالأشكرباشا السعدون (أمير قبائل امارة المنتفق) وسميت على اسمه. وكان يسمى مركز المدينة سابقا عكد الهوا و هي المنطقة المسماة حاليا الحبوبي . وبنيت هذه المدينة بعد أن كثرت هجمات القبائل العربية التي كانت تجوب صحراء الجزيرة العربية على مدن جنوب العراق وفي مقدمتها كربلاء والنجف فكانت حاجة الدولة العثمانية لقبيلة قوية تحمي جزءً من جنوب العراق خاصة بعد أن بدأت الدولة العثمانية تفقد جزء من قوتها في تلك المنطقة حيث كلف الأمير ناصر السعدون وهوة شيخ أقوى القبائل في جنوب العراق آنذاك بحماية مدن الجنوب من هجمات القبائل الأخرى مقابل تزويد القبيلة المذكورة بالأسلحة والأعتدة والأموال وتم اختيار القبيلة (آل السعدون) السنية المذهب لوجود نوع من الفتور بين السلطات العثمانية والقبائل (الشيعية) بعد ثبوت تورط أفراد من المدارس الدينية الشيعية في كربلاء والنجف وقسم كبير من اعيان هاتين المدينتين في اتصالات سرية مع دولة إيران المعادية للإمبراطورية العثمانية في تلك الحقبة .تقع مدينة أور الأثرية و الزقورة الشهيرة على بعد كيلومترات معدودة من المدينة و التي يعود تاريخها لآلاف السنين. دخل الإنكليز مدينة

الناصرية بشكل كامل شهر يوليو عام ١٩١٥ عند استعمارهم للعـراق في بـدايات القرن الماضي.بعد معركة الناصرية الشهيرة حيث قتل ٢٠٠٠ جنـدي عثمـاني و ٤٠٠ جندي بريطاني و هندي بريطاني شهدت المدينة عدة اضطرابات في فترة حكم الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين حيث أنها شهدت مـا يسـمى بالانتفاضـة الشعبانية عام ١٩٩١، بعد عملية عاصفة الصحراء.

و عند احتلال العراق عام ٢٠٠٣ دخلت قوات التحالف مدينة الناصـرية بعـد معارك عنيفة مع فدائيي صدام و بعض من الضباط والأهالي اسـتمرت منـذ ٢٣ مارس/آذار حتى ٢٩ مارس/آذار ٢٠٠٣ أدت إلى تدمير العديد من مباني المدينة مثـل مبنى البهو ومبني البلدية و مدينة الملاهي إضافة لمقتل ما يقارب ال ٧٠٠ عراقي و ٢٢ جندي مارينز أمريكي و جرح ١٥٠ جندي مارينز أمريكي آخرين وأسر ثم تحرير عدد من الجنود الأمريكيين من اشهرهم جيسيكا لينش .

أصبحت مدينة الناصرية تحت قيادة القوات الإيطالية التابعة لقوات التحالف وتضم القيادة الإيطالية قوات كورية جنوبية و رومانية و غيرها.

كانت مدينة الناصرية ومحافظة ذي قار عموما ثاني محافظة عراقية تسـلم قيادتها الأمنية للقوات العراقية بشكل كامل وكان هذا عام ٢٠٠٦ بعد محافظـة المثنى

١ - النموذج البصرى

خلال سنوات المذبحة صارت عروس الجنوب العراقـي سـاحة صـراع دمـوى اجتمعت فيه كل عوامل النكبة .. صراع النفوذ والسلطة والسيطرة على تهريـب النفط .. صراع المجموعات المسلحة بكافة انتماءاتها الداخلية والخارجية .. صراع الإرادات التى حسمت للتيار المتشدد الذى صبغ الحياة فى البصرة مركز الفنـون بلون السواد واتشحت مبانيها برايات الموت .. وامتلأت جدرانها بقطـع القمـاش التى تحمل نعى من اختفى أو قتل .. صارت البصرة التي تعد ثاني أكبر مدينة في العراق فى وضع مثير للقلق رغم أنها أفضل قاعدة اقتصادية للعراق لأنها تعـانى من التوتر الدائم الناتج عن سيطرة كافة أنواع الميليشيات المسـلحة ذات الـرداء الأسود وهو ما جعلها تبقى في حالة اضطراب دائم ..اختفاء الأطباء والمدرسـين وأصحاب المهن الأخرى بات أمراً شائعاً مثلما هو الحال مع المواجهات التي تحـدث بين الميليشيات المتنافسة المرتبطة بأحزاب سياسية .. جيش المهدى .. ثـأر الله .. كتائب حزب الله.. قوات بدر .. حزب الدعوة .

وإذا كانت البصرة قد تعرضت لظلم وقسوة واليها الحجاج بن يوسف الثقفي وبلغت حد قتله كل من طالته يده من النبط وغيرهم من سكانها الأصليين حفاظاً على العرق العربي كما تشير كتب التاريخ وبحسب وصية الخليفة عبد الملك بن مروان كما يوردها الجاحظ في البيان والتبيين، فقد طالت يد القسوة في الزمن الحديث العديد من سكانها من العرب لا لشيء سوى اختلافهم الفكري أو المذهبي أو السياسي أو الاقتصادي مع حكامهم

وفي الوقت الذي غادر أبناء الطوائف المسيحية واليهودية البصرة كانت طائفة أخرى تهم بالمغادرة إلا وهي طائفة الصابئة المندائيون الذين يعتقدون بأنهم سكان العراق الأصليون حيث ينحدرون من أصول كلدانية سكنت العراق قبل أن يسكنه السومريون، وترجع لهم إحدى تسميات مدينة البصرة (بصرياثا) وهي أقدم تسمية للمدينة في كتب التاريخ. . حيث امتهن هؤلاء صياغة الحلي الذهبية والفضية منذ أقدم العصور، وعرفوا بديانتهم المائية، وهي أقدم ديانات وادي الرافدين، وما زالوا يتكلمون اللغة المندائية القديمة حتى اليوم وتراجع عددهم من ٢٠٠٠ عائلة قبل الحرب إلى أقل من ٢٠٠ عائلة حالياً.

وتشير التقديرات غير الرسمية إلى تراجع عدد العائلات السنية في المدينة بسبب تعرضها إلى مضايقات المتشددين من الشيعة، واستبعادها نهائياً من الحياة السياسية حيث لا يوجد ممثل لها داخل مجلس المحافظة على رغم أن نسبة السنّة بين السكان حالياً لا تقل عن ٢٥ في المئة، وقد انخفض وجودهم في مناطق كانت مقفلة لهم قبل ٧٥ عاماً كبلدة الزبير وأبي الخصيب بسبب تدفق آلاف العائلات الشيعية على المدينة.

كما لم يسلم سكان البصرة الشيعة الأصليين من عمليات المضايقة والتهميش أمام زحف عشائر المعدان من سكان الأهوار على قراهم حتى صارت جواميس وأبقار هؤلاء تجوب بساتين الملاكين في أقضية الفاو وأبي الخصيب وشط العرب ما اضطر الكثير منهم إلى مغادرة البصرة بعيداً عن الصدامات اليومية .

تتضمن قائمة الضحايا محققين قانونيين وسياسيين وشيوخ عشائر وأكثر ما كان يدفع للاضطراب هو قتل النساء الذي أصبح اتجاها واضحا بسبب عدم اعتبار النساء من قبل المتطرفين الدينيين ورعات.

كانت أغلب أعمال القتل تتم على أيدى مسلحين يستخدمون سيارات تعود للشرطة.بعد أن أعطيت هذه السيارات للأحزاب السياسية واختفى رجال شرطة البصرة بينما ينتشر فى الشوارع رجال ميليشيات يرتدون ملابس شرطة.

ما يقرب من ٢٠ حزبا سياسيا شيعيا تعمل مع ميليشياتها فى المدينة ذات

الأهمية الاستراتيجية ، وكلها تتنافس فيما بينها في أغلب الأحيان بطريقة عنيفة من أجل السيطرة على قطاع النفط وعوائد الميناء وعمليات التهريب عبر الحدود الإيرانية القريبة وعلى السلطة السياسية للسيطرة على العصب الاقتصادي المركزي للعراق لذلك اختفت التوترات الطائفية عن المدينة مثلما هو الحال في المدن العراقية الأخرى، إلا أن الصراع لم يختف عنها.

شكّل صعود قادة الكتل والأحزاب الشيعية الإسلامية من المأزومين مذهبياً ومن الذين دخلوا المدينة عقب سقوط النظام السابق قادمين من إيران عنصر طرد لكثير من الطاقات الحقيقية من المسيحيين والصابئة والسنة ومن الشيعة المعتدلين حتى صار انفرادهم بالسلطة مؤشراً على تدمير حياة البصرة السياسية وخراب اقتصادها.

اتسعت رقعة المصالح المالية والهيمنة السياسية بين الكتل والأحزاب التي تتصارع في المدينة، ويحاول كل من هؤلاء أن يجد له الدائرة المناسبة، فحزب الفضيلة يمسك بمفاصل شركة نفط الجنوب ونقاط التصدير بينما يبسط الصدريون سلطتهم على دائرتي الكهرباء والصحة، في حين يهيمن المجلس الأعلى الإسلامي و حزب الدعوة على الأجهزة الأمنية والمنافذ الحدودية، ومثلهم تحاول منظمة «ثأر الله» فرض سيطرتها على الموانئ في أم قصر وأبو الفلوس والفاو بالتعاون مع المهربين من ذوي القدرة المسلحة، حيث تشهد سواحل نهر شط العرب والجزر الصغيرة فيه مواجهات مع شرطة الحدود ورجال الجمارك .

ألقت الخلافات السياسية والمصالح المالية بين الكتل والأحزاب بظلالها على امن وحياة المواطن البسيط، ولم يَرُق حسم مجلس القضاء الإداري قضية عزل المحافظ التي نادى بها أعضاء قائمة البصرة الإسلامية لصالح محمد مصبح الوائلي (من الفضيلة) لمديري مكتب رئيس الوزراء نوري المالكي حيث أصدروا تعميماً للدوائر الرسمية في المدينة بعدم التعاون مع الوائلي من اجل تحجيم دوره الإداري السياسي، وهكذا تم تعليق المعاملات الرسمية بين دوائر الوزارات والسلطة التنفيذية في المدينة الممثلة بشخص المحافظ.

وقد بلغ حد غياب سلطة الدولة وتنافس عناصر الأحزاب المتنفذة فى البصرة إلى حد الحرب العلنية بين حزب الفضيلة الإسلامى الذى كان يسيطر على مقدرات الأمور بالمحافظة من جهة والتيار الصدرى الذى يتزعمه مقتدى الصدر والمجلس الأعلى الإسلامى برئاسة عبد العزيز الحكيم من جهة أخرى حيث حاول الجانبان إزاحة محافظ المدينة محمد مصباح الوائلي المنتمى إلى حزب الفضيلة بذريعة أنه يأخذ وظائف أكثر لعناصر حزبه خصوصا في قطاع النفط قياسا

بحصص التنظيمات السياسية المحلية الأخرى وعندما فشلوا جرت ثلاث محاولات لاغتيال الوائلي تارة بزرع قنبلة على حافة الطريق أثناء توجهه إلى عمله وتارة بإطلاق النار على بيته حيث قتل على الأقل اثنان من حراسه.

وبعد العملية العسكرية التي أطلق عليها صولة الفرسان والتي ورد ذكرها تفصيلا في الجزء الأول من الكتاب ومع أن انتشار قوات الجيش قد منح البصرة «استقرارا ظاهراً» فأن عروس الجنوب لم تشهد تحسنا أمنيا فعليا، واستمرت تساؤلات المواطنين عن مصير لجان كثيرة أمر بها المالكي «وتبخرت» بعد فترة وجيزة، أبرزها لجنة تعرف بلجنة الشكاوي خاصة بتلقي شكاوي المواطنين المتعلقة بالأمن والخدمات العامة. كما أن هناك قضايا أخرى أكثر تعقيداً لم تحل كما روى لي الكثير من أهالي البصرة خلال زيارة خاطفة شتاء العام ٢٠٠٩ أبرزها الكشف عن مصير المفقودين والمختطفين على يد الميليشيات المسلحة، أو على يد الجهات الأمنية نفسها.

واحدة من أكثر قصص الخطف تداولا في البصرة نشرتها وسائل إعلام عديدة نقلا عن زوجة العالم النووي المخطوف «هيثم عودة» والتي جرت وقائعها بداية عام ٢٠٠٧ عندما كان «عودة» وهو رئيس قسم الهندسة الكيمياوية بجامعة البصرة يقود سيارته وبجانبه زوجته الأستاذة بالكلية نفسها متوجهين إلى منزلهما في مجمع الأساتذة بمنطقة العشار الشهيرة التي تعتبر مركز محافظة البصرة عندما اعترضت طريقهما سيارتان إحداهما تعود إلى الشرطة ونزل من السيارة الأخرى شخصان تقدما من الأستاذ وطلبا منه بصورة مهذبة مرافقتهما إلى مقر عملهما بعد أن عرّفا عن نفسيهما أنهما من إحدى الجهة الأمنية بهدف الاستفسار عن أمور علمية تخص عمله لن تستمر أكثر من ساعة أو اثنتين .

وسارعت الزوجة إلى أخبار عائلة زوجها، وترقبوا عودته غير أنه لم يعد وانتظر أهله وأقاربه وزملاءه أي معلومة عنه وعن طريق الكلية والأصدقاء قاموا برفع شكوى إلى الجهات الأمنية وعند ذهابها إلى الدائرة الأمنية التي ادعى الخاطفون انتمائهم إليها لتقديم إفادتها حسب نصيحة محام صديق للعائلة تكفل بالقضية، لاحظت احد الشخصين الذين اقتادا زوجها موجوداً في الدائرة نفسها، وقد أخبرت الضابط بأن من اعتقله موجود في الدائرة ووعدها «خيراً». وتتابع زوجة العالم المخطوف «مرت الأيام دون نتيجة تذكر إلى حين قاد رئيس الوزراء عمليات صولة الفرسان.. حينها عاودت التقدم بشكوى إلى الجهات الأمنية، لكنني فوجئت بالمحامي يعتذر عن الاستمرار بمتابعة الشكوى بعد تلقيه عدة مكالمات تدعوه إلى ترك القضية».

وتقول زوجة العالم المخطوف أن هناك شكوك تولدت لدى العائلة من أن

الدكتور «عودة»، تم نقله إلى إيران كما أشيع باعتباره عالم في مجال الفيزياء يمكن الاستفادة من خبراته في المجال النووي كما خمّن أكثر من شخص مقرب من العائلة، إلا أن السيدة عودة لا تعلق على هذه التكهنات، وهي أسوة بعائلات أخرى تم خطف أفراد منها على يد جهات تخترق المؤسسة الأمنية، ما زالت تمني النفس بأن يكون زوجها على قيد الحياة، وأن تسهم وعود المالكي في إعادته.

٢ - مشروع انفصال

لم تهدأ أحلام الانفصال أو تطوى مشروعات التقسيم بالعراق ليوم واحد بل تخبو قليلا ويهدأ ضجيجها ليعاود مريدوها الكرّة من جديد ويطرحوها بنفس المسميات أو بمسميات أخرى .. تارة إقليم الجنوب الشيعى الذى يضم أيضا محافظتى ميسان وذى قار فى إطار الدولة الفيدرالية على شاكلة إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق وهو المشروع الذى يتبناه المجلس الأعلى الإسلامى وتارة إقليم البصرة المستقل الذى يروج له النائب البصرى وائل عبد اللطيف وغير ذلك من مشروعات الانفصال بالبصرة التى تتبناها قوى سياسية عديدة ترى البصرة نواة لدولة شيعية وفقا لمقترح نائب الرئيس الأمريكى جو بايدن القائم على تقسيم العراق إلى ثلاث دول أو إقليم ضمن العراق الفيدرالي وهى دولة كردية فى الشمال وسنية فى الوسط وشيعية بالجنوب.

وقد انطلق آخر تلك المشروعات وهو الاقتراع على إقليم الجنوب في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٨ واستمر شهراً كاملاً في ٣٤ مركزاً للتصويت منتشرة في مناطق محافظة البصرة برعاية ودعم الدكتور وائل عبد اللطيف إلا أن النتيجة كانت هزيلة ومخيبة لآمال مؤيدي أنصار إقليم البصرة بعد الحماس الشعبي الذي قوبل به المشروع في الأيام الأولى من حملة جمع التواقيع ، وأرجع المراقبون فشل المشروع إلى اختيار الداعين لفدرلة البصرة وقتا غير مناسب لطرح مقترحهم للتصويت الشعبي خلال شهر محرم الحرام الذى يواكب أيام حداد قاسية بمناسبة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء التى تعتبر من أكثر المناسبات تقديسا لدى الشيعة وتشهد المناطق الجنوبية تحديداً حالة من الركود فى كل مناحى الحياة كما أن طرح المشروع بالتزامن مع انتخابات مجالس المحافظات التى أجريت فى يناير من العام ٢٠٠٩ جعل الأمر بمثابة مغامرة خاسرة حيث أثار الشكوك حول اختيار ذلك الوقت بالضبط، من جانب أنصار الفيدرالية من خلال التصويت لإقليم البصرة واستمالة الناس لانتخابهم لمجلس

المحافظة.

وأثار المشروع أيضا الشكوك حول نيه مروجى مشروع اقليم البصرة فى التفرد بالثروة النفطية الهائلة فى وقت تسعى قوى إسلامية بقيادة المجلس الأعلى الإسلامي العراقي الذى يتزعمه عمار الحكيم على بلورة مشروع إقليم الجنوب أو المحافظات التسع أو ما يسمى بـ«إقليم الزهراء».

ولعل من أسباب انكسار مشروع إقليم البصرة هو التركيز على الأحياء الشعبية الفقيرة ذات الكثافة السكانية العالية، كالحيانية وحى خمسة ميل والقبلة وغيرها من المناطق ، حيث نصبت الخيام ورفعت اللافتات الداعية للتصويت للإقليم وكون أغلب المشرفين على الحملة الدعائية من الشباب قليلي الخبرة أو الذين ليس لهم وزن في مناطقهم رغم أن أغلب المجالس البلدية المسيرة لشؤون تلك المناطق يديرها أشخاص من حزب الدعوة الذى يتزعمه نورى المالكى أو أنصار التيار الصدري المناوئين للمشروع .

وكان عدم فهم الناس لمشروع إقليم البصرة واستغلال القوى الرافضة لذلك الجهل الأثر الأكبر فى انكسار المشروع ، فهناك كثير من الناس لم يميزوا بين الحملة الدعائية لمشروع الإقليم وانتخابات مجالس المحافظات ، ولعل خير مثال على ذلك هو ما جرى في إحدى الندوات التي أقيمت في قضاء أبي الخصيب، جنوب البصرة، حيث انبرى رجل مسن رافضا مشروع الإقليم بصورة قاطعة مبررا سبب رفضه بالخشية من وضع جوازات سفر لزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء / مراقد أئمة الشيعة وعلى رأسها مرقد الإمام على ومرقد الإمام الحسين وأخيه غير الشقيق العباس بن على / في حال نجاح المشروع! .. كما أن بعض الذين صوتوا للمشروع فعلوا ذلك بعد إشاعات تحدثت عن هدية مالية تقدر بحوالي ٢٥٠ ألف دينار (٢٠٠ دولار تقريبا) يقدمها حزب الفضيلة لمن يصوت للمشروع، إضافة إلى بطاقة صفراء تضمن لحاملها في حال نجح المشروع بأولويته في الحصول على تسهيلات عمل أو ما شابه ذلك!

٣ - الزبير

تعود فكرة جعل قضاء الزبير التابع لمحافظة البصرة وتقطنه أغلبية سنية في محيط من السكان الشيعة المحافظة العراقية التاسعة عشر إلى بداية التسعينات قبيل حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ حين أراد صدام حسين ضم الكويت إلى العراق وإلحاقها بقضاء الزبير تحت مسمى محافظة الزبير ، لكن فشل صدام حسين في حربه، قضى على هذا الحلم ، وبعد عشرين عاما تقريباً، تعالت بعض الأصوات

لإحياء مشروع «محافظة الزبير» من جديد، لكن بالطبع من دون احتلال الكويت .

وطالب العديد من أهالي الزبير بجعل قضائهم التابع لمحافظة البصرة، محافظة مستقلة بذاتها بسبب الإهمال الكبير والأوضاع الخدمية والبيئية المتردية التي يعاني منها القضاء بالرغم من إمكاناته الاقتصادية الهائلة.

ويقع مركز قضاء الزبير على بعد ٢٠ كم جنوب غرب البصرة على الحدود مع الكويت، وتبلغ مساحته حوالي ٥٠ ٪ من مساحة البصرة .

ويعد قضاء الزبير واحداً من أقدم مدن العراق لكنه بلا شوارع معبدة ولا أسواق نظامية، وهو المدينة التي يضرب بها المثل في شحة مياه الإسالة / الماء الصالح للشرب ، رغم أن الحكومة العراقية قد خصصت لمحافظة البصرة والمحافظات النفطية الأخرى في موازنتها للعام ٢٠١٠ مبلغا وقدره دولار واحد عن كل برميل نفط منتج أو مكرر، وخصصت دولاراً واحداً عن كل ١٥٠ متر مكعب من الغاز المنتج، فضلا عن تخصيص ٥٪ من إجمالي الإيرادات المتحققة من المنافذ الحدودية بهدف دعم عمليات التنمية في تلك المحافظات لكن أهالي القضاء يشكون من الأوضاع الخدمية المتردية، ومن عدم اقتسام مخصصات محافظة البصرة بشكل عادل بين الأقضية التابعة لها.

وتحصل البصرة وفق القانون الجديد على أكثر من مليوني دولار يوميا، إذ أن إنتاجها من النفط الخام وفق التقارير الحكومية يتجاوز ١,٨ مليون برميل يوميا عدا عن بقية الايرادات.

ويضم القضاء ثلاث نواحي مهمة اقتصاديا هي ميناء أم قصر ٤٥ كم جنوب غرب البصرة، وهو أكبر ميناء عراقي. وحقول الشعيبة النفطية، ومزارع الطماطم في سفوان.

كما تمر في الزبير خطوط أنابيب النفط الممتدة من مناطق الرميلة الشمالية والجنوبية وغرب الطوبة وشمال البصرة والطرق الاستراتيجية وخطوط سكك قطارات الحمولة.

وكانت شركة إيني الإيطالية التي تقود تحالفا مع شركتين أخريين هما «أوكسيدنتال بتروليوم» الأمريكية، وشركة «كوريا الجنوبية» للغاز، قد وقعت عقود تطوير آبار حقل الزبير النفطي التي يبلغ إنتاجه حالياً ٢٠٠ ألف برميل يومياً، ليصل إلى مليون و٢٠٠ ألف برميل يومياً خلال الفترة القادمة. ويتوقع الأهالي أن يحصلوا على مخصصات «توازي نسبة إنتاجهم من النفط ومن الموارد الحدودية الأخرى».

وعلى الرغم من المطالب المستمرة بتحويل قضاء الزبير إلى محافظة إلا أن الفكرة

لا تبدو واقعية أو ممكنة التحقق بسبب عدم وجود قانون حديث يتيح جعل الزبير محافظة إلا أن المطالبين يستندون على قانون المحافظات رقم ٥٩ لعام ١٩٦٩ حيث تنص المادة ٤ من القانون رقم ٥٩ بخصوص التقسيمات الإدارية على أن تستحدث المحافظة ويعين ويغير مركزها واسمها وتعدل حدودها ويفك ارتباط الأقضية والنواحي منها بمرسوم جمهوري يصدر بناء على اقتراح الوزير وموافقة السلطة التشريعية.

فيما ترى جهات في الحكومة المحلية أن نبرة التصعيد التي تعتمدها بعض الأطراف في القضاء تثير الشكوك بوقوف «أجندات خارجية» وراءها لتفتيت البصرة الغنية بالنفط.

وتأخذ هذه الجهات بعين الاعتبار، أن الزبير تضم النسبة الأكبر من الطائفة السنية في جنوب البلاد، وتتشابه في العادات والتقاليد المجتمعية مع دول الخليج وترتبط بوشائج مصاهرة مع عائلات في دولة الكويت وعشائر منطقة نجد، كما تربطها آبار مشتركة مع جوارها الخليجي ، كما أن تحويل الزبير إلى محافظة سيشجع أقضية أخرى في البصرة مثل قضاء القرنة الذي يضم حقول مجنون النفطية العملاقة على الانفصال عن المحافظة الأم .



الفصل السابع

مثلثات
السنة الوهمية

ما بين الجنوب الشيعى ومحاولات عزله منفردا أو تقسيمه داخليا إلى أقاليم وبين المثلث السنى الذى رسمته القوى الدولية اعتباريا ،تمضى مشروعات التقسيم القهرى للعراق والعراقيين التى بلغت ذروتها فى مرحلة العنف الطائفى التى كادت أن تقود العراق إلى حرب أهلية شاملة خلال العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

وتذكرنى تلك المحاولات التى تجعل العراقيين فى دوامة مستمرة تعزز مخاوف أهله وتمنعهم من التغلب عليها لبدء مرحلة جديدة من التعايش الحقيقى بقصة القرود الأربعة التى ترسم صورة مشابهة لما يعانيه العراقيون بسبب التدخلات الإقليمية والدولية .. حيث تروى أسطورة أن هناك أربعة قردة كانت تقبع في قفص صاحبها الذى يقوم بوضع الموز داخله وما أن يمسك القرد الأقوى بالموزة، حتى يصب الرجل الماء البارد على القردة الأربعة.

ثم يقوم بوضع موزة أخرى في القفص، وعندما ينطلق القرد الأقوى في طريقه لالتقاطها، تبدأ القردة الثلاثة الأخرى بضربه خوفاً من الماء البارد ، ثم يستبدل أحد القردة بقرد جديد ومرة أخرى، عندما تظهر الموزة، تبدأ القردة الثلاثة بضرب القرد الجديد الذي يريد الحصول على الموزة.

وتستمر التجربة حتى تكون القرود الثلاثة قد استبدلت بقرود جديدة، تستمر، كما تعلمت من القردة القديمة، بضرب القرد الجديد وأخيراً، تكف القردة جميعها عن محاولة تناول الموزة.

١ - المثلث السنى

بعد رواج مصطلح الجنوب الشيعى أطلقت القوات الأمريكية تسمية المثلث السني على منطقة وسط العراق الواقعة شمال وشرق وغرب العاصمة بغداد وهى ذات غالبية من العرب السنة ، ويتكون المثلث المرسوم اعتباريا من أربع محافظات عراقية هى ديالى شرقا وبغداد جنوبا والأنبار غربا و صلاح الدين ونينوى شمالا، ورغم التقديرات غير الدقيقة حول عدد سكان هذه المناطق التى تقول بأن تعدادهم يصل إلى ١٠ ملايين نسمة إلا أن عملية التعداد التى لم تتم حتى الآن بسبب محاولات متعددة لتأجيلها حيث كانت مقررة فى أكتوبر من العام ٢٠٠٩ [١] هى الوحيدة الكفيلة بتحديد نسبة سكان هذه المناطق ذات الأغلبية السنية رغم أنها تمثل فسيفساء المجتمع العراقى بكل

(١) جرى تأجيل التعداد السكاني مرة أخرى حيث كان مقررًا أن يجرى في أكتوبر ٢٠١٠ بسبب المخاوف من تغيير التركيبة الديمغرافية لبعض المناطق خاصة كركوك .

مكوناته من شيعة وتركمان وأكراد ومسيحيين غيرهم .

ولم يكن مصطلح المثلث السني شائعا قبل الغزو الذى قادته القوات الأمريكية فى مارس عام ٢٠٠٣ حيث يرجح أنه استخدم للمرة الأولى من قبل مفتش الأسلحة التابع للأمم المتحدة سكوت ريتر في مقالة كتبها لصحيفة سان فرانسيسكو كرونكل في ١٤ سبتمبر عام ٢٠٠٢ قال فيها «للوصول إلى بغداد يجب علينا أن نخترق المثلث السني» واكتسب هذا المصطلح شهرة عندما نشرت افتتاحية في صحيفة نيويورك تايمز في ١٠ يونيو ٢٠٠٣ أى بعد دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد وانهيار نظام صدام حسين بحوالى شهرين .

وتتكون المدن الرئيسية في هذا المثلث المرسوم اعتباريا من العاصمة بغداد والرمادي عاصمة محافظة الأنبار التى تبعد حوالى ١١٠ كم غربى بغداد وتكريت عاصمة محافظة صلاح الدين وتبعد ١٧٥ كم شمالى بغداد والموصل عاصمة محافظة نينوى التى تبعد ٤٠٠ كم شمالى بغداد وبعقوبة عاصمة محافظة ديالى وتبعد حوالى ٦٦ كم شمال شرقى بغداد ومن مدنه الشهيرة التى كانت عنوانا لأحداث رسمت معالم مرحلة ما بعد الاحتلال الأمريكى سامراء التابعة لمحافظة صلاح الدين وتبعد ١٢٠ كم إلى الشمال من بغداد والتى تضم مرقدى الإمامين العسكريين / على الهادى والحسن العسكرى وهما الإمامان العاشر والحادى عشر المقدين لدى الشيعة الجعفرية واللذين أطلق تفجير قبتهما الذهبية فى فبراير عام ٢٠٠٦ موجة العنف الطائفى المروعة التى راح ضحيتها مئات الآلاف من القتلى والجرحى بالإضافة إلى نزوح جماعى لحوالى أربعة ملايين عراقى / والفلوجة التابعة لمحافظة الأنبار والتى تبعد حوالى ٥٠ كم غربى بغداد وقد شهدت معارك ضارية بين المقاومة السنية المسلحة ضد القوات الأمريكية عام ٢٠٠٤ وهى المعارك التى تكبدت فيها القوات الأمريكية أكبر خسائر بشرية خلال فترة احتلالها للعراق .

ومنذ سقوط بغداد في ٩ أبريل من العام ٢٠٠٣ والأطاحة بحكم الرئيس الراحل صدام حسين أصبح هذا المثلث مركزا رئيسيا لنشاطات المقاومة العراقية والجماعات المسلحة ضد القوات الأمريكية حيث اتخذت كل التنظيمات العسكرية ذات العناوين الإسلامية من تلك المناطق منطلقا لعملياتها حيث كان عمادها الرئيسى أبناء العشائر السنية التى تقطن تلك المناطق كما شكلت الملاذات الآمنة للمقاتلين العرب سواء الذين دخلوا العراق بدافع الجهاد ضد الأمريكان أو الذين دخلوا ضمن مشروعات تدميرية تحت عنوان الجهاد ، كما نشأت فى تلك المناطق ما عرفت باسم « دولة العراق الإسلامية ، بعد تشكيل مجلس شورى

المجاهدين منتصف يناير/كانون الأول ٢٠٠٦ بهدف «جمع كلمة المجاهدين ورص صفوفهم » وكانت فكرة هذا المجلس قد جاء بها الشيخ(عبد الستار الجنابي وقد اصل لها وحدد لها أهدافا ومهام مع مجموعة من المشايخ وطلاب العلم الشرعي، ولكن سرعان ما تبنى الزرقاوي الفكرة وهمشه وقرب آخرين وضم المجلس سبعة تنظيمات مسلحة ، أبرزها تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين، وجيش الطائفة المنصورة، وسرايا الجهاد الإسلامي، وكتائب الأهوال، وسرايا أنصار التوحيد، وسرايا الغرباء، وجيش أهل السنة والجماعة الذي التحق بالمجلس بعد أسبوعين من تشكيله وكان تنظيم قاعدة الجهاد هو الفصيل المهيمن على المجلس الذى أصبح واجهة لتنظيم القاعدة في العراق، هدف التنظيم من تشكيله إلى «عرقنة» صورته في أذهان العراقيين .

٢ - مثلث الموت

فى روايته « كوبنهاجن - المثلث السنى » حاول الكاتب العراقي حسين السكاف المقيم في الدنمارك الوقوف على المسببات الحقيقية لظهور ظاهرة الإرهاب في العراق متخذاً من مدينة المحمودية / ٤٠ كم جنوب بغداد/ التي تحولت إلى منطقة تعج بالإرهابيين الذين ارتكبوا أبشع الجرائم ضمن محيطها بعد أن كانت مدينة يهتم أبناؤها بالثقافة والفن والأدب، والتي أمدت الحركة الثقافية والفنية العراقية بالكثير من أبنائها نموذجا صارخا لهذا التحول الذى جاء مع ما حمله الغزو الأمريكى للعراق من تحولات فى المجتمع العراقى ، تلك التحولات التى قلبت موازين وحال العراق والعراقيين رأساً على عقب ، وبدلا من تخليص البلاد من ظلم السلطة الدكتاتورية وجبروتها وانتشار سجونها ومعتقلاتها وساحات الإعدامات والمقابر الجماعية، صار العراقي يعيش كابوس الذبح والسلب والنهب بسبب الاحتلال الأمريكي وغياب السلطة، فى وضع تجاوز مرحلة المأساة أو الكارثة بكثير .

بعدما استقر مصطلح المثلث السنى والجنوب الشيعى والشمال الكردى وما تحمله تلك المصطلحات من مفاهيم ودلالات ظهر مثلث آخر إلى الجنوب من بغداد يطلق عليه «مثلث الموت» الذى تسكنه أغلبية سنية عربية ويضم ثلاث مدن كانت بساتين غناء تفوح منها روائح عطرية ويعيش أهلها على الزراعة بمفهوم تغلفه البساطة فى كل شيء حتى تحولت المنطقة الواقعة جنوب العاصمة العراقية بغداد أشد رعبا ودمويةً من أكثر كوابيس الدم التى تستعصى على التخيل، مدن المثلث الثلاث المحمودية واللطيفية واليوسفية عاشت ولنحو ٤ سنوات كل أنواع الإرهاب وشهدت

نشاطات كل المجموعات المسلحة وفرق الموت سواء السنية أو الشيعية ، الخطف، ثم الذبح، قطع طريق السفر إلى مدن الجنوب الشيعية ، وذبح المسافرين جهاراً نهاراً، التفخيخ، والقنص، وما إلى ذلك من مفردات الدم التي غطت وجه العراق في زمن المذبحة ، حتى عادت إلى أقرب صورة لطبيعتها بعد تحالف عشائر هذه المدن الثلاث مع الجيش العراقي والقوات الأمريكية وعاد معها الأمن المفقود .

٣ - مدينة البرتقال

عندما انفرجت الأزمة قليلا بعد منتصف العام ٢٠٠٨ وبدأت فى التحرك خارج إطار المربع المرسوم اعتباريا بدافع الخوف من المجهول أو محاولة لتأجيل الموت المفاجىء قليلا فى سيطرة وهمية أو تفجير مباغت ذهبت إلى منطقة من مناطق الموت لا شيء فيها سوى الموت وصوت النواح على القتلى ونظرات اليأس وطلب الثأر فى أن واحد كانت قد بدأت فى التحول إلى مناطق شبه آمنة إلا من بعض الجيوب والخلايا النائمة التى لا تتحرك إلا بقدر .. الناس هم الناس .. والظروف هى الظروف .. لا شيء يتغير إلا إرادة البعض الذين تقود إرادتهم الآخرين ليتخلصوا من مخاوفهم ويوقفوا دوامة القتل والعنف ويتحولوا من مرتجفين ضعفاء ضاعت بينهم النخوة المعتادة لدى العراقيين إلى أقوياء أشد شراسة من قاتليهم السابقين ليأخذوا هم طرف الكأس الذى تذوقوه ويصبحوا قتلى أو معتقلين .

كنت قد طلبت من « أبو محمد» السائق الذى رافقنى خلال رحلة معسكر أشرف مقر أعضاء منظمة مجاهدى خلق / التى ورد ذكرها تفصيلا فى الجزء الأول من الكتاب/ أن يرتب لى رحلة إلى إحدى محافظات «المثلث السنى » تلك المحافظة التى كان يطلق عليها «مدينة البرتقال» قبل أن تصبح مدائن للرعب والموت وطلب منى الرجل أن أتمهل قليلا لأنه لا يستطيع تحمل مسئولية بقاء رأسى فوق جسدى إلا فى مناطق محددة اعتاد عليها واعتاد حكامها الجدد عليه إلا أنه وعدنى بتلبية رغبتى إذا تمكن من تأمين طريق الذهاب والعودة لأن محافظة ديالى مازالت مشتعلة ومستعصية على السيطرة وفرض الاستقرار رغم الهدوء النسبى الذى باتت تنعم به مناطق عديدة بالعراق .

وعندما بدأت الرحلة كان « أبو محمد » يدرك تفاصيل كل شبر على طول الطريق منذ خروجنا من حدود العاصمة بغداد فى اتجاه الهدف المخطط له بدءا من منطقة الراشدية المتاخمة للعاصمة بغداد مروراً ببلدات ومدن محافظة ديالى باتجاه طريق الموت الذى يمر عبر جبال حمرين .. كان يقص على مسامعى كل ما شهدته تلك الطرق

من عمليات اختطاف وقتل وهجمات منظمة طالت الأمريكيين والعراقيين ويشير إلى بيوت وطرق كانت مسرحا لعمليات الاختطاف والذبح ثم يشرد ذهنه قليلا كمن يتذكر حادثا أليما طاله أو أحد أفراد عائلته وساقنى الفضول إلى السؤال الذى جاءت إجابته واضحة .. نعم كان ابنه الأكبر أحد ضحايا عمليات القتل على الهوية الطائفية بلا سبب معقول أو ذنب أو حتى شبهة ارتكاب أى جرم تجاه قاتليه أو من يقف وراءهم بالتخطيط والتمويل لهذا كان رد الفعل جاهزا .. الثأر ممن نفذ أو شارك فى التنفيذ .. سألته وهل تعرفه .. أجاب برد جاهز من منا لا يعرف قاتل ابنه عاجلا أو آجلا .

كانت الإجابة توحى باقتراب موجة عنيفة جديدة ربما أرادها المخططون لإشعال الأوضاع بالعراق لكن هذه المرة بدافع الثأر من القتلة السابقين ليتحول الضحية إلى قاتل وهو ما يعنى فتح أبواب جهنم من جديد ما لم يأخذ العقل دوره ويتم الاحتكام إلى العشائر فيما يعرف بالفصل العشائرى .

أشعل الرجل العجوز سيجارة غير مبال بما يمكن أن يخبئه لنا الطريق ، التفت نحوه لأسأله فقال «لم يعد في العمر بقية أخاف عليها من السيطرات الوهمية وعصابات التسليب وحوادث الاشتباكات المسلحة» هكذا أجابني بكل برود، بينما حسبت للمنطقة الساخنة المتجهين إليها ألف حساب، وهذا ما يفعله جميع العراقيين إذا ما أرادوا الانتقال من محافظة إلى أخرى، ربما أكون على خطأ عندما قررت السفر إلى هذه المحافظة غير آبه لنصائح زملائي المحذرة بعدم المجازفة.

لاشك أن تحذيراتهم في محلها، فالمحافظة بكافة مناطقها ، لم يبق منها سوى مشاهد الخطف والذبح على الهوية واغتيال الأبرياء، بينما ذهبت الطيبة والكرم وصفاء السريرة والتآلف بين الطوائف التي عرف بها أهلها أدراج الرياح.

ماذا حدث لهذه المدينة بالتحديد؟ ذلك ما دفعني للمغامرة والسفر إليها لأتيقن بنفسي مما حدث. «الطريق آمن» هذا فحوى الإشارات اليدوية والضوئية التي استلمها أبو محمد من سائقى السيارات المعاكسة لنا بالاتجاه، مما أضفى عليه بعض الاسترخاء تجسد في زيادة سرعة سيارته.

يقول أبو محمد أن من بين الأمور المقلقة لسالكي الطرق إلى المناطق الساخنة، هو تعطل سيارتهم في الطريق، والقلق يكون على أشده إذا كانت المنطقة التي تتعطل فيها السيارة تختلف هويتها عن هوية الركاب، فضلا عن أن السيارات المارة الأخرى لا تتوقف للذين تعطلت سيارتهم خشية أن يكون الواقفون عناصر عصابة

أو مجموعة مسلحة، لذلك يكتفي السائقون بما موجود من ركاب في سياراتهم من دون التوقف لأحد حتى وان كانت السيارة فارغة، وهذه من جملة المشكلات التي يعاني منها أيضا سكان المناطق الواقعة على الطرق الخارجية.

سيارات وشاحنات من أنواع مختلفة تصادفك في الطريق بعضها محترق والآخر مقلوب، وكلها بفعل أعمال مسلحة، هذا ما تشير إليه الأضرار التي إصابتها، بعضها محطم تماما والإضرار البادية عليها بالغة جدا، ومن المؤكد أن ركابها فارقوا الحياة في الحال، كل شيء فى الطريق إلى ديالى يشعرك بان الطريق يؤدي إلى ساحة معركة .

احتلت محافظة ديالى التى تمتد حدودها إلى تخوم جارة العراق الشرقية «إيران» المرتبة الأولى في أعمال العنف التى جرت فى زمن المذبحة بعد أن اتخذ عدد كبير من التنظيمات المسلحة، من بعض مدن المحافظة مكاناً له ومركزاً لانطلاق عملياته العسكرية وبقيت المحافظة حتى نهايات العام ٢٠١٠ فى موقع الصدارة مع محافظة نينوى بالنسبة لأعمال العنف رغم الهدوء الذى يغطى معظم مناطق العراق فى ذلك التوقيت .

بعد مقتل زعيم القاعدة فى بلاد الرافدين أبو مصعب الزرقاوى فى يونيو عام ٢٠٠٦ في أحد مناطقها احترقت ديالى كما احترقت معظم مناطق العراق ليصبح العنف أسلوب حياة وجزءا من الطقوس اليومية لسكان المحافظة التى تحولت إلى ممالك منعزلة لكل منها حكامه وقادته وقضاته وقانونه الخاص واستمرت تلك الحال حتى خلال العام ٢٠٠٨ الذى كان عام العنف في ديالى، رغم العمليات العسكرية المكثفة عراقيا وأمريكيا بالإضافة إلى نشر وحدات من الجيش في المناطق والأقضية المضطربة أمنياً التى تنتشر فيها الجماعات المسلحة وجيوب القاعدة انطلاقا من ناحية هبهب التى شهدت مقتل الزرقاوى بنصف طن من المتفجرات ساهم فى ذلك فشل الحكومة العراقية في تأمين الحدود الشاسعة مع إيران .

كانت مدن ونواحى ديالى كثيفة البساتين ملاذا آمنا لآلاف المسلحين الذين ينتمون إلى تيارات (سنية وشيعية) تفرض سيطرتها على غالبية الأقضية والبلدات والقرى.

المقدادية وبلدروز والخالص والكاطون وخان بني سعد وأبو صيدا وقرى تميم وسهيل وناحية السواقي ومنطقة السعدية وحوض حمرين و«إمام ويس» هى المناطق الأكثر اضطراباً شهدت اشتباكات مسلحة وقتل على الهوية الطائفية وتدمير مساجد للشيعة والسنة ومواجهات مناطقية بين المسلحين السنة والشيعة .

ومن الحوادث المروعة التى شهدتها تلك المناطق إضافة إلى عمليات الإعدام الجماعى وفق محاكم ينصبها المسلحون خاصة الذين ينتمون إلى القاعدة هى اختطاف وقتل ٥٠ سائقاً ومسافراً تم اقتيادهم من أحد محطات نقل الركاب فى قضاء المقدادية الذى يبعد حوالى ١١٠ كم شمال شرقى بغداد رغم الانتشار الكبير والواسع لشرطة ديالى ودوريات الجيش العراقي هناك .

مررنا عبر مناطق ناحية كنعان وبهرز والخالص والمقدادية وسعدية الشط ولكن بشكل سريع لا يسمح بالتقاط الأنفاس أو الالتقاء بأحد من السكان لأن ذلك يكرس مبدأ اللاعودة وحتمية القتل بعد أن تحول غالبية الجماعات المسلحة المنشقة عن تنظيم القاعدة والتوابين من دولة العراق الإسلامية إلى كتائب مسلحة تفرض سيطرتها أمنياً واقتصادياً على تلك المناطق بعد فرار أكثر من ٧٠ ٪ من عناصر تنظيم القاعدة باتجاه المناطق الوعرة المحاذية لمدينة كركوك .

روى لى أبو محمد أن مجموعة مسلحة /غالبا تنتمى لتنظيم القاعدة/ قامت بإعدام معلم ومعلمة أمام التلاميذ والكادر التدريسي في مدرسة بقضاء الخالص الذى يبعد حوالى ١٥ كم إلى الشمال من بعقوبة عاصمة المحافظة .. حيث اقتحمت المجموعة المسلحة صباح يوم الاثنين - ٠٧-٠٥-٢٠٠٧ ، مدرسة الخويلص الابتدائية جنوبي الخالص وأعدموا المعلم جعفر العنبكي وزوجته، وهي معلمة أيضا في المدرسة نفسها ، أمام التلاميذ والكادر التدريسي بعد أن أوثقت أيدي المعلم وزوجته، وأطلقوا النار عليهما في منطقة الرأس أمام أنظار الجميع ولاذوا بالفرار .

كانت مناطق ديالى مرتعا لكل التنظيمات المسلحة .. كتائب ثورة العشرين .. جيش المهدي.. جيش محمد .. الجيش الإسلامي العراقي .. دولة العراق الإسلامية .. جماعة التوحيد .. الجهاد في بلاد الرافدين وغير ذلك من الميليشيات وفرق الموت .

فى طريق العودة استأذن أبو محمد فى أن يدخل إلى طريق جانبى بمنطقة الخالص ليصطحب امرأة مسنة تقيم فى مكان يشبه حظيرة المواشى ليوصلها إلى منطقة أخرى ثم يعود فى صباح اليوم التالى لاصطحابها .. استجبت لطلبه بعد أن أكد أن قصتها مثيرة وسوف ترويها لى .. وما أن صعدت تلك السيدة التى تقترب من نهاية عقدها الخامس حتى بدأت تنوح على الأيام والسنين وتندب حظها العاثر وتنعى موتاها وموتى جيرانها الطيبين .. قالت لى أن الذي حصل هو أن ابنها البريء قتل في سوق يعج بالمتسوقين أمام مرأى من الناس الذين استبد بهم الذعر، وعائلتها هجرت، وعندما عاد الأب إلى البيت لنقل الأثاث قتلوه مع سائق الشاحنة أمام بيته، وظل مرميا لثلاثة أيام، لم يجرؤ أحد خلالها على نقله

إلى الطب العدلي « المشرحة» ، ولما تفسخت جثته وأخذت رائحته تملأ المكان حمله المسلحون إلى مكان غير معلوم، كما أن بيتها نهب بعد ذلك ولم يبق منه شيء، وقد عادت عائلتها إلى نقطة الصفر وكأنها لم تعمل وتكد طوال عمرها، وهم الآن يسكنون في خيمة بالعراء، يلفح بهم سموم الصيف وزمهرير الشتاء، وفوق هذا كله صار لهم أحد عشر شهراً بدون حصة تموينية برغم المراجعات المتواصلة لدائرة المهجرين ووزارة التجارة، «الموت أفضل من الحياة» بهذه العبارة ختمت المرأة حديثها فيما مسحت دموعها بطرف شالها.

بعد لحظة صمت تشبه لحظة الحداد قالت المرأة بحسرة « لقد قتل الذين لا يخافون الله ابن جارنا احمد من دون ذنب سوى انه من الطائفة الفلانية» ، كان شابا يفوح غيرة على سكان الحي، ولم يمض على زواجه ثلاثة شهور، كان مقتله إنذاراً لنا ولعدد من العائلات التي هجرت الحي حتى قبل أن ينتهي مجلس العزاء .. « لقد تأسف الجيران على رحيلنا، ولولاهم لما تمكنا من العيش، اذ يقومون باستلام الحصة وراتب زوجي سرا، وفي آخر كل شهر اتفق معهم على مكان معين لاستلم المقسوم، وأنا اليوم في طريقي إليهم » .

واصل « أبو محمد » فيما تبقى من طريق العودة سرد حكايات القتل والعنف الأعمى مع شرح خارطة مناطق النفوذ للميليشيات والمجموعات المسلحة التى تتشابك فى مناطق تماس محافظة ديالى المشتعلة ..وعندما وصلت بنا السيارة إلى تخوم العاصمة بغداد كان النهار قد غادر منتصفه بثلاث ساعات بينما بدأت الدماء التى غادرت شراييني بالعودة لتستمر فى جريانها المعتاد .. بينما عدت أنا إلى مقر العمل والسكن شبه المهجور لأستمر فى الكتابة، تطاردنى رغبة جديدة فى مغامرة جديدة لأدخل طرقا جديدة كان الموت يفترش جوانبها حتى أخرج بقصة جديدة عن الغربان الفتاكة التى كانت تتفنن في إخراج مسرحية الموت المطلوبة ولا تقتل بالطريقة التقليدية لكنها تشبع غرائزها العدوانية فى زمن المذبحة إلا أننى وجدت قصتى الأخيرة على غير حال تتأرجح بين شعر «الفخر» ونواح «العتابه» فى ليالي العراق التى تمتد إلى أشد ساحات العنف قسوة نزولا إلى أكثر مجالس التواصل الإنسانى روعة وبهاء .



الفصل الثامن

ليل الشُعر والعتابه



مو طبع الجبل بالحبل ينجر

ولا طبع الاسد يحتاج حارس

ولا كل من ركب ع الخيل خيال

ولا كل من يشيل السيف فارس

ولا كل من لبس العكال رجال

الزلم جوهرة .. مو بالملابس

اسف شفت البعض شو كانهم اطفال

بأصابيع الزلم صارو محابس/ أصبحوا خواتم فى أصابع الرجال/

بعد عودتى من رحلتى إلى مدينة البرتقال « ديالى» التى تمثل فسيفساء عراقية موسوعية من حيث المكونات والأعراق والديانات والطوائف كنت قد شاركت فى عرس لصديق شيعى من أبناء شيوخ «عشيرة العزة « التى تمتد فروعها جنوبا خاصة فى محافظة « واسط» بمكوناتها الشيعية وشرقا وشمالا فى محافظة ديالى بمكوناتها السنية شأنها فى ذلك شأن معظم العشائر العراقية التى تضم المكونين الأصيلين فى المجتمع ، وأثناء هذا الحفل دار الحديث حول أسباب إنقسام العشيرة ورحيل بعض شيوخها إلى الجنوب مع بعض الروايات الأسطورية عن بطولات رجالات العشيرة مغلفة بأبيات من الشعر البدوى العشائرى تتخلله مداخلات غنائية على وقع أنغام يصدرها الراوى تشبه العزف المنفرد على الربابه .

فكما يتميز العراق بتاريخ هو الأشد دموية بين الشعوب العربية فانه يتميز بفنونه الشعرية المتنوعة، التي تزخر بالمعاني والصور الشعرية التى تجعلك تنسى عندما تحضر إحدى جلسات الشعر والسمر سواء فى جنوب العراق أو شماله أن بحورا من الدماء ربما تسيل فى نفس الوقت على بعد خطوات من تلك الجلسة التى تصل بالحاضرين إلى حدود شاسعة من ممالك النشوة والفخر والرومانسية .

وينقسم الشعر الشعبي العراقي إلى ستة انواع رئيسة هى العمودي والبدوي والدارمي والزهيري والابوذية والعتابة .. لكل منها أطره التى تحكمه وقوانينه التى يتميز بها وأشكاله التى تتميز بها كل منطقة من مناطق العراق فالشعر الشعبي العمودي مبني على صدر وعجز وقافية واحدة أو أكثر وتستعمل فيه كل اللهجات العراقية المختلفة، وهو من أكثر أنواع الشعر الشعبي شيوعاً وانتشاراً بالبلاد ، أما الشعر البدوي فهو ينتشر في المناطق الغربية من العراق .. فيما يتكون الشعر الدارمي من بيتين فقط، ويقال أنه سمي ب(دارمي) نسبة إلى بلاد كانت

تسمى «دار مي» و نشأ فيها هذا النوع من الشعر ، بينما يتكون الشعر الزهيري من سبعه أبيات، الثلاثة الأولى تنتهي بكلمة والثلاثة الثانية تنتهي بكلمة أخرى، ليعود البيت السابع ليختم بنفس الكلمة في المجموعة الأولى ، بينما يشتهر الشعر الابوذية عند أهل المناطق الجنوبية من العراق وذلك بنفس الدرجة التى ينتشر فيها الشعر العتابة بالمناطق الوسطى والشمالية التى تعددت زيارات لها لأكتشف أن الطريق إليها المزروع بالموت ربما يكون مزروعا بالشعر أحيانا .

وفى إحدى زياراتى إلى أرض النار « الضلوعيه» وبعد يوم عمل شاق إستمعت فيه إلى قصص يغلفها الرعب فى بساتين تكسوها الدماء دعانى رفيق رحلاتى شعلان العود إلى جلسة فى منزل أحد شيوخ عشيرة الجبور التى يلتصق بها أحد أرقى فروع الشعر الشعبى العراقى وهو العتابة التى تعتبر جنسا خاصا من الشعر غير المعروف، الذي يطلق على الشعر الشعبي المغنى وتنتشر بين افراد البادية وليس بين فلاحي الريف وسكان المدن. وبصورة عامة، فالعتابة لاتقرأ بل تغنى وتنتشر في بوادي بلاد مابين النهرين وبسبب بساطة محتواها ومضمونها وكذلك وضوحها، فانها تكون قريبة من ذاكرة الانسان البسيط وسهلة الحفظ، بسبب قصرها ووضوح قافيتها.

وقد اشتقت كلمة (عتابة) من العتاب الذي يعني اللوم والشكوى، وهي تعبير فني عن نوع خاص من الشعر الشعبي المعروف في الادب العربي وظهر مثل هذا النوع من الشعر الشعبي عند ابي نؤاس وغيره ، وجمع عتابة عتابات ،وفي اللغة يقال عتابة (بكسر العين) وينبغي لها أن تكون كذلك لان العتاب هو لوم موجه للحبيب ولموقفه المتذبذب في الغالب. وما عدا الحب، فالعتابة تعبر ايضا عن الآم الافراد وهمومهم وعن كل تغير يقع في امور حيالتهم وكذلك الحنين إلى الوطن الذى داسته دبابات الإحتلال ودمرته النزاعات الخارجية والداخلية خاصة الحرب الطائفية التى أحرقت الأخضر واليابس مثل هذه الأبيات التى يتغنى بها العراقيون منذ عام ٢٠٠٣ :

جيب ليل واخذ عتابه

يامحله لمه الحبابا باليل ويا صوت العتابه

صاح الصوت مابقى غير بس العتابه

يغنيها متعب ويصيح يا الحبيب يايابا

ايه والله يالحبيب يايابا هم زين نمت تحت الترابه

قبل ماتشوف ذوله الاجنابه

يدوسون ارض الوطن بالدبابه

صدك ينرادلنا ليل وياه عتابه

واي ليل اللى يبدى من العصارى

تدرى ماكو كهرباء يحتاجلنا شويه مصارى

نشترى بيها وقود ترى يمه النفط غالي

اويلاه جيب ليل واخذ عتابه

مو النفط نفطنا ياه يايمه متدرين مو اخذوه الجنابه

ياه والنفط ياعمه صار للغرابه

والله ينرادلنه ليل ويااه العتابه

تعال ياخى جبب الربابه ترى سالفتنا

تبجى الحبابه اويلاه يايابه هم زين ما دريت بالخرابه

لان لو انت عايش جان زين حلت العتابه

بعد ماخلص عمركم وانتوا تصيحون الوطن يايابه

اياكم تمسه رجل سلابه

تعال وشوف صارت وحشه واصحابها اجنابه

صولاتكم وجولاتكم ونياشينكم

اللى اخذتوها غلابا

صدك ينرادلنة ليل وييه عتابه

والعتابة كفن من فنون الشعر الشعبي تتكون من اربعة ابيات وليس لها علاقة بـ(الرباعي) بأشكاله المختلفة المعروفة في الشعر العربي ولا في الشعر الرباعي الفارسي. كما أن اوزان العتابة تختلف عنهما. وفي الوقت الذي يكتب الرباعي باللغة العربية الفصحى وله خصائص وقواعد خاصة به، تكتب العتابة باللغة الدارجة.

والعتابة هي شكل من اشكال الرجز المحورة، وبشكل ادق، هي استخدام حر لاوزان الرجز، بمعنى خروج عن الوزن الاصلي عندما يغنى.

كما أن الوزن والشكل اللذين استخداما في العتابة في العراق يشبه إلى حد قريب شعر شعبي مصري يعود في تاريخه إلى منتصف القرن الثاني عشر ويتكون من اربعة ابيات وهو من وزن الرجز ولكن بقافية مختلفة.

وخلال الجلسة التى شاركنا فيها الشيخ دحام الجبوري وشقيقه حايف، وشقيقه عبدالله (ابو عمر)، وناظم علي (أبو الحلوه) ومعاون مديرية الشرطة المقدم حسين والمقدم قنديل امر سرية الطواريء في مديرية شرطة الضلوعية والحاج طالب مدير الامن العام ، والشيخ قيس العلي الصالح اللجي ، والدكتور مازن استاذ الجلدية في كلية الطب بجامعة تكريت، وكمال الحمادة وشقيقه ياسر ، والاستاذ حسن الناصر استاذ الاقتصاد في كلية الامام. وخلدون الحجاجي غنى المطرب والشاعر الذى يحظى بشهرة واسعة هاشم الجبورى أبياتا من العتابه والزهيرى والأبوذيه على أنغام « الربابه » مسحت بأنينها الذى جسده صوت قوى ساحر بعض مشاهد الدم ورائحة البارود التى غلفت معظم أيام الرحلات الخطرة إلى أرض النار

العتابة

عليك العين مابطل هملها (اي لم تترك عيني البكاء عليك)

وليالي الفرح دلالي هملها (وقلبي ترك ايام الفرح)

عليش امساهر الونسة هم الها (يسأل قلبه لماذا تترك الفرفشة)

حزن مثلي على افراك الاحباب (يجاويه قلبه لانه حزين على فراق الاحبة)

***

هواكم مو هوى واحد هواوين (اي لك حبين في قلب وعقلي)

وجفاكم دكدك اعضامي ابهواوين (وهجرك كسر عظامي بقصف هاونات عدد اثنين)

يهل تنشد على قلبي هو وين (يا سائلا عن قلبي اين هو)

ابهواكم تاه يا اعز الاحباب (هو تائه في عشق الحبيب)

***

اسنين الهجر ماكفاك مرعاد (اي مر عليَ يكفي هجر)

و سيف اجفاك بالدلال مرعد (وفراقك كالسيف يقطع في قلبي)

يدمع العين مزن اذار مرعد (دمع العين مثل المزن في شهر اذار بيها رعيد)

وكف شبرين بالكاع الخراب (ومن كثرة الدموع ارتفعت لمسافة قدمين في الارض البور)

***

الزهيري

بجروحي العب لعب ويس هل الجرح خله (اتركه)

ياوكت بس يلجم راد الكلب خله (خليله)

ومن كثر ظلم الهوى صاب العكل خله (اصيب عقله بخلل اي صار مخبول)

ما اعتب اعلا(على) الهوى وياك جيما طاب (طيب)

بس اعتب اعلا الجدم (القدم) حيف (لانه) اعلا بيتك طب (دخل)

داويت جرحه (قلبي) بايدي واتعبني لمن طاب (شفي)

ومن صار بي جرح حفنته ملح خله

(ايعندما اصبت بجرح وضع خلي به ملح)

***

يابو عيون المها يامحلا خط حاجبك (حاجب العين)

سمعا وطاعة ونعم تامر وانا حاجبك (الحاجب في الزمن القديم اي الوزير أو مسؤول التتشريفات)

بس لا تكلي بيوم مالي بعد حاجة بك (لكن لا تقول في يوم من الايام انه لم تعد لك بي حاجة لك)

اياك إلا الهجر خوي يصيبك خطى (يحذره من الهجر خوفا عليه أن يصيبه ذنب)

يا امهر اليرمون (الرماة) ما مرة سهمك خطا (اخطأ)

شيضرك بكل سنة جدمك علي لو خطا (اي ما هو الضير لو تمر عليه كل سنة مرة) «زوروني كل سنة مرة»

سايم عليك النبي منهو الـ عليَ حاجبك (أسالك بجاه النبي من الذي منعك عني)

ابوذية

ادموعي من الحزن لبجي (ابكي) واهلها (اترك تنزل)

وعمت عيني على بلادي وأهلها (سكانها)

وحك العشعش انجومه وهلها (وحق الله الذي كثر النجوم وجعلها تهل علينا)

وعليها (بلادي) الليل بس اصفكك بادي (اي اقضي الليل فقط اضرب يدي واحدة بالاخرى حزنا على بلادي)

سلام الكم ابجنح الطير لو رف (طار)

ويجرحي مايفيدو خياط لو رف (اي جرحي لايفيده اي علاج وخياطة)

ابد مالوم جفن العين لو رف (لو رفت رموش العين لا الومها)

سهير وينتظر شوف الاحباب (سهران وينتظر رؤية الاحبة)

اريد ارسل سلام اليكم من الضيم (القهر)

واحجي ما بدلالي من الضيم (الحزن في قلبي)

احبابي الجنت الوذ ابهم من الضيم (اي احبابي الذي كنت الوذ اليهم في الوقت الصعب)

غدوا ياحسرتي تحت التراب (أصبحوا تحت التراب)

***

الوكت ما فرح ابلادي وسرها (سرور)

وكشف للطامع اغطاها وسرها (سرها)

غزاها الاجنبي الحاقد وأسرها (من الاسر)

اوسكاها بجفه كاسات العذاب (جفه اي كفه)

مشيت وجلت (تعبت) اجدامي (قدامي) من اعداي (الركض والمشيي)

عليل ولا دوه ايشافي من اعداي (مرض)

الف عين اكرمت لاجلك من اعداي (اعدائي)

اباريهم وهم عدوان لي (أي اسايرهم رغم انهم اعدائي لكن ذلك كله لاجل عيونك)

***

يابن الكنانة (محمود الشناوي) انا بلاياك ما ارهم (ما انفعش)

لانك للجرح موصوف مرهم (دواء)

على كلبي (قلبي) بجفاك اشكثر مر هم (اي مرت هموم كثير بسبب سفرك)

واحسه بشوفتك هين عليه (لكن عندما اراك انسى كل شيء)



(١)

سرية

مكافحة الإرهاب

١١/١٢/٢٠٠٧

إفادة المتهم سعدي حسين ابراهيم احمد الهيتي تولد ١٩٦٠ شعلة كاسب ساكن صلاح الدين - الجزيرة - منطقة البوهيرات - قرية السلام ودارنا ببغداد - البياع - شارع رقم ٤ - ٣١م والدته حميدة ناصر حميد مالكي :-

في عام ٢٠٠٣ وبعد دخول القوات الامريكية إلى العراق انتميت الى كتائب ثورة العشرين في منطقتي وكان مسؤولي يدعى (ابو عبد الملك) ورئيسها جامع المسؤول العام .... في منطقة ابو غريب.
واستمريت بالعمل معهم لغاية عام ٢٠٠٧ وبعد تردي الوضع الامني في بغداد وتهديدي من قبل الميليشيات تركت داري وانتقلت الى منطقة (مجمع لواء ٢٦) حرس جمهوري سابقا قرب المنشأة وسكنت في احد الدور الحكومية المتروكة ويعتبر دون عمل وخلال تواجدي هناك التقيت بأحد الاشخاص ويدعى (ابو ماريا) وكونت معه علاقات في ساحة وعمل تجارة سيارات فيما بعد عرفت ان هذه المنطقة هي المقر العام لما يسمى بالدولة الاسلامية في صلاح الدين وفي احد الايام حضر سيارة مقام ساحة السيارات بأبي غالب الى الاداري المسؤول عن الولاية ومنه تم اشتغل من امريكا ومنه تحولت الى الاداري المسؤول عن الولاية ومنه تم توصلي الى امير الولاية ويدعى (ابو صفا) وهو من اهالي الموصل وعملت في الامور الادارية للتنظيم حيث كانت عبارة عن حقيبتين موزعة في احد الخانات بجوار المضائف الزراعية في منطقة (الركة) وكنت اقوم بتقديم معظم نصفا شهري في الامور الادارية للولاية وتقسيم الى ديوان الجند والغنائم والمبيعات والشهداء والاسرى والحركة والصيانة (الاليات) وكنت اتقاضى ملازما راتب شهري قدره مائة دولار امريكي وبعد فترة من العمل تم ترشيحي للعمل اداريا عاما للولاية ويعمل معي خمسة من اعضاء التنظيم كل واحد مسؤول عن البنود المذكورة في افادتي وتم التنسيق ملازما مباشرا لولايتي الى ان اعتقل القبض عليه في الموصل وحل بدله (ابو حمزة العراقي) كمسؤول تماما للولاية صلاح الدين لتنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين وهو بدوره يرتبط مع امراء الولايات الشرقية في العراق صعودا الى (ابو عمر البغدادي) الذي يسمى (امير المؤمنين لدولة العراق الاسلامية)

المتهم

المقدم
عضو

العقيد
عضو

المقدم
رئيس اللجنة

١/١٢/٢٠٠٧

واستمريت بالعمل مع الامير الشرعي لصلاح الدين الى فترة وحصلت الثقة بيني وبين
الشهر السابع بالتحديد قصفت القوات الامريكية منطقة الثرثار وكانت نقتل
(ابو احمد الجنابي) وزير النفط السابق وبعدها بفترة تم استدعائي من قبل (ابو حمزة
العراقي) في منطقة جزيرة سامراء والتقيت للمرة الثانية بالضبط حيث تم عصب
عيني من منطقة شارع دجيلات وتم اخذي الى المكان الذي كان به
حيث كان في احد الدور القروية المشيدة من الطين وتم مواجهتي معه وهو شاب
في حدود الثلاثين من العمر ومتوسط الطول اسمر البشرة ذو لحية خفيفة ويتكلم
لهجة المنطقة الغربية وحسب ما اعتقد من منطقة الانبار وقد ابلغني بأمر الامارة
بأنه اوكلت وزارة النفط في ولاية صلاح الدين وطلب مني اعداد دراسة واسعة
عن كيفية السيطرة على المواقع النفطية في العراق وذلك لغرض الاستفادة من وارداتها
النفطية للدولة الاسلامية وطلب مني الالتحاق الى منطقة بيجي لتسيير امور الوزارة
حيث توجهت الى بيجي والتقيت مسؤول الجناح العسكري (ابو احمد السوري) والتقيت
معه في جزيرة بيجي وعلى خط طريق حديثة في منتصف الطريق وكان اللقاء مع مرافقيه
مترددين او مراسلين البلدات الاسلامية وقدمت مشروع خطة لاعداد دراسة وبعد
النقاشات تم التوصل الى انه يتعذر السيطرة على المنابع النفطية للمنطقة
الحقولية بسبب السيطرة عليها من قبل الاحزاب الموجودة في كركوك
واما حقول نفط كركوك يتعذر السيطرة عليها بسبب وجود القوات
العسكرية (البيشمركة) اما فيما يخص بغداد فوجود القوة الكبيرة
من القوات الامريكية فيتعذر ايضا السيطرة عليها ويتبين اما ما هي السيطرة
على مصفى بيجي ركيزة ايراد للدولة حيث كانت الاتاوات للدولة
الاسلامية تواطؤ مستمر لولاية صلاح الدين وممثل منطقة مسؤول عسكري
هو المسيطر على امور القاطع وكذلك كان قائد العمليات العسكرية في منطقة
دجلة وحيات الامدادات حيث علمت من خلال عملي ان المسؤول
من تاميم يشرف هو (ابو طلحة الانصاري) وهو شاب كفيف عمره ما يقارب ٢٨ سنة

العقيد رئيس اللجنة	العقيد عضو	العقيد عضو	المتهم

وزارة الداخلية
مكافحة الارهاب
١١/١٢/٢٠٠٧

٣

ص٢

وهو صاحب ذقن متقدم (حنج) اما منطقة الاسحاقي فأميرها هو (ابو مريم)
كويتي الجنسية. اسمر البشرة. صاحب وجه مدور. يبلغ من العمر الى ٤٤ سنة
وسيارة ابو رحمة الاردني وهو شرعي منطقة الاسحاقي وقد قبض عليه
من قبل القوات الامريكية. اما منطقة الطوعية فهو ابو عبيدة السعودي
والذي اعتقل قبل فترة مع اثنان وعشرون من عناصر التنظيم خلال
القصف الامريكي وعملية الانزال حيث تم القبض عليه حيث اعتبرت المنطقة
ساقطة بعدها. اما قاطع سامراء فمقسم الى شطرين الشرقي والغربي
والمسؤول العسكري للقسم الشرقي هو (ابو ليث) من اهالي كركوك وهو شاب
وسيم ابيض البشرة عمره ٤٤ سنة تقريباً واما القاطع الغربي فيديره (صباح) سوري
الجنسية قصير القامة - نحيف جداً. عمره اكثر من [illegible] واما القاطع الاوسط
فهو من مسؤوليته الى منطقة الزوية بسبب ان المسؤول هو (ابو احمد السوري)
وهو طويل القامة اسمر البشرة عمره ٢٨ الى ٤٠ سنة اسود الشعر قليلاً
في مقدمة (اصلع) ويتواجد في منطقة الجزيرة (ابيض) اما قاطع السامراء فقد
اعتبرت القاطعة ساقطة من الدولة الاسلامية بعد مقتل الامير ابو سيف الجبوري)
واعتبرت خارج منطقة الولاية وهو شاب مخم البنية (قصير القامة) اسمر البشرة سمين
الكتف من الامام واما واردات التنظيم فتبلغ ما يقارب من ٥٠ الى ٧٠
سيارة ومنها الحمولة ومنها ما يشعل شرعية اي انها هي واردة من
عمليات سلب وسرقة. اما المسؤول عن الهيئة الشرعية فهو الملا
الذي هو (ابو سفيان) من منطقة الشام في سوريا. وبعد التقاتل
والقتال مع (ابو احمد السوري) كانت عملية السيطرة على مصفى بيجي والتي
سبق وان كان مسيطر عليه من قبل التنظيم من خلال عملهم والذي
يديره (هاشم مرشد) من سكنة البوجواري والذي كان يقوم بالتنسيق
مع المسؤولين في المصفى في بيجي والذي هو احد سراق النفط سابقاً.
والذي لديه الهدايا واسع من المصفى.

المحقق
رئيس اللجنة

المحقق
عضو

المحقق
عضو

الشاهد

٢٠

المديرية
مكافحة الإرهاب
١١/١٢/٢٠٠٧

(٤)

سرية

حيث كانت تقوم بالابتزاز والتهديد للمهندسين في المصفى باسم الدولة الإسلامية وقام
بترتيب لمدة مقطوعات من المصفى وبيعها خارج المصفى كوارد للدولة الإسلامية وبعد
افتضاح أمره وعثر على جثته مقتولاً في الصناعية الحديثة في تكريت علماً أن المسؤولين
في مصفى بيجي قام بتوجيهه قبل مقتله بترتيب العمل عن طريق المحطات الأهلية.
حيث الغاية منها عدم افتضاح أمر المسؤولين في المصفى وكشف عناصر التنظيم وإن المتعاونين
في المصفى مع الدولة الإسلامية هم كل من (محمد رشيد ومحمد أحمد مسؤولي لجنة الكاز
في [illegible] وكذلك وليد الراوي مدير الفرع السابق وحالياً مدير شعبة الزيوت وسامر
الحديثي مدير الفرع في المصفى وكذلك فلاح العبيدي مدير المصفى) وبعد مقتل
المذكور تم التقرب واستدعاء أصحاب المحطات من قبل المسؤول العسكري
في المناطق وتهديدهم وحصل اتفاق بين الدولة الإسلامية وأصحاب المحطات
حسب كل قاطع على حده حيث حصل اتفاق مع قاطع بيجي حيث يقوم أصحاب
الحملات بدفع خمسة آلاف لتر شهرياً وبدون مقابل ويتم تحميلها ليلاً
وهي المحطات (السبع الأخضر والخزاع والشراع والزيتون والخيرات والمشوار
ودوار سيتين) أما قاطع سامراء فيتم أخذ مقطوعات شهرياً من أصحاب
المحطات وهو قطع واحد من كل منتوج ويتم دفع الأجور للمنتوج من قبل الدولة
الإسلامية بعدها يتم تمشية المعاملة كاملة من قبل مندوب المحطة في المصفى
مقابل ... دولار تدفع له وبذلك يستفاد ممثل الدولة الإسلامية
بعد بيع المقطوعات بحدود خمسة الآلاف دولار لمادة البانزين وستة الآلاف
وخمسمائة دولار لمادة الكاز وسبعة الآلاف دولار لمادة النفط من كل محطة
شهرياً أي ما يعادل ٢٠ ألف دولار تكون استفادة التنظيم من كل محطة وإن
عملية تمشية القطع ودفع المبالغ والإجراءات تتم من قبل مندوب المحطة نفسها
خشية افتضاح أمر الدولة الإسلامية في حالة مراجعة أي عناصر من ...

العقيد
رئيس اللجنة

العقيد
عضو

العقيد
عضو

ما يخص الارهاب

١١/١٢/٢٠٠٧

ان المناطق في سامراء هي الطيب والمتوكل والعباسي والقيشي وحي عطية
وبلاد الراشدين والشرقية الاوسط والعشارة والشام والحدادية والمقيصل .
اما الاسماء هي المشروع والجديد ومعسكر قريش والجبيرة ومرام التركي والوضاح
فاقاطع الدور والعلم فلم تتمكن من السيطرة عليها واما جهة الانبار فيتم تهريبها
بالاتفاق مابين مسؤولي المعتصم وجماعة المعتصم والانبار حيث يتم تشغيل
سيارات سيارات العمل باسم المقاولات العائدة للانبار ويتم دخولها
المعتصم وتحميلها بالمنتوج وبعد خروجهم يتم تبديل الارقام وان حصة كل واحد
بعدها سيارات المنتوج سيارات لمعمل الى المنطقة الشمالية . وخلال فترة
اشتغالي بالامور الادارية كان يتقاضى امير كل ولاية مبلغ قدره ٢٠٠ الف دولار
في الامارة الاسلامية . وتدفع رواتب للمقاتلين وكذلك للعوائل
رواتب الاسرى والشهداء (المقتولين) واكثر المبالغ تصرف للاعمال
ان هذا المبلغ تضاف اليه مبالغ الغنائم (عمليات التسليب والخطف) وهناك
بيت شاهدته في جزيرة سامراء [illegible] على حاوية مدفونة تحت الارض .
تحتوي على اموال [illegible] وطلبات المسؤول عنها الكتيبة الامنية (الامن والاستخبارات)
المسؤول عنها هو (ابو معاذ) من اهالي بغداد . واما الامير العام عن الاستخبارات
الامن هو ابو اصيل (سعود عبد الحسين) وخلال فترة عملي ومنزل
[illegible] لوزارات الدولة الاسلامية لولاية صلاح الدين نقل وارد الى
[illegible] المستمر للولاية عن طريق ممثل وزارة النفط في التقاطع مع المسؤول
عسكري [illegible] تجارة اكثر من ٤ مليار عراقي وكذلك علمت من خلال
وجودي بالتنظيم دخول اموال عن طريق المهاجرين (المقاتلين العرب) مبالغ لدعم
تنظيم القاعدة عن طريق المقاتلين اما في ما يخص الجيش الاسلامي فيتم
دعمه عن طريق .... واما دعمهم
تنظيم القاعدة فيأتي عن طريق الجمعيات الخيرية وصندوق الزكاة وتبرعات
التبرع فجميعها [illegible] الى التنظيم .

رئيس اللجنة — عضو — عضو — المحقق

مديرية
مكافحة الأرهاب
١١/١٢/٢٠٠٧

صحيح

س/ ماهي معلوماتك عن الحوادث التي قام بها التنظيم خلال فترة عملك ضمن تنظيم القاعدة؟ وضح ذلك بالتفصيل.

ج/ إن عملي كما ذكرت هو إداري في التنظيم وهي تشمل كافة الأمور الإدارية واللوجستية إما فيما يخص العمليات العسكرية والجرائم الإرهابية كما ذكرت فإنها من مسؤولية المسؤول العسكري ولا تتم بالتنسيق مع أمير الولاية مباشرة وخلال فترة عملي كانت هناك عمليات تسليب ترتكب يومياً على طريق السدة ومنها تسليب سواق سيارات الأجرة وصهاريج النفط وآخرها عملية تسليب ثلاثة سيارات محملة بأصباغ وتم أخذ الأصباغ وترك السيارات وكذلك عمليات الخطف والقتل التي ترتكب على طريق السدة وجميعها ترتكب من أفراد تنظيم القاعدة لولاية صلاح الدين.

س/ هل لديك أقوال أخرى؟

ج/ كلا وهذه إفادتي.

العقيد عضو | العقيد عضو | العقيد رئيس اللجنة

٨



بسم الله الرحمن الرحيم

نشهد بأننا نحن الموقعين على هذا محمود إبراهيم الشاذلي
مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط في بغداد ومحمد الأنور
مراسل الأهرام في بغداد دفع مبلغ قدره ٤٠٠ أربعمائة
دولار أمريكي فقط لا غير للحصول على الإقامة في العراق
حيث تم دفع ٢٠٠ مائتي دولار فقط لا غير للحصول
على موافقة وزير الداخلية ومثلهم لمديرية الإقامة
لتكملة الإجراءات اللازمة

المقران عاليه

١- محمد الأنور
٢- محمود إبراهيم الشاذلي

العنوان شارع هدى شعراوي - القاهرة برقياً : أشاويسط القاهرة تليفون : ٣٩٣٣٠٠٠ (١٠ خطوط) تلكس : UN / ٩٢٢٥٢ / ٢٠٧٣١ - فاكس : ٣٩٣٥٠٥٥ / ٣٩٣٧٤٩٧
Address : Hoda Sharawi St., Cairo - Cable Address : ASHAWEST CAIRO - Tel.: 3933000 (10 Lines) - Telex : 92252 MENA UN / 20731 MEN UN - Fax : 3935055 / 3937497

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى / معالي السيد وزير الداخلية المحترم

م / طلب منح إقامة

إني المواطن المصري محمود إبراهيم احمد الشناوي الصحفي ومدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط في بغداد التمس من سيادتكم الموافقة على منحي إقامة حتى أتمكن من ممارسة عملي الصحفي في بغداد علماً بأنني دخلت العراق بموجب تأشيرة دخول من السفارة العراقية في القاهرة برقم ٢٢٩ / بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٢٨ وقد راجعت مديرية الإقامة العامة بتاريخ ٢٠٠٦/٧/١٦ ورقم اضبارتي في المديرية أعلاه ٨٢٥٩ لذا أرجو من سيادتكم التوجيه بتسهيل أمر منحي إقامة لمزاولة عملي الصحفي وذلك خدمة للعلاقات الطيبة بين الدولتين الشقيقتين وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير .

مدير الجوازات

٧/٢

محمود إبراهيم احمد الشناوي
رقم الجواز ٩٤٥٧/ ٧
صحفي ومدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط/بغداد

سري وشخصي

تقرير زيارة

١. **الامر الصادر بالزيارة:**
كتاب رئاسة اركان الجيش السري والشخصي المرقم١٦٥٠في٢٠٠٩/٦/٢١ .

٢. **اللجنة القائمة بالزيارة:**
أ. الفريق الركن احمد هاشم/ معاون رئيس اركان الجيش للعمليات
ب. العميد الركن عبدالله حواس خالد/ مدير مركز العمليات وزارة الداخلية
ت. العميد الركن رشيد حسن زكاط / مدير قسم الاستخبارات وزارة الدفاع

٣. **وقت وتاريخ الزيارة :**
من ٢٠٠٩/٦/٢١ ولغاية / /٢٠٠٩

٤. **مكان الزيارة :**
تمت زيارة قيادة عمليات نينوى وقطعات وزارة الداخلية في محافظة نينوى وكمايلي:-
أ. **قيادة عمليات نينوى**
أولا. وصلت اللجنة إلى قيادة عمليات نينوى يوم٢٠٠٩/٦/٢١ والتقت بالسيد قائد العمليات وتم تقديم أيجاز عن العمليات الجارية والاستعدادات المتواصلة لاستلام الملف الأمني في المحافظة بعد انسحاب القوات الأمريكية من المدن يوم٣٠حزيران ٢٠٠٩ .
ثانيا. تم عقد مؤتمر في قيادة عمليات نينوى يوم٢٠٠٩/٦/٢٢ حضره أعضاء اللجنة والسيد محافظ نينوى ورئيس المجلس البلدي للمحافظة وجميع القاده للفرق العسكرية والأجهزة الأمنية في المحافظة تم خلاله مناقشة تنفيذ الواجبات والاستعدادات لاستلام الملف الأمني بعد انسحاب القوات الأمريكية من المدن.
ثالثا. القيام بجولة استطلاعية للقاطع الغربي للمحافظة يوم ٢٠٠٩/٦/٢٣ ضم السيد معاون رئيس أركان الجيش وقائد العمليات وأعضاء اللجنة بالطائرات الأمريكية شمل قضاء سنجار- فيشخابور الحدود العراقية التركية السورية ثم الحدود السورية العراقية المحاذية للمحافظة

(١ - ٥)
سري وشخصي

سري وشخصي

رابعا.اللجنة الزائرة بقيت في قيادة عمليات نينوى أما أنا فقد بقيت في مركز التنسيق المشترك لمحافظة نينوى وخلال تواجدي وإطلاعي على المواقف والمعلومات ومن هذه المعلومات مايلي:-

(١) تم القاء القبض على مجموعة ارهابية تتألف من(٢)شخص يقومان بزرع العبوات الناسفة بالقرب من مركز التنسيق المشترك وفندق نينوى وبحوزتهم عبوات داخل عجلتهم نوع كلايزر وبعد التحقيق معهم اعترفوا بانهم من تنظيم مايسمى(بدولة العراق الاسلامية)ويمولهم شخص يدعى(ابو زمن)من احد مقرات الاحزاب الكردية في المجموعة الثقافية .علما انه سجلت حالات كثيرة مماثلة منسوبة الى الاحزاب الكردية حيث ان هناك تشجيع للارهاب ضمن مدينة الموصل لوجود اطماع توسعية من قبل الجانب الكردي.

(٢) عدم وجود بنايات مملوكة بأسم مراكز التنسيق المشترك في الموصل وانما البناية تابعة لوزارة المالية وإنشا ...

(٣) وردت معلومات اكيده تفيد بقيام الاكراد في قضاء سنجار بفتح التطوع الى القوات الخاصة التابعة لاقليم كردستان للطائفة اليزيدية والكردية وبرواتب مغرية جدا وهي(٣)مليون دينار عراقي للمتطوع ،الهدف منها مضايقة العرب الموجودين في القضاء والمناطق الاخرى لتنفيذ أطماعهم.

٥. **بقاء اللجنة في قيادة العمليات** وبقائي في مركز التنسيق المشترك والتنسيق بيننا (اعضاء اللجنة) حيث قمت بزيارات الى تشكيلات ووحدات وزارة الداخلية وكانت قائمة بعملها وتنفيذ واجباتها وتتهيأ لاستلام الملف الامني بعد انسحاب القوات الامريكية من المدينة وتوجد بعض المعاضل لكل من هذه التشكيلات والوحدات وكما يلي:-

أ. قيادة الفرقة الثالثة شرطة وطنية

أولا.سعة قاطع المسؤولية وقلة القطعات الماسكة وبعد التشكيلات والوحدات عن مقر القيادة .

ثانيا.ضعف الجانب الاستخباري وعدم التنسيق بين مفاصل الاستخبارات في المحافظة.

ثالثا.قلة الجهد الهندسي المتيسر مع قطعات الفرقة وقلة مواد التحكيم وعدم توفر مواد الادامة والتصليح لكافة الوحدات .

رابعا.نقص في الضباط وخاصة رتب(رائد) فما دون وكذلك نقص في المراتب والاليات والاسلحة والتجهيزات .

(٢ - ٥)

سري وشخصي

سري وشخصي

ب. مديرية شرطة نينوى

اولا.مديرية شؤون الجنائية والحركات

(١) الحاجة الى فتح اكثر من(٢٠)مركز للشرطة في الاحياء السكنية والمناطق التي لاتوجد فيها مراكز للشرطة .

(٢) تزويد تلك المراكز بالعجلات والتجهيزات اللازمة والاشخاص والاسلحة.

(٣) هنالك عدد كبير من افراد الشرطة يعملون بعقود ولم يتم تثبيتهم لحد الان .

(٤) وجود عدد كبير من الضباط والمراتب لم يتم تثبيتهم واصدار اوامر ادارية لهم .

(٥) وجود عدد من مفاصل ووحدات وزارة الداخلية تعمل بشكل مستقل علما ان مديرية الشرطة في المحافظة هي اعلى سلطة للداخلية في المحافظة وينبغي التنسيق والعمل المشترك فيما بينها .

ثانيا.امرية افواج الطوارئ

(١) وجود نقص كبير من المنتسبين والبالغ عددهم (٢٠٢٠)منتسب .

(٢) سد النقص من العجلات الاختصاصية ومواد التحكيم .

(٣) اجراء تسوية بين الافواج ونقل الزيادات في بعض الأفواج الى الافواج الاخرى .

ثالثا.مديرية الشؤون الادارية والمالية

(١) وجود نقص كبير في الضباط والمراتب وبعدد (٥٥٢٤)ضابط ومنتسب .

(٢) لم يتم تنزيل الشهداء من ملاك المديرية لحد الان .

(٣) نقص كبير في ضباط التحقيق وكذلك في الضباط من رتبة(رائد)فما دون .

رابعا.مديرية التدريب

(١) الحاجة إلى مطعم في كلية الشرطة .

(٢) الحاجة إلى عجلة إسعاف للمركز والكلية وكذلك (٢)جرار زراعي لنقل النفايات .

(٣) الحاجة إلى عجلات حوضية أشغال ومولدات كهربائية وتزويدها بمادتي الكاز والدهون لإدامة المولدات والآليات .

(٣ - ٥)

سري وشخصي

سري وشخصي

خامسا. مديرية شؤون البنى التحتية

(١) الحاجة إلى عجلات حمل والعجلات الحوضية لنقل المواد والماء والمشتقات النفطية .

(٢) قلة الأبنية لكافة دوائر مديرية الشرطة .

(٣) قلة حصة الوقود المصروف إلى مديرية الشرطة.

(٤) قلة مواد التحكيم في المديرية.

سادسا. قسم الأدلة الجنائية

(١) عدم وجود قسم المواد الكيميائية المستخدم في الفحص اليومي .

(٢) نقص كبير في الأجهزة الفنية الخاصة بالفحص .

ج. مديرية مرور محافظة نينوى

أولا. الحاجة إلى البناية العائدة للمديرية وهي مجمع مرور الشلالات والمشغول حاليا من قبل بعض مفارز الجيش العراقي وذلك للتهيؤ لتبديل لوحات المركبات.

ثانيا. سد النقص من الأسلحة وخاصة المسدسات والبالغ عددها (١٠٠٠)مسدس .

د. حماية منشات نينوى

أولا. محافظة نينوى كبيرة جدا وتحتوي على عدد كبير من الأهداف لم يتم تأمين الحماية لجميع الأهداف في المحافظة وذلك لقلة الكوادر ونقص في الأسلحة والتجهيزات والآليات ومعدات كشف المتفجرات.

ثانيا. وجود عدد من الضباط لم يصدر لهم أمر بتثبيتهم لحد الآن وعددهم(٧٦)ضابط .

٩. **التوصيات:**

أ. تنشيط العمل الاستخباري في قيادة الفرقة الثالثة الشرطة الوطنية وإكمال قياس هذه القيادة من الأشخاص والأسلحة والتجهيزات والآليات ومواد التحكيم والإدامة والتصليح وأجهزة الاتصالات .

ب. فتح مراكز شرطة في المناطق والمحلات التي لايوجد فيها مراكز للشرطة وتزويدها بالعجلات والأشخاص والأسلحة والتجهيزات اللازمة .

ج. تثبيت الشرطة الذين يعملون بعقود وإصدار أمر التثبيت للضباط والمنتسبين الغير مثبتين في المديرية .

(٤ - ٥)

سري وشخصي

د. التنسيق والتعاون التام بين أجهزة وزارة الداخلية والعمل كفريق واحد وتبادل المعلومات لتحقيق الأهداف المرسومة .
ذ. سد نقص أفواج الطوارئ في المحافظة من الأشخاص والتجهيز والعجلات بمختلف أشكالها والأسلحة والتجهيزات ومواد التحكيم .
ر. رفد مديرية شرطة نينوى بضباط التحقيق وإكمال المجالس التحقيقية وتنزيل الشهداء من موجود المديرية .
ز. إنشاء مطعم لكلية الشرطة وتجهيزه بكل المتطلبات الضرورية لهذا المطعم.
ح. إكمال متطلبات الأدلة الجنائية وتزويدهم بالأجهزة الفنية الخاصة بالفحص وإنشاء قسم المواد الكيمياوية .
ط. إخلاء مجمع مرور الشلالات المشغول حاليا من قبل وحدات الجيش العراقي وإعادتها إلى مديرية مرور نينوى لكي تتمكن من العمل وخاصة في عملية تبديل لوحات التسجيل للمركبات .
ظ. إكمال ملاك مديرية المرور من المسدسات والبالغ عددها (١٠٠٠) مسدس .
ي. اكمال ملاك مديرية حماية المنشآت الحيوية نينوى وذلك لتأمين الحماية للاهداف الموجودة في المحافظة .
ت. إصدار أوامر إدارية لضباط حماية منشآت نينوى والبالغ عددهم (٧٦) ضابط .

(٥ - ٥)
سري وشخصي

بسم الله الرحمن الرحيم

عاش العراق موحدا

سري وشخصي

جمهورية العراق
وزارة الداخلية
المديرية العامة للعمليات
المقر المتقدم
محافظة/نينوى
العدد/ ١ / ١
التاريخ/ ١١ تما ٢٠٠٨

Republic of Iraq
Ministry of Interior
Operations general directorate
National command center
(pjcc mosul)

إلى/السيد مدير عام عمليات الوزارة المحترم

الموضوع/الوضع الأمني في محافظة نينوى

نرافق لكم طيا التقرير الخاص بالوضع الأمني لمحافظة نينوى.

يرجى التفضل بالاطلاع...مع التقدير.

المرفقات
(١) تقرير

سري وشخصي

بسم الله الرحمن الرحيم

سـري وشخصي

الوضع الأمني في محافظة نينوى

الغاية:

١ • مناقشة أسباب تدهور الوضع الأمني في المحافظة والحلول المقترحة لمعالجته .

أسباب تدهور الوضع الأمني:

٢ • هناك عده أسباب أثرت على بقاء وضع الموصل الأمني على ماهو علية ولم يتحسن رغـم تنفيـذ عملية زئير الأسد وأم الربيعين اسوة بالمحافظات العراقية الأخرى وهي .

أ. أن تركيبة المجتمع الموصلي معقدة ويمثل عراق مصغر لكونه يحتوي علـى كافـة أطيـاف المجتمع العراقي هذا الأمر زاد الوضع تعقيدا من الناحية الأمنية وحسب المقوله التاريخيـة (أرضاء الجميع غاية لا تدرك) .

ب.المساحة الجغرافية لمدينة الموصل واسعة وكبيرة جدا ومرتبطة بحـدود دوليـة مـع سوريـا وكذلك مع إقليم كردستان الأمر الذي أدى إلى عدم السيطرة علي دخول وخـروج الأشخـاص والمواد إلى المدينة وكذلك سهل للإرهاب العمل بحرية بالإضافة إلـى مرور نهـر دجلـة مـن وسط المدينة وقسمها إلى قسمين هما .

أولا: الساحل الأيسر:

غالبية سكانه خليط من العرب والأكراد والشبك والمسيحيين وحدوده الشرقية والشمالية مرتبطة مع محافظتي اربيل ودهوك الأمر الذي ولد مطامع لدى الجانب الكردي واستغلال هذا الساحل وذلك بفتح ونشر مقرات الأحزاب في البنايات الحكومية المحمية من قبل قوات البيشمركة بما لا يتناسب مع نسبة الأكراد في الموصل . الأمر الذي جعل هذه المقرات أوكار لدعم الإرهاب وجمع المعلومات عن كبار الشخصيات وأساتذة الجامعة وكبار الضباط وتصفية إعداد كبيرة منهم كذلك إرهاب السكان ضمن هذا الساحل والسيطرة على مداخل الموصل من الجانب الشمالي والشرقي بسيطرات عناصرها من الأكراد مما يسهل لمجاميعهم الدخول والخروج والعمل بحرية كذلك يتم تبديل عناصر البيشمركة المسؤولين على حماية مقرات الأحزاب كل أسبوعين حيث سجلت حالات تسليب سيارات كثيرة في هذا الساحل كذلك تمت السيطرة على الاقضية والنواحي التابعة للمحافظة وهي قضاء تلكيف – الشيخان – مخمور – سنجار والنواحي التابعة لها المحاذية لإقليم كردستان بصورة مباشرة وغير مباشرة من خلال أجهزتهم الأمنية الاسايش وقوات البيشمركة ورفع الأعلام الكردية على كل الدوائر الحكومية ضمن هذه المناطق .

(١ – ٤)

سري وشخصي

سري وشخصي

ثانيا: الساحل الأيمن:

أغلب سكان هذا الساحل من أهالي الموصل الأصليين ويقطنون في المركز أما الأحياء المحيطة بهذا الساحل فهم من القرى والأرياف التي نزحت إلى الموصل مثل حي (التنك – اليرموك – الرسالة – الإصلاح الزراعي) وغيرها وحالتهم المادية والمعاشية سيئة للغاية الأمر الذي جعل الإرهاب يستغل اغلب شبابهم لتنفيذ مخططاته وبثمن بخس. حيث تمركزت عناصر القاعدة وما يسمى بدولة العراق الإسلامية التي تصلها الإمدادات من خارج الحدود الدولية عن طريق سوريا.

ج. أن التمثيل الحقيقي للعرب والأقليات الأخرى عدى الأكراد في مجلس المحافظة ودوائر الدولة والأجهزة الأمنية لا يتناسب مع نسبة سكان أهل الموصل حيث أن أعضاء مجلس المحافظة من الأحزاب الكردية اكثر من ٨٠ ٪. وكذلك سيطرة الأكراد على جميع المناصب الحساسة في هذه المحافظة الأمر الذي أثار حفيظة المواطن وأصبحت هناك فجوة بين المواطن وأجهزة الدولة الأمنية والخدمية مما شجع ضعاف النفوس لاستغلال هذه النقطة لتشجيع الإرهاب ودعمه.

د. الوضع الاقتصادي والخدمي:

تدهور الوضع الاقتصادي والأمني خلال الخمسة سنوات الماضية بسبب عدم توفر فرص عمل لأهالي المدينة وان توفرت فأنها تقتصر على فئة معينة وبأشراف المتنفذين في دوائر المحافظة؟ أما الخدمات في محافظة نينوى تكاد تكون معدومة الا في بعض المناطق – من ماء - كهرباء – وقود - البطاقة التموينية أما من ناحية الخدمات البلدية فأنها معدومة في أغلب المناطق الأمر الذي شجع المواطن على عدم احترام القوانين ودعم الإرهاب للتخلص من هذا الوضع. علما أن كل المقاولات التي تنفذ في هذة المدينة سلمت إلى مقاولين أكراد سواء أعطيت من التحالف أو المحافظة.

٢. القوات الأمنية في المحافظة:

غير كفوءة بسبب عدم تزويدها بأجهزة ومعدات وتجهيزات تتناسب وطبيعة المعركة الحالية وأغلب عناصرها من الضباط والمراتب تنقصهم الخبرة في أساليب مكافحة الإرهاب وخاصة الحصول على المعلومات الاستخبارية وكذلك عدم تطوع أبناء الموصل الأصليين في الأجهزة الأمنية وأن اغلب المتطوعين إلى الجيش من الأكراد والمتطوعين إلى الشرطة من الاقضية والنواحي العائدة لمدينة الموصل أثر سلبا على عمل الأجهزة الأمنية التالية.

أ. الشرطة-

عمل الشرطة جيد في اغلب الأحيان ألا إن بعض العناصر أساءت لسمعة الشرطة في بداية عملها حيث بدأت مديرية الشرطة بطرد كل عنصر سيء وأصبح عملها جيد ولكن تنقصها بعض التجهيزات مثل العجلات المدرعة والأسلحة الثقيلة ودعمها من ناحية القضايا الإدارية وحل مشاكل الضباط والمراتب الغير مثبتين لحد ألان.

(٢ – ٤)

سري وشخصي

سري وشخصي

ب. الجيش- فق٢ / فق٣ أغلب منتسبيها من الأكراد الذين يشكلون نسبة أكثر من ٨٠ ٪. ويعملون لصالح أجندات سياسية بالإضافة إلى استفزاز المواطنين والمداهمات والاعتقالات العشوائية التي استهدفت الناس الأبرياء والمثقفين من أهالي الموصل حيث أن اغلب المعتقلين في هذه الفرق لم يعرف مصيرهم لحد ألان بالإضافة إلى أن الجيش سيطر على كل مداخل الموصل باتجاه المنطقة الشمالية الأمر الذي شجع على دخول وخروج المجاميع التي تنفذ عمليات داخل الموصل علما أن الشخص الذاهب باتجاه الشمال لايدخل ألا بكفيل ويتجرد من سلاحه مهما كان بينما الشخص القادم من الشمال باتجاه محافظة نينوى فانه يدخل بدون تفتيش ولا حتى سؤال من أين والى أين ذاهب .

ج. مديرية استخبارات وأمن نينوى:
كافة عناصرها من الأكراد حصرا وهم من سكنه دهوك – اربيل – السليمانية وتعمل لصالح أجندات سياسية وهذا معروف على مستوى المواطن البسيط .

د. مديرية مخابرات نينوى:
كافة عناصرها من الأكراد حصرا وهم من سكنه دهوك – اربيل – السليمانية وتعمل لصالح أجندات سياسية وهذا معروف على مستوى المواطن البسيط .

٣. الحكومة المحلية في نينوى:
التي تتمثل في شخص السيد المحافظ ونائبه ومجلس المحافظة . بعيدين كل البعد عن المواطن البسيط ولا توجد لهم سيطرة على القوات الأمنية ولا على دوائر الدولة هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى حدثت اختلاسات كبيرة جدا في هذه الدوائر ومنها اختلاس . رئيس مجلس المحافظة السابق سالم الحاج عيسى أكثر من ٦٠ مليار والذي حكم عليه بالسجن (٨) ثمانية سنوات على أحدى الاختلاسات وكذلك مدير خزينة نينوى الهارب خارج العراق الأمر الذي ولد عدم الثقة بين المواطن وهؤلاء المسؤولين .

٤. العوائل المهجرة:
دخلت إلى المدينة مئات العوائل المهجرة وخاصة من تلعفر الأمر الذي شجع . الكثير منهم على مساندة الإرهاب واصبحو الأيادي المنفذة لهم في اغلب الأحيان .

٥. دور الأعلام المحلي والعالمي:
لا يوجد هناك أي دور للأعلام المحلي في مدينة الموصل مع العلم لدى هذه المحافظة الفضائية الموصلية وتلفزيون نينوى المحلي ولكن المسؤولين اهملو هذا الجانب المهم والذي هو إرشاد وتثقيف المواطنين للتعاون مع الأجهزة الأمنية والخدمية ونقل الحقائق إلى أهالي الموصل سواء على مستوى الوضع الأمني أو الخدمي .

(٣ – ٤)

سري وشخصي

سري وشخصي

٦ • المقترحات:

أ. إخلاء مباني الدولة من مقرات الأحزاب الكردية وتقليل عددها بما يتناسب مع النسبة السكانية من الأكراد في الموصل علما انه يوجد (١١٤) مقر حزب في محافظة نينوى منها (٩٩) حزب كردي (٤٥) مقر حزب داخل مدينة الموصل و(٥٤) مقر حزب كردي بأقضية ونواحي المدينة وتحديد عدد منتسبي قوة حماية مقرات الأحزاب وتثبيت أسمائهم في المحافظة علما أن قوة الحماية الحالية لهذه الأحزاب يتم تبديلهم كل (١٤) يوم وبشكل دوري من المحافظات الشمالية .

ب. إعادة سيطرة الدولة على الاقضية والنواحي التابعة أداريا لمحافظة نينوى بكل تفاصيلها الأمنية والإدارية والخدمية .

ج. تسليم مسؤولية سيطرات مداخل ومخارج مدينة الموصل إلى مديرية الشرطة حصرا وتنسيب عناصر كفوءة ولديها الخبرة لإدارة هذه السيطرات وتزويدهم بأجهزة كشف ومعدات وأسلحة حديثة

د. تحديد الأشخاص الداخلين إلى مدينة الموصل من المناطق الشمالية وعدم دخولهم إلا بكفيل والتعامل المثل بالمثل والسيطرة على دخول وخروج الأشخاص والعجلات من المحافظات الأخرى .

هـ. تشكيل (٢) فرقة عسكرية عربية من أهالي مدينة الموصل حصرا لمسك الحدود الإدارية والسيطرة على الوضع الأمني لمدينة الموصل .

و. تبديل فق٢ فق٣ بفرق أخرى من وزارة الدفاع .

ز. أعطاء أهالي مدينة الموصل استحقاقهم في تمثيل أنفسهم في مجلس المحافظة ودوائر الدولة .

ح. أعادة العوائل المهجرة إلى مناطق سكناهم وإخراجهم من مدينة الموصل بعد إن أصبح الوضع الأمني في جميع المحافظات جيد .

ط. وضع عناصر أمن في دوائر الدولة التي أصبح يسيطر عليها الإرهاب وأغلبها تتعاون معه سواء كانت بشكل طوعي أو قصري مثل دوائر النفط – الكهرباء – الخدمات وغيرها ويجب أن تعمل هذه الدوائر بولاء للدولة وليس للإرهاب .

ك. توفير فرص عمل للشباب العاطلين عن العمل أو وضع خطة لدعم الحالة المعاشية من خلال أعطاء منحات عن طريق البطاقة التموينية على أن يحدد المبلغ لكل شخص وقطع هذه المنحة عن كل عائلة تتعاون أو تتعامل أو تأوي الإرهاب .

ل. أعادة النظر في عمل وسائل الأعلام المحلية ويجب ظهور المسؤولين في وسائل الأعلام لتوعية المواطنين بتصريحات حقيقية عن الوضع الأمني والخدمي ووضع برامج تثقيفية .

م. السيطرة على شبكات أجهزة النقال (الموبايل) التي أصبحت سلاح ذو حدين لدعم الإرهاب ومكافحته في نفس الوقت من خلال إصدار التعليمات والمستمسكات لحيازة شريحة السيم كارت للمواطنين وإصدار قوانين صارمة بحق المخالفين لتعليمات الحيازة ومنع بيع هذه الخطوط بشكل عشوائي كما يحدث حاليا في اغلب مكاتب البيع .

(٤ – ٤)

سري وشخصي

جمهورية العراق
مكتب رئيس الوزراء

بسم الله الرحمن الرحيم



REPUBLIC OF IRAQ
Prime Minister Office

السبت 2006/12/30

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن الموقعون أدناه تسلمنا من الحكومة جثة صدام حسين المجيد. ونلتزم بدفنه هذه الليلة في قريته دون تأخير لأي سبب كان.

الشيخ علي الندا	محافظ صلاح الدين	نائب المحافظ
٢٠٠٦/١٢/٣٠	حمد حمود	عبدالله حسين
	٢٠٠٦/١٢/٣٠	٢٠٠٦/١٢/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق
رئاسة مجلس الوزراء

REPUBLIC OF IRAQ
Prime Minister Office

No.:
Date: / /200

العدد: [illegible]
التاريخ: ٢٩/١٢/٢٠٠٦

على الفور
سري وشخصي ويفتح بالذات

امر ديواني / س ك ٥٦

استنادا لاحكام الفقرة (سابعا) من امر اعادة العمل بعقوبة الاعدام رقم (٣) لسنة ٢٠٠٤، وتنفيذا للقرار التمييزي المرقم ٢٩/ت/٢٠٠٦ المشار اليه في كتاب المحكمة الجنائية العراقية العليا (١/د١) في ٢٦/١٢/٢٠٠٦، واستنادا الى المادة ١٣٢ من الدستور والفقرة (١ ثانيا وثالثا) و١ و٢ و١٣ و٢٤ و٢٧ من قانون المحكمة الجنائية العراقية العليا رقم (١٠) لسنة ٢٠٠٥، واشارة الى رسالة فخامة رئيس جمهورية العراق في ٢٩/١٢/٢٠٠٦ والتي تشير الى عدم الحاجة الى المصادقة على احكام المدانين في اثناء كون قانون المحكمة الجنائية العراقية العليا خاص ولا ينص على ضرورة التصديق
قررنا ما هو آت:-
اولا: تنفيذ عقوبة الاعدام شنقا حتى الموت بحق المدانين:
١- صدام حسين المجيد.
٢- برزان ابراهيم الحسن.
٣- عواد حمد البندر.

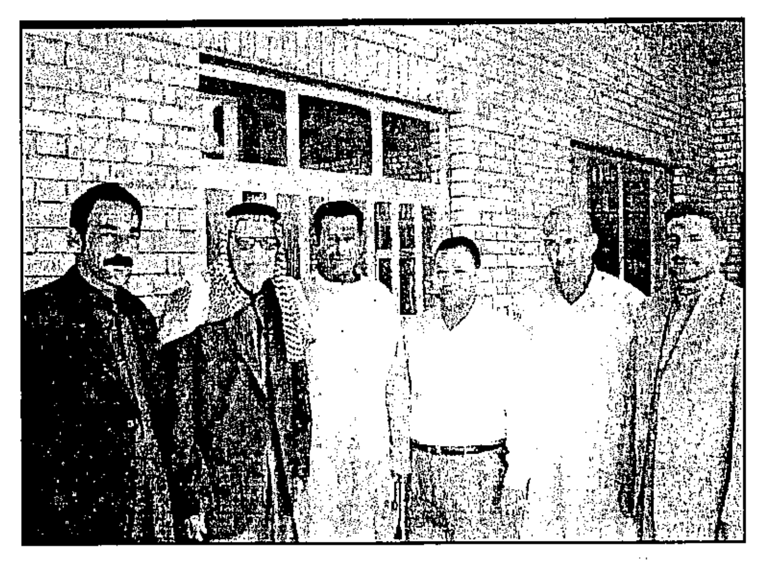
ثانيا: على وزير العدل تنفيذ هذا الامر.

المرفقات: - نسخة من رسالة فخامة رئيس الجمهورية المحترم المشار اليها اعلاه.
- نسخة من كتاب المحكمة الجنائية العراقية العليا المشار اليه اعلاه.

نوري كامل المالكي
رئيس الوزراء
٢٩/١٢/٢٠٠٦

نسخة منه الى:
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]
- [illegible]

قرار إعدام صدام حسين بتوقيع نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي



الكاتب مع السيد مالك الياسري



شيخ السوالم من قريش في الجنوب العراقي



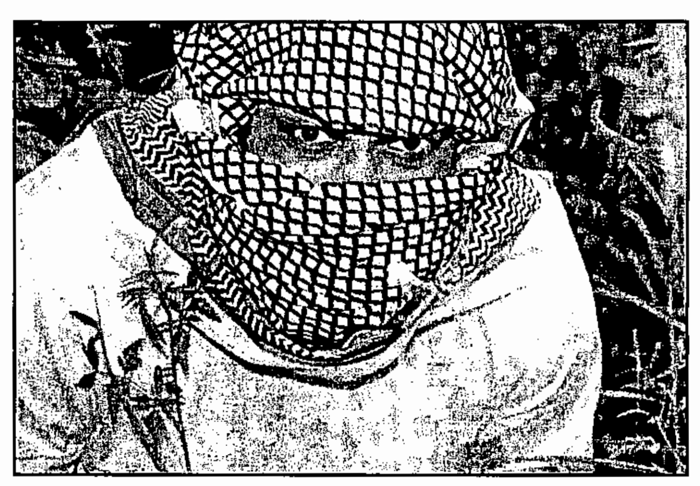
مرقد الإمامين العسكريين في ساموراء الذي أطلق تفجير قبته الذهبية أعمال العنف الطائفي بداية العام ٢٠٠٦



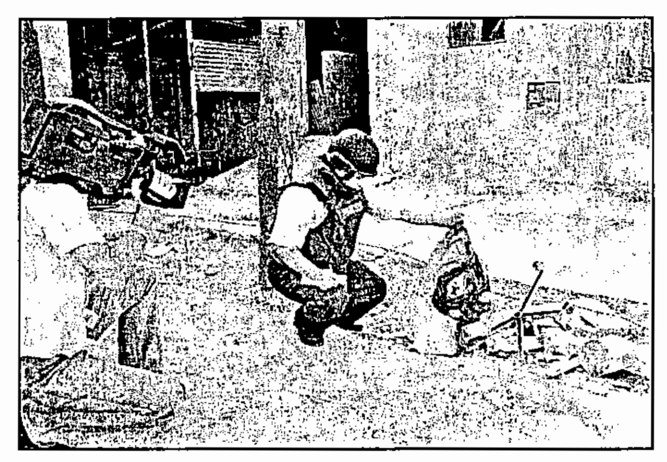
الكاتب مع أبو خالد الذي تسلم جثة صدام حسين وقام بعملية دفنه في قريته العوجة بتكريت



الكاتب أمام باب المهدي المؤدي إلى باحة مرقد العسكريين والسرداب الذي غاب فيه المهدي المنتظر ويعتقد الشيعة أنه منه سيعود



الكاتب يرتدي اللثام في أحد البساتين التي كانت أهم مراكز نفوذ القاعدة في أرض النار



الكاتب بالزي الواقي للرصاص مع بعض بقايا أحد التفجيرات في بغداد



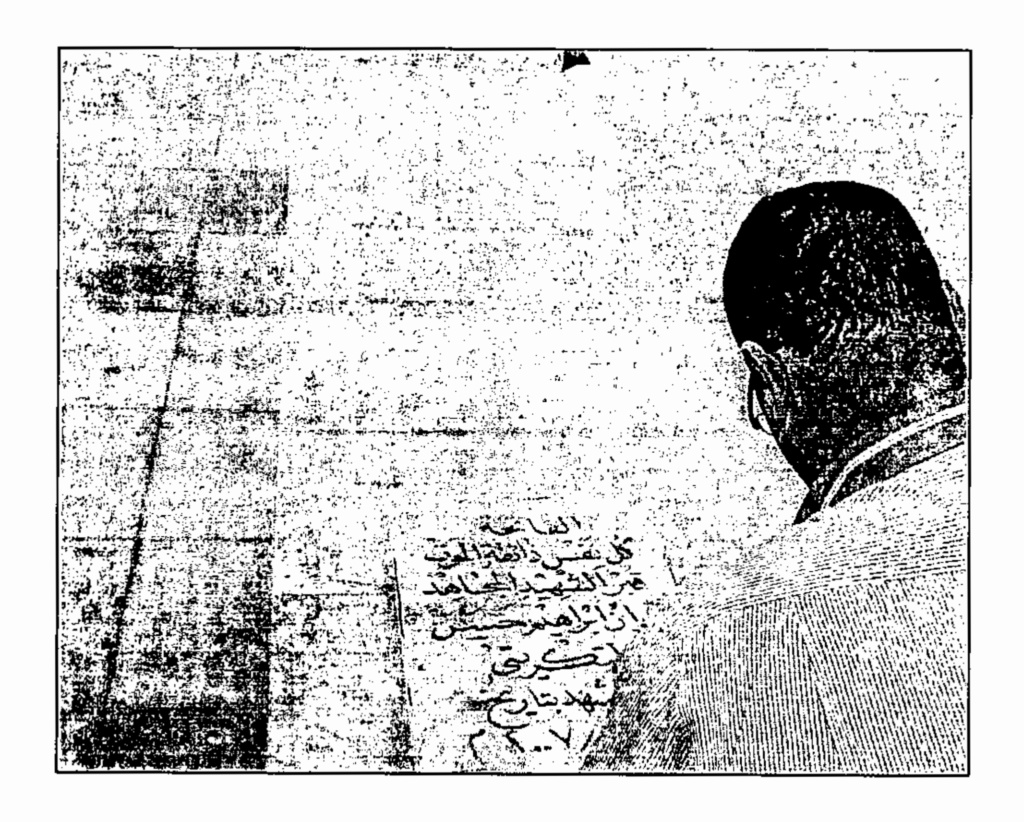
الكاتب بالزي الواقي



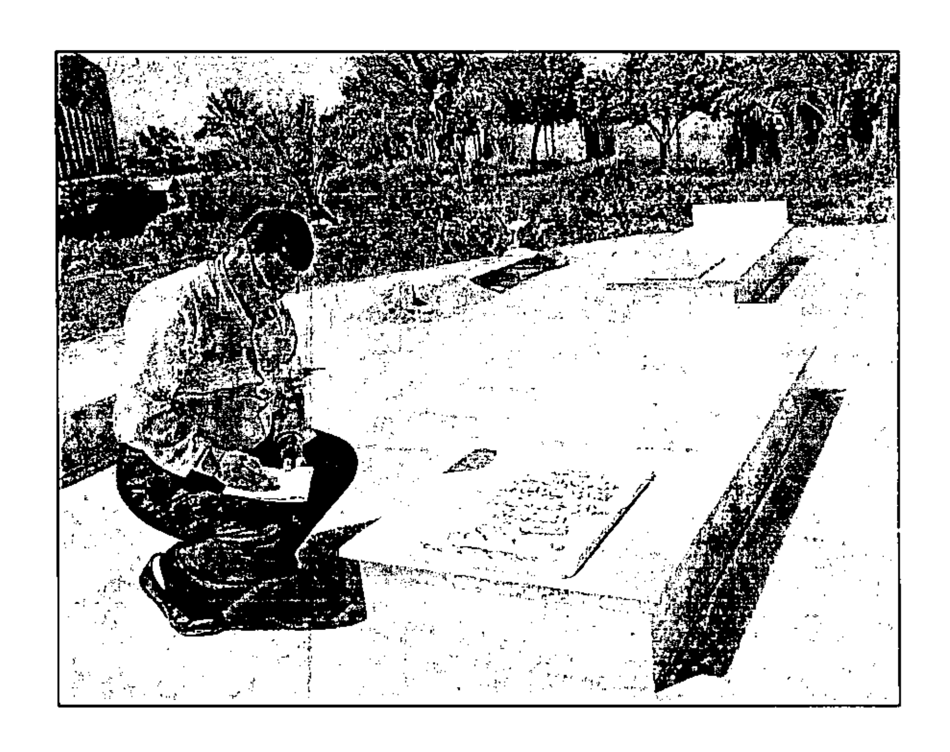
الكاتب مع الصعيدي الذي قاتل القاعدة



الشاعر رحيم المالكي



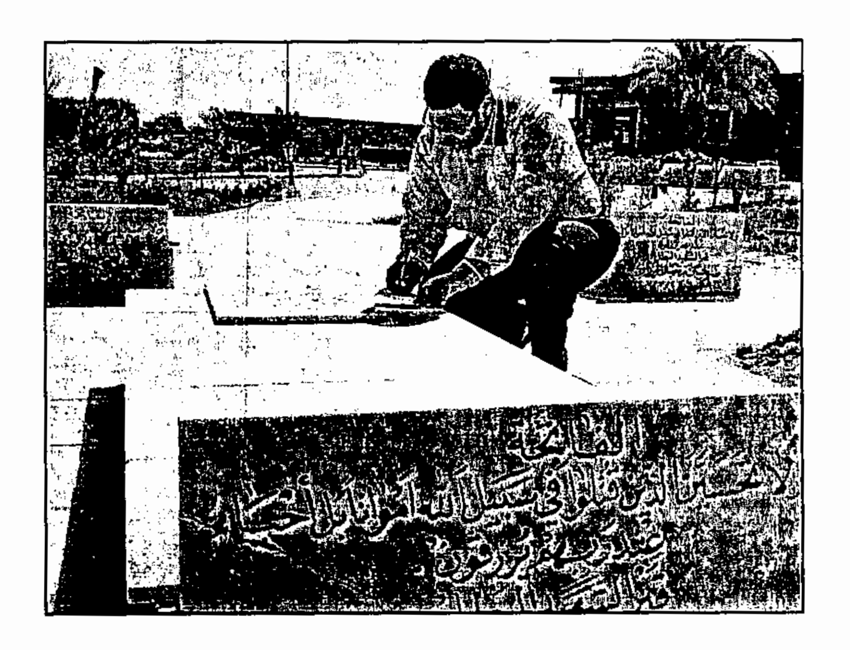
الكاتب أمام قبر برزان التكريتي الأخ غير الشقيق لصدام حسين



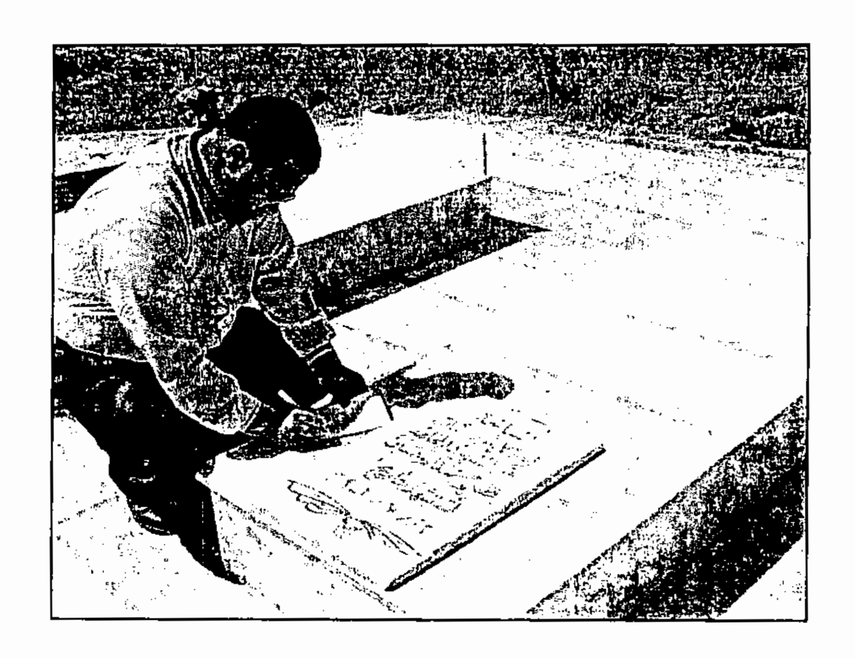
الكاتب أمام قبر عواد حمد البندر قاض محكمة الريجيل



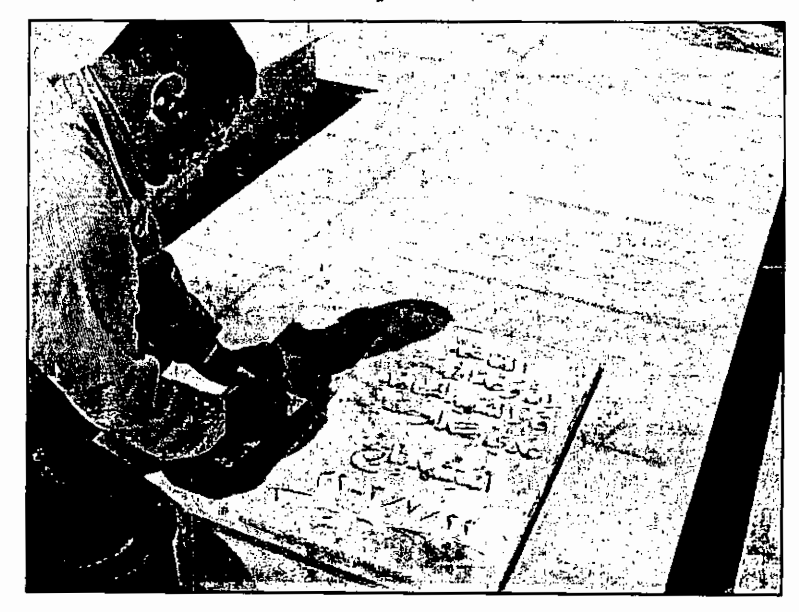
الكاتب أمام قبر طه ياسين رمضان نائب صدام حسين



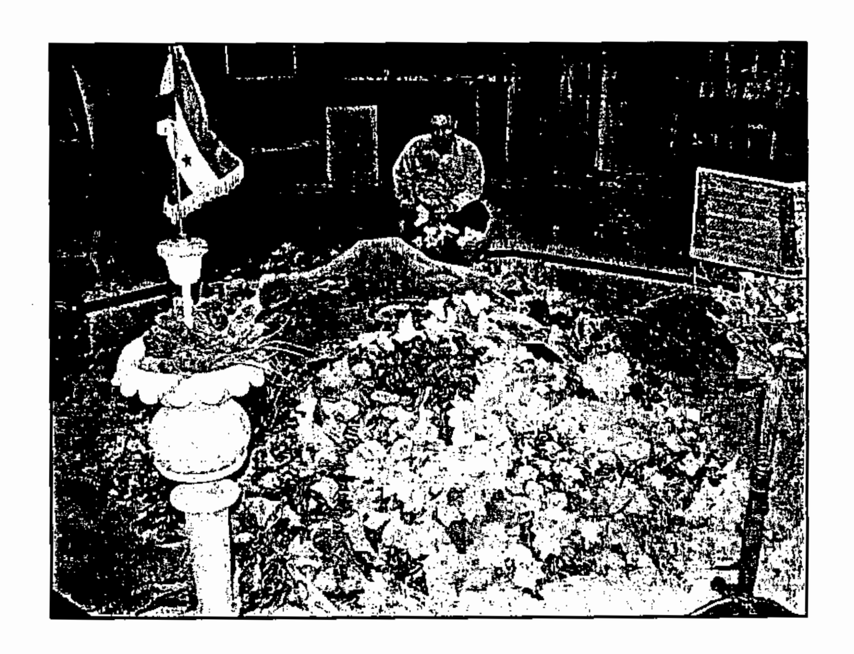
الكاتب أمام قبر مصطفى ابن قصي صدام حسين



الكاتب أمام قبر قصي صدام حسين

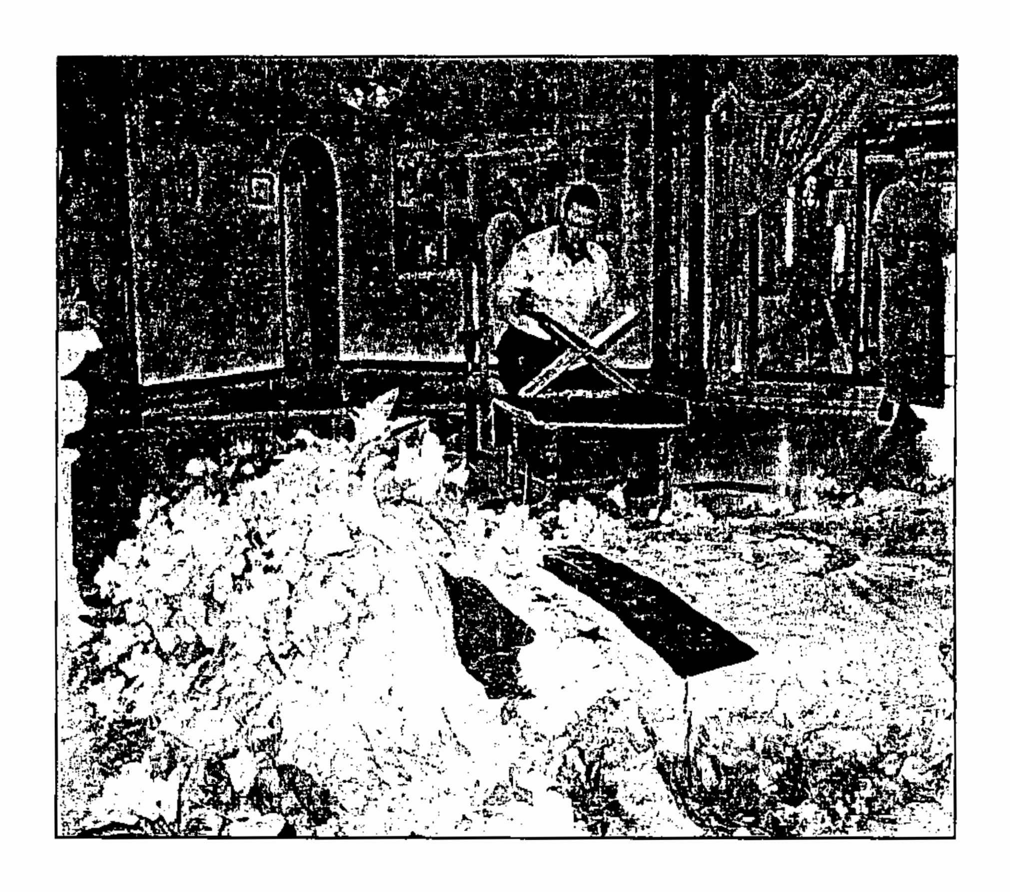


الكاتب أمام قبر عدي صدام حسين



قبر صدام





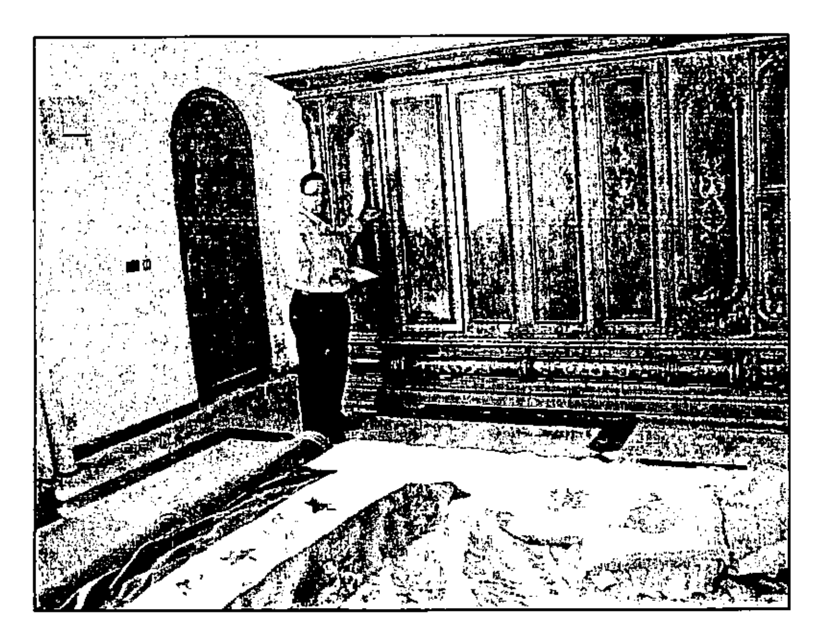
أحد مصاحف صدام حسين كبيرة الحجم الموضوع أمام ضريحه في القاعة التي تضمه



دفتر الزائرين للقبر



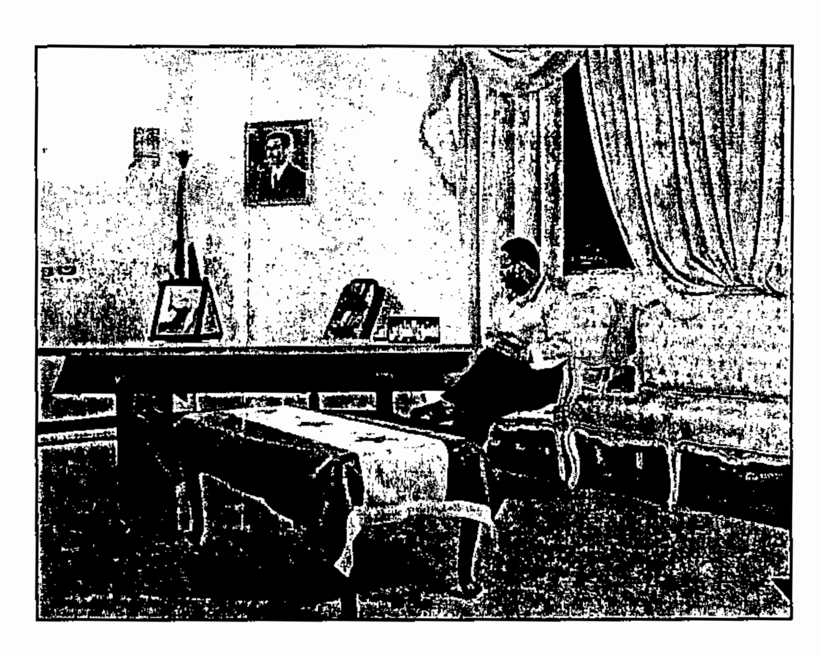
سرير صدام حسين تم جلبه من أحد القصور



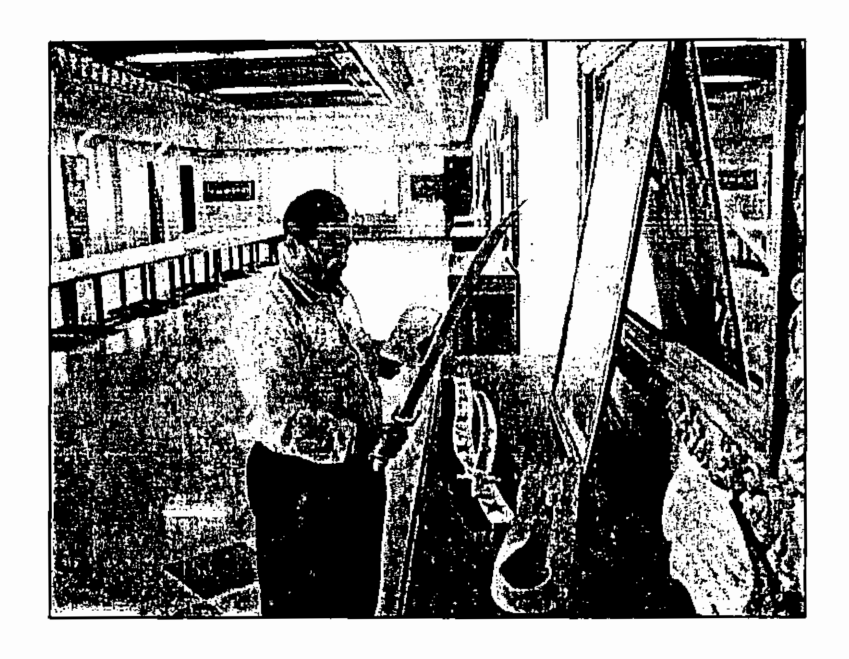
في غرفة نوم صدام حسين



الكاتب على آخر مكتب جلس عليه صدام حسين

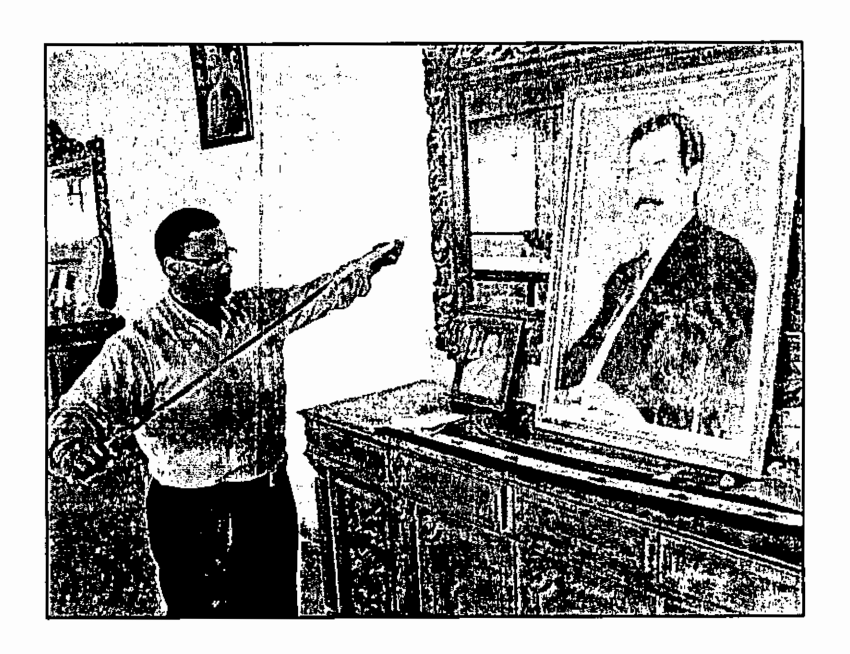


الكاتب في المكان الذي جلس فيه عزت الدوري قبل بداء العمليات العسكرية لاحتلال العراق





الكاتب يحمل سيف ذو الفقار ذو النصلين الذي كان يفضل صدام حسين الظهور به



أحد سيوف صدام حسين الذهبية



الكاتب أمام لوحة كبيرة مكتوب عليها قصيدة للداعية السعودي الشهير الشيخ عائض القرني كتبها لصدام حسين وتتصدر المدخل المؤدي إلى قبره



الكاتب مع أحد مرافقيه في الطريق إلى جزيرة حويجة الجابر التي كانت أهم مقرات ومخزن السلاح الرئيسي لتنظيم القاعدة في أرض النار



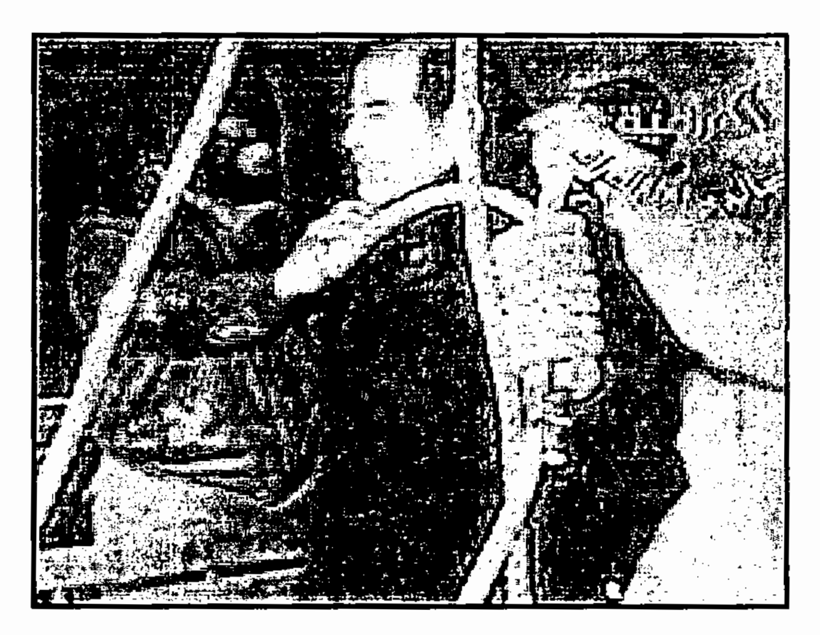
الكاتب مع الحاج محمد الخشالي صاحب مقهى الشابندر الذي تحول اسمه إلى مقهى الشهداء بعد الهجوم البربري الذي تعرض له شارع المتنبي



الكاتب في مقهى الشابندر العريق مع الأستاذ شعلان العود رئيس القسم العربي بوكالة الأنباء الصينية في العراق بشارع المتنبي وسط بغداد



أحد محال الكص (الشاورمه) يحمل اسم أم كلثوم في مدخل شارع المتنبي العريق



إعدام صدام

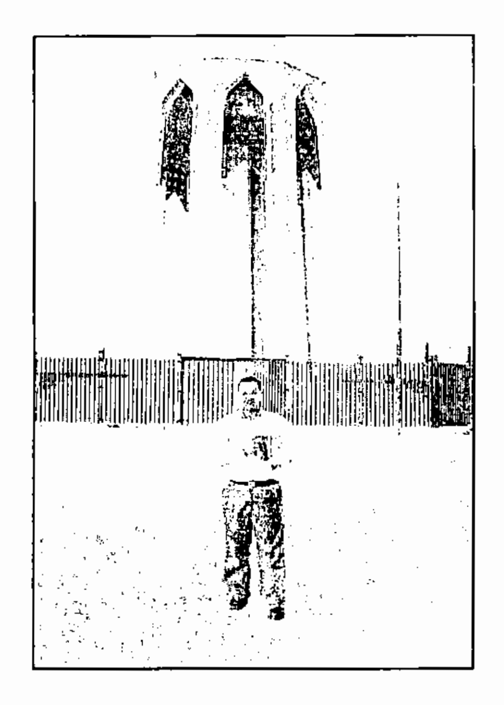


أمام السياج الخارجي لقبر الشاعر المتنبي في مدينة النعمانية وقد كتب عليه حصرًا

(أنا الذي نظر الأعمي إلى شعري وأسمعت كلماتي من به صممُ)



تمثال المتنبي على شاطئ دجلة في بغداد



أمام ضريح المتنبي في مدينة النعمانية

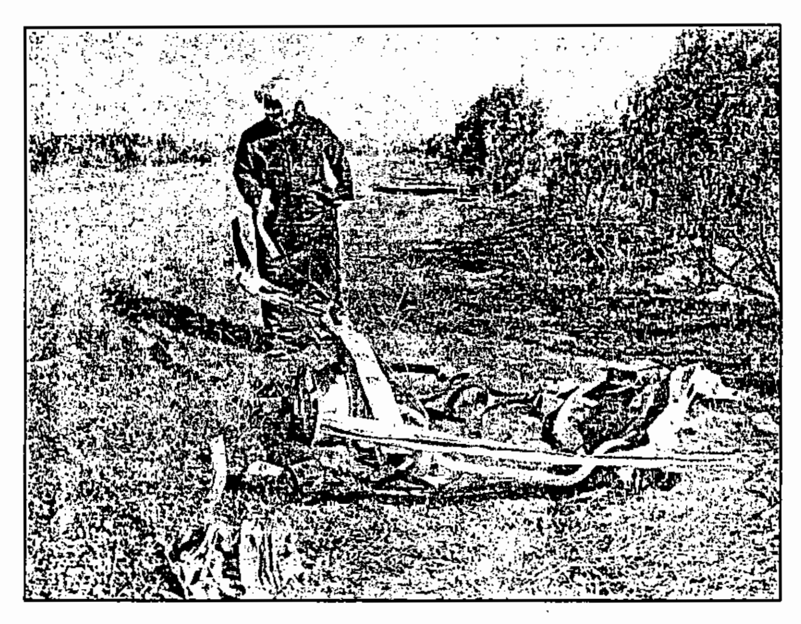


صاحب المضيف كمال أبو آدم يقدم القهوة العربية إلى الكاتب





في أحد مضايف عشيرة الجبور



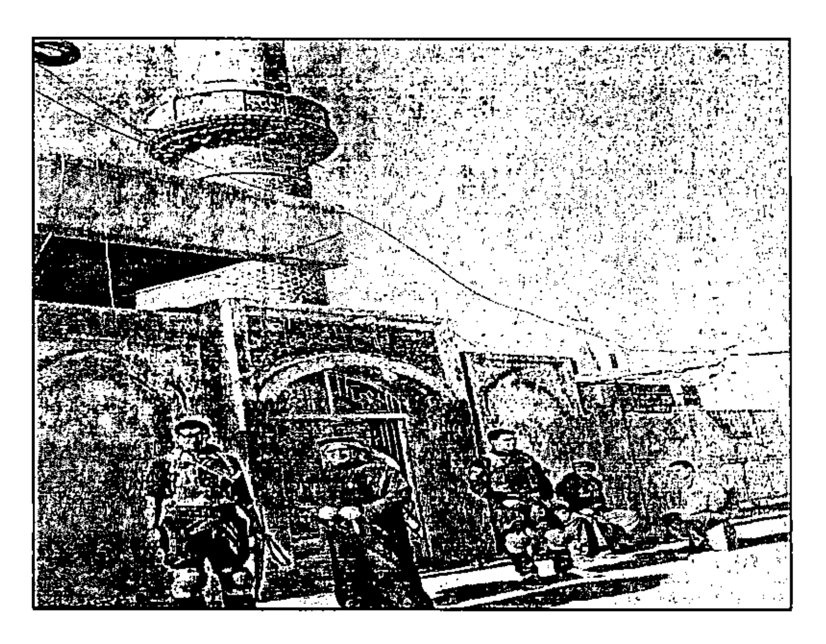
الكاتب أمام ما تبقى من سيارة كان يقودها انتحاري مستهدفًا أحد الأرتال العسكرية



بساتين أرض النار المحترقة من القاعدة والأمريكان

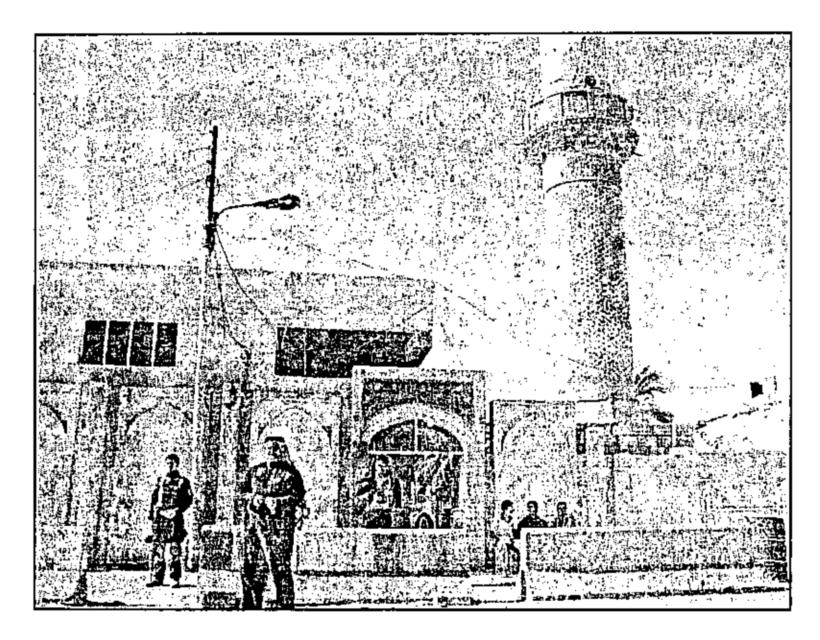


الكاتب أمام بيت الرعب الذي تحول إلى مول الضلوعية بعد طرد تنظيم القاعدة



الكاتب أمام جامع الخلفاء الذي انطلقت منه الدعوة لقتال تنظيم القاعدة

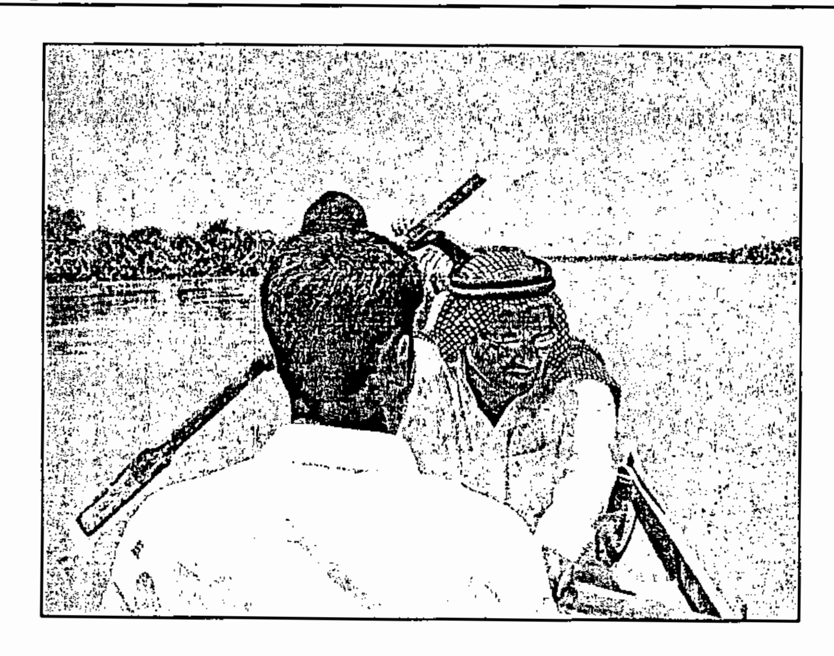
من الملا ناظم الجبوري أحد قادتها السابقين



مع الحراس أمام الجامع

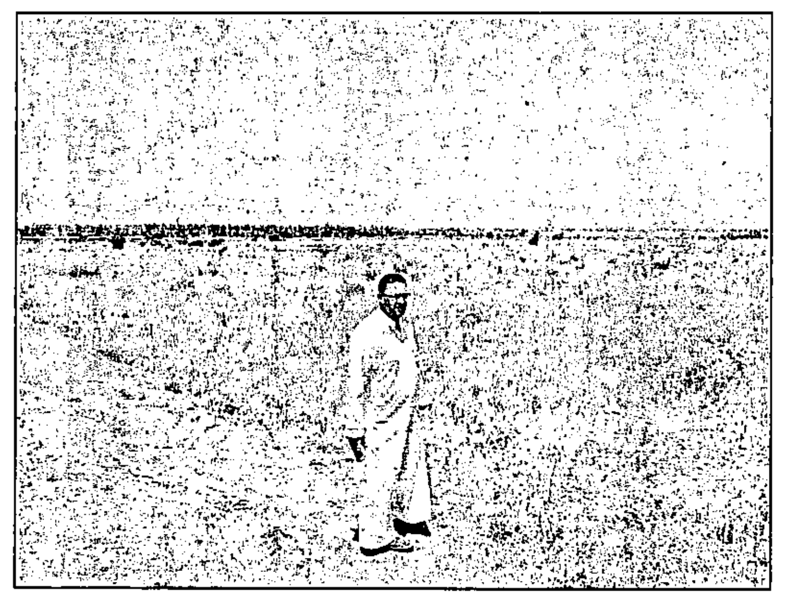


مع أحد شيوخ العشائر

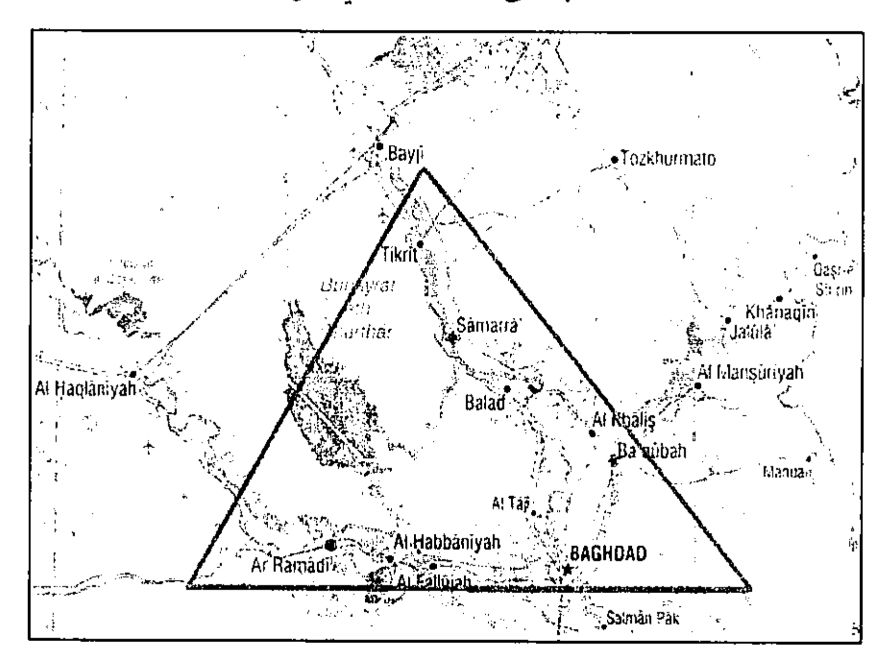




هضيمة تشرح للكاتب ما فعله رصاص الكراهية



الكاتب على مشارف وادي الموت



خارطة المثلث السني كما يصورها من يريد تصنيف العراقيين

التعريف بالمؤلف

- من مواليد مدينة رشيد محافظة البحيرة ١٩٦٨م .

- أنهى دراسته الجامعية بكلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، قسم الصحافة عام ١٩٩٠م .

- عمل مراسلاً لوكالة أنباء الشرق الأوسط لتغطية أحداث الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠١م .

- عمل مراسلاً بالعراق عام ٢٠٠٢-٢٠٠٣م ، ثم مديرًا لمكتب الوكالة في العراق منتصف عام ٢٠٠٦م ، حتى سبتمبر عام ٢٠١٠ .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة